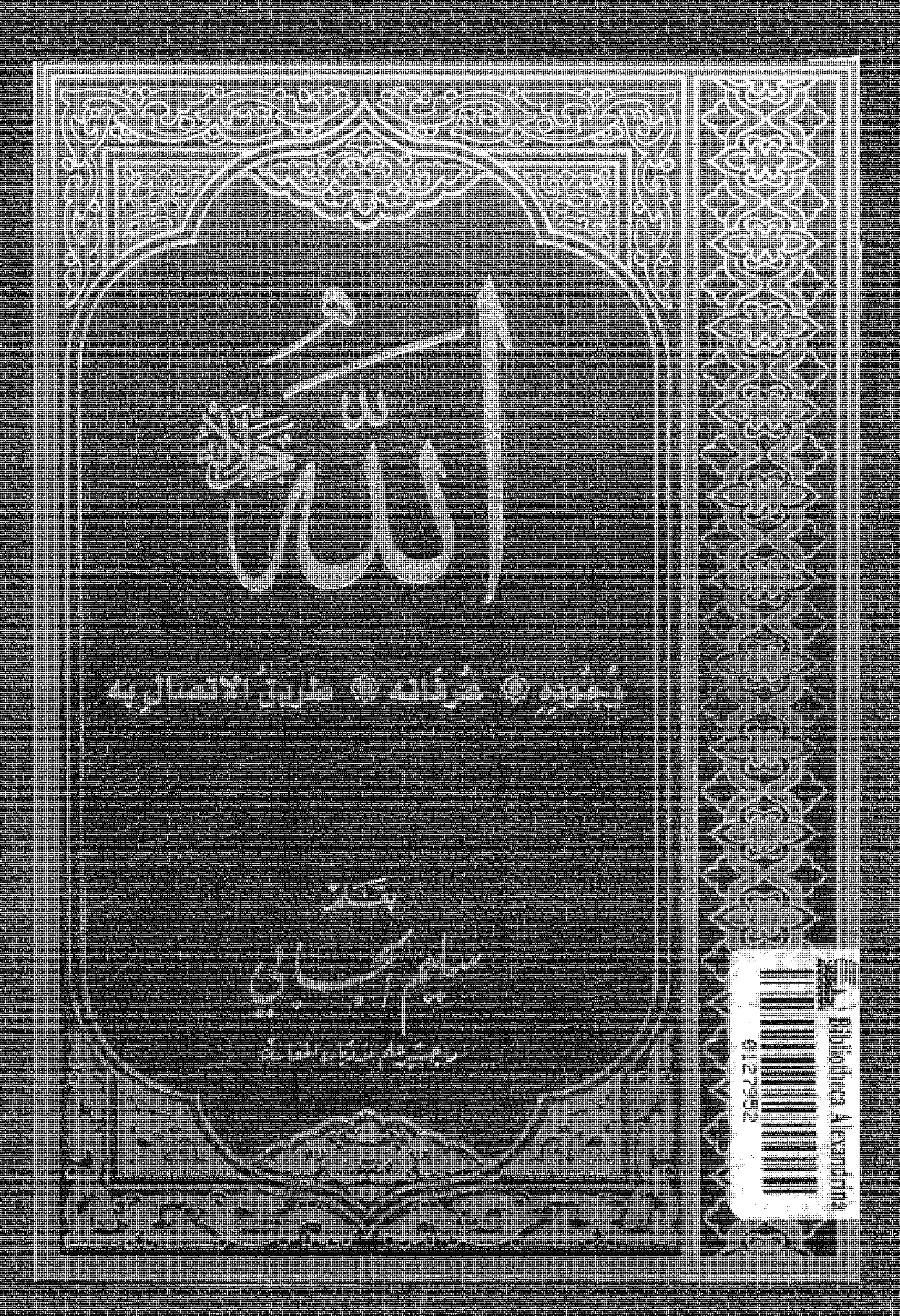


الله
وجوده • هويته • طرق الإقرار به
تأليف
سليم الجابي



جلّ جلاله

وجوده ۞ عُرفانه ۞ طريق الإتصال به

بقلم

سليم الجابي

ماجستير في علم الأديان المقارن



جلّ جلاله

وجوده ۞ عُرفانه ۞ طريق الإتصال به

الطبعة الأولى ١٩٩٨ - عدد النسخ المطبوعة ٢٠٠٠

عنوان المؤلف : دمشق - تلفون : ٧٧٧٤١١٣ - ص.ب : ٥٤٢٥

تصميم الغلاف والتنضيد والإخراج الفني :
النبلاء للخدمات الإعلانية - دمشق - تلفاكس : ٢٢٤٨٠٨٢
الطباعة : مطبعة نضر لفنون الطباعة الحديثة - دمشق - تلفون : ٢٣١٢٣٦٣

▪ صـــــدر للمـؤلــف:

- حقيقة القراءة المعاصرة / مجرد تنجيم (جزء أول)
- حقيقة القراءة المعاصرة / مجرد تنجيم (جزء ثاني)
- حقيقة القراءة المعاصرة / مجرد تنجيم (جزء ثالث)
- نظرية جذور الأخلاق . (مترجم الى الفرنسية ويترجم إلى الإنكليزية)
- النظرية القرآنية حول خلق العالم .
- القضاء والقدر حقيقة كونية ثابتة.
- الرأي في المرأة والحرية والتراث حول حوار د.البوطي و اخياض.
- فن الإختزال في القرآن الكريم .
- هل مات المسيح على الصليب ؟ (مترجم الى البولندية)
- في ظلال دلالات سورة الكهف وبمنظور جديد معاصر.
- في ظلال دلالات سورة الاسراء وبمنظور جديد معاصر.
- الصوم في الإسلام.

▪ يصـــــدر قـريبـــا :

- أصــول تفــسير القــرآن العظيــم
- خلق الإنســان

كلمة إهداء وشكر

أهدي هذا "السفر" الغنيّ بما يُبرز روح الدّين الإسلامي الحنيف، إلى الله خالقي ومالكي وربّ الأرباب والذي له مافي السماوات ومافي الأرض ومابينهما، والذي إليه يرجع الأمر كلّه، والذي إليه المصير.

كما أشكر جميع إخواني وأحبّائي الذّين ساهموا في إنجازه تنضيداً، وطباعةً، وبالتبرّع ماليّاً. وأدعوه جلّ شأنه أن يجزيهم أحسن الجزاء.

المؤلّف

المبحث الأول

مصداقية وجود الله عز وجلّ

الباب الأوّل

المدخل إلى البحث



تمهيد ضروريّ

في لُغتنا العربيّة، كلمة الحياة نقيض كلمة الممات. فالحيّ ضدّ الميّت. وكلمة الحَيَوان مصدرٌ، سُمّي به جنس الحيّ ممّا به حياةٌ وحسّ، كالإنسان والفريس وسواهما من المخلوقات الحيّة، ويُعرّف الكائن الحيوان بأنّه جسمٌ حيٌّ نامٍ حسّاس مُتحرّك بالإرادة أو الغريزة. ويُطلق الحيوان كذلك على ذي الرّوح غيرِ النّاطق، ويُجمع على حيوانات. والنّسبة إليه حَيَوانّي. أما الحيوان بمعنى الحياة، فقد قال صاحب الكليّات : (الحيوان أبلغ من الحياة، لما في بناء وَزن فَعَلان من الحركة والاضطراب اللاّزم للحياة، والحَيَوان في الجنّة، والحياة في الدنيا.) أي أنّ الحَيَوان يعني الحياة التي لايعقُبها موت.

فالحياة إذاً، تعني قوّة مزاجيّة تقتضي الحسّ والحركة. والنسبة إلى الحياة حيويّ. ولذلك نلاحظ أنّ المُنادي إذا كان عربيّاً، ونادى ذا حياة به حسّ وحركة، أراد أن أسرع اليّ، يُناديه أن "هلمّ". وننادي في الأذان "حيّ على الصّلاة"، و "حيّ على الفلاح".

والملاحظ أنّ الإنسان، وإن شابه الفرس من حيث المزاجيّة والحسّ والحركة، فهو يفترق عنه بالفكر والنّطق والإرادة، فالإنسان يتميّز عن سائر مخلوقات الله بهذه المزايا.

دونكم السّبع الذي يسمّونه سيّد الغابة، وهو سيّد الغابة بلا مُنازع. فالملاحظ أنّه كان، ولايزال يتمتّع بهذا اللّقب فلم يؤثّر في منزلته هذه كرّ السّنين، أو تعاقُب الدّهور.

على حين أنّ الإنسان لم تكن له السّيادة على ماحوله من الكائنات في بدء تاريخه، فقد كان يعيش حياةً هي أقرب إلى حياة الحيوانات، بل دون منزلة السّبع، إلا أنّ هذا الإنسان ارتقى وتطوّر، وعاد في عصرنا يُهيمنُ على سيّد الغابة وسائر الكائنات. وعادت له السّيادة على الأنهار وسطوح البحار. وركب

أجواز الفضاء. وعاد يقلّب نظره فيما حوله من عالمنا الفسيح، متسائلاً عن كيفيّة نشأة هذا الكون ومن أنشأه. وعن الكون أهو موجود أزليّاً، أم أنّ له خالقاً أبدعه وأوجده، ومتسائلاً عن وجود الله تعالى نفسه : من هو، وأين هو، وكيف؟

ولابّد أن يلاحظ كلّ فردٍ منّا أنّ جسده قد جُهّز بحواس عديدة، أطلقوا عليها اصطلاح (الحواس الخمس) : السّمع والبصر واللّمس والشمّ والذوق، ولم يُدخلوا العقل ضمن مُصطلحهم المذكور. ذلك أنّهم لاحظوا أنّ العقل يعمل على مستوياتٍ ثلاثة من الزّمن، هي الماضي والحاضر والمستقبل إلى جانب أنه يستقبل معطيات هذه الحواس الخمس التي لاتعمل إلا على مستوىً وصعيدٍ واحدٍ هو الزّمن الحاضر.

والحقيقة، هو أنّ العقل جهازٌ متطوّرٌ في غاية التطور، وهو من ماهيةٍ غير مادية وخالد خلود النفس ولايعمل إلا بعوامل مساعدة ثلاثة تساعده في العمل على تلك الصُّعد، وهذا الأمر شبيه ببقيّة حواس الإنسان، فهي عاجزةٌ عن العمل إلا بمساعدة عوامل مساعدة. فالعين على عظمة تكوينها، فإنّها لاترى إلاّ بمساعدة الضوء. والأذن على عظمة تكوينها، لاتسمع إلاّ إذا توفّر لها الهواء. والأنف بالرغم من عظمة تكوينه، لايشمّ إلاّ بمساعدة الرّوائح، واللّسان على عظمة تكوينه، لايتذوّق إلاّ بمساعدة الأطعمة المختلفة، والجلد بالرّغم من عظمة تكوينه، لايشعر باللّمس إلاّ إذا صادف شيئاً مادّياً، على هذه الشاكلة، فإنّ العقل على عظمة تكوينه، لايعمل على صعيد الزّمن الماضي إلا بمساعدة اللُّقى القديمة والآثار والمخطوطات والمستحاثات، ولايعمل على صعيد الزمن الحاضر إلاّ بمساعدة ملاحظة الإنسان لما يراه من الأشياء، وبإجراء التجارب على هذه الأشياء، والقيام بعمليّات استنتاج واستخلاص للمعلومات وبدون الاستعانة بهذه العوامل المساعدة يعسر على العقل اتخاذ قرارات صحيحة.

ولايعمل هذا العقل على صعيد الزمن المستقبل، فيما يتعلّق بأمور الغيب وماوراء هذا الكون، إلا بمساعدة وحي السّماء، أي بمساعدة وحي وكلام الخالق نفسه، الذي كلّم ويكلّم به عباده، وإنّه لولا تلقّي الإنسان هذا الوحي الإلهي، ماكان للبشر أن يعلموا عن خالقهم شيئاً، ولاأن يعلموا عن عالم مابعد الموت أمراً يقينيّاً أبداً.

فالعقل والحال هذه، حاسّةٌ سادسةٌ، لكنّها أكثر تطوُّراً من بقية حواس الإنسان. يؤكّد هذا دلالته اللغوية أيضاً. تقول العرب : عَقَلَ الدّواء بمعنى أمسكه. وعقل الدّابة بمعنى ربطها. وعقل الغلامُ بمعنى أدرك وأصبح عاقلاً مُدركاً. وعقل فلانٌ بعد الصّبا : عرف الخطأ الذي كان عليه قبل صباه. وعقل الأمر تدبّره وفهمه. وهذه دلالاتٌ على شاكلة ماأعطى العرب الحواس من دلالات. وعليه فما العقل إلاّ حاسّة سادسة، لكنّها أكثر تطوراً من بقيّة حواس الجسم، وأعظم تقنيّة وتستعين بمعطيات الحواس الخمس. فهو أشبه مايكون بالحاسوب أي الكمبيوتر في عصرنا، وإن جاء الفارق مابين العقل والحاسوب كبيراً جدّاً، يكاد لايُقاس.

المهّم من جميع ماذكرته هو أنّ الإنسان، وإنّ شابه السَّبع وغيره من الحيوانات، من حيث مزاجيّته وحسّه وحركته، إلاّ أنّ هذا الإنسان امتاز عنها بهذه الحاسة السادسة المتطوّرة ذات التقّنية الخارقة، التي أطلق العرب عليها اسم العقل[1] .

❁❁❁

[1] ـ سيأتي الكلام عن العقل مفصلاً وعلمياً فيما بعد

الفصل الأول

١- منزلة العقل والفكر

والخالق إذ جهّز جسم الإنسان بجهاز العقل، الذي تَميّز به هذا الإنسان على سائر مخلوقات الله عز وجلّ. لم يشرّفه به عبثاً، ودون حكمةٍ بالغة. وأقلّ مايُقال هو أنه تعالى ميّز الإنسان بهذا العقل لينقله نقلَة تطوّرٍ، لم تتأتّ لمخلوقٍ آخر سواه في هذا الكون. /

ذلك أن الإنسان يأكل ويشرب كما تأكل بقيّة المخلوقات وتشرب، والإنسان ينجب أطفالاً، وسائر المخلوقات تلد، والإنسان يسعى لتحصيل رزقه، كذلك تفعل بقيّة مخلوقات الله تعالى، فمن هذه الظواهر يتجلّى لنا أنّ الله لم يشرّف الإنسان بجهاز العقل بقصد أن يستعمله لتحصيل رزقه وضمان نسله، فهذه أمور غريزيّة تتحصّل للإنسان بالسّعي وتتحقّق للإنسان غريزياً، على شاكلة ماتتحقّق للحيوان غير العاقل، بدليل أن من فقد عقله وأصبح مجنوناً، نلاحظه يسعى إلى غذائه وتحقّق نسله أيضاً وبصورة غريزية. وهذا الأمر يدعونا إلى أن نجزم بالضرورة، بأنّ هبة العقل، قد قُصد بها أن تكون أداةً للإنسان يعي به ماحوله، ويتعرّف به خالقه.

والمُلاحظ أيضاً، هو أنّ البشر لم يختلفوا فيما بينهم في أمرٍ ماديّ وعوه من الأشياء من حولهم، فما اختلف الناس يوماً في أنّ الماء يُطفيء العطش مثلاً، هذا وإنّ سرّ إجماعهم هذا، هو في تكوين الأشياء من حولهم، تكويناً ماديّاً، مكّنتهم من هذا التوحّد في الإدراك والوعي المادي للأشياء من حولهم فتوحّدت إدراكات البشر جميعاً.

أما الأمر الذي لايزال النّاس فيه في غُمّةٍ واختلافٍ وتباينٍ في الآراء والمعتقدات، فهو موضوع وجود الذّات الالهية المقدسة والذي خصّصت كتابي هذا من أجله، من أجل التّعريف بهذه الذّات التي لاتُرى ولاتُنظر ولاتُسمع ولاتُشمُّ ولاتُلمس، التّعريف بهذا الخالق الذي بادر من جانبه لإعلامنا بوجوده،

منذ أن اكتمل وعي الإنسان لما حوله من أشياء، وأضحى مُؤهّلاً للتّعرف على خالقه ومعبوده، وقد حمل إلينا مُبادرته جلّ شأنه ودعوته هذه إيّانا للتّعرف عليه والتقرّب إليه، أنبياء الله ورسله، بما أوحي إليهم من شرائع ومـاأطلعهم عليه من حقائق وأسماء وصفات اتّصفت بها ذاته عز وجل.

أما كيف أوحى الله تعالى إلى الذين اصطفاهم من عباده، وكيف كلّمهم، هذا الأمر سيأتي بيانه في موضعه من هذا الكتاب.

وقصارى القول، هو أن العقل هو أداة الفكر الذي شرّف الله الإنسان به من أجل أن يساعد للتعرّف على خالقه فلا يبذل قصارى فكره، في تحصيل مأكله ومشربه وملبسه واشباع ميوله وشهواته، بل يبذل قُصارى فكره في التفكير في خفايا هذا الكون ومعرفة قوانينه، والتعرّف إلى خالقه والتقرُّب إليه، وإلاّ يكون كمن استعمل أداةً من الأدوات في غير ماصُنعت له، فهو كمن يتّخذ من الصّحن الذي صنع للطعام، أداةً يقاتل فيها ويثير الشّجار، على سبيل المثال.

من هنا ندرك أنّ من واجب كل إنسان تخصيص وقتٍ للتفكير في آيات الإبداع من حوله، وتدبّر مابلغه من وحي ربّه. وإلاّ فهو يُغمط هبة العقل والفكر حقّها ويظلم بذلك نفسه، لأن صلاتنا وصيامنا قد شُرّعا لمساعدتنا أصلاً لدفعنا على طريق التفكّر، وهما أداتان تساعداننا على التعرُّف إلى خالقنا والاتّصال به واكتساب رضاه.

ثم إنّ التّفكر فيما وراء المادة، يستلزم ضرب الأمثال ممّا هو كائن في عالمنا المادّي، ولهذا ورد في البيان الإلهي قوله تعالىٰ في سورة ابراهيم ، الآية (٢٥) : ﴿..**ويضرب الله الأمثال للنّاس لعلّهم يتذكّرون.**﴾. وورد قوله تعالى في سورة العنكبوت ، الآية (٤٢) ﴿**وتلك الأمثال نضربها للناس، ومايعقِلُها إلاّ العالمون**﴾.

علىحين أنّ التفكُّر في الذات الإلهية المقدسة نفسها، لايُجدي فيه ضرب الأمثال المادية، ومن أجل بيان هذه الحقيقة ورد قوله تعالى في سورة الشّورى ، الآية (١٠) : ﴿ **ليس كمثله شيء، وهو السّميع البصير.**﴾. أي أنّ حقيقة ذات الله الخالقة، خافية على الإنسان المخلوق، وإن كان لهذه الذّات من الصّفات مايشابه صفات الإنسان في الظاهر، كالسمع والبصر. فإنّ الفارق بين

صفات الذات الالهية وصفات الإنسان، ممّا لايُقاسُ بمعاييرنا الماديّة، ذلـك أنّ ذات الله ليس كمثلها شيءٌ ماديّ.

وعليه فإن بحث مؤلّفي هذا، وإن كان يتعلق بوجود الله تعالى، صاحب الذّات التي ليس كمثلها شيء. إلاّ أنني سأكون مضطّراً أحياناً، للاستعانة بضرب الأمثال الماديّة، لأبرهن من خلال ذلك على ما لله من صفاتٍ وعلمٍ وقُدرات.

ومادام التفكّر في حقائق المادة والكون ووجود الخالق، وهو أسمى مايفعله الإنسان العاقل الذي أنعم عليه ربّه بنعمة عقله وتفكيره، يستلزم ذلك منّا مراجعه دلالات كلمة (فكر) في معاجم اللغويين.

قال صاحب معجم محيط المحيط : فكر في الشيء، معناه أعمل النّظر فيه وتأمّله، والاسم الفكر، ويجمع على أفكار، وقال في الكلّيات : الفكر حركة النّفس نحو المبادىء، والرجوع عنها إلى المطالب والنظر هو ملاحظة المعلومات الواقعة في ضمن تلك الحركة. والفِكير، هو كثير التّفكير.

وبمعاني الفكر هذه نزل قول الله تعالى في سورة البقرة (٢١٩) : ﴿**كذلك يُبيّن الله لكم الآيات لعلّكم تتفكّرون.**﴾. وقال في سورة آل عمران (١٩١) : ﴿**الذّين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكّرون في خلق السّماوات والأرض..**﴾. وقال في سورة الأعراف (١٧٦) : ﴿ **فاقصُص القصَصَ لعلّهم يتفكّرون.**﴾. وقال في سورة الحشر (٢١) : ﴿**وتلك الأمثال نضربها للنّاس لعلّهم يتفكرون.**﴾. وهذه الآيات جميعها تشعرنا بما للفكر في نظر الخالق من شأنٍ في طلب الحقيقة وابتغاء الهداية والإيمان، ومن ثمّ كان لابدّ لُمطالع كتابي هذا، من إعمال فكره ماوسعه ذلك، لأني، إنّما أخاطب فيما أكتبه الفكر قبل كلّ شيء، وأنّ ماأطرحه في هذا الكتاب، هو مجرّد أفكار تستدعي من قارئها، تقليب نظره فيها، والعمل على وعيها وإدراك أبعادها، وإنّما يستجيب الذين يستمعون، وموتى النّفوس يبعثهم الله عز وجلّ.

فموضوع كتابي هذا يدور إذن حول الذات الالهية المقدسة وماتتّصف به من صفات، والتي قالوا عنها وبمصطلحنا اللّغوي أنّها ذات غير محدودة بحدود، قالوا ذلك بمقاييس عقولنا، وفي حدود تصوّراتنا، ومهما قالوا، فلا يغيّر هذا من الحقيقة شيئاً فالحقيقة أنّ الذات الإلهية مستقلّةٌ عنا بوجودها على كل حال. وقد

أشكل هذا الأمر على كثير ممّن قالوا مقولتهم هذه، خصوصاً وأنّهم قرؤوا في كتاب الله القرآن الكريم قوله تعالى في سورة (ق) ١٦ : ﴿**ونحن أقرب إليه من حبل الوريد.**﴾. فذهب ذهن بعضهم إلى عقيدة وحدة الوجود، على حين أننا نجده تعالى يقول في سورة المعارج (٤) : ﴿**تعرُج الملائكة والروّح إليه في يومٍ كان مقداره خمسين ألف سنة**﴾.

والعروج هو الارتقاء، فلو صحّت نظريّة وحدة الوجود، ماكان للملائكة من حاجة إلى العروج، ثم إنّ الله عز وجلّ قال في سورة الزّمر (٦٧) : ﴿**والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة..**﴾، ولايكون في قبضة القابض، إلاّ ماهو مستقلٌّ عنه وخارج كيانه.

ولسائلٍ أن يسأل : من أين استقيت معلوماتك حول الذّات الإلهية المقدّسة؟ وأسارعُ لأجيب السائل وأقول : استقيت معلومات كتابي هذا من مصدرين اثنين : الأوّل ممّا تضّمنه وحي الله القرآني. والمصدر الثاني هو حصيلة عِرفاني للذّات الإلهية وتعاملي معها، أي من حصيلة ماتحقّق لي من صلاتٍ مع خالقي. هذا الخالق القريب على بُعده، والبعيد على قُربه، من خلال محبتي المتولده لذاته عز وجلّ، وانقيادي في طاعته، واستعانتي بقدراته، وتوكّلي عليه جل شأنه. وليس هذا السّبيل في التّعامل مع الذات الإلهية المقدسة بأمر مُغاير لما انطوى عليه القرآن الكريم من علوم وتعاليم. بل هو سبيلٌ من السُّبل الرّئيسيّة المسلوكة للرّاغبين.

وسيلاحظ قارىء هذا المؤلّف، أيّاً كان، أنّني، وإن استقيت أكثر معلوماته من القرآن الكريم نفسه، فإنيّ لم أنهج فيما استقيته من معلومات، نهج المقلّدين لمن سبق من العلماء. بل اتّخذت نهجاً مختلفاً، ذلك أنّي أعمل الفكر في فهم آي الذكر الحكيم، مُستعيناً بقواعد لُغة الضّاد، وبأصول تفسير القرآن، وبما استجدّ على السّاحة من علوم، وقد بذلت جهدي، وعلى نسق أسلوب القرآن الكريم نفسه، ألاّ آتي برأيٍ حتى أسنده إلى دليل وأبنيه على برهانٍ يستسيغه أهل عصرنا، خلافاً لفئةٍ ممّن سبق من المجتهدين.

والمعلوم أنّ عصرنا هذا، هو عصر العقلانيّة والعلم، بعيداً عن الخرافات والأساطير. فلا يتقبّل عاقلٌ معاصر مالا يستسيغه عقله، ولامايُخالف ماتدارسه من علوم، فلا يفاجىء مطالع كتابي هذا إن أكدّت له أنّي استقيت معلوماتي

من كتاب الله العزيز. وليتوجّه بكلّيته متفحّصاً مايحمله كل طرحٍ قرآنّيٍ استشهد به، من أدلّةٍ وبراهين.

٢ ـ اسم الذّات الالهية الأعظم :

ومادامت أبحاث الكتاب ستدور حول الذات الإلهية المقدسّة، فلابدّ للمرء أن يتساءل في حديث نفسه : وهل لهذه الذّات الخالقة إسمٌ أعظم تمتاز به عن سائر الأسماء؟

والجواب هو أن وحي القرآن الكريم قد أتى لنا بالاسم الأعظم للذات الإلهية المقدّسة، وهو لفظ الجلالة (الله)، والذي يطالع معاجم اللغويّين العرب، يُدرك أنّ لفظ الجلالة (الله)، هو اسمٌ امتازت باستعماله لغة الضّاد. وهو على القول المُعوّل عليه، اسمٌ غير مشتق، ويحمل في جنباته جميع ماأتى به القرآن الكريم من أسماء الله الحسنى، ودلالاتها على الذات الإلهية المقدّسة، موضوع هذا الكتاب.



الفصل الثاني
١ ـ قِدَم الوحي والتّوحيد

وقد سبق لي أن قلت، إن الله الخالق هو الذي بادر إلى اصطفاء بعض عبيده، وكلّمهم، وأوحي إليهم بما أتوا للبشر من شرائع وتعاليم، وعلى هذا فقد وجب عليّ أن أعرض هذا الطّرح الفكري مؤيّداً بالأدلّة والبراهين المقبولة عقلاً ومنطقاً وعلماً.

وقد بات معلوماً، من خلال كتابات أصحاب نهج التفكير المادّي في القرنين الأخيرين، أنّهم زعموا أنّ فكرة وجود الله لم تنشأ عند الإنسان عن طريق مبادرة الوحي السّماوي، بل نشأت هذه الفكرة تدريجيّاً لديه.

فالبشر الأوائل في زعمهم، ركعوا أمام ماأخافهم منذ بدء تاريخهم، كما يركع الطّفل حين يواجه مايخيفه. وترسّخت على مرّ الأيام وكرّ السنين فكرة الخوف من بعض ظواهر الطبيعة، وانقلبت هذه إلى فكرة تأليه لهذه الظواهر الطبيعية، ومن ثم كانت هذه الفكرة ترتقي وتتطور في أذهان الناس كلما ازدادوا علماً، فاستبدلت هذه الفكرة بالاعتقاد بوجود ذوات إلهيّة سامية، اتّخذت لنفسها مظاهر تجلّت في أشياء كثيرة.

ثم أتى طورٌ، على زعمهم، تنزّهت فيه هذه الذّوات الإلهيّة المُختلفة فكرياً في نظر أصحابها، عن مظاهرها المادية، فانتهت البشرية إلى وحدانية الله في الذّات والصّفات، وهكذا تكّونت فكرة الله ووجوده عند الإنسان على هذه الصورة، ولم تتأتّ فكرة وجود الله عن وحي الخالق نفسه كما يزعم المؤمنون بوجوده.

هذه هي خلاصة نظريّة أصحاب الفكر المادّي، ويمكن أن نركن إلى القوا أنّها ارتكزت إلى عُنصرين أساسيين :

أوّلهما : أنّ الخوف شكّل الأساس الأول لنشوء تصّورٍ عن وجود الله عز وجل.

ثانيهما : أنّ هذا التّصور قد تكامل بالتّدريج.

٢ ـ مناقشة النّظرية المادية منطقيّاً وتاريخيّاً

ونحن إذا افترضنا صحّة هذين العُنصرين، وجب علينا البحث عن أوّل شيء أخاف الإنسان، فدفعه إلى عبادته، ويبدو ببساطة أنّه الحيوان الذي كان يُعايش الإنسان في فجر تاريخه، فهو الوجود الذي أخاف الإنسان منطقياً، على اعتبار أنّ الإنسان لم يكن يملك من وسائل الدّفاع عن نفسه، مايحميه، مما اضطرّه إلى اتّخاذ مسكنٍ يلوذ به من هجمات الوحوش التي كانت مصدر خوفه قبل أن يتحضّر. فالوحوش الكاسرة كانت أخطر ماواجهه الإنسان في بدايات حياته البدائية الأولى.

وإننا إذا تفحّصنا ماكشفت عنه آثار تلك الفترة الزمنيّة من حياة البشرية، فلانجد أن الإنسان ألّه أو عبد الوحوش المفترسة إلا ماندر. بل كانت تغلب عليه عبادة الأفاعي، ولم تكن لعبادة الأسود والذئاب من مكان يُذكر في حياته.

فلو صحّ كلام هؤلاء المفكّرين، أصحاب النهج المادّي، لكان الإنسان الأول قد عَبَد السّباع والذّئاب، فالغضنفر هو أكثر إخافةً للإنسان من الأفعى، على اعتبار أنّه يهاجم فريسته جهاراً ومواجهةً.. بينما تتخفّى الأفعى، متربّصةً لاغتيال فريستها، ثم إنّ للسّبع زئيراً مُرعباً، يوهن الأعصابَ، سماعه. وليس للأفعى إلاّ الفحيح. وجُثّة الغضنفر، مُخيفةٌ ويهلع الإنسان لرؤيتها، وتخور قواه.

ولاتملك الأفاعي أجساماً مخيفةً على شاكلته. وقيسوا على ذلك بقيّة الوحوش، نسبة إلى الأفاعي، كالذّئاب والدِّببة وسواها، فهي باعث للإنسان على الجزع والخوف أكثر من الأفاعي.

هذا ولم نعثر في لُقى وآثار الإنسان القديم مايدلّ على أنّ ذاك الإنسان كان يعبد السّباع والذّئاب، بل لاحظنا غلبة عبادته للأفاعي، وهذه المعلومات تُسقط في نظري عنصر الخوف الذي أقام الماديّون عليه حُجّتهم حين زعموا نشوء فكرة وجود الله بالتّدريج.

وإذا عُدنا إلى التـاريخ، وجدنـا قدمـاء المصريّين أكثر الشعوب عبـادة للحيوان، وكانت الكثرة منهم تعتقد أنّ روح إله الخير المسمَّى (أوزيس) توجد في عجل يسّمونه (ألبيس)، لذلك كان العجل من أشهر معبوداتهم. وقد عبدوا لذلك (الثور الأسود)، معتقدين أنّه صورة (أوزريس).

وإذا كان بعضهم قد عبـدَ الأسد والذئب، فإنّ ثمّة من عَبَد الكلب والقطّ والماعز والكبش والضأن، وكانوا يحنّطون مايموت منها، فأين عامل الخوف في عبادة المصريّين لهذه الحيوانات؟

وعنصر الخوف هذا قد يؤخذ به مُنطلقاً لهذه النظّرية، لوكان الإنسان قد خُلق على الأرض خلقاً جديداً، وفوجيء بما حوله من المخلوقات، خلافاً لنظريّة النّشوء والإرتقاء، ذلك أنّ ظهوره فجأة بين الوحوش، سيخيفه ولاشك، إنّما كان على هؤلاء الماديّين، إذا صحّ هذا الأمر لديهم، أن يؤمنوا بوجود ا لله الذي خلق الإنسان خلقاً جديداً، لاعلاقة له بنظريتهم في النّشوء والارتقاء، والتي أتى بها (دارون) وزعم فيها إنّ الإنسان كان قرداً وتطوّر وأصبح إنساناً. فإذا صحّ زعم دارون هذا، فكيف يخاف الإنسان ماحوله من حيوانات، إذا سبق له أن عايش هذه الحيوانات الكاسرة في مرحلة حياته التي سبقتْ صيرورته إنساناً؟ فلو صحّ أن البشر ثمرة تطوّر عن قرد ماكانت السّباع والذئاب والأفاعي، ولا الشمس والقمر والكواكب بأشياء جديدة طارئة على حياته. ذلك على اعتبار أنّه سبق أن رآها وعايشها قبل ذلك، إن صحّ ماأتت به نظريّة دارون من أمور. بل لابد أن القرد كان قد قاتل الأفاعي وسواها أيضاً.

وكيف بإمكاننا التّسليم أنّ هذا الإنسان، قد سيطر عليه الخوف من هذه الحيوانات، بعد ترقّيه وبلوغه مرحلة إنسانيتّه ونُضجه، فأصبح يخشى جميع ماحوله من الأشياء، فركع بين يديها يؤلّهها ويعبدُها؟ وبهذا التحليل الذي أوردناه، نصل إلى القول ببُطلان نظريّة أصحاب الرأي المادّي التي أوردناها.

ثم إنّ الدّليل الأبلغ والأقوى على خَطَلِ نظرية هؤلاء، وهو الأمر الذي يبطلُ معه العُنصر الثاني لنظرية الماديّين، من أنّ تصوّر وجود ا لله تعالى قد تكامل لدى البشر بالتدريج، هو هذا الدّليل الذي يتبلور في أذهاننا، من خلال استقرائنا لتاريخ مُختلف شعوب الكوكب الأرضي.

فالمُلاحظ هو أنّ اللُّقى والآثار القديمة، بل الغارقة في القدم، والمتعلّقة بمختلف شعوب القارّات الخمس. يلاحظ الباحث والدّارس لها، أنّها لاتؤيّد تدرُّج عقيدة وحدانية الله عز وجلّ. بل إنه ثبت من خلال مااحتوته تلك اللُّقى والآثار القديمة أنه كان بين سُكّان مختلف القارات من كانوا يؤمنون بوجود إله واحد خالقٍ لهذا الكون. وأنّه محيط بهذا الكون أيضاً، وذلك منذ فجر تاريخ هذا الإنسان. بل وكان ثمّة شعوبٌ عريقةٌ في القدم قالت بالوحي السّماوي، واعتقدت أنّ الإله السّماوي كان يوحي لأفراد اصطفاهم من بينهم.

نتناول قبائل قارّة أفريقيا العريقة في القِدم، فمن قبائلهم الشّهيرة، قبيلة (الزّولو Zulu) مثلاً، وهي تعدُّ من القبائل المتوحّشة. وقد كشفت آثار منطقتهم، أنّ أقدم أجدادهم كانوا يعتقدون بوجود إلهٍ غير مرئي، وهو أبٌ لجميع البشر، وكانوا يسمُّونه (أنكو لنكو Inkulunkils)، وهو الذي أوحى إليهم بكونه تعالى موجوداً، وغير مرئي أيضاً.

ونتناول قبائل قارة أستراليا. هذه القبائل التي لبثت مُنعزلة عن العالم، إلى أن اكتُشفت قارّتهم منذ قرون ليست بعيدة.

هذه القبائل الأستراليةّ قد تبيّن بعد اكتشاف قارّتهم، أنها كانت على درجة كبيرة من التّوحش والاقتتال فيما بين أبنائها، حتى كادت تنقرض قبائلها بسبب هذا الإقتتال.

فمن هذه القبائل، قبيلة (أرنتا Arinta). وقد تبيّن من آثارها القديمة أنّ الأقدمين كانوا يعتقدون بوجود إلهٍ يقطن السّماء، وأنّه إلهٌ واحد لاشريك له، وكانوا يسمّونه (ألتجيرا : Altjira) وأنّه كان يتّصف بالحلم، حتى كاد لايُعاقب أحداً من عباده. من كثرة حلمه وقد كانوا لذلك لايرون ضرورة لعبادته، وكانوا يعتقدون أنّه الإله الذي أوحى إلى أقدم أجدادهم.

وهذه قبائل القارة الآسيوية قديماً. فقد تبيّن من آثارها أنّ القُدامى قد اعتقدوا بوجود إله لاتحدّه حدود، وهو عالم الغيب، قادر على كلّ شيء. وكانوا يسمّونه (درونا Drona) فإذا كان ثمّة شخصٌ ماشٍ أو مُختفٍ أو مضطجع أو قائم، أو كان ثمة شخصان يتسارّان، علم الإله مايُسرّه كلٌّ منهما، لأنّه يكون ثالثهم. وهو مالك الأرض والسّماء بفضائها الواسع، وأنّه إذا حاول إنسانٌ تجاوز هذا الكون، فلا يستطيع تجاوز مملكة الإله (درونا) وحدودها.

وفي تاريخ البابليّن، في جوارنا، أنّ أحد ملوكهم كان يدعو دُعاءً يكشف عن اعتقاده بوحدانيّة الله عز وجلّ. وهذه الفاظ دعائه : (أيّها الملك الأبديّ، مالك جميع المخلوقات، أنت خالقي. أدعوك برحمتك أيّها الملك ياسيّدي ياأرحم الرّاحمين. برحمةِ ومرَحمةِ جميع مملكتك الواسعة، أكتبْ محبّة عبادتك في فؤادي، وقيّض لي كلّ ماتراه خيراً، لأنّك أنت الذي صنعت حياتي على هذه الشاكلة.).

أعظم به من دُعاء، ومأأشبه هذا الدّعاء بدعاء المؤمنين الموحّدين، فكأنه يريد أن يقول : قد أطلب شيئاً فيكون شرّاً عليّ، لذلك هب لي أنت ماتراه خيراً لي.

وهذه قارة أمريكة. فمن المعلوم أنّ شعب المكسيك فيها من أقدم شعوبها. بل تبيّن من خلال الدراسات التاريخية أنّ شعب المكسيك، يُعتبر من أقدم شعوب الكرة الأرضية، وعقائد المكسيكيين متوارثة جيلاً بعد جيل. وقد ثبت أنّهم كانوا، منذ القدم، يعتقدون بوجود الله ووحدانيّته، فقد عبدوا إلهاً أطلقوا عليه اسم : (آوونا وِلونا Awona Wilona) وأنّه خالق كلّ شيء في هذا الوجود، ومحيط بهذا الكون وأبو جميع الآباء، وكان هذا الإله، وحيداً، فتخيّل، وتولّد من تخيلّه قوة، أخذت تنمو رويداً رويداً، وإذا بها تكُوّن هذا الفضاء الفسيح، ولايلبث أن يتجلّى هذا الإله بنوره على هذا الفضاء، ثم لايلبث هذا الفضاء أن يتقلّص، فتتكّون منه الشمس والقمر والنجوم.

والآن لنمعن النّظر في هذه الأفكار التي كانت لأقدم المكسيكيّين فيما يتعلّق بوجود الله ووحدانيته، أفلا تشبه أحدث تصّورات إنسان عصرنا حول ذات الله عز وجل : مسيحياً كان أم مسلماً، مع فارقٍ لايُذكر. وهي أقرب ماتكون إلى أفكار أصحاب نظريّة الانفجار العظيم؟

إنّ هذه الشهادات جميعها، تُجمع على قِدَم عقيدة توحيد الله، وقدم عقيدة الوحي الإلهي. وهي تنقض بذلك نظرية أصحاب الرأي المادي، القائلة بتولّد عقيدة وجود الله وتوحيده تدريجيّاً، بدءً من سيطرة الخوف على البشر البدائيّين ممّا حولهم من المخلوقات المخيفة، واندفاعهم للركّوع أمامها، ثم عبادتهم إيّاها.

هذه الشهادات وسواها، ممّا عُرف من اللُّقى والآثار القديمة، تثبت ظهور رجال مُلهمين، تلّقوا وحي السّماء، في كل أمّة من الأمم الغابرة، وفي مختلف القارّات الأرضية، وفقاً لقول القرآن الصريح : ﴿**وإن من أمّةٍ إلا خلا فيها نذير.**﴾. علماً بأنّ اتصال شعوب هذه القارات بعضهم ببعض، كان شبه معدوم. إذ لم يثبت وجود اتّصال مابين شعوب إفريقية واسترالية، ولابين الآسيويين والأستراليين.

من هذا ندرك أن الذّين يروّجون النظرية المادية المذكورة، يقيمون أفكار نظريّتهم على أساسٍ من الظّنون والتخيّلات غير العلمية، بعيدين عن مُعطيات اللُّقى والآثار القديمة المكتشفة والمخطوطات، ولذا فإنّ نظريّة هؤلاء لاترقى إلى مرتبة القبول علميّاً.

٣ ـ مناقشة النظرية عقليّاً

ولنناقش نظرية هؤلاء من وجهة عقليّة، فالقاعدة المسلّم بها هي أن الناس يُقبلون على كلّ شيء جديد، ويؤثرونه عادة على الأشياء القديمة، وذلك بعد أن تتولّد عندهم قناعة به، وهذه القاعدة تقتضي أن يسود التوحيد في عصرنا، ويكون مذهب الشّرك وتعدّد الآلهة قد انقرض منذ زمانٍ بعيد، وذلك إن صحّ أنّ عقيدة التوحيد نشأت لدى الإنسان بالتّدريج.

على حين أنّ اللُّقى والآثار التي أتينا على ذكرها، إلى جانب واقع ملموس لكثيرٍ من شعوب الأرض الحاليّين، يدلّ على عكس ذلك تماماً. فقد دلّ على أن عقيدةَ توحيد الله تعالى هي قديمة جدُّ عريقة في تاريخ أمم الأرض.

وهناك البّحاثة (ميكَر Megr) الذي حقّق في تاريخ الصّين، فقد تبيّن له أنّ شعب الصيّن كان موحِدّاً في فجر تاريخه، على حين لاحظ من جهة أخرى أنّ الصيّن في عصرنا الحاضر، تفوق شعب الهند شركاً وتعداداً للآلهة، وقد سعى "ماوتسي تونغ" أن يمحو فكرة وجود إلهٍ خالق من أذهان الصينييّن أيضاً.

فقد روى لي شابٌ مسلم صينيٌ أنّ ماَوتسي تونغ ألقى آخر خُطبه في شمال الصّين، فيما يُسمّى بالمنطقة الصّناعية، فأمر قبل القاء خطابه أن يوضع تمثال

في السّاحة العامّة يمثّل ا لله عز وجلّ، ثم أوعز أن يطلق الجنود نيرانهم على التمثال أمام أعيُن الجماهير الصّينية المحتشدة هناك. وقال إثر اطلاق النّيران على التمثال المذكور : ها نحن أولاء قتلنا عقيدة وجود إله تجاه أعيُنكم، وقتلنا الإله إلى أبد الآبدين، لكنه لم يمض على خطاب ماوتسي تونغ شهر ونصف، حتى حدث زلزال عظيمَ دمّر المنطقة الصّناعية تلك، تدميراً شاملاً ورهيباً. وأصيب ماوتسي تونغ أثر هذا الزلزال بفالجٍ لم يُمهله طويلاً. فقضى نحبه خلال أشهر. وقد علم العالم بما جرى بعد موته.

فواقع الأمر أنّ الشّعوب التي تعبُدُ في عصرنا آلهة عديدة، هي من أعرق شعوب الأرض قِدَماً ووجوداً. وقد لاحظ الباحثون أنّ هذه الشّعوب كانت موحّدةً في تاريخها المُوغل في القدم. بل كانت تعتقد بوجود الإله الواحد وراء هذا الكون، والذي كان يصطفي من عباده من يُوحي إليهم بتعاليم من عنده.

فلو سلّمنا بنظريّة التدّرج الذي أدّى إلى تبلّور عقيدة التّوحيد، لكان يَنْبَغي أن يسود التوحيد شعوب عصرنا. فهذا مايقتضيه منطق عقولنا، ولكان نَدَرَ اليوم وجود فكرة تعدّد الآلهة لدى الناس قاطبة.

هذا وقد قُمت بزيارة الهند في الخمسينيات : ولاحظت وجود معبدٍ بوذيٍ وسط مدينة (كاليكت) وسط الهند. وقد رتّب كهنته ثلاثمائة تمثال فوق سطحه القرميدي المتدّرج. وقد أجابني كاهن المعبد، ردّاً على سؤالي عن أسماء هذه التماثيل. فأجاب : إنّها آلهتُنا التي نعبُدها.

فما لهؤلاء الهنود المعاصرين يعبدون مئات الآلهة، وقد كان أسلافُهم القُدامى من الموحّدين، كما ثبت ذلك من آثار أجدادهم؟ وهكذا فإنّ الواقع المُعاصر يثبت بُطلان نظرية المادّيين التي تزعم نشوء عقيدة التوحيد بالتدريج.

ونناقش هذه النظرية من زاوية جديدة، وهي واقع أمّتنا الإسلامية المعاصرة، التي قامت تعاليم دينها الإسلاميّ على التوحيد الخالص من شوائب الشّرك، بلا خلاف.

أفلا يلاحظ أحدُنا كيف يبتعد كثير من المسلمين المعاصرين عن الوحدانيّة، من الوجهة العمليّة، حيث يقدّس بعضهم القبور والأشجار والجنّ وبعض النّجوم؟ هذه الظواهر تبدو عمليّاً، لايقرُّها الإسلام ولاتتّفق مع توحيد ذات ا لله عز وجل.

وإنّ الذي يُلاحظ هذه الظواهر في مُجتمعات المسلمين، لايذهب ظنّه البتّة إلى قدم الشرك عند المسلمين، أو إلى أنّ القرآن الكريم قد حضّهم على ذلك. لأنّ الدّارس لتعاليم القرآن يجزم، وهو على يقين، أنّ تعاليم الإسلام، قد قامت على التوحيد الخالص من جميع شوائب الشّرك.

فمن واقع المسلمين المعاصرين، وواقع أمم كثيرةٍ أخرى عريقةٍ في القدم، نستنتج أنّ عقيدة التّوحيد كانت موجودة دوماً أولاً، ومن ثم تتحول إلى الشّرك، في مُختلف أحقاب التّاريخ، و لم يحدث عكس ذلك، كما يزعم أصحاب نظريّة التدرُّج في ظهور عقيدة التوحيد، هذه النظريّة التي لاتستند إلى وقائع صحيحة، ولاتقوم على أساسٍ ثابتٍ علمي.



الفصل الثالث

١ ـ الطّرح القرآني

وهذه الحقيقة الـتي أثبتنـا صحّتهـا بمختلـف الأسـاليب والأدلـة لم يغفـل القرآن عن تناولها بعمق ، وقد طرحها طرحاً واقعياً، فقـد صـرّح القـرآن الكريـم بذلك قبل أربعة عشر قرناً، من خـلال مـاأورده في سـورة فـاطر (٢٤/٢٥/٢٦) قوله تعالى : ﴿ **إنّا أرسلناك بـالحقّ بشـيراً ونذيـراً، وإنْ مـن أمّـةٍ إلاّ خـلا فيهـا نذير. وإنْ يكذّبوك فقـد كـذّب الذيـن مـن قبلهـم جـاءتهم رسـلهم بالبيّنـات وبالزّبر وبالكتاب المنير، ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان نكير؟**﴾.

كما نبهنا القرآن الكريم في ذاك الزّمان الغابر إلى أنّـه لم يـأتِ ا لله على ذكر أسماء جميع رسله وأنبيائه الذين اصطفاهم لأداء رسالاته. مُنوّهاً إلى أن أسمـاء المذكورين منهم، والوارد ذكرهم في كتاب ا لله، ماهم إلا أسمـاء مـن بعثهـم ا لله تعـالى في منطقـة الشـرق الأوسـط، والمتعلقـين بسلسـلة الهدايـات السـماويّة الـتي ابتدأت ببعثة آدم عليه السلام وانتهت ببعثة محمد خاتم النبييّن. فهذه الحقيقة نبّهنـا إليها ربّنا في سورة غافر (المؤمن) ٧٨، من خـلال قولـه تعـالى : ﴿**ولقـد أرسـلنا رسلاً من قبلـك، منهـم مَنْ قصصَنـا عليـك، ومنهـم مـن لم نقصُـص عليـك، وماكان لرسول أن يأتي بآيةٍ إلاّ بـإذن ا لله، فـإذا جـاء أمـر ا لله قُضـي بـالحق، وخسر هنالك المُبطلون.**﴾.

وإضافة إلى ذلك، فنحن إذ نتلو أوّل آيةٍ من آيات سـورة الفاتحـة، هـذه السورة التي لاتصحّ صلاة دون قراءتها في جميع ركعات الصّلاة، وهذه الآية هـي : ﴿**الحمد لله ربّ العالمين.**﴾ نتلو هذه الآية الكريمة، وقد وضعنـا نصـب أعيننـا أنّها تشير إلى الحقيقة التي وضحناها آنفاً، والتي يثبت منها بُطـلان نظريـة المـاديين المذكورة، حول تدرُّج ظهور عقيدة التوحيد إلى الوجود. ذلـك أنّ كلمـة (ربّ) في اللغة العربية تعني الذي يُنشيء الشيء حـالاً بعـد حـال حتى يصـل بـه مرتبـة الكمال والتمام (اقرب الموارد). وعليه فمعنـى (رب العـالمين)، ا لله الخـالق الـذي انشأ هذا الكون وأبدعه، وهو يطوّره بوحيه وبالشرائع التي يحلمها أنبياؤه ورسـله إلى عباده، وهو يطوّر هذا الكون، طوراً بعد طورٍ، ليكمل إنشاءه، ويُتّم إبداعـه.

أي أنه لولا إنزال الله القرآن الكريم هدى ورحمة للناس، لظلّت البشريّة تتيه في دبابير الظُلمات التي عرفتها أوربة في القرون الوسطى، كما هو معلوم من صفحات التاريخ.

فهذا هو الطرح القرآني الذي طرحه قبل أربعة عشر قرناً، ولابدّ أن لاحظ القارىء ممّا عُثر عليه من آثار مختلف شعوب الأرض تأييده لهذا الطّرح القرآنيّ. ومن المؤسف حقّاً أن يتجاهل أصحاب النهج المادّي هذه الحقائق. في وقت يزعمون فيه أنّ العقل سبيلهم إلى الحُكم، وأنّ العلم دليلهم إلى المعرفة.

أجل، لم يخالف القرآن الكريم مااعتقده الأقدمون، من أنّ ذات الله تعالى، هي خارج إطار عالمنا المادي، وهي بعيدة عنه أيضاً أمداً بعيداً، هذا الأمر أشارت إليه سورة المعارج، من خلال قوله تعالى : ﴿.. **من الله ذي المعارج. تعرُجُ الملائكة والرّوح إليه في يومٍ كان مقداره خمسين ألف سنة.**﴾ ٣/٤.

كما نبّه القرآن الكريم أذهاننا أيضاً، إلى أنّ الذات الإلهية المقدسّة يستحيل أن يطولها تصوُّرنا ويتبيّنَها فكرنا، فالإنسان لم يزوّده خالقه ببصيرةٍ تساعده على الإحاطة بذات الله الخالق عز وجلّ. فإلى هذه الحقيقة أشار قوله تعالى في سورة الشورى (١٠) : ﴿ **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.**﴾. وقوله تعالى في سورة الأنعام ١٠٣: ﴿**لاتدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير.**﴾ وقد قصد بالبصر هنا (البصيرة)، وبالإدراك معرفة أو بلوغ أقصى الشيء. وهذا هو سرّ سكوت القرآن الكريم عن الكلام على الذات الإلهية، وسرُّ اكتفائه بالكلام على أسماء الله وصفاته. وسرّ سكوت القرآن عن بيان مالذات الله من صفاتٍ خارج إطار أسمائه الُحسنى، وهي المتعلّقة بعوالم غير عالمنا.

ولاأقصد أننا لانملك أيّ بصيرة على هذا الصّعيد، فنحن نملك من القدرات مايمكن فكرنا وخيالنا بُلوغ إدراك أنّ لذات الله من العظمة مايفوق مدى هذا الفكرو هذا الخيال، وليس أكثر من ذلك، وهذه القُدرات يوفّرها لنا ويطوّرها، التقدّم العلمي ورقيّه على مدى الزّمان. على اعتبار أن الصّنعة تدلّ على صانعها. وأنّ البراعة والحذق في الصنعة، يَدلاّن على عظمة الإبداع عند الصّانع أيضاً. وعليه كان لابدّ لنا من مُتابعة ماكشفت عنه علوم عصرنا من

معارف وأسرار، بل وأن نجدّ لتطوير هذه العلوم والمُكتشفات، وسأحاول تلخيص ماجدّ من معارف وعلوم ذلك مااستطعت إلى ذلك سبيلاً.

في الزّمن الماضي، وفي القرن التاسع عشر بالذّات، دار جدلٌ عقيمٌ حول كوننا: أهو أزليّ أم هو مخلوق. ونظر (نيوتن) العالم الفيزيائي الشهير، بل أبو الفيزياء، إلى عالمنا على أنه يحوي حقائق ثلاثاً، وهذه الحقائق هي المادّة والمكان والزّمان.

فقد وصف (نيوتن) المكان بقوله : (إنّ المكان مُطلقٌ بطبيعة ذاته، ودون علاقة له بأيّ شيء خارج عنه، وهو يظلّ مُتماثلاً وغير متحرّك.) ووصف الزمان بقوله : (إنّ الزمان المطلق والصحيح والرياضي بذاته وبحكم طبيعته، يتدفّق باطّراد، من غير أن تكون له علاقة بأيّ شيء خارج عنه.).

وأهَلَّ القرن العشرون بعلومه واكتشافاته، فأطاح بفيزياء نيوتن المذكورة، إذ أنّ نظريّة النّسبيّة الخاصة التي أتى بها آينشتاين قادت علم الفيزياء إلى التخلّي إلى الأبد عمّا زعمه نيوتن وسمّاه حقيقتي الزمان والمكان. بعدما أثبت أن علاقات الزمان والمكان وقوانين الحركة، لايمكن تعريفها، إلاّ بوصفها الموقف الشّخصي للذّي يُراقب الأشياء المادّية، ولظروفها المادّية ذاتها.

وعندما تمّ اكتشاف التّركيب الذريّ، انتهى ذلك بعلماء القرن العشرين إلى التخلّي نهائياً عن فيزياء نيوتن ونظرته الكونية، وبدأ بذلك عصر الذّرة، وتغيّرت نظرة العلم إلى عقل الإنسان نفسه.

فبينما كان علماء القرن التّاسع عشر ينظرون إلى العقل على أنّه يعمل بصورة آليّةٍ ضمن إطار المادة، تبيّن لعلماء عصر الذّرة أن العقل لايعمل عملاً آلياً. وأنّه لايوجد له في الدّماغ مقرٌّ ولامركز. وحتى إرادة الإنسان لامقّر لها فيه أيضاً ولامركز. وثبت أنّ العقل والإرادة مستقلاّن عن الدّماغ، وأنّهما خارجه، أي خارج إطار المادة، وليس داخلها، وهذه الاكتشافات قد أثبتت صحّة الطّرح القرآني.

وعلى صعيد علم الفلك تبيّن أنّ سرعة الضوء تبلغ ٣٠٠,٠٠٠ كم في الثانية، أي أنّ الموجة الضوئية التي تصدر عن الشمس تصلنا بعد ثماني دقائق من انبعاثها عن الشمس، لبعد هذه عن كوكبنا الأرضي مايُقارب (١٥٠) مليون

كم، وعلى أساس ذلك بدأ علماء الفلك يقيسون مابين أجرام السّماء وشموسه ومجرّاته بسرعة الضوء.

وقد اكتشفوا وجود شموسٍ تبعُد عن شمسنا المعروفة أضعاف أضعاف بُعدها عنّا. ولايزال هؤلاء العلماء يكتشفون شموساً ومجرّاتٍ، على قدر ماتكشف عنه مراصدهم الفلكيّة وأجهزة رصدهم.

وقد كاد يُسلّم بعض علماء عصرنا أنّ عالمنا المادي لانهاية له ولاحدود. لولا أن طلع عليهم العالم الفيزيائي (جورج غاموف : georg gamoa) بنظرية الانفجار العظيم التي وضّح فيها، عن طريق الفيزياء النوويّة، أنّ الجُسيمات دون الذّرية قد انتجت في مراحلها الأولى ذات الكون الحديث النشأة، وهكذا أفادت هذه النظريّة أنّ مادة كوننا مخلوقة أيضاً، وأنّ الذي خلقها، إنّما هو عقلٌ مُطلق، وذلك منذ (١٢ ــ ٢٠) مليار عام. لكنّه استحال على صاحب هذه النظريّة تقدير مابقي من عُمُر هذا الكون.

فالعلم قادنا إذن إلى أنّ لعالمنا بداية ونهاية وأنّه مخلوق، وبطل بذلك زعم علماء القرن التاسع عشر من أنّ المادّة أزليّة الوجود. وقد برهن هذا التقدّم العلمي أيضاً على صحّة الطرح القرآني. هذا بالرغم من أنّ الوسائل العلمية لم تمكُنّ العلماء المعاصرين بعد من اكتشاف حدود هذا الكون المادّي الذي نعيش في ظلاله.

والعلم قد أثبت لنا أيضاً، أنّ هذا الكون على سعته ورحابته، خاضعٌ في جميع أرجائه إلى قوانين واحدة، تُجلّي وحدانية الإله الصانع المُبدع.

وهكذا ساعد الرّقي العلمي المعاصر في فهم مضمون الآية الكريمة التي استهّل الله بها سورة المُلك، وهي قوله تعالى: ﴿ **تبارك الذي بيده المُلك وهو على كلّ شيءٍ قدير، الذي خلق الموت والحياة ليبلُوكم أيّكم أحسن عملاً، وهو العزيز الغفور، الذي خلق سبع سماواتٍ طباقاً، ماترى في خلق الرحمن من تفاوُت، فارجِع البصر هل ترى من فطور، ثمّ ارجع البصر كرّتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير.** ﴾. ففي قوله تعالى ﴿ **ارجع البصر هل ترى من فطُور؟** ﴾ تنبيه للأذهان العلميّة المعاصرة خاصّة إلى أنّ هذا الكون لابدّ إلاّ أن يكون مُخطّطاً له ومتكاملاً، لاثغرة فيه ولاصدع.

ثم إن قوله تعالى : ﴿ثم ارجع البصر كرّتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير.﴾ ينبّه أذهان هؤلاء العلماء إلى وجود نظامٍ كاملٍ وشاملٍ في هذا الكون، مُنزّه عن كل نقص، يضمُّ سلسلةً طويلة من القوانين المُنسجمة التي لاتتضادّ ولاتتصادم.

وينفي الله تعالى أن يكون قد حدث كلّ ذلك اتفاقاً ومصادفة. فلا مناص من يشكّل هذا الكون الكامل الشامل الحجّة القاطعة التي يثبت منها وجود الله الأحد الخالق لهذا الكون بإرادةٍ وتصميم، وأنه تعالى لم يخلق هذا الكون اتّفاقاً وعبثاً، وأنّ ظاهرة الموت والحياة التي تتجلّى في أرجاء هذا الكون، كان القصد منها ابتلاء الإنسان في هذه العاجلة وامتحانه. وهذا ماأشار إليه قوله تعالى في نفس الآية : ﴿.. الذي خلق الموت والحياة ليبلُوكم أيّكم أحسن عملاً، وهو العزيز الغفور.﴾ أي أنّ الذي أوجد ظاهرة الموت والحياة، أوجدها من مُنطلق كونه الإله الخالق (العزيز) أي الملك الغالب على أمره، والقادر الذي لايُغالب.

وكونه (الغفور) أي ستّار عيوب وضعف عباده وفقاً لقانون الاحتياج العام. فالخالق أخذ على نفسه ستر ضعف مخلوقه، وحثّه بالترغيب والتّحذير على العودة إلى رشده والرّجوع إلى خالقه.

ومن المؤسف أنّ علماء القرن التاسع عشر أصحاب نهج التفكير المادّي، وقد طغت المادّة ومُغرياتها على أفكارهم، وأخذت بمجامع قلوبهم، لم يفكرّوا بنهجٍ روحانيّ، بل انطلقوا يشككّون في القصد الأساس لظاهرة وجود الإنسان وموته وحياته، فيزعمون أنّها ظاهرة طبيعيّةٌ من ظواهر المادة، وليست هي جزءاً من نظامٍ كونّي شامل وكامل صادرٍ عن ذاتٍ خالقة ومُبدعةٍ لقانون الموت والحياة ولتحقيق هدفٍ منشود.

وقد تسرّعوا، فزعموا أنّ وجود العقارب والأفاعي والدّواب المؤذية والحشرات والديدان والزلازل وماينجم عنها من كوارث، جميع هذه الأشياء لاتخضع لقانون. وأنّ وجودها عبث، لاصلة له بهدفٍ مقصود لهذا النظام الكوني.

ومايُطمئننا هو أنّ تقدّم العلوم قد كشفت عن زيف هذا الزعمّ والتشكيك. وقد ثبت وجود توازن طبيعيّ، وأنّ ماخلق الله من أشياء إنّما هو

كنوزٌ مُخبّأةٌ لمصلحة البشرية نفسها، ويُستفاد منها حين تدعو الضرورة إلى هـذه الأشياء، وعلى قدر تنامي المعرفة وتقدّم العلوم. ومن هذه الأشياء ماأودعه الخـالق جوّ الأرض، ومنها ماأودعه باطن الأرض وأعماق البحار. وحتّى الزلازل لها مـن الفوائد مالا يخطر ببال. ولايزال العلماء يرصدونماينجم عـن هـذه الـزلازل مـن آثار. ولست بصدد التوسّع في هذا المجال.

أعود إلى القول إنّ الرقّي العلمّي الذي شـهده القـرن العشـرون كشـف عـن عظمـة صُنـع الصّـانع، مـن خـلال الكشـف عـن وحـدة القوانين النّاظمـة لمخلوقات هذا الكون الفسيح الذي لم ينته العلم من كشف مداه وحـدوده بعـد. بالرغم من أنّه كشف عن أنّه مخلوق منذ مايقارب (١٢ـ٢٠) مليـار عـام، كمـا كشف عن أنّ نهاية هذا الكون آتيةٌ لاريب فيها، وإن لم تتوفّـر الوسـائل العلميـة لتحديد زمان هذه النهاية.

هذا وإنّ (نظرية جذور الأخـلاق) الـتي تضّمنهـا كتـابي، كشـفت عـن وحدة تركيب أشياء هذا العالم أيضاً، وأنّ كلّ شيء قد تكّون من خليطة خاصـة من الذرّات المادية وقواها، ولايُستثنى الإنسان من وحدة هـذا الـتركيب الـذرّي، فقد خلقه الصّانع أيضاً من نُطفةٍ أمشاج.

والمهمّ في الأمر، هو أنني قصدت ممّا ذكرته حتى اللّحظة عن هذا الكون وعظمته وتركيبه وقوانينه الناظمة الشاملة، قصدت نقل تصوّرات وتخيـلات المرء إلى المدى الذي يُعينه على تصوُّر عظمة ذات الله الخالق قدر إمكاني، هذه الذّات التي هي خارج إطار هذا الكون، الذي لم يكتشف العلم مداه حتى الآن وإنّ ممّـا لاشكّ فيه هو أنّ هذه المعلومات تساعد علـى تبيُّـن ماتحمله هـذه الـذات الإلهيـة المقدسة من أسماء وصفاتٍ كانت وراء خلق هذا الكون العجيب.

٢ ـ مثالٌ من الواقع

وسبق لي أن ذكرت أن لابُدّ لي من ضرب الأمثال الماديّة الموضّحـة لهـذا الموضوع الذي يدور كتابي حوله، ليكون قريبـاً مـن الأفهـام، وهـا أنّـي أضـرب للقارىء أوّل مثلٍ ماديّ من واقعنا المعاصر، على أن يظلّ في حُسبان المرء أنّه مجرّد مثال مع الفارق الكبير جداً بينه وبين ماأردت التّنبيه إليه. ذلك أنّ الله عز وجـلّ ليس كمثله شيء.

وقد بـات معلومـاً لـدى كـلّ متـابع لمـا يجـري في العـالم أنّ المؤسسّـات العلمية في الدّول الكـبرى المتقدّمـة علميـاً، تنافسـت في مضمـار كشـف الفضـاء بمختلف الوسائل، ومنها هذه المركبات الفضائية التي امتطاها رُوّاد الفضاء.

أو لم نلاحظ أنّ هذه المركبات الفضائية، إنّما تقوم برصد كلّ حركة من حركاتهـا، قيـادةٌ أرضيّـة علـى شاشـات التلّفـاز أمـام أعينهـم. وقـد زوّدوا هـذه المركبات بأجهزةٍ تبثّ جميع مايجري داخلهـا وخارجهـا وماتكشـفه مـن مشـاهد للكواكب المارّة بها؟ دون أن يكون بين القيـادة والمركبـات أيُّ اتّصـال بأسـلاك ظاهرة، وفي وقت فـإنّ القيـادة الـتي صنعـت هـذه المركبـات قائمـة خـارج هـذه المركبات ترصدها وهي بعيدة عنها ملايين الكيلو مترات؟

هذا المثال الحيّ من واقعنا المعاصر، إن أخذه المرء بعين اعتباره أمكنـه أن يَعِ استقلالية الذات الإلهية الخالقة عن ذات هذا الكون المخلوق ومـايحتوي عليـه من مخلوقات، إنّما ينبغي أن يظلّ راسخاً في ذهن المرء أنّ هـذا مجـرّد مثـال لفـتُّ الأنظار إليه، وهو مثال مع الفارق الشّاسع بينه وبـين الـذات الإلهيـة المشـبّهة بـه. وقد كان القصد من هذا المثال نقل مخيّلة الإنسـان ليتصـوّر عظمـة الـذات الإلهيـة التي أبدعت هذا الكون الرّحب الذي لاتُعرف له حدود.

وقد أحاط علماء الأرض بمـا لـدى هـذه القيـادة الأرضيـة مـن خـبرات وامكانيات، بل تتسابق الـدّول الكـبرى شـرقاً وغربـاً لصُنـع المركبـات الفضائيـة الشّبيهة بها، بل تتنافس في قيادتها، وفي إصلاح مايطرأ عليها مـن أعطـال، وهـي بعيدة عنهم هذا البُعد الشّاسع. فإذا شئنا أن نتعرّف على الله الخالق الـذي يسـيّر هذا الكون، فلا نملك من مُعطياتٍ لمعرفة مدى علم هذه الذات الإلهيـة وقدراتهـا إلاّ مايفيدنا به هذا القرآن الكريم الذي هو بين أيدينا، والذي له مصداقيّته.

ثم إنّه إن تاقت أنفسُنا إلى التّعامل مع هذه الذات الإلهية المقدسة، تعامل محبّةٍ وعرفان واتّصال، فلا نملك من مُعطيات علوم ذلك ومبادئه سوى مايخبرنا به هذا القرآن الكريم أيضاً.

كما أنّ الإنسان إذا راح يبحـث عـن فطرتـه وتكوينـه الرّوحـي لإدراك معالمها الحقيقيّة، وطريقة وأسلوب صيانتهمـا وتطويرهمـا، ويبحـث عمّـا يختـصّ بعقله وأدواة صيانته، صيانةً تليـق بمكانتـه ومنزلتـه في مقـابل بقيـة حـواس جسـم

الإنسان وأجهزته، فـلا يملـك هـذا الإنسـان البـاحث إلاّ مرجعـاً وحيـداً مُطمئنـاً مُعتمداً موثوقاً، وهو هذا القرآن العظيم أيضاً.

ذلك أنّ مالدى البشر من مراجع وكُتبٍ سماويّة، قد فرغ البـاحثون مـن الجزم أنّ الأيدي قد عبثت بهـا، فحرّفتهـا. فلـم يبـق كتـاب منهـا تطمئن نفـس الباحث إلى مصداقيّته، على أنّه تنزيلٌ من خالق هذا الكـون ومدبّـره، فقـد ثبتـت عدم مصداقيّة هذه الكتب بأدلّة ومُحاكمات، من ضمنها ومـن خارجهـا أيضـاً. فلم يُعد أصحاب وأتباع هذه الكتب يملكون أيّ دليلٍ علمي أو عقليّ أو منطقـيّ يدعم مصداقية أيّ كتاب من كتبهم الدينيّة.

ولّما كان على الباحث ألاّ يُلقي كلامه جُزافا، فقـد وجـب علـيّ تقديـم أهم ماأملكه من أدلّة تؤيّد كلامي وتثبته، ولو بإيجاز.

٣ ـ التّوراة والإنجيل المعاصران محرّفان

إن الكتاب المقدس، الذي هو بـين أيـدي المسيحيين واليهـود الـذي لـه أصلٌ سماويّ، وهـم مايسـمونه بـالعهدين القديـم والجديـد. وهـو الكتـاب الـذي يتضمّن في العهد القديم منه تعاليم الديانة اليهودية، وفي العهد الجديد منـه تعـاليم المسيح وحوارييّه. يزعم هؤلاء أنّه كتابٌ سماويّ نصّاً ومعنى، ومنهم من يزعم أنّه معنىً فقط، أي أنّ رجالاً متدينين قد كتبوه.

وأنا أسأل : ومأأدراني أنّ تعاليم هذا الكتاب هي حقيقة كما يزعمون؟ يكفيني أن أعلم أنّها لم تُكتب في الأزمنة التي نُسبت إليها هذه الكتب وتعاليمهـا، لتكون في نظري محلّ ريب وشك. فما نسبه العهد القديم إلى موسى، أقـرّ كاتبـه ضمن أسفاره، أنّه كتب ماكتبه بعد زمن موسى بقرون عديدة، وليُمعن القـارىء نظرة في هذا الدليل المأخوذ مـن سـفر التثنية، وهـو السّـفر الخـامس مـن العهـد القديم، ينسب ألفاظ هذا السّفر إلى موسى نفسه أيضـاً. فقـد ورد في الاصحـاح ٣٤/٧ منه:

(كان موسى ابن مئة وعشرين سنة حين مات، و لم تكلّ عينُه ولاذهبت نضارته. فبكى بنو اسرائيل موسى في عَربات مؤاب ثلاثـين يومـاً. فكمِلَـت آيّـام موسى.). فهل يُعقل أن يكون هـذا النّـص قـد كتبـه موسـى، وكُتـب في زمنـه؟ لايُعقل إلاّ أن يكون قد كُتب بعد مماته.

والسّؤال الأهم هو : هل أن هذا النّص كتبه كاتب بعد موت موسى مباشرة ؟

الجواب عن ذلك يأتي من ضمن الإصحاح نفسه، ذلك أنّ الجملة التي سبقت ألفاظ هذا النّص تقول : (فمات هناك موسى عبد الرّب في أرض مؤاب حَسَبَ قولِ الرّب. ودفَنه في الجِوَاء، في أرض مؤاب مُقابل بيت فغور، ولم يعرف إنسانٌ قبره إلى هذا اليوم).

يتساءل الباحث : وأيّ يومٍ وأيّ تاريخ هو المقصود من (ولم يعرف إنسانٌ قبره إلى هذا اليوم)؟ فكم كانَ قد مضى على موت موسى، وعلى اندثار قبره من قرون، قبل أن يُدّوِنَ كاتبُ النّص هذه السُّطور؟ أوليس هذا دليل ضمنيٌّ من العهد القديم نفسه، استقرأناه، وهو شهد أنّ التّوراة هذه لم تُكتب في عهد موسى ولابعد مماته مباشرة، بل كتبه كاتبه بعد مضيّ قرون عديدة من الزمان على موت موسى، وعن غيبٍ وسماعٍ، ودون أيّ سندٍ يمكن أن يشير إليه كاتبه؟

نتناول العهد الجديد، الأناجيل وتعاليمها، المنسوبة إلى المسيح بن مريم، ولنلاحظ مااستهلّ به كاتب إنجيل لوقا، إنجيله المُسمّى باسمِهِ، فقد كتب يقول : (إذ كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصّةٍ في الأمور المُتيقّنة عندنا، كما سلّمها إلينا الذين كانوا منذ البدء مُعاينين وخدّاماً للكلمة. رأيت أنا أيضاً، إذ قد تتبعت كُلّ شيء من الأوّل بتدقيق أنْ أكتب على التّوالي إليك أيُّها العزيز ثاوفيلُس، لتعرف صحة الكلام الذي عُلِّمْتَ به. كان في أيام هيرودس مَلِكِ اليهودية، كاهنٌ إسمه..) ١/١ لوقا.وهذا النّص الذي استهلّ به إنجيل لوقا يشهد ضمناً بالأمور التالية:

الأوّل ـ قوله (إذ كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصّة..) يشهد أنّ الإنجيل وتعاليم المسيح بن مريم لم تُدوّن في حياة المسيح بن مريم نفسه، بل نقشت تعاليمه في ذاكرة أتباعه، فكانوا يروونها الواحد منهم عن الآخر.

ثم إنّ المستوى الوثائقيّ لهذه الروايات، يرتبط بمستوى شخصية الرّواة أنفسهم وبمستوى ذاكرتهم، وبمبلغ علمهم وإخلاصهم للمسيح نفسه، والذي يتبيّن من الأناجيل نفسها أن حواريّ المسيح الإثني عشر كانوا يتراوحون مابين حمّال إلى صياد أسماك، وقد خانه يهوذا الإسخريوطي، وأنكره بطرس فلم يكن بين حواريي المسيح أيُ مثقّف يُوثق بعلمه وذاكرته وكمال إخلاصه.

الثاني - وهذا القول يعني أيضاً أنّ الأناجيل، ومن بينها إنجيل لوقا، هي مجرّد حكايات، استندت إلى رُواةٍ لم تُدرج أسماؤهم في الأناجيل ولاذكر شيء عن سيرتهم الدّينية، ولاأثبت رواة الأناجيل تواتر أخبار تعاليم حكاياتهم بأسلوب علمي. وبألفاظٍ أخرى نقول إنّ هذه الحكايات لم تستوف الشروط الموضوعية التي توثّق ماحَكَوه لنا فيها، ولايكفي الباحث قول كاتب إنجيل لوقا : (إذ قد تتبّعت كُلّ شيء من الأوّل بتدقيق..) فهذا مجرد ادّعاء لم يسنده أيّ دليل.

الثالث : ثم إنّه لايتضّح للباحث من خلال هذه الحكاية، كم من السّنوات مضت على دعوة المسيح التي يُنسب إليه ماورد فيها، ويكفي الباحث قول كاتب انجيل لوقا : (إذ كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصّة في الأمور المُتيقّنة عندنا كما سلّمها إلينا الذين كانوا منذ البدء مُعاينين وخُدّاما للكلمة..) تكفي هذه الجُمَلُ ليستدلّ منها أنّ الباحث لوقا لم يكن من جُملة حواريي المسيح، وأنّه جلس يكتب (قصّة)، وأنّه وُجد بعد المسيح بزمان لايُعرف مداه، لقوله: (كما سلّمها إلينا الذين كانوا منذ البدء معاينين وخداماً للكلمة..) فما هي أسماء الذين كانوا منذ البدء مُعايني وخُداماً للكلمة، وكيف أمكنهم حفظ جميع ماروه، وكم بين هؤلاء وهؤلاء من وُسطاء؟

والخلاصة، هي أنّ الباحث المدّقق يكتفي بهذين الدليلين اللذين أوردتهما ومن ضمن مُعطيات العهدين القديم والجديد، والبرهنة على أنّ التوراة والأناجيل التي هي بين أيدينا، لاتصلح كمرجعٍ يقينيّ يطمئنّ إليه المرء للتعرّف من خلالها على خالق هذا الكون ومُبدعه، ومعرفة مدى علمه وقُدُراته، بل ولاتصلح أيضاً كمرجع مُطمئِنٍ للإحاطة بتعاليم موسى والمسيح عليهما السّلام.

وبإمكان المرء أيضاً أن يقيس على هذا الكتاب المقدّس المذكور، مالدى بقيّة أتباع الديانات من كُتبٍ يُقدّسونها، لاترقى إلى مستوى مرجع حقيقي موثوق به ومُعتمد، قد أنزله خالق هذا الكون لتعريفنا أسماءه وصفاته.

فلا يعرف الباحثون في عصرنا مرجعاً مُعتمداً سوى القرآن الكريم، والذي خُوطب فيه النّاس جميعهم في أوّل سورة من سوره وهي سورة البقرة (٢٢)، قوله تعالى : ﴿ **ياأيّها النّاس اعبدوا ربّكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلّكم تتقّون.**﴾. فكلمة الناس في هذه الآية وردت مُعرّفة بالألف واللاّم لتشمل جميع البشر. وورد الخطاب نفسه في سورة الأعراف (١٥٨) على لسان

رسول الله (ص) ومأموراً : **﴿ قل ياأيّها النّاس إنّي رسول الله إليكم جميعاً، الذي له ملك السماوات والأرض، لاإله إلاّ هو يُحيي ويُميت، فآمنوا بالله ورسوله النّبي الأمّي الذي يؤمن بالله وكلماته، واتّبعوه لعلّكم تهتدون.﴾**.

فصيغة إليكم جميعاً، جيء بها للدّلالة على أنّ القرآن الكريم نزل يحمل تعاليم ذات صبغة عالمية، وليست هي بتعاليم قوميّة، وإلى قوم مخصوصين. هذه الصّيغة التي لم يتّسم بها أيّ كتابٍ سماويّ أُنزل قبل القرآن الكريم.

فالذي يتفحّص مضامين العهدين القديم والجديد لايُلاحظ وُرود آية صيغة فيهما تُفيد أن موسى وعيسى، بعثهما ربُّهما إلى الناس جميعاً، فكلّ ماسيجده المرء هو أنهما مبعوثان إلى قومٍ بذاته، وهم قوم بني اسرائيل.

فقد ورد في العهد القديم صراحة، في سفر الخروج ٣/٧: (فقال الرّب إنّي قد رأيت مذلّة شعبي الذي في مصر، وسمعت صُراخهم من أجل مُسخّريهم. إنّي علمت أوجاعهم. فنزلت لأنقذهم من أيدي المصريّين، وأُصعدهم من تلك الأرض إلى أرضٍ جديدة وواسعة.). وهذه العبارات إنّ دلّت على شيء، فإنّما تدلّ على أنّ تعاليم التوراة لاتتصّف بالصّفة العالمية، بل بالصّفة القومية.

وإذا تصفّح المرء العهد الجديد، تقع عينه في انجيل متّى ١٠/٥ على قول المسيح صراحة : (هؤلاء الإثنا عشر أرسلهم يسوع وأوصاهم قائلاً: إلى طريق أممٍ لاتمضوا، وإلى مدينةٍ للسّامريّين لاتدخلوا. بل اذهبوا بالحريّ إلى خراف بيت إسرائيل الضالّة..). فما معنى أن يوصي المسيح تلاميذه بذلك إن كان الله قد بعثه رسولاً عالميّاً؟

وفي انجيل متى نفسه ١٥/١٢، يذكر لنا أنّ امرأةً كنعانيةً عرضت للمسيح وهو وتلاميذه في طريقهم : (صرخت إليه قائلةً ارحمني ياسيّد ياابن داوود. ابنتي مجنونة جدّاً، فلم يُجبها بكلمة. فتقدّم تلاميذه وطلبوا إليه قائلين : اصرفها لأنّها تصيح وراءنا. فأجاب وقال : لم أُرسَلْ إلاّ إلى خراف بيت اسرائيل الضالّة.). فهذا النّص واردٌ حرفياً في العهد الجديد، ثم إنّ (إلاّ) هي أداة حصر في اللّغة العربية، ودلالتها أنّها تحصر رسالة المسيح ببني اسرائيل وحدهم. ولايستفاد من ألفاظ هذا النّص أي معنى آخر، سوى الذي فهمناه.

وزبدة الكلام، هو أنّ البشرية قاطبة، لاتملك في عصرنا مرجعاً سليماً من التّحريف، ومُعتمداً، يُعرّفهم خالقهم الذي يُسيّر هذا الكون من حولهم إلا القرآن الكريم. ومن واجب الباحث، قبل الرّجوع إلى هذا الكتاب السماويّ أن يتدبّر مصداقية هذا الكتاب السماوي بأسلوبٍ علميّ ووفق الأصول التي تضمنّها هذا الكتاب السّماويّ نفسه.



الباب الثاني

مصداقيّة القرآن الكريم ومرجعيّته

الفصل الأول
١ - القرآن ومزاياه كمرجع موثوق

أقول، الذي يشدُّنا ويدفعنا إلى تدبّر مصداقية القرآن بأسلوبٍ علميّ، إعجاز هذا الكتاب وتعدّد مزاياه. هذه المزايا التي يتسّم بها هذا القرآن العظيم. فللقرآن الكريم مزيّتان لاخلاف عليهما وهما :

١ - **المزية القرآنية الأولى** : أن القرآن نصّ بين دفّتيه على كونه مُنزلاً من الله تعالى بلسان عربيّ مُبين. فقد ورد في سورة يوسف (٢) قوله تعالى : ﴿**إنّا أنزلناه قرآناً عربيّاً لعلّكم تعقلون.**﴾. وقوله (عربيّاً) أي بلغة العرب. والإعراب في الأصل هو الإبانة والإفصاح. والتّعريب هو التبيين.

فقوله تعالى في الآية ﴿ **قرآنا عربيّاً** ﴾، يفيد أنّ القرآن يُعرب عن المعاني والدّلالات إلى حدّ الكمال وغاية الإفصاح، ومُبرّأً من كلّ نقص، هذا ماأفاده صاحب معجم أقرب الموارد. وجاء في المفردات : العربيّ المُفصح، والإعراب البيان. ثم إنّ إضافة كلمة (قرآنا) إلى (عربياً)، أضاف معنى جديداً، وهو أنّ هذا الكتاب السّماويّ أنزله مُنزّله ليقرأه الناس ويتلوه دوماً في جميع أحوالهم. وهذه مزيّة لم يتسّم بها كتاب سماويّ من قبل. فالتوراة والأناجيل وإن كانت تطبع بكثرة، فإنّ أتباعها ومريديها لايكادون يقرؤونها بالكثرة التي يُقرأ بها هذا الكتاب السماوي العظيم، للنبوءة التي حملتها إلينا هذه الآية الكريمة المذكورة، بالرّغم من أن القرآن كان آخر الكتب المُنزلة، ولايزال أتباعه أقلّ من سواهم عدداً.

فإذا اتّجهنا إلى رأي الأوربيين، وهم بأكثريتهم لايدينون بالدّين الذي أتى به هذا المرجع القرآن. فالملاحظ أنّ هؤلاء يغبطون العرب على عظمة ماتتمتّع به لغتهم العربيّة من مزايا.

فالعالم الأوربي (لين بول)، وهو العالم الذي قام بترجمة معجم (تاج العروس) إلى لغته الأوربية، نلاحظه وقد أعلن في مقدّمته وبكلّ حسرة أنه لم يجد بين لُغات العالم قاطبة، لُغةً هي على مستوى اللّغة العربيّة، من حيث سعة مصادرها ومفرداتها ودلالاتها، إضافة إلى بيانها لحكمة دلالاتها وأصولها.

ثم إنّ أدباء اللّسان العربيّ أنفسهم وَعَوْا هذه الحقيقة، وأدركوها. فهذا اللّغوي الشهير (ابن جنّي) تحدّث عن خصائص العربيّة.

وممّا قاله في كتابه الشهير (الخصائص) أنّه روى عن أستاذه أبي علي الفارسيّ أنّ أحرف الكلمة الثلاثية، مهما دارت وتبدّلت مواضعها، فهي تظلّ تدور حول معنى أساسيّ واحد وأصل واحد. وقد ضرب على ذلك مثلاً، الأحرف (الكاف واللاّم والميم) مهما تغيّرت مواضعها وترتيبها، فهي تفيد معنى القوّة في جميع الأحوال، كذلك لفظ (عربٌ) وهو المؤلّف من أحرف (العين والراء والباء) مهما تغيّر ترتيب هذه الأحرف، فهي تدلّ على الإمتلاء وغلبة الشّيء.

ومادامت الآية التي ذكرناها، قد ذيّلها مُنّزلُها بقوله ﴿ **لعلكم تعقلون**﴾، فقد وضّح لنا بذلك الحكمة من إنزال هذا القرآن بلسان عربّي مبين. أي أنّ حكمة ذلك تتمثّل في سِعة دلالات ألفاظ هذه اللّغة وكثرةً تراكيبها، إذ يساعد هذا عقلاء الناس على الإحاطة بخفايا أحكام الله ودقائق تعاليمه.

وعليه، فلا أكون مُخطئاً إذا نظرت إلى لغة القرآن الكريم على أنّها مزيّة بارزةٌ من مزاياه. ويؤيّد هذا الإتجاه الآية (١٩٥) من سورة الشعراء : ﴿**وإنّه لتنزيل ربّ العالمين. نزل به الرّوح الأمين. على قلبك لتكون من المنذرين. بلسان عربي مبين**﴾. وصيغة (رب العالمين) قُصد بها إعلامنا أنّ تعاليم القرآن الكريم موجّهة إلى النّاس كافة، هذا الأمر الذي اقتضته ربوبيّة (رب العالمين) وهو أن تختار لتحقيق هذا المقصد اللّسان العربيّ المبين أداةً لنقل هذه التعاليم إلى البشر، من بين لُغات العالم قاطبة، لاتّصاف اللّغة العربية بمزايا الإبانة والإفصاح والسّعة في الدلالة، الأمر الذي لم تتصّف به لغةٌ أخرى سواها، فهي تساعد لعظمتها على إيصال تعاليم رب العالمين إلى البشر كافة، تحقيقاً للمقصد من إنزال هذه التعاليم. ويكفي محمداً (ص) فخراً، وهو الأمّي الذي كان يجهل

لغات العالم في عصره، أن يحمل رسالة هذا التّنزيل، وقد لاحظنا أنّ كلمات العالم الأوربي (لين بول) تصدّق هذه المقولة.

كذلك يؤيّد اتّجاهنا هذا ماورد في سورة الرّعد الآية (٣٧) قوله تعالى : ﴿**وكذلك أنزلناه حُكْماً عربيّاً**..﴾، أي أنّ حُكم الله تعالى ورد عربيّاً، بمعنى مُفصّلاً وفصيحاً ومُبيناً، وليس مُجملاً.

من هنا يدرك الباحث مزيّة هذا المرجع العظيم الوحيد القرآن الكريم، أصدق وسيلة لمعرفة خالق هذا الكون، الذي لم يتوصّل علماء عصرنا بعد إلى معرفته، بالرغم من تقدّمهم العلميّ الكبير.

٢ ـ المزيّة القرآنيّة الثّانية :

والمزيّة الثانية للقرآن كمرجع، أنّ هذا الكتاب السّماوي نصّ في سورة الحجر (٩/٨) على كون الله الذي أنزله قد وعد بالمحافظة عليه إلى أبد الآبدين، من خلال قوله عز وجلّ : ﴿**ماننزّل الملائكة إلاّ بالحق وماكانوا إذاً مُنظرين. إنا نحن نزّلنا الذّكر وإنّا له لحافظون.**﴾. أي أنّ الله تعالى لاينزّل ملائكته إلى عباده إلا بالحقّ، وهو الأمر المقضي به من الله عز وجلّ، هذا الأمر الذي يتّصف بالعدل والثبات واليقين. وهذه الصفات هي دلالات كلمة (الحق) لُغةً (أقرب الموارد). ثم إنّ الله تعالى يصف هذا القرآن بصفة (الذّكر). والذّكر لغة يفيد الشرف والرفعة والسّمو. يقول إنّه تعالى أنزل هذا القرآن "الذّكر" بتوسّط ملائكته الذين لاينزّلهم إلا بالحقّ، إشارة إلى أنّ تعاليم القرآن تتصّف بصفات العدل والثبات واليقين، كما يتّصف بالحفظ والصّون، تصديقاً لقوله تعالى : ﴿**وإنّا له لحافظون**﴾.

هذا وإنّ وعد الله تعالى بالمحافظة على وحي القرآن الكريم وصونه، لاينبغي للباحث أن يتلقّاه بنظرةٍ سطحية تقليديّة، بل ينبغي أن يُقبل عليه بنظرةٍ علميّةٍ فاحصة ولايكفي أن نقف عند تواتر وصوله إلينا سالماً، كما يفعل المُقلّدون، الذين يقولون إنّا وجدنا آباءنا على ملّة، وإنّا على آثارهم مُقتدون.

أوَليس عجيباً بعد هذا، أن يسبقنا إلى هذا الأسلوب العلميّ في البحث والتحقيق، للتوثّق من سلامة وحي القرآن الذي هو بين أيدينا، أن يسبقنا إلى هذا

علماءٌ لايمتّون إلى الاسلام بصلةٍ من الصّلات، وهم من تشحنهم الكنيسة المسيحية أيضاً بنقمةٍ على هذا القرآن بصورة عفويّة؟

لاشك أن المستشرقين، منهم المتطرّفون ومنهم المُعتدلون. والمستشرق البريطاني (سير وليم ميور) من هؤلاء المستشرقين المعتدلين. فقد كان ألّف كتاباً أسماه (حياة محمد) وبلغته الانكليزية. وإليكم ترجمة بعض المقاطع الواردة فيه، فقد كتب على الصفحة (٣٨) يقول: (بالرغم من احتمال أن يكون محمّد هو الذي ألّف القرآن، فإنّ القرآن الموجود في زماننا هو الذي طلع به محمد على العالم).

وهذه ألفاظه بالإنجليزية :

(What we now have though possibly corrected and modified himself is still his own.)

وقد كتب على الصفحة (٥٦١) يقول : (إضافة إلى ذلك، فإننا نملك من مختلف الأدلّة، الداخلية منها، والخارجية، مايثبت أنّ الكتاب الموجود لدينا هو نفس الكتاب الذي طلع به محمّد على العالم، وقد كان يعمل بموجب تعاليمه).

وهذه ألفاظه بالإنجليزية:

(There is otherwise every cecurity. Internal and external that we possess a text the same as that which Mohammad himself gave forth and used).

وكتب على الصفحة (٥٦٢) يقول : (وقد انتهيا إلى النتيجة التي توصّل إليها (وان هيمر)، فإذا لم ننته إليها في سائر جوانبها، ففي معظم هذه الجوانب. وهي ثبوت أنّ القرآن الموجود في زماننا، هو القرآن نفسه الذي جاء به محمّد دون أيّ تحريف. ونحن من ذلك على يقين، كيقين المسلمين أنفسهم، بأنّه وحي الله المقدس، الذي لم يُحرّف و لم يُبدّل.).

وهذه ألفاظه بالإنجليزية:

(And we conclude with atleast a close approximation to the verdict a Von Hammer that we hold the quran to be as surely Mohammad's Waro as the Mohammadans hald it to be the world of good.)

وأضاف المستشرق ميور على الصفحة (٥٦٣) قوله: (ونحن نصّرح إستناداً إلى أدلّةٍ دافعةٍ، بأنّ كلّ آية من آيات القرآن أصيلة، وقد وصلتنا من محمّد دون أي تحريف.).

وهذه ألفاظه بالإنجليزية:

(We may upon the strongest presumption offirm that every vere in the quran is genrime and unoclterd composition of Mohammad himself).

هذا ماشهد به مستشرقٌ منصفٌ حول وصول هذا المرجع القرآنّي إلينـا سالماً، بريئاً من أيّ تبديل أو تحريف، بعد أن تقصّى هذه الحقيقة بأسلوبٍ علمّي رصين، والفضل ماشهدت به الأعداء.

والمستشرق الألماني (نولدكه) كتب يقول أيضاً : (ويمكن أن تكون قـد وقعت بعض

الأخطاء الكتابية، لكن القرآن الذي قدّمه عثمان للعالم، هـو نفـس القـرآن الـذي جاء به محمّد، بالرّغم من كون ترتيبه عجيباً.

وهذه ألفاظه بالإنجليزية :

(S.light clerical errors there may have been but the quran of othan contains more but genuine elements).

مـع الملاحظـة أنّ الـذي يرغـب بالإحاطـة بـترتيب القـرآن الموضوعـي، بإمكانه مراجعة مؤلّفي (فنّ الاختزال في القرآن الكريم).



الفصل الثاني
١ ـ دليل من ضمن القرآن على مصداقية القرآن :

ولنعمد نحن، وبأسلوبنا العلمي، لإدراك مدى مصداقية القرآن الكريم. نتناول مانلاحظه فيما نصّت عليه سورة القيامة (١٦/١٧/١٨) من آياتٍ، جسّدت لنا معالم هذا الدليل الداخلي الضمنّي، من القرآن نفسه. فالله تعالى يقول : ﴿**لاتُحرّك به لسانك لتعجل به، إنّ علينا جمعه وقرآنه، فإذا قرأناه فاتّبع قرآنه.**﴾، وهذه الآيات قد انطوت على وعدٍ إلهي واضح المعالم. وكأن الله عز وجلّ يقول لرسوله الكريم بألفاظٍ أخرى : وهل يستسيغ عقلُك أن نُنبئك عن المستقبل، دون أن نكون قد أعددنا أسباب ووسائل تحقيق هذا المستقبل؟ لذلك فاعلم أننا قد أخذنا على أنفسنا عبء جمع هذا الوحي القرآني الذي نوحيه إليك، وقرآنه على ترتيب تلاوته. فإذا فرغت من هذه التّلاوة ﴿**فاتّبع قرآنه**﴾، بمعنى أنّ مسؤوليّتك مقصورة على تنفيذ نهجنا هذا واتّباع أوامرنا. وهذا ماأفاده تعالى بقوله في مقام آخر : ﴿ **ماعلى الرسّول إلاّ البلاغ.**﴾ المائدة ٩٩ ـ

فهذه معالم دليلٍ ضمنّيٍ من داخل القرآن نفسه. وهو على غاية الأهميّة، بسبب أنّ هذا الدّليل الضّمني وضّح لنا أن هناك وعداً إلهياً بالمحافظة على وحي القرآن الكريم، وهذا الوعد يشمل ترتيب تلاوة القرآن الكريم أيضاً.

وقد بقي السؤال هنا عن حكمة إنزال القرآن الكريم على ترتيبين : ترتيب إنزاله مُنجّماً، وترتيب تلاوته، وهو ماتتوق النّفس إلى معرفته.

ونحن كباحثين، نعثر على الإجابة ضمن القرآن، وفي سورة الفرقان (٣٢) من خلال قوله تعالى : ﴿**وقال الذّين كفروا لولا نُزّل عليه القرآن جُملةً واحدةً، كذلك لنثبّت به فؤادك، ورتّلناه ترتيلاً.**﴾. وكلمة (كذلك) تعني أنّنا أنزلناه مُنجّماً على هذا النّهج ﴿ **لنثبّت به فؤادك** ﴾، أي أنزلناه كذلك لتحقيق مقصدين هامّين : تحفيظُك آيات القرآن على مراحل إلى جانب تعريفك دلالات

هذه الآيات ومعانيها، وتثبيت هذه الآيات في (فؤادك). ذلك أنّه إذا ثبت الشّيء في المكان، دام واستقرّ. وأثبته : جعله ثابتاً، وعَرِفه حقّ المعرفة. (اقرب الموارد)

وإنّ الإنسان الذي يرجع إلى كُتب السّيرة المحمديّة، لابدّ أن يُلاحظ تحقّق هذين المعْلمين لهذين المقصدين الهاميّن. فقد كان محمد رسول الله (ص) يُحدث في شخصيّات أصحابه، التبديل الضّروريّ إجراؤه تبعاً لما كان ينزل عليه من وحي ربّه الذي كان يتلقّاه مُنجّماً أي متفرّقاً. فكان رسول الله (ص) يَعي معانيه ويتدبّرها، ويصرّف أمور الدّعوة على أساس مااستوعبه من معاني هذه الآيات النّازلة عليه. وقد لاحظنا كيف أنّ المستشرق (سير وليم ميور) قد لاحظ ذلك، لذلك قال آخر كلامه الذي اقتبسناه من كتابه (حياة محمد) صفحة (٥٦١)، قوله بحق محمد : (وقد كان يعمل بموجب تعاليمه). Mohammad himself gave forth and used.

على هذه الصّورة أكون قد وضعت بين يدي المرء ملامح دليلٍ من داخل القرآن الكريم، يؤكّد مصداقيّته.

٢ ـ دليل من خارج القرآن على مصداقية القرآن

وأنتقل بالقارىء خطوة أخرى، لأُكمل خُطوتي هذه التي خطوتها، ولأضع بين يديه الدّليل من خارج القرآن الكريم، هذا الدّليل الذي يُثْبتُ من خلاله تحقّق المقصدين الهامّين اللّذين قصد تحقيقهما الوعد الإلهي الذي تضمنته آية سورة الفرقان. هذين المقصدين اللّذين استدعيا منه عز وجلّ أن يُنزّل وحي القرآن الكريم مُنجّماً.

فمن خلال تقصّينا لتطوّرات الأحداث التي حدثت في فترة نزول وحي القرآن مُنجّما. تتجلّى لأعيننا ظواهر ثلاث قد برزت إلى مسرح الأحداث : الظاهرة الأولى استمرار نزول جبريل عليه السلام بالوحي القرآنيّ مُنجّماً على رسول الله (ص)، وتحفيظه إيّاه ماينزل به من وحيٍ قرآنيّ، بل ومراجعته إيّاه

بجميع ما نزل به من وحي بين حين وآخر. والظاهرة الثانية تتجلّى بظهور طبقةٍ من حُفّاظ هذا الوحي النازل مُنجّماً، وبترتيب مايشير به جبريل على محمد رسول الله (ص) ثم إنّ عدد أفراد طبقة الحُفّاظ هذه، قد تجاوز عشرات الألوف من أصحابه (ص). والظّاهرة الثالثة التي تتجلى لأعيننا هو تعيين محمد رسول الله (ص) كتبةً يكتبون له مايوحيه إليه ربّه على فتراتٍ، من وحيٍ قرآنيٍ، على الرّقاع والعظام، ووفقاً لما يُمليه عليهم الرسوم الكريم لفظاً وترتيباً.

هذا، وإنّ الباحث الذي أحاط بمعالم مُعطيات الدليل الداخليّ الذي ذكرناه، والمتضمّن الوعد الإلهي، لايستغرب ظهور هذه الظواهر الثلاث التي لاحظناها. بل ولايخطر بباله أن يعتبرها قد حدثت مُصادفةً واتّفاقاً، بل يربط بين هذه الظّواهر وبروزها إلى سطح الأحداث، وبين الوعد الإلهي المذكور بصورة لاشعورية وتلقائيّة. فيرى من خلالها وجه تدخّل المشيئة والإرادة الإلهيّة التي سبق أن وعدت بجمع القرآن وقُرآنه.

على هذا النّسق نسير ببحثنا العلمي عن مصداقيّة القرآن الكريم، فمن شذّ عن هذا المسار، كان في نظري مُخطئاً، ولاينطلق ببحثه من مُنطلقٍ علميٍ صحيح.

والآن، أقول، والحقّ يُقال، وهو لو أنّنا كُنّا في ذاك الزّمان، وسط أمّة أميّة، وهي عرب الجاهلية، الأمّة التي اعتمدت ذاكرة أبنائها، لحفظ كلّ ماتراه مناسباً للحفظ من تراثها التاريخيّ وأدب أدبائها وشعرائها. فلو كُنّا في وسط الجوّ المذكور، وكان طُلب منّا أن ننهج أسلوباً علميّاً في حفظ ماكان ينزل من وحي القرآن على قلب محمد رسول الله (ص)، فماذا كُنّا يومئذٍ فاعلين؟

وجوابي كمفكّر وباحث، لاأرى أُسلوباً أرقى من أن نعمد إلى تلك الوسائل الثلاث المذكورة وبصورة علميّة، يوم لم يكن الورق قد اكتُشف، ولاكانت وسائل الطّباعة قد ظهرت إلى حيّز الوجود.

فلم يكن متوفّراً بين أيدينا إلاّ أعدادٌ متزايدة من مؤمنين أُميّين، لايملكون من متاعٍ أثمن من ذاكرتهم النّامية بشكلٍ ملحوظ.

فإن كُنت مُخطئاً فيما قُلته وقدّمته من رأي، فليتفضّل الباحثون يُصحّحونه. وإني لأتوق لسماع رأي أصوب مما قدّمت.

وبذلك تتجلّى لي معالم تجليّات الله عز وجلّ الذي أنزل وحي القرآن الكريم، إلى جانب خلقه الأسباب التي أدّت إلى ظهور هذه الظواهر الثلاث التي لاحظنا ظهورها على مسرح الأحداث، وذلك حفظاً منه جلّ شأنه لوحيه، وأسلوباً منه تعالى أيضاً لجمع هذا الوحي القرآنيّ، وقرآنه على ترتيب تلاوته، وهو الوحي النّازل مُنجّماً لتحقيق المقصدين الهامين اللّذين سبق أن فهمناهما من آية سورة الفرقان.

فهذه البيئة الأميّة، وهذا الرسول الأميّ، قد استدعيا من الله عز وجل أن يعد، ويحقّق وعده، بهذه الوسائل الثلاث التي كان يستحيل اعتماد وسائل غيرها، أضف إلى ذلك قيمة وأهميّة أوقات رسول الله (ص)، والتي كان عليه أن يبذلها لتأدية رسالة ربّه. فما كان مسؤولاً عن إضاعة أوقاته في أمور خارج هذا الإطار. فقد تحددت مسؤوليته من خلال قوله تعالى : ﴿.. **ماعلىَ الرّسول إلاّ البلاغ.**﴾.

والذي نخلص إليه من بحثنا ودراستنا هذه، هو أنّ طبقة حُفّاظ القرآن الكريم، كانت تؤلّف العُنصر الأساسيّ لجمع القرآن وقرآنه. وتأتي الرّقاع المكتوبة في الدّرجة الثانية أهميّةً، فما كانت الرّقاع إلاّ بمثابة صمّام أمان، يُعمد إليه في الوقت الذي يعود الاعتماد فيه على طبقة الحُفّاظ خطراً لا أهميّةً له من الوجهة التوثيقيّة.

هذا على شاكلة ماكان يجري عند العرب بشأن أشعار أدبائهم البارزين، إذ كانت مُعلّقات أشعارهم، ليست هي المرجع الأهم، بقدر ماكان لحُفّاظ تلك المُعلّقات من دورٍ يؤدّونه على هذا الصّعيد. مع فارق مابين المثالين، وأيّ فارق.



الفصل الثالث
- جمع القرآن الكريم

١ً - واقعة اليمامة وجمع الرّقاع : توفي محمد رسول الله (ﷺ)، ووحي القرآن الكريم يعْمُر أفئدة عشرات ألوف الحُفّاظ، من جهة، وقد دُوّن من جهة أخرى على العُشُب (جرائد النّخل)، وعلى اللّخاف (حجارةٌ بيضٌ رقاق).

وأتتبّع الذي حدث بعد انتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى، بنفس الأسلوب العلمي. فقد سارت الأمور، في عهد الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه، على ماكانت عليه في عهد رسول الله (ﷺ).

لولا أن حدثت معركة اليمامة، التي استشهد فيها مايَنوف على خمسة آلافٍ من حُفّاظ القرآن الكريم، دفعةً واحدة. وتركت هذه المأساة صدىً كبيراً في نفوس كبار مسؤولي الدولة الإسلامية، في المدينة المنّورة، العاصمة آنذاك، وتتجلّى هذه الحقيقة لأعيُننا، من خلال مارواه البخاريّ في صحيحه، وقد دفعت هذه الحادثة هؤلاء المسؤولين الكبار للتفكير بجدٍ وعزيمةٍ ماضية، في أمر معالجة موضوع جَمْع الرّقاع، وترتيبها، وتهيئتها، تحسُّباً من تكرار حادثة اليمامة واستشهاد أكثرية الحُفّاظ، فلا تعود طبقة الحُفّاظ مُعوّلاً عليها في الحفاظ على القرآن الكريم نفسه.

والذي رواه لنا البخاريّ رضي الله عنه قال : (حدّثنا موسى بن اسماعيل عن ابراهيم بن سعد، حدّثنا إبن شهاب عن عُبيد بن السّباق : أنّ زيد بن ثابت رضي الله عنيه قال : أُرسِلت إلى أبي بكر الصّديق مَقْتل أهل اليمامة، فإذا عمر بن الخطّاب عنده.

قال أبو بكر رضي الله عنه : إنّ عُمَر أتاني فقال : إنّ القتل قد استحرَّ يوم اليمامة بِقُرّاء القرآن - واستحرّ معناه اشتدّ — وإني أخشى إن استحرّ القتل بالقُرّاء بالمواطن، أن يذهب كثيرٌ من القرآن — وهذا القول يؤيّد أهميّة ومنزلة وجود الحفّاظ وسلامة كتاب الله من أي تحريفٍ كان - وإنيّ أرى أن تأمر بجمع القرآن. قلت لعمر - والكلام لأبي بكر — كيف يفعل مالم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال عمر : هذا والله خيرٌ — ويضيف أبو بكرٍ قوله — فلم يزل عُمر

يُراجعني، حتّى شرح الله صدري لذلك ــ يقصد أخذه برأي عمر في ضرورة جَمْع رِقاع القرآن ـ وأضاف :

ورأيت في ذلك الذي رآى عمر ـ والآن يعود الكلام للرّاوي زيد بن ثابت، قال زيد : قال أبو بكر ـ موجّها كلامه إلى زيدٍ بعد أن استدعاه وحضر بين يديه ـ : إنّك رجلٌ شابٌ عاقل، لانتّهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتتبّع القرآن، فاجمعه. قال زيد : فوالله لو كلّفوني نقلَ جبلٍ من الجبال، ماكان أثقلَ عليَّ ممّا أمرني به من جمع القرآن. قلت ــ والكلام لايزال لزيد ومخاطباً أبا بكر : كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ قال ــ والكلام لأبي بكر ـ : هو والله خير.

ويضيف زيدٌ قوله : فلم يزل أبو بكر يُراجعني، حتى شرح الله صدري للّذي شُرح له صدر أبي بكر وعمر رضي الله عنهما. فتتبّعت القرآن، أجمعُه من العُسُب ومن اللّحاف وصدور الرّجال ــ أي وفقاً لترتيب تلاوته عند حُفّاظ القرآن الكريم ـ حتّى وجدتُ آخر سورة التّوبة مع أبي خزيمة الأنصاريّ، لم أجدها مع أحدٍ غيره : ﴿ **لقد جاءكم رسولٌ من أنفسكم عزيزٌ عليه ماعنتّم..**﴾ حتّى خاتَمة براءة. فكانت الصُّحف عند أبي بكرٍ حتى توّفاه الله. ثمّ عند عُمر حياته ـ أي طوال حياته ـ ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنه).

هذه الرواية التي رواها لنا البخاري، تُعتبر في نظري من أوثق وأصحّ مارواه. فهي ألقت للباحث الضّوء المُبهر على هذه الأحداث الهامّة ومجرياتها فيما يتعلّق بالتّبديل الطارىء بعد انتقال رسول الله إلى الرفيق الأعلى.

والذي يُستدلّ من هذه الرواية، هو أنّ خشية الله تعالى كانت تعمر أفئدة هؤلاء المسؤولين الكبار في الدّولة الإسلامية. فهذا عمر الفاروق يرى في حادثة مقتل عددٍ كبيرٍ من حُفّاظ القرآن خطراً داهماً على القرآن الكريم نفسه. بسبب أنّه كان يعلم يَقيناً أنّ طبقة الحُفّاظ، كانوا عماد "جمع القرآن وقرآنه". وبسبب أنّ الأمة المبعوث فيها هذا الرسول الكريم الأمين اشتهرت بكونها أمّةٌ أميّة لاتكتب ولاتحسب على الورق. ونَدَرَ من يعرف القراءة والكتابة من أبنائها. فقد كانت تستظهر كُل تاريخها وعلومها وأشعارها عن ظهر قلب.

وهذا أبو بكر الصّديق، يرى أخيراً رأي عمر الفاروق، بعد أن شرح الله تعالى صدره لرأيه. فقد كان يُدرك إذن أيضاً أنّ طبقة حُفّاظ القرآن هم

عماد "جمعه وقرآنه". فقد اقتنعَ أنّه لابدّ أن تفعل هذه الحقيقة فعلها، إذا تكرّر في معركةٍ من المعارك ماحدث في معركة اليمامة. لذلك لاحظناه استدعى أحد أبرز الذّين كانوا كُتّاباً لوحي القرآن في زمن نزوله، وهو زيد بن ثابت رضي الله عنه، وكلّفه بمهمّة جَمْع الرّقاع المؤلّفة من العُسُب واللّحاف، أي من جرائد النخل ورقائق الحجارة البيض. يجمعها ويُرتّبها وفقاً لما في صدور حُفّاظ القرآن من ترتيب أيضاً.

وهذا زيد بن ثابت، وقد شرح الله تعالى له صدره لرأي هذين الصحابيين المسؤولين العظام، وأدّى مُهمّته على أحسن وجه وبكلّ أمانة. وقد احتفظ أبو بكر الصّديق برقاع هذا القرآن المُدّون، والمرتّب على وفق ترتيب ماحفّظ محمد ﷺ الحُفّاظ إيّاه. أي على ترتيب التلاوة الذي كانوا يتلونه به كُلّ آن في حياة محمد رسول الله ﷺ . وقد تسلّم عمر بن الخطاب رقاع هذا القرآن المُدّون أيضاً، بعد أن تسلمّه من بيت أبي بكر بعد أن توفّاه الله عز وجل. فلّما توفّى الله عمر بن الخطاب، احتفظت ابنته حَفْصة برقاع هذا القرآن المُدّون المرتّب بترتيب تلاوته. علماً بأنّ حفصة رضي الله عنها، لم تكن ابنة عمر وحسب، بل وأمّ المؤمنين.

٢ ـ نسخ الرقاع في زمن خلافة عثمان (رضي) :

وانتخَب المسلمون عثمان بن عفّان خليفة ثالثاً لرسول الله ﷺ ورئيساً لدولتهم الإسلامية. فلننظُر ماذا حدث زمن خلافته، وكيف تطوّرت الأحداث، وأثرها الذي تركته على طبقة الحُفّاظ وسلامة القرآن الكريم؟

لأبُد أن يكون قد رسخ في ذهن القارىء إلى الآن أن دراستنا وأسلوبنا العلمي، قد أوصلانا إلى حقيقة تاريخيّة لاغبار عليها، هي أنّ القرآن الكريم، الذي يُعدّ مرجعنا الوحيد لتقصّي صفات خالقنا وأسمائه الحسنى قد وصل عهد خلافة عثمان بن عفّان رضي الله عنه مجموعاً ومرتّباً وفق ترتيب تلاوته في صدور الحفّاظ، سالماً من كلّ تحريفٍ وتبديل.

هذه الحقيقة تدحض زعم مايزعمه بعض المُغرضين من أنّ الخليفة الثالث عثمان بن عفّان هو الذي جمع القرآن الكريم. فقد ثبت لنا بالأسلوب العلمي وصوله مجموعاً ومرّتباً إلى عهد خلافته، بل وفي يديّ حفصة أم المؤمنين.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا : ماهي التطورات التي حدثت في عهد هذا الخليفة الثالث، والتي دفعته لنسخ القرآن على سبع نسخ كما هو معلوم؟ خصوصاً أن أكثر تلك النّسخ لاتزال موجودة في متاحف أعظم الدّول المعاصرة؟

إذا كانت حادثة اليمامة التي جرى خلالها مقتل عددٍ كبير من حُفّاظ القرآن قد استدعتْ ذلك من الخليفة الأول أبي بكر الصدّيق جمع وترتيب القرآن على نفس ترتيب تلاوة الحُفّاظ.

فقد حدثت في عهد الخلافة الثالثة تحوّلات جذرية وتطورات، بالإمكان تتبُّعُها ومعرفة معالمها وأبعادها من خلال ماوصلنا ممّا وثّقه المؤرّخون لتلك الفترة من الزمان، هذه التحولات الجذرية والتطورات هي التي دفعت عثمان بن عفّان رضي الله عنه ليقلِب أو يعكس مُعادلة الحِفَاظِ على القرآن الكريم، التي ذكرناها وتحويلها من الاعتماد على الحُفّاظ، إلى الاعتماد على رقاع القرآن المجموعة والمرتبة بترتيب تلاوتها، فينسخها إلى سبع نُسخٍ ويوزّعُها على الأمصار. وذلك لتحتل النسخة المدونة والمنسوخة هذه المكانة الأولى كصمّام أمانٍ وحسب، ولتحلّ محلّ الحُفّاظ مصدراً لحفظ هذا القرآن العظيم.

نلحظ معالم هذه التحولات الجذرية والتطورات المستجدّة من خلال أسطرِ روايةٍ أخرى نقلها لنا البخاري رحمه الله في صميمه. إذ قال : (عن أنس بن مالك أنّ حذيفة بن اليمان قَدِم على عثمان، وكان يُغازي أهل الشامَ في فتح أرمينيّة وأذربيجان، مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة. فقال حذيفة لعثمان : ياأمير المؤمنين أدرك هذه الأمّة قبل أن يختلفوا في الكتاب، اختلاف اليهود والنّصارى. فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصّحف ننسخُها في المصاحف ونردُّها إليك. فأرسلت بها حفصة إلى عثمان. فأمر زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزّبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحرث بن هشام. فنسخوها في المصاحف. وقال عثمان للرّهط القرشيّين الثّلاثة : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن، فاكتبوه بلسان قريش، فإنّما نزل بلسانهم. ففعلوا. حتى إذا نسخوا الصُّحُفَ في المصاحف ردّ عثمان الصُّحف إلى حفصة. فأرسل إلى كلّ أُفقٍ بمصحف ممّا نسخوا، وأمَرَ بما سواه من القرآن في كلّ صحيفةٍ أو مصحفٍ أن يُحرق.).

ولنتدبّر الآن مضمون هذه الرّواية، وماحملته إلينا من معلومات :

أولاً - يتراءى من خلال هذه الرواية أنّ حذيفة بن النّعمان كان قائداً لجيش المسلمين المُتوجّه لفتح أرمينيّة وأذربيجان، وكان جنود جيشه مؤلّفين من شاميّين وعراقيّين.

ثانياً - لاحظ حذيفة أنّ المسلمين من غير العرب يَلحنون في حفظ القرآن الكريم، فلا يحفظونه على نسق وفصاحة الحُفّاظ من العرب. يقول الرّاوي : (فأفزع حذيفةَ اختلافهم في القراءة) ولاشكّ أنّ ملاحظة هذا القائد المسلم التّقي الواعي لمسؤوليّته، كانت في محلّها.

ذلك أن العرب أنفسهم كانوا مختلفين في القراءات، تقرأ كلُّ قبيلةٍ القرآن بلهجتها، فما بالنا بالأعاجم الذين يصعُبُ عليهم إحسان النُّطق بكثير من أحرف العربيّة لاسيّما حرف الضّاد؟ وهذه الملاحظة تقتضي أن يُصبح بين مُتناول أيدي من يُريد تلاوة أو حفظ القرآن قرآنٌ منسوخ على أوراقٍ بين يديه، دفعاً لهذا الاختلاف بين القراءات.

ثالثاً - وقد عاد هذا القائد إلى القائد العام خليفة المسلمين عثمان بن عفّان (رضي) . وحريٌّ به أن يعود إلى خليفته فيحذّره مما حدث. وقال لعثمان فزعاً : (أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب، اختلاف اليهود والنّصارى.). وإنّها لكلماتٌ معبّرةٌ جداً. فاليهود والنصارى لم يُسعدهُمُ الحظّ بتوثيق تعاليم رُسُلهم في أزمنة أصحاب هذه التعاليم أنفسهم. فكان نتيجةً لذلك ماكان. وهذه الكلمات تعبّرُ عن ثقافةٍ ناضجةٍ، ووعيٍ لتاريخ الأديان.

رابعاً - ماذا كان ردّ عثمان على قائده؟ لم يُجادله، بل وَعى ملاحظته تماماً، وتقبلها، وأرسل إلى حفصة (رضي) يطلب منها نُسخة القرآن التي جمعها أبو بكر الصّديق (رضي) في حياة خلافته وفق تلاوة الحُفّاظ. ثمّ ألّف عثمان (رضي) لُجنةً من أربعة رجالٍ ثقاتٍ. على رأسهم زيد بن ثابت الذي تمّ جُمع القرآن على يديه من قبل. إلى جانب عبد الله بن الزّبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحرث بن هشام. وكان هؤلاء الأربعة من حُفّاظ القرآن أيضاً، كما هو ثابت من التّاريخ. بل كانوا رهطاً من قريش، يتكلّمون بلهجة قريشٍ أيضاً، علماً بأنّ القرآن الكريم نزل بلغة قريش، كما هو معلوم، فلا مجال للخطأ في التّدوين.

ثم إنّ تأليف هذه اللّجنة من هؤلاء الرّجال أنفسهم، يدلّ على حكمة عثمان (رضي) وبُعد نظره. ويزيد رأيه هذا رفعةً وسُمُّواً إشارته على هؤلاء الرّجال بأنّهم، إذا اختلفوا، هُم وزيد بن ثابت في شيءٍ من القرآن، أن يكتبوه بلسان قريش، فإنّما نزل القرآن بلسانهم، ففعلوا. وقد نسخوا القرآن الكريم على سبعِ نُسخٍ، فأرسل عثمان إلى كُلّ قطرٍ من أقطار الدّولة الإسلاميّة نُسخةً من هذه النُّسخ، لينسخ المسلمون بموجبها، فلا يختلفون في شيءٍ من القرآن الكريم.

خامساً ـ والذي فعله عثمان (رضي)، بعد أن فرغت اللّجنة من أداء مهمّتها (ردّ عثمان الصّحف إلى حفصة (رضي)) سالمة دون زيادةٍ أو نُقصان، ودون أن يحرقَ منها شيئاً (وأمر بما سواه من القرآن في كلّ صحيفةٍ عنده، أو مُصحفٍ أن يحرق) أي أنّه أمر المسلمين أن يحرق كلّ واحدٍ منهم، مااستنسخَهُ من صحيفةٍ عنده أو كتبها من قبل، خشية أن يكون فيها نقصٌ أو خطأ. ولم يأمر بإحراق النسخة الأصليّة التي احتفظت بها حفصة لديها بعد موت والدها عمر بن الخطاب (رضي)، بل أعادها إليها سالمة، على حسب ماورد في الرّواية المذكورة.

وهكذا نكون قد توصّلنا بالأسلوب العلميّ، إلى نفس ماتوصّلَ إليه المستشرق وليم ميور، الباحث المُحايد المُنصف، الذّي أقرّ إقراراً جازماً أنّ القرآن الذي بين أيدينا، هو نفسه الكتاب الذي أنزله الله عز وجلّ على رسوله الأمين.

على هذه الصّورة تطمئن نفوسنا بعد الإيمان، إلى أنّ القرآن الكريم الذي نتلوه ليل نهارٍ، في كلّ مكانٍ، هو مرجعٌ تاريخيٌّ ثقةٌ، بإمكاننا الرّجوع إليه، لنتعرّف من خلال آياته الكريمة ما للذّات الإلهيّة الخالقة لهذا الكون، من

صفاتٍ وأسماءَ حُسنى. ولانكون مُغالين إذا قلنا إنّ هذا القرآن المعتمد الموثوق بـه قد وصل إلينا سالماً، وفقاً لما نصّ عليه قوله تعالى في سورة الحجر :

﴿ **إنّا نحن نزلّنا الذّكر وإنّا له لحافظون.**﴾. هـذا الدليـل الدّاخلي مـن ضمن القرآن نفسه الذي تأيّد بالدليل الخارجيّ الذي أوردناه.



الفصل الرابع
١ ـ هل اختلق محمّد ﷺ القرآن ؟

فإذا وصلنا إلى هذا الحدّ من البيان، طرح أعداء الإسلام علينا سؤالاً هو: وماأدرانا أنّ هذا القرآن الذي وصلنا عن محمّدٍ ﷺ سالماً هو تنزيل رب العالمين؟ وليس من وضع محمد بن عبد ا لله نفسه؟

والذي وُلِدَ مسلماً مؤمناً برسالة محمد رسول ا لله ﷺ، يردّ على هذا السؤال، ويُجيب إجابةً تقليديّة. على شاكلة من سبق أن قالوا : إنّا وجدنا آباءنا على ملّة، وإنّا على آثارهم مُقْتدون.

أما نحن، وقد انتهجنا الأسلوب العلميّ أسلوباً لفهمنا وإدراكنا، فلا سبيل أمامنا إلاّ الإجابة عن هذا السؤال بالأسلوب العلمي، دون الطّريق التقليدي.

والذي أرغب فيه هو الكلام أوّلاً عن الذات البشريّة مجردةً عن أيّ أمرٍ روحي، وبمنطقٍ تاريخّيٍ أصيلٍ وثابتٍ وبالأسلوب العلمي.

فالذيّ يستعرض تاريخ الأفذاذ من الرّجال، هؤلاء الذين تركوا بصماتهم على صفحات تاريخ الإنسان، وبرزوا على مستوىً عالميّ، بين قائدٍ عسكريّ، وفيلسوف، وعالم، في فرعٍ من فروع العلوم. فقد لمعت أسماء الاسكندر المقدونيّ وهتلر ونابليون مثلاً قوّاداً عسكريين.

وبرقت أسماء سقراط وأفلاطون وهيجل والغزالي، مثلاً فلاسفة مفكّرين، واشتهرت أسماء نيوتن وأنشتاين وابن سينا والفارابي علماء في مختلف فروع العلوم.

فإن نحن استعرضنا هؤلاء الأفذاذ من الرّجال فرداً فرداً، لاحظنا نبوغ عبقريّتهم في اتّجاه واحد، وليس على جميع المستويات هذا ماأثبتته عشرات الكتب التي بحثت جوانب حياة هؤلاء الرّجال الأفذاذ. ولم يزعم واحدٌ منهم أنّه تلقّى مواهبه أو علومه من طرفٍ خفّيٍ وطريقٍ غيبيّ. وكانت تتجمّع عوامل مختلفة، وأسباب عديدة، تدفع إلى ظهور هذه الشّخصيات. فمن هذه العوامل،

أن يسبق ظهور هذا القائد أو ذاك مثلاً، دخوله الكُلّية العسكرية، وترقّيه في مختلف مراتبها. فهذه خلفيات القوّاد العسكريّين. كما جرى أن سبق ظهور عالم من العلماء الذين اشتُهروا ولمعت أسماؤهم، دخولهم كلّيةً علميّةً مُحدّدة، وترقّيهم في تلقّي علمهم من خلالها. وذلك بعد أن يمرّوا بمراحل دراسيّة متوالية. فهذه خلفيّات العلماء النّوابغ أمثال نيوتن وآنشتاين وسواهما من العلماء البارزين. كما جرى أن يسبق ظهور فيلسوفٍ شهيرٍ لمع إسمه في تاريخ البشرية، متابعته للعلوم الفلسفيّة، وترقّيه إثر ذلك، واشتهار مايطرحه من أفكارٍ مُضافةٍ جديدة. فهذه خلفيّات الفلاسفة في التّاريخ.

والذي يلاحظه المرء من خلال متابعته لسجلّ حياة هذه الشخصيّات اللاّمعه جميعاً، أنّه كانت لاتمرّ فترةٌ من الزّمان إلاّ وتهتزّ صورتهم من جوانب عديدة في أعين الباحثين. بل تهتزُّ كثيرٌ من آرائهم وعلومهم على مرّ الزّمان.

فهذه هي ملامح الذات البشرية المجردّة عن أيّ دعمٍ روحيّ، ولايختلف في هذا الأمر إلاّ من جانب الأسلوب العلميّ في بحوثه ودراساته.

فمن هذا المُنطلق العلميّ المُبصّر، تعالوا نتناول هذه الذّات البشرية التي طلعت علينا بهذا القرآن العظيم الذي وصلنا عنه سالماً، بلا أدنى تحريف. نتناول ذات محمد بن عبد الله بالبحث والدراسة وننظر : هل يتأتّى أن تكون هذه الذات البشرية هي التي اختلفت هذا القرآن وأبدعته، أم أنّ محمّداً ﷺ قد تلقّى وحي القرآن حقّاً من جهة خالق هذا الكون ومُبدعه، لنتمكّن بذلك من الإجابة على هؤلاء الذّين اعتادوا أن يوجّهوا، على فتراتٍ، مثل هذا السؤال؟

ولست أول من يتصدّى لهذا السؤال ولاأوّل من أجاب. فالمكتبات عامرةٌ بعشرات الكتب في هذا المجال. وإنّ جميع مَن كتبوا من الأصدقاء ومن الأعداء، أجمعوا على أنّ محمداً رسول الله ﷺ كان على رأس عباقرة تاريخ الإنسانية وأفذاذهم، وإن اختلفوا فيما طلع على الناس به من كتاب.

وأنقل بعضاً ممّا كتبه الأب حداد الذي كتب كتابه الضّخم المؤلّف من عدّة أجزاء، محاولاً تحريف الآيات القرآنية عن مواضعها، وتضليل القُرّاء بأحطّ أسلوب. ويدرّس مؤلفه هذا في معهد تخريج الخوارنه في بيروت عاصمة القطر الشقيق لبنان. وقد اضطّر الأب حداد مُكرهاً، وذلك عندما تناول شخصية النبي

العربي محمد رسول الله ﷺ، بالكلام على مزاياه. يُلاحظه القارئ يكتب وفؤاده يقطُر دماً من جرّاء تعصُّبه وعداوته. قال وهو يناقض نفسه ص١٠٦٤: (كانت شخصية محمد بن عبد الله الهاشميّ القرشيّ، النّبي العربي، مجموعة عبقريات، مكّنته من تأسيس أمّةٍ ودينٍ ودولةٍ من لاشيء. وهذا لم يجتمع لأحدٍ من عُظماء البشرية : كان محمد عبقريةً دينيّة.. وكان محمد عبقرية سياسيّة.. وكان محمد عبقرية دبلوماسية.. وكان محمد عبقرية عسكرية.. وكان محمد عبقرية إدارية.. وكان محمد عبقرية تشريعية.. أخيراً كان محمد عبقرية أدبية.. فقد كان النبي العربي رجل دين ورجل دولة ورجل أدب، قلّما عرف العالم له مثيلاً.). وهل تخرج مثل هذه الأوصاف من قلم عدوٍ إلاّ كرهاً، وإقراراً لواقعٍ لاينكُره إلاّ أعمى أو مجنون؟

وأعود إلى مانحن بصدده، من دراسة هذه الذّات البشرية التي أنجبتها أرضٌ غير ذات زرع، لم تشع فيها من المعارف، اللّهم إلاّ حديث القوم عن الشّعر والتّفاخر.

وهكذا توصّلنا إلى أنّ جميع عباقرة البشر، استندت عبقرياتهم إلى خلفيّات ومعطيات علمية وفلسفية وعسكرية وسواها. ودون هذه الخلفيات والمعطيات العلمية والفلسفية والعسكريّة يستحيل أن ينمو وعي أيّ إنسان كان.

هذه حقيقة تشاهدونها يوميّاً. وهذه الحقيقة الناصّعة هي سرّ تبايُن مستويات بعضها عن بعض. بل إنّ هذه الحقيقة النّاصعة تشكّل ظاهرة قانونٍ طبيعيٍ أيضاً، لامجال للاختلاف فيه. إذ هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون، بل هل تستوي الظّلمات والنور، أو هل يستوي الصّيف والشتاء، أو يستوي الأخضر واليابس؟

وعلى ضوء هذه الحقيقة النّاصعة، يتناول الباحث بأسلوبٍ علمّيٍ، شخصيّة محمد بن عبد الله ﷺ. فإذا كان هذا الباحث مُنصفاً. يبحث أوّل مايبحث في خلفيّة شخصية هذا الرسّول ومعطياتها العسكريّة والعلمية والفلسفية، فإذا أتمّ هذا الأمر، تساءل أوّل الأمر : هل كان محمّد ﷺ يقرأ ويكتب؟ فإذا كان يقرأ ويكتب، فأين تعلّم ودرج في سُلّم العلوم؟

ولست أدّعي أنّي أوّل من يحاول تتبُّع شخصية محمد رسول الله ﷺ بهذا الأسلوب العلميّ، وبهذا التّدرج في البحث. فهذا هو الأب حدّادٌ وسواه من أعداء الإسلام، قد تتبّعوا الأمر من نفس الزّاوية، وبنفس الأسلوب العلميّ، فَذُهِلوا ممّا تبيّن لهم من حقيقة ناصعة، هي أنّ محمّداً ﷺ كان أميّاً لم يقرأ و لم يكتب و لم ينتسب إلى أيّ معهدٍ علميّ. فقد أذهلهم مع ذلك أن يكون محمد بن عبد الله ﷺ عبقرياً دينيّاً.. وعبقرياً سياسياً.. وعبقرياً دبلوماسياً.. وعبقرياً عسكريّاً.. وعبقريّاً إدارياً.. وعبقرياً تشريعياً.. وعبقرياً أدبيّاً.. فيشذُّ بذلك عن جميع عباقرة التّاريخ، ولايكون لوعيه العظيم هذا خلفيّة علميّة ومعطيات اجتماعيّة وسواها من المُعطيات.

أي أنّ الأب حدّاد وسواه من أعداء الإسلام، قد أذهلهم مخالفة شخصيّة محمد بن عبد الله، للحقيقة الطبيعيّة المألوفة لنمو الوعي الإنساني وهذا القانون الطبيعيّ. فماذا يفعلون تجاه هذا الواقع الذي لايُنكر تاريخيّاً، ولا قرآنيّاً؟

إنّهم إن سلّموا بحقيقة كون محمد رسول الله ﷺ. أميّاً، وجب عليهم الإقرار بأنّ معجزة القرآن هي معجزة سماويّة، ليست هي من صُنع أو عطاء أو إفتراء محمّدٍ نفسه. أمّا إذا أرادوا أن يضلّلوا الناس، ويوهوهم أنّهم درسوا شخصيّة محمّد ﷺ دراسة علميّة موضوعيّة، وثبتت لهم عبقريّته على جميع الصُّعد، فلن يجدوا إلى ذلك سبيلاً. إلاّ قلب الحقائق التّاريخيّة والقرآنيّة، لتضليل الناس، وإقرار مافي قلوبهم من زيغ..

٢ ـ أعداء الإسلام اعتبروا محمّداً ﷺ عبقرياً:

أعود أقول : إنّ الأب حدّاد وسواه من أعداء محمّدٍ قد أذهلهم مخالفة شخصيّة محمّد للحقيقة الطبيعيّة المألوفة والمتعلّقة بنموّ الوعي الإنساني وهم ممّن تناولوا دراسة شخصيّة محمد ﷺ بالأسلوب العلمي. وقد لاحظ القارئ من خلال مااقتبسته من كتاب الأب حدّاد، اعترافه بعبقرية محمّد ﷺ على جميع

الصّعد. وهذه ظاهرة إعجاز لاتتأتّى بطريق طبيعيّ. فهل يعترف الأب حدّاد بهذه المعجزة الإنسانيّة المنسوب إيتاؤها إلى الله الخالق، ويُلزم بالتّالي الإيمان بنبّوة محمّد بن عبد الله ورسالته. أم يقوم بحركة التفافٍ حول هذه الحقيقة إنقاذاً لسمعته كباحث بالأسلوب العلميّ، فيرضي من حوله من أتباعه وإن تسبّب ذلك في إغضاب الله في عليائه؟ أي أنّه وقع في مأزق من يرفض قطعة النّقود التي أضحت بين يديه أملاً في مبلغٍ كبيرٍ بعيد التّناول منه.

وأقول والأسف يعتصر فؤادي هو أنّ الأب حدّاد حاول الإلتفاف على هذه الحقيقة الطبيعية المألوفة، تضليلاً للنّاس، وتشويهاً للحقائق التاريخ، وساءت عاقبته، وإليكم البرهان على ماقلته وادّعيته :

ذلك أنّ الأب حدّاد هذا، قبل اعترافه بعبقريّات محمد بن عبد الله على الصفحة (١٠٦٤). أي قبل ذلك بصفَحَات، قام، وهو الرّجل المسيحيّ الدّين، الذي يُفترض فيه خشية الله خالقه، والصّدق فيما يكتب ويقول. قام بمحاولة الإلتفاف على موضوع حقيقة كون محمد عبد الله ﷺ أميّاً. محاولاً طرح هذه العَثَرة، والصخرة الرّاسية جانباً، والقيام بحركة التفافٍ من حولها ليُكمل طريقه في التّضليل. وكتب على الصفحة (١٠٥٨) وبالحرف الواحد، وتحت شعار (فهل كان محمّدٌ أميّاً؟)، مع ملاحظة أنّ كلمات هذا الشّعار الذي طرحه، يثبت منه تلقائياً أنّ كون محمّد أميّاً لايقرأ ولايكتب، سيكون عقبةً كأداء في طريق بحث الأب حدّاد نفسه.

قال : (وقد آن لنا أن نتخلّص نهائياً من الأسطورة الرّائجة والخُرافة الشّائعة عن أميّة محمّد.) فهو اعتبر هذه الحقيقة التاريخيّة والقرآنية أسطورة رائجة، وخُرافة شائعه. وأضاف يقول : (درج القوم على اسناد تلك الأميّة المزعومة إلى أساسٍ من القرآن مغلوط. حيث يُسمّى محمّداً - النّبي الأمّي - أعراف ١٥٦).

وأيّ قوم أراد الحدّاد، إلا جميع المسلمين؟ فلم يصّرح بذلك، كي يتجاوز من الناحية النفسيّة، جرح مشاعر المسلمين بصورة مباشرة، وأضاف يقول : (وقد فاتهم ــ أي فات المسلمين أجمعين ومؤرخيهم وعلمائهم ــ أنّ القرآن يأخذ هذه الصّفة هنا، لابمعناها اللغويّ، بل بمعناها الإصطلاحي الذي

أشاعه اليهود في مهاجرهم والحجاز. فكلّ ماعداهم من النّاس "أميّون" أي من "الأمم" الذّين لاكتاب منزّل لهم، فالعرب كتابيّون وأميّون :

﴿وقل للذين أوتوا الكتاب والأميّين : أأسلمتُم.﴾. آل عمران ٢٠.

لذلك فمحمّد نبيٌّ "أميّ" أي العربي. ويشهد القرآن على سعة ثقافة محمّد واطّلاعه على سائر معارف بيئته. وأسطورة الأميّة روّجها كُتّاب (إعجاز القرآن) ليسندوا إليه معجزة الإعجاز. كأنّ الثقافة والنّبوة لاتجتمعان. وأكثر أنبياء بني اسرائيل كانوا على ثقافة عالية، وسيّدهم موسى الكليم قد تثقّف قبل بعثته في قصر فرعون بكلّ ثقافة المصريّين. وكذلك محمّد فقد تثقّف بكلّ ثقافة الأرستقراطية القرشيّة، مثل ابن عمّه علي بن أبي طالب تِرْبُهُ في نشأته. والسّيرة النبويّة تشهد بأنّ محمداً قبل بعثته كان تاجراً دوليّاً مابين اليمن والشّام، وتاجراً ناجحاً، ممّا حمل السيّدة الثريّة خديجة على الزّواج منه. وقيادة تجارة كبيرة دوليّة ناجحة زمناً طويلاً تقتضي من صاحبها ثقافةً وافرة. والسّيرة تشهد أيضاً بأنّ محمّداً قبل بعثته كان حنيفاً كبيراً يستطلع أخبار الدّين والتّوحيد، ويطلبها عند أهلها في حلّه وترحاله، ويتحنّف مثل الحنفاء والرُّهبان، يتأمّل في الوجود درب الوجود. وليست هذه حال الأميّين، بل حال أهل الثّقافة والصّوفية. فقد كان النّبي بحّاثة دينيّاً، واسع الإطلاع شامل الإطلاع.).

لابدّ أن يعلم كلّ ضليع في لغة الضّاد، أنّه لايجوز الانتقال باللّفظ من معناه الحقيقي إلى معناه المجازي أو الإصطلاحي إلاّ بتوفّر قرينة تبرّر ذلك. و لم يأت الأب حداد بأيّة قرينه هنا تنقل لفظ "الأمّي" من معنى لايقرأ ولايكتب، إلى المعنى الاصطلاحي المزعوم. أضف إلى ذلك أنّ كلّ مؤرّخ يعلم بأنّ العرب كانوا "أميين" بمعنى لايقرؤون ولايكتبون، ولذلك اعتمدوا ذاكرة أبنائهم لحفظ تراثهم الشّعري. ومحمّدٌ ﷺ هو من هؤلاء الأميّين الذي لم يكن يقرأ ويكتب، وإلى هذا أشار قوله تعالى : ﴿ هو الذي بعث في الأميّين رسولاً منهم..﴾.

على هذه الصّورة تكون قد أدركنا حركة الالتفاف التي قام بها الأب حداد، حول حقيقة كون محمد بن عبد الله أمياً لايعرف القراءة ولا الكتابة، ولا انتسب إلى أيّ معهدٍ علميّ، زاعماً : (أنّ القرآن يأخذ هذه الصّفة هنا، لابمعناها

اللّغوي، بل بمعناها الاصطلاحيّ الذي أشاعه اليهود في مهاجرهم والحجاز.. فمحمّدٌ نبيٌّ "أميّ"، أي من الأميّين العرب..).

هذه النقطة التي أثارها هذا الأب المسيحيّ الرّوحي، تؤلّف عمليّة التفافٍ ومجرّد ادّعاء، ولاينجح الإلتفاف علميّاً إلا بعد تقديم الدليل القاطع والبرهان الساطع على صحّة الإدعاء. وإلاّ باءت عمليّة الالتفاف هذه بالفشل الذّريع.

والدّليل المطلوب تقديمه هنا، هو تِبيان :

أولاً ـ أنّ كلمة أمّي تعني لُغةً عدم القراءة والكتابة.

ثانياً ـ وأنّ لكلمة أمّي اصطلاحاً لغوياً، أتى على بيانه أصحاب معاجم اللّغة.

ثالثاً ـ وتقديم قرينةٍ لُغويةٍ تنقل لفظ الأمّي في الآية القرآنية من معناه اللّغوي، إلى معناه الإصطلاحي، خصوصاً وأنّ الله الذي أنزل القرآن قال : ﴿**إنّا أنزلناه قرآناً عربياً لعلّكم تعقلون.**﴾ يوسف ٢ ـ وقد سبق أن شرحت معنى العربيّ أيضاً.

نسأل : هل تنقّل هذا الأب الروحي المسيحيّ خلال هذه الخطوات الثلاثة في بحثه العلمي، أم أنّه تجاوزها، مُفسحاً لنا مجال اتّهامه بالتّضليل، ومحاولة الالتفاف على كلمة "أمّي"، بأسلوبٍ فاشلٍ ودنيء؟

وأقول، والإمتعاض يعتصر فؤادي من هذا الأب حدّاد الذي يواجه الآن في عالم البرزخ ماقدّمت يداه. أقول : إنّه لم يلتزم بهذه الأمور الثلاث المذكورة، بل تجاوزها. وأثبت بتجاوزه فشله الذريع فيما زعمه وادعاه. وهكذا باءت عمليّة التفافه المذكورة بالفشل الذريع المُشين يقيناً. وثبت من خلال ذلك أنّه كان لايحسب لآخرته أيّ حساب. وأنّه كان جُلّ همّه أن يُخاطب بالأب حداد.

وهاقد مضى على طبع مؤلّف الأب حدّاد أكثر من نصف قرن من الزّمان، فلم يأبه له أيّ مفكّرٍ عربيّ مُحايد. حتى طلع علينا صاحب القراءة المعاصرة، ينهج نهجه، بل يُزايد عليه أيضاً. وقد كشفت عن حقيقة ماذهب إليه في الجزء الثاني الذي رددت به عليه.

أقول نهج صاحب القراءة المعاصرة نهج الأب المسيحي في دعواه، دون تقديم دليل قاطع وبُرهان ساطع. ولاندري هل أراد هذا أن يرتدي لباس الإسلام

وحسب، فيكتب ماكتب لغرضٍ في نفسه، فانتحل صفةً ليست له، وخاض غمار مُعتركٍ لاقِبل له فيه؟

ألا وإنّ الأب حدّاد، قد أقرّ من حيث لايريد، بأنّ كلمة أمّي تعني في اللغة العربية عدم القراءة والكتاب، حين قال : (.. هذه الصّفة هنا، لابمعناها اللّغوي، بل بمعناها الإصطلاحي..) فكأنه قال بألفاظٍ أخرى : إنّ الأمّي لغةً هو الشخص الذي على فطرة أمّه لايقرأ ولايحسب على حسب ماذكر اللغويّون. ولاندري كيف نقل المعنى اللّغوي إلى المعنى الإصطلاحي بلا مبرّر يبّرره؟

والمهمّ من جميع ماذكرناه، هو أنّ الذي أوصل إلينا هذا الكتاب المُنزّل وهو القرآن الكريم، كان رجلاً أميّاً لايقرأ ولايحسب، ومن أمّةٍ أميّةٍ أيضاً، اعتمدت ذاكرة أبنائها لحفظ أنسابها وأشعار أبنائها ورواياتهم، بسبب عدم انتشار القراءة والكتابة بين أبنائها. هذا الأمر الذي أضحى بديهيّةً من المُسلّمات لدى المسلمين، بدليل ماأورده المؤرخون، وماعرفه مَن عايش سُكّان شبه جزيرة العرب من الشعوب المجاورة لهم.

ومادام أصدقاء محمد بن عبد الله وأعداؤه، قد شهدوا بتعدّد عبقرياته، خلافاً لجميع من برز في تاريخ البشر من العباقرة. وأنّ عبقريات محمّد هذه لم تستند إلى خلفيّاتٍ دراسية ومُعطيات علمية، فقد دانتهم شهادتهم هذه الفريدة، فالزمتهم الإقرار بما صرّح به محمد نفسه من أنّ هذا القرآن قد كان يُوحى به إليه من قِبل خالقه، وليس هو من افترائه وإبداعه. إذ لايقبل العلم ولا العقل ولا المنطق أن يبدو محمدٌ ﷺ عبقريّاً في جميع نواحي حياته وعطاءاته، ولاتكون له خلفيّةٌ دراسيّة ومعطياتٌ علميّة قد أكسبتْهُ هذا العلم بل هذا الإدراك الواسع الذي لامثيل له في تاريخ البشر قاطبةً، فمن عَمِيَ أو تعامى عن هذه الحقيقة، لايُسمع له قول، فقد ضلّ في نظر العلماء والباحثين، عن هذه الحقيقة العلمية ذات الشُّعب والأُصول.

وبناءً على ماذكرناه نقول : لم يكن محمد بن عبد الله عبقرياً دينيّاً، ولاكان عبقرياً سياسياً، أو كان عبقرياً دبلوماسياً، وهو لم يكن عبقرياً عسكرياً أو عبقرياً إدارياً أو عبقرياً تشريعياً، أو كان عبقرياً أدبيّاً، بل كان يتيماً، أميّاً، رسول ربّ العالمين. فإذا تجلّت مظاهر هذه العبقريّات على يديه، فبتفضّلٍ من ربّه

عليه، الذي اصطفاه لرسالته، وبتعليم من ربّه الذي أنزل عليه آي الذّكر الحكيم على قلبه. ولاينتقص من ذلك كون محمّد بن عبد الله شُعلةً من الذّكاء، ناضج الرأي، بعيد الغور، كريم الخلق والشمائل، وأنّه القدوة في المروءة.

ونحن لو سلّمنا مع الأب حداد، بسعة اطّلاعِ محمد على معارف بيئته، وأنّه تثقّف بثقافة بيئته الأرستقراطية القرشيّة، وأنه تاجَر مابين اليمن والشّام، وكان تاجراً ناجحاً خبيراً، وأنّه كان قبل بعثته حنيفاً متقدّماً، يستطلع أخبار الدّين والتّوحيد ويطلبها عند أهلها، في حِلّهِ وترحاله، ويتحنّف كما يتحنّف الحُنفاء والرّهبان، ويتأمّل الوجود وربّ الوجود. فجميع هذه الأمور التي ذكرها الأب حدّاد، يستحيل أن تَرْقى بيتيم أمّي إلى مُستوى يكون فيه عبقرياً دينيّاً وسياسياً ودبلوماسياً وعسكرياً وإدارياً وتشريعياً وأديباً، أهلاً لأن يأتي بمثل هذا الكتاب المسمّى لقرآن الكريم.

ولاأسوق كلامي هذا دعوى بلا دليل، فلديّ أكثر من دليل قاطع، سآتي به من القرآن نفسه، فلقد احتوى هذا القرآن العظيم على أمورٍ يستحيل أن يأتي بها محمد بن عبد الله ﷺ ولو اتّصف بجميع ماوصفه به الأب حداد وسواه من صفات، ونسب إليه من مؤهّلات.

وقبل تقديم هذه الأدلّة، لابدّ لنا من الرجّوع إلى معاجم اللغويين.

٣ - مامعنى "عبقريّ"؟

فما معنى عبقريّ؟ قال في الكليات كلّ جليلٍ فاخرٍ من الرّجال والنّساء وغيرهم عند العرب عبقريّ. وقال صاحب محيط المحيط : عبقَر موضعٌ زعموا أنّه كثير الجنّ، ونسبوا إليه كلّ شيءٍ تعجّبوا من حذقه أو جودة صنعته وقوّته، فقالوا عبقري، والأنثى عبقرية.

وعليه فالعبقريّ في اللّغة، هو من بلغ حِذقُه وجَودة صَنعته وقوّته حدّ السّيادة والكمال. هذا وإنّ الأب حداد ومن كان على شاكلته، وقد تملكّتهم الدهشة ممّا تحقّق على أيدي محمد بن عبد الله ﷺ بعد الأربعين من عُمره، ممّا لم يتحقّق على أيديّ أيّ إنسانٍ أو نبّيٍ قبله، وضعهم هذا الواقع أمام خيارين

لاثالث لهما : إما الاعتراف بنبّوة هذا اليتيم الأمّي، وإما الذهاب بعيداً عنها بالالتفاف حولها، بدافع من تعصّبهم المقيت وزيغ قلوبهم عن الحق.

وقد اختار هؤلاء الخَيار الثاني، وصرّح الأب حداد بما خطّت يداه، وماسبق أن نقلته للقُرّاء : أنّ محمداً كان عبقرياً على جميع الصُّعد، وأنّ هذا (النّبي العربي رجل دينٍ ورجل دولة ورجل أدب، قلّما عرب العالم له مثيلاً.). وهو لم يقصد بأوصافه هذه التي وصف بها محمداً، أنّه يؤمن بنبوّته. بل قصد شيئاً آخر وهو أنّ محمداً كان يقرأ ويكتب ويصوغ تعاليم التوراة والإنجيل بلسانٍ عربيّ مبين، وهو نبيٌّ للعرب وحسب.

ويؤيّد قوله على الصفحة (١٠٦٩) من مؤلّفه : (يشهد القرآن العربيّ عن نفسه أنّه نسخةٌ عربيّةٌ عن التّوحيد الكتابي. فالقرآن يقول ﴿**وإنّه لفي زُبُر الأولّين.**﴾ شعراء ١٩٦ - أي كُتُبهم كالتوراة والإنجيل.) وقد قصد من قوله هذا أنّ محمداً ﷺ عرض عقيدة التوحيد التوراتية بلسانٍ عربّيٍ، فلم يأت بشيءٍ جديد. بينما لاتفيد الآية ماذهب إليه (الحدّاد) من قريبٍ أو بعيد. بل الذي تفيده هو الأنْبَاء عن أنّ زبر الأولّين كانت قد أنبأت عن نزول هذا القرآن وحسب. بدليل قوله جل شأنه بعد هذه الآية مباشرة : ﴿ **أوَلَمْ يكُنْ لهم آيةً أن يعلَمَهُ علماء بني اسرائيل.**﴾. فالعلم في تعريفات الجرجاني : صفةٌ راسخةٌ ندرك بها الكلّيات والجزئيات خلافاً للمعرفة. فأنت تقول : عرفت الله، ولاتقول علمت الله. فالعلم ضدّ الجهل. وربّما أُطلق العلم مجازاً على مجموع مسائل وأصول كليّة متعلّقة بموضوعٍ ما، مُرتّبةً على نظامٍ مخصوص : كعلم الكلام والنحو وغيرها. فالآية الكريمة : ﴿ **أَوَلَمْ يكنٍ لهم آيَةً أن يعلمه علماء بني إسرائيل.**﴾، تفيد أنّ علم علماء بني إسرائيل راسخٌ بنبوءات، كتبهم المتعلّقة بنزول القرآن الكريم، وهو دليلٌ على صدق القرآن من أنّه موحى به من الله الذي سبق أن أنزل التوراة والإنجيل.

فأين مازعمه (الحدّاد)، وأين دلالة الآية الكريمة التي استدلّ بها خطأ؟ لذلك تُعتبر خطوة الحدّاد هذه، محاولة التفاف مكشوفة حول نبوّة خاتم النبييّن ﷺ، ذلك أنّ الإنسان العبقريّ، مهما بلغ من الحذق والقوة وجودة الصنعة، سيادة وكمالاً، فإنّه يستحيل عليه أن يأتي بمثل مااحتواه القرآن الكريم من أمور. فإلى أدلّة مصداقية القرآن الكريم :

٤ ـ أدلة مصداقية القرآن الكريم

١ ـ دليل المصداقية الأول :

سبق لي أن بيّنت أن القرآن الكريم امتاز بلسانه العربيّ المبين، لكنّ هذه المزيّة اقترنت بتحدٍ عظيم يستحيل أن يتحدّاه أيّ عبقري مهما بلغ من السيادة والكمال. اقترن بتحديّ محمد بن عبد الله ﷺ الأنس والجنّ أن يأتوا بمثل هذا القرآن ولو كان بعضهم لبعضٍ ظهيراً. فهل يستسيغ عقلنا أن يتفرّد محمد ﷺ بعبقريةٍ لغويّة يتحدّى بها البشر إلى يوم الدّين؟ ولايكون هذا التحدّي في اللّغة وحدها، بل يشمل المضمون أيضاً وفي آنٍ واحد.

أجل، لربّما يستسيغ عقلنا أن سيتحدى محمد ﷺ أهل عصره. أمّا أن يتحدى اللاّحقين بهم إلى يوم الدين أيضاً، فإنّ مثل خطوته هذه، لايمكن أن تتأتّى إلاّ ممّن اطّلع على غيب المستقبل. ولايتحدّى بمثل هذا التحدّي من قال : ﴿ **إنّما أنا بشرٌ مثلكم..**﴾. وهذا التحدّي قد ضمّ اللّغة والمضمون معاً، وهو مانصّت عليه الآية (٨٨) من سورة الإسراء : ﴿**قل لئن اجتمعت الإنس والجنّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعضٍ ظهيراً. ولقد صرّفنا للنّاس في هذا القرآن من كلّ مَثَلٍ فأبى أكثر الناس إلاّ كفُوراً.**﴾. فقد شمل التحدّي أن يأتوا ﴿.. **بمثل هذا القرآن..**﴾ فصاحة وبلاغة ومعاني. لخُلُوّ النّص وسباقه وسياقه من أيّ قيدٍ يقصرُه على اللّغة وحدها.

والمعلوم هو أنّ القرآن الكريم بحث المعتقدات وأسماء الله الحُسنى وتجليّاتها والعبادات والأخلاق والمعاملات وفلسفاتها جميعاً. كما تطرّق إلى بحث القوانين المدنية والاقتصادية والسياسية وماوراء الطبيعة والحياة الآخرة وماشابه ذلك من معارف وعلوم. وقد شرحها القرآن جميعها شرحاً مستفيضاً، وجاء منها بما يصلح لكلّ زمان ومكان. مع بيان الفوائد المرجوة منها. فمن أراد التّصدي للتحدّي القرآني، وجب عليه الجميع بين فصاحة اللّغة وبلاغتها، وتقصّي العلم وكمال المعرفة.

فكيف استساغ عقل الحداد ومن على شاكلته، والحال هذه، أن ينتحلوا لمحمّد اليتيم الأمّي صفة العبقريّ، وهم يعلمون أنّ العبقري هو من كان حاذقاً في

صنعته، مجيداً لها إلى حدّ الكمال. وقد عاش محمد بن عبد الله ﷺ لايعرف القراءة والكتابة، و لم تكن تعاليم التّوراة والإنجيل صالحة لكل زمان ومكان، حتى يصوغها صياغةً عربيّةً ويعرضها بمثل هذا الحذق؟ إلاّ أن يكون الأب حدّاد ومن على شاكلته قد حاول بهذا الوصف الذي وصف به محمداً ﷺ، أن يقوم بمحاولة التفافٍ حول معجزة القرآن نفسها، قاصداً إجهاضها أيضاً.؟

ومن المؤسف أن تعمى أبصار هؤلاء الأعداء عن كلمة (قل) التي استُهلّت بها آية التّحدي التي أوردناها. فكلمة (قل) استُعملت هنا بمعنى تلفّظ. أي أنّ (قل) نبّهت أذهاننا إلى أنّ مايتلّفظه محمد رسول الله ﷺ، ليس من إبداعه وصياغته، على حسب ماوضّح ذلك صاحب معجم محيط المحيط. أي أنّ التحدّي الذي تضمّنته آية سورة الإسراء، لم ينسب إلى محمّدٍ نفسه، بل نُسب إلى سواه. وهل ينسبُ عبقريٌّ ماأنجبته عبقريتّه إلى سواه؟ وماجدواه من مثل هذه الخطوة، إلاّ أن يحصد نقمة الله ونقمة العباد؟ وهل تتفّق مثل هذه الخطوة، وحذقَ الإنسان لصنعته؟

وعليه، فما دامت مزيّة القرآن الكريم أنّه مصوغٌ بلسان عربيٍ مبين. ومادامت هذه المزيّة قد قُرنت بهذا التحدّي: اللّغة إلى المضمون، فَذلك في حدّ ذاته دليلٌ قاطعٌ على أنّ القرآن الكريم لم يكنْ من افتراء محمد ﷺ نفسه، بلِ كان تنزيلاً من ربّ العالمين، الذي بعث محمداً رسول الله داعياً بإذنه وسراجاً منيراً. وليس القرآن الكريم دليل عبقريّة هذا الرّسول العظيم.

٢ ـ دليل المصداقية الثاني:

وسبق أن بيّنت أنّ القرآن الكريم امتاز بكونه وصل إلينا سالماً من كلّ تحريفٍ وتبديل. فلو فرضنا والعياذ بالله أنّه من اختلاق محمد ﷺ نفسه، وهو العبقريّ لوقعنا في تناقُضٍ رهيب. فأنّى لعبقريّ اختلق كتاباً مثل القرآن الكريم وتحدّى به الإنس والجاَن، أنّى له أن يقول بلسان ربّه: ﴿ **إنّ علينا جمعه وقرآنه..** ﴾ ثم يترك هذا الكتاب مُوزّعاً على رِقاعٍ من صحف النّخيل ورقيق الحجارة؟ فكيف يكون عبقريّاً، ويترك هذه الثّلمة في أمر جمع الرّقاع في كتابٍ

منسوخ عنها؟ هذا الأمر الذي أنجزه عثمان بن عفان؟ خصوصاً وأنّه واثَقَ أصحابه على ألاّ يقدموا على أمرٍ لم يفعله رسولهم الكريم؟

أَوَلَمْ يخطر على بال هذا "العبقري" إمكان أن يضيع القرآن من بعده، إذا هو أهمل القيام بجمعه وقرآنه؟

أقول : مادام هذا الرسول العظيم قد ترك رقاع القرآن الكريم دون استنساخٍ لها رضوخاً لقول ربّه **﴿وماعلى الرسول إلاّ البلاغ﴾** وقول ربّه أيضاً : **﴿إنّ علينا جمعه وقرآنه..﴾** إنّ خطوة محمّد ﷺ هذه فيها كلّ الدّلاله القاطعة على أنّه ﷺ لم يختلق القرآن و لم يبتدعه من عند نفسه، بل كان يتلقّاه عن طريق وحي ربه عز وجل، وأنه ﷺ كان من اليقين بوحي ربّه بحيث قعد عن استنساخ القرآن الكريم على شكل كتابٍ، يستنسخ عنه جميع المسلمين. ويُعدُّ موقفه ﷺ هذا في حدّ ذاته دليلاً قاطعاً على أنّ القرآن لم تبتدعه عبقريّة محمد بن عبد الله إطلاقاً.

٣ ـ دليل المصداقية الثالث :

ثم تعالوا إلى هذا القرآن الكريم الذي طلع به علينا محمد اليتيم الأمّي، فإذا كانت جميع بحوثه ومضامينه لاتتجاوز علوم ومعارف عصره ﷺ، فلابدّ لعلوم عصرنا، وقد تقدّمت تقدُّماً ملحوظاً، أن تُناقض وأن تخالف معطياتها، مُعطيات القرآن، فيبدو هذا القرآن باهتاً، لاحياة فيه. ويميل إنسان عصرنا حينئذٍ إلى اعتقاد أنّ القرآن قد يكون من نسج محمد ﷺ نفسه.

ونحن لوعُدنا إلى سنوات عصر النّبوة المحمديّة، أي إلى ماقبل أربعة عشر قرناً من الزمان، وسألْنا ورقة بن نوفل الذي ترجم بعض صحف الكتاب المقدّس المؤلّف من التوراة والإنجيل. كما سألنا بُحيرا الرّاهب الذي يزعمون أنّ محمّداً استقى منه كثيراً من علوم القرآن الكريم. أقول: لو أننا عُدنا فسألناهما سؤالاً مُحدّداً، وهو بيان ماذكَرَته التوراة حول خلق هذا العالم؟

فسيتناول أحدهُما أو كلاهما أوّل سفرٍ من التّوراة، وهو سفر التكّوين، ليَجدا فيه، ومن أوّله الجواب، فيتلوانه بكل وقارٍ وجلال لتقديسهما إيّاه، ليجدا فيه : (في البدء خلق الله السماوات والأرض. وكانت الأرض خربةً وخاليةً،

وعلى وجه الغَمْر ظُلمةٌ، وروح ا لله يرفّ على وجه الماء. وقال ا لله ليكن نورٌ فكان نور. ورآى ا لله النّور أنّه حسن. وفصل ا لله بين النور والظلمة. ودعا ا لله النور نهاراً والظّلمة دعاها ليلاً. وكان مساءٌ وكان صباحٌ يوماً واحداً.).

وهُنا يتذكّر كل واحدٍ من النّاس أنّ ألفاظ هذا النصّ التوراتي قد أتت في الكتاب المقدّس المطبوع في عصرنا. هذا النّص الذي يُغاير ماكشف عنه العلم، بل وسخر منه العلماء المعاصرون، بما حققّوه من اكتشافاتٍ معاصرة. فلا يُفيدنا هذا النّص التوراتي في شيءٍ عن كيفيّة خلق ا لله لهذا العالم الذي نعيش في ظلاله، إذ ورد هذا النصّ مُجملاً ومغايراً للعلم أيضاً.

ويستوقفنا قوله : ﴿ وروح ا لله يرفّ علي وجه الماء..﴾، فقد فصل هذا النّص بين ذات ا لله وروحه بلا مبرّر. كما يُذكّرنا هذا النص بما أورده بعض المفسّرين عند تفسيرهم لقوله تعالى : (كُن فيكون). فما فسّروه بسذاجة، كانت أوحت لهم به التوراة إذن. فهذا النصّ يقول : (وقال ا لله ليكُن نورٌ فكان نور). فمن جهةٍ كانت (روح ا لله ترفّ على وجه الماء). ومن جهة أخرى أبرز النصّ التّوراتي ا لله بذاته وروحه فجأة، ودون مقدّمات ليقول : (ليكن نورٌ فكان نور.).

فالإله التّوراتي تلفّظ من جهته بأمر، فتحقّق هذا الأمر مرّةً واحدة ودون توسّط قوانين ناظمة، وفي غفلةٍ من ملائكة ا لله، ودون خلق شمس يصدُر عنها هذا النّور : (وفصل ا لله بين النّور والظُّلمة) أي أنّ النور الذي وُجد بأمره، اختلط بالظُّلمة التي كانت (على وجه الغَمر)، فعمد الإله التّوراتي إلى الفصل بين النّور والظلّمة هاتين. أمّا كيف قام بعمليّة الفصل هذه بين النّور والظلّمة، فلا شأن ـ كما يبدو ـ للتوراة ببيان ذلك من قريب أو بعيد. (ودعا ا لله النّور نهاراً، والظُّلمة دعاها ليلاً).

فنور النّهار اليوم إذاً ليس هو من عطاء ضوء الشّمس التي نشاهدها في كبد السّماء. هذا النّور الذي يطلع مع طلوعها ويغرب مع غروبها، بل إن هذا النّور على حدّ زعم سفر التكوين، هو كما أورده لنا حرفيّاً، هو النّور الذي صدر عن أمر الإله التّوراتي وهذا يُناقض ماأثبته العلم.

ونستزيد الرّاهب بحيرا وورقة بن نوفل علماً عن خلق العالم. فلا يحيران جواباً، بل يميلان لتكفيرنا أيضاً، إن نحن ناقشناهما فيما أسمعانا إيّاه من سفر التكّوين.

فإذا كان محمد بن عبد الله اليتيم الأمّي قد صاحب الرُّهبان قبل بعثته، فأنّى لهؤلاء الرُّهبان أن يزيدوه علماً عمّا ذكرناه؟ وحتىَ إذا سألنا رأس الكنيسة (البابا) اليوم في روما، فأنّى لهذا البابا أن يزيد على هذا النّص التوراتي شيئاً من عنده؟

فإذا قام محمد ﷺ اليتيم الأمّي يصوغ القرآن من عند نفسه، في ذاك التاريخ، على أساس ماسمعه من بحيرا ونوفل وغيرهما، فلن يزيد النّاس علماً، فوق ماأتت به التّوراة، ممّا ذكرناه.

وَهَبْ أننّا كنّا في أزقّة مكّة، نسمع من يتلو بعضاً من آيات سورة الأنبياء التي نزلت في مكّة (٣٠ - ٣١) : ﴿**أوَلَمْ يَرَ الذين كفروا أنّ السماوات والأرض كانتا رتقاً، ففتقناهما، وجعلنا من الماء كُلّ شيء حيّ، أفلا يؤمنون وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم، وجعلنا فيها فَجاجاً سُبُلاً لعلّهم يهتدون. وجعلنا سقفاً محفوظاً، وهم عن آياتها مُعرضون.**﴾. ورحنا نتدبّر ألفاظ هذه الآيات الكريمة، فبدا لنا أنّ الفَتْق ضدّ الرّتق، أيّ أنّ السماوات والأرض لم تُخلق على ماهي عليه الآن، بل كانت كُتلةً واحدةً ماديّة. و لم تذكُر الآيات جميعها وزنها أو شكل كُتلتها. فتكون هذه الآيات قد زادتنا معلومة جديدةً هامة لم يأت بها النّص التوراتي المذكور فنتساءل بالبداهة : من أين استقى محمد اليتيم الأمّي هذه المعلومة العلمية الهامّة التي تتفق مع نظرية الانفجار العظيم؟

ونلاحظ أيضاً قوله: ﴿**وجعلنا من الماء كلّ شيء حي**﴾ وهذه معلومة أخرى لانجد لها أصلاً في التّوراة. ثم إنّ الدّواب التي تدبّ على وجه الأرض وتحت الماء، لايبدو لنا من ظاهرها المادّي أنّها من أصلٍ مائي، بل من أصل ماتأكله من النباتات واللّحوم.

فما هي حقيقة هذه المعلومة الثانية التي نصّت عليها هذه الآيات ﴿**وجعلنا من الماء كلّ شيء حي، أفلا يؤمنون.**﴾. وهذه المعلومة الثانية ــ كما

يبدو من ألفاظ الآية ـ قد كشف عنها قائلها، ليجذب النّاس للإيمان، فهذا مادلّ عليه قوله (أفلا يؤمنون؟).

ونلاحظ من خلال تدبُّرنا لهذه الآيات معلومة ثالثة يفيدها قوله : ﴿**وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم..**﴾.

أي أنّ الأرض كان مُنبسطةً قبل ظهور الجبال الرّواسي فوقها، والتي كان المقصود من إحداثها، منع الأرض أن تميد بالنّاس، أي التّخفيف من تعرُّضها للزلزال نتيجة ثوران الكتلة اللاّهبة الكبيرة في بطن الأرض.

والمعلومة الرابعة التي نلاحظها من خلال تدبّرنا قوله : ﴿**وجعلنا فيها فجاجاً سُبُلاً لعلّهم يهتدون.**﴾ هو أنّ توزيع الجبال الرّاسيات، وتقسيم الأرض إلى قارات وإلى مشارق ومغارب، وترك فجاجٍ وأوديةٍ وممّرات جبليةٍ بينها ليفسح المجال للنّاس للتنقّل بينها من مكان إلى آخر ومن أقطارٍ إلى أخرى، كانت نابعةً من مشيئة الله وإرادته وتخطيطه شأناً في ذلك كلّه.

والمعلومة الخامسة التي نلاحظها من خلال تدبُّرنا قوله : ﴿**وجعلنا سقفاً محفوظاً، وهم عن آياتها مُعرضون.**﴾ هي معلومة جديدة وهامّةٌ جدّاً. فالذي خلق هذه الكرة الأرضية جعل من حولها سقفاً محفوظاً من قبله لتأدية مُهمّةٍ مُحدّدة. كما يُعتبر هذا السّقف المحفوظ في حدّ ذاته آيةً ودليلاً على عظمة من أنشأه. وأنّ النّاس في غفلةٍ يومئذٍ عن عظمة وشأن وتبيُّن هذا السّقف المحفوظ. وها أن علماء عصرنا قد اكتشفوا وجود هذا السقف المحفوظ، وهو طبقة الأوزون التي تصون سكان الأرض من خطر أشعّة الشّمس فوق البنفسجيّة. وهو السّقف الذي أشار إليه حديث رسول الله ﷺ والوارد في تفسير ابن كثير تحت هذه الآية بالذات وهو قوله : (موجٌ يكُفَكَفُ عنكم).

فهذه المعلومات القيّمة أفادتنا بها هذه الآيات من سورة الأنبياء، والتي استمعنا إليها تُتْلى في أزقّة مكّة المُكرّمة على ألسنة أُناسٍ ملأ قلوبهم الإيمانُ بكون هذه الآيات وحي الله وليس من افتراء محمد اليتيم الأمّي ﷺ، وقد شعّ الهُدى من أعين هؤلاء وبَرَق، وكأنّه مصابيح تُنير الطّريق. فمن أين استقى محمد اليتيم الأمّي هذه المعلومات ياأصحاب العقول إن كُنتم من المُتفكّرين؟

وإذا عُدنا إلى الرّاهب بُحيرا، نستوضحه أمر هذه المعلومات، فلن يجد لها أساساً في التوراة التي بين يديه، فإذا قرأ على مسامعنا الاصحاح الأوّل من سفر التكوين بأكمله، لم نلحظ فيه شيئاً ممّا سمعناه من آيات هذا القرآن وعلمناه في أزقّة مكّة.

ثم إذا عمد الرّاهب بحيرا إلى الاصحاح الثاني، يقرأ لنا ماجاء فيه، لتلا علينا : (فأُكْمِلَتِ السّماوات والأرض وكُلّ جُندها. وفرغ الله في اليوم السّابع من عمله الذي عَمِل. فاستراح في اليوم السّابع من جميع عمله الذي عَمِل. وبارك الله اليوم السّابع وقدّسه. لأنّه فيه استراح من جميع عمله الذي عَمِلَ الله خالقاً. هذه مبادىء السّماوات والأرض حين خُلِقَتْ. يوم عَمِلَ الرّب الإله الأرض والسماوات، كُلُّ شجر البريّة لم يكن بعد في الأرض، وكلّ عُشب البريّة لم يُنبت بعد..).

ونكتفي هنا بما تلاه ومااطّلعنا عليه ممّا أوردته التوراة عن خلق العالم. ويُراودنا في ذلك سؤالٌ هامٌ، هو : مادام قد جاء في التّوراة : (قال الله ليكُن نورٌ فكان نور) أي أنّ الله لايحتاج إلى بذل جهدٍ من نوعٍ ما، لإيجاد أو خلق شيء من الأشياء، حتى ولا إلى مساعدة ملائكته، ولا إلى أيّ شيءٍ آخر، فكيف تنصُّ التوراة نفسها فتقول : (فاستراح في اليوم السّابع) وبين القولين تناقضٌ رهيب؟

فإذا عُدنا من فورنا إلى أزقّة مكّة، نُنصت إلى مايُتلى فيها من آياتٍ قرآنية، سمعنا من يتلو علينا آيةً من سورة ق (٣٨)، فنعلم أنّ (ق) مختزلةٌ من قادر، ثم نستمع إلى قوله تعالى ﴿**ولقد خلقنا السّماوات والأرض ومابينهما في ستّة أيّام ومامسّنا من لُغوب فاصبر على مايقولون وسبّح بحمد ربّك قبل طلوع الشّمس وقبل الغروب ۞ ومن اللّيل فسبّحه وأدبار الغروب.**﴾. وإذا تبيّنا معنى كلمة (لُغوب) وجدنا أنّ لغَبَ الرّجل لُغوباً، بمعنى تَعب وأعيا أشدّ الإعياء. فادهشنا أن ينفي القرآن الكريم ماأوردته التّوراة من أنّ الله استراح في اليوم السّابع. فكيف خالف محمد اليتيم الأمّي مااستقاه من توراة على يد الرّاهب بحيرا وسواه، إذا كان قد افترى هذا القرآن الكريم؟ أوليس المعقول أن يكون التّنزيل العزيز، قد جاء يصحّح ماعبثت به الأيدي في نُصوص التوراة؟

وهنا نتمنّى على الله أن يُصلح المُسلمين، فكيف قصرّوا في تدبّر القرآن، وتركوا لمسيحيّي أوربة وأمريكة أن تزدهر على أيديهم مختلف العلوم؟

ولْنَقُم برحلةٍ إلى بلاد الغرب، نستطلع ماتوصّل إليه علماؤهم من معلومات في زماننا، خلافاً لتعاليم التوراة التي هي لاتزال بين أيديهم، والتي يدّعون أنّها كانت هي نفسها بين أيدي ورقة بن نوفل والرّاهب بحيرا وسواه، في عصر نبوّة محمّد وأيّام ظهور دعوة الإسلام، فماذا نجد؟ نجد أنّ العالم الفيزيائي جورج غاموف طَلَع عليهم بنظريّة الانفجار العظيم، فوضّح لهم عن طريق الفيزياء النووية أنّ الكون بأجمعه كان قد نشأ عن تمدُّد مادّةٍ أوليّةٍ مضغوطةٍ، حدث لها ماسمّاه بالانفجار العظيم. وأنّ عالمنا هذا قد تولّد في أعقاب تمدُّدٍ هائلٍ في المادّة، منذ حُقبة تُراوح بين (١٢ ــ ٢٠) مليار عام. وأنّ مادّة هذا الكون كانت مُخبّأةً آنذاك في مساحةٍ أصغر كثيراً، من الحيّز الذي يُشغله بروتون واحد. وأنّ كثافة مادة العالم كانت في تلك المرحلة تهول الخيال. فتمدّدت تلك المادّة بالانفجار العظيم الذي حدث لها. وقد ثبت لدى بعض العلماء ومن خلال رصدهم الكواكب والسّيارات أنّها لاتزال تتمدّد. فتتباعد النجوم بعضها عن بعض بما لايتصوّره خيال الإنسان. فيدهشنا هنا أن نسمع تفسيراً علميّاً مُعاصراً، لِما سمعناه من آي القرآن في أزقّة مكة : ﴿ **أوَلَم يَرَ الذين كفروا أنّ السّماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما..** ﴾. فما الانفجار العظيم إلاّ عمليّة فتق لمادة السّماوات والأرض التي كان الله تعالى قد خلقها مضغوطةً هذا الضّغط الذي يفوق الخيال. أمّا كيف جعلها تنفجر، فتتكّون منها السماوات والأرض؟ فهذه أسئلة، جاء في القرآن الكريم بشأنها قوله تعالى في سورة الكهف (٥١) :
﴿**ماأشهدتهم خَلْقَ السماوات والأرض ولاخَلْقَ أنفسهم، وماكُنت مُتّخِذَ المُضلّين عَضُداً.**﴾.

وقد تبيّن لنا أن العلماء في أوربة اكتشفوا غلافاً غازياً يُحيط بالأرض غير سميك. وهو يتألّف من ذرّات غاز الأوزون.

وأنّ هذه الطبقة الغازية المُحيطة بالأرض، تحمي سُكّانها من أشّعة الشمس فوق البنفسجيّة، هذه الأشعّة المؤذية لأنسجة أجسامهم. و لم يستطع أي عالم من هؤلاء حتى الآن أن يهتديَ إلى طريقة تكوّن هذه الطّبّقة الأوزونيّة حول جوّ الأرض، وأصلها ومنشئها. ولا لاحظوا وجود مثلها حول جوّ أي من أجواء الكواكب الأخرى التي اكتشفوا وجودها. وقد أضحى وجود هذا الغلاف

الأوزونيّ آيةً كونيّةً مدهشةً لعقولهم، ولِما توصّلوا إليه من علوم. ووجدنا فيما قرأناه في أوربة تفسيراً لِما كان يُتلى من آي القرآن الكريم في أزقّة مكّة المكرمّة، وهو قوله تعالى :

﴿**وجعلنا سقفاً محفوظاً، وهم عن آياتها مُعرضون.**﴾. فانظر ياقارئي العزيز إلى الذين كفروا بهذا القرآن وزعموا أنّه من افتراء محمد اليتيم الأمّي، كيف أيّدت كشوفهم العلمية ماأتى به محمد رسول الله ﷺ قبل أربعة عشر قرناً من الزّمان، ممّا لاأساس له في جميع صُحُفهم المقدّسة وغير المقدسة ماضياً وحاضراً، والتي كان يتداولها الرّاهب بحيرا وأمثاله من الرُّهبان.

فهاهم أولاء الذين كفروا يَرَوْن نفس مابيّنه القرآن المُبين، ومع ذلك يزعم هؤلاء أنّ عبقريّة محمّد الدينيّة قد افترت هذا القرآن وأبدعته. وهل يصحّ في اللّغة أن يُسمّى من أوتي مثل هذه المعارف قبل أربعة عشر قرناً من الزّمان، أن يُسمّى "عبقريّاً".

والعبقرية تعجز عن أن تتنبّأ، فتصدق نُبوءاتها، كما تصدق نبوءات الرسّالة السماوية. وهي تعجز عن أن تفسّر كلّ ماضمنّته الرّسالة من معارف. وإذا لم تؤدّ العبقرية ماأدّته الرسالة، فقد بطلت تسميتّه محمّد ﷺ بالعبقريّ، و لم يبق إلاّ أن يكون الرّسول المُوحى إليه.

ولنُعد إلى ماأوردته الآية (٥٣) من سورة السّجدة، قوله تعالى : ﴿**قل أرأيتم إن كان من عند غير الله، ثم كفرتم به، من أضلّ ممّن هو في شقاق بعيد. سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبيّن لهم أنّه الحقّ، وأوَلَمْ يكفِ بربّك أنّه على كلّ شيءٍ شهيد.**﴾. فالخطاب هنا في هذه الآية الكريم موجّهٌ إلى الذّين يكذّبون برسالة محمد اليتيم الأمي وبنبّوته وبرسالته، وزعموا أنّ القرآن الكريم الذي طلع به محمد ﷺ على العالم، افتراءً من عند نفسه، وسرقةً من تعاليم التوراة والإنجيل، وليس من عند الله عزوجلّ.

والخطاب في هذه الآية الكريمة ينبيء أيضاً عن أنّ التطورّ العلميّ الذي سيبلغُه علم هؤلاء المكذبين، سيكشف لهم عن صدق آيات القرآن المبين، وإعجاز قوله تعالى وصُنعه في الآفاق وفي أنفسهم يوماً بعد يوم، وسنةً بعد سنة،

حتى يتبيّن لهم أنّه الحقّ. ليثبت لهم أيضاً أن ا لله جل شأنه على كل شيءٍ شهيد. صدق ا لله العظيم.

فهذا هو دليلنا القاطع من آي القرآن المبين نفسه، نردّ على الذين يسألوننا أوليس القرآن من افتراء محمد ﷺ نفسه.

٤ً- دليل المصداقية الرّابع :

ومادامت التوراة المُتداولة في عصرنا، هي نفسها التي كان يتداولها الرّاهب بحيرا وسواه من قبل، فلا حاجة بنا إلى أكثر من أن نتصفّح ماأتت به هذه التوراة عن قصّة آدم التي تحدثّ عنها القرآن الكريم، ثمّ نحكم بعد ذلك : هل صاغ محمّد اليتيم الأمّي مااحتوته التوراة حول موضوع آدم بلسانٍ عربيّ مبين؟

ففي السّفر الأول التكوين، الإصحاح الثاني ورد : (وجبلَ الرّب الإله آدم تُراباً من الأرض. ونفخ في أنفه نسمة حياة. فصار آدم نفساً حيّة. وغرس الإله جنّةً في عدن شرقاً. ووضع هناك آدم الذي جبله. وأنبت الربّ الإله من الأرض كلّ شجرةٍ شهيّةٍ للنّظر وجيّدةٍ للأكل. وشجرةَ الحياة في وسط الجنّة وشجرةَ معرفة الخير والشرّ.. وأخذ الرّب الإله آدم ووضعه في جنّة عدن ليعملها ويحفظها. وأوصى الربّ الإله آدم قائلاً : من جميع شجر الجنّة تأكل أكلاً.. وأمّا شجرة معرفة الخير والشرّ فلا تأكل منها. لأنّك يوم تأكل منها موتاً تموت. وقال الرّب الإله ليس جيّداً أن يكون آدم وحده. فأصنع له مُعيناً نظيره.. فأوقع الرّب الإله سُباتاً على آدم فنام. فأخذ واحدةً من أضلاعه، وملأ مكانها لحماً. وبنى الرّب الإله الضّلع التي أخذها من آدم امرأةً واحضرها إلى آدم. فقال آدم هذه الآن عظمٌ من عظامي ولحمٌ من لحمي.. وكانا كلاهما عُريانين آدم وامرأته وهما يخجلان.).

ولابدّ أن تأخذنا الدّهشة ممزوجةً بالأسى حين نرى مااستُهلت به التوراة المعاصرة من التناقضات. فكيف يُقال إنّ ا لله جبل آدم تُراباً من الأرض؟ فهل كان إله التّوراة فنّاناً نحّاتاً، يجبل التراب طيناً، وينحت من الطّين كهيئة إنسان، ثم ينفخ فيه نسمة حياة؟ وإذا كان الإله قد نحت آدم فجعله أبيض اللّون، فمن نحت

العرق الأصفر والأحمر والأسود من البشر؟ فهل يستسيغ العلم أن تأتي هذه العُروق المُختلفة من عرق أبيض بذاته؟

ثم هل من المنطق أن يخلق الله آدم قبل أن يُهيّيء له مسكناً يؤويه، ومزرعة يأكل منها؟ فالنصّ التّوراتي يعكس هذه المعادلة : جَبَلَ آدم ثم غرس له جنّة. وأين قُدرة الله التي تجلّت من خلال قوله (ليكُن نورٌ فكان نور.)؟ فلِمَ لم يقل هنا "ليكن آدم ومزرعته، فيكون آدم ومزرعته، دون كدّ من الإله التّوراتي أو عناء؟

وأغرب من هذا وذاك أن يزرع إله التّوراة شجرة معرفة الخير والشّر، وينهي آدم وحواء عن الاقتراب منها والأكل من ثمرها، ثم يمضي فيهدّدهما بقوله : (لأنّك ـ ياآدم ـ يوم تأكل منها موتاً تموت).

ولايأبه آدم لوصية ربّه، ولاحوّاء ويأكلان من هذه الشّجرة، فيتبيّن لهما أنّهما عريانان كما خلقهما ربّهما (فخاطا أوراق تين وصنعا لأنفسهما مآزر.) هذا هو ماروته التوراة. بل أضافت التوراة أنّه بعد زوال العمليّة الإلهيّة المزعومة، عاد الرّب الإله فصنع لآدم وامرأته (أقمصةً من جلدٍ وألبسهما) ٣/٢٠. فهل كان إله التّوراة مَعْنيّاً بأن يظلّ آدم وحوّاء عريانين أصلاً، فمنعهما من أن يأكُلا من ثمر شجرة معرفة الخير والشرّ؟ ولو إلى حين.

والتّوراة هذه تصوّر لنا الإله الرب عاجزاً عن خلق حوّاء، حتّى اضطر لتخدير آدم، واستئصال أحد أضلاعه، ولاندري كيف صاغ حوّاء من هذا الضّلع الذي لايزيد عن سنتيمترات؟ فهل يستسيغ عقلنا وعلمُنا أن تُصنع حوّاء من ضلع آدم، وأضلاع آدم تُرى كاملةً على مرّ العصور؟

ونحن إذ نكتفي بما كشفنا عنه من قصّة آدم وحوّاء التوراتيّة، وعن مجموعة التناقضات التي انطوت عليها هذه القصّة بل الأسطورة، التي لاترقى إلى منطق أو علم. هذه القصّة التي زعم الأب حداد ومن على شاكلته أنّ عبقريّة محمدٍ اليتيم الأميّ الدينيّة صاغتها في القرآن المبين بلسان عربيّ مبين.

ونحن إذ نكتفي بما أوردناه منها، ننتقل إلى آيات القرآن الكريم نتدبّرها وننظر : هل ثمّة وجهٌ لما يزعمون، أم أنهمّ يهرفون بما لايعرفون؟

ولنبدأ بالآية (٣٣) من سورة آل عمران. قال تعالى : ﴿ **إنّ الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين.** ﴾ فمنطوق هذه

الآية الكريمة يُناقض القصّة التّوراتية التي تُصوّر آدم أنّه أوّل مخلوق من بني البشـر. ذلك أنّ فعل اصطفى واستصفى إصفاءً واستصفاء، معناه أخذه صفوةً واختاره، على حسب ماأورد صاحب معجم محيط المحيط. ثم إنّ هذه الآية لاتفرّق بين آدم وبين نوحٍ وآل ابراهيم وآل عمران من حيث اصطفاء الله تعالى هؤلاء جميعهم أي أنّ القرآن المبين يعتبر آدم نبيّاً من أنبياء الله الكرام، وليس أوّل إنسانٍ مخلوق. بل ويعتبره أوّل نبيٍ من حيث ترتيب ذكره في الآية القرآنية.

فشتّان مابين ماأوردته التّوراة عن آدم، وبين مابيّنه القرآن الكريم؟ فهذه أوّل معلومةٍ أساسيّةٍ يختلف القرآن بها عن بيان التوراة.

ونأتي إلى الآية (٣٠) من سورة البقرة : ﴿**وإذ قال ربُّك للملائكة إنّي جاعلٌ في الأرض خليفة ، قالوا أتجعلُ فيها من يُفسد فيها ويسفك الدّماء، ونحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك، قال إنّي أعلم مالا تعلمون.**﴾.

وقد استعمل القرآن في هذه الآية لفظ (خليفة). ولايكون الإنسان خليفة إلاّ إذا وُجد بين الذين يُستخلف فيهم، أي كان هناك بشرٌ واستخلف أدم من بينهم. ثم إنّ قوله : ﴿**إنّي جاعل**﴾ لايفيد خلق آدم من حيث دلالته، بل جعله خليفةً على البشر الّذين اصطفاه الله منهم. وهكذا تكون الآية قد أتت بما يغاير ماأفادته التوراة من معلومات.

أضف إلى ذلك أن هذه المعلومة القرآنية اقترن بها ذكر الملائكة للدلالة على وجود المملكة السّماوية، على حين لم تأت القصّة التوراتيّة على أيّ ذكر لملائكة الله عز وجلّ. وكأن الله خلق آدم بمعزلٍ عن علم ملائكته.

والأمر اللاّفت لنظرنا، هو أنّ القرآن الكريم لم يأت على ذكر كلمة حوّاء في جميع آياته، وكلّ ماأورده هو : ﴿ **ياآدم اسكن أنت وزوجك الجنّة..**﴾ دون الكلام عن خلق زوجة آدم أو اصطفاء الله إيّاها من بين النّساء. الأمر الذي يعني أنّ المقصود هو أمر الله تعالى إيّاه أن يتّخذ مسكناً، وأن يبدأ تأسيس نظام أسرويّ. أي أنّ البشر قبل آدم، ماكانوا يعلمون عن هذين الأمرين شيئاً. والأغلب أنهم كانوا يقطنون الكهوف قبل بعثة آدم عليه السّلام.

ونحن إذ تدبّرنا هذا القرآن، وأدركنا أنّه اعتبر آدم أوّل نبيٍ، وليس أوّل بشر. كما أدركنا أنّه أتى بمعالم نظامٍ له معالمه وحدوده.

نتوقّف عن الاستمرار في بحثنا هذا، وتكفينا هذه الفروق الجوهريّة التي تبيّناها، هذه الفروق الجذريّة التي يخالف بها القرآن الكريم هذه التّوراة المعاصرة، والتي كانت بين يديّ الرّاهب بحيرا وسواه زمن بعثة محمد رسول الله ﷺ.

ونكون بذلك قد أثبتنا أنّ محمّداً لم يعمد إلى المعلومات التوراتية فيصيغها بلسان عربي مبين، على حسب مازعم الأب حدّاد وسواه من القساوسة المُتعصبيّن، بل أتى محمد اليتيم الأمّي بما لم يأت به الأوّلون، وبوحي من الله ربّ العالمين، الله الذي سبق أن بعث آدم وأنزل عليه هذه التّعاليم التي تطابق المُعطيات العلمية التي كشفت عنها آثار تاريخ البشر الحضاريّ في هذه المنطقة من العالم بالذات.

٥ً ـ دليل المصداقية الخامس :

ولنتناول موضوع الذّات الإلهية وصفاتها، على حسب ماتناولته التوراة. ولنقتطف بعضاً من نصوصها بهذا الخصوص. فقد ورد في سفر التكوين ١/٢:

(قال : الله ليكن نورٌ فكان نور.). كما ورد : (وقال الله لتجتمع المياه تحت السّماء إلى مكان واحدٍ لتظهر اليابسة، وكان كذلك.) ١/٩ وقال (وقال الله لتُنبت الأرض عُشباً وبقلاً يبذر بذراً وشجراً ذا ثمر، يعمل ثمراً كجنسه، بذره فيه على الأرض، وكان كذلك.). ١/١١.

يُستفاد من هذه المقتطفات الأمور التّالية:

أولاً ـ أنّ لله قُدرةً سحريّةً فوق تصور الخيال.

ثانياً ـ أنّ ماأقدم الله على فعله، يُنافي ماكشف عنه العلم المعاصر، من أنّ هذا الكون لم يُخلق و لم يتبلور على شكله الحالي، إلاّ بعد مرور مليارات الأعوام.

ثالثاً ـ وأن خلق الله لجميع الأشياء لايحتاج منه إلى جهدٍ وقوانين.

وتبدأ التناقضات التّوراتية من خلال هذه المقتطفات، وماتلاها. إذ جاء في التّوراة بعد ذلك : (وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا.. فخلق الله الإنسان على صورته.. ذكراً وأنثى خلقهم، وباركهم الله، وقال لهم، أثمروا وأكثروا واملؤوا الأرض وأخضعوها.) تكوين ١/٢٦ (فأكملت السّماوات

والأرض وكلُّ جُندها. وفرغ الله في اليوم السّابع من عمله الذي عمل. فاستراح في اليوم السّابع من جميع عمله الذي عمل.) تكوين ٢/١/٣.

ويُستفاد من هذه النّصوص الأمور التالية:

أولاً - أنّ الله يستعمل قدرته السّحرية تارة، ويجهد نفسه تارة أخرى.

ثانياً - وأنّ الله قد يجهد نفسه في عمله، ويتجنّب قدرته السّحرية، فيحتاج بعدها للرّاحة.

ثالثاً - وأنّ صورة الإنسان شبيهة بصورة الله خالقه، مع اختلافهما في القُوى.

ونلاحظ كيف تصوّر لنا التوراة الله مُتخلّياً عن قدرته السحرية، ويعمل بيديه: (وجبل الرّب الإله آدم تراباً من الأرض. ونفخ في أنفه نسمةَ حياة، فصار آدم نفساً حيّة..) تكوين ٧/٢.

وهذا النصّ يستفاد منه أنّ الله في التّوراة "فنّان" قد حذَقَ النّحت، كما يحذقه الفنّانون. ويزيد عليهم قدرته على نفخ نسمةِ حياةٍ في أنف ماينحته من طين.

وقد ورد في التوراة قبل قليل : (فخلق الله الإنسان على صورته.. فأكملت السّماوات والأرض وكلّ جُندها. وفرغ الله في اليوم السّابع من عمله الذي عمل. فاستراح..). فعمد النّص الجديد إلى الدّخول في تفاصيل خلق الإنسان، فهل حدث هذا قبل اكتمال خلق السّماوات والأرض، واستراحة الله من عمله، أم أنّ عمليّة خلق آدم حدثت بعد فترة راحة الله واستجمامه؟ فالأمر هنا مُهم ومُتداخل.

المهمّ هو أنّ التوراة قد صوّرت للقارىء أنّ الله خلق الإنسان على شبهه. وآدم هو إنسان، فهو على شَبَه الله إذاً. فلم يقل الله ليكن آدم وحوّاء، بل نحت آدم وعمل من ضلعه حوّاء (وأنبت الرّب الإله من الأرض كلّ شجرة شهيّة للنّظر وجيّدةٍ للأكل. كما أنبت شجرة الحياة في وسط الجنّة وأنبت شجرة معرفة الخير والشرّ.) تكوين ٩/٢ ويتساءل أحدنا بعد أن يُطالع هذا النّص:

أولاً - مادامت الجنّة أرضية، فأين شجرة معرفة الخير والشرّ وأين شجرة الحياة؟

ثانياً ـ هل أنبت إله التوراة هـاتين الشّـجرتين عبثـاً ولهـواً ليسـتدرج آدم وحوّاء لفّخ نصبه لإيقاعهما في المعصية، أم لمقصدٍ أسمى من ذلك؟

وتمضـي التـوراة فتصـوّر لنـا الحيّـة تُغـوي حـوّاء. وحـــوّاء تُغـوي آدم. ويأكلان من شجرة معرفة الخير والشرّ. ويعصيان ا لله ولايلبثان أن يريا نفسـيهما عريانين. وتـروي التـوراة عـن آدم وحـوّاء، في حديثهـا عنهمـا فتقـول : (وسمعـا صوت الرّب الإله ماشياً في الجنّة عند هبوب ريح النّهار، فاختبأ آدم وامرأتـه مـن وجه الرّب الإله في وسط شجر الجنّة. فنادى الرّب الإله آدم وقال له : أين أنت؟ فقال : سمعت صوتك في الجنّة، فخشيت لأنّي عُريان، فاختبأت. فقال الرّب الإله : من أعلمك أنّك عُريان؟ هل أكلت من الشّجرة التي أوصيتُك ألاّ تـأكلُ منهـا؟ فقال آدم : المرأة التي جعلتها معي هي أعطتني من الشجرة فـأكلت. فقـال الـرّب الإله للمرأة : ماهذا الذي فعلت؟ فقالت المرأة : الحيّة غرّتني فأكلت. فقال الـرب الإله للحيّة : لأنّك فعلت هذا، ملعونةٌ أنت من جميع البهائم ومن جميع وحـوش البريّة. على بطنك تسعين وتُراباً تأكُلين كـلّ أيّـام حيـاتك. وأضـع عـداوةً بينـك وبين المرأة وبين نسلك ونسلها..) تكوين ٣/٨-١٥.

ويُستفاد من هذا النّص الأمور التالية :

أولاً ـ أنّ مايؤكد شَبَه الإنسان بإله التّوراة المعاصرة، هو أنّه كان يمشـي ويسمع آدم وقع أقدامه.

ثانياً ـ وأنّ الإله التّوراتي لايعلم الغيب، ولاتخترق رؤيته الحُجُبَ، بدليـل أنّه لم يستطع رؤية آدم وحوّاء وهما مختبئان.

ثالثاً ـ وأنّ صوت ا لله يختلف عن صوت آدم، لكنّ لغتـه لاتختلـف عـن لُغته.

رابعاً ـ وأنّ إله التّوراة المعـاصرة كـان يؤثـر أن يـرى آدم وحـوّاء وهمـا عريانان. وأنّه كان يأمل أن يظلّ الإنسـان عُريانـا طـوال حياتـه، بدليـل غضبه علـى آدم وحـوّاء أنّهمـا أكـلا مـن شـجرة معرفـة الخـير والشـرّ، وأدركا أنّهما عُريانان. وقد خاطا أُزراً من ورق التّين ليستترا عـن أعـين الإله الذي عملهما من تراب. وبدليل غضب إله التوراة أيضاً على الحيّـة التي أغوت حوّاء بذلك.

خامساً ـ وأنّ الحيّة ماكانت تمشي على بطنها، قبل أن يلعنها الذي صنعها أيضاً.

سادساً ـ وأنّ هناك عداوة بين الحيّة ونسلها والمرأة ونسلها، لاتتبيّن معالمها في عصرنا الحاضر.

وأغرب ممّا ذكرناه جميعاً، هو أنّ التّوراة قائلةً على لسان الإله الرّب الذي عرضته لأنظارنا، وعلى حسب ماعرضته لأنظارنا، كما عرضته على مسامع محمد بن ا لله اليتيم الأمّي بوساطة بحيرا الرّاهب وسواه، حسب مزاعمهم تضيف قائلة : (هو ذا الإنسان قد صار كواحدٍ منّا عارفاً الخير والشرّ. والآن لعلّه يمدّ يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً، ويأكل ويحيا إلى الأبد. فأخرجه الرّب الإله من جنّة عَدْن ليعمل الأرض التي أُخذ منها..) تكوين ٣/٢٣.

ويُستفادُ من هذا النّص الأمور التالية أيضاً :

أوّلاً ـ أنّ إله التوراة كان عنده سرّ شجرة الحياة الأبديّة التي كان غرسها في جنّة عَدْن. وأنّه لم يغرس تلك الشجرة، إلاّ بقصد أن يأكل هو منها وحده، ليحيا حياةً أبدية. وضنّ بذلك على آدم وحوّاء.

ثانياً ـ وأنّ إله التّوراة ماكان باستطاعته إيجاد سورٍ يحمي به شجرة الخُلد المزعومة. لذلك طرد آدم من جنّة عَدْن التي هيَ على سطح الأرض. بدليل ماسبق أن ذكرت التوراة بقولها : (وكان نهرٌ يخرجُ من عدن ليسقي الجنّة. ومن هناك ينقسم إلى أربعة رؤوس : اسم الواحد فيشون، وهو المحيط بجميع أرض الحُويلة حيث الذّهب. وذهبُ تلك الأرض جيّد. هناك المُقل وحجر الجَزعْ. واسم النّهر الثاني جيحون. وهو المحيط بجميع أرض كوش. واسم النّهر الثالث حِدّاقَل، وهو الجارّي شرقيّ أشور. والنهر الرابع الفرات.) تكوين ٢/١٠.

ثالثاً ـ وأن جميع ماتضمّنُه هذا النّص يُخالفُ معطيات العلم وواقع عصرنا. فلاأثر هناك على سطح الأرض لجنّة الخُلد وعند منبع نهر الفرات. ولاأثر أيضاً لشجرتي الخُلد ومعرفة الخير والشر. ولادليل لدينا على العداوة بين الحيّة والمرأة، وماجاء من نسلهما.

رابعاً ـ وأن التوراة المعاصرة تزعم أنّ الإنسان الذي يموت دون أن يأكل من ثمر شجرة الخُلد، يموت ويفنى ويعود إلى أصلـه التّرابي : فـلا حيـاة ثانية، ولاحياة خلود.

خامساً ـ ولربّما رسخ هذا الفهم أو الاعتقاد عند بولس الرّسول، فاندفع يبتدع عقيـدة فـداء المسيح والخـلاص وحكايـة قيامـة المسيح مـن بين الأموات.

هذه العقيدة التي تُنافي أبسط مُستلزمات العدالة. فهل تستسيغ العدالة أن تقوم حوّاء بالإقدام على جريمة معصية الإله الرّب. فـلا يعاقبهـا الإلـه الـرّب، بـل يُرسل ابنه الوحيد ليُعـذّب بـدلاً عنهـا، فيكـون ذلـك منـه كفّـارة عـن خطيئتهـا وخطايا جميع من توالد من نسلها من العباد؟

وخلاصة القول، فيما استخلصناه حتى الآن ممّا اقتبسـناه مـن النّصـوص التّوراتية، والتي يزعمون أنّ محمّداً اليتيم الأمّي اطّلع عليها في زمنه، هو أنّها أقوالٌ متضاربة مع بعضها، ومع مُعطيات العلوم، تصوّر لنا الإله تـارةً قـادراً علـى كـل شيء. وتارة أخرى عاجزاً عن كلّ شيء. وتارة ثالثة أنّه بحجم الإنسان وشَبَهُهُ، ويمشي على سطح هذه الأرض، وأنّ لأقدامه وقعاً عليها أيضاً.

والآن فلننظُر : ماالذي أتى بـه محمـد اليتيـم الأمّـي : أصـاغت عبقريّتـه المعلومات المُتناقضة المذكورة بلسانٍ عربيٍ مبين، أم عمد هـو إلى هـذه المعلومـات فصّححها بوحيٍ من ربّ العالمين، وأتى بما لم يأت به موسى أو سـواه مـن أنبيـاء بني اسرائيل من قبل؟ وهل جاء ماصاغه من معلومات مُتفّقاً مع العلم ومـع واقـع عصرنا بالذات، أم جاء يُنافيه ويُضادّه؟

ولنعمد الآن إلى الرّبع الأخير من سورة البقرة، الآية (٢٥٥) وهـي أوّل سُور القرآن ترتيب تلاوة وأطولُها وأكثرها آيات، في مقابلة سفر التكوين الـذي هو أول أسفار التوراة. ولنتدبّر معاً، مانتلوه ونقرؤه فيما يتعلّق بذات الله وصفاته عز وجل. قال تعالى: ﴿**ياأيّها الذين آمنوا أنفقوا مِمّا رزقناكم من قبل أن يـأتي يومٌ لابيع فيه ولاخُلّةٌ ولاشفاعة ، والكافرون هـم الظّـالمون. الله لاإلـه إلاّ هـو الحيُّ القيّوم لاتأخذه سِنَةٌ ولانـومٌ لـه مـافي السّـماوات ومـافي الأرض، مَـنْ ذا الذي يشفع عنده إلاّ بإذنه، يعلمُ مابين أيديهم وماخلفهم، ولايُحيطون بشـيءٍ**

من علمه إلاّ بماشاء، وَسِعَ كرسيُّه السماوات والأرض، ولايؤُدُه حفظهُما وهو العلّي العظيم.﴾.

ولنلاحظ كمال وصف الله تعالى لنفسه في هذه الآيات الكريمة، وتسلْسُل كلامه المنطقيّ والموضوعيّ، فسنصل في نهاية تدبُّرنا وملاحظتنا هذه إلى أنّ الطّرح القرآني يختلف اختلافاً جذريّاً عمّا طرحته التّوراة الـتي زعموا أنّ الرّاهب بحيرا قد تلاها على مسمع من محمد رسول الله اليتيم الأمّي ﷺ.

ذلك أنّ الله تعالى نبّه في سورة البقرة، إلى نبوءة موسى والأنبياء من بعده وعن بعثة محمد ﷺ ونزول القرآن الكريم. ووضح للناس نهج التّقوى الذي أتى به هذا القرآن. وأكّد، بعد أن استعرض تاريخ البشر، على أهميّة الدّعاء الإبراهيمي المُستجاب. هذا كلّه في سورة البقرة. ومن ثمّ توجه بخطابه في الآية (٢٥٤) إلى الذين آمنوا، فحثّهم على الإنفاق ممّا رزقهم من مال وحسن التصرّف بما أنعم الله عليهم من قوة، وزودهم به من علم، مذكّراً النّاس أنّ عالمهم هو عالم ابتلاء وامتحان، وأنّه سيأتي عليهم **﴿يومٌ لابيع فيه ولاخُلّة ولاشفاعة﴾** محذّراً كلّ من ينكر هذا من الإساءة إلى نفسه وظُلمها، لكفرانه بهذه الحقيقة الكونية قائلاً : **﴿والكافرون هم الظّالمون.﴾**.

ثم يكشف الله للنّاس عن وجوده وعن صفاته، ويجلّي ذلك بتعابير مُبيّنة وبتسلسل منطقي ونهج علمي موضوعي ويقول :

أولاً ـ ﴿الله لاإله إلاّ هو﴾ أي الله لاسواه، فهو وحده صاحب السُّلطان، لاشريك له في ألوهيّته وسلطانه.

ثانياً ـ ويُضيف أنّ الدّليل على ذلك مُضمرٌ في كونه **﴿الحيّ﴾**. والحيُّ مُعرّفاً بالألف واللاّم يعني الدّائم الوجود والذي لايفنى وكامل الحياة، فلا بداية له ولا نهاية. وهو واهب الحياة ومُحيي النفوس.

ثالثاً ـ والدليل الثاني على ذلك مُضمرٌ في كونه **﴿القيّوم﴾**. والقيّوم مُعرّفاً بالألف واللاّم هو القائم الدائم بذاته والقيّم على كلّ شيء، فلا ابتداء له (اقرب). فهو الحافظ لجميع أشياء هذا الكون، وهو الواهب مالها من قوام (مفردات الرّاغب).

ثم إنّ دلالة القيّوم، من الوجهة العلمية على الله الذي وهب جميع الأشياء قواها. هذه القوى التي تجمع بين ذرّاتها وأجزائها مايساعد على

تحقيق المقصد المرجوّ من إيجادها. إشارة إلى قوى الذرة وقوانين الجاذبية وما إليها، وهو جلّ شأنه إذ قدّم هذين الدليلين (الحيّ القيوم) بقوله تعالى : ﴿**لاتأخذه سِنَةٌ ولانوم**﴾. فالسِنة من الوَسَن أي النّوم الثّقيل. والنّصب والتّعب هو الذي يتسبب بضرورة النوم. فهو تعالى لفت أذهاننا إلى أنّه لايشبه حاله حال الإنسان، فهو لايمسّه نصبٌ ولا لُغوب وهو ليس كمثله شيء. فهيهات أن ينقطع رجاء المؤمن منه أو يفقد تأييده في لحظةً من اللّحظات. فا لله هو الحافظ الرّقيب الذي لايغيب عمّا يحفظه، فا لله خيرٌ حافظاً وهو أرحم الراحمين.

خامساً ـ فإن تصوّر امرؤ أنّ عبادته لغير ا لله قد تُقرّبه زُلفى من ا لله تعالى. فقد حاد عن جادّة الصّواب. فهو تعالى أضاف قوله : ﴿**له مافي السّماوات ومافي الأرض.**﴾ أي أنّ ملكيّته وسعت كلّ شيء، فلا سبيل لأحدٍ أن يزعم السّيادة والألوهيّه من دونه عز وجلّ.

سادساً ـ فإن مال امرؤ لتصوّر وجود من يشفع له بين يديّ ا لله تعالى، يسمع قوله تعالى: ﴿**من ذا الذي يشفع عنده إلاّ بإذنه**﴾ أي لايملك الشّفاعة من دونه إلاّ من يأذن ا لله له بها في حينه.

سابعاً ـ فإن تساءل أحد عن سبب ذلك، يجد الجواب في قوله تعالى : ﴿**يعلم مابين أيديهم وماخلفهم**﴾ أي لايخفى على ا لله حال إنسان، وكُلٌّ يُجزى الجزاء الذي يستحقه.

ثامناً ـــ ويربط ا لله عزّ وجلّ التّطور العلمي بمشيئة ويقول : ﴿**ولايحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء.**﴾.

تاسعاً ـ فإذا تساءل أحد عن حدود علم ا لله وحدود قُدُراته، يجيبه ا لله عز وجل بقوله: ﴿**وسع كرسيّه السماوات والأرض**﴾ أي لايغرب عن علمه وقدراته، ولايُعجزه شيء في السماوات ولافي الأرض.

عاشراً ـ فإن تساءل أحد أخيراً : أا لله هو المُهيمن القابض الباسط المستغني عن الخلق بقدرته؟ ويجيبه ا لله عز وجلّ بقوله : ﴿**ولايؤُدُه حفظهُما**﴾ أي أنّ إدارة السّماوات والأرض لاتُعجز علم ا لله وقدراته كيف لا ﴿**وهو العليُّ العظيم**﴾ فهو تعالى من السمّو والعلاء والعظمة بما لايطالُه خيال الإنسان، ولاتحدّه حدود.

ولنقارن الآن بين ماأتت به "آية الكرسي" هذه وأفادتنا به عن وجود الله وصفاته. وبين ماقدّمته التّوراة في سفر التكوين من معلومات في هذا الصّدد. يتّضح لنا جليّاً أنّ محمداً رسول الله اليتيم الأمّي مااستقى معلوماته هذه عن الرّاهب بحيرا أو سواه، حتى يصوغها بلسان عربّي مبين. فلو كان قد فعل ذلك، لاستحال عليه أن يأتي بما انطوت عليه آية الكرسي هذه، ومافيها من إحكام بيان ووصف لذات الله وصفاته من علوم.

ولابدّ أن لاحظ القارىء العزيز أنّي لم أبالغ في استنباط مااستنبطه من دلالات هذه الآية الكريمة. علماً بأن سورة الحشر عمدت إلى بيان هذه المعاني مفصّلة. حيث أوردت آخر آياتها قوله تعالى : ﴿**هو الله الذي لاإله إلا هو، عالم الغيب والشهادة، هو الرحمن الرحيم. هو الله الذي لاإله إلاّ هو الملك القدّوس السّلام المؤمن المهيمن العزيز الجبّار المتكبّر سبحان الله عمّا يُشركون. هو الله الخالق البارىء المصوّر، له الأسماء الحُسنى، يسبّح له مافي السّماوات والأرض وهو العزيز الحكيم.**﴾.

وهكذا يكون قد ثبت أن القرآن الكريم ليس هو من إبداع محمّد ﷺ اليتيم الأمّي أو من تأليفه وافترائه، ولامن نتاج عبقريّته الدينيّة المزعومة. بل هو كلام الله الذي بعث محمداً بالحقّ، وهو رب العالمين.

٦ ـ دليل المصداقيّة السّادس :

وأتناول الأحكام الشرعيّة الـتي أتت بها التوراة والإنجيل، ومـاأتى به القرآن الكريم من أحكام. لنرى أبَدَت مُتطابقةً مُتقاربةً، أم أتت مُختلفةً مُتباعدة؟

لنأخذ فاحشة الزّنا والخيانة الزوجيّة في التوراة علـى سبيل المثال، ففـي سفر العدد ٥/١١ : (وكلّم الرّب موسى قائلاً : كلّمْ بني إسرائيل وقل لهم : إذا زاغت امرأةُ رجلٍ وخانته خيانةً، واضطجع معها رجلٌ اضجاع زرعٍ، وأُخفي ذلك عن عيني رجُلها واستترت وهي نجسه، وليس شاهدٌ عليها، وهي لم تؤخذ. فاعتراه روح الغيرة وغار على امرأته وهي ليست نجسه.

يأتي الرجل بامرأته إلى الكاهن، ويأتي بقُربانها معها، عُشْر الإيفة من طحين شعير لايَصُبُّ عليه زيتاً، ولايجعل عليه لُباناً، لأنّه تقدمَةُ غيرةٍ، تقدمة تذكارٍ ذنباً. فيقدّمها الكاهن ويُوقف أمام الرّب. ويأخذ الكاهن ماءً مقدّساً في

إناء خزفٍ، ويأخذ الكاهن من الغُبار الذي في أرض المسكن ويجعل في الماء، ويوقف الكاهن المرأة أمام الربّ، ويكشف رأس المرأة ويجعل في يديها تقدمة التّذكار التي هي تقدمة الغيرة، وفي يد الكاهن يكون ماءُ اللّعنة المُرّ. ويحلف الكاهن المرأة ويقول لها: إن كان لم يضطجع معك رجلٌ، وإن كنت لم تزيغي إلى نجاسةٍ من تحت رَجُلِك، فكوني بريئةً من ماء اللّعنة هذا المُرّ. ولكن إن كنت قد زغت من تحت رجُلك وتنجسّت وجَعَلَ معك رجلٌ غير رجلك مضجعه، يستحلف الكاهن المرأة بحلف اللّعنة ويقول الكاهن للمرأة : يجعلك الرّب لعنةً وحَلْفاً بين شعبك بأن يجعل الرّب فخذك ساقطةً وبطنك وارماً. ويدخُلُ ماء اللّعنة هذا في أحشائكِ لِوَرَمِ البطن ولإسقاط الفخذ، فتقول المرأة آمين آمين. ويكتب الكاهن هذه اللّعنات في الكتاب، ثم يمحوها في الماء المُرّ. ويسقى المرأة ماء اللّعنة المُرّ، فيدخُلُ فيها ماء اللّعنة للمرارة. ويأخذ الكاهن من يد المرأة تقدمَةَ الغيرة، ويُردّدّ التّقدمة أمام الرّب ويقدِمّها إلى المذبح، ويقبض الكاهن من التّقدمة تذكارها، ويوقده على المذبح، وبعد ذلك يسقي المرأة الماء. ومتى سقاها الماء، فإن كانت قد تنجسّت وخانت رجُلها، يدخل فيها ماء اللّعنة للمرارة، فيرمُ بطنُها، وتسقط فخذها فتصير المرأة لعنةً في وسط شعبها. وإن لم تكن المرأة قد تنجسّت بل كانت طاهرة تتبرّأُ وتحبَلُ بزرع. هذه شريعة الغيرة.).

ونحن نستخلص من هذا النصّ الأمور التّالية :

أولاً - يبدو لنا حكم الزّنا في التوراة عشائرياً وبدائياً، وليس حضارياً، فهو لايصلح ليكون أساساً لنظامٍ عالمي.

ثانياً - والحكم التوراتي هذا يمتهن المرأة، ولايحسب لكرامتها أيّ حساب. ولايُسوّي بين الرّجل والمرأة على صعيد الزّنا والخيانة الزوجيّة. فهو لم يُعط المرأة حقّ دفع زوجها إلى الكاهن إن هي ارتابت بخيانته لها، أو لاحظت ارتكابه فاحشة الزّنا.

ثالثاً - وهذا التعليم يتنافى والنظافة أيضاً، ذلك أنّ الغُبار، وإن جُمع من مكانٍ مقدّس، فهو وسخٌ ومأوى للجراثيم على كلّ حال.

رابعاً - ولايُعقل أن يتّحد الغبار الوسخ بماءٍ ممزوجٍ بمادة المرّ، ويشكّل من امتزاجهما "أكسيرا" لكشف الزّانية من البريئة، إنّما يقدم على مثل هذا الأمر المشعوذون. وتُستخدم مثل هذه الأساليب لتخويف الأطفال.

خامساً ـ ثم إنّ هذا الماء الممزوج بوسخ، إن آذى المعدة قد يُورمها، ولكن الغريب أن يُقال أنّه يُسقط فخذ المرأة، ولايُسقط فخذيها معاً. وماهي العلاقة العلميّة الموضوعية بين هذين الأمرين؟ أم أنّ لِكَهَنةِ اليهود قوّةً سحريّة لايمتلكها الإنسان؟

سادساً ـ وهل يستسيغ عقل الإنسان أن يفعل هذا الشّراب الوّسخ، فِعله في امرأة، ولايترك نفس الأثر في امرأةٍ أخرى؟ فالواقع يكذّب مثل هذا الزّعم وهذا الادّعاء.

سابعاً ـ والملاحظ هو أنّ مايُمكن أن يُنسب إلى النّص من عيب أو نقيصةٍ، إنّما يُنسب إلى "الرّب التوراتي" الذّي شرّع هذا النّص بالقول : (وكلّم الرّب موسى قائلاً : كلّم بني اسرائيل وقل لهم..).

هذا ماأتت به تعاليم التوراة حول فاحشة الزنا والخيانة الزوجية. وذلك استناداً لإحدى الوصايا العشر التي تلقّاها موسى على جبل الطّور، وإحداها : (لاتزن).

ولنأت إلى الانجيل. فقد أضاف المسيح أمراً جديداً، حينما قال في انجيل متى ٢٧/٥ : (قد سمعتم أنّه قيل للقُدماء لاتزنوا. وأمّا أنا فأقول لكم : إنّ كُلّ من ينظر إلى امرأةٍ ليشتهيها فقد زَنا بها في قلبه. فإن كانت عينك اليُمنى تعثّرُك، فاقلعها وألْقها عَنك. لأنّه خيرٌ لك أن يهلك أحد أعضائك، ولايُلقى جسدك كُلّه في جهنّم. وإنّ كانت يدك اليمنى تعثّرك فاقطعها وألقها عنك، لأنّه خيرٌ لك أن يهلك أحد أعضائك، ولايُلقى جسدك كُلّه في جهنّم.).

أتى المسيح بهذا التّعليم القاسي الذي يستحيل على المرء العمل به حتّى في عصر المسيح نفسه، ولم نسمع أو نقرأ أنّ مسيحيّاً قد اقتلع عينه اليمنى لمجرد أنّه نظر بشهوة إلى إمرأةٍ من النّساء. ومن يتدبر قول المسيح هذا، يتصوّر أنّ المجتمع المسيحيّ سيبلغ درجة من العفّة لاتُضاهى، ومُستوى من الطّهارة والشرف لايُدانى. على حين أنّه قد بلغ من التّردي والاستهانة بالعِرض حدّاً لايُحسد عليه في هذه السنوات من القرن العشرين.

ونستخلص من هذا النّص الإنجيلي الأمور التالية:

أولاً ـ إنّ الإضافة التي أتى بها المسيح، تُعدّ في حدّ ذاتها دليلاً على أن تعاليم التوراة كانت في نظرة ناقصة لابدّ من استكمالها. فهاهو ذا يعتبر النّظر إلى المرأة بشهوة من الزنا، ويجعل له عقوبة هي اقتلاع العين.

ثانياً ـ ولاندري لماذا أوجب المسيح اقتلاع العين اليمنى وحدها. فالمرء لاينظر إلى امرأة ليشتهيها بعينه اليمنى وحدها دون اليسرى.

ثالثاً ـ ثم إنّ المسيح يخاطب الرّجل وحده. وكأنّ المرأة لاتنظر إلى الرّجل لتشتهيه أصلاً ـــ فهذا التّفريق بين الجنسين من هذه الناحية، يخالف الواقع والمنطق العلميّ. فالرّجل والمرأة في هذا الأمر سيّان.

رابعاً ـ وإننا، ومن خلال قول المسيح المزعوم: (فاقلعها وألقها عنك، لأنّه خيرٌ لك أن يهلك أحد أعضائك، ولايُلقى جسدك كلّه في جهنّم.) يذهب ذهننا إلى أنّ المسيح كان يعتقد أنّ الأجساد ستُبعث يوم القيامة، وبها ينزل العذاب.

ونُجمل الآن جميع مااستخلصناه من هذين النّصين : التوراتيّ والإنجيلي، المتعلّقين بموضوع الزّنا والخيانة الزّوجية، فنقول : مادام هذان النّصان غير جديدين، وأنّه كان على حسب زعمهم قد اطّلع عليهما محمد اليتيم الأمي، مما قبسه من بحيرا الراهب وسواه من الرُّهبان، وعلى حدّ زعم الأب حدّاد خاصة وأمثاله، فأين مايقابل تعاليم هذين النّصين في القرآن الكريم باللّسان العربيّ المبين؟ فقد كان المُفترض أن تأتي تعاليم القرآن، إن صحّ زعمهم هذا، ولهذه التعاليم القرآنية صفة العشائرية أيضاً: تمتهن حقوق المرأة، فتعطي الزّوج حقّ الغيرة والارتياب في عفّة زوجته متى شاء، وتحرم المرأة من هذا الحقّ، وألاّ يُحاسب الرّجل على زناه وخيانته الزّوجية. إذ لايحقّ لزوجته أن تدعوه إلى الكاهن متىماارتابت في عفّته. وأن يُعطِ القرآن الكريم طبقة الكهنوت منزلةً لاتكون لأحد سواهم، ولايجعل للزّناة محاكم شرعية يُحاكمون بها، وأن يقترح على طبقة الكهنوت استعمال هذا "الإكسير" المزعوم، المركّب من ماء وأوساخ ليساعدهم على كشف الزّناة، فيورّم مِعَدَ الزُّناة ويُسقط أفخاذهم، كما كان ينبغي للقرآن أن يوجب نفس ماأوجبه المسيح باقتلاع عين النّاظر، إذا نظر إلى امرأةٍ بشهوة، وأن تقوم بهذه العمليّة مؤسّسات مُختصة .

والذي يُطالع القرآن الكريم يبرّىء هذا الكتاب من جميع هذه الأمور التي تضمّنها النصّان التوراتي والإنجيلي. الأمر الذي يعني بألفاظٍ أُخرى أنّ محمداً ﷺ اليتيم الأمّي لم يتلقّ هذه الأمور عن الرّاهب بحيرا وسواه.

وإذا صحّ أنّه اطّلع على مثل هذه التعاليم، فقد كان عليه ﷺ ألاّ ليستسغها، بل أن ينبذها ويُعرض عنها. بدليل أنّه لم يَصُغها بلسانٍ عربي مبين.

٧ ـ فروق مابين تعاليم القرآن ومابين تعاليم التوراة والانجيل

وهانحن ننتقل خطوة أخرى نتدبّر الفروق الجوهرية التي افترقت بها تعاليم القرآن الكريم عن تعاليم التّوراة والإنجيل.

فالفرق الأوّل الذي نلاحظه، هو أنّ التوراة من حيث التّوصية والتّعليم، لم تزد أن أوردت في وصاياها العشر أمر الربّ (لاتزن). في حين أنّ التّعليم القرآني أورد هذه الوصيّة والتّعليم بأسلوبٍ مُغايرٍ تماماً. فلم يأت القرآن الكريم بلهجة الآمر المُطلق فيقول (لاتزن)، دون توطئة ولاتمهيد أو تعليل. بل قال تعالى فيه : ﴿**ولاتقربوا الزّنا إنه كان فاحشةً وساء سبيلاً.**﴾ الاسراء (٣٢). فالملاحظ هو أنّه تعالى استعمل فعل (لاتقربوا) الذي يعني لاتدنوا. وهو أسلوب التّحذير من شيء مؤذٍ وضار جدّاً. ذلك أنّ مجرّد اقتراب الإنسان من الفاحشة، يكاد يوقعه فيها. وقد عمدت الآية إلى توضيح مانُهي عن الدّنو منه وحكمته حين أضاف تعالى يقول فيها: ﴿**إنّه كان فاحشةً وساء سبيلاً.**﴾. والفاحشة في اللّغة ماعظُمَ قُبحه من الذّنوب والمعاصي، كما في النهاية لابن الأثير. ثم إنّ الفاحشة على حسب ماقال في التّعريفات، هي الذّنوب التي تُوجب الحدّ في الدنيا والعذاب في الآخرة. من هنا ندرك أنّ الله تعالى لم ينهج منهج التّوراة في إصدار أوامر جافّة، دون تمهيد أو تعليل بذكر الحكمة، بل نهج نهجاً مُختلفاً جدّاً، وهو أسلوب النّهي، مع بيان حكمة هذا النّهي، وهو أنّ الزّنا فعلٌ قبيحٌ في نظر الخالق ويستوجب إقامة الحدّ على فاعله في الدّنيا ردعاً له. فإن أصرّ على فعلته واجه يوم القيامة عذاب النّار. وقد علّلت الآية حكمة قُبح هذا الفعل أيضاً، حين ورد في آخرها ﴿**وساء سبيلا**﴾. بمعنى أنّ فعل الزّنى يُعتبر سلوكاً وخيماً من حيث العواقب التي تتأتّى عنه. فهذه هي دلالة (ساء سبيلا).

وهكذا يتجلّى لنا الفرق الواسع مابين تعاليم التّوراة وتعاليم القرآن الكريم.

والفرق الثاني الذي نلاحظه، هو أنّ التعليم التّوراتي، في حين ورد مصطبغاً بصبغةٍ عشائريّة ضيّقة، أتى التعليم القرآني عالميّ الصّبغة مترفّعاً عن تلك النظرة الضّيقة التي لاتصلح كتعليم عالميّ. لذلك نجد القرآن الكريم يُطالب المؤمن فيه ببيعته ويلزمه التقيّد بها طوال حياته.

ولافرق أن يكون هذا المُبايع رجلاً أو امرأة أو أبيض أو أسود أو أصفر أو أحمر. ولافرق أن يكون عربيّاً أو أعجميّاً. فهاكم سورة الممتحنة (١٢) والخطاب فيها موجّه للمرأة المؤمنة: **﴿ياأيّها النبيّ إذا جاءك المؤمنات يُبايعنك على أن لايُشركن با لله شيئاً، ولايسرقن، ولايزنين، ولايقتُلن أولادهُنّ، ولايأتين ببهُتانٍ يفترينهِ بين أيديهنّ وأرجلهنّ ولايعصينك في معروف، فبايعهُنّ واستغفر لهنّ ا لله، إن ا لله غفورٌ رحيم.﴾**.

فهاهي ذي المرأة تُخاطب في هذه الآية كالرّجل، على حدٍ سواء، وتُسأل عن تصرُّفها، وتُطالب بمبايعة ا لله ألاّ تقرب الزنى الذي هو فاحشة وساء سبيلاً. وهكذا يتجلّى لنا الفرق الثاني مابين التعليّمين التوراتي والقرآني.

وهناك فرقٌ ثالث. ففى حين أنّ التعليم القرآني قد كرّم المرأة وسواها بالرّجل، واشترط توفّر أربعة شهود تؤيّد التّهمة الموجّهة إليها. بل أوجب معاقبة من يتّهمها دون احضار هؤلاء الشهود. فإنّ التّعليم التوراتي قد حطّ من كرامة المرأة، وسمح لزوجها أن يتّهمها متى شاء، وأوجب عليها الحضور بين يدي كاهن، والكشف عن رأسها، وسقايتها شراباً مراً ممزوجاً بالغبار والأوساخ بلا وازعٍ من ضمير أو احتياطٍ من تعليمٍ سماويّ.

وهاكم سورة النور (٢-٣)، ولنستمع لما ورد فيها من تعليمٍ راعى المساواة بين الرّجل والمرأة في الأحكام : **﴿ الزّانية والزّاني فاجلدوا كلّ واحدٍ منهما مائة جلدة، ولاتأخذكم بهما رأفةٌ في دين ا لله، إن كنتم تؤمنون با لله واليوم الآخر، وليشهدْ عذابَهما طائفةٌ من المؤمنين. الزّاني لاينكح إلا زانيةً أو مُشركة، والزّانية لاينكحها إلاّ زانٍ أو مشرك، وحُرّم ذلك على المؤمنين. والذّين يرمُون المُحصنات ثمّ لم يأتوا بأربعة شهداء، فاجلدوهم ثمانين جلدةً، ولاتقبلوا لهم شهادةً أبداً، وأولئك هم الفاسقون، إلاّ الذين تابعوا من بعد**

ذلك وأصلحوا، فإنّ ا لله غفور رحيم. والّذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شُهداء إلاّ أنفسُهم، فشهادة أحدهم أربع شهاداتٍ با لله إنّه لمن الصادقين. والخامسة أنّ لعنةَ ا لله عليه إن كان من الكاذبين. ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربعَ شهاداتٍ با لله إنّه لمن الكاذبين. والخامسة أنّ غضب ا لله عليها، إن كان من الصادقين.﴾.

فالواضح من هذه الآيات الكريمة أنّ الزّانية والزّاني سيّان في إقامة الحدّ عليهما. والمجتمع في نبذهما سواء. وقد فتح ا لله لهما فُسحة إصلاح نفسيهما، من بعد إنزال الحدّ بهما، ذاك أنّ ا لله غفورٌ رحيم. وهكذا يتجلّى لنا الفرق الثّالث مابين التعليم التوراتي والتعليم القرآني.

وفرقٌ رابع، نلاحظهُ هو أنّ ا لله تعالى ربط في كتابه القرآن الكريم آثار فاحشة الزّنا بعلاقة المحبّة مابين ا لله وبين عباده المؤمنين. منـدّداً بطُرُق الخيانة بصورة مُطلقة، سواء منها الخيانة الزوجيّة أو خيانة الوطن والدّين وخيانة الأصدقاء. ذلك أنّه تعالى اعتدّ طرق الخيانة بكافة أنواعها، سبباً مباشراً يقطع من جرّائه محبّته وتأييده للخائن، ويفصم مابينهما من وشائج.

فقد قال تعالى في سورة الحجّ (٣٨) : **﴿إنّ ا لله يدافع عن الذين آمنوا إن ا لله لايحبُّ كلّ خوّان كفور.﴾** منبّهاً هنا إلى أنّ بين المحب ومحبوبه تعاطفاً وتواصلاً وتعاوناً. فلا يكاد المحبّ يرى مصيبةً تنزل بمحبوبه حتى يُسارع إلى نجدته ونصرته وتأييده. ومادام المؤمنون الصّادقون مقرّبين من ا لله الذي آمنوا به وعبدوه، فهم أحقُّ بنُصرته وتأييده. فهذا ماأفاده قوله تعالى هنا **﴿إنّ ا لله يدافع عن الذّين آمنوا﴾** مستدركاً قوله : **﴿إنّ ا لله لايحبُّ كُلّ خوّان كفور.﴾** بمعنى أن تأييد ا لله ونصرته هذه يفوز بها المؤمنون، مالم يخونوا عهودَهم، ويدخل في ذلك عهد الزوجيّة وسواه. فمن خان فإنّ عليه خيانته. وهذه الخيانة أوّل ماتقتضي خُسران نُصرة ا لله لهذا الخائن لعهوده، ومحبّته إياه.

وقد نبّه القرآن الكريم في الوقت نفسه المؤمن والمؤمنة في سورة غافر (١٩) إلى أنّ ربّهم الخبير العليم والمحصي البصير **﴿يعلم خائنة الأعين وماتُخفى الصّدور﴾** أي ماتخون به الأعين حين تُسارقُ النّظر إلى مالا يحلّ. وقد جاء هذا التّنبيه لأذهان المؤمنين، ليظلّوا يقظين للفرق الشّاسع الذي هو أيضاً مابين المحبّ في ا لله والمحبّ في غير ا لله. فالمحبّ في غير ا لله قليلاً ماينتبه إلى خائنة الأعين

وماتُخفي الصّدور. أما المُحبّون في الله يتملّكهم اليقين التّام في كلّ لحظة من حياتهم من أنّ محبوبهم الله ﴿**يعلم خائنة الأعين وماتُخفي الصّدور.**﴾.

وهذه الحقيقة قد أغفلها التّعليم التّوراتي، بينما وضّحها التعليم القرآني. فالتوراة تركت باب الغيرة والشّك مفتوحاً على مصراعيه أمام الزوج، كأنه وزوجته لاتربطهما رابطة إيمان بالله ولامحبّة ولا احترام. وكأنّهما لايدريان أنّ الله يعلم خائنة الأعين وماتُخفي الصّدور، ولاقيمة في نظرهما لنصرته وتأييده ومحبّته.

وهذا الفرق الرّابع الذي لاحظناه مابين التعليم التّوراتي، والتعليم القرآني، كان من العسير جدّاً على محمد اليتيم الأمّي أن ينتبه إليه من نفسه ويُبرزه للعيان في القرآن المبين، لولا أن كان قد تلقّاه عن طريق وحي ربّه، ربّ العالمين.

والفرق الخامس المُلاحظ مابين تعليمي التوراة والإنجيل، والتعليم القرآني هو مايُستدل عليه من النّص الإنجيلي الذي سبق أن أوردناه، وهو قول المسيح : (فاقلعها وألقها عنك، لأنّه خيرٌ لك أن يهلك أحد أعضائك، ولايُلقى جسدك كُلّه في جهنّم.).

إذ يُستدل من هذا النّص أنّ الإنجيل يقول ببعث الأجساد التّرابيّة نفسها يوم القيامة. على حين يُستدل من التعليم القرآني أنّ هذه الأجساد عارضةٌ زائلة وآيلةٌ إلى تُراب. وأنّ الأنفس ستُبعثُ يوم القيامة بأجسامٍ غير هذه. وقد وضّحت هذه الحقيقة في مؤلّفي (الرأي) ص١٩٦، وفي مؤلفي (النّظرية الكونية) ص١٠٤ فليُرجع إليهما.

والعجيب أن تسكت التوراة والإنجيل عمّا ستؤول إليه النّفس البشرية بعد الموت. وقد أتى القرآن الكريم في هذا المجال بما يُدهش العقول النيّرة من معارف مؤيَّدَة بالأدلّة العلمية والبراهين النّاطقة، وهل يُعقل أن تأتي عبقرية محمد اليتيم الأمّي بمثل هذه المعلومات، من دون مددٍ وحيٌ أمدّه به ربّ العالمين الذّي ستؤول إليه أنفس عباده؟

ونحن نكتفي بالكشف عن هذه الفروق الجذّرية مابين التعليم التوراتي والتعليم القرآني، في موضوع الزنا والخيانة الزّوجية، بعد أن أثبتنا استحالة التّسليم بما زعمه الأب حدّاد وسواه، زعمهم أنّ محمداً اليتيم الأمّي قد استقى

أحكام دينه الإسلام ممّا تلقّاه على أيدي الرُّهبان الذين عاصروه كالراهب بحيرا وسواه من الرُّهبان، وأنّه صاغ ماتعلّمه من هؤلاء الرّهبان في القرآن الكريم بلسانٍ عربّيٍ مبين.

فشتّان مابين تعليمٍ عشائريٍ مخصوصٍ بقومٍ بعينه. ومابين تعليمٍ عالميٍ لايفرّق بين قومٍ وقومٍ، أو لونٍ ولونٍ، وبين صاحبِ لسانٍ ولسانٍ، أو بينَ رجلٍ وامرأة، من حيث كونهما انسانين من طينةٍ واحدةٍ ونفسٍ واحدة.

وشتّان مابين تعليمٍ يُصدر أوامره جافّةً، تُلزِم الآخرين دون إقناع، ومابين تعليم لايُكره نفساً على أمرٍ من أوامره، وإنّما يطالبه إذا آمن أن يُبايع الله تعالى يتقبّل مايلحقه به من عقاب.

هذا الأمر القائم على أساسٍ من عقد التّراضي مابين الله وعبده المؤمن وأن يتلقّاه هذا المؤمن مُعلّلاً بالأسبابِ والحكمة منه، مع تقديم الأدلّة العقلية والعلمية المُقنعة بصحّته.

وشتّان مابين إهمال التعليم التوراتي تعرّضه من قريبٍ أو بعيدٍ إلى الآثار التي تتركها فاحشة الزّنا والخيانة الزوجية على علاقة العبد بربّه. ومابين تعرُّض التعليم القرآني لبيان هذه الآثار، إلى جانب تنبيهه إلى مابين المحبّ في الله وفي غير الله من فروق.

وشتّان مابين تعليمٍ توراتّيٍ وانجيلّيٍ يقول ببعث الأجساد التّرابية بعد موتها : كأن يُبعث الأعمى أعمى، والأعرجَ أعرج، والمفقود العين أعوَر، ومابين تعليم القرآن الذي ينبّه إلى أنّ هذه الأجساد الترابيّة هي مجرّد أداة لخلق نفس الإنسان وتطويرها وربطها بخالقها. مع بيان الأدلّة القاطعة التي تؤيّد ذلك في كلّ مقامٍ تعرّض القرآن الكريم فيه لهذا الموضوع.

وهكذا نكون قد توصلّنا، بما بسطنا القول فيه بأسلوبٍ علمّيٍ، إلى أنّ عبقريّة محمد بن عبد الله ﷺ الدينية المزعومة، يستحيل أن تأتي بهذه الفروق التي وضّحناها في مجال أحكام الزّنا والخيانة الزوجية.

إلا أن يكون قد أمدّه الوحي الذي أنزله القرآن على قلبه ﷺ هدى ورحمة للعالمين. وهو الله الذي خلق الذكّر والأنثى من نفسٍ واحدةٍ، وجعلهما سواءً في الحقوق والواجبات. والله هو الذي يعلم خائنةَ الأعين وماتُخفي الصّدور. فهو المحاسب الحقيقيّ، فلا يحقّ للزّوج اتّهام زوجته لمجرّد الغيرة والظّن

ودون تقديم دليلٍ قاطعٍ وجلّي، فكيف يُعقل أن يكون التعليم التّوراتي الذي أوردناه سماوياً أو منطقيّاً، في مقابل هذا التعليم القرآنيّ السّماوي المُسلّم به؟

٧ ـ دليل المصداقية السّابع :

ونتناول في دليلنا السّابع هذا قضيّة منهاج الحياة العلمّي، فنقول : إنّ الباحث في التوراة والإنجيل المعاصرين، لاتتراءى له معالم أيّ منهجٍ علمّي للحياة في كليهما. بينما يتراءى له معالم هذا المنهج في أوائل آيات سورة البقرة، وهي أوّل سورةٍ قرآنية من حيث ترتيب تلاوة القرآن الكريم.

والمعلوم لدى العقلاء الباحثين هو أنّ منهج الحياة، لايُطالبُ به إلاّ الذين بلغوا سنّ رشدهم وتجاوزوا طفولتهم. وهذا الأمر ينطبق على الأمم كما ينطبق على الأفراد. فالوالد الذي يخاطب أطفاله، يأمرهم بالإلتزام بأوامره والانتهاء عن نواهيه. يأمرهم بالصّدق والأمانة وعدم الاعتداء.

وهاأنّ موسى عليه السّلام وقد تلقّى الوصايا العشر على جبل الطوّر : **﴿لاتُقتل. ولاتزن. ولاتسرق. ولاتشهد على قريبك شهادة زور. ولاتشته امرأة قريبك. ولاتشته بيت قريبك. ولاحقله. ولاعبده. ولا أمته ولاثوره ولاحماره ولاكلّ مالقريبك.﴾**. تلقّى هذه الوصايا التي ذكرتها التوراة وأضاف بعدها : (هذه الكلمات، كلّم بها الرّب كلّ جماعتكم في الجبل من وسط النّار والسّحاب والضبّاب وصوتٍ عظيمٍ، ولم يزد.) تثنيه ٥/٢٢.

إن ألفاظ (ولم يزد) تدّل دلالة صريحة وقاطعة على أنّ الله تعالى الذي حين كلّم موسى، كان ينظر إلى عشيرة بني إسرائيل على أنّ أفرادها لايزالون أغراراً يُمضون دور طفولتهم العقليّة. فلم يكونوا قد بلغوا سنّ رشدهم بعد. لذلك لم يطالبهم ربُّهم بانتهاج منهجٍ للحياة يلتزمون به. وعليه فإنّ الوصايا العشر لاتزيد على كونها نظام سلوكٍ بشريّ. وقد ركّزت الوصايا على الأعمال، ولم تلحظ منهج العقائد والإيمانيات التي تَمُتُّ في الأصل إلى الفلسفات والنظريات بصلة من الصّلات.

من هنا، إن نحن استعرضنا الفترة التي استوطن فيها بنو اسرائيل أرض كنعان، لاحظنا أنّهم لم يتركوا فيها أيّ تُراثٍ علمّي. بل كانوا في معارفهم عالة على الأمم من حولهم كالفينيقيّين وسواهم. فقد استعانوا بمن حذق فنّ البناء من

الفينيقيّين على سبيل المثال، لبناء المعبد الّذي شاده سليمان الحكيم. كما اعتمدوا القوّة العسكرية نهجاً للدّفاع عن كيانهم وأنفهسم. فلم تتولّد على أيديهم علوم، ولازودّوا العالم من حولهم بزادٍ علميّ. فلم يُعرفوا إلاّ بالهيمنة وسفك الدّماء.

وهذه الحقيقة التاريخية التي وضّحتها آنفاً، لم تأت عن اجتهادٍ شخصيّ. بل أقرّ بها مؤرّخو اليهود أنفسهم. فقد كتب كوهر في دائرة المعارف العبريّة ص٣٥ (Berry : Religion of the Word p35) يقول : (إنّ اليهودية ليست عقيدةً أو نظاماً من العقائد يتوقّف على قبولها الفداء أو الخلاص في المستقبل. وكلّها نظام للسلّوك البشريّ، وناموس البرّ الذي يتحتّم على الإنسان إتباعه. ويقرّر الفكر اليهودي بناء على ذلك أنّ الجزاء يكون حسب الأعمال، لاحسب الاعتقاد.).

وهذه الحقيقة التاريخية أقرّ بها اليهود أنفسهم، حسبما دلّ عليه كلام اليهودي المؤرخ كوهلر. وهذه الحقيقة دفعت المؤرّخ (ول ديورانست) ليكتب في مؤلّفه الضّخم "قصّة الحضارة"، معتبراً هذه الحقيقة تكمن وراء سكوت التوراة عن الكلام عن الآخرة والبعث والحساب (قصّة الحضارة ج٢ ص٣٤٥).

وهذه الحقيقة التاريخيّة هي التي اضطرت المؤرّخ (آرثر هيرتزبرغ Arthur Hertyberg) أيضاً، ليكتب في مؤلّفه (Judaism) ص٢٠٥ : (إنّ الكتاب المقدّس نفسه يعتبر الحياة الدّنيا وحدها، هي عالم الإنسان، وليس هناك اعتقاد بعد ذلك في بعثٍ وجنّةٍ أو نار.).

هذا ولم يكن الناس يعلمون في هذه المنطقة أكثر مما أورَدَتْه التوراة والأناجيل من أوامر ونواهٍ وأنظمةٍ للسلوك البشري. يوم طلع محمد اليتيم الأمّي على الناس بهذا القرآن العظيم، الذي احتوى على نهجٍ حياتي علمّي. مُتجاوزا بذلك مرحلة أنظمة السلوك البشري. حدث هذا لاكتمال عقل الناس، وتأهّلهم في نظر الخالق لتلّقي مثل هذا المنهاج القرآني المُختلف جذرياً عمّا أتت به تعاليم التّوراة والإنجيل.

وكما سبق أن قلت، فإنّ هذا المنهاج الحياتي العلمّي تضمنّته الآيات الأوائل من سورة البقرة من خلال قوله تعالى : ﴿**ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتّقين. الذين يؤمنون بالغيب. ويقيمون الصّلاة ومّما رزقناهم ينفقون. أولئك على هُدىً من ربّهم وأولئك هم المُفلحون.**﴾. ومن خلال هذه الآيات الكريمة

وماشتملت عليه من منهاج ودلالات أحدث القرآن الكريم ماعجزت عن إحداثه تعاليم التوراة والإنجيل من تغيير وتبديلٍ وتطويرٍ في حياة الناس أجمعين.
فما معنى قوله تعالى : ﴿**الذّين يؤمنونَ بالغيبِ**﴾؟

الإيمان من حيث دلالته اللّغوية، يشمل النظريّة والتطبيق، الاعتراف بشيء والتصديق به والعمل على مايستلزمه هذا الإيمان. أمّا الغيب في اللّغة، فهو كلّ مااستتر عن الحواس وغاب عن علم الإنسان. وكلّ مكان لايدري الإنسان مافيه فهو غيب. كذلك فإنّ كلّ ماوراء أيّ موضعٍ أو مكانٍ من الأمكنة فهو غيبٌ أيضاً. وعليه فإنّ الغيب، على حسب ماورد في معاجم اللّغويّين يشمل أولاً : كلّ مالا يقع تحت الحواس، ولاتقتضيه بداية العقول. كالحقائق الثابتة التي تحدّث عنها القرآن الكريم وهي الفطرة والنّفس البشرية والقوانين القدريّة وحياة مابعد الموت. فهذه حقائق نبّه القرآن الكريم المؤمنين إلى ضرورة الإيمان بها كحقائق ثابتة، من قبيل الغيب، الغائب عن الحواس. فلا يكتمل إيمان المسلم إلاّ بإيمانه بوجود هذه الحقائق، والاهتداء بتعاليم القرآن الكريم المتعلّقة بهذه الأمور الغيبيّة.

هذا الكتاب الذي برهن على وجود هذه الحقائق الغيبيّة بمختلف الأدلّة والبراهين. فمن يتابع تدبّر آيات القرآن من هذا المُنطلق المنهجيّ. تتراءى له علومٌ لم يسبق أن عرفتها البشرية من قبل نزول القرآن. وحتى إن البشريّة لاتزال دون مستوى معرفة تلك العلوم من نفسها يقيناً.

فهذا مادلّ عليه قوله تعالى : ﴿**الذين يؤمنون بالغيب**﴾. وقد شاء الله عز وجلّ أن يُنبّهنا إلى أنّ الإيمان بالغيب، إنما هو أساس العروج إلى الله والتقرّب منه. لذلك نلاحظ أنّه أضاف قوله : ﴿**ويقيمون الصّلاة**﴾. والصلاة في اللغة هي الدّعاء، وقد أتى الإسلام بالدّعاء بصيغة حركات الصلاة المعروفة وقراءاتها وأدعيتها. فجعل هذا هو الأسلوب المُعتمد في التوسّل بين يدي الخالق، وعلى أساسٍ من الإيمان بالغيب. فالصّلاة هي معراج المؤمن إلى ربّه وعماد دينه. والإسلام قد نسخ بهذا التعليم نظام الكهنوت الذي كان اليهود والنصارى قد التزموا به من قبل نزول القرآن الكريم. وقد جُعلت الأرض للمسلم نتيجةً لذلك مسجداً وطَهوراً. بعد أن حُذفت وساطة الكهانة مابين العبد الدّاعي وربّه. و لم يكن ذلك ممكناً زمن موسى وعيسى وبقيّة أنبياء بني إسرائيل. وقد أحدث القرآن

الكريم بهذا النهج التّقوويّ للحياة إنقلاباً جذرياً في تاريخ الأديان السّماوية. فلم يكن ماأتى به القرآن الكريم اختلاقاً من قبل محمد اليتيم الأمي والعياذ با لله، وإنّما حقّق هذا التّبديل الجذريّ تعليم ربّ العالمين.

من هذا لابد أن يكون القارىء قد أدرك سرّ بُطلان الصلاة دون التلاوة فيها بفاتحة الكتاب. فلم يعد هناك من محلّ للدعاء الإنجيلي : (أبانا الذي في السّماوات. ليتقدّس أسمك. ليأت ملكوتك. لتكن مشيئتك كما في السّماء كذلك على الأرض. خبزنَا كفانا أعطنا اليوم. واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضاً للمذنبين إلينا. ولاتدخلنا في تجربة. لكنْ نجّنا من الشرير لأنّ لك الملك والقوة والمجد إلى الأبد. آمين) متى ٦/٩.

أقول : لم يعد لهذا الدّعاء الإنجيليّ من مكان بعد نزول قوله تعالى في القرآن الكريم: ﴿ويُقيمون الصلاة﴾ لأنّ مشيئة ا لله التي اقتضيت تعليم الناس منهاجاً حياتياً ينهجونه ويعرجون به إليه تعالى، قد باتت كذلك على الأرض. فقد أتى ملكوت ا لله الذي أُنبيء عن نزوله في التوراة والإنجيل. و لم يعد للبشر من داعٍ يدعوه إلى الدّعاء، بألفاظ الدّعاء الإنجيليّ، من بعد طلب القرآن الكريم الذي طلبه من المؤمن إقامة الصّلاة الإسلامية. فهذه الصلاة الاسلامية عادت طريق التوسّل والتضرّع بين يدي ا لله عز وجلّ. هذه الصّلاة التي شُرّعت لتشكّل صلة الإنسان الضعيف المتعبّد، با لله الخالق القوي الرحيم. فعادت الصلاة جزءً من خصوصيات الأمة الإسلامية ومن مُقوّمات وحدتها وتماسكها.

وقد صيغت الصلاة الإسلامية على هيئة وقوفٍ متأدّب ودعاء بدعاء سورة الفاتحة. وركوعٍ تجاه عظمة ا لله وتنزيهه بالقول سبحان ربّي العظيم. وسُجودٍ بين يديّ ا لله عز وجلّ، وتنزيهه بالقول سبحان ربّي الأعلى. فهذا المعراج الإسلامي قد صيغ على الصورة التي ذكرناها بأسلوبٍ علميّ، جوهره التوسّل والتضرّع بطلب الإهتداء إلى سبيل الذين أنعم ا لله عليهم بقربه وهدايته ووصاله من النبيين والصّديقين والشهداء والصالحين. فشتّان مابين دُعاء الإنجيل، ومابين الدُّعاء القرآني. وقد جاء في الحديث الشريف (مَثَلُ الصّلواتَ الخمس كمَثَلِ نهر جارٍ غَمْرٍ على باب أحدكم، يغتسل فيه كلّ يوم خمس مرّات.).

ولّما كان معراج المؤمن إلى ربه لايكتمل دون الإحسان إلى عباد ا لله تعالى ومخلوقاته ومحبّتهم، لذلك أتبَع ا لله عزوجل ذلك قوله : ﴿ومّما رزقناهم

يُنفقون﴾. والرزق في اللغة العربية يُراد به كلُّ ماينتفع المرء به من مالٍ وعلمٍ وصحّةٍ ومتاع لمصلحة جسمه ونفسه ودنياه وآخرته.

وليس المقصود بالرزق هنا الطعام والشراب والأنعام من حيث أصل دلاله هذا اللفظ، وإن استعمل الرزق للمطر النازل من السّماء على سبيل الاستعارة. فهو تعالى عندما قال: **﴿في السّماء رزقكم وماتوعدون﴾**، لم يقصد بقوله هذا الطعام والشّراب والأنعام وخيرات الطبيعة على أنّها مجموعةً في السّماء لتوزيعها. إنّما أراد أن أسباب توفّر هذه الأرزاق، يكمن في السّماء، وفيما تفيضُه به السماء على الأرض. إشارةً إلى تدخّل المشيئة السّماوية في أمر توفير هذه الأسباب.

والذي يؤيّد هذا المعنى، ملاحظتنا أنّه تعالى أقسم بعده مباشرة وقال : **﴿فوربّ السّماء والأرض إنّه لحقٌّ مثل ماأنّكم تنطقون.﴾** أي أنّ لربوبية خالقكم دخلٌ في كل ماينزل من السّماء من خير. أي أنّ أسباب رزقكم مفاتحه بأيدي ربوبيّته عز وجل.

وزبدة الكلام في معنى قوله تعالى :**﴿الذّين يؤمنون بالغيب، ويقيمون الصلاة، وممّا رزقناهم ينفقون﴾**. هو أنّ الله عز وجلّ، وقد بلغت البشرية دور رُشدها وتكاملها، فقد بعث محمداً ﷺ اليتيم الأمّي بهذا النّهج العلمي للحياة، هذا النهج الذي تضمّنته هذه الآية الكريمة من سورة البقرة، تنبيهاً لأذهان النّاس، إلى أنّه قد مضى زمن تلّقي أوامر السّماء المتضمّنة نظام سلوكٍ بشريّ، وآن للناس أن يتفكّروا في خلق السّماوات والأرض، وأن يتلّقوا منهاجاً للحياة علميّاً، قد أُسّس على نظريّات وفلسفات. وقد أوجز خالقنا هذا المنهاج في أوّل سورةٍ من كتابه القرآن، يدعوهم فيه للإيمان به والانطلاق في حياتهم اليومية على ضوئه ومن مُعطياته، هذا المنهاج الذي ارتكز إلى شُعَبٍ ثلاث هي الإيمان بوجود حقائق ثابته لاتُدركها حواسُّهم، بل تحتاج منهم لتدبّر مانزل بشأنها من تعاليم في هذا القرآن. وهي هذه الفطرة التي فطرهم خالقهم عليها، ونفسهم البشرية التي لابدّ من تطويرهم إيّاها، وهذه الحياة الآخرة التي ينبغي لهم أن يؤمنوا بوجودها ويضعوها في اعتبارهم، في كلّ مايقومون به ويُقدمون عليه من عملٍ أو تصرّف. عاقدين العزم على التقرّب من خالقهم الذي هداهم إلى هذا المنهاج، فضلاً من

ربوبيّته عليهم ومنّه ونعمة مقيمين هذه الصّلاة التي هي الدّعاء والتضّرع بين يديه عز وجلّ.

مُتّخذين منها معراجاً لهم يعرجـون بـه إلى الله عـز وجـلّ. بـاذلين كـلّ ماتفضّل الله عليهم به من مالٍ وعلمٍ وجهدٍ وطاقـة، علـى مخلوقـات الله وعبـاده من بني الإنسان، وهل جزاء الإحسان إلاّ الإحسان؟

وإنّ الذي يؤكّد مانبّهت إليه الآية مـن أمـر هـذا المنهـاج الـذي طرحـه القرآن الكريم هنـا، هـو أنّـه جـلّ شأنه، بعـد أن أنبأ بعـد ذلـك عـن أنّ النّـاس سينقسمون بعد إنزال هذا القرآن إلى فريق مؤمن، وآخر منافق وثالث كـافر بـه، توجّه بخطابه إلى النّاس كافة يدعوهم للأخذ بمنهج الحيـاة العلمّـي هـذا، ليكونـوا من المُتقيّن الذين يحذرون عواقب مايقومون به من أعمال، قال : **﴿ياأيّهـا النـاس اعبدوا ربّكم الذي خلقكم، والذين من قبلكـم، لعلّكـم تتقّـون. الـذي جعـل لكم الأرض فراشـاً والسّـماء بنـاءً، وأنـزل مـن السّـماء مـاءً فـأخرج بـه مـن الثّمرات رزقاً لكم، فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون.﴾** البقرة (٢١). وأكّد لهم بعد ذلك أنّه تعالى لم يخلقهم عبثاً، بـل ليعبـدوه ويتقرّبـوا إليـه بهـذه العبـادة، وذلك بقوله تعالى :**﴿هو الذي خلـق لكـم مـافي الأرض جميعـاً ثـمّ اسـتوى إلى السّماء فسّواهُنّ سبعَ سماواتٍ، وهو بكلّ شيءٍ عليم.﴾** ٢٩.

والعدد (سبع) لايقصد به رقمه، وإنّما الكثرة فقـد نبّـه صـاحب معجـم لسان العرب إلى أنّ رقمي سب وسبعون يستعملهما العرب لمجرّد الكثرة عمومـاً. والمعنى أنّه تعالى فتح لعباده المُصلّين آفاق سموّ لاتقف دونها حدود.

فهذه هي معالم "نهج المُتقّينُ الجديد الـذي طلـع بـه علـى النـاس التعليـم القرآني، وبشرّ به محمد اليتيم الأمّي. فهو نهجٌ قائمٌ على الإيمـان بـالغيب، وعلـى معراج الصّلاة، وعلى البذل ممّا رزق الله تعالى المؤمن من مال وعلم وجهد.

فأنّى لمحمّد اليتيم الأمّي أن يأتي بهذا من عنده أو يبتدعه؟ ولو فُرض أنّـه اطلّع على تعاليم التوراة والإنجيل من رُهبان عصره وبيئة، فشتّان مـابين مُعطيـات التوراة والأناجيل التي لم تتجاوز تعليم الإنسان اليهودي أكثر مـن مبـادىء نظـام سلوك بشريّ، ومابين مُعطيات هذا القرآن الذي أتـى بمنهـاجٍ قـائمٍ علـى أسـاس إيمان بأمورٍ غيبيّة لاتدركها حـواس الإنسـان. إضافـة إلى أنّـه فصّـل هـذا المنهـاج وشـرحه، وبمـا يتعلّـق بهـذه الحقـائق الغيبيّـة تفصيـلاً لاتغيـب عنـه منهـا شـاردة

ولاواردة. وقد أثبتت الأيّام صحّة ماأتى به القرآن بشأن ذلك من عظاتٍ روحيةٍ وتعاليم.

وهل كان بإمكان عبقريّ دينيّ، مهما بلغ شأن عبقريته، أن يتحولّ بنظامٍ سلوكيٍ ما، إلى منهاجٍ ينطوي على مالا تدركه حواسه؟ إلى منهاجٍ لم يأت به إنسانٌ سواء أكان هذا الإنسان عالماً أو صالحاً أو نبيّاً إلاّ عن طريق وحي ربّه الذي يعلم السرَّ وأخفى؟

وهاهم أولاء اليهود والنّصارى، وبين أيديهم تعاليم التوراة والإنجيل، قد أنجبوا في القرن التاسع عشر من أسموه عبقريّ زمانه، ظنّاً منهم إحاطته بعلم غيب النفّس البشرية، وهو العالم اليهودي (فرويد). فهم هلّلوا يومذاك لكُتُبه وصفّقوا لها تصفيقاً طويلاً صاخباً. لكنّه ماإن أهّل عليهم القرن العشرون، حتى أدرك باحثوهم خطأ جميع ماأتى به (فرويد) من تأويلاتٍ وتفسيراتٍ للنفّس البشرية. فعاد هذا اليهودي باحثاً عادياً في أعين أهله وقومه، بعد أن تبيّن لهم أنّ أشياء هذا الكون ماهي بمادّة محضةٍ، بل تحتوي على عُنصرٍ روحّيٍ غيبيّ، غاب عن أعين الناس وحواسّهم، وقد بسطْتُ القول في ذلكَ ضمن كتابي (النظرية القرآنية الكونية) فليرجع إليه.

ومادام البشر لم يحيطوا علماً حقيقياً بحقائق الغيب حتى عصرنا هذا. فكيف يزعم الأب حداد ومن على شاكلته من أعداء الإسلام أنّ محمّداً قد صاغ معلومات التوراة والإنجيل بعبقريّته الدّينية الفذّة وبلسان عربيّ مبين؟

ثم إنّ الباحث المتدبّر لايلاحظ معالم منهج الحَياة العلمي هذا في التّعليم القرآني وحسب. بل يلاحظ إلى ذلك اقترانه بمنطلقاتٍ نظريّةٍ مدهشةٍ، لابدّ من اعتمادها والتّركيز عليها لتوحيد العالم، على أساس هذا المنهج الرّوحي. فقد جاء بعد آية المنهج المذكورة قوله تعالى: ﴿**والذين يؤمنون بما أُنزل إليك وماأُنزل من قبلك، وبالآخرة هم يوقنون. أولئك على هدىً من ربّهم، وأولئك هم المفلحون.**﴾ أي أنّ القرآن الكريم أمر، إلى جانب ضرورة الأخذ بمنهج الحياة العلمي هذا، أمر بالإيمان بما أنزله الله قبل ظهور الإسلام، والاعتراف والتّصديق بجميع مانزل من كتبٍ سماوية وتعاليم على أيدي الأنبياء والمرسلين. على اعتبار أنّ جميع ماأنزله الله من قبل كان يشكّل حلقاتٍ توطئةٍ وتمهيد وإرصاد لنزول

هذا القرآن العظيم. فهذا النهج، وبهذه المنطلقات بالإمكان توحيد عالمنـا، وعليـه يرتكز تقدّمه وترقّيه.

وقد كان هذا الإنجاز الذي حقّقه القرآن الكريم في تاريخ البشـر، قفـزةً فريدةً مُتميّزة، مَنحَته سِمَةَ العالمية. ورسخت في أذهان البشر عقيدة وجود الخالق ربّ العالمين. كما أثبتت هذه القفزة من جهةٍ أخرى أنّ بعثة محمـد اليتيـم الأمـي ﷺ كانت رحمةً للعالمين.

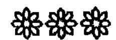
فشتّان مابين هذا الذي جاء به القرآن، وماجـاءت به التّوراة والإنجيـل على هذا الصّعيد، ففي الوقت الذي أتت التوراة فيه بتعاليم نظام سـلوكٍ بشـريّ، لايتعدى بمجرّد الأمر والنهي (لاتقتل، لاتزن.. الخ) دون منهجٍ أو بيانِ حكمةٍ لهذه الأوامر أو النّواهي. أتى هذا القرآن الكريم بنهجٍ علمّيٍ للحياة ومبـادىء لتوحيـد العالم بأسره، على أساس وجود إلـه واحـد خـالقٍ هـو ربّ العـالمين. مـارّاً مـرور الكرام على ماأوردته التوراة في سفر الخروج ٢٠/١-١ : (أنا الـرّب إلهـك الـذي أخرجك من أرض مصر بيـت العبوديّـة، لايكـن لـك آلهـةٌ أخـرى أمـامي.) هـذا الكلام الذي يستشعر المرء من سماعه أنّ الربّ الإله مُختصٌ ببني إسـرائيل. وكـأنّ ثمّة آلهة أخرى سـواه، لأممٍ أخـرى غـير بـني إسـرائيل، سـاكتاً عـن وجـود ربّ العالمين.

والسؤال هو: هل يصحّ أن تكون عبقرية محمد اليتيـم الأمّـي قـد قويـت على تجاوز الحواجز العنصرية والإقليميـة مـن نفسـها، وعلـى ابتـداع هـذا النهـج العلمي للحياة لمجـرّد اطّـلاع محمـد رسـول الله علـى مـالدى رُهبـان عصـره مـن نصوصٍ توراتيّة وانجيليّة، أو لمجرّد إفادته ممّن لقي مـن أنـاسٍ خـلال متاجرتـه بمـال خديجة : يهوداً كانوا أو نصارى؟

أقول : لايستطيع عاقل، أيّ عاقل، التّسليم بهذا الزّعم وهذا الإدّعاء. إذ ليس في إمكان محمـد وعبقريّته أن تطّلعا على ماغـاب عـن الحـواس. وأيّ داعٍ يدعوه إلى مؤاخاة الرّومي والفارسّي، وقد كانا أمّتين تستهينان بالعرب والعربيّـة، وتطمعان بالهيمنة على شبه جزيرة العرب؟

ألا إنّ هذا الطّرح المنهجي الذي لم يسبق لأحـدٍ في تـاريخ البشـر أن طرحه. وهذا الأساس المتين الذي استعان بـه لتوحيـد شـعوب الأرض، ماكـان ليأتي في الآيات الأوائل من هذا القرآن، إلا بتخطيـطٍ مـن الله الخـالق، ليكـون

هذا المنهج والأساس، دليلاً قاطعاً على أنّ محمّداً ﷺ اليتيم الأمّي لم يفــتر هـذا القرآن على ربّه. بل كان هذا الوحي القرآني تنزيلاً ورحمةً من ربّ العالمين.



٨ً ـ دليل المصداقية الثامن :

والدليل الثامن والقاطع الدّلالة على أنّ محمداً رسول الله ﷺ لم يفتر هذا القرآن من عند نفسه، هو مُعجزة الأذان الاسلامية.

نتساءل عن سرّ امتياز الإسلام بهذه الوسيلة الإعلامية؟ وتتبيّن حكمة ذلك من خلال ماسلف أن أوردناه في دليلنا السّابع. وهو أنّ تعاليم التوراة المعاصرة خاطبت عشيرة بني اسرائيل الذين كانوا لايزالون في دور طفولتهم العقليّة والعلمية، لذلك أتت تلك التعاليم مجرّد تعاليمَ لنظام سلوكٍ بشريٍ لطائفة محدودة من البشر حصراً، لاتتجاوزهم في الدعوة إلى الخلق عامة.

هذا وإنّ قرع النواقيس والنفخ في البوق دعوةً للمصلّين، شكلّت يؤمئذٍ الأداة البدائية الصالحة لمن كان في المراحل الأولى من الوعي، وهذه الوسائل الإعلامية البدائية، تُعدّ في حدّ ذاتها الدليل الواضح الذي يُنبّه أذهاننا إلى أنّ الله تعالى لم يبعث موسى وعيسى بدعوةٍ وتعاليم عالميةٍ، بل كان بعثهما إلى خراف بني اسرائيل الذين استعبدهم فرعون مصر. خصوصاً وأنّه تعالى أطلعنا على ذلك في القرآن الكريم من أنّ قوم موسى كانوا مُستضعفين عند فرعون. كما أخبرنا أنه كان أرسل رسوله عيسى بن مريم إلى بني اسرائيل تكملةً لما جاء به موسى والأنبياء من بعده.

فهذا الفرق الحادث مابين الإعلامين: الإسرائيلي والإسلامي يدلّ دلالة واضحةً على أنّ محمداً اليتيم الأمّي لم يتتلمذ على أيدي الراهب بحيرا ولا على أيدي سواه من الرُّهبان. خصوصاً وأنّ الأذان الإسلامي الإعلامّي لم يوح به إلى محمّدٍ ﷺ نفسه، بل أوحي به إلى صحابيين من أصحابه، وأحدهما عمر بن الخطّاب الصّحابيّ المشهور.

والآن لنمعن نظرنا في كلمات الأذان نفسه. ابتداءً مما أورده أصحاب المعاجم في مفرداته . قال صاحب محيط المحيط : أذّن المؤذّن بالصّلاة : أعلم بها. وأذّن الأمر: أكثر إعلامه. والأذان معناه الإعلام مُطلقاً. والأذان في الشّرع : إعلامٌ على وجه مخصوص. وبناءً عليه فالأذان يعني الإعلام. وهو بذلك يشكّل وسيلةً إعلاميّةً متحضّرة لاتُشبه وسيلة الإعلام البدائي، المتمثّل بقرع أجراس الكنائس، كما تُقرع أجراس المدارس لتنبيه الطلاّب.

والذي يُريد إعلام جماعة متعبّدة، إعلاماً واعياً، ليذكّرهم فيه بعبادة ربّ العالمين، لابدّ له أن يُخاطبهم مخاطبة ذات دلالة، وهكذا الحال في كلّ أمرٍ هام يراد إبلاغهم ايّاه قال تعالى : ﴿**فلّما جهّزهم بجهازهم، جعل السّقاية في رَحل أخيه، ثمّ أذّن مؤذّنٌ أيّتُها العير إنكّم لسارقون.**﴾ يوسف (٧٠) فقد عمد يوسف عليه السّلام إلى الأذان لإخبار القوم بأمرٍ هام. وقد كانت وسيلته هذه وسيلةً مُتحضّرة.

وكان الصّحابة قد تشاوروا قبل فرض الأذان على أن ينصبوا علامةً يعرفون به وقت الصّلاة. فأشار بعضهم بالناقوس. فقال الرسول هو للنّصارى وأشار بعضهم بالبوق. فقال الرسول هو لليهود. وأشار بعضهم بالدّف، فقال الرسول هو للرّوم. وأشار بعضهم بإيقاذ النار، فقال الرسول ذلك للمجوس..

فقام رسول الله ﷺ مُهتمّاً بهذا الأمر، فرأى عبد الله بن زيد بن ثعلبة في تلك اللّيلة في نومه ملكاً علّمه الأذان والإقامة. فأخبر النبي ﷺ بذلك، وأردف على ذلك عمر بن الخطّاب (رضى) أنّه رأى مثل مارأى زيدٌ في منامه. فقال رسول الله ﷺ لقد شرّع الله تعالى لنا الأذان إعلاماً وتذكيراً. وحديث عبد الله بن زيد بن ثعلبة هذا مشهور.

والذّي سنّه لنا رسول الله ﷺ هو أن ندعو به بعد سماع الأذان: (اللّهم ربّ هذه الدّعوة التّامة، والصلاة القائمة، آتِ مُحمّداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته.). ليدعو المسلم بهذا الدُّعاء مُنطلقاً بذهنه من أنّ الأذان هو (دعوة تامّة). أي دعوة إعلامية احتوت على لُبّ لُباب التعاليم الإسلامية، وصيغت وسيلة دعوةٍ إعلاميّة تامّة، ناطقة، حسنة البيان، بليغة الإيجاز. فلا تحتمل أن يُنقص من ألفاظها لفظاً واحداً، أو يُستبدل كلمةً بأخرى، أو يُزاد على ألفاظ الأذان ألفاظاً وجُمَلاً. لأن الأذان جاء (دعوة تامة)، على حسب التّعريف المنصوص عليه في هذا الدُّعاء المسنون والمتواتر عن محمد رسول الله ﷺ.

وهذا الأذان يُنبّهنا إلى حقيقة أنّه مُعجزةٌ إعلاميّة، وتمثّل إحدى تجليّاتِ ربّ العالمين. فهذا هو مايُستدل من الدُّعاء المسنون: (اللهم رب هذه الدعوة

التامّة). وقد أتت هذه الوسيلة الإعلامية متحضّرة وعامـة، علـى مستوى كمـال التعاليم التي أتى بها الدّين الإسلامي.

نتبيّن، على أساسٍ من هذا الفهم، علاقة مُعجزة الأذان الإعلامية بعمليّـة جمع المؤمنين للصّلاة بين يـدي خـالقهم ومعبودهـم كمـا نتبيّـن أن هـذه الوسـيلة الإعلاميّة، يبدو إعجازها أيضاً، من خلال اختراقها لجميـع الحواجـز الماديّة علـى صعيد الواقع. فهي تقـرع بالتّذكـير أسمـاع أعتـى جبـابرة الأرض بطشـاً وتجبُّراً، بإيجـازٍ بليـغٍ جـامعٍ مـانع. إلى جـانـب أنّ مُعجـزة الأذان هـذه اعتبُرت في ديننـــا الإسلامي شعيرةً من شعائره نصّاً ومعنى.

فإذا انطلقنا الآن نتفّهم الأذان على أساسٍ مـن تعريفـه الـذي نـصّ عليـه دُعاء مابعد الأذان (اللّهم ربّ هذه الدعوة التامة..) وعلى أنّه دعوةٌ تامّـةٌ وإعـلامٌ وتذكير ونداء جاء في كمـال البلاغـة والإيجـاز. فلابـدّ أنّـه احتـوى علـى مقدّمـة ومضمون وخاتمة. ذلك أنّ هذه الأمـور مـن علامـات كمـال مثـل هـذه الدّعـوة التّامة، وعليه أنطلق في شرح الأذان من هذا المُنطلق الموضوعي.

ومادام الأذان في غاية البلاغة والإيجـاز، فلابُـدّ أن تُعـدّ أوّل جُمَلِـهِ (ا لله أكبر) مقدّمة لمضمونه. وأن تُعدّ آخر جُمَلِهِ (لاإله إلاّ ا لله) خاتمةً لهـذا المضمـون. ومابين جملتي المقدمة والخاتمة مضمون الأذان نفسه.

من هذا المُنطلق، نتدبّر جُملتي المُقدّمة والخاتمة، بنهـجٍ علمّـيٍ قـائمٍ علـى أساسٍ من الملاحظة. فالذي نُلاحظه هو أنّه في حين تبتدىء جُملـة المُقدّمـة بلفـظ الجلالةّ (ا لله)، تنتهي جُملـة الخاتمـة بنفـس اللّفـظ (ا لله). ونسـتنتج مـن ذلـك أنّ مضمون الأذان إعلامٌ حول وجود (ا لله) عز وجلّ.

ونلاحـظ أيضـاً أنّـه في حـين ورد لفـظ (ا لله) في المقدمـة مُعرّفـاً بصفـة (أكبر). وأكبر صيغة تفضيل، أي أنّ فهم الناس وإدراكهـم مهمـا عظُـم واتّسـع، فلا يتّسع للإحاطة بعلـم ذات ا لله، علـى اعتبـار أنـه تعـالى أكـبر مـن كـلّ كبـير يعرفونه، فقد لاحظنا أن جُمْلة الخاتمة: (لاإلـه إلا ا لله) أوردت لفـظ (ا لله) علـى أنّه لاإله في الوجود إلاّ هو أي لاوجود مستحقٌّ من الإنسان المحبّة والعبادة إلا ا لله عز وجل. على اعتبار أن لفظ (إله) اشتق من الوَلَه. وهذا الأمر ينطق بقـدرة ا لله وعظمته وسعة علمه وإحاطته ورحمته.

وعليه، ومن خلال هاتين الملاحظتين، نكون قد استنتجنا أنّ مقدّمة الأذان، وخاتمته قد تناولتا وأوجزتا مضموناً واحداً، إنّما من زاويتي نظر مُختلفتين. قد أوجزتا أنّ تعاليم الإسلام تدور جميعها حول ذات الله المقدّسة، وكبريائها وعظمتها.

ثم إنّ هذا الإسم (الله) الذي نادى الأذان إليه، هو إسم جامدٌ ذاتي تفرَّدَتْ اللغة العربية به، ولم يورده أيّ دين غير الإسلام. فالله هو الإله مُعرّفاً، وكأنّ هذا الإسم قد خُصّ بذات الله جلّ ذكره.

ونتناول مضمون الأذان، أي مابين جُملتي مُقدّمة الأذان وخاتمته. وهو: (أشهد أن لاإله إلا الله، وأشهد أنّ مُحمّداً رسول الله، حيّ على الصلاة، حيّ على الفلاح، الله أكبر). علماً بأنّ كلّ جملة منها يكرّرها المؤذن مرّتين.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: ماالدّاعي ليقول المؤذّن (أشهد)، أي ماالداعي لشهادة المؤذن نفسه ضمن هذه الوسيلة الإعلامية؟

ونجد الإجابة على هذا التساؤل فيما أفادته دعوى جملتي المقدمة والخاتمة، وهي الإعلان عن وجود الله وكبريائه وعظمته، فهي دعوى احتاجت إلى دليل وإثبات. وقد جيء بشهادة المؤذّن إثباتاً لصحّة هذه الدّعوى وتكرّر مرّتين أيضاً. فالمؤذّن يقدّم نفسه في هذه الحالة كشاهد إثبات، على أنّه بحث وآمن وتعرّف إلى الله أيضاً.

وقامت شهادة المؤذّن على إثبات أمرين اثنين تدور حولهما تعاليم الإسلام هما (أشهد أن لاإله إلا الله وأشهد أنّ محمداً رسول الله) كأوّل جُمُلِ مضمون الأذان.

وسؤال آخر يطرح نفسه: مادلالة أن يُنادي المؤذّن (حيّ على الصلاة) وهو يلتفت بوجهه نحو يمينه؟

ونجد الإجابة في كتاب الله القرآن نفسه، الذي اصطلح على تسمية المؤمنين بأهل اليمين. فالمؤذّن يلتفت إلى ميمنته كرمز يوحي من خلاله أنّه يحثّ المؤمنين للاجتماع للصلاة. ثم إن القرآن الكريم اصطلح لغير المؤمنين اسم أهل الشّمال. والمؤذّن يلتفت إلى شماله كرمز يوحي من خلاله أنّه يحث المؤمنين للتحقيق في أمر الإسلام وتبيّن أنه طريق الفَلاح. فالمؤذّن يقدّم نفسه شاهداً حيّاً على تبنّي الصّلاة الإسلامية من جهة، وتبيّنه بصورة عملية طريق الفلاح.

وكأن المؤذّن يقول بألفاظٍ أخرى: إن الحياة الدّنيا تتأرجح مابين حياة خُسران وحياة فوز وفلاح، وأنّ الإيمان با لله وبرسوله وتبني تعاليم الإسلام عمليّاً هو طريق الفوز والفلاح.

ويُنهي المؤذّن مضمون أذانه بجُملة (ا لله أكبر) أي لامرجعيّة للإنسان في حياته ولاسبيل لنجاته وفلاحه إلاّ الرّجوع إلى ا لله الذي لايفوقه في عظمته ووسيلة هدايته أي عظيم دونه. على اعتبار أنّ (أكبر) هي صيغة تفضيل.

هذه هي دلالات ألفاظ وسيلة الأذان الإسلامية المُعجزة ورموز حركات المؤذّنين. فإن أمعن المرء فيما يتركه الأذان من آثار في نفوس سامعيه، فسيعلم أنّ ألفاظ الأذان تُحرّك عقولهم، وتهزُّ أوتار أفئدتهم هزّاً عميقاً، لايهزُّها شيء آخر مثله.

وهكذا فإنّ الأذان، وعلى الصّورة التي وضّحتُها، يُعدُّ دعوةً تامةً موجهة إلى النّاس كافة، له مقدّمته ومضمونه وخاتمته.

فهو كتابٌ إعلامّي موجّه إلى المؤمنين وغير المؤمنين في آن واحد، وضمن خطّة إعلامية مُتّصفةٍ بصفة العقلانية والمنطقية والحضارية.

الأذان خطّة عقلانية، لأنّها بألفاظها تقرع القلوب وتمضي إلى الأفئدة تحمل إليها نَسمات الإيمان والهداية.

والأذان خطّة منطقيّة اقتضتها دعوة الإسلام الشاملة للناس كافة، والأذان خطّة حضارية، على اعتبار أنّها تمثّل تعاليمَ منهجيّة علميّة مؤيّدة بالأدلّة والبراهين، وتصل هذه التعاليم بالإنسان مرحلة الهداية واليقين الجازم أيضاً. وعليه فقد أتت معجزة الأذان الإسلامية مؤثّرة فعالّة ومُشوّقةً وجذّابة تخترق الآذان، وتنحدر إلى القلوب، في وقت صيغت فيه سهلةً على الأفهام والسّماع، وإلى جانب مااحتوته من جدّةٍ وحكمةٍ بالغة.

والآن فهل يستسيغ عقل مفكّر أن يُوحى إلى شخصين في ليلةٍ واحدةٍ بألفاظ هذا الأذان الإسلامي، وعن طريق رؤى رآها هذان الشّخصان ويكون لمحمد اليتيم الأمّي دخلٌ في ذلك؟ فمن أين لهؤلاء الأميّين أن يبتدعوا وسيلة إعلاميّة حضاريّة وبهذه المتانة الموضوعيّة أيضاً؟

ولِمَ لم تخطر آيّة وسيلة إعلامية مثلها لأذهان جميع أنبياء بني اسرائيل؟ وهم الذين اعتبروا أنفسهم الشّعب المختار (ليهوه) الإله الرّب كما تسميّه هذه التوراة المعاصرة والتي كانت نفسها بين يدي (بُحيرا) وسواه؟

فمن أين كان لمحمّد اليتيم الأمّي أن يَدُلّه الراهب بُحيرا على هذه الوسيلة الإعلامية (الأذان)؟ ومن أين كان لهذا الرّاهب أن يبتدعها، وهي خارج إطار تعليم دينه؟ وكيف يزعم بعد ذلك الأب حدّاد ومن على شاكلته أنّ محمداً رسول الله اقتبس تعاليم التوراة والإنجيل عن رُهبانهم وصاغها بلسانٍ عربّي مبين؟

ونخلص من هذا كله للقول: إن مُعجزة الأذان الإسلامية الإعلامية هي في حدّ ذاتها الدليل القاطع على مصداقية القرآن ومصداقية نبيّه محمد ﷺ اليتيم الأمي. هذا القرآن الذي أنزله الله على قلبه ليكون رحمة للعالمين.

٩ - دليل المصداقية التاسع:

والدليل التاسع على مصداقية القرآن الكريم، وإثبات أنّه لم يكن من تأليف محمد اليتيم الأمّي، هو نزوله مصدّقاً لنبوءات التوراة والإنجيل، بالرغم من كون هذين الكتابين مُحرّفين.

هذا، وإنّ الذي يدعو للدهشة، هو أنّ القرآن الكريم لفت أنظار الباحثين إلى هذا الدليل، وذلك في أوّل آيةٍ منه، من خلال قوله تعالى: ﴿ **آلم. ذلك الكتاب، لاريب فيه، هُدىً للمُتقيّن.** ﴾. أفلم نلاحظ كيف أن الله تعالى استبدل إسم الإشارة للقريب بإسم الإشارة للبعيد، فلم يقل في هذه الآية المذكورة (هذا الكتاب) بل قال (ذلك الكتاب). والمعروف في علوم اللغة العربية أنّ حكمة هذا الإستبدال، فيه الإشارة إلى عظمة شأن القرآن الكريم، إظهاراً لحقيقة مُحتواه. وإنّه لأسلوبٌ بيانّي سديدٌ وبليغ.

فماهي ناحية العظمة لشأن هذا القرآن التي أشار إليها هذا الاستبدال في هذا المقام؟ ونجد الجواب في حكمة تعريف لفظ (الكتاب) هنا بالألف واللاّم. فلم يقل الله عز وجل (هذا كتاب لاريب فيه) بل قال ﴿ **ذلك الكتاب لاريب فيه** ﴾. فالألف واللاّم العهدية التي عُرِّفت بها كلمة (كتاب) هنا، كان المقصود بها نقل ذهن القارىء إلى أمرٍ معهود في أذهان اليهود والنصارى قبل نزول

القرآن، وهو أنّ الله تعالى سيبعث نبيّاً مُشرّعاً مثيل موسى ويُنزل عليه كتاب تشريع أيضاً. فهذا الأمر المعهود في أذهان اليهود والنّصارى هو ماأنبأت عنه التّوراة والإنجيل. وعليه فإن المقصود من تعريف كلمة (كتاب) هنا كان الإعلان أنّ هذا القرآن الذي نزل على قلب محمد اليتيم الأمي ﷺ قد جاء تصديقاً لتلك النّبوءات. لذا فهو كتابٌ ذو شأن عظيم.

وقد زادنا الله عز وجلّ إدراكاً لعظمة شأن هذا القرآن حين أضاف قوله تعالى: ﴿**لاريب فيه هُدىً للمُتّقين.**﴾. أي أنّ عظمة شأن هذا الكتاب المعهود نزوله ذهنياً عند اليهود والنصارى يتأتّى أيضاً من كونه ﴿**لاريب فيه**﴾ هو مُتّصفٌ بكمال الصنعة لُغةً ومضموناً. كذلك فإنّ آياته مُبّرأةٌ عن أن يأتيها الباطل والشّك من حيث صياغتها ومن حيث دلالاتها.

وإضافةً إلى هذا وذاك فإنّ هذا الكتاب ﴿**هدىً للمُتقين**﴾. أي أنّه احتوى على نهجٍ للحياة علمي خاطب عقول المؤمنين. على اعتبار أنّ البشر أمسوا مُؤهّلين لتلقّي مثل هذا النهج الفلسفي، متجاوزين بذلك مرحلة التّعليم التوراتي الذي كان أتى على شكل نظامِ سلوكٍ بشري، وفقاً لاحتياج البشر من بني اسرائيل في زمن إنزاله، علماً بأني وضّحت معالم هذا النّهج في الدليل السّابع سابقاً.

على هذه الصورة، ومن خلال هذا الفهم، وتجاه هذا الدّليل الذي قدّمه القرآن الكريم في أول آيةٍ من سورة البقرة إثباتاً لمصداقيّته، نجد أنفسنا مُلزمين بالعودة إلى مضامين التوراة نفسها باحثين فيها عن هذه النّبوءات. وإن كُنا مُوقنين أنّ التوراة المعاصرة لاتزيد عن كونها مجموعة أسفار قصصيّة، وأنّها تعرّضت للتحريف، لكن من واجبنا أن نعترف في الوقت نفسه بفضل هذه التوراة، من حيث أنّها زوّدتنا بمعلوماتٍ قيّمةٍ عن سير حياة أنبياء بني إسرائيل وتعاليمهم على وجه التقريب.

والذي نلاحظه هو أنّ التوراة تبتدىء بسفر التكوين، هذا السّفر الذي يحكي لنا قصّة خلق العالم وخلق آدم، وماأنجبه من أولاد حتى بعثة نوحٍ وإبراهيم، وانتهاءً بقصّة يوسف عليه السّلام.

والسّفر الذي يأتي بعد سفر التكّوين، هو سفر الخروج، ويحكي لنا قصّة يوسف وولادة موسى في بيت فرعون ونُبوَّته، وخروجه من مصر ببني

إسرائيل، وتخليصه إيّاهم من عبوديّتهم، وانتقاله بهم إلى صحراء سيناء. كما يحدّثنا سفر الخروج عمّا أوصى موسى قومه بعد الإنتقال بهم إلى هناك.

والسّفر الذي بعد الخروج هو سفر اللاّويّين. ويحتوي على الوصايا التي أوصى بها موسى قومه عند جبل سيناء. وسفر اللاّويين هو عبارة عن قصّةٍ أيضاً يرويها كاتبها، بدليل أنّه أنهاها بقوله: (هذه هي الوصايا والأحكام التي أوصى الرّب بها موسى إلى بني إسرائيل في جبل سيناء).

ويأتي بعده سفر العدَد، ليكْمل به هذه الوصايا. حيث يقول كاتبه عند نهايته: (هذه هي الوصايا والأحكام التي أوصى بها الربُّ إلى بني اسرائيل، عن يد موسى، في عربات مؤاب، على أُردن أريحا).

ويأتي بعده سفر التثنية، ويقصُّ فيه كاتبه ماحدث في أواخر أيّام موسى. كما يروي أنّ موسى عاش مائة وعشرين سنة ومات في أ رض مؤآب، وأنّ آثار قبره كانت قد ضاعت، حين كتابة الكاتب هذا السّفر. أي أنّ كاتب سفر التثنية، كتبه بعد مُضيّ عدّة قرون على وفاة موسى. والذي يؤكد ذلك أيضاً، قول الكاتب نفسه قبل انتهائه من كتابه سفر التثنيّة المذكور: (و لم يُقم بعدُ نبيٌّ في إسرائيل مثلُ موسى الذي عرفه الرّب وجهاً لوجه..).

والذي يُهمُّنا نحن هو البحث عن نُبوءاتٍ جَعلت بفضل الله في بُطون هذه الأسفار التوراتية، مؤكدةً لنا صحّة الدّليل الذي قدّمه القرآن الكريم في أوّل آية من آياته، تدليلاً على مصداقيّته.

ويدفعنا منطق البحث حثيثاً، لنبحث عن هذه النّبوءات في سفر التثنيّة، بصورة خاصة. على اعتبار أنّه يحكي لنا قصّة آخر أيّام موسى مع قومه. والمنطق يقتضي أيضاً أن يكون النّبي موسى قد تلقّى في آخر أيام دعوته نبوءات عن مُستقبل أمّته، وبما يتعلق بنزول القرآن الكريم خاصة وعن بعثة محمّدٍ سيّد المُرسلين. فهذا الأمر يهدي إليه منطق الأحداث وسير الأمور.

والحقّ أننا إذا تصفّحنا سفر التّثنية، ووصلنا إلى الإصحاح الثامن عشر منه، حيث يروي لنا الرّاوي وصايا موسى الموجّهة إلى قومه والتي كان ينبغي لهم أن يعملوا بها عند اقتحامهم لأرض كنعان، واستقرارهم فيها. فإنّنا سنجد عند الجملة (١٥) أنّ موسى أوصى قومه قائلاً: (متى دخلت الأرض التي يُعطيك

الربّ إلهك، لاتتعلّم أن تفعل مثل رِجْسِ أولئك الأمم.) وقد قصد بأولئك الأمم الكنعانيّين الذين كانوا على الوثنيّة في تلك الأيّام.

وهُنا يُضيف الرّاوي أنّ موسى قد تلقّى نبوءةً في تلك الأيّام، استجابةً من الله لطلبه الذي طلبه في منطقة حوريب التي مات فيها ودُفن. وأنّ هذه النّبوءة تتعلّق بمستقبل قومه بني اسرائيل. وهذه هي ألفاظ النّبوءة كما رواها كاتب سفر التّثنية: (لاأعود أسمع صوت الرّب إلهي، ولاأرى هذه النّار العظيمة أيضاً لئلاّ أموت.) ويُجيبُه ربّه قائلاً: (أُقيم لهم نبيّاً من وسط إخوتهم مثْلَكَ، وأجعل كلامي في فمه، فيكلّمهم بكلّ ماأوصيه به، ويكون أن الإنسان الذي لايسمع كلامي الذي يتكلّم به بإسمي أنا أُطالبه، وأمّا النبيّ الذي يُطغي، فيتكلّم بإسمي كلاماً لم أُوصه أن يتكلّم به، أو الذي يتكلّم باسم آلهةٍ أُخرى، فيُقتل[1] ذلك النبي. وإن قُلت في قلبك: كيف نعرف الكلام الذي لم يتكلّم به الرّب؟ فما تكلّم به النبيُّ باسم الرّب ولم يحدث، ولم يَصِرْ. فهو الكلام الذي لم يتكلّم به الرّب، بل بطُغيان تكلّم به النّبي، فلا تخف منه). سفر التثنية ١٨/١٨-٢٢.

وإنّها لنبُوءةٌ عظيمة الشأن حقّاً، تفضّل بها علينا راوي التّوراة، فوثّقها لنا لاشتهارها في زمنه يقيناً بين أفراد بني اسرائيل. فقد كانت هذه النّبوءة العظيمة التي بشّرتهم ببعثة نبيّ مُشرّعٍ من إخوتهم من بني إسماعيل، كانت نبوءة معهودة في أذهانهم على الدّوام، لذلك تلقّاها راوي التّوراة ووثّقها في سفر التثنية المذكور.

وقبل أن أعمد إلى شرح هذه النّبوءة لأثبتت أنّها هي المشار إليها ضمن أوّل آيةٍ من آيات القرآن المُبين.

أعود بكم بادىء ذي بدء إلى قصّة ابراهيم عليه السّلام. فهو الأب لهاتين السّلسلتين من ذريّته: اسحاق وإسماعيل. وأعود بكم إلى ألفاظ الروايات التوراتية نفسها، على حسب ماوردت، وأرجو أن يُلاحظ القارىء هُنا أنّ أحداً من رواة التّوراة أو الإنجيل لم يزعم أنّ كتابه السّماوي هو آخر الكتب السّماوية. أو أنّ أنبياءه كانوا آخر الأنبياء المرسلين. بل العكس هو الصحيح. ذلك أنّ نبوءة سفر التّثنية التي نحن بصددها تؤكّد حقيقة أنّ أنبياء بني إسرائيل وتعاليمهم،

---

[1] ملاحظة: هذا لفظ الطبعة التوراتية ماقبل عام (١٨٧٠)م، وقد حرّفوها فاستبدلوها بكلمة (يموت) بعدها

باعترافٍ من موسى عليه السّلام نفسه، لم تكن آخر التّعاليم ولاآخر الأنبياء. فالذي يعلمه كلّ دارس لتاريخ الأديان هو أنّه لم يبعث ا لله تعالى من بعد موسى وأنبياء أمتّه أيّ نبيّ مُشرّع ومعه كتاب تشريع إلا القرآن الكريم ومحمداً خاتم النبيّين.

ويظنّ بعض السّطحيين خطأً أنّ عيسى كان نبيّاً مُشرّعاً. وكيف يكون كذلك وهو الذي قال في إنجيل متّى ٥/١٧-١٩ بالحرف الواحد: (لاتظنّوا أنّي جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ماجئت لانقض بل لأكمِل. فإنّي الحقّ أقول لكم: إلى أن تزول السّماء والأرض، لايزول حرفٌ واحدٌ أو نقطةٌ واحدة من النّاموس، حتى يكون الكُلّ، فمن نقض إحدى هذه الوصايا الصُّغرى وعلّم الإنسان هكذا، يُدعى أصغَر في ملكوت السمّاوات.). فالمسيح بقوله هذا قصد بالنّاموس شريعة موسى ووصاياها ونبوءاتها. وأنكر أن يكون ربُّه قد بعثه بشريعةٍ جَديدة. مؤكّداً أنّ بعثته تُكمل تعاليم التوراة ووصاياها ونبوءاتها.

وأعود إلى سفر التكّوين لأنقل منه قبساً ممّا أوحاه ا لله تعالى إلى ابراهيم عليه السّلام. فقد ورد في الإصحاح ١٥/١٨: (في ذلك اليوم قطع الرّب مع أبرام ميثاقاً قائلاً: لِنَسْلِكَ أُعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النّهر الكبير، نهر الفُرات.).

وروى هذا السّفر عن هاجر زوجة إبراهيم في الاصحاح ١٦/١٠، أنّه ظهر لها ملاكُ الرّب، وقال لها: (هاأنت حُبْلى فتلدين ابناً. وتدعين اسمه اسماعيل، لأنّ الرّب قد سمع لمذلّتك.. فولدت هاجر لأبرام ابناً. ودعا أبرامُ اسم ابنه الذي ولدته هاجر، اسماعيل وتكلّم ا لله معه قائلاً: أمّا أنا فهو ذا عهدي معك، وتكون أباً لجمهورِ من الأمم. فلا يُدعى اسمك بعد أبرامَ، بل يكون اسمك إبراهيم، لأنّي أجعلك أباً لجمهورِ من الأمم. وأُثمرك كثيراً جدّاً، وأجعلك أُمَماً، وملوكٌ منك يخرجون. وأقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك في أجيالهم، عهداً أبديّاً.) ١٧/٥ (فقال ا لله بل سارة امرأتك تلد لك إبناً وتدعو اسمه إسحاق، وأُقيم عهدي معه عهداً أبديّاً لنسله من بعده، وأمّا اسماعيل فقد سمعت لك فيه، هاأنا أُباركه وأثمره وأكثّره كثيراً جدّاً. اثني عشر رئيساً يلد، وأجعله أُمّةً كبيرة.

ولكن عهدي أقيمه مع اسحاق الذي تلده لـك سارة، في هـذا الوقـت في السّنة الآتية..) ٢١/١٧.

ونلاحظ أنّ الرّاوي في سفر التكّوين يروي لنا أنّ هاجر وابنها اسماعيل سكنا منطقة مكّة المُكرّمة. فقـد قـال: (وكـان الله مـع الغُـلام فَكَبُرَ وسـكن في البريّة. وكان ينمو رامي قـوس. وسـكن في بريّـة فـاران.) وهـذا الكـلام متعلّق باسماعيل عليه السّلام، كما يدلّ على ذلك سياقُ الكلام. علماً بأنّ منطقـة مكـة المكرّمة أُطلق عليها وماجاورها منطقة "فاران" وذلك لفرار هاجر واسماعيل إليهـا بأمر ربّهم عز وجلّ. فقد كان مُقدّراً أن يبعـث الله تعـالى مـن نسـلهما مُحمّـداً رسول الله ﷺ، ويُنزلَ القرآن الكريم على قلبه ليكون للعالمين نذيراً.

وأنتقل من هذا التمهيد الذي مهّـدت بـه، والـذي كـان ضروريـاً جـدّاً لِيُعطي القارىء فكرةً عن تسلسل الأحـداث القديمـة، انتقـل منـه إلى نبـوءة سـفر التثنية العظيمة التي نقلت لكم ألفاظها حرفياً، شارحاً هذه النّبوءة بتفحّص وتدبّر.

والحقيقة أن هذه النّبوءة قد احتوت على أمور عديدة، وعلامات كثيرة. فكلٌّ لفظٍ من ألفاظها مُفعـمٌ بـالدّلالات. علمـاً بـأنّ اليهـود والنّصـارى يعـترفون بوجود هذه النّبوءة كما أوردها سفر التثنيّـة المذكـور. لذلـك تُعتـبر هـذه النّبـوءة حجةً قاطعةً تُدينهم جميعهم أمام الله، وتجاه عباده المفكّرين.

وأول ماورد في النّبوءة: (أُقيم لهم من وسط إخوتهم نبيّاً مثلك.). والحقّ أن الذي ترجم أسفاره التوراة إلى اللغة العربية، ترجمها ترجمةً حرفيّةً، بأمانة، فهـو لم يستعمل هنا كلمة (أبعث) أو (أصطفي). بل استعمل كلمة (أُقيم لهم) . وأقام من قام بمعنى انتصب. فأقام معناه نصّب وأدام هذا التنصيب. ذلك أنّ فعل أقـام، يحوي ضمناً معنى الدّوام، فأنت تقيم جـداراً لالتهدمـه، بـل ليظـلّ يحمـل سـقف البناء. فجملة (أُقيم لهم نبيّاً مثلك.) تعني أنّ الله تعـالى سـيبعث لهـم نبيّـاً مشـرّعاً مثْلَ موسى عليه السلام، وتدوم نبوّته أيضاً بمعنى أنه يكون خاتم النبيّين.

ويتساءل الإنسان هنا بداهةً عن القوم الذي سـيصطفى الله تعـالى أحـد أفراده مصداقاً لهذا الوعد المنصوص عليه في هذه النبـوءة مصـداق (.. مـن وَسَـطِ إخوتهم..) فمن هم إخوة بـني إسـرائيل؟ هـم الفـرع الثـاني لنسـل ابراهيـم عليـه السّلام، وهو نسل إسماعيل، أي أنّ الله تعالى وعـد أنّـه سيُقيم نبيّـاً مُشرّعاً مـن وسط نسل إسماعيل عليه السلام، مثلَ موسى ويأتي معه تشريع، وهذه إشارة إلى

هذا القرآن الكريم نفسه الذي أنزله ربُّنا على قلب محمّد بن عبد الله ﷺ الصادق الأمين.

وتضيف النّبوءة: (وأجعلِ كلامي في فمه فيكلّمهم بكلّ ماأوصيه به.) وكأنّ هذه الألفاظ تعني أن هذا النّبي المشرّع لاينطق عن هواه ولامن نفسه، بل ينقل إلى النّاس مايُوحى إليه من ربّه حرفيّاً. وهذا الأمر يفسّر لنا حكمة ابتداء نزول القرآن الكريم بآية (اقرأ) بمعنى احملْ هذه الرسالة السّماوية وبلّغها إلى الناس كافّةً. على شاكلة قولك: أقرأ منّي فُلانا سلامي. وهذه الجملة من النبوءة تفسّر لنا حكمة قوله تعالى، ﴿**ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين، فما من أحدٍ عنه حاجزين.**﴾.

المهمّ أن جملة: (وأجعل كلامي في فمه فيكلّمهم بكلّ ماأوصيه به.) تعني صراحةً أن هذا النّبي المشرّع الموعود به، سيتلقّى من ربه وحياً لفظيّاً، ويؤمر بتبليغه للناس حرفاً بحرف، وهو أمرٌ لم يسبق أن حدث في تاريخ جميع الدّيانات السّماوية. وبذلك يكون هذا النّبي المُشرّع مأموراً بوضع حجر أساس تكوين أمّةٍ جديدة غير قوم بني إسرائيل. وهذه الأمة الجديدة مُكلّفةٌ بحمل رسالة الله تعالى إلى الناس كافة إلى أبد الآبدين.

وتضيف النّبوءة: (ويكون أنّ الإنسان الذي لايسمع لكلامي الذي يتكلّم به باسمي أنا أطالبه.). ولم تستثن هذه الكلمات أفراد بني اسرائيل من مسؤولية الاستجابة لصوت هذا الوحي الجديد. ولم تعفهم من مسؤولية واجب الإيمان به. بل (ويكون أنّ الإنسان الذي لايسمع لكلامي الذي يتكلّم به باسمي أنا أطالبه.). فقد ورد لفظ الإنسان مُعرّفاً ليفيد الاستغراق، وليشمل جميع النّاس بما فيهم "بنو إسرائيل".

ثمّ إنّ جمله (أنا أطالبه) تفيد أنّ من يكفر بهذا النّبي وشرعه ومايتنزل عليه من وحي لابدّ أن يلقى عقاباً من ربّه. كذلك جملة : (الذي يتكلّم به باسمي) تعني أنّ هذا الوحي الجديد يبتدىء عموماً ببسم الله. وهذه ظاهرة اختصّ بها الوحي القرآني. ذلك أنّ جميع سور القرآن ابتدئت ببسم الله الرحمن الرحيم باستثناء سورة التوبه التّابعه لما قبلها.

وأضافت النّبوءة : (وأمّا النّبي الذي يَطْغى، فيتكلّم باسمي كلاماً لم أوصه أن يتكلّم به، أو الذي يتكلّم باسم آلهة أخرى، فيقتل ذلك النّبي.) يعني أنّ

النّبي المشرّع المُنبأ عنه، سيعصمه ا لله من القتل ويحميه. فلن تنجح مؤامرة في قتلـه والقضاء عليه.

وهذا الأمر يُذكّرنا بوعد ا لله تعالى محمداً رسول ا لله في القـرآن الكريـم : ﴿**وا لله يعصمك من النّاس**﴾. والمعلوم لكـلّ إنسـان هـو أن ا لله تعـالى عصـم محمداً وحماه ومكّنه من أداء رسالته كاملـة، ليقـول في حُجّـة الـوداع : ﴿ **اليـوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً.**﴾.

وقد أضافت النبوءة: (وإن قلت في قلبك : كيف نعرف الكلام الذي لم يتكلّم به الرّب. فما تكلّم به النّبي باسم الرّب و لم يحدث و لم يَصِـر، فهـو الكـلام الذي لم يتكلم به الرّب، بل بطغيان تكلّم به النّبي، فلا تخف منه.). وقد وضحت لنا هذه الجمل بجلاء تطابق هذه النبوءة وماجاء في القرآن الكريم، ومن تلقّى هذا القرآن بكلّ صراحة وقوّة.

ذلك أنّ القرآن الكريم احتـوى علـى مئـات النّبـوءات الـتي تحقّـق منهـا ماتعلّق بأزمنتها، وسيتحقّق فيهـا مـايتعلّق بالأزمنـة القادمـة إن شـاء ا لله العزيـز. لذلك ينبغي لليهـود والنّصـارى أن يعـوا ويُدركـوا دلالات ألفـاظ هـذه النّبـوءة، ويخافوا أن ينزل بهـم عـذاب ا لله، أكـثر ممّـا نـزل بهـم حتـى الآن، فـا لله شـديد العقاب. وأن يُذعنوا لما دلّتهم عليه ألفاظ نبوءه سـفر التثنيـة هـذه، فيؤمنـوا بـا لله ورسوله وبالقرآن الكريم الذي نزل معه ليكونوا بذلك من النّاجين ومن المُنعمين.

وأعود لأشير إلى أن دلالات هـذه النبـوءة التوراتيّـة يسـتحيل أن تنطبـق على أيّ نبيّ إسرائيلي أو على المسيح بن مريم الذي لم يك نبيّاً مشـرّعاً، ولاجـاء لينقض التوراة، كما صرح بذلك هو نفسه.

بل أقول : إنّ المسيح نفسه أكّد علـى نـبي اسـرائيل وحوارييـه في انجيـل يوحنّا ١٢/١٦ بقوله: (إنّ لي أموراً كثيرة لأقـول لكـم، ولكـن لاتسـتطيعون أن تحتملوا الآن. وأمّا متى جاء ذاك روح الحق، فهو يرشدكم إلى جميـع الحـقّ، لأنّـه لايتكلّم من نفسه، بل كلّ مايسمع يتكلّم به، ويُخبركم بأمور آتية).

فلينظر القارىء كيف اعترف المسيح أنّ قومـه في زمنـه لم يكونـوا علـى مستوى تلقّي شريعة كاملة، وكيف أنبأ عـن بعثـة مـن سمّـاه (روح الحـق) الـذي سيرشد إلى جميع الحقّ. أي أنّ المسيح بن مريم قد أنبأ عن بعثة هذا النّـبي المشـرع

والذي ستمثّل تعاليم شريعته (روح الحق) فلا يتكلّم من نفسه. أي لايأتي بشيء من لدنه. بل كل مايتكلّم ا لله عز وجل به يصدع له ﴿**إنّما هو وحيٌ يوحى**﴾. كما أمر المسيح بن مريم أن يُعْرِضَ عن الجاهلين، وأنّ هذا النّبي الموعود به (يُخبِركم بأمورٍ آتية) أي أنّ وحي كتابه حافلٌ بالنّبوءات.

على هذه الصّورة يتبيّن لكل ذي عين بصيرةٍ أنّ الدّليل الذي أتت به نبوءة سفر التثنية التوراتية، يُعتبر حُجّةٍ ودليلاً قاطعاً على مصداقيّة القرآن الكريم. وهي نبوءةٌ تُدين اليهود والنّصارى معاً ومايعتقدونه.

١٠ـ دليل المصداقية العاشر :

لابدّ لهذا الدليل من تمهيد. ذلك أنّي سأقدّم فيه اثنتي عشرة نبوءةً قرآنيّةً مجتمعة في سورةٍ واحدةٍ، مصداق نبوءة انجيل يوحنا ١٦/١٢ (.. ويخبركم بأمورٍ آتية.) أي ينبئكم بنبوءات كثيرة. وتتأتّى ضرورة هذا التّمهيد ممّا اشتملت عليه نبوءة سفر التثنية ١٨/١٨ من أنّ النّبي الذي يطغى يُقتل. فلابدّ لي في هذا الدليل العاشر من إثبات أمرين اثنين: الأوّل أنّ موت محمد رسول ا لله ﷺ كان موتاً طبيعياً، وقد عصمه ا لله ربّه من الهلاك. والأمر الثاني تقديم نماذج من نبوءات قرانيةٍ مستقبلية انطوى عليها هذا القرآن الكريم.

والحقيقة هي أنّ القرآن الكريم لم يُنكر على اليهود والنّصارى هذين المعيارين لاثبات صدقه وصدق محمد ﷺ الذي أُنزل عليه. بل وأضاف القرآن الكريم إلى هذين المعيارين، معياراً ثالثاً، وهو أنّ اليهود والنّصارى الذين يكذّبون هذا القرآن وهذا الرسول ﷺ لن يفلتوا من عذاب ربّهم الذي سيُنزله بهم نتيجة لتكذيبهم إياه مصداق نبوءات كتبهم التي يقدسّونها.

وهذه المعايير الثلاثة تضمّنها قول ا لله عز وجلّ في سورة الأنعام (٢١):

﴿**ومن أظلم ممّن افترى على ا لله كذباً، أو كذّب بآياته، إنّه لايفلح الظالمون.**﴾

وهذه الآية التي احتوت على هذه المعايير الثلاثة، وردت في مواجهة أهل الكتاب ومعايير كتبهم أيضاً. فقد قال تعالى في سباق الآية : ﴿**الذّين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، الذين خسروا أنفسهم، فهم لايؤمنون**﴾ أي أنّ اليهود والنّصارى وقد دُعوا للإيمان، بهذا القرآن وهذا الرسول، يعرفون صدقه

كما يعرفون أبناءهم، لانطباق نبوءات كتبهم المقدّسة (التوراة والانجيل) عليه وعلى من أُنزل عليه انطباقاً كاملاً.

ذلك أنّ بين الآباء والأبناء صلات عاطفيّة أصيلة، فقد وُجدت كذلك بين نبوءات كتب اليهود والنّصارى وبين هذا الكتاب وهذا النّبي صلاتٌ عاطفيّة أصيلة. وهم إذ يتنصّلون من هذه المعرفة وهذه الصّلة، يكونون من ﴿ **الذّين خسروا أنفسهم**﴾. كخُسران الوالدين لأبنائهما. هذا إذا كان اليهود والنصارى يحسبون لعاقبتهم حسابها. أما الذين لايحسبون لها حسابها، ولايسعون للتوثّق من هذه الحقيقة وقبولها ﴿ **فهم لايؤمنون** ﴾ أي لايُستغرب كُفرهم وتنكّرهم لهذا القرآن وهذا النبي ﷺ.

وهذان المعياران النّابعان من نصوص نبوءات كتب اليهود والنصارى التي يُقدّسونها، المُتعلّقان بهما خاصّة، لايؤخذ بهما إلاّ في حال اعتقاد المرء بوجود الله عز وجلّ، وتدخله في أمر مدعيّي النّبوءة الكاذبين ممّن لم يوح الله إليهم بشيء. لذا كانت شهادة الله بحقّهم هي الأساس في الموضوع.

لذلك فقد مهّد الله تعالى لهاتين الآتيين اللّتين ذكرناهما من سورة الأنعام بقوله: ﴿ **قل أيّ شيء أكبر شهادة، قل الله** (وقف اجباري) **شهيد بيني وبينكم** (وقف اجباري) **وأوحي إليّ هذا القرآن لأنذركم به، ومن بَلَغ، أئنّكم لتشهدون أنّ مع الله آلهةً أخرى، قل لاأشهد، قل إنّما هو إلهٌ واحد، وإنّني بريءٌ ممّا تُشركون.**﴾. وقد لفتت هذه الآية الكريمة الأنظار إلى ضرورة احترام شهادة الله تعالى من جهة، ونددت بعقيدة تأليه النّصارى للمسيح من جهةٍ أخرى، ومهّدت بذلك لتقديم هذين المعيارين المذكورين.

وقد سبق أن قال الله تعالى قبل آيات التمهيد والمعايير هذه ﴿**وهو القاهر فوق عباده، وهو الحكيم الخبير.**﴾ والقاهرة من قَهَره يقهره قهراً: غلبه. والقهر مصدر قهر. فالقاهر هو الغالب جبراً واضطراراً. ومن أسماء الله "القهار" على وزن فعّال للمبالغة. فالآية تعني أن من يفتري على الله كذباً وينتحل صفة نبّي. لاينجو من عقاب الله وقهره إيّاه خصوصاً وأنّ الله تعالى حكيم وخبير، يُعاقب المفترين هؤلاء ويقهرهم بحكمته وخبرته.

ثم إنّ مايؤكّد الذي ذهبنا إليه من دلالات هذه الآيات، قوله تعالى قبلها مباشرة أيضاً: ﴿**وإن يَمْسَسْك الله بُضرٍ، فلا كاشف له إلاّ هو، وإن يمسسك**

بخير فهو على كلّ شيء قدير.﴾ وألفاظ هذه الآية الكريمة مهّدت لجميع ماأعقبها من آيات. فهي أشهرت وجود الله عز وجلّ القادر على كلّ شيء ويرقب الذين ينتحلون صفة نبيّ والذين لاينتحلون.

وزبدة القول هو أننا إذا كنّا قد اثبتنا في دليلنا العاشر هذا موت محمد رسول الله ﷺ موتاً طبيعيّاً. وأنّ الله قد حفظه من جميع مادبّره أعداؤه له من مكائد ومؤامرات لقتله والقضاء عليه وعلى دعوته. وإذا كنّا كذلك قد قدّمنا نبوءات كثيرة أتى بها محمد ﷺ من الوحي القرآني وفق نبوءة الإنجيل (ويخبركم بأمور آتيه) وتحققت هذه النبوءات أيضاً. أقول إذا تحقّق لنا هذان الأمران، نكون قد أحكمنا دليلنا العاشر إحكاماً ظاهر الدلالة على مصداقيّة القرآن الكريم.

أمّا ماتعلّق بموت محمّدٍ ﷺ موتاً طبيعيّاً، فيكفي أنّ الأحداث في حياته ﷺ توالت وفق ماوعده الله عز وجل في قوله: ﴿ **والله يعصمك من الناس**.﴾. وهذه الأحداث انتهت في حُجّة الوداع يوم أن خاطب محمد ﷺ الناس قائلاً ومودّعاً: ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً**..﴾. ومن ثم تُوفّي محمد ﷺ وفاةً طبيعيّة، ولم يُقتل على أيدي أحدٍ من أعدائه. وهذا الأمر لايتطلّب منّا مزيد الشّرح أصلاً.

والذي يتبقّى علينا إثباته، هو أنّ القرآن الكريم أخبر بأمورٍ كثيرةٍ آتية وفق (ويُخبركم بأمور آتية). أي يتبقى الكشف عن النبوءات القرآنية المستقبليّة اللافتة للأنظار، المدهشة للعقول، بل التي تِفحُم اليهود والنّصارى بشكلٍ واضحٍ لايقبل الجدال.

ولابدّ من التّنويه هنا إلى أنّ مؤلّفي (فن الاختزال في القرآن الكريم) قد احتوى على تعداد نبوءاتٍ كثيرةٍ قرآنية تحققت جميعها. وأضيف هنا إيراد اثنتي عشرة نبوءة تضمّنتها سورة التكوير. لعلاقة هذه السّورة بزماننا المعاصر ومايأتى به من تطوّرات. ويزيد نبوءات سورة التكوير هذه عظمةً نزولها في مكة المكرمة، يوم كانت دعوة الإسلام في أوائل مراحلها، وقبل أن يشتدّ عودها، يوم كان يستحيل على محمد رسول الله ﷺ نفسه أن يفكّر في مستقبل أمّته، وماستمرّ فيه من أدوار.

وسورة التكّوير هذه اشتمل عليها الجزء الأخير من القرآن الكريم. فهي جزء من خلاصة القرآن المُوسّعة. وهي أنبأت عن عصر انحطاط المسلمين وتخلّفهم وتخاذلهم في العمل على تعاليم الإسلام، وأنبأت عن علامات تتحقّق في الوسط الإسلامي والوسط غير الإسلاميّ، إلى جانب التبشير بزوال ذلك وعودة المسيرة الاسلامية وانتصارها اليقينيّ.

وجاءت سورة التكوير مبدوءة كل آية من آياتها الأوائل بالظّرف (إذا). وهو ظرف للمستقبل متضّمن معنى الشّرط. أي أنّ الموضوع المطروق مشروطٌ بما اشترَط وقوعه الظرف (إذا). وقد ابتدأ هذا الموضوع أصلاً في سورة التكوير بقوله تعالى: ﴿ **فلا أقسم بالخُنّس. الجوار الكُنّس، والليل إذا عسعس. والصّبح إذ تنفّس**﴾. وقد أوجز تعالى في هذه الآيات الكريمة الحال الذي سيؤول إليها عصر تخلّف المسلمين زمن تحقّق النبوءات المبتدئه بالظرف (إذا). فمضمون هذه الآيات فيه تبشيرٌ أيضاً (واللّيل إذا عسعس. والصّبح إذا تنفّس) أي لن يستمر ليل المسلمين بل ويتنفّس الصّبح بعده أي بعد اكتمال ظهور جميع هذه النّبوءات الاثنتي عشرة المبدوءة بالظرف (إذا).

ولقد أكّد الله تعالى بعد ذلك على كون جميع ماأنبأ عنه سيتحقّق يقيناً. ذلك أنّه اصطفى رسولاً ذو قوّةٍ عند ذي العرش مكين. مُطاعٍ ثمَّ أمين. وماصاحبكم بمجنون. ﴿**ولقد رآه في الأفق المبين.**﴾ أي كشف الله تعالى عليه جميع ماأنبأت عنه هذه الآيات المبدوءة بظرف (إذا) الشرطيّ. وأنّ ربه ﴿**ماهو على الغيب بضنين**﴾ على هذا النّبي الكريم.

وحين انتهى جلّ شأنه من تنبيه أذهان البشر إلى مصداقيّة هذا القرآن الكريم الذي اشتمل على جميع هذه النبوءات الغيبة، عاد فتوّجه بالخطاب إلى أهل العصر الذي ستتحقق فيه جميع هذه النّبوءات يؤكّد لهم وجوده، ويهزهم بقوله تعالى : ﴿ **فأين تذهبون. إن هو إلاّ ذكرٌ للعالمين. لمن شاء منكم أن يستقيم. وماتشاؤون إلاّ أن يشاء الله ربّ العالمين.**﴾ أي أنّ ربوبيّة الله تعمل لصالح مصداقية القرآن ومصداقيّة هذا النّبي. خصوصاً وأنّه تعالى أنزل هذا القرآن ذكرى وموعظةً لجميع الناس على اختلاف أزمنتهم وأمكنتهم. ولامجال لي هنا لزيادة التّفصيل والشرح في هذا المقام.

لذلك أعود لألقي الضّوء على الآيات الأوائل المبدوءة بالظرف (إذا) والمتضمنة نبوءات غيبيّة مستقبليّة. علماً بأنها قسمان: نبوءات تتعلّق بواقع مسلمي عصرنا وظواهر تخلّفهم. ونبوءات تتعلق بأحداث هذا العصر وتطوّراته.

فالآيات الأوائل: ﴿ **إذا الشمس كُوّرت. وإذا النّجوم انكدرت. وإذا الجبال سُيّرت.**﴾ متعلقة بواقع المسلمين المعاصرين، وبالأسباب الرئيسيّة لتخلّفهم وانحطاط مجتمعاتهم. والخطأ الذي وقع فيه أكثرية المفسرين هو أنّهم حملوا ألفاظ هذه الآيات الكريمة على معانيها المتبادرة للأذهان. فلم تكن لديهم مُعطياتٌ علمية صحيحة تساعدهم على الانتقال منها إلى معانيها المجازية كنبوءات. ذلك أنّ الشمس المعروفة لاتكوَّر. والنجوم المعروفة لاتنكدر. والجبال الرّواسي لاتُسيّر. هذا مبلغي من العلم. فكيف تُسيّر الجبال؟ وإلى أين؟ ثم إن الشمس نجمٌ من نجوم السّماء أصلاً، ولقربها من كوكبنا الأرضي الذي يدور حولها تبدو بهذا الحجم وهذا الضّياء. ثم إنّ الشمس والنجوم جميعها مفاعلات تتحوّل العناصر ضمنها بطريقةٍ معجزةٍ لتؤدّي دوراً هاماً لصالح وجود الإنسان. فلا تنكدر ولاتتكوّر بل تفنى إذا اختل توازن تفاعلاتها الكيميائية.

والمراد من الشّمس هنا مجازاً هو شمس الإسلام وأنوار سيد المرسلين. أما قرأنا قوله تعالى في سورة الأحزاب الآية (٤٥): ﴿ **ياأيّها النّبي إنّا أرسلناك شاهداً ومبشّراً ونذيراً. وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً مُنيراً.**﴾؟

فالنّبي ﷺ سُمّي (سراجاً منيراً). بينما سُمّيت شمس كوكبنا الأرضي (سراجاً وهّاجاً) النبأ ١٣ ـ ومعنى أوهج النّار: أوقدها. فالشمس سراجٌ وهّاجٌ أي جُملةُ عناصر ماديّة مُتّقدة لها حرُّها شديد الوهج، فلا تتكوّر، والنّبي ﷺ هو سراج منير بمعنى مجازيّ، أي أنّ تعاليمه التي احتوى عليها هذا القرآن الكريم تنير عقول الذين يعملون عليها ويستوعبونها. وعليه فالمقصود من ﴿**إذا الشّمس كُوّرت**﴾ هذا الإنباء عن زمانٍ قادمٍ يعود فيه العمل بتعاليم القرآن الكريم من باب النافلة، لا الفرض والواجب وذلك في نظر أتباعه.

وهذه إشارةٌ إلى زماننا بالذّات حيث عاد الإسلام اسماً والقرآن رسماً والمساجد عامرة ولكنّها خرابٌ من الهُدى. ولايصلح هذه الأمّة إلا بما صَلُحَ به أوّلها.

كذلك فليس المقصود من ﴿**وإذا النجوم انكدرت**﴾ تناثر نجوم السّماء الحقيقية. فلو تناثر أي نجم لاختلّ النظام الكوني بأجمعه. والنّجوم شموسٌ حقيقية. فقد كان يكفي القول ﴿**إذا الشمس انكدرت**﴾ ليدلّ بذلك على يوم دمار هذا العالم.

وإنما المقصود هنا فالمعني المجازيّ للآية الكريمة. على اعتبار أنّ استحاله انكدار النجوم يعتبر قرينةً لغوية تلزمنا بالمعنى المجازي وليس الحقيقي. وعليه فالمقصود من ﴿**وإذا النّجوم انكدرت**﴾ هو الإنباء عن زمان يأتي يعود يندر فيه وجود علماء حقيقيّين. أما لاحظنا قول رسول الله ﷺ (أصحابي كالنّجوم بأيّهم اقتديتم اهتديتم.). فهو ﷺ اصطلح على تسمية أصحابه نجوماً مجازاً. ثم إنّ انعدام وجود علماء حقيقيين يؤدّي أصلاً إلى جهل النّاس بتعاليم دينهم جهلاً يؤدي بهم إلى التخلّف والانحطاط.

كذلك فليس المقصود من ﴿**وإذا الجبال سُيّرت**﴾ تسيير أوتاد الأرض ورواسيّها، فهي لاتُسيّر، بل تُنسف ويجعلها ربّي قاعاً صفصفاً إذا شاء. فهذه الاستحالة قرينة لغوية تنقل لفظ الجبال هنا من المعنى الحقيقي المُتبادر للذهن، إلى المعنى المجازيّ. حيث يُقال للسيّد في قومه جبل. وهذه نبوءة متعلّقة بزعماء مسلمي عصر الانحطاط السيّاسيين ووجهائهم أنّهم لايعودون مستقلّي الشخصية بل يغدون مُسيّرين من جهات خارجةٍ عنهم. لذلك يفقدون بفقدانهم الحريّة في اتّخاذ القرارات، مصداقية الإخلاص. وهكذا تكون هذه الآيات الثلاث قد أنبأتنا عن صورةٍ قاتمةٍ تدور حول تخلّف المسلمين المعاصرين وأسبابه.

وقد أنبأ جل شأنه في بقية الآيات المبدوءَة بالظروف (إذا) عمّا سيطلع زمن تخلّف المسلمين به من اكتشافات وتقنيّات وأحداث.

وأوّل هذه النبوءات تضمنّه قوله تعالى : ﴿**وإذا العشار عُطّلت**﴾. والعشار هي النّوق الحوامل. والنّوق سُميّت قديماً بسفن الصحراء. بمعنى أنها الوسيلة الأساسية للتنقّل عبر الصّحراء. وعطّل الشيء: تركه ضياعاً. وعطّل الإبل: خلاّها بلا راع يرعاها. ولايُهمل الإنسان هذه الوسيلة الطبيعيّة للتنقّل في الصحراء خاصّة إلاّ في حال توفّر وسائل أفضل منها لديه. من هنا ندرك أن في قوله تعالى : ﴿**وإذا العشار عُطّلت**﴾ الإنباء عن اكتشاف وسائل أفضل من

النوق للحمل والتنقّل. وفي هذا الإنباء الإشارة إلى اختراع السيارة والقطار والطيارة والسّفن البخارية. فهذه جميعها وسائل نقل أفضل من العشار، بل وعطّلت العشار عن مكانتها الطبيعية التي خلقت لها. وقد اكتشفت هذه الوسائل زمن انحطاط المسلمين.

وثاني هذه النّبوءات تضمّنه قوله تعالى: **﴿وإذا الوحوش حُشرت﴾** والوحوش هي حيوان البرّ، أو مالا يُستأنس من دواب البرّ (أقرب الموارد) وحشَرَ الوحوش: جَمَعها. ويأتي الحشر بمعنى الموت كما جاء في الصّحاح.

من هذه المعاني ندرك أن هذه الآية **﴿وإذا الوحوش حشرت﴾** أنبأت عن ظاهرة من ظواهر عصرنا، وهي هذه الحدائق التي تُخصص لحشر أي جمع مُختلف أصناف الحيوانات البريّة مايُستأنس منها ومالا يُستأنس، وبأعداد محدودة، والقصد من حدائق الحيوان هذه أن تُحفظ فيها هذه الأعداد من الحيوانات، خشية انقراضها، إلى جانب أغراضٍ أخرى. والمعلوم أنّه لاتوجد دولة متحضّرة في عصرنا إلا ويوجد لديها حديقة للحيوان. بل وتسعى جميع الدّول إلى تقليدها. وظاهرة حدائق الحيوان هذه لم يسبق في تاريخ البشر أن عمدت حكومة من الحكومات إلى التفكير فيها قديماً. فهي ظاهرة معاصرة، لعصر انحطاط المجتمعات الإسلامية.

وثالث هذه النبوءات تضمّنه قوله تعالى : **﴿وإذا البحار سُجّرت.﴾**. والبحر في اللّغة خلاف البرّ. وكل نهر عظيم. وكل مُتوسّع في شيء. فالرّجل المتوسّع في العلم بحرٌ، والفرس المتوسّع في جريه بحر (أقرب الموارد) ويُجمع البحر على أبحر وبحار وبُحور، وكلمة سُجّرت، تقول سجّر الماء فجّره وسجّر التّنور ملأه بالحَطب ليحميه. (أقرب الموارد).

من هذه المعاني ندرك أنّ هذه الآية: **﴿وإذا البحار سُجّرت﴾**، قد أنبأت عن توسّع كبير في المساحات المزروعة من الأراضي البور إشارة إلى شقّ قنوات منتظمة من مختلف الأنهار الكبيرة في العالم والتي يصّح تسميتها بالبحار، وعلى مستوى لم تعرفه البشريّة من قبل. كنتيجة طبيعية لتقدم العلوم الزراعية.

ورابع هذه النّبوءات تضّمنه قوله تعالى: **﴿وإذا النّفوس زُوّجت.﴾**. من زوّج النّفوس: قرنها ووصلها بعضها مع بعضها الآخر.

من هذا نُدرك أنّ هذه الآية: ﴿وإذا النّفوس زُوّجت﴾. قد أنبأت عن الاكتشافات والاختراعات التي تقرن أي تصل النفوس بعضها مع بعضها الآخر، بالرّغم من بعد مسافات الواحد عن الآخر. والحقّ أنّ هذه الاختراعات تميّز عصرنا بالذات. فهي الإشارة إلى اختراع جهاز الهاتف والبرق وماإليهما، ممّا يمتّ إلى الخطوط السلكية واللاسلكيه بصلات. وقد أصبح العالم صغيراً جدّاً بسبب هذه الأدوات.

وخامس هذه النبوءات، تضمّنه قوله تعالى: ﴿وإذا الموءودة سُئِلت. بأيّ ذنبٍ قُتِلت.﴾. والموءودة من وأد ابنته يئدها وأداً: دفنها في القبر وهي حيّة وأثقلها بالتراب، فهي موءودة (أقرب الموارد).

إن مضمون هذه الآية الكريمة دفع بعض المفسّرين الذين لم يتدبّروها حقّ تدبُّرها، إلى اعتبار مضمونها مشيراً إلى ماسيحدث للموءودة يوم القيامة. ولم يسألوا أنفسهم: وهل تُسأل الموءودة أصلاً عمّن قتلها وبأيّ ذنبٍ قُتِلَت؟ فالمقتول المجني عليه لايُوجّه إليه سؤال عن سبب قتله. بل إنّ قاتله هو المسؤول في المحاكم ويوم القيامة.

فما معنى إذن ﴿وإذا الموءودة سُئِلت. بأيّ ذنبٍ قُتلت.﴾؟ أقول: إنّ ماذكرته يُعدّ قرينةً لغويةً تنقل أذهاننا من المعنى المتبادر لها إلى معنى آخر مجازيّ. وهو الإشارة إلى أنّ عصر انحطاط المسلمين سيكون عصر المطالبة بتحرير المرأة من وضعها الذي آلت إليه، نتيجة انحراف المسلمين المعاصرين عن تطبيق تعاليم الإسلام المنصوص عليها في القرآن الكريم، وإخضاعهم المرأة لحجابٍ هو أشبه بوأد الفتاة وهي حيّة. والحقّ أن عصرنا يمكن تسميته بحقّ عصر تحرير المرأة من الذين يئدونها وهي ماتزال تنبض بالحياة. فلا يفسحون لها مجالاً أن تحتلّ مكانتها كنصف المجتمعات، وأنْ تؤدي رسالتها السّامية في مُجتمعاتها. فالمرأة من هذا النّوع تُسأل في الصّحف والمجلات وجميع وسائل الإعلام: ﴿بأيّ ذنبٍ قُتلت﴾ أي أنّ وضعها المُعاصر كالمُذنبة التي حجرها المسؤولون وحالوا دون نشاطها الاجتماعي.

وعليه فلا علاقة لمضمون هذه الآية الكريمة بوأد إحدى القبائل الجاهلية بناتهم خشية العار. ولاعلاقة لهذه الآية أيضاً بالآخرة ويوم الحساب.

وسادس هذه النّبوءات تضمّنه قوله تعالى: ﴿وإذا الصُّحف نُشرت﴾. ونشر الخبر: أذاعه (أقرب الموارد). والصُّحف جمع صحيفة، وهي قُرطاس مكتوب (محيط المحيط). ومنه اشتُقّ لفظ (المُصحف) كاسم مفعول أي القُرطاس المكتوب المجموع والمشدود بين دفّتي الكتاب القرآن، حتى صار هذا الإسم كالعلم له.

على ضوء هذه المعاني ندرك أنّ المفسّرين الذين ذهبوا في رأيهم إلى أنّ هذه الآية الكريمة تتعلّق بيوم الدّين، ماكانوا قد تدبّروها حق تدبُّرها، ولاربطوها بالتسلسل الموضوعي خصوصاً وأنّ مُعطيات عصورهم لم تكن لتساعدهم على إدراك مراميها.

والحقُّ يُقال إن عصرنا الحاضر هو عصر الطّباعة والصّحافة وإذاعة الأخبار. أي أنه عصر صحفٍ وإعلام. هذا وإنّ الإنسان عاد يرى الصّحف معلّقة ومنشورة في كل مكان يرتحل إليه. وإلى هذه الحقيقة أشار قوله تعالى إنباءً عن عصر انحطاط المسلمين وإشارةً إلى ماسيرافقه من ظواهر ومُخترعات، وهو: ﴿وإذا الصُّحف نشرت﴾.

وسابع هذه النّبوءات تضمّنه قوله تعالى: ﴿وإذا السّماء كُشِطَتْ﴾ والكشط معناه رفع الشيء عن شيءٍ قد غشّاه وتنحيته عنه. وكلُّ ماعلاك فهو سماؤك. وكيف تُكشط السّماء فوقنا إلاّ أن يعني ذلك ترقي علم الفلك إلى درجةٍ يعود المرء معه ينظر إلى السّماء وكأنها كشطت ورفع من دون أبصارنا ماكان قد غشاها وحجب معالمها الحقيقيّة عنّا؟

من هذا ندرك أنّ هذه الآية ﴿وإذا السّماء كُشطت﴾ انبأت عن تقدم علوم الفلك في عصر انحطاط المسلمين، تقدُّماً ملموساً، لم يبلغ مستواه عصر من العصور السابقة، وهل يختلف أحدٌ من النّاس معنا في هذه الحقيقة التي نبّهنا إليها؟

وثامن هذه النّبوءات تضمّنه قوله تعالى: ﴿وإذا الجحيم سُعِرّت﴾. والجحيم هي النّار الشديدة التأجّج، لذلك يستعمل هذا اللفظ لجهنّم أيضاً. فالجحيم إسمٌ من النّار. وسُعِرّ اشتُقّت من سعرّ النّار والحرب أوقدهما وأشعلهما وهيّجهما (أقرب الموارد).

من هذا ندرك أنّ هذه الآية الكريمة ﴿وإذا الجحيم سُعِرّت﴾ لاعلاقة لها بالآخرة أيضاً. فلا تُسعّر نار الآخرة ولاتخفّض حرارتها، والأمر فيه إنباءٌ عن

عصرنا أنّ حروبه وفتنه ستكون كثيرة جدّاً. وأنّ هناك أطرافاً يثيرون هـذه الفتن والحروب ويشعلونها ويهيّجونها. وهذا الأمر أضحى ظـاهرة طبيعيـة مـن ظواهـر عصرنا أيضاً.

وتاسع هذه النّبوءات تضّمنه قوله تعالى: ﴿**وإذا الجنّة أزلفت. علمت نفسٌ ماأحضرت.**﴾. وأزلفت الشيء معناه قرّبه (أقرب الموارد).

فمن خلال معنى كلمة (أُزلفت) أي قُرّبت، نستدل على أنّ نبوءة هـذه الآية تتمثّل في أنّها أعطـت فكـرةً عـن حصيلـة تأثير جميـع النّبـوءات السّـابقة في نفوس المفكرين، وتجذبهم بالتالي إلى ربّهم من جديد.

وتبـدأ بذلـك صحـوةٌ إسـلاميّة ودينيّـة وسـعيٌ لنيـل الجنّـة الـتي أُعـدّت للمتقّين. فكأن الجنّة بتحقـق هـذه النبـوءات قُرّبـت مـن النـاس. وبالتـالي فقولـه: ﴿**علمت نفسٌ ماأحضرت.**﴾ المقصود من (نفس) الوارد فيها نفس كـلّ مهمـلٍ لواجباته الدينيّة. وأنّ كل مقصّر سيدرك ويعلم مدى ماأحضرته نفسه لآخرته.

إلى هنا أكون قد كشفت الغطاء، بفضـل ا لله تعـالى، عـن اثنـتي عشـرة نبوءة تضمنتها سورة التكوير مُجتمعة. هذا وإنّ سُور جزء (عمّ) مليئة بـالنبوءات المذهلة للعقول، بالرغم من قلّة عدد آيات كل سورة من سوره.

وإنّ ماكشفتُ عنه من نبوءات، يصدّق ماأنبأ عنـه المسيح بـن مريـم في انجيل يوحنا ١٦/١٢: (ويخبركم بأمور آتية.).

ألا إنّ سورة التكوير قد أنبأت عن تخلّـف المسـلمين زمـن تقـدم العلـوم والاكتشافات على أيدي أعدائهم، وقبل أربعة عشر قرناً من الزّمان. فهل يتعامى اليهود والنصارى عن هذه الحقيقـة الـتي حملهـا إليهـم هـذا الدليـل العاشـر الـذي قدّمناه تأكيداً لمصداقيّة القرآن الكريم، ومصداقيّة رسالة النّبي محمـد اليتيـم الأمـي الذي يجدونه مكتوباً عندهم ومُنبأً عنه في كتُبهم المقدّسة؟

ولو فرضنا جدلاً أن محمداً ﷺ كان كاذباً في نبّوته، وكان القرآن مـن افترائه واختلاقه، ومع ذلك مات موتاً طبيعيّاً ووفـق وعـد ربـه ﴿**وا لله يعصمك من النّاس**﴾. وأتى كتابه بهذه الأنباء الكثيرة عن المستقبل أيضاً. وتحققت نبوءاته أيضاً. يثبت بالتّالي المعيار الذي قدّمته التوراة في أمر تمييز النّبي الكـاذب مـن النبي الصّادق على كلّ حال.

فيا أسفاً على من يتعامى عن هذه الحقيقة، ويكون عن قبـول الحـقّ مـن المُعرضين. وينبغي لهؤلاء أن يعلموا أن سورة الأنعام أشركت المُنكرين ضمن إنذارها الذي تضمّنه قوله تعالى: ﴿**ومـن أظلـم ممّـن افـترى علـى ا لله كذبـاً، أو كذّب بآياته، إنّه لايفلح الظالمون.**﴾ صدق ا لله العظيم.

وهكذا نخلص من هذه الأدلّة العشرة التي قدّمناها، إلى التّسليم بمصداقية هذا الكتاب السّماوي، الذي سمّاه ا لله تعالى "قرآناً عربياً"، وفرقاناً يُفرق بـه بـين الحقّ والباطل. نخلص إلى التسليم بهذا الكتاب العظيـم "مرجعـاً" لنـا في موضـوع تعرُّف ربّنا، ربّ العالمين.

١١. خلاصة مضامين أدلّة المصداقية:

وهكذا انتهينا إلى أنّ المستشرقين المُنصفـين أقـرّوا، بعـد بحـثٍ وتمحيـصٍ علميّـن، ومـن خـلال الأدلّـة الـتي عـثروا عليهـا، داخليّـة وخارجيّـة (أن القـرآنَ الموجود في زماننا هو القرآن نفسه الذي جـاء بـه محمّـد دون أيّ تحريـف.) سير وليم ميور "حياة محمد" ص٥٦.

بل أضاف سيرميور قوله: (ونحن من ذلك على يقـين، كيقـين المسـلمين أنفسهم، بأنّه وحي ا لله المقدّس الذي لم يُحرّف ولم يُبدّل).

ونحن، وبأسلوبنا العلمي قـد انتهينـا إلى أنّ القـرآن الكريـم وقـد وصلنـا سالمًا. وقد تحقّقنا سلامة نصوصه، وأنّـه وحـي يُوحـى بنفـس الأسـلوب. تحققنـا ذلك من خلال مايتمتّع القرآن الكريم به من مزايا، لايُضارعه فيها كتابٌ سماويّ آخر. كمـا تحقّقنـاه مـن ملاحظـة مُجريـات الأحـداث في صـدر الإسـلام، زمـن تكامل نزول هذا الوحي السّماوي، وقامت الأدلّة على أن هـذا القـرآن قـد نـزل بترتيبين لم يختلط أحدهما بالآخر، وأنّ تحفيظ القُـرآن، كـان يُركّـز علـى ترتيـب التّلاوة، وفق توجيهٍ من جبريل عليه السـلام نفسـه، كمـا قـامت الأدلّـة علـى أن القرآن الكريم كان مُدّوناً على الرّقاع من العُسُب واللّخاف طوال حياة الرسـول الأعظم ﷺ، وأنّ الرّقاع هذه وإن كانت موثوقةً معتمدةً، إلاّ أنّ وضـع العـرب الأُميّن قد اقتضى أن يُعطى المحفوظ من قبل جمهرة حُفّاظ القـرآن الكريـم المنزلـة الأولى من الوُثوق، نسبةً إلى الرّقاع. وتحقّقنا أنّ حادثـة اليمامـة في عهـد الخلافـة الأولى، دفعت المسؤولين من كبار الصّحابة إلى جمع الرّقاع وترتيبها بترتيب تلاوة

حُفّاظ القرآن الكريم. وأنّ هذا الأمر دام حتى الخلافة الثالثة، حيث اختلط العرب بالأعاجم، فقلّ عدد الحُفّاظ، وصَعُب على الأعاجم حفظ القرآن الكريم دون لحنٍ أو خطأ. فدعا ذلك عثمان بن عفّان (رضي) أن يبادر إلى استنساخ سبع نسخٍ، من النّسخة المجموعة والمرتّبة على أيدي زيد بن ثابت كاتب وحي رسول الله ﷺ، ويوزّع هذه النُّسخ على الأمصار، ليستنسخ عنها المسلمون ماشاؤوا، واحتفظ عثمان (رضي) بنسخة القرآن الأصلية التي اعتمدها في النسخ، ثم أعادها إلى حفصة أمّ المؤمنين، وأمر أن يُحرَقَ كلّ ماهو خارجٌ عنها.

فبهذا الأسلوب العلمي لتقصّي الحقائق، ثبت لنا أنّ القرآن الكريم وصلنا سالماً خالياً من أيّ تحريفٍ، وعلى مانزل به من ترتيب تلاوته التي كان يتلوها به رسول الله ﷺ نفسه بتوجيهٍ وتعليمٍ من جبريل عليه السّلام.

ولابدّ أن يكون القارىء قد لاحظ أنّنا لم نكتف بما حققناه بالأسلوب العلميّ، من مصداقيّة القرآن الكريم ومرجعيّته، بل أدلينا إلى ذلك بعشرة أدلّة من داخل القرآن الكريم نفسه. أثبتنا بها استحالة أن يكون القرآن من اختلاق محمد ﷺ. هذا فضلاً عن أنّنا توصّلنا من خلال هذه الأدلّة العشرة القاطعة، باليقين الجازم إلى أنّ هذا القرآن الكريم، إنّما هو وحيٌ وتنزيلٌ من رب العالمين.

ففي الدليل الأول أثبتنا وجود تحدٍّ إلهيٍّ للعرب والعجم أن يأتوا بمثل هذا القرآن من حيث اللّغة ومن حيث المضمون في آن واحد، إن استطاعوا إلى ذلك سبيلاً. وأنّ هذا التحدّي الإلهيّ للنّاس كافة لايزال قائماً وإلى يوم الدين. وقد عجز الإنس والجنّ أن يأتوا بمثل هذا القرآن إلى يومنا هذا أو أن يضارعوه، ولو كان بعضهم لبعضٍ ظهيراً.

وفي الدليل الثاني أثبتنا أنّ وصول القرآن الكريم سالماً إلى زماننا الحاضر، لم يحدث اتّفاقاً ومصادفةً. بل تأتّى وفقاً لوعدٍ إلهيٍ تضمّنه القرآن الكريم نفسه. هذا بالرّغم أنّ محمداً ﷺ لم يأمره الله عز وجلّ بأكثر من تدوين القرآن على الرّقاع دون الطلب منه أن يجمعها ويرتّبها، إلى جانب اعتماد طبقةٍ موثوقة من حُفّاظ هذا الوحي السّماوي العظيم. فما كان على الرّسول إلاّ البلاغ.

وفي الدليل الثّالث أثبتنا أنّ القرآن الكريم أتى خلال حديثه عن موضوع خلق العالم بكشوف علميّة، قلب فيها جميع مُعطيات التوراة والإنجيل. وقد جاء تطوّر العلوم ظهيراً لها مؤيّداً لمُعطياتها. بل تلاقت مع نظريّة الانفجار العظيم. ويستحيل أن تتأتّى مثل هذه الكشوف العلمية المتعلّقة بخلق العالم، عن علم محمّدٍ اليتيم الأمّي. بل لابُدَّ أن تكون صادرةً عن عالم الغيب والشّهادة رب العالمين.

وفي الدليل الرابع أثبتنا أنّ القرآن الكريم قد أتى في موضوع خلق آدم بما يُغاير مُعطيات التّوراة. فقلب مفاهيمها رأساً على عقب، ونبّه إلى أنّ آدم عليه السلام، لم يكن أوّل إنسان مخلوق من البشر، بل كان أوّل نبيّ بعثه الله تعالى على رأس سلسلةِ الأنبياء التي انتهت ببعثة محمّد خاتم النبيّين ﷺ.

وفي الدليل الخامس أثبتنا أنّ القرآن الكريم أتى فيما يتعلّق بذات الله وصفاته بما لم تأت به التّوراة. أتى بحقائق مُدعّمة بالحجج والبراهين، الأمر الذي يثبت منه أنّ هذه العلوم يستحيل أن تصدُر عن رجلٍ أمّيٍ كمحمد بن عبد الله ﷺ. فهي صادرة عن الله تعالى نفسه، الذي أنزل هذا القرآن العظيم.

وفي الدليل السادس أثبتنا أنّ القرآن الكريم قد تحوّل بأحكام نظام الحياة إلى أحكامٍ مرنةٍ تصلح لكلّ زمانٍ ومكان. فتعالى بأحكام الإسلام عن أن تكون أحكاماً مخصوصةً بقومٍ أو عشيرةٍ بذاتها.

كما ساوى بين الرّجل والمرأة في الحقوق والواجبات. وقرن كُلّ حكُمٍ شرعّي بالحكمة منه مع بيان فلسفته. وإنّ هذا التحوّل البيّن في الأحكام ومستواها وصلاحيّتها، يستحيل أن يكون من وضع رجلٍ أمّيٍ كمحمد بن عبد الله ﷺ، الذي لم يكن يملك مثل هذه المُعطيات من أيّة جهةٍ من الجهات.

وفي الدليل السّابع أثبتنا أنّ القرآن الكريم أتى بمنهجٍ علمّيٍ للحياة، استند فيه إلى حقائق لم تتعرّض لها تعاليم التوراة ولا الإنجيل، من قبل. بل لم تبلغ البشريّة مستوىً سليماً علمياً يُدانيها حتى عصرنا هذا. وهذا المنهج يستحيل أن يأتي به رجلٌ أمّيٌ من عند نفسه، مهما كان عبقريّاً، دون سابق مُعطيات، إلا أن يكون قد صدر هذا المنهج عن الله علاّم الغيوب.

وفي الدّليل الثامن أثبتنا أنّ القفزة الإعلاميّة الرّائعة، وهي مُعجزة الأذان التي أتى بها النّبي الأمي ﷺ قد كشفت عن دعوة الإسلام السّامية التي قامت

على أُسسٍ علميّة، وقد أتت مضارعةً للطّور الذي بلغه البشـر، مـن حيـث بُلـوغ نُضجه العقليّ. وهذا الإبداع الإعلاميّ، إن دلّ على شيء، فإنما يدل على أنّ القرآن الكريم لم يكن من وضع محمد بن عبد الله اليتيم الأُمّي يقيناً. بل هـو مـن عطاء ربّ العالمين.

وفي الدليل التّاسع أثبتنا تطابُقَ نبوءات التـوراة والإنجيـل، مـع مـانزل بـه وحـي القـرآن وبعثـة محمـد ﷺ سـيّد الأنبيـاء. وهكـذا جـاء تكذيـب اليهـود والنّصارى القرآن ونبيّه الكريم، يُعدّ في حدّ ذاته تكذيباً لما جاء في كُتبهم المقدّسة نفسها، ولما احتوته من نبوءات.

وفي الدليل العاشر أثبتنا احتواء القرآن الكريـم علـى عشـرات النّبـوءات الغيبيّة التي تحقّقت. الأمر الذي يجزم بأنّ الذي أنبأ بهذه النّبوءات جميعها هـو الله علاّم الغيوب، ويستحيل أن تصدُر هذه النّبوءات عن محمّد نفسه. فأنّى له، وهـو إنسان، أن يملك قوىً خارقةً تكشف له عن المُستقبل وعمّا سيحدث فيـه؟ وقـد جاء تحقّق هذه النّبوءات جميعها تصديقاً لما أشار إليـه المسيح بـن مريـم في إنجيلـه حين أنبأ عن بعثة النّبي "روح الحق" الذي سـيأتي بعـده. قـائلاً (ويخبركم بـأمورٍ آتية.) يوحنا ١٦/١٢.

وها نحن أولاء لخّصنـا جميـع ماتضّمنـه البـاب المتعلّـق بإثبـات مصداقيـة القرآن الكريم ومرجعيّته، لم نَدَعْ مجالاً لشكٍ أو ريبٍ في ذلك كُلّه. وقد عاد من واجبنا بعد هذا الذي قُمنا به، أن نعود إلى القرآن الكريم، نستنطق آياتـه الكريمـة لتُدلي لنا بالمعلومات التي يتطلّبها مؤلفي هـذا. ونسـتوضحها عـن الأدلّـة القاطعـة على وجود الله عز وجلّ وماتضّمنه القرآن الكريم من معلومات مُتعلّقةٍ بصفـات الله وأسمائه الحسنى. ليكون كلّ ذلك عوناً لنـا علـى تعرُّف الله تعـالى ووسـائل الإتّصال به والتقرّب إليه مادام ربّنا حيّاً قيّوماً.

وهانحن ننتقل إلى الباب الثالث الذّي خُصـص للكـلام علـى وجـود الله تعالى، وماأسعفنا القرآن الكريم به من معارف على هذا الصعيد.



الباب الثّالث

أدلّة وجود اللّه عزّ وجلّ

الفصل الأوّل:
١ ـ النّهج القرآني في التّدليل على وجود الله تعالى:

سبق لي أن أشرت في الباب الأوّل من هذا الكتاب إلى أنّ فكرة وجود الله تعالى لم تتولّد عند البشر تدريجيّاً، كما يزعم أصحاب نهج التفكير المادّي الفارغ من كلّ عُنصرٍ روحيّ، بل إنّ الله عز وجلّ نفسه هو الذي بادر إلى مخلوقه، فأطلعه على وجوده، وذلك عن طريق أنبيائه ورسله الكرام. وقد أثبتُّ صحّة هذه المقولة استناداً إلى ماجاء في القرآن الكريم نفسه الذي أثبتنا مصداقيّته ومرجعيّته. ومن خلال ماعُثر عليه من اللُّقى والآثار القديمة التي خلّفتها أقدم شعوب الأرض.

ومن هنا لم تعد حاجة بالقرآن الكريم إلى تقديم الحجج والبراهين التي تثبت وجود الله عز وجلّ، مادام أنّ كلّ أمّةٍ على سطح الكرة الأرضية تؤمن بوجود الله عز وجلّ من جراء ذلك، ولاخلاف بينهم إلاّ في التّفاصيل. ومادام أن زُمر المُلحدين بوجود الله تعالى لايؤلّفون نسبةً يُعتّد بها خصوصاً زمن نزول القرآن الكريم.

ومااالاختلاف الحاصل في عقيدة وجود الله تعالى في التّفاصيل إلاّ من جرّاء موجات التخلّف والانحطاط التي أتت على مُختلف الأمم، على فتراتٍ متقطّعة. وإلاّ فقد كانت شعوب الأرض مُوحدّةً الله تعالى في فجر تواريخها. وهذا أمرٌ أثبتّ صحّته بالأدلّة والأمثلة من واقع وتاريخ أقدم شعوب الأرض.

وإلى جانب وجود هذه الحقيقة، فإنّ الإنسان الباحث الذي يتدبّر آي الذّكر الحكيم، لابدّ أن يرى مارأيت من أنّ الله تعالى، وبسبب اختلاف هؤلاء جميعهم في التّفاصيل، أتى بنهج جديد واضح المعالم في البرهنة على وجوده عز وجلّ. هذا النّهج لم يُناف الأسلوب العلمي في الاستدلال والإثبات.

كما راعى الله تعالى عند أخذه بهذا النّهج مُختلف مستويات الأفهام والإدراك عند البشر. فهو تعالى لم يدع طبقة من الناس إلاّ خاطبها على قدر فهمها وإدراكها، وألقى إليها بالحُجّة القاطعة المُقنعة أيضاً.

ولنوجز معالم هذا النهج القرآني في الاستدلال على وجود الله تعالى، نقول: قدّم القرآن الكريم أدلّةً تدرّجت من دليلٍ بسيطٍ يحتوي على عنصر واحد، إلى دليلٍ مركّبٍ من عناصر عديدة. وكانت المناسبة والتسلسل الموضوعي يتحكّمان في نسق هذه البراهين.

وقد جاءت الأدلة بمجموعها على نَمَطَين، الأوّل يصل بالمرء إلى مرحلة ترجيح وجود الله عزّ وجلّ. والنّمط الثاني من الأدلّة ينقل الإنسان إلى مرحلة الجزم واليقين في أمر وجود خالقه ومولاه. بحيث ينتفي لديه في هذه المرحلة كلّ شكّ وريب بوجود خالقه. على صورة يعيش هذا الإنسان بعدها حياة الاطمئنان الكامل بوجود ربّه في جو من السّكينه واليقين الحازم، فلا يعود له همٌّ إلاّ التشوّق إلى تعرّفه تعالى والتّحرُّق إلى وصاله.

وأدلّة النّمط الأول من هذه الأدلة قسمان: الأوّل من النّوع الذي يستدلّ بالبراهين الذهنية القائمة على أسسٍ من الملاحظة والاستنتاج العلميّين. والقسم الثاني من الأدلّة من النّوع الذي يستدلّ بالمحسوسات، أي يستدلّ بالوقائع والأحداث على إثبات وجود الله تعالى مُسبّب الأسباب.

أمّا أدلّة النمط الثالث فهي أدلة من النوع السلوكي التجريبي، يعتمد التجربة الشخصيّة أساساً علمياً للانتقال منها إلى الجزم بوجود الله عز وجلّ.

ولرُبّ سائلٍ يسأل: ومافائدة الأدلّة التي يقف بها الإنسان عند مرحلة الترجيح وحسب. وفي الجواب أقول: المعلوم هو أنّ الله تعالى لاتدرك الأبصار ذاته عزوجل، وليس كمثله شيء. وطبيعة البحث عن وجوده اقتضت أن يُقدّم للباحث عن وجوده تعالى نَمَطين من الأدلّة: النّمط الأول أدلّةٌ ترجيحيّةٌ مستمدّةٌ من صلب قوانين العالم المادي، وهي تتناسب مع مُختلف مستويات الأفهام والإدراك.

حتّى إذا خطا الإنسان المحقق هذه الخطوة، فرجَحَ لديه وجود خالقه وخالق هذا الكون من حوله. استعدّ لقبول النّمط الآخر، وهي الأدلّة التي لاتقوم

على أساسٍ نظري، بل تقوم على أساسٍ من السّلوك والتجربة الشخصية. هذه الأدلة التي تنقل هذا الإنسان المحقّق إلى مرحلة اليقين والاطمئنان.

فطبيعة البحث عن وجود الله، والبرهنة عليه، هي التي اقتضت هذا النّهج المتكامل في أسلوب إقامة البُرهان، وهو النهج الذي أتى به القرآن الكريم.

والمؤسف حقّاً أن تغيب هذه الحقيقة وأبعاد هذا النهج وطرفا معادلته. عن كثيرٍ من علماء الأمّة الإسلامية المعاصرين.

وقد ساعد ذلك على استمرار تخلّف الأمم الإسلامية وتفرُّقها عن باقي أمم الأرض. بل ازدياد تردّي أحوالها وتمزّقها وانقسامها على نفسها، وتفرُّقها إلى مذاهب وتيّارات فكريّة مُختلفة، وتقطّع مابينها وبين الله عز وجلّ وافتقاد نُصرته وتأييده. وسأبسط القول في ذلك في المقام المناسب إن شاء الله العزيز.

وبهذه المناسبة أرى أنّه من الضروري لي أن أُلفت نظر المسلم الباحث إلى أنّ سورة الفاتحة تشكّل خلاصة موجزة لجميع ماتضمّنه القرآن الكريم من مواضيع. فهي أمّ الكتاب من هذا المنظار.

الأمر الذي يُلزم كل باحثٍ بالرجوع إلى آيات سورة الفاتحة هذه، واستلهامها مدى صحّة فهمه وإدراكه لأيّ موضوع قرآنيّ يبحثه، محاولاً تبيّن معالمه. ذلك أنّ الفاتحة على حدّ فهمي واعتقادي، هي المفتاح لوجود كلّ موضوعٍ قرآنيّ، وهذا الأمر يلزمني بالتّالي أن أعمد في نهاية بحثي إلى التوفيق بين ماقدّمته من معلومات، وبين مادلّت عليه وتكشّفت عنه آيات سورة الفاتحة.

٢ ـ قدْ دِينَ الإلحاد بأقلام أصحابه :

يزعم الملاحدة أنّ الشرائع السّماوية والإسلام خاصة، أغفلت موضوع الإلحاد، فلم ينقده القرآن و لم يدحضه. هذا بالرّغم من أنّ موضوع الإلحاد من أخطر الدعوات المناهضة للدّين.

ويضيف هؤلاء إلى زعمهم هذا، أنّ هذا النّقص في الشرائع السّماوية، مرجعه إلى عدم ذُيوع مبادىء الإلحاد في العصور الغابرة.

كما يزعمون أنّ القرآن الكريم أغفل هذا الموضوع، فلم يوله أيّ اهتمام، لأنّ محمّداً ﷺ قد ترعرع في بلادٍ لم يظهر فيها مُلحدٌ واحد من النّاس.

ويضيف هؤلاء إلى زعمهم هذا أنّ القرآن الكريم قد شنّ حملةً شعواء على الشّرك والمشركين ولاريب، بسبب أنّ المشركين كانوا يعايشونه ويحيطون به من كلّ جانب. على حين أهمل القرآن موضوع الإلحاد، بسبب عدم ذيوع مبادئه في البيئة التي نشأ فيها محمد رسول الله ﷺ.

ويخلص الملحدون من ذلك كلّه إلى القول: إنّه لو كانت الأديان مُنزلةً من عند الخالق عالم الغيب، لَمَا كانت قد أغفلت موضوع الإلحاد هذا الإغفال الفاضح، وأهملته هذا الإهمال المبيّن.

وأنا بحكم إسلامي أُعلن بصراحة: إنّه لظُلمٌ بيّنٌ وتجّنٍ آثم أن يُفترى على القرآن الكريم مثل هذا الافتراء، فيُوجّه إليه مثل هذا الاتّهام.

فنحن إذا سألنا رموز الملحدين أينما وُجدوا: ماهو الإلحاد؟ فسيكون جوابهم: إنّ هذا الكون الذي هو من حولنا بما فيه، هو مادّة وحسب. وإنّه كذلك من الأزل وإلى الأبد، فهو أزليٌّ أبديّ.

وإجابتهم هذه اشتملت على عُنصرين: الأوّل كون هذا العالم مادّة وحسب. والعنصر الثاني هو استمرار وجود هذه المادّة من الأزل إلى الأبد. وتعني هذه الإجابة بألفاظٍ أخرى إنكار وجود خالق لهذا الكون. وإعطاء موضوع إشباع رغبات المرء وماتهوى نفسه، المقام الأوّل في حياته، لتصبح هذه الرّغبات معبوده وإلهه الذّي عليه أن يسعى وراء الانقياد له وتحصيل رضاه. ذلك كان حال أهل أوربا والاتّحاد السوفيتي السابق. فالناس هناك كانوا ولايزالون لايعرفون إلاّ تلبية ماتهوى أنفسهم وماتدفعهم إليه ميولهم وشهواتهم. فلاهمّ لهم هناك إلاّ عيش الرّفاهية وتحصيل نعيم الدّنيا.

وقد سبق أن قلت في بداية هذا الفصل إنّ القرآن الكريم أتى بنهجٍ خاص في موضوع الاستدلال على وجود الله الخالق. وهذا النّهج يقرّ ضمناً بوجود الملحدين. وإلاّ لم يكن للقرآن الكريم داعٍ يدعوه لاتّخاذ هذا النّهج وماإحتوى عليه من مُختلف أنماط الاستدلال على وجود الله عز وجلّ.

أمّا لماذا لم تتوجّه آي الذّكر الحكيم إلى مخاطبة الملحدين مُواجهة تُفرزُهم عن سواهم من الكافرين والمشركين، فذلك لأنّ الإلحاد في حقيقته هو ضربٌ من ضروب الشرك. هذا مادلّت عليه لغة الضّاد. فقد قال صاحب معجم مفردات الرّاغب مانصّه بالحرف الواحد: (الإلحاد ضربٌ من الشّرك بالله). وإنّ

كون الإلحاد شُعبةً من شُعب الشّـرك أدّى إلى الكـلام علـى الشّـرك عامـة، وهـو يشمل الإلحاد.

نُلاحظ معالم هذه الحقيقة التي ذكرناها، ممّا تضمّنه قوله تعالى في سـورة الجاثية (٢٣ ـ ٢٤): **﴿أفرأيت من اتّخذ إلهه هواه وأضلّه ا لله على علم، وختم على سمعه وقلبه، وجعل على بصره غشـاوة، فمـن يهديـه مـن بعـد ا لله، أفـلا تذكّرون، وقالوا مـاهي إلاّ حياتُنـا الدّنيـا نموت ونحيـا، ومايُهلكنـا إلاّ الدّهـر، وماهم بذلك من علم، إن هم إلاّ يَظنّون﴾**. فقـد جعـل القـرآن الكريـم الإلحـاد وأهله هنا مُشركين، إذا اتّخذ الواحد منهم إلهه هواه.

ويؤيّد ذلك ماجاء في الآية وهو: **﴿ومايُهلكنا إلاّ الدّهر.﴾** والدّهـر إذا ورد مُعرّفاً بالألف واللاّم، كما هو في هـذه الآيـة الكريمـة، فـلا يعـني إلاّ الزّمـان الأبد، بلاخلاف، على حسب مـاأورده صـاحب معجـم محيـط المحيط. وقـال في التّعريفات للشّريف الجُرجاني: (الدّهر هو الآن الدّائم الـذي هـو امتـداد الحضـرة الإلهية وهو باطن الزمان، وبه يتّحد الأزل والأبد.). وقال في الكلّيّات: (الدهر في الأصل اسمٌ لمدّة العالم منذ مبدأ وجوده إلى انقضائه.).

وعليه فا لله تعالى يشير في هاتين الآيتين الكريمتين إلى الإلحـاد والملحديـن من طرف خفّي. هؤلاء الذين يُقيمون أفكارهـم على أساس مـن الظنـون، وليـس على أساسٍ علميّ. فهم يتّخذون هواهُم إلههم، وقد ولعـوا بإشباع هـذا الهـوى، وماتتطلّبه نفس أحدهم من تحصيل الرفاهية والملذّات. وهكذا يُعتـبر اتّبـاع الهـوى في نظر كتاب ا لله القرآن ضرباً من الشّرك با لله تعالى. إذ لايتّبع هواه ويتّخذه إلهاً له إلاّ من قادته ظنونه، واعتقد أنّ العالم أزليٌّ أبدي، لاينتهي، ولاحيـاة ثانيـة مـن بعده.

وبناءً عليه نقول: إنّ اتّهام الملحدين للقرآن الكريم بأنّه أهمـل موضـوع الإلحاد، فلم يتطرّق إليه، وأثبت من خلال إهماله هذا أنّه لم يصدر عن ا لله عـالم الغيب، وأنّ القرآن بالتّالي من اختلاق محمد ﷺ نفسه، وهو الذي أمضى حياته في جوٍ ماوُجدَ فيه حوله مُلحدون.

إنّ اتّهامهم هذا، من خلال مابيناه، هو اتّهام بـاطل. وهـو إن دلّ على شيء، فإنّه يدلّ على جهل أصحابه بوجود نهجٍ قرآنيٍ في الاستدلال على وجـود ا لله تعالى والردّ بهذا الاستدلال على المُلحدين.

كما يدلّ على جهلهم بدلالات الألفاظ العربيّة أيضاً، التي أدخلت الشرك فرعاً من الإلحاد. فالشّرك لغةً ينطوي على الإلحاد لأنّ الإلحاد هو في حقيقته ضربٌ من ضروب الشرك. ومثاله إشراك المُلحد الذي يتّخذ إلهه هواه.

وعندما قلت: إننا إذا سألنا رموز الملحدين عن مفهوم الإلحاد من منظارهم. كنت أشير إلى ماذهب إليه (هربرت سبنسر) مؤسّس مذهب الإلحاد في العالم. بالرّغم من أنه لم يدّع هو نفسه أنّه رأس الملحدين.

وسبنسر هذا كان طرح مبدأً عاماً وقال: (إنّ مايتّفق عليه العالم أجمع، لايجوز تخطئته. إذ لابدّ أن يوجد وراء هذا الاتّفاق شيءٌ من الحقيقة.) وقد صدق في المبدأ المطروح. ذلك أنّ الناس لايُجمعون إلا على حقيقةٍ تبّينوها جميعاً. كالماء مثلاً، إذ تبيّن للنّاس أجمعين أنّه يطفيء العطش. فلابدّ أن يكون في إجماعهم هذا نصيب من الحقيقة.

ولقد أقرّ القرآن الكريم هذا المبدأ العام، وطرحه دليلاً، يثبت عن طريقه وجود الله عز وجلّ. وبإمكاننا تسمية هذا الدليل، بدليل الإجماع العام.

ولابدّ من الإشارة هنا إلى أنّ مؤلفات سبنسر ودارون وفرويد ونيوتن وكارل ماركس، كانت قد أخذت بمجامع أفئدة الأوربيّين في القرن التاسع عشر. لكنْ حدثت كشوف علميّة جديدة طلع بها القرن العشرون على العالم، غيّرت هذه الكشوف وجهة نظر علماء الغرب. الأمر الذي دفعهم دفعاً إلى تحطيم حواجز الإلحاد تلك التي وضعها في طريقهم مؤسّسوه، وعاد هؤلاء العلماء ينظرون إلى هذا الكون على أنه مخلوق، بتأثير ماطلع به عليهم العالم الفيزيائي (غاموف) بنظرتيه فيما سُمّيَّ بنظرية الانفجار العظيم.

واعتقادنا هو أنّ القرآن الكريم الذي أنزله ربُّنا منذ أربعة عشر قرناً من الزّمان. كان الله تعالى قد أنزله للنّاس كافة، من أجل أيّ زمان أو مكان وُجدَ النّاس فيه. من هنا كان لابدّ أن يكون القرآن الكريم قد تعرّض لما طلع به علماء أوربة وأمريكة في القرنين الأخيرين. إثباتاً منه جلّ وعلا على أنّه عالم الغيب والشّهادة العزيز الغفور.

الفصل الثاني :
الأدلّة على وجود الله تعالى
أولاً : الأدلّة الترجيحيّة الذهنيّة
١ ـ دليل الإجماع العام :

والحقّ الذي لامراء فيه، هو أننا بعد تدبّرنا آيات سورة فاطر، تبيّن لنا أنه تعالى قدّم في هذه السورة دليلين واضحي المعالم من القسم البسيط والمركّب العناصر، في مجال التّدليل على وجوده عز وجلّ، وقد استند الدليل الأول إلى مبدأ الإجماع العام الذي سلّم به روبرت سبنسر وسواه من أئمة الإلحاد. وقد ورد الدليل الثاني بالأسلوب العلمي المعاصر في التحليل والاستنتاج، وهو سمة أبحاث علماء القرن العشرين من الأوربيين. وقد اصطلحنا له اسم دليل اختلاف الألوان. علماً بأنّ هذين الدليلين وردا في سورة فاطر مُتتابعين ضمن الآيات التالية: ﴿**إن أنت إلاّ نذير. إنّا أرسلناك بالحقّ بشيراً ونذيراً، وإن من أمّةٍ إلاّ خلا فيها نذير. وإن يكذبّوك فقد كذّب الذّين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبيّنات وبالزُّبر وبالكتاب المنير. ثم أخذت الذّين كفروا فكيف كان نكير. أَلَم تَرَ أنّ ا لله أنزل من السّماء ماءً فأخرجنا به ثمراتٍ مُختلفاً ألوانُها، ومن الجبال جُدَدٌ بيضٌ وحُمْرٌ مختلفٌ ألوانها وغرابيب سود، ومن الناس والدّواب والأنعام مُختلفٌ ألوانُه، كذلك إنّما يخشى ا للهَ من عباده العلماءُ، إنّ ا لله عزيز غفور**﴾ (فاطر ٢٣ ـ ٢٨).

نتناول بالبيان الدليل الأول، وهو الدّليل المؤسّس على مبدأ الإجماع العام الذي طرحه روبرت سبنسر في مؤلّفه الإلحاديّ. فقد تضمنه قوله تعالى: ﴿**وإنّ من أمّةٍ إلاّ خلا فيها نذير.**﴾. وكأنه تعالى يقول هنا بألفاظٍ أخرى: يامن تحترمون مبدأ الإجماع العام على أمرٍ من الأمور، ولاتُخالفونه مُعطياته هاكم سيحوا في طول الأرض وعرضها فلا تجدون إلاّ وأنّ جميع شعوب الأرض تؤمن بوجود ا لله خالقها، ولايختلفون فيما بينهم إلاّ في تفاصيل مايتعلّق بوجوده. فهل يُعقل أن يتأتّى هذا الإجماع تلقائيّاً وبالتّدريج؟

فاعلموا أن ا لله تعالى هو الذي كشف نفسه على عباده وأنبأهم بوجوده. وهو تعالى ماترك أمّة من الأمم إلا وبعث فيها نذيراً من طرفه يبشّرهم

وينذرهم. وأبقى وأسعد الذين آمنوا دوماً. أمّا من كذّبوا بوجوده وبرسله فقد قال عنهم: ﴿ ثم أخذتُ الذين كفروا فكيف كان نكير.﴾.

هذا وإني سبق أن أثبتّ أنّ كلّ أمّة من الأمم القديمة كانت موحدةً في بادىء أمرها. وكانت كُلّما ابتعدت عن زمن النبيّ الذي دعاها إلى ا لله خالقها، دبّت في عقائدها الانحرافات والتّفسُّخ، وانتهت إلى وضعٍ من الشّرك مأساويّ، وإن كان الشّرك با لله لايخرج عن نطاق الاعتقاد بوجود ا لله عز وجلّ.

وهكذا فإنّ قوله عز وجلّ: ﴿وإن من أمّةٍ إلاّ خلا فيها نذير﴾ أشار من طرف خفّيٍ إلى إجماع أمم الأرض نتيجةً لذلك على الاعتقاد بوجوده تعالى.

وهذا الإجماع الملاحظ لايعني أن فكرة وجود ا لله تولدت عند الناس تدريجياً، بأي شكل من الأشكال. فهذه آثار الأمم التي تركوها تدل أقدم تواريخ هذه الأمم على أنّهم اعتقدوا بالإله الواحد الموجود خارج هذا الكون والذي بعث برسله موصياً إياهم التبليغ بوجوده وبرسالاته. وقد أثبتّ ذلك من قبل.

وعليه فإنّ قوله تعالى: ﴿وإن من أمّةٍ إلاّ خلا فيها نذير﴾ أتت بدليل الإجماع العام الذي طرحه روبرت سبنسر، فهل للذّين يحترمون مؤسس الإلحاد المذكور أن يحترموا بالتالي هذا الدليل الذي يدلي به القرآن الكريم لإثبات وجود ا لله عز وجلّ؟

وقد أفضت إلينا ألفاظ هذه الآية الكريمة وبأسلوبٍ متميّز، دليلاً من النّمط الذهني البسيط ترجّح لنا من خلاله وجود ا لله الخالق. وهو دليلٌ تتقبّلُه مُختلف مُستويات الأفهام. ولايحتاج من الإنسان إجهاد نفسه كثيراً للإلمام بمعطياته. وقد جاء هذا الدّليل يُفحم ببساطة واضحة رموز الإلحاد، بل ويدينهم بما خطّته أقلامهم أيضاً.

٢ ـ دليل التّعدد اللّوني:

ولّما كان في علم ا لله تعالى أنّ أوربة ستجود في القرن العشرين بفئةٍ مختلفةٍ عن هؤلاء الملحدين من علمائها، سيتبيّن لهم عن طريق مابلغوه من رقّيٍ علمّيٍ، أنّ هذا الكون ليس بأزلّيٍ أبدي، بل هو كونٌ مخلوقٌ قبل (١٢ ــ ٢٠) مليار عام تقريباً. إشارةً إلى نظرية الانفجار العظيم.

أقول: لمّا كان في علم ا لله الغيبيّ ذلك، أدلى جل شأنه إلى جـانب دليـل الإجماع العام الذي أتينا على ذكره، بدليلٍ آخر متعدد العناصر، وبأسـلوب بحث هذه الفئة من العلماء الأوربيين العلمي القائم على أساسٍ من الملاحظـة والتحليـل والاستنتاج. وقد احتوى هذا الدليل الثاني الذي اصطلحت له اسم "دليل التعـدّد اللّونـي"، احتـواه قولـه تعـالى في نفـس سـورة غـافر، وبعـد آيـات الدليـل الأوّل مباشرة: ﴿ **أَلَم تَرَ أن ا لله أنزل من السّماء ماءً، فأخرجنا بـه ثمرات مُختلفاً ألوانها، ومن الجبال جُدَدٌ بيضٌ وحُمرٌ مختلف ألوانها وغرابيب سود. ومـن الناس والدّواب والأنعـام مختلفٌ ألوانه، كذلك إنّما يخشى ا لله مـن عباده العلماء، إنّ ا لله عزيزٌ غفور.**﴾. والجُدَد تعني الخُطط والطّرائق في الجبال. وبيضٌ إشارة إلى كونها كلسيّةً بيضاء اللون.

وحُمرٌ إشارة إلى الجبال الرملية التركيب وحمراء اللّون. وغرابيب سـود إشارة إلى الجبـال البركانيّـة سـوداء اللّـون. فـالغرابيب جمع غربيب، أي حـالك السّواد، وسودٌ هنا بدل من غرابيب، لتـأكيد كونهـا حالكـة السّواد. علمـاً بـأنّ توكيد الألوان في اللّغة العربيّة لايتقدّم عليها.

والآن وبعد أن شرحت معاني ألفاظ هذه الآيات الكريمة الـتي اشـتملت على دليل التعـدّد اللّونـي. أرى لزامـاً علـيّ إعطـاء القـارىء فكـرةً واضحـةً عـن أسلوب علماء أوربا المعاصرين في البحث والتحليل والاستنتاج العلميين، ليعُينـهُ ذلك على تفّهم الأسلوب الذي انتهجه القرآن من خلال طرحه لهذا الدّليل الثاني متعدّد العناصر. إثباتاً منه عز وجلّ لوجوده. فقد كان في علـم ا لله الغيبيّ، كمـا ذكرت، أنّ القرآن الكريم وآياته ستمّر من أمام أعين العلمـاء الغربيـين أصحـاب الأسلوب المخصوص بهم وفي القرن العشرين خاصة.

وإنّـه بينمـا غلـب علـى علمـاء القـرن التّاسـع عشـر الأوربيـين الإلحـاد والتفكّير بنهجٍ ماديّ بحـت. إذ راحـوا يفسّـرون ظواهـر الطبيعـة وأشـياءها علـى أساس عُنصرين هما الضرورة والمصادفة. فقد لُوحـظ أنّ علمـاء القـرن العشـرين الأوربيين تجاوزوا هـذه المرحلـة الإلحاديـة عمومـاً، فتجـاوزوا عنصـري الضـرورة والمصادفـة إلى ماوراءهمـا، بعدمـا تبيّـن لهـم أنّ العـالَم ليس بمادّةٍ وحسـب، وأنّـه مخلوق، ولربّما تمّ خلقه منذ (١٢ ـ ٢٠) مليار عام.

دونكم أسلوب العالم الفيزيائي الشّهير (هـنري مـارجينو)[1] في البحـث والتّحليل العلمّي. فقد كتب هذا العالم يقول: (فـإذا كـانت المُصادفـة والضّـرورة كلتاهما عاجزتين عن تفسير الجمال في الطبيعة، فلابُدّ من وجود شيء غير هذين العُنصرين.. تأمّل لحظة حِرفيّاً يصنع سكّيناً لتقطيع الخبز لاستخدامه الشّخصي، من الجليّ بالضّرورة أن تكون للسكّين الجديدة هذه شَفْرة، إذ لايستطيع الحرفيّ تقطيع الخبز دونها. أمّا تصميم مقبض السّكين المزخرف والمُرّصع، فلا نستطيع عَزْوَهُ إلى الضرورة. لأن السّكين قادر على أن يقطع الخبز بنجاح، دون حاجة إلى أيّ زخرفةٍ على الإطلاق. والحرفيُّ يختار بمحض إرادته أن يزيّن أداته بالزّخارف. ففي وسعه أن يُضيف الزّخارف أو لأيُضيفها. فإذا اختار إضافتها، توفّرت له جُملةٌ من التّصاميم ينتقي منها مايشاء.

فزخرفة السّكين تقبل البدائل، ومع ذلك فهناك سببٌ لوجودها، وهو أنّ الفنّان لايريد سكّيناً ماضيةً فحسب، بل يُريدها جميلةً كذلك، فالزخرفة إذاً ليست نتاج المصادفة والضرورة، بل هي تصرُّفٌ يتّسم بحريّة الاختيار. والعقل يختار بحرّية، إذن هو الطّريق الوسيط بين المصادفة والضّرورة. وعلى هذا النّحو، فمادام الجمال بالغ الوفرة في الطبيعة، فلايمكن أن يكون ناشئاً من مُصادفة، فلابُدّ له إذاً من سبب ولكنّ هذا السّبب لايمكن حصره في نهجٍ واحد. إذن ليس هناك من ضرورة مُطلقه تقتضي أصلاً وجود الجمال في الحيوانْ والنّبات والجماد.

وعلى ذلك يبدو أنّ الجمال المشاهد في الطبيعة ناشيءٌ عن علّةٍ لاتحكُمها الضرورة، ولكنّ لديها مع ذلك سبباً يفسّر تصرُّفها. وهذه العلّة هي "العقل"، ومن ثمّ فإنّ هناك عقلاً مسؤولاً عن جمال الطبيعة، وهذا العقل القائم وراء الطّبيعة، يُطلق عليه النّاس جميعاً اسم "ا للهّ".

ودونكم العالم الأوربي (أمِرسون)[1] قد أقنعه منطق العالم (هنري مارجينو) الذي ذكرناه. وبعد أن أبدى قناعته برأيه، أدلى بالنّصيحة التالية، تأكيداً لِما ذهب إليه زميله بشأن الجمال، إذ قال: (إيّاك أن تُفوّت أيّ فرصةٍ

---

[1] العلم في منظوره الجديد ص٧٧ (عالم المعرفة العدد ١٣٤)

[1] المرجع نفسه

لمشاهدة أيّ شيء جميل، لأنّ الجمال خطٌّ بيد الله. إنّه قُدّاسٌ يُقام على جانب الطريق. لذلك رَحِّبْ بالجمال في كلّ وجهٍ حسن، وفي كلّ سماءٍ صافية، وفي كلّ زهرةٍ جميلة، واشكر الله على ذلك، إنّه كأس بركة.).

وهكذا يدرك المرء أنّ علماء القرن العشرين الأوربيين، وليس ساسَتُهم، راحوا يَلحظُون يد الله تعالى في ندفة الثّلج، وفي غروب الشّمس، وفي مروج الأعشاب. وأنّ عظمة الجمال الطبيعي وجلاله يحملان توقيع الله الخالق الذي لاشُبهة في وجوده عز وجلّ. ذلك أنّ النظرة الجديدة لهؤلاء العلماء إلى الكون وأصله، وبُنيته الجمالية أفضت بهم إلى أنّ الله الخالق موجود. أمّا كيف قفزوا هذه القفزة الرائعة، فقد قفزوها بعد أن هجروا كُتب سنبسر وداروِن وفرويد ونيوتُن وكارل ماركس. قفز هؤلاء العلماء الجُدد من فوق أكداس مؤلفات هؤلاء الضّخمة، بعد أن أعملوا فكرهم في البحث عمّا يمكن أن يُتّخذَ سبباً غير الضرورة والمصادفة، لِما يتّصف به كل موسومٍ بالجمال في هذا الكون الجميل الأخّاذ كُليّاً وجُزئياً بجمال يخلُبُ الألباب. فهؤلاء العلماء الغربيون الجُدُد، والذين نَجَوا بأنفسهم من إسار الإلحاد الذي ضربه المُلحدون حول عقل الإنسان وتفكيره، اتّسع أفق رؤيتهم للأشياء، فبدت معالم الطريق أمامهم جليّةً بيّنةً لتنقلهم رؤيتهم هذه إلى تعرّف وجود الله عز وجلّ. وقد عاد هؤلاء العلماء الآن بأمسّ الحاجة إلى القسم الثاني من الأدلّة السّلوكية، التي تنقل الإنسان إلى مرحلة الاستيقان بوجود الله عز وجلّ، حيث تنتفي في تلك المرحلة الشكوك وتنجلي ظُلماتُها. فيندفع الباحث إلى يقينٍ جازم، يخلد فيه القلب وادع النفس، هادىء البال، كطفلٍ ظفر بوالديه بعد ضياعٍ طويل فوجد فيهما سكينته ومأمنه، فهؤلاء العلماء الجدد بحاجةٍ الآن إلى من ينقلُ إليهم القسم الثاني من الأدلّة السّلوكية التي أدلى بها القرآن الكريم. فهم بحاجةٍ إلى صُحبةِ هؤلاء الأبرار الذين قطعوا هذا الشّوط السّلوكي فجنوا ثماره وليعودوا عمّا كانوا يتشدّقون به، بما لايعرفون.

إنّ علماء أوربة المعاصرين الذين تدرّجوا في سُلّم الأدلّة الموصلة إلى حقيقة وجود الله الخالق من البسيط إلى الدليل المركّب متعدد العناصر. عندما ينظُر هؤلاء إلى المُجتمعات الإسلامية المعاصرة ومايجري فيها من تعصُّب وتنافُر وتعادٍ وتقتيل. يصدُّهم ذلك الواقع، فيحول بينهم ودون تقبُّل الإسلام ودونَ

الإيمان بكتابه القرآن الكريم. ذلك أنّهم لايعثرون في هذه المُجتمعات المتخلّفة على أسوةٍ حسنةٍ حيّةٍ، تجسّم لأعينهم ثمار هذا الدين القويم، ومُعطيات هذا القرآن العظيم.

ألا إنّ النّهج القرآني في الاستدلال على وجود الله الخالق، اعتمد على قسمين من الأدلّة: الأوّل منها يساعد فكر الإنسان لترجيح وجود خالقٍ لهذا الكون. وهو يتنوّع مابين دليل اشتمل على عُنصر واحدٍ، ودليلٍ اشتمل على عناصر عديدة. وهذا القسم الأوّل من الأدلّة اعتمد الفكر الإنسانيّ أداةً وسُلّماً على هذا الطريق.

وهذه الحقيقة نبّهنا إليها الله جل شأنه في أوّل سورة من كتابه العزيز. حين صَدَم الفكر العربي الجاهلّي بقوله تعالى: ﴿**يسألونك عن الخمر والميسر، قل فيهما إثمٌ كبيرٌ ومنافع للنّاس، وإثمهما أكبر من نفعهما، ويسألونك ماذا يُنفقون قل العفو، كذلك يبيّن الله لكُم الآيات لعلّكم تتفكّرون.**﴾ البقرة ٢١٩ ـ فقد حثّ جل جلاله هؤلاء السّائلين على إعطاء الفكر منزلة، ليتصرّفوا على هُدىً منه، ويحقّقوا بأسلوبٍ علميّ في منافع كلّ شيءٍ من الأشياء ومضارّه، فيتجنّبوا ماغلبت مضارُّه على منافعه. لذلك أضاف قوله: (كذلك) أي على هذه الشاكلة وبهذا الأسلوب تُعالج الأمور ويُميّزُ صالح الأشياء من طالحها. ولايتحقق ذلك عن طريق الإكثار من طرح الأسئلة. ثم إنّ في طيّات كلمة (كذلك) حثّاً منه تعالى للمؤمنين على تأسيس مؤسّساتٍ علميّة مثمرة، والاندفاع إلى الطريق العلمي في البحث والتّفكير. لذلك أردف تعالى بعد كلمة (كذلك) قائلاً: ﴿ **يبيّن الله لكم الآيات لعلّكم تتفكّرون.**﴾. ثم إن قوله (يُبيّن) أي يوضّح لكم هذه العلامات. فالآية جمعها آيات ومن معانيها العلامة والدليل. أي يرسم لكم طُرُقَ حلّ معضلاتكم في حياتكم الدنيا ﴿ **لعلكم تتفكّرون.**﴾ أي لعلّكم تعملون فكركم في كلّ آيةٍ من آيات هذا الكتاب فتهتدوا بما تعظ به الآيات وترشد إليه من وحدانيّة الله وعظمته وسبيله.

وعليه قلت آنفاً إن القسم الأوّل من أدلّة إثبات وجود الله تعالى ارتكزت إلى دعامة الفكر وأساسه. على حين ارتكز القسم الثاني من هذه الأدلة على أساسٍ سلوكيّ. وقد صرح تعالى بذلك في سورة البقرة الآية (١٨٦) بقوله: ﴿ **وإذا سألك عبادي عنّي فإنّي قريبٌ أُجيب دعوة الدّاع إذا دعانِ،**

فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلّهم يرشدون.﴾، وسيأتي تفصيل ذلك في حينه إن شاء الله العزيز.

وأعود الآن إلى مااقتبسته من الأسلوب الجديد للعلماء الغربيين المعاصرين، الذي اختطّوه في التفكير والبحث والاستنتاج. فهو جلّ شأنه، ماإن انتهى من الإدلاء بدليل الإجماع العام الوحيد العنصر والبسيط، حتى أتبعه بالدّليل المتعدّد العناصر وعلى نمط هؤلاء العلماء المعاصرين. مُنطلقاً من قوله ﴿ألم تر﴾ إثارة للتّعجب، ورأى بمعنى ظنّ ويتعدّى إلى مفعولين على حسب ماذُكر في الكُليّات، فدلالة ﴿ألم تر﴾ أي أَلَم تُلاحظ أيها الباحث بالأسلوب العلمي: **﴿أنّ الله أنزل من السّماء ماءً، فأخرجنا به ثمراتٍ مختلفاً ألوانُها، ومن الجبال جُدَدٌ بيضٌ وحُمْرٌ مختلف ألوانها، وغرابيب سود. ومن الناس والدّواب والأنعام مختلفٌ ألوانه، كذلك، إنما يخشى الله من عباده العلماءُ، إنّ الله عزيزٌ غفور.﴾**.

فالملاحظ أن الله تعالى كرّر كلمتي "مختلفاً ألوانُها" ثلاث مرّاتٍ، وقد ركّز في جميع ماذكره على اختلاف الألوان. فهو تعالى ذكر الثمار والجبال أولاً لافتاً الأنظار إلى اختلاف ألوان كلّ منها عن الآخر. والألوان هي في حقيقة الأمر أساس من أسس الجمال، كما أنّ للشّكْلِ شأنه في الجمال أيضاً.

فهو جلّ شأنه انطلق في هذا المقام من مُنطلق الأسلوب العلميّ الذي بات سمة علماء أوربة المعاصرين. انطلق من أنّ الماء هو مصدر الحياة في جميع الأشياء التي أتى على ذكرها في هذه الآيات الكريمة، والماء حقّاً هو أساس الحياة في كل مخلوق على حسب ماأثبت العلم ذلك.

لكنّه تعالى أضاف متسائلاً أنْ: أو لم يُلفت نظركم أيها الباحثون هذا الاختلاف في ألوان جميع الأشياء التي ذكرناها، كيف بدت مُلوّنةً ومزخرفةً على صورةٍ لايفسرها عُنصرا الضرورة والمصادفة، فلابُدَّ أن يكون الذي أنشأ هذه الأشياء، قد زخرفها بمختلف الألوان التي ابتدعها، بعبقريّة الفنّان المُبدع المُصوّر؟

أولاتلاحظون كيف أنّ هذا الجمال المتجلّي في كل شيء من هذه الأشياء، جمال الطبيعة الأخّاذ الباهر للأنظار، قد أخذ بمجامع أفئدة الشعراء والأدباء فراحت ألسنتهم وأقلامهم تتغنّى بجمال الطبيعة في كلّ زمان، فتنظِمُ القصائد، وتحبّر المقالات، تعبّر بها عمّا يخالج هذه الأفئدة بمطالعة هذا الجمال.

فقد وصف الشعراء الربيع تدبُّ في أرضـه الحيـاة بعـد المـوات، فتخـرج الحياة متبرّجة متزيّنةً بالأزهار والرّياحين بعد احتجاب. وقد وصفوا الروضة البكر بعد الغيث: نبتها ونضرتها ونماؤها. صورٌ تقف الأبصار أمامها دهشةً، و الألباب مُعجبةً مفتونة، صورٌ تنبض بالحيـاة والحركة. كمـا أخـذ الجمـال بمجـامع أفئـدة العُشّاق، فراحوا يتغنّون بمعشوقهم، فيصفونه بالبدر في ثـورة المتـألّق، وأخـذ هـذا الجمال بمجامع أفئدة الأدباء، فراحت أقلامهم تتنافس في إبرازه وتفننٌ بوصفـه في صورٍ قد بلغت مـن الدّقـة والإتقـان الغايـة. فتجلّـت فيهـا قُـدرة الكـاتب في فنّـه وبراعته في التّصوير.

فإذا عُدنا إلى أسلوب هذا الدّليل القرآني متعدد العنـاصر، نجـد أنّـه أتـى مُحلّى بأسلوب هؤلاء العلماء الأوربيين العلمّي، إذ أتى على ذكر الثّمار. والثّمار في الأرض يُرى منها عشرات الأنواع، ولكلّ نوعٍ منها مزيّته اللّونية الزخرفية. ثم أتى على ذكر الجبال، والجبال، وفي الأرض منها مئات ألـوفٍ، ولكـلّ جبـلٍ مـن هذه الجبال مزّيته الزخرفية: فمنها ماكـان مـن حجـر كلّسـيٍ، ومنهـا مـاهو مـن حجرٍ رملّي أو حجرٍ بُركانيّ أي بازلتّيٍ. فهي تتراءى لك من بعيـد بلـونٍ أبيـض وأحمرٍ وداكن أسودً.

وأتى تعالى على ذكر الإنسان، ولفت الأنظار إلى أن الإنسان لم يخلُ من هذه الزّخرفة اللونيّة، فهناك العرق الأبيض والأصفر والأحمر والأسود أيضاً. وأتى على ذكر الدّواب والأنعام. وللدّواب والأنعام ألـوف الأنـواع. وكُـلٌّ منهـا لُـوّن بزخارف تسلب ألباب الناظرين.

وكـأن الله عـز وجـلّ يخـاطب القـائلين بمذهـب داروت في النشـوء والارتقاء، فيقول: إذا نحن سلّمنا أنّ سرّ تعدّد الأنواع وتركيبهـا علـى أشـكالها الماديّة الحـاضرة، إنمـا يعـود إلى فاعليّـة عنصـري الضّـرورة والمُصادفـة، إذا سـلّمنا معكـم بذلـك، فكيـف يمكـن أن تفسّـروا ظـاهرة الاختـلاف في الألـوان، وهـذه الزّخارف اللّونيّة اعتماداً علىأسـاسٍ مـن الضـرورة والمصادفـة، فإن عجـزتم عـن ذلك، لزم أن تُعيدوا النّظر في جميع ماتزعمون.

على أنّ العلماء المعاصرين، ممّن خالفوا أتبـاع داروت في نظريّتـه، انقلبـوا عليه من جهات، وأقروا صاغرين بما لفت القرآن الكريم الأذهـان إليـه. وسـلّموا بأنّ اختلاف ألوانِ كلّ شيء يشير إلى وجود يـدٍ لفنـانٍ أعظـم قـد زخـرف كـلّ

شيء خلقَهُ بريشةِ المصوّر المُبدع. وإنّه لدليلٌ لايدحضه، بل يؤيده قول عالمهم (أمِرسُن)[1] ، قوله: (إيّاك أن تفوّت أيّ فرصةٍ لمشاهدة أي شيءٍ جميل، لأنّ الجمال خُطّ بيد الله..).

أقول: كان الأحرى بهؤلاء الذّين أدركوا أنّ اختلاف الألوان في الطبيعة، لاتفسّره الضرورة والمصادفة، بل يفسّره وجود يدٍ لفنان أعظم. كان أحرى بهؤلاء ماداموا قد مضوا في تقديس الجمال على أنّه (خُطّ بيد الله) كان أحرى بهم أن يتعالوا عن عبادة البشر، ويعبدوا الخالق ربّ العالمين. فكان من واجبهم أن يخطوا الخُطوة الثانية للتعرّف على هذا الذي أبدع هذا الجمال اللّوني، ويُوطّدوا صِلاتهم به تعالى، ويرتموا على أعتابه، متوسّلين مُتضرّعين أن يهديهم إلى الصراط المُستقيم، وأن يرزقهم حقّ اليقين.

وهكذا نكون قد اطّلعنا على دليلين يُثبتان وجود الله عز وجلّ احتوتهما سورة فاطر في مقامٍ واحد. الدليل الأول منهما بسيط غير متعدّد العناصر. وقد اصطلحنا له دليلَ الإجماع العام. والدليل الثاني منهما، المتعدّد العناصر، وقد اصطلحنا له اسم دليل التعدّد اللّوني. وهذان الدّليلان يعودان إلى القسم الأوّل النّظري في الإثبات. هذا القِسم من الأدلة الذي يصل بالمرء إلى حدّ ترجيح وجود الخالق المُبدع المصوّر عز وجلّ، ولايتجاوز ذلك، على مايقتضيه عقل الإنسان السّليم التّفكير.

٣ ـ دليل الوحدانيّة في الذّات وفي الصفات

وأتناول بالذّكر والشرح دليلين جديدين، يُرجّحان وجود الله عزوجلّ. وقد اشتملت على هذين الدّليلين سورة الإخلاص التي لايزيد عدد آياتها عن أربع آيات عدا البَسْملة. هذه السورة التي ورد عن رسول الله ﷺ قوله بشأنها: (من قرأ قل هو الله أحد فكأنّما قرأ ثُلُث القرآن) وقوله: (والذي نفسي بيده إنّها لتعدل ثُلث القرآن).

---

[1] المرجع نفسه

والغريب حقّاً، هو أنّ كُتُب التّفسير، بالرغم من أنّها احتوت في طيّاتها هذه الأحاديث الشّريفة، قد أخذت بروايات أسباب النّزول، فذهبت إلى أنّ سورة الإخلاص قد اقتصرت على تعداد صفاتٍ مُحدّدةٍ لله تعالى وحسب.

والباحث المسلم المُتدبّر لايذهب مذهب ماأخذت به كتب التّفسير هذه بل تحثّه الأحاديث الشريفة التي أوردناها، ليتدبّر سورة الإخلاص بنظرةٍ ثاقبة أعمق ممّا دلّت عليه أسباب النّزول، ولينظر من زاويةٍ مختلفةٍ تماماً.

ثم إن تسمية هذه السّورة باسم سورة الإخلاص، تحثّه هذه التّسمية حثّاً على أن ينتحي بتفسيره منحى آخر. ذلك أنّ الإخلاص مصدر أخلص، وهو ترك الرّياء في الطّاعات، كما قال صاحب التّعريفات من حيث الدلالة المعنوية للفظ الإخلاص. وهل يترك المرء الرّياء في الطّاعات ويتجنّبه لمجرّد أن يقرأ ويردّد (أحد، صمد، لم يلد و لم يولد، و لم يكن له كُفواً أحد.)؟

ولعلّ كتب التّفسير قد ذهبت إلى ماذهبت إليه، لابتداء سورة الإخلاص بفعل الأمر (قل)، فتصّورت أنّه جواب (قل) عن سؤالٍ وجّهه المشركون إلى رسول الله ﷺ. وقد يكون لهم عُذْرٌ، لو ورد هذا اللّفظ ضمن سورةٍ كثيرة الآيات. على حين كانت سور المُعوّذات الثلاث، ومنها سورة الإخلاص، خلاصةً موجزةً لجميع مضامين القرآن الكريم.

وهي على شاكلة فاتحة الكتاب، فلا يُعقل أن تنزل جواباً على سؤال مُعيّن. بل لابُدّ أن تكون مُفعمةً بدلالاتٍ توازي ثُلث مضامين القرآن الكريم إنما بإيجاز شديد وبليغ.

ولرُبّ سائل يسأل: فماهي حكمة ودلالة فعل الأمر (قل) هنا إذن؟

ويستنبط الجواب من التّسلسل الموضوعيّ لسورة الإخلاص، وارتباطها موضوعيّاً مع السّورة التي سبقتها من حيث ترتيب تلاوتها، أي بسورة (تبّت)، التي سبق أن ندّد الله عز وجلّ فيها بأبي لهبٍ، وبما أنبأ فيها عن زوال قُوّته وقوّة أتباعه وعُملائه من على وجه الأرض في هذا الزمن الأخير المعاصر، زمن تخلّف المسلمين وانقسامهم على أنفسهم، وزمن ظهور عملاء أبي لهبٍ من بين صفوفهم. ولامجال للتوسّع بذلك في هذا المقام.

فمعنى (قل) الوارد في ابتداء سورة الإخلاص، معنـاه الأمـر بـإنذار أبـي لهبٍ يوم صولته أنّ الله موجود، وأنّه لاقِبَلَ له بمقاومة دين الإسلام والقضاء على كتابه القرآن، ذلـك أنّ الله جـلّ جلالـه (أحـد) لايشـاركه شـيء في ذاتـه ولافي صفاته.

ذلك أنّ للفظ القول أكثر من معنى. فهو يستعمل للنّطق، كما يستعمل للاعتقاد والاجتهاد. وللقرآن الكريم نهجٌ انتهجه في كلّ مقامٍ أورد فيه فعل الأمر (قل). وهو جلّ شأنه أتى بصيغة (قل) فيما يزيد عن ثلاثمائة وثلاثين مرة، ووفقـاً للنّهج التّالي:

أولاً ـ في حـال ورود كلمـة (يسـألونك)، يعمـد إلى الإجابـة، مبتدئـاً بالأمر (قل). وعلى سبيل المثال، ففي الآية (١٨٩) من سورة البقـرة قـال تعـالى: ﴿**يسألونك عن الأهلّة، قل هي مواقيت للنّاس والحجّ..**﴾.

ثانياً ـ وفي حال التبشير والإنذار، يعمد بعده إلى التّعبير بلفظ (قل) آمـراً بضرورة من بشرّهم وأنذرهم، أن يستعملوا نعمـة العقـل، فيمعنـوا التّفكـير فيمـا بشّرهـم به وأنذر. ففي سورة الأنعام الآية (٥٠) مثـلاً، قـال تعـالى: ﴿**ومانرسـل المُرسلين إلاّ مبشرّين ومُنذرين، فمن آمن وأصلـح فـلا خـوفٌ عليهـم ولاهـم يحزنون. والّذين كذّبـوا بآياتنـا يمسُّـهُمُ العـذاب بمـا كـانوا يفسـقون، قـل هـل يستوي الأعمى والبصير، أفلا تتفكّرون.**﴾؟

ثالثاً ـ وفي الوقت الذي يندّد به تعالى بالعقائد الفاسدة ومُعتنقيها، يعمـد تعالى بعد ذلك إلى فعل الأمـر (قـل) ليحمّـل رسـوله الكريـم والذيـن آمنـوا معـه رسالة تحدّ إلى أصحاب العقائد الفاسدة. كمـا ورد في الآيـة (١٩٥) مـن سـورة الأعراف على سبيل المثال، حيث قال تعالى مندّداً: ﴿**إنّ الذّين تدعون مـن دون الله، عبادٌ أمثالكم، فادعوهم، فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين. ألَهُمُ أرجـلٌ يمشون بها، أم لهم أيدٍ يبطشون بها، أم لهـم أعـينٌ يُبصـرون بهـا، أم لهـم آذانٌ يسمعون بها، قل ادعوا شُركاءكم ثمّ كيدون فلا تُنظرون.**﴾.

هذا و لم يسبق أن ابتدئت سُوُر القرآن الكريم بكلمة (قل) لنعتـبر (قـل) التي ابتُدئت بها سورة الإخلاص جواباً عن سؤال معلوم.

المهمّ هو أن للقرآن الكريم نهجاً يسير عليه في كلّ أمرٍ من أموره. ومـن واجب الباحث المتدبّر أن يتبيّن معالم هذا النّهج قبل الجزم برأيه. خصوصاً بعد أن

وضّحت له معالم هذا النّهج في هذا المقام. فلابُدّ له من التقيّد به ومراعاة السّياق والتّسلسل الموضوعي ودوره، عند الكلام على فعل الأمر (قل) ودلالته.

هذا وإني بيّنت أنّ سياق (قل) هنا هو مضمون مااشتملت عليه سورة تبّت. هذه السورة التي ندّدت بأبي لهبٍ وأنذرته فالمقصود بـ (قل) إذن مُخاطبة هذا المارد المتمرّد ووعظه بأن يضع نصب عينيه أنّ الله موجود، وأنّه أحدٌ في ذاته وصفاته، وأنّه الحكَمَ الأخير والفصل والمرجع في جميع الأمور، وأنّ أسباب النّفاذ إنّما هي طوع يديه عز وجلّ.

ومايؤكّد لنا المعنى الذي كشفت عنه، هو أنّ الله تعالى لم يقُل هنا (قل الله هو أحد). بل قدّم الضمير (هو) على اسمه الأعظم. وإنّ لهذا التّقديم دلالته البلاغية، ذلك أنّ المرء إذا شاء تعظيم مُسمّى، يقدّم الضمير العائد عليه، تعظيماً لشأنه وإكباراً له. وهذا الأمر بدا واضحاً في الآية ﴿**قل هو الله أحد**﴾ فالضمير (هو) في هذه الآية يعود إلى اسم الجلاة (الله) الذي لم تحتوي هذه الآية على إسم سواه. وقد قُدّم ضمير (هو) على اسم الجلاله إشعاراً بعظمة الله عز وجلّ. وكأنّه تعالى بهذه الصيّغة البلاغية، قد نبّه أبا لهبٍ إلى تناسيه شأن الله فيما يفعله ويُقدم عليه.

وبإمكاننا الآن أن ندرك احتواء الآية ﴿**قل هو الله أحد**﴾ على مقولتين اثنتين: الأولى تضمّنها إعلان وجود الله العظيم الشأن. وهو مادلّ عليه قوله تعالى ﴿**قل هو الله**﴾. والمقولة الثانية تضمّنها لفظ ﴿**أحد**﴾ بمعنى أن الله عظيم الشأن ليس موجوداً وحسب، بل هو متفرّدٌ في ذاته كما هو متفرّدٌ في صفاته أيضاً.

فقد أورد صاحب معجم أقرب الموارد أنّ الواحد هو أوّل العدد.

تقول: واحد اثنان ثلاثة.. والفرق بين الأحد والواحد، أنّ الأحد اسمٌ لمن لايشاركه شيءٌ في ذاته، فهو الواحد الذي لايشاركه شيءٌ في صفاته أيضاً.

فإذا علمنا أنّ الله تعالى اختّط في كتابه العزيز نهجاً خاصاً به، وهو أنّه لايأتي بمقولةٍ إلاّ ويُتبعها بدليل يثبت صدق مضمونها. ولذا كان لزاماً علينا تجاه احتواء الآية على هاتين المقولتين: وجود الله العظيم وتفرّده في ذاته وصفاته، أن نجد في الآيات التي تعقُب هذه الآية من سورة الإخلاص دليلين يُثبتان صحّة هاتين المقولتين. وإلاّ نكون قد خالفنا أصلاً هاماً من أصول تفسير القرآن

الكريم. هذا الأصل الذي قلّما عُنيت كُتُب التّفسير به وهو أنّ الله تعالى لايدّعي أمراً ما إلا ويُتبع دعواه بدليل مؤيّد لدعواه.

والحقّ الذي لامراء فيه هو أنّ الله تعالى أثبت مقولته الأولى المتعلقة بوجوده، وذلك بأن قدّم عليها دليلاً من النوع البسيط، يُستساغ فهمه لدى مُختلف المستويات من أفهام عباده. وقد عبّر عن دليله هذا بقوله: ﴿الله الصّمد﴾ أي أنّ صمديّة الله تعالى تجلّت على الدّوام في كلّ مكان وفي كل زمان. ويقتضي تدبّر كلام الله منّا أن نتبيّن معالم هذا الدّليل القرآني الّذي يثبت منه وجود الله عز وجلّ.

فما معنى كلمة (الصّمد)؟ أورد صاحب معجم أقرب الموارد أنّ الصّمد هو السّيد الذي لايُقضى دونه أمر، والدّائم والرفيع. كما أورد صاحب معجم المفردات: أنّ الصّمد هو السيّد الذي يُصمد إليه عند الحاجة والضرورة. وأورد صاحب محيط المحيط: أنّ الصّمد هو المكان المرتفع الغليظ، والصّخرة الرّاسية في الأرض المستوية أو المرتفعة التي لاتطولها الخطوب والطّوفانات مهما ارتفعت وعتت. فإذا بحثنا تبعاً لهذه المعاني عن معالم هذا الدّليل الذي عبّر عنه تعالى بقوله: ﴿الله الصّمد﴾ تبيّن لنا أنّ الله تعالى هو دوماً مرجع عباده وصمودهم إليه. كما يبدو في مواجهة مكذّبي أنبيائه ورسله الكرام صخرة راسية تتحطّم على أعتابها الأعاصير والطّوفانات.

وكأنّه تعالى حثّنا من خلال قوله (الله الصّمد) على أن نستعرض في أذهاننا ماواجهه آدم ونوح وابراهيم وموسى وعيسى وسواهم من أنبياء الله تعالى، وآخرهم محمد خاتم النبيّين. حثّنا أن نستعرض أمواج المقاومة الصّارخة التي ووجهوا بها من قِبل مُكذّبيهم وأقوامهم. وكيف صمد هؤلاء الأنبياء جميعاً إلى الله المعتقدين بوجوده، وذلك في أشدّ وأخطر تلك السّاعات الحرجة من حياة دعواتهم، يوم لم تعد بيدهم حيلة، ولم يعد لهم ملجأ يلجؤون إليه، إلا الله وحده. وكيف ولّد الله تعالى من عالم غيبه مختلف أسباب المحافظة عليهم والدّفاع عنهم، بل أنزل بأعدائهم مختلف أنواع العذاب.

حثّنا الله جلّ شأنه من خلال قوله تعالى ﴿الله الصّمد﴾ على أن نذكر الطّوفان الذي أغرق به الذين استهزؤوا بنوحٍ عليه السلام. ونذكر كيف أغرق فرعون وجنوده، وأن نذكر نجاة عيسى بن مريم من مكيدةِ مُكذّبيه. وأن نذكر

كيف تحولّت النّار برداً وسلاماً على ابراهيم. كما نذكر إخفاق قريشٍ في محاولتهم قتل محمد رسول ا لله. ثم نذكر فتح الرسول العظيم لمكّة نفسها، وانكشاف أهلها أمامه، وخضوعهم له وتقبُّلهم لتعاليم هذا الدّين الحنيف.

فإذا استعرض المفكّر المتدبّر جميع هذه الأحداث، فلاحظ أنّ لفظ (صمد) إنّما ورد في قوله تعالى (ا لله الصّمد) مُعرّفاً بالألف واللاّم، دلالة على أنّ ا لله تعالى هو وحده الذي يُصمد إليه في شدائد الأمور.

فهو الوجود المعهود ذهنيّاً في جميع الأحداث التي ذكرناها، تجلّى له إثر ذلك معالم هذا الدّليل المُبرهن على وجود ا لله عز وجلّ. فعمد عقلُهُ إلى تصوُّر وجود ا لله تعالى، وليس عكس ذلك. ذلك أنّه لابد له أن يقول في حديث نفسه: كيف تجري جميع هذه الأحداث والطّوفانات، وتأتي هذه النتائج الإيجابيّة، ويكون ذلك من قبيل المُصادفة، في جميع هذه الأزمان، ولمصلحة أفرادٍ جُلّ ماأعلنوه للنّاس أمثالهم، هو أنّ ا لله موجود ويُكلّمهم أيضاً؟

على هذه الصورة تتجلّى لأعيننا معالم الدليل الأوّل على وجود ا لله تعالى من خلال الآية الكريمة ﴿**ا لله الصّمد**﴾. ذلك أنّ هذه الأحداث قد كشفت وجود الإله السيّد الصّمد الذي لايُقضى دونه أمرٌ والدّائم الرفيع، والذي يُصمد إليه عند هذه الحاجات والضرورات. فهو تعالى تلك الصّخرة الرّاسية مجازاً والتي لاتطولها الخطوب والطوفانات مهما ارتفعت وعتت وأوهمت في كلّ مرّةٍ هاجت بها أنّها المُنتصرة، ثم آبت بالخيبة والخّذلان، وكانت العاقبة للمُتّقين.

فهذه شهادات متكرّرة أمام أعين الناس تصوّر بل تثبت وجود خالقهم وهاديهم، وعليه فبالإمكان اصطلاح اسم دليل (الوحدانيّة في الذات) لهذا الدّليل. ويكون ا لله تعالى بذلك قد أدلى من خلال قوله (ا لله الصمد) بأوّل دليلٍ يثبت من خلاله إحدى مقولتيه اللّتين اشتمل عليهما قوله تعالى (قل هو ا لله أحد). ومن ثم كان لابدّ لنا من البحث عن معالم الدليل الثاني الذي يثبت مقولة الأحديّة التي اشتمل عليها لفظ (أحد) في قوله تعالى (قل هو ا لله أحد)، بعد أن كشفنا عن الدّليل الأوّل الذي أثبت وجود ا لله عز وجلّ. هذه المقولة التي اشتمل عليها قوله تعالى: (قل هو ا لله)، أي أعلم بوجود ا لله عظيم الشأن والمقام.

وقد سبق أن لاحظنا أنّ مقولة الأحديّة ذات شقّين: الأحدية في الذات والأحديّة في الصفات. كما أورد تعالى قوله (و لم يكن له كفواً أحد) بمقابل

الأحديّة في الصّفات. كما سبق أن قلنا أنّ هذا الدّليل الثاني جيء به على أسلوبٍ نَهَجه علماء عصرنا في البرهنة والاستدلال، فكان الأسلوب العلمي المتعدّد العناصر.

ويتساءل الباحث عن قوله تعالى: ﴿**لم يلد ولم يولد**﴾ ودلالته على تفرُّد ا لله في ذاته؟

أقول: إنه عز وجلّ نبّه أذهان عباده هنا إلى قانون الاحتياج العام. فهم يُذعنون في استمراريّة وجودهم لهذا القانون الطبيعي. وهذا ماكان قد عبّر عنه تعالى في سورة فاطر (١٥) بقوله: ﴿**ياأيّها النّاس أنتم الفقراء إلى ا لله، وهو الغنيّ الحميد، إن يشأ يُذهبكم ويأت بخلقٍ جديد، وماذلك على ا لله بعزيز**﴾، وهذا يؤذن بإذعان النّاس لقانون الاحتياج العام. على حين أنّ ا لله عز وجلّ هو الصّمد أي الرفيع الدّائم الذي لايحتاج في دوام وجوده إلى هذا القانون. وإذا كان إحدى ظواهر هذا القانون، أن يكون أحدكُم والداً ومولوداً. فا لله (لم يلد و لم يولد)، لأنّه يتّصف في وجوده بالأزليّة والأبدية.

وكأنّه جلّ شأنه يقول لنا بألفاظٍ أخرى: مادمتم تحتاجون في وجودكم واستمرارية وجودكم إلى أن تلدوا أو أن تكونوا مولودين، فلابدّ أن تكونوا مخلوقين من جهة، وأن يكون خالقكُم مُبرّأً ومُنزّهاً عن هذا الاحتياج مُتّصفاً بالديمومة من جهة ثانية (لم يلد و لم يولد). وهكذا تتلازم مقدّمة الدليل ونتيجته، فتقتضي أولاهما الثانية بطبيعة الحال. وهذه النتيجة إن دلّت على شيء، فإنّما تدلّ على تفرّد ا لله في ذاته، فهو دائم الوجود ومُستغنٍ عن أن يلد أو يولد.

ثم يتساءل الباحث عن قوله تعالى: ﴿**ولم يكُن له كفواً أحد**﴾ وعن دلالته على تفرّد ا لله عز وجلّ في صفاته؟

أقول: الكفءُ في اللّغة العربية معناه المُماثل. تقول: هذا كُفء فلان أي مثيله. هذا ماأورده صاحب معجم أقرب الموارد. وصاحب معجم المفردات أضاف أنّ الكفؤ هو المثيل في المرتبة. وإنّ معاني الكفء هذه متعلّقة بالدلالة على تفرّد ا لله في صفاته أيضاً. فلم يكن كفؤاً له أحد يماثله فيما يتسّم به من صفات وأسماء حُسنى.

وألفاظ هذه الآية ﴿لم يكن له كفواً أحد﴾ تنقل ذهننا إلى نواحٍ عديدة يقتضيها العقل والمنطق. فلو أننا افترضنا وجود أكثر من إله، وكانوا متكافئين ومتماثلين في صفاتهم، لاستحال استمرار العالم في تبعيّته لقوانين واحدة، ولهبّت على هذا العالم ريح الفساد والدّمار، إذ لايُعقل إلاّ أن يكون لكلّ إلهٍ من الآلهة خطّة عملٍ تُغاير خطة عمل الإله الآخر. ولابدّ أن يسعى كلٌّ منهما إلى السيّادة على هذا العالم دون الآخر. وإلى هذه النتيجة العقليّة والمنطقيّة أشار الله عز وجل في سورة الأنبياء (٢١) حينما قال: **﴿أم اتّخذوا آلهة من الأرض هم يُنشرون. لو كان فيهما آلهةٌ إلاّ الله لفَسدتا، فسبحان الله ربّ العرش عمّا يصفون. لايُسأل عمّا يفعل، وهُمْ يُسألون. أم اتّخذوا من دونه آلهةً قل هاتوا بُرهانكم، هذا ذكْر من معي وذكر من قبلي، بل أكثرهم لايعلمون الحقّ فهم مُعرضون. وماأرسلنا من قبلك من رسولٍ إلاّ نوحي إليه أنّه لاإله إلاّ أنا فاعبدون. وقالوا اتّخذ الرحمن ولداً سبحانه، بل عبادٌ مكرمون. لايسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون﴾**.

وهكذا فإنّ قوله تعالى: **﴿ولم يكن له كُفواً أحد﴾** يحمل الدّلالة القاطعة على أنّ الله الخالق لهذ الكون ليس متفرّداً في ذاته وحسب بل في صفاته أيضاً.

والناحية الثانية التي يوّجه قوله تعالى **﴿ولم يكن له كفواً أحد﴾** أذهاننا إليها، ليبرهن لنا عقلاً ومنطقاً على تفرّده في صفاته عز وجلّ، هو دفعُنا إلى تفقّد القوانين الطبيعيّة التي تهيمن على مسيرة هذا الكون الذي لم يتوصّل العلماء بعدُ إلى معرفة حدوده. فإن كانت هذه القوانين الطبيعية واحدةً في جميع ماكتشفوه من أرجاء الكون. فالعقل والمنطق يقضيان أن تكون وحدة هذه القوانين دالّة على وحدانيّة الله الصّانع وتفرّده في صفاته أيضاً. ذلك لأن وحدة هذه القوانين وهذا الكون تقتضي الوحدة في ذات الخالق المُوجد وفي صفاته أيضاً.

والناحية الثالثة التي يوجّهنا إليها قوله تعالى **﴿ولم يكن له كفواً أحد﴾**. هو أنّ أحداً مامن العلماء لم يكتشف في هذا الكون اللاّنهائي شيئاً واحداً صغيراً كان أم كبيراً يتّصف بالكمال والاستغناء وعدمِ الحاجة.

وكأنه سبحانه وتعالى في هذه الحالة يحثّنا على تفحّص العالم من حولنا، لنتلّمس مظهر أحديّته في صفاته عز وجلّ. وليكون لنا ذلك دليلاً واضحاً على أنّ خالقنا الذي نعبُده، لايُماثله شيء في صفاته. فهو ينبّهنا إلى أنّ كلّ شيء في

هـذا الكـون، أبعـد مـايكون عـن الكمـال، فهـو مُحتـاج في وجـوده لسـواه مـن الأشياء. أي أنّ الذّرة في أبسط أشكالها، كلّ جزء مـن تركيبتهـا يؤثّـر في سـواه، كما يتأثّر بسواه. والإنسان وقـد كـان الملحـدون يظنّـون أنّـه كـامل الشّـخصية، تبيّن أنّه مُحتاجٌ في وجوده أبداً. فهو محتاجٌ مثلاً إلى الخبز والماء والهواء. وهـاقد اكتشف العُلماء حقّاً أنّ الشمس غير مُستغنيةٍ في وجودها أيضاً. والأرض كذلك تحتاج لتوفير توازُنها إلى جاذبيّة سواها من السّيارات، كما تحتاج إلى تجديد مـواد غلافها الجوّيّ. أي أنّ الاحتيـاج صفـة عامـة للأشياء عامّـة سَواء منهـا العظيـم والتّافه الحقير. وهذا معناه أنّ الكون خاضعٌ لقانون الاحتياج العـام. وهـذا الأمـر يُعطي، في حدّ ذاته، دليلاً قاطعاً على أنّه أي هذا الكون لايقوم بنفسه، بل تُسيّره قوّةٌ خارجةٌ عنه. ذلك لأنّه يستحيل على الذي اتّصف بصفة الاحتياج أن يكـون خالقاً لنفسه، أو أن يكون أزليّاً في وجوده.

ثمّ إنّ قوله عزّ وجلّ ﴿**ولم يكن لـه كفـواً أحـد**﴾ ينبّهنـا إلى أنّ الكـون المحتاج من حولنا، يكاد لاتحدّه حدود من سعة أفقه وامتداده.

فلا يُعقل أن يكتشف الإنسان في المستقبل كوناً آخر من خلق إلهٍ آخـر، يكون كفواً ومثيلاً لهذا الكون.

ذلـك أنّ علمـاء الفلـك يقيسـون المسـافات مـابين الكواكـب والنّجـوم بالسّنوات الضّوئية. والسّنة الضوئية هـي المسـافة الـتي يقطعهـا شـعاعٌ مـن ضـوءٍ ينطلق من مصدره بسرعة (١٨٦) ألف ميل في الثانية.

ولهذا فإنّ السّنة الضوئيـة تسـاوي نحـو سـت ملايـين مليـون ميـل. وإنّ أقرب نجمٍ بعد الشّمس تفصلنا عنه مسافة أربع سـنوات ضوئيـة وثلـث، أي نحـو (٢٦) مليون مليون ميل. وإنّ إحدى المجرّات المسمّاة بجرّة "المرأة المسلسلة"، تبعـد عنّا مليوني سنة ضوئية. أي تبعد عنّا اثني عشر مليون مليون ميل. أي تبعُد عنّا بما لايستطيع العقل مُجرّد تصوّره من الأميال.

على هذه الصّورة فـإنّ ظـاهرة خضـوع كوننـا الـتي نعيـش فيـه لقـانون الاحتياج العام في كل ذرّة من ذّراته، وفي كل شيء من موجوداته، وهـو الكـون الذي لم تتراء للعلماء أبعاده، ليؤكّد هذا الواقع أنّ خالق هذا الكـون يتفـرّد يقينـاً في أسمائه الحسنى وصفاته.

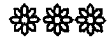
كما يستحيل أن يُكتشف في المستقبل وجود أيّ شيءٍ مُستغنٍ في ذاته غير مُحتاجٍ إلى سواه. وهذا الأمر يصل بنا إلى اليقين الجازم بصدق هذا الدّليل القرآني العظيم، ذلك الدّليل الذي قدّمته لنا سورة الإخلاص من خلال قوله تعالى: ﴿ولم يكن له كُفواً أحد.﴾.

من هذا كلّه، ندرك جليّاً وبكل وضوح، أنّ سورة الإخلاص التي لم تتجاوز أربع آيات، لم تجلُ كُتب التّفسير مضمونها، فذهبت إلى أنّ ذكر صفات الله الواردة فيها، كان لمجرّد التّعداد، على حين أنّ سورة الاخلاص لخّصت لنا موضوع عقيدة التّوحيد التي اشتمل عليها القرآن الكريم. وأتى هذا التّلخيص على صورة مقولتين: مقولة وجود الله، ومقولة تفرّد هذا الإله في ذاته وفي صفاته. كما أثبتت آيات سورة الإخلاص هاتين المقولتين، وذلك بتقديم دليلين يُثبتان صحّتهما، وبإعجاز لغوّي وعلمّي مابعده من إعجاز، ومن ثم احتواء ﴿قل هو الله أحد﴾ على هاتين المقولّتين، كذلك احتواء ﴿الله الصّمد﴾ على دليل وجود الله عز وجلّ.

والدليل على تفرّد هذه الذات اشتمل عليه قوله تعالى: (لم يلد ولم يولد). والشّطر الآخر من هذا الدليل الثاني وهو تفرّد الله في الصّفات، اشتمل عليه قوله عز وجلّ (ولم يكن له كفواً أحد).

فإذا قرأ المؤمن سورة الإخلاص بهذا الفهم وهذا الإدراك، فكأنما قرأ ثلث القرآن الكريم حقّاً، على حسب ماورد عنه ﷺ.

فلو كانت سورة الإخلاص قد أُنزلت جواباً عن سؤال من قِبَل المشركين مُوجّهٍ إلى رسول الله ﷺ ليصف لهم ربّه، لكان هذا الوصف ناقصاً، ولنتذكّر ماأوردته سورة الحشر من وصفٍ وصفت به الله عز وجلّ حيث ورد فيها: ﴿هو الله الذي لاإله إلاّ هو عالم الغيب والشهادة هوالرحمن الرحيم. هو الله الذي لاإله إلاّ هو الملك القدّوس السّلام المؤمن المهيمن العزيز الجبّار المتكبّر سبحان الله عمّا يشركون. هو الله الخالق البارىء المصوّر له الأسماء الحسنى يسبّح له مافي السماوات والأرض، وهو العزيز الحكيم.﴾ فسبحان الله الذي جاءت آيات سورة الإخلاص محوراً لصفاته وأسمائه الحسنى.



٤ ـ دليل العلة والمعلول أو السبب والمسبب

وأدلت الآيات بدليلين اثنين في سورة ابراهيم يبرهنـان علـى وجـود ا لله عز وجلّ. أحدهما من النوع البسيط، الذي لايعسُر فهمه على أيٍ من مُستويات الأفهام. وثانيهما جاء بالأسلوب العلمي المعاصر المتعدّد العناصر.

وقد ارتكز تعالى فيه إلى حصيلة ماكشفت عنه العلوم المعاصرة في القرن العشرين. ونتناول أوّلاً توضيح الدليل الأوّل البسيط العنصر:

ففي سورة ابراهيم الآيـة (٨) قـال تعـالى: ﴿ **ألم يـأتكم نبـأ الذيـن مـن قبلكم قوم نوحٍ وعادٍ وثمـود والذيـن مـن بعدهـم لايعلمهـم إلاّ ا لله، جـاءتهم رسلهم بالبيّنات فردّوا أيديَهم في أفواههم وقالوا: إنّا كفرنا بما أرسلتُم به وإنّـا لفي شكٍ ممّا تدعوننا إليه مُريب. قالت رسلُهم: أفي ا لله شكٌ فاطر السـموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخّركم إلى أجـلٍ مُسـمّى، قـالوا: إنْ أنتم إلاّ بشرٌ مثلُنا تريدون أن تصدُّونا عمّا كان يعبُد آباؤنا، فأتونا بسلطانٍ مبين.** ﴾.

ويبدو واضحاً أنّ هذه الآيات الكريمة قد اشتملت على هذا الدّليل. فقد كان كلّ نبيّ من أنبياء ا لله ورسله يدلي بهذا الدّليل في مواجهة قومه، للاستدلال من خلاله على وجود ا لله الذي أرسله، والاعتماد عليـه في اثبـات صـدق نبوّتـه. ولْنَقُل أنّ أفهام البشر لم تكن تستسيغ سماع وفهم دليـل أعقـد مـن هـذا الدّليـل. وهذا الدليل يُدركه حتى البدويّ في الصّحراء.

إذ يُروى أنّ فيلسـوفاً لقـي بدوّيـاً سـاذجاً، فسـأله: أتؤمـن بوجـود ا لله الخالق؟ فهزّ البدويّ رأسـه إيجاباً. فطالبـه الفيلسـوف بـالدليل، أجـاب البـدويّ: البعرة تدلّ على البعير. وآثار الأقدام على المسير، والسّماء ذات الأبـراج والأرض ذات الفِجاج، أفلا تدلُّ على اللّطيف الخبير؟

وهذا الدليل البسيط الذي أدلى به البدويّ، هو مـااصطلُح علـى تسـميته بدليل العلّة والمعلول أو السّبب والمسبّب. وهو الدّليل الـذي اشـتملت عليـه هـذه الآيات من سورة ابراهيم. وقد دأب على طرحه والإدلاء به جميع مـن سـبق مـن أنبياء ا لله تعالى قبل الإسلام في مواجهة أقوامهم وهيّا نتدبّر هذه الآيات الكريمة.

فالملاحظ هو أنه تعالى أخبرنا عن حال أقوام هؤلاء الأنبياء بكـلام بليـغ وذلك حين قال: ﴿ **جـاءتهم رسـلهم بالبيّنـات فـردّوا أيديهـم في أفواههـم.** ﴾.

فالمقصود باليد هنا نعمة تعاليم الرسالات والأديان التي بُعث بها أنبياؤهم، وليس اليد الظاهرية بقرينة قولهم بعدها: ﴿**وقالوا إنّا كفرنا بما أُرسلتم به..**﴾. وكأنّ أقوام الأنبياء السابقين وقفوا موقفاً واحداً من أنبياء الله تعالى، مُظهرين عدم استعدادهم لقبول دعواتهم وتعاليم رسالاتهم التي جاؤوهم بها من الله عز وجلّ. وكأن كلّ قوم من تلك الأقوام قالوا لرسولهم: اذهب عنّا بنعماء رسالتك وعُد إلى دارك، فلاحاجة بنا للإستماع إليك، ﴿**وإنّا لفي شكٍ ممّا تدعوننا إليه مريب.**﴾.

والمعلوم هو أنّ كلّ نبيّ دأب على دعوة قومه إلى الإيمان بوجود الله عز وجلّ، إلى جانب الإعلان عن أنه رسولٌ من قبله. لذلك ﴿ **قالت رسُلُهم: أفي الله شكٌّ فاطِرِ السّموات والأرض.**﴾. ولنلاحظ أنه تعالى لم يقل (فاطر السّماء والأرض). ذلك لأنه أراد أن يلفت الأنظار إلى عظمة هذا البّناء الشامخ العظيم المؤلّف من الكواكب والشّموس والسّيارات والمجرات، الذي يعلو رؤوس العباد. ثم إنّ كلمة فاطر من فَطَرَ الشيء: شقّه. وفطر الأمر اخترعه وابتدعه وابتدأه وانشأه (أقرب الموارد). والملاحظ هو أنّ الله تعالى طرح هذا الدّليل بأسلوب الاستفهام الإنكاري ليُظهر مبلغَ ظهوره ووضوحه وقربه من الحقيقة والواقع ﴿**أفي الله شكّ**﴾ أيُعقل أن ترتابوا بوجود خالق السموات والأرض وتتجاهلوا حتميّة وجود خالق لكلّ شيء من الأشياء وسبباً لوجوده؟ فالآباء هم علّة ثانية لوجود أبنائهم. والعلّة الأولى وجود الخالق. ثم إنّ الأدوات المصنوعة لابدّ لها من علّة. والعلّة صانعوها. أفبعد هذا ترتابون بوجود مُبدع هذه السّموات والأرض وذارئها ومُنشئها؟

وهذا الدليل البسيط العنصر، والُمستقى من واقع البشر على مرّ الزّمان. لم تستسغه عقول علماء القرن التاسع عشر الأوربيين المادّية، بالرّغم من بساطته ومعقوليته، وخصّوه بهجوم كبير. ظنّاً منهم أنّ هذا الكون الماديّ قديمٌ جدّاً وأزليّ، وأنّه يتطوّر من نفسه منذ أبد الآبدين.

أما علماء القرن العشرين الذين فوجئوا بنظريّة العالم الفيزيائي (غاموف) المعروفة بنظريّة الانفجار العظيم، هذه النظرية التي أثبت غاموف من خلالها أنّ عالمنا المادّي مخلوق وليس هو بأزليّ. وقد تم ابتداؤه وانشاؤه منذ (١٢ إلى ٢٠)

مليار عام، فقد مال هؤلاء العلماء إلى تصديق هذا الدليل القرآني، الذي دأب أنبياء الله تعالى على مواجهة أقوامهم به على الدّوام.

وهاهو العالم الفيزيائي (أدموند و يتيكر) يطرح سؤالاً، مفاده: هل من مكان لإلهٍ في هذا الكون المادّي من حولنا؟ ويجيب هو نفسه عن السؤال فيقول: (ليسَ هناك مايدعو إلى أن نفترض أنّ المادة والطّاقة كانتا موجودتين قبل الانفجار العظيم، وأنّه حدث بينهما تفاعل فجائي، فما الذي يميّز تلك اللحظة عن غيرها من اللّحظات في الأزليّة؟ والأبسط أن نفترض خلقاً من العدم، أي ابداعاً قامت به الإرادة الإلهية للكون من العدم.).

والمهم هو أنّ الاتّجاه العلمي المعاصر، بات يتقبل هذا الدّليل القرآني البسيط. يتقبّل أن تكون لكلّ شيء علّة وسببٌ للوجود. ويسلّم بوجود الله الذي شاء أن يخلق هذا الكون، فأبدعه وأنشأه، فكان العلّة والسبّب الأساسي لوجوده (عالم المعرفة ـ العدد ١٣٤).

٥ ـ دليل الغائية والتّكامل:

وفي سورة ابراهيم نفسها، وابتداءً من الآيات (٣١) أدلت الآيات بدليل آخر متعدّد العناصر وبالأسلوب العلمي المعاصر في الاستدلال، الذي يثبت للعقل وجود الله الخالق المُبدع والهادف أيضاً. أقول أدلت هذه الآيات بدليل تجاوز أسلوبه في البرهنة والاستدلال مرحلة أسلوب الأسلاف من علماء القرن التاسع عشر، الذين كانوا يَعْزَون وجود كلّ شيء إلى عُنصري الضّرورة والمصادفة، مُنطلقين من اعتقادهم بأزليّة المادّة وخضوعها لقانون النّشوء والارتقاء في جميع أطوارها، وقد ارتكز هذا الدّليل إلى توضيح نقطتين هامتّين: الأولى هي أنّ جميع الظّواهر دالّةٌ على أنّ خلق كل شيء من أشياء هذا العالم كان هادفاً. والنّقطة الثانية هي أنّ كُلّ شيء في هذا الكون يُكمل المقصد والهدف الأصلي لخلق هذا الكون. لذلك تَراني اصطلحت لهذا الدّليل عُنوان دليل الغائيّة والتّكامل.

وقد أدلت الآيات بهذا الدّليل العلمّي الهام بعد أن فرغت من الكلام عن الأنبياء السابقين، ومواقف أقوامهم منهم، وماتبعه من أمور. وقد جاء هذا الدّليل العلمّي اثباتاً أيضاً كون هذا الإله الخالق هو عالم الغيب والشهادة. وليثبت من خلال الإدلاء بهذا الدليل صلاحيّة القرآن الكريم لكلّ زمان ومكان.

وهاهو قد أدلى بدليلٍ أسلوب طرحه نفس أسلوب علماء القرن العشرين العلمّي في البرهنة والاستدلال.

وقد أتى الدّليل يُبرهن على وجود الله تعالى بنفس أسلوب هؤلاء العلمي المتعدّد العناصر، المستند إلى مختلف مُعطيات علومهم أيضاً.

وقد جاء في الآيات من سورة ابراهيم التي اشتملت على هذا الدّليل قوله تعالى: ﴿ **الله الذّي خلق السّموات والأرض، وأنزل من السّماء ماءً فأخرج به من الثّمرات رزقاً لكم، وسخّر لكُمُ الفُلك لتجري في البحر بأمره، وسخّر لكم الأنهار. وسخّر لكم الشّمس والقمر دائِبيْن وسخّر لكم اللّيل والنّهار. وآتاكم من كل ماسألتموه، وإن تعدّوا نِعمة الله لاتُحصوها، إنّ الإنسان لظلومٌ كفّار.**﴾.

ولنلاحظ أوّل مانُلاحظ أنّه جلّ شأنه لم يُقل ﴿ **الله الذي خلق السماء والأرض**﴾. بل أتى بصيغة الجمع للسّماء أي (السّموات). على شاكلة مافعله في الدّليل الأوّل الذي قال فيه (فاطر السّموات والأرض). و لم يفعل ذلك دون حكمةٍ ومقصد. بل جاء به كذلك لتنبيه أذهان علماء عصرنا، هؤلاء الذين بَرعُوا في علوم الفلك، إلى أنّه تعالى يتكلّم، وهو يعلم بما تشتمل عليه السّماء من فوقهم، فهي ليست سماءً بل سموات، أي ليست هي صفوفٌ من النّجوم الظاهرة للعيون، بل هي سماوات مُتراكبة ملأى بالكواكب والنجوم والمجرّات.

والله عز وجلّ، بعد أن طرح مقولته هذه من خلال قوله: ﴿ **الله الذي خلق السموات والأرض..**﴾ بمعنى أنّ هذا الكون المادّي مخلوقٌ، وأنّ خالقه هو الله عالم الغيب والشهادة، أقول: بعد أن طرح تعالى مقولته هذه أخذ يبرهن على صحّة مقولته. فلمّا انتهى منه، أنهى دليله العلمي هذا المتعدّد العناصر، بألفاظٍ مؤثّرة بليغة وهي: ﴿ **إن الإنسان لظلومٌ كفّار..**﴾. تنبيهاً لعقول علماء القرن العشرين خاصة، هؤلاء الذّين تكشّفت لهم مُختلف العلوم، فلم يستفيدوا منها حقّ الاستفادة، و لم يؤمنوا عن طريقها حقّ الإيمان، فيؤوبوا إلى خالقهم بصورةٍ عمليّة. فحقّ قول الله عليهم خاصّة ﴿ **إنّ الإنسان لظلومٌ كفّار**﴾.

والأمر الأوّل الذي تناوله هذا الدّليل، هو التنبيه إلى أنّ خلق الله تعالى للسّموات والأرض ماحدث عبثاً، بل جاء يستهدف خلق الأرض وإقامة الحياة على سطحها، وخلق الإنسان فيها. وهذا التّنبيه للأذهان تحقّق من خلال قوله

تعالى بعد ذلك بالتّتابع ﴿**رزقاً لكم**﴾ ﴿**وسخّر لكم**﴾ ﴿**وآتاكم من كلّ ماسألتموه**﴾. والمقصود من هذه العبارات أن وجود الإنسان، وأسباب استمرار حياته على سطح الكرة الأرضية، كان هو محور هذا الخلق كلّه.

وقد جاء هذا التنبيه إلى هذه الحقيقة لينقل ذهن العالم المفكّر إلى أمورٍ علميّةٍ هي أوسع وأشمل بكثير ممّا ينتقل إليه ذهن الإنسان العاديّ.

جاء هذا الأمر لينتقل ذهن عُلماء القرن العشرين المُعاصرين، دون علماء القرن التّاسع عشر الذين لم يكونوا قد اطّلعوا على نظريّة آينشتاين، أو عرفوا الذّرة وتفاعلاتها، أو كشفوا علم تفجير الذّرة وماإليها، ولاكانت للفيزياء النوويّة وفيزياء الكمّ في زمنهم من وجود.

إنّ الله عز وجل، وهو قد انطلق في دليله هذا من أنّ خَلْقَهُ لهذا الكون كان هادفاً خلق الحياة والإنسان في ظلاله. هذا الأمر الذي أشار إليه من خلال تعابير (رزقاً لكم) (وسخّر لكم) (وآتاكم من كلّ ماسألتموه). أقول: إنّ انطلاقه تعالى من هذا المُنطلق، يحثّ ذهن العالم الذي يعيش في عصرنا لمراجعة ماتوفّر له من معلومات حتى اللّحظة، وكيف مهّد الله تعالى لخلق الحياة وخلق الإنسان إبداع هذه السّموات والأرض، بل سخّر لتحقيق ذلك المقصد العظيم هذا الكون العظيم الذي لم تُدْرك نهايته بعد وحدوده.

فالله تعالى، وقد خلق هذا الكون أصلاً من عُنصرٍ واحدٍ هو الهيدروجين على ماثبت علميّاً. فقد تطلّب ذلك الأمر تحويل عنصرَ الهيدروجين هذا إلى عناصرٍ مُتعدّدة. وقد اقتضى هذا التّحويل، من الوجهة العلمية احتراقاً نوويّاً حراريّاً رهيباً، أي احتاج إلى مفاعلات تحوّلُ العُنصر إلى عناصر أثقل من الهيدروجين . واستدعى ذلك أن تكون هذه المُفاعلات من الضّخامة، بحيث تصلح لمثل هذا الاحتراق النوويّ الحراريّ.

وعلى ضوء هذه الحقائق، بإمكان عالم عصرنا أن يُدرك سرّ وحكمة خلق الله تعالى لهذه الأعداد الهائلة التي لاحصر لها من النّجوم والشّموس، وهي تفوق في حُجومها حجم شمس سمائنا المعروفة بمئات وألوف المرّات.

فبإمكان عالم عصرنا أن يُدرك على حسب التّنبيه الذي نبّهت إليه ألفاظ هذا الدليل أنّ حكمة خلق الله للحياة والإنسان على سطح كوكبنا الأرضي اقتضت منه تعالى خلق هذه النّجوم كمفاعلات ضخمة، تُحوّل عنصر

الهيدروجين داخلها إلى عناصر أثقل منه كالهليوم والكربون والأوكسجين والسليكون والحديد وسائر عناصر المادّة الكونيّة. فالعالم المُعاصر يحثّه علمه لإدراك واستيعاب مغزى ودلالة قوله تعالى في بداية آيات هذا الدّليل العلميّ ﴿الله الذي خلق السّموات والأرض﴾، هذه الكلمات التي تعني أنّ عمليّة خلق الله الحياة والإنسان، اقتضت منه تعالى أصلاً خلق هذه السّموات والأرض على حالتها الحاضرة. وإنّ عظمتها لتثبت أصلاً وجود خالقها الذي لايُحدُّ علمه، ولاتقف قُدراته عند حدود. فالله عز وجلّ هو الذي خلق هذا الكون على هذه الشّاكلة، و لم يُخلق هذا الكون مُصادفةً من تلقاء نفسه.

فحين يتدبّر عالم عصرنا قوله تعالى بعد ذلك: ﴿**وأنزل من السّماء ماءً فأخرج به من الثّمرات رزقاً لكم.**﴾ يفطن إلى أن الله عز وجلّ جاء يضيف إلى العنصر المذكور من دليله الذي يحاول به إثبات وجوده، عُنصراً هامّاً جديداً. وكأنه يقول: إن نحن افترضنا أنّ الهيدروجين قد اتّحد بالأوكسجين مُصادفةً، فتكوّنَ من اتّحادهما كيميائياً هذا الماء السّائل. أفلا تُلاحظون كيف أنّ هذا السّائل قد خَضَعَ لقوانين مكّنته من التبخُّر، فالتّجمع في السّماء على هيئة غيوم، لاتلبثُ أن تتحوّل ثانيةً إلى ماء، إذا ماسّ الأرض الموات أحياها، فجاءت بفضله بمختلف الثّمرات ﴿**رزقاً لكم**﴾؟

وهنا يستعيد هذا العالم في مخيّلته مُختلف التجارب والأبحاث التي قام بها العلماء لمعرفة الأساس الذي بُنيت عليه نشأة الحياة فوق سطح كوكبنا الأرضي. هذه التّجارب التي عجزت حتى اللّحظة في الكشف عن هذا السرّ الدّفين الذي يكشف كيف نشأت الحياة على سطح كوكبنا الأرضي.

ويفسّر سرّ عدم عثورهم حتى اللّحظة على أثرٍ للحياة على سطح كوكب آخر سواه. هذا السرّ الدّفين الذي لو وَضَحَ لكانَ ساعد العلماء على معرفة الكيفيّة التي تولّدت بها جميع نباتات وثمار وحيوانات هذه الأرض، وتولّد الإنسان نفسه أيضاً. هذه الأمور التي لم تفسّر حتى اللّحظة تفسيراً علميّاً مقنعاً.

فالله عزوجل إذ أضاف قوله تعالى: ﴿**وأنزل من السّماء ماءً، فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم**﴾ كأنّه قال بألفاظٍ أخرى أن افرضوا أنّ هذا الماء السّائل تبخّر من نفسه، وأدّت المُصادفة إلى تكّون الأمطار وسقاية الأرض الموات نتيجةً لذلك، فكيف يتأتّى للإنسان أن تستمرّ حياته ونسله دون توفير رزقه من

الثّمرات المحتوية على أنواع الفيتامينات والنّشويات والبروتينات الضرورية لاستمرار حياته؟ أفلا يدلّ إنبات هذا الرّزق المتنوّع على أنّ ماحدث، إنما حدث بتخطيطٍ وقُدرةٍ وعلمٍ من خلق إله خالق قد قصد إلى توفير رزقكم قصداً؟ فهذه هي دلالة هذا العنصر الثاني المضاف لهذا الدليل العلمي الهام الذي صرّح به قوله تعالى: ﴿**وأنزل من السّماء ماءً فأخرج به من الثّمرات رزقاً لكم.**﴾. فهذا عنصرٌ جديدٌ يؤكّد وجود خالقٍ للسّماوات والأرض، وموجدٍ لهذا النظام لتوفير رزق الإنسان وسواه. وهذا العُنصر الجديد يُعين العالم المعاصر على استيعاب بقيّة العناصر التي اشتمل عليها هذا الدليل الذي أوردته آيات سورة ابراهيم للاستدلال على وجود الخالق عز وجلّ.

فهذا يسهّل على هذا العالم أن يُدرك العنصر الجديد الذي أضافه قوله تعالى: ﴿**وسخّر لكم الفُلك لتجري في البحر بأمره.**﴾، والذي يُلفتُ من خلاله الأذهان إلى أنّ هذا الماء السّائل الذي تولّد عن اتّحاد الهيدروجين بالأوكسجين، كان قد غطّى أكبر قدرٍ من سطح الأرض، وكان يُتوقّع أن تؤلّف هذه المساحات الشاسعة من الأرض المغمورة بالمياه حواجز تحول دون اتّصال الناس بعضهم بالبعض الآخر، لولا ن ألْهَمَ الله الخالق خلقه أن يتخذوا الفُلك التي تجري في البحر بأمره. بعد أن وفّر جل شأنه لهم جميع مايدخل في صُنع هذه الفلك، ذلك لتنقلهم من مكان إلى مكان، فوق سطح هذه المساحات الشّاسعة من مياه البحر، وكأنه تعالى شاء أن يقول: فهل يُعقل أن تزعموا بعد هذا كلّه أنّ كلّ ذلك قد حدث مصادفةً واتّفاقاً؟

وبإمكان هذا العالم المعاصر أن يدرك العنصر الجديد المُضاف إلى العناصر السابقة من هذا الدّليل العلمي، هذا العنصر الجديد الذي تضمّنه قوله تعالى بعد ذلك: ﴿ **وسخّر لكم الأنهار**﴾. فهو يُعيد إلى ذاكرته الوظيفة التي تؤدّيها الأنهار والخدمات لصالح البشر، خلال مُختلف الأزمنة والأمكنة، الأمر الذي بات معلوماً من أكثرية المثقفيّن.

ولم تنشأ الحضارات أصلاً إلاّ على ضفاف الأنهار. وقد مضى الشعراء والأدباء يقولون: مصر هبة النّيل، ودمشق هبة بردى، وهكذا دواليك.. وكأنّه جلّ شأنه عندما أضاف قوله تعالى: ﴿**وسخر لكم الأنهار**﴾ قد أراد أن يتساءل الخلق: كيف يمكن أن يكون الحال، لو لم تكن هذه الأنهار في عالَمَ الأرض؟ فهل

كان تسخير الأنهار في خدمة الخلق من باب المصادفات؟ بل هل يُعقل إلاّ أن يُعدّ هذا ثمة عنصراً جديداً يؤكّد وجود الخالق الهادف لإيجاد الحياة والإنسان، وليساعد جميع ذلك على استمرارية الحياة الإنسانية؟

وقد أضاف تعالى إلى عناصر دليله التي ذكرناها عنصراً جديداً مزيداً من خلال قوله بعد ذلك: ﴿**وسخّر لكم الشمس والقمر دائبين.**﴾. أي أوَلَيسَ هذا النظام الشّمسي أعظم برهان على وجود الله عز وجلّ الذي كان يهدف من إيجاده استمرار الحياة الإنسانية؟ فهل أتى هذا النّظام من قبيل المصادفة أيضاً؟

وأراد الله تعالى بهذا العنصر الجديد أن يُثير عقول علماء عصرنا، ليفكّروا كيف تستمر الشّمس وتدأب على إضاءة كوكبنا الأرضي، لتدفئته فتكون عاملاً على بعث الحياة فيه باستمرار. بل كيف يدور القمر دورته المعروفة مُستمّداً نوره من الشّمس، فيتراءى للنّاس بدراً فهلالاً، ثم يغيب ليعيد سيرته، فيتغنّى به العُشّاق والشعراء في كل زمان ومكان.

يستعيد هذا العالم المعاصر ماتوصّل إليه علماء عصرنا عن الشّمس، فيدرك أنّما هي مفاعل نوويّ حراريّ عظيم، بل وعظيم جدّاً، يُنتج الطاقة الشّمسية المستمرّة الدّائبة العطاء، وذلك من خلال تحوّل العناصر النوويّة داخله. تحوّل الهيدروجين إلى هليوم، فيولّد الطّاقة والضّوء.

هذا في حين كان كيميائيو القرن التاسع عشر يعتبرون الشّمس لُغزاً من الألغاز حيّر العقول. فلم يكونوا يعرفون من الطّاقة إلاّ الوقود التّقليديّ. علماً بأنّ الاحتراق الكيميائي العادي لم يصلح تفسيراً لطاقة الشّمس، إذ لو كانت الشّمس كلّها فحماً، لاحترقت وفنيت في غضون ثلاثمائة عام. فقد ظلّت هذه الشّمس لُغزاً في أعينهم، إلى أن تمكّن الفيزيائيّان (هانزبيته وكارل فون فايتزساكر) عام ١٩٣٨ من تقديم تفسير كامل لكيفيّة توليد الشّمس للطّاقة والضوء، فهل يستسيغ عقلنا أن يحدث هذا النّظام الشّمسي مُصادفة دون تخطيطٍ من خالقٍ قدير؟

وهذا النظام الشمسيّ لايُعوّل عليه في توليد الطاقة والضوء وحسب. بل يُستفاد منه لإبراز نظام آخر يرتكز إليه، وهو نظام اللّيل والنّهار. وهو عُنصرٌ جديد في هذا الدّليل العلمي، عبّر عنه تعالى بقوله: ﴿**وسخّر لكم اللّيل والنّهار**﴾. ولايحيط علماً بقيمة هذا النّظام إلاّ العلماء الذين أدركوا ماهذا النّظام

من مهام موكلةٍ إليه لخدمة الإنسان والحيوان والنّبات أيضاً، ممّا يجد المرء تفاصيله في بُطونِ الكتب التي ألفّها العلماء بما يختصّ بهذا النّظام أيضاً.

والله عز وجل وقد أضاف هذا العنصر الجديد إلى دليله العلميّ، كأنّه جاء يسأل: وهل يمكن أن يحدث هذا النّظام الدّقيق، بفوائده المعلومة من قبيل المصادفة، أللّهم إلاّ أن يكون هذا من تصميمِ خالقٍ يعلم حاجات هذا الإنسان المخلوق التي تفيد في استمرار حياته وبالتالي تعينه على تحقيق المقصد من خلقه؟

فلّما أراد جلّ شأنه أن يفحم الجاحدين لوجوده وخلقه الهادف، أضاف قائلاً: **﴿وآتاكم من كلّ ماسألتموه، وإن تَعُدّو نعمة الله لاتُحصوها، إنّ الإنسان لظلومٌ كفّار.﴾**.

فبهذه الألفاظ المُعبّرة أنهى جل شأنه هذا الدليل العلمي المتعدّد العناصر، الذي أدلى به في سورة ابراهيم، ليواجه به علماء عصرنا، ومن ورائهم علماء الفلك الذّين وكأنّ السّماء كُشطت أمام أعينهم فتراكمت من جرّاء ذلك معلوماتهم، وامتازوا بذلك عمّن سبقهم من العلماء. بل عاد هؤلاء العلماء يُقرّون أنّ اجتماع هذه العناصر المؤلّف منها هذا الكون المادّي يستحيل إلاّ أن يَدُلّ على وجود الله الخلاق. لكنّ هذا الدّليل وأمثاله، المستمدّ من عناصر الطبيعة والمتعدّد العناصر، مكّن هؤلاء العلماء من القول بترجيح وجود الله الخالق فقط، لكنّه لم يهبهم اليقين الكامل للتّسليم بوجود الله عز وجلّ.

وقد سبق أن وضّحت المنهج القرآني المتعلق بالاستدلال على وجود الخالق، من أنّه ينقسم إلى أدلّةٍ ترجيحيّةٍ وأدلّةٍ سلوكيّةٍ تهب اليقين الكامل بوجود الله عزوجلّ. وهذا النوع الثاني من الأدلّة سيأتي بيانه بعد الانتهاء من تقديم نماذج من الأدلة الترجيحيّة إن شاء الله العزيز.

والمهمّ هو أنّ هذا القسم من الأدلّة العلمية المتعدّدة العناصر والتي ترجّح وجود الله عزوجلّ، كان الغرض من الإدلاء بها مواجهة التّقدم العلمّي في جميع العصور. ويثبت هذا بلا ريب أنّ تعاليم القرآن الكريم صالحةٌ لكلّ زمان ومكان.

٦ ـ دليل النّظام والمُنظّم:

وفي سورة المُلك أدلى الله عزوجلّ بدليل من النّوع البسيط، تدليلاً على وجوده تعالى حيث قال: **﴿تبارك الذي بيده المُلك وهو على كلّ شيء قدير.**

الذي خلق الموت والحياة ليبلوكـم أيُّكـم أحسـنُ عمـلاً، وهـو العزيـز الغفـور الذي خلق سبع سموات طباقاً ماترى في خلق الرحمن من تفاوت فارْجع البصـر هل ترى من فطور، ثم ارجع البصر كرتيّن ينقلـبْ إليـك البصـر خاسـئاً وهـو حسير.﴾.

ولنتدبّر مفردات هذه الآيات ومعانيها، قـالوا: طبـاق الأرض ماعلاهـا. والسمواتِ طباق أي مُتطابقة بعضها فوق بعض. ومعنى تفاوت الشـيئان: تبـاعد مابينهما واختلفا. فالتفاوت هـو الاختـلاف وعـدم التناسـب، كمـا قـال الفـرّاء. والفطور من فطر الشيء شّقه. وخاسئاً أي ذليلاً. وحسيرٌ من حَسَرَ البصـر: كـلَّ وانقطع من طول المدى.

ويُستدل استناداً إلى هذه المعاني أنّ الله تعالى قـد أراد بقولـه: ﴿ **الـذي خلق سبع سماوات طباقاً.. الخ:**﴾ أراد أن ينبّـه الأذهـان إلى أنّ جميـع مـافي هـذا الكون يخضع لنظامٍ واحد، ذي قوانين واحدة أيضاً. أي أنّه مهمـا تقدّمـت علـوم الفلك، فلن تكشفَ عن أيّة ثُلمةٍ في هذا النظام.

وقد أراد تعالى من هذا التنبيه إلى وجود هـذا النظـام، أراد تقديـم دليـلٍ علمّيٍ أرقى وأقوى من دليل العلّة والمعلول الذي سبق أن بينّاه.

فهو جلّ شأنه لايستدل هنا علـى وجـود الله عزوجـلّ مـن كـون كـلّ شيءٍ مخلوقاً. بل يستدل بالنظام الكوني علـى وجـود المنظّـم الأحـد. فهـو تعـالى ينبّهناً إلى أنّ النجوم والكواكب والسـيارات، علـى ضخامـة كـلّ منهـا، لاتعمـلُ منفصلةً، كلٌّ علي نظام. بل يضمّ الجميع نظام واحد وقوانـين واحـدة. في وقـتٍ تتقاسم هـذه الكُـراة الضّخمـة أعمالهـا وحركاتهـا، في ظـلّ هـذا النّظـام الواحـد والقوانين الواحدة. بالرّغم من أنّ كُلاً من هذه النجـوم والكواكـب والسـيارات، تبدو مستقلّةً إحداها عن الأُخرى. وقد استحثّ ربُّنا عقولَنـا أن تقـف تجـاه هـذه الظّاهرة الكونية وقفة تدبُّر ومراجعة. لتوقن من جرّاء ذلـك وجـود خـالقٍ مُبـدعٍ ومنظّم أيضاً لهذا النّظام الكوني الواحد.

وهو تعالى عندما استحثّ عقولنا من خلال قوله: ﴿ **ثـم ارجـع البصـر كرّتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير.**﴾. دفع هـذه العقـول إلى تقليـب النّظر في الأمر من زوايا مختلفة، وليس من زاوية نظرٍ واحدة.

قال افرضوا أنّ هذا النظام الكوني الواحد، عَرَضَ وجودُه مصادفةً واتّفاقاً. وحاولوا تحليل الكُلّ إلى أجزائه، ومُمعنين نظركم فيه. ودونكم الإنسان مثلاً، فإنّه لايبدو مُنفصلاً عن هذا النظام الكوني، وإن بدا مستقلاً في الوقت نفسه عن هذا النّظام.

فالإنسان الذي لايستغني في وجوده عن الشّمس وضوئها وحرارتها، ولاعن الهواء والماء والغذاء. يبدو مستقلاً من حيث أنّه أُوتي عقلاً وحواسّ متلقّية متناسقة القوانين والأداء، فأيدي الإنسان هي أبرع من الآلة الكاتبة في الكتابة. وعيناه أعظم من جميع آلات التّصوير للرؤية وتمييز الألوان والأشكال. وأنفُه ولَمسه وأرجله وسواها من الأعضاء والحواس، بارعة التلقّي والأداء والتناسق فيما بينها. بل وهب الخالقُ هذا الإنسان عقلاً مُفكّراً يخزن به ماشاء من معلومات.

فالإنسان إذن يدور في فلكٍ كونّي يخضع فيه لِما هو حوله كالشّمس والقمر والهواء والماء والغذاء. كما يدور في فلك نفسه وكيانه الجسمانيّ المؤلّف من الأعضاء والحواس والدّماغ. وعلى شاكلته يُقال هذه حالُ الكواكب والنجوم والسيّارات. والعقل البشريّ لايستسيغ أن يأتي هذا النظام على هذه الصّورة اتّفاقاً وعرضاً. بل يجزم أن يكون قد أتى من إبداع خالقٍ مُنظّم هو على أعلى قُدرة في الخَلقِ والتنظيم.

ثمّ إنّ حواس الإنسان، بالرغم من أنّها تبدو مستقّلةً في حدّ ذاتها، لكنّها في حقيقة الأمر تابعةٌ لما هو كائن في هذا الكون من أشياء. فلاترى العين إلاّ بتوسّط الضّوء الذي يأتيها من الشّمس من على بُعد مئات ألوف الأميال. والأذن لاتسمع إلاّ بتوسّط هواء الجوّ الأرضي، الذي يحمل إلى الأذن مختلف ذبذبات الأصوات، من مختلف الجهات. فحواس الجسم إذن، وإن كانت تبدو مستقلّةً متناسقة فيما بينها، فإنّها في حقيقة أمرها غير مُستغنيةٍ عن النظام الكوني العالمي.

وقوله تعالى: ﴿ **ثم ارجع البصر كرّتين، ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير.** ﴾، يحثّنا أن ننظر من زاويةٍ ثالثةٍ أدقّ. وذلك بأن نتناول الخلايا الحيّة التي يتركّب من مجموعها جسم الإنسان. فلقد تكشّف للعلماء أنّ كُلّ خليّةٍ من هذه الخلايا، تؤلّف عالماً مستقلاً مُنظّماً ومتناسقاً. وهي في الوقت نفسه تخضع للنظام الجسمانّي العام.

فلكلّ خليةٍ من خلايا جسم الإنسان استقلالها ونظامها وتناسقها من جهة، وهي تتبع نظام الجسم الكُلّي من جهة ثانية، فلاهي مُستقلة استقلالاً تامّاً، ولاهي تابعةٌ بصورةٍ مُطلقة.

والمهمّ في الأمر هو أنّ آيات سورة الملك هذه لفتت أذهاننا إلى ظاهرة النّظام الكوني التي ذكرناها، لتقول لنا بألفاظ أخرى: هل تستسيغ عقولكم أن تتأتّى معالم هذا النّظام الكوني مصادفةً واتّفاقاً؟ أفلا تلاحظون أنّ كلّ شيء في هذا العالم إنّما يُرى حلقةً من سلسلةٍ لاتنتهي من السّلاسل التابعة لنظام واحدٍ متناسقٍ لاتصادم فيه بين سلسلة وأخرى؟

وبهذا التنبيه إلى هذا النّظام الكوني الشامل لكلّ شيء في الوجود، يقدّم القرآن حجّةً قاطعة الدّلالة على وجود الله الخالق المنظّم المُبدع، وقد اصطُلح على تسمية هذا الدليل: دليل النّظام والمنظّم.

وعلى شاكلة دليل العلة والمعلول أو السبب والمسبب، فإنّ هذا الدّليل لم يسلم من نقد علماء القرن التاسع عشر الاوربيين الذين زعموا أنّ الكون أزليّ أبديّ. وراحوا يقولون مستهزئين: كيف تكون الشّجرة في الغابة، والحيوانات السّارحة في الصحراوات، والطّيور المحلّقة في أجواز الفضاء، والأفاعي والعقارب والدّواب المؤذية، وديدان الأشجار، كيف تكون جميع هذه الأحياء مسخّرة للإنسان؟ فهذه الأحياء التي ذكرناها لم تكن تخضع في نظرهم لقانون، هذا ماكان عليه مبلغ علمهم في عصرهم.

أمّا علماء القرن العشرين الغربيون فقد تكشّفت على أيديهم ما لم يتكشّف على أيدي أسلافهم من علوم. فهم الذّين تكشّفت لديهم معارف إنجلى لهم بها حتى تركيب الذّرة. وَوُفّقوا لإرسال مركباتٍ فضائيّة، كشفوا بها مجاهل الفضاء. وهكذا بدؤوا يؤمنون بصحّة هذا الدّليل الذّي قدّمه القرآن الكريم من حيث لايشعرون. وأخذت نظرتهم العلميّة الجديدة تكشف لهم أنّه مامن مخلوق في هذا الوجود إلا وهو يخضع للنّظام الكونيّ، فهناك توازنٌ طبيعيٌّ، بإمكان الإنسان الاستفادة منه، وأنّ الإنسان نفسه هو جزء من هذا التّوازن الكونيّ.

وقد عاد هؤلاء العلماء يتلمّسون عُنصراً روحيّاً، إضافة إلى العنصر المادّي في هذا الكون، مُتجاوزين في فهمهم وإدراكهم، مرحلة تفسير الأمور على أساسٍ من مبدأي المصادفة والضّرورة، حتى في الأمور الجماليّة أيضاً.

وأعظم دليلٍ على اندفاعهم على هذا الطريق من الفهم والإدراك، قول آينشتاين المشهور: (لأعِلم من غير الاعتقاد بوجود تناسُق داخلّي في الكون.). فآينشتاين بهذه الألفاظ المعدودة شهد بأنّ هذا الكون يخضع لنظام في جميع أشيائه، وبتناسق فريد. فمن لايرى رأيه هذا، لايمكن أن يكون عالماً، ويبقى علمه قاصراً عن إدراك حقيقة الأشياء.

وقد ظهر من بعده علماءٌ كُثُرٌ، راحوا يرون رأي آينشتاين، كالعالم الفيزيائيّ(ويلر) إذ قال[1] : (إنّ كلّ قانونٍ من قوانين الفيزياء مردّه إلى شيءٍ من التّماثل والتشابه في الطبيعة.) أي أنّه حتّى في مجال الفيزياء، فإنّ قوانينها مُتناسقة، تناسُق سائر القوانين الطبيعيّة ونظامها الكونيّ.

وهكذا فإنّ دليل النّظام والمنظّم الذي طرحه القرآن الكريم في سورة الملك، من خلال قوله تعالى: ﴿**الذي خلق سبع سموات طباقاً، ماترى في خلق الرّحمن من تفاوتٍ، فارجعِ البصر هل ترى من فُطور، ثم ارجع البصر كرّتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير.**﴾، يتراءى هذا الدّليل من حيث قوّة حُجّته، أمضى في الإقناع من دليل العلّة والمعلول، في أمر ترجيح وجود الخالق المُنظّم المُبدع.

ولمّا كانت سورة الملك هي آخر سورة من كُتلة السّور السّبع عشرة التّابعة لمضمون سورة (ق) الذّي يرمز إلى القادر أو القدير، فقد لُوحظ أنّ الآيات هُناك قد تضّمنت دليلاً علميّاً من النوع المتعدّد العناصر، دليلاً يثبت وجود الله القادر على فعل كلّ شيءٍ أراده.

٧ ـ دليل القدرة :

وقدّمت لنا سورة (ق) دليلاً علمياً متعدّد العناصر يثبت وجود الله القدير. واصطلحت له اسم دليل القدرة. عرضت سورة (ق) هذا الدّليل من خلال قوله تعالى: ﴿ **أفلم ينظروا إلى السّماء فوقهم كيف بنيناها وزيّناها ومالها من فُروج. والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وانبتنا فيها من كلّ زوجٍ بهيج. تبصرةً وذكرى لكلّ عبدٍ منيب. ونزّلنا من السّماء ماءً مُباركاً**

[1] ـ المرجع السابق

فأنبتنا جنّاتٍ وحبّ الحصيد، والنّخل باسقاتٍ لها طلعٌ نضيد. رزقاً للعباد، وأحيينا به بلدةً ميتاً، كذلك الخروج.﴾ الملك (٦-١١).

والمدخلُ إلى هذا الدّليل فيه تقريعٌ وتوبيخٌ لأصحاب العقول من العلماء الغافلين عن حقيقة هذا الدّليل. وهذا الأمر عبّر عنه تعالى من خلال استهلاله هذه الآيات بقوله: ﴿ **أفَلَم ينظروا..**﴾ أي ماهؤلاء الذّين يدّعون العلم والفهم، يتجاهلون حقيقةً ماثلةً أمام أعيُنهم، وهي هذه السّماء من فوقهم، وبهذا الأسلوب من التّعبير والطّرح لهذا الدّليل، أكسب تعالى دليله العلمي من قوّة البيان والإقناع بأساً ماكان ليتأتّى بغير هذا الاستهلال.

وقد أتى ربُّنا بهذا الدّليل العلمي مؤسّساً على مُقدّمات مُتعدّدة، وفي كلّ مُقدّمةٍ منها نقاط مُتعدّدة، وعلى أساسٍ علّمي من الملاحظة والاستنتاج. وانتهى من كلّ ذلك إلى نتيجةٍ هي الحقيقة لاريب فيها، وهي إثبات وجود الله الخالق المُبدع القادر على خلق عالمٍ آخر مثيل.

أمّا مقدّمة الدّليل الأولى، فقد اشتمل عليها قوله تعالى: ﴿ **أفَلَم ينظروا إلى السّماء فوقهم كيف بنيناها وزيّناها ومالها من فروج.**﴾. وقد احتوت هذه المقدّمة على نقاطٍ ثلاث: الأولى أوردها تعالى على جهة السؤال، مفعولاً مُطلقاً، وذلك بقوله: (كيف بنيناها..) بمعنى أفلا تُلاحظون أنّ كلّ شيء في السّماء المترامية الأطراف، وقد جاء على نسق، فأكمل بعضه بعضاً، بحيث يؤدي مقصداً مُعيّناً؟ وهكذا بدت السّماء وهي على هذه الشاكلة تؤلّف بناءً كاملاً لاسبيل إلى تجزئته.

والنقطة الثانية عبّر عنها تعالى بقوله: ﴿**وزيّناها**﴾ أي جَعلنا هذا البناء العظيم زينةً لأعين النّاظرين، تستوقفهم وتخلب ألبابهم من روعة جماله وتناسق أجزائه.

وعبّر عن النقطة الثالثة بقوله تعالى: ﴿**ومالها من فروج**﴾ أي لن يجد العلماء في يومٍ من الأيّام، مهما تقدّم العلم وتطوّر، أي خللٍ في النّظام الكوني، بل سيزداد هؤلاء العلماء يقيناً، بأنّ السّماء بناءٌ واحدٌ مُتماسكٌ وهادفٌ أيضاً. وهذا ماتَثبُت به وحدانيّة الصُّنع والصّانع، ووحدانية النّظام والمنظم المُبدع القدير. هذه هي المقدمة الأولى لدليل القدرة العلمي المذكور ونقاطها الثلاث.

أمّا المقدّمة الثانية لهذا الدّليل العلمّي فقد اشتمل عليها قوله تعالى: **﴿والأرض مدَدناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كلّ زوجٍ بهيج تبصرةً وذكرى لكلّ عبدٍ منيب.﴾**. وقد احتوت هذه المقدّمة الثانية على ثلاث نُقاطٍ أيضاً.

النقطة الأولى احتواها قوله تعالى: **﴿والأرض مددناها﴾** بمعنى أفلا تلاحظون كيف بسطنا الأرض فجعلناها صالحةً لحياتكم صلاحاً كاملاً؟

والنّقطة الثانية عبّر عنها قوله تعالى: **﴿وأنبتنا فيها من كلّ زوجٍ بهيج.﴾**، أي أفلا تُلاحظون كيف أنبتنا من هذه الأرض كلّ نباتٍ مُؤلّف من زوجٍ متكاملٍ، سالب وموجب، ليتلاقح ويستمرّ في العطاء، ولتحقيق هدفٍ واضحٍ هو تبصرة المخلوق وذكرى لكلّ عبدٍ منيب؟ أي عبرةً وآياتٍ لكلّ إنسانٍ باحثٍ عن الحقيقة مُستعيناً ببصيرته لاستجلاء أسرارها وخفاياها. فهذه هيَ المقدمة الثانية للدّليل ونقاطها الثّلاث.

وأمّا المقدّمة الثالثة التي يثبت منها وجود الخالق القادر على كلّ شيء، فقد اشتمل عليها قوله تعالى: **﴿وأنزلنا من السّماء ماءً مُباركاً، فأنبتنا به جنّاتٍ وحبّ الحصيد. والنّخلَ باسقاتٍ لها طلعٌ نضيد.﴾**.

وقد اشتملت هذه المقدّمة الثالثة لهذا الدّليل العلمّي على نُقاطٍ ثلاثٍ أيضاً. النقطة الأولى احتواها قوله تعالى: **﴿وأنزلنا من السّماء ماءً مُباركاً.﴾** أي أفلا تُلاحظون كيف أنزلنا ماء السّماء، فأحيينا به الأرض وجعلناه مباركاً يحمل إليها الخير والخصب، فيؤلّف بذلك مادّة الحياة ووسيلتها؟

والنقطة الثانية احتواها قوله تعالى: **﴿ فأنبتنا به جنّاتٍ وحبّ الحصيد﴾** أي أفلا تُلاحظون كيف تولّد عن ماء السّماء المبارك هذا جناتٌ أرضيةٌ ملتفّة الأشجار، وزرعٌ تحصُدون حبّه وتنتفعون بالتغذّي به؟

والنقطة الثالثة احتواها قوله تعالى: **﴿والنّخل باسقاتٍ لها طلعٌ نضيد.﴾** أي أفلا تلاحظون أنّ من هذه الأشجار التي أنبتناها، أشجار النّخيل الباسقات ذات الثمر النّضيد أي الذي ضُم بعضه إلى بعض فكان سائغاً شهيّاً وقد نبت في أرضٍ جافّة جدباء.

وقد نبّه جل شأنه الأذهان أيضاً إلى أنّ جميع ماأنبتناه لم يكن لغواً أو عبثاً باطلاً، بل بدا ومن ورائه حكمة بالغة تجلّت في أمرين اثنين: الأوّل أنّه قُدّر

ليكون النّبت (رزقاً للعباد). والثاني أنّه قد أحيا به بلدةً ميتاً لم تكن تبدو فيها معالم الحياة.

وبعد أن انتهى تعالى من عرض مقدّمات دليله العلمي. هذا الدّليل المرتكز إلى الملاحظة العلمية، نراه قد انتقل، فاستنتج منها مقولةً ثابتةً وهي وجود خالقٍ قادرٍ على كلّ شيء، قادرٌ على إبداع كون آخر بعد وعبّر عن هذه النّتيجة بقوله تعالى ﴿**كذلك الخروج**﴾. وكذلك تعني، أي على هذه الشاكلة تُبعث الأنفس من بعد موتها أيضاً.

فهذا هو الدّليل الثاني الذي أُدلي به بأسلوب الملاحظة والاستنتاج العلميّين. وقد طُرح هذا الدّليل، ليُثبت وجود الخالق ويُجلّي قُدُراته التي لاتقف دونها حدود.

وهكذا قدّم تعالى لنا هذا الدّليل العلمي المتعدّد العناصر، بعد أن مهّد لطرحه بأسلوبٍ علميٍ أيضاً. موجّهاً أذهاننا إلى أنه لايُعقل أن تأتلف وتتساوق جميع هذه العناصر مُجتمعةً على صورةٍ هادفةٍ أيضاً، ويتأتّى ذلك كُلّه مُصادفةً واتّفاقاً. بل لابدّ أن يكون لها مُبدعٌ خالقٌ قادرٌ وحكيم. خصوصاً وأنّه تعالى قدّم دليله القرآني هذا على أسس العلم المعاصرة من ملاحظة واستنتاج. هذه الأسس التي باتت في عصرنا الأساس لجميع ماعرفته البشريّة من علوم. وإنّ أساس الملاحظة العلميّة، اعتمده دليلُنا المذكور من خلال مااستُهلت به الآيات وأسلوبه ﴿**أفلم ينظروا إلى السّماء فوقهم..**﴾، ومن خلال الواوات العاطفة التي استُهلّت بها كل نُقطةٍ من نقاط مقدّمات هذا الدّليل.

وهذا الدليل العلمي الذي جرى عليه علماء عصرنا في صوغ أسلوبهم، إن دلّ على شيء، فإنّما يدلّ على أنّ الله عز وجلّ قد أنزل هذا القرآن لكل زمان ومكان. فعل هذا قبل أربعة عشر قرناً من الزّمان، يوم لم يكن لهذا الأسلوب العلمّي في البحث والاستدلال من وجودٍ مشابهٍ له في زماننا الحاليّ.

وقد سبق لي أن قلت: إنّ الله عزوجلّ لم يكتف بتقديم أدلّةٍ نظريّةٍ تُرجّح وجوده. بل قد قدّم أدلّةً سلوكيّةً أيضاً، اعتمدت التجربة الشّخصية في الوقت نفسه، هذه التجربة التي تثبت لصاحبها وجود الله عزوجلّ، وتبلغ به حدّ المعرفة واليقين بوجوده أيضاً. وهذا ماسيأتي بيانه بعد استكمال تقديم عددٍ مناسبٍ من هذه الأدلّة النظريّة، إن شاء الله العزيز .

ثانياً ـ الأدلّة المستمدّة من أسماء الله الحسنى

١ ـ دليل الله الحيّ:

أدلى القرآن الكريم بسلسلةٍ مُتجانسةٍ من الأدلّة التي يثبت لنا بها وجود الخالق عن طريقٍ حسّيٍ من صلب الوقائع والأحداث، وليس بمجرّد الاستدلال الذهني، على حسب ما كان الأمر في الأدلّة التي سبق أن ذكرناها. وقد جاء عدد جُملة الأدلّة هذه مساوياً لعدد أسماء الله الحسنى. أي أكثر من مائة دليل. أمّا سبب تساوي عدد هذه الأدلّة مع عدد أسماء الله الحسنى، فإنّه يعود إلى أنّ كلّ دليلٍ منها مُستمدٌّ من وقائع وأحداث تُجلّي كلّ صفة من هذه الصفات الإلهية. لذلكَ تحتلُّ هذه السّلْسلة من الأدلّة منزلةً أرفع من الأدلّة التي أسلفناها، على اعتبار أنّ الوقائع والأحداث تدخل في باب المحسوسات، ولاتدخل في باب الاستدلال الذهنيّ، لذلك فهي ليست محلّ شُبهةٍ أو ريبة. خصوصاً وأنّها تحدث وفق منهاجٍ وقانون عامٍ وشامل.

ومّما يمتاز به القرآن الكريم أنّه زاوج بين كلّ منهجٍ وقانون، وبين كل اسمٍ من أسماء الله الحسنى المختصّ به. إنما في المكان المناسب لكلّ عنصُرٍ من عناصره. والذّي يتبقّى على الباحث المتدبّر، أن يجمع بين هذه العناصر ويُبرّزها للعيان.

وهاأنذا أتناول إحدى صفتين تناولتهما سورة آل عمران استدلالاً على وجود الله عزوجلّ، من خلال الوقائع والأحداث. هذه الصّفة التي تضّمنتها أوّل آيتين من هذه السورة، هما قوله تعالى: ﴿ آلم. الله لاإله إلاّ هو الحيّ القيّوم﴾. وهذه الصّفة هي اسم الله (الحيّ).

فقد استدلّت سورة آل عمران على وجود الله "الحيّ" من خلال أحداث ووقائع بعثات موسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين، ومن خلال إنزال التّوراة والإنجيل والفرقان. الأمر الذي شرحته في الجزء الأول من كتابي (حقيقة القراءة المعاصرة مجرّد تنجيم).

فما معنى كلمة الحيّ؟ الحيّ مُعرّفاً بالألف واللاّم هو اسمٌ من أسماء الله الحسنى، ويعني أنّ الله دائم الوجود، لم يزل موجوداً، ولايزال فهو كامل الحيويّة والنّشاط فلا تأخذه سِنةٌ ولانوم. وهو أساس ومصدر الحياة في عالمنا، كما هو أساس نهضة الأمم والشّعوب وتقدّمها في مسار إنسانيّتها.

ذلك لأنّ الأمم تحيا وتموت، على شاكلة الإنسان الذي يحيا ويموت، وإنّ حياة الأمم والأفراد لفعاليّة وتجلّي صفة الله "الحي". هذا ماأفادته عدّة آيات قرآنيّة. ومن هذه الآيات: ﴿تولج اللّيل في النّهار، وتُولج النهار في اللّيل، وتُخرج الحيّ من الميّت، وتخرج الميّت من الحيّ..﴾ آل عمران ٢٧ـ٠ وقوله تعالى في الآية (٥٨) من سورة الفرقان: **﴿وتوكّل على الحيّ الذي لايموت، وسبّح بحمده..﴾**. وقوله تعالى في الآية (١٩) من سورة الرّوم: **﴿ يخرج الحيّ من الميّت، ويخرج الميّت من الحيّ، ويُحيي الأرض بعد موتها..﴾**.

والآن ماهي معالم عناصر المنهج والقانون الذي تتجلّى صفة الله الحيّ من خلالها، بما يتعلّق بإحياء الأمم والشّعوب خاصّة ومن دون بقيّة سائر الأشياء؟

وفي الإجابة عن هذا السؤال يتبيّن لنا من خلال تدبّر كتاب الله الفرقان أنّ هذا المنهج يرتكز إلى خمس نقاطٍ رئيسيّة، هي :

أولاً ــ إنزال الله الحيّ أنظمة وتعاليم تتّصف بالجدّة دوماً، وتلتزم بأسلوب النقاش والحوار الخالي من أيّ إكراه أو ضغط، بعيداً عن أسلوب العُنف والقتل والتّدمير.

ثانياً ـ كلّ نظامٍ من هذه الأنظمة والتعاليم، ينسخ ماقبله من جهة ليأتي بأحسن ممّا نسخه. ويُحيي تعاليم تناساها البشر من جهة ثانية، مادامت هذه التعاليم تصلح لبيئة هذا النظام الجديد.

ثالثاً ـ و لم يستعمل القرآن الكريم لفظي (ثورة وانقلاب) تعبيراً عمّا تحدثه تعاليم النظام الجديد، هذان اللفظان الشائعان في عصرنا، بل استعمل كلمتي (قيامة وساعة) تعبيراً عمّا تحدثه تعاليم كل نظام جديد سماويّ، وهذا الأمر غفل عن الإحاطة به أكثرية المفسّرين.

رابعاً ـ إذا خاض نظامٌ جديدٌ قتالاً، فلايخوض المؤمنون به هذا القتال إلاّ مُكرهين دفاعاً عن كيانه.

خامساً ـ يتحقّق كلّ نظام جديد على أيدي أشخاص يبعثهم الله تعالى لإقامة الأنظمة الجديدة المُرتجى إقامتها. يكون هؤلاء المرسلون صفوة النّاس خلقاً وسيرةً وسلوكاً.

والذي يستعرض تاريخ الأنظمة الرّوحية هذه التي أُسّست على أيدي المبعوثين الذين أرسلهم الله "الحي". لا يلاحظ أنّ أيّ واحدة من تلكم البعثات والأنظمة، قد شذّت عن هذا النهج والقانون ونقاطه الخمس التي ذكرناها.

وهذا مايُثبت وجود الله "الحيّ" الذي يبعث بأولئك الرسل وبالتعاليم والأنظمة التي يزوّدهم بها إحياءً للأمم والشعوب وإنهاضاً لها من كبوتها وانقاذاً لها من تخلّفها وانحطاطها. فشتّان مابين عرب الجاهلية قبل الإسلام، وبين من آمن منهم بالدّين الإسلاميّ، على سبيل المثال.

والمعلوم لدى المفكّرين أنّ كلّ أمّة تسعى إلى النهوض والرّقي والتّقدم، فلابدّ للذّين يتصدّون لإنهاضها وتطويرها وترقيتها، من أن تحمل رسالتهم عُنصرين أساسيين :

الأوّل - أن تحمل رسالتهم أفكاراً جديدة تتناسب ومرحلة الأمة التي تمرّ من خلالها. وهذا عنصرٌ أشار الله عزوجلّ إليه في الآية (١٧) من سورة الرّعد وذلك من خلال قوله تعالى: ﴿ **فأمّا الزّبد فيذهب جفاء، وأمّا ماينفع النّاس فيمكث في الأرض، كذلك يضرب الله الأمثال.**﴾. والمعنى أن الله الحيّ ينبّه إلى ضرورة توفّر عنصرٍ أساسيّ لإنجاح كلّ نظام وتعليم، وهو أن يشتمل هذا النظام والتعليم على مبادىء ثابتة مفيدة للنّاس، وإلاّ ذهب النظام والتعليم واضمحلّ، كما يذهب الزّبد الطّافي على سطح أيّ سيلٍ من السّيول.

الثاني - والعنصر الثاني الذي لابُدّ منه للنّجاح، هو اللّجوء إلى إحدى وسيلتين، لاثالث لهما. الأولى مقابلة المُعارضين بالعُنف، إذا كان لابُدّ من العنف كوسيلةٍ لحماية هذا النظام والتعليم. والوسيلة الثانية اختيار الطّريق السّلمي لإنجاح هذا النظام الجديد وتعليمه، وذلك بالحوار الهادىء والنّقاش وأسلوب الإقناع. وإلى هذا العنصر الثاني الذي لابدّ منه جاءت الإشارة في قوله تعالى من سورة الأنعام : ﴿**ومانُرسلُ المرسلين إلاّ مبشّرين ومُنذرين. فمن آمن وأصلح فلا خوفٌ عليهم ولاهم يحزنون. والذين كفروا بآياتنا يمسُّهُمُ العذاب بما كانوا يفسقون.**﴾.

أي أن أسلوب الله "الحيّ" الذي انتهجه لإحياء أيّة أُمّة من الأمم أو شعبٍ من الشّعوب. هو أن يبعث رسولاً من هؤلاء النّاس أنفسهم، يؤسّس على

يديه النّظام الرّوحي الجديد وتعاليمه بأسلوبٍ سلميّ، أساسه التبشير والإنذار، أي وسيلة الإقناع بطريق الحوار، تبشيراً بالنّظام الجديد المناسب للمرحلة الزمنيّة التي بُعث الرسول فيها بهذا النظام الجديد.

إلى جانب إنذار هؤلاء أنّ النّظام الرّوحي القديم قد استوفى أغراضه. وإلى جانب تبشير المؤمنين بالنظام الرّوحي الجديد الذين يصبغون حياتهم بتعاليمه، أنّ الله الحيّ سيُظلّهم بمظلّة حمايته، ويتولّى الدّفاع عنهم، ويؤيّدهم ببشاراته ونعمائه الرّوحية. الأمر الذي سيدفعهم إلى ألاّ يأسفوا ويحزنوا عمّا فاتهم. وهذا هو معنى: ﴿ **فمن آمن وأصلح فلا خوفٌ عليهم ولاهم يحزنون**﴾. وإلى جانب أنّ هذا المبعوث سينذر، وبلسان الإله "الحيّ" كُلّ من يرفض قبول النّظام الرّوحي الجديد، بأن الله سيُنزل به عذابه، ذلك تأديباً لهؤلاء المُنكرين، وعقاباً لهم على تصّديهم لنظامٍ روحّي أنزله الله "الحيّ" بغرض إحيائهم وإنهاضهم من كبوتهم وتخلّفهم. ذلك أنّ الله تعالى يعتبر هؤلاء الكافرين بنظامه الروحي الجديد أحجاراً ولَبِنَاتٍ لبناءٍ قديم قد تقرّر هدمه وتشييد بناء جديد ليحلّ محلّه.

وقد نبّه القرآن الكريم إلى ضرورة التزام كلّ نظام روحّي جديد بمعطيات هذين العنصرين المذكورين. وذلك من خلال قوله تعالى في الآية (٢٨٦) من سورة البقرة: ﴿**لاإكراه في الدّين قد تبيّن الرّشد من الغيّ..**﴾ بمعنى أنّ كل نظامٍ روحيٍ جديد يعتمد في حقيقة الأمر الأسلوب السّلمي وهو يهدي إلى الرشد تمييزاً إيّاه من الغيّ. ولايعتمد أسلوب العُنف والإكراه الذي لايُجدي في الإقناع.

فهذه هي معالم النقطة الأولى المتعلقة بالنهج الذي اختطّه الله "الحيّ" لإحياء الأمم والشعوب.

أمّا مايتعلق بالنقطة الثانية من هذا المنهاج وقانونه العام. فقد استوفى القرآن الكريم بيانه، وذلك من خلال قوله تعالى في الآية (١٠٥) من سورة البقرة : ﴿**مانَنسخ من آيةٍ أو نُنسها، نأت بخيرٍ منها أو بمثلها، ألم تعلم أنّ الله على كلّ شيءٍ قدير. ألم تعلم أنّ الله له مُلكُ السّماوات والأرض، ومالكم من دون الله من ولّيٍ ولانصير.**﴾. والمقصود بالآية هنا الكتاب السّماوي والنّظام الذي يؤسّسه. يقول الله "الحيّ" أنّه إذا استنفذ أيّ كتاب روحّيٍ أغراضه

ومقاصده، أنزل الله الحيّ نظاماً جديداً يحلّ محلّه وينسخه. فيحُيي من خلال تعاليم النظام الجديد مالايزال من التعاليم صالحاً للعمل به، ومفيداً للمرحلة الجديدة. ويستبدل من التّعاليم التي نسخها ماهو خيرٌ منها وأفضل. ويهدمماابتدعته أهواء الناس.

وقد نبّهنا الله الحيّ إلى قدراته التي تمكّنه من إحداث هذا التّغيير. خصوصاً وأنّه يملك مقاليد السّماوات والأرض، فلا تستطيع قوّةٌ الحيلولة دون إنجاح نظامه الجديد. كما نبّه جلّ شأنه إلى أنّ الذين يقاومون نظامه الرّوحيّ الجديد، لايجدون من دون الله من وليٍ يتولاّهم بعنايته أو نصيرٍ ينصرهم فيما يُنصب لهم من مكايد.

وفيما يتعلّق بالنّقطة الثالثة من منهاج الإحياء الإلهي وقانونه العام الشّامل، وهو أنه تعالى لم يصطلح كلمتي (ثورة وانقلاب) لعمليّة إحلال النّظام الروحي الجديد، بل استعمل بدلاً عنهما مُصطلح كلمتي (الآخرة والسّاعة).

فقد كان السّبب في ذلك أنّه تعالى أعرض عن طريق العنف في مجال بسط نظامه الجديد، واختار الأسلوب السّلمي والذي أداته النّقاش والحوار والإقناع. متيحاً بذلك للإنسان أن يقف الموقف الذي يشاؤه من النظام الروحي الجديد، فيُعاقب هذا الإنسان أو يُثاب.

أقول: اختار تعالى لفظ (الآخرة)، بسبب ماتُحدثه بعثات أولي العزم من رسله من تحوّلاتٍ اجتماعيّة جذريّة في مجتمعاتهم، وبما يشبه مايحدث يوم القيامة من ظهور سماء جديدة وأرضٍ جديدة وبعثٍ للنفوس من جديد. خصوصاً وأنّ كلّ نظام روحيّ جديد ينْسَخُ النّظام السابق له، ويقيم على أنقاضه نظاماً جديداً وعالماً جديداً أيضاً. فاصطلاح كلمة (قيامة) تناسب هذه العمليّة المُعبّرة عن الإماتة والإحياء كُلّ المناسبة.

وإشارةً إلى هذا المُصطلح القرآني، ورد قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ **زُيّن للذين كفروا الحياة الدنيا، ويسخرون من الذين آمنوا، والذّين اتّقوا فوقهم يوم القيامة، والله يرزق من يشاء بغير حساب.**﴾. فليس المقصود بالحياة الدنيا هي مجرّد هذه الحياة، بل إنّ كلمة (الدُّنيا) قُصد بها حياة التخلّف والانحطاط التي يحياها هؤلاء الذين كفروا بهذا النظام الروحي الجديد والذي يحمل تعاليم تفيد في إصلاح أحوالهم وترقيتهم ودفع التخلّف عنهم. ويصف

حالهم هو أنّهم يسخرون من الذين آمنوا بتعاليم هذا النّظام الروحي الجديد، الذّين نجوا من حياة الانحطاط والتخلّف بهذا الإيمان. ويضيف الله تعالى: (والذّين اتقّوا فوقهم يوم القيامة) أي وقضى الله تعالى بفوز أهل النظام الروحي الجديد الذّين اتّقوا أسباب تخلفهم وانحطاطهم من جراء أخذهم بتعاليمه. وتفاجىء تطورات الأحداث الذين كفروا (يوم القيامة) أي زمن قيام قيامتهم وانهزامهم على أيدي المؤمنين. وهذه إشارةٌ كانت هنا إلى ماحلّ بأهل مكّة يوم فتحها على أيدي محمد رسول الله ومن معه من المؤمنين معه، وكيف بات هؤلاء أذلاّء مقهورين. وأضاف تعالى قائلاً: ﴿**والله يرزق من يشاء بغير حساب**﴾ أي والله بيده النّصر يرزقه من يشاء بغير حساب، على اعتبار أنّ النّصر والعاقبة من قبيل الرّزق الإلهي ودعماً للمؤمنين بعدما عانَوه من ذلّةٍ وضعفٍ، ولابدّ أن يجزيهم يوم القيامة أيضاً خير ماعملوه.

ومصطلح لفظ (السّاعة) أورده الله تعالى في سورة القمر، حيث قال فيها: ﴿ **اقتربت السّاعة وانشّق القمر، وإن يَرَوا كُلّ آيةٍ يُعرضوا ويقولوا سحرٌ مستمر.**﴾. وقد أشار بانشقاق القمر هنا إلى دُنوّ ساعة وأجل الحكم العربي الجاهلّي وساعة زواله. ومن شاء التوسّع في فهم ذلك فليراجع (فن الاختزال ـ سورة القمر).

والنقطة الرابعة من المنهج الذي اختطّه الله الحيّ لإحياء الأمم والشعوب، نبّه إليها في الآية (٢١٦) من سورة البقرة من خلال قوله تعالى: ﴿**كُتِب عليكم القتال وهو كُرهٌ لكم.**﴾ بمعنى أنّ نظامكم الرّوحي الجديد الذي اعتمد السبيل السّلمي ولم يعتمد سبيل العنف والإكراه لنشره وتطبيقه. اعتمد النّهج الذي كرّه القتال إلى نفوسكم. ولايعني هذا بحال من الأحوال أن تستسلموا للذين اعتمدوا عليكم، اعتدوا عليهم بمثل مااعتدوا عليكم، حفظاً لكيانكم، هذا بالرغم من ايثاركم سبيل السّلام والحوار والنّقاش، وقد كتب الله تعالى أن تقاتلوا الذين يقاتلونكم، بالرغم من أنّ القتال هو كُرهٌ لكم.

وفي الآية (٢٥٦) من نفس سورة البقرة، قال تعالى: ﴿**لاإكراه في الدّين قد تبيّن الرُّشد من الغيّ..**﴾. ونبّه تعالى بذلك إلى أنّ النظام الروحي الجديد قد اختطّ عدم إكراه الناس على قبوله، بل اعتمد الحوار والحجّة والبُرهان.

فهذا هو السّبيل الذي يتميّز به النّظام الرّاشد، عن سبيل الغيّ. أي عن سبيل الجهل والضلاّل.

وقد وصف الله تعالى من يُخالف هذا النّهج الإسلامي بقوله تعالى في الآية (١٤٦) من سورة الأعراف: ﴿ **وإن يروا سبيل الغيّ يتّخذوه سبيلاً..** ﴾ وفي الآية ٢٠٢ منها قال: ﴿**وإخوانهم يُمدّونهم في الغيّ ثم لايُقصّرون.**﴾.

وقد وضح سبحانه وتعالى الغاية من الحرب والقتال هذه التي يدفع المؤمنين إلى خوضها في الآية (١٩٠) من سورة البقرة: ﴿ **وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولاتعتدوا..** ﴾. وفي الآية (٣٩) من سورة الحجّ قال: ﴿ **أذن للّذين يُقاتلون بأنّهم ظُلموا وأنّ الله على نصرهم لقدير.** ﴾. وفي الآية الثامنة من سورة المُمتحنة : ﴿**لاينهاكم الله عن الذّين لم يقاتلوكم في الدّين، ولم يخرجوكم من دياركم، أن تبرّوهم وتُقسطوا إليهم..**﴾.

وتتعلّق النّقطة الخامسة والأخيرة للنهج الإلهي بالمبعوثين من الناس المُكلّفين، بحمل رساله هذا النّهج الإلهي، ولإخراجها إلى حيّز الواقع والتّنفيذ، وقد تضمنت هذه النّقطة الخامسة الآية التي سبق أن أوردناها، وهي قوله تعالى: ﴿**ومانُرسل المرسلين إلاّ مُبشّرين ومُنذرين.. الخ**﴾.

والسؤال المطروح هنا: كيف تتمّ عمليّة اصطفاء المُرسلين؟ وقد أجاب تعالى عن هذا السؤال من خلال قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿**وإذ قال ربُّك للملائكة إنّي جاعلٌ في الأرض خليفة..**﴾. وقد أشار الله الحيّ في هذه الآية الكريمة إلى احتياج العقل البشريّ إلى معونة الوحي السماوي، ليستمدّ العقل عن طريقه سبيل الهُدى والرشاد، ليساعد ذلك على نقل وتطوير البشر إلى حياةٍ أفضل. فهذا الأمر استدعى منه تعالى أن يصطفي خليفةً له من هؤلاء الناس ليخلفه في عمليّة إصلاحهم وتبين نهج الهُدى والرّشاد.

وقد قصد من لفظ (خليفة) عدّة أمور منها :

أولاً ـ أنّ الذي هو مؤهّل لمنصب خلافة الله في الأرض، لابدّ له أن يكون من صفوة النّاس. وهذا هو سرّ خطابه جلّ شأنه لرسوله محمد (ﷺ) : ﴿ **ألم يجدك يتيماً فآوى.** ﴾. والمقصود هُنا يتيم دهره، وليس يتيم الوالدين، وإنّ إيواءه، هو القيام بإسناد أرفع منصب يستحقّه وهو منصب حمل رسالة السّماء.

ثانياً ـ وا لله وهو عالم الغيب والشّهادة، فقد كان في سابق علمه من ستُسْنَدُ إليه الرّسالة، لذلك رعاه منذ نعومة أظفاره بفضله وكرمه إلى أن بلغ به المستوى اللاّئق لحمل هذه الرّسالة. وإلى هذه الحقيقة أشار ا لله عزوجل من خلال خطابه إلى موسى عليه السلام بقوله: ﴿**ثم جئت على قَدَرٍ ياموسى. واصطفيتك لنفسي إذهب أنت وأخوك بآياتي، ولاتَنيافي ذكري. اذهبا إلى فرعون إنّه طغى.**﴾. أي أنّ موسى كان مشمولاً برعاية ا لله وفضله الخاص قبل إسناد الرّسالة إليه. وإشارةً إلى هذا المعنى نفسه ورد لفظ (سوّيته) عن آدم في سورة الحجر. على شاكلة الأرض الزراعية التي تُسوّى قبل أن تُغرس وتُستثمر.

ثالثاً ـ وبعد عمليّة التّسوية، تأتي عمليّة النفخ في الرّوح ﴿**ونفخت فيه من روحي.**﴾. وهي مرحلةٌ تعليميّة لمبادىء الرسالة وتعاليمها التي يُكلّف بها هذا المبعوث السّماوي. وهي مبادىء وتعاليم تأتي نابعةً من احتياجات المرحلة التي يمرّ بها البشر أو قوم من الأقوام في فترة زمنية من الزمان. وإليه أشار قوله تعالى: ﴿ **ولايحيطون بشيء من علمه إلا بماشاء..**﴾. لذلك تختلف درجة وأُطُر النَّفخ في الرّوح من مُرسل إلى آخر تبعاً لمقتضيات الزّمان والمكان. فآدم على سبيل المثال لم يتلّق إلا مبادىء أولية لحياةٍ تعاونية. على حين أنّ ماتلقّاه محمد (ﷺ) من مبادىء وتعاليم نزل يصلح لكل زمان ومكان.

ويُلخّص دليل اسم ا لله (الحيّ) في أنّ الإنسان إذا نظر بمنظار الأنظمة الروحيّة ومنهجها الموحّد وقانونها العام. تلك الأنظمة التي تؤلّف حلقات سلسلةٍ واحدة، وصادرة عن مصدر واحد هو ا لله "الحيّ"، وذلك على حسب ماأفاد به جميع من بُعثوا بهذه الرّسالاُت الرّوحية التي ساعدت على تطوير البشر من زمن سُكنى الكهوف وبطون جذوع الأشجار، إلى زمن سُكناه في السّهول وإقامته وجعله متحضّراً وتعرُّفه خالقه وسبيل التقرّب إليه.

أقول: إنّ هذا الإنسان المتأمّل معالم حلقات هذه السلسلة من الرسالات التي تمتّد في الماضي الغابر السّحيق إلى قُرابة عشرة آلاف عام. لايَسعه وهو يبحث عن الحقيقة إلاّ أن يُقرّ بوجود الإله (الحيّ الذي لايموت)، هذا الإله الذي يهب البشر الحياة من جديد، كلّما تقدّم بهم الزمان، وتدنّت أخلاقهم وتفسّخت، وانحطّت معايير سلوكهم.

فإذا نظر الإنسان المحقّق من نفس هذا المنظار إلى كل إسمٍ من أسماء ا لله الحُسنى، وتتبّعه وفق النّقاط الخمس التي احتواها منهاج إحياء ا لله تعالى للشعوب المُتخلّفة وقانونه العام، فلابُدّ أن تتوفّر لديه أدلّةٌ كثيرة يثبت منها وجود ا لله عزوجل، بقدر عدد أسمائه الحسنى التي أوردها القرآن الكريم بين ثنايا آياته المُقدّسة.

٢ - دليل الله العزيز

دونكم صفة ا لله العزيز مثالاً آخر للاستدلال الحّسي على وجود ا لله عزوجلّ الذي يملك هذا الكون ويدبّره بمحض إرادته ومشيئته. على اعتبار أنّ صفة العزيز تعني لغةً : الملك الغالب على أهل مملكته، والقويّ الذي ليس فوقه قويّ، والعزيز الذي ذلّ لعزّته كلّ عزيز.

فلنتدبّر كتاب ا لله العزيز، ونُتابع منهج عمل وتجلّي صفة العزيز من خلال آي الذكر الحكيم. يتراءى لنا أنّ ا لله العزيز لايُعامل عباده على أنّه مالكهم والمتصرّف بهم، على شاكلة مايفعله ملوك الأرض. فهو لايتجلّى بصفته العزيز إلا مقرونة بصفة سامية أخرى معها، ووفق منهجٍ وقانون.

فتارةً يتجلّى على أنه "العزيز الحكيم"، وهي الحالة الغالبة على تجليّاته. وتارةً أنّه "العزيز الرحيم" أو "العزيز الغفور" أو "العزيز الحميد" أو "عزيز ذو انتقام" بمعنى الملك الذي يُنزل بالمجرمين عقابه الشديد.

ونعود معاً إلى معاجم اللّغويين، نستطلع معاني "العزيز والحكيم والحميد والغفور وذو انتقام". قال صاحب المقاييس: العزيز من عزّ أي ندر وُجوده وغلب وقَهر. وهي صفة تدلّ على الشّدة والقوّة والنّدرة. فالعزيز هو الذي لاتكاد توجد قُوّة تقدر على مغالبته. تقول : عزّه على أمرٍ إذا غلبه على أمره والمعازّة هي المغالبة. تقول عازّني فعززته، أي غالبني فغلبته، وقال تعالى (فعززنا بثالث) أي دعّمنا وقوّينا الأمر بثالث.

وقال صاحب محيط المحيط، العزّة مصدر تعني الغلبة والمناعة. فالعزيز هو المنيع الذي لايُنال ولايُغالب ولايُعجزه شيء ولامثيل له. وهو الشريف والقويّ والقليل النادر والمُكرّم والملك لغلبته على أهل مملكته. والعزيز اسم من أسماء ا لله الحسنى.

أي أنّ للعزيز خمسة معان رئيسيّة، هي : الأول: معنى النّادر الذي لايكاد يوجد له مثيل. الثاني : المنيع الذي لايُنال ولايُغالب ولايُعجزه شيء، فهو المقتدر. الثّالث : الملك الغالب على أهل مملكته، فهو القويّ الذي ليس فوقه قويّ. الرّابع : الشريف المُعزّز المُكرّم الكريم الوهاب.

والمعنى الخامس : أو العزيز إلى ذلك كله اسم من أسماء الله الحسنى.

ولّما كانت صفة العزيز لاتتجلّى بمفردها لِرهبة ماتؤدّي إليه. وكانت تتجلّى مقترنةً بإحدى الصّفات التالية: الحكيم أو الرحيم أو الحميد أو الغفور أو ذو انتقام. فلنراجع معاني هذه الصفات في معاجم اللغويين :

الحكيم من الحكمة، وهي صفة تمنع من الجهل، وتعني العدل والعلم والحلم والكلام الموافق للحقّ. فالحكيم هو العالم صاحب الحكمة والمُتقن للأمور. ولايُسمّى حكيماً إلاّ من جَمَعَ بين العلم والعمل. ويُجمع هذا اللفظ على حُكماء والحكيم هو صاحب الحجّة القطعيّة، بمعنى البرهان.

والحميد من كان كامل المحامد : يُنزل كامل المبادىء والتّعاليم، ويصبغ بصبغته، وينصر بتأييده، فلاأحد سواه يستحّق هذا الحمد، فهو الرّب العزيز الحميد. وهو إلى ذلك اسمٌ من أسماء الله الحسنى.

والرّحيم من رَحِمَه أي رقّ له وتعطّف. والرّحمة هي إرادة إيصال الخير ودفع الشرّ. وقيل هي من صفات الفعل أي إيصال الخير ودفع الشرّ. وذكر الإمام الرّازي أنّ الله رحمن، على اعتبار أنّ الجود هو إفادةُ ماينبغي ولالغرض. وإنّ كل ماعدا الله يُعطي ليأخذ عوضاً. والرحيم اسم من أسماء الله الحسنى أيضاً.

وهو ذو انتقام من نقم. نقول نقم منه، وانتقم أي عاقبه. وفي سورة الأعراف : (وماتنقُم منّا إلا..) أي ماتطعن فينا وتقدح، والنِقمة اسم من الانتقام، وهي تضمّ إلى الكراهة السُّخط، فهي المكافأة بالعقوبة. ومعنى "ذو انتقام" صاحب الأمر الذي يملك حق إنزال العقاب، وهو الله عزوجلّ.

وانطلاقاً من المنهج والقانون الذي بيّناه، والذي تتجلّى صفة الله العزيز، من خلاله صفةً مُقترنةً بصفات الحكيم والرحيم والحميد والغفور وذو انتقام، نحاول على ضوء ذلك تحسّس تجليّات الله العزيز وعلى ضوء تاريخ مُجريات أحداث البشر في منطقتنا بالذّات.

وثمة سؤال يطرح نفسه هنا، وهو كيف يتجلّى الله تعالى بصفاتٍ تبدو في ظاهرها مُتضادّة : ففي الوقت الذي يكون الله رحيماً وغفوراً، يكون ذا انتقام أو شديد العقاب. كما يكون خلاّقاً ومُميتاً. فما تأويل هذا التضّاد الظاهريّ؟

وللإجابة عن هذا السؤال أقول : إنّ من لم يُحط علماً بمنهج وقانون تجلّي كلّ صفة من صفات الله تعالى، يستحيل عليه تأويل مثل هذا التضادّ الظاهري. ذلك أنّ لتجلّي كلّ صفة إلهية منهاجَ عملٍ وقانوناً. وهذا الأمر إن دلّ على شيء، فإنّما يدلّ على عظمة الله وماتتّصف به ذاته من صفاتٍ وأسماء، تعمل بما يُذهل العقاب الشديد.

من هذا ندرك السرّ الكامن وراء ظهور أمرين متضادّين ظاهراً. ففي حين نلاحظ عفو الله عن مُذنب، فإذا به يُنزل بمذنبٍ آخر شديد العقاب.

ثم إنّ القرآن الكريم أنبأنا عن قانونين رئيسيّن يُهيمنان على عمل كلّ صفة وكل اسم من أسمائه تعالى. أما القانون الأوّل فقد تضّمنه قول الله تعالى في سورة الأعراف (١٥٦):﴿..**ورحمتي وسعت كُلّ شيء..**﴾. فهذا قانون عام رئيسّي. ففي كلّ تجلٍ لأيّة صفةٍ إلهية، لابدّ أن تغلب عليها سمة الرحمة وتجلياتها، لذلك لاحظنا أنه يقول تعالى في مقام آخر من كتابه العزيز : ﴿**وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خيرٌ لكم، وعسى أنْ تحبّوا شيئاً وهو شرٌّ لكم وا لله يعلم وأنتم لاتعلمون.**﴾ البقرة ٢١٦-.

والقانون الثّاني الرئيسيّ الذي يُهيمن على عمل وتجلّي كل صفة من صفاته تعالى، قد تضمّنه قول الله عزوجل على لسان نوح عليه السّلام: ﴿**مالكم لاترجُون لله وقاراً. وقد خلقكم أطواراً**﴾. نوح ١٤ - أي مالكم لاتلاحظون الوقار والرّزانة عند الله، وهما يَدُلاّن على الحكمة الغالبة على عمل كلّ صفةٍ أخرى من صفاته تعالى، فهو الحكيم في تصرّفاته، ومنها خلقكم أطواراً، فطوراً نُطفة، وطوراً علقةً إلى تمام خلق الإنسان، فمن واجبكم أن توقّروه، وهو الله الذي تغلب حكمته على جميع تجليات أسمائه الحسنى.

والخلاصة أن كلّ صفة إلهيّة تعمل وفق منهاج وقانون. وتتجلّى على كلّ صفة إلهية صفتان رئيسيّتان هما صفتا : الرحيم والحكيم.

وبعد أن أجبنا عن السؤال المذكور، ودفعنا التناقض الظاهريّ المُشار إليه، لنتبصّر في تجلّي صفته تعالى العزيز، وعلى ضوء ماأفادنا به القرآن الكريم.

وأوّل ماأتناوله بالبيان، هو عمل صفته العزيز، وهي مقترنة بصفته الحكيم. أي تلازُم العزيز الحكيم في عمل وتجليّات أسماء الله الحسنى، وصفة العزيز منها خاصّة.

تعالوا إلى سورة البقرة (١٢٩-١٣١)، حيث تحدّثت الآيات عن قصّة ابراهيم عليه السلام، قال تعالى: ﴿**وإذ يرفعُ إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربّنا تقبّل منّا إنّك أنت السميع العليم، ربّنا واجعلنا مُسلمين لك ومن ذريّتنا أُمّةً مسلمةً لك، وأرِنا مناسِكنا وتُبْ علينا إنّك أنت التوّاب الرّحيم. ربّنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتِك ويعلّمهم الكتاب والحكمة ويزكّيهم إنّك أنت العزيز الحكيم، ومن يرغب عن ملّة إبراهيم إلاّ من سَفِهَ نفسَه، ولقد اصطفيناه في الدّينا، وإنّه في الآخرة لمن الصالحين. إذ قال له ربُّه أسلِمْ، قال أسلمت لربّ العالمين.**﴾.

ولاشك أنّ قصّة إبراهيم هذه حادثة حقّاً، وقد ورد ذكرها جليّاً في التوراة التي تحكي لنا تاريخ بني إسرائيل الذي ينتهي عند ابراهيم عليه السّلام.

أضف إلى ذلك أنّ الدّعاء الإبراهيميّ، قد أشارت إليه نبوءة سفر التثنيّة ١٨/١٨، الذي سبق أنْ عرضنا لسردها وتبيانها أيضاً. ولقد تحقّق هذا الدّعاء الإبراهيمي، ببعثة سيّد المُرسلين ومعه القرآن الكريم.

والقرآن يصف لنا حالة الحيرة التي تملّكت صدر إبراهيم عليه السلام، وهو قد علم باستجابة الله لدُعائه، ورد ذلك في نفس سورة البقرة (٢٦٠) : ﴿**وإذ قال ابراهيم لربّ أرني كيف تُحيي الموتى، قال أوَلَم تؤمن، قال بلى ولكن ليطمئن قلبي، قال فَخُذ أربعةً من الطّير، فصُرهُنّ إليك، ثم اجعل على كلّ جبلٍ منهنّ جُزءاً، ثم ادعُهنّ، يأتينك سعياً، واعلم أنّ الله عزيزٌ حكيم.**﴾. أي أنّ نفس ابراهيم تاقت إلى معرفة الطّريق والأسلوب الذي سيتحقّق به دُعاؤه الذي تقبّله ربّه بالاستجابة، فطلب منه أن يفعل مايفعله مربّو الحَمام، فيربّي أربعة منها ثم يجعل على كلّ جبلٍ واحدةً منها، ثم يدعوهن، فإذا بهنّ يُلبّين نداءه ويأتينه سعياً، وهنا نبّه الله ابراهيم إلى أنه تعالى سيستجيب دعاءه، على هذه الشاكلة من مُنطلق كون الله عزيزاً حكيماً. وهذه إشارة إلى

بعثة عددٍ من أنبياء ا لله الذين سيتحقّق على أيديهم تربية المؤمنين بما يحملونه من تعاليم وذلك استجابة للدُّعاء الإبراهيمي، وهذا قد تحقق فعلياً وعملياً. وإنّ وسيلة التربية الروحية تحقّقت على يديّ محمد رسول ا لله (ﷺ) بشكلٍ مُدهش، ولولا ذلك لما كانت قد تحقّقت على أيديهم تلك الفتوحات التي لم تكن لتتحقّق لولا هذه التربية وماستقرّ في قلوبهم من يقينٍ وإيمان، فأنّى لأبي بكر مثلاً، وهو ابن أبي كبشة، الرجل التّاجر البسيط، أن يصبح خليفة ا لله ويقود أمّة ناشئةً إلى شاطيء الأمان، لولا أن كان أبو بكر من السّابقين في الإيمان وفي صحبة محمد رسول ا لله (ﷺ). علماً بأنّ المفسّرين أخطؤوا حين أخذوا لكلمة (فصُرهن إليك) معنى قطّعُهن. فلم ينتبهوا للصلّة التي أتت بعدها وهو حرف (إليك) الذي قلب معنى قطّعهن إلى معنى أَمِلهُنّ إليك.

والمهمّ أنّ ابراهيم عليه السلام قد استغاث في دعائه بصفتي ا لله العزيز الحكيم. وهاأنه، وبعد مُضيّ ألوف السّنوات على ذاك الدّعاء المقبول، تحقّقت الاستجابة وفق تجلي صفتي "العزيز الحكيم". حيث استُهلّت سورة الجُمعة بقوله تعالى إشارة إلى ذلك : ﴿**هو الذي بعث في الأميّين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكّيهم ويُعلّمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين. وآخرين منهم لّما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم. ذلك فضل ا لله يؤتيه من يشاء، وا لله ذو الفضل العظيم.**﴾ أي هانحن أولاء بعزّتنا وحكمتنا قد حققّنا ماوعدنا به إبراهيم، وأثبتنا بذلك أنّ ا لله موجود وعزيز غالب على أهل مملكته، وقويّ على تحقيق مايشاء بحكمة، فهو صاحب الحكمة المُتقن للأمور.

وهانحن أولاء كذلك قد أثبتنا أنه كان في سابق علمنا أنّه سيأتي على أمّة محمد (ﷺ) عصرُ تخلُّف وانحطاط تتكالب فيه على المسلمين أمم الأرض، فبعثنا من هذه الأمّة أيضاً، وفي هؤلاء المسلمين الآخرين، ومنهم لّما يلحقوا بالمسلمين الأولّين رجلاً يكون ظلاً لهذا الرسّول العظيم محمد الصادق الأمين، ليصّحح مسار الأمّة، ويملأ الأرض عدلاً بعد أن مُلئت ظُلماً وجوراً. لنثبت من خلال بعثتنا إياه تجلّي صفتنا العزيز الحكيم.

وهكذا نكون قد أحطنا علماً بمثال محسوس من واقع البشر في هذه المنطقة من العالم، يثبت من خلاله وجود ا للهَ العزيز الحَكيم، وذلك من خلال

تقبُّل هذا "العزيز الحكيم" دعاء إبراهيم وإسماعيل اللذين وُجدا في واد غير ذي زرعٍ وقبل ألوف السّنوات. هذا وفي وقت كان تحقّق ذلك في أعين ابراهيم نفسه من باب شبه المستحيلات. فأين هذا الوادي غير ذي الزرع وقبائله المُتجوّلة المُتنقّلة الأميّة، ومابلغوه من السّؤود حين سادوا العالم ببعثة محمد سيّد المرسلين (ﷺ)، وهو سليل نسل ابراهيم عليه السلام أيضاً عن طريق نسل ابنه اسماعيل. وهانحن وقد وُجدنا في عصر تخلّف المسلمين الذي أشارت إليه سورة الجُمعة، وهانحن في ظلّ هذا المبعوث لإحياء الدّين فسُبحان ا لله الحيّ القيّوم العزيز الحكيم، وهل يستهين بهذا الدّليل المحسوس، الذي يثبت من خلاله وجود ا لله العزيز الحكيم إلاّ من سفِه نفسه وكان من الجاهلين المكابرين؟

وعليه يكون قد ثبت من خلال تجليّات صفة ا لله العزيز، والتي تجلّت مُقترنةً بصفة الحكيم أنّ ا لله تعالى ليس موجوداً وحسب، بل وغالباً على أهل مملكته، فلايوجد قويٌّ يقوى عليه، وأنّه تعالى فعالٌ لما يريد، وأنّه يحقّق مشيئته بحكمةٍ بالغةٍ مُتقنةٍ للأمور مذهلة للعقول.

وأتناول تجلّي اسم ا لله العزيز، مقترناً بصفته تعالى الرّحيم، وذلك من خلال التّعليم الذي بُعث به محمد رسول ا لله (ﷺ) نفسه، وهو تعليم القرآن الحكيم. فقد جاء في أوّل سورة (يس) : ﴿**يس. والقرآن الحكيم. إنّك لَمِنَ المرسلين. على صراطٍ مستقيم. تنزيلَ العزيز الرحيم. لتُنذر قوماً ماأُنذر آباؤهم فهم غافلون.**﴾. هذه الآي تعني : أيّها الإنسان السّيد، قد تأتّت سيادتُك على النّاس من خلال ماأنزلناه عليك من آي هذا القرآن الحكيم الذي اشتمل على تعاليم مُتقنةٍ فكراً وعملاً، وصالحةٍ للنّاس كافّة في كلّ زمان ومكان، مقرونة بالأدلّة السّاطعة والبراهين القاطعة. وقد جعلناك سيّداً، مصداق تقبُّلنا دعاء جدّك ابراهيم. وقد زودّناك بهذا القرآن الحكيم ذي التعاليم المُتّصفة بالكمال وجعلناك على صراط مستقيم، إثباتاً منّا لوجود ا لله وأنّ هذا القرآن هو ﴿**تنزيل العزيز الرّحيم**﴾، فجئت بذلك رحمةً للعالمين.

وأتناول تجلّي صفة العزيز مقترنةً بصفةٍ أخرى هي صفة "ذو انتقام". ولننتقل إلى سورة آل عمران التي قال تعالى في أوائل آياتها : ﴿.. **وأنزل الفرقان. إنّ الذّين كفروا بآيات ا لله لهم عذابٌ شديد وا لله عزيز ذو انتقام.**﴾. وقد علمنا أنّ معنى قوله (ذو انتقام) أي صاحب الأمر البالغ في

العقوبة، لمن ناهض وصدّ عن سبيل ا لله. وقد قال تعالى لقد أنزلنا هذا القرآن ليكون فرقاناً نفرق به الحقّ من الباطل. فمن يتمرّد على عزّتنا، ويتصدّ لقوتنا وهيمنتنا نُنذره بالانتقام، قال تعالى: ﴿**إنّ الذين كفروا بآيات ا لله لهم عذابٌ شديد، وا لله عزيز ذو انتقام.**﴾. أي لاينبغي لهؤلاء المكُذّبين أن يتناسوا أن ا لله العزيز يتجلّى، فيما يتحلّى به، بصفةٍ مُلازمةٍ هي أنّه "ذو انتقام" في الوقت المُناسب. فليحذر الذين كفروا عذاب ا لله العزيز ذي الإنتقام. وقد رآى العالم ماحلّ بالذين كذّبوا هذا القرآن المنزل على محمد (ﷺ)، وكيف ذلّوا وآلوا إلى دار البوار.

وأتناول صفة العزيز مقترنةً بصفة العليم. وقد جاء ذلك التجلّي في قوله تعالى من سورة غافر: ﴿**حم. تنزيل الكتاب من ا لله العزيز العليم. غافِر الذّنب وقابل التّوب شديدِ العقاب ذي الطَوْل، لاإله إلاّ هو إليه المصير**﴾. أي أنّ ا لله العزيز الذي بعث محمداً استجابةً لدُعاء جدّه ابراهيم، هو العليم غافر الذنب وقابل التّوب شديد العقاب ذو الطَوْل لاإله إلاّ هو إليه المصير. وصفة العليم اشتملت على جميع مااقتضته هذه الصّفات، لتثبت وجود ا لله العزيز العليم. وهل يتّصف بهذه الصّفات المذكورة إلاّ من كان عليماً لايَحُدّ من علمه شيء، مُحيطاً بكلّ أمرٍ، يعلم خائنة الأعين وماتُخفي الصّدور.

وأتناول صفة العزيز مقترنةً بصفة الحميد. وإلى ذلك أشار قوله تعالى في سورة ابراهيم التي استهلّها ا لله تعالى بقوله: ﴿**الر كتابٌ أنزلناه إليك لتُخرج النّاس من الظّلمات إلى النور بإذن ربّهم، إلى صراط العزيز الحميد. ا للهِ الذي له مافي السّموات ومافي الأرض، وويلٌ للكافرين من عذابٍ شديد.**﴾. أي أنا ا لله الذي لايغيب عن ناظره شيء، قد أنزلت عليك هذا الكتاب ليكون سبيلك إلى النّاس ممّا صاروا إليه من الفساد لتخرجه، إلى الصلاح والفلاح، وقد شئت، وأنا العزيز الحميد الغالب على الكون، المحمود بكلّ لسان وعلى كلّ حال، القادر على أن أُخرج الناس من الظّلمات إلى النّور، تصديقاً لدعاء إبراهيم، قد أنزلت أكمل المبادىء والتّعاليم لتحقيق ذلك على أيدي محمد الصادق الأمين، الرّسول الذي سيتحوّل بالنّاس من حالة البؤس التي هم فيها، إلى حالة العزّة والسّيادة والكرامة. يُحوّلهم عن طريق هذه المبادىء والتّعاليم الكاملة، إلى عالم نورانّي علميٍ بعيداً عن سموم الأهواء النّفسيّة والوساوس الشّيطانية. والحقّ هو أنّ العالَم

شاهد ماأحدثته تعاليم القرآن الكريم الذي بُعث به محمد (ﷺ)، وتصديقاً لدُعاء جدّه إبراهيم، ماأحدثته في بيئة العرب الجاهليّين، إضافةً إلى بيئات سواهم من الأمم والشّعوب، من يقظةٍ وترق ونهضةٍ في كل مكان سادت فيه هذه المبادىء والتعاليم، والتي ثبت من خلال ماأحدثته من تغييرٍ وتحوّل، أنّ الله العزيز هو حيٌّ قيّومٌ، وأنّه تجلّى بصفته العزيز الحميد أيضاً.

وأتناول بالذّكر اسم الله العزيز مُقترناً بصفة الغفور. الأمر الذي يتضّح ممّا استهلّ به الله تعالى سورة الملك حيث قال: ﴿**تبارك الذي بيده الملك وهو على كُلّ شيءٍ قدير. الذي خلق الموت والحياة ليبلوكُم أيّكم أحسن عملاً، وهو العزيز الغفور. الذي خلق سبع سموات طباقاً، ماترى في خلقِ الرّحمن من تفاوُت، فارجع البصر هل ترى من فُطور.**﴾.

والمعني أنّ الله العزيز مالك هذا الكون والقادر على تحقيق كل شيءٍ أراده ويريده، إنّما تتجلّى صفته العزيز مُقترنةً بصفته الغفور.

فهاهو ذا قد استجاب دعاء ابراهيم، وأثبت من خلال بعثة محمد أنّه العزيز. ولّما كان الإنسان قد خلق مُبْتلىً بين موتٍ وحياة، فقد كان لزاماً أن تتجلّى صفة الله العزيز مقترنةً بصفته الغفور أيضاً. بمعنى السّتار ضعف عباده. لذلك تجّلى، وهو العزيز الغفور الذي وسعت رحمته كلّ شيء. وقد قال تعالى في مقام آخر من كتابه العزيز : ﴿**ياعبادي الّذين أسرفوا على أنفُسهم لاتقنطوا من رحمةِ الله، إنّ الله يغفر الذنوب جميعاً.**﴾ الزّمر ٥٣ ـ وهكذا تجلّى الله العزيز، وهو يحثّ عباده على أن يكونوا من المستغفرين ومن التوابين لتشملهم تجلّيات صفتي العزيز الغفور بواسع ظلّهما الوارف الظّليل الذي يخلب ألباب المفكّرين المحقّقين.

على هذه الصّورة يكون قد تجلّى لأعيننا أنّ صفة الله العزيز وعملها وتجلّياتها عبر تاريخ البشر، قد بَدَت وفق منهجٍ وقانون، وصفة العزيز هذه دليلٌ من الأدلّة القاطعة على وجود الله العزيز الحكيم الرحيم الحميد الغفور المُنتقم.

وبإمكانكم أن تقيسوا على هذه الصّفة ماذُكر في القرآن الكريم ما لله تعالى من أسماء وصفاتٍ، حيث يؤلّف كل اسمٍ وصفةٍ منها دليلاً قاطعاً يثبت وجود الله عزّوجلّ في نظر كلّ باحثٍ عن الحقّيقة، متجرّدٍ عن أهوائه، وغوايته،

وتيهه، وجهالته وعَنعناته وسابق تصّوراته. وهكذا تلاحظون أنّ الأدلّـة المستمدّة من أسماء ا لله الحسنى تبلغ عدد مايتّصف به ا لله عزوجلّ من أسمـاء قـد تجلّـت في كوننا الماديّ الذي نتفيّأ ظلاله.

٣ ـ دليل الله المتكلّم

هنا روايـةٌ أسندَتْها كتب الحديـث، كالترمذي وابـن حبّـان والبيهقـي أسندتها إلى رسول ا لله (ﷺ) بطريق أبو هريرة. وقد عدّد صاحبهـا فيهـا تسعاً وتسعين من أسماء ا لله الحسنى، تناولهـا العلمـاء المُقلّـدون دون أيّ تمحيـص. فمـا تساءلوا : كيف يُعقل أن يكون رسول ا لله (ﷺ) قـد أحصـى جميـع أسمـاء ا لله الحسنى قبل أن يكتمل نزول القرآن الكريم؟

ألا إنّ أسماء ا لله الحسنى لم تجتمع في كتاب ا لله تعـالى في مقام واحـد. بل أتت في طيّات الآيات الكريمة، وذلك وفقاً لما كانت تقتضيه مضامينهـا. وقـد تبيّن لنا، بنتيجة تدبّرنا كتاب ا لله تعالى أنّ الرّواية المذكورة أغفلت عدّة أسماء من أسمائه تعالى الواردة فيه، وهـذه الأسمـاء هـي: (ذو العـرش، وذو الوقـار، والمُنعـم، والشّـافي، والكـافي، والمتكلّـم.)، ليصبـح عـدد أسمـاء ا لله الحسـنى مائـة وخمـس صفات.

والمؤسف أنّ هؤلاء المقلّدين، ونتيجة لأخذهم بالرّواية المذكورة، ذهبـوا إلى القول بانقطاع الوحي السّماوي بعد رسول ا لله (ﷺ)، علـى حـين أنّ كـلّ اسمٍ من أسمـاء ا لله تعـالى، لاينقطـع عـن عملـه فهـو مـع ذات ا لله أزلّـي وأبـديّ ومستمّر التجلّي والعطـاء. فـإن اتّصـف ا لله عزوجـلّ بصفـة تكليمـه لعبـاده قبـل الإسلام، فكيف تصوّروا أن يصمت ا لله ولايعود يكلّم عباده بعد الإسلام؟ أفلـم يكلّـم أم موسـى بكـلام غـير تشـريعي، فكيـف لايعـود يكلّـم الصّديقـات مـن المُسلمات بكلام غير تشريعّي بعد بعثة خاتم النبيين(ﷺ)؟ خصوصاً وأنّ القـرآن الكريم لم ينصّ في أيّة آيـةٍ من آياتـه الكريمـة علـى أنّ ا لله لايوحـي ولايكلّـم إلا النبيّين. أفلم يقرأ هؤلاء المقلّدون قول ا لله عزوجلّ: ﴿**وماكـان لبشـرٍ أن يكلّمـه ا لله إلاّ وحياً أو من وراء حجاب أو يُرسلُ رسـولاً فيوحـي بإذنـه مايشـاء إنـه عليّ حكيم**﴾ الشورى ٥١ ـ فلم يقل هنا ﴿**وماكان لنبيٍ أن يكلّمه.**﴾ بل عمّـم

وقال ﴿وماكان لبشر..﴾ نبيّاً كان أو غير نبيّ. ولست هنـا في مجال بحث هـذا الموضوع والتوسّع فيه. بل سأبحثه في آخر المبحث الثالث من هذا الكتاب.

وهكذا فإن صفة الله (المتكلّـم) تشكّل في حقيقتها دليلاً حسيّاً على وجود الله عزوجلّ، و لم يختصّ كلام الله بأنبيائه الكرام، بل بالبشر عامةً وعلى مُختلف طبقاتهم، وكُلاً يكلّمه الله إن اقتضت الضرورة على حسب فهم هـذا الإنسان ووضعه الاجتماعي والأخلاقي الرّوحي، وهل نسي أحَدُنا كيف أوحي الله إلى عزيز مصر في رؤياه المعروفة من وراء حجاب، و لم يكن العزيز مسلماً، و لم يقدر على تأويل تلك الرؤيا إلاّ يوسف عليه السلام. فقد اقتضى أمر الايفاء بوعود الله تعالى التي قطعها ليوسف أن يعلّمه تأويل المنـام ويفعل مـافعل. وهـذا من بابٍ أشار الله تعالى إليه آخر آية سورة الشورى التي أوردناهـا، وهـو تذييله هذه الآية بقوله: ﴿.. إنّه عليٌّ حكيم.﴾. والعليّ هو القـويّ والرفيع والشريف والشديد (محيط المحيط). كما أن الحكيم هو صاحب الحكمة المُتقن للأمور، الذي يجمع بين العلم والعمل وصاحب الحُجّة والبرهان، على حسب مـابين صاحب معجم محيط المحيط.

وكأنه تعالى رسم وبيّن لنا المنهج والقانون الـذي التزم بـه عزّوجـلّ بما يتعلّق بموضوع كلامه مع البشر، فهو تعالى يكلّمهم من مُنطلق كونه (العليّ) أي القوى الرفيع المقام والشريف الخصال والشّديد العقاب. وهـو تعـالى حين يُكلّم بشراً ما، يُكلّمه بحكمة الذي أتقن الأمور قولاً وعملاً، إضافةً إلى إحكامـه تعالى في كلامه حُجّته وبُرهانه، فهذا هو مادلّ عليه قوله تعالى آخر آية سورة الشـورى قوله: ﴿.. إنّه عليٌّ حكيم.﴾.

أقول : إذا ماأثبتنا، من خلال الوقائع والأحداث الماضية وجود أشخاصٍ كلّمهم الله تعالى وهداهم السّبيل، نكون قد أثبتنا بذلك وجود الله المتّصفَ بالكلاّم أيضاً. هذا الإلـه الـذي يملك هـذا الكون ويُسيّره بحكمة، ويكلّم مَـنْ خلقهم بشراً من مُنطلق كونه العليّ الحكيم.

ولنبدأ من نقطة التكلّم بالذّات. فمجرّد ادّعاء إنسـان ماأنّـه يكلّمـه ربّـه فهو أمرٌ ايجابيٌّ على أقل تقدير. على حين أنّ نفي إنسان حدوث مثل هذا الكلام فهو أمرٌ سلبيّ عموماً. وإن الأمر الإيجابي لـه في الحقيقة وزنـه وجاذبيّته، وأن يُطالب المُدّعي بتقديم الحُجّة على ادعائه.

وإذا مااستعرضنا تاريخ البشر، لاحظنا وجود فريقين : فريقٌ مؤمنٌ بوجود الله المتكلّم مع عباده، ويكلّم الصالحين منهم خاصة، واعتقادهم هذا يشكّل نقطةً إيجابيّة ـ كما تلاحظون ـ لها جاذبيّتها ومصداقيّتها.

وفريقٌ كافر بالله بين مُلحد ومشرك. وفي موقف هذا الفريق نقطةٌ سلبيّة ـ كما تلاحظون ـ وهذا الفريق مُلزمٌ أصلاً بتقديم حُجّة وبرهان على موقفه السّلبيّ. وهذه الحقيقة هي التي تسبّبت في ظهور طبقة من الفلاسفة عبر تاريخ البشر، تُكابر في وجه المؤمنين ويحاول أصحابها نفي وجود الله عزوجلّ.

وأطرح للقارىء العزيز هذا الأمر بأسلوبٍ آخر، فليتّصور أحدكم فيلسوفاً يتحدث إليه، ويحاول تقديم البرهان على غياب فلان عن مجلسهما، على حين يجلس زيدٌ هذا بينهما وأمام ناظريهما في تلك اللحظات، أفكُنت تصغي ياصاحبي إلى هذا الفيلسوف، أم تُبادر إلى تسفيهه واتّهامه بالحمق ورميه بالخبل والسَّفَه؟

فإن أنت أصغيت ياصاحبي إلى حديث وأقوال هذا الفيلسوف، وزيدٌ يجلس بجانبك، يكون حالك كمن يُصغي إلى فلسفات المُلحدين، في حال وجود أناسٍ يكلّمهم الله إلى درجةٍ أشرقت به نفوسهم واطمأنت إليه قلوبهم.

وهل بإمكان أيّ مؤرّخ أن ينكُر وجود هذين الفريقين من البشر : فريق الأنبياء ومن آمن بهم، وبوجود الله "المتكلّم"، وفريق المُلحدين الذين وقفوا في مقابل الفريق الأوّل، موقفاً سلبيّاً يفتقر دوماً إلى الحجج والبراهين القاطعة؟ وهذا الموقف السّلبيّ، وقفوه في مواجهة عشرات ألوف النّاس أصحاب الموقف الإيجابيّ، الذّين يقدّمون أنفسهم شهوداً على وجود الله "المتكلّم".

وقد كان الفريق الأوّل يفوز دوماً وفق مايُعلنه، على حين يبوء الفريق الثاني باستمرار بالخيبة والخُسران، على هذا نجد الفريق الأوّل على كلمةٍ واحدةٍ. بينما ينطبق على الفريق الثاني قوله تعالى: ﴿**كلّ حزبٍ بما لديهم فرحون.**﴾.

وهل نسي المفكّرون الباحثون كيف أنّ فلاسفة الماركسية قد سفّهوا آراء وفلسفات جميع من سبقهم من الفلاسفة، حتى جرّوا على شعوبهم أقسى المصائب والويلات؟ وقد وصف بعض فلاسفة الماركسيّة هذا الدّين، بأنّه أفيون الشّعوب، وهل كان الدّين ليصبح أفيوناً للشّعوب لولا أن ظهر بين ظهراني أهله رجالٌ مُكلّمون من الله خالقهم، ويتلّقون بشاراته أيضاً وتأييده وهُداهُ؟

وتعالَوْا نتفحّص سِيَرَ من كلّمهم ا لله تعالى، أولئك الذين شَهدوا على وجوده عزوجلّ. إذ يتبيّن لنا أنّ أولئك القدّيسين الأبرار، كانوا من ذوي الأخلاق الفاضلة الحميدة. فهذا ماشهد به تاريخهم، إضافة إلى شهادة القرآن الكريم الذي أثبتنا من قبل مصداقيّة مرجعيّته، فقد قال تعالى في الآية (٦١) من سورة هود: ﴿**وإلى ثمود أخاهم صالحاً، قال ياقوم اعبدوا ا لله، مالكم من إلهٍ غيره. هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها، فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربّي قريبٌ مُجيب. قالوا ياصالح قد كُنت فينا مرجُوّاً قبل هذا أتنهانا أن نعبد مايعبد آباؤنا، وإنّنا لفي شكٍ ممّا تدعونا إليه مُريب. قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بيّنةٍ من ربّي وآتاني منه رحمة، فمن ينصُرني من ا لله إذا عصيته، فما تزيدونني غير تخسير.**﴾ فقد أقرّوا بذلك بصلاح وأهليّه النبي صالح بما لاتهوى أنفسهم، فقد خابت آمالهم فيه، وحرموا أنفسهم من فيض مادعاهم إليه.

وقد وصف القرآن الكريم العاقبة الحميده التي آل إليها : صالح وقومه، وقال:﴿**..فلّما جاء أمرنا نجّينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمةٍ منّا، ومن خزي يومئذ، إنّ ربّك هو القويّ العزيز.**﴾ أي أنّ ا لله الرّب الذي كلّم صالحاً، أثبت أنّه "القويّ العزيز". والقويّ يعني العليّ. والعزيز يعني الغالب على أهل مملكته فلا يُغالب. وكأنه تعالى قصد من قوله: ﴿**إنّ ربك هو القويّ العزيز.**﴾ ماقاله بألفاظ أخرى أنّه ﴿**العليّ الحكيم**﴾.

ولقد أخبرنا القرآن الكريم عن النّبي شعيبٍ أيضاً، وفي الآية (٨٦) من نفس سورة هود، قال: ﴿**قالوا ياشُعيب أصلواتُك تأمرك أن نترك مايعبد آباؤنا، أو أن نفعل في أموالنا مانشاء، إنّك لأنت الحليم الرّشيد. قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بيّنةٍ من ربّي ورزقني منه رزقاً حسناً، وماأريد أن أخالفكم إلى ماأنهاكم عنه، إن أريد إلاّ الإصلاح مااستطعت، وماتوفيقي إلاّ با لله عليه توكّلت وإليه أُنيب.. ولّما جاء أمرُنا نجّينا شُعيباً والذين آمنوا معه برحمةٍ منّا، وأخَذَتِ الذّين ظلموا الصّيحةُ، فأصبحوا في ديارهم جاثِمين، كأن لم يغنوا فيها، ألا بُعداً لِمِديَنَ كما بَعُدت ثمود.**﴾ ألاحظتم قول قوم شعيب ﴿**إنّك لأنت الحليم الرّشيد.**﴾؟وهذا إقرارٌ منهم بصلاح شُعيب وبتقواه ورشده. أمّا وقد فاجأهم النبيّ شعيب بما لاتهوى أنفسهم، فقد خابت آمالهم فيه وبذلك حرموا أنفسهم من فيض مادعاهم إليه.

ولِمَ نذهب بعيداً في ضرب الأمثال وذكر الوقائع؟ وهل هناك امرؤ لايدري ببعثة محمّد بن عبد الله اليتيم الأمّي الذي اصطفاه الله لرسالته. فجمع قومه من أهل مكّة الذين لبّوا نداءه، وقال: مابالكم إنْ أخبرتكم أنّ وراء هذا الجبل جيشاً عرمرماً أَوَ أَنتم مُصدّقي؟ فصاحوا جميعهم قائلين: (ماجرّبنا عليك كذباً) فقال (ﷺ): (إنّي رسول الله). فانبرى له أبو جهل قائلاً: (تبّاً لك ألهذا جمعتنا؟﴾ وأقفل عائداً إلى داره. وتبّ بمعنى هلك. فمن هلك بعد ذلك: المُدّعي أم المكذّب المُنكر؟

والحقيقة التي لامراء فيها، هو أنّ محمداً (ﷺ) ومن خلال إعلانه المذكور أعلن بألفاظٍ أخرى عن وجود الله "المتكلّم"، وأنّ الله كلّمه واصطفاه لرسالته. وماكان جواب أبي جهل، إلاّ كما أجاب به قوم صالح وقوم شعيب وسواهم ممّن كذّبوا بما لاتهوى أنفسهم.

والجميع يعلم أنّ محمداً (ﷺ) اشتُهر في قومه بالصّادق الأمين. فهذا أمرٌ أجمعت عليه الأخبار. وقد رُوي أن زعماء قريش ممّن كذّبوا محمداً في ادعائه، أنّهم عقدوا مجلساً في مكّة بقصد أن يتداولوا أمر هذا الرّسول، ليتّفقوا على كلمةٍ يواجهون بها الوافدين من العرب إلى مكّة في موسم الحجّ. وقد أشار أحد المُجتمعين أن يصموا محمّداً بادعائه للنّبوة افتراء وكذباً. فقام النّضر بن الحارث يقول: وكيف يُصدّقون ذلك؟ أنصم محمّداً بالكذب والافتراء، وهو الذي عرفه الجميع بصدقه وأمانته؟ ولابد أن يقول هؤلاء الوافدون: "كان محمدٌ فيكم غلاماً حَدَثاً أرضاكم قيلاً وأصدقكم حديثاً، وأعظمكم أمانة. حتى إذا رأيتم في صِدغيه الشّيب، وجاءكم بما جاءكم، قلتم ساحرٌ. والله ماهو بساحر"[1] . على هذه الصّورة أذعن المجتمعون لرأي النّضر بن الحارث، الذي كان بعيد الغَور وقد أصاب وجه الرأي حين فطن إلى أن الوافدين من العرب لم يُجرّبوا على محمد بن عبد الله (ﷺ) كذباً قطّ. فكيف يُصدّقون بعد هذا أنّه كاذبٌ أفاك والعياذ با لله؟

وهذا أبو سفيان وقد سأله هرقل الرّوم في مجلسه: هل كذب محمّد قبل ادعائه النبّوة في يومٍ من الأيام؟ وأجاب أبو سفيان: ماجرّبنا عليه كذباً حتى

---

[1] ـ سيرة ابن هشام.

اليوم. فلّما عاد أبو سفيان إلى قومه وحدّثهم بما جرى، كان يقول لهم: لقد قلت لِهرقل (حتى اليوم) آخر جوابي، لأشككه في أمر محمد بن عبد الله.

إنّ هؤلاء القدّيسين البَرَرة من النبيين والذّين آمنوا معهم، ساهموا بصورة عمليّةٍ وفعليّةٍ في ترقية العقل البشري. ساهموا مساهمة لاتعدلُها مساهمة أي فيلسوف أو ملحدٍ أو مُكذبٍ منكر من النّاس. وقد أجمعت شهاداتهم على وجود الله عزوجلّ، وعلى أنّه كان يكلّمُهم ويهديهم السبيل.

والمعلوم في جميع أنحاء المعمورة، هو أنّ المحاكم تطالب المُدّعين بتقديم شاهدي عدل لإثبات إدعاءاتهم. وهؤلاء القدّيسون البَرَرة أجمعت شهاداتهم على وجود الله "الكليم" الذي كلّمهم، على اختلاف أزمنهم وأمكنتهم، وهل يجوز أن يُستهان بشهادات هؤلاء القدّيسين البررة وهم يُعدّون الألوف بل عشرات الألوف، إلاّ من سَفِهَ نفسه؟

وقد كان يقابل هذا العدد الهائل من الشهود على وجود الله، والمتكلّمين معه أعداد من الفلاسفة الذين توالى ظهورهم عبر تاريخ البشر الطويل. ولاترى هؤلاء الأخيرين قد اتّفقوا على آراء واحدة في يوم من الأيّام. فلماذا؟

السّبب في أنّ جميع ماطرحوه من آراء وفلسفات، اعتمد العقل، حاذفين منه عامله المساعد الذي بدونه لايعطي العقل أحكاماً صائبةً على مستوى أمور الغيب وماوراء الطبيعة، لذا جاءت آراء وفلسفات هؤلاء الملحدين مجرّد أوهام وظنون مُتضاربة بعضها مع بعضها الآخر. وهاأنّ فلسفة المادية الماركسية تحطّمت على أعتاب النظرية التي أتى بها العالم الفيزيائي غاموف وهي نظرية الانفجار العظيم والتي ثبت من خلالها أنّ الكون مخلوق غير أزلّي، وقد تمّ خلقه قبل مايزيد عن (١٢ إلى ٢٠) مليار عام. وهل عادت بعد ذلك لسفسطات كارل ماركس وسواه أيّ وزن أو قيمة بعد هذا الكشف العلمي العظيم؟

هذا وقد أثبت هذا الكشف العلمي صدق ماطالعتنا به آيات القرآن الكريم، وهو الكشف عن وجود الخالق عزوجلّ هذا الإله المتكلّم الذي كلّم محمداً (ﷺ) وأوحى إليه بهذا الفرقان العظيم، والذّي يطالع مؤلّفي (النظرية القرآنية الكونيّة حول خلق العالم) تتجلّى لعينيه حقيقة مابيّنت آنفاً وبكلّ جلاء.

وعلى هذه الصّورة تتجلّى معالم صدق وجود الله المتكلّم، الذي كلّم محمداً رسوله الأمين. كما تتجلّى حقيقة صدق شهادات الأبرار القدّيسين من الفريق الأوّل المؤمن بوجود الله المتكلّم. إلى جانب انكشاف سفاهة آراء الفريق الملحد من الفلاسفة والمكذّبين.

وهذه الوقائع والأحداث المحسوسة تثبت للعاقل بما لايقبل النّقاش وجود الله الخالق، وتشكّل دليلاً محسوساً على اتّصاف هذا الخالق بالكلام أيضاً. الله الذي اصطفى من البشر من كلّمهم في مختلف الأزمنة والأمكنة. وكان كلامه تعالى إلى هؤلاء بطرق ثلاث (وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه مايشاء.). وضمن منهجٍ وقانون وضّحه لنا قول الله عزّوجل (.. إنّه عليٌّ حكيم).

هذا الدليل المحسوس من الوقائع والأحداث، يُضعف الرّواية المُسندة إلى رسول الله (ﷺ) عن طريق أبو هريرة، والمتعلقة بأسماء الله الحُسنى والتي لم تشتمل على صفة (المتكلّم) ولاعلى الصّفات التالية (ذو العرش، ذو الوقار، المُنعم، الشّافي والكافي).

ولّما كانت أسماء الله تعالى أزليّة أبديّة لاتتوقّف عن تجليّاتها. فقد ثبت بالتالي من خلال صفته تعالى (المتكلّم) أنّ باب الوحي غير التشريعي غير مسدود. ولم ينقطع إلاّ نزول الوحي التّشريعيّ. ذلك أنّ شرع القرآن الكريم اكتسب صفة الكمال لقوله تعالى: ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً.**﴾ المائدة (٣) - ولوعده جلّ شأنه بحفظ هذا الذّكر إلى أبد الآبدين في قوله تعالى: ﴿**إنا نحن نزّلنا الذّكر وإنّا له لحافظون.**﴾ الحجر ١٠ - فالكامل لايحتاج إلى وحيٍ تشريعيٍّ يُكمله. والمحفوظ لايعقل أن يأتي وحيٌ تشريعيٌّ ينسخه.

ثم إنّه لو كان الوحي غير التشريعي قد انقطع، فلايعود للآية (٣٠) من سورة فُصّلت أيّ معنى كان، وهي قوله تعالى: ﴿**إنّ الذين قالوا ربُّنا الله ثم استقاموا تتنزّل عليهم الملائكة ألاّ تخافوا ولاتحزنوا وأبشروا بالجنّة التي كنتم توعدون. نحن أولياؤكم في الحياة الدّنيا وفي الآخرة، ولكم فيها ماتشتهي أنفسكم ولكم فيها ماتدّعون. نُزُلاً من غفورٍ رّحيم. وَمَن أحسن قولاً ممّن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المُسلمين.**﴾

ولا للآية (٦١) من سورة يونس، قوله تعالى: ﴿**ألا إنّ أولياء ا لله لاخوفٌ عليهم ولاهم يحزنون. الذّين آمنوا وكانوا يتّقون. لهم البُشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة، لاتبديل لكلمات ا لله، ذلك هو الفوز العظيم.**﴾. والمقصود من قوله ﴿**لاتبديل لكلمات ا لله**﴾ في الآية أنّ سلوك ا لله المذكور مع عباده المؤمنين المتّقين بعد نزول القرآن سيستمّر على شاكلة ماكان قبل نزوله. والمقصود من (أولياء ا لله) من تولاّهم ا لله بعنايته، كونهم من ﴿**الذين آمنوا وكانوا يتّقون.**﴾. وهؤلاء الأبرار ﴿**لاخوفٌ عليهم ولاهُم يحزنون**﴾ أي لاخوف عليهم في مستقبلهم ولايحزنون على مافات. ذلك أن الخوف لايكون إلاّ من المستقبل. والحزن لايكون إلاّ على مافات. ومن يتولاّهم ا لله بعنايته ﴿**لهم البشرى في الحياة الدنيا**﴾ أي يتلّقون بشارات ا لله بالطّرق الثلاث التي حدّدتها الآية: ﴿**وماكان لبشرٍ أن يكلّمه ا لله إلاّ وحياً أو من وراء حجاب أو يُرسل رسولاً فيوحي بإذنه مايشاء، إنّه عليٌّ حكيم.**﴾.

٤ ـ دليل الله الحفيظ

ويُستدل من صفة ا لله "الحفيظ" على وجود ا لله عزوجلّ. وذلك من خلال الوقائع والأحداث الملوسة التي تجلّت بها صفة "الحفيظ" هذه، عبر تاريخ البشر الطويل.

وصفة "الحفيظ" تعمل أيضاً وفق منهاجٍ وقانونٍ وضّحه لنا كتاب ا لله القرآن الكريم في ثنايا آياته الكريمة، ووفقاً للمقتضيات الموضوعيّة أيضاً.

ونتساءل: ما دلالة كلمة (الحفيظ)؟

الحفيظ، من حِفظَ الشيءَ أي حرسَه ومَنعه من الضّياع. وكلّ امرىء منّا يعلم أنّ الإنسان لايحرس شيئا ويمنعه من الضّياع إلاّ إذا كان هذا الشيء له في نظره قيمةٌ عالية أو مكانةٌ مرموقة. ونقول قياساً على ذلك إنّ ا لله جلّ شأنه لايُعقل أن يعد بالمحافظة على حياة إنسان ما، إلاّ إذا كان هذا الإنسان في نظره تعالى يعمل وفقاً لمشيئة ويؤدّي دوراً أساسيّاً لتحقيق إرادته. وإلا فإنّ ا لله غنيٌّ عن العالمين.

ثم إنّ مهمّة حراسة شي ومنعه من الضّياع، ماهي بالأمر الّهين. فهؤلاء الأوربيون تفنّنوا في أساليب حراسة الجوهرات واللّوحات الفنيّة الأثريّة والمستندات الهامة. فاخترعوا أجهزة إنذار مُبكّر وأقفالاً معقّدة التركيب.

وبالرغم من جميع احتياطاتهم لحراسة هذه الأشياء، فإنّنا نسمع بين حين وآخر سطو اللّصوص، وتمكّنهم من سرقة بعض الأشياء الثمينة والنادرة. وتوصف السّلطات إثر ذلك بالضّعف والإهمال. أي أنّه مهما تفنّن أولئك في أمر حراسة هذه الأشياء والحفاظ عليها، تظلّ تبدو في خططهم ووسائلهم نقاط ضعف، يستنتج منها أنّها خطط ووسائل الإنسان الضعيف.

ونحن بصدد الكلام عن موضوع ضرورة حراسة شخص محمدٍ رسول ا لله قبل أربعة عشر قرناً والذي فاجأ قومه من حوله بادعائه أنّه رسول ربّ العالمين، ودعاهم لمبايعته والانضواء تحت زعامته الرّوحية والعمل مُخلصين على تنفيذ التعاليم التي توحى إليه من ربّه. هذا في وقت كان محمد (ﷺ) يتيماً وأميّاً ولايملك مالاً ولاعَتاداً. وقد أعلن دعوته في مواجهة من سمّاه قومه حكيماً. وبألفاظٍ أخرى فإنّ دعوى محمد (ﷺ) هدّدت مصالح جميع الطّبقات المتنفّذة في قومه. باستثناء طبقة العبيد المملوكة لطبقة عُليا في المجتمع آنذاك.

والمعلوم أنّ من جُمله الدلائل والبراهين التي قدّمها محمد رسول ا لله (ﷺ) على صدق نبوته، هو ادعاؤه أنّ ا لله عزوجلّ وعد بالمحافظة عليه وحراسته من خلال خطابه إيّاه: ﴿**وا لله يعصمك من الناس**﴾ المائدة ٦٧ ـ هذا في وقت توعّد ا لله فيه الكافرين برسالة محمّد بعذابٍ شديد. فمن هنا تأتّت أهميّة تجلّي صفة ا لله "الحفيظ".

إنّ الحفاظ على شيءٍ ثمين كما رأينا، يستلزم أن تتوفّر لمن يريد أن يقوم بهذه المُهمّة علمٌ واسع وكفاءاتٌ وقُدرات. هذا والذي يتدبّر القرآن الكريم يُلاحظ كيف أفادنا هذا الكتاب السماوي بالنهج والقانون الذي تتجلّى من خلاله صفة ا لله "الحفيظ". ويدعمها قُدرات ا لله الواسعة وعلمه الذي لاتقف دونه حدود.

ولابدّ أن تهفو نفس الإنسان لمعرفة هذا النهج والقانون الذي تتجلّى من خلاله ووفقاً لبنوده صفة (الحفيظ) هذه. خصوصاً وأنّ صاحب هذه الصفة قد

وعد بالمحافظة على محمدٍ رسوله وحراسته. وإليكم بنود هذا النهج الذي تضمّنته الآيات التالية: ﴿ ا لله يعلم ماتحمل كلّ أُنثى وماتغيضُ الأرحام وماتزداد، كلُّ شيء عنده بمقدار. عالم الغيب والشّهادة الكبير المُتعال. سواءٌ منكم من أسرّ القولَ ومن جهر به، ومن هو مُستخفٍ باللّيل وساربٌ بالنهار. له مُعقّباتٌ من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر ا لله، إنّ ا لله لايُغيّر مابقومٍ حتى يغيّروا مابأنفسهم، وإذا أراد ا لله بقومٍ سوءً فلا مردّ له، ومالهم من دونه من والٍ، هو الذي يُريكم البرق خوفاً وطمعاً ويُنشىء السَّحاب الثّقال. ويُسبّح الرّعد بحمده والملائكة من خيفته، ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء، وهم يُجادلون في ا لله وهو شديد المِحال.﴾، فإلى معاني الألفاظ :

ماتغيضُ من الغَيض أي الإسقاط. وماتزداد أي ماتزداده أيّام الحمل. والكبير هو الشريف صاحب العظمة والجبروت والرّفيع. المتعال هو رفيع الشأن إلى حدٍ لانسبة بينه في شأنه وبين مخلوقاته. وهذه إحدى الصّفات التنزيهيّة الدّالة على الاستغناء. فالمقصود من (الكبير المتعال) الإشارة إلى رفعة شأن ا لله القادر على إفشال جميع مُخطّطات المُكذبين. (وسارب بالنهار) من سَرب أي مضى. مُعقبّات من عقّب جاء بعقبه أي أن الملائكة يتعاقبون للمحافظة على محمد رسول ا لله (ﷺ) ـ معجم مفردات الرّاغب ـ. (من وال) من ولِي الشي: قام به، وولي فلاناً: نصره، وولي فلاناً: أحبّه ـ معجم أقرب الموارد ـ فمعنى (وال) إذن النّصير والرّقيب والحفيظ.

وعلى أساسٍ من هذه المعاني تتضّح البنود العشرة التي تتجلّى على أساسها صفة (الحفيظ)، وهذه البنود هي :

أولاً ـ قوله تعالى ﴿**وكلّ شيء عنده بمقدار**﴾ يعني أنّ علمه يحيط بالأبعاد الثلاثة لكلّ شيء من الأشياء: الطول والعرض والارتفاع، وبالكمية والهويّة والشكل أيضاً.

ثانياً ـ وقوله تعالى ﴿**عالم الغيب والشهادة**﴾ يعني أنّ علم ا لله تعالى يشمل المشهود من الأشياء، وماهو غيب أيضاً.

ثالثاً ـ وهو (الكبير) أي صاحب العظمة والجبروت، ويتجلّى ذلك في حراسته وحفظه كل شيء يريد حفظه وحراسته.

رابعاً - وهو (المُتعال) أي المستغني والذي لانسبة بين غناه وقدراته، وبين غنى وقُدرات من سواه. ويتجلى ذلك أيضاً من خلال حراسته وحفظه لكل شيء يريده.

خامساً - وقوله تعالى ﴿**سواءٌ منكم من أسرّ القول ومن جهر به ومن هو مُستخفٍ بالّليل وساربٌ بالنهار**﴾ بمعنى أنه تعالى لايخشى ولايحسب حساباً للمتآمر أهدّد علناً على رؤوس الأشهاد، أو تآمر سرّاً أو أضمر السّوء.

سادساً - وقوله تعالى ﴿**لايغيّر الله مابقوم حتى يغيّروا مابأنفسهم**﴾ أي يحرس ويحافظ على من يثبت على طاعة الله فلا يغيّر مافي نفسه.

سابعاً - قوله تعالى : ﴿**وإذا أراد الله بقومٍ سوءً فلا مرّد له، ومالهم من دونه من وال.**﴾ أي إذا أحجم الله تعالى عن تأييد قوم وعن القيام بالمحافظة عليهم فلن يجدوا لهم من دونه نصيراً ولارقيباً ولاحفيظاً.

ثامناً - وقوله تعالى : ﴿**الذي يريكم البرق خوفاً ويُنشيء السّحاب الثّقال.**﴾ يعني أنّ على المتآمرين أن يعلموا أنّ أسباب كل شيء تعود إلى سلطان الله الكبير المتعال.

تاسعاً - وليعلموا أيضاً أنّ جلال الله مُهيمن على كل شيء فالرعد والملائكة يسبّحون من خيفته.

عاشراً - وقوله تعالى : ﴿**وهو شديد المحال**﴾ يعني أنّه إن شاء معاقبة الكائدين، يُعاقبهم وهم مشغولون في خصامهم ومجادلتهم حول وجوده عزوجلّ. فيصيبُهم بصواعقه، ولاتُخطئهم ضرباته، فتدبيره وكيده من الدّقة والقوّة بمكان، بحيث يستحيل أن يحول شيء ما دون نفاذه.

ولنعد الآن بذاكرتنا إلى قصّة يوسف عليه السّلام. هذه القصّة التي أجمعت على تفاصيلها الكتب السّماوية والأخبار الأرضية، حتى راح يُضرب بها الأمثال. ولنلاحظ من خلالها تجلّي الله "الحفيظ" وضمن المنهاج ذي البنود العشرة الآنفة الذكر.

فيوسف رأى رؤيا في حداثة سنّه. علماً بأنّ الرؤيا الصّادقة وحيٌ من وراء حجاب. ﴿**إذ قال يوسف لأبيه ياأبت إنّي رأيت أحَدَ عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين. قال يابُنيّ لاتقصُص رؤياك على إخوتك**

فيكيدوا لك كيداً، إنّ الشيّطان للإنسان عدوٌّ مبين. وكذلك يجتبيك ربُّك ويُعلّمك من تأويل الأحاديث ويتمُّ نعمته عليك وعلى آل يعقوب، كما أتمّها على أبويْكَ من قبل إبراهيمَ وإسحاقَ، إنّ ربّك عليم حكيم. لقد كان في يوسف وإخوته آياتٌ للسّائلين.﴾. وهانحن من السائلين.

ونلاحظ أنّ الله تعالى أنبأ يوسف من خلال رؤياه التي أراه إيّاها عمّا سيصادفه من تآمر إخوته عليه، ووعده ربّه بالمحافظة عليه من تآمرهم وشرورهم، وترقيته إلى حدٍ يخضع معه إخوته ووالده بين يديه.

وتتملّك الذي يتلو سورة يوسف الدهشة أن يُلقيه إخوته في بئر مُعطلّة بعيدة عن العمران. وتعثر عليه قافلةٌ مارّةٌ من هناك، وتنقذه، وتبيعه في مصر، إلى أن يستخدمه العزيز في بَلاطه. وتراوده زوجة العزيز عن نفسه ويأبى أن يعصي ربّه بالغيب، ويزجُّونه في السجن ظلماً وعُدواناً.

ويأخذ في تأويل أحلام السُّجناء إلى حدٍ يطير معه صيته في التأويل، ويصل ذلك إلى مسامع العزيز، فينادي على يوسف ليؤوّل له رؤياه المشهورة. ويقنع العزيز بتأويله ويجعله على خزانة التموين. حيث يتعرّف إليه إخوته أيّام القحط ويأتي بهم ويضمّهم إلى حاشيته، ليتحقّق ماوعد الله به يوسف الذي تضمنته رؤياه:

﴿إنّي رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر لي ساجدين.﴾

ليتأكّد له أنّ المقصود من الكواكب الأحد عشر إخوته، ومن الشّمس والقمر والداه. وهكذا تبدو للعيان تجليّات صفة الله (الحفيظ). وبالتالي يثبت من هذه الوقائع والأحداث التي احتوتها قصّة يوسف عليه السّلام، أقول يثبت وجود الله عزوجلّ وأنّ من أسمائه الحُسنى "الحفيظ".

ولانذهب بعيداً في تقصّينا للوقائع والأحداث المتعلقة بتجليات صفة الحفيظ. فهذا القرآن الكريم الذي نتلوه يومياً، يُعتبر أكبر مثالٍ حيٍ محسوس يثبت من خلاله وجود الله "الحفيظ".

فلنعد إلى ماقبل أربعة عشر قرناً من الزّمان، ونُصغي إلى آيات سورة الحجر التي نزلت في السنوات الأولى للدعوة الإسلامية في مكّة المُكرّمة، حيث يقول الله تعالى فيها: **﴿وقالوا ياأيّها الذي نُزّل عليك الذّكر إنّك لمجنون. لوما**

تأتينا بالملائكة إن كنت من الصّادقين. مانزّل الملائكة إلاّ بالحق وماكانوا إذاً مُنطرين. إنّا نحن نزلّنا الذّكر وإنّا له لحافظون.﴾.

فإن علمنا بأنّ معنى الذكّر في اللغة الشرف والرّفعة. تبيّن لنا أنّ ا لله عزوجل يشير هنا إلى أنّ تعاليم القرآن الكريم هي أساس شرف الإنسان ورفعته.

وهذه الآيات الكريمة نصّت صراحة على أنّ ا لله "الحفيظ" وعدنا بالمحافظة على وحيه القرآني مهما طالت الأيّام وتقلّبت الأحوال وتعددت السنون. وهو وعدٌ إلهيٌ مُطلقٌ غير مُقيّد بقيد، على مايبدو من ألفاظه.

فماهي مُناسبة هذا الوعد الإلهي؟ مناسبته مطالبة المكذّبين برسالة محمد (ﷺ) والمستهزئين بما ينزل عليه من وحي، إلى جانب مُطالبتهم بمشاهدة الملائكة التي تنزل على محمّدٍ (ﷺ) بهذا الوحي القرآني، مُطالبةً هي من قبيل تعجيزه، وامتهاناً لقدرة ا لله الذي أرسله بهذا الوحي القرآني.

فهل كان يملك محمد (ﷺ) حقّ إصدار أوامره إلى ملائكة ا لله حتى يطالبه الذين كذبّوه بمثل هذه المطالبة؟

هذا، وقد اتّخذ ا لله تعالى "الحفيظ" مطالبة هؤلاء ذريعة ليُعلن هنا للنّاس كافة أنّه جلّ شأنه لاينزل ملائكته إلا بالحق. والحق يعني لُغةً الأمر المقضّي والموجود الثابت والعدل والصدق والموت والحزم والمال والمُلك، وضدّ الباطِل، وإلى ذلك كله فهو اسم من أسماء ا لله الحسنى. وعليه يكون تعالى قد وضّح بقوله **﴿مانزّل الملائكة إلا بالحق﴾**.

بنود النّهج والقانون الذي يُنزل ملائكته بمُقتضاه. وهذه البنود هي:

أولاً - تنزل الملائكة لتنفيذ أمرٍ إلّهي مبرم.

ثانياً - وأن يتعلّق هذا الأمر بموجودٍ ثابت.

ثالثاً - وأن يكون هذا الأمر الإلهي عدلاً لاإجحاف فيه.

رابعاً - وألاّ يتعدّى هذا الأمر نطاق الصّدق.

خامساً - وأن يكون متعلّقاً أحياناً بموتٍ أو حياة.

سادساً - أو يكون متعلّقاً بمال ورزق، أو بمِلك فلان من العباد.

وهو تعالى وقد أوضح النّهج الذي ينزل ملائكته بموّجبه أضاف قائلاً: **﴿وماكانوا مُنظرين﴾**. أي ينزلون ولاتراهم أعين النّاس. كما أضاف

على ذلك وعده الصّريح بالمحافظة على وحيه القرآني من خلال قوله تعالى: ﴿إنا نحن نزّلنا الذّكر وإنّا له لحافظون.﴾.

وهاقد مضى قرابة أربعة عشر قرناً من الزّمان، وهذا القرآن الكريم الذّي أثبتُ مصداقية مرجعيّته في كتابي هذا، لايزال محفوظاً من أيّ تحريفٍ أو تبديل أو زيادةٍ أو نقصان، ويتداوله جميع النّاس بالتّلاوة والإعجاب. هذا بالرّغم من جميع الأخطار التي جابهت وجوده سالماً وهدّدته بالزّوال. وقد تحقّق أمر المحافظة على هذا الوحي القرآني، وذلك مصداقاً لوعد الله "الحفيظ" الكبير المُتعال، الله الذي ينزل ملائكته لحراسته من جميع الأخطار التّي تتهدّده، وماكان ملائكة الله حين ينزلون لِمُهمّتهم بِمُنطرين.

وهذا عصرنا، وقد اختُرعت فيه آلة طباعة مُتطّورة، قد ساعد على طباعة هذا القرآن العظيم بمليارات النُّسخ. وجميع نُسخه مطبوعةٌ على نُسخة عثمان التي وزّعها على الأمصار.

والمسلمون بالرّغم من التّخلف الذي وقعوا فيه، فهم يهتّمون بطباعة هذا القرآن الكريم بأرقى وأنفس أشكال الطّباعة، كما يتوازعون نُسَخَهُ هدايا بينهم، بل وتتباهى الفتيات بتعليقه على صدورهن، وبتزيين الجُدران بآياته الكريمة. فهل حدث هذا كلّه ويحدث باُترى مصادفة واتّفاقاً؟ أم يحدث مصداقاً لقوله ووعده عزوجلّ: ﴿ إنّا نحن نزلنا الذّكر وإنّا له لحافظون.﴾؟

فها أنّ الله "الحفيظ" أوفى بوعده الذي وعده في سورة الجمعة. وبعث أيضاً في ﴿الآخرين منهم لَمّا يلحقوا بهم﴾ أعظم مُجدّدي هذه الأمة، فوضع على يديه لبنة إعادة مجد الإسلام. وأوفى بذلك بوعده الذي وعده في موضع آخر من كتابه ﴿ثمّ إنّ علينا بيانه.﴾ - القيامة ١٧ - على يدي هذا المجدّد أيضاً. فسبحان الله عالم الغيب والشّهادة الكبير المُتعال.

وإلى مثال آخر يثبت من خلاله وجود الله "الحفيظ". وهو مثال وعد الله فيه بحراسة وحفظ نبيّه محمد (ﷺ) ﴿والله يعصمك من الناس﴾. هذا الوعد الذي مكّن محمداً (ﷺ) من إتمام رسالته وتوديع أمّته بخطبة الوَداع، ومن ثم توفّى الله محمداً رسوله وفاةً طبيعيّة، ووفق نبوءات الكتب السماوية السّابقة أيضاً الواردة إحداها في سفر التّثنية ١٨/١٨.

ولنُطالع الآية (٦٧) من سورة السّجدة التّي نصّت على الوعد بالمحافظة على حياة محمد بن عبد الله (ﷺ)، قال تعالى مخاطباً رسوله الكريم: ﴿**ياأيّها الرّسول بلّغ ماأُنزل إليك من ربّك، وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته، والله يعصمك من الناس، إنّ الله لايهدي القوم الكافرين.**﴾. وهذا الوعد اشتمل على الأمور الثّلاثة التالية:

الأوّل: هو أنّ هذا الوحي قد اشترط على محمد رسول الله (ﷺ) ألاّ ينكُصَ على عقبيه، وألاّ يتراجع عن نشر وتبليغ دعوة ربّه. وإشارةً إلى هذا الأمر ورد قوله تعالى: ﴿**ياأيّها الرّسول بلّغ ماأُنزل إليك من ربّك، وإنْ لم تفعل فما بلّغت رسالته.**﴾.

الثاني : والأمر الثّاني هو أنّ الله تعالى وعد محمداً في مقابل ذلك بحراسة شخصه الكريم والمحافظة على حياته. وإلى هذا الأمر أشار تعالى بقوله : ﴿**والله يعصمك من النّاس.**﴾، ومعنى عَصَمَ الله فُلاناً، حفظَهُ من المكروه ووقاه.

الثالث : والأمر الثالث الذي اشتملت عليه هذه الآية الكريمة، هو الإشارة إلى قانون قدري مُبرم مسنون. وهو أنّ الله تعالى لايهدي الكافرين إلى الوسائل النّاجعة الّتي تساعدهم على النّجاح في محاربة الرُّسل الكرام، والفوز عليهم. بل إنّه تعالى يُزيغ أفئدتهم وعقولهم ويعمي أبصارهم ويضلّل مُخططّاتهم، فلا يدعهم يفلحون في أغراضهم.

فمن هذه الأمور التي اشتملت عليها الآية من سورة السّجدة، نُدرك ورود نصٍ صريح العبارة بحراسة شخص محمد اليتيم الأمّي والمحافظة على حياته وتوفيته وفاةً طبيعيّة.

ومن لايدري بالمؤامرات الخطرة التي حاكها المشركون وسواهم لقتل محمّدٍ (ﷺ) والقضاء على دعوته؟ وهل يشك باحث في أمر نجاة هذا الرسول الكريم من جميع هذه المؤامرات؟

أفلم يتآمر المشركون آخر سنوات الدّعوة في مكّة المكرمة، أن يقتلوا محمداً (ﷺ) ويضيّعوا دمه بين جميع القبائل العربية؟ فجمعوا لتحقيق مقصدهم

الدنيء هذا مندوباً عن كلّ قبيلة عربيّة، وأحاطوا سرّاً بدار رسول الله لينقضّوا عليه صباحاً حين يغادر منزله ويقضوا عليه؟

أفلم ترو لنا الأخبار كيف أطلع الله تعالى رسوله الكريم على خيوط مؤامرة هؤلاء، وأمره بالهجرة إلى المدينة المنورة، فهاجر إليها وبرفقته صاحبه أبو بكر الصّديق رضي الله عنه. وخلال الهجرة وهما في طريقهما إلى المدينة المنّورة، طاردوه بقيادة أشهر قفّاء للأثر يومذاك.

وقد كان يُفترض بالقفّاء أن يُطلّ داخل الغار، الذي كان مكشوفاً لناظرية. فلِمَ لم يفعل، بل وتلفّت يُمنةً ويُسرةً، وأطلق كلمته المشهورة: (إمّا أن يكون محمّد داخل هذا الغار، وإمّا أن يكون قد صعد من هنا إلى السّماء.) سيرة ابن هشام.

فلقد كان من أبسط مايقتضيه العقل والمنطق في تلك اللّحظات الحرجة أن يُطلّ ولو واحدٌ من الذين يطاردون محمداً ليمسكوه ويقتلوه، أن يُطلّ إلى داخل الغار، ولو على سبيل الاطّلاع. فلو أطلّ أحدهم لاكتشفوا وجود رسول الله وصاحبه داخل الغار. فمن الذي شلّ أجهزة تفكير هؤلاء المتآمرين؟ إلاّ أن تكون ملائكة الله قد شلّت تفكير هؤلاء جميعهم، وأزاغت قلوبهم وأذهانهم وأعْمَتْ أبصارهم عن ذلك؟

من الناس العفويّين من يزعم أنّ خيوط العنكبوت كانت قد سدّت فوهة الغار. أقول : وهل كان هؤلاء المشركون يجهلون وجود العناكب الكبيرة الهرمة في مثل تلك الأمكنة المهجورة، تلك العناكب التي ماإن يخرق أحدٌ شباكها، إلاّ وتسارع إلى ترميم شباكها لاصطياد فرائسها؟

ثم أو لم يقل القفّاء لهؤلاء المتآمرين (إمّا أن يكون محمد داخل الغار، أو يكون قد صعد من هنا إلى السّماء)؟ ففي هذه الألفاظ حثٌ للنظر داخل الغار. فما هذا الجمود في التفكير الذي أصابهم، إلاّ أن يحدث بتدخّلٍ من ملائكة الله عز وجلّ؟

وفي داخل الغار، وفي تلك اللحظات الحاسمة، سمع أبو بكر كلمات رسول الله (ﷺ) يقول له، وقد شعر بتغيّر ملامحه: (لاتحزن إنّ الله معنا).

وهل يتلفّظ بمثل هذه الألفاظ إلاّ من كان على يقين جازم من وعد ربّه إياه بالمحافظة على حياته. هذا الوعد الذي نصّ عليه قوله تعالى : ﴿والله

يعصمك من النّاس﴾. وعلى يقين جازمٍ أيضاً أنّ ملائكة ربّه تنزل الآن لتضلّ أذهان المتآمرين وتزيغ قلوبهم وتعمي أبصارهم؟ هذا اليقين الذي نشأ عن قوله تعالى: ﴿**له مُعقبّاتٌ من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله.**﴾.

وعليه، فإن دلّت هذه الوقائع والأحداث وأمثالها على شيء، فإنّما تثبت وجود الله (الحفيظ)، الذي إذا وعد أن يحفظ أحداً من شرور أعدائه ويحرسه، يحفظه ويحرسه بأدقّ الوسائل التي لاتدركها الأبصار. خصوصاً وأنّ الله تعالى هو عالم الغيب والشّهادة الكبير المُتعال.

فمن خلال هذه الوقائع والأحداث التاريخية التي أتينا على ذكرها يتأكّد لكل عاقلٍ مفكّر وباحث أنّها جميعها تثبت وجود خالق هذا الكون ومُدبّره، واتّصافه أيضاً بصفة "الحفيظ". وتكون صفة الحفيظ بذلك دليلاً محسوساً من الأدلة التي تثبت وجود الله عزّ وجلّ.



الفصل الرابع ـ ثالثاً : الأدلة السّلوكية المُطمئنة

١ً ـ دليل الانتظار والترقُّب

بعدما أسلفت بطرح الأدلّة التي تثبت وجود ا لله تعالى، على شاكلة مايفعله الفلاسفة، ولاباصطلاحاتهم أيضاً. وكنت أستقي أدلّتي الثبّوتيّة ممّا اشتملت عليه آي الذّكر الحكيم. الكتاب الذي سبق لي إثبات مصداقية مرجعيّته وأنّه وحي ربّ العالمين أوحي به إلى محمد بن عبد ا لله اليتيم الأمّي وخاتم النبيّين (ﷺ)، وليكون رحمة للنّاس كافة إلى يوم الدّين.

أقول : إنّ من مظاهر كمال القرآن الكريم أنّه يُمدّ المتدّبرين في كلّ زمان ومكان بما يناسب عصرهم من أدلّة وعلوم وبراهين مخبأةٍ في ثنايا آياته الكريمة، وليزداد بذلك في أعين النّاس مهابةً وتعظيماً. ولاتأتي أدلّة القرآن هذه التي يثبت منها وجود ا لله تعالى الذي أنزلها، هكذا لارابطة بينها. بل سبق لي أن أثبّت أنّها جميعها مُنزلةٌ وفق منهاجٍ علمي وقوانين. هذا الأمر الذي لم يسبق لأي كتابٍ سماويّ امتاز به من قبل إنزال القرآن الكريم.

ولابُدّ أنّ المتابعَ لمواضيع هذا الكتاب قد لاحظ كيف أنّ نهج الاستدلال على وجود ا لله تعالى، قد اشتمل على ثلاثة أنواعٍ من الأدّلة :

أما النوع الأول : فهو عبارة عن أدلّةٍ ذهنيّة مُستقاة من عناصر طبيعيّة والتي تؤلف هذا الكون المادّي من حولنا. وهي أدلّة تتلاءم مع مُختلف مستويات الأفهام والإدراك. فمنها البسيط ومنها المركّب من عناصر عدّة. وكان الغرض من هذا النوع الأوّل من الأدلّة، مساعدة عقولنا وأفهامنا على ترجيح اعتبار هذا الكون مخلوقاً، وأنّ له خالقاً أيضاً.

وأمّا النوع الثاني : من هذه الأدلّة، فقد أمدّتنا به الوقائع والأحداث المحسوسة التي تجلّت بها أسماء ا لله الحسنى، وعدد هذا النوع من الأدلة يوازي عدد أسماء ا لله تعالى ذاتها.

وأمّا **النوع الثالث** : من هـذه الأدلـة، فهـو أدلّـةٌ سـلوكية تتطلّـب مـن الإنسان سلوك طريق مُحدّدٍ بغاية التعرّف علـى خالقـه وخـالق هـذا الكـون مـن حوله. فمن هذه الخطوات السلوكية ماهو سلبيٌّ ومنها ماهو إيجابي.

وهذا النّوع السّلوكي من الأدلّـة، ينقـل المرء نقلـةً نوعيّـةً، وبأسـلوبٍ علمي، ليصل به إلى مرحلة الإطمئنان والتّيقّن بوجود ربّه عزوجلّ. بـل وبالتـالي التعـرّف عليـه ويصـل بذلـك شـاطيء الأمـان. مصداقـاً لقولـه تعـالى: **﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبُلَنا، وإنّ ا لله مع المحسنين.﴾** ـ العنكبوت ٦٩ ـ

والسّؤال الذي يطرح نفسه هنا هـو : لـماذا اصطلحـت أنـا لهـذا النّـوع الثالث من الأدلّة اسم الأدلّة السّلوكية؟

أقول : إنّ كلمة (سلوكيّة) مشـتقة مـن السـلوك. تقـول سـلك المكـان يسلكه سلوكاً : دخل فيه. وكذا سلك الطرّيـق : دخلـه وسـار فيـه مُتبّعـاً إيّـاه. ويُسمى الإنسان حينئذ : السّالك. وسـلك الشـيء في شـيء آخـر : أدخلـه فيـه، كما نسلك أيدينا في جيوبنا، وقد أورد القرآن الكريم هذا اللّفظ في قولـه تعـالى: **﴿سلكناه في قلوب المُجرمين.﴾**. (محيط المحيط)

وعليه فالسّالك هو الإنسان الذي أقدم علـى خطـواتٍ إيجابيّـةٍ للوصـول إلى أمرٍ انجذب إليه وأراد بلوغه والوصول إليـه. وهـذا ماقصدتـه بمصطلـح الأدلّـة السلوكّية.

وفي الحقيقة فإنّ الأدلّة الترجيحيّة، ماهي إلاّ حصيلـة مُحاكمـات ذهنيـة واستنتاجات لايكون من شأنها أن تصل بالإنسان إلى مرحلـة الاطمئنـان القلبي، بل تصل به إلى مرحلة ترجيحٍ ذهنيّة ليس إلاّ.

وعلى سبيل المثال، فإن وقف أحدُنا يبرهن لآخر عن وجود إنسان مـافي أحد البيوت، وقدّم له مئات الأدلة على ادعائـه. فـلا تـوازي أدلّتـه هـذه ماتحدثـه مشاهدته هذا الإنسان المبرهن على وجوده ، بأمّ عينيه.

وهذا الفرق في العلم اقتضى أن يقدّم ا لله تعالى للمحقّق أدلّـةً مـن نـوعٍ آخر وهو ماسمّيناه بالأدلة السّلوكية التي تتجاوز مرحلة المحاكمات الذهنية وتنقـل إلى مرحلة الاطمئنان القلبي. علماً بأنّ الأدلة السلوكية أنواع :

فمنها مانقدّمه لإنسان يسعى للمعاجزة فحسب، ومنها مانقدّمه لإنسان كافر يطلب الحقيقة . ومنها مايُلزم المؤمن بسلوكه بعد إيمانه.

ولنبدأ بالكلام عن الدّليل السّلوكي الذي يقدّم لإنسان كافر بالإسلام، ومُقلّدٍ لآبائه وأجداده دون محاكمة منه لعقائدهم، والذي يريد المعاجزة في أسئلته، الذي يرى كلّ آيةٍ فلا يؤمن بها، ويثابر على المطالبة بمشاهدة مايثبت وجود الله وصدق رسوله الكريم. وهذا القسم من الناس وصفهم الله تعالى في الآية (١٧٩) من سورة الأعراف بقوله تعالى: ﴿**ولقد ذرأنا لجهنّم كثيراً من الجنّ والإنس لهم قلوبٌ لايفقهون بها ولهم أعينٌ لايُبصرون بها ولهم آذانٌ لايسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضلّ، أولئك هم الغافلون.**﴾.

ومن مظاهر رحمة الله الواسعة أنّه تعالى لم يهمل تقديم الدليل المناسب لهذه الفئة الكافرة المقلّدة من الناس، بل قدّم لهؤلاء دليلاً سلوكيّاً، إنْ سعوا للاستفادة منه وُهبوا البصيرة وكانوا من المؤمنين.

وخلاصة هذا الدّليل السّلوكي أن تطلب من هذا القسم من الناس أن يسلك الواحد منهم موقف الحياد من دعوة الحقّ ومن أهلها، وأن يُراقبوا تطوّرات الأحداث عن بُعد، فلا يلزمون جانباً دون جانب. وأن ينتظروا ظهور النتائج. فلابدّ أن تكون العاقبة للمُتقّين. أما إذا لم يلتزموا الحياد، وانضموا إلى صفوف من يُقاتل جماعة المؤمنين أصحاب دعوة الحقّ ويشاقّوا الرسول، فلابد أن يُنزل الله جل شأنه العذاب بساحة هؤلاء المكذّبين المُتعجّلين.

والله عزوجلّ عندما أوصى هؤلاء بسلوك طريق هذا الدليل، فليكشف لهم عن واسع رحمته عزوجلّ. والمؤسف أنّ أكثرية هذا القسم من النّاس يقفون مواقف غريزية حيوانية لأن لهم قلوباً لايفقهون بها ولهم أعين لايُبصرون بها ولهم آذانٌ لايسمعون بها أولئك كالأنعام، بل هم أضلّ أولئك هم الغافلون.

هذا الدليل السلوكي تضمّنته الآية (٢١) من سورة يونس وهو قوله تعالى: ﴿**ويقولون لولا أنزل عليه آيةٌ من ربّه، فقل إنّما الغيب لله، فانتظروا إني معكم من المنتظرين.**﴾. وهو تعالى أراد هنا الكلام من خلال (ويقولون) عن فئة المقلّدين المُعاجزين. وقصد من قولهم ﴿**لولا أُنزل عليه آيةٌ من ربّه**﴾ استعجالهم للعذاب، ليكون في نظرهم دليلاً على وجود الله وصدق رسوله الكريم. ذلك أنّ (الآية) تعني لغةً الدّليل والبرهان. بمعنى أنهم يُطالبون باستعجال العذاب الذي أنذرهم به رسول الله (ﷺ). و لم يكن القصد من طلب إنزال

(آية)، طلب إنزال آيةٍ قرآنية. فالآيات القرآنية كانت تنزل تترى كل يوم، وتصل أخبارها إلى مسامع هؤلاء الكافرين أيضاً. والمقصود من الآية هنا تقديم دليلٍ وبرهانٍ من ربّه. واستعير الدليل هنا للعذاب.

بدليل قوله بعد ذلك: **﴿فقل إنّما الغيب لله﴾** أي أنّ توقيت إنزال العذاب بكم هو أمرٌ غيبيّ، ولايعلم الغيب إلا ا لله. ولايُجليّه إلا هو. وقد أتى جلّ شأنه بعدها بفاء الاستئناف وقال: **﴿فانتظروا إنّي معكم من المُنتظرين.﴾**. وهذه الألفاظ اشتملت في حقيقتها على الدليل السّلوكي.

وكأنّ ا لله عزوجلّ يتوجّه من خلال دليله السّلوكي هذا للسؤال من فئة المقلّدين هؤلاء، ويقول لهم : لماذا تستعجلون نزول العذاب؟ فإن نزل بكم العذاب يقضي عليكم وأنتم في بعدٍ عن تبيّن وجود ا لله وصدق رسوله.

ومن واجبكم أن تعالجوا الأمر بمنطقٍ وحكمة فتسلكوا على الأقل سبيل الانتظار والحياد في هذه القضيّة.

والانتظار في اللغة من انتظر أي ترقّب وتوقّع، أي أن تسلكوا سبيل الترقّب والتوقّع انتظاراً لظهور نتائج تطورات الأحداث، فيعود في أيديكم حينذاك دليل بيّنٍ واضح يثبت منه صدق الإعلان عن وجود ا لله الحيّ القيّوم الذي بعث محمداً برسالة الحق. ويعود المجال أمامكم فسيحاً لتؤمنوا فلا تخسروا دنياكم وآخرتكم. فإن ثبت العكس فلا تكونون بانتظاركم وحيادكم قد خسرتم شيئاً، بأيّ حال من الأحوال.

ولم يكتف جلّ شأنه بهذا الوجه من الرحمة، بل أضاف قوله : **﴿إنّي معكم من المُنتظرين﴾**. وحرف (إنّي) أتى به تعالى هنا للتأكيد وليقول بألفاظٍ أخرى أنّ رسوله الكريم مضطربٌ لظهور نتائج الأحداث أكثر ممّا أنتم مضطربون.

والمعنى أن أيّها الحمقى، مادام رسولنا مُنتظراً ظهور النتائج والعواقب، فلماذا يثقلُ عليكم سلوك سبيل التّرقب والانتظار؟

المهمّ هو أن المؤمن الذي يصادف إنساناً تقليدياً لايستعمل مواهبه ولاحواسه، ويلاحظ أن هذا الإنسان يُعاجز بطلب الدّليل على صدق مايدعوه إليه. فلا وسيلة لديه إلاّ بإلزامه بسلوك سبيل هذا الدّليل السّلوكي ومطالبته بالحياد والانتظار. والدّعاء له من ا لله الهادي أن يُلهمه سبيل الرشّاد.

فلو وقف أبو جهل من دعوة محمد رسول الله موقفاً محايداً، وانتظر تطورات الأحداث ونتائجها، فلربّما كان صان نفسه من المصير الذي آل إليه في معركة بدر الكبرى. وهذا ابنه عكرمة الذي تحقّق فتح مكّة في حياته قد كتبت له عاقبة النّجاة والهداية.

وهكذا فالمقلّد الذي لايستعجل العذاب ويترقّب عواقب الأمور ويسلك سبيل هذا الدليل السّلوكي، تشمله رحمة الله تعالى ويكون من المهتدين.

هذا الدليل السّلوكي ورد في عدة مواضع من كتاب الله العزيز اقتضاها التّسلسل الموضوعي. فقد أورده تعالى في الآية (٧١) من سورة الأعراف وبتوسّع قليل عمّا رأيناه، حيث قال: ﴿**قالوا أجئتنا لنعبُدَ الله وحده ونذر ماكان يعبد آباؤنا، فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصّادقين - أي بما تعدنا من العذاب - قال قد وقع عليكم من ربّكم رجسٌ وغضب، أتجادلونني في أسماء سمّيتموها أنتم وآباؤكم مانزّل الله بها من سلطان، فانتظروا إنّي معكم من المنتظرين. فأنجيناه والّذين معه برحمةٍ منّا، وقطعنا دابر الّذين كذّبوا بآياتنا وماكانوا مؤمنين.**﴾.

وأدلى تعالى بهذا الدّليل السّلوكي بأسلوب آخر في الآية (١٠٢) من سورة يونس حيث قال: ﴿**قل انظروا ماذا في السّموات والأرض، وماتغني الآيات والنّذر عن قومٍ لايؤمنون. فهل تنظرون إلاّ مثل أيّام الّذين خلوا من قبلهم، قل انتظروا إنّي معكم من المنتظرين.**﴾ بمعنى أن الباحث عن الحقيقة، يدأب على تقليب الأمور على أوجهها، ويراقب ماتأتي به السموات والأرض من تطوّرات وتقلُّبات، فلا يستعجل عذاب الله، إلاّ أن يكون كافراً مقلّداً لآبائه وأجداده ويُعاجز رسل الله تعالى. ولايعتبر بعواقب الأمم من قبله ولابمصيرهم السّيء الذي آلوا إليه: ﴿**فهل تنظرون إلاّ مثل أيام الذين خَلَوا من قبلهم.**﴾؟ ومن ثم حذّر الله تعالى هؤلاء ونصحهم بالأخذ بها بسلوك هذا الدليل السّلوكي رحمة بأنفسهم وقال : ﴿**قل انتظروا إني معكم من المنتظرين.**﴾.

وكذلك أدلى تعالى بهذا الدليل السّلوكي في الآية (١٢٢) من سورة هود، حيث قال: ﴿**وقل للذّين لايؤمنون اعملوا على مكانتكم، إنا عاملون. وانتظروا إنّا منتظرون. و لله غيب السموات والأرض وإليه يُرجع الأمر كلّه، فاعبده وتوكّل عليه، ومَاربّك بغافلٍ عمّا تعملون.**﴾. أي اعملوا على ماتعتقدونه ونحن نعمل على مانعتقد. ﴿**وانتظروا إنّا منتظرون**﴾ أي والزموا

جانب الحياد وراقبوا تطورات الأحداث من بعيد، ونحن بانتظار عواقب الأمور أكثر ممّا أنتم فيه من لهفةٍ واضطراب. ﴿**و لله غيب السموات والأرض وإليه يُرجع الأمر كلّه.**﴾ أي أنّ النتائج بيد الله تعالى يُجليّها لوقتها متى شاء. ومادام الله موجوداً، فالمعقول أن يُرجع الأمر كلّه لله عزوجل. ﴿**فاعبده وتوكّل عليه ومابربّك بغافلٍ عمّا تعملون.**﴾.

وبذلك نكون قد أحطنا علماً بالدليل السّلوكي الأوّل الذي يهب السّالك وفق مضمونه علم اليقين. والذي يواجه به الإنسان المؤمن الإنسان المُكذّب المقلّد ممن يقولون إنّا وجدنا آباءنا على ملّةٍ وإنّا على آثارهم مُقتدون. أولئك الذين لايستعملون عقولهم، ولايستفتون أفئدتهم. فمِن واجب المؤمن أن يطالب ويحثّ هؤلاء للوقوف موقف المحايد المراقب، وإلاّ فلا تُجدي مع هؤلاء الجهود والأوقات تُبذل لغير هذا السبيل.

٢ ـ الدليل الثاني ـ دليل الاستعانة بالدّعاء

والدليل السلوكي الثاني الذي يثبت منه وجود الله عزّ وجلّ. هو دليل سلوك طريق الدّعاء. وقد صرّحت بهذا الدّليل السلوكي الآية (٦٠) من سورة غافر، من خلال قوله تعالى: ﴿**وقال ربّكم ادعوني أستجب لكم، إنّ الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنّم داخرين.**﴾. أي أنّ الذي يدعو الله أن يكشف له عن وجوده متذلّلاً ومتواضعاً، يستجيب له الله ويبلغ بعلمه في هذا المجال عين اليقين، إنما ينبغي أن يدعو غير مستكبر، ويجيبه ربّه وفق منهاج وقانون.

وهذا المنهاج والقانون اشتمل عليه قوله تعالى في نفس الآية الكريمة : ﴿**إنّ الذّين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنّم داخرين.**﴾.

فما معنى الدّعاء في اللغة العربية بادىء ذي بدء؟ تقول دعا الله يدعوه أي رغب إليه وابتهل بالسؤال بين يديه ورغب فيما عنده من خير (محيط المحيط) فالمقصود من (ادعوني) ارغبوا إليّ، وميلوا للسّؤال مني، وابتهلوا بين يديّ، وارغبوا فيما عندي من خير.

والملاحظ أنه تعالى إذ قال: ﴿**وقال ربّكم**﴾ أتى بصفة الربوبيّة. والرّب في اللغة هو الذي يطوّر الشيء حالاً بعد حال حتى يصل به مرتبة الكمال

والتمام[1] . إشعاراً منه تعالى إيّانا أنه يدفعنا لسلوك طريق الدّعاء بدافع ربوبيّته. فإن استنكف المرء عن سلوك هذا السّبيل، يُعتبر في نظر ربّه عزّوجلّ مُستكبراً، ويحقّ عليه قوله: ﴿**إنّ الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنّم داخرين.**﴾، أي صاغرين.

والسؤال المطروح هنا: لأيّة فئة من النّاس وُجّه هذا الدليل السلوكي؟ وجوابه يبدو واضحاً من كلمة (ربّكم). ذلك أن من نقلناه ذهنيّاً إلى مرحلة ترجيح وجود الله تعالى عن طريق أدلتنا الذهنيّة التي سبق أن طرحناها. فقد أصبح هذا الإنسان بحاجة إلى دليلٍ ينقله نقلةً نوعيةً على طريق الإيمان بالله والتثبّت من وجوده عزوجلّ.

وهذا الدليل السّلوكي أي سلوك طريق الدّعاء أي الرّغبة والعودة إلى الله الرّب والابتهال بين يديه متذلّلاً متضرعاً، وطلب التثبّت من وجوده ونيل ماعنده من خير، هو الذي سيساعد هذا الإنسان كدليل بين يديه وفي متناوله، يساعده على الانتقال النقلة النوعيّة المطلوبة.

ولنلاحظ أن الله جلّ شأنه لم يعلّمنا أن ندعو طالبين رؤيته تعالى، بل علّمنا الاستفادة من ربوبيته بطريق الدّعاء. لاستحالة رؤية الله عزوجلّ.

فهو قال: ﴿**لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير.**﴾ بمعنى أنّ أبصار الإنسان لاتدرك إلا الأشياء المادية ذات الحيّز المنظور. بينما الله تعالى منّزةٌ وجوده عن التحيّز المادي للطافته عزوجل ﴿**وهو اللطيف**﴾. لذلك يستحيل على عين الإنسان رؤية بارئها. وهو تعالى، مع لطافته فهو يدرك هذه الأبصار لكونه (الخبير) أي الذي يملك وسائل رؤية هذا البشر المخلوق.

وكأنه تعالى يخاطبنا بقوله : لاتعجبوا إن كنت لم اعلمكّم سلوك طريق رؤيتي. فذاتي لاتُرى مباشرة بل أكشف عن وجودي بكلامي معكم وبآثار تجليّاتي.

والحقيقة المعلومة هو أنّها توجد في عالمنا المادي أشياء كثيرة لاتُرى إلاّ بآثارها. لذلك، لانستغرب أن يقول تعالى عن ذاته: ﴿**لاتُدركه الأبصار وهو**

---

[1] ـ أقرب الموارد

يدرك الأبصار..﴾. فالمغناطيس على سبيل المثال لايُدرك وُجـوده إلا مـن خـلال جذبه لبرادة الحديد.

ثم إنّ الحواس الخمس ليست هـي وحدهـا وسـيلة التحقّـق مـن وجـود شيءٍ ما. فهنـاك طريـق القيـاس مثـلاً. فنحـن لانـدرك أنّ فلانـاً غاضبـاً بـإحدى حواسنا الخمس. بل ندركه من خلال مايرتسم على وجهه من قَسَمات. وقيسـوا على ذلك علامات الألم والسرّور وسواها من الحالات. كذلك فإنّ الأشـياء الـتي تدرك بالحواس، منها ماتدركه العيون ومنها لاتدركه العيون كالإحساس الداخليّ للإنسان.

وعليه فا لله جلّ شأنه يستحيل علينا أن ندركـه ونـراه بأبصارنـا. وكـل مانستطيعه، فهو إدراك وجوده من خلال تجليّاته وكلامه. ولاتعتـبر رؤيـة الـذات الإلهية شرطاً للإيمان به تعالى. وإنّ من الجهالة بمكـان أن يشـترط امـرؤ رؤيـة ا لله تعالى للإقرار بوجود ربّه عزوجلّ. ومـن هنـا تتجلّى لأعيننـا أهميـة هـذا الدّليـل السّلوكي الذي يدور مضمونه حول الدّعاء طلباً لإثبات وجود الخلاق جلّ شـأنه للإيمان به.

ذلك أن الإنسان الذي رجّحت الأدلّة الذهنيـة لديـه وجـود خـالق لهـذا الكون وأحبّ الانتقال من تلك المرحلة نقلةً نوعيّةً يعلم معهـا حـقّ العلـم وجـود هـذا الخـالق، لايجـد أمامـه سـوى الأخـذ بهـذا الدليـل السـلوكي الثـاني ونهجـه وقانونه.

أن يقف بين يديّ ربّه يدعوه أن يكشف له عن وجـوده تعـالى، وآخـذاً بحسبانه عند الدّعاء أنّـه وقـف بـين يـدي ا لله الحـيّ القيـوم الـذي لاتـأخذه سِـنةٌ ولانـوم، مـالك السـموات والأرض ومابينهمـا، وعـالم الغيـب والشـهادة الكبـير المتعال. أن يتصوّر عظمة ا لله جل شأنه وذلك على ضوء ماأطلعنا القرآن الكريـم عليه من أسماءَ حُسنى لله. ومُعترفاً بضعفه بين يديه وباحتياجه إليه عزوجلّ. وا لله تعـالى نفسـه هـو الـذي علّمنـا أن ندعـو: **﴿إيّـاك نعبـد وإيّـاك نسـتعين﴾**. فـإن استوعب هذا السّالك الداعي جميع هذه التصّـورات، معترفـاً بذنوبـه، ومتواضعـاً مُبتهلاً، فلابدّ أن يستجيب له ربّه دعاءه، فلا يتركه يرتدّ خائبـاً، إنّمـا علـى هـذا الإنسان السّالك أن يضع بحسبانه أنّ ربّه يجيبه ولكـن مـن مُنطلـق كونـه حكيمـاً خبيراً.

فهذه هي عناصر نهج وقانون الدّعاء الذي يتطلبه هذا الدليل السّلوكي. فإن سلك المرء طريقاً يغاير هذه العناصر وهذا النهج في دعائه، ومـاقدَرَ ا لله حـق قدره عند الدّعاء، فلاينبغي له أن يتأفف من بعد ويقـول هـاأني دعـوت، فلـم أر شيئاً يذكر. ذلك لأنه حقّ عليه قوله تعالى: **﴿إن الذين يستكبرون عـن عبـادتي سيدخلون جهنّم داخرين.﴾**.

والذي يستكبر عن الدعاء متذلّلاً بـين يـدي ربـه، فمـن الأفضـل لـه أن يلتزم الحياد والترقّب تجاه الدعوات السّماوية، ويستفيد بذلك من بركات الدّليـل الأول السلوكي.

٣ ـ الدليل الثالث ـ دليل حقّ اليقين

إنّ من يتلو سورة التّكاثر، لابدّ أن يلاحظ من خلال قوله تعـالى: **﴿ثـمّ كلا سوف تعلمون. كلاّ لو تعلمون علم اليقين. لَـتَرَوُن الجحيـم. ثـم لَترونهـا عين اليقين.﴾** أن يلاحظ في هذه الآيات الكريمـة اصطـلاح (علـم اليقـين، وعـين اليقين). وفي آخر سورة الواقعة قال: **﴿إنّ هـذا لهـو حـقّ اليقـين. فسـبّح باسـم ربّك العظيم.﴾** وفي هذه الآية اصطلاح (حقّ اليقين).

إنّ هذه الاصطلاحات القرآنية تنبع عـن حقـائق واقعيـة، وهـي أن هـذه المُصطلحات تقسّم العلم إلى ثلاثة مستويات. فكلمة (يقـين) تعـني إزاحـة الشّـك والرّيب بطريق النّظر والاستدلال في الأمور. وكلمـة (علـم) تُفيـد معنـى الإدراك الإجمالي أو الجزئي بصورة عامة. ويكون معنى (علم اليقين) أي إزاحة الشّك عن أمر من الأمور بطريق النّظر والاستدلال بصـورة إجماليـة. وتُعبّر آيـة (كـلا لـو تعلّمون علم اليقين) في هذه الحالـة الإشـارة إلى أن علـم اليقـين هـو مجـرّد عمليـة محاكمة ذهنيّة لاأقلّ ولاأكثر. أي لو تُحاكمون الأمر ذهنياً **﴿لـترونّ الجحيـم﴾**.
من هذا ندرك أنّ الدّليل السلوكي الأول الذي دعا إلى الحياد والترقّب، يكون قد دعا إلى إجراء عمليةٍ ذهنيّةٍ بنتيجة هذا الترقّب والحياد والانتظار للخـروج بنتيجـةٍ محدّدة تكون من قبيل علم اليقين.

ثم إنّ اصطلاح علم (عين اليقين) الذي تضّمنته الآية: **﴿ثم لترونّها عين اليقين.﴾** هو مرتبة علم أسمى من مرتبة (علم اليقين) لتدخّـل عنصـر الرؤيـة فيـه.

وهو العلم الذي اعتمده الدليل السّلوكي الثاني كنتيجة مؤكّدة لسلوك طريق الدّعاء. وهو ماسيراه النائم في منامه بعد الدّعاء والاستكانة إلى النّوم.

وأما الدليل السلوكي الثالث الذي نحن الآن بصدد الكلام عنه فيدخل في أعلى مراتب العلم، وهو ماصطلح القرآن الكريم على تسميته في سورة الواقعة (علم حقّ اليقين).

ومجدّد زماننا نبّهنا إلى هذا التقسيم لمراتب العلم، وضرب لنا مثالاً على ذلك أيضاً. وهو أن المرء إذا شاهد دُخاناً من مكان بعيد. يستدل نتيجة محاكمة ذهنية، ومن خلال ملاحظته يوميّاً انبعاث الدّخان عن النّار، يستدلّ من ذلك وجود نار في مكان الدُّخان المُتصاعد وعلمه هذا علم اليقين.

فإن سار هذا الشخص، واقترب من موقع الدّخان المُتصاعد، وشاهد بأمّ عينهِ النّار المشتعلة هناك، فعلمه ذو مرتبة أسمى من علم اليقين، وقد أطلق القرآن الكريم عليه مُصطلح علم (عين اليقين). ولنفرض أن هذا الإنسان شاهد النّار فمدّ إصبعه يتحسّس حرارتها ولسعته بلهيبها. فعلمه الجديد الحاصل هو أسمى مراتب العلم، وهو ماصطلح له القرآن الكريم مُصطلح علم (حقّ اليقين). وهو علمٌ ينتفي معه كلّ شكّ وريب. ويكسب الإنسان حين الحصول على مرتبة هذا العلم اطمئناناً كاملاً. وإنّ دليلنا السّلوكي الثالث هو من قبيل الدعوة إلى تحصيل هذه المرتبة من العلم. وهي الوصول في موضوع التثبّت من وجود الله تعالى مرتبة علم (حقّ اليقين).

من هذا نُدرك السّبب في توجّه الله عزوجلّ بتقديم هذا الدليل السلوكي الثالث في خطابه المُوجّه إلى عباده المؤمنين الذّين قطعوا مرحلتي العلم السّابقتين، وكانوا من المؤمنين بوجود الله خالقهم نتيجة مُحاكمات ذهنيّةٍ ودُعاءٍ ورؤية عينيّةٍ، وعادوا بشوق إلى معرفة ربّهم معرفة (حقّ اليقين). وقد شاء الله عزّوجلّ أنْ يأخذ بأيدي هذه الفئة المؤمنة ويُسبغ عليهم من عطائه ونعمائه ويجعلهم من المقرّبين لديه. وهكذا تطمئن قلوبهم بربّهم وتأنس بعطاياه ولايعود يساورهم أي شك أو رَيْبٍ بوجوده تعالى ويكونون بالتالي من الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه، وذلك هو الفوز المبين.

وقد اشتملت على الدّليل السّلوكي الثالث الآية (١٨٦) من سورة البقرة التي قال تعالى فيها، من بعد كلامه عن فريضة الصّوم: ﴿**وإذا سألك**

عبادي عنّي فإنّي قريب أُجيب دعوة الدّاع إذا دعان، فليستجيبوا لي، وليؤمنوا بي لعلّهم يرشدون.﴾. فما معنى : ﴿**وإذا سألك عبادي عنّي**﴾؟.

إنّ الواو هنا هي واو العطف. بمعنى إذا صام الذين آمنوا مستجيبين لفريضة شهر الصيّام وسألوك أن تبيّن لهم دلالة ﴿**لعلّكم تتقّون**﴾ هذه الألفاظ التي ذيّل تعالى بها الآية هناك، وهي تتضمّن الحكمة من الصّوم، ﴿**فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان..**﴾.

وسألك: من سأل أي استخبر. فسألك تفيد هنا الاستخبار لتعدّي الفعل سأل إلى المفعول الأول بنفسه، وتعدّيه إلى المفعول الثاني بحرف (عن). ونبهّنا اللّغويّون إلى أنّ السؤال. إذا كان السائل عبداً لله، فإنّه يُفيد الاستخبار في هذه الحال إلى جانب الاستخبار بخضوع وتذلّلٍ لله عزوجلّ، وهو طلب الأدنى من الأعلى على حسب ماورد في معجم محيط المحيط وفي الجرجانيّ. أي يكون السؤال من العبد سؤال اللاّهف المحتاج والمحبّ الباحث عن محبوبه.

وهذا المعنى الذي وضّحه اللغويّون، أشار إليه لفظ (عبادي) الوارد في الآية الكريمة، وهو مشتقّ من عبد الله أي أطاعه وخضع له وذلّ له والتزم شرائعه وخدم دينه ووحّده (محيط المحيط).

والله تعالى لم يقل هنا (وإذا سألك عبادي عن عطائي)، بل قال ﴿**وإذا سألك عبادي عنّي**﴾. وهذه مسألة لها أهميّتها، فالمقصود من السؤال التّعرف إلى الله تعالى، وليس شيئاً آخر سواه، والمقصود هو الاطمئنان إلى مواصلته، وليس القصد طلب شيءٍ معيّن من الله عزوجلّ. هذا السؤال ليؤكّد تعالى به لهفة المؤمن للتعرّف إلى ربه بوسيلة التعبّد بصوم شهر رمضان المبارك، صوماً حقيقيّاً وليس صوماً صوريّاً تقليديّاً. صوماً يمضي الصائم فيه خاضعاً لله، ومُلتزماً بأوامره، ومثابراً على الدعاء والتضرّع والتذلّل بين يديه، وصابغاً سلوكه اليومي بصبغة شرعه القويم، ومحاذراً أن يبدُر عنه في أيّة حركةٍ أو لحظة من اللّحظات بادرة شرك بالله جليّاً كان أو خفيّاً. وينطبق عليه حينئذ دلالة لفظ (عبادي) الوارد في آية هذا الدّليل. فالعبد في اللغة كما بيّناه من عبد أي أطاع وخضع وذلّ وخدم والتزم الشريعة وكان من الموحّدين (محيط المحيط).

فلّما انتهى جلّ شأنه من قوله: ﴿**وإذا سألك عبادي عني**﴾ أضاف قائلاً : ﴿**فإنّي قريب**﴾. ولم يقل (بلّغ عني أني قريب)، بل أتى تعالى بالفاء

الرابطة لجواب الشرط قاطعاً بها الكلام السّابق، ومستأنفاً حقيقةً جديدةً وقـائلاً: ﴿**فإني قريب**﴾.

أي أنّ هذا العبد السّائل إذا توسّل وسعى إلى لقائي، فلاحاجـة لوسيط يتوسّط بيني وبينه على اعتبار أنّي قريب أسمع توسّلاته وتلهف فؤاده للقـائي. فـلا تفوتني همسة من همساتِ لسانه ولانبضةٌ من نبضات فؤاده، على هـذه الصّـورة جاء ربّنا عزوجلّ يطمئن عباده المؤمنين اللاّهفـين للقائـه ولمعرفتـه مـن أنّـه مـاهو كالمحبوب أو المعشوق الذّي لاتهمّه مشاعر مُحبيّه وعُشّاقه، بل إنّ الله يعزُّ عليـه أن تفتقدوه فلا تجدونه. (فإني قريب) من هـؤلاء اللاّهفـين إلى معرفـتي والتقـرّب مني. فليحسنوا ظنّهم بي، وليسلكوا سبيلي قُدُماً وهـم لايُسـاورهم شـكٌّ في أمـر تجاوُبي معهم. وأضاف جلّ شأنه قـائلاً: ﴿**أُجيـب دعـوة الـدّا ع إذا دعـان.**﴾. فأتى بفعل (أُجيب)، والإجابة في اللغة العربيـة تعـني الحـوار والـردّ علـى السـؤال والإفاضة على السّائلين بالعطاء الجزيل.

وعلمنا أنّ فرض صيام شهر رمضان المبارك، أتبعه الله تعالى بهذه الآيـة الكريمة تشرح ماينبغي أن يكون عليه حال الصائمين حتى يستفيدوا مـن بركـات هذا الصيام. ولذلك نلاحظ أنّه تعالى اشترط لإجابة السائلين إلى سؤالهم شـرطين أساسيّين هما :

الشـرط الأول : بقولـه تعـالى : ﴿**فليسـتجيبوا لي**﴾. والاسـتجابة إن كانت من جانب العبد تعني الطّاعة منه لله عزوجلّ. وإن كانت مـن جـانب الله لعبده، تعني الردّ على السؤال وإجزال العطاء. والمقصود مـن ﴿**فليستجيبوا لي**﴾ أن يُطيعوني بصورةٍ تحقّق مشيئتي وإرادتـي، كمـا أشـار الجـارو المجـرور (لي) إلى ذلك. ذلك أنّ الله تعالى لم يقل (فليطيعوني)، بل قـال (فليستجيبوا لي)، والـلام هنا لام التّمليك وهي التي قلبت المعنى إلى ماذكرت.

ثم إنّ الطّاعة في اللّغة تعني الانقياد والموافقة، تقول : طاع له، وطاوعه، أي وافقه على مشيئته ورأيه، فلم يُخالفه، والطائع اسم فاعل، وهو المُتبّع بمحـض إرادته، غير مُكرهٍ في موافقته (محيط المحيط).

وعليـه فـإنّ شـرط (فليستجيبوا لي) معنـــاه فليطيعونـــي وفـــق إرادتـــي ومشيئتي، ولو خالف ذلك ميولهم وعواطفهم. وأن تكون إطاعتهم لي عـن قناعـةٍ وإرادة وتصميـمٍ مـن غـير إكـراه، وبالإضافـة إلى ذلـك فـإنّ طاعـة العبـد لربّـه

واستجابته له تعني من الوجهة العمليّة تطبيق جميع مانصّ عليه كتاب ا لله العزيز من وصايا وأحكام. وهذا أمرٌ يُلزم هذا العبد المؤمن أيضاً بالتّفقّه في الدّين. ولاشكّ أنّ إهمال أيّ عُنصرٍ من العناصر التي أوردناها، غالباً مايؤديّ إلى عدم استجابة ا لله للّطالبين.

والشرط الثاني ـ عبّر عنه تعالى بقوله : ﴿**وليؤمنوا بي**﴾. ومعنى الإيمان لُغةً الاعتقاد بالقلب والإقرار باللّسان، أي أنّ من قطع شوط الإيمان بوجود ربّه بالأدلة النظريّة، وشاء أن يتعرّف على ربه بصورةٍ عمليّةٍ. فمن الضروري له أن يسأل ربّه ذلك وهو موقنٌ من صميم فؤاده بوجود ربّه، وليسأل سؤال العاشق الولهان إلى لقاء محبوبه، مندفعاً إلى ذلك بكليّته وموقناً أيضاً أنّ ربّه سيستجيب له.

وانتهى تعالى من ذلك كلّه ليقول : ﴿**لعلّهم يرشدون**﴾. ولعلّ حرفٌ مُشبّهٌ بالفعل ينصب الاسم ويرفع الخبر. ومن معانيه التّرجي والتوقّع، وقد استُعمل هنا بهذين المعنيين. أي أنّ على السّالك أن يدعو راجياً قبول سؤاله متوقّعاً أن يجد صداه. وكلمة (يرشدون) من رشَدَ المرء أي اهتدى. وأرشد الغلام بلغ سنّ التّمييز. واسترشد : طلب الرشد واهتدى.

أي أن (لعلّهم يرشدون) جاءت للتّوضيح، على شاكله الآية (٦٩) من سورة العنكبوت : ﴿**والذّين جاهدوا فينا لنهدينّهم سُبُلَنا، وإنّ ا لله لمع المحسنين.**﴾ أي مع الذين يسعون إلينا مُحسنين سلوكهم ومجاهداتهم للتعرّف إلى ربّهم.

ونخلص من ذلك إلى القول : إن مجرّد تلفُّظ المؤمنِ بلسانه بالإيمان بـا لله وإقراره بذلك في قلبه إن هو إلاّ خُطوةٌ أوليّةٌ يخطوها المؤمن وإلا فإنّ معرفة ا لله والتقرُّب إليه تحتاج من هذا المؤمنِ أن يلتزم بشروط هذا الدليل السّلوكيّ الذي تضمنّته هذه الآية الكريمة، وإلاّ فإنّ إيمانه هذا لايمنحه معرفة حقّ اليقين والاطمئنان وبلوغ شاطئ الأمان.

ولابدّ لي من التّنويه هنا إلى أنه لاينبغي لنا أن نفهم من قوله تعالى (إني قريب) أنّ ذات ا لله عزوجلّ هي بجانبنا تُلامسنا، حتى لايتعارض ذلك مع قوله تعالى في سورة المعارج : ﴿**تعرُجُ الملائكة والرّوحِ إليه في يومٍ كان مقداره خمسين ألف سَنه.**﴾. ذلك أنّ ا لله عزوجلّ قريبٌ منّا بعلمه، وليس بذاته.

وتعالت ذات الله عن ذلك. أو لم نقرأ أيضاً قوله تعالى في الآية (٦٧) من سورة الزّمر قوله: ﴿وماقدروا الله حقّ قدره، والأرضُ جميعاً قبضته يوم القيامة، والسّماوات مطويّاتٌ بيمينه، سبحانه وتعالى عمّا يشركون.﴾.

فهو تعالى قريبٌ منّا بوسائل علمه التي لاتُدرك والتي تمكّنه من أن يعلم سرّنا وجهرنا وأخفى من ذلك أيضاً، فلا تغيب عن علمه شاردة ولاواردة. والله أعلم بحال المؤمن السّالك السائل، من علم هذا السائل نفسه، لقُربه منه بعلمه، وإلاّ لم يكن ليشترط عليه هذه الشّروط.

ونخلص إلى القول أيضاً: إنّ العلم في حقيقته مراتب ثلاث هي : علم اليقين، وعلم عين اليقين، وعلم حقّ اليقين، وهذا التقسيم للعلم أتى به القرآن الكريم كحقيقةٍ واقعيّةٍ قبل أربعة عشر قرناً من الزّمان. ومادام القرآن الكريم هو مرجعنا في هذه الأمور، فلنعلم أنه قسّم العلم هذا التقسيم العلمي، واصطلح له هذه المصطلحات.

والأدلّة القرآنية الجدلية التي أدليت بها كانت من قبيل علم اليقين. فهي تساعد على انتفاء الشّك بطريق الاستدلال الذهني العلمي وترجّح وجود الله عزوجل.

ثم إنّ الأدلة القرآنية المُستقاة من أسماء الله الحسنى هي من القسم الثاني من العلم وهو علم عين اليقين، لتدخّل عنصر الرؤية فيما ذكرت ضمن أدلّة تثبيت وجود الله عزوجل.

أمّا الدليل السّلوكي الثالث فإنّ تعلُّقه فبالمرتبة الثالثة من العلم وهي مرتبة الحصول على علم حقّ اليقين. التي يبلغ السّالك عندها حالة ماسمّاه القرآن الكريم بحالة النّفس المُطمئنّة، التي تنساب نفس هذا المؤمن بعدها نحو ربّها انسياباً لارجعة معه للشكّ بوجوده بحال من الأحوال. وهي المرحلة التّي عبّر عنها الله جل شأنه بقوله: ﴿ياأيتّها النّفس المُطمئنة ارجعي إلى ربّك راضيةً مرضيّه فادخُلي في عبادي وادخُلي جنتي.﴾.

ولابد أن نكون جميعاً قد أدركنا من خلال مُعطيات هذا الدليل السّلوكي أنّ باب السّماء مفتوح على مصراعيه للمؤمنين السالكين دربه، السّاعين إلى معرفة ربّهم عزوجلّ. إنّما لايكفي للمؤمن أن يقول أسلمت بلسانه،

وأن يوقّع على بيعته. أو لم نقرأ قوله تعالى: **﴿قالت الأعراب آمنّا، قل لم تؤمنوا بل قولوا أسلمنا ولمّا يدخلِ الإيمان إلى قلوبكم.﴾**؟

كما أنّ علينا أن نعلم أنّ آية : **﴿وإذا سألك عبادي عني، فإنّي قريب أُجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلّهم يرشُدون.﴾** ليس المقصود بها مجرّد الحثّ على الدُّعاء والطلب منه تعالى، بل المقصود جرّ هذا المؤمن إلى مرتبه علم حقّ اليقين، إلى حالة النّفس المطمئنة وشاطىء الأمان.

مع الملاحظة أنّ الله تعالى لم يشترط في الدليل السلوكي الثاني تلك الشروط الثقيلة التي اشترطها على المؤمن بوجوده في الدليل السلوكّي الثالث. لاختلاف مُقتضيات الدّليلين والمرتبتين من العلم. ذلك أنّ الله عزوجلّ يريد أن يحقّق التّجانس بينه وبين عبده المؤمن، وهو عنصر القداسة، يريد أن يُدخل هذا المؤمن السالك في زمرة القديّسين وليبلغ به مرحلة العُرفان وهي أسمى المراتب في نظر العارفين.

وهكذا فلا ينبغي أن نفهم من السؤال في **﴿وإذا سألك..﴾** أنّه مجرد الاستخبار، بل الاندفاع على طريق المعرفة الإلهية اندفاع الأطفال الصّغار الذين يسألون باكين مضطربين : أين أمي وأبي؟ فلا يطمئنون إلا بعد لقاء والديهم والخلود إلى أحضانهم، ليستمدّوا منهم العطف والحنان.



الفصل الخامس - المقصد من خلق الإنسان

١ً - محصّلة الأدلّة السّلوكية

تبيّن لنا حتى الآن من خلال الأدلّة السّلوكية التي يثبت منها وجود ا لله عزوجلّ، أنّ الدليل السلوكي الأول اعتمد في استدلاله علم اليقين، وأنّ الدليل السّلوكي الثّاني اعتمد في استدلاله علم عين اليقين. على حين اعتمد الدليل السلوكي الثالث علم حقّ اليقين.

وفي الوقت الذي اختصَّ فيه الدليلان الأوّل والثاني بفئاتٍ غير مؤمنةٍ، فقد اختصَّ الدليل الثالث بفئة المؤمنين، إشعاراً منه عزوجلّ لهم أنّ مُجرّد التّلفظ بالإيمان، ولو تأتّى هذا الإيمان عن استدلال بدليلٍ ذهني، فلا يعدُّ هذا الإيمان كافياً في نظر ا لله جلّ شأنه. فلابُدّ من العمل على تعاليم ا لله وأن يكون الهدف من ذلك معرفة ا لله تعالى والتقرب إليه، وليسعد المؤمن بتلقي بشاراته وأعطياته، ويبلغ بذلك في إيمانه حقّ اليقين.

وحينذاك فقط يشمله لفظ ليعبدون من قوله تعالى: ﴿**وماخلقت الجنّ والإنس إلاّ ليعبدون.**﴾ أي ليعرفوني. فا لله تعالى لم يخلق الجنّ والإنس لمجرّد طاعته والخضوع له وخدمة دينه والتزام شرائعه وتوحيده. ذلك أنّ ا لله تعالى بغنىً عن ذلك كلّه. بل خلقهم لمقصد أسمى وهو أن يعرفوه ويعظّموه ويتقربوا إليه ويواصلوه.

هذه الحقيقة حثّت المؤمن للوصول إليها آية فريضة الصوم : ﴿**شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن هُدىً للناس، وبيّنات من الهدى والفرقان، فمن شهد منكم الشّهر فلْيَصمْهُ، ومن كان مريضاً أو على سفر فعدّةٌ من أيّامٍ أُخر، يريد ا لله بكم اليُسر ولايريد بكم العسر، ولتكلموا العدّة، ولتكبّروا ا لله على ماهداكم، ولعلّكم تشكرون.**﴾.

ففي هذه الآية الكريمة وضّح لنا جلّ شأنه عدّة أمور ضمن آية فريضة الصّوم، أهمها :

أولاً - ﴿هُدى للمتّقين﴾. والهُدى ضدّ الضّلال، ويعني الرشد والبيان. أي أنّ جميع مااحتوى عليه كتاب الله من وصايا وتعاليم وأحكام، إنّما هي من قبيل الرُّشد والبيان الذي ينقذ المؤمن من الضّلال.

ثانياً - ﴿وبيّنات من الهُدى﴾. والبيّنات جمع بيّنة، وهي الحُجّة والدّليل بمعنى أنّ وصايا وتعاليم وأحكام القرآن الكريم مُدعَّمةٌ بالحجج والبراهين، فلاتوجد وصيّةٌ أو تعليم أو حكم إلاّ، ويرافقها حجّة وبُرهان.

ثالثاً - ومن خلال صفة (الفرقان) التي اشتملت عليها هذه الآية الكريمة، وهي تعني مايفرّق بين الحقّ والباطل. فقد وضّح تعالى أنّ وصايا وتعاليم وأحكام كتابه العزيز تساعد المؤمن على تمييز الحقّ من الباطل وتعصمه من الضّلالة وتريه سبيل الحقّ والرّشاد.

وبعد أن وضّح جل شأنه لنا هذه الأمور، قال: **﴿فمن شهد منكم الشهر فليصُمه، ومن كان مريضاً أو على سفرٍ فعّدةٌ من أيّامٍ أُخَر،﴾** ومن ثم راح يوضّح لنا الحِكَم من فريضة الصوم، وقال :

أولاً - ﴿يُريد بكم اليُسر ولايريد بكم العُسر﴾ أي أنه تعالى لم يفرض الصّوم تعسُّفاً، بل راعى حال المريض منكم والمسافر.

ثانياً - ونبّه المُفطر إلى ضرورة تعويض الأيام التي لايصومها: **﴿فعدَّةٌ من أيّام أُخر﴾** كيلا يُحرم هذا المريض أو المسافر من نعمة التعبّد بصوم شهرٍ كامل سنويّاً، وإلى هذا أشار تعالى بقوله: **﴿ولتُكملوا العدّة﴾**.

ثالثاً - والأمر الأكثر أهميّة عبر عنه تعالى بقوله: **﴿ولتُكبّروا الله على ماهداكم ولعلّكم تشكرون.﴾** وهذا مايحتاج منّا إلى الشّرح والتوضيح قال : **﴿ولتكبّروا الله على ماهداكم﴾**، فكيف نُكبّر الله؟ أنردد نهاية صوم كل يوم من أيام رمضان جُملة : الله أكبر؟ أم نأخذ بالمعنى الثاني للفظ كبّر وهو تعظيم الله واحترامه؟ وكيف يؤدّي انقطاعُنا عن الطّعام والشراب طيلة ساعات النهار إلى التعظيم والإكبار؟

والآن لنتدبّر كل كلمة وحرف واردين في هذه الجملة **﴿ولتكبّروا الله على ماهداكم ولعلّكم تشكرون﴾**. فهو تعالى أتى أوّلها بالواو العاطفة فعطف بها العَامّ على الخاص. وأضاف **﴿ولتكبّروا﴾** وقد تساءلنا كيف نُكبّر الله.

واضطررنا لتدبّر كل كلمة وحرف، فلم نعثر على شرح وتوضيح، وهذا الأمر بالذات استدعى منه جلّ شأنه أن يزيدنا إيضاحاً، وأتى بآية: ﴿**وإذا سألك عبادي عنّي فإنّي قريب أُجيب دعوة الدّاع إذا دعان، فليستجيبوا لي، وليؤمنوا بي، لعلهم يرشدون.**﴾. فوضّح لنا حقيقة أنّ في فطرة الإنسان توقاً إلى معرفة خالقه، وهذا التوق، تتجلّى معالمه منذ طفولة الإنسان الذي يهيم بوالديه ويبحث عنهما إن افتقدهُما. فإذا بلغ رُشده وشبّ عن الطوق، يعود يسأل عمّن خلقه وخلق الكون من حوله.

وإلى هذا التّوق الفطريّ، وردت الإشارة في قوله تعالى: ﴿**وإذا سألك**﴾، وليس المقصود أنه إذا تعرّض لك أحد النّاس بالسؤال.

بمعنى أنّ الصّائم الذي يمتنع عن الطعام والشراب، لايمتنع لمجرّد تنفيذ الأمر، بل يريد أن يحصد ثمار طاعته هذه، ويتعرّف بذلك على خالقه ويسأله القرب والوصال والعطاء، ويضيف تعالى قائلاً: ﴿**فإني قريب أُجيب دعوة الدّاع إذا دعان..**﴾ أي أنّ من يصوم محتسباً لله خالقه، وسائلاً إيّاه تعريفه على نفسه وتقريبه منه والفيض عليه بالعطاء. فليعلم هذا السّائل المُطيع أنّ ربّه منه قريب لايبْخل عليه بالاستجابة لتوقه إليه، بل ﴿**أجيب دعوة الدّاع إذا دعان،**﴾ استجيب أدعيته وأحاوره وأقرّبه وأفيض عليه من عطائي وبشاراتي، بل وأبلغه بذلك مرتبة حقّ اليقين، ليفيض فؤاده من جرّاء ذلك تعظيماً لله خالقه وإكباراً له، وعلى هذه الصورة فقد جاء مضمون آية: ﴿وإذا **سألك..**﴾ يشرح قوله تعالى ﴿**ولتكبّروا ا لله علي ماهداكم ولعلكم تشكرون.**﴾ وبياناً.

بهذا الأسلوب المُعجز والبيان البليغ، وجّهنا ربُّنا جلّ شأنه إلى المقصد الأهم من حياتنا وهو توق فطرتنا إلى معرفته تعالى والتقرّب منه والاستفاضة من عطائه إلى حدّ علم حقّ اليقين.

والسّؤال الذي يطرح نفسه هنا، هو: لماذا أتى جلّ شأنه بحرف (إذا) الشرطية ولما يُستقبل من الزّمان، ولم يأت بحرف (إنْ) التي تفيد الاستقبال أيضاً سواء أدخلت على الفعل الماضي أو دخلت على الفعل المضارع؟

نعود إلى ماقاله صاحب معجم محيط المحيط، قال: إنّ حرف (إذا) الغالب أنّه ظرف متضمّن معنى الشرط، ويختصّ ـ كما هو في هذه الآية الكريمة ـ

بالدّخول على الجملة الفعليّة، ويكون الفعل بعدها فعلاً ماضياً على الأغلب، ومحلّها النّصب أبداً على الظّرفيّة.

ونُلاحظ أن ماأفاده صاحب هذا المعجم لايُعين على الإجابة على السؤال المطروح الذي ذكرناه.

بل وهناك سؤال آخر يطرح نفسه، وهو أنّ سورة البقرة التي اشتملت على هذه الآية الكريمة، إنّما أنزلها الله تعالى في السنوات الأخيرة من الدعوة في المدينة المنّورة بإجماع المفسرين والمؤرخين. هذا وإن جاء ترتيبُها من حيث ترتيب تلاوتها أوّل سور القرآن الكريم. فإن كانت هذه الآية قد نزلت تحثّ على معرفة الله والتقرّب منه والاتّصال به، فلماذا لم تنزل في سنوات الدعوة الأولى ليستفيد من مفهومها المسلمون السابقون بالإيمان؟

أقول إن الجواب على هذا السؤال يكمُن في استبداله تعالى للحرف (إذا) بالحرف (إن) في هذا المقام، وإليك تفصيل هذا الكلام :

إنّ هذه الآية الكريمة: ﴿**وإذا سألك عبادي عني فإنّي قريب..**﴾ لم تكن هي الآية الأولى والأخيرة التي حثّت على معرفة الله والتقرّب منه والاتصال به عزوجلّ حتى يصحّ مثل هذا الاعتراض، فسورة الفاتحة، وهي السورة التي فرض تعالى علينا تلاوتها في كلّ ركعةٍ من رَكعات صلواتنا يوميّاً، والتي لاتصحّ الصّلاة دون تلاوتها، اشتملت على نفس المضمون. أفلا نلاحظ كيف أننا ندعو فيها ﴿**اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم**﴾. وهذا السؤال والطلب من الله عزوجلّ نكرّره يوميّاً دون كَلَلٍ أو ملل. وهل يعني هذا السؤال وهذا الطلب إلاّ نفس ماحثت على حصيلة آيه ﴿**وإذا سألك عبادي عني فإني قريب..**﴾؟ ألا نلاحظ أننا نسأل ربّنا أن يهدينا الصراط المستقيم الذي سار عليه وسلكه من تعرفّوا إلى الله خالقهم في نهاية هذه المسيرة وهذا الصراط، فعرفوا الله وتقرّبوا منه وأضحوا من الواصلين ومن المُنعَم عليهم منه تعالى. وهم الذين أشار إليهم الله تعالى في آيةٍ أخرى من كتابه العزيز بقوله: ﴿**ومن يطع الله والرّسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيّن والصّديقين والشّهداء والصّالحين وحسن أولئك رفيقاً.**﴾ النساء ٦٩

فنحن ندعو في سورة الفاتحة (اهدنا الصراط المستقيم) أي أرشدنا وبيّن لنا وعرّفنا على أقرب طريق مختصر مستقيم يصل بيننا وبينك، وأيّ صراطٍ

نطلب؟ نسأل ونطلب الهداية إلى ﴿**صراط الذّين أنعمت عليهم**﴾ هؤلاء الذين عرفوك وتقرّبوا إليك وواصلتهم وواصلوك ﴿**من النبيين والصّديقين والشهداء والصالحين..**﴾ وهذه هي زُمَر المؤمنين الذّين سبقونا بالإيمان وسلكوا سبيل معرفة الله والتقرّب منه ووصاله وصولاً إلى مرتبة حقّ اليقين.

على ضوء ذلك، ندرك أنّ الله عزوجلّ لم يؤجلّ موضوع الحثّ على سؤال وطلب معرفته والتقرب إليه ووصاله إلى آخر أيّام الدّعوة في المدينة المنوّرة، وكيف يفعل هذا وموضوع معرفة الله قد جعله من أولويات تعاليمه على اعتبار أنّه المقصد الأساسيّ من وجودنا في هذا العالم؟ بل إنّه تعالى حثّ المؤمنين على تحصيله من أوّل سنوات الدعوة في مكة المكرمة. من خلال دُعاء سورة الفاتحة كما رأينا.

وعليه فلابدّ لنا من أن نبحث، جادّين، عن حكمة استبداله تعالى للحرف (إنْ) بالحرف (إذا) في الآية التي نحن بصددها، وهي قوله تعالى: ﴿**وإذا سألك عبادي عني، فإنّي قريب..**﴾.

وتعالوا معي نُلقي نظرةً فاحصةً قبل كلّ شيء، على مايجري في زماننا هذا من أحداث وسط مجتمعات العالم الإسلاميّ وخارجه. حيث تبدو لأنظارنا عدّة ظواهر، تكبُر وتتعاظم يوماً بعد يوم، فتبدو معالمها على شكلٍ رهيب.

إنّ أوّل هذه الظواهر، هي مانلاحظه من تخلُّف حادثٍ في أوساط المسلمين فكريّ وأخلاقيّ واقتصادي. ومع أننا نلاحظ أنّ الوُعّاظ في المساجد يناشدون المصلّين الالتزام بتعاليم دينهم الحنيف، فإنّنا نلاحظ من طرف آخر أنّ وعظهم هذا لايجد صداه بين المصلّين، بل يزدادون تفسُّخاً وانحطاطاً وبُعداً عن تعاليم الدّين. هذه الظاهرة إن دلّت على شيء، فإنّما تدلّ على فتور رابطة المسلمين بربّهم عزوجلّ، وإهمالهم السّعي إلى معرفة خالقهم معرفة عِرْفان، وطلبَ قربه ووصاله، أي أنّهم نشؤوا في بيتٍ مسلم، وجاء إسلامهم إسلاماً تقليديّاً، فلم يوقنوا أنّ المقصد من وجودهم في هذه الحياة بلوغ معرفتهم لربّهم مرتبة حقّ اليقين، ولذلك آل حالهم إلى ماآل إليه. إنّهم يقولون بألسنتهم إنّ الله موجود وهو خالقهم أيضاً. لكنّهم يتناقضون مع أنفسهم عملياً بالشرك الخفيّ. فبا لله أسألك ياقارئي العزيز : هل أنّ الشّخص الذي يعلم علم حقّ اليقين وجود أفعى سامّة في ثقبٍ من جدار، هل يجرؤ هذا الشّخص على وضع إصبعه في هذا

الثّقب لينال جزاء مغامرته؟ فكيف يعصي هؤلاء المسلمون ربّهم إن كانوا مُستيقنين وجوده حقّ اليقين؟

والظاهرة الثانية التي يُلاحظها كل ذي بصيرة في آيامنا هذه، هي أنّ الوطن الإسلاميّ انقسم بعد انهيار الحكم العثماني إلى أوطان ودُويلات، ومايزال يزداد انقساماً، بل وأضحت هذه الأوطان والدُويلات نُهبةً لصراعاتٍ حدوديةٍ ومصالح شخصية، فلم تعد للأخوّة الإسلامية من ظواهر وجود إلاّ في الأسماء والشّعارات، بل وتأسست في هذه الأوطان والدُّويلات أحزابٌ وجمعياتٌ ومُؤسسّات تُنادي بالعودة إلى المجد الغابر وتوحيد الأوطان، ولانُلاحظ أنّ هذه الأحزاب والجمعيات والمؤسسات تُفلح في أغراضها، أو تجد التأييد والنُّصرة من الله ربّ العالمين. وهذه الظّاهرة إن دلّت على شيء، فإنّما تدلّ على أنّ الله تعالى لم يعد ينظر إلى مُسلمي عصرنا، نفس نظرته إلى مُسلمي عصر البعثة الإسلامية الأولى التي قامت على أيدي خاتم النبيّين (ﷺ). ولذلك فما كان قد وعد تعالى به أولئك لاينطبق على هؤلاء المعاصرين.

والظّاهرة الثالثة التي باتت ظاهرة للعيان هي أنّ أعداء الإسلام استضعفوا المسلمين في كلّ مكان، وأوجدوا من بينهم عُملاء يُساعدونهم على استنزاف خيرات بلادهم، ممّا زاد الطّين بلّة. وماعادت تُرى أيّة بوادر لصالح المسلمين، فهل تعني هذه الظّاهرة نهاية عزّهم وَوُجودهم؟

وإنّ هذه الظواهر التي بات يُدركها كلّ عاقلٍ ومُفكّر داخل الأرض الإسلامية وخارجها، عادت تدعو المفكّر يسأل أين الله ووعوده؟

بل وإنّ عامّة المسلمين عادوا يتساءلون فيما بينهم عن وجود الله الذي يؤمنون به وبوعوده؟ وهاأنّ الماركسية قامت أصلاً على أساس الجحود بوجود الله عزوجلّ. والمُلحدون في زماننا، لطالما لاحظنا العديد منهم يقولون مُتحدّين : هاأني أرفع هذا القلم بأصابعي، فأين الله ليرفعه؟

هذه الظّواهر وغيرها هزّت عقيدة وجود الله من جذورها، حتّى تعالت الأصوات في زماننا تسألنا : أين الله وأين وعوده؟ وسؤالهم وطلبهم هذا المرتفع من كل جانبٍ في عصرنا، هو المشار إليه بالحرف (إذا) في الآية التي نزلت آخر سنوات الدعوة في المدينة المنوّرة ضمن سورة البقرة، قوله تعالى: ﴿**وإذا سألك عبادي عنّي، فإنّي قريب، أُجيب دعوة الدّاع إذا دعان، فليستجيبوا لي**

وليؤمنوا بي لعلّهم يرشدون.﴾. هذه الأصوات هي التي اقتضت منه جلّ شأنه لاستبدال الحرف (إنْ) بالحرف (إذا). فهو تعالى أنبأ هنا عن عصر تخلّف المسلمين وحالهم التي عادت تتعالى الأصوات بسببها أين الله وأين وعوده؟

أنبأ تعالى آخر أيام البعثة الأولى عن فترة انحطاط مسلمي عصرنا وتخلّفهم، وبأسلوب فريدٍ وبليغ، لايكشفه ولايدركه إلاّ المتدبّرون لكتاب الله تدبُّراً حقيقيّاً، فلا يكتشف ذلك إلا في العصر المشار إليه، وهذا هو أحَدَ نماذج الإعجاز القرآني. علماً بأني كشفت في مؤلّفي (فنّ الاختزال في القرآن الكريم) عمّا أنبأ به القرآن الكريم عن عصرنا بالذّات، فليُرجع إليه.

وكأنّه تعالى قد قال من خلال استبداله الحرف (إن) بالحرف (إذا) في قوله: ﴿**وإذا سألك عبادي عنّي..**﴾، وبألفاظٍ أُخرى: يامعشر مُسلمي عصر الانحطاط والتّخلف إنْ كنتم صادقين في طلبي والسؤال عنّي يومئذٍ، ﴿**فليستجيبوا لي**﴾ أي أنّ عليهم احترام إرادتي ومشيئتي.

وهاأنني بعثت مجدّد زمانكم يدعوكم لتستجيبوا لصوتي، وتُجدّدوا إيمانكم وتجهدون بتوجيهه ووفق تعاليم كتابي القرآن وببذل قصارى جهدكم لاستغلال صيام شهر رمضان وتصوموا صوماً حقيقيّاً كما هو مطلوبٌ منكم سائلين وطالبين أن تعرفوني معرفة حقّ اليقين فتسألون قُربي ووصالي. ﴿**فإني قريب**﴾ وقد ثبت قُربي من عبادي في الماضي، وهو دليل عمليٌّ علي أنّي لازلت قريباً، إنّما ﴿**فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلّهم يرشدون.**﴾، وفي هذه الكلمات عتابٌ وتأنيب، فهو يتعالى استأنف كلامه بحرف الفاء معاتباً مُسلمي عصرنا أنّهم أعرضوا عن سلوك متطلّبات دليل (حقّ اليقين) وهو الدليل السلوكي الثالث الذي شرحناه، فنسوا الله والسّعي إلى معرفته، وبالتّالي ﴿**أنساهم أنفسهم**﴾ وهو ضرورة السّعي لتحقيق المقصد من حياتهم بعد أن هداهم إلى الإيمان، وأضاف ﴿**وليؤمنوا بي**﴾ أي ليجدّدوا إيمانهم بي معتقدين أنّي موجود وقريب منهم أجيب دعوة الداع إذا دعان، فلايخشون في سبيلي أيّ شيء يُخوّفهم من دون الله ووفق قوله تعالى: ﴿**ذلكم الشّيطان يُخوّف أولياءه فلاتخافوهم وخافوني.**﴾.

وحينئذٍ فقط ﴿**لعلهم يرشدون**﴾ أي ليتوقعوا بعد ذلك وليرتجوا أن يهتدوا إليّ ويعرفوني ويتقرّبوا مني ويواصلوني، ويصبحوا من عبادي الذين حقّقوا

المقصد من حياتهم في الحياة الدنيا. وحينذاك فقط حقّ لهـم أن يطـالبوني بايفـائي بوعودي التي قطعتها على نفسي تجاه المؤمنين الصّادقين، وتصدق بحقّهـم الآية ٦٩ من سورة العنكبوت: ﴿**والذّيـن جـاهدوا فينـا، لنهدينّهـم سبُلَنَا، وإنّ ا لله لمـع المحسنين.**﴾ أي يعود ا لله لتأييد ونُصرة من أحسن صُنعاً منهم.

ويابُشرى من يسلك سبيل هذا الدليل السّلوكي الثالث ليبلُغ مرحلة علم حق اليقين بشأن معرفة ربّه والتّقرب منه ومواصه والرجوع إليه.

فهـذا هـو طريـق النّجـاة لكـل مسـلم في عصرنـا الـذي بـاتت تتعـالى الأصوات فيه من كلّ جانب يسألون : أين ا لله أين ا لله ووعوده؟ وليتذّكـر كـلُّ من اعتنق الإسلام ديناً أنّ ا لله لايهدي القـوم الفاسـقين، ولايغيّر مـابقومٍ، حتـى يغيروا مابأنفسهم، والمؤمن لايكون إلاّ مع الصّادقين.

ثانياً ـ أدلّة تساعد على تعيين المقصد مـن خلـق الإنسان :

لقد توصّلنا من خلال آيات الذّكر الحكيم التي سبق أن أثبتنا مصداقيّتهـا ومرجعيّتها، إلى أنّ الغاية من وجود الإنسان في هذا العالم، هـو أن يسـلك سـبيل معرفة خالقه، وذلك عن طريق الالتزام بإطاعته والخضـوع لـه والتذلّـل بـين يديـه وخدمـة دينـه والـتزام شـرائعه والعمـل وفـق مشيئته وتوحيـده، فـلا يكـون مـن المشركين. فهذا هو معنى العبودية لله عزّوجل.

ومادُعاء الفاتحة الـذي ندعـو بـه في كـل رُكعـة مـن رَكعـات صلواتنـا، طالبين من خالقنا أن يهدينا سبيل الذين أنعم ا لله عليهـم مـن النبيّـن والصّديقـين والشّهداء والصالحين. فهل وراء هذا الدّعاء المتكرّر إلاّ طلب العون مـن خالقنـا، لمسـاعدتنا علـى تحصيـل المقصـد مـن حياتنـا الدنيويّـة، وهـو التّعـرف إلى خالقنـا ومحاورته والاستفاضة من عطائه ونعمائه. ودفعاً من جانبه تعالى إيّانا علـى طريـق وهو دلالة: ﴿**ولتكبّروا ا لله على ماهداكم ولعلّكم تشكرون.**﴾ البقرة ١٨٥ ـ

هذا علماً بأنّ الصّلاة الإسلامية قد صيغت أصلاً على أساسٍ من مفهـوم هذا المقصد الحياتي، ولتحقيق هذه النّقلـة النّوعيّـة في حيـاة الإنسـان. النّقلـة الـتي تنقل المؤمن با لله من مرتبة إيمانه الذهني إلى إيمان علم حقّ اليقين.

ونحن إذ أمرنا ربُّنا أن ندعو في ركوعنا (سبحان ربّي العظيم) وفي سجودنا (سبحان ربّي الأعلى)، فما هذه إلاّ رمُوز تشير إلى المراحل التي ينبغي على المؤمن أن يقطعها لبلوغ حقّ اليقين على طريق معرفته ربّه عزوجلّ، ويُصبح من الذّين يُعظّمون ربّهم ويكبّرونه، وهذا المعنى نفسه ينطبق على دُعاء محمد المصطفى (ﷺ) بين السّجدتين (ربي اغفرلي، وارحمني، واهدني وارفعني وارزقني).

اغفر لي أي أسْتر ضعفي وعيوبي، وارحمني أي اشملني بواسع رحمتك. واهدني أي خذ بيدي على طريق معرفتك ووصالك، وارفعني أي اجعلني من المقربين بين يديك. وارزقني أي أسبغ عليّ من نعمائك وعطائك الرّوحاني بعد هذا الرفع والتقريب. وهذا الدّعاء نابعٌ في حقيقته من دلالات المراحل التي يقطعها السّالك تحصيلاً لمعرفة ربّه وخالقه.

ألا إنّ عمليّة خلق هذا الإنسان ودعوته والدعوة إلى عُرفان خالقه، إن هي إلاّ عمليّة أشبه ماتكون بما يصدر عن فنّان أصيل يرسمُ ويرسم، فلا يملّ من رسم اللّوحات العظيمة المُتنوعة، ولاتكون له من غايةٍ من ذلك كلّه إلاّ التّعبير عن فنّه الأصيل. فهذا هو ماأشار إليه الحديث القدسي من أنّ الله كنزٌ أراد أن يُعرف فخلق الخَلْق، وأبدع فيما خلق وصوّر، وإلاّ فإنّ الله تعالى غنيٌّ عن العالمين.

وهكذا فإنّ تعليم الله تعالى: ﴿**وماخلقت الجنّ والإنس إلا ليعبدون. ماأريد منهم من رزق وماأريد أن يُطعمون. إنّ الله هو الرّزاق ذو القُوّة المتين.**﴾ الذاريات ٥٦ـ قد نبّهنا إلى أنّه تعالى لم تكن مشيئته أن يجعل الدُّنيا جُلّ همّنا، بل ﴿**إن الله هو الرّزاق ذو القُوّة المتين**﴾.

أي أنّ من يلتزم سلوك طريق معرفة ربّه، يُيسِرّ له ربّه سُبُلَ تحصيل رزقه على قدر احتياج هذا العبد في دنياه وآخرته.

هذا هو الطّرح القرآني فيما يتعلّق بالمقصد من حياتنا الدنيوية وهيّا نستعرض آراء علماء أوربة قُبْل القرن العشرين فيما يتعلق بالمقصد من خلق الإنسان. فماذا قال أبو الفيزياء (نيوتن)، وهو الذي كان قد وضع أُسساً لماديّةٍ منهجيّةٍ، لم يُخالفها مشاهير عُلماء عصره أمثال (فارادي) و (كلفتن) و (هيرشل) وأمثالهم. هذه المادية المنهجيّة التي افترضت أنّ عالمنا الدّنيوي مادّةٌ

لاتُخالطها عقل ولاروح. والتي رسّخ دعائمها النظرية الداروينية في النّشوء والارتقاء؟

إنّ (نيوتن) حذف وجود غاية لحياة الإنسان لاعتباره إيّاه مادّة لاروح فيه. وقد كانت مُقوّمات المادّة في نظره ثلاث : المادة والمكان والزمان. وأن المادّة مُكونّة من : (جُسيمات كبيرةٍ وصلبة ومُتحركّة وغير قابلة للاختراق وذات أحجام وأشكال مُختلفة.). وقد حصر خواص المادة في (خاصيّة التمدّد والصّلابة واللااختراقية، والقُصور الذّاتي.) واعتبرها خواصٌ ثابتةً إلى الأبد، وأن (الذّرة الماديّة أصغر جُسيمٍ بامكان الإنسان تصوّره.). وقد تركت طروحات (نيوتن) هذه ظلالها وآثارها على العقل الأوربّي حتى عادوا يسخرون من مقولة الإسلام من أنّ لوجود الإنسان في دنياه مقصداً لحياته، ينبغي عليه السّعي لتحقيقه.

ومن حُسن حظّنا نحن، أننا وُلدنا في القرن العشرين الذي عاد علماؤه من الأوربيين أنفسهم يتندّرُون بنهج نيوتن المادّي وبجميع طروحاته. هؤلاء الذين تبيّن لهم خطأ جميع ماطرحه نيوتن من طروحات. فخيبّوا أمله، إذ كان نيوتن وسواه من رُموز منهجه المادي يرجون أنّ العلم في القرن العشرين يُرسّخ هذا المنهج وتلك الطّروحات، ويكمله.

فهذا العالم آنيشتاين هدم عام ١٩٠٥ ركُنين أساسيّن من أركان النظام والمنهج المادي الذي ابتدعه نيوتن. أي هدم نظرة نيوتن إلى الزمان والمكان، وأثب أنّهما شيئان نسبيّان. وهذه ثورة فيزياء الجُسيمات التي كان رائدها العالم (آرنست ذرفورد) فقد كشف هذا عام (١٩١١م) عن تركيب الذّرة التي اعتقدها نيوتُن أنها لاتُخترق. وقد عجّل العالم (نيلزبور) وغيره بتطوير علم ميكانيكا الكمّ، هذا الذي أعان على إثبات أنّ هذا الكون لابُدّ أن يُوجد خارجه عقلٌ مُطلق، ذلك أنّ المُلاحظ هو أنّ المادة لاتُبحث ولاتُراقب إلاّ من داخلها، وبآلات وأجهزة ميكروسكوبيّة أيضاً.

إنّ جميع هذه الثّورات العلميّة قلبت مُعادلة نيوتن رأساً على عَقِب. بسبب أنّ العلم انتقل أهله من دور الملاحظة إلى دور المشاركة، فتحقّق بذلك قفزة نوعية، قفزها علماء القرن العشرين.

فها أن العالم الفيزيائي الشّهير (يوجين فيغنر) قال مُعترفاً: (كان جلّ العلماء الطبيعيّين إلى عهدٍ غير بعيد يُنكرون بشدّة وجود العقل أو الرّوح.. أمّا

عندما تمّ توسيع نطاق النظرية الفيزيائية، ليشمل الظواهر الميكروسكوبيّة من خلال استحداث ميكانيكا الكمّ، عاد مفهوم الوعي مرّةً أخرى إلى المُقدّمة، إذ لم يُعد مُمكناً صياغة قوانين ميكانيكا الكم بشكل مُتسق كُليّاً، دون الرّجوع إلى الوعي.) أي الرجوع إلى العقل[1] . وهكذا فإنّ نظريّة آينشتاين في النسبيّة وميكانيكا الكم أنقذت علماء القرن العشرين من ظُلمات منهج نيوتن وطروحاته، وساعدت على إدخال عُنصر العقل والرّوح في المعادلة الفيزيائية.

وكذلك فإنّ نظريّة الانفجار العظيم التي أتى بها العالم الفيزيائي غاموف قد أكّدت المعادلة الفيزيائية الجديدة. حيث أثبت أنّ هذا الكون مخلوق منذ مايُقارب (١٢-٢٠) مليار عام.

فمن حسن طالعنا وفضل الله علينا أن وفّق جلّ شأنه علماء أوربة المعاصرين هذا التّوفيق الذي لاحظناه. فبهذا التقدّم العلمي، رُدمَت الهُوّة الكبيرة التي كانت تُباعد مابين تعاليم الإسلام ومابين العلوم الأوربيّة في القرون الماضية. ويكفي أنّ علماء هذا العصر لم يعودوا ينظرون إلى الإنسان على أنّه مُجرّد رُزمة من ردود الفعل، أو رزمة من الآليات النفسية الغريزية، بل باتوا ينظرون إليه على أنه مخلوق يملك العقل وحريّة الاختيار التي أشار إليها ربُّنا جلّ شأنه بقوله: **﴿ونفسٍ وماسوّاها فألهمها فُجورها وتقواها، قد أفلح من زكّاها وقد خاب من دسّاها﴾**. بمعنى أنّ حُريّة الاختيار التي أوتيها الإنسان هي في حدّ ذاتها دليلٌ ضمنيّ يؤكّد أنّ لحياة هذا الإنسان مقصداً أسمى يتوجّب عليه أن يسعى لتحقيقه، وإلاّ استوجب المحاسبة والعقاب من خالقه.

وإضافة إلى هذا وذاك، فقد ثبت على الصّعيد العلمّي أنّ الإنسان هو محور هذا الكون. وكأنّ الكون على سعته ورحابته قد خلقه الله جل شأنه لصالح وخير هذا الإنسان المخلوق العاقل، وذلك مصداقاً للطّرح القرآني الذي أوردته الآية (٢٩) من سورة البقرة: **﴿ هو الذي خلق لكم مافي الأرض جميعاً، ثم استوى إلى السّماء فسوّاهُنّ سبع سماواتٍ، وهو بكل شي عليم.﴾**.

---

[1] ـ عالم المعرفة العدد ١٣٤

وإن هذه التطوّرات العلمية الرّائعة تُلزم المؤمنين با لله العزيز وبكتابه الكريم أن يُوضّحوا للعالم هذه الغاية من خلق الإنسان بأسلوبٍ علمّي، وأن يكونوا أسوةً عمليّة تثبت صحّة مايوضحّون ومايدّعون.

وأقول، والأسف يعتصر فؤادي : إنّ مُجتمع المسلمين المُتخلّف المعاصر هو أبعد شيءٍ عمّا يتطلّبه هذا الزمان من أفراده وَوُعّاظه. بل الواقع أنّ من يقتنع من أعداء الإسلام بتعاليم الإسلام نظريّاً. مـاإن تَطَأ أقدامه أرض المسلمين، إلاّ ويُصاب بالإحباط وردّة فعل نفسيّة، لِما يُلاحظه من فارقٍ كبيرٍ بين الإسلام وأهله.

ولنَدَع الآن موضوع ماطرأ من تقدُّم على العلوم في أوربة، ولنحاول إثبات صدق الطّرح القرآني، بما يتعلّق بالمقصد من خلق الإنسان وبأسلوبٍ علميّ، وإليكم هذه الأدلّة الثلاث:

١ ـ الدّليل الأول

يستند دليلنا الأول إلى معلومة أنّ حواس الإنسان، يستحيل عليها أن تؤدّي عملها دون عاملٍ مُساعد، فالعين لاترى دون مساعدة النّور، والأذن لاتسمع دون مساعدة الهواء، والأنف لايعمل دون مساعدة الرّوائح. وحاسة اللّمس لاتعمل إلاّ بمساعدة جسمٍ مادّي. والعقل الذي يعمل على صُعُدٍ زمنيةٍ ثلاثةٍ : فالمخطوطات والآثار والمُستحاثّاة تساعد المرء على معرفة الماضي. والملاحظة العلميّة والتّجربة والاستنتاج تؤدّي إلى معرفة الحاضر. أمّا على صعيد المُستقبل وأمور الغيب، فلايجد الإنسان له مساعداً إلاّ وحي ا لله علاّم الغيوب. فهذه حقيقة علمية لاسبيل لأحدٍ إلى دحضها وإنكارها.

والمقصد من خلق الإنسان هو شيء غيبيٌّ أصلاً، الأمر الذي يدفَعُنا إلى القرآن الكريم وهو الوحي السّماوي الذي سبق أن أثبتنا مصداقية ومرجعيّته. فنعود إلى آي هذا الوحي السّماوي، لنجد أنّ ا لله عزوجلٍ قال فيه: ﴿**وماخلقت الجنّ والإنس إلا ليعبدون.**﴾ أي ليعرفوني وينالوا بذلك قُربي وعطائي. مؤكّداً بعد ذلك قوله: ﴿ **إنّ ا لله هو الرّزاق ذو القُوّة المتين.**﴾. ومادم القرآن الكريم قد حدّد هذا المقصد من وجودنا في هذا العالم، فنحن كمؤمنين بوجود ا لله عزوجلّ، نسعى لتحصيل معرفة ا لله والتقرّب إليه ووصاله.

٢ ـ الدليل الثاني

ودليلنا الثاني الذي يثبتُ من خلاله صحّة الطّرح القرآني حول المقصد من حياتنا الدنيوية، يُحـدّده سؤال يطرح نفسه نُلاحظه ضمن إطار القوانين الطبيعيّة السائدة. وهو أنّ الإنسان لايصنع شيئاً إلاّ وله مقصد من وراء صُنعه هذا الشيء. ولنضرب على ذلك مثلاً صناعة السيارات والطائرات. فلا تقوم الشركات الكبرى بصناعتها إلاّ لتحقيق استخدامها لمقصدٍ معلوم. فهذه إحدى بديهيّات مجتمعاتنا البشرية.

ومادام قد ثبت لعلماء أوربة، من خلال ماأتت به نظرية الانفجار العظيم، هو أنّ عالمنا الدنيوي مخلوق، وضمن قوانين طبيعيّة مُحـدّدة. أي أنّ كلّ شيء فيه مخلوق حتى الإنسان، هذا على اعتبار أنّ عمليّة الخَلْق هذه لاتتجزّأ، حتى ولو سلّمنا بوجود الإنسان بطريق قانون النشوء والارتقاء.

فانطلاقاً من هذا المثال الذي قدّمناه، فلابُدّ أن يكون خالق الإنسان قد جعل لحياته مقصداً، ومن واجب هذا الإنسان أن يسعى لتحقيقه، ولاسيّما إذا عرفنا أنّ الإنسان لم يأت إلى هذا العالِم بإرادته، ولاهو تاركه بمرضاته. ويزيد علي ذلك أنّ خالقه خصّه بأفضل المَلكات مقارنةً مع بقيّة المخلوقات، كالحيوان والنّبات.

من هنا ماكان لهذا الإنسان المخلوق أيّ حقّ في تعيين المقصد من حياته، لأنّه لم يكن مُوجد نفسه. هذا وإنّ نعمة الإدراك التي منحه الله إيّاها، تُلزمه بصورةٍ أكيدة بالبحث عن خالقه وسؤاله عن الغاية التي خلقه من أجل تحقيقها ليلتزم بقول خالقه. ولهذا فإنّ الله تعالى نُلاحظه وقد أنزل وحيه القرآني وقال فيه: ﴿**وماخلقت الجنّ والإنس إلا ليعبدون. ماأريد منهم من رزق ولا أن يُطعمون. إنّ الله هو الرّزاق ذو القُوّة المتين.**﴾ الذاريات ٥٦ ـ. إذن للخالق حقّ إنزال عقابه بالذي يحيد عن تحقيق هذا المقصد من حياته أيضاً. فهذا أمرٌ طبيعيٌّ جدّاً. على شاكلة أصحاب مصانع السّيارات والطّائرات الذين هم إن لاحظوا واحدة منها لم تعد صالحة، يُدخلونها في مكابس ليعيدوها كوماً من الألمنيوم والحديد.

وعليه أقول: ماالدّاعي ليختلف الناس فيما بينهم حول تعيين المقصد من حياتهم؟ فلايُعدّ هذا الاختلاف إلاّ خروجاً عن هذه القاعدة التي بيّناها حول

موضوع تعيين المقصد من وجود أيّ شيء مـن الأشياء المخلوقـة المصنوعـة. وإنّ من واجب النّاس الرّجوع إلى الذي خلقهم يسألونه الهداية. خاصّـة وأنّ خـالقهم متّعهم وميّزهم بِمَلكات العقل والفكر والإرادة والإدراك. هذه المَلكات التي حَـرَمَ الخالق الكائنات الغريزيّة من التمتّع بها. هذه التي تؤدّي الغاية من خلقها دون أيّ تملُمل أو أيّ اعتراض.

هذا وإنّ ا لله تعالى قال في القرآن الكريم صراحةً، في وحيـه هـذا الـذي أثبتنا مصداقيّة مرجعيته: ﴿**إنّ الدّين عند ا لله الإسلام.**﴾ آل عمران (١٩) وقال أيضاً : ﴿**فأقم وجهك للدّين حنيفاً، فطرة ا لله التي فطر النّاس عليها، لاتبديـل لخَلق ا لله، ذلك الدّين القيّم، ولكنّ أكثر الناس لايعلمون.**﴾ روم (٣٠) وهذه الأقوال من آي الذّكر الحكيم تعـني صراحـةً أنّ تعـاليم الإسـلام هـي الـتي تكفـل المعرفة الرّبانية على الوجه الأكمل والأتمّ. وقد أنزل ا لله تعـالى تعليمـه هـذا وفقـاً لُمقتضيات فطرتنا التي فطرنا عليها. وقد جاء هذا التّعليم يحثّ المؤمنين على طاعـة ا لله ومحبّته والتفـاني في سبيله ظـاهراً وباطنـاً. ومحـور ذلـك عبـادة ا لله ومعرفتـه والتّفـاني في سـبيل مرضاتـه، ولذلــك قــال: ﴿**ومـاخلقت الجـنّ والإنـس إلاّ ليعبدون.**﴾. وا لله تعالى من خلال قوله هذا قد وفّر علينا أمر سؤاله عـن المقصـد من وجودنا. فهذا هو دليلُنا المُجمل الثـاني، الـذي استقيناه مـن ضمـن القوانـين الطبيعية المعروفة بين النّاس.

٣ ـ الدّليل الثالث

والدليل الثالث الذي يثبت صحة الطّرح القرآنـي المتعلّـق بـالمقصد مـن حياة الإنسان، يتحدّد في أن يعمد كل مفكّر إلى تعيين المقصد من حياته، وذلـك من خلال قاعدة منطقيّة معقولة وهي تقدير أعظم مايستطيع تأديتـه الإنسـان مـن عملٍ والقيام به. وقياساً على هذه القاعدة بالإمكان تعيـين المقصـد مـن حيـاة أيّ مخلوقٍ آخر غير الإنسان كالحيوان والنبات والجماد.

إن هذا الأسلوب في تقدير الغاية من خلق أيّ شيء هو أسلوب اقتضـاه المنطق العلمي. فالذي صنع سيّارة أو طـائرة ليختصر بهـا المسـافات، لايُعقـل أن يستعملها كمستودع أحطاب وأعشاب.

دونكـم الثّـور، فهـل يُطالبونـه بـالقراءة والكتابـة ونظـم الأشـعار؟ أم يستخدمونه للسّقي والحراثة وحمل الأثقال؟ وهذا النّحل على صغر حجمـه، فهـو

يصنع لنا من صبيب الزّهر عسلاً نفيساً فيه شفاءٌ للناس. وهل يستخدم عاقل النّحل للحراثة والسّقي وحمل الأثقال؟ فمن هذين المثالين نستنتج أنّ الثّور قد خلقه خالقه أصلاً ليُستخدم في مجال السّقي والحراثة وحمل الأثقال. على حين أن الله تعالى قد خلق النّحل ليصنع لنا من صبيب الزهر عسلاً لذيذاً، وقد جعل في هذا العسل شفاءً للناس أيضاً.

وبدافع من هذا الأسلوب وهذا المعيار في تقدير الغاية من خَلْق كلّ شيءٍ من الأشياء، نعود إلى أمر تقدير الغاية من خَلْق الإنسان. الذي يشترك مع جميع الأحياء في أمر الطّعام والشّراب والملبس والمسكن والحاجة إلى النّوم وإلى النور والهواء. لكنّه يختلف عنها بما حباه الله تعالى به من ملكات العقل والفكر والإدراك ويسأل: هل يستسيغ عقل المرء ومَنْطقه أن يمتاز الإنسان بهذه المَلَكات السّامية، دون أن يمتاز معها عن باقي الكائنات الغريزية بشيء؟ فلو صحّ ذلك لأصبحت هذه الملكات السّامية دون طائل.

ثم تعالوا إلى عصرنا هذا بالذات. أفلم نُلاحظ كيف استعمل الإنسان ملكاته هذه استعمالاً علميّاً، فتحقّق على يديه من جرّاء ذلك اختراق أجواز الفضاء، والنّزول على سطح القمر، واكتشاف كثيرٍ من مجاهل الأرض والسّماء؟ بل وحتّى تمكّن هذا الإنسان من قياس عمر الكون، ومعرفة الأدوار التي مرّ بها، بل وإدراك أنّه مخلوق.

ومادام الإنسان بانتهاجه الأسلوب العلّمي، قد مكّنته ملكاته العقلية السّامية من اكتشاف مجاهل هذا الكون، والسّيطرة على ماحوله من أشياء. فهذه حقيقة إن كانت تعني للمفكّر الباحث شيئاً، فسوف تعني له بصورة أكيدة أنّ أقصى مايستطيع الإنسان تقديمه والقيام به هو أن يستعمل عقله وفكره وإدراكه وبأسلوب علمّي لتقصّي حقائق الكون والبحث عن المجهول، ليمتاز بذلك عن بقيّة مخلوقات الله تعالى.

والآن لنتساءل معاً: وهل هُناك من حقيقةٍ كونيّة أعظم من حقيقة معرفة الله خالق هذا الكون، والتّعرف عليه ومكالمته والتقرّب منه والوصول إليه؟

على هذه الصّورة الواضحة قدّمنا الدليل العلمي وأثبتنا بالتالي صحّة الطّرح القرآني الوارد في الآيات : ﴿**وماخلقت الجنّ والإنس إلاّ ليعبدون. ماأريد منهم من رزقٍ وماأريد أن يُطعمون. إنّ الله هو الرّزاق ذو القوّة المتين.**

فإنّ للذّين ظلموا ذنوباً مثل ذَنوب أصحابهم فلا يستعجلون. فويلٌ للّذين كفروا من يومهم الذين يوعدون.﴾ الذاريات ٥٦ـ٦٠ــ. هذه الآيات الكريمة التي نصّت على أنّ المقصد من خلق الإنسان هو أن يسعى جاهداً للتعرّف على خالقه وليتقرّب إليه وليستفيض من عطائه. وقد لاحظنا كيف أنّ الله عزوجلّ نبّه إلى أن طلب الرّزق لاينبغي أن يُصبح جُلّ همّ الإنسان، فمن يتجاهل هذا التحذير ولايسعى لتحصيل هذا المقصد الذي ذكرناه لابُدّ له أن يتحمّل عاقبة أمره من ويلٍ وثبور. وهذه إشارةٌ منه تعالى إلى المعنى الهامّ من وجودنا، وكذلك إشارةً إلى مُسلمي هذا العصر، الذين أُشيرَ إليهم من خلال (إذا) في قوله تعالى: **﴿وإذا سألك عبادي عنّي، فإنّي قريب أُجيب دعوة الدّاع إذا دعان، فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون.﴾**. وبهذا قد فتح لنا الله عزوجلّ طريق معرفته والتقّرب منه والوصول إليه، وليبلغ علمنا على هذا الطريق حدّ علم حقّ اليقين.

وقد علِمنا أن صاحب معجم محيط المحيط أورد أن لفظ عَبَدَ بمعنى طاع وخضع وذلّ وخدم والتزم بالشرائع ووحّد. أي كان موحِداً غير مُشرك. فإن هذا المعنى الأخير، وهو موضوع التوحيد والشرك يقتضي منّا أن نفرد له باباً خاصاً لبحثه. خصوصاً وأنّ الله عزوجلّ أكّد في كتابه الكريم على أهميّة توحيد الله تعالى وبالتالي ضرورة البُعد عن الشّرك به. وضرورة الاحتياط لذلك، بسبب مايحمله توحيد الله تعالى من بركاتٍ، ومايُسفر الشّرك عنه من ويلاتٍ ومساوىء وأخطار. ألم نلاحظ ماقاله الله تعالى في حقّ ابراهيم عليه السّلام، وهو أبو الأنبياء، **﴿قل بل ملّة إبراهيم حنيفاً، وماكان من المشركين.﴾** البقرة ١٣٥ ؟



الباب الرابع
الشّرك والتّوحيد

الفصل الأول
حدود دلالة لفظي شرك وتوحيد

لابدّ أنّنا لاحظنا أنّ من جُملة معاني العبودية لله تعالى ضرورة توحيد الباريء عزوجلّ. فلايكون المؤمن عبداً لله تعالى، إلا إذا استوفى جميع دلالات كلمة عبد. وهذا الأمر يجرُّنا بصورةٍ آليةٍ لبحث موضوع الشرك والتوحيد. وينحصر المدخل إلى ذلك في ضرورة الإلمام بدلالات هذين اللّفظين الشرك والتوحيد لغويّاً. وهذا الأمر يدفعنا إلى العودة إلى معاجم اللّغويين، مبتدئين ممّا جاء به (محيط المحيط). فما هي دلالة لفظ (توحيد)؟

تقول: (وَحُدَ يحِدُ فهو وحيد منفردٌ بنفسه). فإذا شدّدت الحاء في وحّده، فالمعنى جعله واحداً، أو أنت قلت: وحّد الله فالمعنى آمن بالله ووحّده أي اعتقد أنّه واحد دون سواه، وقُلْ إنّ الله واحدٌ أحد. ولفظ (واحد) هو المبدأ لأعداد الحساب. أمّا لفظ (أَحَد) فيعني الذي لانظير ولاسَمِيَّ له، ولايشاركه شيء في ذاته، على حين أنّ (واحد) يستعمل للذّي لايُشاركه شيء في صفاته.

وإن نحن أجملنا هذه المعاني الدّالة على التّوحيد، نقول : إنّ التّوحيد هو عمليّة رجوعٍ من العدديّة إلى الفرديّة، أو إرجاع الفروع إلى أصلها، وجمعٌ بعد تشتّت. وبألفاظٍ أخرى انتقال ذهننا إلى أصل الأشياء ومنبعها الحقيقي.

أمّا كلمة (شرك)، تقول شرّكَ ماله أي شتّته بين النّاس فضاع عليه. ومعنى أشرك بالله: جعل له شريكاً. ويكون الشّرك في المُلك، كما يكون في الذّات وفي الصّفات.

وإن نحن أجملنا هذه المعاني الدّالة على الشّرك، نقول : إنّ الشّرك هو عكس التوحيد من حيث حقيقته، فهو عملية انتقال من الفردية إلى التعدّدية، كما أنه ترك للأصل وانتقال إلى الفروع، وتشتيتٌ بعد جمع. وبألفاظٍ أخرى ابتعاد بالذهن عن أصل الأشياء، وضياع بين ظواهر الفروع، ونسب الحقّ لغير أهله.

فمن عاود تلاوة سورة الإخلاص، وماستقيناه من آياتها من دلائل ومعلومات سابقاً، تجلّت لعينه حقيقة رائعة لالُبس فيها، وهي أنّ سورة الإخلاص اعتمدت جميع هذه المعاني التي اقتبسناها من معجم خيط المحيط. فقد بحثت السّورة المذكورة وحدانيّة الله تعالى في ذاته وفي صفاته، والتي بلغت مائةً وخمس صفات، على حسب ماأفادنا بذلك القرآن الكريم الذي أثبتنا مصداقيّة مرجعيّته.

هذه الصّفات التي بثّها ربُّنا في ثنايا آيات كتابه العزيز، وفق الضرورات الموضوعية وبأسلوب فريدٍ في نوعه وإعجازه. وسيجد قارئنا العزيز قائمة بأسماء الله الحسنى آخر هذا الكتاب.

ولم يقتصر القرآن الكريم على إطْلاعِنا على أسماء الله الحسنى التنزيهيّة والتشبيهيّة. بل أعلمنا أيضاً أنّ الله عزوجلّ (ليس كمثله شيء) الشورى ١١ -

لافي ذاته ولافي صفاته، أي أنّها وإن تتشابه صفات الله وصفات مخلوقه، فالفارق كبير جداً بينها بما لايُقاس بمعاييرنا الماديّة.

والقرآن الكريم نبَّهَنا أيضاً إلى أنّ ذات الله تعالى موجودة خارج هذا الكون المادي، وليس ضمنه، على حسب مايعتقد أصحاب عقيدة وحدة الوجود. فهذا ماأشارت إليه الآية الرّابعة من سورة المعارج قوله تعالى: ﴿**تعرج الملائكة والرّوح إليه في يومٍ كان مقداره خمسين ألف سنة.**﴾. ومعلوم أنّ العروج يعني التّصعد والارتقاء، ثم إنّ صيغة الجار والمجرور في (إليه) يشير صراحةً أنّ ذات الله كائنة خارج عالمنا. فالرّوح والملائكة تصعد بغرض الوصول إليه عزوجلّ. هذا وإن كان القرآن الكريم قد وضّح لنا أنّ الله تعالى على بُعده، فهو منّا جدّ قريب، لعظمة وسائل علمه التي تساعده أن يعلم سرّنا وجهرنا، ويعلم السرّ وأخفى، وقد سبق أن قدّمت لقارئي العزيز مثال المركبات الفضائية وهيمنة قيادتها عليها من بعيد، مع وجود الفارق بين هذا وذاك بما لايُقاس بمعاييرنا ووسائلنا الماديّة المتوفّرة.

مع الإشارة إلى أنّ الله تعالى قد تعمّد ألاّ يتكلّم شيئاً عن ذاته في كتابه القرآن الكريم، ولسببٍ وجيهٍ جدّاً، وهو أنّ عقل الإنسان يعجز عن إدراك عظمة الذّات الإلهية بوسائله ومفاهيمه الماديّة المعروفة. لذلك نُلاحظ أنّه تعالى لم يُخبرنا في كتابه العزيز إلاّ عن صفاته تعالى المتعلقّه بعالمنا المادي فقط. وإلاّ فإنّ لله عزوجل صفاتٍ غيرها ستتجلّى يوم الدّين أيضاً.

وقد رأينا أنّ كلمة (شرك) تعني عمليّة انتقال من الفردية إلى التّعددية، والابتعاد عن الأصل نحو الفروع، وتشتّت بعد جمع، وإعطاء الحق لغير أهله، وإشراك غير الله في صفات الله. وأنّ الشرك هو عكس التوحيد.

والذي نضيفه هنا هو قولنا إنّ البشر قد وقعوا في وهدة الشرك وأحابيله منذ بدء الخليقة. وابتلي الناس مؤمناً كان أم كافراً بمرض الشرك لأسباب عديدة أهمّها ضحالة علم الإنسان القديم فيما يتعلّق بهذا الكون من حوله. فقد كان عسيراً على الإنسان أن ينسب الحمد كلّه لله ربّ العالمين. أما وقد أشرف علم الإنسان على التطّور من وسائله البدائية إلى وسائله التقنيّة المتقدّمة في عصرنا. فقد نزل القرآن الكريم يُعلّمنا أن يدعو في كل ركعة من صلواتنا بدُعاء الفاتحة وهو ﴿**الحمد لله ربّ العالمين**﴾ بمعنى أنّ جميع أنواع الحمد لايستحقّها بالأصاله إلاّ خالقنا، وهو رب العالمين الذي يُطورّنا مرحلة بعد مرحلة، لنزداد علماً بوجوده وسعياً للتقرّب منه، ولنصبح أخيراً من العارفين به عزوجلّ.

فلقد كان من العسير على الإنسان القديم الذي عاش في أحد المجتمعات البشرية القديمة أن يتلقّى من أحد ملوك الأرض إنعاماً وتكريماً، ويعتقد بالتّالي أن لله خالقه يداً ودخلاً فيما أُهدي إليه. بمعنى أنّ عقل الإنسان القديم وعلمه لم يكونا ليساعداه على ربط الأسباب بمسبّب الأسباب الذي هو الله تعالى الذي لايقع تحت حواسه الخمس المعروفة.

أمّا في زماننا هذا فقد أفاد التطّور العلمي البشر على إدراك وحدة الكون مادّةً وقوانينَ، كما ساعد ذلك على إدراك أنّ هذا الكون على عظمته مخلوقٌ من جانب خالق واحد أيضاً. فالوحدة في المادة ووحدة القوانين، تدلاّن على وحدة الخالق وتفرّده. كما حُلّت بذلك مُعضِلة الشّرك من الوجهة العقلية، إذ لم يعد بإمكان العالِم الطبيعي والفيزيائي أن يفترض وجود إلهين، إذن لتعدّدت القوانين الكونية، ولذَهب كلّ إله بما خلق.

وأمّا الأمر الهام في موضوع الشرك وخاصة منه الشّرك الخفّي، فلم يساعد التّطوّر العِلميّ على حلّه حتى الآن، بسبب أنّ التطور العلميّ لم يتجاوز الوسائل المادية، و لم يُحط علماً بقيمة الوسائل الروحية على هذا الصّعيد.

فإن أنت قُلت لعالم فيزيائي : إنّ خواص الماء المعروفة، ماهي بخواص ذاتيّة، بل هي خواصٌ مُفوّضةٌ إلى الماء تفويضاً من خالق المادة. وأنّ الله قادر على أن يسلُب الماء خواصّه، إن نحن قلنا ذلك، تعلو الابتسامة شفاه هذا العالم الفيزيائي وبصمت، مُعتبراً قولنا هذا مجرّد ادّعاء، وأننا مطالبون على إثباته بحجّة وبرهان. ذلك أن حواس الإنسان أثبتت للبشر على اختلاف أزمنتهم وأمكنتهم، أصالة خواص الماء واستقلاليّتها، لذا فلايزال البشر يتخبطّون في مستنقع الشرك الخفّي من زاوية الناحية المادية المذكورة حتى الآن.

وهكذا، فبالنظّر إلى مفهوم الشّرك الذي علمناه، فليس بإمكاننا وضع تعريفٍ مُحدّدٍ لموضوع الشرك. ذلك أنّ السّجود لغير الله تعالى هو من قبيل الشرك. وإنّ الأخذ بالأسباب المادية، دون الاعتقاد بأنّ خواص الأسباب مُفوضةٌ إلى المواد تفويضاً، وأنّ خالقها قادر على سلبها هذه الخواص في أيّ وقت يشاء، هو من قبيل الشرك الخفّي. ثم إنّ ترك الأخذ بالأسباب هو من قبيل الشرك وعدم التأدّب مع خالق الأسباب. كذلك فإنّ إلصاق صفاتٍ تنزيهيّة بمخلوق، وهي أصلاً لله عزوجلّ كصفة الإحياء والإماتة فهي من قبيل الشرك أيضاً وعلى الأقل في نظرنا نحن.

هذا وإنّ المحبّة المُطلقة لكائن غير الله هي من قبيل الشرك أيضاً. كذلك فإنّ استجداء الأموات رجاء النفّع أو المغفرة هو من قبيل الشرك. وإنّ تقليد المؤمن لعادات المشركين والعمل على تقاليدهم هو من قبيل الشرك. كذلك فإنّ تأدّب الإنسان تجاه أخيه الإنسان، بمستوى تأدّبه مع الله في صلاته هو من قبيل الشرك. وكيف بالإمكان الجمع بين هذه الأمور كلّها في تعريفٍ واحد، إلاّ أن نعمد إلى تعريف كلّ نوع من أنواع الشرك على حِدة؟

وأنا إذ عدّدت هذه الأنواع العديدة للشرك، قد أُعَدُّ مُغالياً في نظر بعض المفكرين. على حين أنّي لم أتعسّف في ذلك، بل استقيت أنواعاً من الشرك من القرآن الكريم الذي سبق أن أثبت مصداقية مرجعيّته، وصدوره عن خالقنا ربّ العالمين، ثم أو لم نقرأ ماروي عن رسول الله (ﷺ) قوله: (الشرك فيكم أخفى من دبيب النّمل) ابن كثير؟



الفصل الثاني
١ً - الشّرك الخفي

والذي توصّلت إليه، هو أنّ من أهم مقاصد قصّة يوسف عليه السّلام، هو لفت نظر المؤمن إلى موضوع (الشّرك الخفي).

فهو تعالى قال بعد أن انتهى من سرد قصّة يوسف: ﴿**وكأيّن من آيةٍ في السماوات والأرض يمرّون عليها وهم عنها مُعرضون. ومايؤمن أكثرهم با لله إلاّ وهم مُشركون. أفأمنوا أن تأتيهم غاشيةٌ من عذاب ا لله أو تأتيهم السّاعة بغتةً وهم لايشعرون. قل هذه سبيلي أدعو إلى ا لله، على بصيرةٍ أنا ومن اتّبعني، وسبحان ا لله وماأنا من المشركين.**﴾.

إنّ قصّة يوسف عليه السلام لم يُخصّص ا لله تعالى لسردها سورة بكاملها عبثاً، بل أتي بها مُفعمة بالعبر والعظات الإيجابية الدّالة على وجود ا لله عزوجلّ. وعلى تدخّل ا لله في كل صغيرة وكبيرة من حياة الإنسان. وللدلالة على واسع علم ا لله وعظيم قُدُراته. وهذه الأمور جميعها تدخل ضمن موضوع التوحيد الخالص من شوائب الشّرك الخفي. لذلك ينبغي للمؤمن ألاّ يَمُرَّ على قصّة يوسف مرور الكرام. ولاينبغي أن يعتبرها مجرّد قصّة تاريخية مسليّةٍ ودراميّة. بل إنّ عليه أن يستقي منها مفهوم التوحيد الخالص، وأن يحذر من الشرك الخفّي، الذي هو أخفى من دبيب النّمل. خصوصاً وأنّ ا لله عزوجلّ أتى بعد هذه القصّة بهذه الآيات الكريمة التي قال فيها: ﴿**ومايؤمن أكثرهم با لله إلاّ وهم مشركون.**﴾.

فا لله تعالى عندما قال: ﴿**وكأيّن من آيةٍ** - أي من دليلٍ - **في السّموات والأرض يمرّون عليها** — أي يتجاوزونها فلا يستدلون منها على وجود ا لله مسبّب الأسباب، ولايتّعظون بها — **وهم عنها معرضون** — أي صادّون عنها لايتخذون منها الدّروس والعظات -﴾. أقول إنّ ا لله تعالى عندما قال هذا، أتى بعده بواو التّعليل مُلحقاً بها (ما) الحرفيّة التي لاعمل لها، وخَلَصَ بذلك بكلامه إلى الزمن الحاضر مع انتفاء القرينة على حسب رأي الجمهور. فقال وعزّ من

قائل: ﴿**ومايؤمن أكثرهم با لله إلا وهم مشركون.**﴾ فعلّل مرور المشركين شركاً خفيّاً على الأمور الدالّة على وجود جل شأنه وكونه مسبب الأسباب. علّل حالهم هذا من أنّهم يفكّرون في كل شيء نفكيراً ماديّاً محضاً لايخالطه عنصر روحي، على حين ينهج المؤمنون المُوحدّون نهجاً حياتياً روحياً مختلفاً عنهم. فالمؤمنون المُوحدون ينسبون كلّ حركة وسكنة في هذا الوجود إلى الخالق مسبّب الأسباب، الأول والآخر والظاهر والباطن والقادر على كلّ شيء. وكأنه تعالى يقول هنا بألفاظ أخرى مالهؤلاء المشركين لايفهمون من كلّ صغيرة وكبيرة الإشارة والدّليل على وجود من بيده مقاليد السّموات والأرض، فهل عميت بصائرهم عن هذه الحقيقة الواضحة للعيان؟ ولذلك قال: ﴿**ومايؤمن أكثرهم با لله إلاّ وهم مشركون.**﴾ أي أن جميع تصرفاتهم، وأسلوب تفكيرهم يغلب عليها الشرك الخفّي با لله ربّ العالمين.

وا لله تعالى هنا قد نبّه أذهاننا من طرف آخر إلى أنّ توحيد ا لله توحيداً خالصاً من شوائب الشرك، يساعد على صقل حواسنا، ويكسبُها نظرة وفراسة روحيّة، لاتتأتى للمشرك الذي يُصاب في مقابل ذلك بعمى البصيرة. فإن مات على حاله هذا، يحشره ربّه أعمى يوم القيامة كما في طه ١٢٤: ﴿**ومن أعرض عن ذكري فإنّ له معيشةً ضنكاً، ونحشره يوم القيامة أعمى. قال ربّ لِمَ حشرتني أعمى وقد كنتُ بصيراً؟ قال كذلك أتتك آياتُنا فنسيتها، وكذلك اليوم تنسى، وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربّه، ولَعَذابُ الآخرة أشدّ وأبقى.**﴾ فهذا هو مآل ومصير المشرك البعيد عن توحيد ا لله الخالص من شوائب الشرك. أو لنقل إنّ هذه الآيات من سورة (طه) قد صوّرت لنا عاقبة المشرك الذي انتهج في حياته نهج التفكير المادّي المحض. والذي لايعيد الأسباب إلى مُسببها الحقيقي الذي هو ا لله عزوجلّ.

وأعود إلى الآي من سورة يوسف عليه السّلام. فقد انتقل جلّ شأنه بعد الآيات التي ذكرناها، انتقل من المقدمات التي لاحظناها، إلى النتائج المترتّبة على غفلة هؤلاء المشركين، وقال: ﴿**أفأمنوا أن تأتيهم غاشيةٌ من عذاب ا لله، أو تأتيهم السّاعة بغتةً وهم لايشعرون.**﴾ بمعنى أنّ للمقدّمات نتائجها. والنتيجة المترتبة عن غفلة المرء وابتعاده عن التوحيد الخالص، هي أن ينزل به عذاب

وعقاب من بارئه، أو أن تأتي نهايته، وهو لايحسَ بُدنُوها لاستغراقه في شركة وغفلته.

على هذه الصورة قد كشف ربّنا جلّ شأنه عن أعيننا الغطاء منبّهاً ومُحذّراً إيّانا من الوقوع في شباك الشرك الخفي كيلا نتحمل نتائجه المترتّبه عليه.

فلّما انتهى جل شأنه من بيانه الذي ذكرناه. راح يتكلّم عن سبيل المؤمنين المّوحدين، وقال: ﴿**قل هذه سبيلي أدعو إلى ا لله، على بصيرة أنا ومن اتّبعني، وسبحان ا لله،** ومأانا من **المشركين.**﴾. والمعنى أنّني كمسلم مُوحّدٍ لاأنتهج نهج التفكير المادي الذي ينتهجه هؤلاء المشركون شركاً خفيّاً، بل أحلّل وأبحث في كل مايعرض لناظري بمنطق إعادة هذا السّبب إلى المُسبّب الحقيقي فأدعو بذلك إلى ا لله مسبّب الأسباب. ولذلك فسبيلي ألاّ أمرّ على الآيات من حولي مرور الكرام.

وأضاف تعالى قوله: ﴿**على بصيرة أنا ومن اتّبعني..**﴾ وبهذه الألفاظ وضّح لنا تعالى وسيلة المسلم في دعوته، وهي الأسلوب السلّمي، والحوار على أساس الحُجّة والبرهان. فالمعلوم أن هنالك وسيلتين لنشر الدعوات على اختلافها، ولاثالث لهما. الوسيلة الأولى انتهاج سبيل العنف والقوة، والوسيلة الثانية انتهاج السّبيل السّلمي واللّجوء إلى الحوار والإقناع، وا لله عزوجل عندما قال هنا ﴿**على بصيرة أنا ومن اتبعني**﴾ نبّه إلى أن سبيل المسلم لنشر دعوته، هو السبيل السلميّ القائم على الحوار والإقناع بالحُجّة والبرهان، ذلك أنّ كلمة (بصيرة) تعني الحجّة والعقل والفطنة.وقوله تعالى (على بصيرة) أي على أساس الحجة والعقل والفطنة وتقديم الشواهد والأمثلة. فهذا ماوضّحه لنا صاحب معجم (أقرب الموارد) لكلمة بصيرة.

فلّما انتهى جلّ شأنه من بيان وسيلة نشر دعوة المسلم الموحّد، أضاف قائلاً: ﴿**وسبحان ا لله**﴾ أي أُنزّه ا لله الذي أعطى الإنسان حرية الاختيار، أن يأمره باتخاذ وسيلة القوة والعُنف سبيلاً لنشر دعوة الإسلام. فهذا هو المعنى المقصود من (وسبحان ا لله) هنا وهذا هو المعنى الذي يقتضيه التّسلسل الموضوعي. وليس المقصود من (وسبحان ا لله) هنا، أنني أنزّهه عن أن يكون له شريك أو ولد.

ثم أضاف تعالى قوله ﴿وماأنا في المشركين.﴾ وليس معنى قوله هذا هنا "لست مشركاً"، فليس لهذا المعنى صلة بالتّسلسل الموضوعي. بل المعنى هو أنني أدعو إلى الله بالوسيلة السلمية وطريق الحوار بالحُجّة والبرهان على اعتبار شعوري وإيماني بمسؤولية هذه الدعوة إلى الله والتي تتطلّب مني تحمل المشاق في سبيل دعوة الناس إلى معرفة خالقهم وربّهم، وماأنا من المشركين الذين لايعرفون ربّهم ولايشعرون بمسؤولية الدعوة إليه.

وبهذه الألفاظ يكون ربّنا جلّ شأنه قد نبّهنا إلى عظيم مسؤوليتنا في حياتنا الدنيا، وأهمية إدراكنا الدقيق لمسألة الشرك والتوحيد، وبالتالي إدراك أنّ الله تعالى بيده مقاليد السماوات والأرض وهو مسبّب الأسباب وعلاّم الغيوب.

وإن ألفاظ ﴿وماأنا من المشركين﴾ تسلّح المؤمنين بنظرةٍ مستقلّة إلى الكون من حولهم، وتدفعهم لينتهجوا نهج التفكير الرّوحاني، والاطمئنان إلى عواقب الأمور ونهاياتها ونتائجها التي ستكون في صالحهم، فلاينطبق عليهم الإنذار الذي حمله قوله تعالى: ﴿**أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم السّاعة بغتةً وهم لايشعرون.**﴾. بل ويطمئنون إلى عاقبتهم الحسنة وهي الفوز والفلاح في الدنيا والآخرة، وعلى الله فليتوكّل المتوكّلون. ونعم سبيل المؤمنين الموحدين الحذرين من جميع أنواع الشرك الخفّي خاصة.

ونخلص من جميع ماشرحناه، إلى أن الآيات التي ذكرناها والتي أتى بها جل شأنه بعد سرده لقصّة يوسف عليه السلام، قد احتوت الأمور التالية :

أولاً ـ نبه تعالى أذهاننا إلى انقسام البشر إلى فئتين من المؤمنين به عزوجلّ. فئة مؤمنةٌ موحّدةٌ، لايشوب إيمانها شركٌ خفيٌّ، وينهج هؤلاء نهج التفكير الروحاني يتدبرون كلّ شيء من أشياء هذا العالم من زاوية نظر أن الله خالقهم هو مسبّب الأسباب. فهو الأول والآخر والظاهر والباطن. وفئة مؤمنة إيماناً سطحيّاً يشوبه الشرك الخفّي. فلا يتدبرون ماحولهم من أشياء من نفس زاوية نظر المؤمنين الموّحدين، ولاينتهجون نهج التفكير الروحاني بل المادّي، وهؤلاء يحكمون على الأشياء حُكماً ظاهريّاً، فلا يتعمّقون فيها ولايتقصّون من خلالها وجود مسبّب الأسباب.

ثانياً ـ وأنّ الفئة المشركة شركاً خفيّاً، لابدّ أن تأتيهم غاشيةٌ من عذاب الله وقصاصه، فلاتكون عاقبتهم خيراً، على حين أن الفئة الموّحدة توحيداً خالصاً

من شوائب الشرك الخفي، والذي ورد بحقّه قول رسول الله (ﷺ): (إنّ الشّرك يدبّ فيكم دبيب النّمل). إنّ أفراد هذه الفئة من المؤمنين يكونون دوماً بمنجاةٍ من غواشي عذاب الله تعالى، وتكتب لهم الغلبة دوماً على مخالفيهم، وتكون لهم عاقبة الدار.

ثالثاً ـ وأنّ فئة الموحّدين تقع على عاتقهم مسؤوليّتان : الأولى مسؤولية شكر ربّهم على الدّوام على ماهداهم إلى معرفته. والثّانية مسؤوليّةٌ إنسانيّة تجاه غيرهم من الناس، وهي واجب دعوتهم إلى الله خالقهم وربّهم على نفس الأساس الذي ينتهجونه وبالأسلوب السّلمي، وهو أسلوب الحوار (على بصيرة) أي على أساس من الحُججِ والبراهين. وبهذه الخصائص تتميّز جماعه المؤمنين الموحدين عن فئة المشركين شركاً خفيّاً. ويكونون مصداق قوله تعالى ﴿**ومآأنا من المشركين**﴾.

ونحن إذ استخلصنا هذه الأمور من تلك الآيات الكريمة. نعود إلى ألفاظ ﴿**وكأيّن من آية..**﴾ لنتوسّع في فهم دلالاتها.

فما معنى (وكأيّن)؟ قال صاحب معجم محيط المحيط : إنّها اسمٌ مُركّبٌ من كاف التشبيه، ومن (وأي) المُنونة. فكلمة (وكأيّن) تستعمل للإيحاء بغلبة أمرٍ من الأمور. وبالتالي فإنّ معنى ﴿**وكأيّن من آيةٍ**﴾ أي كم وكم من آية أي من دليلٍ يتراءى، ويمرّ المشركون شركاً خفيّاً عليها جميعها وهم مُعرضون لذلك يصّح القول بحقّهم : ﴿**ومايؤمن أكثرهم بالله إلاّ وهم مشركون.**﴾.

والسؤال الذي ينبغي علينا الإجابة عليه بعد وصولنا إلى هذا الحد من المعرفة، هو أن نضرب مثالاً يوضّح نهج الموحّدين، فكيف يتميّز الموحّدون عمّن سواهم من النّاس؟

و أعود بالقارىء العزيز إلى مثال المركبة الفضائية الذي قدّمته له من قبل. ليُساعدنا ذلك على هذا الطّريق.

فلاشك أنّ الذّين صمموّا المركبة الفضائية، قد وضعوا عند تصميمها عدة اعتبارات في حُسبانهم: اعتبار الحجم لتّتسع المركبة لعددٍ مُحدّدٍ من الرّواد، إضافة إلى مايحتاجونه من طعام وشراب ووسائل ترفيه وهذا بالإضافة إلى التجهيزات والأدوات التي سيجهزون بها المركبة ومالى ذلك من أشياء. ونوعيّة المعدن الذي يصنعون منه المركبة، والذي يساعدها على تحقيق رحلتها بسلام.

وأهم اعتبار هو كيف سيهيمنون على رحلة هذه المركبة الفضائية ويُسيطرون عليها في جميع مراحل رحلتها. كيلا تضلّ طريقها وتذهب ريحها، فلا تؤدّي الغرض من تصميمها وصُنعها.

والذي يتدبّر القرآن الكريم يُلاحظ أنّ خالق هذا الكون في مقابل صانع هذه المركبة الكونية والمؤلف من شموس وكواكب وسيارات لاتحصى والتي تشكّل بمجموعها مايتشابه مع مثال هذه المركبة الفضائية مع الفارق بينهما بما لايُقاس بمقاييسنا المعروفة.

أقول إن خالق هذا الكون قد أخذ بحسبانه نفس الاعتبارات الثلاثة التي راعاها مُصمّمو هذه المركبة الفضائية بما يتعلّق بالحجم والمعدن والمقصد من الخلق والإبداع. وكما أنّ قيادة المركبة الفضائية الأرضية تظلّ هي مهيمنة ومحركة للمركبة من بعيد، ومن وراء ستار، وبتقنيّةٍ تذهل الأبصار. فإنّ خالق هذا الكون قد ترك مقاليد السماوات والأرض بيده، وبتقنيّةٍ لاندرك ماهيّتها، وهو بذلك مُسبّب الأسباب.

أفلم نقرأ قوله تعالى من سورة يونس: ﴿**إنّ ربّكم الله الذي خلق السّموات والأرض في ستّة أيّام ثم استوى على العرش، يدبّر الأمر، مامن شفيع إلاّ من بعد إذنه، ذلكم الله ربكّم، فاعبدوه، أفلا تذكّرون؟**﴾. فهاهو الله جلّ شأنه يصرّح هنا أنّ خلق هذا الكون مرّ بستّة أدوار، وأنّه هو تعالى (يدبّر الأمر) بعد أن استوى على العرش، عرش تسيير هذا الكون، فالتّدبير في اللّغة هو عملية إجراء التّغيير في الأسباب، فأنت تقول دبّر الأمر أي نظر في عاقبته وتفكّر واعتنى بالأمر ورتّبه ونظّمَهُ. وتقول دبّر الوالي إقطاعه : أي أحسن سياسته.

كما نبّه تعالى من خلاله قوله هنا: ﴿**مامن شفيع إلاّ من بعد إذنه**﴾ إلى إمكانية الاتصال به عزوجلّ. فالشفيع من شَفَع أي جمع مابين طرفين مُتجانسين. تقول شفعت الجمل بقافلته أي جمعته بأمثاله من الجمال. والحقّ يُقال إنّ الله تعالى جعل سلسلة الأنبياء والصالحين وسيلة هذا الاتصال فيما بينه وبين عباده ليربطهم به برابطة المحبّة والعِرْفان. ولهذا السّبب أنهى الآية الكريمة بقوله تعالى ﴿**ذلكم الله ربكّم فاعبدوه، أفلا تذكّرون؟**﴾ فهو استبدل بـ (هو) اسم الإشارة للبعيد (ذلك) تعظيماً لشأن عملية الخلق هذه والتي أنجزها (ربكّم) أي الإله الذي

يشرف على تطويركم نحو التمام والكمال. ﴿فاعبدوه أفلا تذكّـرون﴾ أي أفـلا تقبلون هذه النصيحة وهذا الإفصاح عن هذه الحقيقة وتكونون ممّن يحقّق المقصـد من خلقه ووجوده؟

فهـذا الكـون مخلـوقٌ إذن بنـصّ القـرآن الكريـم الـذي سـبق أن أثبتنـا مصداقيّته. وهاأن نظريـة الانفجـار العظيـم الـتي طلـع بهـا علينـا العـالم الفيزيـائي غاموف أيّدت ذلك، وقـدّرت بالحسـاب التقريبيّ أن عمليـة خلـق هـذه المركبـة الكونية قد تحققّت قبل (١٢ـ٢٠) مليـار عـام. وهـاأنّ الفيزيـائي الشـهير (جـون ويلر) قال: (إننا ننظر إلى الكون على أنّه يستهدف الحياة والإنسان. فلماذا يكون العالَمُ بهذا الاتّساع؟ لأننا موجـودون فيـه. فرحابـة الكـون تُعتـبر سبباً في جعـل الحياة مُمكنة.) وأضاف يقول: (وبالرّغم مـن أنّ الإنسـان لايشـكّل مـادّة مركـز الكون، فهو على مايظهر في مركز الغاية من خلق هذا الكون.).

إنّ ماذكره القرآن الكريـم، ومـاأيّده العلـم، يـدور جميعـه حـول اعتبـار تصميم الكون وحجمه بما يوازي الاعتبار الأول في مثال المركبة الفضائية والمتعلّق بالتّصميم والحجم.

وقد قال تعالى في سورة الأنعام مشيراً إلى الاعتبار الثاني في مثال المركبة الفضائية والمتعلّق بالمعدن المصنوعة منه، فوضَّح المادّة التي صنع منهـا هـذا الكـون السّابح في الفضاء بقوله: ﴿هو الذي خلقكم من طين ثـم قضـى أجـلاً، وأجـلٌ مُسمّى عنده، ثم أنتم تمترون. وهو الله في السّموات وفي الأرض يعلم سـرّكم وجهركم ويعلم ماتكسبون، وماتأتيهم مـن آيـةٍ مـن آيـات ربّهـم إلا وكـانوا عنها مُعرضين.﴾.

والله تعالى أجمل في هذه الآيات الكريمة جميع مايتعلّق بمعدن هذه المركبة الفضائية وتجهيزاتها ورُوّادها وصلته تعالى بها وتدخّله في كل صغيرة وكبيرة فيهـا وكونه مسبّب الأسباب.

فهو قال ﴿خلقكم من طين﴾ فأجمل كل مايتعلق بالمادة المصنـوع منهـا هذا الكون، فلم يقل ﴿خلقكم من تراب﴾، ليشير من خلال كلمة ﴿من طين﴾ إلى عناصر المـادة المخلوق منهـا هـذا الكـون التّرابيـة وإلى عُنصـري الهيدروجـين والأوكسجين خاصة اللّذين شكّلا الماء الذي هو أساس الحياة.

وهو تعالى قال ﴿**خلقكم**﴾ ولم يقل ﴿**خلقكم والعالم من حولكم**﴾ لأنّ الإنسان قد رُكّب أصلاً من هذه العناصر التي رُكّب منها هذا الكون، ويتوقف نموّه أيضاً على تغذيه بهذه العناصر أيضاً، وهو ماتنبته الأرض.

وهو تعالى حين قال ﴿**ثم قضى أجلاً، وأجلٌ مسمّى عنده**﴾ أشار إلى أنّه قضى ألاّ يعيش الإنسان إلاّ أجلاً محدوداً، كما أنّه قضى أن يكون لهذه المركبة الكونية (أجلٌ مُسمّى عنده).

فلّما أضاف تعالى قوله ﴿**وهو الله في السموات وفي الأرض**﴾ نبّه إلى وحدة القوانين في السماوات والأرض وهيمنته تعالى عليها. فالسموات والأرض كُلٌّ مُتكاملٌ لايتجزّأ.

وأضاف قوله ﴿**يعلم سرّكم وجهركم ويعلم ماتكسبون.**﴾ أي أنّه جل شأنه صنع هذا كله مُجهّزاً بأجهزةٍ خافيه عن الأعين بحيث تمكنه من أن ﴿**يعلم سرّكم وجهركم ويعلم ماتكسبون**﴾.

وهو تعالى عندما أنهى هذه الآيات بقوله تعالى: ﴿**وماتأتيهم من آيةٍ من آيات ربّهم إلاّ كانوا عنها مُعرضين.**﴾ نبّه إلى أنّ الأيّام ستكشف عن أن كلّ شيء خلق من عُنصري المادة والروح، وستأتي الاكتشافات العلمية بما يؤيّد ذلك، ولايستفيد من تلك العلوم من كان تفكيره ماديّاً، لايربط الأسباب بمسبّبها.

هذا وقد جاءت الاكتشافات العلمية مؤيّدة لجميع ماتضمنته هذه الآيات الكريمة ولذلك فليراجع القارىء للاستزادة مؤلّفَيّ (نظرية جذور الأخلاق) و (النظرية القرآنية الكونية حول خلق العالم) بهذا الخصوص.

وأما الاعتبار الثالث بما يتعلق بالغاية من الصّنع والتّصميم، فقد وضح لنا كلام الله المقدّس أنه كان المقصد من خلق هذا الكون كله هو خلق هذا الإنسان ليُعرّفَه الله على نفسه فيتّصف بصفاته عزوجلّ ويحصل بذلك على هوية التّجانس معه والتي تؤهله لحياة الخلود في مملكته التي لاتحدّها حدود.

وإلى ذلك أشار تعالى بقوله في سورة الذّاريات : ﴿**وذكّر فإنّ الذكّرى تنفع المؤمنين. وماخلقت الجنّ والإنس إلا ليعبدون. وماأريد منهم من رزق وماأريد أن يُطعمون. إنّ الله هو الرّزاق ذو القّوة المتين. فإنّ للذّين ظلموا**

ذُنوباً مثل ذنوب أصحابهم فلا يستعجلون. فويلٌ للذين كفروا من يومهم الذين يوعدون.﴾. وهذه الآيات شرحناها عند بحث المقصد من خلق الإنسان، ممّا يغنينا عن التّفصيل فيها في هذا المقام.

ويكفي من الوجهة العلمية أن ننقل تصريح العالم الفيزيائي الشهير (ايرون شرودونغر) الذي قال فيه: (هذا الكون من دون الإنسان هو أشبه شيء بمسرحيّةٍ تُمثّلُ في قاعةٍ تخلو مقاعدها من جمهور المشاهدين.).

وقد كتب العالم الفيزيائي (جون ويلر) أيضاً يقول: (بالرّغم من أنّ الإنسان ليس مادّة مركز الكون، إلاّ أنّه على مايظهر في مركز الغاية من خلق هذا الكون.). وإن أقوال هذين العالمين وسواهما تؤيّد ماأعلنه الله خالق الكون والإنسان فيما رأيناه من آيات.

وبالإمكان تلخيص ماذكرناه بالأمور التالية :

أولاً - الكون والإنسان مخلوقان. وأفلاك هذا الكون بما فيها الأرض (كلٌّ في فلَك يسبحون) بما يشبه حال المركبة الفضائية.

ثانياً - وأن عناصر مادة هذا الكون، أساس نسيج هذا الكون كله بما فيه. بمعنى أنّ كل شيء من أشياء هذا العالم من مادّة وروح.

ثالثاً - وأنّ الكون مسخّرٌ جميعه لصالح الإنسان ووجوده وليتعرّفَ إلى خالقه وليتقرّب ويستفيض من عطائه. والله (يدبّر الأمر) فهو مسبب الأسباب.

والآن، أقدّم لقارئي العزيز مثالاً من كثير من الأمثلة الدّالة على أنّ الله الخالق هو مسبب الأسباب، وهو الذي بيده مقاليد السموات والأرض. وكيف أن هذا المثال يشكّل آية يمرّ عليها أصحاب التفكير المادي الذين يُخالط إيمانهم شوائب من الشّرك الخفّي. وهذا المثال هو عقل الإنسان.

٢ ـ العقل ذاته دليل وجود الله مسبب الأسباب

وأضرب مثال العقل، على اعتباره مثالاً من أنفسنا. لقوله تعالى قال في سورة الذاريات (٢١). **﴿وفي الأرض آياتٌ للموقنين. وفي أنفسكم أفلا تُبصرون.﴾** فالآيات المُبصرة لاتقتصر على الأرض بل وفي أنفسنا أيضاً. لذلك

أضاف تعالى قوله ﴿**فوربّ السّماء والأرض إنّه لحقٌّ مثل ماأنكّم تنطقون.**﴾.
فالآيات الدّالة على وجوده تعالى تتراءى حيثما اتّجه الإنسان وفي نفسه أيضاً.
أي أنّ التوحيد الخالص من شوائب الشرك الخفي يحثّ الإنسان المؤمن على البحث في كل شيء بالأسلوب العلمي، لتقصّي الآيات الدّالة على مسبب الأسباب.

لذلك أتناول عقل الإنسان أبحث في شأنه وبالأسلوب العلميّ فالعقل كما هو معلوم، هو أثمن ملكة أوتيها الإنسان بعد أن أوتي الإرادة وحرّية الاختيار.

نتساءل : هل أن الدّماغ وقشرته الخارجية هي العقل نفسه، حتى إذا مات الإنسان وتلف دماغه، يتلف معه عقله أيضاً؟ أم أنّ العقل لايخضع بالموت للتحلّل الذي يطرأ على جسم الإنسان؟

هذا السؤال راود الإنسان منذ فجر تاريخه وإلى يومنا هذا. ونحن كمؤمنين وإن كنّا نعتقد من خلال هدي القرآن الكريم بخلود العقل مع نفس الإنسان، على اعتباره جزءً منها لايتجزّأ عنها، وهذا مايدفعنا إليه التوحيد الخالص كما ذكرت.

والمؤسف أن يقوم بهذه الأبحاث علماء الغرب في عصرنا، على حين يغطّ علماء المسلمين في سُباتٍ رهيب.

أقول : إن علماء أوربة، انطلقوا بنهج تفكير مادّي منذ فجر نهضتهم حاذفين العامل المساعد للعقل على مستوى الغيبيات، ألا وهو الوحي السّماوي. فراح علماؤهم في القرن التاسع عشر وماقبله يزعمون أنّ التغيُّرات المادية هي أساس أفكار الإنسان، ولاوجود لشيء مستقلّ يُسمّونه العقل، حيث كتب عالمهم الفيزيائي (هكسلي) يقول: (يبدو أنّ الوعي مُتّصلٌ بآليات الجسم كنتيجةٍ ثانوية لعمل الجسم لاأكثر، وأن ليس للعقل أيّ قدرةٍ كانت على تعديل عمل الجسم. هذا مثلما يُلازم صغير البُخار المتصاعد حركة القطار دونما ترك أيّ تأثير على آليّتها.).

على حين تبيّن لعلماء القرن العشرين الأوربييّن عكس ماذهب إليه (هكسلي) المذكور، فهذا العالم الفيزيائي شرنغتون يقول: (وهكذا ظهر فرقٌ جوهريٌّ بين الحياة والعقل. فالحياة هي مسألة فيزياء وكيمياء، أمّا العقل فهو

يستعصي على الفيزياء والكيمياء.)[1] أي أنّ أنشطة العقل مستقلّةٌ عن آليّات الفيزياء والكيمياء، وإن كانت هذه بالنسبة للعقل وسيلةً وأداةً ليس إلاّ.

وقد أيّده العالم الفيزيائي (جون إكلس) فيما ذهب إليه. وذلك بعد أن انتبه هذان العالمان إلى أنّ قشرة الدّماغ البصريّة تتلقّى النّبضات عن طريق العصب البصري، هذه النّبضات التي ترسلها شبكيّة العين، فلا تغيّر هذه النّبضات لون هذه القشرة الدّماغيّة البصرية. الأمر الذي دعا هذين العالمين للتساؤل : أين مكان اللّون في هذه العمليّة؟

وهذه الملاحظة دفعت (إكلس)[1] ليقول: (ألسنا لانزال كالأطفال في مجال التفكّير في أُعجوبة التّجربة الواعية؟ فالبصر مثلاً يُعطينا في كلّ لحظةٍ صورة ثلاثيّة الأبعاد، لعالِم خارجيّ. وهو يُركّب في هذه الصّورة من سمات الالتماع والتلّون مالا وجودَ له إلاّ في الإبصار الناشيء عن نشاط الدّماغ. ونحن بالطّبع ندرك الآن النّظائر المادّية لهذه التجارب المتولّدة من الإدراك الحّسيّ : كحدّة المصدر المُشعّ والطول الموجيّ للإشعاع المُنبعث. ومع ذلك فعمليّات الإدراك ذاتُها تنشأ بطريقةٍ مجهولةٍ تماماً عن المعلومات المنقولة بالرّموز من شبكيّة العين إلى الدّماغ.). وهكذا فإنّ (إكلس) يرى أنّ العقل يُعيد تركيب الصّور من أنماط النّبضات المرموزة، وهو يقسّم بذلك عملية الإدراك الحسّي إلى مراحل ثلاث، الأولى : وجود المُنبّه الذي يُنبّه عضو الحسّ كالصورة مثلاً. والمرحلة الثانية : يمثّلها انتقال النبضات العصبيّة إلى الدّماغ. والمرحلة الثالثة : هي مرحلة النشّاط العصبيّ المُثار في الدّماغ، وفي هذه المرحلة الثالثة تتجلّى مُعجزةٌ مذهلةٌ حيث تتمّ عمليّة ترجمةٍ مُزدوجةٍ لهذه النّبضات العصبية، ممّا يعسُر تفسيره عن طريق الفيزياء والكيمياء.

وأيدّ رأيَه العالم الفيزيائي (شرنغتون) حيث قال: إنّ مُخطّط الطّاقة، وهو المرحلتان الأوليتان لعمليّة الرؤية والإدراك الحسّي، تُوصِلاننا فقط إلى عَتبةِ فعل الإدراك وتُودّعنا هناك ولاتُعطينا أيّة إشارةٍ أُخرى على المستوى المادّي الفيزيائيّ والكيميائيّ.

---

[1] ـ العلم في منظوره الجديد ـ ترجمة كمال خلايلي

[1] ـ المرجع نفسه

وخَلَصَ هذان العالمان الفيزيائيان من ذلك كُلّه إلى الاعتراف بوجود العقل مستقلاً عن الجسم، وأنّ الحواس جميعها، ماهي في مُواجهة العقل إلاّ وسائل وأدوات. وأنّ العقل هو المرجع الأخير وصاحب الاستنتاج والفكر والقرار. وضَرَبا على ذلك مثلاً، الذّاكرة التي لاتستحِضُر التجربة الماضية فحسب، بل تستحضرها بوصفها حَدَثاً ماضياً، ممّا يدعو إلى الدهشة أن نتذكّر شيئاً منسيّاً ومرتبطاً بأمور أخرى غيره أيضاً.

كما ضربا لنا مثلاً آخر وهو قُوّة مُخيّلة الإنسان. فالخيال هو ملكةٌ حسيّةٌ داخليّة، يستخدم المعلومات الواردة من الحواس الخمس الخارجة عنه بحريّةٍ وبطريقةٍ إبداعيّةٍ أيضاً. وقِس على ذلك بقيّة الملكات الإنسانية : كإدراك حِكَم الأفعال، والإحساس بالعواطف كالحبّ والغضب مثلاً. ذلك أنّ العواطف ليست أفعالاً تندرج تحت الإدراك الحسّي.

فالعقل في نظر هؤلاء العلماء يُمكّنُ صاحبه من إدراك ماهيّةِ الأشياء. وهذا أمرٌ لاتستطيع الحواس القيام به. إذ أنّ الحواس تقف عند حدّ نقل الصورة الخارجية لحيوانٍ مُعيّن، من حيث حجمه وشكله ولونه. أما العقل فيقوم بعمليّةٍ أعظم تعقيداً، وهي أن يُعرّفنا على الحَيوان نفسه، من خلال مُعطيات الحواس. والعقل هو الذي يصنع العلم، ويكتشف ماهيّة الأشياء وعِلَلها. ومالحواس في العمليّة إلاّ مجرّد أدوات.

وقد أجرى العالم (بنفليد) تجارب جراحيّة على قشرة الدّماغ منذ الثلاثينات وحتى السّبعينات، من هذا القرن. وكتب مؤلفاً مشهوراً (لغز العقل The Mystery of the Mind) حاول أن يثبت فيه أنْ لامركز في قشرة الدّماغ للإدراك. وأنّ عمل العقل، ليس إلاّ عملٌ آليّ، بمعنى أنّ الدّماغ ليس مقرّ العقل أو الإرادة، فلايستطيع تنبيه المريض كهربائياً، جعله يعتقد أو يقرّر شيئاً ما، ذلك على اعتبار أنّ العقل البشريّ والإرادة ليس لهما أعضاء جسديّة. لذلك نجد أنّ الإنسان يتصرّف بحريّة الاختيار. وهذه الحقيقة التي بات يسلّم بها علماء عصرنا، لاتتنافى ومفهوم الأسلوب العلمي في البحث والدراسة وتقصّي الحقائق.

كذلك فإنّ العالم الفيزيائي (سبري) قد أيّدت تجاربه وأبحاثه جميع المعطيات والنّتائج التي ذكرناها. وانتهى من ذلك كلّه للقول إنّ توقُّع العثور على

العقل في أحد أجزاء الدّماغ، هو أمرٌ أشبه مـايكون بتوقّـع وجـود إنسـان يـبرمج حاسبته الألكترونية داخل هذه الحاسبة.

والعالم (إكلس) قد جزم بأنّ العقل والإرادة همـا كيانـان غـير مـاديّين، وملكتين : (لاتخضعان للتحلّل والفناء بعد موت الإنسـان. هـذا التحلّـل والفنـاء الذي يطرأ على جسم الإنسان ودماغـه كليهمـا.) أي أنّ العـالم (إكلـس) أثبـت وجود الجسم والرّوح، ككيانين مُستقلّين، بأسلوبٍ علميٍ واضح.

فهذه هي حصيلة تجارب العلماء من غير المسلمين في هـذا القـرن. علـى حين كـان ينبغـي أن يقـوم بهـذه الأبحـاث والتجـارب، مـن كـان مـن المسـلمين الموحّدين، ليستدلّوا من نتائج، أبحـاثهم على عظيـم صـدق القـرآن الكريـم فيمـا هدانا إليه. لكنّ الذي حـال دونهـم، ابتلاؤهـم بمـرض الشـرك الخفـيّ وتخلّفهـم، وابتعادهم عن نهج التفكير الرّوحاني.

ولايَغُرُّنا أن توصّل علماء أوربة، أصحاب نهج التفكير المادي، إلى هـذه النتائج السّارة، التي عادت تؤهّلهم لقبول الإسـلام دينـاً لهـم، فهـم لم يقطعـوا إلاّ نصف الشّوط المطلوب اجتيازه علـى هـذا الطريـق. فهـم لم ينطلقـوا مـن مُنطلـق ضرورة طاعة الله ومحاولة التعرف إليه عن طريق هذا البحـث العلمـي، وخسـروا بذلك أمر التقرُّب إلى خالقهم. وهؤلاء يصدُق عليهم قول ربّنا جلّ شأنه: ﴿**قـل هل نُنبّئكـم بالأخسـرين أعمـالاً، الذّيـن ضـلّ سـعيُهم في الحيـاة الدّنيـا، وهـم يَحسِبون أنّهـم يُحسـنون صُنعـاً، أؤلئـك الذيـن كفـروا بآيـات ربّهـم ولقائـه، فَحَبِطت أعمالُهم، فلا نُقيم لهم يـوم القيامـة وزنـاً، ذلـك جزاؤهـم جنّهـم بمـا كفروا واتّخذوا آياتي ورُسُلي هزُوُلاً**﴾. الكهف (١٠٣).

المهمّ ممّا ذكرته، هـو أن البحـث في كـلّ شـيء في الأرض وفي أنفسـنا، والغور إلى أعماقه لاكتشاف كُنهه ومعرفة الأسس والقوانـين الناظمـة لـه، ومـن مُنطلق أنّ خالقنا هو المصمّم والمُبدع الحقيقي ومسبّب الأسباب في هـذا الكـون، هو واجب كلّ مسلم مؤمن موحّد من أسلم نفسه لله خالقه وآمن بعظيـم علمـه وقُدُراته، وأنّه تعالى قد صمّـم عالمنـا علـى أسـاس أن يخلقنـا ويسـخّر كـل شـيء لفائدتنا، لنصبح من عباده ونسعى إلى معرفته والتقّرب منه. فكل شيء من حولنا يشكّل في حقيقته آية دالّة عليه عزوجلّ، ولايمرّ بها مكتفياً بنظرة سطحيّة إلاّ مـن كان ذا تفكير مادّي بحت، ومشركاً بالله شركاً خفيّاً.

ولابُدّ أن لاحظ القارىء من مثال بحث العقل، كيف أنّ من بحثوا من علماء الغرب في أمره، ولو بتفكير مادّي بحت، قد توصّلوا إلى نفس ماأرشدنا إليه القرآن الكريم بشأنه.

فالمسلم الذي اراد أن يكون من الموحّدين، يتقصّى نفس ماتقصّاه هؤلاء الغربيين، إنما بنهج تفكير روحاني، ليزداد يقيناً بوجود ربّه على يقينه به، وطاعةً له، واندفاعاً أكثر في السّعي لمعرفته والتقرب منه والتزوّد من عطاءاته.

ذلك أن البحث واحدٌ في مضمونه، لكنّه مختلف في آثاره النفسيّة، فهاأنّ الشعوب الغربيّة كُلّما تقدمت في مجال العلوم، ازدادت طلباً للرّفاه والانغماس في ملذات الشّهوات، وبُعداً عن خالقها.

على حين أنّ العالم الإسلامي لو انتهج نهجاً روحيّاً وبحث نفس الأبحاث وحصد نفس النّتائج يزداد زُهداً بملذّات الحياة المادية، ويزداد اندفاعاً في مجالات التقوى والإقبال على عبادة الله والتّعرف إليه. فلا يُمضي حياته بهيميّاً ضالاً في بيداء هذا الكون الفسيح.

وقبل أن أُنهي مثال العقل، أحذّر من أن تغيب عن ذهن القارىء حقيقةٌ صرّح بها العالم (اكلس)[1] وهي أنّ العقل والإرادة: (لايخضعان بالموت للتحلّل الذي يطرأ على الجسم والدّماغ كليهما.). ذلك أنّ هذه الحقيقة التي صرّح بها هذا العالم والذي انتهت أبحاثه وأبحاث سواه من العلماء إليها، تساعد على تفهّم دلالة الآية (٤٢) من سورة الزّمر: ﴿ **الله يتوفّى الأنفس حين موتها، والتي لم تُمت في منامها، فيُمسك التي قضى عليها الموت ويُرسل الأُخرى إلى أجلٍ مُسمّى، إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكّرون.**﴾.

فالعقل يستمّر في أداء مهمّته في حالة النّوم. والنائم يفكّر في منامه كما يفكّر في حال يقظته. وإنّ التّخبط الذي يشاهده النائم في تفكيره في حال نومه، إن دلّ على شيء، فإنّما يدلّ على أنّ موازينه العقلية خلال فترة يقظته مهتزّة غير سليمة.

ويُستنتج أيضاً أنّ العقل على حين يستعين بحواسه الخمس في يقظته، يقع في حالة النّوم تحت تأثير سيئات أعماله ودواعي فيزيولوجيته، وماتحدثه

---

[1] المرجع السابق نفسه

العوامل الخارجة عنه من آثار وردود فعلٍ في تفكيره في منامه وتتجسّد جميع هـذه الآثار فيما يراه النائم.

وكما أنّ الإنسان المؤمن اليقظان يتلقّى في يقظته بشارات ربّـه وكلامـه على قدر منزلته الرّوحية، لكذلك الحال في المنام يتلّقى هذا المؤمن النائم بشـارات ربّه وكلامه المقدّس أيضاً، ويشكّل هذا الأمر فارقاً كبيراً بين المؤمن الموحّد، وبين من لايدين بالإسلام ديناً.

ولاينبغي أن نغفل عن أمر هام أشار إليه قوله تعالى: ﴿.. **والتي لم تمت في منامها**..﴾. فالإنسان في حالة النّوم (مُتوفّى) وحالُهُ في نومه مؤشّر يدلّـه علـى نوعية حياته التي سيحياها في عالم مابعد الموت. أي أنّ النّائم يكون قد دخل عالم البرزخ حقيقة. فلينظر كيف يُصلح حاله في يقظته ليصلُح حاله في نومه. فالحُجّـة مُلقاةٌ عليه يومياً من جانب الله الذي خلقه وطوّرهُ وسوّاه وهداه.

والذي يهمُّنا هو أنّ الحقيقة التي توصّل إليها علماء أوربة المعاصرون من أنّ العقل باقٍ لايخضـع بـالموت للتحلّل، إنّمـا هـي حقيقـة أيّدتهـا الآيـة القرآنيـة المذكورة وسواها من الآيات الكريمة. وأكبر بُرهان على صحّتها هـو رؤى النـائم نفسها، فالنائم يفكر في منامه كما يفكّر في يقظته، فالعقل لاينام مع نوم الحـواس الخمس التي تشكّل أدواته المساعدة في يقظته.

لقد جرى الكُتّاب علـى تسـمية المخلوقـات مـن غـير البشـر، مخلوقـات غريزية، فما معنى غريزيّة؟ نقول غـرز فـلانٌ عـوداً في الأرض بمعنـى أثبتـه فيهـا. فالغريزة هي تلك الصّفات المغروزة في فطرة المخلوقـات مـن غـير البشـر بصـورة طبيعيّة، وتحرّك الحيوان باتّجاه ماتقتضيه صفاتـه تلـك دون وعـيٍ منـه أو إرادة أو استقلاليّة تفكير. وهذا هو الأمر الـذي دعـاه عزوجـلّ ليقـول عـن النـاس الذيـن لايستعملون عقولهم: ﴿**إنْ هُمْ إلاّ كالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً.**﴾.

ويكفي القول أخيراً ممّا تبيّناه وعلمناه، أنّ العقل البشريّ هو كيـانٌ غـير مادّي، ولايخضع للفيزياء والكيمياء، فهو في الأصـل كيـان خـاضعٌ لموجـده جـلّ شأنه مباشرة : يسلبه متى شاء، ويُجوهره حسـب مشيئته هـو. لأنـه جـلّ شـأنه وحده القادر على ذلك، ويعلم أسراره وحقيقته من جهة ثانية.

ألا إن مثال بحث موضوع العقل الذي شرحت بعض جوانبه الهامّة، هـو مثـال واحـد علـى مـااحتوت أنفسنا مـن آيـات دالّـة علـى وجـود ربّنـا مسـبب

الأسباب. وحثّاً على القيام بمثل هذه الأبحاث العلمية نزل قول الله عزوجلّ: **﴿وكأيّن من آيةٍ في السموات والأرض يمرّون عليها وهم عنها معرضون. ومايؤمن أكثرهم با لله إلاّ وهم مشركون..﴾** وإنّ أمثال هذه البحوث هي التي تصل بالمؤمن إلى تحصيل علم حقّ اليقين.

والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا المقام هو: هل دلّنا القرآن الكريم على وسائل صيانة عقولنا من التّلف المعنوي؟ أقول: نعم وسأقدّم على ذلك مثالاً واحداً لضيق المقام.

٣ ـ أسس صيانة عقل الإنسان

أبدأ بتحديد معنى دلالة كلمة (عقل). فقد أورد صاحب معجم (محيط المحيط) أنّ العقل من عقل بمعنى ربط وأحكم، أي أنّ العقل أداة ربطٍ وأحكام. كما بيّن أنّه بالعقل تُدرك المحسوسات عن طريق مشاهدتها. كما تُدرك بالعقل الغائيات عن طريق الوسائط. فالعقل تبعاً لذلك هو أداة وعي الإنسان. ويتحقّق وعيه بربطه بين الأشياء بعمليّةٍ ذهنيّة تحكُم ربطه المذكور سواء على صعيد الأشياء المادية المحسوسة، أو على صعيد الأمور الغائيّة الحِكميّة غير المادية..

والحقّ أنّ معطيات القرآن الكريم تؤيد ماأفادنا به صاحب هذا المعجم، إنّما ينبغي لنا أن نضع نصب أعيننا أنّ محاكمات العقل الذهنية على مستوى الأمور الغيبيّة، يستحيل أن تأتي صحيحةً إلا بمساعدة عامل الوحي المساعد الذي أشرت إليه في مؤلّفي (نظرية جذور الأخلاق). فلابّد للعقل من عوامل مساعدة ثلاثة ذلك لأنّ العقل يعمل على مستويات ثلاثة : الماضي والحاضر والمستقبل.

أمّا على صعيد الماضي، فالمخطوطات والآثار والمستحاثات تشكل عاملاً مساعداً للعقل لإعطاء أحكامه الصحيحة، وإلاّ تظلّ أحكامه من قبيل التخمين والظنّ. وأما على صعيد الحاضر فلابدّ للعقل من الاستعانة بالملاحظة والتجربة والاستنتاج، وأما على صعيد المستقبل الغيبي، فالوحي السّماوي هو الذي يساعد العقل على إصدار أحكامٍ صحيحة .

وقبل الكلام عن أسس صيانة عقل الإنسان، لنلاحظ كيف أن الجنين حين تضعه أمّه ويُطلّ على عالمنا الدنيوي، تكون جميع تصرّفاته بدائية غريزية لاوعي فيها ولاإدراك. ومن ثم ينشأ وعيه ويتكّون على حسب ماأفادنا به قول

رسول الله (ﷺ) من أنّ الطفل يولد على الفطرة، فأبَوَاه إمّا يُهودّانه أو ينصّرانه أو يمجسّانه، حاشا المسلم على توجيه وعي مولوده توجيهاً إسلاميّاً صحيحاً. فهذه حقيقةٌ ماثلةٌ أمام أعيننا وهي أنّ الاختلاف في وعي الأفراد من البشر، يتأتّى عن اختلاف التّوجه وأساليبه. فهذه الاختلافات في اتّجاهات النّاس هي المعضلة التي زلزلت أركان السّلم في العالم. ومن هنا تتأتى أهميّة الكلام عن أسس صيانة عقل الإنسان.

والآن أعرض الوصيّة الأهم في هذا المجال. هذه الوصيّة التي زودّنا بها قول الله عزوجلّ في سورة الحجرات: ﴿**ياأيّها الذّين آمنوا إن جاءكم فاسقٌ بنبأٍ فتبيّنوا، أن تُصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على مافعلتم نادمين.**﴾. والمراد من (فتنبّؤا) أن طالبوا بالبيّنة على كلّ أمر يحدثّكم به آخر. والبيّنة هي الحُجّة والبرهان. فإلى هذه النّصيحة وردت الإشارة في قوله تعالى ﴿.. **أدعو إلى الله على بصيرة..**﴾ والبصيرة في اللّغة هي كما سبق أن بينت معناها الحجّة والبُرهان.

فبهذا الأسلوب التربوي السّامي والمتصّف بالعلّمية، وجّه الله عزوجلّ المسلم إلى الأساس الأهمّ لصيانة عقله من التعفّن والتّسببّ. أي وجّهه كي يبقى حذراً من التّقليد الأعمى وسيئّاته. هذه السّيئات التي تجلّت في سلوكيّة المقلّدين تقليداً أعمى لِما توارثوه، وقعدوا عن المطالبة بالبيّنة بأسلوب الحوار والحُجّة والبرهان في تاريخ البشر على الدّوام، وأقاموا عقائدهم على الظّنون والأوهام.

نتناول ماحدث زمن بعثة نوح عليه السلام بينه وبين قومه: ﴿**ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إنّي لكم نذير مبين. أن لاتعبدوا إلا الله إنّي أخاف عليكم عذاب يومٍ أليم.**﴾ هود (٣٢) ـ فنوحٌ قال لقومه إنّه ﴿**نذيرٌ مبين**﴾ ومعنى "مبين" أي موضّح دعواي وإنذاري بالبيّنات أي بالحجج والبراهين. فهذه وسيلتي لدعوتكم بالسّلم والحوار.

ولنستمع إلى ماأجابه قومه، فهل قبلوا الحوار بالحُجّة والبرهان؟ ﴿**فقال الملأ من الذين كفروا من قومه مانراك إلاّ بشراً مثلَنا، ومانراك اتّبعك إلاّ الذين هم أراذلنا بادي الرأي، ومانرى لكم علينا من فضلٍ، بل نظنّكُم كاذبين.**﴾. فقوم نوح كما يبدو من هذه الآيات

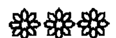
أولاً ـ تناسوا أنّ آدم كان نبيّاً وكان بشراً.

ثانياً ـ و لم يعمدوا إلى طلب البيّنـة و لم يحـاوروا، بسـبب أنّهـم مـاعوّدوا عقولهـم علـى هـذا الأسـلوب في الفصـل في الأمـور، وأضحـوا مقلّديـن لسواهم من المتنفذيـن تقليـداً أعمـى ﴿**ومـانراك اتّبعـك إلاّ الذيـن هـم أراذلنا بادي الرأي**﴾ فموازينهم الفكريّة ومحاكماتهم كانت مُهتزة.

ثالثاً ـ ووفقاً لمعايير مجتمعهم ظنّوه من الكـاذبين، أي أنّهـم اعـترفوا بـأنّ أحكامهم قائمة علـى أسـاس مـن الظنّـون، وليـس علـى أسـاس الحـوار المستند إلى الحُجّة والبُرهان.

من هذا المثال يدرك القارىء الكريم مدى الخطر الناتج عن ابتعاد العقـل عن أسلوب الحوار بالحجة والبرهـان أي هجـره للبيّنة واعتمـاده الظـنّ سـبيلاً في محاكماته العقليّة.

إنّ ابتعاد البشر عـن هـذا الأسـاس الـذي يصون عقولهـم مـن الإهـتزاز والتعفّن، شكّل السّبب الرئيسي في ظهور أدوار التخلّف والانحطاط الـتي تعـاقبت عليهـم خلال تاريخهم الطويل. وقد كـانت بعثـات الأنبيـاء والمرسلين هـي الأداة السّماوية لاعادة الإنسان إلى استعمال عقله استعمالاً صحيحاً على الدّوام. فكـم هو عظيم هذا التّعليم الذي احتواه قوله تعالى من سورة الحُجرات: ﴿**ياأيها الذين آمنوا إن جـاءكم فاسـقٌ بنبأٍ فتبينّـوا أن تُصيبـوا قومـاً بجهالـةٍ فتصبحـوا علـى مافعلتم نادمين.**﴾. وفي رأيي أن نزول هذه الآية الكريمة في المدينة المنـورة وليـس في الدّور المكّي، فليُشيرخطابها إلى مسلمي عصر تخلّف المسلمين وانحطاطهم وهو عصرنـا الحـاضر، علـى حسـب مـايفيده تسلسـل الآيـات الموضوعـي. وهـو أمـرٌ بالإمكان الرجـوع إليـه في كتـابي (فـن الاختـزال) عنـد الكـلام فيـه عـن سـورة الحجرات خاصة.



المبحث الثّاني

العِرفان الإلهي

الباب الأول

الفصل الأول:

١ـ أهمية الموضوع:

عندما يتلو مؤمن سورة الفاتحة ويقول: ﴿**الحمد لله رب العالمين**﴾ يُقرّ من خلال هذه الألفاظ أن جميع أنواع الحمد والثناء لايستحقّها على سبيل الأصالة إلا خالقه الله عزوجل.

كما يقرّ أن ربوبية الله تشمله وتشمل كل شيء في عالمنا الدنيوي بأعطياتها وعناياتها وتفضّلاتها، سواءٌ أوَعى هذا المخلوق ذلك أم لم يعه. أفلا يلاحظ المرء كيف أنّ وعي الطفل الحدث يكون محدوداً جدّاً، فلا يعي مايبذله والده من سهر عليه وجهودٍ جبّارة يبذلانها حفاظاً عليه ليشبّ ويكبر وليكون مستقبله زاهراً؟ لذلك يقرّ المؤمن بعد بيعته من خلال قوله ﴿**الحمد لله رب العالمين**﴾ هذا الإقرار ويسلّم ذاك التسليم.

وليظل يدعو ﴿**اهدنا الصراط المستقيم. صراط الذين أنعمت عليهم. غير المغضوب عليهم ولاالضالين.**﴾ يظل يدعو بهذا الدّعاء أملاً في تنمية وعيه ولينمو عِرفانه با لله وهو الذي آمن بوجوده نظرياً.

وعليه فإنّ المؤمن إذا لم يسلك سبيل التعرّف إلى خالقه ويسرْ على طريق عِرفانه، لايكون بإيمانه وبيعته تلك قد تجاوز زمن ولادته الروحانيّة، من هذا ندرك أن أهمية العِرفان الإلهي لاتقلّ أهميّةً عن مرحلة الإيمان نفسه. ذلك أنّ الإيمان يتأتّى عن محاكماتٍ ذهنيةٍ، على حين أنّ العِرفان الإلهي يتأتى عن مرحلة تعامل هذا المؤمن مع ربّه على شاكلة تعامل الوليد الحَدَث مع أبويه ليكتمل عِرفانه لهما والقيام بواجب برّهما وردّ إحسانهما الذي أحسناه إليه. ومرحلة العِرفان الإلهي هذه هي التي توصل هذا السّالك إلى تحقيق المقصد من خلقه والذي نصّ عليه قول الله عزوجلّ: ﴿**وماخلقت الجنّ والإنس إلا ليعبدون**﴾ أي ليعرفوني على حسب ماوضحت ذلك في (نظرية جذور الأخلاق).

ثم إنّ لدرب العِرفان الإلهي ومحاولة الاتصال با لله الخالق لّتـه الرّوحيـة ونورها المضيء وجاذبيّتها ومغناطيسيتها. والمؤمن المبايع الذي لايسلك درب هذا العِرفان الإلهي، يُصاب بأمراضٍ مقيتة كالفهم الحرفي للنصوصّ القرآنية والتعصّب الأعمى الذي طالما فرّق بين المتديّنين، وبتشّنجات تصيب سلوكه وحركاته. وهو الأمر الذي يلاحظه المرء في أوساط أتباع مختلف الدّيانات البعيدين أصلاً عن روح الدّين.

هذا وإنّ من يراجع تاريخ الديانات، وتاريخ المسلمين خاصة، يُلاحظ أنهم انقسموا إلى فريقين: فريق المتصوّفة وفريق غير المتصوّفين، وتباين هذا الانقسام إلى درجةٍ راح المرء معه يتساءل: ألكُل فريق من هؤلاء دينه الخاص به أم أنّ الإسلام بالإمكان تجزئته إلى سبيلين؟ والسّر الكامن وراء هذا الانقسام الحاصل، يعود إلى جهل المُسلم بحقائق وتعاليم دينه التي تتطلّب منه تحصيل معرفة ربّه بعد إذ هداه هذا الرّب للقناعة بوجوده ولبيعة رسوله، وإلى التعرّف إليه عمليّاً وبشكلٍ موضوعي، وإلاّ فما هي قيمة الصّداقة عن طريق المراسلة، إن ظلّ المتراسلون بعيدين عن بعضهم بعض ودون لقاء؟

والحقيقة التي لامراء فيها هي أنّ متانة الصداقة لاتكون إلا على قدر معرفة الصديق لصديقه، وإلا عن طريق التعامل والتعايش بينهما.. والموظّف لاينال المودّة عند رئيسه إلا بعد تعاملهما ووقوف كل فريق ضمن الحدود المرسومة له كموظف.

ومأأجمل ومأأكمل قول ا لله عزوجلّ في كتابه العزيز: **﴿ياأيّها الناس إنّا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إنّ أكرمكم عند ا لله أتقاكم، إنّ ا لله عليم خبير﴾** الحجرات (١٣) أي أن درب التّعارف والتعايش بالتقوى هو روح الحياة.

ذلك أن الإنسان اجتماعي بفطرته. وهل يكون من العقل أن تتعرف وتتعايش مع أخيك الإنسان، وتُهمل السّعي للتعرّف على خالقك الذي أيقنت بوجوده وكان له الفضل الحقيقي في وجودك ووجود سواك؟

٢ ـ العِرفان بمفهومه اللّغوي :

ثم إنّ البحث الموضوعي يقتضي من الباحث التقيّد بدلالات الألفاظ اللّغوية. وإلاّ ظلّ بحثه عشوائياً لايقوم على أساس. فإذا ماراجعنا معاجم اللّغة، يتبيّن لنا قولهم : عرفه معرفة وعِرفاناً معناه علمه بحاسة من حواسه الخمس، وقد ورد في التعريفات : المعرفة هي إدراك الشيء على ماهو عليه. وهي مسبوقة بنسيان سابق حاصل بعد العلم بخلاف العلم. (محيط المحيط).

واستناداً إلى ذلك فالإيمان هو العلم بوجود الشيء. أمّا العِرفان فمرحلة تأتي بعد العلم بوجود الله والإيمان به ويفصل بينهما نسيان. أي أنّ العِرفان هو مرحلة السّلوك المؤدية إلى إدراك الشيء على ماهو عليه. أي التّعامل مع أسماء الله الحسنى التي علمنا بها عن طريق الإيمان ومايمت إليها من علوم وقوانين.

ثم إنّ كلّ خللٍ أو انحراف عن طريق العِرفان له نتائجه الوخيمة الوبيلة. وأجمل القول فيما ذكرته وأقول: الإيمان والبيعة لايُغنيان صاحبهما في شيء إن هو أهمل سلوك سبيل العِرفان والتّعرف على هذا المحبوب الذي آمن بوجوده. إلى هذه الحقيقة ورد أمر ربّنا أن ندعو بلا كللٍ ولاملل، وصباح مساء وفي كل حين: ﴿**اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم. غير المغضوب عليهم ولا الضالين**﴾ آمين. فهذا الدّعاء يحثّنا أن نتضرع بين يدي خالقنا أن يعرّفنا على نفسه، كما عرّف الذين أنعم عليهم من قبلنا على نفسه وأوصلهم درجة العِرفان الإلهي. وعصمهم من متاهات الزّلل والإفراط والتفريط.

ولاحظنا قول صاحب التعريفات وهو أن المعرفة تكون مسبوقة بنسيان سابق حاصل بعد العلم. وهذه الفقرة تشير أصلاً إلى المرحلة اللاحقة بمرحلة العلم والإيمان. متعلّقة بمرحلة مابعد البيعة وبمعترك الحياة العملية بعدها. أي أن الإنسان المؤمن ينسى مابايع الله عليه بعد إيمانه وبعد انخراطه في بلبال دنياه.

والذي يريد معرفة ربه وتحصيل عِرفانه، يتوجّب عليه أن يضع ربّه بين عينيه فلا يغفل عنه لحظة من اللّحظات، متوسّلاً أن تثمر جميع أعماله وأفعاله ثمارها الرّوحية التي تزيده قرباً من ربّه وعِرفاناً. وبألفاظ أخرى أقول إن مثل المؤمن بعد بيعته كمثل الطفل المولود حديثاً لابدّ أن يتعثّر ويتعثّر إلى أن تكتمل

قواه الروحية فتمنحه معرفة ووعي مايقوم به والده تجاهه وتجاه تطويره. أي أن المؤمن بعد بيعته يخضع لربوبيّة الله الذي هداه إلى الإيمان به وليعرّفه على نفسه.

فإن تساءل المرء عن الفرق بين العلم والمعرفة من الوجهة اللغوية؟ فسيجيبه اللغويّون أنه لافرق بين العلم والمعرفة إلا فرق الخاص والعام والعموم والخصوص. فكل ماندركه بعقولنا وعن طريق حواسنا فهو من باب العلم العام. وكلّ معرفة من جانبنا لهذا الشيء الذي علمنا بوجوده هو علم خاصّ أي معرفة.

فلا يُقال للذي درس خواص الماء الفيزيائية عارفاً بل عالماً بخواص الماء. ولايسمى عارفاً إلا بعد أن يجتاز مرحلة اختبار الماء وتحليله إلى عناصره الأولية عن طريق التعامل والتجربة الذاتية. فالعالم لايقال له عارف. أمّا العارف فيكون عالماً. هذه هي أطراف المعادلة التي تربط مابين العلم والعِرفان، من حيث الدّلالة اللغّوية. وعلى أساسٍ من هذا الفهم الموضوعي للفظي الإيمان عن علم والإيمان عن معرفة نؤسّس بحث هذا الباب من هذا الكتاب.

والآن أبيّن الفرق مابين العلم والمعرفة بأسلوب آخر، وعلى ضوء مُعطياته اللغوية، فكلّ مؤمن يتلو كتاب الله ويقرأ: **﴿هو الله الذي لاإله إلا هو عالِمُ الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم. هو الله الذي لاإله إلا هو الملك القدّوس السّلام المؤمن المُهيمن العزيز الجبار المتكبّر سبحان الله عمّا يشركون. هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى يسبّح له مافي السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم.﴾** الحشر (٢١ - ٢٤).

فإن قرأ هذا المؤمن هذه الآيات يحصل له علم عام بما يتّصف الله تعالى به من صفات وأسماء - لكنه لايسمى عارفاً بهذه الأسماء الحسنى. ولايتحقّق له معرفة بهذه الأسماء وعِرفان بالإله المتصف بها إلا بعد قطعه أشواطاً على طريق التعامل مع هذه الأسماء الحسنى،وبالأسلوب العلمّي الموضوعي أيضاً.

فالعارف بالله يمتاز عمّن سواه من المؤمنين بامتيازاتٍ عظيمة. وإليكم ماامتاز به أكمل إنسان عارفٍ بربّه عزوجل وهو محمد المصطفى سيد الأنبياء وخاتمهم صلوات الله وسلامه عليه.

ومَنْ من الذين طالعوا تاريخ وسيرة هذا الرسول العظيم لم يطالع ماحدث في معركة حنين يوم وقع الجيش الاسلامي في كمين، ونكصت الخيل والجمال على أعقابها، وهي تحمل الفرسان على ظهورها، و لم يبق في الميدان إلا محمد رسول الله ﷺ يتلقّى نبال عدوّه من كل جانب. فهذا العارف با لله ثبت في مكانه وصاح بأعلى صوته صيحةً لاتزال هضاب شبه جزيرة العرب ووديانها تردّدها: "صاح: أنا النبي ولاكذب، أنا ابن عبد المطلّب". فهذا الثبات وتلك الجرأة وذاك اليقين هو أسمى مايفرزه العِرفان الإلهي من ثمار في نفس صاحبه.

والقرآن الكريم استعمل لفظ المعرفة والعِرفان بهذه المعاني اللغوية ودلالاتها، أو لم نقرأ قوله عزوجلّ بحقّ أهل الكتاب في سورة البقرة (٨٨): ﴿**ولمّا جاءهم كتابٌ من عند ا لله مصدقٌ لِما معهم، وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا، فلّما جاءهم ماعرفوا كفروا به، فلعنة ا لله على الكافرين.**﴾. فلم يقل هنا فلمّا جاءهم ماعلموا كفروا به، بل قال ﴿**فلّما جاءهم ماعرفوا كفروا به**﴾. فلو قال علموا، لِما كان قد أفاد مايفيده لفظ "عرفوا" الذي يعني أنهم علموا ببعثه رسول ا لله وتعاملوا معه وخبروا صدقه.

وبنفس هذا الفرق اللغوي ورد قوله تعالى بحق يوسف عليه السلام: ﴿**فدخلوا عليه فعرفهم..**﴾ وأمثال هذه الأقوال وهذه الآيات كثير.

٣ ـ الألفاظ المعبّرة عن مراحل العِرفان:

هناك في اللغة العربية ألفاظ كثيرة، كل واحدٍ منها يعبّر عن مرحلةٍ من مراحل العِرفاني الإلهي، ويتعامل بها الناس فيما بينهم أيضاً تدليلاً على مابينهم من أواصر وروابط ومعرفة. وهذه الألفاظ هي: الشوق والعشق والرغبة والإنس والودّ والمحبّة والخُلّة. وسأستعرض فيمايلي لكل لفظ من هذه الألفاظ من حيث دلالته وأساليب استعمالاته. وماأورده القرآن المجيد من هذه الألفاظ في شتى المقامات والمناسبات :

١ً ـ الشّوق : والشوق مصدر يعني نزوع النفس وحركة الهوى. تقول: اشتاق إليه أي نزعت نفسه إليه. وورد في التعريفات : الشوق ارتياح القلب إلى لقاء المحبوب وقد سئل النحوي المعروف أبو علي الفارسي عن الفرق

مابين الشوق والاشتياق فقال: الشّوق يسكُن باللّقاء، بينما لايسكن الاشتياق باللقاء، بل يزيد ويتضاعف.

وهذه المعاني والأقوال إن دلت على شيء، فإنّما تدلّ على ضيق دلالة لفظ الشوق، وعلى محدودية دائرته. لذلك لايصلح هذا اللفظ للتدليل به عن علاقة العبد بخالقه ولاعن علاقة الخالق بعبده. ذلك أنّ الشوق هو مجرّد أمنية في الفؤاد تبعث على اللقاء. فإذا ماتحقق هذا اللّقاء يبطل معنى الشّوق. ولذلك لايدخل لفظ الشوق في باب موضوع العرفان الإلهي لتواضع دلالته. خصوصاً وأنّ الله تعالى لايعجزه شيء لتحقيق مايريد، حتى يصحّ استعمال لفظ الشّوق لموضوع عرفانه. من هذا ندرك حكمة خلوّ كتاب الله القرآن من لفظ الشوق ودلالته.

٢ـ **العشق:** ولفظ العشق يحمل معنى عَجَب المحبوب بمحبوبه وإفراطه في محبّته. والعشق يستعمل في العفاف كما يستعمل في الدّعارة. ويُعبّر بالعشق عن عجز الحسّ عن إدراك عيوب المعشوق. وعن مرض وسواسيّ يُسلّط الفكر على استحسان بعض الصّور. وقد عدّ الأطباء العشق مرضاً من الأمراض. فقال أبقراط إن العشق نصف الأمراض. وقال الفارابي هو ثلث الأمراض لتعلقه بالبدن والنفس جميعاً. وقالوا إنّ غليظ الطبع وفاسد المزاج ووضيع الهمّة لايُصاب بمرض العشق من قريب ولامن بعيد.

فإذا ماأخذنا بهذه الدلالات للفظ العشق، ندرك عدم صلاحيته للتعبير به عن علاقة المخلوق بخالقه ولابعلاقة الخالق بمخلوقه، وهذا هو سبب خلّو القرآن الكريم من لفظ العشق بين ثنايا آياته الكريمة. ثم إن العرب كانوا يعبّرون أحياناً بالعشق عن المحبّة الجيّاشة القوية.

فبالنظر لدلالات العشق هذه لايستسيغ عاقل أن يقول إنسان إني أعشق الله عزوجل. كما لايستسيغ أن يُقال أنّ الله يعشق فلاناً من الناس. من هذا كلّه ندرك أنّ لفظ العشق يحمل في أصل وضعه اللغويّ معنىً غير محمود.

أجل من المتصوفيّن من أوردوا في مؤلفاتهم هذا اللفظ واستعملوه على سبيل المبالغة في المحبة، وليس على أصل وضعه اللغوي، وهذه شطحةٌ من

شطحات المتصوّفين. وإلاّ فإن ا لله عزوجلّ هو مصدر الحيـاة، ولايصـحّ لـه لفـظ العشق.

فلو أحبّ ا لله تعالى عبداً من عبيده، فلا يحبّه محبّة عشق، إنما يبدي محبته لذاك العبد بمباركته إيّاه وترقيته ترقيةً متميّزة، وهذا النوع من المحبّة الإلهية تجلّى في شخص إبراهيم أبي الأنبياء، وفي شخص محمد بن عبـد ا لله خـاتم النبييّـن الـذي اختصّه بأعظم كتاب سماوي وهو القرآن الكريم وحقّق على يديه ما لم يحققه على يدي نبّي آخر سواه.

ومادُمنا نعتقد بقوله تعالى من سـورة الرحمـن: ﴿**كـلّ مـن عليهـا فـان، ويبقى وجه ربـك ذو الجـلال والإكـرام**﴾. فـالذات الـتي لايـأتي عليهـا الفنـاء لايصّح من وجه اللّغة العربية أن يُستعمل لهذه الذات الخالدة أن يستعمل لها كلمة عشق. ذلك خصوصاً وأن من دلالات لفظ العشـق تسبّبه بفتـور العقـل وهُـزال الجسم، وا لله منزّه عن أن يُصاب بمثل هذه الأمراض، وهو جلّ شأنه أنزل وحيـه الذي احتواه القرآن الكريم خالياً من لفظ العشق تدليلاً منه على بلاغته.

٣ـ الرّغبة : والرغبة لفظ يصّح اسـتعماله علـى درب العِرفـان الإلهـي، فالرغبة من رغب فيه رغْباً ورغبةً بمعنى أحبّه وأراده بالحرص عليه، ورغـب عنـه: أي أعرض عنه و لم يُرده وزهد فيه وتركـه. ورغـب بـه عـن غـيره: فضَّلَـهُ عليـه. ورغب إليه: ابتهل وتضرّع وسأل / محيط المحيط).

ودلالات الرّغبة هذه تعبّر في حقيقتها عن أدنـى مسـتويات التعبـير عـن المحبّة الجيّاشة. فهي تدلّ على ميل شديد تملّك المحـبّ للقـاء محبوبـه لذلـك يصلـح استعماله تعبيراً عن علاقة العبد بخالقه، وهــو أحـد الألفـاظ الداخلـة في موضـوع العِرفان الإلهي.

والقرآن الكريم استعمل لفظ الرّغبة بهذه الدّلالات، أفلا نقرأ قـول ا لله عزوجلّ في سورة الأنبياء: ﴿**يدعوننا رغباً ورَهَباً**﴾؟ فا لله عزوجلّ يصّور لنا مـن خلال ألفاظه هذه مستوى المحبّة التي بلغها هؤلاء المؤمنـون لربّهـم. هـذا المسـتوى من المحبة الذي يدفعهم ليدعوا ربّهـم بتضـرّع وتذلّـل كبـيرين، تدفعهـم إلى ذلـك

محبتهم الشديدة لذات ربّهم المقدّسة. أي أنّ هؤلاء المؤمنين يسيرون على درب العِرفان الإلهي، وهم لايزالون في أدنى مستويات هذا العِرفان.

وفي سورة التّوبة أتى ا لله جل شأنه على ذكر هذا القسم من المؤمنين قولهم: ﴿**إنّا إلى ا لله راغبون**﴾. وهل تعني هذه الألفاظ إلاّ أنّ هؤلاء قد فاضت أفئدتهم بمحبّة ا لله ربّهم وعلى طريق عِرفانه إلى درجة ماعادوا معها يُقيمون لأيّ شيء من متاع هذه الدنيا أيّ محبّة ووزن؟

وعليه فإن الذي آمن وسار على درب عِرفان ربّه عزوجلّ، يبدأ تغلب على فؤاده محبّة هذا الإله الذي آمن به، فتشتدّ هذه المحبة إلى درجةٍ يعود كل شيء غير ا لله مُبتذلاً في عينيه ويقول: ﴿**إنا إلى ا لله راغبون**﴾.

وهذه مرتبةٌ تمثّل ظاهرة ضعفٍ في نفس هذا المؤمن، يحاول إزالتها وتجاوزها والتّغلّب عليها عن طريق كثرة الاستغفار وكثرة الدّعاء بين يدي محبوبه عزوجل، إلاّ أنّ هذه الحالة تعبّر في الوقت نفسه عن عمق الإيمان با لله الذي بلغه هذا المؤمن بربّه عزوجلّ.

وهذا مايشير إليه قوله: ﴿**إنا إلى ا لله راغبون**﴾ أي إننا نفيض محبّة لربّنا الذي آمنّا به ونحرص على لقائه والتّعرف إليه. وإن كنّا لانزال في بداية هذا الطّريق.

ولنتناول ماكتبه العلاّمه الأصفهاني في معجمه مفردات الرّاغب المُعتبر أقدمَ معاجم اللغة العربيّة، قال: الرّغبة تعني السّعة في الشيء. يُقال: رغب الشّيء أي اتّسع. ويقولون: الحوض رغيب أي حوض واسع، وفرسٌ رغيب العدد: أي كثير الخطى، والرّغبة هي السّعة في الإرادة، ورغب فيه وإليه يقتضي الحرص عليه.

والملاحظ أن جميع أقواله هذه تجسّم للقارىء هذه الأمنية القويّة التي تعمر فؤاد السالك على درب عِرفان ربّه أمنيةً تمثّل محبّة غامرة تدفعه على هذا الدرب الطويل.

٤ ـ الأنس : والأنس لفظ يصحّ استعماله على درب موضوع العِرفان الإلهي، فقد أورد صاحب معجم (محيط المحيط) قوله: أَنِس به يأنس وأَنُس يأنس

وأَنَس يأنِس ضدّ توحّش. أي ألفه وسكن قلبه به و لم ينفر منه. ونستشعر هذا المعنى في أنفسنا عندما يأتي إلى مجلسنا أجنبي عنّا لانعرفه فلا نستسيغ مجالسته طويلاً، ونميل في قراره أنفسنا إلى ترك مجلسه. ويحدث عكس ذلك فيما إذا حضر مجلس أحدنا ابنٌ له أو صديق من أصدقائه أو أخٌ من إخوانه فهو يتمنّى بقاءهم طويلاً في مجلسه، ولايميل فؤاده إلى تركهم يغادرون هذا المجلس، فإذا هم أحدهم بالانصراف يرجوهم صاحب المجلس بالبقاء، إشارة إلى شعوره وإحساسه بالأنس من جهة، وبالوحشة التي تتملكه من جرّاء فراقهم من جهة أخرى.

وهذا الأمر دعا صاحب معجم (أقرب الموارد) ليقول: الأنس ضدّ الوحشة. والإنس خلاف الجنّ وخلاف النفّور. ويُقال لمن كثر إنس المرء به إنسيّ. كذلك يُسمّى الجانب المواجه لوجه راكب الدّابة: إنسيّ الدّابة أي مقدّمتها. وللسبب نفسه نُلاحظ أن صاحب معجم المفردات قد قال: إنّ كلّ مايلي الإنسان يُسمّى إنسيّ هذا الشيء.

ولنقارن الآن مابين دلالات لفظي الرّغبة والأُنس، فلا نجد بينهما من فروق في الدلالات إلاّ ماللأنس من معنى القرب ومواجهة الشيء المأنوس به. أمّا من حيث المحبّة الجيّاشة فهي واحدة في دلالات الرغبة والأنس.

أمّا إذا راجعنا دلالات لفظ الشّوق مجرّداً، فلا نراه يعني إلاّ نزوع المشتاق إلى المشتاق إليه. لكنّه لايحمل ماللرّغبة والأنس من معاني المحبّة الجيّاشة والاطمئنان بالقرب. وإن كانت الرغبة يخلو لفظها من معنى القرب أيضاً. من هذا ندرك سرّ خلوّ القرآن الكريم من اشتماله على لفظ الشّوق. واشتماله على لفظي الرّغبة والأنس.

فكما استعمل القرآن الكريم لفظ الرّغبة على حسب ماسبق أن بيّناه. فقد استعمل لفظ الأنس أيضاً. أفلم نقرأ قوله تعالى على لسان موسى في سورة القصص: ﴿**إني آنست ناراً..**﴾. واستناداً إلى دلالات لفظ الأنس التي استقيناها من كتب النحويين يعني قول موسى هذا أنه لاحت لي نارٌ كنت تواقاً للقائها ورؤيتها والاطمئنان بها. وهاأنّها لاحت لي هذه النّار وفُزت بأمنيتي وحصلت على حاجتي التي كنت أنشدها ليل نهار. وهو عبّر من خلال ألفاظه هذه عن المحبّة الجياشة التي كانت تجيش بها نفسه للقاء ربه عزوجل والتقرب منه والتعرف

إليه. وآية سورة القصص هذه مثالٌ رائع على دلالات لفظ الأنس في القرآن الكريم، وأداة تعبير عن أولى مراتب العرفان الإلهي.

٥ـ الودّ : والودّ اشتُقّ من ودّه مودّةً بمعنى أحبّه. وتودّده : طلب محبّته وتحبّب إليه. والوادّ اسم فاعل والوُدّ يعني الحبّ، وكثير الحُبّ، والوَدّ في لغة أهل نجد يعني الوتد. فكأنهم سكّنوا التّاء فأدغموها في الدّال. أما الودود فصيغة مبالغة من الوّد بمعنى كثير الودّ، والمحبّة، لذلك ورد أنّ من أسماء الله تعالى الودود، ويعني كثير الحبّ لأوليائه والمحبوب كثيراً من أولياء الله أيضاً. والمودّة تعني المحبة. (محيط المحيط)

ندرك من خلال دلالات كلمة ودّ أن هذا اللّفظ يفيد معنى المحبّة من جهة وأمنيةً ترافق هذه المحبة وهي أمل اللّقاء بالمحبوب. وكأنّ الودّ من هذه الجهة يحمل معنى (لو). فإذا أخذنا بعين نظرنا دلالة الودّ على الوتد بلغة أهل نجد، ونعلم أنّ الوتد يستعمل لتثبت الدّابة بمكان معيّن. فإنّ هذه الدلالة تفيد معنىً ثالثاً يمثّل المحبّة التي تؤدي إلى الربط بين قلبيْن: قلب الحبيب وقلب المحبوب.

فإن نحن قارنّا مابين دلالات الرّغبة والأنس والودّ. لاحظنا أنّ الرّغبة فيها الدلالة على شوق من طرف واحد فقط. وأن الأنس فيه دلالة الشّوق من طرفين. أما لفظ الودّ فهو يجمع بين معاني الشّوق والأنس، ويزيد عن دلالتهما، دلالته على تولّد علاقةٍ ثابتة بين طرفين اشتياق أحدهما للقاء الثاني، وأنس جهته، وتولّدت عن ذلك علاقة ثابتة به. أي أن الودّ بألفاظ أخرى يحمل معنى المحبّة المتأصّلة والرّابطة مابين العبد وخالقه.

فإذا عُدنا إلى القرآن الكريم ولاحظنا خلّوه من نسبة لفظي الرغبة والأنس إلى الله الخالق لعدم تناسبهما مع صفاته عزوجلّ الذي لايرغب إلاّ وتتحقق مشيئته، ولايأنس لخلوّ لفظ الأنس من معنى القرب وهو في حقيقته أقرب إلينا من حبل الوريد. أقول إذا لاحظنا خلوّ القرآن الكريم من لفظي الأنس والرغبة منسوبين لله تعالى، وقصر استعمالهما للعبد المخلوق. فإنّ القرآن لم يقف هذا الموقف من لفظ (الودّ) بل نسبه إلى الخالق كما نسبه إلى المخلوق. بل وأخبرنا القرآن الكريم أنّ من أسماء الله الحسنى "الودود" بمعنى الذّات المحبوب من طرف أوليائه والمحبّ لهؤلاء الأولياء.

وصرّح القرآن الكريم عن لسان الله الرحمن بشأن المؤمنين، وَعْداً عليه إن هم قرنوا إيمانهم بعمل الصالحات. فقال في سورة مريم (٩٦): ﴿**إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعلُ لهُمُ الرّحمن وُدّاً.**﴾ أي أنه جل شأنه وعد هذه الفئة من المؤمنين أنّه سيغرس محبّته في أفئدتهم من جهة، ومحبّتهم بعضهم للبعض الآخر، ومحبّة الواحد منهم لجميع عباد الله تعالى، ألا إنّ جميع هذه الدّلالات تضمنها قوله تعالى: ﴿**سيجعلُ لهم الرحمن وُدّاً**﴾. وسرّ تعدّد دلالات هذه الآية الكريمة يكمن في أسلوب صياغتها البلاغي. فهو جل شأنه أتى بصفته الرحمن من جهة وهي التي تفيد الكرم والرحمة والعطاء دون مقابل. ومن جهة ثانية أتى باللاّم التي تفيد شبه التمليك والتي أدخلها على (لهم).

ومن جهة ثالثة ترك كلمة (ودّ) دون أن يعرّفها بالألف واللاّم، فأطلقها ولم يعيّن الطّرف المودود. هذا الأسلوب في صياغة هذه الجملة فتح باب تصريف معانيها ودلالاتها بمختلف الاتجاهات. وعاد يصّح أن يكون القصد من ﴿**سيجعلُ لهم الرحمن ودّاً.**﴾ على حسب ماسبق ذكره هو أنّ الله الرحمن سيخّص الذين آمنوا وعملوا الصالحات بعطاءٍ وكرمٍ من جانبه وهو أن يكتب محبته في قلوبهم، ويكتب ألفتهم ومحبتهم بعضهم للبعض الآخر في قلوبهم أيضاً وفق قوله في مقام آخر ﴿**وألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمة الله إخوانا.**﴾. ويكتب محبة جميع خلقه في قلوب هؤلاء حتى يعودوا يُشار إليهم بالبنان لإنسانيتهم ورأفتهم على جميع الناس دون تفريق. فهذه المعاني جميعها تضمّنها قوله تعالى: ﴿**سيجعلُ لهم الرحمن وُدّاً**﴾. والسبب في ذلك أسلوب صياغة الآية البلاغيّ.

والقرآن الكريم حثّ المؤمنين الذين يطلبون وُدَّ ربهم على الإكثار من الاستغفار والتوبة ليفوزوا بهذا الودّ الإلهي. وذلك في سورة هود (٩٠) حيث قال جل شأنه هناك: ﴿**واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه، إنّ ربّي رحيم ودود.**﴾. وأتى بصفته الودود وبصيغة المبالغة والتي تعني أنّ محبّته ليس فوقها محبّة ولاتقف عند حدود. ذلك أنّ دائرة صفة الله الودود تفوق ودّ كلّ مخلوقٍ ماهيةً وشمولية وسعة آفاق.

فلا يُدانيها محبّة وودّ الوالدين لأبنائهما. ولامحبة وودّ الأبناء لأبويهما ــ ولامحبّة وودّ الأصدقاء لأصدقائهم. ولامحبّة وودّ الأساتذة لتلاميذهم.

وا لله ودودٌ على هــذه الصورة بسبب أنّ ودّه لايتكوّن بـالتدريج مـن الرّغبة والأنس، بل إنّ ودّ ا لله عزوجلّ يبدأ من مقـام المحبّـة والـودّ الخـالص مـن شوائبهما.

على هذه الصّورة أتى قوله تعالى ﴿**واستغفروا ربكم ثم توبوا إليـه، إنّ ربّي رحيم ودود.**﴾ وذلك ليشير إلى مقام وُدّه عزوجـلّ الـذي يـردّ الـودّ والمحبّـة بأضعافها. بينما يبدأ ودّ العبد المؤمن لربّـه تدريجيّـاً مـن رغبتـه إلى ا لله وأنسه بـه فودّه لذاته عزوجلّ ومحبته إيّاه.

وهنـاك حديـث شـريف متـداولٌ علـى ألسـنة المحدثـين رواه النسـائي في كتاب النكاح ـ باب كراهية تزويج اليتيم ـ ونصّ هذا الحديث: (تزوّجـوا الوَلـود الودود، فإنّي مُكاثِرٌ بكم.) والمؤسف ألاّ يفهم قُرّاء هذا الحديث حقيقـة دلالاتـه بسبب أنّهم لايعرضون مايقرؤون على كتاب ا لله القرآن الكريم. والـذي فهمتـه من دلالات ألفاظ حديث رسول ا لله (ﷺ) هو أنّه أتى بصفة "الولـود الـودود" هذه الصّفة التي تفيد المبالغة ليفيدنا أن نبحث عن الفتاة الأخلاقيـة ذات الصفـات الرّوحانيّة التي بلغت أقل درجات الرقي الروحي وهو مقام الـوّد. فتخلّقـت بخُلُـق ربّها الودود وأصبحت تحبّ ربّها وتـوادُّه ويحبّهـا ا لله ويوادهـا. وتحـبّ وتـوادّ أبويها وجيرانها وجميع خلق ا لله تعالى. فهي أضحت شعلة ودٍ لايختلف في ودّهـا أحد، أي أنّها أضحت على درجة عاليةٍ من الأخلاق والرّوحانية تؤهّلها لتأسـيس أسرةٍ، وترعى أولادها بمحبّةٍ وعطف وودٍ ظاهرين، وتكون ولوداً أي تلـد أمثالها من الأخلاقيين والروحانيين.

وهذه سورة المُمتحنة أعطت المؤمنين دروساً في موضوع فهم مقام الـودّ للعمل عليه. فقد اسـتهلّها ربُّنـا جـلّ شـأنه بقولـه تعـالى: ﴿**ياأيّهـا الذيـن آمنـوا لاتتخذوا عدوّي وعَدُوّكم أولياء تُلقون إليهم بالموّدة، وقد كفروا بمـا جـاءكم من الحقّ..**﴾.

وكيلا يثقل هذا التعليم على أفئدة المؤمنين ويُضيّق عليهم سلوكهم، أتبع ذلك بقوله تعالى في الآية السّادسـة: ﴿**عسـى ا لله أن يجعـل بينكـم وبـين الذيـن عاديتم منهم مودّةً، وا لله قدير، وا لله غفور رحيم.**﴾.

وراح جلّ شان يهوّن عليهم من جهة ثالثة ويقول: ﴿**لاينهاكم ا لله عن الذّين لم يقاتلوكم في الدّين ولم يُخرجوكم من دياركم أنْ تبرّوهم وتقسطوا إليهم، إنّ ا لله يحبّ المقسطين.**﴾ وحاشاً إيّاهم أن يبرّوا غير أعدائهم من أي اتّجاه أو عقيدة كانت. وأن يُقسطوا إليهم أيضاً. والبرّ في اللّغة يعني الاتّساع في الإحسان. من برّ فلانٌ فُلاناً اتّسع في إحسانه إليه (محيط المحيط). وبرّ والده وصله وأحسن إليه. أمّا معنى (أن تقسطوا إليهم) من قسط الوالي عَدَل و لم يحد عن الحقّ. والمعنى أن تعاملوا الذين لم يقاتلوكم في الدّين و لم يخرجوكم من دياركم بتوطيد علاقاتكم بهم وتقيمونها على أساسٍ من الإحسان والعدل وعدم الحَيَدان عن الحقّ.

على هذه الصّورة حدّد ا لله عزوجلّ للمؤمن مدى مايمكن أن يظهره من ودٍ لسواه ومدى مايقيمه على أساسه من علاقات. فحدّد ذلك في السّماح بالتّعامل مع غير المؤمنين إنما على أساسٍ من البرّ والقسط، أي على أساسٍ من الإحسان إليهم وعدم الانتقاص من حقوقهم أي لاضرر ولاضرار.

وا لله عزوجلّ وقد حدّد ماذكرته ضمن آيات سورة الممتحنة، فهو فتح باب موادّدة المؤمن على مصراعيه ودفعه ليوادّ ربّه ويحصل على ودّ ربّه وينال مقام الودّ عنده عزوجل، وعليه فإنّ مرتبة المودّة الإلهية للمؤمن تعتبر إحدى مراتب العِرفان الإلهي.

٦ـ المحبّة : والمحبّة مقامٌ روحيّ على طريق العِرفان الإلهي أيضاً. وقد أتى القرآن الكريم على إيراد المحبة في سبعين آية من آياته الكريمة، الأمر الذي يُشعر بأهمية موضوع المحبّة ومقامها على طريق سعي المؤمن لنيل قرب ربّه وعِرفانه.

ونأتي إلى كلمة المحبة من الوجهة اللّغوية لنحيط علماً بدلالاتها . تقول: حبّه يُحبه حبّاً وحُبّاً بمعنى ودّه فهو محبوب (محيط المحيط)، وفي القاموس: حُبّبَ إليه صار حبيباً له. وحببّ الزرع صار ذا حب. وشربت الإبل حتّى حَبّت أي امتلأت من الرّي، وأحبّ فلانٌ: برىء من مرضه، وحابّه: وادده، وتحابوا: توادّدوا وأحب بعضهم بعضاً. وحَبَاب الماء فقاقيعه التي تطفو على سطحه كأنها القوارير. والحَبَبَ: الفقاقيع. والحُبّ مصدر وجمع حبّ. ويعني الجرّة الضّخمة

أيضاً. والحبيب هو المحبّ المحبوب. يُقال هو حبيبي أي محبوبي، وأنا حبيبكُم أي محبُّكم.

فهذا ماورد في معاجم اللغويّين، ومن خلال هذه الأقوال جميعها نستدلّ على أنّ لفظ الحُبّ في أصل وضعه رُكّبتْ أحرفه الثلاثة على أصلٍ وهو التعبير عن تداخل شيء في شيء وانحشاره فيه، أفلم نُلاحظ قولهم: شربتْ الإبل حتّى حبّت أي امتلأت من الرّي. وقولهم عن انحشار الهواء ضمن فقاقيع الماء يشكّل حُباب الماء؟ فالمحبة تعبّر مجازاً عن كيفيّة تداخل مودّة طرف في فؤاد طرف آخر. أي أنّ مجرّد الودّ يعبّر عن علاقة وطيدةٍ بين طرفين ليس إلا. أما كلمة الحبّ فيعبّر بها عن تجاوز الطرفين لحدود هذه العلاقة الخارجية، وانسياب وتداخل الودّ في أعماق فؤادي كلّ من هذين الطّرفين. أي ينمو ودّ الطرف في فؤاد محبوبه فينمو ويعطي ثماره أيضاً. أفلا نلاحظ كيف أن البزرة، أيّ بزرةٍ، إذا ماذُفنت في باطن الأرض تتفاعل وتنمو إلى أن تصبح شجرةً غنّاء تنجب نفس البزر ليقوم في الجوّ المناسب بعمليّة النمو والإثمار ؟ وعلى هذا الأساس أطلقوا على الجرّة الضّخمة اسم الحُبّ أيضاً. وهذا التّداخل بين طرفين وهذه النتيجة الحاصلة عن هذا التداخل وهو كيفية النموّ والإثمار، لاتتضمنّها كلمات الرّغبة والأنس والودّ من قريبٍ ولابعيد، وهذا يعني أنّ من واجب المؤمن السّالك درب عِرفان ربّه والتّعامل معه، من واجبه ألاّ تخدعه عواطف رغبته الشديدة للقاء ربّه، ولاانتقاله إلى مرحلة الأُنس بربّه وبظواهر إعجازه وعظمته، ولابعواطف الودّ التي تترسّخ في فؤاده على طريق عِرفان ربّه.

فمن واجب المؤمن وهو يقطع هذه الأشواط من السلوك العِرفاني أن يظلّ حذراً فلا يتملكه شعور الانتصار والفوز ببغيته، ومن واجبه العمل والاستعانة بالرياضيات الرّوحية وهي هذه العبادات التي شرّعها لنا القرآن الكريم، وبالتضحيات المعنوية والمادية، إلى أن يبدأ هذا التّداخل من الوّد الذي وصل مرتبة المحبّة وأن يتلمّس نّمو هذه المحبّة وليجني ثمارها أيضاً. وهناك فقط يحقّ له أن يبدأ يحط رحاله وينتظر أوامر محبوبه بعد الذي قطع من هذه الأشواط على طريق عِرفانه كما يتلذّذ بعطايا لقائه وثمار هذا التداخل والمحبّة التي ربطت فؤاده بخالقه المحبّ والودود.

الفصل الثاني

٣ـ قانون المحبة الطبيعي :

ومن أعجب العجائب أن هذا الإنسان، يُراقب ظواهر القوانين الطبيعية المادية ولايقيس عليها القوانين المُشابهة الروحيّة. يلاحظ الفلاّح يغرس حبوبه في مزرعته، وينتظر أشهراً، وإذا بهذه البذور تنمو في باطن الأرض لتُصبح أخيراً نباتات أو أشجاراً باسقة، وهذا الفلاّح يحتاط أشدّ الحيطة ليخرج من هذه البذور بهذه النباتات وثمارها. فلا يُلقيها إلاّ في أرضٍ صالحة للإنبات، ويُسمّدها ويسقيها، ويعشّبها ويجهد أشهراً طويلة، وهو ينتظر ثمار جهده وعرقه وبذله وتضحياته.

وهذا الإنسان نفسه يُطالع في الكتب قصص الحُبّ ومـاأثمرت عنه من صلات وتضحيات كقصّه قيسٍ وليلى على سبيل المثال. فيقرأ هذه القصّة ولايملّ من قراءتها فيلاحظ كيف وقع الحُبّ بين هذين القلبين وكيف نما وتطور على مرّ الأيام ومـاأثمر عنه من مصائر للطرفين.

أقول: إن من أعجب العجائب أن يلاحظ الإنسان هذه القوانين الطبيعية التي تلعب هذه الأدوار أمام ناظريه. ولايتدبّر القرآن الكريم وهو معتقدٌ أنّه كلام الله عزوجلّ، فلا يتدبّر هذه الألفاظ المعبّرة التي ذكرتها من رغبةٍ وأنس وودّ ومحبّةٍ، ولايتدبّر استعمالات القرآن الكريم لكلّ لفظ منها، ولايفكّر في حكمة تلك الاستعمالات، ويظنّ أنّ تعاليم الدين الإسلامي ماهي إلاّ أثقالٌ تثقل كاهله، متناسياً هذه القوانين الطبيعية التي ذكرتها، ومتجاهلاً أصوات العارفين بالله التي تعالت في غابر الأزمان، وتعالت على لسان سيّد المرسلين وهي ماورد في الحديث القدسي لايزال عبدي يتقرب اليّ بالنوافل حتى أعود سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، ومتناسياً قول ربّه في كتابه العزيز: ﴿**ألا إنّ أولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون**.

الذين آمنوا وكانوا يتّقون. لهم البُشرى في الحياة الدنيـا وفي الآخـرة، لاتبديـل لكلمات الله، ذلك هو الفوز العظيم.﴾ يونس ٦٤.

فلقد استهلّ ربنا جلّ شأنه هذه الآيات بحرف التنبيـه (ألا) ليقـول أيهـا الناس اسمعوا وعوا جيّداً ماأقول، وأنهى ربنا جل شأنه هذه الآيات بجملة ﴿**ذلـك هو الفوز العظيم**﴾ أي أنّ مـاأورده القرآن من معـارف في هـذه الآيـات يـدور موضوعها حول ارتباط العبد بربّه إلى درجةٍ يعود ربّ هذا المؤمـن هـو وليّ أمـره في الدنيا والآخرة، وهو سَلَوانه، وهو مصدر مايتلّقاه من أعطيات وبشارات، فإذا فاز هـذا المؤمـن بولايـة ربّـه لشـؤونه على هـذا المستوى مـن الولايـة فقـد فـاز الفوزالعظيم الذي نزلت تعاليم هذا الدين الحنيف لتمنح هذا المؤمن إيّاه.

ومضامين هذه الآيات تشكّل وثيقة تعهّدٍ إلهية في حدّ ذاتها يتعهّـد فيهـا للذين احتسبوه ربّاً أن يتولاّهـم بعنايتـه ورعايتـه، فيقيهـم شـرور الماضي وآثـاره الضارة بهم، ويحفظهم من أخطار المستقبل المجهول وآثاره ومفاجآته، أفـلا يفكّـر قارىء هذه الآيات وتعهدّاتها وينظر: هل لايكـون لله الـذي تعهّـد هـذا التّعهـد الفريد من نوعه في شؤوننا وشؤون الناس أجمعين أي دخل أو تدخّل وهيمنة على الأحداث وأسبابها؟ وهل يتعهد هذا التعهد إلا من يكون علمـه وقدرتـه لاتقـف دونها حدود، الله الذي لـه الأسمـاء الحسـنى ويسـبّح لـه مـافي السموات ومـافي الأرض؟

فالمحبّة الإلهيـة مقـام زرع حبّـة المحبّـة في فـؤاد هـذا العبـد المؤمـن، لتنمـو وتصبح شجرة غنّاء باسقة تثمر وتؤتي أُكلُها كل حين، على شاكلة البذرة المادية نغرسُها في التربة الصالحـة لنموّهـا وتصبـح شـجرة مثمـرة وغـير مثمـرة. فهاتـان ظاهرتان إحداهما مادية والأخرى روحية وتخضعان لقانون طبيعيّ واحد وتمثّـلان وحدانية الله عزوجلّ. ثم إن التّشبيه بشجرة ليس مـن اختلاقـي، بـل هـو تشـبيه الذي أنزل القرآن وقال فيه: ﴿**ألم تَرَ كيف ضرب الله مثلاً كلمـةً طيّبـةً أصلهـا ثابتٌ وفرعهـا في السّماء. تؤتـي أُكُلَهـا كـلّ حـين بـإذن ربّهـا، ويضـرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون، ومثلُ كلمةٍ خبيثةٍ كشجرةٍ خبيثةٍ اجتُثّـت مـن فوق الأرض مالها من قرار. يثبّـت الله الذيـن آمنـوا بـالقول الثـابت في الحيـاة**

الدنيا وفي الآخرة، ويضلّ ا لله الظالمين، ويفعل ا لله مايشاء.﴾ إبراهيم (٢٤ ـ ٢٦).

٢ـ المحبة في القرآن الكريم:

وانتقل الآن إلى القرآن الكريم الذي استعمل كلمة المحبّة بهذه الدّلالات، وسيلاحظ القارىء أنّ هذا القرآن استعمل كلمة المحبة للمخلوق والخالق على حدٍ سواء. وأعطى بذلك موضوع المحبّة مكانته وأهميته، فوضّح قوانينه وأُسسه، وألقى الضوء على حالة المؤمنين الذين يقطعون أشواط مراحل مقامات الرغبة والأنس والودّ ويبلغون مرتبة المحبّة لله ربّهم، حيث يغرس ا لله ربُّهم في أفئدتهم حينذاك بذرة محبّته التي تأخذ في النّمو في سويداء أفئدتهم ولتصبح شجرة غناء يقطف من ثمارها الرّوحية ولتجعله رجلاً ربّانياً بكل ما لهذه الكلمة من معنى.

وهيّا بالقارىء إلى سورة المائدة (٥٤)، إلى الآية التي راح جلّ شأنه يهدّد من خلالها ضعاف الإيمان مرضى القلوب الذين يثقل عليهم انتظار تجاوز مراتب الرغبة والأنس والودّ ويظنّون با لله الظنون، فا لله جل شأنه هدّد هؤلاء في الآية المذكورة وقال: **﴿ياأيها الذين آمنوا مَنْ يرتدَّ منكم عن دينه فسوف يأتي ا لله بقومٍ يحبُّهم ويحبُّونه، أذلّةٍ على المؤمنين أعزّةٍ على الكافرين، يجاهدون في سبيل ا للّه، ولايخافون لومة لائم، ذلك فضل ا لله، يؤتيه من يشاء، وا لله واسعٌ عليم.﴾**.

وليلاحظ القارىء هذه الوعود التي تضمنتها هذه الآية الكريمة وهي أنّه تعالى وعد في حال ارتداد أي مؤمن عن دينه:

أولاً ـ لايأتي في مقابل المرتدبواحد بل بقوم ، ولايأمر بقتل هذا المرتد على اعتبار أنه تعالى أعلن في مقام آخر من كتابه العزيز: **﴿لاإكراه في الدين.﴾**.

ثانياً ـ وينعم ا لله تعالى على محبوبيه الذين يحبّونه، بعد أن يغرس في أفئدتهم بذرة محبته ودون كسبٍ من هؤلاء.

ثالثاً - وهذه المرتبة التي يهبهم إياها من علاماتهـا تواضعهـم تجـاه الذيـن سبقوهم بالإيمان، في وقت يكونون هم فيه أعزةً إنما على الكافرين.

رابعاً - يجاهدون في سبيل الله، والجهاد في اللغة بذل الطاقة مادياً ومعنوياً، و لم يقل يقاتلون.

خامساً - ومرتبة المحبة الوهبية هذه التي يمنحهم إياها، فمن علاماتها أنهم يجاهدون ولايخافون لومة لائم.

سادساً - ثم أتى تعالى باسم الإشارة للبعيد بدل هذا ليرفع من شأن عطائه المذكور.

سابعاً - وصرّح جل شأنه من خلال قوله ﴿**يؤتيه من يشاء**﴾ بأنّ مرتبة المحبّة الإلهية تكون كسبية وتكون وهبيّة يؤتيها الله من يشاء من عباده.

ثامناً - وأنهى الآية بقوله ﴿**والله واسع عليم**﴾ أي أن هذا الفضل يتجلى عن طريقه اسم الله الواسع أي كثير العطاء ويتجلى عن طريقه اسم الله العليم الذي يتميّزه المستحقّ لهذا الفضل من غير المستحق، وليس عطاءً لمن لايستحقّه.

المهمّ أن الله تعالى قال في هذه الآية الكريمة: ﴿**يحبُّهم ويحبّونه**﴾ فوصف نفسه بالمحبّ ووصف عبده بالمحبّ أيضاً. الأمر الذي يميّز مقام المحبة عن مقامات الرغبة والأنس والودّ التي ذكرناها، والتي لايصحّ القول عندها أن الله يحب هذا العبد.

ولاينبغي حمل هذه الآية الكريمة على محمل المبالغة الكلامية لصالح صدمة الارتداد، فلو كان الأمر كذلك لَمَا كان من داعٍ لتتضمّن الآية كلّ هذه البنود وبتفصلاتها. ثم إن تجاربنا تؤكّد صدق ماأورده الله عزوجل فيها من وعود، ممّا لايتسع سرده في هذا المقام.

والله جلّ شأنه وضّح لنا مقام المحبة وشروط كسبه في سورة التوبة (٢٤) حيث قال تعالى هناك: ﴿**ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان، ومن يتولّهم منكم، فأولئك هم**

الظالمون، قل إن كان آباؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموالٌ اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكنُ ترضَونها أحبَّ إليكم من ا لله ورسوله وجهادٍ في سبيله فتربّصوا حتى يأتي ا لله بأمره، وا لله لايهدي القوم الفاسقين.﴾ أي أن من يبلغ مقام الولاية عند ا لله ربه يُشترط عليه إذا شاء أن يفوز بمقام المحبة الإلهي شروطاً تميّزه عمّن سواه من المؤمنين، وهذه الشروط تضمنتها هذه الآية الكريمة، فنبّه إلى أنّ طريق العرفان الإلهي وسبيل السّعي لنيل مقام المحبة عند ا لله تعالى، لايشترط عليه ألاّ يُحبّ أحداً سوى ا لله تعالى، بل إنّ تعاليم القرآن حثت على التّوادد والتحابب في ا لله مع جميع خلق ا لله التي أتت هذه الآية على ذكرهم من أبوين إلى إخوان وأصدقاء إلى أزواج وعشيرة وأموال وإلى مساكن ترضونها. فالذي يسعى لنيل محبة ربه يُطالبه هذا المقام أن يكون حبّه لربّه أعظم من محبته لأيّ شيء آخر سواه، فإذا تصادمت محبته لأي شيء مع محبته لله ربّه فمن واجبه حينئذٍ أن يُبدي تمايزاً واضحاً في تلك اللحظات في تصرفاته ليثبت لله وللناس أنّ له محبوباً حقيقياً يعود الفضل كلّه إليه من حيث الأصل، وهو لايقول **﴿الحمد لله ربّ العالمين﴾** التي تعني أن ا لله وحده يملك الحمد والثناء على وجه الحقيقة، فلا يقع في تصرّفاته في تضادٍ مع نفسه، بل موقناً بقدرة ا لله الذي أعطى كل شيء خلقه أن يحرم من يشاء من نعمائه وأفضاله، وأنّ من ينكر مقام المحبة الإلهية المذكور ولايسْعَ إليه يدخل في زمرة الفاسقين عن أمر ربّهم عزوجلّ، لذلك أنهى الآية بقوله **﴿وا لله لايهدي القوم الفاسقين.﴾**.

على هذه الصورة تمثّل كلمة المحبة بدلالاتها اللغوية وشروطها التي ذكرناها مرتبةً متقدّمة على مراتب الرغبة والأنس والودّ بأشواط كبيرة. ذلك أنّ للمحبة موضوعها الخاصّ بها، وبذرتها التي إذا غرسها ا لله عزوجلّ في فؤاد عبدٍ من عباده المؤمنين، تنمو بذرة المحبة هذه وتثمر الأعاجيب، وهذا هوسرّ التضّحيات المنقطعة النظير التي قدّمها الصحابة الذين تربّوا على يدي رسول ا لله (ﷺ) روحياً، وانقلبوا بذلك من رجال عاديين إلى رجالٍ ربانييّن.

وإنّ أهمية مقام المحبة الإلهية تدفعني للإسهاب في موضوعها إذا ماتجاوزت مرحلة الكلام عن هذه الألفاظ التي يُعبّر بها لغةً عن أوجه المحبة وأتى القرآن الكريم على استعمالها في مُختلف آي الذكّر الحكيم.

٣ـ مقام الخُلّة لغةً وقرآناً :

الخُلّة: وكلمة الخُلة المعبرة عن أقصى درجات المحبة هي من كلمات الأضداد فهي في الوقت الذي تحمل هذا المعنى السّامي وهذه الدلالة العظيمة، تعني من جهة أخرى الثقب والفاصلة على حسب مابينه النحويّون. أي أنّ الخُلة تدل على الشرّ كما تدل على الخير. فصاحب معجم أقرب الموارد ألقى الضّوء على الوجه الخيّر لهذه الكلمة فذهب إلى أنّها تعبّر عن هذا القسم من المحبّة الذي يؤلف بين أفئدة المُتحابيّن من أي نوع كان من النّاس أودين.

على حين نلاحظ أنّ صاحب معجم المفردات وضح الوجه الآخر لكلمة الخُلّة فبيّن أنها تدلّ على المسام التي في جسم الإنسان والتي يطرد هذا الجسم من خلالها عرقه وسمومه، والخُلالة: المودّة، والخُلّة: المصادقة والإخاء والثّلمة في الحوض ونحوه.

والخُلّه عند السّالكين أخصّ من المحبة، وهي عندهم تخلية القلب عمّا سوى المحبوب. والخُلّة: الصّديق تستعمل للذكر والأنثى والواحد والجمع، تقول: هو وهي وهم وهُنّ خُلّتي.

لأنّه في الأصل مصدر، لقولك: فلان خليل بين الخُلّة والخَلولة، والخليل: الصديق المختصّ، جمعه أخلاّء، أو الخليل الصّادق، أو من أصفى المودّة وأصحّها، وشيءٌ خليل: أي مثقوب منفوذٌ. والخليلة مؤنث الخليل.

من أقوال صاحب (محيط المحيط) هذه ندرك صحّة مابيّناه من أنّ الخُلّة أخصّ من المحبّة، وتنبع من داخل جسم المرء من جميع أعضائه، ولاتأتي كالمحبة من خارجه.

وقد وردت كلمة الخُلّة في كتاب الله تعالى حيث قال: ﴿**ومن أحسن ديناً، ممّن أسلم وجهه لله، وهو محسن واتبّع ملّة إبراهيم حنيفاً واتخذ الله إبراهيم خليلاً**﴾ النساء (١٢٥).

والآن نلخص، وبعد أن أتينا على دلالات الرغبة والأنس والود والمحبّة والخلة ونقول: إنّ القرآن الكريم في حين خصّ استعمال لفظي الرغبة والأنس

للتعبير بهما عن محبّة العبد و لم يستعملهما لله جل شأنه، فهو استعمل كلمات: الودّ والمحبّة والخلّة لله ولعباده المؤمنين فلم يفرّق بينهم في استعمالات هذه الألفاظ، وهذا الأمر يعدُّ مؤشّراً كبيراً على دقّة انتقاء الوحي القرآني لألفاظه العربيّة، وعلى عظمة بلاغته في أداء معانيه.



الباب الثاني

الفصل الأول

١ـ الولادة الروحية :

هذا وإنّ ماأتيت على ذكره آنفاً يتّفق معي من أنّ هناك ولادة روحيّة يلدها المؤمن المبايع إثر بيعته شبيهة بولادة الأم لجنينها. وألفاظ المحبة المذكورة تعطي فكرةً عن الارتقاء والنمو والتقدم الروحي الذي يمرّ المؤمن من خلاله على طريق سعيه لمعرفة ربّه والتّعامل معه. فهو يبدأ من مقام الرغبة فالأنس فالودّ فالمحبّة فالخُلّة. ولكل مرحلةٍ من هذه المراحل مقوّماتها وشروطها الموضوعية. ولايتجاوزها المؤمن السّالك إلا ويفاجأ في مرتبه المحبّة، بتدخّل العناية الإلهية لتغرس بذرة محبّة الله جل وعلا في فؤاد هذا المؤمن بشكل يدهش له ويميّز مقامه عمّا دون ذلك من مقامات روحية. هذا ماأفادتنا به هذه الألفاظ من حقائق غابت عن أذهان كثيرين من متدبريّ آي الذكر الحكيم.

والذي نستخلصه ممّا ذكرناه هو أنّ الولادتين الجسمانية والرّوحية تخضعان لقوانين واحدة على المستويين.

٢ـ آثار بعثة أدم عليه السلام :

ولابدّ من التّذكير بهذه المناسبة أنّ الناس انقسموا زمن بعثة أوّل نبيّ في منطقتنا العربيّة، وهو آدم عليه السّلام، إلى فريقين متمايزين وشكّل كل فريق منهما أتباعاً له وسلسلة مترابطة الحلقات حتى يومنا هذا. فالفريق الذي آمن بآدم واطّلع على مافي هذا الكون من قوانين قدريةٍ إلى جانب القوانين الطبيعية الماديّة. فقد أضحى هذا الفريق يحلّل مايواجهه من ظواهر على اختلاف أشكالها، تحليلاً يستند فيه إلى كلا النوعين من القوانين المادية والروحية، أي بات يتّسم تحليل هذا الفريق للظّواهر بالتفكير ذي السّمة الروحيّة القائمة على أساس الإيمان بوجود خالقٍ لهذا العالم، وأنّ حكومة المملكة السماويّة وراء أحداث كل شيء في هذا الوجود.

بينما راح الفريق من الذين لم يؤمنوا بآدم ورسالته ولابما أتت به من حقائق وتعاليم. راح هذا الفريق يفسّر ظواهر مايحدث في هذا العالم تفسيراً مادياً محضاً، وهذا الانقسام الذي حدث هو في حقيقته أساس جميع مايجري اليوم في عالمنا المعاصر من اضطرابات وانقسامات وصراعات.

فالفريق صاحب التفكير المادي، يعسُرُ عليه فهم موضوع العرفان الإلهي الذي يأتي تحت هذا الباب من هذا الكتاب، يعسُرُ عليه التّسليم بوجود ولادتين جسمانية وروحانية، ويعسر عليه فهم قوانين الولادة الروحية التي دلّت عليها الألفاظ المعبّرة عن المحبة والتي أتيت على بيان دلالاتها لغوياً وقرآنياً. والمؤمن الذي يعمل على قول ربّه: ﴿**قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة، أنا ومن اتّبعني وسبحان الله ومأأنا من المشركين.**﴾ يوسف ١٠٥، من واجبه ألاّ يدخل مع الذين يدعوهم هذا المدخل الذي ينطوي تحت عنوان العِرفان الإلهي. ذلك أنّ هذا الموضوع يخصّ المؤمنين بصورة مباشرة. ويساعد هذا المؤمن إذا فاز بثمار هذا العِرفان الإلهي على التحدّث بنعمة الله إذا جاءت مناسبة ذلك نزولاً عند قول ربّنا: ﴿**وأما بنعمة ربك فحدّث**﴾ الضحى.

أفلم نقرأ قول ربنا عزوجل في سورة الاعراف (١٩٨): ﴿**وإن تدعوهم إلى الهُدى لايسمعوا، وتراهم ينظرون إليك وهم لايُبصرون.**﴾ فكيف ينظر هؤلاء ولايبصرون؟

يكمن السّبب في التفكير المادي الذي ورثه هؤلاء عن الفريق الذي خالف آدم وقاومه. فالمعنى أنّك تدعوهم إلى الهدى أي تسوقهم إليه. وهم لايُبصرون أي لايفهمون حقيقة محاولاتك الجادّة النابعة من تفكيرك الرّوحي ومحاولاتك الجادة الخيّرة التي هي في صالحهم لو فكروا تفكيراً روحياً، وهم لايعقلون محاولاتك هذه وماوراءها من حقائق، لذلك تراهم ينظرون إليك ويتأمّلونك، (وهم لايُبصرون) أي لايساعدهم تفكيرهم المادي على تبيّن حقيقة شخصيتك ونوعية مساعيها الخيّرة وماتحمله أنت من مزايا وصفات.

وصاحب التفكير الماديّ لايرى لوجوده في هذا العالم من مقصد، ولايدري ما تحمله هذه العبادات من خواصّ روحيّة تفيد في بناء كيانه الروحي.

وأنا عندما أُعلن عن هذين النّوعين من الولادات، لاأستند فيه إلى دلالات هذه الألفاظ التي بحثناها وحسب. بل إنني سأثبت صحّة ماذهبت إليه من زوايا مختلفة أتى القرآن على بيانه لهذه الحقيقة مع ماقدّمه لإثبات طرحه المذكور من حججٍ وبراهين . سأثبت ذلك في الوقت المناسب والمكان المناسب من هذا الكتاب.فترتيب آيات سورة المؤمنون استندت إلى هذا المُنطلق الذي بيّناه. وأنّ جميع الآيات التي بحثت موضوع النفس البشرية بحثته من هذا المنطلق أيضاً.

وأعود الآن إلى موضوع المحبّة ومقامها الذي دلّتنا عليه كلمة (محبّة) لأتوسّع في الكلام عن مقام المحبّة الإلهية هذا الذي استنبطناه من قوله تعالى (يُحبّهم ويحبونه) فلا أمرّ عليه مرّ الكرام. لأهميته من جهة، ولدلالات كلمة محبّة من جهة أخرى والتي تشير إلى انسياب شيء في شيء آخر وتداخُل هذين الشّيئين وتشكيل علاقةٍ بينهما لها دلالاتها ونتائجها. والعاقل الذي يسمع أن الذي خلقه يُحبّ، يسعى دون إبطاء إلى كسب محبّته سعياً دؤوباً؟



الفصل الثاني :
الأصول التي تقوم عليها المحبّة الإلهية:

والقرآن الكريم هذا الكتاب الذي أورد لفظ المحبة منسوباً إلى الله ومنسوباً إلى عباده المؤمنين، بحث موضوع المحبّة الإلهية بحثاً مستفيضاً وأتى على جميع جوانبه وبشكل يذهل عقول المفكرين الذين يتدبّرون آيات هذا القرآن، ويتصيّدون من خلالها عناصر هذا الموضوع. وسأبيّن فيما يلي الأصول التي اشترطها القرآن الكريم والمعتمدة في السّماء لتنمية بذرة هذه المحبة فيما إذا فاز عبد مؤمن ببذرها في فؤاده من جانب إلهه ومحبوبه وهو يسير على درب عِرفانه.

١. القانون الأول : وأول هذه الأصول والقوانين هو ضرورة التزام هذا المؤمن خلال سعيه لمعرفة ربه، التزامه بالسير سيراً طبيعياً ووفق قوانين النشوء والارتقاء. فلايقفز ولايتجاوز هذه المراحل التي دلّت عليها الألفاظ التي بحثناها.

أي أن من واجب المؤمن بعد إيمانه وبيعته، أن يبدأ من مقام الرغبة صعوداً ومروراً من مقامات الأنس والود والمحبة. ولايُفترض فيه أن يقفز إلى حيث لم يتأهل بعد روحيّاً لبلوغه .

فلماذا أوجب القرآن الكريم أن يلتزم المؤمن القانون المنصوص عليه في سورة الانشراح من خلال وصيّة الله عزوجلّ لرسوله الكريم، قوله: ﴿**فإذا فرغت فانصب ۞ وإلى ربّك فارغب**﴾؟ الجواب يأتي من خلال فهم مضمون هاتين الآيتين الكريمتين.

تقول فرغ من عمله أي خلا ذرعه منه، وتقول نصبه الهمّ أي أتعبه، وتقول رغب فيه أي أحبه وأراده بالحرص عليه. ورغب إليه: ابتهل وتضرّع وسأله (محيط المحيط).

وعلى ضوء هذه الدّلالات لألفاظ هاتين الآيتين يصبح المعنى أنّ الله عزوجلّ يخاطب رسوله الكريم وكلّ مؤمن يتأسّى به ويسير على خطواته،

ويقول له ناصحاً أن يامحمّد إن أردت أن تستمر في تلقـي محبـتي وأعطيـاتي فمـن واجبك أنّك كلما فرغـت مـن أداء واجبـات الدعـوة والوعـظ ووجـدت سُـنحة راحة، إيّاك أن تستلم لها كما يفعل من لم يتعرف إلى وجود ربّه ولايطلـب محبّتـه . بل إنّ من واجبك أن (تنصب) أي أن تبـدأ بنـوع جديـد مـن التّعـب وإجهـاد النّفس وهو ﴿**وإلى ربـك فـارغب**﴾ أي تعـود تتوجـه إلى محبوبـك بكليّتـك وأن تحرصَ على الاستزادة من معرفته ومحبّته، وأن تبتهـل إليـه وتتضـرّع بـين يديـه أن يُنمّي محبّته في فؤادك لتزداد قُرباً منه وعُرفاناً.

إن هذه المعاني توضّح لنا سرّ هذا القانون الأول الذي يتطلّبه مقام المحبـة الإلهية، فهي تحثّ المؤمن أن ينطلـق على درب العِرفـان الإلهـي مـن مقـام الرّغبـة وبشكل طبيعي.

وهذا القانون الذي استند إليه موضوع المحبّة الإلهيّة، ماهو بشيء جديـد أتى به الإسلام. بل أشـارت سـورة الأنبيـاء في الآيـة (٩٠) إلى أنّ جميـع الأنبيـاء التزموا بهذا القانون وهم يطلبون معرفة الله ومحبّته. فالله جل شأنه، وفي معـرض كلامه عن استجابته لدعاء زكريا عليه السلام، قال: ﴿**فاستجبنا لـه، ووهبنـا لـه يحي، وأصلحنا له زوجه، إنّهم كـانوا يُسـارعون في الخَيرات، ويدعوننـا رغبـاً ورهباً وكانوا لنا خاشعين.**﴾ موضّحاً لنا أنّ هؤلاء الصالحين من عباد الله تعـالى كانت لاتفارقهم رغبتهم للتعرّف على خالقهم، وكانوا يخشـون دومـاً أن تغيـب عن أفئدتهم لحظات لذلك كانوا منطلقـين دومـاً مـن مقـام الرغبـة إلينـا والرّهبـة خشية أن تبدُر عنهم مخالفة واحدة لتعاليمنا. فقد كانوا يواظبون على دعائنـا مـن صميم أفئدتهم. هذا على اعتبار الخشوع يعني الخضوع.

وهذا القانون الذي يتطلّب من المؤمن الانطلاق خلال سعيه لمعرفـة ربّـه بشكل طبيعيّ لاتكلُّف فيه ومن مقام الرغبة للقاء الله عزوجلّ ونيل قربه ومحبّتـه. هو من الأهميّة بمكان، بحيث يـؤدي إلى إصابـة كـل مؤمـن لايـأخذ بـه بـأمراض روحيّة ونفسيّة قد تحرفه عن ملّـة أبـي الأنبيـاء إبراهيـم الحنيفيّـة الـتي أعـاد محمـد رسول الله (ﷺ) وجهها الحقيقيّ.

فهاكم راقبوا متصوّفة زماننـا الذّيـن بَعُـدُوا عـن الالـتزام بهـذا الأصـل، ولاحظـوا كيـف أنّهـم انغمسـوا في أداء رياضـاتٍ روحيـةٍ لاأصـل لهـا في تعـاليم

القرآن، ومأأنزل الله بها من سلطان. وليخالط الواحد منكـم هـؤلاء في زوايـاهم وتكاياهم، وليدقّق مايجري في داخلها، فلابـد أن ينتهـي بـه الأمـر إلى الجـزم بـأنّ هؤلاء وبنتيجة تركهم العمل بهذا القانون المذكور انحرفوا عن ملّة إبراهيم الحنيفية التي جدّدها لنا محمد رسول الله بوحيٍ وأمر من ربه، فسفّهوا أنفسهم، وأصابهم مأأصاب أهل الكتاب من قبلهم.

وأنا حين شبّهت الإيمان والبيعة بـولادةٍ روحيّـة علـى شـاكلة الـولادة الجسمانية. ففي هذا التشبيه إشارة صريحة إلى ضرورة الالتزام بهذا القانون الـذي ينظّم وعي هذا المبايع، على شاكلة مايحتاجه المولـود لينمُوَ ببـطءٍ وليـأخذ أخـيراً شكله الطبيعي.

فكما أنّ المولود الرضيع بحاجةٍ إلى ثدي أمه ومايدرُّه عليـه مـن حليـب. فالمبايع يحتاج إلى مايشبه حالـة الرضاعـة هـذه. لذلـك ابتـدأت سـورة المؤمنـون تشترط لفلاح هذا المؤمن قيامه بصلاة خاشعةٍ بين يدي ربّـه يرضـع عـن طريقهـا محبّة ربّه ووصاله كما يرضع المولود من حليب أمه. فهذا مأأشـار إليـه ربّنـا حـين استهل سـورة المؤمنـون بقولـه: ﴿**قـد أفلـح المؤمنـون الذيـن هـم في صلاتهـــم خاشعون.**﴾ وهلاّ يلاحظ المـرء حالـة الخشـوع الـتي تُهيمـنُ علـى الرّضيـع وهـو يرشُف غذاءه من ثدي أُمّه؟

٢- القانون الثاني: والقانون الثاني الذي يتطلّبه مقام المحبّة الإلهية، هـو أن يعود هذا السّالك على درب العِرفان الإلهي، لايفارق خياله ذكر الله عزوجل في جميع حالاته يقظة كانت أو نوماً أو حالة جهد أو راحة أو أي وضع آخر له.

وقد نبّهنا القرآن الكريم إلى هذا الأصل أو القانون الثـاني الـذي يتطلّبـه مقام المحبّة الإلهية وذلك في الآية (١٩١) من سورة آل عمـران حيـث قـال تعـالى فيها: ﴿**إنّ في خلق السموات والأرض واختلاف الليـل والنهـار لآيـاتٍ لأولي الألباب. الذّين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، ويتفكّرون في خلـق السموات والأرض، ربّنا ماخلقت هذا باطلاً سبحانك فقنـا عـذاب النّـار.**﴾. وهو تعالى عندما قال (يذكرون الله) من الذكّر وهـو حفـظ الشـيء والتّفـوه بـه وإجراؤه على اللسان من ثناء ودعاء (محيط المحيط).

أي ليدأب هؤلاء المؤمنون على حفظ مارغبوا في تعلّمه من علوم الدّين، وأن تظلّ تلك العلوم والمعارف حاضرة في أذهانهم، تهديهم عند كل خطوةٍ يخطونها، وليلتزموا التضرّع والدعاء بين يدي خالقهم والثناء عليه شريطة أن تدوم حالتهم هذه (قياماً) أي ضمن ساعات عملهم. (وقعوداً) أي ساعات لجوئهم إلى الراحة ولتناول الطعام وعلى (جنوبهم) أي ساعات الاستلقاء والإخلاد إلى النّوم.

وهذا القانون كما يلاحظ القارىء يعسر أن يلتزم به المؤمن من أوّل أيّام بيعته، لذلك كان عليه أن يقطع أولاً مقامات الرغبة فالأنس فالودّ، فإذا مااستكمل متطلباتها وبلغ مرتبة المحبة الإلهية فسيجد نفسه ملتزماً بهذا الأصل الثاني من نفسه وبصورة طبيعيّة جدّاً ودون تكلّفٍ أو عناء. على شاكلة المولود ينمو وينمو إلى أن يشبّ وتكتمل قواه ولايعود يبدر منه ضعف الأطفال وعثراتهم ولهوهم وعبثهم.

وا لله السّتّار الغفور الرحيم يتجلى بستره وغفرانه ورحمته على هذا المؤمن في جميع المراحل الروحية التي يقطعها قبل أن يبلغ هذا المقام الذي يجذب إليه محبّة ربّه عزوجل إن هو سار سيراً طبيعياً، وبلغ هذا المستوى من ذكر ا لله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم والذي شرحناه. فحين يبلغ هذا المقام يعود ربّه عزوجلّ يحاسبه حينئذٍ حساباً عسيراً على غفلته وزلاّته. ذلك أنّ زلاّته عند هذا المقام من المحبّة تترك في كيانه الرّوحي أمراضاً يُسأل عنها نفسه لتهاونه بعد بلوغه ورشاده في أمر نفسه وهل بإمكان الفلاّح السّكوت عن أيّ خطرٍ يتهدّد أشجاره المثمرة؟

وهذا القانون الثاني الذي يستلزمه مقام المحبة الإلهية، استلهمناه ممّا قاله إبراهيم عليه السّلام وهو يقدم لعبدة الكواكب دليله القاطع على كونها مخلوقة وليست خالقة. وذلك في سورة الأنعام حيث قال: ﴿**لاأحبّ الآفلين**﴾ أي لايُعقل أن يغيب الخالق عن أعين مُحبيه في أيّ حالٍ من أحواله قياماً وقعوداً وفي حالة الاستلقاء والنّوم.

وهل يحدث أن تفارق الأم رضيعها إلاّ مُضطرة؟ وهل يغمض لها جفنٌ إلاّ وتظلّ مستوفزة الشعور تجاه رضيعها؟ فهذه هي ظاهرة المحبّة الحقيقية.

ألا إن المحبّة الحقيقيـة عاطفـة جيّاشـه لاتعـرف السّكون ولا الانقطـاع، ولاتتعلق عاطفة المحبّة الحقيقية بدماغ صاحبها وعقله، ولكنها تنبع من فؤاده.

إلى هنا أكون قد وضعت بين يديّ قارىء هـذا المؤلّـف قـانونين هـامّين جدّاً، إذا ماتفهّمها المؤمن وراعاهما تتفتّح له أبواب السّماء ويحظى بمعرفـة ربّـه وبمحبّته ويدخل زمرة من صرّح الله تعالى بحقّهم أنه ﴿**يُحبُّهم ويحبّونه**﴾. وهذان القانونان مُستمدّان كما لاحظ القارىء من آي الذكر الحكيم، ولم أستمدُّها مـن أقوال أحدٍ من المتصوّفين أوغير المتصوّفين.

فهذا هو سبيل نيل محبّة خالقنا عزوجلّ، هـذا السّبيل الـذي سـار عليـه أصحاب رسول الله (ﷺ)، وصاروا مضـرب المثـل في حيـاتهم الإيمانيـة، الأمـر الذي أذهل أعداءهم ممّا قدّمه هؤلاء الصّحابة مـن تضحيـاتٍ في سـبيل الإسـلام، وهل يستسيغ العقـل أن يصبح المرء محبـوب خالقـه، ولاتظهـر علـى أيديـه الأعاجيب؟

ولابُدّ لي من التنويه هنا إلى أن مقـام المحبـة الإلهيـة منـه مـايكون كسـبيّاً ذكرناه: ومنه مايكون وهبيّاً أشارت إليه الآية مـن سـورة التوبـة ﴿**ياأيهـا الذيـن آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقومٍ يحبُّهم ويحبونه أذلّـة علـى المؤمنين أعزّة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولايخافون لومة لائم، ذلـك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم.**﴾.

ومقام المحبّة هذا وبأصوله الـتي ذكرناهـا يفسّـر للمـرء موضـوع عصمـة الأنبياء والصّلحاء. فالذي يبلغ هذا المقـام الرّوحـي يعصمـه مقامـه عـن ارتكـاب السيّئات، حتى لايعود يصدر عنه ذنبٌ مُتعمّـد. يعـني قـولي هـذا عصمـة الأنبيـاء والصّلحاء من الخطأ والنّسيان.

أفلا نتلو قوله تعالى بحقّ آدم ﴿**فنسي آدم ولم نجد له عزماً**﴾ وبحقّ محمّدٍ خاتم النبيين: ﴿**ليغفر الله لك ماتقدّم من ذنبك وماتأخّر**﴾. والمعلوم من معـاجم النحويين أن الذّنب يكـون مُتعمّـداً ويكـون غـير متعمّـد. وقـد أشـرت إلى هـذه الحقيقة في كتاب الرأي أيضاً.

الفصل الثالث :

مراحل العِرفان الإلهي

تدرّجنا في بحث العِرفان الإلهي، ففهمنا دلالة ألفاظه لغوياً، ودلالات الألفاظ التي تعبّر عن مراحله، واطّلعنا على القانونين اللّذين يضبطان مقام (يُحبّهم ويحبّونه)، وهو المقام الأساس الذي يدفعنا كتاب ا لله القرآن لبلوغه.

أولاً- مقام الرغبة :

وأبدأ بالكلام عن أولى مراحل العِرفان وهي مقام الرّغبة إلى ا لله عزوجلّ الذي يعقب البيعة والانخراط في صفوف المؤمنين . ولابُدّ من التنويه هنا إلى أن البيعة هذه لاتُشبه في حقيقتها ورقة انتسابٍ إلى حزبٍ سياسيّ.

بل هي بيعة ذات طابعٍ روحيّ محض لاينبغي الرجوع عنها إلى أن يفارق المؤمن هذه الحياة. وهي بيعةٌ يدُ ا لله فوقَها، وعهدٌ مع ا لله أن نسعى للتعرّف عليه والتعلّق بأهدابه.

وليعلم المؤمن الرّاغب أنّ ا لله ربّه رسم له طريقه إلى عِرفانه في الآيات الأوائل من سورة المؤمنون. وأقدّم لهذا الرّاغب ثلاثة أدلّة تثبت له صحّة ماأقول:

<u>الدليل الأول</u>: فلو عاد هذا الرّاغب إلى الآية قبل الأخيرة من سورة الحجّ، وهي قوله عزوجلّ: ﴿**ياأيّها الذين آمنوا اركعوا واسجُدوا واعبدوا ربّكم وافعلوا الخير لعلّكم تفلحون.**﴾ فقد أجمل ا لله تعالى فيها أوصاف المؤمنين بمحمّدٍ رسول ا لله (ﷺ) الذّين كتب ا لله أن يُحقّق على أيديهم التّحول الجذري الذي بعثه من أجل تحقيقه. وهذه الأوصاف وردت مُجملةً كما لاحظنا وهي بحاجةٍ إلى التوضيح. ولذلك استهلّ ا لله تعالى سورة (المؤمنون) التي تأتي بعد سورة الحجّ من حيث ترتيب التلاوة بالآيات التي تشرح ماأجمله وقال: ﴿**قد**

أفلح المؤمنون. الذين هم في صلاتهم خاشعون. والذّين هم عن اللّغو مُعرضون. والذين هم للزكاة فاعلون. والذين هم لفروجهم حافظون. إلاّ على أزواجهم أو ماملكت أيمانُهم فإنّهم غيرُ مَلومين. فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون. والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون. والذين هم على صَلَواتهم يحافظون. أولئك هم الوارثون. الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون.﴾. فقد قال جل شأنه آخر سورة الحجّ ﴿**لعلكم تفلحون**﴾. واستهلّ هذه الآيات بقوله تعالى: ﴿**قد أفلح المؤمنون**﴾ فربط بين المضمونين ربطاً موضوعياً وفصّل هنا ماأجمله هناك. وجاء بترتيب مايقتضيه سلوك طريق معرفة ا لله عزوجلّ. ونبّه إلى أنّ أولى مراحل العرفان ـ أي مرحلة الرغبة إلى ا لله ـ ومن الوجهة الرّوحية تنحصر فيما تضمنّه قوله تعالى: ﴿**الذين هم في صلاتهم خاشعون**﴾. أي أن يتفهّم هذا المؤمن الرّاغب حقيقة الصّلاة الإسلاميّة المفروضة عليه: حركاتها وقراءاتها وأدعيتها والفلسفة العلمية التي قامت عليها هذه الحركات والقراءات والأدعية. وأن يؤدّي هذا المؤمن صلواته المفروضة عليه بخشوع وليس كرسمٍ وتقليد. وأتبع جلّ شأنه ذلك يقول: ﴿**والذّين هم عن اللّغو معرضون.**﴾. ذلك أنّ اللّغو يُبطل الآثار الروحية التي تخلّفها الصلاة الخاشعة، وسأعود في حينه للتوسّع في الشرح. والمهم الآن أن يُدرك القارىء المؤمن هذا الدليل الذي يثبت منه صحّة ماذكرت وهو أنّ الآيات الأوائل من سورة (المؤمنون) رسمت للمؤمن الرّاغب الخطوات التي ينبغي عليه أن يخطوها وبشكل طبيعّي لتمكنه من التعرّف إلى ربّه وخالقه، وليُفلح ويفوز بمطلبه ويحقق مايهدف إليه.

<u>**الدليل الثاني**</u>: والدليل الثاني الذي يثبت منه ماذكرته، هو أنّ ا لله عزوجلّ راح يشرح لهذا المؤمن أطوار ولادته الجسمانية، في مقابل أطوار ولادته الرّوحيّة بعد هذه الآيات الكريمة مباشرة ويقول: ﴿**ولقد خلقنا الإنسان من سُلالةٍ من طين. ثم جعلناه نطفةً في قرارٍ مكين. ثم خلقنا النّطفة علقةً، فخلقنا العلقة مُضغةً، فخلقنا المُضغة عظاماً، فكَسونا العظام لحماً، ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك ا لله أحسن الخالقين.**﴾. هذا وقد سبق لي أن وضّحت أنّ بيعة

المؤمن هي بمثابة ولادةٍ روحيّة له. وليفكر أَحَدُنا ماالضّرورة لذكر مراحل الولادة الجسمانية في هذا المقام إلاّ أن يفسّر حقيقة ماذكرته للقارىء وبيّنت؟

الدليل الثالث: والدليل الثالث الذي يثبت منه ماذكرته في مقدّمة هذا البحث هو أنه جل شأنه لم يقف عند حدّ بيان المراحل التي تمرّ بها الولادة الروحية والولادة الجسمانية، بل راح تعالى وبعد أن وضّح لنا من خلال قوله تعالى: **﴿ثم إنّكم بعد ذلك لميّتون، ثم إنكّم يوم القيامة تُبعثون﴾**. وضّح أن هاتين الولادتين تنموان وتبلغان كمال نموهما في هذه الحياة، ويطرأ عليهما الموت وينتقل صاحبهما إلى حياةٌ برزخيةٍ، وستبعثان من جديد يوم القيامة، وسُيكتب لصاحب هاتين الولادتين حياةً جديدة وفي عالم جديد، أقول: إنّ ربنا وقد انتهى من بيان هذه الحقيقة، عاد إلى أصل الموضوع وقال: **﴿ولقد خلقنا فوقكم سَبْع طرائق وماكُنّا عن الخلق غافلين. وأنزلنا من السّماء ماءً بقدرٍ فأسكنّاه في الأرض، وإنّا على ذهابٍ به لقادرون﴾**. فهو جل شأنه وضّح أنّه أَوجد لتطوير هذا الكيان الرّوحي وترقيته **﴿سَبع طرائق﴾** وعدد السّبع هنا للكثرة، أي فتحنا أبواب رقيٍّ غير محدود من أجل تطوير هذا المولود الروحي. وأنزلنا من السّماء ماءً بقدرٍ لإنبات ماتحتاجه الولادة الجسمانية من غذاء يجانسها. وليفكّر أحدُنا ماالضرورة لذكر ذلك كُلّه إلاّ أن يكون بينه وبين مضمون الآيات الأوائل من هذه السّورة ارتباطٌ موضوعيّ ؟.

هذه أدلة ثلاثة تؤكّد أنّ لترتيب آيات سورة (المؤمنون) حكمةً بالغةً متعلقةً بالموضوع الذي نحن بصدده وهو موضوع التعاليم القرآنية التي ترسم للمؤمن طريقة معرفة ربّه والتّعلق به والاندفاع في محبّته والدفاع عن دينه القويم.

وقد بات واضحاً أيضاً أن واجب السالك تفهّم حقيقة الصلاة الإسلامية حركاتٍ وقراءات وفلسفات وتأدية هذه الصلاة بخشوع تام، فهذا أهم واجبٍ تقتضيه مرحلة الرغبة إلى الله عزوجل وأن يرافقها ابتعاد هذا المؤمن الرّاغب عن الأمور اللاغية بجميع أنواعها وسلوك طريق جدّي خلال السّير على طريق العِرفان الإلهي. لينمو كيانه الروحي نمّواً طبيعيّاً خالصاً من شوائب الأمراض التي تهدد هذا الكيان. على شاكلة المولود الذي تلده أمّه يُغذى بحليبها سنتين ومن ثم يُنوعّ له غذاؤه. فالصلاة الخاشعة هي بمثابة حليب هذا الرّضيع،

لذلك وإشارة إليه ورد قوله تعالى: ﴿**قد أفلح المؤمنـون الذيـن هـم في صلاتهـم خاشعون**﴾. لذلك أعمد إلى الكلام عن هذه الصلاة .

٤ـ ماهي حقيقة الصلاة ؟

الصّلاة تعني الدّعاء. وهي اسمٌ يوضع مَوْضـع المصـدر. واشـتقاقها مـن الصّلا، وهو العظم الذي عليـه الإليتـان. لأنّ المُصلّـي يُحـرّك صَلَويـه في الركـوع والسّجود. والصّلاة مأخوذة من معنى العطف وطلب الإصغاء من الله واستمالته إلى هذا المُصلّي. أي أنّ الصّلاة في حقيقتها مطيّة المؤمن الخاشـع لجـذبِ محبّـة الله تعالى إليه. ولاتكون إلاّ في الخير. أما لفظ الدّعاء فيكون في الخير كمـا يكـون في الشّر. يُقال: دعـا لـه، ودعـا عليـه (محيـط المحيـط). وبنـاءً علـى ماتحمله الصّـلاة الخاشعة من دلالة تمكين المؤمن من استماله محبّة ربّـه إليـه، والفـوز بمكـان مكـين لديه، فقد ورد هذا الطّور مـن العرفـان الروحـي في مقـابل الطـور الأول للـولادةً الجسمانية والمُعبّر عنه: ﴿**ثمّ جعلناه في قرارٍ مكين.**﴾.

وليعلم القارىء أنّه ماسـبق لديـن سمـاويّ قبـل الإسـلام أن أتـى بصـلاةٍ شبيهةٍ بالصّلاة الخاشعة التي أتى بها الإسلام، والتي جعلهـا مطيّـة قـرب المخلـوق مـن خالقـه. وسـأختصر معـاني ومقـاصد ودلالات حركـات الصّـلاة الإسـلامية وقراءاتها وماقامت عليه من فلسفاتٍ علميّةٍ عظيمة وماتحمله مـن خـواص. أقـوم بذلك تسهيلاً للمؤمن الرّاغب سلوك طريق الصّلاة الخاشعة بين يدي ربه عزوجلّ عن وعي لما يقوم به وإدراك. وليستفيد بصورة عمليّة من هداية ربّه القائل: ﴿**قـد أفلح المؤمنون. الذين هم في صلاتهم خاشعون**﴾.

فليعلم هذا المؤمن الرّاغب أنّ الحركات والقراءات الـتي اشـتملت عليهـا الصلاة الإسلامية الخاشعة، لم تكن هي المقصودة بحدّ ذاتها، ذلك أنّ الله غنيٌّ عن العالمين. بل المقصـود هـو مـاترْمُز إليـه هـذه الحركـات والقـراءات وماتؤدّيـه مـن مقاصد وأغـراض. وهـل يحتـاج القـائد إلى تحيـةِ مرؤوسـه الجُنـدي إلا أن يكـون الغرض من هذه التحيّة إبداء الطاعة والولاء؟

فالإسلام طالب هذا المُصلّي أن يتوجّه في صلاتهِ قِبَلَ البيت الحرام الـذي أعاد بناءه أبوالأنبياء إبراهيم عليه السّلام. فلماذا أمرنا الإسلام بذلك؟ أمرنا بهـذا

التَوجّـه في صلاتنـا لنتذكّـر أنّ إسـلامنا هـو ملّـة إبراهيـم الحنيـف، ومـن واجبنـا الاعتصام بحبل الله جميعاً وتحت قيادةٍ روحيّةٍ واحدة.

والإسلام إذ طالب هذا المُصلّي حين يتوجّـه قِبَـلَ الكعبـة أن يرفـع يديـه ويقول الله أكبر. لم يأمره بذلك الأمر عَبَثاً. بـل يطالبـه بهـذه الحركـة مـن يديـه ليرمز بها إلى أنّه ألقى بهـذه الدنيـا ومشـاغلها وراء ظهـره معتقـداً أنّ الله الـذي وقف بين يديه ضارعاً هو أكبر من كلّ كبير عرفته دُنياه.

والإسلام وقد طالب هذا المؤمن بالوقوف بين يـدي ربّـه وقفـة تـأدّب، واحترام وتعظيم. أمره بذلك ليعبّر بذلك عن خضوعه لربّه وإعطاءه حقّ قدره من الإجلال والإكبار. وليعبّر أيضاً عن خضوعه لأوامره وهـو أن يسـير علـى طريـق عِرفانه سيراً طبيعياً يتلاءم وقوانين النشوء والارتقـاء. لذلـك أمـره أن يركـع بعـد ذلك ويقول (سبحان ربّي العظيم) أي أن يعـبّر عـن تدرّجـه في معرفـة ربّـه فهـو ينتقل من حالة الوقوف إلى حالة الانحناء التي هي أعظم دلالة على التعظيم. ومـن ثم أمره أن يسجد ويقول (سبحان ربّي الأعلى) أي أن يعبّر عن كـامل خضوعـه وتوحيده وتنزيهه في آخـر مراحلـم ارتقائـه الرّوحـي. وعليـه فلحركـات الصّـلاة وقراءاتها رموزُها ودلالاتُها ومقاصدُها، و لم يسبق لدين سماوي أن أتى بمثل هـذه الحركات والقراءات.

والإسـلام وقـد طـالب هـذا المؤمـن المُصلّـي أن يجلـس ليقـرأ التحيّـات والصّلوات الإبراهيمية قبل تسليمه. فقـد كـان المقصـد مـن التحيـات أن يـؤدي تحيات وداع ربّه الذي وقف بين يديه. وقد كان المقصد من الصلوات الإبراهيمية الدعـاء لمحمـد خـاتم النبيـين (ﷺ) أن يُعطيـه ربّـه مـاأعطى جـدّه إبراهيـم مـن عطاءات.

والإسلام إذ أمر المؤمن المصلّي أن يتوجّه بوجهه ذات اليمين بعد تحيّـات الوداع ويقول السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فليرمز بذلك إلى أنّ يتوجّه إلى إخوانه المؤمنين أصحاب اليمين يبشرّهم أنّه تزوّد بروح المسـالمة والمحبّـة لهـم وهـو بين يدي ربّه. ومن ثم يلتفت بوجهه ذات الشّمال نحو غير المؤمنين من عبـاد الله تعالى ليعلن لهم أنّه تزوّد بروح المسالمة والمحبة لهم أيضاً وهو بـين يـدي ربـه، فلـن يؤذي أحداً منهم بلسانه ولابيديه، ولذلك مـاإن ينتهـي هـذا المؤمـن المُصلّـي من

صلاته حتى يذكر ربّه ويقول: اللهـم أنـت السّـلام ومنـك السـلام وإليـك يعـود السلام تعاليت ياذا الجلال والإكرام.

والصلاة الإسـلامية الخاشـعة، المفروضـة على هـذا المؤمـن، تدفعـه، بمـا تفرضه عليه من غُسلٍ ووضوء تلازمـه أدعيتـه ومـن نظافـه ثيـاب وتزيـين مظهـر المؤمن حين يسعى إلى صلاتـه هـذه، أقـول تدفعـه ليكـون طـاهر الثـوب والبـدن والنّفس.

والصلاة إذا اشْتُرِطَ على القائم بها وعيه لمـا يقـول. هـذا الشـرط الـذي تضمنّه قوله تعالى: ﴿**لاتقربوا الصّلاة وأنتم سُكارى حتى تعلمـوا مـاتقولون**﴾. فقد كان المقصد من هذا الشرط وعي عقلـه وكيانـه الروحـي مـايتلوه في صلاتـه تدعيماً لنمُّوه الروحي.

والصّلاة الجامعة تُعمّق في نفوس المُصلّين الرّوح الاجتماعيـة بينهـم علـى أساس أن الإنسان اجتماعي بفطرته. وتُنمّي بذلـك روح الأخـوة والتعـارف بـين المُصلّين.

والصّلاة الإسـلامية الخاشـعة تنهـى عـن الفحشـاء والمنكـر، تربـط هـذا المصلّي بربّه وتنمّي علاقته به وتغرس في نفسه روح الخير وحُبّ العباد.

ولاننسـى أنّ الله عزوجـلّ الـذي صـاغ لنـا هـذه الصـلاة بحركاتهـا وسكناتها وقراءاتها، قد أسّسها لصالح عباده المؤمنين وعلى أسسٍ علميّةٍ فلسـفية. فمن المعلوم أن ظاهر الإنسان يؤثّر في نفسه وباطنه. كما يتأثّر ظاهر هذا الإنسان بحالة نفسه الباطنة. والمثال على ذلك أن الخـبر المفجـع المحـزن تكتئـب لـه النّفـس والجسد معـاً ممّـا يُلقيـه هـذا الخبر مـن ظـلال علـى هـذا الجسـد. والعكـس هـو الصحيح. فالذي أوذي جسده تكتئب نفسـه من جـرّاء هـذا الإيـذاء ويضمحـل سروره ونشاطه النفسي. وعليه فقد تأسست حـركات وقراءات الصـلاة الخاشـعة وصيغت على هذا الأساس العلمـي ، أي علـى أسـاس أن يؤثّـر ظـاهر حركاتهـا وقراءاتها في باطنه.

ثم إنّ الغُسل والوُضوء استندا في فرضهما وصياغتهما على أساس قانونٍ علمّي أيضاً، وهو تهدئة الأعصـاب بالمـاء وإعـادة صاحبهـا إلى توازنـه الطبيعـي. تمكيناً للمصلي من أن يَعيَ مايقوم به ويقرأه في صلاته.

وخلاصة القول هو أنّ الصلاة الإسلامية الخاشعة التي فرضها الإسلام، تشكّل فيما لها وماعليها مُعجزة غذاء روحيّ لايعادِلُها في ذلك أيّ غذاء روحيٍّ أتى به دين من الأديان السماوية قبل الدين الإسلامي. وتشكّل بذلك مطيّة ومعراجاً لهذا المؤمن على طريق عِرفان ربّه وخالقه.

وقد لاحظ القارىء تشديد قوله تعالى : **﴿الذّين هم في صلاتهم خاشعون.﴾** تشديده على ضرورة الخشوع في الصّلاة. فما معنى الخشوع وماهي أوصافه من كتاب الله عزوجلّ؟

٥ـ الخشوع وأحواله :

قال اللغويون إنّ الخشوع من خشع الرّجل إذا سكن وتذّلل. وسكون هذا الخاشع يعني ابتعاده عن وضعيّة الاستهتار والنشوز والتّصنع، وليقف بين يدي ربّه مُتذلّلاً متضرّعاً معبّراً عن احتياجه لله ربه الذي وقف بين يديه بخضوع ويقين تام لاستمالة محبّته نحوه ونيل كرمه وعطاءاته.

ثم إنّ القرآن الكريم زوّدنا بمعالم الأوصاف التي تتملّك هذا الخاشع. فأفادنا في سورة الأنفال من خلال قوله تعالى: **﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذُكر الله وَجلت قلوبهم.﴾** أي أن الوَجَل ووقفة الخوف من الله ربّنا الذي نقف بين يديه في صلاتنا هي أوّل صفات هذا الخشوع المطلوب للفلاح.

كما أفادنا القرآن الكريم في سورة الزّمر من خلال قوله تعالى: **﴿تقشعرّ منه جلود الذين يخشون ربّهم﴾**، أنّ وقفة الخوف من الله وتهيّبه على وجه الحقيقة لها أثر القشعريرة على جلد هذا المصلّي الخاشع. فإذا تملكته هذه القشعريرة واقعيّاً تتحول القشعريرة لتصبح كما ورد في الآية الكريمة **﴿ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾**. أي تنفرج أسارير هؤلاء الخاشعين بما يستشعرونه من قربهم من هذا الإله الذي وقفوا بين يديه.

ونبهنّا القرآن الكريم إلى الحالة الأخيرة التي ينتقل إليها المصلي الخاشع في صلاته وذلك من خلال قوله عزوجل في سورة مريم: **﴿وإذا تُتلى عليهم آيات الرحمن خرّوا سُجّداً وبُكيّاً.﴾**.

ولابدّ من التذكير هنا بحال المولود الرضيع، إذ لاتكون كمية الحليب التي يتغذّى بها في أوّل أيام ولادته، بمعدّل لايتغيّر. بل إن الخط البياني لهذه الكمية يتجّه صعوداً كلّما نما وكَبُر وازداد صّحَةً ووعياً. كذلك يكون حال هذا المصلّي الرّاغب، لايشترط فيه أن تتوفّر خشيته في صلاته إلاّ وفقاً للخطّ البيانيّ المذكور. وتبعاً لقانون النّشوء والارتقاء.

فهذا هو المطلوب من هذا المبايع السالك الذي يبدأ عِرفانه من مقام الرغبة، أن يتفهم حقيقة الصلاة الخاشعة، فيصلّي خاشعاً لإنماء كيانه الروحي حسب قوله تعالى: ﴿**الذين هم في صلاتهم خاشعون**﴾.

أما على صعيد سلوكه اليومي العمليّ والذي صرّح به قول ربنا عزوجل: ﴿**والذين هم عن اللّغو مُعرضون.**﴾، والذي يُقابله جسمانياً: ﴿**ثم جعلنا النطفة علقةً.**﴾. فإن سورة المؤمنون نبهّت هذا الراغب الخاشع إلى ضرورة اعتزال حياة اللغو مبتعداً عن الحركات والأقوال التي لانفع من ورائها ولاجدوى، وهي كل قولٍ وفعلٍ لاغٍ من أقواله وأفعاله.

فاللغّو من حيث دلالته اللّغوية مصدرٌ يشير إلى كلّ مالايُعتدّ به من كلامٍ وحركاتٍ ومُجالساتٍ وصُحباتٍ وعلاقات (محيط المحيط) أي أنّ المُصلّي الرّاغب إلى ربّه الذي يُصلّي صلاةً خاشعةً يؤديها خمس مرّاتٍ يوميّاً، لايخرج من صلاته الخاشعة ليُبطل مفعولها الرّوحي باللّغو في كلامه وحركاته وصُحباته وعلاقاته.

بل ليسعى هذا الرّاغب الخاشع في صلاته إلى تعديل سلوكه الذي كان يسلكه قبل إيمانه وبيعته. فينتهي عن فعل أيّ شيء لاتثبت فائدته علميّاً كي لايلحق الضرر بنموه الرّوحي. فليقاطع مجالس اللّهو وليمتنع عن مصاحبة الأشرار، ولايعود يُقدم على أمرٍ إلاّ بعد التّحقق من فوائده بصورة علميّة. وباختصار فإنّه يعود يلتزم بنهجٍ علمي في سلوكه وعلاقاته ليفترق بذلك عن مشابهة الأطفال شيئاً فشيئاً، وتكتمل بذلك نظرته إلى الأشياء من حوله من خلال هذا المنظار العلمي السلوكي. ويبقى بذلك محافظاً على نمو كيانه الرّوحي، فلايعرّضه لمختلف أنواع الأمراض والأخطار.

ذلك أنّ الأمراض والأخطار لاتهدّد كيان المولود جسدياً فقط، بل تهدّد كيان المولود روحياً أيضاً، والقرآن الكريم نبّه أذهان المؤمنين إلى ذلك صراحةً، وأطلق على الأمراض التي تهدد الكيان الرّوحي اسم النّفاق.

أفلم نقرأ قوله تعالى: **﴿إن المنافقين يُخادعون الله وهو خادِعُهم، وإذا قاموا إلى الصّلاة قاموا كُسالى، يُراؤون النّاس ولايذكرون الله إلاّ قليلاً.﴾** النساء ١٤٢.

٦- مرض النفاق وأثره الروحي القتّال:

إنّ كلمة نّفاق على حسب ماورد في معجم محيط المحيط، موضوعة دلالةً على المضيّ والنّفوذ، وباقي المعاني متفرّع عنها، والنّفق سَرَبٌ في الأرض له مخرجٌ إلى مكان. وقال صاحب معجم المقاييس إن لكلمة النّفاق أصلين صحيحين. يدل أحدهما على انقطاع شيء وذهابه، والآخر يدلّ على إخفاء شيء وإغماضه. تقول: نَفَقَتِ الدّابة أي ماتت. ويكتم صاحب النفاق خلاف مايُظهر. فكأن إيمانه يخرج منه أو يخرُجُ هُو من الإيمان في خفاء. هذه هي دلالات كلمة نفاق.

ومن واجب المؤمن الرّاغب الذي يسير على درب العرفان الإلهي أن يُحيط علماً بالأمراض النفسيّة التي تهدد كيانه الرّوحي وتذهب بنور هدايته، وتحول بذلك دون رغبته بالتعرّف إلى خالقه. خصوصاً أنّ القرآن الكريم فرض عليه أن يصلّي صلاته بخشوع، فمن واجبه أن يسارع دوماً إلى تلبية نداء المؤذّن "حيّ على الصلاة حيّ على الفلاح" أما إذا أحسّ بالكسل في تلك اللّحظات، فليعلم أنّها بوادر مرض النّفاق الخطر على كيانه الروحي لقول ربنا عزوجل في سورة النساء ١٤٢ **﴿وإذا قاموا إلى الصّلاة قاموا كُسالى..﴾**. وليعالج بوادر كسله هذا باستغفار ربّه مرّات عديدة والتوبة إلى الله تعالى سائلاً إيّاه أن يشفيه من مرض كسله الذي يتهدّد صلاته الخاشعة ويحرمه من جَنْي ثمارها الروحية.

هذا المُنطلق المتعلّق بالمنافقين وعلاماتهم المرضية ابتدأه ربّنا عزوجل من الآية الثامنة وانتهى عند الآية العشرين. أي من قوله تعالى في سورة البقرة :

﴿ومن النّاس مَن يقول آمنّا با لله وباليوم الآخر وماهم بمؤمنين، يخادعون ا لله والذين آمنوا، ومايخدعون إلاّ أنفسهم ومايشعرون. في قلوبهم مرضٌ، فزادهم ا لله مرضاً، ولهم عذابٌ أليمٌ بما كانوا يكذبون.﴾ إلى قوله تعالى ﴿أولئك الذين اشتروا الضّلالة بالهدى، فما ربحت تجارتهم وماكانوا مُهتدين. مثلهم كمثل الذين استوقد ناراً، فلّما أضاءت ماحوله، ذهب ا لله بنورهم وتركهم في ظُلمات لايُبصرون. صمٌّ بُكْمٌ عميٌ فهم لايرجعون.﴾ فإلى هنا أنهى ا لله تعالى كلامه عن الفريق الأول من المنافقين مشيراً بذلك إلى فئة منافقي البعثة الأولى للإسلام. وانتقل تعالى بعد ذلك فأنبأ عن الفريق المنافق الذي سيظهر عند البعثة الثانية للإسلام، وقال: ﴿أو كصيّبٍ من السّماء فيه ظُلماتٌ ورعدٌ وبرق، يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصّواعق حذر الموت، وا لله محيطٌ بالكافرين. يكاد البرق يخطف أبصارهم كُلّما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا، ولو شاء ا لله لذهب بسمعهم وأبصارهم، إن ا لله على كل شيءٍ قدير.﴾.

فليلاحظ القارىء كاف التشبيه التي أتى ا لله جل شأنه بها أوّل الآية. هذه الكاف التي تعني ضرورة توفير عناصر ثلاثة في كل مثال هي المشبّه والمشبه به ونقطة الشبه بينهما. فإن عُدنا إلى هذين المثالين الذين أوردتهما الآيات من سورة البقرة، فلانجد انطباقهما على فريق واحدٍ من المنافقين، بل على فريقين مختلفين. وإلى القارىء الأدلة على صدق استنتاجي المذكور:

أولاً ـ فعلي حين وُصِفَ الفريق الأول بقوله تعالى: ﴿ مثلهم كمثل الذين استوقد ناراً، فلّما أضاءت ماحوله ذهب ا لله بنورهم وتركهم في ظُلماتٍ لايُبصرون.﴾ مشيراً بهذا الوصف إلى جماعة المنافقين من أهل المدينة المُنّورة الذين استوقدوا شعلة الإسلام. فلما انتشر الإسلام على اكتافهم واكتاف المهاجرين، تملّك الحسد والبغض قلوب هؤلاء المنافقين من أتباع عبد ا لله ابن سلّول، وراحوا يثيرون الاشاعات الكاذبة ضدّ الرّسول، ووادُّوا أعداء ا لله وأعداء رسوله واستشرى بذلك مرض النفاق في قلوبهم ﴿ فذهب ا لله بنورهم وتركهم في ظُلماتٍ لايُبصرون.﴾.

ثانياً: وقد وُصِف الفريق الثاني بقوله تعالى: ﴿**أو كصيّبٍ من السماء فيه ظلماتٌ ورعدٌ وبرقٌ، يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصّواعق حذر الموت.**﴾ وأشار بذلك الوصف إلى جماعة المنافقين من جماعة البعثة الثانية للإسلام الذين يخشون مايتطلبه إيمانهم منهم من تضحيات ماليّةٍ ومعنوية، في وقتٍ آمنوا فيه بنزول صيّبٍ من السّماء إنّما يخشون مايرافقه من ظلمات ورعد وبرق. هذه الظواهر التي ترافق على العموم كلّ صيّبٍ أي مطرٍ نافعٍ للمزروعات.

ثالثاً ـ ثم إننا حين نتناول المثالين من حيث نتائجهما نلاحظ عدم انطباقهما أيضاً على فريق واحدٍ بل على فريقين. فعلى حين جاءت عاقبة الفريق الأول من المثال الأول: ﴿**صُمٌّ بُكمٌ عُميٌ فهم لايرجعون.**﴾. فقد جاءت عاقبة الفريق الثاني من المثال الثاني: ﴿**يكاد البرق يخطفُ أبصارهم، كلّما أضاء لهم مَشَوا فيه، وإذا أظلم عليهم قاموا، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم.**﴾ أي كلّما استقرّت الأمور لصالح الدعوة التي انضموا إليها نشطوا في دعوتهم إلى الله تعالى وكلّما اشتدت المقاومة ضدّ هذه الدّعوة قاموا من بين صفوف الدّاعين.

يقول تعالى إنّه يراعي ضعفهم فلو يشاء لذهب بسمعهم وأبصارهم كما فعل مع فئة الفريق الأول من منافقي صدر الإسلام.

رابعاً ـ وعلّل الله عزوجلّ سبب ضعف إيمان الفريق الثاني من المنافقين بقوله عزوجلّ: ﴿**إنّ الله على كل شيء قدير.**﴾ أي أنّ هؤلاء لم يسلكوا درب العِرفان الإلهي ويصلوا إلى درجة اليقين من أنه جل شأنه هو على كل شيء قدير. بل ظلّ يشوب إيمانهم الشرك الخفي ويخشون الشيطان، ونعذرهم أنهم لايزالون في بدايات هذا الدّرب الطويل لذلك لو شئنا لذهبنا بسمعهم وأبصارهم وسلبنا من قلوبهم نور الإيمان كما فعلنا مع الفريق الأول من المنافقين.

وهكذا يتبيّن لنا اختلاف هذين المثلين وعدم انطباقهما على فريقٍ واحدٍ من المنافقين: بل انطباقهما على فريقين. فريق منافقي صدر الإسلام وفريق منافقي البعثة الثانية المعاصرة للإسلام. وهاكم القرائن التي تؤيّد هذا المُنطلق الذي قدّمته لنا الآيات الأوائل من سورة البقرة:

القرينة الأولى: هو أنّ الله تعالى ابتدأ هذه الآيات بقوله تعالى: ﴿**ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وماهم بمؤمنين.**﴾ وهذا النّفي لإيمان هؤلاء ورد عامّ الدّلالة غير مُخصصّ بفريق معيّن. على حين أتى تعالى في آخر هذه الآيات بمثلين متعلّقين بفريقين منافقين ولاينطبقان على فريق واحد. الأمر الذي يضطر الباحث إلى الرجوع إلى جميع سور القرآن واستلهامها عن حقيقة هذين الفريقين وإلى آية الأزمنة يعودان.

القرينة الثانية: والذي يطالع مؤلّف (فنّ الاختزال) سيدرك لامحالة معالم بعثتين للإسلام. ولابدّ أن يوجد بالتالي فريقٌ منافقٌ في البعثة الأولى للإسلام، وفريقٌ منافقٌ ثان في البعثة الإسلامية الثانية. وهذه القرينة تؤكد أنّ الله تعالى قصد من هذين المثالين في المنطلقين من سورة البقرة هذين الفريقين من المنافقين.

القرينة الثالثة: والتي تشير وتؤكّد ماذهبت إليه، هو أنّه جل شأنه أتى بحرف العطف (أو) بين هذين المثالين قائلاً: (كذا أو كذا). و لم يأت الله تعالى بهذا الحرف عبثاً دون حكمة بالغة.

فإن نحن عُدنا إلى معجم محيط المحيط نجده ينبّه إلى أن المتأخرين من النّحاة ذكروا لحرف (أو) أحد عشر معنى. فأو تعني الشّك أي تردد المتكلم واشتباهه في ماأخبر به نحو لبثنا يوماً أو بعض يوم. والله تعالى منزه عن التردّد والاشتباه. فلايجوز الأخذ بهذا المعنى لحرف أو الوارد بين هذين المثالين. وكمثله دلالة (أو) على التخيير بعد الطّلب فلا طلب هنا ولاتخيير. وكمثله معنى الإباحة بعد الطلب فلا طلب هنا ولاإباحة. وكمثله الجمع المطلق فلا يصحُّ الجمع المطلق لاختلاف المثالين. وكمثله معنى الإضراب كبل المشترط فيه تقدّم نفي أو نهي، فلا نفي تقدّم على هذين المثالين ولانهي. وكمثله معنى التقسيم نحو: الكلمة اسمٌ أو فعل أو حرف، ولايوجد في المثالين هذا النوع من التقسيم، وكمثله معنى الاستثناء ولااستثناء في هذين المثالين. وكمثله أو بمعنى إلى فلايصح في هذا المقام.وكمثله معنى التّقريب وهو الاشتباه في هذا المقام. وكمثله معنى الشّرطيّة نحو: لأضربنّه عاش أو مات، فلاشرط في هذا المقام.

وهكذا فلايبقى لدينا إلاّ معنى واحد نأخذ به لحرف العطف (أو) الوارد بين هذين المثالين، وهو معنى الإبهام على المخاطب لغرضٍ من الأغراض. فقد

شاء جل شأنه أن يُبهم على القارىء دلالة هذين المثالين على فريق منافقي صدر الإسلام وفريق البعثة الثانية للإسلام لحكمتين بالغتين: الحكمة الأولى أنّه يأتي هنا بأمر غيبيّ كمنطلق، لايحتاج للتخصيص، والحكمة الثانية أنه تعالى أبهم ذلك حثّاً منه للقارىء ليتدبّر كلام ا لله بإمعان رصين، وهو مافعلناه حتى الآن. ليؤجر هذا القارىء عند ربّه، ويثبت بالتالي إعجاز دلالات القرآن العظيم، وأن ا لله تعالى هو علاّم الغيوب.

أمّا وقد فرغنا من الإحاطة بالمنطلق القرآني المنبىء عن ظهور فريقين من المرضى بمرض النّفاق. فقد وجب على المؤمن الرّاغب أن يعي هذه الحقيقة صيانةً لكيانه الرّوحي من أن يتآكل إن هو فرّط في حقّه.

ولّما كنت أوضحّت أن من علامات النفاق كسل هذا المؤمن الراغب حين يسمع نداء المؤذن للصلاة والفلاح. ذلك أنّ كسله هذا يعقبه مرض نفاق في قلبه. لأن سورة التوبة نبهتنا إلى هذه الحقيقة من خلال قوله تعالى في الآياتً (٧٤-٧٦) منها: ﴿**ومنهم من عاهد ا لله لئن آتانا من فضله لنصدّقنّ ولنكونن من الصالحين. فلّما آتاهم من فضله بخلوا به وهم معرضون. فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا ا لله ماوعدوه وبما كانوا يكذبون. ألم يعلموا أنّ ا لله يعلم سرّهم ونجواهم وأنّ ا لله علاّم الغيوب؟**﴾. فقد حذرتنا هذه الآيات من أنّ الإخلاف مع ا لله يعقبه مرض نفاق يصيب فؤاد هذا المؤمن المخلف لوعده مع ربّه الذي بسط له رزقه استجابةً لماً وعده به وبسبب أنّه عاهد على البذل والعطاء والتصدّق والاندفاع على طريق التقوى والعرفان. ذلك أنّ الإخلاف بالوعد يُصيب قلبه بمرض يأكل كيانه الروحي كما يفعل السّوس الذي ينخر في جذوع الأشجار.

ولنعد إلى سورة الحديد التي وضّح ا لله عزوجل في آياتها (١١-١٤) الحرمان الذي يُصاب به المنافقون يوم القيامة، حيث قال تعالى بحقّ المتصدقين وبحقّ المنافقين البخلاء: ﴿**من ذا الذي يقرض ا لله قرضاً حسناً فيضاعفه له، وله أجرٌ كريم، يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم، بُشراكم اليوم جناتٌ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم. يوم يقول المنافقون والمنافقات للذّين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم،**

قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً. فضُرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قِبله العذاب. يُنادونهم ألم نكُن معكم؟ قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربّصتم وارتبتم وغرّتكم الأماني، حتى جاء أمر الله وغرّكم بالله الغرور.﴾. فالإنفاق في سبيل الله هو بمثابة إقراض الله قرضاً حسناً، يردّه له أضعافاً بتدابير خفيّة وأسباب، ويكافئه على هذا الإنفاق بأجرٍ كريم نور يسعى بين يدي هذا المنفق وبأيمانه وجناتٍ خالداً فيها. على حين يُحرم المنافق البخيل نفسه من هذا الفضل الإلهي وهذا الأجر الكريم. وقد نبّه جل شأنه إلى أن هذا البُخل الذي بخله هذا المؤمن المنافق يعود إلى أربعة أسبابٍ رئيسية: الأوّل منها عبر عنه بقوله تعالى (فتنتمُ أنفسكم) من فتنه المال استماله إليه وحرص عليه (محيط المحيط). والثاني منها عبر عنه بقوله تعالى (وتربّصتم) من ربص بفلان انتظر (محيط المحيط) والثالث من هذه الأسباب قوله تعالى (وارتبتم) من رابّ تشككك بوعود الله تعالى. والسبب الرابع عبّر عنه بقوله تعالى (وغرتكم الأماني) أي خدعتكم أمانيكم أن تصبحوا أصحاب ثرواتٍ عظيمة فاوقعتكم في مرض الحرص والنفاق.

كذلك نبّهنا كتاب الله تعالى إلى أنّ الذين يبتغون العزّة عند غير الله تعالى، ويوادّون الذين يستهزئون بآيات الله عزوجلّ، يُصابون بأمراض النفاق التي تقضي على إيمانهم فلايعود بينهم وبين الكافرين من فروق. هذا ماعبّرت عنه الآيات (١٣٨-١٤٠) من سورة النساء من خلال قوله تعالى: ﴿**بشّر المنافقين بأنّ لهم عذاباً أليماً، الذين يتّخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، أيبتغون عندهم العزّة، فإنّ العزّة لله جميعاً، وقد نزّل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يُكفَر بها ويُستهزأ بها، فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديثٍ غيره، إنكّم إذاً مثلُهم، إنّ الله جامعُ المنافقين والكافرين في جهنّم جميعاً.﴾**. ذلك أنّ الإيمان يُنوّر قلب المؤمن بإذن ربّه. أمّا النفاق المشتق من النّفق الدّال على الظّلمة، فإنه يأكل نور الإيمان ويورث ظلمة في قلب صاحبه، إلى أن يستشري ويقضي على النور الذي أورثه هذا الإيمان في القلب.

من هذا كله ندرك أنّه في حين اختصّ الأطبّاء البشريون بمعالجة الأمراض التي تصيب الأجساد. فإن معالجة الأمراض التي تصيب الكيان الروحي لايقدر

على القيام بها إلا الأنبياء والمصلحون الروحيون الحقيقيّون بما يتلقونه من علوم علاجٍ لهذه الأمراض من لَدُن الله عزوجل.

وزبدة الكلام هو أنّ على المؤمن الراغب سلوك درب العِرفان الإلهي أن يُحيط علماً بكل مانبّه إليه القرآن الكريم بما يتعلّق بأمراض النّفاق، ليحذرها ويصون بذلك ولادته الرّوحية التي تأتّت له تلقاء إيمانه وبيعته. هذا وإني لم آتِ على ذكر جميع الأمراض التي تؤدي إلى النفاق حصراً خشية الإطالة على هذا الراغب والإطناب. والذي أدعو هذا المؤمن الراغب إليه بل كُلّ مؤمن في زماننا هو أن يَحْذَرَ أن يشمله قوله تعالى : ﴿**أو كصيّبٍ من السّماء فيه ظلمات ورعدٌ وبرق، يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصّواعِق حذر الموت والله محيط بالكافرين. يكاد البرق يخطف أبصارهم كلّما أضاء لهم مَشَوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم، إنّ الله على كلّ شيءٍ قدير.**﴾. أن يظلّ هذا التشبيه القرآني نصب أعين المؤمن الرّاغب إلى الله من إخواننا أفراد البعثة الثانية للإسلام. ليذكّرهم هذا التشبيه على الدّوام أنّ هذا المؤمن المبايع لمجدّد هذا الزمان لابُدّ أن تعترضه ظُلُمات ورعدٌ وبرق يخطف الأبصار. فهذه ظواهر طبيعية ترافق نزول كلّ صيّبٍ أي مطرٍ نافع نازلٍ من السّماء، وهي مؤشّر صحّي وبشارة، وليست هذه الظواهر بنذير شؤم وإنذار. ذلك أنّ على هذا المؤمن الرّاغب أن يسير قُدُماً على طريق معرفته لربّه فيواجه جميع هذه الأخطار بصدرٍ رحبٍ وصبرٍ ومثابرةٍ واحتمال، مُعتقداً من صميم فؤاده أنّ ربّه يحيط بالكافرين من جهة، وأنه من جهة أخرى على كل شيء قدير. فمثل هذا المؤمن الرّاغب يبلغ أخيراً مقام جذب محبة ربه إليه ويُدخله ربه في زمرة من يحبّهم ويحبّونه أيضاً.

أعود الآن إلى الآيات الأوائل من سورة (المؤمنون)، حيث طالب الله تعالى المؤمن الراغب أن يُتقن فهم صلاته، ويصليها بخشوع، ويعرض بعد ذلك عن الأمور اللاّغيات من أقوال وحركات وعلاقات بالآخرين تبعده عن درب معرفته لربّه. وأن يتلّمس في الوقت نفسه حالة الأنس بربّه ليكسب ودّه ومحبته. فإذا تقيّد المؤمن السالك بهذه القيود من صلاة خاشعة إلى الابتعاد عن اللاغيات، يتمكّن الأنس بالله من نفسه وينتقل بذلك إلى مرحلة عبّر الله تعالى عنها:

﴿**والذين هم للزكاة فاعلون.**﴾ أي لايعود يجدُ في نفسه حرجاً من أن يبذل مايترتّب عليه من مالٍ لدعم مسيرته الإيمانية.

ثانياً ـ مقام الأنس فالودّ :

نتساءل هنا: لماذا قال تعالى ﴿**للزكاة فاعلون**﴾ و لم يقل مؤدّون للزكاة؟ وهذا السؤال أجاب عليه صاحب الكليات حيث قال: (العمل يعمُّ أفعال القلوب والجوارح، ويُستعمل لما كان مع امتداد الزمان. وفعل بخلافه.) (محيط المحيط). أي أنّ أداء زكاة الأموال هو من فعل الجوارح وتتطلّب المداومة على أدائها طيلة الحياة. فإلى هذه المعاني ورد قوله تعالى (للزكاة فاعلون).

ونتساءل ثانية عن حكمة تأجيل قوله تعالى: ﴿**والذين هم للزكاة فاعلون**﴾ إلى مابعد قوله تعالى ﴿**والذين هم عن اللغو معرضون.**﴾. وحكمة ذلك أنّ تزكية المال والتضحية به ليست بالأمر الهيّن على كل إنسان. فلا يُقدم عليه ولايلتزم بأحكامه إلاّ الذي قطع أشواط أداء صلواته بخشوع وابتعد عن الأمور اللاغيات وحاول ربط نفسه بربّه عزوجلّ. ليستحق بذلك الأجر الكريم الذي وعده الله هذا المؤمن السالك درب عِرفانه في سورة الحديد بقوله تعالى: ﴿**من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له، وله أجرٌ كريم.**﴾ ثم إنّ المؤمن الذي أنس ربّه وطلب ودّه، يُطالبه ربّه أن يلتزم بأمرٍ جديد عبّر عنه بقوله: ﴿**والذين هم لفروجهم حافظون. إلاّ على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم فإنّهم غير ملومين.**﴾. فهذه المطالبة وهذا المقام الجديد يأتي بعد مرحلة الالتزام بفعل الزكاة، ويقابل ذلك مرحلتي ﴿**فخلقنا المضغة عظاماً، فكسونا العظام لحماً.**﴾ على صعيد التكوين الجسدي لهذا الإنسان المؤمن.

فإذا مابلغ المؤمن السّالك مقام الوّد الذي ذكرناه والذي تطلّب من هذا السالك حفظ فرجه إلا على أزواجه أو ماملكت أيمانه. يسمع إنذاراً ربانياً أنذره به ربه في سورة المؤمنون يقول: ﴿**فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون.**﴾.

أي أنّ المؤمن السّالك الذي يبلغ مقام الودّ رهبةً من ربّه ويصون نفسه من جميع أمراض النفاق بصورة موضوعية. من واجبه أن يعاهد ربّه هناك عهداً لاينكص عنه. وهو أن يثابر على طلب عِرفان ربّه ومحبّته، فلا ينكص بعدها على عقبيه مهما واجهته السماء بابتلاءات، بل أن يمضي إليه قُدُماً يستعطفه ويطلب محبّته لينشئه الله نشأة ثانية مقابل النشأة الجسمانية التي عبّر تعالى عنها بقوله ﴿**ثم انشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين.**﴾.

أمّا إذا لم يتعّظ هذا المؤمن بالإنذار الرباني المذكور، وأخلّ بتعهدّه، يحرمه الله تعالى من ودّه إياه ويصبح من زمرة ﴿**فأولئك هم العادون**﴾ أي زمرة الظالمي لأنفسهم الخاسرين صداقة ربّهم ووده إياهم وولايته لهم. ويكون حال هذا كحال الذي بلغ شاطىء النهر وعاد أدراجه وهويشكو الظّمأ والعطش.

ثالثاً. مقام المحبة :

فإن ثبت الله تعالى فؤاد السالك درب عِرفانه على هذا الصعيد يجذب بعدها محبّة ربّه نحوه، ويدخل بعدها في زمرة الذين قال الله تعالى بحقّهم: ﴿**يحبّهم ويحبّونه**﴾. فإذا بلغ هذه المرحلة من العرفان توجب عليه هناك أن يلتزم بالقانونين اللذين يقتيضهما مقام المحبة وقد سبق شرحهما من قبل أيضاً.

هذان القانونان تضمّنتهما الآيات من سورة المؤمنون قوله تعالى: ﴿**والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون. والذين هم على صلواتهم يحافظون. أولئك هم الوارثون. الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون**﴾.

والآن نلقي نظرةً على مافهمناه من آيات سورة المؤمنون، ونُجمل ماأوردَهُ الله جل شأنه في هذه الآيات التي نوّرت المؤمن الراغب بالمراحل والخطوات التي ينبغي عليه أن يقطعها على طريق عِرفانه لربه، والرّكائز المفروضة عليه ومُرتبّة بشكل يتلاءم وتطوره روحياً بشكل طبيعي. فهذه الآيات قسّمت حياة المؤمنين إلى مرحلتين رئيسيتين.

مرحلة ماقبل قوله تعالى: ﴿**فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون.**﴾. ومرحلة مابعد هذه الآية وماأشارت إليه. أي أنّ المؤمن السالك

درب العِرفان الإلهي يبلغ مابين هاتين المرحلتين حدّاً فاصلاً لارجعة معه. ومن واجبه أن يسير في عِرفانه قبل هذه المرحلة الفاصلة بشكلٍ طبيعيٍ وفق ترتيب ماتضمنته تلك الآيات، فلا يتجاوز ترتيبه وإلاّ فإنه يصبح من (العادون) من عدا طوره وقدره إذا جاوزه وتركه (محيط المحيط).

فإن سار هذا المؤمن المبايع ضمن هذه الوصيّة وبلغ مرحلة المحافظة على فرجه يُمسي تطبيقه لهذه الغروض والأوامر طبيعيّاً جدّاً لايُخالطه حرجٌ ولاضعف. ويكون بذلك قد تدرّج من الرّغبة فالأنس فالودّ على طريق معرفته لربّه ويكون بذلك من

﴿الذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون. والذين هم على صلواتهم يحافظون. أولئك هم الوارثون. الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون.﴾.

فما معنى لأماناتهم وعهدهم راعون؟

الأمانات جمع أمانة، وخلاف الخيانة. علماً بأنّ جميع مافرضه الله تعالى على عبده المؤمن يُعد من قبيل الأمانة. أمّا كلمة (وعهدهم) فمن عَهِدَ إليه: أوصاه، وعهد الحُرمة رعاها وحفظها. والعهد هو الوفاء والمودّة والذّمة والضمان. وأمّا (راعون) فمن رعا الرّجل أي نزع عن الجهل، وحَسُنَ رجوعه عنه (محيط المحيط).

واستناداً إلى هذه المعاني لتلك الألفاظ، يصبح معنى **﴿لأماناتهم وعهدهم راعون.﴾** هو أنّ المؤمن الذي تدّرج على طريق التعرّف إلى ربّه من الصلاة الخاشعة إلى الإعراض عن حياة اللّغو إلى فعل الزكاة إلى الحفاظ على فرجه، بحيث سار سيراً طبيعيّاً وأضحى عمله على هذه الفروض دستوراً لحياته اليومية. فابتدأ راغباً إلى الله إلى أن يأنس بوجوده ويجعل الله له ودّاً. ويتأهّل بذلك ليصبح محباً لربه ومحبوباً عند ربه. فيصبح عندئذٍ مستعدّاً للتخلّي عن أيّ نوعٍ من أنواعِ الجهالة، ويُحسن رُجوعه إلى ربّه قائماً بجميع أماناته المفروضة عليه وعاملاً على جميع وصاياه التي أوصاه بها محبوبه وإلهه بلا استثناء. على اعتبار أنّ هذا المؤمن قد بلغ سنّ رشده الروحي، وعاد مسؤولاً عن أقواله وأفعاله وبصورة قانونيّة.

فإن نحن حاولنا تفسير القرآن بالقرآن. بإمكاننا القـول: إنّ هـذا المؤمن صارع نفسه الأمّارة بالسّوء، فتجاوزها إلى مرحلـة النّفس اللّوامـة. حيث كـان يبدر منه خلال مراحل الرغبة والأنـس والـودّ سـقطاتٌ وضعفٌ دون قصـدٍ منه لحداثة كيانه الرّوحي، فتلومه نفسه على مايبدُر منه من سقطاتٍ وضعف. أقول: إنّ هذا المؤمن الذي تجاوز مرحلتي النّفس الأمارة بالسّوء والنّفس اللّوامة، وماعـاد من (العادون) الذين يتجاوزون حدود الله المرسـومة لهـم ليسـيروا عليهـا بشـكلٍ طبيعي. إذا بلغ هذا المؤمن آخر مراحل نفسه اللّوامة. يدخل سنّ رشـده وتُصبح نفسه التي جذبت إليها محبّـة ربّهـا عزوجـلّ مطمئنّـةً بهـذا الـرّب الإلـه المحبوب، فلايعود يبدر عن هذا المؤمن خيانة لأماناته المفروضة عليه في كتـاب الله الفرقـان العظيم، ولايعود يبدر عنه أيّة مخالفـة لوصايـاه عزوجـلّ الـتي أوصـاه بهـا في هـذا القرآن الكريم. ذلك لأنه بلغ سـنّ رشـده الروحـي مـن جهـة. ودخـل في الذيـن يحبّهم الله ويحبّونه من جهة أخرى. وماعاد له رجوع إلاّ إلى ربّه عزوجـل وفـق قوله تعالى: ﴿**ياأيّتها النّفس المطمئنّة ارجعي إلى ربّك راضيـةً مرضيّـة، فـادخلي في عبادي وادخلي جنتي.**﴾ الفجر ٢٨.

وبإمكاننا تشبيه صاحب النّفس المطمئّنة بالسّـمك الـذي لايعيـش إلا في الماء. أي أنّه يعود على درجة من الانجذاب نحو ربّه بحيث لايعود يجـد سـلواناً إلا في أحضانه.ويعود على درجةٍ من تقوى الله بحيث يُشار إليه بالبَنان. لاتبدّل عنـه خيانة لأماناته، ولانكوث عن العمل بوصايا ربّه عزوجلّ، أي أنّ كلمة (راعـون) استعملت في هذه الآيات من سورة (المؤمنون) في مقابل كلمة (التّقوى) في بقيّـة الآيات من كتاب الله تعالى وتحمل نفس دلالة التّقوى من حيث الموضوع والغاية معاً.

وهذا الفريق المؤمن الذي بلغ النّفس المطمئّنة وهذا الحـدّ مـن تقـوى الله تعالى. وصفه جل شأنه أيضاً بقوله: ﴿**والذين هم على صلواتهم يُحـافظون.**﴾. أي أنّه قبل هذه المرحلة قد يبدر عنه خلال أدائه لصلواته المفروضة ضعـف وتـرك وتقصير . أمّا إذا بلغ سنّ رشده الرّوحي، فلايعود يبـدر منـه مثـل هـذا الضعـف والتّقصير عن قصد ولاعن غير قصد. ويكون بذلك من الذين هم على صلواتهـم يُحافظون.

ولاينبغي أن نأخذ كلمة (صلواتهم) هنا دلالتها على الصّلاة المفروضة وحسب. بل من واجبنا أن نفهم هذه الكلمة هنا بدلالتها الأشمل. دلالتها على الصلوات المفروضة وعلى الذكر الإلهيّ المطلوب في الآية (١٩١) من سورة آل عمران: ﴿**الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، ويتفكّرون في خلق السموات والأرض ربّنا ماخلقت هذا باطلاً، سبحانك فقنا عذاب النار.**﴾. أن نفهم دلالة قوله تعالى ﴿**على صلواتهم يحافظون**﴾ على الصلاة المفروضة وعلى الذكّر الإلهي المطلوب من المؤمن من هذه الآيةمن سورة آل عمران، بقرينة أنّ مقام المحبّة يقتضي ألاّ يغيب هذا الرّب المحبوب عن أعين هذا المؤمن المحبّ لربه. فهذا قانون أساسيّ يقوم عليه موضوع المحبّة نفسه.

فالمؤمن الذي لايخون أماناته ولايترك وصايا ربّه دون العمل بها، والذي يؤدّي صلواته المفروضة عليه بخشوع تام، ويعيش على ذكر ربه عزوجلّ، هو من الوارثين الرّوحيين الذين نصّت على تسميتهم الآية ﴿**أولئك هم الوارثون. الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون.**﴾ وهذا المؤمن وهو في هذا المقام الأخير من عِرفان ربّه، يُحدث الله عزوجلّ في كيانه الداخلي الرّوحي تبدُّلاً محسوساً، ويُنشئه نشأة أخرى روحيّة في مقابل النشأة الأخرى الجسمية فتبارك الله أحسن الخالقين. وهذا المقام هو المقام الذي اصطلح القرآن على تسميته بالنفخ في الرّوح.

وحين نصل إلى هذا الحدّ من البيان، نشعر بضرورة الكلام على الذكر الإلهي الذي يشمله قوله تعالى: ﴿**والذين هم على صلواتهم يحافظون.**﴾.



الباب الثالث

الفصل الأول

أولاً ـ الذكر الإلهي وتعريفه:

لابدّ أنّنا علمنا من خلال قوله تعالى: ﴿**والذين هم على صلواتهم يحافظون. أولئك هم الوارثون.**﴾ أنّه تعالى وَضّح لنا السّمة التي تميّز العارفين به ومحبوبيه عن سواهم من المؤمنين السالكين. كما علمنا أنّ (صلواتهم) كلمة لم يُقصد بها الصلوات الخمس المفروضة وحدها، بل وشملت الذكر الإلهي بجميع أشكاله.

فالصلاة في اللغة تعني الدّعاء المؤطّر بحركاتٍ وأدعية وتلاوات وتسابيح ورموز وتعابير. فهي شكل من أشكال الذكر الإلهي الذي هو مجرّد أدعيةٍ ومناجاة بأشكال متعدّدة نبّهنا إليها القرآن المجيد، وميّزنا بها عن أتباع بقيّة الديانات.

ثم إن القرآن الكريم أطلق على الصلاة مصطلح الذكر الإلهي وذلك في الآية الثامنة من سورة الجمعة التي قال تعالى فيها: ﴿**ياأيها الذين آمنوا إذا نودي إلى الصّلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله..**﴾ وماقال فاسعوا إلى الصّلاة. تنبيهاً لذهن هذا المؤمن إلى أن الصّلاة ماهي إلا شكل مؤطّر من أشكال الذكر الإلهي، ليس إلا. وإلا فللذكر الإلهي أشكال أخرى غير الصّلاة. أفلم يُعلّمنا محمد رسول الله (ﷺ) أن نَدعو مع كل حركة وضوء بدعاء؟ مثلا ندعو مع غسل وجوهنا "اللهم بيضّ وجهي يوم تسودّ الوجوه" فهذا شكل من أشكال الذكر الإلهي. وأو لم يعلّمنا القرآن الكريم ألاّ نتناول شيئاً لنأكله إلا بعد أن نقول "بسم الله الرحمن الرحيم" فهذا شكل ثالث من أشكال الذكر الإلهي. هذا وإن كل دُعاء ندعو الله تعالى به ونتوسّل إليه عن طريقه فهو ذكر إلهي وصلاةٌ أيضاً. على اعتبار أنّ الصلاة هي الدعاء في لغة الضّاد.

ثم إنّ الآية من سورة الجمعة التي استعملت للصلاة مُصطلح الذكر الإلهي، هي نفسها نبّهت ذهن هذا القارىء إلى وجود أشكالٍ أخرى للذكر

الإلهي. حيث أنّ تتمة الآية: ﴿**فإذا قضيت الصّلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله، واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون.**﴾ أي أنّ هذا طريق الفلاح أيضاً.

وقد ظنّ فريق المتصوّفة أنّ ذكر الله هو أن يجلس المرء يردّد اسم الله بمئات وألوف المرّات. في الوقت الذي لم يتدبّروا فيه موضوع الذكر الإلهي على ضوء سيرة سيّد المرسلين محمد (ﷺ) والمُعتبر شرعاً أعظم الذاكرين. فلم يرد عنه (ﷺ) أنّه جلس يمضي ساعات يردّد اسم الله عزوجلّ. بل رسم للمؤمنين منهجاً لذكر الله وكان بهذا المنهج الأسوة الحسنة للذّاكرين وهو ماسآتي على بيانه في حينه.

والمُتصوّفون ظنوا من قول الله تعالى في الآية (٤٥) من سورة العنكبوت: ﴿**اتلُ ماأوحي إليك من الكتاب وأقم الصّلاة، إنّ الصّلاة تنهى عن الفحشاء والمُنكر، ولذكر الله أكبر، والله يعلم ماتصنعون**﴾، أفضلية الذكر وأفضليّة ترديد اسم الجلالة (الله) على الصّلاة، ودليلهم قوله (ولذكر الله أكبر). وذهبوا هذا المذهب لعدم أخذهم بأصول تفسير القرآن الكريم من جهة، ولعدم تدبّرهم دلالات الآيات من سورة المؤمنون.

فمن حيث الأصول، لابدّ من تفسير القرآن بالقرآن وإلاّ يقع المتدبّر لآيات الله في متاهات وانحرافات. فهذه الآية من سورة العنكبوت تفسّر الآية (٤١) من سورة آل عمران: ﴿**الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم..**﴾ وتنبه المؤمن إلى أن المواظبة على إقامة صلواته الخمس المفروضة عليه ليست بكافية بل وتُعدّ الصلاة أحد أشكال الذكر الإلهي.

وأن من واجبه أن يذكر الله في جميع أحواله ووفق المنهج المحمدي الذي استنّه لنا رسول الله (ﷺ) فذكر الله على هذه الشاكلة أي الجمع بين الصلوات الخمسه وبين الذكر وفق المنهج المحمدي هو " أكبر" من اقتصار هذا المؤمن على أداء صلواته المفروضة عليه.

ثم إن الآيات من سورة المؤمنون، على حين كان أولها ﴿**قد أفلح المؤمنون. الذين هم في صلاتهم خاشعون.**﴾ جاء آخرها يقول ﴿**والذين هم**

على صلواتهم يحافظون. أولئك هم الوارثون.﴾. و لم يكن المقصد بذلك تذكير المؤمن ضرورة محافظته على صلواته المفروضة. فهذا أمر استوفته آية ﴿**الذين هم في صلاتهم خاشعون.**﴾ لكون المواظبة من مستلزمات أداء الصّلاة. بل كان المقصد من قوله: ﴿**والذين هم على صلواتهم يحافظون.**﴾. المحافظة على "ذكر الله كثيراً" غير الصلوات المفروضة المشار إليها في الشطر الثاني من آية سورة الجمعة التي أوردناها، وليصبح هؤلاء الذين يحافظون على صلواتهم بجميع أشكالها من الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، فيستوفون بذلك الأصل الثاني الذي تقوم عليه المحبّة الإلهية وهو ألاّ يعود الله تعالى يغيب عن أعين هؤلاء العارفين له والمحبين والمحبوبين.

واستناداً إلى ماذكرناه بإمكاننا وضع مفهوم للذكر الإلهي الذي حثّ عليه كتاب الله القرآن، وهو أنّ المقصود بذكر الله هو الدّعاء والتوسّل بين يدي ربّنا عزوجل ومناجاته بوسيلة أسمائه الحُسنى بأشكال مختلفة منها الصلاة المفروضة، ومنها الأدعية المسنونة في القرآن وماوصلنا من أدعية رسول الله (ﷺ) تتعلّق بكل وضع من أوضاعنا.معتقدين اعتقاداً يقينياً أنّ ذات الله تعالى تحمل هذه الأسماء الحسنى وتتصف بها، وهي وسيلتنا لاستجابة دعواتنا كلّ حين.

ثانياً. فلسفة الذكر الإلهي:

وقبل أن أتناول بالذكر توضيح الفلسفة التي أُسِسَ عليها تعليم الذكر الإلهي في الإسلام. أجد من المناسب التّنبيه إلى أنّ الذّكر الإلهي لايؤتي ثماره إلاّ إذا كان الذّاكر تقيّاً، وأن تتّصف سلوكيته اليومية بالصلاح والاستقامة، وفق ماطالبت به الآيات من سورة المؤمنون.

هذه الآيات التي طالبت المؤمن السالك درب معرفة ربّه أن يؤدي صلواته المفروضة بخشوع مااستطاع، ويتدرّج فيهجر كلّ شكل من أشكال اللغو وحركاته وألفاظه. فإذا ماتميّز بذلك عوّد نفسه على التضحية المالية بجميع أنواعها. فإذا اعتاد فعل الزكاة يسعى لحفظ فرجه إلى حدّ العفّة والشرف، محاولاً وقاية نفسه من جميع أمراض النّفاق. ويكون بذلك كلّه قد أعدّ نفسه ليصبح

عارفاً با لله، ومحبوباً من محبوبيه، فيحافظ بصورة تامّة وقتئذ على أماناته وعهوده التي قطعها مع ربّه ويكون من الذّاكرين الله، والذين لايغفلون عن وجود ربّهم وملاحظة تصرّفاته في جميع أحوالهم قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم فلا ينبغي للمؤمن أن ينسى مانبّهته إليه ووضّحته له في هذا المقام.

والآن أتناول الكلام عن فلسفة الذكر الإلهي وأقول: إنّ كلّ إنسانٍ بإمكانه إدراك وتبيّن الأساس والفلسفة التي تأسّس عليها موضوع الذكر الإلهي سواء بنفسه أو بالأسلوب العلمي. فبالتجربة الذاتيّة يتّضح لنا أن لأصواتنا وأفكارنا آثارها التي تتركها في مخيّلتنا. فالذي يدأب على ذكر شيء بلسانه يعود يفكّر به، فتنتقش صورة هذا الشيء في مخيّلته إلى أن يأتي عليه وقت يشعر فيه أنّه أصبح لهذا الشيء الذي دأب على ذكره والتفكير به صورة في مخيّلته. حتى وأنّه يتراءى هذا الشيء أحياناً لهذا الإنسان في منامه أيضاً.

والعكس هو الصحيح. فالشيء الذي نكره ذكره، نحاول تناسيه، وتغيب مع الأيام صورته من مخيّلاتنا. فهذه حقيقة لابدّ أن يكون قد جرّبها أكثر الناس بصورة عملية. وعلى هذه الحقيقة العلمية تأسست فلسفة الذّكر الإلهي بجميع أشكاله الإسلامية.

هذا وإن الذكر الإلهي يخلق حالة خشوع في نفس الذّاكر حالة خشوع على حين أنّ الأغنيات تترك حالة الطرب. حتى أن الأفاعي تتمايل طرباً إذا عودتها هذه العادة على عزف النّاي. وقد وصف القرآن الكريم أحوال الذاكرين الخاشعين ، الأمر الذي سبق لي أن وضّحته وقت التحدّث عن الصّلاة الخاشعة.

ولنعد إلى كتب السيرة فماحدث أنّ رسول الله (ﷺ) جلس يذكر ربّه بطريق الإنشاد أو الرّقص أو الصياح أوالمزمار. ولاعن طريق الإغماء وهزّ الرؤوس وسواها من حركات المتصوّفين المعاصرين. ولايتعارض ذكر الله أن يستمع رسول الله (ﷺ) لشعر حسّان بن ثابت الذي كان يعظمه ردّاً على قصائد المشركين.

ألا إن القرآن الكريم استعمل لحالة الوجد التي يولّدها الذكر الإلهي في الصلاة الخاشعة وفي بقية أشكال الذكر في نفس الذّاكر عدّة ألفاظ هي :

(وَجلت، تقشعر، تلين جلودهم، سُجّداً وبكياً.). وإن جميع هذه الألفاظ لاتفيد مايفعله الطرب في نفس المطروبين من حركة واضطراب. بل تفيد من حيث دلالاتها اللغوية معاني السّكون واللطافة والهدوء. وهذا أمر بإمكان النحويين تدبّره بشكل جيّد ليُدركوا حقيقة ماذكرت.

من هذا ندرك أنّ مايقوم به المتصوّفون في زماننا من حركات في مجالس ذكرهم، إنّما هو أبعد مايكون عن تعاليم القرآن الكريم. خصوصاً وأنّ الله عزوجلّ قد أنزل هذا القرآن ليقوم بتعاليمه ضعف عقولنا وليضع أرجلنا على الصّراط المستقيم. و لم يُنزل الله هذا القرآن ليذهب بعقولنا وبصوابنا وليُظهرنا بمظهر الجهالة والطّيش. ومن منّا لايدري أن رسول الله (ﷺ)عندما فقد ابنه إبراهيم لم يبلغ حُزنه عليه حدّ الصيّاح والعويل؟

وهكذا ندرك معالم الفلسفة التي تأسّس عليها مبدأ الذكر الإلهي فذكر الله ينقش في مُخيلّة هذا المؤمن الذّاكر صورة زاهية عن الصّفات التي تتصّف بها هذه الذّات الإلهية التي يقوم على عبادتها. فترسم أسماء الله الحسنى في مخيّلة هذا المؤمن الذاكر صورة لما تحمله الذات الإلهية من قدراتٍ لايطالها خيال المرء، ولاتحدّها حدود. ويتعرّف عن هذا الطريق إلى محبوبه الذي يسير على درب عِرفانه الطويل.

ثالثاً ـ أشكال الذكر الإلهي :

والذي يتدبّر كتاب الله يتبيّن له أنّ وجود أربعة أشكال لذكر الله عزّوجلّ. وقد أمر الله المؤمن السّالك درب عرفانه أن يذكره بهذه الأشكال للذكر. فإن لم يفعل ذلك، وابتدع من عند نفسه طرقاً وأشكالاً أخرى يحسب أنها تؤدي إلى عبادة الله تعالى فقد استوجب الحرمان من معرفته، وإنزال العقاب به على معصيته، وحرمانه من الفوز بالأجر الكريم الذي وعد الله تعالى به عباده المؤمنين المُتّقين. أمّا إذا ذكر ربّه بهذه الأشكال من الذكر الإلهي فُتّحَت له أبواب العروج الروحاني، وهذه الأشكال هي:

١. الصلاة ذكر إلهي :

نصّت على هذا الشكل من ذكر الله تعالى الآية الرابعة عشرة من سورة طه، والتي خاطب الله جل شأنه رسوله الكريم فيها آمراً إيّاه بقوله: ﴿**وأنا اخترتُك فاستمع لما يُوحى. إنّني أنا الله لاإله إلاّ أنا فاعبدني، وأقم الصّلاة لذكري.**﴾. ذلك أنّ سورة طه نزلت في مكة المكرّمة في السنوات الأولى للدعوة الإسلامية ، وأوجب تعالى بها على المؤمنين ذكر الله بالشكل المعروف باسم الصّلاة المؤطّرة بالحركات والأذكار المعلومة. علماً بأنه تعالى أتى بلام الاختصاص فأدخلها على كلمة ذكري وقال ﴿**وأقم الصلاة لذكري**﴾ منبّها بذلك إلى أنّ الصلاة المفروضة تعتبر في نظره تعالى شكلا من أشكال ذكر الله عزوجل.

وحينما أوجب الله تعالى على المؤمن صلاة خمسة أوقات في اليوم ، فكأنه أمر هذا العبد أن يفرّغ نفسه في هذه الأوقات ليذكر ربّه بهذا الشكل من أشكال الذكر الإلهي وعليه فقد سُميّت الصلاة ذكراً إلهياً في سورة طه التي كانت من أوائل مانزل من سور قرآنيةٍ في مكّة المكرّمة. هذا النّص ورد حسب ترتيب نزول القرآن المجيد. فإن نحن عُدنا إلى ترتيب تلاوة.هذا القرآن نُلاحظ نفس مالاحظناه في سورة طه. فقد سُميّت الصّلاة في سورة البقرة أيضاً ذكراً إلهياً. أفلم نقرأ الآية (٢٣٨) التي يقول تعالى فيها: ﴿**حافظوا على الصلوات والصّلاة الوسطى وقوموا لله قانتين، فإن خفتم فرجالاً أو رُكباناً، فإذا أمنتُم فاذكروا الله كما علّمَكُم مالم تكونوا تعلمون.**﴾؟ فهاهو جلّ شأنه قد استبدل لفظ الصلاة هنا بقوله: ﴿**فاذكروا الله كما علمكّم مالم تكونوا تعلمون.**﴾ فلم يقل فإذا أمنتم فصلّوا. أو أدّوا فرض الصلاة. بل قال (فاذكروا الله) وسمّى الصلاة بذلك ذكراً إلهياً منبّهاً جل شأنه إلى أن هذا الشكل من ذكره ماعلمت البشرية مثيلاً له في تاريخها الطويل.

٢. تلاوة القرآن ذكرٌ إلهي : وإن نحن عُدنا إلى سورة الحجر، وقرأنا قوله تعالى: ﴿**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون.**﴾ لابُدّ أن يخطر ببالنا سؤال وهو لماذا أتى الله تعالى في هذه الآية بكلمة الذّكر و لم يقل (إنا نحن نزّلنا القرآن) وهو الاسم المشهور لكتابه العزيز؟ والحكمة من ذلك تنبيه عقولنا إلى ضرورة

ذكر الله تعالى عن طريق تلاوة آيات القرآن الكريم. ذلك أن تلاوة القرآن تعدّ وفقاً لهذا النّص القرآني، شكلاً ثانياً من أشكال الذكر الإلهي.

وهذا الشكل الثاني من الذكّر وهو تلاوة شيئ من آيات القرآن الكريم يُعدّ شكلاً مباركاً من أشكال الذكر الإلهي. أفلم نقرأ الآية (٥٠) من سورة الأنبياء التي قال تعالى فيها: ﴿**وهذا ذكرٌ مباركٌ أنزلناه، أفأنتم له مُنكرون.**﴾؟ فها أنّ هذه الآية من سورة الأنبياء صرحت بهذا الشكل الثاني لذكر الله وأطلقت عليه صفة ذكر مبارك أيضاً. وهذا النصّ يؤيد ماأوردته الآية من سورة الحجر التي قال تعالى فيها ﴿**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون.**﴾.

وعليه فإنّ المؤمن الذي يعتاد أن يتلو شيئاً من القرآن يومياً، فهو يذكر ربّه يوميّاً بهذه التّلاوة وتحفّ به الملائكة أيضاً الأمر الذي تشير إليه كلمة (مبارك)، فهذا من بركات تلاوته لآيات القرآن الكريم. وكثيرة هي أحاديث رسول الله (ﷺ) التي تفيد هذا المعنى الذي ذكرت.

٣ ـ التوسّل بأسماء الله الحسنى ذكر إلهي : وهناك شكل ثالث لذكر الله نبهتنا إليه آيات كثيرة. إحداها الآية (٢٠٥) من سورة الأعراف التي قال الله تعالى فيها: ﴿**واذكر ربّك في نفسك تضرُّعاً وخيفةً ودون الجهر من القول، بالغدّو والآصال ولاتكن من الغافلين. إنّ الذين عند ربّك لايستكبرون عن عبادته، ويسبّحونه، وله يسجدون.**﴾. فإن تساءل القارىء عن ماهيّة هذا الذّكر؟ تجيبه الآية (١٨٠) من سورة الأعراف: ﴿**و لله الأسماء الحسنى فادعوه بها، وذروا الذين يُلحدون في أسمائه، سيُجزون ماكانوا يفعلون.**﴾ أي إذا تساءل المؤمن :كيف أذكر الله في نفسي تضرُّعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدّو والآصال كيلا يُعدّ في نظر ربّه من الغافلين. الجواب هو أن يفترض نفسه في جميع أحواله واقفاً بين يدي ربّه الذي يفتح له خزائن عطائه، فليغتنم هذه الفرص السانحة له وليذكر ربّه بالدّعاء منه عن طريق توسُّلِهِ بأسماء الله الحسنى طمعاً في عطائه وخيفة أي خشية من بقائه بعيداً عن ربّه ومن غير المُقرّبين، وليكن توسّله ودعاؤه هذا دون الجهر من القول لايسمعه أحدٌ سواه، وبالغدّو والآصال أي في جميع الأوقات السانحة له من الصباح إلى المساء.

وهذا الشّكل من الذّكر مطلوب من المؤمن بإلحاحٍ من الله جلّ شأنه نفسه أفلم نقرأ التهديد الذي وجّهه الله تعالى لهؤلاء الغافلين عن هذا الشكل من ذكر الله تعالى وذلك في الآية (٣٦) من سورة الزخرف، قوله: ﴿**ومن يعشُ عن ذكر الرحمن نُقيّض له شيطاناً فهو له قرينٍ.**﴾؟ وإلى هذا الشكل من الذّكر أشار قول الله تعالى في سورة النور: ﴿**رجالٌ لاتلهيهم تجارة ولابيعٌ عن ذكر الله وإقام الصّلاة وإيتاء الزكاة، يخافون يوماً تتقلّب فيه القلوب والأبصار.**﴾.

٤ ـ الدعوة إلى سبيل الله ذكر إلهي : ونحن إذا عُدنا إلى السّور الأوائل التي نزلت في مكة المكرمة، نلاحظ أنّ الله عزوجلّ أمر رسوله الكريم في سورة المدثّر قائلاً: ﴿**ياأيّها المدّثر. قم فأنذر. وربّك فكبّر.**﴾ ففي (محيط المحيط) كبّر الشيء عظّمه وجعله كبيراً في أعين المخاطبين. وفي هذه الآية الكريمة توجيه إلى شكلٍ رابع من أشكال الذكر الإلهي وهو القيام بدعوة الناس إلى دين الله والتدليل على عظمته تعالى وماتحمله ذاته من أسماء حسنى، حاثّاً النّاس على الإيمان بالله والتخلّق بصفاته عزوجلّ. هذا وإنّ كلّ خطوةنقوم بها على طريق الدعوة إلى سبيل الله تعالى، هي بمثابة ذكر الله في عُرف القرآن الكريم. ومن البديهي القول إنه لايستطيع تعريف الناس على الله تعالى بشكل صحيح إلا المؤمن العارف بالله والمتعامل معه والذي تُستجاب أدعيته، ويحظى ببشارات الله وتعليمه وأعطياته.

رابعاً ـ كيف نذكر الله تعالى؟

ومادمنا قد اطلعنا على الأشكال الأربعة للذكر الإلهي التي أتى بها كتاب الله نفسه، وماكانت من اختلاق أحدٍ من النّاس. فلابد أن تتوق نفس المؤمن لمعرفة الوجه التطبيقي لهذه الأشكال المذكورة. خصوصاً وأنه عاد يعيش في عصرٍ فسدت فيه مجتمعات المسلمين، وفقدت بذلك أسوة سيّد المرسلين (ﷺ).

أولاً ـ أما مايتعلّق بالشكل الأوّل للذكر وهو المعروف بالصّلاة التي هي مجموعة أذكارٍ مؤطّرة، بحركاتٍ وقراءات وتعابير. والمنسّقة تنسيقاً فنيّاً

رائعاً يزيدها تأثيراً وفعالية. الصّلاة التي منها الفروض ومنها السّنن ومنها النّوافل. فإن بعض جهلاء المسلمين المعاصرين يفرّقون بين صلاة فرض وصلاة سُنة، ويتكاسلون في القيام بصلوات السّنن وكأنّها تقلّ منزلة عن صلاة الفرض. ومُشعراً كأنّ رسول الله (ﷺ) قد أثقل كاهل أمتّه بما استنّه من ركعات إضافية على صلوات الفروض.

هذا الأمر يدعوني لتبيان أعظم حكمة في هذا المجال. وهذه الحكمة يدركها المؤمن الذي يوجّه إلى نفسه سؤالاً وهو: هل يؤدي في حقيقة أمره جميع ركعات صلوات الفروض بخشوع وعلى حسب ماأقره ربّه به؟ أم أنّه يزيغ في بعض الرّكعات؟ وقد علم هذا المؤمن أنّ الصلاة الإسلامية هي غذاء رواحي يتغذّى به من بعد ولادته الروحيّة عن طريق إيمانه وبيعته، على شاكلة مايتغذّى الرّضيع بحليب ثدي أمّه.

فالمؤمن يستحيل عليه في بادىء الطريق أن يخشع بصورة صحيحة في جميع ركعات الفروض. ويكون بذلك مثله كمثل الرّضيع الذي لايُشبعه حليب أمّه ويحتاج إلى وجبةٍ إضافية من حليب البقر أو سواه، ليسدّ بذلك حاجته من الغذاء كيلا يُصاب بأمراض سوء التغذية.

وقد استن محمد رسول الله (ﷺ) لأمتّه هذه السّنن التي وصلتنا بالتواتر عنه؛ لتقوم هذه السنّن بنفس ماتقوم به وجبات الحليب الإضافية، فتسدّ مسدّ الزيغ الحاصل في صلاة الفرض، وبما يناسب كل وقت من الأوقات المكتوبة للصّلاة، فالسنّن تساعد المؤمن على صيانة نفسه من سوء التغذية الروحي ومن شرور الأمراض التي يسفر عنها.

هذا هو الأمر الذي أخذه محمد العظيم (ﷺ) بعين الاعتبار، لذلك استّن لكل فرضٍ من السُّنَن مايعوّض نقص الخشوع المطلوب، وبما يناسب الأوقات أيضاً. أي أنّ المؤمن الذي خشع في ركعتين من ركعات الفرض، وزاغ فكره على سبيل الفرض في ركعة ثالثة، وعاد فخشع في الركعة الأخيرة، لايكون كيانه الروحي قد استوفى نصيبه من غذائه الرّوحي الذي قدّره له ربّه.

فإذا صلّى السّنن التي استنّها له رسول الله وهو الأسوة الحسنة له، يعوّض بهذه السّنن النّقص الحاصل، وقد يفيض. ولايُخشى من الغذاء الروحي الفائض، فهو خيرٌ ونافلة. على حين تُحدث كمية الغذاء المادي الفائضة تُخمةً في المعدة. وهذا الفارق بين الغذاء الرّوحي والغذاء المادي من حيث الكمية، يحدُثُ بسبب اختلاف الماهيّتين والقوانين الناظمة لهما. ذلك أنّ النمو الروحي، لن يقف عند حدود، لذلك يكون المؤمن من الخالدين في الحياة الأخروية الجنّتية. وإن اختلاف القوانين الناظمة لكلا الكيانين يتجلّى في حالة النوم، حيث يقوم النائم بما يستطيع القيام به في يقظته.

من هذا ندرك عظمة الحكمة التي دفعت محمداً سيد المرسلين ليستّن لنا هذه السّنن التي هي بمثابة الأجنحة لصلوات الفروض. وبذلك فقد أحسن هذا الرّسول إلى أمته إحساناً عظيماً ستمتّد آثاره الروحية إلى يوم القيامة. وهذا الإحسان يدفع فؤاد كل مسلم سالك درب عرفان ربّه ليلهج بالصلاة والتّسليم عليه (ﷺ) مادام حيّاً اللهم صلّ وسلم وبارك على محمد إنّك حميد مجيد.

هذا وإن لصلاة النّافلة نفس فائدة صلاة السُّنة، وتعين هذا المؤمن أكثر على بلوغ أسمى مراتب الروحانية. وتصّح صلاة النوافل في الليل وفي النهار. إنّما أكدّت سورة المزّمل على نافلة الليل حيث قال تعالى فيها: **﴿إنّ ناشئة اللّيل هي أشدّ وطأً وأقوم قيلاً﴾**. ولفظ (أقوم) من قوّم الشّيء: عدّله وأزال عِوجه (محيط المحيط) أي أنّ ناشئة اللّيل، وهي صلاة نافلة الليل تفيد في تقويم نفس المؤمن وتحدث فيه انقلاباً روحياً، وتكسبه قُوّةً وطاقة روحية لايستطيع تحصيلها بأسلوبٍ آخر. لذلك كان صحابة رسول الله (ﷺ) رضوان الله عليهم يواظبون على صلاة التهجّد. حتى أنّه ورد أنّ رسول الله (ﷺ) كان يتفقدّهم ليعلم من منهم يقوم للتهجّد، ومن منهم يتكاسل عن أدائها. وقد ثبت من أحاديث رسول الله (ﷺ) أنّ الله تعالى يكون أقرب مايكون من

عباده في آخر حصّةٍ من اللّيل، حيث يتقبّل وقتهاكثيراً من أدعية الصالحين.

ثانياً ـ وأما الطريق العملي للشكل الثاني لذكر ا لله، وهو تلاوة القرآن الكريم. فلابد للمؤمن أن يضع في حُسبانه عّدة أمور. منها أنّ ا لله تعالى قد أمره بتدبّر كتابه العزيز في الآية (٨٢) من سورة النساء حيث قال: ﴿**أفلا يتدبّرون القرآن، ولو كان من عند غير ا لله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً.**﴾. ومعنى تدبّر القرآن: حاول تفهّمه والتفكير فيه والتأمّل فيما يرمي إليه، والتفكير في عواقب إهمال العمل على أوامره. (محيط المحيط).

ومن هذه الأمور التي ينبغي للؤمن التحسّب لها عند تلاوة شيء من القرآن الكريم هو أن ا لله الذي أنزل هذا القرآن اشترط توفّر أمرين اثنين لاستخراج لآلىء هذا القرآن ومعارفه وعلومه.

الأول تضمنّه قوله تعالى في الآية (٧٩) من سورة الواقعة: ﴿**فلا أقسم بمواقع النّجوم. وإنُه لقسمٌ لو تعلمون عظيم. إنّه لقرآن كريم. في كتابٍ مكنون. لايمسُّه إلا المطهرون. تنزيل من ربّ العالمين.**﴾. وقوله لايمسُّه أيّ لايصل إلى إدراك حقائقه وأسراره ومعارفه إلا المُطّهرون، و لم يقل إلا الطّاهرون. إشارةً منه تعالى إلى أن هذا المؤمن ينبغي أن يكون سائراً على درب عِرفانه تعالى متطهّراً من الوساوس والهواجس والتعلّق بالأغيار، وماعاد يذهل عن ا لله طرفة عين وأدّى حقوق الحق وحقوق الخلق.

والأساس الثاني تضمنّه قوله تعالى في آية الكرسي (٢٥٥) من سورة البقرة: ﴿**ا لله لاإله إلاّ هو الحيُّ القيّوم، لاتأخُذُه سِنةٌ ولانوم، له مافي السماوات ومافي الأرض، مَنْ ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه، يعلم مابين أيديهم وماخلفهم، ولايُحيطون بشيء من علمه إلاّ بما شاء، وسع كرسيُّه السموات والأرض، ولايؤودُه حِفظهما، وهو العليُّ العظيم.**﴾. وعلوم هذا القرآن من علم ا لله، فلا يستطيع أن يحيط بشيءٍ من علم القرآن إلاّ بما شاء صاحب هذا الكتاب. ومعنى أحاط به

علماً أي أدركه بكماله (محيط المحيط) بمعنى أنّ علم القرآن الحقيقي وبكماله لايتكشّف إلاّ على (المُطهّرون).

فإن أخذ المؤمن هذين الأساسين بعين اعتباره، كان عليه وهو يتلو القرآن بتدبّر أن يدعو ربه في قلبه أن يكشف له معارف وعلوم مايتلوه وعلى حسب مشيئته. وألاّ يُعجل في التلاوة لقوله تعالى في الآية (١٦) من سورة القيامة: ﴿**لاتُحرّك به لسانك لتعجل به.**﴾ فهذا هو أحد أوجه دلالات هذه الآية الكريمة. وأن يرتّل مايتلوه بصوتٍ يناسب الوقت والمقام لقوله تعالى في الآية الرابعة من سورة المزّمل ﴿.. **ورتّل القرآن ترتيلاً.**﴾.

ثم إنّ الله تعالى لم يحدّد لهذا المؤمن مقدار التلاوة، وترك الخيرة للمؤمن نفسه فالمؤمن هو الذي يقدّر ماتسمح له ظروفه به من تلاوة. وهو جلّ شأنه لم يحدّد وقتاً مُعيّناً للتلاوة. فالمؤمن يحدّد هذا التوقيت، إنّما من واجبه أن يواظب على التلاوة كلّ يوم بنفس المقدار ونفس التوقيت إلاّ أن يحول بينه وبين ذلك عُذْرٌ قاهر. والوضوء قبل التلاوة من أبسط ضرورات شرط (المطهّرون)، وهذا لايعني أنّ التلاوة لاتصّح بدون وضوء.

ونصيحه شخصيّة أنصح بها كل مؤمن مُبايع، وهو أن يعمد إلى مُطالعة مؤلّفاتي، وإذا ما أحاط من خلال قراءته لها بمعنى آية، فليدوّن على هامش هذه الآية في نفس القرآن الكريم الذي يحتفظ به للتلاوة، وإضافةً لذلك ليدّون اسم الكتاب ورقم الصفحة بجانب المعنى للرجوع إليها عند الضرورة، وليعينه ذلك في المستقبل على الإحاطة بالتّسلسل الموضوعي لآيات القرآن الكريم.

هذا، ولايعني هذا كُلّه ألا يُصغي هذا المؤمن لتلاوة سواه. بل لايمانع القرآن الكريم بذلك وعلى العكس اشترط على هذا المؤمن أن يستمع للتلاوة متدبّراً مايسمعه وينصتُ فلا يتكلم ولايلغو، ويحصل بذلك على رحمة من ربّه عزوجل أيضاً لقوله تعالى في الآية (٢٠٤) من سورة الأعراف: ﴿**وإذا قُرىء القُرآن، فاستمعوا له وأنصتوا لعلّكم**

تُرحمون.﴾. أمرنا تعالى بذلك الإنصات لتلقّي الأثر الرّوحي للتّلاوة، بسبب امتياز وحي الله بهذا الأثر على قول البشر.

ثالثاً - أمّا مايتعلق بالطريق العمليّ للشكل الثالث من الذكر الإلهي، الذي هو الدّعاء من الله تعالى بتوسّط أسمائه الحُسنى. فهذا الشكّل من الذكّر الإلهي قسمان: ذكر فروض وذكر نوافل.

فما يتعلّق بذكر الفروض، فمنه مانصّت عليه الآية (١١٨) من سورة الأنعام التي قال تعالى فيها: **﴿فكلوا ممّا ذكِرَ اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين.. ولاتأكلوا ممّا لم يُذكر اسم الله عليه، وإنّه لفسق، وإنّ الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم، وإن أطعمتوهم إنكّم لمشركون. أوَ مَنْ كان ميتاً فأحييناه، وجعلنا له نوراً يمشي به في النّاس، كمن مَثَلُه في الظّلمات ليس بخارجٍ منها، كذلك زُيّن للكافرين ماكانوا يعملون.﴾**. وتبعاً لمضمون هذه الآيات فلابد من البسملة على كل مايُريد المؤمن تناوله من الطعام كذكر فرضٍ واجب عليه، لأهميّته فهذا النّوع من الفروض يفيده في تنمية كيانه الرّوحي .

وقد شدّد الله تعالى على المؤمن الذي لايذكر ربّه مبتدئاً باسم الله كلّما تناول طعامه واعتبره فاسقاً عن أمره تعالى، الأمر الذي يوقع هذا الفاسق في مرض الشرك الخفيّ. ويُحرم بذلك من فضل البسملة التي تولّد له نوراً مع الأيام يمشي به في النّاس.

ومن أنواع ذكر الفروض مانصّت عليه الآية (٩٨) من سورة البقرة التي قال الله تعالى فيها: **﴿فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشْعر الحرام، واذكروه كما هداكم، وإنْ كنتم من قبله لمن الضّالين، ثم أفيضوا من حيث أفاض النّاس واستغفروا الله، إن الله غفورٌ رحيم، فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً. فمن الناس من يقول ربّنا آتنا في الدّنيا، وماله في الآخرة من خلاق. ومنهم من يقول ربّنا آتنا في الدّنيا حسنةً وفي الآخرة حسنةً وقنا عذاب النار أولئك لهم نصيبٌ ممّا كسبوا والله سريع الحساب. واذكروا الله في أيّامٍ معدودات، فمن تعجّل في يومين فلا إثم**

عليه، ومن تأخّر فلا إثم عليه لمن اتّقى. واتّقوا الله واعلموا أنّكم إليه تُحشرون.﴾. وتبعاً لمضمون هذه الآيات فإنّ من واجب المؤمن أن يدعو مااستطاع: ربّنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقِنا عذاب النار. والإكثار من هذا الاستغفار والدعاء عند المشعر الحرام، وبعد قضاء مناسك الحج لعدّة أيّام.وأن يقوم بهذا الاستغفار والدعاء بتضرّع بين يدي الله تعالى ، وكأن هذا المؤمن يطلب شيئاً من والده أو أشد ضراعة، فهذا ذكر فرض، فرضه الله تعالى على المؤمن الذي يؤدي مناسك الحجّ. وهذه الآيات نبّهت هذا المؤمن إلى أنّه إذا استغلّ حجّه للدعاء لأمور دنياه، ولم يستغفر ولم يدع بالدّعاء الذي علّمه إياه، فلا يستفيد من حجّه وهو ماله في الآخرة من خَلاق، بسبب أنه حرم نفسه من بركات هذا الذكر الفرض في الحجّ.

أما مايتعلّق بذكر النوافل. فهذه أذكار أورادٍ خصّها الله عزوجل بأوقاتٍ معلومة من كتاب الله تعالى. وهذه الأذكار تصون المؤمن من أن يصبح غافلاً عن ربّه عزوجلّ.

والذي يتدبر كتاب الله يفطن إلى ضرورة ذكر الله تعالى في أوقاتٍ خمسة حدّدتها الآية (١٣٠) من سورة طه، التي يقول تعالى فيها: **﴿فاصبر على مايقولون وسبّح بحمد ربّك قبل طلوع الشّمس وقبل غروبها، ومن آناء اللّيل فسبّح وأطراف النهار لعلّك ترضى.﴾**.

فذكر النّافلة المشتملُ على التّسبيح وحمد الله بتوقيته (قبل طلوع الشّمس) أي مابين بزوغ الفجر وحتى طلوع الشّمس. والوقت الثاني لهذا النوع من الذكر (وقبل غروبها) أي في فترة مابين أذان العصر وحتى غياب الشمس. وقد استعملت سورة الدّهر لهذين الوقتين كلمتي (بُكرةً وأصيلاً). حيث قال تعالى هناك: **﴿واذكر اسم ربّك بُكرةً وأصيلاً.﴾**.

والوقت الثالث لهذا النّوع من ذكر النافلة تضمنه قوله تعالى **﴿ومن آناء اللّيل فسبّح﴾** والآناء جمع إنو وهو الوقت أو السّاعة من الليل أو نصف الليل أو مايقاربه (محيط المحيط). أي ليخصّص المؤمن أيّ وقتٍ من أوقات الليل يشاء لذكر الله وتسبيحه وليداوم كلّ يوم على هذا الذكر.

والوقت المحدّد قرآنياً لذكر النافلة أيضاً تضمنّه قوله تعالى : ﴿**وأطراف النّهار**﴾. أي أنّ الدقائق الأولى من البكرة مع بزوغ الفجر، والدقائق الأخيرة من الأصيل قرب غروب الشّمس هي أصلح الأوقات لذكر الله وتسبيحه، وعلى المؤمن أن يستغل هذه الأوقات لذكر الله وتسبيحه.

وأضاف الله تعالى يقول: ﴿**لعلّك ترضى**﴾ مشيراً بذلك إلى أنّ ذكر الله في الأوقات الخمسة المذكورة له خواصه الروحية وهي غذاء كيان المؤمن الروحاني، وهي تجذب فضل الله تعالى على هذا الذاكر المسبح بحمد ربه عزوجلّ. ومع توالي الأيام والسنين يقطف ثمار هذا الذكر وفضله ويرضى حينئذ بهذا الذاكرون والمسبّحون بهذا الفضل الإلهي.

ولاننس هنا تدخّل محمد رسول الله (ﷺ) كعادته ولصالح أمتّه في هذا المجال أيضاً فهو حاول سدّ النّقص المُحتمل من جراء تفريط المؤمن في هذا الشكل الثالث من الذكر الإلهي، فعلّم أمتّه أذكاراً تعوّض ذلك. من هذه الأذكار أنّ المؤمن إذا فرغ من صلاته، عليه أن يجلس ليذكر ربه ويقول: (اللّهم أنت السّلام ومنك السّلام ياذا الجلال والإكرام). ويُتبع ذلك بقولهِ (سبحان الله) ثلاثاً وثلاثين مرّة. و (الحمد لله) ثلاثاً وثلاثين مرّة. و (الله أكبر) ثلاثاً وثلاثين مرّة. هذا بعد فراغه من كلّ صلاة. إذا كان يبتغي وجه الله وعِرفانه.

كما أنّ رسول الله (ﷺ) علّم صحابته أن يذكروا ربّهم في كلّ مناسبة من مناسبات تحرّكاتهم اليومية. فاستنّ لوقت مغادرة الدار ذكراً دعاءً. ولوقت العودة إليه ذكراً دعاءً. ولدخول الأسواق ذكراً دعاء. ولدخول المدن والقرى ذكراً دعاء وغير ذلك. وحثّ (ﷺ) صحابته على حفظ هذه الأذكار والأدعية لتدوم يقظة قلوبهم مع ربهم عزوجل فلا يُكتبون من الغافلين عن ذكره. ولابدّ من التّذكير في هذه المناسبة أنّ من واجب المؤمن الراغب معرفة ربّه أن يتدرّج في جميع هذه الأذكار بشكلٍ طبيعي وليس دفعة واحدة.

وليعلم أنّ كل شيء في هذا العالم خاضعٌ لقانون النشوء والارتقاء . فلا يتأتى كمال أيّ شيء دفعةً واحدة، ولايتعلّم الطالب فنّاً من الفنون في يومٍ واحد. ولابدّ من تعويدِ المؤمن نفسه وترييضها لتنسلك في هذا الإطار تدريجيّاً

وحسب استطاعتها. ذلك أنّ لكل إنسانٍ مقدرته واستطاعته وأهليته، كالمعادن لكلٍ منها خواصه واستطاعته.

وإنّ الذي يرغب التعرّف على ربّه الذي خلقه بخالص العزم والشّوق، ويثبت على درب العرفان الإلهي يعوضّه الله ربّه عن كل عقبةٍ تحول بينه وبين تحقيق أمنيته هذه حتى ولو كانت عقبة موت وفقدان ذاكرة أو عقل، ذلك أن الله ذو الفضل العظيم. وهذه الحقيقة مختبئة بين ثنايا قوله عز وجل **﴿لعلك ترضى﴾**. أمّا إذا ركب القنوط رأس هذا المؤمن فيئس من رحمة ربّه وعَشا عن ذكر الله، يُقيّض له الرحمن شيطاناً فهو له قرين.

ولاينبغي أن نُعطي أُذُنَنا فنصغي إلى متصوّفة زماننا الذين يطلبون الوجد والغرام واللّذة بذكر الله تعالى. فلا أصل في كتاب الله لما يطلبونه. بل إنّ الله جل شأنه خلقنا لعبادته تعالى. ومن واجب الذاكر ربّه أن يتعبّد ربّه بهذا الذكر على شاكلة مايتعبّده في الصلوات الخمس المفروضة. يتعبّد ربه بذكره إياه، موقناً أنّه يؤدي ماعليه من واجب الشّكر والثّناء على ربّه الذي خلقه وهداه سبيل عبادته ومعرفته.

وقد نبّهنا إمام زماننا إلى حقيقة وهي أنّ النّفس البشرية لاتستمّر على وتيرة واحدةٍ، بل تخضع لقانون طبيعي يهيمن على كل شيء في عالمنا الدنيويّ. وهو أنّ كل شيء يتراوح دوماً بين مدٍ وجزرٍ وانخفاض وارتفاع وتقدّم وجمود. ولهذا السّبب لابد أن تَمُرّ نفس المؤمن السالكُ درب عِرفان ربّه بمراحل انقباضٍ وانشراح يمتد كلٌّ منها أياماً تقصر وتطول.

فإن شعر هذا المؤمن بهذه الحالات، فهي مؤشّر صحّيٌ وليس بمؤشّرٍ مرضي، إنما على هذا المؤمن ألاّ يترك حدوث تفاوتٍ كبير بين هاتين الحالتين، ومن واجبه تدارك ذلك بإعادة النظر في تصرفاته اليومية والمؤثرات الخارجية وإجراء الإصلاح والتغيير اللازمين.

رابعاً - وأمّا مايتعلّق بالطريق العمليّ للشكل الرابع من الذكر الإلهي المتمثّل في الدّعوة إلى الله عزوجلّ وتعظيمه في أعين عباده، والذي حثّ عليه قوله تعالى في سورة المدثّر: **﴿ياأيّها المدّثر. قم فأنذر. وربّك فكبّر.﴾**. هذه

الآيات الكريمة التي تعني أن يامحمّدُ الـذي أعددتـك قُرابة عشر سنواتٍ في غـار حيراء، قم فأنذر وأعلم النا س بوجود ربّـك الـذي عرّفك على نفسـه وجعلـك العارف الأوّل با لله خالقك، وحذّرهم أيضاً من عواقب تكذيبهم لما تدعوهم إليه وقبل حلوله مخوّفاً إيّـاهم في هـذا الإبـلاغ. ﴿وربّـك فكبّر﴾. أي وضّح للنـاس ما لله من عظمة وقدرات، هذا على أساس أنّ الإنسان عدّو ماجهل.

فإن تســاءل امـرؤ كيـف يعظّـم عظيمـاً؟ أقـول: يعظّمـه بإطلاعـه علـى مايتّصف به هذا العظيم مـن صفـات بإمكانـه الاتّصـاف بهـا علـى سـبيل الظلّيـة ليصبح عظيماً. ويعدّد له ماقام به هذا العظيم من إنجازات، ويصـف مـالدى هـذا العظيم من خزائن وإمكانات.

وعليه فإن الأمر: ﴿وربّك فكبّر﴾. يُطالب المؤمن السالك درب عِرفـان ربّه، بتحقيق أمرين اثنين. الأمر الأول أن يُعدّ نفسه إعداداً قويمـاً فكـراً وسـلوكاً، فيؤهّل بذلـك نفسـه لحمـل عـبء الدعـوة إلى ا لله وتعظيمـه. والأمـر الثـاني، أن نُعرّف الناس على ربّنـا ومالـه مـن الأسماء الحسنى. وإثبـات أنّ ربّنـا هـو خـالق السموات والأرض ومالكها أيضاً.

وأنّـه هـو ا لله ربّ العـالمين الرحمـن الرحيـم ومـالك يـوم الدين. هـــذه الصّفات التي نمدحه ونثني عليه جل شأنه بها في كل ركعة من ركعات صلواتنـا. وعلى هذا المؤمن السالك أن يعرّف الناس علـى الإنجـازات الإلهيـة الـتي حصلـت بتجلّي صفاته الأربع التي ذكرناها. كذلك فإن من واجـب هـذا المؤمـن السّـالك التّحديث بنعمة ا لله الـتي أنعمهـا ويُنعمهـا عليـه منبّهـاً إلى أنّ طريـق عِرفـان ا لله الأكبر هذا مفتوح لجميع الطّالبين.

ولاننْـس أنّ محمـداً رسـول ا لله (ﷺ) وقـد تلقّـى هـذه الآيـات الـتي ذكرناها من ربّه. تلقّاها في زمان لم يكن العلم قد بلغ هـذا المبلـغ الـذي بلغـه في زماننا. أمّـا في عصرنـا هـذا فقـدْ توفّـرت لنـا مـن الأدلّـة العلميـة والأمثلـة الحيّـة والأسباب مايُيّسر للمؤمـن السـالك المعظـم لربّـه طريقـه ووسـائله، وهـاأنّ درب عرفان ا لله أمسى واضحاً للعيان، فياسعد المؤمن الذي يسخّر قلمه ومالـه لذكـر ا لله بهذا الشكّل الرابع من أشكال ذكر ا لله عزوجلّ، فيعظّم ربّه ويُكبّره ويتقرّب بذلك إليه، ويصبح بالتالي عظيماً في ظلّ ا لله الأعزّ الأكبر.

الفصل الثاني :
١ً - البركات الروحية للذكر الإلهي

محمداً رسول الله ﷺ يتلو علينا آيات الله ربّنا ويزكّينا ويعلمنا الكتاب والحكمة ويعلمنا مالم نكن نعلم عن طريقه. فهو تعالى أضاف بعد ذلك يقول: ﴿**فاذكروني أذكركم، واشكروا لي ولاتكفرون.**﴾ ومعنى اذكروني سبّحوني ومجّدوني (محيط المحيط) وقد علّمنا جل شأنه في كتابه العزيز أشكال الذكر الإلهي الأربعة التي أحطنا بها علماً.

والسؤال الذي يخطر ببال المؤمن هنا: مامعنى ومالمقصود من قوله تعالى (أذكركم)؟ والحقيقة هي أنّه تعالى أوجز في هذه الكلمة بركات الذكر الإلهي، وراح ففصّل هذه البركات التي يحصل عليها الذّاكرون في مقامات عدّة من كتابه العزيز.

فالصّلاة، التي تمثل الشكل الأول لذكر الله تعالى. نبهّت الآية (٤٥) من سورة العنكبوت إلى بركات هذا الشكل من الذكر الإلهي ، حيث قال تعالى : ﴿**اتل ماأوحي اليك من الكتاب، وأقم الصّلاة، إنّ الصّلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ولذكر الله أكبر، والله يعلم ماتصنعون.**﴾.

فإن أمعن المؤمن نظره في ألفاظ هذه الآية الكريمة وتدبّرها، يصل إلى أنّ الله ربّه قد وضع بين يديه عصاً غليظة ليطرد بها الشيطان عن نفسه. فبالصّلاة يطرد شرود ذهنه نحو الأمور التافهة، ويطرد بالصلاة نوازع السّوء، والميول الدّنيئة، وبالصّلاة يصدّ هجوم شهوات جسده التي تبعده عن ربه وتقواه. فالمؤمن الذي يصلّي صلاةً خاشعة بشروطها التي سبق أن بيّنتُها، يحصد جميع هذه البركات.

وتلاوة القرآن الكريم التي تمثّل الشكل الثاني للذكر، لها بركاتها أيضاً. ونبهتنا إلى هذه البركات الآية (٥٠) من سورة الأنبياء التي قال تعالى فيها: ﴿**وهذا ذكرٌ مباركٌ أنزلناه، أفأنتم له منكرون؟**﴾ بمعنى أن لتلاوة القرآن الكريم

بركاتها. هذه البركات التي تضمّنتها كلمة (مبارك) التي وصف جل شأنه بها كتابه العزيز. والمؤمن الذي يجلس يتلو شيئاً من هذا الذكر بالشروط التي سبق أن بيّناها، وبحضور ذهنه وفؤاده تحفُّ به ملائكة الله ويقطف من ثمار هذه البركات.

وذكر الله تعالى بأسمائه الحسنى وتسبيحه وتمجيده في الأوقات التي حدّدها، وهو الشكل الثالث للذكر الإلهي، تعرّضت لبيان بركاته آيات عدّة من كتاب الله العزيز.

من هذه البركات أن تسبيح الله وتمجيده يكسب المؤمن الذّاكر روح الصمود تجاه الأزمات التي تواجهه في حياته اليوميّة. فالمؤمن الذي يردد دوماً أسماء الله: العزيز القادر العليم الرزاق والشافي وسواها من الأسماء الحسنى، ويتوسّع في فهم دلالاتها، تستوعب مخيّلته على مرّ الأيام هذه الدلالات وتنتقل لتصبح تصوّرات لذات الله عزوجلّ، وبذلك يعود هذا المؤمن يوقن أنّه يعبد إلهاً له هذه الأسماء والقدرات، وتتولّد بذلك في نفسه روح الصمود في الأزمات. فإذا ألّمت به نائبةٌ من النوائب في وقتٍ من الأوقات، تصمد نفسه في مواجهتها، فلا يهلع ولايخاف ولايضطرب عند مواجهتها. وتخاطبه نفسه وقتئذٍ قائلة: وكيف تخاف وتضطرب وإلهك المحبوب يحمل هذه الأسماء وهذه القدرات؟

على هذه الشاكلة يهدأ الذاكر في المُلمّات وتسكن نفسه بذكر الله تعالى. بذكر ربّه الذي وعده بالدفاع عن المؤمنين، وأن يكون بهم رؤوفاً رحيماً. وهذه الحقيقة وضّحها لنا جلّ شأنه في الآية (٢٧) من سورة الرعد بقوله: ﴿**الذين آمنوا وتطمئنّ قلوبهم بذكر الله، ألا بذكر الله تطمئن القلوب.**﴾ فأتى بحرف (ألا) الذي يفيد التنبيه والإيقاظ وقال: ﴿**ألا بذكر الله تطمئنّ القلوب.**﴾. أي تصمد إذا ماألّمت بها النوائب والمصائب والمؤذيات.

وقد نبّه الله عزوجلّ ذهن المؤمن أيضاً إلى أن روح الصمود هذه يجد بركاتها في ساحات القتال أيضاً، حيث لايُعقد النّصر إلاّ للصّابرين والصامدين. نبّه إلى ذلك في سورة الأنفال حيث قال: ﴿**ياأيها الذين آمنوا إذا لقيتُم فئةً فاثبتوا، واذكروا الله كثيراً، لعلكم تفلحون.**﴾.

والقرآن الكريم قد نبّه هذا المؤمن إلى أنه إذا دأب على ذكر ربّه في جميع أحواله وبحضور ذهنه وفؤاده، يعود ذلك على عقله بالبركات وينيره بمعارف وعلوم تُحيّر المتفكرين. أفلم يقل في الآية (١٩٠) من آل عمران: ﴿**إنّ**

في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآياتٍ لأولي الألبـاب.﴾؟ فلا يُلم بآيات وعجـائب هـذه الأمـور إلا العقـلاء **﴿الذيـن يذكـرون ا لله قيامـاً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلـق السـموات والأرض ربنـا مـاخلقت هذا باطلاً فقنا عذاب النار.﴾**. فهذا مابيّنه ربّنا عزوجل في هذه الآيـة الـتي أتـى بها بعد الآية السابقة.

ثم إنّ الدّعوة إلى ا لله وتكبـيره وتعظيمـه في أعـين عبـاده، والـذي يمثـل الشكّل الرابع من أشكال الذكر الإلهي، يحمل للمؤمن جميع البركات التي سبق أن ذكرناها، وإضافة إليها فإنّ من أعظم بركات ذلك هو أنّ ا لله عزوجلّ يثبّت هذا المؤمن في المواقف الحرجة بالقول الثابت.

أفلا نقرأ الآية (٢٧) من سورة إبراهيم التي يعد تعالى فيها المؤمـن بهـذا الوعد؟ يقول تعالى: **﴿يثبّت ا لله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ويضلُّ ا لله الظالمين، ويفعل ا لله مايشاء﴾**.

والقول الثابت اسم فاعل من ثبت بمعنى دام واستقرّ وتحقّق وتـأكّد. أي أن ا لله تعالى يُلهم هذا المؤمـن في الموقـف الحـرج القـول الثـابت المسـتقرّ الدائـم واليقيني. وذلك بإلقاء الإجابة الصحيحـة الأكيـدة في ذهنـه، ولطالمـا جرّبـت أنـا وأمثالي هذا الأمر بأنفسنا. فقد أحرجني شخص في يوم من الأيـام بسـؤال علمـي ماكنت قد حضّـرت لـه ولاطـالعت بشـأنه كتاباً مـن الكتـب. ودعـوت ا لله في نفسي، وإذ با لله جل شأنه يستجيب لي ويثبّتني بإجابة علمية أدهشتني وأفحمـت السّائل في آن واحد.

٢ ـ علاقة الذكر الإلهي بالدّعاء

وهناك حقيقة تتعلّق بموضوع الدّعاء، مرتبطة بالذكر الإلهي، نبّهتنا إليهـا الآية الأولى من سورة الفاتحـة، وهـي قولـه تعـالى: **﴿الحمـد لله ربّ العـالمين﴾**. فهذه الصّيغة التي صيغت بها هذه الآية الكريمة هي صيغة ذكـر إلهـي. إقـرار بـأنّ جميع أنواع الحمد والثناء مختصّة بـذات ا لله عزوجـلّ. فـإن حُمِـد أي عظيـم مـن دونه سبحانه، فلايُحمد على سبيل الأصالة، بل علـى سـبيل الظّليـة. ذلـك علـى اعتبار أنّ المنّة جميعها لله ربّ العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين.

ونُلاحظ أنّ الله تعالى بعد أن أجرى على ألسنتنا ذكره بحمده والثناء عليه وتعداد أسمائه الحسنى، دفعنا لندعوه: ﴿**إيّاك نعبد وإياك نستعين.**﴾. فماهي حكمة تقديم ذكر الله وحمده على الدّعاء بين يديه؟

الجواب هو لتنبيهنا إلى حقيقة علاقة الذكّر الإلهي بالدّعاء. فالذي يريد أن يدعو ربّه ويسأله عطاءه. ينبغي عليه أن يحمد الله أولاً ويستغفره ويتوب إليه ويسبّحه ومن ثمّ يدعوه ويسأله مايريد أن يطلب منه جلّ وعلا.

هذا الأمر على شاكلة مايفعله الشّعراء في مجالس الملوك يكيلون لهم المديح ومن ثمّ يسألونهم العطاء والمسألة. فالذكر الإلهي على شاكلة المديح يحرّك عواطف الممدوح نحو السّائل ويدفعه إلى إجابة طلبه. علماً بأنّ الله تعالى هو ملك الملوك.

هذه الحكمة التي تشرح لنا علاقة الذكر الإلهي بالدّعاء، تفسّر هذا القانون الطبيعي الذي انتهجه الشعراء، وإليه أشار الحديث القدسي عن الله تعالى: ﴿**من شغله ذكري عن مسألتي، أعطيته أفضل ماأعطي السّائلين**﴾. بمعنى أنّ الله تعالى يتفضّل ويستجيب للمؤمن الذاكر ربّه، أفضل ممّا يستجيب للمؤمن الذي يدعو ربه دون أن يسبق دعاءه بذكره عزوجلّ.

إلى هنا أكون قد فصّلتُ مااقتضاه قول الله تعالى في الآيتين الأخيرتين من سورة المؤمنون. وهو قوله تعالى: ﴿**والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون. والذين هم على صلواتهم يحافظون. أولئك هم الوارثون. الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون.**﴾. أقول: فصّلت الكلام عن ضرورة تدرّج المؤمن على درب عِرفان ربّه بشكلٍ طبيعي جدّاً من جهة. وأن يصل إلى درجة يعود فيها يذكر الله قياماً وقعوداً وعلى جنبه مستريحاً أو نائماً. حتى لايعود يُعدُّ في نظر ربّه من الغافلين منجهة أخرى.



البــــاب الــــرابـع

الفصل الأول
المذمومون في القرآن الكريم

لابدّ أن يتذكّر القارىء الأمور التي نبّه القرآن الكريم إلى أنّها تورث النّفاق، وتأكل إيمان المرء المؤمن على شاكلة مايفعله السّوس في الأشجار المخضرّة المثمرة.

ولقد نبّه القرآن الكريم أيضاً إلى صفاتٍ إن اتّصف بها هذا المؤمن يقف تطوّره الروحاني ويعود مكروهاً في نظر ربّه عزوجلّ، حتى ولو واظب على صلواته وابتعد عن اللاّغيات وفعل الزكاة وحفظ الفروج. أي يكرهه الله ربّه ولو عمل على ماتتطلّبه منه الآيات الأوائل من سورة المؤمنون. أي أنّ هذه الصفّات المذمومة في عين الله تعالى توقف نموّ كيان المؤمن الروحي وتُبطل مفعول وخواص جميع هذه الأعمال المفروضة.

وهذه الصّفات المذمومة، حصرها القرآن الكريم في عشر صفات وهي: المختال والفخور والمعتدي والخوّان والأثيم والفَرِح والمفسد والكفور والمسرف والظالم.

فهذه صفات عشر مذمومة في نظر الله تعالى، وتستدعي كُره الله تعالى للذي اتّصف بهذه الصفات سواء أكان هذا شخصاً أو مجتمعاً. وليس ضروريّاً أن يكون الذي لم يتّصف بإحدى هذه الصفات محبوباً من ربّه أيضاً بالضرورة. ذلك أن الابتعاد عن هذه الصفات تؤهّل المرء لجذب محبة خالقه إن هو اتّصف بصفاتٍ عشر أخرى سآتي على ذكرها في حينه. فالمهم هو أن يعي المؤمن السّالك حقيقة هذه الصفات المذمومة مُعتبراً إياها قوى سلبيّة تحول دونه ودون نيل محبة ربه والحظوة بقربه عزوجل. وأتناول هنا كُلّ صفة من هذه الصّفات المذمومة، وعلى ضوء ماأرشدنا إليه كتاب الله عزوجلّ:

١ ـ الله لايُحبُّ كُلّ مُختال فخور

هذا ماأكّده لنا وحي ا لله القرآني من أنّه تعالى لايُحبُّ كلّ مُختالٍ فخور.

فما معنى المُختال؟ قال صاحب (محيط المحيط) المختال هو المتكبّر والمُعجب بنفسه والمتبختر في سيره. أما الفخور فهو مَنْ تمدّح بالخصال وباهي بالمناقب والمكارم من حسبٍ ونسب وغير ذلك إمّا فيه أو في آبائه، ويُسمّى هذا فاخراً وفخوراً. وبألفاظٍ أخرى فالذي يُبتلى بصفة الاختيال والفخر، يتناقض مع نفسه ولو كان مؤمناً يؤدّي واجباته الدينيّة. وهو باختياله وفخره هذين ينسى أو يتناسى أنّ الألف واللاّم المُعرّف بها كلمة الحمد في قوله تعالى **﴿الحمد لله ربّ العالمين﴾**، تفيد الاستغراق بمعنى أنّ جميع أنواع الحمد لايستحقُّها على وجه الحقيقة إلاّ ذات ا لله عزوجلّ.

وفيها يكمن سرّ توحيد ا لله تعالى، ومن الشرك الخفي أن يتكبّر المرء مهما بلغ مالاً وولداً وجاهاً وحسباً، وأن يُعجب بنفسه أو يتبختر في سيره أو يتمدّح بالخصال ويتباهى بالمناقب والمكارم.

يتناسى هذا المختال الفخور قول ربّه عزوجلّ في سورة النّحل وبكلّ صراحة: **﴿ومابكم من نعمةٍ من ا لله ثم إذا مسّكم الضُّر إليه تجأرون. ثم إذا كشف الضُّر عنكم إذا فريقٌ منكم بربّهم يُشركون. ليكفروا بما آتيناهم فتمتّعوا، فسوف تعلمون. ويجعلون لِما لايعلمون نصيباً ممّا رزقناهم، تا لله لَتُسألُنّ عمّا كنتم تفترون.﴾**. فها هو جلّ شأنه قد حصر مابنا من نعمة بعطاء رحمانيّته. وهو الذي يكشف عنّا الضُّر، ومن أنكر هذه الحقائق فقد أشرك بربّه شركاً خفيّاً وافترى على ا لله ماليس له من حقّ، وقد أنذره جل شأنه بقوله: **﴿لتُسألُنّ عمّا كنتم تفترون.﴾**، ولذلك فلا يستحق من جانب ربّه، هذا المُختال الفخور إلاّ النّبذ والكره، فلايستحق عنده المحبّة والتقريب.

وعليه فمن واجب المؤمن السّائر على درب عِرفان ا لله تعالى، والسّاعي لكسب محبّته، أن يُحيط علماً بهذه الحقائق، وينأى خلال مسيرته عن الاختيال والفخر، ليظلّ موحّداً ا لله توحيداً مُبرّأً من جميع أنواع الشرك. لكيلا يُعدّ في نظر ربّه مشركاً ومسؤولاً يوم القيامة عن فخره واختياله.

ثم إنّنا إذا تناولنا صفتي الاختيال والفخر بميزان العقل. نصل عن طريق الملاحظة والتجربة العلميتين إلى نتيجة وهي أن هذا المختال الفخور يُعميه اختياله وفخره عن إدراك إحسان الله عليه ويتناسى عظمته وكبريائه. حيث تتضاءل هذه العظمة الإلهية في نظرة.

ثم إنّنا إذا نظرنا بمنظار الواقع العمليّ نلاحظ أنّه لايوجد ملك من الملوك يحتمل أن يُواجهه أحد رعيته مختالاً وفخوراً. وهكذا فإن صفة الاختيال والفخر صفة ذميمة من الوجهتين الدينية والعقلية في آن واحد.

هذا وإن خطورة هذه الصّفة على المؤمنين السّالكين استدعت من الله ربّهم أن ينبّههم إلى خطرها من زوايا عدّة. فقد نبّههم في الآية (٢٣) من سورة الحديد إلى قانون قدري وهو أنّه تعالى هو الذي قدّر لعمل كل امرىء نتائجه. وهذه النتائج هيَ من عطاء الله أصلاً. فإن أصبح الإنسان ثريّاً من جرّاء سعيه، فلا ينبغي له أن ينسب لنفسه هذا الإنجاز والعطاء، فلا يختال به مهما كان عبقريّاً، ولايبخل بما آتاه الله ولايهضم ماللسّائل والمحروم من حق في ماله. فهذه الحقيقة تضمنها قوله تعالى من سورة الحديد: ﴿**ماأصاب من مصيبةٍ في الأرض ولافي أنفسكم إلاّ في كتابٍ من قبل أن نبرأها، إنّ ذلك على الله يسير. لكيلا تأسوا على مافاتكم ولاتفرحوا بما آتاكم، والله لايُحبّ كُلّ مُختال فخور. الذين يبخلون ويأمُرون الناس بالبُخل، ومن يتولّ فإنّ الله هو الغنيُّ الحميد.**﴾.

فالمؤمن السّالك إذا أدرك هذه الحقيقة، ووازن مابين العطاء المادي الذي أوتيه، ومابين حرمانه من محبّة الله خالقه التي سيُحرم منها إن هو تفاخر واختال بماله، وفكّر مليّاً في هذا الأمر، يفضّل عطاء محبّة الله على عطاء المال المادي الزائل.

وقد وضّح الله عزوجلّ هذه الحقيقة بأسلوب آخر، وبلسان لُقمان الحكيم وهو يعظ ابنه ناصحاً إيّاه، إذ قال له: ﴿**يابني أقم الصلاة وأمُرْ بالمعروف وانْهَ عن المُنكر واصبر على ماأصابك إنّ ذلك من عزم الأمور. ولاتُصعّر خدّك للنّاس ولاتمش في الأرض مرحاً، إنّ الله لايحبّ كُلّ مُختال فخور. واقصد في مَشيك واغضض من صوتك إنّ أنكر الأصوات لصوت الحَمير.**﴾

لقمان (١٨). وصعّر خدّه : أماله عـن النظـر إلى النّـاس تهاونـاً مـن كِـبر (محيـط المحيط).

أي بابنيّ لاتولّ صفحة وجهك عن الناس على شاكلة مايفعل المختـالون المتكبّرون، ولاتمـشِ في الأرض مرحـاً، أي لاتمـش بطـراً مختـالاً متبختـراً، هـذا إن كنت تبغي الفوز بمحبّة ربّك عزوجلّ، لأنّ الله لايحب كلّ مُختالٍ فخور.

هذا واشعاراً منه عزوجلّ إيّانا بخطورة الاختيال والفخر، راح فوضّح لنا ذلك بأسلوبٍ ثالثٍ في سورة النسـاء الآيـة (٣٦) حيـث قـال: ﴿**واعبـدوا الله ولاتشركوا به شـيئاً وبـالوالدين إحسـاناً، وبـذي القُربـي واليتـامى والمسـاكين والجار ذي القُربى والجار الجُنُب والصاحب بـالجنب وابنِ السـبيل ومـاملكت أيمانكم، إنّ الله لايحـب مـن كـان مُختـالاً فخـوراً.**﴾. أي أنّ التكـبّر والعُجـب بالنفس والتّبختر إذا اتصف بها المرء، يفقده ذلك شعوره بمسؤوليّاته تجاه الوالدين وذي القربى واليتامى والمساكين والجار بالجنب والصّاحب بالجنب وابـن السّـبيل وماملكت يمينه من بهائم ودوابّ.

في الوقت الذي جعل الله تعالى لهـؤلاء جميعهـم حقّـاً معلومـاً في أمـوال هذا البخيل المتكبّر المُعجـب بنفسـه والمتبختـر بـين النـاس. فمـا دام هـذا المختـال الفخور قد أُصيب بمثل هذا البُخل، وحرم هؤلاء من حقّهم المعلوم في أمواله، فقد أصبح مكروهاً في نظر خالقه عزوجلّ ومحروماً من محبّته.

وزبدة الكلام هو أنّ الله تعالى قد نبّه المؤمن السّـالك الـذي يطلـب ودّ ربّه ومحبّته، إلى أن جميع مايملك إن هي إلاّ مِنـن الله عليـه، وهـذا الأمـر لايمنحـه حقّاً أن يصبـح مُختـالاً فخـوراً، بـل يُطالبه ذلـك العطـاء وتلـك المنّـة أن يصبـح متواضعاً ومقرّاً بعطاء ربّه، ويـؤدي مالِلسّـائل والمحـروم مـن حـق في أموالـه. وأن يعترف في الوقت نفسه أنّ الله عزوجـلّ وحـده يملـك الأسمـاء الحسـنى مـن دون عباده. وهذا هو التوحيد الخالص من جميع شوائب الشرك بالله تعالى.

٢ـ والله لايحب المعتدين

والاعتداء يعني تجاوز الحدود، قال صـاحب الكلّيـات: العَـدْوُ: التجـاوز ومنافاة الالتئام (محيط المحيط) هذا وقد نبّه الله تعالى عباده المؤمنين الذين يحرصون على السير على درب عرفانه ويفوزوا أخيراً بمحبته حثهـم أن يحـذروا حدودهـم،

فلا يعتدوا على حقوق سواهم من عباده. وقد شرح لهم أخطار الاعتداء وتجاوز الحدود من زوايا ثلاث أيضاً.

فهو جلّ شأنه طلب من المؤمنين الساكنين درب عِرفانه أن يلجؤوا إليه ويدعوه تضرّعاً وخُفيةً إن وقع اعتداء على حقوقهم، فلا يردّوا على الاعتداء باعتداء مثله، دفعاً للإفساد في الأرض، وطمعاً في جذب محبّة الله وإحسانه نحوهم، هذا ماأكّده تعالى في الآية (٥٥) من سورة الأعراف حيث قال هناك: **﴿ادعوا ربّكم تضرّعاً وخيفة إنّه لايحب المعتدين. ولاتفسدوا في الأرض بعد إصلاحها، وادعوه خوفاً وطمعاً، إنّ رحمة الله قريبٌ من المحسنين.﴾**. فالمعتدي مكروه في نظر ربّه تعالى، ومحروم من جذب محبّة ربّه إليه.

فإن بلغ الحدّ بالمعتدي حدّ استعمال سلاحه ومقاتلة المؤمنين، فقد أوجب الله تعالى على هؤلاء المؤمنين أن يقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونهم ويعتدون عليهم على ألاّ يبلغوا في ذلك حدّ الاعتداء على هؤلاء المعتدين. هذا إن كانوا يريدون وجه ربّهم ومحبّته وقربه. وإلى هذا الأمر نزل قول الله تعالى في الآية (١٩٠) من سورة البقرة: **﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم، ولاتعتدوا، إنّ الله لايحبّ المعتدين.﴾**. فهذه ناحية أخرى وضحّها الله تعالى للمؤمنين أن يقاتلوا الذين يقاتلونهم لتجاوز هؤلاء حدودهم واغتصابهم حقوق المؤمنين . فهذا هو شأن من كان مؤمناً ويريد وجه ربّه ويسعى للفوز بمحبّته.

وتناول جلّ شأنه موضوع الاعتداء من زاوية ثالثة وهي زاوية تقوى الله المطلوب الأخذ بمنهجه حياتياً من قبل المؤمنين. تناول هذا في الآية (٨٧) من سورة المائدة حيث قال: **﴿والذين كفروا وكذّبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم. ياأيّها الذين آمنوا لاتُحرّموا طيّبات ماأحَل الله لكم ولاتعتدوا، إنّ الله لايحبّ المعتدين. وكلوا ممّا رزقكم الله طيّباً، واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون.﴾**.

أي أن من المفروغ منه أنّ الذين كفروا بوجود ربّهم وكذّبوا رسوله والآيات التي أُنزلت عليه، من المفروغ منه أن أولئك فضّلوا الجحيم على رضا ربّهم ومحبّته ورضاه، أمّا أنتم يامن آمنوا بي وبآياتي إياكم أن تحرّموا طيّبات ماأحللت لكم، وإياكم تجاوز حدودكم المرسومة لكم في كتاب الله ربّكم. **﴿وكلوا ممّا رزقكم الله طيباً﴾** أي حلالاً **﴿واتقوا الله الذي أنتم به**

مؤمنون.﴾ أي ضعوا منهج تقوى الله دوماً نصب أعينكم في كـل أمـر تُقدمـون عليه غير متجاوزي حدود الله وحدودكم فهذا هو مايأمركم به الله الَّذي أنتـم به مؤمنون.

من هذا كله ندرك أن المؤمن الـذي يقـوم بواجباتـه العباديـة، ويتجـاوز حدوده ويعتدي على حقوق الآخرين ولو كانوا من الكافرين المكذّبين، يقف نمـوّ كيانه الرّوحي بسبب اعتدائه، ويمسي مكروهاً في نظر ربّه، ويستحيل عليه الفـوز بمحبته وقربه ورضاه. هذا على اعتبار أنّ لفعل الاعتداء آثاره السلبيّة منها أن الله تعالى يطبع على قلبه فلا يعود بمقدرة هذا القلـب يتلمّـس نـور ربّـه وقربـه. فهـذا ماألمح الله عزوجلّ إليه في الآية (٧٤) من سورة يونس حيـث قـال هنـاك: ﴿**ثـمّ بعثنا من بعده رسُـلاً إلى قومهـم فجـاؤوهم بالبّينـات، فمـا كـانوا ليؤمنـوا بمـا كذّبوا به من قبل، كذلك نطبع على قلوب المُعتدين.**﴾.

وزبدة الكلام هي أنّ الله عزوجلّ نبّه المؤمـن السـالك درب عِرفانـه إلى أنّه وضّح له في سورة المؤمنون ركائز مسيرته العرفانية، وإلا فمن واجبه أيضـاً أن يتخلّق بصفات ربّه الحقّ العدل فلا يتجاوز حدوده ولاتبدر عنه أيّة بـادرة اعتـداء على سواه مهما كان الداعي إلى ذلك قويّـاً. هـذا إذا أحـب أن يكسـب ودّ ربـه ومحبته ويفوز بقربه ولقائه.

٣ـ الله لايحبُّ الخوّان

وكلمة الخوّان مبالغة من الخائن، أي كثير الخيانة ومُصرّاً عليها. والخيانة خلاف الأمانة. وخانه في كذا: أوتمـن فلـم ينصـح. وخـان العهـد: نقضـه. وفي الكليّات: الخيانة تُقال اعتباراً بالعهد والأمانة. والنّفاق يُقال اعتباراً بالدّين.

ونلاحظ من خلال دلالات كلمة "الخوّان" تعلّقه بالعهد والأمانة. وهـي صفة مذمومة لمنافاتها لقوله تعالى في سورة "المؤمنون": ﴿**والذيـن هـم لأمانـاتهم وعهدهـم راعـون.**﴾ وهـي الأمـور المتعلّقـة بمتطلّبـات السّـلوك الروحـاني ومـن مقتضيات مقام المحبّة الإلهية ليصبح السّالك من الوارثين.

فالخوّان يخون أماناته وعهوده التي قطعها مـع ربّـه عنـد بيعتـه، ويُمْسـي بالتّالي مكروهاً من الله خالقه عزوجلّ. هذا لأنّ المحبّة والخيانة صفتان متناقضتان.

أفلا نلاحظ كيف أنّ المعشوقة إذا ماأحسّت من عشيقها خيانة بصقت في وجهه وأدارت له ظهرها وهجرته؟ يحدث هذا على اعتبار أن الخوّان يقطع بخيانته لأماناته وعهده أواصر الودّ والمحبّة مع ربّه بشكلٍ طبيعي جدّاً.

لهذا السّبب الجوهري راح تعالى، وإشفاقاً منه على المؤمنين السالكين، يحثّهم على الحذر من أن يصبحوا من الخّوانين لأماناتهم وعهودهم، ماداموا يسعون للفوز بمحبّة ربّهم، وذلك في الآية (٢٧) من سورة الأنفال، حيث قال: **﴿ياأيّها الذين آمنوا لاتخونوا ا لله والرّسول، وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون.﴾** أي أنّكم تعلمون أنّ الفوز بمحبّتي اشترطت له في سورة المؤمنون: **﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون.﴾**.

كما أنّ ا لله تعالى وعد هؤلاء المؤمنين السّالكين درب معرفته أنّه تعالى كتب على نفسه الدّفاع عنهم في المآزق وحين الأخطار ماداموا يشكرونه على ماأنعم عليهم ولايخونون أماناتهم وعهدهم معه، هذا الوعد الإلهي نصّت عليه الآية (٣٨) من سورة الحجّ التي قال تعالى فيها: **﴿إنّ ا لله يدافع عن الذين آمنوا، إنّ ا لله لايحبّ كُلّ خوّان كفور.﴾**.

وراح تعالى فضرب لهؤلاء المؤمنين السّالكين مَثَل ماحدث ليوسف عليه السّلام. هذا النّبي الذي لم يعرف الخيانة في حياته، وماخان ربيب نعمته في غيابه، وكيف أنّ ربّه كافأه على أمانته بأن هيّأ من عالم غيبه أسباب براءته وحرّك ربيب نعمته لأن يسند إليه أعظم منصبٍ في حكومته. فهو جلّ شأنه نقل عن لسان يوسف قوله لربيب نعمته وذلك في الآية (٥٢) من سورة يوسف: **﴿ذلك ليَعلم أنّي لم أخُنه بالغيب، وأنّ ا لله لايهدي كيد الخائنين.﴾** موضحاً جل شأنه من خلال ذلك القول أنّ ا لله تعالى لايهدي كيد الخائنين، ولايحبّ كلّ خوّانٍ كفور.

وفي سورة الأنفال في الآية (٢٧) حثّ ا لله تعالى رسوله الكريم على ألاّ يخشى الخّوانين من الكافرين، لأنهم بخياناتهم أضحوا مكروهين في نظر ربّهم. كما حذّر الكافرين في الوقت نفسه من أنهم إذا نقضوا عهودهم مع رسوله وخانوا هذا الرسول وحاولوا الغدر به، فلن يعجزوا ا لله ورسوله مهما تفوّقوا عليه عُدّةً وعدداً. وقال تعالى: **﴿وإمّا تخافنّ من قومٍ خيانةً فانبُذ إليهم على**

سواء، إنّ الله لايحبّ الخائنين. ولاتحسبّن الذين كفروا سبقوا، إنهم لايُعجزون.﴾.

قال تعالى هذا، ونصح رسوله الكريم في الآية (٦١) بالتّوكل على الله واحتسابه في وجه الخّوانين الكافرين، وقال: **﴿فإن جنحوا للسّلم فاجنح لها وتوكّل على الله، إنه هو السّميع العليم. وإن يريدوا أن يخدعوك فإنّ حسبك الله، هو الذي أيّدك بنصره وبالمؤمنين. وألّف بين قلوبهم، لو أنفقت مافي الأرض جميعاً ماألّفت بين قلوبهم، ولكنّ الله ألّف بينهم إنّه عزيز حكيم. ياأيها النّبي حسبُك الله ومن اتّبعك من المؤمنين.﴾**.

٤ ـ والله لايُحبّ كل كفّار أثيم

والصّفة الخامسة المذمومة جدّاً في نظر الله عزوجلّ، والتي تحرم من يتّصف بها من محبّة ربه وعِرفانه وقربه هي صفة "الكفّار الأثيم"، الكفّار بنعم ربه وعطاءاته بسبب اتّصافه بصفة الأثيم. فما معنى الأثيم في لغة الضّاد؟

الأثيم هو الإنسان الذي يعمل مالايحلّ له أن يعمله ويُقدم عليه. أي أنّ الأثيم هو الذي يرتكب ذنباً متعمّداً ارتكابه ولذلك يستحق هذا الآثم عقاباً على فعله. أي أنّ الإثم من حيث الدلالة بخلاف كلمة الذّنب التي تُطلق على مطلق الجُرم عمداً كان أو سهواً. فهذا هو ماأورده صاحب الكليات في (محيط المحيط).

والإثم بهذا المعنى الذي أوردناه من السُّخف أن نقول إنّ له ظاهراً وباطناً فهو إثم. وهو مُجرّد معصية ومخالفة لأوامره جلّ وعلا. وعليه فكيف نفهم مضمون الآية (١٢٠) من سورة الأنعام: **﴿وذروا ظاهر الإثم وباطنه إنّ الذين يكسبون الإثم سيُجزون بما كانوا يقترفون.﴾**؟

أقول: إنّ لفظ الباطن أتى من بطن الشيء: خفي فهو باطن أي خفّي. والخفاء ضدّ الظّهور. والمراد من قوله تعالى: **﴿وذروا ظاهر الإثم وباطنه..﴾** أي بدّدوا ونقّوا ماتكسبونه من أعمال الظاهر منها لأعين النّاس وماخفي منها عن أعينهم، لعدم فالإثم علاقته با لله وبأوامره وبمعصيته لأوامره. وا لله لايخفى عليه شيء فهو يعلم ماظهر من الإثم وماأخفاه الآثم عن سواه. فالإثم إثمٌ ظهر للأعين أو خفي عنها.

ثم إن القرآن الكريم، من أصوله أنّه يفسّر بعضه بعضاً. فهو صاغ هذا الأمر في الآية (١٥١) من سورة الأنعام نفسها بأسلوب آخر وقال: ﴿**قل تعالوا أتل عليكم ماحرّم ربّكم عليكم ألاّ تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولاتقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإيّاهم ولاتقربوا الفواحش ماظهر منها ومابطن، ولاتقتلوا النّفس التي حرّم الله إلاّ بالحق، ذلك وصّاكم به لعلّكم تعقلون.**﴾ فهاهو تعالى قال: ﴿**ولاتقربوا الفواحش ماظهر منها ومابطن**﴾ أي الظاهر من الفواحش والخفيّ منها عن أعين النّاس و لم يقل ولاتقربوا ظاهر الفواحش وبواطنها. ذلك أن الفاحشة فعل شيء وليست شيئاً بعينه حتى يكون لها ظاهر وباطن.

و لم يُدرك الدكتور البوطي هذه الحقيقة التي وضّحتها، وإنّ جهله بهذه الحقيقة دفعه إلى تأليف كتاب عنوانه: (باطن الإثم الخطر الأكبر في حياة المسلمين) ودلّ من خلال عنوانه على جهله بالحقيقة التي ذكرناها. فليس لفعل الإثم أوفعل الفاحشة ظاهر وباطن.

ولأحدٍ أن يتساءل عن سرّ كراهة الله تعالى "للكفّار الأثيم"؟ والجواب على هذا السؤال احتوته الآية الثانية من سورة المائدة حيث قال تعالى: ﴿**ياأيّها الذين آمنوا لاتُحلّوا شعائر الله ولاالشهر الحرام ولا الهدي ولا القلائد ولاآميّن البيت الحرام يبتغون فضلاً من ربّهم ورضواناً، وإذا حَلَلتُم فاصطادوا، ولايجر منّكم شنآن قوم أن صدّوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا، وتعاونوا على البرّ والتّقوى ولاتعاونوا على الإثم والعُدوان، واتّقوا الله، إنّ الله شديد العقاب.**﴾. فهو تعالى أتى في هذه الآية الكريمة بلفظ الإثم نقيضاً للفظ البر. والبرّ من حيث دلالته اللّغوية يعني الطّاعة لشريعة الله ظاهراً وباطناً وضدّ العُقوق. الأمر الذي يعني أن الإثم هو عدم الالتزام بأوامر الله ظاهراً وباطناً. فالآثم كفور بنعم ربه وإحساناته عليه وعاقٌ أيضاً. على شاكلة عاقّ الوالدين. من هنا أتت حكمة وسرّ كراهية الله تعالى للكفّار الأثيم. وكيف بإمكان الإنسان العاقّ ربّه أن يكسب محبّته وعِرفانه وقربه ووصاله؟ ذلك أن الله عزوجلّ أمرنا بإطاعته وإطاعة رسوله واطاعة أولي الأمر منّا. والإنسان المؤمن لايعصي الله ورسوله وأولي الأمر.

فلايخالف أحكام شريعة الله ولاقوانين بلاده. وهذا مانبّهنا إليه قوله تعالى في الآية (١٧٣) من سورة البقرة: ﴿**إنّما حرّم عليكم الميتة والدّم ولحم الخنزير وماأُهلّ لغير الله، فمن اضطر غير باغٍ ولاعادٍ فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم.**﴾. فكلمة (باغ) تشير إلى البغي على قوانين الوطن. وكلمة (عاد) تشير إلى مخالفة قوانين الشريعة.

ثم إنّ القرآن الكريم نبّه إلى أن مفهوم الإثم يشمل محاولات الغش والرشوة، وهذا التنبيه تضمّنته الآية (١٨٨) من سورة البقرة حيث قال تعالى: ﴿**ولاتأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتُدلوا بها إلى الحُكّام، لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون.**﴾. فالمعلوم أنّ أكل أموال الناس هو من قبيل الباطل. وأنّ الرشوة هي التي يُدلى بها إلى الحُكّام، في حال مخالفة الشرائع والقوانين النّافذة.

وقد نبّه القرآن الكريم الأذهان إلى أنّ الإثم يشكّل باباً للإفساد في الأرض، فهذا ماأشارت إليه الآية (٢٠٦) من سورة البقرة التي قال الله تعالى فيها: ﴿**وإذا تولّى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنّسل، والله لايحب الفساد. وإذا قيل له اتّق الله، أخذته العزّة بالإثم، فحسبه جهنّم ولبئس المهاد.**﴾. فقوله (إذا تولى) أي إذا تسنّم مقاليد الحكم، ﴿**سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنّسل**﴾ ضارّاً باقتصاد الدّولة التي تسلّم مقاليد حكمها ومسيئاً إلى أبنائها. ﴿**وإذا قيل له اتقّ الله**﴾ أي إذا انتقد مواطنوه تصرّفاته بشكل ديموقراطي، ﴿**أخذته العزّة بالإثم**﴾. وإنّ مثل هذا الحاكم مكروه من ربّه ومستوجب العقاب ﴿**فحسبه جهنّم ولبئس المهاد.**﴾. فلا تنفع مثل هذا الحاكم الآثم صلاته ولازكاته ولاماشاكلها من عبادات، ولايستحق محبة ربّه وقربه ووصاله، ولو كان من المؤمنين.

والقرآن الكريم استعار لاستعمال الأشياء الضارّة كلمة الإثم، وذلك في الآية (٢١٨) من سورة البقرة وقال: ﴿**يسألونك عن الخمر والميسر، قل فيهما إثمٌ كبيرٌ ومنافع للنّاس، وإثمهما أكبر من نفعهما، ويسألونك ماذا ينفقون، قل العفو، كذلك يبيّن الله لكم الآيات لعلّكم تتفكّرون.**﴾ فشرب الخمر فيه إثم كبير أي ضررٌ كبير. وهذا أمرٌ أثبته العلم الحديث، فهو يتسبب لشاربه بتشمّع كبده، وبخمول عقله وسواهما من الأمراض. وقوله ﴿**ومنافع للنّاس**﴾ فقد أتى

بكلمة منافع مقابل ﴿**فيه إثم كبير**﴾ ولينبّه إلى أنّ الخمر ليس بشرٍ كلّه. فبإمكان الأطباء إجـراء التجـارب والتحـاليل للاستفادة ممّـا في الخمـر مـنْ منـافع للنّـاس. واستدرك جلّ شأنه وقال: ﴿**وإثمهمـا أكـبر مـن نفعهمـا**﴾ أي أنّ الغـالب علـى الخمره ضررها وقلّة نفعها.

ولنلاحظ أنّه مادام الله عزوجل قد وضّح للمؤمـن حقيقـة الخمـر، فقـد استلزم ذلك ألاّ يُنزل آية صريحةً تحرّم شرب الخمر، وهذا هو سبب اكتفائـه جـل شأنه بالقول في الآية (٩٠) من سورة المائدة: ﴿**ياأيها الذين آمنـوا إنّمـا الخمـر والميسـر والأنصـاب والأزلام رجـسٌ من عمـل الشـيّطان، فـاجتنبوه لعلكـم تفلحون.**﴾. فالله عزوجل يخاطب هنا المؤمنين السالكين درب عرفانه والطّامعين بالفوز بمحبّته وقربه ووصاله، ويقول لهم أنه يكفيهم ماوضّحته لكم حول حقيقـة الخمـر وكثره مضـارّه، لذلـك أنصحكـم باجتنابـه وعـدم احتسـائه ﴿ **لعلكـم تُفلحون**﴾ موضّحاً لهـؤلاء المؤمـنين أن الخمـر ﴿**رجسٌ من عمـل الشـيطان**﴾، والرّجس هو العمل المؤدي إلى العذاب وغضب الله وعقابه علـى حسـب مـاورد في (محيط المحيط). وبهذا الأسلوب مـن البيـان يظهـر للعَيـان تكـامل الآيـات مـن الوجهة الموضوعية، وهو إعجاز يخلب قلوب أولي الألباب.

ثم إنّ القرآن الكريم حثّ على سلوك سبيل البحث العلمـي، واجتنـاب أخذ الأمور بالظنون حفاظاً على سلامة المحاكمـة العقليـة للإنسـان واجتنابـاً مـن الوقوع في متاهات الشرك والأحكام الباطلة. وقد وضّـح لنـا القـرآن هـذا الأمـر بشكل منقطع النظير، ومُنبّهاً في الوقت نفسه إلى أنّ مخالفة ذلـك تدخـل في بـاب الإثم وتستوجب العقاب.

فهو جلّ شأنه قال في الآية (٣٦) من سورة يونس: ﴿**ومايتّبع أكـثرهم إلاّ ظنّاً، إنّ الظنّ لايُغـني مـن الحـقّ شـيئاً، إنّ الله عليـم بمـا تفعلـون.**﴾ أي أنّ الصدق والعدل واليقين لايقوم على أساسٍ من الظنّون. بل لايستقيم إلا بالتحقيق العلمي. فهذه حقيقة لاينبغي أن تغيب عنْ أذهان المؤمنين السالكين درب العِرفان الإلهي، وألا يقعوا فيما وقع فيه أكثر أعدائهم من غير المؤمنين.

ولقد اعتبر جلّ شأنه مخالفة المؤمن لهـذه القـاعدة العامـة إثمـاً يسـتوجب العقاب. على اعتبار أنّ الظنّ نقيض الحق، وأغلـب الظنـون لايقـوم علـى أسـاس واقعيّ. لذلك نلاحظـه تعـالى يخـاطب المؤمنـين السـالكين درب عِرفانـه في الآيـة

(١٢) من سورة الحجرات قائلاً: ﴿ **يأأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظّن، إنّ بعض الظن إثم، ولاتجسّسوا ولايغتب بعضكم بعضاً، أيُحبّ أحدكُم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه، واتّقوا ا لله، إنّ ا لله توّابٌ رحيم.**﴾ وإن قوله ﴿**اجتنبوا كثيراً من الظن إنّ بعض الظّن إثم**﴾ أتبعه تعالى بقوله (ولاتجسّسوا) على اعتبار أن التجسّس غالباً مايعتمد على الظّنون. وأتبع تعالى ذلك أيضاً قوله (ولايغتب بعضكم بعضاً) على اعتبار أنّ المغيبة يخالطها كثير من الظنون. وهكذا عُدّ الظنّ في نظر ا لله تعالى إثماً، لايحل للمؤمن الإقدام عليه والأخذ به منهجيّاً في حياته اليومية. هذا كيلا يُحرم بالتالي من الفوز بمحبّه ربّه وعِرفانه وكسب قربه والحصول على رضاه.

و لم يكتف ا لله جلّ شأنه بهذا البيان كلّه بشأن الإثم وأثره السلبيّ على نموّ كيان المؤمن الروحاني، إن هو أضحى من زمرة الآثمين. بل وراح تعالى يوضّح لهذا المؤمن السّالك الآثار القتالة التي تخلّفها الآثام في الكيان الروحي للمؤمن. وذلك في الآيات (٤٣ـ٤٦) من سورة الدّخان التي قال فيها: ﴿**إنّ شجرة الزّقوم. طعام الأثيم كالُمهل يغلي في البطون كغلي الجميم.**﴾. وكلمة الزّقوم تعني المرارة، كما تعني الطاعون (محيط المحيط).

فا لله جل شأنه قد نبّه في هذه الآيات إلى أن فعل الإثم فعلٌ مكروه في نظر ا لله تعالى وشديد المرارة وله تأثير الطاعون في الكيان الروحي للمؤمن الآثم. وتوضيحاً منه جلّ شأنه لهذا الأمر، أتى بكاف التّشبيه ليقرّب ذلك من فهمنا وقال: ﴿**كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم.**﴾ أي أنّ للإثم في الكيان الرّوحي مااللماء الساخن المغليّ جدّاً من فعل في البطون. فهو يتلف أغشية الجهاز الهضمي وقد يسبّب الوفاة. وهل يرضى المؤمن السالك درب عِرفان ربّه إهلاك كيانه الرّوحي الذي تكوّن نتيجة لإيمانه بربه وبيعته لرسوله الكريم؟

و لم يقف تعالى عند هذا الحدّ من بيان تأثير الآثام في كياننا الرّوحي في هذه الحياة الدنيا. بل أضاف تعالى يوضّح مصير هذا الآثم في الحياة الآخرة وقال أنّه يأمر يومئذٍ ملائكته ويقول : ﴿**خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم، ثم صبّوا فوق رأسه من عذاب الجحيم. ذُق إنّك أنت العزيز الحكيم.**﴾. وهذه الآية الأخيرة ﴿**ذق إنّك أنت العزيز الحكيم**﴾ تحمل في طيّاتها معنى التهكّم بهذا الآثم المستهتر بإطاعة ربه عزوجلّ في دُنياه.

وهكذا نلاحظ كيف أنّ القرآن الكريم بحث موضوع الإثم من جميع جوانبه، خوفاً على المؤمنين السالكين درب عِرفانه من أن تزلّ أقدامهم ويظنّوا أنّهم باكتفائهم بإقامة العبادات تتحقّق لهم النجاة دنيا وآخرة ويكونون بذلك من الفائزين المفلحين.

فقد حذر الله تعالى هؤلاء المؤمنين السالكين درب عِرفانه من ارتكاب الآثام ومخالفة الأحكام الشرعية والقوانين الوضعية، على أساس أنّ الابن البارّ لوالديه لايعصي أوامرهما ولايخرج عن طاعتهما. فما بالك بالمؤمن الذي يعترف أنّ جميع مابه من منّة فمن الله عزوجلّ؟

وحذّر تعالى المؤمنين من الإثم، على اعتبار أنّه يفقد الآثم المناعة ضدّ التعدّي على حقوق سواه من العباد. ويسهّل الإثم على صاحبه غشّ بضاعته وهضم حقوق الآخرين. ولايعود يرتدع عن القيام برشوة المسؤولين والإدلاء بأمواله إلى الحُكّام، ويسعى بذلك إلى تجاوز حدوده وهضم حقوق سواه.

والقرآن الكريم حذّر المؤمنين من الإقدام على ارتكاب الآثام، لأن الحاكم الذي تُسنَدُ إليه مقاليد حكم بلدٍ من البلدان، ولايكون تقيّاً، ويستمرىء الإثم يفسد في الأرض ويهلك الحرث والنّسل، علماً بأنّ الله لايحبّ الفساد.

والقرآن الكريم وضّح للمؤمن السّالك حقيقة علمية وهي أنّ كل شيء فيه منافع وفيه مضار، وأنّ من الإثم أن يقدم المؤمن على تناول ماغلبت مضارّه على نفعه. فإن هو أقدم على تناول المُحرّمات، ينتهي أمر كيانيه الجسماني والروحي إلى الهلاك والزوال. ويبوء بغضب الله وكرهه إيّاه، ويستحق بالتالي العذاب والعقاب.

ووعّى القرآن الكريم المؤمن السالك، من خطر أخذ الأمور بالظّنون. وعّاه من أنّ أسلوب محاكمة الأمور بطريق الظنّ، يضعف جهاز المحاكمة العقلية وينأى بالظّان عن السّبيل العلمي. وينأى به بالتّالي عن الحق واليقين.

ولم يدع الله جل شأنه هذا المؤمن السالك دون أن يُوعّيه لِما للإثم من مضارٍّ سلبية تضرّ بكيانه الروحي. فوضّح تعالى لهذا المؤمن السالك أنّ الإثم يهلك الكيان الرّوحي للمؤمن على شاكلة مايفعله الماء الساخن بدرجة عالية، في أحشاء المرء وجهازه الهضمي.

وفي الآية (٤٨) من سورة النّساء اعتبر الله عزوجلّ من يشرك به آثماً وقال: ﴿**ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً.**﴾. علماً بأنّ الشرك أنواع منها مايُسمى بالشرك الخفّي. كذلك فإنّ الله تعالى عدّ الذي يكتم الشهادة آثما قلبه. وهذا في الآية (٢٨٣) من سورة البقرة بقوله: ﴿**ولاتكتموا الشّهادة، ومن يكتُمها فإنّه آثمٌ قلبه.**﴾. كذلك نبّهنا الله عزوجلّ في الآية (٢٢٠) من سورة الشّعراء إلى أن الأثيم يحرم نفسه من تنزّل ملائكة الله عليه بالرحمة والبركات، ويكله ربّه إلى همزات الشياطين، وقال: ﴿**هل أنبئكم على من تنزّل الشياطين. تنزّل على كلّ أفّاك أثيم.**﴾. والأفّاك من أفك الرّجل كذب. وأفك الرجل ضعف عقله. أي أن كلّ كذاب يكون ضعيف العقل وكثير الذّنب المُتعمّد. ولاشكّ أن مَنْ كان هذا حاله يكون كفّاراً بنعم الله وأثيماً ومكروها عند الله والنّاس معاً.

وزبدة الكلام هو أن المؤمن السّالك الذي بايع وتولّد له كيان روحي لاتراه العين وليحسّ به صاحبه. إنّ هذا المؤمن السالك سيسعى للتعرّف على ربّه الذي آمن به عقليّاً، ويطلب محبّته وقُربه ووصاله ليّتخذه وكيله ومُحتسبه في الحياة الدنيا وفي الآخرة. والمؤمن السّالك الذي يكون هذا حاله لايُذنب متعمّداً مخالفة أوامره ربّه ووصاياه وليجرّ بذلك على نفسه ويلات الإثم والكفر بنعم الله عزوجلّ ليصبح أفّاكا أثيماً وقريناً للشياطين. ولن تعود تنفعه إن هو مال إلى الإثم : لاصلاته ولازكاته ولاأية عبادة من العبادات. إلاّ أن يستغفر ربه ويتوب توبة نصوحاً ومن صميم فؤاده ويعود إلى الالتزام بالطّاعات وتجنُّب المخالفات وفق مانصّت عليه آيات كتاب ربّ العالمين.

٥ ـ والله لايُحبّ الفَرحين :

والصّفة السادسة المكروهة والمذمومة في نظر ربّنا عزوجلّ هي صفة الفَرح بمعنى البطر وبمعنى الجمود على الباطل. وليس بمعاني الفَرح الأخرى. ذلك أنّ صاحب (محيط المحيط) نبّه إلى عدّة معان يُستعمل لها لفظ الفرح. فقد يستعمل الفرح للبطر كقوله تعالى: ﴿**إن الله لايحبُ الفرحين.**﴾ أي لايحب البطرين. وقد يستعمل الفرح بمعنى الجمود على الباطل والرّضا به لقوله تعالى ﴿**كل حزب بما**

لديهم فرحون.﴾. وقد يستعمل الفرح بمعنى السّرور لقوله تعالى **﴿فرحين بما آتاهم ا لله من فضله﴾**، إلى جانب استعماله لوصف اللّذة القلبيّة (محيط المحيط).

والمؤمن الذي يتدبّر كتاب ا لله القرآن الكريم يتبيّن لـه أنّه تعالى حضّ على الفرح بفضل ا لله على هذا المؤمن، ونهاه عن الرّضا بالباطل وترك سبيل الرّقي والعروج. فلايشابه الذين يلهثون وراء طلب اللّذات العارضة الزائلة والبطرين بما حصلوا عليه من لذّاتٍ وأولاد وأموال.

ففي الآية (٧٦) من سورة القصص قال تعالى: **﴿إنّ قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم، وآتيناه من الكنوز ماإن مفاتحه لتنوء بالعُصبة أولي القوّة، إذ قال له قومه لاتفرح إن ا لله لايحبّ الفرحين.﴾**. فقد ضرب ا لله تعالى في هذه الآية الكريمة مثلاً يُنبّه من خلاله إلى حالة الفرح والبطر التي تتملّك الذي يُؤتى وجاهةً ومالاً ومركزاً مرموقاً. ضرب مَثَلَ قارون اليهودي الذي ائتمنه فرعون على بعض خزائنه وعاد بين يديه مفاتيح لهذه الخزائن يصعب على الرجل القوي حملها بسبب أن المفتاح كان قديماً من الخشب وكبير الحجم على عكس ماهو حاله في زماننا. وقد أبطر ذلك هذا اليهودي ودفعه للاستعلاء على قومه المستضعفين المستعبدين.

وقد قال له قومه إنك تسعى لكسب محبّة فرعون بما تفعله وتخسر في الوقت نفسه محبّة ربّك الذي فضّل على جدّك إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وهذا الأمر يتأتّى عنه خسارة محبّة ا لله ووصاله ورضاه فا لله لايحب الفرحين.

وضرب ا لله تعالى للمؤمن السالك في الآية (٨٣) من سورة غافر مثلاً آخر على نوع الفرح الذي يمقته ويمقت صاحبه ويحرمه من الفوز بمحبّته وقُربه، وقال: **﴿ فلّما جاءتهم رسلهم بالبيّنات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ماكانوا به يستهزئون.﴾** فنبّه تعالى من خلال هذه الآية الكريمة ذهن المؤمن السالك إلى أنّ العلم لاسقف له ولاحدود. دنيوياً كان هذا العلم أو دينيّاً. على اعتبار أن العلم بنوعيه هو من علم ا لله تعالى الذي لاتُعرف له حدود، وا لله تعالى لايسمح بالإحاطة بشيء من العلم إلا بماشاءت به واقتضته ربوبيّته لهذا الكون المادي الذي نعيش في ظلاله. وا لله جل شأنه لفت ذهن هذا المؤمن السالك إلى علماء الأديان الذين لم يدركوا هذه الحقيقة وفرحوا بما عندهم من العلم حين جاءتهم رُسُل ربّهم بالبيّنات، متناسين ماتقتضيه ربوبيّة ربّهم من إرسال رسله

وأنبيائه. فهؤلاء العلماء من أصحاب الأديان قزّموا بمواقفهم تلك علم الله ومشيئة. فهذا المثال متعلّق بالصّعيد الديني. أما على الصعيد الدنيوي فكلّ مثقف وباحث لابّد أن اطلّع على الفارق الكبير مابين علوم أوربة في القرن التاسع عشر ومابين ماوصلت إليه هذه العلوم في القرن العشرين.

وهكذا يكون القرآن الكريم قد حذّر المؤمن السّالك من مغبّة الاتّصاف بصفة الفرح بمعنى البطر والفخر والكبرياء إن هو أمسى ثرياً وذا جاه وسُلطان. وقد حضّه في الوقت نفسه على طلب العلم دون قيود وطلب الرقي الرّوحي بكل طموحه. علّمه ألاّ يفرح بعلم ولامال حصل عليه بجهده وقدرته، داعيًا ربّه على الدّوام أن ﴿**وقل ربّي زدني علماً.**﴾. أي أن القرآن الكريم غرس روح الطموح في قلب المؤمن السالك على صعيد الدنيا والدّين، وطلب منه أن يستسهل المستحيل ويُحلّق بفكره وروحه في أجواز الفضاء بصورة لاتعرف لها من حدود.

فالمؤمن السّالك درب عِرفان ربّه يفرح يقيناً كل آن، ولايكون وجهه عبوساً قمطريراً. إنما لايكون فرحه بمال أو جاه أو ولدٍ أو تحصيل ملذّات. بل يكون فرحه فرحاً بما يتلّقاه من فضل ربّه عليه وبما يسبغه عليه من رحمة يتفرّد بها من بين الناس. ذلك أن المال الزائل بالإمكان الحصول عليه بجهده وقوّته. أما الفضل الإلهي والعلم اللدّني والرحمة الإلهية المخصوصة، فلا تفيد في تحصيلها قوّة ولاجهد عضليّ.

وعليه فإن المؤمن السّالك يفرح بهذا النوع الرّوحي الذي حصل عليه من جانب ربه ولايفرح بالنوع المادي المتحصّل عن جهد وقدرة ذاتية. هذا ماأفادت به الآية (٥٨) من سورة يونس التي قال تعالى فيها: ﴿**قل بفضل الله وبرحمته، فبذلك فليفرحوا، هو خيرٌ مّما يجمعون.**﴾. قال تعالى قوله هذا مُنطلقاً من أنّ الرّقي المادّي يكون دوماً تابعاً للرّقي العلمي.

والذي يلقي نظرة عابرة متفحصّةً على تاريخ البشر، مُنطلقاً من هذا الوعظ القرآني الذي تبّناه. يلاحظ تأييده تأييداً مطلقاً بمنطق هذا التاريخ الطويل. وعليه فالذي يُبطره المال والأولاد ويلهث طالباً الملذّات العارضة المادية، يصبح مكروهاً في نظر ربّه عزوجل ويعسر عليه جذب محبته وعِرفانه والتقرّب

منه. ويُصاب بمرض التقليد الأعمى والجمود الفكري، وينتهي به الأمر إلى العمى الرّوحي. فمن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضلّ سبيلاً.

٦ ـ والله لايحب المُفسدين:

وصفة المفسد والإفساد، صفة مكروهة في نظر ا لله ربّ العالمين. والمؤمن السالك درب العرفان الإلهي يتجنّب مايكرهه ربّه، مادام يسعى ليفوز بمحبّة ربه ورضاه.

ذلك وإن ا لله تعالى قال في كتابه العزيز في سورة البقرة الآية (٢٠٥): **﴿وإذا تولّى سعى في الأرض ليُفسد فيها ويُهلك الحرث والنّسل، وا لله لايحبّ الفساد.﴾**. كذلك قال من جهة أخرى في سورة القصص (٧٧): **﴿وابتغ فيما آتاك ا لله الدّار الآخرة، ولاتنس نصيبك من الدّنيا، وأحسن كما أحسن ا لله إليك ولاتبغ الفساد في الأرض، إنّ ا لله لايحبّ المفسدين.﴾**.

وكلمة المُفسد مأخوذة من فَسَد اللّحم إذا أنتن بحيث لايمكن الانتفاع به على حسب ماوضّح صاحب الكلّيّات. ففسد ضد صَلُح. وأفسد ضد أصلح. وتفاسد القوم قطعوا الأرحام (محيط المحيط).

فمن مُنطلق دلالة لفظ الفساد والمفسد الواردين في الآيتين اللّتين أوردتهما للمؤمن السّالك، يسعى هذا المؤمن ليتعرّف على جذور الفساد فيتجنّبها، وعلى طريق الصلاح والإصلاح فيسلكه طلباً للفوز بمحبّة ربّه إيّاه وليحصل على قربه ورضاه. وا لله تعالى وهو علاّم الغيوب الذي يعلم سرّ المؤمن وأخفى من ذلك، لايترك هذا المؤمن يبحث هذا البحث ويتجّه هذا الاتجاه، ولايدله على مايريد معرفته ولايأخذ بيديه، بل يقيناً يرشده ويأخذ بيديه أيضاً.

والذي يتدبّر القرآن الكريم يلحظ أنّ ربّه قد عرّفه على جذور الفساد ودوافع الإفساد في الأرض. وذلك في الآيات ٢٠ إلى ٢٥ من سورة الرعد، حيث قال هناك:

﴿أفمن يعلم أنّما أُنزل إليك من ربّك الحقّ كمن هو أعمى، إنما يتذكّر أولو الألباب. الذين يوفون بعهد ا لله ولاينقضون الميثاق والذين يصلون ماأمر ا لله به أن يوصل ويخشون ربّهم ويخافون سوء الحساب. والذين صبروا ابتغاء وجه ربّهم وأقاموا الصّلاة وأنفقوا ممّا رزقناهم سرّاً وعلانية ويدرؤون

بالحسنة السّيئة أولئك لهم عُقبى الدار. جنّات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذريّاتهم، والملائكة يدخلون عليهم من كلّ باب. سلام عليكم بما صبرتم فنعم عُقبى الدّار. والذين ينقضون عهد ا لله من بعد ميثاقه ويقطعون ماأمر ا لله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللّعنة ولهم سوء الدّار. ا لله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، وفرحوا بالحياة الدنيا، ومالحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع.﴾.

فالمؤمن الذي يتدبّر هذه الآيات الكريمة يدرك أنّ ا لله تعالى ربّه وضّح له من خلالها جذور وأصول الفساد بشكل منقطع النظير. فقد وضح تعالى في الآية الأولى أنّه جل شأنه ميّز الإنسان على غيره من مخلوقاته بميّزة العقل وجعله بذلك من أولي الألباب. بينما ترك بقيّة مخلوقاته غريزيّين في تصرفاتهم ومسلكهم في هذه الحياة الدنيا. فما معنى "أولي الألباب"؟

الألباب جمع لبيب وهو الإنسان العاقل الذي لايفترُ عن مُلازمة أمر ربه (محيط المحيط) ويزيدنا جل شأنه في هذه الآية الأولى توضيحاً ويقول أنّ من لايستعمل عقله استعمالاً صحيحاً يكون في هذه الدنيا أعمى لأنّه لايتعظ بما أنزل ا لله في كتابه العزيز ولايتذكره، لذلك يظلّ أعمى محروماً من سلوك درب عِرفان ربه ومن كسب محبته وقربه ورضاه.

أمّا أولو الألباب الذين يستعملون عقولهم بعيدين عن عواطفهم وميولهم وعن التقليد الأعمى الموروث من عادات مجتمعهم ورسومه وتقاليده يتذكّرون ويتّعظون بما احتواه هذا القرآن الكريم من مواعظ وتعاليم، ويهتدون إلى سبيل الحقّ الذي أتى به هذا الرّسول الصّادق الأمين، فيسلكون درب عِرفان ربّهم ويفوزون بمحبته وقربه ورضاه.

وراح تعالى يعدّد في الآية الثالثة صفةً أخرى من صفات أولي الألباب موضّحاً أهمّ صفة ويقول: **﴿الذين يوفون بعهد ا لله ولاينقضون الميثاق﴾** أي أن أصحاب العقول لاتخدعهم القشور بل يبتعدون عنها ويغوصون إلى اللّباب استجابة منهم لعهد ا لله الذي أخذه عليهم حين ميّزهم بميزة العقل عن سواهم من المخلوقات. فأصحاب العقول يقدّرون هذه النّعمة ويوفون بعهد ا لله ولاينقضون الميثاق المذكور. لذلك تُلاحظهم يسلكون في حياتهم مسلكاً

عقلانيّاً، فيوازنون بين الأشياء فيأخذون بما يرضي ربّهم، ويحذرون مايكرهه ويُغضبه.

وراح تعالى يعدّد في الآية الثالثة صفةً أخرى من صفات أولي الألباب وقال: ﴿**والذين يصلون ماأمر الله به أن يوصل**﴾ أي لاتعود القشور في هذه الحياة الدنيا تُلهيهم بل يطيعون الله ربّهم في كلّ ماأمرهم به أن يوصل. ولايُطيعونه ظاهراً وقلوبهم لاهية عن ربّهم، بل يطيعونه ﴿**ويخشون ربّهم**﴾ والخشية تعني الخوف من ضياع شيء على حسب ماوضحه صاحب (محيط المحيط) أي يُطيع أولو الألباب ربّهم خائفين أن يخسروا بعدم اطاعتهم لأوامره محبّته وقربه ورضاه. ليس هذا وحسب، بل ﴿**ويخافون يوم الحساب.**﴾ أي يعلمون علم اليقين أنّ العاقل إن هو لم يقدّر نعمة العقل التي أنعم بها ربّه عليه، لابُدّ أن يُحاسبه ربّه على ذلك يخافون الآخرة ويحسبون ليوم الحساب حسابه، ويلتحفون بلباس تقوى الله على الدوام.

وقد أضاف جل شأنه صفة ثالثة من صفات أولي الألباب، وذلك في الآية الرابعة حيث قال: ﴿**والذين صبروا ابتغاء وجه ربّهم**﴾ والصّبر معناه المثابرة والدّوام على طاعة الله، والثبات في المكاره وتحمل الأذى ابتغاء وجه الله عزوجلّ فأولو الألباب المؤمنون السالكون درب عرفان الله تعالى يثابرون على طاعة ربّهم ويثبتون في المكاره وحين البأس ويتحمّلون كل أذى على هذا الدّرب ابتغاء وجه ربّهم يقيناً.

وعلامتهم الرّابعة كما عبّرت عنها الآية الرابعة هي ﴿**أقاموا الصّلاة**﴾ ولفظ الإقامة يحمل معنى الصّلاة جماعة أي يسعون إلى أداء صلواتهم على أوقاتها، وبشروطها جماعة مع سواهم من المؤمنين وتحت قيادة واحدة.

وعلامتهم الخامسة تضمّنها قوله تعالى مضيفاً: ﴿**وأنفقوا ممّا رزقناهم سرّاً وعلانية**﴾. فهم يُنفقون سرّاً حفاظاً على كرامة من يُحسنون إليه. وينفقون علانية تشجيعاً منهم لسواهم من النّاس على فعل الخيرات والتبّرع بالصدقات.

وراح تعالى في آخر هذه الآية الرابعة يوضّح حكمة اتّصاف أولي الألباب بهذه الصفات ويقول: ﴿**ويدرؤون بالحسنة السّيئة**﴾ أي أنّ وجود مثل هؤلاء النّاس في المجتمع يدفع عنه سيئاته ونواقصه ومعايبه.

وقد بشرّ ا لله تعالى أولي الألباب من المؤمنين السـالكين الذيـن يتصفـون بجميع هذه الصفات التي عدّدها لهم ، وقال: ﴿**أولئك لهم عُقبـى الـدّار**﴾. وراح تعالى ففسّر المراد مـن قولـه "عُقبـى الـدار"، بقولـه تعـالى، في الآيـة الـتي بعدهـا: ﴿**جنّات عدنٍ يدخلونها ومَنْ صلح من آبائهم وأزواجهم وذرّياتهم، والملائكة يدخلون عليهم من كل باب. سلام عليكم بما صبرتم فنعم عُقبى الدّار**﴾.

وخلاصة القول إنّ ا لله تعـالى عـرّف المؤمـن السـالك مـن خـلال هـذه الآيات من سورة الرعد على جذور الفساد وأصوله، ووسائل تدارك ذلـك فرديـاً واجتماعياً. مُرجعاً الفساد إلى عامل أساسي وهو عـدم استعمال الإنسـان لعقلـه بعيداً عـن عواطفـه وميولـه وعـادات مجتمعـه الموروثـة. وأن هـذا الإنسـان بقـدر مايكون عقلانيّاً في سـلوكه وتفكـيره وتصرفاتـه، يبتعـد عـن كـل فسـاد وإفسـاد يغضب ربه ويحرمه بالتالي من كسـب محبّتـه ورضـاه. ويهلـك جميـع مـاميّزه ا لله خالقه به من مزايا وصفات على ماعداه من المخلوقات.

كذلك نبّهت هذه الآيات الكريمة إلى أنّ الذي يستعمل عقلـه اسـتعمالاً صحيحاً لاتعود تخدعه سفاسف الأمور وقشـورها، بـل يغـوص إلى لُبابهـا نـزولاً ووفاء لعهد ا لله وميثاقه وإطاعـة لتعاليمـه ومواعظـه. واضعـاً نصـب عينيـه علـى الدّوام خشية ربه وتحسُّبه ليوم الحساب.

مثابراً على ذلك وصابراً على مايتأتى عنه ابتغاء وجه ربّه وكسب محبتـه وقربه ومرضاته. مقيماً الصلاة، مُنفقاً ممّا رزقه ا لله ربه سرّاً وعلانية.

فلما انتهى جـلّ شـأنه مـن توضيـح ذلـك كلّـه راح يتكلـم عـن الذيـن لايستعملون عقولهم، ولايكونـون مـن أولي الألبـاب. أولئـك الذيـن يستسـلمون لعواطفهم وميولهم ولتقليد ماورثوه من رسوم وعادات فوصفهم بقوله: ﴿**والذين ينقضون عهد ا لله من بعد ميثاقه ويقطعون ماأمر ا لله به أن يوصـل ويفسـدون في الأرض، أولئك لهم اللّعنة ولهم سوء الدّار.**﴾ أي أنّ الذين لايعقلون يعتبرون في نظـر ربّهـم نـاقضي عهـد ا لله وميثاقـه خصوصـاً وأنهـم لايطيعـون ا لله الـذي خلقهم ومنحهم هبة العقل، وهؤلاء وهـم علـى هـذه الحـال يفسـدون في الأرض ويزعمون أنهم مصلحون. أولئك يُحرمون من محبة ربّهم وعرفانه فلهم اللعنة أي البعد عن ا لله عزوجلّ، ولهم سوء الدّار أي سوء المصير الذي سيصيرون إليه.

وراح تعالى يغمز جانب هؤلاء المفسدين ويقول: ﴿الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، وفرحوا بالحياة الدنيا، وماالحياة الدنيا في الآخرة إلاّ متاع.﴾ أي أن هؤلاء المنحرفين عن صراط الله، يجعلون همّهم الحصول على متاع الدنيا أي الحصول على كلّ ماينتفع بـه مـن الحوائـج كالطعـام واللّبـاس وأثـاث البيـت والأدوات والسّلع. فهذه الأشياء يُطلق عليها اسم المتـاع علـى حسـب مـاورد في (محيط المحيط). وقال في الكليّات: المتاع والمُتعة مايُنتفع به انتفاعاً قليلاً غـير بـاق، بل ينقضي عن قريب. يسعون وراء تحصيل متاع الدنيا ظنّاً منهـم أنّهـم يحصّلـونّ مايحصلون عليه بسواعدهم في حين أنّ الله خالقهم هو الذي يمدّهم بهـذا الـرزق ليبلوهم به. فالله يبسط الرزق لمن يشاء ويقـدر. وإن هـؤلاء المنحرفـين المكتفـين بمتاع الدنيا، يخسرون في الوقت نفسه ماأعدّ الله تعالى لأولي الألباب مـن جنّـات عدن يدخلونها ومن صلح من آبـائهم وأزواجهـم وذريـاتهم كمـا يُحرمـون مـن أدعيةّ ملائكة الله الذين يدخلون على أولي الألباب من كلّ باب إشارة إلى أنواع الصالحات الـتي اشتهروا بأدائهـا في الحيـاة الدنيـا سـعياً وراء كسـب محبّـة ربهـم ورضاه.

وبعد أن وضح الله جـلّ شـأنه لعبـاده المؤمنـين السّـالكين درب عِرفانـه جـذور الفسـاد وأصولـه. راح يُعلـن لهـم في الآيـات ٢٧ ـ ٢٩ مـن سـورة (ن) اختلاف تعامل الله ربّهم مع هـؤلاء الفريقـين مـن النّـاس، وتمييزه المؤمنـين أولي الألباب على الناكثين عهد الله من الذين لايستعملون عقولهـم وينتهجـون نهـج تقليـد مـا هـو مـوروث في مجتمعـاتهم، وقـال: ﴿وماخلقنـا السّـماء والأرض ومابينهما باطلاً، ذلك ظنّ الذين كفروا، فويلٌ للّذين كفروا من النار. أم نجعل الذيـن آمنـوا وعملـوا الصّالحـات كالمفسـدين في الأرض، أم نجعـل المُتّقـين كالفُجّار. كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدّبروا آياته وليتذكّر أولو الألباب.﴾.

أي أنّ فريـق أولي الألبـاب يسـتعملون عقولهـم اسـتعمالاً صحيحـاً ويتفكّرون في أمر سماء هذا الكون وأرضه ومابينهما، ويحـاكمون مايتفكرون بـه ومايلاحظونه، ويتبيّن لهم بأسلوب علمي أن الله تعـالى هـو خـالق هـذا الكـون، وأنّه لم يخلقه باطلاً وبـدون مقصـد، بـل خلقـه لمقصـد هداهـم إليـه هـذا القـرآن العظيم. على حين أن فريق الكافرين الناكثين لعهد الله والذين لايسـتعملون هبـة العقل بعيداً عن العواطف والميول والتّقليد الأعمى، هـؤلاء تختلـط عليهـم الأمـور

ويظنّون أن هذا الكون وُجد من نفسه ولامقصد لوجودهم في هذه الحياة، وبالتّالي فلاتعود طاعة أوامر الله تعنيهم في شيء ويندفعون وراء قضاء شهواتهم دون وازع ولاضابط. وهنا أتى جل شأنه بفاء الاستئناف وقال منذراً هذا الفريق الثاني **﴿فويل للذين كفروا من النّار﴾** أي أنّهم يسلكون بذلك السبيل الموصل إلى نار النّدم والفجيعة في آخر المطاف. ثم أتى جل شأنه بحرف العطف (أم) الذي يفيد الإضراب وأعلن: **﴿أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض، أم نجعل المُتّقين كالفُجّار.﴾** أي أن المنطق يقتضي ألاّ نسوّي بين المؤمنين الذين استجابوا لربهم وعملوا الصّالحات، وبين الذين لم يؤمنوا ولم يعملوا الصالحات وكانوا من المفسدين في الأرض. وكيف نسوّي بين الفريق الذي كانت تقوى الله تعمر أفئدته وبين الفريق المفسد الذين كانوا فجّاراً تفجّرت المعاصي والآثام والافساد في الأرض في أعمالهم وحبّ التموّل والسّحر والتنجيم (محيط المحيط) بسبب كفرهم وابتعادهم عن طاعة الله وهدايته. كيف نسوّي بين فريقين كان العاقل المؤمن من الفريق الأول يتّقي مواقع الزّلل بُهدى تعاليمنا، وكان غير العاقل الكافر من الفريق الثاني غافلاً عن خالقه ومندفعاً وراء شهواته وميوله وأهوائه بلا وازع أو ضمير؟

وبعد أن أعلن جلّ شأنه هذا الإعلان الذي تبيّناه، استدرك وقال: **﴿كتاب أنزلناه إليك مباركٌ ليدّبروا آياته وليتذكّر أولو الألباب.﴾**. أي أننا أنزلنا إليك يامحمّد ياأكمل العقلاء وأعظم رجلٍ بين أولي الألباب، أنزلنا هذا الكتاب القرآن المبارك أي المُقدّس والمفعم بالبركات (محيط المحيط) أنزلناه إليك ليتدبّره جميع الذين وهبناهم هبة العقل وميّزناهم عن جميع بقية المخلوقات، ونحن نعلم أنّه لايتعظ بهذا الكتاب وتعاليمه ولايحصد من بركاته إلاّ أولو الألباب أي النّاس الذين يستعملون عقولهم بعيداً عن عواطفهم وميولهم وعن تقليد ماورثوه من رسومٍ وتقاليد. فأولو الألباب هؤلاء يستجيبون لك يامحمد ياأكمل العقلاء، ويسلكونَ سبيل عرفان ربّهم ويفوزون بمحبّته وقربه ورضاه.

والله جل شأنه راح يضرب لرسوله الكريم ﷺ في مختلف سور القرآن الأمثلة على هذا التفريق بين هذين الفريقين من النساس من حيث تجليّاته عليهم والعاقبة التي آلوا إليها، بشكل مثير ومدهش لعقول المتبصّرين.

ففي الآية (١٠١) من سورة الأعراف، وعلى سبيل المثال قال تعالى: ﴿**تلك القُرى نقصّ عليك من أنبائها، ولقد جاءتهم رسلهم بالبيّنات، فما كانوا ليؤمنوا بما كذّبوا من قبل، كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين. وماوجدنا لأكثرهم من عهدٍ، وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين.**﴾ أي أنّ مثال مايجري معك ياسيّد العقلاء قد جرى مع من أرسلنا من قبلك من رسلنا بالبيّنات فها أن تاريخ تلك القرى شاهد على مانقول.

وفي الآية (٩٠) من سورة الأعراف ضرب مثل قوم شعيب عليه السّلام وقال: ﴿**وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتّبعتم شُعيباً إنكّم إذاً خاسرون. فأخذتهم الرجفة، فأصبحوا في ديارهم جاثمين.**﴾. أي انظر يامحمد ياسيّد العقلاء كيف كانت عاقبة الذين كذّبوا شعيباً، ونكثوا عهدهم و لم يستعملوا عقولهم استعمالاً صحيحاً بعيداً عن عواطفهم وميولهم وعن تقليد ماورثوه من رسوم وتقاليد وكانوا بذلك من المفسدين في الأرض ومن الفجّار.

بهذا الأسلوب نبّه كتاب الله ذهن المؤمن السالك درب عِرفان ربّه والآمل أن يفوز بمحبة ربه وكسب قربه ورضاه، نبّهه إلى حقيقة عظيمة وهي أن يكون عقلانيّاً في مسلكه وتعامله وتفكيره، فلا يستسلم إلى عواطفه وميوله ولا إلى ماورثه من رسوم وعادات وتقاليد، وأن يحافظ على صلواته اليومية وذكر ربّه، وخشيته وتقوى الله تعمر فؤاده في كل خطوة يخطوها في حياته، ويحسب للحياة الآخرة حسابها ويتزوّد لها، فيصل مأمر الله تعالى به أن يوصل، فلا يخالف أوامر ربه ولايعصيه. فإن داوم هذا المؤمن السالك وصبر على هذا وثبت في الشدائد فلابدّ أن يفوز بمحبّة رّبه الذي خلقه لعبادته ومعرفته وقربه. ولابدّ أن يعرّفه على نفسه ولابدّ أن ينعم عليه بأعطياته، ولابدّ أن يعصمه من أن يكون من فئة الفُجّار المفسدين في الأرض.

سابعاً و ثامناً ـ والله لايحبّ الخوّان والكفور:

والكفور صيغة مبالغة من الكافر بنعمة الله وجحدها وسترها، وفي الكليات: الكفر تغطية نِعم المُنعم بالجحود. ويستعمل الكفر في أمور الدّين أكثر. بينما أن لفظ الكفران أكثر استعمالاً في جحود النعمة. ولفظ الكُفُور يستعمل فيها جميعاً. (محيط المحيط).

من هذا ندرك أن لفظ كفور الوارد في الآية (٣٨) من سورة الحج، في قوله تعالى: ﴿**إنّ الله يدافع عن الذين آمنوا، إنّ الله لايحب كلّ خوّان كفور.**﴾ القصد منه دلالة كفور على جحود نعمة الله تعالى وسترها، بدليل الإيتاء بهذا اللفظ في مقابل الإيمان. من جهة، وبسبقه بكلمة خوّان من جهة أخرى، فالخوّان صيغة مبالغة من خان بمعنى لم يؤتمن على نعمة العقل التي ميّز الله تعالى بها الإنسان على مَنْ سواه من المخلوقات. وعدم الائتمان هذا جرّ صاحبه ليكفر بأنعم الله الخالق الذي أنعم عليه بنعمة العقل.

ذلك أن الله تعالى وعد المؤمنين المؤتمنين على هبة عقولهم والمستعملين لها استعمالاً صحيحاً، أنْ يدافع عنهم لأنهم أضحوا من أحبائه ومقربيه. على حين أنه أمسى يكره الذين خانوا أمانة العقل، فلم يستعملوا عقولهم بعيداً عن عواطفهم وماتوارثوه، وكفروا بالتالي بأنعمه عزوجلّ. فهذا هو معنى قوله تعالى في الآية التي أوردناها: ﴿ **إنّ الله يدافع عن الذين آمنوا، إنّ الله لايحب كل خوّانٍ كفور.**﴾.

وإنّ الحقيقة التي طالما ألمحت إليها في مؤلّفاتي، هي أن الناس انقسموا منذ بعثة آدم عليه السلام إلى هذين الفريقين من الناس. وقد ثبت من معطيات تاريخهم صدق ماأعلنت عنه الآية من سورة الحج التي أوردناها.

هذا وإني نبّهت مراراً وتكراراً إلى قانون الاحتياج العام المهيمن في هذا الكون. والذي يثبت منه وجود الله تعالى ووحدانيته، واحتياج كل شيء إليه سبحانه وتعالى. وأنّ الله تعالى وفقاً لهذا القانون، قد جعل لكلّ حاسّةٍ من حواس الإنسان عاملاً مساعداً يساعدها على أداء عملها. وقد جعل للعقل عوامل ثلاثة تساعده ليعمل ويصدر أحكاماً صحيحة وسليمة على مستوى الماضي والحاضر والمستقبل. فالعامل الثالث الذي يعمل على مستوى الغيبيّات، هو الوحي السّماوي. وهاأنّ الوحي القرآني قد أنبأنا بنصوص صريحة واضحة عن أنّ كل شيء في عالمنا مخلوق ولوجوده مقصد أيضاً. وأن الله تعالى خلق هذا الكون ومافيه بما يساعد على استمرار حياتنا وتحقيق مقصد وجودنا أيضاً.

وقد أنبأ جل شأنه في سورة الدّهر عن أنّه صاغ فطرتنا على صورة تدع لكلّ منا حرية التفكير والاختيار ومنحنا الإرادة للسعي لتحقيق هذا المقصد. فالإنسان بإمكانه اختيار أحد طريقين: إما أن يستعمل عقله استعمالاً صحيحاً

فيهديه الله إلى وجوده وإلى الإيمان برسله تعالى وكتبه. وأما أن يُهمل الإنسان استعمال عقله بالأسلوب الذي ذكرناه، فيضّل بالتالي عن سبيل الله ويكفر بوجود خالقه وكتبه ورسله وبكلّ ماأنعم الله تعالى به عليه. وهذا ماعبّرت عنه الآية الثالثة من سورة الدهر: ﴿ **إنّا هديناه السّبيل إما شاكراً وإما كفوراً.** ﴾.

كذلك فإن الله عزوجلّ نبّه أذهان عباده إلى أنّ جميع مافي هذا العالم من أشياء ونعماء فمن عطاء الله الرحمن الرحيم. لقوله تعالى في الآية (٣٤) من سورة إبراهيم: ﴿**وإن تعدّوا نعمة الله لاتحصوها، إن الإنسان لظلوم كفّار.**﴾ أي أن الإنسان الذي لايستعمل عقله استعمالاً صحيحاً، يبيت كافراً بخالقه وظالماً لنفسه وكفّاراً بأنعم الله تعالى عليه.

وقد نبّه الله تعالى الأذهان في الآية (٤٠) من سورة النمل وعلى لسان سليمان الحكيم إلى أن الله هو في حقيقة أمره غنّي عن شكرنا إياه. وأنّ من يشكر الله على أنعمه إنما يشكر لصالح نفسه، ليكسب بهذا الشكر محبّة هذا الإله المنعم والمحسن إليه، ويفوز بالتالي بعرفانه وقربه ووصاله. أفلم نقرأ مانطق به سليمان عليه السلام وقال: ﴿.. **ليبلوني أأشكر أم أكفر، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه، ومن كفر فإنّ ربّي غنيّ كريم**﴾؟

من هذا كله ندرك أن من واجب المؤمن السالك درب عِرفان ربّه والسّاعي لكسب محبته تعالى وقربه، أن يحذر عند كل خطوة يخطوها في حياته اليومية من أن يصبح مُتّهماً عند ربّه بأنّه أصبح "خواناً كفوراً".

٩ ـ والله لايحبّ المسرفين

والصفة التاسعة التي يكره الله عزوجل أن يتّصف بها عبده المؤمن السالك درب التّعرف إليه والساعي إلى جذب محبته وكسب رضاه، هي صفة الإسراف بسبب العواقب الوخيمة المحتمل وقوعها نتيجة للاتّصاف بهذه الصّفة الذميمة.

فمن هم المسرفون؟ المسرفون جمع مسرف من أسرف ماله أي أنفقه وبذّره في غير طاعة ولاضابط لإنفاقه. أي أنّ المسرف هو من ينفق حدّ الهدر والتبذير ويشكل هدرُهُ وتبذيرُه معصيةً لأوامر ربّه عزوجلّ. أمّا إذا أكل هذا

المؤمن كفاية بطنه وشرب حاجته الطبيعية ولبس مايستر عورتـه ويبـدي حشـمته فلا يُسمى إنفاقه هذا من قبيل الإسراف والتبذير.

والسؤال هنا: ماهي حكمة وضرورة هذا التّقنين؟ وفي الجواب أقول: لقد أمر الإسلام المؤمنين باجتناب الإسراف دفعاً للنتائج التي يسفر عنها بمعناه الذي ذكرناه. وبالإمكان اختصار هذه النتائج حيث تتضمّنها الأمور الأربعة التالية:

أولاً ـ والنتيجة الأولى التي يُسفر عنها الإسراف هي معصية هذا المُسرف ربّه وخسارة محبته إيّاه. هذه نتيجة نصّ عليها كتاب الله عزوجلّ في سورة الأنعام بألفاظ صريحة حيث قال: ﴿.. **ولاتسرفوا إنّه لايحبّ المسرفين.**﴾. وهذه وصيّةٌ لم ينفرد الإسلام بالتوصية بها. بل إنه تعالى وصّى عباده بضرورة الالتزام بهذه الوصيّة وعدم الإسراف منذ بعثة آدم عليه السلام. أولم نقرأ ماتضمّنته الآيات (١٢٣ ـ ١٢٧) من سورة طه التي خاطب الله تعالى فيها آدم وزوجه قائلاً: (قال اهبطوا منها جميعاً بعضكم لبعض عدوّ فإمّا يأتينكم منّي هدىً فمن اتّبع هُداي فلا يضلّ ولايشقى. ومن أعرض عن ذكري فإنّ له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى. قال ربّ لِمَ حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً؟ قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها، وكذلك اليوم تُنسى، وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربّه ولعذاب الآخرة أشدّ وأبقى.).

هذا وإن الخطأ الذي ارتكبه آدم وزوجه سُمّي في هذه الآية الكريمة إسرافاً، أي تجاوزاً لكفايتهما إلى حدّ معصية الله تعالى ومخالفتهما لأوامره عن غير قصد.

وحينما قلت "عن غير قصد" استدللت على ذلك بالقرآن الكريم نفسه حيث ورد في نفس سورة طه الآية (١١٥) قوله تعالى: ﴿**ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً؟**﴾ أي أنّ إسراف آدم وذنبه الذي بدر عنه، صدر عن حُسن نيّةٍ وعن غير قصد منه. فلم يكن يسعى إلى معصيةٍ أوامرنا بشكل من الأشكال.

ثانياً ـ والنتيجة الثانية التي يسفر عنها الإسراف، هي تأثيره الخطر على الاقتصاد الوطني في كلّ دولة من دول الأرض. فالإسراف في كلّ شيء من

الأشياء يُعدّ أحد العوامل الرئيسية التي تزعزع أركان الاقتصاد. وقد أدرك الأوربيون هذه الحقيقة متأخّرين لذلك راح المتخصّصون عندهم يعيدون النظر في معالجة مُعطيات هذا الإسراف ومايسفر عنه حتى الآن. فلو أنّهم رجعوا إلى تعاليم هذا القرآن الكريم الذي أنزله خالقهم قبل أربعة عشر قرناً من الزّمان، لكانوا وفرّوا على أنفسهم ماأضاعوه وكسبوا في الوقت نفسه محبة هذا الخالق الهادي علاّم الغيوب.

هذا وبعمليّة بسيطة يدرك العاقل أخطار الإسراف على اقتصاده. فلو أسرف كل إنسان في تناول البيض على سبيل المثال، وتناول بيضة واحدة زيادة عن حاجته اليومية.

وكان عدد البالغين في الدولة الواحدة عشرة ملايين، فمعنى ذلك أنّ هذا الشّعب يُتلف عشرة ملايين بيضة عن طريق الاستهلاك المخالف للعلم في اليوم الواحد فإن ضُرب هذا العدد في عدد أيام السّنة فإنّ هذا الرقم يبلغ ٣,٦٥٠,٠٠٠,٠٠٠ ثلاثة آلاف وستمائة وخمسين مليون بيضة تُستهلك هدراً وإسرافاً. وعلى شاكلة ذلك يقاس كل نوع من أنواع الهدر والإسراف وعلى صعد الطعام والشراب واللباس والتبرّج بالحليّ والتزيّن.. الخ.

فإن وعى البشر ضرورة الابتعاد عن الإسراف والهدر، وبلغوا في ذلك حدّ تقوى الله وخشيته، وردّ هذا المؤمن مايُوفّره عن طريق التزامه بهذه الموعظة القرآنية على السائل والمحروم، لاتعود بعد ذلك من ضرورة للحدّ من النّسل وسواه من المطالبات.

ثالثاً - والنتيجة الثالثة التي يُسفر عنها الإسراف، هي أنّ الإنسان المليء المُسرف، تتضاءل في نفسه إحساساته بإخوانه من الفقراء والمعوزين من بني البشر. وبالتالي يتولّد عن ذلك فوارق اجتماعية وإحساس بطبقية وحقد اجتماعي ينخر في جسم الأمة الواحدة إلى درجة تعمل على تفكك مجتمعها، وتولّد بُؤر الثورات والفساد فيتآكل جسم هذا المجتمع كما ينخر السوس والدود في الأشجار والمزروعات. وذلك لفقدان روح التكامل والتضامن الاجتماعي نتيجة لإسراف الأثرياء أيضاً. وتفقد تلك الأمة محبة ربّها ورضاه فيدعها تتناهبها رياح الزّوال.

والإسلام فرض الصّيام لتدعيم روح التكافل والتضامن الاجتماعي المذكور. فهذه إحدى فوائد شهر الصّيام. إنما للمؤمنين الذين يدركون فلسفة الصيام ويصومون لتحقيق حِكمه وأهدافه المادية والرّوحية.

رابعاً - ثم إنّ النتيجة الرابعة التي يسفر عنها الإسراف، شديدة الخطورة إلى درجة كبيرة جدّاً. إذ أنّ من المعلوم أنّ كلّ حال لايدوم. والأفراد والأمم يتعرّضون بين الحين والحين لنكباتٍ وشدائد ودواهٍ. والإنسان الذي اعتاد الترف والإسراف وواجهته مثل هذه النكّبات، يستشعر في تلك الأيام أنّه كان قد فقد المناعة النفسية والجسدية التي يحتاجها المرء لمواجهة نكبةٍ تُلمُّ به، فيتهالك ويذلّ ويشقى دون أن يسمع صوتاً يقول ارحموا عزيز قوم ذلّ. ولاتغنيه في مداواة حاله تلك الكلمات.

أمّا المؤمنون الأتقياء الذين لم يُسرفوا و لم يقتُروا وكانوا بين ذلك قواماً. أولئك يأخذ الله بأيديهم، فلا يواجهون ضعف المناعة المذكورة عند الشدائد، بل إنّ الشّدائد تزيدهم صقلاً ولمعاناً وقُرباً من ربهم ورضواناً.

فهذه نتائج أربع خطيرة لابدّ أن يسفر عنها إسراف شعب من الشعوب، أو فرد من الأفراد. ولذلك يدخل موضوع الإسراف في دائرة الإفساد في الأرض، خصوصاً وأنّ جذر الإسراف هو معصية الله وقطع ماأمر الله به أن يوصل، وهذا أحد جذور الإفساد في الأرض كما تبيّناه سابقاً.

وهذه النتائج الخطيرة التي يسفر عنها الإسراف في المأكل والملبس وسواه من الأمور المعاشية، استدعت من ربّنا عزوجلّ أن ينبهنا إلى ذلك نحن المؤمنين السالكين سبيل عِرفانه، إلى تنبيهنا إلى خطورة الإسراف، وبأسلوبٍ علميٍ رائعٍ عديم المثال، وبمنطق ربّنا الرؤوف والرحيم بالمؤمنين.

وليُصغ كلّ مؤمن سالك إلى ماأورده جل شأنه في الآية (١٤١) من سورة الأنعام، فهو قدّم لنا بادىء ذي بدء دليلاً علميّاً، يعطيه الحقّ لنُصحنا وإنذارنا وقال وعزّ من قائل: ﴿**وهو الذي أنشأ جنّاتٍ معروشاتٍ وغير معروشات والنخل والزرع مختلفاً أُكُلُه والزيتون والرّمان متشابهاً وغير متشابه، كلوا من ثمره إذا أثمر، وآتوا حقّه يوم حصاده..**﴾. وهذه الكلمات تحوي دليلاً علمياً على وجود الله الخالق لهذا الكون ومافي هذه الأرض من حياة،

ولهذا الإنسان الذي توجّه الله تعالى إليه يهديه بهذه الكلمات وخلاصة هذا الدليل العلمي، هو أنّ من يزعم وجود هذا الكون من نفسه، يحتجُّ بالصّدفة والضرورة التي تتنافى والعلم موضوعيّاً. ففي هذه الكلمات من هذا الشطر من الآية الكريمة عدّد الذي أنزل القرآن الكريم عناصر تعد بالعشرات وتصبّ في بوتقة واحدة ولتحقيق غاية سامية. فهو تعالى ابتدأ بضمير (هو) تحريكاً لعقول المفكرين، واستعمل فعل (أنشأ) المتعدي ومن نشأ الذي يفيد حَيِيَ وحَدَثَ وتجدّد. ليدفع القارىء ليتساءل عمّن أخرج هذه الأشياء وأحياها من الأرض الجامدة الموات وعن حدوثها بهذه الأنواع والألوان والأشكال ومايحمل كُلٌّ منها من خواصّ ومنافع.

وليتساءل أيضاً كيف تضّمنت أنَّ هذه الأشياء أعضاء تناسلها وتجددها؟ فهذه التساؤلات والمعاني تضمّنها فعل أنشأ وحده على حسب ماأفاده من معان تضمّنها معجم (محيط المحيط) وسواه من المعاجم اللغوية.

وأضاف إلى هذا وذاك إصدار الأمر بالقول (كلوا من ثمره إذا أثمر، وآتوا حقّه يوم حصاده..). إشعاراً منه عزوجلّ للقارىء أن جميع هذه النعماء، إنما سخّرها الله تعالى لصالح هذا الإنسان. وأن على هذا الإنسان أن يعالج زراعة وحصد وقطف ثمار هذه الأشياء بأسلوبٍ علمّي وليس بأسلوبٍ بدائّي عشوائي.

فلما انتهى جل شأنه من تقديم هذا الدليل العلمي يثبت وجوده، ووجود مقصدٍ من حياة الإنسان ومن وجود هذه الأشياء جميعها، أضاف تعالى ناصحاً ومحذراً وقال: **﴿ولاتسرفوا، إنّه لايحبّ المسرفين.﴾** أي استعملوا جميع هذه الأشياء بأسلوب علمي وبنهج السالكين درب عرفان ربّهم والطالبين الفوز بمحبته ورضوانه، واعلموا أنكم إذا انتهجتم سبيل الإسراف تخسرون في مقابل ذلك محبة هذا الخالق وعِرفانه. فهو لايحبّ المسرفين.

وراح جل شأنه يزيدنا إيضاحاً وقال: **﴿ومن الأنعام حمولةً وفرشاً، كلوا مّما رزقكم الله، ولاتتبّعوا خطوات الشّيطان، إنّه لكم عدوٌّ مبين.﴾** أي لاتقولوا إنّ هذه الثمار وحدها لاتكفي لتأثيث بيوت تقطنونها. وأنكم بحاجةٍ إلى مايساعد على حملها ونقلها إلى دوركم. بل خلق لكم **﴿ومن الأنعام حمولة وفرشاً﴾** وهذا جميعه رزق سبق أن هيّأه الله الخالق من أجل وجودكم ودوامه، ومن أجل تعريفكم على الله الذي رزقكم جميع هذا الرزق الكامل المتكامل لذا

يأمركم ﴿كلوا مما رزقكم الله﴾ وهنا أتى باسم الجلالة الله الجامع لجميع الأسماء الحسنى تدعيماً منه تعالى لضمير (هو) الذي افتتح به هذا الدليل والكلام على وهذا الرزق كله؟ فمن ينكر هذه الحقائق إلاّ الشيطان؟ أي إلاّ الوجود الذي لابدّ أن يؤول إلى الهلاك والاحتراق بالنّار؟

فلما بلغ جل شأنه هذا الحدّ من البيان حذّر هذا المؤمن السالك درب عِرفان ربه والطالب ودّه ومحبته، وقال: ﴿.. ولاتتّبعوا خطوات الشيطان إنّه لكم عدٌّو مبين.﴾ وبهذه الألفاظ أعاد إلى ذهن هذا المؤمن السّالك ماحدث عند بعثة أول نبي وهو آدم عليه السلام وكيف أنّ من أنكر ماجاء به وقاومه وسلك سبيل الإسراف آل أمره إلى الهلاك والدمار.

وأن جميع من سلك مسلك ذاك الشيطان وكان من ذريته أفسدوا في الأرض بعد إصلاحها، وماأثبتوا في يوم من الأيام إلا أنهم عدّو للإنسان المؤمن، وعدّو مبين.

أي أنّه جل شأنه ذكّر المؤمن السالك من خلال هذه الألفاظ ماأورده من إنذار وتحذير لآدم ومن سار مساره وذلك في الآية (١٢٣) من سورة طه ﴿وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربّه، ولعذاب الآخرة أشدّ وأبقى.﴾.

هذا الدّليل على وجود الخالق وهذا التحذير من الإسراف وأخطاره يكشف لنا السّتار عن سرّ مخاطبة الله عزوجل بني آدم في الآية (٣١) من سورة الأعراف حيث قال: ﴿يابني آدم خذوا زينتكم عند كلّ مسجد، وكلوا واشربوا ولاتسرفوا، إنّه لايحبّ المسرفين.﴾ فهو جلّ شأنه ربط موضوع التزّين ظاهراً وباطناً عند كلّ مسجد في هذه الآية الكريمة بأمرين ظاهرين الأول هو التذكير بعهد بعثة آدم وماأنزله عليه من تعاليم. والأمر الثاني علاقة هذا التزّين أي نظافة الثياب الظاهرية ونظافة الصفات الباطنة المتعلقة بالقلوب والصّدور بموضوع الطعام والشراب والاعتدال فيهما. بمعنى أنّ الذي يُسرف في طعامه وشرابه يكون عاصياً ربّه ولايكون نظيفاً معنوياً على كلّ حال. ولو لم يكُن المقصود من هذا الربط هذه الدّلالة فلايكون من معنى للجمع بين خذوا زينتكم عند كلّ مسجد وبين كلوا واشربوا ولاتسرفوا في هذا المقام. وبألفاظ أخرى يقول جلّ شأنه لاتكتمل تقوى المؤمن السالك درب عِرفان ربّه وزينته إلاّ

إذا امتاز باعتداله في طعامه وشرابه ولم يسرف ولم يبذّر ولم يتتبّع خطوات الشيّطان الذي عادى آدم وكان رأس الحربة لنسلٍ مفسدٍ في الأرض.

أمّا إذا جمع هذا المؤمن السالك بين اتخاذ الزّينة ظاهراً وباطناً، وبين الاعتدال في الطعام والشراب وعدم الإسراف فيهما يُعد في نظر ربّه محبوباً ومن المقرّبين.

وإشارة إلى هذه الحقيقة التي وضّحناها ورد وصف الله عزوجل المؤمنين الصادقين في الآية (٦٧) من سورة الفرقان بقوله تعالى: ﴿**والذين إذا أنفقوا لم يُسرفوا ولم يقتروا، وكان بين ذلك قَواماً.**﴾. وإشارة إلى الحقيقة نفسها ذكّرنا جلّ شأنه بما كان يدعو به رسله والذين آمنوا معهم دوماً بقوله تعالى: ﴿**وكأيّن من نبّي قاتل معه ربيّون كثير فما وَهنوا لِما أصابهم في سبيل الله وماضُعفوا وما استكانوا والله يحبّ الصّابرين. وماكان قولهم إلاّ أن قالوا: ربّنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبّت أقدامنا وانصُرنا على القوم الكافرين. فآتاهم الله ثواب الدنيا وحُسْنَ ثواب الآخرة والله يُحبُّ المحسنين.**﴾.

وقد يطرح المسرفون سؤالاً ويقولون إنّنا ممّن أنعم الله عليهم وزادهم سعة في الرّزق. ونحن نؤتي السائل والمحروم حقّه في أموالنا، وإذ نحن نبذخ ونسرف لايكون بذخنا وإسرافنا بقصد التبذير والإسراف وإنما بقصد التنعّم بما رزقنا الله من فضله. فهل يشملنا التحذير من الإسراف الذي تضمّنته الآيات التي أوردناها؟

وقد أخذ القرآن الكريم مثل هذا السؤال بعين اعتباره، وأجاب الله تعالى فيه على هذا السؤال في الآية (١٢) من سورة يونس بقوله عزوجلّ: ﴿**وإذا مسّ الإنسان الضرّ دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً، فلّما كشفنا عنه ضُرّه مرّ كأن لم يدعُنا إلى ضُرّ مسّه، كذلك زُيّن للمسرفين ماكانوا يعملون.**﴾. علماً بأن الضُّر معناه على حسب ماأورده أصحاب المعاجم: سوء الحال والشّدة (محيط المحيط). وورد في الكُليّات: الضُّر بالضّم خاص بما في النّفس كمرضٍ وهُزال. وعليه فإنّ الله عزوجلّ يجيب على السؤال الذي ذكرناه بأنّ من سيئات ومخاطر الإسراف على المُسرفين أن يمرضوا ويصابوا بالهُزال نتيجةً لإسرافهم في طعامهم وشرابهم وعدم تقيّدهم في ذلك كلّه بأسسٍ علمية.

فإذا مسّ مثل هؤلاء الضرّ الناتج عن الإسـراف يدعوننـا مهمـا اعـتراهم من مرض ومهما كانوا فيه من حال لنتغاضى عـن معصيتهـم الـتي أبعدتهـم عنّـا، يدعوننا لجنبهم.

وحين نكشف عنهم هذا الضّر الذي ألمّ بهم، لايرتدعـون بـل يعـودون إلى سابق سيرتهم كأن لم يدعونا إلى ضُرٍّ مسّهم. فإن تساءل أحدهم عـن سـبب هذا الضرّ ومآآل إليه حالهم مع أنهم يتقّون ربّهم ولاينوون معصيته فيما يسـرفون به من طعام وشراب فليعلموا أن لادخل للنيّة في هذا الأمر علـى شـاكلة القـاضي لايـأخذ بعـين اعتبـاره جهـل المذنـب بالقـانون. والحقيقـة هـي ﴿**كذلـك زُيّـن للمسرفين ماكانوا يعملون**﴾ بمعنى أنّ الله تعالى لايحاسب في مجال الإسراف عن النيّات بل عن مخالفة النهج العلمي في السـلوك ومعصيـة الله علـى هـذا الصعيـد. فقـد زُيّـن للمسـرفين ماكـانوا يعملونـه دون سـندٍ شـرعيّ. ذلـك أنّ للإسـراف أخطاره الوخيمة على جميع صُعد الحياة ومنها صعيد أجساد المسرفين.

وإلى هنا لابدّ أن يكون المؤمن السالك درب عِرفان ربّه قد علم بأخطار الإسراف في الطعام والشراب واللّباس وسواه من الأمور الحياتية، ولابدّ أن يكون قد أدرك أنّ الإسراف يدخل في باب الإفسـاد في الأرض. علـى اعتبـار أن جـذر الإسراف وجذر الفساد واحد وهـو قطـع مـاأمر الله بـه أن يوصـل. ولابـدّ لهـذا المؤمن السالك أن يكون قد أيقن أن إسرافه سيُبعده عن ربّـه ويفقـده ودّه ومحبّتـه ويجلب عليه كرهه وبغضه والويلات التي تنتظر المسرفين. لذلك يحاول هذا المؤمن السّالك الحذر كل الحذر مـن أخطـار هـذا الوبـاء الخطـر علـى كيانـه الروحـاني والجسماني ومجتمعه واقتصاد بلده أينما كـان. آخـذاً بعـين اعتبـاره الوعـد الـذي قطعه ربه على نفسه في الآية التاسعة من سـورة الأنبيـاء بحـق المؤمنـين السـالكين درب عرفانه والبعيدين عن الإسراف وعن معصيته تعالى بقوله عزّ وجلّ : ﴿ **ثـم صدقناهم الوَعْد، فأنجيناهم ومن نشاء، وأهلكنا المسرفين.**﴾.

١٠ ـ والله لايحبّ الظّالمين :

والصفة العاشرة والمذمومة في نظر الله عزوجلّ، والـتي يكـره تعـالى أن يتّصف بها عبده المؤمن السالك درب عِرفانه والمجاهد للفوز بمحبـة ربـه وكسـب رضاه هي صفة الظّلم، ذلك أنّ الله تعالى يقول ﴿**والله لايحبّ الظالمين.**﴾.

فماهي دلالة هذا اللّفظ؟ الظلم اشتق من ظلم بمعنى وضع الشيء في غير موضعه. وهو اسمٌ من ظلم، ومصدره الظَّلَم (معجم القاموس). ومعنى ظلم فلانٌ فلاناً أي جار عليه وانتقص من حقّه. وظلم الأرض: حفرها في غير موضع حفرها. وظلم البعير: نحره من غير داءٍ ولاعلّة. وكلّ ماأعجلته عن أوانه فقد ظلمته. فإن قلت: ماظلمك أن تفعل أي مامنعك أن تفعل. (محيط المحيط).

وقد يتساءل المرء: لماذا يظلم الإنسان أخاه في الإنسانية؟ والجواب يكمن في مرض الأنانية وحبّ الذّات وبشكلها المفرطِ البعيدِ عن الاعتدال. فالأناني لايحبّ لأخيه مايحبّه لنفسه بسبب محبّته ذاته أكثر من محبّته سواه. فمن كان أنانيّاً ومحبّاً لذاته أكثر من محبته لسواه من الناس، تعميه أنانيته وتدفعه على طريق ظلم أخيه. أي تدفعه أنانيته لينقص من حقوق سواه ليضمّ ذلك إلى حقوقه ويظلم بذلك أخاه.

والأناني وهو على هذه الصورة من التّعامل يتسبّب في كره الناس إياه وبالتالي يجلب كُره ربّه إياه أيضاً ويخسر محبته وقربه ورضاه.

والظّلم بمعنى الانتقاص من حقوق الآخرين يمثل أساساً عاطفة عنفٍ واغتصاب. على حين أن المحبّة تمثل عاطفة سلام ومسالمة وأداة تعايش بين الأحبّاء. فلايكون محبّاً حقيقياً من لايضحّي بشيء ما في سبيل محبوبه. ويستحيل أن يتحابّ مسالم وأنانيّ.

من هذا ندرك أن عاطفتي المحبّة والظّلم هما على طرفي نقيضٍ تماماً. المحبّة تحمل معها روح التعايش والسّلام على حين يحمل الظلم روح العنف والاغتصاب لحقوق الآخرين. وعليه فلاسبيل للظالم ليكسب محبّة ربه. بل على العكس من ذلك إنّ ظلم وأنانيّة هذا الشخص تجلب عليه كُره خالقه وكره الذين ظُلموا على يديه.

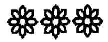
أمّا الإنسان المؤمن السالك درب عِرفان ربّه وتقوى الله وخشيته، والذي يحاسب نفسه على كل صغيرةٍ وكبيرة تصدر عنه ولاينقص حق أحد من الناس فهو الإنسان الذي أشار إليه البيان الإلهي في الآيات (١٣٨ ـ ١٤٠) من سورة آل عمران والتي قال تعالى فيها: ﴿**هذا بيانٌ للنّاس وهدىً وموعظةٌ للمتّقين. ولاتهنوا ولاتحزنوا وأنتم الأعلَون إن كنتم مؤمنين. إن يمْسسكُمْ قرْحٌ فقد مسّ القوم قرحٌ مثلُه، وتلك الأيّام نُداولها بين النّاس وليعلم الله الذين**

آمنوا، ويتّخذَ منكم شُهداء، وا لله لايحبّ الظالمين.﴾ أي أنّه طالما دأب المؤمن السالك سبيل معرفتي وهو يطلب ودّي ومحبتي ورضاي، وطالما تجنب انتقاص حق سواه من النّاس فلم يظلم أحداً منهم وطالما وضع خشيتي وتقواي نصب عينيه. فهذا بيان إلهيٌّ أُعلنه لكل مؤمن سالك ولكل إنسان ليكون هدى وموعظة للمتّقين.

ففيه أعلن ا لله تعالى للناس جميعاً أنه يستحيل أن يفوز بمحبتي وقربي إلا الإنسان المؤمن بما أقول والسالك درب عرفاني والذي يكون تقيّاً. وأتوجّه ببياني هذا إلى الذي يوقّر بياني هذا ويعمل عليه. اعلمْ يامن استجبت لبياني وندائي أنت وكلّ مؤمن به أنّكم أنتم الذين ستكونون الأعلين والفائزين بمحبتي وقربي ورضاي، وستكون لكم وحدكم العاقبة الحميدة دنيا وآخرة، فلا يوهنكم ولايُحزنكم ماأبتليكم به وأمتحنكم وأصيبكم بقرح أي نقص في الأموال والأنفس والثمرات. فقد امتحنت وأصبت بهذا القرح أي بهذا النقص في الأموال والأنفس والثمرات هؤلاء الظالمين أيضاً الذين خسروا ودّي ومحبتي وقربي ورضاي وساءت عاقبتهم دنيا وآخرة. **﴿وتلك الأيام نداولها بين النـاس﴾** فهذا قانون استننته ليُهيمن على وجود الإنسان الذي خلقته، لأمحّص به الذي يؤمن ببياني هذا ويأخذ بهداي وموعظتي، ممّن يكفر به ويستغرق في أنانيته وظلمه وانتقاصه من حقوق سواه من العباد.

وا لله عزوجلّ الذي أدلى بهذا البيان الإلهي الذي احتوى على هدى وموعظة للمتّقين. وبألفاظٍ موجزة وبليغة. جاء بما يشرح هذا البيان بألفاظٍ أخرى في سورة (المؤمنون) التي استهلها بالكلام عن المؤمنين الفالحين. وقال في الآيات (٥٧ و ٦٢) منها: **﴿إنّ الذين هم من خشية ربّهم مشفقون. والذين هم بآيات ربهم يؤمنون. والذين هم بربّهم لايشركون. والذين يؤتون ماأتوا وقلوبهم وجلةٌ إنّهم إلى ربهم راجعون. أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون. ولَانُكلّفُ نفساً إلاّ وُسعها ولدينا كتاب ينطق بالحقّ وهم لايُظلمون.﴾**. أي أنّ قانون الابتلاء العام الذي نبّهنا إليه في الآية (١٣٨) من سورة آل عمران، يضبط ذاك القانون ضابطان: الأول هو أننا لانكلّف نفساً إلا وُسعها. والثاني أننا ألزمنا كل إنسان طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً ينطق بالحقّ، ويكشف أعمال الإنسان التي عملها في دنياه، بالحق، أي بالعدل

والصّدق وهذا هو معنى "الحق". وإن هؤلاء الأنانيين الذين يظلمون سواهم من الناس وينتقصون من حقوقهم، "لايُظلمون" فيما سيلاحظونه مكتوباً في كتابهم الذي أحصى أعمالهم، لأننا لانعامل هؤلاء الظالمين بالموازين التي يعاملون بها إخوانهم من البشر أمثالهم بل إنّ ميزاننا هو الحقّ أيْ يتّصف بالصدق فيما سجّله وبالعدل في إصداره النتائج والأحكام التي يُصدرها ضدّهم.



الفصل الثاني
كيف تفوز بمحبّة الله تعالى ؟

أولاً ـ أن تتجنّب الاتصاف بالصّفات العشر المذمومة في كتاب الله وهي المختال الفخور والمعتدي والخوّان والأثيم والفَرِح والمفسد والخوّان والكفور والمسرف والظالم.

وهي الصّفات التي حذّر القرآن الكريم المؤمن السالك سبيل عِرفان ربه والطالب بالفوز بمحبّة خالقه ورضوانه، حذّره من أن يتصف بهذه الصفات المذمومة في نظر ربه عزوجل.

ثانياً ـ أن تتذكّر أنّك ستمرّ بمراحل أربع للفوز بمحبة ربّك وهي : الرغبة والأنس والودّ والمحبة. هذه الألفاظ التي أتى بها القرآن الكريم ليشير ويعبّر بها عن مراحل العرفان الإلهي الذي يوصل المؤمن السالك إلى الفوز بمحبّة الله عزّوجل .

ثالثاً ـ أن تعمد إلى الذرائع التالية :

١ ـ تمتين القاعدة : إن أول هذه المراحل وهي مرحلة الرغبة إلى الله تعالى والوارد ذكرها في الآية (٩٠) من سورة الأنبياء، بقوله تعالى: ﴿**إنّهم كانوا يُسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً.**﴾ وبمناسبة الكلام عن أنبياء بني اسرائيل. إنّ في ذكر هذه المرحلة إشارة إلى أنّ المؤمن السالك بعد إيمانه وبيعته يمرّ بمرحلةٍ ضبابيةٍ تتراوح بين رغبةٍ للتعرّف على الخالق، ورهبةٍ من جلال هذا الخالق. وبالإمكان إطلاق عبارة "قاعدة الانطلاق" أو حالة التّحفّز" على هذه المرحلة من العِرفان الإلهي.

وكلمة القاعدة أو الحافز، استلهمتُها من قانون طبيعي يسود عمله كل الأصعدة. فلو أننا أمعنا نظرنا في بناء المجتمع، أيّ مُجتمع، لاحظنا أنّه عبارة عن مجموعةٍ من الأُسَر تكوّن منها هذا المجتمع المذكور. فإذا عُدنا إلى الأسرة الواحدة لاحظنا تكوّنها من اجتماع ذكرٍ وأنثى وتوالدهما وتكاثرهما عن طريق الجماع.

وإذا ازددنا إمعان نظرٍ نصل إلى وجود قاعدة أو حافز يشكّل أساس عملية الجماع وثمارها، وهي هذه الشّهوة الجنسيّة لدى الذكّر والأنثى في آن واحد. فلولا وجود هذه الشهوة وهذه القاعدة التي شكّلت الحافز الطبيعي على اجتماع الذكر والأنثى، لاستحالت إمكانية الاستجابة لتشكيل أسرة وبالتالي لكان استحال تشكيل المجتمعات.

ثم إننا لو أمعنّا نظرنا في علم الرياضيات نلاحظ أنّ نفس القانون يعمل على صعيده. فلابدّ من إيجاد معادلات لحلّ أعقد المسائل الرياضية، وتشكل القاعدة والحافز على حلّها.

وفي المتاجرة لابدّ من توفّر رأسمالٍ يشكل القاعدة والحافز على صعيد المتاجرة ومضاعفة الأموال.

المهّم أنّ ملامح هذا القانون الطبيعي تتراءى للباحث على صعد الحياة جميعها، وليس الدّين بمنأى عن هذا القانون الطبيعي. هذا وإنّ مقام الرغبة الذي يعقُب الإيمان والبيعة والذي صرحت به الآية (٩٠) من سورة الأنبياء التي أوردناها، إنّما يشكّل هذه القاعدة وهذا الحافز للانطلاق منه على درب معرفة الخالق والتقرّب منه والفوز بمحبته ورضوانه.

ودور الرّغبة إلى الله على قدر فعاليته يشكل بمجموع مايرتّبه على هذا المؤمن المبايع من مسؤوليات، الأساس والقاعدة والحافز الذي يساعد هذا المؤمن على الانطلاق، انطلاقة صحيحة على درب العرفان الإلهي الطويل واللانهائي.

وكما أنّ الشهوة الجنسية تثمر تشكيل أسرة ومجتمعاتٍ إنسانية. فإنّ مقام الرغبة ومسؤولياته لابد أن يعطي ثماره اليانعة التي أشارت إليها الآية (٩٦) من سورة مريم في قوله تعالى: ﴿ **إنّ الذين آمنوا وعملوا الصّالحات سيجعل لهم الرحمن وُدّاً.** ﴾ أي ستثمر الفوز بودّ الله ومحبّته. ذلك أن صفة الرحمن الواردة في هذه الآية الكريمة تفيد منبع العطاء والكرم والرحمة. وهذه الآية صيغت بأسلوب تصريف معانيها بمختلف الاتجاهات على حسب ماوضحته في حينه من شروح سابقة. فقد أتى تعالى في هذه الآية الكريمة بلام شبه التمليك (لهم). وأتى بلفظ (ودّاً) غير معرّف أيضاً.

وعليه فإنّ مسؤلية القيام بالصلاة والصوم والحج والزكاة وغيرها من أشكال الذكر الإلهي تشكّل وفقاً للقانون الطبيعي الذي ذكرناه القاعدة التي

ينطلق منها المؤمن على درب عِرفان ربّه عزوجلّ. فمقام الرغبة يشكّل الحافز على درب معرفة ربّنا عز وجلّ. وبقدر تمتين هذه القاعدة وتأسيسها على خشية الله وتقواه ، يكون الإثمار أعظم وأكثر لذّة ومذاقاً.

فهذا المقام وهذه القاعدة والحافز تشكّل الذريعة الأولى لجذب محبّة الله ورضوانه وبالإمكان تسميته بذريعة الذكر الإلهي. وقد سبق لي أن شبّهت هذا المقام بدحرجة طينٍ على طين آخر، لايتمازجان، بل تلتقط إحدى الكُتلتين ذرات طين من جسم الكتلة الأخرى.

أو يشبه مايصل إلى فم الإنسان من ذرات سكّر متطايرة حين يصبّ محتويات كيسٍ من السكّر في كيسٍ آخر سواه. وهذا المقام هو مقام مسؤولياتٍ وعملٍ لابدّ من الاستعانة بالصبّر للثبات عليه لنُدرة مايفيد من أثمار. ولذلك فإنّ الذّاكرَ لايستشعر الصلة المطلوبة بربّه عزوجل. ولابدّ له من أن يعمد إلى الأخذ بذرائع أخرى غير ذريعة الذّكر بأشكاله المختلفة، لتكون له الوسيلة التي تساعده على جذب محبّة وكسب قرب ربّه ورضوانه. والذريعة الثانية المساعدة على هذا الطريق، هي مرحلة الفكر والتدبّر لكلّ مانقوم به من ذكرٍ إلهي.

٢ً - أن تعتاد التفكّر وبنهجٍ روحيّ : إن مرحلة ذريعة الذكر تضمنتها الآية (١٥٢) من سورة البقرة ﴿.. **فاذكروني أذكركم**..﴾ وكلمة (فاذكروني) أشارت إلى جميع أشكال الذكر الإلهي كما سلف أن بيّناه من صلاة وصيام وحجّ وزكاة وسواها من العبادات. وإن كلمة (أذكركم) نبّهت إلى ثمار هذه الأذكار المحدودة فلم يقل تعالى: فاذكروني أحبّكم بل أذكركم وهي كلمة لاتفيد المحبة. بل التوجّه والتذكّر ليس إلاّ.

وقد أضاف جل شأنه بعد هذه الآية مباشرة قوله: ﴿**ياأيها الذين آمنوا استعينوا بالصّبر والصّلاة، إنّ الله مع الصّابرين.**﴾ ليشير من خلال ذلك إلى الذريعة الثانية لكسب محبّته وهي مرحلة التفكّر فيما نقوم به من أشكال ذكر إلهي وأن نداوم على ذلك أيضاً. أمّا كيف استنبطت ذلك فآتي على بيانه فيما بعد.

والذي أرغب ببيانه أولاً هو أنّه كما أنّ ذريعة مرحلة الذّكر استندت إلى قانون طبيعي ذكرته في حينه. فإنّ مرحلة الفكر التي تشكل الذريعة الثانية قد استندت إلى قانونٍ طبيعيٍ آخر هو أنّ لكلّ فعل ردّ فعل. أي أن كل شيء يترك

آثاره سلباً أو إيجاباً. وإنّ ذريعة الفكر التي تضمنتها الآية التي ذكرتها لها آثارها الإيجابيّة في أدمغة المؤمنين الذّاكرين. ففي حين تُعدّ مسؤوليات الذكر الإلهي أداة تذكير، فإنّ عملية الفكر هي أيضاً عملية جراحيّة لدماغ المؤمن الذّاكر بشكلٍ من الأشكال.

أعود إلى قوله تعالى: ﴿**ياأيها الذين آمنوا استعينوا بالصّبر والصّلاة إنّ الله مع الصابرين.**﴾ وأتساءل: لماذا قال تعالى (استعينوا) و لم يقل (ثابروا)، بعد أن قال: ﴿..**فاذكروني أذكركم..**﴾؟ خصوصاً وأن الصبر والصّلاة ليسا بشيئين ماديين.

ورأيي هنا أن الله تعالى أراد بفعل (استعينوا) لفت ذهن المؤمن السّالك إلى أنّ الذكر الإلهي كذريعة على درب العرفان يحتاج إلى دعمه بذريعةٍ أخرى، وهي أن يداوم هذا المؤمن السالك على حمل المسؤوليات التي ترتبّها على كاهله أشكال الذكر العديدة، وأن يركّز على جانب الفكر المأمور بالأخذ به في صلاته خاصة، ليكسبه ذلك قرب ربّه ومعيّته، فالله مع الصابرين.

ودليلي على صحّة ماذهبت إليه من معنى، هو أنّه جل شأنه جاء بقوله هذا استدراكاً منه لدلالة (فاذكروني أذكركم) التي لاتفيد إلا معنى التذكّر وليس المعية والصّحبة.

والأمر الثاني هو أنّ من المعروف أنّ الصلاة في حقيقتها هي ذكرٌ إلهيّ ولقوله تعالى في سورة طه: ﴿**أقم الصّلاة لذكري**﴾. لذلك يُعّد الإيتاء بلفظ الصّلاة هنا تنبيهاً منه جل شأنه إلى جانب الفكر المأمورين بالأخذ به في صلواتنا. هذا الشرط المطلوب لتصحّ صلاتنا والذي تضمنته الآية (٤٣) من سورة النساء حيث قال تعالى هناك: ﴿**ياأيها الذين آمنوا لاتقربوا الصّلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ماتقولون..**﴾ أي حتى تزدادوا علماً بما يحمله ربكم من صفاتٍ وأسماء حسنى ودلالات لهذه الصفات والأسماء. ذلك أنّه كلّما ازداد علمكم بهذه الحقائق، ازدادت معرفتكم بربّكم الذي تعبدونه وبشكلٍ طبيعي ووفقاً لقانونٍ طبيعيٍ مسنون من أن لكلّ فعلٍ ردّة فعل وتأثيراً.

والله جل شأنه وقد أنهى الآية بقوله تعالى:﴿ **إن الله مع الصابرين.**﴾، و لم ينُهها بقوله إن الله مع المصلين أو يحب الصابرين المصلين، لم يفعل ذلك دون حكمةٍ ودلالة، بل إنه حين أتى بكلمة (مع) الدّالة على الاجتماع والمصاحبة كما

ذكر ذلك صاحب محيط المحيط. أتى جل شأنه بكلمة (مع) هذه تنبيهاً إلى أنّ الذي يتفكّر فيما يقرأه ويذكر به ربّه في صلاته، إنّما يفيد في تقريب هذا المؤمن من ذات ربّه ومصاحبته على طريق السّعي الدّائب للتعرف إليه عزوجل. فإذا تعوّد المؤمن السالك درب عرفان ربّه على التفكّر فيما يقرؤه ويسبح به ربه، تعود عادة التفكّر هذه ذريعة ثانية لجذب محبة هذا الخلاق والفوز بقربه ورضوانه ويدخله الله تعالى في معيّته ويشمله بمحبته.

وعلى هذه الصورة يكون الله جل شأنه قد جعل مرحلة الفكر هذه الذريعة الثانية التي تتلو ذريعة الذكر الإلهي للفوز بمحبة الله وعرفانه وقربه ورضاه أي أن هذا المؤمن السالك إذا جعل ذريعة الذكر قاعدة انطلاق على طريق العرفان الإلهي فعليه أن يجعل مرحلة التفكّر في كل مايذكر به ربّه ذريعة ثانية على طريق العرفان الإلهي أيضاً. كيلا يبقى هذا الذاكر يردّد قراءاتٍ وتسابيح وأذكاراً كالببغاء ولايتفكّر فيما تضمّنته من معارف ودلالات تفيده على درب العرفان الإلهي. ذلك أنّ الله تعالى لايقصد من وراء تحميلنا مسؤوليات العبادات والذكر الإلهي، إنهاك أجسادنا وإتلاف أموالنا.

وإنّما يهدف بها دفعنا للتفكّير والبحث في كل جزئياتها ترويضاً منه تعالى لعقولنا، وتنمية منه تعالى للقوة المفكّرة لدينا، لنقطع بذلك أشواطاً على درب معرفتنا لربّنا بأسلوب علمّي وعن قناعةٍ ودراية وأسلوبٍ مثمرٍ فعّال.

وإننا إذا ردّدت ألسنتنا المطلوب من قراءاتٍ وتسابيح وحمدٍ ربّنا عزّوجل بمثابة أوراد أذكار وبشكل تقليديّ دون الانتقال من ذلك إلى مرحلة الفكر هذه، فلا نعود نجني ممّا نقرأه ونذكر ربّنا به شيئاً من محبّة ربنا عزوجلّ إلاّ بقدر ماتتركه هذه من آثار هامشية لاقيمة لها، ولاتؤدي الغرض الذي أوجدت وفرضت علينا من أجل تحقيقه.

فالمؤمن الذي يذكر ربّه بكلماتٍ يردّدها لمجرد الترديد. والذي يصلّي ويقرأ مايقرأه في صلاته من قراءات وأدعية وتسابيح لمجرّد الترديد. فإن انطوى على نفسه بعد ذلك يستشعر مافعلته هذه القراءات والأذكار التقليدية في نفسه من آثار، فلا يحسّ أنّها فعلت شيئاً ممّاأريد لها أن تفعله في فؤاده من زيادةٍ في اليقين بوجود ربّه وجذبٍ لمحبّة ربّه وتوسيع في معرفة هذا الخالق الخلاّق العظيم. بل لايتحسّس إلاّ شيئاً يسيراً جدّاً من ذلك ومُتصنّعاً لايُجديه فتيلاً. أي أنّ هذه

الأذكار والتسابيح التي تُردّد دون إعمال الفكر لاتُجدي إلاّ عمليّة تذكير با لله الخالق ولذلك سُمّيت أذكاراً.

وعليه فإنّ هذا الشرط الذي اشترطه ا لله عزوجلّ لصحّة صلاتنا من خلال قوله تعالى في الآية (٤٣) من سورة النّساء: ﴿**ياأيّها الذين آمنوا لاتقربوا الصّلاة وأنتم سُكارى حتى تعلموا ماتقولون..**﴾، وهو شرط التفكّر فيما نتلوه في صلواتنا من قراءات وتسابيح، كان الغرض منه ألاّ نكتفي بمرحلة ذكر ا لله لجذب محبّة ا لله وسيراً على درب عرفانه.

بل كان الغرض من هذا الشرط أن نستعين بذريعة أخرى هي ماسمّيناه ذريعة الفكر والتي تسند وتدعم ذريعة الفكر على طريق العِرفان الإلهي. فتوسّع ذريعة الفكر هذه مدارك الذّاكرين، وتصبغ تفكيرهم بصبغةٍ روحيّة وتعوّدهم في حياتهم اليوميّة على التفكير بأسلوبٍ روحاني، وليس التفكير بأسلوبٍ مادّي محض، لايقرّبهم من الحقيقة شيئاً.

ألا إنّ النّاس انقسموا إلى فريقين من البشر منذ بعثة آدم: فريق يحلل الأمور والظواهر ويبحث ويفكّر بأسلوبٍ روحاني. والفريق الآخر يحلّل نفس الأمور والظواهر، ويبحث ويفكر إنما بأسلوب ماديّ محض. هذه الحقيقة التي طالما لفتّ إليها أنظار القُرّاء فيما كتبته وألّفته. فما انقسموا إلى هذين الفريقين إلاّ بداعي هذه الذريعة الفكرية التي تطلبتها الأديان من فئات المؤمنين.

فهذا كتاب ا لله القرآن الكريم إذا تدّبرنا آياته الكريمة، نصل من خلال ماتضمنته إلى هذه الحقيقة التي ذكرناها. لذلك عودوا بأذهانكم إلى ماأورده ا لله تعالى عن أبي الأنبياء إبراهيم عليه السّلام الذي قال ا لله تعالى بحقه في الآية (٦٨) من سورة آل عمران: ﴿**إنّ أولى الناس بإبراهيم لَلّذين اتّبعوه وهذا النّبي..**﴾. والذي قال تعالى عنه أيضاً في سورة البقرة الآية (١٣٠): ﴿**ومن يرغبْ عن ملّة إبراهيم إلاّ من سَفِهَ نفسه..**﴾.

أفلم يقل ا لله تعالى في سياق كلامه عن هذا النّبي في الآيات (٧٤) ومابعدها من سورة الأنعام: ﴿**وإذ قال إبراهيم لأبيه آزَرَ أتتخذُ أصناماً آلهةً، إنّي أراك وقومك في ضلال مبين. وكذلك نُرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنِين. فلّما جنّ عليه اللّيل رأى كوكباً، قال هذا ربّي، فلّما أفَلَ قال لاأحبّ الآفلين. فلّما رآى القمر بازغاً قال هذا ربّي، فلّما**

أفَلَ قال لئن لم يهدني ربّي لأكونن من القوم الضالين. فلّما رآى الشّمس بازغةً، قال هذا ربّي هذا أكبر، فلّما أفَلَت قال ياقومِ إني بريء مّما تشركون. إنّي وجّهت وجهي للذّي فطر السموات والأرض حنيفاً، ومأنا من المشركين﴾؟ وهل يُعقل أن يأتي الله تعالى في وحيه العظيم بهذه المعلومات التاريخيّة لمجرّد الرّواية إلاّ أن تكون له من ورائها مقاصد وحكم تنفع المؤمنين؟

ويكفي أن تكون من جملة مقاصد إنزال هذه الآيات الكريمة التذكير أولاً أنّ القّوة الفكرية كانت نامية جداً لدى إبراهيم عليه السّلام. وأن إبراهيم كان يفكّر بأسلوبٍ روحانيٍ غير ماديّ ثانياً. وأنّ ذريعة الفكر هذه غرست في نفس إبراهيم اليقين الكامل بوجود خالقه ثالثاً لقوله تعالى عنه **﴿وليكون من الموقنين.﴾**. وأنّ إبراهيم انطلق في مجال تطوّره الفكري هذا من فرضية أن يكون لهذا الكون خالق وليس من فرضية أن يكون هذا الكون قد أوجد نفسه بنفسه رابعاً. والله عزوجلّ إذ أضاف بعد ذلك قوله: **﴿وتلك حُجّتنا آتيناها إبراهيم على قومه، نرفع درجاتٍ من نشاء، إنّ ربك حكيم عليم.﴾**، قد نبّه أذهاننا خامساً إلى أنّ طريق الفوز والعروج ونيل القرب والحظوة عند الله ﷻ الخالق، إنّما يكمن في هذا الأسلوب من التفكير الروحاني. وأن في هذا النّمط من التفكير تجلّت عظمة حكمة الله عزوجل وواسع علمه أيضاً.

وليلاحظ القارىء معي جيّداً. أفلا يرى كيف أنّ مفكّري أوربة وأمريكا الذين اتّصف تفكيرهم بصفة التفكير المادي المحض، أنّهم بلغوا شأواً كبيراً على مستوى الرّقي المادي، هذا التقدّم الكبير الذي أحرزوه فيما أضافوه من علوم وإيجادات تقنيّة لاتُنكر عظمتها.

فهل أفاد أسلوب التفكير المادي أصحابه من هؤلاء في التوصّل إلى معرفة الله الخالق والاستيقان بوجوده، وطلب ودّه ومحبته وعرفانه؟ هذا في الوقت الذي لاحظناه من خلال الآيات التي تلوناها من أنّ إبراهيم عليه السّلام، وهو الجدّ الأكبر لأنبياء شعوب أمريكا وأوربا، قد أيقن بوجود ربه وفاز بمحبته وقربه، وفي زمانٍ لم يكن عصر إبراهيم عصر تقدّمٍ علميّ، بل كان عصر تحجّرٍ عقليّ وجاهليّ. فلماذا يحدث هذا الفرق الكبير مابين هذه الشعوب الأوربية وبين جدّ أنبيائهم إبراهيم عليه السلام. إلاّ أن يكمن سرّ ذلك في اختلاف نمطي تفكير هذين الفريقين من الناس؟

ثم إنّ الذي ينظر إلى عظمة أمريكا المادية وإلى عظمة هيمنتها على عالم اليوم، وينظر بمنظار مادّي محض، يظنّ أنّ أسلوب التفكير المادي المحض الذي انتهجته شعوب أوربة وأمريكا هو الأسلوب الأمثل لتقدّم الإنسان ورقيه، على حين أنّ تلك الشّعوب انغمست من جرّاء هذا الأسلوب في التفكير وهذا التقّدم المادي الذي أحرزوه، أقول: إن شعوبهم انغمست في بلبال الحياة الدّنيا والاستسلام للرغبات والميول والشهوات الجنسية وإلى درجة تناست معها أنّ خالقها اقتضت مشيئته أن يحقّق على أيديهم مايساعد إمام هذا الزّمان على تيسير نشر تعاليم الإسلام ورفع راية توحيد الله في المستقبل القريب كما تبيّن لنا من الآيات الآواخر من سورة الكهف، وهو الأمر الذي تضمنه تفسيري لها في مؤلف " في ظلال دلالات سورة الكهف" .

أي أنّ الذي يتدبّر حال أمريكا المعاصرة وبأسلوب التفكير الروحاني يصل إلى نتيجة هامة وهي أنّ مشيئة الله الخالق اقتضت في عصرنا أن يحقق على أيديها أشياء وأشياء. وستثبت الأعوام القادمة صحّة هذه النتيجة الهامّة التي توصّل إليها من يتدبّر ويفكّر بأسلوب تفكير روحاني.

وهكذا يتبين لنا أنّ ذريعة الذّكر الإلهي بأشكاله العديدة لاتفي المؤمن السالك ولاتكفيه لبلوغ مرحلة اليقين بوجود ربّه ومعرفته وكسب محبته وقربه ورضاه. بل لابدّ له من الأخذ بذريعة الفكر، والتفكير بأسلوبٍ روحاني. وإشارة إلى هذه الحقيقة خاطب الله تعالى المؤمنين في سورة المائدة وقال : ﴿**ياأيّها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ همّ قومٌ أن يبسُطوا إليكم أيديهم، فكفّ أيديهم عنكم، واتّقوا الله، وعلى الله فليتوكّل المؤمنون.**﴾.

وكأنه جلّ شأنه قد قال للمؤمنين السالكين درب عرفانه ألاّ يكتفوا بذريعة تذكّر نعمة الله عليهم. بل من واجبهم الانتقال منها إلى ذريعة الفكر التي تشدّهم أكثر من ذريعة الذّكر إلى التعرّف على خالقهم والفوز بمحبّته. وتجزئة عملية هذه النعمة التي أنعمها الله عليكم إلى مكوّناتها ودواعيها. فقد جمع عدوّكم يومها كلّ مالديه من قوّة وعتاد وهدفه من ذلك مهاجمتكم والقضاء عليكم لإثبات صدق معتقده وكذب معتقداتكم. فلو أنّ الله ترك هذا العدّو يفلح فيما خطّط له وسعى إليه. لانقلبت الموازين ولانقلب الحقّ باطلاً. وقد تدخّل ربكّم في الوقت المناسب وكّف أيدي أعداءكم عنكم وفشّل مخطّطه

الجهنّميّ. فإن تمّ تجاوز مرحلة الذكر إلى مرحلة الفكر هذه وفكّرتم جيداً بالأوجه والأسباب التي استدعت نزول هذه النعمة الإلهية فستزدادون معرفة بربكّم وبما يتّصف به من جلال وجمال. وتنشدّ أنفسكم إلى طلب محبته أكثر فأكثر وتنالون بذلك قربه ورضاه.

وهو جل شأنه عندما أضاف قوله تعالى هنا ﴿واتّقوا ا لله﴾ نبّه هؤلاء المؤمنين السالكين درب عرفانه إلى أنّه جل شأنه لايقلل بذلك في أعينهم من منزلة ذريعة الذّكر، بل يؤكد على ضرورة الأخذ بجميع أشكال ذكره تعالى بقوة تدعمها تقوى ا لله وخشيته. على اعتبار أنّ مرحلة الذكر هذه تشكل القاعدة والحافز والأساس على طريق العرفان الإلهي.

وهو جل شأنه وقد أنهى هذه الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿**وعلى ا لله فليتوكّل المؤمنون.**﴾ فهو جل شأنه يكون قد نبّه هؤلاء المؤمنين السالكين درب عِرفانه إلى مسألة هامة وهي أنّ عمليّة التفكّر هذه تُحدث في أدمغتهم وبصورة من الصّور عمليةً جراحيةً يتولّد من جرّائها انجذابهم إلى ربهم أكثر فأكثر، وينشدّون بذلك ليتوكلّوا على ا لله خالقهم وهاديهم سبيل معرفته، فيزدادوا يقيناً بوجوده وبنصرته وتأييده، ويترسّخ عندهم بالتالي أسلوب التفكير الروحاني.

وعليه فإنّ ذريعة الفكر هي أسمى من ذريعة الذّكر، وإن كانت الأخيرة هي القاعدة والحافز والأساس لذريعة الفكر. ذلك أنّ في عمليةِ ذكر ا لله تعالى شيئاً من المسؤولية والعناء، على حين أنّ عملية الفكر لاتصنّع فيها ولاعناء ولاتمثيل، وهي عمليّةٌ تُبرز الحقائق لتمثل هذه الحقائق أمام أعين المفكّرين.

هذا، وإنّ أهمية ذريعة الفكر على درب العرفان الإلهي اقتضت منه تعالى أن يأتي بعشرات بل بمئات الآيات من كتابه العزيز بأسلوب الاستفهام تحريكاً منه جل شأنه لعقول البشر من عباده. فهو جل شأنه كان قد خاطب الإسرائيليين الذين اتخذوا من حليّهم عجلاً جسداً له خُوار وعادوا بذلك إلى الشرك، فقال: ﴿**أولم يَروا أنّه لايكلّمهم ولايهديهم سبيلاً، اتخذوه وكانوا ظالمين.**﴾ الاعراف ١٤٨ - . وهو جلّ شأنه خاطب مشركي مكة الذين قاوموا محمداً ﷺ وقال لهم بصيغة الاستفهام تحريكاً منه جل شأنه لملكة الفكر لديهم وقال: ﴿**ألم يَروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكنّاهم في الأرض مالم نُمكّن لكم، وأرسلنا السماء عليهم مدراراً وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم،**

فأهلكناهم بذنوبهم، وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين﴾؟ الأنعام (٦). وهو جلّ شأنه خاطب هؤلاء المتغطرسين من علماء أمريكا وأوربة الذين يعاصروننا بأسلوب الاستفهام قبل أربعة عشر قرناً من الزمان، وذلك في الآية (٣٠) من سورة الأنبياء، وقد أوردت هذا الأمر في النظرية القرآنية الكونية، وقال تعالى هناك: **﴿أولم ير الذين كفروا أنّ السّموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما، وجعلنا من الماء كلّ شيء حيّ، أفلا يؤمنون؟﴾**.

ولاينبغي للمؤمن السالك درب عرفان ربّه أن يظنّ أن ذريعتي الذكر والفكر تكفيان للفوز بمحبة الله وعرفانه ورضوانه بل هناك ذرائع أخرى نصّ عليها هذا القرآن العظيم.

٣ً ـ الإحسان إلى الناس جميعاً دون تفريق : وبعد أن يبني هذا المؤمن السالك درب عرفان ربّه قاعدة الذّكر التي يترشّح من خلالها لمحبّة الله تعالى إياه. وبعد أن يعتاد استعمال ملكة فكره التي ميّزه بها ربه عمّن سواه من المخلوقات وأخذ عليه الميثاق ليكون من أولي الألباب. فيعتاد التّفكير فيما يقرأه في صلواته ويتدبّر جزئيات وحِكَمَ وفلسفات كل شيء يقرأه وتقع عليه عيناه عليه. وخاصة أسماء الله الحسنى كي تتجسّم لمخيّلته عظمة الإله الذي يسعى إلى معرفته، ويعود يحلّل الأمور بفكرٍ روحاني. أقول بعد أن يعمد هذا المؤمن للأخذ بذريعتي الذّكر والفكر هاتين اللتين نصّ عليهما كتاب الله العزيز. من واجبه حينئذٍ أن يأخذ بذريعة الإحسان التي نبه ربّنا إليها في الآية (١٣٤) من سورة آل عمران بقوله تعالى: **﴿وأطيعوا الله والرسول لعلكم تُرحمون. وسارعوا إلى مغفرةٍ من ربكم وجنّةٍ عرضها السّموات والأرض أُعدّت للمُتّقين. الذين ينفقون في السّراء والضرّاء، والكاظمين الغيظ، والعافين عن الناس، والله يحبّ المحسنين.﴾**.

هذه الآيات الكريمة التي وكأنه جلّ شأنه قال فيها بألفاظٍ أخرى أن أيّها المؤمنون السالكون درب التّعرف إليّ، والسّاعون للفوز بمحبتي ورضاي وقُربي إن أنتم أطعتموني ورسولي فيما أنزلته لهدايتكم وتطويركم من أوامر وتعاليم ومواعظ فبلغتم في ذلك حدّ التقوى في العمل على أوامري التي تشكّل قاعدة الانطلاق على درب التّعرف إليّ، وأصبحتم من أولي الألباب في ذلك. من واجبكم حينئذٍ أن تستعينوا بذريعة الإحسان التي تتفاعل مع ذريعتي الذكر والفكر ليقذف الله بالتالي محبّته في أفئدتكم على شاكلة مايحدث لقلوب

المتحابيّن. ويستر الله تعالى نتيجة لذلك أشكال ضعفكم ويؤهّلكم بذلك للفوز بجنّةٍ عرضها السموات والأرض أُعدت للمتّقين.

فإن تساءل عبدي المؤمن السالك عن معالم ذريعة الإحسان هذه فليعلم أنها: أولاً إنفاقٌ وإحسان إلى السّائل والمحروم ممّن خلقت في السّراء والضرّاء. ثانياً ـ وأن تكظموا غيظكم إن أغاظكم من يتعامل معكم. ثالثاً ـ وأن تأخذوا بمبدأ العفو إذا اعتدى أحد عليكم. فإن عملتم على هذه الأمور كلّها فلكم البشرى فلابدّ أن أحبّكم وأقذف محبتي في أفئدتكم والله يحب المحسنين.

والآن إن نحن تدبّرنا في صياغة ودلالات هذه الآيات الكريمة، لاحظنا أنّ الله عزوجلّ لم يخصّص الإحسان بمؤمن أو غير مؤمن ممّن يأمرنا بالإحسان إليه. بل جاء تعالى بأوامره هذه مطلقة غير مقيّدة. أي أنّه لم يفرّق في موضوع الإحسان بين دين ودين أو عرق ولون أو لغة وقوم. أي أنّ الإحسان ينبغي أن يشمل جميع مخلوقات الله عزوجلّ.

كذلك فإننا إن نحن تدبّرنا هذه الآيات الكريمة لاحظنا أنّ الله تعالى لم يفرّق في موضوع الإحسان بين غنيّ وفقير، بل أوجبه على فئة الفقراء أيضاً لقوله تعالى: ﴿**الذين ينفقون في السّراء والضّراء**﴾، ولاشك أنّ الله تعالى لايكلّف نفساً إلا وسعها.

كذلك إن نحن تدبّرنا هذه الآيات الكريمة لاحظنا أنّ الإحسان لايكون في المال وحده. بل يكون في سواه أيضاً فكظم الغيظ والعفو عن المسيء والكلمة الطّيبة جميعها أفعال تدخل في باب الإحسان في نظر ربّنا عزوجلّ.

والآن إن نحن تناولنا كلّ فقرةٍ من فقرات هذه الآيات الكريمة، فنتناول قوله تعالى: ﴿**الذين ينفقون في السّراء والضّراء**﴾. فالسّراء والضّراء تعني الرّخاء والشدة (محيط المحيط) أي أنّ المؤمنين السالكين ينفق أحدهم سواء أكان ميسوراً في رخاءٍ أو كان مُعْسراً في شدّة. فلماذا شمل أمر الإنفاق الفريقين معاً؟ أُجيب على هذا السؤال في الآية (٢٩) من سورة البقرة حيث قال تعالى هناك: ﴿**هو الذي خلق لكم مافي الأرض جميعاً، ثم استوى إلى السّماء فسوّاهُنّ سبع سموات وهو بكلّ شيء عليم.**﴾ أي أن لكل إنسان حقّاً فيما خلق الله تعالى في هذه الكرة الأرضية. وهذا مبدأ اشتراك الناس جميعاً في الفائدة المرجوّة من كل أشياء هذه الأرض. ويستحيل أن يتحقّق هذا المبدأ الاشتراكي بدون تقنين

وتنظيم. هذا وإنّ ربّنا نظّم أمر هذا الاشتراك العام. وذلك في الآية (٢٤) من سورة المعارج التي قال تعالى فيها: ﴿**الذين على صلاتهم دائمون. والذين في أموالهم حقٌّ معلوم. للسائل والمحروم.**﴾ أي أنّ للسائل والمحروم حقّاً في مال كل إنسان آخر يمتلك مالاً ومتاعاً. وعليه فمن واجب المؤمن السّالك الانصياع إلى أمر الانفاق في سرّائه وضرّائه.

وأنّ السّائل له حقٌّ معلوم فيمايملكه كلّ مؤمن وأن المحروم من النّطق حيواناً كان أم نباتاً له حق معلوم فيما ملك كلّ مؤمن أيضاً، أمّا كميّة الإنفاق المطلوبة ، فأمرٌ حددته الأسوة العملية لسيد المرسلين محمد صلوات ا لله عليه.

ونتناول قوله تعالى: ﴿**والكاظمين الغيظ**﴾ والكاظمين من كظم غيظه: ردّه وحبسه وأمسك على مافي نفسه منه على صفح أو غيظ. ولايكون الغيظ إلا بوصول مكروه إلى المغتاظ. (محيط المحيط) أي أن الإحسان لايقتصر على الإنفاق في السرّاء والضّراء، بل ويشمل حبس النّفس وإمساكها عند التأذي ووصول مكروه من جانب شخص من الأشخاص. فالمؤمن السالك إذا ماأغاظه إنسان لايثور على الذي أغاظه بل يكظم غيظه ليبتعد بذلك عن حالة ردود الفعل التي تتملك المخلوقات الغريزية من جهة، وليثبت من جهة أخرى أنّه أقوى من أن يُغيظه سواه. وبهذا الموقف يُحسن إلى أن من أغاظه ويستحق الأجر من ربّه على إحسانه.

وأضاف تعالى يقول: ﴿**والعافيّن عن النّاس**﴾ أي أنّ الإحسان لايقتصر على الإنفاق بالمال ولاعلى كظم الغيظ، بل ويشمل العفو عن الناس المسيئين. وشيمَةُ العفو هذه نابعة من ميل المؤمن السالك إلى السّلام والمسالمة، نزولاً عند قول ربه في الآية (٣٤) من سورة فصّلت: ﴿**ومن أحسن قولاً ممّن دعا إلى ا لله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين. ولاتستوي الحسنةُ ولاالسيّئة ادْفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوةٌ كأنّه وليٌّ حميم. ومايُلقّاها إلاّ الذين صبروا ومايُلقاها إلاّ كل ذي حظٍ عظيم. وإمّا ينزغنّك من الشيطان نزغٌ فاستعذ با لله إنّه هو السّميع العليم.**﴾.

وقد أنهى جل شأنه هذه الآيات الكريمة بقوله تعالى: ﴿**وا لله يحب المحسنين.**﴾ فما هي دلالة كلمه المحسنين؟ المحسنون على حسب ماأورده صاحب معجم (محيط المحيط) من حَسُن أي جَمُلَ وأحسن معناه أتى بالحسن، وضدّ

أساء. وأحسن الشيء: علمه. يقال فلان يحسن القراءة أي يعلمها. وأحسن إليه معناه أعطاه الحسنة. والحاسن اسم فاعل، يراد به معنى الحدوث. فإن أريد معنى الثّبوت قيل حسن من باب الصّفة المشبهة باسم الفاعل. وعلى هذا يقال: هذا الأمر حاسنٌ عندي أن أفعله، وهو حسنٌ في الحقيقة. والحسنى ضد السّوأى، والعاقبة الحسنة والظّفر والشهادة. والأسماء الحسنى صفات الله عزوجلّ وأسماؤه. والحُسن هو تناسب الأعضاء على حسب قول صاحب الكليات جمعه محاسن.

فإن نحن أخذنا هذه المعاني بعين اعتبارنا وعُدنا إلى قوله تعالى ﴿والله يحب المحسنين﴾. ندرك أنه تعالى ينبّه ذهن المؤمن السالك إذ يأمره الأخذ بذريعة الإحسان، إلى أنه تعالى يحبّ جميع من يُحسن إلى مخلوقاته دون تفريق بين دين ودين أو لون أو عرق ينتسبون إليه ولا تفريق بين إنسان وحيوان ونبات في مجال هذا الإحسان. فالإحسان ذريعة كسب محبة الله والفوز بقربه ورضاه لمن كان سالكاً درب عِرفانه.

والله عزوجلّ إذ نبّه أذهان السالكين إلى ذريعة الإحسان هذه. يكون قد نبّههم إلى قانونٍ طبيعّي تقوم عليه هذه الوسيلة. وهو أنّ القلوب جبلت أصلاً على حُبّ من أحسَن إليها، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟ والله الذي جبل قلوب عباده على هذه الجبلة هو أوّل من يواجه الإحسان بالإحسان. ولذلك نُلاحظ أن المُحسن إذا لاحظ عدم تجاوب المُحسَن إليه بإحسان، يحتقره ويقول اتقّ شرّ من أحسنت إليه.

وعليه فإن الله ربنا يكون قد نبّه المؤمنين السالكين إلى هذا القانون الطبيعي حينما قال: ﴿والله يحب المحسنين﴾. ونبهّهم إلى أنّه تعالى ينجذب إلى محبّة عبده المحسن، على شاكلة ماتنجذب القلوب إلى حُبّ من أحسن إليها. وبما أنه حدّد إطار الإحسان في عملية الإنفاق في السرّاء والضرّاء، وفي كظم الغيظ، وفي العفو عن المسيء، يكون بذلك قد وضع في أيدي عباده المؤمنين السالكين ذريعة ثالثة لجذب محبّته وهي ذريعة الإحسان.

وقد راح جلّ شأنه في سورة الصّافات (٧٥ ــ ٨٢) يعدّد الأمثلة التي يثبت منها أنّ الله يردّ من جانبه على الإحسان بإحسانٍ منه ومحبة. فأعاد إلى ذاكرة المؤمن السالك إحسانه إلى نوحٍ عليه السلام الّذي عمل على ذريعة الإحسان هذه، وقال: ﴿ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون. ونجّيناه وأهله من

الكرب العظيم. وجعلنا ذريّته هم الباقين. وتركنا عليه في الآخرين. سلامٌ على نوح في العالمين. إنّا كذلك نجزي المحسنين. إنّه من عبادنا المؤمنين. ثم أغرقنا الآخرين.﴾.

كذلك ذكّر جل شأنه المؤمن السالك بمثال إبراهيم عليه السلام في نفس سورة الصّافات الآيات (١٠٨ – ١١٠) وقال: **﴿وتركنا عليه في الآخرين. سلام على إبراهيم. كذلك نجزي المحسنين.﴾.**

وذكّر جل شأنه بمثالٍ ثالثٍ وهو مثال موسى وهارون عليهما السّلام وقال في الآيات (١١٤–١٢٢) من نفس السورة: **﴿ولقد مننّا على موسى وهارون. ونجّيناهما وقومهما من الكَرب العظيم. ونصرناهم فكانوا هُمُ الغالبين. وآتيناهم الكتاب المُستبين. وهديناهما الصراط المستقيم. وتركنا عليهما في الآخرين. سلام على موسى وهارون. إنّا كذلك نجزي المحسنين. إنّهما من عبادنا المؤمنين.﴾.**

واتبع الله جل شأنه هذه الأمثلة الثلاثة بمثال رابعٍ هو مثال النبي إلياس عليه السلام، وذلك في الآيات (١٢٩ - ١٣١) من سورة الصافات وقال: **﴿وإن إلياس لَمِنَ المرسلين.. وتركنا عليه في الآخرين. سلام علي إلياس. إنا كذلك نجزي المحسنين. إنّه من عبادنا المؤمنين.﴾.**

وهو جلّ شأنه وقد راح ينهي كل مثالٍ من هذه الأمثلة الأربعة بقوله تعالى: **﴿إنّه من عبادنا المؤمنين﴾** فقد كان يقصد أنّ كلّ واحدٍ من هؤلاء المرسلين كان يؤمن بذريعة الإحسان. كذريعة تجذب محبّة الله إلى المحسن وتزيده عِرفاناً بربّه على وجه اليقين.

والمهمّ من هذه الأمثلة التي احتوتها سورة الصّافات هو تذكير المؤمن السالك درب عِرفان ربّه والطالب الفوز بمحبّته تعالى ورضوانه، أنّ ذريعة الإحسان هي إحدى الذرائع المهمّة والفعّالة على هذا الدّرب الطّويل. هذه الأمثلة التي يثبت منها أنّ إحسان المؤمن يلقى عند الله الاستحسان ويكافأ صاحبه بإحسانٍ إلهي عظيم. فالله يحب المحسنين الذين متّنوا قاعدة الذّكر، وقطعوا أشواطاً من مرحلة الفكر، ويفكرون بتفكيرٍ روحاني ويحسبون للآخرة حسابها وكانوا من المتّقين.

وإن ا لله عزوجلّ إذ حثّ على الإحسان كذريعة جذبٍ لمحبته. حذّر في الوقت نفسه غير المحسنين من مغبّة إهمالهم طريق الإحسان المذكور. حيث أنّه تعالى قال في الآية (١٩٥) من سورة البقرة: **﴿وأنفقوا في سبيل ا لله، ولاتُلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إنّ ا لله مع المحسنين.﴾** أي أن من لاينفق في سبيل جذب محبّة ربّه على السّائل والمحروم، ولايُحسن تصرُّفه فيكظم غيظه ويعفو عن الناس، يكون كمن يُلقي بنفسه إلى التّهلكة ويكون أخيراً من جراء بخله وهضم حقوق السائل والمحروم من الخاسرين. بسبب أنه يفقد تأييد ربه له، ويخسر محبته، ذلك أن ا لله تعالى لايكون إلاّ مع المحسنين.

وا لله عزوجلّ، حين نبّه إلى أنّ عدم الالتزام بمبدأ الإحسان هو بمثابة إلقاء لهذه النّفس إلى التهلّكة. ووضّح حكمة قوله هذاوتنبيهه المذكور في الآية (٧٧) من سورة القصص وقال: **﴿وابتغ فيما آتاك ا لله الدار الآخرة، ولاتنس نصيبك من الدنيا، وأحسن كما أحسن ا لله إليك، ولاتبغ الفساد في الأرض، إنّ ا لله لايحبّ المفسدين.﴾**. فوضح لهذا المؤمن السالك سبيل ربه ودرب عِرفانه، أنّ الإحجام عن مبدأ الإحسان المذكور ينتج عنه إفسادٌ في الأرض، فمن أعرض عن الإنفاق في سبيل كسب رضى ربه وتَرَكَ مبدأ كظم الغيظ والعفو عن الناس فكأنه ليبتغي بموقفه هذا الفساد في الأرض، بسبب ماينتج عن هذا الإحجام من مفاسد لاتُحمد عُقباها.

ذلك أنّ ا لله عزوجلّ سخّر للناس مافي الأرض جميعاً، فأشرك في إحسانه إلى عباده كلّ مخلوق منهم. وإنّ مبدأ الإحسان أوجده ا لله تعالى وأمر به أصلاً لتوزيع ثروات الأرض إحساناً منه تعالى على هذه المخلوقات بشكلٍ عادلٍ يحقّق المساواة بينهم فيما أحسن ا لله وفضل عليهم. فإن امتنع المؤمن السّالك عن أداء ماعليه من حقّ إنفاق على السائل والمحروم، يتولّد عن ذلك شعور بطبقيّةٍ مجحفةٍ ظالمةٍ وينتج عن هذا الشعور حقدٌ طبيعيٌ في نفوس المظلومين وثورات وفساد في الأرض.

ولايعني هذا الإحسان أن يحرم المؤمن نصيبه من الدّنيا، بل ليأخذ نصيبه من الدّنيا على شرط أن يبتغي فيما آتاه ا لله الدار الآخرة وأن يحسن وينفق ويكظم غيظه ويعفو كما أحسن ا لله تعالى إليه على ضعفه ونقائصه.

فإن أحجم هذا المؤمن عن العمل على مبدأ الإحسان المذكور، لايعود طالباً عِرفان ربّه ولاالفوز بمحبته ورضاه، بل يعود مفسداً في الأرض وإنّ الله لايحبّ المفسدين.

هذا وإنّ هذه المواعظ جميعها، إذا تفهمّها هذا المؤمن السالك درب عرفان ربّه، تمنحه هذه المواعظ سعة أفق تساعده على إدراك سرّ افتتاح الله جل شأنه سورة لقمان بقوله تعالى **﴿الم. تلك آيات الكتاب الحكيم. هدى ورحمة للمحسنين. الذين يقيمون الصّلاة، ويؤتون الزّكاة وهم بالآخرة هم يوقنون. أولئك على هدى من ربّهم وأولئك هم المفلحون.﴾** والأحرف (ألم) تعني أنا الله العليم. وأتى تعالى باسم الإشارة (تلك) بدل (هذه) هنا، تعظيماً لشأن آيات الكتاب الحكيم البالغ في العظمة والمُتقن للأمور. ونبّه من خلال قوله تعالى بحقّ آيات الكتاب الحكيم **﴿هدى ورحمة للمحسنين﴾** إلى أنّ الناس الذين انقسموا منذ بعثة آدم عليه السلام إلى فريق مؤمن محسن وفريق كافر مفسدٍ في الأرض، لايستفيد من هداية التعاليم العظيمة التي احتوت عليها آيات هذا الكتاب الحكيم إلاّ الفريق الذي يفكر بأسلوب روحاني.**﴿ الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزّكاة وهم بالآخرة هم يوقنون ﴾**. وأكّد جلّ شأنه على أن هذا الفريق يعملون **﴿ على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون.﴾**.

كذلك تساعده هذه المواعظ على إدراك حكمة كلامه جلّ شأنه الذي أعقب هذه الآيات التي افتتح بها سورة لقمان، حكمة قوله تعالى بعدها مباشرة: **﴿ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليُضلّ عن سبيل الله بغير علمٍ ويتّخذها هُزُواً، أولئك لهم عذابٌ مُهين، وإذا تُتلى عليه آياتنا ولّى مستكبراً كأن لم يسمعها، كأنّ في أذنيه وَقْراً، فبشّره بعذابٍ أليم.﴾**.

فهو جلّ شأنه رح يتكلّم عن الفريق الذين لايلتزمون بمبدأ الإحسان وعظمته ويتسبّبون في الفساد الذي يحدث في الأرض فيصفهم بصفاتٍ من صميم حياتهم أنهم يتصنّعون زخرف القول ويتاجرون بذلك عن سبيل الله الذي خلقهم وأنزل هذا القرآن لهدايتهم، يفعلون ذلك كله دون أن يستندوا في ذلك إلى علمٍ يقين أو حُجّة وبرهان.

ولقد وضّح القرآن الكريم للمؤمن السالك مابين ذريعتي الذكر والإحسان من علاقة ورابطة تربطهما على درب العِرفان الإلهي. وهذه الرابطة

أتى الله جل شأنه على بيانها في الآية (١١٤) من سورة هود حيث قال هناك: **﴿وأقم الصّلاة طرفي النّهار وزُلَفاً من اللّيل، إنّ الحسنات يذهبن السّيئات. ذلك ذكرى للذّاكرين. واصبر فإنّ الله لايضيع أجر المحسنين.﴾**.

وكلمة طرف الواردة في هذه الآية الكريمة تعني حرف الشيء ونهايته والناحية والطائفة من الشيء. وكلمة زُلفاً جمع زُلفة وهو الطائفة من اللّيل أو ساعات اللّيل الآخذة من النهار كما يحدث في فصل الشتاء. وساعات النهار الآخذة من اللّيل كما يحدث في أيّام الصيّف.(محيط المحيط). وقد جعل الله جل شأنه قوله **﴿ذلك ذكرى للذاكرين﴾** قرينة تنبّه ذهن المؤمن الذّاكر ربّه إلى العلاقة الكائنة مابين ذريعة الذكر وذريعة الإحسان. وهو أنّ التركيز على الدّعاء في الأوقات المشار إليها ضروري جدّاً لدعم مايُقدم هذا المؤمن الذاكر عليه من إحسان.

فلايكفي الإحسان وحده فلابدّ من التذلّل والدعاء بين يدي الخالق يستجديه محبته وقربه وعِرفانه. ليس هذا وحسب، بل وأن يصبر هذا الذاكر على هذا النهج ويثابر عليه منتظراً ظهور ثماره الروحية وموقناً أنّ الله لايُضيع أجر المحسنين. وموقناً أيضاً أنّه بمثابرته على الدّعاء والإحسان، تذهَبُ حسناته سيئاته، ويعود مع الأيام في نظر ربّه من المحسنين. فيقذف الله عزوجل محبته في فؤاده، على شاكلة مايحدث في أفئدة العاشقين والمحبّين. فهذه الحقيقة يوضّحها جل شأنه لهؤلاء المؤمنين السالكين كذكرى للذاكرين.

وعلى هذه الصورة، فلابدّ للمؤمن السالك أن يأخذ بذريعة الإحسان التي ذكرناها ويعمل على مضمونها في حياته اليوميّة، ومثابراً في مجاهدته هذه للتعرّف إلى خالقه وجذب محبّته وكسب رضاه. خصوصاً وأنّ ربّه عزوجلّ قد بشرّه في الآية (٢٩) من سورة العنكبوت أنّه سيهديه سبيله ويتولاه ويكون معه حيث قال تعالى: **﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبُلنا وإنّ الله لمع المحسنين.﴾**.

كذلك فإن الله تعالى بشر المحسنين بالحسنى والخلود في الجنّة في الآية (٢٦) من سورة يونس حيث قال: **﴿للذّين أحسنوا الحُسنى وزيادة، ولايرهَقُ وجوههم قَتَرٌ ولاذلّةٌ، أولئك أصحاب الجنّة هم فيها خالدون.﴾**.

ثم إن الذي يتفحّص آي الذكر الحكيم يتوضّح له ماللإحسان من أهميّة على درب العرفان الإلهي. فهناك آيات حدّدت للمُحسن سُبل إنفاق ماللسائل والمحروم في ماله من حقّ معلوم. كالآية (٦٠) من سورة التّوبة التي قال ا لله تعالى فيها: ﴿**إنّما الصّدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرّقاب والغارمين وفي سبيل ا لله وابن السبيل، فريضةً من ا لله، وا لله عليم حكيم.**﴾. كذلك وضح ذلك في الآيات (٣٦-٣٧) من سورة النساء بقوله تعالى: ﴿**وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجُنب والصاحب بالجنْب وابن السّبيل وماملكت أيمانكم، إن ا لله لايحبّ من كان مختالاً فخوراً. الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ماآتاهم ا لله من فضله، وأعتدنا للكافرين عذاباً مُهيناً.**﴾. فالمقصود بما ملكت الأيمان هنا مايكون تحت تصرّف هذا الإنسان المؤمن السالك من خدم وأنعام ونبات. ثم إنّ المقصود بلفظ الكافرين هنا في هذه الآيات الفئة المنكرة لمبدأ الإحسان الذي طالبنا به كتاب ا لله العظيم وليس الكافرين إطلاقاً.

هذا وإنّ الذي يتفحّص آي الذكر الحكيم أيضاً تتراءى لعينيه آيات وآيات بحثت موضوع الإحسان وألقت الضوء على أهميته. وبيّنت الجهات التي ينبغي على المحسن أن ينفق عليها. حتى وركزت الآيات الكريمة على ضرورة أن ينفق المحسن من ماله الحلال.

لاأن يجني مالا بطريق غير مشروع وينفق منه. على اعتبار أن هذا أصبح من المال الخبيث المشبوه غير الحلال، فلا يُؤتي الإحسان من مثل هذا المال الخبيث ثماره الروحية المرجوّة.

فهذا هو مانبّه إليه ا لله تعالى في الآية (٢٦٧) من سورة البقرة التي قال فيها: ﴿**ياأيها الذين آمنوا أنفقوا من طيّبات ماكَسَبْتُم وممّا أخرجنا لكم من الأرض، ولاتيمّموا الخبيث منه، تنفقون ولستم بآخذيه، إلاّ أن تُغمضوا فيه، واعلموا أنّ ا لله غنيٌّ حميد. الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء، وا لله يعدكم مغفرةً منه وفضلاً، وا لله واسعٌ عليم. يؤتي الحكمة مَن يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً، ومايذّكر إلاّ أولو الألباب.**﴾ أي أنّ ا لله تعالى لايتقبّل الإحسان من المال الخبيث الذي جُمع بطريق غير مشروع. بل يتقبّل الإحسان والإنفاق من المال الطيّب الحلال، شريطة ألّا يُتبع إحسانه منّاً

وأذى، وشريطة أن يُحسن من المال الذي يحبّه لنفسه، وليس من فضلات طعامه ومتاعه. هذا مانصت عليه الآية (٩٢) من سورة آل عمران قوله تعالى: **﴿لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا ممّا تحبون﴾**.

هذا وقد شبّه مايحدثه الإحسان من أثر في نفس المؤمن السالك المحسن بشرابٍ كافوري وقال في سورة الدّهر: **﴿إنّا خلقنا الإنسان من نطفةٍ أمشاجٍ نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً. إنّا هديناه السّبيل إمّا شاكراً وإمّا كفوراً. إنا أعتدنا للكافرين سلاسلَ وأغلالاً وسعيراً. إنّ الأبرار يشربون من كأسٍ كان مزاجها كافوراً. عيناً يشرب بها عباد الله يُفجّرونها تفجيراً. يوفون بالنّذر ويخافون يوماً كان شرّه مستطيراً. ويطعمون الطعام على حُبّه مسكيناً ويتيماً وأسيراً. إنما نُطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاءً ولاشكوراً. إنّا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً. فوقاهم الله شرّ ذلك اليوم ولقّاهم نضرةً وسروراً.﴾**.

وهو جل شأنه قد أشار في هذه الآيات إلى الفريقين من النّاس الفريق المحسن والفريق الكافر بمبدأ الإحسان. وأن الفريق المحسن هو الفريق البارّ لخالقه والذي يفكّر بأسلوبٍ روحاني. فيشكر ربه دوماً على إحسانه إليه، ويشرب هؤلاء الأبرار من المؤمنين بإحسانهم إلى خلق الله تعالى من كأسٍ كان مزاجها كافوراً. أي أنّ عمليّة إحسانهم هذه تُطفيء لواعج الشهوات في نفوسهم، وتخمد بها شهواتهم الخبيثة ونار الحرص التي تدفع إلى تكديس المال أكداساً. علماً بأنّ كلمة كافور قد اشتُقّت من الكفَرْ بمعنى التغطية والإخفاء للواعج الحياة والحرص والشهوات. وكأن الله تعالى نبّه بهذا التشبيه إلى أنّ عملية الإحسان تطهّر باطن المُحسن إلى خلق الله، وتُسري فيه الطمأنينة نبّه إلى مصيره وإلى حتمية فوزه بعِرفان ربه ومحبته وقربه ووصاله. وإنّ هذه الحقيقة التي أشارت إليها هذه الألفاظ ستتجلّى حقيقة ماثلة لأعين المحسنين في الدّار الآخرة، تتمثّل لأعينهم **﴿عيناً يشرب بها عباد الله يفجّرونها تفجيراً.﴾**. أي أن ألفاظ هذه الآية الكريمة تناولت بالكلام سرّاً غامضاً من أسرار الجنّة الموعودة مابعد الموت. لذلك لايُدرك حقيقة ماأشارت إليه وتكلّمت عنه إلاّ فئة المؤمنين السالكين درب العِرفان الإلهي والعاملين على ذريعة ووسيلة الإحسان التي أتينا على بيانها وتوضيح جوانبها. وعليه فإن هذه الآيات التي اقتبسناها من سورة الدّهر، قد

أتت على خُلاصة جميع مايتعلّق بذريعة مبدأ الإحسان ووسيلته، وبإعجازٍ بياني عديم المثال.

٤ ـ وعي الفطرة والكيان الروحي والمسار التوحيدي

مضينا في موضوع العرفان الإلهي فوضّحنا مايكره الله تعالى أن يتّصف به عبده المؤمن السالك من صفاتٍ تُبعده عنه وتُخسره محبّته. ونمضي نوضّح الذرائع التي يمتدحها كتاب الله العزيز والتي تجذب محبة الله تعالى ورضوانه وقربه. هذه الذرائع التي تُعتبر في حقيقتها الغذاء الروحي المطلوب لرعاية وتنمية هذا الكيان الرّوحي الذي يكسبه المرء حين إيمانه وبيعته.

وقد أحطنا علماً حتى الآن بذرائع الذكر والفكر والإحسان، هذه الذرائع التي تفيد في تدّرج هذا المولود الرّوحي من حالة الرغبة إلى لقاء وعرفان ربه، إلى الأنس به ثم طلب ودّه ومحبّته. وأتكلم الآن عن ذريعةٍ رابعةٍ أسميتها ذريعة وعي المؤمن السالك لفطرته التي فطره الله تعالى عليها، ولحقيقة ولادة كيانه الرّوحي ومساره التوحيدّي.

ذلك أن من المعلوم والثابت علمياً أنّ جسد المرء كياناً وأعضاءَ وقوىً، ذو أصل ماديّ، وأن القرآن الكريم نبّه أذهاننا إلى أنّ كياننا الجسدي هذا ماهو إلا عبارة عن وسيلةٍ مرحليّة لولادتنا الرّوحية التي سيمرّرها الخالق جلّ وعلا بعد الموت عبر حياةٍ برزخيّةٍ إلى يوم يبعثها بعثاً جديداً متشابهاً مع خلقنا المادي الحالي شكلاً وموضوعاً ، إنما بمواصفاتٍ لايعتريها النّقص الحاصل في هذا العالم المادي المحدود والمقيّد بقوانين تنظمه وتحدّد حركته أيضاً.

ومابعث الله عزوجلّ الأنبياء والمرسلين، وماأنزل الشرائع السماوية إلاّ ليُحدث هذا التطوّر النّوعي عند الإنسان، فيخلقه خلقاً روحياً جديداً عن طريق تعريفه بوجود ربّه ودفعه للإيمان به عزوجل وإلى بيعة مرسليه وتغذيةِ كيانه الروحي الجديد بتعاليم ماأنزل من وحيٍ سماوي يهدف إلى تحقيق هذه الغاية وهذا المقصد الأسمى، وهو أن يؤهّل هذا المولود الرّوحي لمعرفة ربّه وجذب محبته إليه والتقّرب منه والتمتع بمشاهدة حُسنه تعالى وإحسانه.

هذا، مع العلم أنني دلّلت حتى اللحظة على صدق ماوضّحته من هاتين الحقيقتين، ليس من أقوال زيدٍ وعمروٍ من النّاس، بل من آي الذكّر الحكيم. أي من نصوصٍ قرآنية لاتقبل المراجعة ولاَ التأويل.

وكما جهّز الله الخالق هذه النفس البشرية بالأجساد ذات الحواس للرؤية وسماع أصوات ماحولها، كذلك لايقوم هذا الكيان الروحي بدون حواس من ماهيته تعينه على رؤية جمال ربّه والاستماع إلى كلامه. وإلى هذه الحقيقة جاءت الإشارة من خلال قوله تعالى: ﴿**ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضلّ سبيلاً.**﴾ الاسراء ٧٢ ـ وقوله تعالى في سورة طه (١٢٥):﴿**ومن أعرض عن ذكري فإنّ له معيشةً ضنكاً ونحشُرُه يوم القيامة أعمى. قال ربّ لِمَ حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً. قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها، وكذلك اليوم تُنسى**﴾. ذلك أنّ المقصود بالعمى في هذه الآيات الكريمة هو عمى الكيان الروحي وليس عمى هذا الكيان المادّي.

وقد أتى تعالى بدليل ضمني نطق به هذا الجهنّمي للتدليل على ماذكرته. فهذا اعترف ضمنيّاً من خلال قوله ﴿**وقد كنت بصيراً**﴾ أنّه مات وعيناه تبصران، ممّا يثبت أنّ العمى الذي بُعث به هو عمى حاسة كيانه المبعوث به يوم القيامة.

ألا إنّ عيوننا الجسمانية تساعد على رؤية جمال الطبيعة المادية. وآذاننا تُشنّفها الأصوات المنبعثة من كل مكان في هذا الكون. لكن عيوننا وآذاننا لاتساعد على رؤية الجمال الإلهي ولا على سماع الكلام الإلهي المقدّس. الأمر الذي يعني أنّه لابدّ أن يهب خالقنا كياننا الروحي حواس مماثلة لتساعد على هذه الرؤية وهذا السّماع. أمّا الذين كفروا برسل الله وكتبه، فمصيرهم سيكون وفق قوله تعالى في الآية السادسة من سورة البقرة: ﴿**ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب أليم.**﴾ أي أنّ أعمالهم ستؤدي إلى خلقهم خلقاً جديداً، وبحواس جديدة لكنّ هذه الحواسّ مختوم عليها بغشاوة كفرهم وسيكونون في حالٍ من عذابٍ أليم.

وهذا كله يُلزم المؤمن السالك دربِ عرفان ربه ضرورة وعيه لهاتين الحقيقتين: حقيقة فطرته التي فطره الله تعالى عليها، وحقيقة كيانه الروحي، يوجّهه إلى ذلك كتاب الله تعالى، ومن منظارٍ علمّي رصين. فإن تحقق لهذا المؤمن السالك وضوح رؤية على هذين الصّعيدين، ووضعها في عين اعتباره عند عمله على تعاليم ربّه، يكون قد أخذ بذريعةٍ رابعة على الدّرب المؤدي إلى معرفة

ربه، ويجذب بهذا الوعي ووضوح الرؤية التي تحققت له محبّة ربّه إليه، ويفوز برضاه جل شأنه ونصرته وتأييده.

هذا وإنّ الذي يساعد هذا المؤمن على وعي الحقيقة الأولى أي الفطرة وماإليها، يساعده على ذلك ماوفّقني ربي إليه من علوم احتواها مؤلف " نظرية جذور الأخلاق". هذا الكتاب الفريد في طرحه ومعلوماته وأدلّته. والذي يطالعه بإمعان يكسبه ذلك وضوح رؤية في هذا السّبيل. وقد انطلقت في جميع ماأدرجته في المؤلّف المذكور، ممّا ذهب إليه قول ربّنا في الآيات (٢٩-٣٢) من سورة الرّوم، قوله تعالى: **﴿بل اتّبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم، فمن يهدي مَنْ أضلَّ ا لله، وماهم من ناصرين. فأقم وجهك للدّين حنيفاً، فطرة ا لله التي فطر الناس عليها، لاتبديل لخلق ا لله، ذلك الدّين القيّم، ولكنّ أكثر الناس لايعلمون. مُنيبين إليه واتّقوه وأقيموا الصّلاة ولاتكونوا من المشركين. من الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزبٍ بما لديهم فرحون.﴾**

علماً بأنّ ماأوردته كتب الأحاديث كالبخاري ومسلم وسواهما من أحاديث حول الفطرة البشرية، فلا تعدو تلك الأحاديث في بيانها التنبيه إلى الفطرة البشرية، لكنّها لاتُحدي في فهم حقيقة هذه الفطرة في شيء. فماذا يفهم من يقرأ: **﴿مامن مولودٍ إلاّ يولد على الفطرة، فأبواه يُهوّدانه أو ينصرّانه أو يُمجّسانه..﴾** ماذا يفهم إلاّ التّوجيه إلى وجود هذه الفطرة البشرية لاأقل ولاأكثر.

أمّا الذي يُطالع كتاب "نظرية جذور الأخلاق"، لابدّ أن تساعده معلوماته على تفهّم هذه الفطرة وبأسلوبٍ علميّ.

والآن لنعد إلى الآيات من سورة الروم التي ذكرناها، نتدّبرها بعنايةٍ ووفق أصول تفسير القرآن الكريم، لنرى مااحتوته هذه الآيات من معلومات تساعد على تفهّم هذه الفطرة التي فطر ا لله الناس عليها، والتي لن يطرأ عليها في المستقبّل أيّ تبديل.

وأبدأ أشرح معاني ألفاظ الآية على هدى مابيّنه لنا أصحاب المعاجم من معان ومعلومات ودلالات. ذلك على اعتبار أنّ هذه الآيات أنزلها ربّنا بلسانٍ عربيٍّ مبين.

قال تعالى ﴿**أقم وجهك**﴾ فأقم من أقام بالمكان اتخذه وطناً دائماً. وأقام الشيء: أدامه. وأقام الصلاة: أدام فعلها. وأما (وجهك) فمن الوجه وهو أول مايبدو للناظر من البدن ومنه العينان والأنف والفم. والوجه مُستقْبِل كل شيء ونفس الشيء. و (للدّين) فالدين يعني الطاعة وجنساً من الانقياد والذّل. يقال: دان له يدين ديناً: إذا انقاد وطاع وصاحب واللاّم الداخلة تفيد التمليك. أمّا (حنيفاً) أي غير منحرف (محيط المحيط). و (الفطرة) هي: الخلقة والجبلة المهيّأة في الإنسان لقبول الدين (محيط المحيط). وقد ورد في مفردات الراغب: الفطرة هي الصّفة التي يتّصف بها كُلّ موجود في أوّل زمان خلقته.

ونعود إلى تفسير ابن كثير لنلاحظ مافهمه من هذه الآيات الكريمة قال: ﴿**يقول تعالى فسدّد وجهك، واستمرّ على الدّين الذي شرعه الله لك من الحنيفيّة ملّة إبراهيم التي هداك الله لها، وكمّلها لك غاية الكمال، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السّليمة التي فطر الله الخلق عليها، فإنّه تعالى فَطَرَ خلقه على معرفته وتوحيده وأنّه لاإله غيره..**﴾ ج٣ ص٤٣٢.

وأتوجّه أنا إلى فهم هذه الآيات الكريمة على ضوء معاني مفرداتها السالفة الذكر وأقول: إنّ الله عزوجلّ نبّه أذهاننا قبل هذه الآيات إلى هيمنته على السماء والأرض، وإلى أنه سبق أن قرّر بعثنا من مرقدنا بعد موتنا أيضاً. كذلك نبّه إلى أنّ حياتنا الدنيوية ماهي إلاّ مرحلة أولى على هذا الطريق. وانتهى من ذلك كلّه إلى القول: ﴿**بل اتّبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم، فمن يهدي من أضلّ الله ومالهم من ناصرين.**﴾ بمعنى أن الذين يكذّبون رسولنا محمداً وماأنزل عليه يظلمونه ويظلمون أنفسهم في آن واحد، لقوله تعالى بحقهم (ظَلَموا) مُبهماً تعالى الجهة الظالمة. فهؤلاء صدر عنهمْ هذا الظلم الشنيع بدافع ماذا؟ وأجاب على هذا السؤال الذي طرح نفسه وقال: إنّ ماوقع من جانبهم من ظلمٍ لم يستند إلى وحيٍ من الله، ولاعلى أساسٍ من علم، بل اتّبعوا.. أهواءهم بغير علم، ومادامو قد اختاروا طريق الضلالة المذكور فقد تركتهم يضلّون، ولن يجدوا من دوني من يهديهم سبيل الحق إلاّ أن يعودوا عن اتّباع أهوائهم ويحاوروا بأسلوب علميّ. وإنّهم مالهم من ناصرين من دوني أيضاً.

فلما انتهى جلّ شأنه من ذلك، قال مخاطباً رسوله محمداً ﷺ والذّين اتّبعوه و لم يقصر خطابه على رسوله الكريم بدليل أنه لم يأت بذكر اسمه وأطلق

خطابه وقال: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً.﴾. وهذه الألفاظ تحمل أمراً موجّهاً إليهم جميعهم، لكنّه جل شأنه أتى بأمره هذا بصيغة ضمير المفرد تنبيهاً لذهن المؤمن السّالك درب عرفان ربّه وبعد أن آمن وبايع أن يداوم على طاعة تعاليم هذا الدّين الذي انقاد له، وأن لاينحرف عنه قيد أنملة. أن يُداوم بشكلٍ تأخذ تعاليم هذا الدين منه كُلّ مشاعره واهتماماته. ذلك أنّه تعالى لم يستعمل لفظ (وجهك) هنا بمعناه المادي بقرينة أنّ الدّين وتعاليمه ليست بشيء مادّي. بل بمعناه الذي ذكرته ليمكنّه اهتمامه الدائب وطاعته المستمرة والثّبات على هذا الأمر والصّبر عليه من التّمتع أخيراً بثمار الدين المرجوة من الالتزام بما جاء به من تعاليم وأوامر إلهية ومواعظ.

ثم إنّ ا لله عزوجلّ شاء أن يستدرك فلا يدع مجالاً للظنّ بأن في أمره هذا استعباداً لهذا المؤمن السالك لامبرّر له ومظهراً من مظاهر الدكتاتورية. فاستدرك جل شأنه وقدّم حيثيّات ومبرّرات أمره المذكور لُيدرك هذا المؤمن من وراء ذلك أنّ العمل على أمر ربه فيه فائدته وزيادة علمه، لذلك أضاف قائلاً: ﴿فطرة ا لله التي فطر الناس عليها لاتبديل لخلق ا لله..﴾.

فا لله عزوجلّ أتى في أمره بلام التمليك في كلمة (للدّين) تشديداً على ضرورة الالتزام بأمره والعمل بكل توجّه على تعاليم هذا الدّين الإسلامي. ثم ألحق بهذا اللفظ كلمة (حنيفاً) للتنبيه إلى ضرورة اليقظة المستمرة في حياته كيلا يحرفه عن هذا الصّراط أيّ تشيّع إلى جهةٍ ما وأي تمذهبٍ على قول ورأي ما وأي انحراف وانخراط في مسلكٍ سياسي. بل أن يظل يقظاً (حنيفاً) لايميل عن طلب عِرفان ربه وكسب محبته ورضاه وقربه ووصاله. وقال منبّهاً أيضاً إلى أنه إذا أراد أن يصون نفسه عن الانحراف عن هذا الدّرب فليعلم أنّ تعاليم هذا الدّين قد صدرت على أساس ملاءمتها لأرضية فطرته التي فطر ا لله الناس عليها، والتي لن يطرأ في المستقبل عليها أي تبديل في هذا الخلق، وهو جلّ شأنه بقوله ﴿فطرة ا لله التي فطر الناس عليها لاتبديل لخلق ا لله،﴾ قد شاء أن يثبت أنّ أمره الصادر إلى هذا المؤمن السالك قد قام على علمٍ حقيقيٍ، وليس اتباعاً لهوى بمعنى أنه ليس بأمر ديكتاتور يستعبد المؤمنين.

ولنلاحظ أنّه جلّ شأنه أتى هنا بلفظ (فطر) و لم يأت بلفظ (خلق). وإنّ وراء ذلك حكمةً بالغة. فأنت تقول فطر الشيء بمعنى شقّه وأخرج مافيه.

وفطر الناس خلقهم وابتدعهم (محيط المحيط). وهو جل شأنه بإيتائه لفظ (فطر) يكون قد أشار ونبّه إلى أنّه عندما شاء الله خلق الناس من هذه المادة الكونية لتحقيق هذا المقصد، شقّ هذه الذّرة المادّية وشكّل من قواها، هذه الفطرة البشرية التي تُعرّف أنها مجموعة قوى هذا الإنسان الباطنة أو صفاته الطبيعية التي يتصف بها كالشجاعة والكرم ومالى ذلك من صفات، ليشكّل بهذه القوى والصفات أرضية الأعمال التي سيقوم بها هذا المخلوق شرّاً كان أو خيراً.

أي أنّ الله عزوجلّ راح يبرّر أمره الصادر إلى عبده المؤمن السالك درب عرفان ربّه، بأسلوبٍ علمّي مُدهشٍ أورده ببلاغة كلاميّة مابعدها بلاغة. ليحثّه على البحث العلمي، وللتوصّل إلى وعي فطرته هذه وعياً علميّاً يتسّم بوضوح رؤية علمية أيضا.

وكأن الله تعالى إذ أتى بلفظ (فطر) هنا قد ردّ على الذين يزعمون أنّ الله تعالى يخلق الجنين ومن ثم يلقي فيه روحاً من خارجه. فهو تعالى ينبّه إلى أنّ قوى النفس البشرية المسمّاة (فطرة) قد أتى جل شأنه بها بتركيبةٍ معقّدةٍ من القوى السّت التي تحتوي عليها الذرّة المستندة في وجودها إلى هذه الجهات الستّ أيضاً. وهو الأمر الذي أتيت على تفصيله في نظرية جذور الأخلاق.

وقد نبّه جل شأنه العلماء أيضاً في الوقت نفسه ومن خلال قوله تعالى: ﴿**لاتبديل لخلق الله**﴾ نبّههم إلى أنهم عندما يسلّمون بالتركيب الذري الذي يستحيل أن يتبدّل، يعترفون من خلال ذلك بصدق قوله تعالى ﴿**لاتبديل لخلق الله**﴾ ومن حيث لايشعرون.

فلمّا انتهى الله جلّ شأنه من تقديم المبرّرات العلمية لأمره ﴿**أقم وجهك للدين حنيفاً.**﴾ الذي أصدره إلى هذا المؤمن السالك درب عرفانه أضاف قائلاً: ﴿**ذلك الدّين القيّم.**﴾. فأتى باسم الإشارة ﴿**ذلك**﴾ ولم يقل هذا الدين القيّم، بل ذلك الدّين القيّم.تنبيهاً إلى عظمة تعاليم هذا الدّين الذي أتى به محمد ﷺ، هذه التعاليم التي استندت إلى هذه الأرضية التي فطر الله الناس عليها والتي لن يطرأ عليها أي تبدّل أو تغيّر مهما امتدّ الزمان وتغيرت الأحوال. أي أنّ ملاءمة التعاليم الإسلامية للفطرة البشرية أكسبتها دوامها على مرّ الزمن. وقد حقّقت هذه الملاءمة لتعاليم الإسلام مكانةً وعظمةً لاتعلو عليها عظمة أي تعليم آخر قد أتى به رسول من رسل الله قبل بعث محمد الصادق الأمينﷺ.

وهو جلّ شأنه عندما وصف دين الإسلام بالقيّم في هذا المقام. من القيّم على الأمر متولّيه (محيط المحيط) قد أضاف معلومة جديدة لهذا المؤمن السّالك، وهو أنّه جلّ شأنه أشار إلى ماقاله في الآية السابعة من سورة الشمس: ﴿**ونفسٍ وماسوّاها. فألهمها فجورها وتقواها. قد أفلح من زكّاها. وقد خاب من دسّاها.**﴾. هذه الآيات الكريمة التي وضّحت أنّ النفس البشرية أو الفطرة هي مجرّد أرضيةٍ لخلقٍ روحي جديد.

والذي يلتزم بأوامر الخُلق العظيم لتبدو بلباسها الجديد متناسبة مع مايحمله خالقها ومبدعها من أسماء وصفات. فتعاليم هذا الدّين هي القيّم أي المتولّي أمر تطوير هذه الفطرة البشرية بهذا الخلق الجديد. هذا وقد عرّف جل شأنه لفظ القيّم بالألف واللاّم ليشير بذلك إلى معهودٍ ذهني، وهو أن جميع ماأنزله ا لله تعالى من شرائع سابقة، إنّما كانت تنقل البشر خطوة بعد خطوة لِتُعِدّ الأنفس لتلقّي هذا الدّين القيّم العظيم. ووفق ماأنبأت به تلك الأديان الغابرة على حينه.

وقد أضاف جل شأنه بعد ذلك يقول: ﴿**ولكنّ أكثر الناس لايعلمون**﴾ مؤكّداً صفة العلمية التي تمتعت بها تعاليم الإسلام، التي تجهلها أكثرية الناس وتبتعد بذلك عن هذا الفهم العظيم.

فلما انتهى ا لله جل شأنه من جميع ماذكرناه، أضاف يقول موضّحاً مضمون أمره الذي أصدره إلى هذا الرسول والذين آمنوا معه وقال: ﴿**مُنيبين إليه، واتقّوه، وأقيموا الصّلاة، ولاتكونوا من المشركين.**﴾ فأتى بصيغة الجمع (مُنيبين) ليؤكّد أنّ أمره الذي أصدره وهو (فأقم وجهك) لم يكن المقصود به رسول ا لله وحسب بل ويشمل جميع المؤمنين السالكين درب عِرفان ربّهم أيضاً.

وراح تعالى يشرح مضمون أمره ويقول ﴿**مُنيبين إليه**﴾ من ناب إلى ا لله بمعنى تاب. أي أنّ على هؤلاء المؤمنين المبايعين أن يتوبوا عمّا سلف قبل بيعتهم هذه، وأن يلتزموا بنهج التقوى الذي أتى به القرآن الكريم وهذه هي دلالة (واتّقوه). ﴿**وأقيموا الصلاة**﴾ أي أن ذكر ربكم الذي تمثله الصلاة الإسلامية وقراءاتها وأدعيتها وتسابيحها، هي عماد هذا الدّين الإسلامي، فالتزموا بالمداومة على هذه الوسيلة الأساس لرقيّكم الروحي. ﴿**ولاتكونوا من المشركين.**﴾ أي احذروا أسلوب التفكير المادّي الذي اتصّف به من كان من

المشركين وفكّروا خلال مسيرتكم الإيمانية هذه بأسلوب التفكير الروحاني النابع من الإيمان بوجود خالق كل شيء والذي له الأسماء الحسنى. وهو جلّ شأنه بقوله تعالى: ﴿**ولاتكونوا من المشركين**﴾ راح يضيف إليه معنى أوسع حين أضاف يقول: ﴿**من الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً كلّ حزبٍ بما لديهم فرحون.**﴾ فهو تعالى نبّه الأذهان من خلال هذه الإضافة إلى أنّ من يفكّر بأسلوبٍ مادّي، مهملاً التفكير بأسلوبٍ روحاني، سيؤدي انحرافه هذا إلى التّسبب بفرقة أتباع هذا الدّين وانقسامهم إلى شيع وأحزاب، كلّ حزب بما لديهم فرحون. ويخسرُ بذلك العمل بأمر ربّه ﴿**فأقم وجهك للدين حنيفاً**﴾ ويخسرُ بالتالي روح التوحيد التي حملته إليها تعاليم الإسلام، ولايعود من طلاّب معرفة الله الذي خلقه، ولا من السّاعين إلى كسب محبته ونصرته وقربه ورضوانه.

وبإمكاني الآن تلخيص مافهمته من هذه الآيات من سورة الروم بالتالي:

أولاً - أنّ هذه الآيات أرشدت المؤمنين السالكين الالتزام بطاعة أوامر ربهم وطلب عرفانه مادام لهم في هذه الحياة الدنيا من نصيب. على أن يتملّك هذا الدين والعمل على تعاليمه كلّ اهتماماتهم ومشاعرهم مادامت قلوبهم تنبض بالحياة.

ثانياً - كما أرشدت هذه الآيات المؤمنين إلى أنّ مافطروا عليه من قوى وميول وعواطف، كان لها أصل مادّي، و لم تأت من خارج هذا الكون المادّي لذلك عليهم سلوك سبيل البحث العلمي.

ثالثاً - ونبهت وأرشدت هذه الآيات إلى حقيقة استمرارية العمل بتعاليم الإسلام على مرّ الزمان من منطلق ملاءمتها للفطرة البشرية التي لن يطرأ عليها أي تبديل مهما طال الزّمان.

رابعاً - كما نبهت هذه الآيات إلى أنّ تطوير الفطرة البشرية لايتحقق إلا عن طريق الأخذ بتعاليم هذا الدّين القيّم والمتولي القيام بهذه المهمة الجليلة القدر.

خامساً - وأن التزام المؤمن بالعمل على تعاليم الإسلام يحقّق لصالحه خلقاً روحيّاً جديداً وبحواس جديدة تؤهلّه للحياة الخالدة التي خلقه الله تعالى من أجل الفوز بها، ليتمتّع برؤية جمال ربّه وسماع كلامه.

سادساً ـ وأنّ نهج التقوى الذي أتت به تعاليم الإسلام هو السّبيل إلى تحقيق هذا الأمل الكبير.

سابعاً ـ وأنّ الصّلاة الإسلامية هي عماد تعاليم هذا الدّين الإسلامي الذي جعله ا لله تعالى قيّماً على تطوير الفطرة البشرية.

ثامناً ـ وأنّ ا لله ورسوله يبرآن ممّن يفكّرون بأسلوب التفكير المادي، والذين يكونون بذلك من المشركين الذين يفرقون دينهم شيعاً كل حزبٍ بما لديهم فرحون.

فهذه هي خلاصة مافهمته من آيات سورة الروم المذكورة، والتي لاحظنا سطحية وحرفيّه مافهمه منها ابن كثير على حسب ما أوردته من تفسيره من أقوالٍ منسوبةٍ إليه.ولاتُدرك هذه الأمور إلاّبوعي حقيقة الفطرة البشرية المشروحةً في نظرية جذور الأخلاق. هذا وإنّ جميع مأتكلم عنه في باب العرفان الإلهي من هذا الكتاب إنّما يتعلّق بالحقيقة الثانية وهي كيفية رعاية وتطوير هذا الكيان الروحي الذي اكتسبه المؤمن عن طريق إيمانه وبيعته. هذا وإنّ من يعي هاتين الحقيقتين يكون قد أخذ بالذريعة الرابعة التي تساعده على جذب محبة ربه وعرفانه والفوز بنصرته وتأييده والحصول على قربه ورضوانه.

قلت إنّ الذريعة الرابعة التي تجذب محبة ا لله هي وعي هذا المؤمن السّالك لحقيقة فطرته وحقيقة كيانه الرّوحي، وفقاً لمضمون الآيات التي ذكرتها من سورة الروم. وأضيف هنا أنّ هذه الآيات طالبت ونبّهت كذلك إلى ضرورة وعي المسار التوحيدي المطلوب من المؤمنين الموحّدين.

وذلك من خلال قوله تعالى: ﴿**مُنيبين إليه، واتّقوه، وأقيموا الصلاة، ولاتكونوا من المشركين. من الذين فرّقوا دينهم وكانوا شِيعاً كلّ حزبٍ بما لديهم فرحون.**﴾. فإن غفل هذا المؤمن عن وعي معالم التوحيد، زلّت قدماه نحو هاوية الشّرك بـا لله والتفرّق عن سبيله. ولايُقصد بالشرك هنا الشرك الجليّ كعبادة الأصنام وغيرها، بل جاء التحذير في هاتين الآيتين الكريمتين من الشرك الخفيّ الذي تكلمت عنه في حينه. فهو المقصود من قوله تعالى: ﴿..**ولاتكونوا من المشركين.**﴾.

هذا وإنّ خَفاء هذا النوع من الشرك، وخطورته، إشفاقاً من ا لله تعالى ورحمة بعباده المؤمنين السّالكين، دعته لتعليمهم دُعاء سورة الفاتحة وألزمهم

بتلاوتها في كل ركعة من ركعات صلواتهم المفروضة عليهم، واشتملت الفاتحة على مشاعلَ منيرة تنير لهم معالم هذا المسار التوحيدي. وعلى صورةٍ تبدو إعجازية صياغة ومضموناً. وقد فعل ربّنا ذلك على شاكلة ماتفعله شركات الكهرباء تغرس على طول الطريق أعمدةً على رؤوسها مصابيح مضيئة تنير لهؤلاء المارّة طريقهم ليصلوا بذلك إلى هدفهم المقصود سالمين. وإنّ المؤمن الذي لايهتدي بهدي هذه المعالم والمنارات التي تضمنتها سورة الفاتحة، يسقط نتيجة لذلك في مطبّاتِ الشرك الخفي وينحرف بذلك عن الصراط المستقيم، ويكون **﴿من الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون.﴾**.

ولايعود يملك ناصية التفكير الروحاني، وتنقطع صلته بربّه ولايعود له من ناصرين. هذا وإنّ الآية (١٠٥) من سورة يوسف التي أتيت على شرحها في حينه، وهي قوله تعالى: **﴿وكأيّن من آيةٍ في السموات والأرض يمرّون عليها وهم عنها معرضون. ومايؤمن أكثرهم بالله إلاّ وهم مشركون أفأمنوا أنّ تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم السّاعة بغتةً وهم لايشعرون. قل هذه سبيلي أدعو إلى الله، على بصيرةٍ أنا ومن اتّبعني وسبحان الله ومأأنا من المشركين.﴾** تدور حول بيان هذا الشرك الخفي الذي حذرت منه آيات سورة الرّوم التي ذكرناها.

وبشوق بالغ من هذا المؤمن السالك يسأل ليتعرّف على هذه المعالم والمنارات التي أشعلها الله عزوجلّ من أجل توطيد أقدام هؤلاء المؤمنين السالكين وتثبيتها على صراطه المستقيم، والتي تضمنتها هذه الآيات السّبع من سورة الفاتحة أم الكتاب المبين.

وأساعد هذا المؤمن السالك ممّا فتحه الله عزوجلّ عليّ من هذه المعالم والمنارات، ووفقاً لأصول التفسير فأقول: من المعلوم أنّ من أسماء سورة الفاتحة "أم الكتاب" و "فاتحة الكتاب" لتنبيهنا إلى أنها مقدّمة للقرآن العظيم. لذلك فلابد للذي يتدبّرالقرآن الكريم أن يرجع إلى آيات هذه الفاتحة يستهديها هذا المفتاح وهذه المعالم والمنارات. من مُنطلق أن هذا البحر القرآني على سعته، وكأنه قد ضُغط وحُصر في كوبٍ صغير، هو آيات سورة الفاتحة. فقد ألقت هذه السّورة وبإيجاز معجز الضوء على موضوع خلق هذا الإنسان، وعلى علاقته بخالقه، ووضحّت المقصد من خلق الإنسان، كما وضحت علاقته بخالقه من

حيث أنّ هذه العلاقة تدور حول فضل ا لله ورحمته، كذلك بحثت سورة الفاتحة جميع الأمور المتعلّقة بالذات الإنسانية بشكل معجز أيضاً. لذلك سُميّت سورة الفاتحة ضمن آيات القرآن الكريم "بالسّبع المثاني" تأكيداً منه جلّ شأنه للحقيقة التي ذكرتها وعلى اعتبارها المرجع المتكرّر لهذا الكتاب العزيز.

أتناول أوّل ماأتناوله البسملة أي بسم ا لله الرحمن الرحيم. هذه البسملة التي جُعلت في حدّ ذاتها مفتاحاً لسورة الفاتحة نفسها ولكلّ سورة من سور القرآن الكريم وأصل من أصول تفسيره فقد ابتُدئت البسملة بحرف الباء كحرفٍ ذي معنى، وليس كحرف هجاء لدخول هذه الباء على آلة الفعل وهو اسم ا لله عزوجلّ. ليكون التّقدير أبداً مُستعيناً باسم ا لله وبمعنى الاستعانة. كذلك التقدير أبداً ملتزماً بمسار التوحيد الذي أتى به الإسلام وبمعنى المصاحبة والالتزام.

وتلاحظون أنّ هذه الباء في "بسم ا لله" حملت لنا أوّل مَعْلم ومشعلٍ على مسار التوحيد. الأمر الذي يُستنتج منه أنّ الذي يعصي ربّه، ويُبسمل حين يشرب الخمر مثلاً ، يتناقض فعله مع دلالة باء البسملة ، ذلك أن المصاحبة والمعصية لايجتمعان ولايتجانسان.

وكأنّ ا لله عزوجل حين علمنا أن نبدأ بالبمسلة، يكون قد نبّهنا إلى أنه لايحقّ للعاصي أن يستعين با لله على معصية ربّه وعلى ارتكاب أي نوعٍ من أنواع الشرّ التي تخالف مسار التوحيد الذي أتى به الإسلام. وكأنّ ا لله تعالى نبّه ذهن المؤمن السالك من خلال هذه الباء إلى أنّه تعالىلايتقبّل دُعاء من لايكون باراً مع ربّه ولايكون بعيداً عن ارتكاب الفواحش والآثام.

فهذا هو أوّل مَعْلم لبسم ا لله الرحمن الرحيم. والمَعْلَمُ الثاني أو المنارة الثانية يستنبط من أداة الفعل (بسم). فالاستعانة با لله ومعرفته لاتتحقّق عن طريق الذّات الإلهية، بل عن طريق أسماء ا لله الحسنى وصفاته. يؤيّد ذلك قول ا لله تعالى في الآية (١٨٠) من سورة الأعراف: ﴿**و لله الأسماء الحُسنى فادعوه بها، وذروا الّذين يُلحدون في أسمائه، سيُجزون ماكانوا يعملون.**﴾.

وقد أضاف لنا ا لله جل شأنه مَعْلماً ثالثاً حين أضاف صفتي الرحمن الرحيم على (بسم) وقال (بسم ا لله الرحمن الرحيم). وهو أنّ من يزعم أنّ القوة الباطنة عند الإنسان هي جزء الذات الإلهية، فهو مُخطىء، فالذات الإلهية منفصلة

عن وجود الإنسان، وتتصف بصفتين أساسيتين هما (الرحمن الرحيم). على حين لايتّصف هذا الإنسان من حيث فطرته بهاتين الصّفتين العظيمتين.

والمَعْلم الرابع الذي تضمنته البسملة هو تنبيه أذهاننا إلى أنّ الله تعالى هو مسبّب الأسباب في عالمنا الدنيوي لذلك يستعين بـه المؤمن في المآزق ولتعويض ضعف جبلّته. أي أنّ هذا العـالَم يسير وفـق مشيئة الله عزوجلّ، ولايسير من نفسه على حسب مايذهب إليه الطبيعيون.

ثـم إنّ تركيز البسـملة على لفظ الجلالـة (الله) جـل جلالـه أضـافت للمؤمن السالك معلماً خامساً وهو أنّ هذا الإسم ذاتيّ وجـامد لايصّح اشتقاقه من لاه يلوه. فالله اسم هذه الـذّات المقدّسـة الأزلي الأبـدي الحـيّ القيـوم المـالك الخالق ورب العالمين.

والمَعْلم أو المنارة السادسة التي نُصبت لنـا عـن طريـق بسـم الله الرحمن الرحيم هو أنّ صفة الرحمن صيغت على وزن فعلان الدّال على الامتـلاء والغلبـة، لنقول أنّنا عُلّمنا أن ندعو الله مالك الرحمة الواسعة التي يشمل فيضها كـل شـيء في هذا الوجود، دونما مبادلة معنا أو استحقاق لعملنا وفعلنا.

كذلك فقد صيغت صفة الرّحيـم علّى وزن فعيـل الـدّال علـى التكـرار والاستحقاق وفقاً للسّلوك، الأمر الذي يضيف مَعْلماً ومنارة سـابعة علـى مسـار توحيد الله عزوجلّ، لتشير هذه الصفة إلى أن الله الرحيم الذي نعبده ونسعى إلى معرفته يجزي المستحقّ جزاءً مكرراً وحسناً ويتكرّر هذا العطاء علـى مـرّ الزمـان. أي أنّه في حين تتّصف صفة الرحمن بالعموميـة والشـمولية، فـإنّ صفـة الرحيميـة يختصّ عطاؤها بالمؤمنين السالكين خاصّة، فهذا هو ماوضّحه لنا العلاّمـة اللّغـوي أبو علي الفارسي.

وأهمّ مَعْلم ومنارة أتت بها البسملة كمنارة ثامنة لتقـي المؤمـن السـالك من الوقوع في الشّرك الخفي يبدو من خـلال التـأكيد علـى ضـرورة قراءتهـا قبـل شروعنا بأي فعل من أفعالنا ولو كان طعاماً أو شراباً، لنظل نحن المؤمنـين وَاعِـين لجميع المعالم والمنارات والمعـاني والـدلالات الـتي تضمنتهـا البسـملة ومـن خـلال قولنا: بسم الله الرحمن الرحيم. فكم هو واسع علم وقدرات هذا الإله الذي آمنّا به ونحاول التعرّف إليه، الله الذي استطاع أن يضغـط هـذه المصـابيح الثمانيـة في أربعة ألفاظ؟

وأعرّج الآن على سورة الفاتحة، متناولاً أوّل آيةٍ من آياتها وهي ﴿**الحمد لله رب العالمين.**﴾. إنّ هذه الآية الكريمة ابتدأها ربّنا عزوجلّ بكلمة (الحمد)، في وقت نلاحظ منه أنّ هناك ألفاظاً عدّة كألفاظ الثناء والمديح والشكر والرضا (محيط المحيط) تضمّنتها معاجم اللغة، وجميعها يدور حول معنى الحمد. فالسؤال الذي يُواجهنا: لماذا اختار الله ربّنا لفظ الحمد، و لم يختر الثناء والمديح والشكر والرّضا ولنقول الثناء لله أو نقول المديح لله أو نقول الشكر لله؟

فلماذا إصطفى ربنا جل شأنه كلمة الحمد؟ ولماذا أتى بهذا اللفظ مُعرّفاً بالألف واللاّم؟ ولماذا أتى بالحمد بصيغة المصدرِ، لابصيغة الفعل فقد كان بالإمكان دفعنا لنقول حمداً لله رب العالمين.

فأنا أجيب على ذلك باختصار وأقول: لقد فعل الله ذلك ليضع بين أيدينا ويضيف إلى منارات البسملة مناراتٍ جديدة تهدي المؤمن السّالك سبيل عِرفانه ومسار توحيد الله تعالى وصراطه المستقيم. وليصونه إن هو اهتدى بهذه المعالم والمصابيح من أن تغوص قدماه في مُستنقع الشرك الخفي، فيُفرّق بالتالي أُمّته إلى مذاهب وشيع وأحزاب ولايفوز بمقاصده.

إنّ لفظ الحمد من حيث دلالته اللغوية أعمّ دلالة من الشّكر من حيث أنه يزيد عليه معنى: الإحساس بالفضل والإحساس والإقرار بكليهما معاً. أي أن الحمد يزيد على معنى الشكّر دلالة على إحساس الحامد بجمال هذا المحسن، والرّضا به إلهاً مُحسناً.

كذلك وإن دلّ الثناء على المديح ونشر الذكر الحسن بين الناس كما أفاد بذلك صاحب معجم (المفردات). فإنّ الثناء يُفيد التكرار لتجربة ذاتية مع المُحسن يُذيعها مرّة تلو مرّة بين الناس، من هذا تتّضح لنا سعة دلالة الحمد وشموليته وواقعيّة تعبيره.

ولفظ المديح يُستعمل أصلاً للأفعال اللاإراديّة، أي للتعبير به عن الأفعال العفوية للمادح. على حين يُعبّر بلفظ الحمد عن الأفعال الإرادية والاختياريّة كما وضّح ذلك صاحب معجم المفردات. وعليه فلو قلنا المديح لله، لانكون قد عبّرنا عن حمدٍ لله بحريّةٍ واختيار.

وأما لفظ الرّضا فلايفيد إلاّ التعبير عن رضا المحسن إليه، ولايدل على شعور بجمال هذا الذي أحسن. أي أنه يحمل دلالةً محدودة الأبعاد وفرديّة في مقابلٍ لفظ الحمد الواسع الدلالات.

من هذا كلّه ندرك المَعْلم ومصباح الهدى الأوّل الذي ارتكز إلى اختياره جل شأنه للفظ الحمد من بين بقية الألفاظ الـتي تشترك معه في موضوعه. فقد علّمنا هذا الاختيار أن ندأب على الإقرار في كل ركعة من صلواتنا با لله الذي وسع إحسانه كل شيء، الإقرار من صميم أفئدتنا بدافع إيماننا بذلك عن علم، وبإرادتنا غير مكرهين على هذا الإقرار، الإقرار أنّ ربّنا الذي نعبده يتجلّى جماله في كونه الرحمن والرحيم، ومقرّين بأن الذي خلقنا حكيم لم يخلقنا عبثاً بل لمقصدٍ سام وهو أن نتعرّف إليه ولنكون من عباده الأبرار، وأن حياتنا الدنيوية ماهي إلا إحدى ظواهر إحسانه.

والمعلم والمنارة الثانية الذي حملها لنا لفظ (الحمد) تضمّنتها صياغة لفظ الحمد بصيغة المصدر، لابصيغة الفعل. فالمصدر يحمل معنى الشمولية، على حين أنّ الفعل يحدّد زمن الحمد. ذلك أنّ المصدر هو اسم الحَدَث الجاري على الفعل.

وصياغة الحمد بصيغة المصدر أفادتنا معلماً ومنارة ثالثة، وهو أننا لانحمد ا لله على ماعلمنا من إحسانه وحسب، بل نحمده على مانعلمه وعلى مانجهله من إحسان ربّنا عزوجلّ ماضياً كان هذا الإحسان وحاضراً، أو يأتي مستقبلاً. فهذا مايفيده صياغة الحمد بصيغة المصدر. وهذا المَعْلم والمنارة يعني بألفاظٍ أخرى أنّ ذات ا لله تعالى مُنزّهة عن كل نقص، وأنّ أسماءه الحسنى لاتحمل إلا دلالة الخير. فا لله هو خيرٌ كُلّه.

ثم إن تعريف (الحمد) بالألف واللاّم أعطانا مَعْلماً ومنارة رابعة. فقد استعمل أل التعريف هنا للاستغراق لأنه يصحّ أن يُقال الحمد كلّه لله. يصحّ الايتاء بكلمة (كلّه) هنا مجازاً كما أفادتنا به المعاجم اللغوية. فقد أوتي بأل التعريف على سبيل الاستغراق في شمولية لفظ الحمد هنا لجميع خصائصه. فهذه الألف واللاّم لاستغراق جنس الحمد بجميع خصائصه. وهذه المنارة تهدينا سبيل التوحيد الكامل، وتقينا من فهم الألوهية ممزوجاً بالشرك الخفي.

ذلك أنّ المؤمن السالك سبيل عرفان ربه والمدرك دلالة الألف واللام في الحمد، يستحيل عليه أن ينسب إحساناً لما دون ا لله الخلاق إلا على سبيل الظّلية وعلى اعتبار أن ا لله رحمن رحيم.

وهذا المَعْلم الرابع يضمّ منارة خامسة معه، وهو أنّ علم الإنسان وفهمه ومايحمله من أدوات تحصيل علم، لاتكفي هذا الإنسان ولاتساعده على الإحاطة بقدرات الذات الإلهية وواسع علمها لرضوخ هذا الإنسان لقانون الاحتياج العام. فلا يعلم ولن يعلم ولن يُحيط بشيء من علم ا لله إلاّ بما يشاء ا لله تعالى أن يُعلّمه إيّاه. لذلك فإنّ من واجب هذا المؤمن السالك أن يدأب على الدّعاء قياماً وقُعوداً وفي جميع حالاته التي يمرّ بها يومياً أنْ ربّي زدني علماً.

وهاأنّ ماأسفر عنه التّقدم العلمي في جميع مجالات الحياة راح يؤكد هذه الحقيقة التي كشف عنها هذا المَعْلم الرابع الغطاء. فجميع علماء المادة المعاصرين كلّما مكّنهم ا لله تعالى من فكّ أحد رموزها وألغازها، راحوا يُلاحظون أنهم لايزالون يواجهون رموزاً للمادة وأسراراً تستدعي منهم مثابرة البحث والاستقصاء، وكأنهم يعترفون بألفاظ أخرى بما تضمنته هذه المنارة الخامسة التي احتواها عليها أوّل لفظ من ألفاظ أوّل آية من آيات سورة الفاتحة، وهو كلمة الحمد.

والمَعْلم السادس ومشعل الهدى يتجلّى من خلال قوله تعالى: ﴿**الحمد لله**﴾ أي من خلال الجار والمجرور (لله). فاللاّم استعملت هنا بمعنى الاستحقاق لأنها وردت بين معنى وذات. فاللاّم أضيفت للفظ الجلالة (ا لله) الجامع لجميع الأسماء الحُسنى. لتؤكّد هذه اللام استحقاق ا لله عزوجلّ لجميع خصائص الحمد لذاته على سبيل الأصالة وهكذا فإن تنبيه الأذهان إلى حكمة اختيار لفظ الحمد، وصياغته وبصيغة المصدر الذي صيغ بها، وشمولية ا لله لخصائص الحمد كلها، والاستغراق في جنس هذه الخصائص يوضح أن علم الإنسان مهما ارتقى وتسامى يظلّ دون مستوى إدراك علم ا لله وقدراته.

والمعلم والمشعل السّابع يتجلّى في إضافة لفظ (الرّب) بعد لله. هذا اللفظ الذي يعني على حسب ماأورده صاحب المفردات في معجمه أنّه الذات الذي ينشيء الشيء حالاً فحالاً إلى حدّ التمام أي ينشئه وفق مايُسمونه بقانون الارتقاء. وهذا المعلم يقضي أن يأخذ المؤمن السالك بقانون الارتقاء كأساسٍ

لتفسير جميع ظواهر الحياة على أساس هذا القانون الطبيعي الذي سنّه الله الخالق لكلّ شيء، ليصون فهمه من كل جمود يخالف العلم ومايكشف عنه من حقائق كونية، فالله جل شأنه لايتنافى مع قَدرهِ أن يكون ربّاً بالمعنى اللغوي.

وقد أضيفت إلى كلمة الرّب كلمة (العالمين) لتضيف معلماً ومنارة ثامنة للمؤمنين السالكين، من أنّ ربوبيّة الله تعالى لاتشمل الإنسان وحده، بل تشمل كُلّ موجودٍ سوى الله تعالى، سواء أكان هذا الموجود من عالم المادة والأجسام أو كان من عالم الأنفس والأرواح. أو كان جُرماً سماوياً كالشمس والقمر والنجوم والمجرات وغيرها من الأجرام (إعجاز المسيح ص٤٨).

وهذه المعلومة أفادنا بها صاحب معجم المفردات حين ذهب إلى أن (العالمين) جمع عالَم، وهو كلّ نوعٍ من أنواع المخلوقات. هذا الرأي الذي أكّدتهُ الآيات من سورة الشعراء: **﴿قال فرعون ومارب العالمين. قال ربّ السموات والأرض ومابينهما إن كنتم موقنين. قال لمن حوله ألا تسمعون. قال ربّكم وربّ آبائكم الأوّلين. قال إن رسولكم الذي أُرسل إليكم لمجنون. قال ربّ المشرق والمغرب ومابينهما إن كنتم تعقلون﴾**.

وبقوله تعالى (رب العالمين) يكون قد نبّه ذهن المؤمن السالك درب عرفانه إلى وجود قانونين قد سنّهما الله جل شأنه لتطوير مخلوقاته كلّها، قانوناً طبيعيّاً لتطوير الأجساد المادية وقانوناً روحياً لتطوير الأنفس والأرواح. ويعمل هذان القانونان جنباً إلى جنب وفي آن واحد.

والمؤمن الذي لايعي هذه الحقيقة التاسعة ولايلتزم بمعطياتها المفصّلة ضمن سور القرآن الكريم لايكون موحّداً كامل التّوحيد، بل يشوب إيمانه شركٌ خفيٌّ ويُخشى عليه أن يفرّق أمته ويهدم وحدتها.

فإذا أمعنا نظرنا في العلاقة والربط الذي حدث مابين (الحمد لله) و (رب العالمين). تبرز أضواء معلمٍ ومنارة عاشرة على مسار التوحيد وهو صفة العالمية التي تتصف بها دعوة الإسلام، فلم يقل جلّ شأنه "ربّ المؤمنين" بل قال الحمد لله رب العالمين. وكأنه تعالى وبهذين اللّفظين "ربّ العالمين" قد بعث في نفس المؤمن السالك حسّه الإنساني ودفعه لينهج في سلوكه نهجاً إنسانياً فينظر إلى جميع خلقه والإحسان إليهم دون تفريق بين دين ودين ولونٍ ولون وعرقٍ

وعرق، إلاّ أن يكونوا أعداءً لخالقهم ولعباده المؤمنين. وماأعظم هذا المَعْلم والمنارة العاشرة على درب المسار التّوحيدي الإلهي.

وهذه المنارة العاشرة، تُرى بجانبها المنارة الحادية عشرة وهي تنبيه الله عزوجلّ ذهن المؤمن السالك إلى خضوع كلّ ماعدا الله تعالى إلى قانون التطور والارتقاء. أي يستحيل أن تستوي بداية أيّ شيء مع نهايته. بل يخضع كل شيء للتطور والارتقاء من حالته الدنيا الأوليّة، باتجاه التمام وتبعاً لتجلّي ربوبية رب العالمين. أي أن جميع أشياء هذا العالم مخلوقة، إنساناً كان أو حيواناً أو نباتاً أو جماداً، وأنّ كلاً منها تُمرّرها الربوبية خلال أدوار تطوّرٍ عديدة، وإن بدت ظاهراً مارةً من خلال دور واحد، فهذا هو الفهم الذي يقتضيه توحيد الله تعالى وفق معطيات هذه المنارة الحادية عشرة التي جلاّها الارتباط الموضوعي مابين الحمد لله ومابين ربّ العالمين.

والرابطة الموضوعية مابين الحمد لله ورب العالمين تُبرز لنا المعلم والمشعل الثاني عشر. وهو أن المادة وخلق الله لمخلوقاته عن طريق هذه الأداة يعني أنّ هذا العالم الدنيوي لن يكون الأول والأخير، بل هو الطور الأول على درب عطاء ربوبية ربّ العالمين وبدليل أنه خلق الموت والحيَاة أيضاً، لننتقل إلى الطّور البرزخي الذي سيكون أكمل وأسعد من عالمنا المادي، فهو طور أرقى وأسمى، ولابدّ أن يبعث هذا الإنسان يوم القيامة بكيان متطوّر أرقى وأسمى من كلا الكيانين الدنيوي والبرزخيّ، وأنّ حلقات هذا التطوّر لن تقف عند حدود وفي ظلّ تجليّات هذا الرّب العظيم رب العالمين. والمؤمن الذي يحيط علماً بمعطيات هذه المنارة الثانية عشرة يسير في دنياه قُدُماً منشرح الفؤاد وكله أمل وسعادة بمستقبله أيضاً. وهو يسير على مسار توحيد الله الذي خلقه وهداه إلى هذه المعلومة العاشرة بأسلوبٍ بياني مُعجز يأخذ بالألباب ويدهش أعظم المفكرين.

والمعلومة الثالثة عشرة التي تأتت عن الربط الموضوعي مابين الحمد لله رب العالمين هي أنّ مصدر جميع الأديان السّماوية واحد وهو الله الذي هو ربّ العالمين. وأنّ هذا الخالق الرّب هو الذي هدى عباده إلى وجوده منذ فجر وعيهم وبدأ يهديهم الصراط المستقيم عن طريق وحيه ورسله لذلك ورد في كتاب الله تعالى قوله: **﴿وإن من أمّةٍ إلاّ خلا فيها نذير﴾**. وإن جميع الأديان إنما تشكّل حلقاتٍ متكاملة على طريق هذا التطور والارتقاء اللانهائي. أي أنّ المؤمن

السالك درب عِرفان ربه يستحيل عليه أن يقول بتوقف ا لله عـن مكالمـة ا لله مـع عباده في يومٍ من الأيام مـع الاعتقـاد أنّ شـريعة الإسـلام هـي آخـر الشـرائع وأنّ محمداً ﷺ خاتم النبيّين.

فلا تضادّ في نظر هذا المؤمـن الموحّـد مـابين استمرارية مكالمـة ا لله مـع عباده، ومابين اكتمال حلقات الدّين، وهكذا يكون قد صَادَفنا من خلال قراءتنـا بسم ا لله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين واحـد وعشـرون معلمـاً ومنـارة على مسار التوحيد الإلهي.

ونتفحّص ماتضمّنته الآية الثانية من سـورة الفاتحة مـن معـالم ومشـاعل على مسـار التّوحيـد الـذي أتـى بـه الإسـلام، والـتي قـال تعـالى فيهـا ﴿**الرحمـن الرحيم**﴾. فالذي نلاحظه أنّها آية لم تتجاوز لفظين، كانت البسملة قد اشتملت عليهما في بسم ا لله الرحمن الرحيم. فهـل حـدث هـذا الأمـر مـن قبيـل التكـرار، ونحن نعلم أنّ كلام ا لله تعالى مُعجز بيانياً ومُنزّه عن التّكرار.

٥ـ البسملة تعدُّ أحد أصول التفسير

هذاوإنّ الظن بأنّـه تكـرار يعـود في نظـري إلى الجهـل بحقيقـة البسـملة. فالبسملة، وإن افتتحنا بهـا سـورة الفاتحـة، فليسـت هـي جـزء الفاتحـة، بـل هـي مفتاحها ومفتاح كلّ سـورةٍ مـن سُـور القـرآن الكريـم. وبـدون تفهّـم مضمـون الفاتحة لاتتفتّح علوم ومعارف السّور القرآنية على وجهها الصحيح. فالبسملة لهـا استقلاليتها، وهي في حدّ ذاتها مُعتبرةٌ أحد أصول تفسـير القـرآن العظيـم. وهـذا الطّرح الذي أطرحه، لايتّضح إلا بعد تقديم مثالٍ مـن داخـل سـورة مـن السّـور وبشكلٍ موضوعي.

فمن هذا المنطلق، سأضرب للقارىء مثالاً يثبت منه ماذهبت إليه، ومـن ثم أعود لأصل موضوعي وهو إبراز مافي ﴿**الرحمن الرحيم**﴾ من معالم ومشـاعل تنير مسار توحيد ا لله للمؤمنين الموحّدين.

دونكم سورة الحاقّة وقد تكلّمت عمّا سيحدث للأنفس بعد بعثهـا مـن مراقدها. فقد تكلّمت عن مصير الفريقين المؤمن والكافر وعمّا هو مُخبأٌ لهم يـوم القيامة من نتائج تتأتى عن أعمالهم الـتي عملوهـا في حيـاتهم الدنيـا. ﴿**فأمّـا مـن أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرؤوا كتابيه. إنّي ظننت أنّـي مـلاق حسـابيه. فهو في عيشةٍ راضية. في جنّةٍ عالية. قطوفُهـا دانيـة. كلـوا واشـربواً هنيئـاً بمـا**

أسلفتم في الأيّام الخالية.﴾ هذا عن مصير فريق المؤمنين. أما عن مصير الفريق الكافر، فقد جاء: **﴿وأمّا مَنْ أوتي كتابه بشماله فيقول ياليتني لم أوتَ كتابيه. ولم أدْرِ ماحسابيه. ياليتها كانت القاضية. ماأغنى عني ماليه. هلك عني سلطانيه.﴾**.

وإلى هنا لايُواجه متدبّر الآيات غموضاً، وتزلزلاً في فهمه لهذه الآيات الكريمة. والغموض الذي يحتاج إلى مفتاح يوجّه هذا المتدبّر ويعينه على الفهم، هو قوله تعالى بعدها مباشرة: **﴿خذوه فَغُلّوه. ثم الجحيم صلّوه. ثم في سلسلةٍ ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه.﴾**.

فما المقصود بغُلّوه؟ وكيف يغلّونه؟ ومالمقصود بثم الجحيم صلّوه؟ وكيف يصلّونه؟ ومالمقصود بسلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه؟ وكيف يسلكونه؟

وقبل أن أُجيب على هذه التساؤلات مستعيناً با لله تعالى وبمضمون بسم ا لله الرحمن الرحيم الذي يشكّل أحد أصول تفسير الآيات المذكورة. أتلو على مسامع القارىء مافهمه ابن كثير من هذه الآيات الكريمة، ليساعد ذلك هذا القارىء على الموازنة وإصدار الأحكام.

فقد أورد ابن كثير على الصفحة ٤١٦ من الجزء الرابع من تفسيره أن الفضل بن عياضٍ قال: (إذا قال الرّب خذوه فغُلّوه، ابتدره سبعون ألف مَلَك أيّهم يجعل الغُلّ في عُنُقه). كذلك نقل عن كعب الأحبار قوله: (في سلسلةٍ ذرعُها سبعون ذراعاً فاسلكوه، كل حلقةٍ منها قدْر حديد الدّنيا.). كذلك نقل عن ابن عباس حول معنى (فاسلكوه) قوله: (تُدخلَ في أسته، ثم تخرج من فيه، ثم يُنظمون فيها كما يُنظم الجراد في العود حين يُشوى.). كذلك نسب إلى ابن عباسٍ قول آخر أنّه قال: (يُسلك في دُبُره حتى يخرج من مِنخريه، حتى لايقوم على رجليه.).

فلِمَ ذهب ابن كثير مذهب هذه الأقوال التي لايستسيغها عقلٌ ولامنطقٌ فتصوّر ا لله عزوجلّ وكأنّه مُستبدٌ جزار؟ إن نقطة الزّيغ عن المعاني الحقيقية، انطلقت من الميل إلى معنى دون المعنى الآخر لكلمة (غُلّوه). فلفظ الغُلّ له معنيان: الأول العطش الشديد الذي ترافقه حرارة جوفٍ شديدة. والثاني طوقٌ من حديد (محيط المحيط). فالمعنى الأول أتى من تخلّل شيءٍ في شيء على حسب

ماأورده صاحب المقاييس، حيث تقول العَرَبُ: غَلْلتُ الشيء في الشيء: إذا أثبته فيه كأنّما غرزتُه، من هذا أتى معنى العطش للغُلّة والغليل، فهذا العَطش ينغلّ في الجوف وترافقه حرارة. حيث يقال: بعيرٌ غلاّن أي ظمآن. والغِلّ هو الحقد والضغن ينغلّ في صدر صاحبه.

فابن كثير أخذ بمعنى (طوق من حديد) للفظ الغُلّ، وأعرض عن المعنى الآخر، فلماذا فعل ذلك وانتهى إلى هذه المعاني المضحكة؟ جواب ذلك أنه لم يضع في حُسبانه مضمون بسم الله الرحمن الرحيم كأصلٍ من أصول تفسير هذه الآيات. أي لم يعتبر صفتي الرحمن والرحيم اللتين افتُتحت بهما سورة الحاقّة كقرينة تدفعه إلى الأخذ بالمعنى الأول، والإعراض عن المعنى الآخر وهو الطوق من حديد.

ومادام قد زاغ من أوّل الطّريق وأخذ لفعل (غُلّوه) معنى ضعوا الطوق الحديدي في عُنق هذا الكافر، فقد راحت مخيلته تصوّر له أن سبعين ألف ملك من ملائكة الله راحوا يتسابقون لتنفيذ أمر ربّهم لأنه تعالى قد خلقهم **﴿يفعلون مايؤمرون﴾** دون أن يقدّم على هذا التصّور السّاذج أي دليلٍ قرآني أو عقلي. فصّور بلبلةً وهرجاً عظيماً يحدث عند تلقّي الأمر الإلهي، فالذي يذهب مذهب ابن كثير دون إعمال عقله ومراعاة أصول التفسير، يحشو دماغه بتصوّرات طفيلياتٍ تأكل محاكمته وتقتل فيه روح الحوار. هذا وإن بقيّة ماأوردته من أقوال ابن كثير هي من هذا الباب والقبيل. ممّا لاحاجة بي للإفاضة فيه.

والذي أقوله في هذا السيّاق هو أنّ معنى الطوق من حديد، ومعنى السلسلة الحديدية لايؤخذ به في هذا المقام لمنافاته مع ماتضمنته البسملة ومع ماحملته من مضمون صفتي الرحمن الرحيم.

وهل يصدّق عقلُنا أن يقدم ملائكة الله على فعل ماصوره لنا ابن كثير من فعلها، في وقتٍ نعتقد فيه أنّ الله الذي حاشاه أن يأمر بهذه الأوامر يتّصف بصفتي الرحمن الرحيم؟ وهل لمخيلّة عاقل أن تتصوّر إمكانية إدخال حلقات حديدية كل واحدة منها بقدر حجم حديد الدنيا، إدخالها من أست إنسان ودُبُر لايتجاوز قطر فتحته سنتيمترات؟ فالغُلّ بمعنى الطوق من حديد لايؤخذ به في هذا المقام بأيّ شكلٍ من الأشكال، فهذا ماوجهتنا إليه صفتا الرحمن الرحيم من

بسم ا لله الرحمن الرحيم، وهذا ماوجهنا ربّنا جل شأنه إليه في عدّة مواضع من سورة الحاقة نفسها.

لنعد إلى الآية (١٨) الثامنة عشرة فا لله عزوجلّ قال هناك: ﴿**يومئذٍ تُعرضون لاتخفى مِنكم خافية.**﴾. وقد وجهنا جل شأنه بهذه الألفاظ إلى أنّ الإنسان لايبدو في الحياة الدنيا على حقيقته، بل تظلّ هناك خافية عن أعين سواه من الناس. ولايعني هذا أن هذه الخافية تخفى أيضاً عن علم ا لله عزوجل. فهو تعالى وجهنا بألفاظ هذه الآية الكريمة إلى أنّ عالم المعاد هو عالم تجسيد لما يخفيه الإنسان في نفسه عن أخيه الإنسان. وعندما قال تعالى (غلّوه) فقد نبّه إلى أن هذه الخافية هو ماأخفته صدور هؤلاء الذين كفروا با لله وبرسله وناصبوهم العداء. فقد أضمروا في صدورهم غلّاً أي حقداً دفيناً وضغينة دون مبرّر، أي أخفوا حرارة هذا الحقد وناره الملتهبة المتأججة شوقاً للقضاء على فئة المؤمنين با لله عزوجلّ.

وكما أنّ ملائكة ا لله موكلةٌ على تهيئة أسباب كل شيء في الحياة الدنيا. كذلك فا لله تعالى أوكل إلى ملائكته أن تجسّد هذه الأحقاد ولهيبها في عالم المعاد، وتُبدي ماكان يعمر أفئدة أعداء ا لله من نار حقدٍ ونار ضغينة دفينين، وهي بعد أن تجسّد هذا الغِلّ بهذا الغُلّ لاتعود تخفى منكم خافية ويُعرض المجرمون على حقيقتهم. فهذا هو المعنى هو الذي عبّر عنه فعل ﴿**خذوه فغلّوه**﴾ أي هيئوا أسباب تجسيم مافي صدره من غِلّ. وليس أن يضعوا في عنق أو يد هذا الكافر طوقاً من حديد.

وهو جلّ شأنه حين نقل لنا ماسينطق به هذا الكافر بعد بعثه من مرقده، وهو: ﴿**ياليتني لم أوت كتابيه. ولم أدر ماحسابيه. ياليتها كانت القاضية. ماأغنى عنّي ماليه. هلك عنّي سُلطانيه.**﴾. فقد نقل جل شأنه هذه الأقوال ليساعدنا على إدراك مابلغه هذا الكافر من شدّة الظّمأ حين بُوغت بهذا المصير الذي آل إليه. فكل إنسان يجفّ ريق فمه في مثل هذه المواقف الحرجة، ويتأجج صدره يأساً وقنوطاً وفُقدان معنويات. ولايحتاج في تلك اللّحظات إلا إلى ملكٍ يجسّد مايدور في فؤاده وخلّده ليبدو جحيماً يحرق صاحبه. وهذه الآيات نقلها لنا ربّنا لتساعدنا على فهم قوله تعالى: ﴿**ثم الجحيم صلّوه.**﴾ أي جسّدوا أُوار نار الجحيم المُستعرة في فؤاده بعد بعثه من مرقده.

وبعد ذلك وعند هذه النقطة الأخيرة يطرح سؤال نفسه وهو: إذا جسّدت ملائكة الله مافي صدور الكفار من جحيم راح يحترق الواحد بأوارها. فكم هي المدة التي سيترك الله تعالى هؤلاء على هذه الحال البالغة التعس؟

وقد أجاب جل شأنه على هذا السؤال وقال: **﴿ثم في سلسلةٍ ذرعُها سبعون ذراعاً فاسلكوه.﴾**. وليس معنى هذا أن تأتي الملائكة بسلاسل حديدية كل واحدة منها مؤلّفة من سبعين حلقة. الأمر الذي يعني أن للعدد (سبعون) هنا مفهوماً آخر غير المتبادر إلى أذهاننا.

وهذا المعنى الآخر توجهنا إليه عدالة الله عزوجلّ. فمتوسّط عمر الإنسان يدور أصلاً حول رقم السبعين المذكور يزيد تارة ويقلّ أخرى تبعاً للعوامل والمسبّبات. هذا وإن الله عزوجل أشارت عدالته البالغة إلى أنّ العذاب الجهنّمي الذي سيصير إليه هذا الكافر ستتناسب مُدَدُهُ مع السّنوات التي قضاها هذا الكافر بربه وبرسل ربه، منغمساً في مشاغل الدنيا ومُنساقاً مع رغباته وميوله وأهوائه غير مُبال بالمقصد الذي خلقه الله ربّه من أجل تحقيقه، وبعيداً عن فئة المؤمنين. وإلى هذا ورد قوله (فاسلكوه) أي فاسلكوه في جحيم يتناسب طول زمنه مع ماأمضاه من سنوات عمره بعيداً عن ربّه.

وراح جل شأنه بعد ذلك يؤكّد جميع ماذكرته من حقائق منبّهاً إلى أن يوم المعاد هو يوم تجسيد لأعمال الإنسان وأفعاله الدنيوية وقال بحقّ ماجرى لهذا الكافر ويعلّل أسبابه: **﴿إنّه كان لايؤمن با لله العظيم. ولايحضُّ على طعام المسكين. فليس له اليوم هَهُنا حميم. ولاطعام إلاّ من غِسْلين. لايأكله إلاّ الخاطئون.﴾** أي أن أحقاده وكفره وانغماسه في بلبال الدنيا، لم يثمر له إلا هذا الجحيم الذي تجسّم ناراً تحرقه ويتلظّى بأوارها. على حين أن المؤمن الذي كان يؤمن با لله العظيم، وكان يحضّ على طعام المسكين قد تجسّمت نتائج أعماله الصالحة **﴿فهو في عيشةٍ راضية. في جنّةٍ عالية. قطوفها دانية. كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيّام الخالية.﴾**.

ولم يقف جل شأنه عند هذا الحدّ من البيان وتقريب للأذهان وتوجيهها إلى هذه المعاني التي ذكرتها. بل أضاف يقول: **﴿فلا أُقسم بما تُبصرون. ومالا تبصرون. إنه لقولِ رسولٍ كريم. وماهو بقولِ شاعرٍ، قليلاً ماتؤمنون. ولابقول كاهنٍ قليلاً ماتذكّرون. تنزيلٌ من ربّ العالمين.﴾**.

فقد راح جلّ شأنه يُقسم ـ والقسم تقديم شهادة ـ أي راح تعالى يوجّه ذهننا إلى مانبّه إليه في البداية من خلال قوله: ﴿**يومئذٍ تُعرضون لاتخفى منكم خافية**﴾ وليؤكّد على أن مايكتمه المرء في صدره ومايخفيه يجعله ظاهراً بمظهر شيء يُبصره النّاظر إليه. ويجعله غير ظاهر بما يخفيه في أعين سواه، لكنّ الله مطّلع على سرّه هذا وأخفى منه. وأن محمداً ﷺ الذي تكلم عن نتائج الأعمال وعن هاتين الحقيقتين ظاهر الإنسان ومايخفيه وعن أنه لابدّ أن يأتي يوم المعاد تتجسّم خلاله آثار الأعمال الخافية، هو رسول صادق فيما يقول ويدعيه.

وأنتم أيها الغافلون عن هذه الحقائق كلّها والتي أتى بها محمد الصادق الأمين، قليلاً ماتتدّبرونها وتؤمنون بها، ولذلك فقليلاً ماتذكّرون. وكأن الله عزوجلّ قد أراد أن يقول لنا بألفاظٍ أخرى أنّ على الإنسان أن يكون طاهراً ومتخلّقاً بصفات الرحمن الرحيم، فلايحمل في صدره حقداً ولاضغينة على أحد من خَلق الله تعالى، وأن يبقى بعيداً عن اتباع أهوائه وميوله وشهواته فلا ينغمس في بلبال المشاغل الدنيوية إلى أخمص قدميه، وأن يؤمن بربّه ويقدم دينه على دُنياه.

بهذا المثال من تفسير بعض آيات سورة الحاقّة وبهداية مضمون صفتي الرحمن الرحيم من البسملة بسم الله الرحمن الرحيم أكون قد أثبت ووضّحت أنّ للبسملة استقلاليتها، وأن في استقلاليتها يكمن أحد أصول تفسير القرآن الكريم. وأنّ الآية الثانية من سورة الفاتحة لم يحدث فيها تكرار لصفتي الرحمن الرحيم. بل جيء بهاتين الصفتين هنا لحكمة بالغة اقتضاها التسلسل الموضوعي.

هذا وتوضيحاً للصلّة الموضوعية مابين ﴿**الحمد لله رب العالمين**﴾ وآية (الرحمن الرحيم) كمعلم ومنارة أولي أقول: إن جميع المربيّن لايستوون علماً ووسائل بيان وقُدُرات. وإن كلّ مُربٍ من المُربيّن يؤدي مهمّته على قدر مالديه من هذه الصّفات. فإذا تدبّرنا قوله تعالى في الآية الأولى ﴿**الحمد لله رب العالمين**﴾ نلاحظ الإعلان عن أنّ ربوبية الله لكوننا الدنيوي الذي نعيش فيه تشمل العالمين أي جميع المخلوقات إنساناً وحيواناً ونباتاً وجماداً على حسب ماسبق أن بيّناه. والسؤال الذي يطرح نفسه بعد سماع هذا الإعلان، هو: ماهي حدود قدرات وعلم ووسائل هذا الإله الخالق والتي تمكّنه من أن يصبح ربّاً للعالمين؟

وقد أجاب الله جلّ شأنه بمعلم جديد على مسار توحيد ذاته تعالى، وقال إنّه جلّ شأنه ﴿ربّ العالمين﴾، لاتّصاف ذاته بصفتي الرحمن الرحيم. وواقع هذا الكون يؤكّد ذلك ويثبته، فما هذا الكون ومافيه إلا عطاء هذا الإله الرحمن. وإنّ جميع مابعث الله من رسلٍ وأنزل من شرائع وطوّر في جميع أنواع الخلق الذي أبدعه لشاهد حيٌّ على أنّه هو الإله الرحيم أيضاً. الرحيم الذي لايُضيع أجر من أحسن عملاً. وأنّ ربوبيته وعطاءه سيتكرّران في عالم البرزخ بعد الممات، وفي عالم مابعد بعث الأنفس من مراقدها. فهذه منارة ومعلم لاينبغي للمؤمن السالك الموحّد أن يتجاهله على مسار توحيده لبارئه عزوجل.

والمَعْلم والمنارة الثانية التي أنارت لنا طريق توحيد بارئنا عزوجلّ، هذه المنارة التي لفتت أنظارنا إليها الآية ﴿الرحمن الرحيم﴾، هو أنّه لايحقّ لأيّ وجود اتّخذه الناس ربّاً لهم وقدّسوه، لايحقّ لهم أن يُطلقوا عليه صفتي الرحمن الرحيم. من منطلق أنّ ماسوى الله الخالق فهو وجود مخلوق ومحتاج في قيامه إلى الله الذي خلقه وهو الرحمن الرحيم. فهذه حقيقة ومَعْلم ومنارة على مسار التّوحيد الذي يسير عليه المؤمنون السّالكون.

والمَعْلم والمنارة الثالثة التي تضمّنتها آية ﴿الرحمن الرحيم﴾ هو حملها للحجّة القاطعة التي يثبت من خلالها بُطلان كفارة المسيح الناصري التي يعتقدها المسيحيون. وهذه الحجّة تتمثّل في أنّ الله الرحمن الرحيم لايُسمّى كذلك إذا كان عاجزاً عن غُفران ذنوب عباده. لذلك فهو بالتالي لايحتاج لإرسال ابنه الوحيد الذي يزعمونه ليقتله ويفتدي به خطايا المذنبين. فالذي يقدم على هذه الخطوة يكون محدود العلم والقُدُرات : هو بحاجة إلى ابن يرثه من جهة، وهو بحاجة للتضحية بهذا الابن تكفيراً عن ذنوب المُذنبين، ولايتفق ذلك مع دلالات صفتي الرحمن الرحيم.

وعلى هذه الصّورة فلا يكون في آية ﴿الرحمن الرحيم﴾ تكرار لصفتين احتوتهما البسملة، بل فيها إظهار لتسلسلٍ موضوعي اقتضته صفة رب العالمين. وأن هذه الآية حملت للمؤمنين الموحذين معالم ثلاثة تهديهم على مسار التّوحيد. ولتصون هؤلاء المؤمنين السالكين من أن يشركوا بربهم شركاً خفيّاً ينتهي بهم إلى البعد عن خالقهم وإلى تفريق أمتهم إلى شيعٍ وأحزاب كُلّ حزب منهم بما لديهم فرحون.

والآية الثالثة التي يكمُلُ بها حمد الله والثّناء عليه هي قوله تعالى: ﴿مالك يوم الدّين﴾. ومعلوم أنّه لايُسمّى مالكاً من كان لايملك صفة الاقتدار. ثم إنّ لفظ اليوم يعني مُطلق الوقت من حيث أصل وضعه على حسب ماورد في معجم لسان العرب. كذلك فيوم الدّين يوصف به زمن محاسبة الناس على ماقدّموه من أعمال، فهو يوم المكافآت، كما أنه يوم الغلبة والحكم والاستعلاء والسلطان، وليوم الدين معنى آخر وهو زمن الشريعة على حسب ماورد في معجم (أقرب الموارد).

وقد حملت لنا هذه الآية الثالثة ثلاث منارات على مسار التوحيد إضافة إلى ماسبق من منارات. فالمعلم والمنارة الأولى يتجلّى من خلال لفظ (مالك) فلم يؤت بدلاً عنه بلفظ (ملك) مثلاً. تنبيهاً لأذهان المؤمنين السالكين إلى أن زمن بعث الأنفس من مرقدها يكون الأمر فيه لله الواحد القهّار. الذي يقدر على محاسبة كل نفسٍ بما عملت. فيعاقب أو يغفر لمن يشاء ويقدر.

والمعلم والمنارة الثانية التي أُضيئت عن طريق انتخاب لفظ (مالك) أيضاً. الإشارة إلى أنّ الله رب العالمين الرحمن الرحيم بيده مقاليد التّرغيب والترهيب من منطلق كونه مالك يوم الدين. وبهذا المَعْلم والمنارة يكون قد تحقق الرّبط والتّسلسل الموضوعي بين هذه الآيات الثلاث من سورة الفاتحة. وتكمل بذلك معالم حمد الله والثّناء عليه.

ثم إننا إذا أخذنا للدّين معنى الشريعة، وهو المعنى الذي ورد في معجم أقرب الموارد، تتجلّى لنا من خلال ذلك مَعْلم ومنارة ثالثة على مسار توحيد الله عزوجلّ. هذه المنارة التي تعني بألفاظٍ أخرى أنّ الله عزوجلّ يتجلّى بجلال وجمال كاملين في كلّ زمان يُنزل فيه شريعة جديدة لهداية عباده المؤمنين السّالكين وتطويرهم باتّجاه التمام. حيث تتجلّى عند إنزاله تعالىصفة الشرائع مالكية الله بأوضح صورها، وعلى صورة تُدهش الباحثين والمفكرين. أي أن القانون القدري العام الذي تطرّقْتُ إلى ذكره في (القضاء والقدر حقيقة كونية ثابتة) والذي تضمّنه قوله تعالى من الآية ٢١/٢٠ من سورة المجادلة: ﴿إنّ الذين يُحادّون الله ورسوله أولئك في الأذلّين. كَتَبَ الله لأغلبّن أنا ورسلي إنّ الله قويّ عزيز.﴾. هذا القانون تبدو معالمه أزمنة إنزال الشرائع السّماوية، إثباتاً من الله جلّ شأنه أنه ربّ العالمين. والرحمن الرحيم. ومالك يوم الدين، أي مالك أزمنة

إنزال شرائعه لوضعها موضع التنفيذ. وهذه حقيقة أكّدها منطق تاريخ جمع الأديان السّماوية. ومَنْ لايذكر نجاة نوح من الطوفان ونجاة موسى من فرعون والانتصار السّاحق الذي حقّقه محمد المصطفى ﷺ سيد الأنبياء وخاتمهم على جميع الذين ناصبوه العِداء؟

والمفسرون على حدّ علمي لم يأخذوا ليوم الدين معنى مالك يوم الشريعة لأسباب لامجال هنا للخوض فيها. أما إمام زماننا فقد تميّز بتوضيح هذا المعنى على ضوء القوانين القدرية العامة. وقد وضّحت في كتاب القضاء والقدر أنّ الله تعالى يتعامل مع عباده في هذه الحياة الدنيا كملك وليس كمالك، وعلى أساسٍ من القوانين الطبيعية التي سنّها لهذه المادة التي فوّض إليها خواصّها على شاكلة مايفوّض القاضي بعض صلاحياته لشرطة المرور، ويظلّ مع ذلك المرجع الأخير في كلّ الأمور.

أما زمان إنزال الله لأيّة شريعة سماوية، فيختلف الأمر عنده حيث يتجلّى الله بصفة المالكية ليحمي عباده المرسلين من جهل الجاهلين. وقد دلّ تاريخ جميع رسل الله تعالى أنّهم ووجهوا دوماً من أقوامهم بالسّخرية والتكذيب والاستضعاف. والله عزوجلّ، وغيرةً منه على مرسليه، يتجلّى على العالم زمن بعث هؤلاء المرسلين بصفة مالكيته لهذا العالم، ليظهر بهذا التّجلي صدق مرسليه وليُهلك أعداءهم الظالمين. ويحقق من خلال تجلّي مالكيّته على أيدي الذين يرسلهم إلى هؤلاء أظهر المعجزات، حتى يُحيّر الذين يكفرون به وبشرائعه وبرسله ويبهتهم ويثبت لهم بالتالي أنه جل شأنه هو المالك الحقيقي لهذا الكون وربّ العالمين الرحمن الرحيم ومالك يوم الدّين.

أفلم نقرأ في كتاب الله العزيز وعد الله لرسوله محمّد ﷺ **﴿والله يعصمك من الناس﴾**؟ وهذا تاريخ محمد بن عبد الله ﷺ يشهد على صدق هذا الوعد الإلهي، وعلى تجلّي الله تعالى بصفة مالك يوم الشريعة. فقد هيّأ جل شأنه وبصورة معجزة جميع الأسباب لحماية رسوله خاتم النبيين ولتأييده ولاستجابة أدعيته، ولإظهار المعجزات على يديه. خصوصاً وأنه تعالى بعث محمداً ﷺ إلى الناس كافّة أيضاً.

ويثبت من ذلك أنّ الله عزوجلّ هو مالك هذا العالم على وجه الحقيقة، وإن كان يتجلّى بصفة الملك من خلال النواميس الطبيعية ومن خواصّ ماتحمله العناصر المادية التي تتجاوز المائة عُنصر من تجلّيات.

ومن واجبنا أن نعلم أن لترتيب الصفات الإلهية المذكورة في هذه الآيات الثلاث من سورة الفاتحة حكمة بالغة، فالله في الطور لوجه ربوبيته من خلال هذين الوالدين فإذا ماشبّ الطفل عن الطوق يتجلّى عليه بصفة رحمانيّته ليستفيد عن طريق إعماله لعقله الناضج من التعاليم التي ينزلها في شرائعه. فإذا استيقن وجود ربّه وآمن به يتجلّى عليه بصفة رحيميّته، ليظهر له ثمار أعماله الصالحات. وأخيراً يطوّره روحياً إلى درجة الفوز على أعدائه متجليّاً عليه بصفة يوم الدين.

ولامجال لي للتوسّع في شرح هذه الحقيقة التي اختصرت لكم معالمها في هذا المقام. فالمقام يقتضي مني إظهار المَعْلمات والمنارات الهامة التي أضاءتها لنا هذه الآيات الثلاث من سورة الفاتحة لنتبيّن مواقع أقدامنا على مسار توحيد ربّنا عزوجلّ، ونصون أنفسنا من أن نكون من المشركين.

ومن واجب المؤمن السالك سبيل عِرفان ربه والسّاعي للفوز بمحبته وقربه ورضوانه أن يعي مسار توحيد الله تعالى على ضوء هذه المنارات السبع والعشرين التي أبرزناها. والآن الخّص هذه المنارات لتبرز مجتمعة وبشكلها الموجز فأقول :

أولاً ـ وردت الباء في بسم الله بمعنى الاستعانة والمصاحبة والالتزام بأوامره تعالى تنبيهاً للعُصاة إلى أنهم مرفوضون فلايحق لهم البسملة.

ثانياً ـ وهذه الاستعانة بالله لاتكون إلاّ عن طريق دعاء الله بأسمائه الحسنى.

ثالثاً ـ والذات الإلهية مستقلة عن وجودنا بدلالة اتصاف الله بصفتي الرحمن الرحيم.

رابعاً ـ وإن الاستعانة بالله وأسمائه الحسنى تعني أنّ الله عزوجل هو مسبب الأسباب في عالمنا الدنيوي.

خامساً ـ وإيراد لفظ الجلالة (الله) في بسم الله، فللدلالة على أن (الله) هو الاسم الأعظم للذّات الإلهية.

سادساً ـ وقد صيغت صفة الرحمن على وزن فعلان لتفيد الامتلاء والغلبة والسّعة والشمولية.

سابعاً ـ وقد صيغت صفة الرحيم على وزن فعيل لتفيد الاستحقاق وتكرار العطاء وشمولها فئة المؤمنين خاصة.

ثامناً ـ ثم إنّ قراءة البسملة وافتتاح كل سورة بها، حكمته أن يتدبّر المؤمن معانيها لتقيه شرّ الوقوع في الشّرك الخفي.

تاسعاً ـ واختيار لفظ الحمد للدلالة على أن الإسلام لايكره أحداً على شيء، بل إن المؤمن يحمد الله عن علمٍ وإرادةٍ وهو يعلم أن مقصد حياته هو التعرف على ربّه عزوجلّ.

عاشراً ـ وعند صوغ الحمد بصيغة المصدر فللدلالة على شمولية دلالة إحسان الله تعالى على مخلوقه في عوالم الدنيا والبرزخ والمعاد.

أحد عشر ـ وكذلك فإن صياغة الحمد بصيغة المصدر فللدلالة على أنّ أسماءه الحسنى لاتحمل إلا معاني الخير والله منزّه عن كل نقص.

اثنتا عشر ـ وتعريف الحمد بالألف واللام فالاستغراق جنس الحمد وخصائصه على وجه الحقيقة تعبيراً عن التوحيد الكامل.

ثلاثة عشر ـ كذلك فإن تعريف الحمد بالألف واللام فللدلالة على أنّ فهم الإنسان قاصر عن أن يُحيط بواسع علم الله عزوجلّ.

أربعة عشر ـ أما إضافة الجارّ والمجرور بعد الحمد فلتؤكّد استحاق الله لحمد عباده أصالةً وليس على سبيل المجاز.

خمسة عشر ـ ثم إن إيراد لفظ الرّب بعد ذلك فللإشارة إلى خضوع عالم المادة ومخلوقاتها لقانون التطوّر والارتقاء.

ستة عشر ـ أما إضافة العالمين في (رب العالمين) فللدّلالة على أن تجلي الربوبية يشمل الإنسان والحيوان والنبات والجماد أيضاً.

سبعة عشر ـ وللدلالة أيضاً على أن الله تعالى سنّ القوانين الطبيعية لتطوير الأجساد كما سنّ القوانين الروحية القدرية لتطوير الأنفس.

ثمانية عشر ـ وللدلالة أيضاً على سمة إنسانية الدعوة الإسلامية وعالميتها.

تسعة عشر ـ وللدلالة أيضاً أن كل شيء لاتستوي بدايته مع نهايته، بل إنّ كل شيء يتطوّر باستمرار.

عشرون ـ وهناك رابطة موضوعية مابين الحمد لله ومابين رب العالمين وهي أن جميع الخلق لن يمرّ بطور الدنيا وحدها بل وبطوري البزرخ والمعاد.

واحد وعشرون ـ ورابطة موضوعية أخرى وهي الإشارة إلى أن جميع الأديان السّماوية تشكّل حلقات على درب تطوير الإنسان.

اثنان وعشرون ـ والرابطة الموضوعية مابين الرحمن الرحيم ومابين رب العالمين فللدلالة على أنّ قُدرات رب العالمين لاتقف عند حدود.

ثلاثة وعشرون ـ كما أنّ هذه الرابطة الموضوعية تجزم عدم إمكانية واستحاق أيّ مخلوق أن يسمى رحماناً رحيماً.

أربع وعشرون ـ وتتضمّن صفتا الرحمن والرحيم حُجّة قاطعة على بُطلان عقيدة كفارة المسيح التي يعتقدها المسيحيّون.

خمسة وعشرون ـ واختيار لفظ مالك يوم الدين فللدلالة على تجلّي الله عزوجلّ في الآخرة إلهاً واحداً قهّاراً.

ستة وعشرون ـ وأنّه أي مالك يوم الدين يملك حقّ الترغيب والترهيب.

سبعة وعشرون ـ كذلك فإنّ لفظ (مالك) اختير بمعنى مالك يوم إنزال الشرائع ولتكون العاقبة يومها للمؤمنين المُتّقين.

وأنا وقد أبرزت هذه المنارات على درب توحيد الله عزوجلّ، ومّما فتحه الله تعالى علي من بينات ومعارف فلأُثبت أيضاً أنّ سورة الفاتحة تشكّل أصلاً هاماً من أصول تفسير كتاب الله القرآن.

ولاينبغي أن يظنّ ظانّ أنّ ماأبرزته من هذه المنارات هو عدد قطعي، بل هو الأهمّ على مسار التوحيد وإلاّ فإن ماأتت به هذه الآيات الثلاث من سورة الفاتحة من معارف وبيّنات هو أكثر من ذلك بكثير.

وبإمكاننا القول بألفاظ أخرى إن سورة الفاتحة جمعت جميع مطالب القرآن الكريم تحت جناحيها وبأحسن البيان. فمن تدبّر آيات هذه السّورة الفريدة، فكأنّه غاص في بحر القرآن يجمع دُرر عُلومه ومعارفه سواء بما يتعلق بعلم

المبدأ وعلم المعاد، وسواء مايتعلّق بعلم النّبوة وعلم توحيد ا لله في الذات والصفات. فالفاتحة تُشبه إلى حدٍ كبير عشّ طير العِرفان الإلهي، وإلى هذه الحقيقة وردت تسميتها على لسان محمد خاتم النبيين صلى ا لله عليه وسلم "أم الكتاب".

٦ـ التعبّد بالدعاء:

فرغنا من تبيّن المنارات التي أضاءها لنا ا لله عزّوجلّ على مسار توحيده تعالى، وذلك من خلال ﴿ **بسم ا لله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم. مالك يوم الدّين.** ﴾. فقد حمدنا ا لله تعالى وأثنينا عليه وعدّدنا صفاته في هذه الآيات الكريمة من سورة الفاتحة. وأسلوبنا في هذا الحمد وكأنه تعالى غائب عن أعيننا فلانراه، مُعتقدين أنه تعالى يرانا ويسمع حمدنا وثناءنا عليه.

وانقلب الأمر بعد هذه الآيات الثلاث ففي الآية الرّابعة أصبحت صيغة خطابنا وكأننا ننظر إلى ربّنا عزوجلّ ونقول: ﴿ **إيّاك نعبد وإيّاك نستعين.** ﴾. وقد كان ينبغي على حدّ قول بعض البلاغيين أن نقول ﴿**نحمدك ونستعينك**﴾. فما هو سرّ هذا التبّدل الذي لاحظناه؟

نتدبر أولاً معاني ألفاظ ﴿**إياك نعبد وإيّاك نستعين.**﴾. إنّ كلمة (إيّاك) مركبّة من "إيّاً" وتعني اسماً مبهماً. ومضافاً إليها كاف الخطاب بياناً ولتحديد خطابنا الموجّه إلى الذّات الإلهية. وقد أوردناها للنّصب لتحديدها ذاته تعالى (محيط المحيط)، هذا التّبديل في أسلوب الخطاب كانت الغاية منه إبراز تعليم إسلامي تربويّ سآتي على بيانِه، لذا يُعدّ هذا التّبديل في أسلوب الخطاب في غاية البلاغة وحسن الكلام.



ثم إنّ كلمة (نعبد) مشتقّة من عبد الله : أي طاع له وخضع وذلّ وخدمه والتزم شرائع دينه ووحدّه (أقرب الموارد). وهذه المعاني لايستحقّها أحد إلا الله عزوجلّ لتفرّد ذاته تعالى في كمالها. فالله الخالق حقيقٌ بالطاعة والعبادة وهو الله الذي لاإله إلاّ هو.

أمّا كلمة (نستعين) فمشتقةٌ من الاستعانة وتعني طلباً مخصوصاً ممّن هو جدير ومستحقّ للإعانة. وعلى ضوء مابيّناه من معاني **﴿إياك نعبد وإياك نستعين.﴾** نحاول تفسير سرّ هذا التبديل الحادث في أسلوب خطاب قارىء آيات سورة الفاتحة. إنّنا حين نقول (إياك نعبد) كأننا ننظر إلى ذات الله تعالى ونقول : إننا نلتزم ياإلهنا بطاعتك والخضوع لك والتذلّل بين يديك وخدمة مقاصد دينك، ونلتزم بشرائع هذا الدّين، ونوحّدك لاشريك لك.

هذا وحين نُكمل ونقول **﴿وإيّاك نستعين﴾** كأننا ننظر إلى ذات الله تعالى ونقول : ياإلهنا وخالقنا أنت تعلم أنّ تعُهدّنا الذي تعهّدناه بقولنا **﴿إياك نعبد﴾** هو فوق طاقتنا، إلاّ أن تُعيننا على ذلك، ونحن مُستحقّون إلى إعانتك على وجه الأصالة لأنّك خلقتنا محتاجين إلى معونتك.

بهذا التبديل في أسلوب الخطاب والصياغة، يكون الله جلّ شأنه قد وجّهنا إلى الذريعة الخامسة وهي وسيلة الدّعاء، طلباً لمحبّة الله وقربه ورضوانه، وكأنه جل شأنه لفت أنظارنا إلى آخر آية من سورة الفرقان وهي قوله تعالى: **﴿قل مايعبأ بكم ربّي لولا دعاؤكم..﴾**.

لذلك لابدّ أن يتساءل المرء : مامعنى الدعاء؟ وماهي حقيقته العلمية والدينيّة؟

وقبل التوجّه للإجابة على هذا السؤال. لابدّ من التذكير أنّ ذات الله تعالى يستحيل أن تراها العين المجردة، فالله وراء الوراء، فكيف نخاطبه تعالى وكأننا نراه ونقول إياك نعبد وإياك نستعين؟

وتوضيحاً من جانبي لهذا الأمر أقول : أفلا نلاحظ أنّ القرآن الكريم قد ركّز في آياته الكريمة على بيان أوصاف الله وأسمائه الحسنى، وقد كان لهذا التركيز حكمة بالغة. وهو أنّ الله عزوجلّ مادامت لاتراه أعيننا، فقد كان من الضروري إعطاء المؤمن العابد ملامح الله وأوصافه. لتتولّد صورته شيئاً فشيئاً في مخيلّة هذا المؤمن الذي يعبد ربّه، وتتحقّق له رؤية قلبية تُعوّضه عن رؤيته العينيّة.

من هذا كان من واجب المؤمن الذي يقف يدعو ﴿ **إياك نعبد وإيّاك نستعين**﴾ أن يُحيط علماً بأسماء الله الحسنى وصفاته ودقائق مايتعلق بها من قوانين ومعلومات. ليستعين بذلك على الوفاء بعهد عبوديته لله عزوجلّ.

وبألفاظ أخرى فإن دأب المؤمن السّالك على تدبّر أسماء الله وراح يدعوه بها عن علم ومعرفة تتسّرب محبّة الله إلى فؤاد هذا المؤمن العابد، ويتجلّى عليه ربّه بأنواره، ولابدّ أن يبلغ هذا المؤمن في يوم من الأيّام مرتبة مخاطبة ربّه مباشرة وفق دعاء ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾. وعلى هذه الصّورة نكون قد أدركنا عظمة دلالة الأسلوب التعبيري من خلال تبدّل الضّمائر من صيغة الغائب من (الحمد لله) إلى صيغة المخاطب في ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين.**﴾.

ففي هذا التّبديل لفتٌ لنظر الباحث المتدبّر إلى أن تعاليم الاسلام تبتدىء من صيغة الغالب عن الأنظار لتصل بالمؤمن السالك درب عرفان ربه إلى مرحلة لقاء هذا المؤمن ربّه وجهاً لوجه، ولتلقي أنوار رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين.

ورب سائل يسأل عن حكمة تقديم (إياك نعبد) و(اياك نستعين). مُنطلقاً من أنّ الهداية لاتكون في الأصل إلا بمعونة الله ربّ العالمين.

ومن واجب هذا السائل أن يعلم أنّ الفاتحة لم تُعلّم في هذه الآية الكريمة طلب المعونة، بل علمتنا طلب الاستعانة، وبين المعونة والاستعانة فرق لغويٌّ دقيق. ذلك أن العون اشتُق من أعانه أي ساعده، على حين أن الاستعانة تعني طلب هذا العون، حيث يقول المرء : استعنتُه فأعانني، فالإعانة مصدر أعان، بينما الاستعانة مصدر استعان، وعليه فلا يستعين العابد ويطلب معونة ربّه إلاّ بعد أن يصبح عابداً ربّه عزوجلّ، فإرادة العبادة تعقب الإيمان والبيعة، أمّا التوفيق على مسار التوحيد والعرفان الإلهي، فلايتحقّق إلا بالاستعانة با لله وأسمائه، وهذا هو سرّ أنّ سورة الفاتحة علّمتنا أن نُظهر هذه الإرادة الشخصية من جانبنا أوّلاً من خلال قولنا (إيّاك نعبد). ومن ثم نستعين با لله وأسمائه أن يثّبتنا على هذه الإرادة والقرار الشخصي الذي اتخذه المؤمن السّالك سبيل عرفان ربه بالدّعاء ﴿**وإياك نستعين**﴾. أي أتوسل إليك ياإلهي أن تُثبتّني على إرادتي ومسلكي وقراري، فتجذبني بمحبّتك إليك، ولاتدعني أتشيّع إلى سواك، علماً بأن العبادة كما سبق أن وضحناها لغوياً، تعني الخضوع لله تعالى والتذلّل تذلّلاً تاماً بين يديه عزوجلّ.

وإنّه لايمكن أن يتمّ مثل هذا الخضوع والتذّلـل التّـامين إلا بالاستعانة بأسماء ا لله عزوجلّ وتبيُّن دلالاتها والقوانين الناظمة لهـا إلى جـانب محاولـة الاتّصـاف بهـذه الصفات ليتحقق التجانس بين العبودية والألوهية. وهذه هي الحقيقة التي عبّر ا لله تعالى عنها في مقام آخر من كتابه العزيز وقـال: ﴿**وماخلقت الجنّ والإنـس إلاّ ليعبدون.**﴾ أي ليعرفوني وليتخلّقوا بأسمائي وصفاتي.

وهذه الحقيقة تدلّنا على أنّ ظواهـر العبـادة إن هـي إلا وسـيلةٌ وليسـت غايةً في حدّ ذاتها. فالعبادات تهدف أصلاً لإحداث تبديلٍ في قوى النفس الباطنـة للمؤمن السّالك وهي تمثّل في حقيقتها هذه الكيفية الباطنةً التي بلغها هـذا المؤمـن على دربِ عِرفانه لربّه عزوجلّ.

أمّا الأفعال التي تتطلّبها هذه العبادات والمتعلّقة بتعيين مواعيـد العبـادات كالتّوجه إلى القبلـة في الصـلاة، والتـأدّب حـين الصّـلاة وضـمّ اليديـن إلى صـدر المصلّي، وهذه الحركات من وقوفٍ وركوعٍ وسـجود وهـذه التسـابيح وعددهـا وسواها من الأفعال فلا تدخل في أصـل مفهـوم العبـادة ومُحتواهـا، وهـي بمثابـة غلاف هذه العبادات وقشرتها تغلّف لب العبادة وجوهرها الذي هو لُبُّ وماهية معرفة ا لله عزوجلّ. هذا وإنّ الذي يتمسّك بهذه الأفعال وكأنّها الأصل، يكـون كالذي تمسّك بالقشور وأهمل اللّباب.

ولايعني قولي هذا الاستهانة بهذه الأفعال، لابل إن هذه الأفعـال لايجـوز التخلّي عنها بصورة من الصّور إلا في حـدود مـاأذن ربنـا عزوجـلّ مـن حـالات مـرض وسـفر وضـرورات، والحكمـة مـن هـذه الأفعـال، هـو أنّهـا اسـتندت في صياغتها إلى قوانين وفلسفات تتعلّق بتأثير ظاهر المرء في باطنـه، إلى تأثـير أفعالـه وحركاته في قلب هذا العابد وتركيبه الباطنيّ، ولتساعد هذا العابد على الاستفادة ممّا يعيه من دعائه وقراءاته في عباداته .فتفيده في زيادة توجّهه نحو خالقه من حيث الواقع والنتيجة.

وقد يعترض مُعترضٌ على صيغة الجمع التي صيغت بها آية ﴿ **إيّاك نعبـد وإياك نستعين**﴾، هذه الصيغة التي يدعو بها فرد عابدٌ وليس أكثر من فردٍ واحد. وأجيب على هذا المعترض وأقول : إنّ تعليم الدّعاء بصيغة الجمع كان له حكمـةٌ عظيمة وبالغة، فقد انطوت على الإعلان بأنّ الإسلام وتعاليمه هو دين إجتمـاعي هادف لتطوير البشر كافة وترقيتهم ، فلم يـنزل الإسـلام لتطويـر فـردٍ بعينـه مـن

المؤمنين. ونزل الإسلام ليحثّ المؤمنين به لئلاّ ينفرد كل واحدٍ بنفسه وينزوي وحيداً يتعبّد خالقه، بل وإن من واجبه عدم مفارقة صفوف جماعة المؤمنين، بل ومن واجبه النّصح لهم والرّقابة للواحد منهم على سواه كيلا ينحرف أحدهم عن مسار توحيد الله عزوجلّ وكيلا تزلّ قدماه فلايواسيه أحد من إخوانه المؤمنين.

إنّ صيغة الجمع التي صيغ بها دعاء ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين**﴾ تدفع المؤمنين ليقيموا صلواتهم جماعة ولايتفرّقوا، وليتفانوا جميعهم في طلب عرفان ربّهم والسّعي للفوز بمحبته ولقائه وتحصيل رضوانه، ولينبذوا أنانيتّهم الفردية وليؤثروا إخوانهم على أنفسهم، وليعمّ خير تعاليم الإسلام النّاس أجمعين.

فصيغة الجمع التي أمرت بها آية سورة الفاتحة في ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين.**﴾ وردت معبّرةً عن روح دعوة الاسلام الإجتماعية والإنسانية والتربوية، هذه الرّوح التي كانت قد شكّلت العامل الأساس الذي دفع زمرة المؤمنين بالإسلام وتعاليمه إلى قُمّة مابلغوه من تقدّم ورقيّ في صدر البعثة الإسلامية الأولى، وهي التي تشكّل اليوم نفس الدّافع ونفس العامل الأساس لتقدّم زمرة المؤمنين المبايعين إمام زماننا، هؤلاء الذين ستتحقق على سواعدهم نشأة الإسلام الثانية من جديد.

فإذا بلغنا هذا الحدّ من البيان، ربّ سائل يسأل : ماهي نوعيّة الاستعانة التي يطلبها المؤمن السّالك من ربّه حين يدعو ﴿**وإيّاك نستعين**﴾؟

وأعود بهذا السّائل إلى مانبهنا إليه ربّنا جل شأنه في مفصّل كتابه العزيز، أفلم يقل في الآية ٣٢ من سورة النّجم: ﴿**و لله مافي السموات ومافي الأرض ليجزيَ الذين أساؤوا بما عملوا ويجزيَ الذين أحسنوا بالحسنى، الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللّمم، إن ربّك واسع المغفرة، هو أعلمُ بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنّةٌ في بطون أمّهاتكم فلا تزكّوا أنفسكم هو أعلم بمن اتّقى.**﴾؟ فهو جل شأنه نبّهنا في هذه الآيات الكريمة إلى نوعية الاستعانة المطلوبة في ﴿**وإياك نستعين**﴾. إنه تعالى نبّهنا أوّلاً إلى أنّه المالك الحقيقي لهذا الكون، فأنت أيّها المؤمن الدّاعي، ينبغي عليك أن تضع في حُسبانك حين تدعوني وتستعين بي أن تضع هذه المعلومة في حُسبانك، من أنني قادرٌ على أن أجزي الذين أساؤوا بما عملوا، وأجزي الذين أحسنوا بالحسنى.

ثانياً ـ ومادمت أيها المؤمن السالك تسعى لتكون من الذين أحسنوا فاعلم أنّ ربّك واسع المغفرة، ومن واجبك اجتناب كبائر الاثم والفواحش، علماً بأنّ الإثم هو الذنب المُتعمّد.

ثالثاً ـ واستثنى جل شأنه هنا "اللّمم" فماهي دلالته؟ اللّمم في اللّغة صغار الذنوب، وألّم بالذنب : فَعَله. وألّم يفعل كذا : أي كاد، فاللّمم من أفعال المقاربة. (محيط المحيط)، فما معنى هذا الإستثناء بإلاّ؟

رابعاً ـ وقد وردت الإجابة على ذلك من خلال قوله تعالى : ﴿**وهو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض**﴾، بمعنى أنني أعلم أنكم عُرضة لمختلف المؤثرات ومنها ماتتركه أغذية الأرض في قواكم الباطنة من تأثيرات. ﴿**وإذ أنتم أجنّةٌ في بطون أمّهاتكم**﴾ بمعنى أنني أعلم أنكّم وأنتم أجنّة في بطون أمّهاتكم خالطت قواكم الباطنة مؤثرات وموّرثات، فأنفسكم فيها خليط من هذه الموّرثات الأرضية ومن هذه الموّرثات في البطون.

خامساً ـ يقول تعالى إنّ اللّمم الذي أستثنيه يعود إلى هذه المؤثرات وماينتج عنها من أفعال غير متعمدّة ﴿**فلا تزكّوا أنفسكم**﴾ بمعنى أنكم إذا سعيتم لتكونوا من الذين أحسنوا فإياكّم أن تعملوا على أوامري دون الاستعانة بي، ذلك أنّه تعالى : ﴿**وهو أعلم بمن اتّقى**﴾.

فتقدير تقوى العمل وميزانه لايملكه إلا الله الذي ﴿**له مافي السموات والأرض.**﴾. فمن واجب المؤمن أن يعمل على أوامر ربّه ويستعينه في جميع مايعمله لتأتي نتائج أعماله كاملة العطاء مُنقّاة من جميع هذه الشوائب والمؤثرات التي ذُكرت في هذه الآيات. وهذه هي نوعية الاستعانة المطلوبة من المؤمن السّالك حين يقف بين يدي ربه يدعوه ويقول: ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين.**﴾.

من هذا كلّه لابدّ أن يكون المؤمن السّالك درب عرفان ربه قد أحاط علماً بالذريعة الخامسة المطلوبة منه لجذب محبّة ربه عزوجل، ألا وهي ذريعة الدّعاء. هذه الذريعة التي نبّهنا إليها قوله تعالى: ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾. أي أنّ كلّ عمل لايدعو فاعلُه فيه ربّه ولايستعين به على أدائه، لايؤتي ثماره المرجوة منه لمخالطة فعل هذا العمل هذه الشوائب التي نبّهت إليها سورة النجم، وصاحب العمل غير عالم بما وراء عمله وفعله من مؤثرات .

وعلى المؤمن الدّاعي أن يأخذ دوماً مضمون آيات سورة النجم بحسبانه : يدعو ربه على أنه مالك السّموات والأرض، ويدعوه على أنه واسع المغفرة ويدعوه على أنه لا يجهل مايحمله من مؤثرات وموّرثات.

والآن أعود لأتناول السؤال المطروح : مامعنى الدعاء؟ وماهي حقيقة الدّعاء علمياً وإسلامياً؟ أمّا عن معنى الدّعاء فقد وضّح لنا صاحب (محيط المحيط) أنّ الدّعاء من دعا الله يدعوه دُعاءً : إذا رغب إلى الله تعالى وابتهل إليه بالسّؤال، واستعانه ورغب فيما عنده من الخير، فالدّعاء يحمل هذه المعاني جميعها.

أمّا عن حقيقته العلمية، فإنه يتجلّى لأعين متدبّر آيات القرآن الحكيم أنّ الله عزوجلّ قد سنّ لتطوير مخلوقه نظامين : النظام الأول هو هذا النظام الطبيعي وقوانينه الذي ينظم كل شيء مادّي في هذا الكون. فهناك قوانين طبيعيّة تُسيّر هذا النظام الطبيعي وتضبط تطويره. والنظام الثاني روحي، تخضع له الأنفس البشرية خاصة ويشتمل على قوانين تضبط كل شيء روحي .

فمن بين القوانين الطبيعية، مايتعلّق بالماء وبتبخّره بالحرارة، وتشكُّل السّحب المُمطرة من أبخرته المُتصاعدة، وهطول أمطار هذه السُّحب ليُحيي بها الله تعالى الأرض الميتة.

ومن بين القوانين الرّوحية، مايتعلّق بالدّعاء، وتفاعل آهات الصدور وصعودها إلى بارئها عن طريق طرق الدعاء ووسائله، وتشكيلها سُحُباً من جرّاء تراكم أبخرة هذه الأدعية المتفاعلة في الصّدور، ومن ثمّ بدء دور تجلّي الاستجابة لهذه الأدعية فيستجيب الله تعالى أدعية عباده المتوسّلين على أعتابه وفق مايقتضيه علمه غير المحدود. على شاكلة مايحدث عند هطول الأمطار، فقد يكون التبخّر في مكان ونزول هذه الأبخرة المتجمعة على شكل سُحُبٍ يكون في مكانٍ غير المكان التي تبخّرت منه.

والله عزوجلّ على حين أجمل لنا مايتعلّق بالنّظام المائي في الآية (٣٠) من سورة الأنبياء وقال: **﴿وجعلنا من الماء كلّ شيء حي، أفلا يؤمنون.﴾**. فهو جلّ شأنه قد أجمل لنا مايتعلّق بالنّظام الدّعائي أي بالأدعية وقوانين استجابتها في الآية ١٨٦ من سورة البقرة وقال: **﴿وإذا سألك عبادي عنّي، فإني قريب أُجيب دعوة الدّاعِ إذا دعانِ، فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلّهم يرشدُون.﴾**.

فالدّعاء قدرٌ روحيٌّ كالماء قدرٌ مادّيٌّ له خواصه وتأثيراته. وقد امتاز الإسلام بما جسّم لنا من حقائق هذه الوسيلة الروحية وبما أطلعنا عليه من قوانينها الناظمة لها.

ونبهنّا القرآن الكريم إلى عظمة وأهميّة ماوضّح لنا ومانبّه إليه من خلال قول الله عزوجلّ في الآية (٧٧) من سورة الفرقان: ﴿ **قل مايعبأ بكم ربّي لولا دعاؤكم فقد كذّبتم فسوف يكون لزاماً.** ﴾.

فليتأمّل الباحثون فيما بيّنته وقلته، وليوازنوا مابين نظام الدعاء الرّوحي ومابين النظام الطبيعي المائي، وعلى ضوء ماوضّحه لنا كتاب الله العزيز، فلابُدّ لهذا الباحث أن يحيط علماً بحقيقة الدّعاء العلمية نظريّاً، فإن انتقل مرحلةً تجريبيّةً على ضوء ماوضّحه القرآن الكريم من أمثلة استجابة أدعيه الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، وبتجربةٍ ذاتيّة منه إن هو تقيّد بما استفاده من كتاب الله العزيز من معلومات، أقول: إن انتقل هذا الباحث هذه المرحلة التجريبيّة بضوابطها، يحيط علماً بحقيقة الدّعاء العلمية عمليّاً أيضاً. وسيتجلّى لهذا الباحث أنّ الماء محور النظام الحياتي المادي. وأنّ الدّعاء محور النظام الروحي الحياتي أيضاً. وبدون تفاعل آهات الصدور وطلباتها لاتدور عجلة نظام الدعاء الرّوحي. وهذا هو سرّ أنّ الأديان السماوية جميعها نبّهت إلى أقدار الدّعاء الروحية وعلمت مُختلف الأدعية على حسب الضرورات الزمنية والمكانية إلى أن نزل القرآن المجيد وعلّمنا الله تعالى الذي أنزله سورة السّبع المثاني وفرض علينا الدعاء بها في كل ركعة من ركعات صلواتنا الخمس المفروضة. ونبّهنا من خلال دُعائنا ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾ إلى هذه الذريعة الخامسة لجذب محبّة ربّنا إلينا نحن المؤمنون المبايعون السالكون والموحّدون. هذا وإني سأضمّن كتابي الذي سأكتبه حول الدّعاء كقدر روحي تفاصيل مادعوت الباحثين لتقصّيه في هذا المقام، إن شاء الله العزيز. ذلك أنّ المقام الآن لايتّسع لسرد هذه التفاصيل.

وأخلص إلى القول : إنّ من واجب المؤمن السّالك فهم دعاء ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾ بهذا الفهم الذي وضّحَتْه له سورة الفاتحة من خلال التغيير الذي أحدثه ربّنا مابين صياغته للحمد لله رب العالمين على صيغة الغائب، وبين صياغته تعالى للآية الرابعة ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾ بصيغة الخطاب المباشر

لذات الله عزوجلّ الذي بيده مقاليد النظامين المـادي والروحي على أنهما أداة تجلّي ربوبيّته جل شأنه في هذا الكون العظيم.

وإذ نحن فهمنا معنى الدّعاء لغويّـاً. وأحطنا علماً بحقيقته العلمية فقد توجّب علينا أخيراً أن نفهم الدّعاء بوجهه الإسلامي. منطلقين من فهمنا العلمّي له الذي شرحناه، ومن منطلق قول الله عزوجلّ من سورة الفرقان (٧٧): ﴿ **قل مايعبأ بكـم ربّي لولا دعاؤكم فقد كذّبتم فسوف يكون لزاماً.**﴾. وقبل الاسترسال في البيان لابُدّ من الاحاطة بمعاني كلمة (مايعبأ). تقول: ماأعبأ به: أي ماأصنع به، كأنك تحتقره. قال الزّجاج شارحاً: أيّ وزن لكم عنده لـولا توحيدكم إيّاه. يُقال: ماعبأت به أي ماكان له عندي وزن ولاقدر. والعبء هو الثّقل. وماأعبأ بفلان أي ماأُبالي به. والعَبَاء مصدر. والعبوء هو الحمل والثّقل من أيّ شيء كان (محيط المحيط).

هذه المعاني جميعها تؤكّد صحّة المنطلق الذي نبهنا القرآن الكريم إليه. وتساعد على فهم حقيقة الدّعاء علمياً وإسلامياً. فالدّعاء في النظام الروحي، شبيه بالماء في النظام المادي الحياتيّ، وترتبط به جميع تعاليم الإسلام، فهو اللّولب، والتعاليم هي الأدوات والقوالب والأُطر والقشور. وبدون عنصر الدّعاء تنقلب هذه التعاليم لغواً لاحراك فيها ولاتأثير.

وهل يُفيد وجود الحَبّ بأنواعه المختلفة، والغراس بأشكالها العديدة، وهل تجدي الأرض وأدوات الزراعة بدون واجد الماء ونظامه الحياتي؟ هكذا حال تعاليم الدّين تفقد مصداقيّتها إذا خلت من قَدَر الدّعاء وضوابطه وشروطه.

هذا وإنّ الذي يتدبّر ماقصّه القرآن الكريم علينا من قِصص الأنبياء والصالحين من عباد الله تعالى يُلاحظ ذلك ، فقد كانت حكمته البالغة توجيه أنظارنا إلى حقيقة الدّعاء، ومايحمله من قوى خلق وتكوين، فبالدّعاء تغيب أسباب وتتولّد أسباب، وبالدعاء تتغيّر مُجريات الأمور. وهاأنّ سيد رسل الله محمد اليتيم الأمي قد ضرب للبشر قاطبة أسوة حسنة للاستفادة من الدعاء. فقد أمضى سنواتٍ من عُمره قبل الدعوة في غار حِراء يوم ماكان يدري ماالإيمان ولاالكتاب (شورى ٥٢) مابين تفكير ودعاء. وبعد الدعوة كان يتضرّع بين يدي ربه عزوجلّ يومياً فيقوم الساعات الطوال من ليله يتضرّع ويذرف الدموع لصالح أمته والعالم حتى تتورّم قدماه. هذا وقد كان نجاحه في توحيد أمته إحدى

بركات تلك الدعوات. فليجرّب المؤمن السالك اللجوء إلى هذه الذريعة الخامسة ذريعة الدعاء ليصبح صاحب تجربة في هذا المضمار. فأنا من جهتي صاحب تجربة والحمد لله.

إنّ الدّعاء بكلمات موجزة أداة تناغمٍ وتجاذبٍ مابين المؤمن السالك ومابين تجليات ربوبيّة الله رب العالمين. وبالدّعاء يتدارك الدّاعي سدّ الفجوة مابين الأسباب وأخطائه. والدّعاء له قوانينه وضوابطه وشروط قبوله. وللدّعاء المستجاب لذّة ونشوةٌ لاتعادلها لذّة أرضية، والدعاء قوة شاحنةٌ لامُفرغة، والدعاء الحقيقي منشّط، لامُضعف، وهو قدرٌ إيجابي لاسلبي، وبالدعاء المستوفي شروط قبوله، تنجذب محبة الله إلى هذا العبد ويتشّرف بالتالي بقربه ولقائه عزوجلّ. وبالدّعاء ينمو كيان المؤمن الروحي، وتتفتّح قواه الروحية من عيون مُبصرة إلى آذان تتشنّف بسماع كلام الله اللّذيذ. وبالدّعاء يزداد المؤمن علماً لدنيّاً من الله تعالى مباشرة.

إنّ حرارة صدر المؤمن التي يولّدها الدعاء بتفاعلاته، ينشأ عنها سُحُب ثقالٌ في السّماء الروحانيّة، وتوجّه ربوبية الله هذه السّحب بعلم الله لتحقيق ماهو في صالح صاحب هذه الآهات الحارة. أفلا يُلاحظ هذا المؤمن مايجري من تناغم بين الأم ووليدها؟

فمن المعلوم أنّ بُكاء الرضيع يستدّر الحليب إلى ثدي أمّه. وبُكاء الطفل يستدر عطف والدته عليه، فإن هو بكى وشكا البرد سارعت أمّه إلى إلباسه معطفه. وإن هو شكا الجوع سارعت تقدّم له طعاماً يستر رمقه حفاظاً على سلامته. فبكاء الطفل يحدث هذا التّناغم كله مابين الولد وأمّه. كذلك فبالدّعاء يحدث هذا التناغم مابين العبد وربّه عزوجلّ. وهذا هو الصراط المستقيم الذي سار عليه الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وهو الصراط المستقيم الذي دفعتنا سورة الفاتحة لطلبه ﴿**اهدنا الصراط المستقيم. صراط الذين أنعمت عليهم**﴾. وذلك بعد أن علمتنا سورة الفاتحة أن ندعو ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾.

فالدّعاء قدر روحي كقدر الماء في النظام الطبيعي، وقد تميّز الإسلام بتسليح المؤمنين بهذه الذريعة المُنتجة الفعالة، عمّا قبله من الديانات، سلّحهم بالصّلاة التي هي عماد هذا الدّين، وقد أتى جل شأنه بها ذات قوى ومكوّنات.

أفلا يلاحظ المرء أنّ الكيميائيين يرمزون للماء بالعلاقة (H_2O) التي تعني أن عنصر الماء لايتكون إلا من تفاعل عنصرين من أوكسجين مع عنصر واحد من الهيدروجين. فهاهي الصلاة الإسلامية قد شابهت ذلك. أفلا نلاحظ كيف رُكبّت الركّعة الواحدة من الصلاة من وقوفين وركوع واحد وسجودين كإطار حركّي. ومن دعاء الفاتحة الذي أجمل مافي القرآن الكريم من مواضيع. وقد قُرنَ الركوع بثلاثة من الذكر سبحان ربي العظيم، كذلك قُرن السجود بثلاثة من الذكر سبحان ربّي الأعلى. فكلّ ركعة من ركعات الصلاة الإسلامية مؤلفة من ذرّاتٍ عدّةٍ أقدارٍ وعناصرٍ روحية، وبقوى متناسبة حتى إذا تفاعلت هذه مع حرارة صدر المصّلي وآهاته، ينتج عنها هذا القدر الروحي الذي هو أساس النظام الحياتي الروحي في مقابلة الماء الذي هو أساس النظام الحياتي المادي.

ثم أفلا نُلاحظ كيف أنّ للقاضي حقّ إصدار أحكام مع وقف التنفيذ. وهذه الصّلاة الإسلامية، إن صلاّها المؤمن بشروطها وبأدعيتها الحارّة تحرك ربوبية ا لله عزوجلّ التي تتجلّى فتوقف تنفيذ عمل كل الأسباب الضّارة بهذا المصلي والتي توشك أن تهدد كيانه.

بل وتخلق لأجل فائدته ولصالحه أسباباً من عالم الغيب، لاتُرى بالعين المُجرّدة، بل ترى بنتائجها العملية والتي يتحسّسها هذا المصلّي بعد صلاته.

وعليه فلايجوز لمسلم أن يُجري أي تبديل على الصلاة الإسلامية التي وصلتنا جيلاً بعد جيل وبالتواتر عن الأسوة المحمدية الطاهرة. فإن أقدم أي مسلم على مثل هذا التبديل على أوقات هذه الصلاة، وعلى قوى حركاتها وقوى تسابيحها وحذف منها دعاء الفاتحة، فلاتعود هذه الصلاة الدعاء الفعال، ولاتثمر الثمر المطلوب الذي ذكرناه.

من هذا كلّه نُدرك أهمية توفّر عنصر الخشوع الذي اشترطه ربّنا عزوجلّ في أوّل آية من سورة المؤمنون وهو ﴿ **قد أفلح المؤمنون. الذين هم في صلاتهم خاشعون.**﴾ هذا الشرط يوازي الحرارة الضرورية التي يتطلّبها الماء ليتبخّر ويتصّعد في السماء. وبدون عنصر الخشوع في الصلاة الإسلامية، لاتتصعّد ماتضمّنتْهُ من أدعية إلى سماء الربوبية.

لذلك لاحظناه جل شأنه يقول في الآية (٥٨) من سورة مريم: ﴿**أولئك الذين أنعم ا لله عليهم من النبيّن من ذرّيّة آدم وممن حملنا مع نوح**

ومن ذريّة إبراهيم واسرائيل، وممّن هدينا واجتبينا، إذا تُتلى عليهم آيات الرحمن خرّوا سُجّداً وبُكيّاً، فخلف من بعدهم خلفٌ أضاعوا الصّلاة واتّبعوا الشهوات فسوف يَلْقَون غيّاً. إلاّ من تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يدخلون الجنّة ولايُظلمون شيئاً.﴾. وقوله عزوجل **﴿أضاعوا الصّلاة﴾** لايعني أنهم تركوا الصلاة. بل يعني أضاعوا الصلاة كقدر روحي وسلاح بتّار. وعادت صلواتهم تقليدية وشكلية ومجرّد قشور لالُباب فيها. وإلا فإنّ جميع أتباع الديانات يُصلّون في معابدهم وفي كلّ مكان. فمعابد هؤلاء عامرة، ومساجد المسلمين المعاصرين عامرة أيضاً، لكنها جميعها خرابٌ من الهُدى، فلا تثمر أدعيتهم ولاتُستجاب.

لذلك صلّوا بكامل الخشوع والتضرّع في صلواتكم، ولاتُمسكوا دموعكم إذا هدرت وخرّوا سُجّداً وبكيّاً، لتثمر صلواتكم أفانين الأعاجيب، ولتصبحوا مستجابي الدّعوات بإذن الله الذي أرسل إمام زماننا ليبعث فينا روح الصلاة الإسلامية من جديد.

ولابد لمن طالع مؤلّفاتي أن علم بالمعادلة التي تربط مابين جسد المرء ونفسه. فهي معادلة عكسية بالاصطلاح الرياضي. أي أن حالة النفس البشرية تتناسب عكساً مع حالته الجسمانية. فكلّما ضَعُفَتْ حواس الإنسان وأعضاؤه، ضعف سُلطانها على النفس التي تبدأ تتخلّص من إسارها. فإذا غلب النوم على الإنسان فاستلقى ونامت حواسه وأعضاؤه، تنطلق نفسه من إسار هذا الجسد في عالمٍ برزخيّ هو أشبه بحالة الموت، وحينذاك تعود هذه النفس ترى وتسمع وتأكل من دون هذه الأعضاء والحواس المادّية.

وصاحب تجارب الدّعاء، يدري أنّ نفس المعادلة العكسية تفعل فعلها حين سجود المُصلّي الذي يخرّ ساجداً وبكيّاً. وأنا بفضل الله تعالى صاحب تجربة في هذا الموضوع. ففي لحظات السجود والتوسل والتضرّع يحدث مايحدث للنائم، فيتراخى سُلطان هذه الأعضاء والحواس الجسمانية وتنطلق نفس المؤمن فترى وتسمع بغير هذه العيون وهذه الآذان، وكثيراً ماتُستجاب الدّعوات في تلك اللّحظات. ويقطف هذا السّاجد ثماراً روحية ولذّة ونشوة وسلواناً بما يشبه حال الطفل الرضيع الباكي بحرارة، إذا مااحتضنته أمّه يتهادى ويجد سلوانه ويستسلم

إلى النوم في حضن أمّه. وهذا أحد أسرار ماتضمّنه قول ربّنا عزوجلّ في كتابه العزيز: ﴿**لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ماتقولون.**﴾.

أي لابدّ في الصّلاة من توفّر شرط الوعي، وشرط الوعي هذا أشبه مايكون بالدّواء الذي يُخدّر أعضاء المصلّي ويُنشّط كيانه النفسي. فعلى قدر مايستغرق المصلي في حالة وعي مايقرؤه في صلواته من أدعية وتسابيح وأذكار ويتوسّع في فهم دلالاتها تتخدّر حواسه العضوية لاشعورياً وتنشط حواسه الروحية، وتأخذه حالة الحمد لله رب العالمين.

ثم أفلا يلاحظ المرء كيف أن مفعول حبوب الأدوية يتراوح بين أربع وست ساعات. وهذه الحقيقة تفسّر قوله عزوجلّ ﴿ **إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً.**﴾ فهاأنّ بين الصلوات الخمس فواصل زمنيّة شبيهة بتلك الفواصل المادية للحبوب الدوائيّة، من ذلك ندرك أنّ مفعول حالة الخشوع التي تنتجها الصلاة لايدوم إلا ساعات معدودات، ولابدّ من المداومة على الصّلاة طيلة الحياة وفي أوقاتها المفروضة، فما الصّلاة بمجرد عبء على كاهل المصلي وضريبة مفروضة عليه. فالله جل جلاله مُستغنٍ عن كلّ شيء. وهذه الصّلاة قدر روحي في صالح وفائدة الإنسان نفسه، وسلاح بتّار بين يديه مسخّر لتحقيق حاجاته، وآهٍ ثم آهٍ على المسلم الذي يقف على شاطىء النّبع الصافي، ويرجع من هناك وهو عطشان.

وسبق لي أن قلت: إنّ حركات وأذكار وقراءات الصلاة الاسلامية، هي بمنزلة القشرة لِلُبّ هذه الصلاة، ولتجعلها قَدراً روحياً مثمراً فعّالاً، فلم تأت صياغة الصّلاة على الشكل المذكور عبثاً. بل كانت صياغةً مدروسةً ومؤسّسةً على أسسٍ علمية مُستندةٍ إلى قانون تأثير ظاهر الإنسان في تكوينه الباطن وخُلُقه. ففي حالات المرض والسّفر يجوز التخفيف من هذا القشر الظاهر، والدّعاء بدونه. أما في حالة الإنسان الطبيعية، فلايجوز فعل ذلك بحال من الأحوال.

أفلا نلاحظ كيف أن خالقنا عزوجلّ قد جعل لكلّ ثمرة قشرة تحميها وتتناسب معها سماكة ولوناً ونسيجاً؟ وهذا هو حال هذه القشرة التي تغلّف قدر الدّعاء المطلوب والمؤلفة من حركاتٍ وقراءات وتسابيح وأذكار. وهذه الصياغة لأطُر الصّلاة امتازت أنّها قامت على أصول علمية ولتحقيق أهداف سامية هي في صالح الفرد والمجتمع وفي آنٍ واحد.

إلى جانب أنّ هذه الصياغة جاءت متوافقة مع مُقتضيات الفطرة البشرية وحاجاتها أيضاً. وبالإمكان التوسّع في هذا الفهم بالرجوع إلى مؤلفي (الصلاة الإسلامية دراسة وتحليل بالأسلوب العلمي).

ولايحسب المؤمن أنّ بإمكان الكافرين با لله تعالى وأعدائه أن يستفيدوا من قدر الدّعاء هذا لإيذاء المؤمنين وهدم مايعمرونه. لا فليس بإمكان هؤلاء تسخير الدّعاء لأغراضهم ولمايشتهون. فالدعاء سلاح خاصٌ سُلّح به جنود ا لله في الأرض، وهو بمنزلة الرّداء الذي لايخترقه الرّصاص.

فهذه البحيرات والبحار تتبخّر بكميّات أبخرة، وتتشكّل منها سحب ممطرة تغطي السّماء. فهل تُلاحظون أن تلك السّحب لاينظم هطولها قوانين طبيعية من منخفضاتٍ جوّية ومرتفعات؟ وقد تسيّر الرياح تلك السّحب الممطرة إلى أمكنةٍ لاتمت لأمكنة تبخّرها بصلةٍ من الصّلات. فإن كان هذا هو حال النظام المائي الحيائي. فما بالكم بنظام قدر الدعاء الروحيّ وهو الذي يوازيه في عالم النظام الروحي؟

ولنعد إلى كتاب ا لله العزيز نتدبّره على هذا الصعيد. فإننا سنلاحظ أنّ ربّنا يبشّر المؤمنين السالكين سبيل عِرفانه ويقول في الآية (١٤) من سورة الرّعد: **﴿ له دعوة الحقّ، والذين يدعون من دونه لايستجيبون لهم بشيء إلاّ كباسط كفيّه إلى الماء ليبلُغ فاه وماهو ببالغه، ومادعاء الكافرين إلاّ في ضلال.﴾**. فما معنى **﴿ له دعوة الحق﴾**؟ اللاّم في له تفيد الملك ودعوة مصدر دعاء. والحقّ ضدّ الباطل. أي أن ملكية التصرّف بسحب الخير المتأتيّة عن أدعية الناس هي في يد ا لله وحده. فا لله وحده يملك إخراج نتائجها الخيّرة. وهو وحده يملك تضليل مايدعو إليه الدّاعي من العباد. ذلك أن ا لله عزوجلّ مُهيمنٌ على القوانين الناظمة لكل دعاء مهما كان مصدره. فهو قادر بذلك على تحويل سحب الدعاء بالاتجاه الذي يشاء. فا لله غالب في ذلك على الدّوام. فلايستجيب من الأدعية إلا ماكان منها في صالح الحقّ، وليس في صالح الباطل فهو تعالى يستجيب ماكان منها في صالح الصدق والعدل فهذا معنى **﴿له دعوة الحق﴾**. فما أبلغ هذه الكلمات وماأعظم دلالاتها.

وأضاف جل شأنه يقول: **﴿والذين يدعون من دونه لايستجيبون لهم بشيء إلاّ كباسطٍ كفيّه إلى الماء ليبلغ فاه، وماهو ببالغه.﴾** أي أنّ أعداء الحق

من المشركين لن يستفيدوا من أدعيتهم وآهات صدورهم التي يبذلونها علـى غـير عتبة الله الحق إلاّ بقدر مايستفيده الذي يبسط كفيّـه إلى المـاء يدعـوه أن يتحـرك هذا الماء من نفسه ويسارع إلى فمه ليروي عطشه. فهل يفيد دُعاء هذا في جذب الماء إلى فمه مهما طـال وقوفـه أمـام المـاء ومهمـا طـال دعـاؤه؟ لاشـك أنّ المـاء المسخّر لإرواء عطش الإنسان مفيدٌ ويروي العطـش. لكنّـه لايتحـرّك مـن نفسـه ولايفيد مـن تِلقائـه إلا إذا انضبـط هـذا العطشـان بـالقوانين الـتي سـنّها البـارىء لتحقيق ذلك. فالإنسان الذي لايلتزم بهذه القوانين المسنونة لايستفيد من دعائـه الماء إليه مهما أكثر من دعائه، فلن يأتي الماء إلى فمه ليطفىء ظمأه ولن يبلغ المـاء فاهُ بدعائه المذكور، مهما ثابر على هذا الدّعاء، ويبقى محرومـاً مـن الخـير العميـم الذي تكوّنَ منه هذا الماء.

فالله جلّ شأنه يملك القوانين الناظمة لأبخرة صدور الداعين على شاكلة ما يملك من القوانين الناظمة لأبخرة المياه المتصاعدة من تجمُّعات الميـاه. فلـه دعـوة الحق وهو يملك نتائجها وبركاتها.

ويتساءل المرء هنا: وإلى أيّ مصير تؤول أبخرة صدور أدعية الدّاعين مـن غير المؤمنين؟ وقد أجاب الله عزوجلّ علـى هـذا السـؤال في آخـر الآيـة الكريمـة وقال: **﴿وماذُعاء الكافرين إلاّ في ضلال.﴾** أي أنّ أبخرة صدور أدعيـة الدّاعـين من غير المؤمنين لن تثمر ولن تصل هدفها بل ستظلّ في ضلال عـن هـذا الهـدف. لأن تلـك الأدعيـة لاتهـدف لنُصـرة الحـقّ وتـأييده، بـل لنصـرة الشـرك والبـاطل وتأييده. وهذا هو السّبب في ضلال تلك الأدعية عـن سـبيل التّنـاغم مـع تجليّـات ربوبية الله رب العالمين الذي بيده مقاليد كل شيء، والذي يهيمن على القوانـين الناظمة لاستجابة دعوات الداعين من عباده.

وإنّ الله عزوجلّ عندما قال بحق دعاء الكـافرين إنّـه "في ضـلال". فقـد شبّه دعاء الكافرين برسالةٍ مرسلةٍ إلى عنوانٍ مجهول، فهل بالإمكـان أن تصـل إلى المرسل إليه؟ أي أنّ دُعاء الباطل لايثمر عطاءه المرجو منـه. فللّـه دعـوة الحـقّ لأنّ تبديل الأسباب وخلق الأقدار، أمر كائن في قبضة مالك السموات والأرض. وإنّ كلّ إنسان لايؤمن بالله تعـالى ولايربـط مصـيره بـه عزوجـلّ يسـتحيل أن تحقـق آهات صدره وأدعيته أقداراً وأسباباً تخالف مشيئة هذا الإله المالك لكل شيء.

و لم يكتف ا لله جل شأنه بهذا التبشير الذي بشّره المؤمنين السالكين في هذه الآية الكريمة. بل أتبعها بآية أخرى توثّق مضمون هذه البشارة وتؤكده وقال: ﴿**و لله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً، وظلالُهُم بالغدّو والآصال.**﴾. أي اعلموا أنّ كلّ من في السموات والأرض مطيع ومتذلّل أمام ا لله خالقه (طوعاً وكرهاً). إشارة إلى أن كل إنسان مستسلم للقوانين الطبيعية التي سنّها ا لله الخالق لتسيير هذا الكون، طوعاً وكرهاً.

فكيف يسجدون ويطيعون (كرهاً)؟ يسجدون ويطيعون كرهاً من جهة تكوينهم الجسماني. فلسان الإنسان مكرهٌ على تذوّق الأشياء. وأذنه مُكرهةٌ على سماع ذبذبات الأصوات. وعينه مكرهةٌ على نقل صور هذه الأشياء إلى دماغ هذا الإنسان وهكذا دواليك. فهذه الأحوال جميعها تفسّر معنى خضوع من في الأرض "كرهاً". أما خضوع هذا الإنسان طوعاً وبإرادته، فتفسّره حالة معدته إذا أشعرته بالجوع، يسارع إلى تناول طعامه لإشباعها وإسكاتها بإرادته الشخصية. وإذا آلمه سنه أو ضرسه يسارع إلى طبيب الأسنان يسأله فحص سنّه ووصف الدواء لمعالجته وبإرادته الشخصية أيضاً. وجميع هذه الحالات وأمثالها تفسر جميعها معنى خضوع مَنْ في الأرض "طوعاً". أما ملائكة ا لله الذين في السّماء فيفعلون مايؤمرون.

وا لله جلّ شأنه بهذا الشطر من الآية يكون قد أفحم الكافرين الذين يدعون لإيذاء المؤمنين الصادقين وقدم لهم دليلاً عملياً على أنه ﴿**له دعوة الحق**﴾ وعلى أن ﴿**الذين يدعون من دونه لايستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيّه إلى الماء ليبلغ فاه وماهو ببالغه**﴾ وإلى أن ﴿**ومادعاء الكافرين إلا في ضلال**﴾. وهذه المعاني جميعها تؤكد صحّة مابشّر ا لله تعالى به عباده المؤمنين من أنه جل شأنه يستجيب أدعيتهم إن هم استجابوا له وساروا على درب عرفانه وسَعَوا للتناغم مع تجليّات ربوبيته وجذب محبته وكسب قربه ورضاه.

أما قوله تعالى ﴿**وظلالهم بالغدو والآصال**﴾. فالظلال جمع ظلّ. وفي أقرب الموارد: إن الظل هو كل موضع زالت عنه الشمس فهو ظل. وظل الشباب أوله. والظل هو الفيء الحاصل من الحاجز بينك وبين الشمس مطلقاً. ويقال: هو في عيش ظليل: أي في ظلّ الكرامة، وقال صاحب معجم المفردات: إن الظل يقال لكل موضع لم تصل إليه الشمس.

فالمقصود من (وظلالهم) بناء على المعاني التي ذكرناها هو أن جميع الكائنات تستظل بالقانون الطبيعي المسنون في هذا الكون. والكافر من الناس بربه وبإحساناته يشكل جزء من هذه الكائنات.

وقد أضاف تعالى يقول (بالغدو والآصال) فليعطي هذا الظل أبعاده التي لاتكون إلا في الغدو والآصال. والمهم هو أن الله عزوجل قد نبه الكافرين به وبدينه إلى أن أدعيتهم وتدابيرهم لن تفيدهم شيئاً في مجال مقاومة دينه ورسوله والمؤمنين.

وقد بشّر في الوقت نفسه المؤمنين السالكين درب عرفانه أن ذرية الدعاء التي جسّدها لهم في هذه الصلاة الإسلامية الموروثة بالتواتر هي الذريعة الناجعة في جذب محبته وكسب قربه ورضوانه.

٧ـ التّوبة والاستغفار(مفهومها وفلسفتها) :

والذريعة السابعة التي يوجّهنا إليها كتاب الله العزيز لنجذب محبّة ربّنا إلينا على درب عرفانه، تضمّنتها الآيات التي تدفع المؤمن السالك ليتّخذ ديدنه اليومي اقتناص الدقائق من أوقات فراغه للتّوبة والاستغفار، ومنبّهةً هذه الآيات الكريمة إلى أن الذين أنعم الله عليهم بمحبته وعرفانه وقربه من قبلنا من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، كانوا من الذين يعمدون إلى ذريعة التوبة والاستغفار كلّما سنحت لهم دقائق فراغ ضمن حياتهم اليومية.

ولذلك قال تعالى في الآية (٢٢٢) من سورة البقرة: ﴿.. **إنّ الله يحبّ التّوابين ويحب المتطهرين.**﴾. وقال في الآية (١٧) من سورة آل عمران: ﴿**الذين يقولون ربّنا أننّا آمنّا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار. الصابرين والصّادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار.**﴾.

من هذا لابدّ أن أدرك المؤمن السّالك ضرورة استعانته با لله تعالى على جذب محبّة ربّه بذريعة الإكثار من التّوبة والاستغفار ومتذكراً جدّه إبراهيم عليه السّلام الأوّاب والذي وفّى وكان أباً لأنبياء عديدين، يوم كان يرفع قواعد البيت العتيق وابنه اسماعيل وهما يدعُوان: ﴿**ربّنا تقبّل منّا انّك أنت السميع العليم. ربّنا واجعلنا مُسلمين لك ومن ذريّتنا أمّةً مسلمةً لك وأرنا مناسكنا وتُب علينا إنّك أنت التّواب الرحيم.**﴾ البقرة ١٢٨ ـــ وهل كان إبراهيم مُذنباً في شيء حتى يدعو ﴿**وتب علينا إنّك أنت التّواب الرحيم**﴾ إلا أن كان من

أوراده التوبة والاستغفار على الدّوام؟ الأمر الذي يعني أنّ النّاس في غفلةٍ عن فلسفة التّوبة والاستغفار.

وقبل أن أخوض في موضوع التوبة والاستغفار، أحاول إبراز دلالات هذين اللفظين من معاجم اللّغويين. ففي (محيط المحيط): تاب المؤمن إلى ا لله: رجع عن المعصية أو ندم على الذّنب، مستقرّاً ومعترفاً بأن لاعُذر له في إيتانه، وهو تائب وتوّاب، وتاب ا لله عليه معناه وفّقه ا لله للتوبة ورجع عليه بفضله وقبوله. فا لله توّاب على عباده. وقال في الكليات، إذا استعملت التوبة مقرونة بصلة "على" أي تاب عليّ، دلّت على معنى القبول.

وتوّاب اسم فاعل من تاب، يُستعمل في ا لله لكثرة قبول ا لله التوبة من العباد. أما إذا استعملت بعن كان اسم الفاعل تائباً. وتاب إليه معناه أناب. والتوبة مصدر تاب. والتّوبة النّصوح عند ابن عباس : هي النّدم بالقلب والاستغفار باللسان والإقلاع بالبدن وإضمار أنّه لايعود.

من هذا ندرك أنّ التوبة هي النّدم على الذّنب أي على الخطأ غير المتعمّد. ومادام من أسماء ا لله تعالى التّواب، فإنه تعالى يقبل توبة التائبين بكثرة لامثيل لها. وأنّ التوبة النّصوح هي التوبة من فعل معصية واضحة المعالم لذلك سُميّت بالنّصوح. أمّا التوبة مجرّدة فهي إقرار بضعف التائب وكونه مركّباً من الخطأ والنسيان، ويدعو لرّبه باستمرار طالباً عفوه ومغفرته ومقرّاً بضعفه بين يدي ربه عزوجل.

ولفظ الاستغفار تعرّض له صاحب معجم (محيط المحيط) بقوله : غفر الشيء معناه ستره. وغفر ا لله له ذنبه : غطّى عليه وعفا عنه. واستغفر المؤمن لله من ذنبه : طلب أن يغفره له.

والغُفران مصدر غفر، وهو يقتضي إسقاط العقاب ونيل الثواب، ولايستعمل إلاّ في البارىء تعالى. لذلك فلايستعمل الغفران للعبد، ويستعمل لفظ العفو بدلاً عنه. إذ يجوز لمن يُطلب العفو منه أن يستر ولايغفر ولايصفح التجاوز عن الذّنب. فالعفو يقتضي إسقاط اللّوم والذّم، ولايقتضي نيل الثواب. وصفة ا لله الغفّار للمبالغة، والغفور بمعنى فاعل كثير المغفرة، ولفظ الغفّار أبلغ من الغفور لزيادة بنائه وقوّة تفعيلته. وقيل إن الغفار اسم معبّرٌ من جهة كميّة الغفران. أما الغفور فإسم معبّر من جهة كيفيّة الغفران.

والاستغفار مصدر استغفر وطلب المغفرة. وفي التعريفات : الاستغفار استقلال الصّالحات والإقبال عليها واستكبار الفاسدة والإعراض عنها. والاستغفار عند أهل الكلام : طلب المغفرة بعد رؤية قُبح المعصية والإعراض عنها، والمغفرة مصدر واسم من غفر. قال في الكليّات : المغفرة صيانة العبد عمّا استحقّه من العقاب بالتجاوز عن ذنوبه، وهي من الغفر أي إلباس الشيء مايصونه من الدّنس، وقال في التعريفات : المغفرة هي أن يستر القادر القبيح الصّادر من تحت قدرته، حتى وإنّ العبد الذي يستر عيب سيّده مخافة عتابه لايُقال له غفر له.

ندرك من هذا كله أنّ كلمة الاستغفار تضمنت أولاً طلب ستر مابدر عن المستغفر. ثانياً وعلى أساس أن المغفرة لاتكون إلا لله عزوجلّ الذي بيده إسقاط العقاب وكتابة الثواب. فالغفّارُ اسم من أسماء الله الحسنى. ثالثاً: ويعني استغفار العبد إعراضه عن معصية ربّه بعد رؤيته قُبح هذه المعصية. رابعاً : ولايجوز تسمية الإنسان غفّاراً، وإن ستر عيب سيّده ذلك لأن الإنسان لايملك حقّ إسقاط العقاب : فلايُسمّى غفّاراً إلا الله عزوجلّ.

أعود الآن إلى موضوع ذريعة التوبة والاستغفار التي تجذب محبّة الله تعالى فأقول : أفلا نلاحظ كيف أنّ الله تعالى حين راح يعدّد صفات المؤمنين المبشّرين بمحبته وقربه ورضوانه وذلك في الآية (١١٢) من سورة التوبة، كيف قال: ﴿**التائبون العابدون الحامدون السّائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والنّاهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشّر المؤمنين**﴾؟

فهو جل شأنه استهلّ هذه الصفات بصفة (التائبون). والتائبون جمع تائب، وقد جعل بذلك ورد التّوبة والاستغفار ذريعة هامة على طريق هذا التبشير الموجّه لهؤلاء المؤمنين.

أي أنّ دعاء سورة الفاتحة ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾ قد فُرض أن يدعو به المؤمن السّالك في كل ركعة من ركعات صلواته وأذكاره لعلاقته المباشرة بالشوائب اللاحقة بتكوينه الفطري عن طريق غذائه وموِرّثات والديه. وهذا المؤمن بعد أن يترعرع تلحق به شوائب جديدة ومتنوّعة، لذلك فإنّ عليه أن يجعل التوبة والاستغفار ديدناً له في لحظات فراغه، تداركاً لهذه الشوائب المستجدّة، كيلا تحول دون رُقي كيانه الروحي.

فالتّوبة والاستغفار بفلسفتهما الإسلامية تكمل لهذا المؤمن مايطلب من ربه من الإعانة لمعالجة ضعفه من هذه الشوائب جميعها. فيتوب ويستغفر على الدّوام طالباً من ربه عزوجلّ أن يُسقط عنه عقاب كل معصية تصدر عنه: مقصودة كانت أو غير مقصودة، وبعد رؤيته لقبحها الذاتي، ذلك أنّ نهج التوبة والاستغفار المطالب به هذا المؤمن السالك ارتكز إلى فلسفةٍ وحكمةٍ عظيمتين وهامّتين.

لذلك يتساءل المرء هنا عن هذه الفلسفة والحكمة التي ارتكزت إليها مُطالبة الله لهذا المؤمن السالك بالدأب على التوبة والاستغفار. فماهي معالم فلسفة النهج المذكور؟

أقول : أفلا يلاحظ قارىء القرآن الكريم تركيزه جلّ شأنه على كلمتين في كلّ مُناسبة حضّ المؤمن فيها على التقدّم والتّقرب من ربّه عزوجلّ وهذان اللفظان هما : الفوز والفلاح؟ فهو جلّ شأنه راح في سورة الاحزاب يقول في نهاية الآية (٧١) "فقد فاز فوزاً عظيماً". وفي آخر الآية (٧٢) من سورة التوبة قال: "وذلك الفوز العظيم".

وقال في آخر الآية (٣٠) من سورة الجاثية: "وذلك هو الفوز المبين". وفي آخر الآية الحادية عشرة من سورة البروج قال: "وذلك هو الفوز الكبير". كذلك يركز على لفظ الفلاح أيضاً فالله عزوجلّ يقول: "لعلكم تفلحون" و "قد أفلح المؤمنون" في سور وآيات عديدة. وفي مقابل ذلك قال تعالى في آخر الآية (١٣٥) من سورة الأنعام: "لايفلح الظّالمون. "

وفي آخر الآية (١٧) من سورة يونس: "ولايفلح المجرمون". وفي آخر الآية (٧٧) من سورة يونس أيضاً: "ولايفلح الساحرون". وقال في آخر الآية (٨٢) من سورة القصص : "ولايفلح الكافرون". كذلك قال في الآية (١١٦) من سورة النّحل: " وإنّ الذين يفترون على الله الكذب لايفلحون". وهل يظّن القارىء أن هذا التركيز على استعمال لفظي الفوز والفلاح في كتاب الله العزيز وعلى الصّور التي لاحظناها قد أتى من غير حكمة ولافلسفة بالغين؟

فالسؤال الآن هو: ماهي فلسفة كلمة أفلح التي تعني لغةً : ظفر بما طلب ونجح في سعيه وأصاب في عمله؟ وماهي فلسفة كلمة فاز التي تعني نجا وظفر بالخير؟ أي ماهي الفلسفة التي ارتكز كتاب الله العزيز إليها حين اختار استعمال

هذين اللفظين أفلح وفاز؟ وماهو وجه الإعجاز اللّغوي باختيار هذين اللفظين لتحقيق المقاصد التي نزل القرآن الكريم لتحقيقها؟

أقول جواباً على ذلك : إنّ الله عزوجلّ أنزل تعاليم الإسلام موافقة لمقتضيات الفطرة البشرية. وهذا أمر سبق أن بحثناه. ومن مقّومات هذه الفطرة البشرية التي فطر الله الناس عليها، أنّ صاحبها الإنسان ينزع بشكلٍ فطري إلى حياة الخلود والرقي الأبديّ. ذلك أن الإنسان حين يتصّور أنه سيموت تكتئب نفسه ويتمنّى الخلود. ولذلك تنشد جميع الأمم إطالة أعمارِ مواطنيها.

وقد جاءت تعاليم الإسلام موافقة لهذه الفطرة، وتَعِدُ بالحياة بعد الموت وبالخلود وبالرقيّ اللاّنهائي. ولتؤكّد أنّ الموت لايعني إلا انتهاء أول مرحلة من مراحل التطوّر على طريق الخلود والرقي اللاّنهائي. وأنّ الإنسان إذا آمن بالله خالقه وبايع مرسليه، يتولّد له كيان روحيّ هو حصيلة حياته الدّنيا. وهذا الكيان خالد لايأتي عليه الموت، ويرتبط نموُّه وتطورّه بمدى ارتباط صاحبه بتعاليم دينه.

فمن كفر وكذّب لايفلح ولايفوز في تحقيق نزوع فطرته إلى حياة الخلود. بل لابدّ له أن يُعاقب ويُعالج في عالم البرزخ إلى أن يستعيد هذا الكيان الروحي المطلوب.

هذه حقيقة كامنة وراء اختيار القرآن الكريم للفظي الفوز والفلاح. وهي حقيقة لّمحت إليها الآية الثامنة من سورة التحريم التي تقول على لسان المؤمنين: ﴿**والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربّنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنّك على كلّ شيء قدير.**﴾ بمعنى أنّ الواحد من المؤمنين كلما تحقّق له رقي درجةٍ روحيَّةٍ من درجات النور، تراءت له درجة أرفع وأكملِ منها، ويحسّ بإحساس النزوع إلى هذه الدرجة الأرفع والأكمل، ويطمع أن يُتّم له ربّه نوره الذي يسعى بين يديه.

فإذا استجاب له ربه ورقّاه هذه الدرجة الروحية، يتحسّس نفس الواقع ونفس النزوع، ويتوسل أن يُتّم الله ربّه له نوره الذي يسعى بين يديه. ويستجيب له ربّه وتظل تتراءى له درجات أرقى من درجته الروحية وهكذا دواليك يظلّ يترقّى إلى مالانهاية ويحيا حياة الخلود الأبدي.

فهذه هي فلسفة اختيار القرآن الكريم للفظي الفوز والفلاح من دون تعيين وتحديد ماهيّة هذا الفوز والفلاح. وقد تُرك أمر اكتناه هذه الفلسفة وهذه الحقيقة للإنسان المؤمن الطّاهر والمتدبّر للقرآن الكريم.

وليلاحظ القارىء لآية سورة التحريم هذه كيف أن المؤمنين لايكتفون بقولهم ﴿**أتمم لنا نورنا**﴾ بل يضيفون قائلين ﴿**واغفر لنا**﴾ أي استر ضعف درجتنا التي نحن فيها وأتمم لنا هذا النّور. مُنطلقين في طلبهم المتكرر المذكور من منطلق اعتقادهم بربهم ﴿**إنك على كلّ شيء قدير.**﴾. فالتوبة والغُفران إذن تحملان هذه الفلسفة العظيمة. وإن المؤمن الذي يسعى للفوز والفلاح، لايتوانى أن يستغفر ربّه على الدّوام ويتوب إليه طمعاً منه أن ينمّي كيانه الروحاني وليجعل الله له نوراً يمشي به بين الناس. ومعتقداً بأنّ حياته الدنيا التي يحياها، إنما تشكل أوّل محطّة على طريق الخلود والرقي النّهائي أي على طريق الفوز والفلاح في تحقيق المقصد الحقيقي من وجوده على سطح هذه الكرة الأرضية.

ثم إنّ المؤمن إذا جلس يقول (أستغفر الله ربّي من كلّ ذنبٍ وأتوب إليه ربي إني ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي فإنّه لايغفر الذنوب إلا أنت) وواضعاً نصب عينيه فلسفة وحكمة ماتهدف التوبة والاستغفار إلى تحقيقه في نفس هذا المؤمن التائب المستغفر. إذا دأب المؤمن على هذا الورد يتعوّد شيئاً فشيئاً على محاسبة نفسه على مايبدر عنها من ضعف على درب طاعته الله والانصياع لأوامره عزوجلّ. ويبدأ هذا المؤمن يتحسّس حسن الأشياء وقبيحها. فإذا قويت عنده هذه الحاسّة وأضحت رؤيته حقائق الأشياء واقعيّة وعلميّة، تعود تصّرفاته أيضاً واقعيّة وعلميّة، وتسمو أحاسيسه لتصبح لائقةً وفيها جاذبية محبة ربّه إليه. أي أنّه يسير حينذاك على مسار الخُلُق العظيم الذي بلغه محمد خاتم النبيين (ﷺ)، ويتميّز بالتّالي عن البشر أقرانه، وتلوح لعينيه حينئذٍ معالم جمال الله خالقه، بعد أن كانت رؤياه مقتصره على رؤية معالم جلال الله عزوجلّ.

وهذا يحدث على اعتبار أنّ جمال الله تعالى أخفى من جلاله وإحسانه. فالمؤمن الذي يسير على درب العِرفان الإلهي يتحسّس من حوله إحسانات ربّه في جميع أحواله، يتحسّس هذا الإحسان من خلال وجوده، ومن خلال ماسخّره الله تعالى لصالحه في الأرض والسماء. لكنّه يتوق دوماً إلى رؤية جمال الله،

ولذلك يسير على درب عرفانه ليتعرّف إلى مايحمله إلهه من جمال يخلب الأفئدة والأبصار.

أفلم يقل ربّنا في سورة الأنعام عن نفسه: ﴿**لاتدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار، وهو اللّطيف الخبير.**﴾؟ فعين هذا الجسم تدرك إحسانات الله المتجسّمة من حوله، لكن أنّى لها أن تُدرك جمال هذا المحسن الأعظم صاحب الأسماء الحسنى والجمال الأتم ؟ فالله تعالى يدرك الأبصار. لكن هذه الأبصار لاتدركه للطافته عزوجلّ. لذلك يسعى المؤمن ليتعرّف على جمال ربّه بمحاولة إطاعته لتعاليمه واتّخاذ ذرائع جذب محبّة الله إليه. فإذا ماأحبّ الله جل شأنه هذا العبد السالك المطيع يأخذ جلّ شأنه يكشف جماله عليه شيئاً فشيئاً، حتى تعود محبّته عزوجلّ تغلي في صدر هذا المؤمن السالك درب العرفان الإلهي. وهذه الحقيقة لايُدركها إلاّ المؤمنون الذين قطعوا أشواطاً كبيرة على درب هذا العرفان، أولئك الذين رأوا من آيات هذا الجمال الإلهي وشواهده وعلاقاته ماجعلهم سُجداً وبُكيّاً على أعتاب ربّهم عزوجلّ.

كذلك فإنّ المؤمن الذي يتعود التوبة والاستغفار، تضمر قوة الاستكبار والزّهو لديه. وتنمو قوة التواضع في جميع تصرُّفاته، علماً بأنّ التواضع صفة لازمة لكلّ من يسعى على طريق التقدم والارتقاء. لذلك يقولون أنّه كلما ازداد الإنسان علماً ازداد بالتّالي تواضعاً. وهذه سمة طبيعيّة نتحسّسها في كلّ شيء من حولنا. فسنابل القمح كلّما نمت بماتحمله من حبوب ترنحت هذه السّنابل تحت وطأة أثقالها. والأشجار كذلك كلّما أثمرت وأينعت ثمارها ترنّحت أغصانها تحت وطأة أثقال هذه الثمار اليانعة.

لذلك فإنّ المؤمن السالك الذي يستعين بربه على ماحق فطرته من شوائب. والذي يجلس يتوب إلى الله ويستغفره في الأسحار، يترقّى روحانياً ويتعلّم مالا يعلمه المستكبرون البطرون، وكلّما ازداد علمه وازداد قرباً وعرفاناً لخالقه، شعر بتواضع نفسه أمام عظمة مكوّن هذا الكون العظيم.

وأقول بألفاظٍ أخرى إنّ المؤمن الذي يتوب ويستغفر وبفلسفة التوبة والاستغفار التي وضّحتها، يصبح لسان حاله في دعاء مستمّرٍ بين يدي ربّه ليطوّر له كيانه الرّوحي ويُخلّصه من ضعفه ووهنه الموروث ومن مؤثرات الوسواس الخنّاس من حوله. وهذه الحال تجذب إليه محبة ربّه، وتنغرس بالتّالي محبّة ربه في

فؤاده، وحينذاك يطير بجناحي الشوق إلى عرفان ربه وقربه ولقائه ويُمسي مُحلّقـاً في سماء الروحانية على شاكلة الطّيّور المحلقة في السّماء. ولايعـود يومـذاك يجذبـه إلى عالمنا المادي إلاّ بضع لقيمات تسدّ جوعه، وخِرَقٌ تقيه عوامل الجوّ المحيطة به. أما بقية الأشياء فتعود في نظره من باب الكماليات.

ولاأقصد من قولي هذا أن هـذا المؤمـن السّـالك سيصبح رجـلاً صوفيـاً يتقوقع في إحدى الزوايا وينزوي عن النـاس علـى شـاكلة مايفعلـه المتصوفـون في عصرنا، بل إنّ الذي أرمي إليه هـو أنّ هـذا المؤمـن التـائب المسـتغفر سيصبح في منتهى التواضع ومندفعاً في خدمة النـاس وتبليغهـم رسـالة ربّـه بشـوق زائـدٍ يثـير الدهشة والإعجاب. متحرّراً من كل ماورثه من أعراف وتقاليد مزيّفـة وعـاداتٍ بالية. ويقدّم في سبيل خدمة دينه أعظم الأعباء والتّضحيات.

ولايكون سـبيله إلى ذلـك تقليـد أعمـى مـوروث، بـل علـمٌ يرتكـز إلى حقائق وحجج وبراهين قاطعة يـزوّده بهـا هـذا الديـن الاسـلامي، ويثبتـه الله في الحياة الدنيا بالقول الثابت. ويظل هكذا يترقّى روحيّاً باتجاه التخلّق بالخلق العظيم الذي تخلق به محمد المصطفى خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم. لذلك فلا يحسبّن أمرؤ أنّ في التوبة والاستغفار مهانه للإنسان وإذلالاً. بل اعلموا أنـه ذريعـة رقـيّ روحي وخلقي عظيم، لما يحمله من فلسـفة وحكمـة عظيمتـين. أمـا الـذي يـردّد ألفاظ التوبة والاستغفار كالببغاء فتلك حالة المهانة والإذلال بلا جدال.

التّوكل على الله : منهاج التوكّل

والذريعة السابعة التي تمكّن المؤمن السّالك درب عرفان ربّه عزوجلّ هي أن يتفّهم هذا المؤمن موضوع التوكّل على الله تعالى، ويحـاول بالتـالي الاتصّـاف بصفة التوكّل هذه التي تؤكد له عملياً وجود ربّه جـل شـأنه ومالـه مـن قُـدُراتٍ لاتحدُّها حدود. فإن اتصّف بهذه الصّفة وأثبت هذا المؤمن لربّه عملياً أنه يتوكّـلٍ عليه في كلّ أمرٍ نصّ عليه كتاب الله العزيز، يجذب محبة ربّه إليـه ويصبـح محبوبـاً لديه عزوجلّ، ويقطع أشواطاً على درب عرفانه تعالى.

هذه الحقيقة نبّهنا إليها ا لله ربّنا نفسه حيث قال في الآية (١٥٩) من سورة آل عمران: ﴿**إنّ ا لله يحبّ المتوكّلين.**﴾ أي يحب تعالى المؤمنين الذين تحلّوا بصفة التوكّل عليه.

وهذه الألفاظ مرّرها جلّ جلاله ضمن آيتين طويلتين ضمّنها منهجاً سلوكيّاً يختصّ بتعاليم الإسلام وحدها، وتعطي فكرة عن نوع الديموقراطية التي أتى بها هذا الدّين الحنيف. فقد قال تعالى مخاطباً رسوله الكريم وكلّ من ينوب عنه: ﴿ **فبما رحمة من ا لله لِنتَ لهم، ولو كُنتَ فظّاً غليظ القلب لانفضّوا من حولك، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر، فإذا عزمت فتوكّل على ا لله، إنّ ا لله يحبّ المتوكّلين، إن ينصركم ا لله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فَمَنْ ذا الذي ينصُرُكُمْ من بعده، وعلى ا لله فليتوكّل المؤمنون.**﴾. ولنلاحظ أنّ ا لله تعالى وضع من خلال هاتين الآيتين الكريمتين منهاجاً لابدّ من الأخذ به عند اتّخاذ القرارات الصعبة، وعند مواجهة المواقف الحرجة. ويتألّف هذا المنهاج من عناصر ثلاثة، الأول منها عبّر تعالى بقوله: ﴿**شاورهم في الأمر**﴾. أي أنّ المؤمنين تُكمل عقولهم وأساليب تفكيرهم بعضها البعض الآخر، لاختلاف زوايا النّظر التي ينظرون منها، لذلك شاورهم في أي أمر قبل اتخاذ القرارات الحاسمة في المعضلات والمواقف الحرجة، دون النّظر لأيّ اعتبار إلاّ اعتبار الإيمان.

والعنصر الثاني لهذا المنهاج عبّر عنه تعالى بقوله ﴿**فإذا عزمت**﴾. وعزم على الأمر على حسب ماورد في معجم محيط المحيط معناه أراده أي قرّره بإرادته وعقد ضميره على فعله وقطع عليه وأمضاه من دون تردّدٍ فيه. ولايجوز استعمال هذا اللفظ منسوباً إلى ا لله تعالى لعدم احتياجه تعالى إلى المشورة، لاتّخاذ القرار، وهذا العنصر الثاني لهذا المنهاج يعطي الرّسول أو من ينوب عنه حقّ اتخاذ القرار الصّعب بعد استشارة المؤمنين سواء أرجّح رأي واحدٍ منهم أو رجّح رأيه الشّخصي، كما حدث في صُلح الحديبية حيث خالف رسول ا لله ﷺ آراء جميع من كانوا معه. أما العنصر الثالث لهذا المنهاج فقد عبّر عنه تعالى بقوله: ﴿**فتوكّل على ا لله**﴾. أي أنّ القرار المتّخذ على الأسس التي ذ يحتمل يظلُّ يحتمل النّقص الموضوعي ويتسبّب بالتالي بنتائج وخيمة، ولايسدّ هذا النّقص إلاّ أن تتّخذ ا لله ربّك وكيلك لتهيئة الأسباب المناسبة والملائمة ولإخراج ارتباط صاحبه

بتعاليم دينه.

فمن كفلتي ترجوها من هذا القرار.

فربّك وَسِعَ كُلّ شيءٍ علماً (الأعراف ٨٩) وهـو الرّحمن (الملـك ٢٩) وهو الهادي (إبراهيم ١٢) وهو العزيز الحكيم (الأنفال ٤٩) و لله مافي السـموات والأرض (النساء ١٣٢) وهو ربّ المشرق والمغرب (المزّمـل ٩)، وهـو ا لله الـذي لاإله إلا هو (التوبة ١٢٩) وا لله هو الحيّ الذي لايموت (الفرقان ٥٨) وهو الذي قال واعداً ووعده الحقّ: **﴿إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾** (الإسراء ٦٥). لذلك فتوكّل على ا لله بعد اتخاذ أيّ قرار صعب وعلى الأسس التي جعلناها لـك شُرعةً ومنهاجاً ديموقراطياً يمتاز عن بقيه مناهج الديمقراطيين. هذا علمـاً بـأنّك إن التزمت بهذا المنهج فأنت من المحبوبين والمقرّبين لدينا، أنت ومـن يتّبـع مسـلكك وهذا المنهاج، ويقيناً إنّ ا لله يحبّ المتوكّلين.

وقد يختلط الأمر على المرء هنا ويتساءل : فلربّمـا سلك أعـداء الاسـلام نفس المنهاج وعناصره إن كانوا من أتباع دينٍ سابقٍ، فهل يُجديهم هـذا المنهـاج إن هم جابهوا محمداً ﷺ وأتباعه؟ وقد أخذ ا لله عزوجلّ بعين اعتبـاره مثـل هـذا التساؤل الذي يمكن أن يخطُر ببالِ أحدٍ من المؤمنـين، وأجـاب عليـه وقـال: **﴿إن ينصركم ا لله فلا غالب لكم، وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصُرُكُمْ من بعده﴾**؟ أي أنّ المنهاج المذكور متعلّق أصلاً بمصالح هذا الدين الإسلامي.

وليس بمصالح الأديان المنسـوخة السّابقة. فـا لله وليّ المسـلمين، والنّصـر يأتي من عنده عزوجلّ فما دمتم ترفعون راية هذا الدّين الحنيف، فإنّ الذي يتّخـذ قرارات صعبة على هذا الطريّق، وفق المنهج المذكور، أنا وليّه وأهيّيء لـه أسـباب النّصر من وراء حجاب. أمّا إذا خالف المسلم هذا المنهج، و لم يُرِدْ مصلحة هـذا الدّيـن، فـا لله جـل شـأنه يخذّلـه، **﴿وإن يخذلكـم فمـن ذا الـذي ينصُرُكـمْ مـن بعده﴾**؟

ولنلاحـظ دقّـة ألفـاظ الآيـة الكريمـة، فـا لله تعـالى اسـتعمل هنـا لفـظ (ينصركـم) وأعـرض عـن لفـظ (يعينكُـم). ذلـك لأنّ اللّغويـين وضّحـوا لنـا في معاجمهم أنّ دلالة لفظ نَصَرَ أخصّ من دلالة لفظ أعان. فالنّصر مُختّـص بالمعونـة ودفع الضُّرِ أيضاً. فهو جلّ شأنه حين قال **﴿إن ينصركـم ا لله﴾** أتـى بعـد ذلـك بفاء الاستئناف وأضاف قوله **﴿فلا غالب لكم﴾** أي أنّ الغلبة ستكون لقراركـم

الصّعب فلا يصيبكم من جرّائه أي ضرّ. ذلك أنّ لفظ (غالب) اسم فاعل من غلبه بمعنى قهره واعتز عليه وامتنع.

بهذا التّبشير، وبهذا الأسلوب البليغ راح تعالى يحثّ المؤمن السالك سبيل عِرفانه ويسعى لجذب محبّة ربّه إليه ويفوز بقربه ورضوانه وينبهه إلى هذه الذريعة السابعة التي نحن بصددها، ومعبّراً عن ذلك بقوله: ﴿**وعلى الله فليتوكّل المؤمنون.**﴾.

وهنا سؤال يطرح نفسه : كيف ستجري الأمور في مملكة الله، بعد اتّخاذ أي قرار صعبٍ من طرف أي مؤمن صادق في إيمانه ومتوكلٍ على ربّه عزوجلّ؟ فالأمور جميعها ستجري في خفاء عن الأعين. فهل أجاب جلّ شأنه على هذا السؤال لتطمئن به أفئدة المؤمنين؟

أقول نعم قد أجاب تعالى على هذا السؤال في الآية الثالثة من سورة الطّلاق، وذلك في معرض نُصحه للزّوج الذي توتّرت علاقاته مع رفيقة حياته وأحسّ منها نشوزاً شديداً.

فقد أوصى الله تعالى هذا الزّوج بإمساكٍ بمعروف أو بتسريحٍ بإحسان، إن كان يؤمن بالله وباليوم الآخر. وأوصاه بتقوى الله حين يتّخذ قراره بشأنها. وليس أن يتّخذ قراره الصّعب عن هوىً أو مصلحةٍ لاتُقرّها تعاليم هذا الدّين الحنيف. وعبّر جلّ شأنه عن نصيحته هذه بقوله: ﴿**ومن يتّق الله يجعل له مخرجاً. ويرزقه من حيث لايحتسب.**﴾ أي أن يتّقي الله ويخشاه في قراره الصّعب، ولايكون مخالفاً لتعاليم ومقاصد هذا الدّين، ويعزم بعد المشورة ويتوكّل على الله ﴿**يجعل له مخرجاً**﴾. والمخرج مصدر واسم مكان ومنفذ البراز من البدن.

والمعنى أن ربّه عزوجل يعده بأنّه سيهيء له في عالم الغيب أسباب إظهار النتائج الصحيحة لقراره المذكور. فيهيّيء له مايُريحه ويوصل إليه رزقاً يفكّ ضائقته. علماً بأن الرّزق لُغةً هو كل مايُنتفع به لذلك استعمل الرزق في سورة يونس للمطر حيث جاء: ﴿**ماأنزل الله من السّماء من رزق فأحيا به الأرض.**﴾ (محيط المحيط). ولنلاحظ أن الله عزوجلّ لم يقل "يرزقه رزقّاً حسناً". فلماذا؟ لأنّ الرزق الحسن هو كلّ مايصل إلى صاحبه بلا كدٍ في طلبه، وماوُجد غير مُرتقبٍ ولامحتسب ولامكتسب، فلم يقل تعالى "رزقاً حسناً"، حضّاً منه جل

شأنه لهذا المؤمن على مثابرة السّعي موقناً أنّ أسباب إنجاح مساعيه سيهيئُها ا لله له من وراء ستار. وقد يرزقه أيضاً رزقاً حسناً فضلا منه تعالى وإحساناً.

فلما انتهى جل شأنه من ذلك كُلّه راح ينبيء المؤمنين السالكين سبيل عرفانه عمّا يجري في مملكة السماء إثر اتّخاذ أي قرار صعب من جانب المتوكلين على ا لله عزوجلّ، وقال: **﴿ومن يتوكّل على ا لله فهو حسبُه، إنّ ا لله بالغ أمره، قد جعل ا لله لكلّ شيء قدراً.﴾**.

أي أنّ المؤمن الذي يتوكّل على ا لله تعالى ويسلّم أمره إليه وفق هذه التّعاليم ويعتمد عليه ويثق بما عند ا لله من خير، وبما لله من علم وقُدُرات. **﴿فهو حسبه﴾** أي أن ا لله تعالى يكفيه عمّن سواه فيما يتّخذه من قرارات صعبة. ها أننا نُنبئه عمّا يجري حينئذٍ في مملكة السّماء، فالذي يجري هو أنّ ربّ هذا المؤمن يتّخذ القرار المناسب لصالحه، ويصدر قراره إلى ملائكته الموكلين على أسباب كلّ شيء في هذا الكون. وقراره تعالى هذا لابدّ أن تظهر نتائجه إلى حيّز التنفيذ والواقع، فالملائكة لايعصون ا لله ماأمرهم ويفعلون مايؤمرون. عبّر عن هذا الأمر بقوله تعالى: **﴿إنّ ا لله بالغ أمره﴾**.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا، هو : هل ستتهيّأ أسباب خفيّة من وراء الغيب لصالح القرار الصّعب ووفقاً لأمر ا لله عزوجل خلافاً للقوانين الطبيعية التي سنّها خالق هذا الكون لتسيير هذا الكون؟ أم أنّ الأسباب الخفيّة هذه ستتهيّأ وفقاً لهذه القوانين الطبيعيّة نفسها دون أن يدري أحد بخفايا مُجريات الأمور؟

وقد أجاب ا لله عزوجلّ على هذا السؤال مُنبّهاً الأذهان إلى أنّ هذه الأسباب الخفية ستتهيّأ وفقاً للقوانين المسنونة، بحيث تزيد هذا المؤمن السالك إيماناً با لله ربه المتوكل عليه، وتزيد الكافر بهذه الحقيقة دهشة وضلالاً، وعبّر عن ذلك بقوله تعالى: **﴿قد جعل ا لله لكلّ شيء قدراً.﴾**. وقدْراً مصدر يعني مبلغ الشيء، وكون الشيء مساوياً لغيره بلا زيادةٍ أو نقصان. يُقال هذا قدْر هذا أي مُماثله ومساوٍ له. والقادر اسم فاعل ويعني الطابخ بالقدر. وعليه فمعنى **﴿قد جعل ا لله لكلّ شيء قدْراً﴾** أي جعل ا لله عزوجلّ لتحقيق كل أمر يُصدره إلى ملائكته ليحقّقوه وينفّذوه مبلغ شيء مساوياً للحاجة المُلّحةِ بلازيادةٍ ولانقصان، وبحيث لايترك هذا الأمر أي أثرٍ خارج مصلحة صاحبه.

ومن خلال ألفاظ هذه الإجابة يتعيّن على المؤمن السالك المتوكّل على ربّه عند اتخاذ القرارات الصّعبة ألاّ ينتظر تقلُّب الأمور لصالح قراره كلمح بالبصر. بل يتعيّن عليه الصّبر وانتظار النتائج المرجوه بيقين لايشوبه شكٌّ ولاريب مهما طال الأمد وتقلّبت الأحوال. بل أن يظل ربّه عند حُسنِ ظنّه، وموقناً أنّ ا لله تعالى سيجعل له مخرجاً. فباليقين في هذه المناسبات، وبأسلوب التفكير الروحي المطلوب، يحصد هذا المؤمن السالك ثمار صبره وتقواه ويقينه وحسن ظنّه بربّه، ويجذب إليه محبة ربه عزوجلّ وينال قربه ورضاه ويزداد بربه عرفاناً على عرفانه.

وليُلاحظ القارىء كيف أن هذه الآيات الكريمة من سورة الطّلاق قد تضمّنت معلومة هامة متعلّقة بمملكة السّماء. فقد نبّهتنا هذه الآيات الكريمة إلى أنّ هذا الكون الماديّ من حولنا، وإن كانت تنظمه نواميس وقوانين طبيعية. إلاّ أنّه لايسير من نفسه، بل أوكل ا لله تعالى إلى ملائكته أمر تسييره وتهيئة مايحدث فيه من أسباب في مختلف المجالات، أو لم يقرأ أحدنا الآية الحادية عشرة من سورة السجدة والتي قال تعالى فيها: ﴿**قُل يتوفّاكم مَلَكُ الموت الذي وُكّلَ بكم، ثم إلى ربّكم تُرجعون.**﴾ فها أنّ لعملية التّوفي مَلَكاً موكل إليه القيام بها.

وهذا الأمر يفسّر عمليّة تهيئة ا لله تعالى للأسباب الخفيّة لتحقيق ماوعد به المؤمنين السالكين. والمُتقين المتوكّلين عليه عزوجلّ. فا لله جل شأنه يُصدر أوامره، وتسارع ملائكته لتهيئة مايحقّق أمره من أسباب تؤثر في مُجريات مايحدث في هذا الكون وبما لايُخالف نواميس الكون وقوانينه.

هذا الأمر حدث في الماضي عند بعثة كل نبّيٍ ورسول. وحدث زمن بعثة محمد النبي الصّادق الأمين الذي خالفه قومه وبكلّ مالديهم من قوّة. وهو النّبي المصطفى الذي خاطبه ربّه يأمره : ﴿**ياأيها النبي إنّا أرسالناك شاهداً ومبشّراً ونذيراً. وداعياً إلى ا لله بإذنه وسراجاً منيراً. وبشّر المؤمنين بأنّ لهم من ا لله فضلاً كبيراً. ولاتُطعِ الكافرين والمنافقين ودع أذاهم، وتوكّل على ا لله، وكفى با لله وكيلاً.**﴾. ومحمد المصطفى (ﷺ) رضخ لأمر ربّه عزوجلّ دعا إلى سبيل ربه بمالديه من أسبابٍ مادية لاتذكر في مقابل ماكان لدى قومه من أسباب، ولم يطع الكافرين ولم يَلِنْ معهم بالرّغم من جميع المُغريات التي حاولوا إغراءه بها. ولم يُحاول أذاهم، بل توكّل على ا لله مالك الملك، واكتفى با لله

وكيلاً. وهاأنّ صفة التوكّل على الله هذه التي اتّصف بها محمد والذين كانوا معه والتي ارتكزت إلى أسباب خفيّة أسفرت عن أسباب هجرته وبيعة أهل المدينة على يديه وتأسيس دولة إسلامية برئاسته وانتهت بذلك إلى فتح مكّة ورفع راية الاسلام على صَارياتها. وإنّ الباحث الذي يدقّق في دقائق كلّ ماجرى وحدث بعد توكّل محمد (ﷺ) على الله ربّه بعد اتخاذه مالديه من أسباب، ستتراءى لعينيه عجائب القدرة الإلهية، وظواهر إعجاز الله تعالى في جميع ماأصدره من أوامر لملائكته وماهيّأه ملائكة الله من أسبابٍ خفيّة من وراء حجاب. وهل لايدهش الباحث عندما يدقّق النظر فيما حدث ليلة الهجرة؟ وهلاّ يدهش لما جرى على مدخل غار ثور حيث كان محمد (ﷺ) بداخله ثاني اثنين إذهما في الغار إذ قال لصاحبه لاتحزن إنّ الله معنا؟ وهل تأمل الباحث فيما جرى لسراقة وهو يطارد هذين الرجلين المتوكلين على ربّهما؟ وهل تابع هذا الباحث ظواهر البهجة التي استقبل بها رجال ونساء المدينة المنورة وهم يهتفون :

طلع البدر علينا	من ثنيّات الوداع
وجب الشكر علينا	مادعا لله داع
أيها المبعوث فينا	جئت بالأمر المطاع

وهل تابع هذا الباحث ماجرى قبل بدء معركة بدر الكبرى وكيف أنّ صبييّن من صبية المدينة انقضّا من بين صفوف المسلمين على أبي جهل قائد جيش المشركين وكيف تحقّق قتله على يديهما؟.

ولم تر البشرية نتائج هذا التوكّل على الله في زمن بعثة محمد المصطفى (ﷺ) فقط. بل هذا ماحدث عند بعثة كل نبي من أنبياء الله ومرسليه. فليشنّف المؤمن السالك درب عرفان ربّه آذانه بسماع الآيات ٨٨/٨٦ من سورة هود على سبيل المثال حيث ورد مايُصوّر ماجرى بين النبي شعيب وقومه: **﴿قالوا ياشعيب أصلواتك تأمرك أن نترك مايعبد آباؤنا، أو أن نفعل في أموالنا مانشاء، إنّك لأنت الحليم الرشيد.﴾** وهذه ألفاظ استهزاء بالنبي شعيب وحاله أنّه كان مُنكباً على عبادة ربّه والدعاء بين يديه، فلم يكن تاجراً ولاثريّاً. فقد استهزؤوا به أن نهاهم عن أن يفعلوا بأموالهم مايشاؤون أي نهاهم عن أكل المال

الحرام وحثّهم على العطف على الفقراء والمساكين والإحسان إليهم، وأن يُعرضوا عن عبادة الأصنام ليعبدوا الله الواحد القهّار. وقد أجاب شعيب: **﴿قال ياقوم أرأيتم إنْ كنت على بيّنةٍ من ربّي ورزقني منه رزقاً حسناً.﴾** أي حبّذا لو رأيتم ماأثمرته عبادتي لله الواحد القهّار، وماأسفر عنه سيري على درب عرفانه عزوجلّ. فقد رزقني ربّي رزقاً حسناً لايقابله أي جهد بذلته على أعتابه عزوجلّ ولايوازيه شيء ممّا تملكونه وتفعلونه.. وأضاف يقول: **﴿وماأريد أن أخالفكم إلى ماأنهاكم عنه، إن أريد إلاّ الإصلاح مااستطعت.﴾** أي لاأقصد ممّا وعظتكم به مخالفتكم ولامناصبتكم العِداء، فكيف أفعل هذا وأنا أحد أفراد عشيرتكم، بل إنّ ماأعظكم به هو لصالحكم فأنا أدعوكم لتتعرّفوا على إلهكم الحقيقي الذي رزقني هذا الرزق الحسن. **﴿إن أريد إلا الإصلاح مااستطعت.﴾** أي أنني رجل مُرسل من ربّي وربكّم لإصلاح مجتمعكم.ولفائدتكم، فإن أنتم لم تستيقنوا بهذه الحقيقة واستهنتم بي وبضعف حالي. فما أنا بتاركٍ ماأمرت به من ربّي **﴿وماتوفيقي إلا با لله، عليه توكّلت وإليه أنيب.﴾**. أي أنّني آخذ بما توفّر بين يديّ من أسباب لأداء رسالة ربّي معتقداً أن التوفيق لايأتي إلا بمشيئة الله ونصرته وتأييده. فعليه توكّلت ليهيّيء لي من عالم الغيب من الأسباب التي تنصرني لأداء رسالتي وإكمال دعوتي **﴿وإليه أنيب﴾** فلاأستعين بسواه في هذا المجال وعلى هذا الصّعيد. بل إليه أنيب أي أرجع إليه مرّة بعد أخرى في جميع مايصادفني من عقبات وأتوب من ذنوبي وأخطائي غير المتعمّدة فلايفتر بذلك لساني وهذا هو معنى الإنابة كما وردت في معجم (محيط المحيط).

إنّ هذين المثالين المؤكّدين أهمية التّوكل على الله تعالى والحاثّين على التزام جانب التفكير الروحاني في سلوك المؤمن السّالك درب عرفان ربّه عزوجل ليؤكّدان أنّ التوكّل على الله تعالى هو في حقيقته ذريعة من ذرائع جذب محبّة الله تعالى والفوز بقربه ورضوانه. فالله جل شأنه صدق حينما قال: **﴿ومن يتوكّل على الله فهو حسبه، إنّ الله بالغ أمره قد جعل لكل شيء قدراً.﴾**. وصدق تعالى حين وعظنا أيضاً قائلاً: **﴿وعلى الله فليتوكّل المؤمنون.﴾**. فليتوكّل المؤمنون على ربّهم بعد أخذهم بمالديهم من الأسباب طامعين بالتّعويض عمّا لايملكونه بما يهيئه الله جل شأنه من عالم غيبه من أسباب. وموقنين أنّ ربّهم وسع كل شيءٍ علماً، وهو الرحمن، والهادي والعزيز الحكيم وله مافي السموات

ومافي الأرض وهو رب المشرق والمغرب، لاإله إلا هو، وليس بضّارٌ المؤمنين أحدٌ إلاّ بإذنه، وعنده الخير، وهو الحيّ الذي لايموت، خصوصاً وأنه تعالى وعد المؤمنين الصادقين بقوله: **﴿إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾**.

ونتناول موضوع التوكّل على الله تعالى من زاوية علميةٍ تاريخيّة. فالمعلوم أنّ بإمكان الإنسان المفكّر تقسيم مايجري في هذا الكون إلى قسمين : القسم الأوّل ينحصر في وجود هذه السّماء ومحتوياتها من الكواكب والنجوم والسيارات ومالها من تأثيرات على الأرض وعلى مافيها بشكل عام، كذلك النظام الشمسي وماله على الأرض من تأثيرات بشكل خاص وعلى مايوجد على الأرض من مخلوقات ونباتات.

والقسم الثاني هو هذه المخلوقات نفسها والنباتات من حولها، وقد تبيّن للعلماء أنّ هذا الكون يسير وفق نواميس وقوانين طبيعية مسنونة بغضّ النّظر عمّن خلق هذا الكون وعمّن سنّ قوانينه.

فإذا نظر هذا الإنسان المفكّر من زاوية نظر أخرى إلى هذا الكون، وإلى الإنسان خاصّة. اتّضح لعينيه قسمان أيضاً. القسم الأول هذا الإنسان نفسه الذي تتصارع وجوده أسباب ومُسببّات.

والقسم الثاني كيان هذا الإنسان الباطن الذي يتصارعه عاملان : افعلْ أو لاتفعل. وهذان العاملان يؤثّران أيضاً في السلوك اليوميّ لهذا الإنسان.

هذان التّقسيمان إن صحّا فقد اتّضح للإنسان المفكّر أن الأسباب والمسبّبات هي محور مايدور في هذا الكون الذي تُنظّم حركته قوانين طبيعية مسنونة. وبالتالي بإمكان هذا المفكر أن يخرج بالنتيجة التالية وهو أنّ الذات التي تستطيع الهيمنة على هذه الأسباب والمسبّبات خارج كيان الإنسان وداخله، فلابد أن تكون لهذه الذّات القادرة المهيمنة على الإنسان وعلى كل مافي هذا الكون من مخلوقات ونباتات وجماد، ويكون بالتالي بيده مقاليد كل شيء يقيناً.

وبنظرة متفحّصة خاطفة لتاريخ البشر يتبيّن وجود نوعين من المفكرين : الأول كان يفكّر تفكيراً مادياً محضاً من منطلق أنّ هذا الكون يجري من نفسه وفقاً لقوانين طبيعية مسنونة. ونوع آخر كان يفكر تفكيراً روحانياً من منطلق أن لهذا الكون خالقاً سنّ لتسييره هذه القوانين.

والذي دفع هذا القسم المفكر الروحاني إلى هذا الأسلوب من التفكير هم سلسلة الرسل والأنبياء الذين بعثهم الله الخالق نفسه لإصلاح الناس وصبغهم بهذه الصّبغة من التفكير.

فإذا اجتمع مُفكّران معاً. الأول صاحب تفكير مادي والثاني صاحب تفكير روحي. وطلبنا إليهما تحليل ظاهرة حدثت أثناء هجرة محمد رسول الله (ﷺ) من مكة إلى المدينة حيث لجأ محمد وصاحبه إلى غار ثور، واختبأ فيه، فالمعلوم هو أنّ قريشاً أعلنت حينذاك عن جائزة كبرى للذين يدلّهم على مكان محمد وصاحبه. وقد سارع أمهر قفّائي الآثار يومئذٍ يقتفي آثار أقدام هذين المهاجرين الهاربين محمد وصاحبه أبو بكر الصديق. حتى ووصل القفّاء بالمطاردين من قريش إلى باب غار ثور المذكور، وقال لهم مقولته الشهيرة: "إمّا أن يكون محمد بداخل هذا الغار، وإمّا أن يكون قد صعد إلى السماء".

وضحك لجُملته هذه جميع من كان معه من قريشٍ بل وسخروا من قوله. ولم يكلّف أحدٌ منهم عَناء النّظر إلى داخل الغار يتفحّصه.

فالسؤال الذي نوجهه إلى هذين المفكّرين صاحب التفكير المادي وصاحب التفكير الروحي تجاه هذه الظاهرة هو: لماذا ضلّت وزاغت عقول الذّين سمعوا مقولة هذا القفّاء؟ ولماذا لم يكلّف أي واحدٍ منهم عَناء النظر إلى داخل الغار؟ ولماذا تبسمرت عقول هؤلاء باتّجاه واحد وهو تكذيب هذا القفّاء؟

ثم من المعلوم أنّ أبا بكر كاد يفقد صوابه حين شاهد أقدام هؤلاء تتحرك خارج غار ثور وهو ومحبوبه محمد رسول الله إلى جانبه ـ فلم يكن من خاتم النبيّين (ﷺ) المتوكّل على ربّه وعلى حمايته تعالى لهما إلاّ أن قال لصاحبه : لاتحزن إنّ الله معنا. وجملته هذه تعني أنّ الله تعالى هو مسبب الأسباب وهو إلى جانب الدفاع عنّا وحمايتنا لأننا مُتوكلّين عليه. فقد أخذنا بما لدينا من الأسباب المتوفرة لدفع شرّ هؤلاء الأعداء، وبقي أن يهيّىء الله جل شأنه بقيّة أسباب نجاتنا حسب وعده للمتوكّلين من المؤمنين.

فماذا حدث بعد ذلك؟ هل أفاد القفّاء ومهارته وجملته الشهيرة أعداء محمد الشّرسين؟

سيجيب على هذا السؤال الذي يفكّر بأسلوبٍ مادّي فيقول: إنّها مجـرّد صدفةٍ حدثت، وسيجيب على هذا السؤال الذي يفكّر بأسلوب روحاني ويقول: أزاغ قلوب هؤلاء ربّ محمد مسبّب الأسباب والملهم من وراء ستار.

وقد ورد جواب الأول على اعتبار أنّـه لايؤمـن بمبـدأ التوكّـل علـى الله عزوجلّ.

وقد ورد جواب الثاني علـى اعتبـار أنـه يؤمـن بمبـدأ التوكّـل علـى الله عزوجلّ.

وأقول : يابُشرى هذا المؤمن الذي يفكّر بأسلوب روحـاني، ويـأخذ في سلوكه اليوميّ بذريعة التوكّل على الله عزوجلّ. لأنّ هذا المؤمـن السـالك درب عرفان ربّه سيفوز بمحبّة ربّه ويكون من الناجين المفلحين، في الحيـاة الدنيـا ويـوم يقوم النّاس لربّ العالمين.

٩ـ الاتّصاف بتقوى الله تعالى:

وبمناسبة دخول شهر رمضان المبارك، ولاأزال أحاضر في بـاب العرفـان الإلهي، هذا الشهر المبارك الذي فرضه الله عزوجـلّ علـى المؤمنـين بـه السـالكين سبيل عرفانه ففرض أن ينقطعوا في نهارهم عن تناول الطعام والشراب إلى جانب الوفاء بما عاهدوا الله عليه،ففي الآيـة (١٨٤) مـن سـورة البقـرة قـال : ﴿**ياأيّها الذين آمنوا كُتب عليكم الصّيام كمـا كُتـب على الذيـن من قبلكـم لعلّكـم تتّقون.**﴾ وموضّحاً الحكمة من فرض صوم شهر رمضان مـن خـلال مـاأنهى بـه الآية ﴿**لعلّكم تتّقون**﴾. ولابدّ أن يكون كـل مؤمـن قـد قـرأ هـذه الآيـة الكريمـة وتساءل في نفسه عن معنى ودلالة ﴿**لعلّكم تتّقون**﴾. أي تساءل عن دلالة "لعلّ" وحكمة ايرادها. وتساءل عن معنـى تتّقـون، وكلمـة التّقـوى الـتي وردت ضمـن خمس عشرة آية من آيات كتاب الله العزيز؟

فقد وضّح اللّغويون أن (لعلّ) مَثَلُها مثل إنّ تنصب الاسم وترفع الخبر. وذهب الفرّاء وأصحابه إلى أنّ لعلّ هذه تنصب الاسم والخبر في آن واحـد، كمـا بيّنـوا أنّ الظـرف (لعـلّ) يسـتعمل بعـدّة دلالات : توقّـع شـيء كمـا في الآيـة المذكورة، وتعليل شيء وللاستفهام، وعليـه فـإنّ معنـى ﴿**لعلّكـم تتقـون**﴾ أي توقّعوا من صيامكم شهر رمضان إذا صمتموه بشروطه أن تُصبحـوا مـن المتّقـين.

وتفوزوا بمحبّة ربّكم لقوله في الآية (٧٦) من سورة آل عمران: ﴿**بلى من أوْفى بعهده واتّقى، فإنّ الله يحبّ المُتّقين.**﴾.

بقي علينا أن نطّلع على دلالات كلمة (تتّقون). فهي من اتّقى الله أي حذره وخافه وأصل الكلمة من وقى بمعنى صان وحفظ، وعلى ضوء معنى (تتّقون) يصبح معنى ﴿**لعلكم تتقون**﴾ : أي توقّعوا أن تتّصفوا بحذر الله ومخافته، وأن تتدرّعوا بحفظ الله ورعايته، وتُصبحوا بذلك محبوبين عند الله ربكم ﴿**فإنّ الله يحبّ المُتقيّن.**﴾.

من هذا كان لابدّ أن يُدرك المؤمن دلالة صفة (التقوى) وهي أن يحذر المتّقي الله ويخشاه ويتدرّع به ليحفظه ويصونه.

ومن هذا ندرك أيضاً أنّ (التّقوى) صفة لابدّ للمؤمن أن يتّصف بها في سلوكه اليومي، لاستنادها إلى أحد قوانين علم النّفس. فنحن نُلاحظ أنّ الشّخص الذي اعتاد العمل لصالح إنسان محترم، يشعر أن محبّة هذا المُحترم تتسرّب على مرّ الأيّام إلى فؤاده شيئاً فشيئاً، يحبُّه ويصبح من محبوبيه. ثم إن رابطة المحبّة هذه يُكتب لها الدوام أيضاً.

فالتّقوى أن يقرن المؤمن طاعته بحذره وخشيته من ربّه فيصوم ويفعل الخيرات ويجتنب السّيئات، ونيّته كسب محبة ربّه والحذر من غضبه. أي أنّ الذي يصوم ويفعل الخير ليشتهر بين النّاس أنّه رجل صالح وفعّال للخير، يفقد حكمة الصّوم ولايصبح تقيّاً. ذلك أنّ تقوى الله تعالى تدور حول محور أساسي وهو احتساب الله تعالى وخشيته، أملاً في جذب محبّته وأملاً في تلقّي عطائه الرّوحي.

والآن ليعد هذا المؤمن إلى سورة الفاتحة التي علّمه ربّه من خلالها دُعاء ﴿**اهدنا الصراط المستقيم**﴾ ثم ليتلو الآيات الأوائل من سورة البقرة، فقد نبّهت هذه الآيات إلى أنّ الله تعالى أنزل كتابه العزيز أصلاً ﴿**هُدىً للمتقّين**﴾ استجابة منه تعالى لدعاء ﴿**اهدنا الصراط المستقيم**﴾. وقد اشترط الله تعالى أوّل مااشترط على هؤلاء المتّقين الذين يحذرونه ويخشونه أن يؤمنوا بالغيب ﴿**الذين يؤمنون بالغيب**﴾ أي يؤمنوا بوجود ربّهم الغائب عن أبصارهم، فيحذرون الله الذي لاتدركه أبصارهم وهو يدرك هذه الأبصار، ويتّصفون بتقوى الله ويكونون من المتقّين الذين يحذرون ربّهم بالغيب ويخشونه في كلّ مايفعلونه. فإن أصبحوا من المتّقين، تعود تعاليم هذا الكتاب العظيم المنزل هُدىً لهم تجذب محبة

ا لله نحوهم ويصبحوا بالتالي من محبوبيه ويتشرفوا بعطاء هذا المحبوب. فهذه هي الرابطة الموضوعية مابين دُعاء ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ ومابين قوله تعالى ﴿هدى للمتقين﴾. فالصراط المستقيم المطلوب هو الدّال على طاعة ا لله وعلى الصّفة التي ينبغي أن تلازم هذه الطاعة وهي صفة التقوى. لذلك ورد في معجم المقاييس قوله عن الصّراط أنّه اشتق من سَرَطَ ويدلّ على غيبةٍ في مر وذهاب.

تقول : سَرَطْتَ الطعام إذا بلعته، والسّراط أو الصراط مشتق من ذلك فهو الطريق الذي يغيب فيه المؤمن السّالك وهو يحذر ا لله ويخشاه ويطلب محبّته. فهذا هو الفرق في المعنى مابين الصراط والطّريق، فا لله تعالى علمنا دُعاء ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ و لم يعلّمنا دعاء (اهدنا الطريق المستقيم).

من هذا ندرك أنّ دعاء ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ لم يكن الهدف منه طلب الهداية إلى الإيمان، فالمؤمن لابدّ أن يكون مؤمناً با لله قبل أن يتوجّه للدّعاء بهذا الدّعاء. بل إن الهداية التي يطلبها هنا هي طلب عرفان ربّه والفوز بقربه ومحبته ورضاه. فهذه هي الحقيقة التي تضّمنها لفظ ﴿هُدىً﴾ ولفظ الدعاء ﴿اهدنا﴾. وهذه الحقيقة هي من الأهمية بمكان. فالمؤمن الذي لايُدرك هذه الحقيقة التي تضّمنها لفظ (هدى)، يعود حين يعمل على أوامر شريعة ا لله كالذي كُبِّل بالأصفاد، وأُثقِل كاهله بالأثقال، فلايعود يرى معنى لأوامر ا لله وأحكامه. ويفقد بالتالي روح التّقوى المطلوب توفّرها فيما يفعله ويُقدم عليه. كما يفقد المقصد الحقيقي من إنزال مختلف الأديان السماوية.

لذلك لابّد من فهم دلاله لفظ (هدىً) الوارد في ﴿هدى للمتقين﴾. إنّ لفظ هدى اشتق من هداه أي أرشده وأقامه على طريق الحقّ مع تصلّبٍ فيه. فالهداية تعني الدلالة على مايوصل هذا الإنسان إلى مطلوبه. فالهُدى يعني بيان ما يوصل المرء إلى بُغيته ومطلوبه، ويستعمل ضدّ الضّلال (محيط المحيط). وعليه فإنّ قوله تعالى الذي يصف كتابه المنزل ﴿هدى للمتقين﴾ يعني أنّ تعاليم هذا الكتاب العزيز ترشد المؤمن با لله تعالى الذي أنزله إلى مايوصله إلى مطلوبه وهو سعيه الدّائب للتعرّف إلى ربّه الذي هداه إلى هذا الإيمان وللفوز بجنّته. أي أنّ مايُطالب هذا الكتاب به المؤمن من صوم وصلاة وغيرها من المطالبات وفعل الخيرات، يطالبه بها لتكون وسيلة هذا المتّقي ليضع أقدامه على الطريق الموصل إلى الحق وليحقق النتيجة التي ذكرناها، وهي التعرّف على خالقه والفوز بمحبته

وجنّته، مع تصلُّبٍ في الثبات على طريق الحق المذكور. بحيث لايعود هـذا المؤمـن بعدها يخاف الشيّطان وهمزاته ولا يتهيّب العقبات التي يضعها هذا الشيطان على طريق عرفانه.

وعليه فإنّ لفظـي ﴿**هـدى للمتقـين**﴾ أشـارا إلى مـاانطوت عليـه فطـرة المؤمن السالك سبيل عِرفان ربّه من جنوحٍ شديدٍ للقاء الله والتعرّف عليه والفـوز بمحبّته ورضوانه. هذا الشّوق الشديد الذي تضمّنه دأب هذا المؤمن السالك علـى الدعاء في كل ركعة من ركعات صلواته وأذكـاره ﴿**اهدنـا الصـراط المسـتقيم. صراط الذين أنعمت عليهم. غير المغضوب عليهم ولا الضّالين. آمين.**﴾.

وكأن لفظي ﴿**هدى للمتقين**﴾ فيه إشعار لهذا المؤمـن السّالك بـالفرق الكائن مابين تعاليم الفلاسـفة وتعـاليم هـذا الكتـاب العظيـم. وكأنـه جـلّ شـأنه يخـاطب هـذا المؤمـن السـالك ويقـول لـه: دع عنـك أقـوال الفلاسـفة، وكُتبهـم وفلسفاتهم، لأنّها لاتدلّـك علـى الصـراط المسـتقيم الـذي يعرفـك علـى خـالقك ولايروي ظمأ نفسك التّواق إلى الاهتداء إلى هـذا الحـقّ القـائم بذاتـه. فـأنت إذا طالعت مايكتبه الفلاسفة في كل عصـر، فـلا تجـني مـن قراءاتـك هـذه إلاّ الرّفـاه العقلي ليس إلاّ. هذا الرّفاه العقلي الذي إن أفاد في تبيان الضّار مـن الأشـياء مـن نافعها، فلايحمل فائدة تزيد على ذلك، ولايملـك جاذبيـةً أكـثر مـن جاذبيـة هـذه الفوائد، ويظلّ توقان الفطرة البشرية إلى معرفة خالقهـا في فـوران شـديدٍ وظمـئٍ لايرويه إلاّ تعاليم هذا القرآن المجيد فهذا مانبّهت إليه كلمتا ﴿**هدى للمتقين**﴾.

وعليه فإن أدرك هذا المؤمن السالك هذه الميّزة المشـار إليهـا مـن خـلال قولـه تعـالى ﴿**آلم. ذلـك الكتـاب لاريـب فيـه هـدى للمتقّـين. الذيـن يؤمنـون بالغيب..**﴾ إن أدرك ذلك، انساق إلى فعل الخير وانتهى عن فعل الشّر، باندفـاعٍ ذاتي من داخله. يحدوه الأمل بالفوز بمحبة ربّه عزوجلّ والتّعرف عليه بأقدامٍ ثابتةٍ لاتهزُّها همزات الشياطين.

ألا إنّ الذي يتلو الآيات الأوائل من سورة البقرة، التي تنتهي عنـد قولـه تعالى : ﴿**هدى للمتقين**﴾ تهتزّ مشاعره الفطرية طرباً أن عثر على الكتاب الـذي تهديه تعاليمه الصراط المستقيم الذي سار عليه جميع من قبله من المُنعم عليهم مـن النبيين والصديقين والشهداء والصالحين. ويندفع ذاتياً يحذر ربّه ويخشاه عنـد كـل خطوة يخطوها أملاً في أن يلبس لباس التقوى، ويتقبله ربّه في عداد المتقين.

ولايغربنّ عن هن قارىء القرآن الكريم ومتدبّر آياته أنّ هذه الهداية القرآنية الموصوفة بقوله تعالى: ﴿**هدى للمتقين**﴾ لاتشمل إلاّ المؤمنين بعد إيمانهم. بل وتختصّ بالأخذ بأيدي المؤمنين السالكين درب عِرفان ربهم من بين سواهم من النّاس. وإلاّ فإنّ هداية الله ترافق تجليات ربوبيّته عزوجلّ، هذا ماأفادتنا به آيات هذا الكتاب المبين.

أولاً ـ لايلد مخلوق إلاّ وتتلّقاه هداية الله خالقه من أوّل لحظة يعرف فيها نور هذه الحياة الدّنيا. وهذه حقيقة أشار إليها قول الله عزوجلّ في سورة طه حيث قال فيها: ﴿**ربُّنا الذي أعطى كُلّ شيءٍ خلْقَه ثم هدى.**﴾. فالنطفة تنمو في رَحِمِ الإمرأة وتمرّ من ظلماتٍ ويرى نور الحياة. فماذا يحدث لهذا الجنين بعد ولادته؟ الجنين قد جهّزه الخالق بجهاز تنفّسي كامل القدرة على التّنفس، ولايحتاج إلاّ إلى الهواء لتشغيله ـ وقد أوجد الله الخالق هذا الهواء وهدى هذا الجهاز ليعمل فيستنشق هذا الهواء ويؤدي بالتالي ظيفته الطبيعيّة، فلولا الهواء لبطلت الحكمة من وجود جهاز التّنفس، ولكان هذا المولود أضحى في خبر كان وكأنه لم ينمو ولم يولد ولم يعرف نور الحياة، فهذه هي خطوة الهداية الربانية الأولى لهذا المخلوق، والتي عبّر جلّ شأنه عنها بقوله في سورة طه: ﴿**ربُّنا الذي أعطى كل شيءٍ خلْقه ثم هدىْ.**﴾ مستعملاً صفة الربوبية وتجلّيها في هذه المرحلة الأولى من نزول كلّ مخلوق إلى نور الحياة الدنيا.

ثانياً – ومرحلة الهداية الثانية التي تتجلى بها ربوبية الله رب العالمين، أشار إليها قول ربّنا عزوجلّ في سورة السجدة: ﴿**وجعلنا منهم أئمّة يهدون بأمرنا.**﴾ أي أن الله عزوجلّ لم يدع مخلوقه هذا تتصارعه مؤثرات وأفكار تبعده عن خالقه. بل أرسل أنبياءه ورسله تترى ففي كل أمّة جعلنا أئمةً للنّاس يهدونهم بأمر الله كما فعلنا مع نبي اسرائيل. وقد ترك الله جل شأنه لهذا الإنسان الراشد العاقل حريّة أن يستجيب لصوت وهداية رسله وأنبيائه تحت طائلة العقاب الشديد لمن لايستعمل عقله استعمالاً صحيحاً، ويضلّ عن سبيل ربّه الذي خلقه وهداه في هاتين المرحلتين المذكورتين.

ثالثاً ـ ثمّ إنّ الذي يستجيب لصوت يحتاج إلى هدايتين : إلى هدايةٍ فكريّةٍ وإلى هداية عملية. ويزيد الله هذا المؤمن الذي اهتدى إلى صوت خالقه هدى على هداه، فينير عقله ويقوّم فكره ويوفقّه على الصعيد العملي. فإلى هذه

الهداية الثالثة التي تتجلّى بها ربوبية الله الخالق جاء النصّ عليها في سورة محمّد حيث قال تعالى: ﴿**الذين اهتدوا زادهم هدى**﴾. أي سما الله تعالى بأفكارهم ووفقهم للعمل الصالح بعد أن ربطوا أنفسهم بربّهم برابطة الإيمان والبيعة لهذا الرسول.

رابعاً ـ ولاتقف هداية الله لهذا المخلوق عند هذا الحدّ من مراحل الهدايات الثلاث الآنفي الذكر. بل إنّه جلّ شأنه نبّه في نفس سورة محمد إلى شكل رابع من هدايته التي يتجلّى بها على هذا المخلوق، وذلك من خلال قوله عزوجلّ :﴿**سيهديهم ويُصلح بالهم**﴾. فما معنى هذه الكلمات؟ البال في اللغة يعني حال المرء وشأنه وخاطره وقلبه. تقول مايخطر فلانٌ ببالي أي مايخطر بخاطري وقلبي. ثم إنّ فعل يُصلح بالهم يعني يزيل عنه الفساد ويقيمه (محيط المحيط). ويصبح بالتالي معنى ﴿**سيهديهم ويُصلح بالهم**﴾ أنّ هذا الكتاب القرآن سيهدي هؤلاء المؤمنين السالكين الصراط المستقيم إلى مايزيد كل فساد في خواطرهم وأفئدتهم وأحوالهم وشؤونهم الحياتية. إلى وقت يتملّك الاطمئنان افئدتهم ويهدأ بالهم على درب عرفان ربّهم والفوز بمحبته وقربه ورضوانه. أي تصبح سمة التقوى سيماهم في جميع أحوالهم.

وبناء على ماسلف ذكره، فإنّ آية: ﴿**ياأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيّام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقّون.**﴾ تكون قد نبّهت أذهان المؤمنين الصائمين إلى ضرورة تفّهم دلالة التقوى وحقيقتها كذريعةٍ ثامنةٍ لجذب محبة ربّهم إليهم. فلم يقل تعالى في هذه الآية أنّه كتب على المؤمنين الصيّام من باب التقوى، بل قال ﴿**لعلّكم تتقّون**﴾ أي توقّعوا إن أمسكتم عن تناول الطعام والشراب حذراً وخشية من غضب الله عليكم أن يعود عليكم هذا الحذر وهذه الخشية بثمرة لباس التقوى الذي يجذب محبة بارئكم إليكم، فالله يحب المُتّقين.

ولنلاحظ أنّ الله عزوجلّ أتى بكاف التّشبيه وقال ﴿**كما كتب على الذين من قبلكم.**﴾ إظهاراً عن طريق هذه الكاف مدى أهمية الصيام في نظر الله الذي أنزل هذا الدين وفرض فيه صيام شهر رمضان. فهو تعالى نبّه إلى أنّه لم يُنزل في السابق أي دينٍ من الأديان إلا وفرض فيه الصّوم على المؤمنين. هذا

بغض النّظر عن أنواع الطعام والشراب التي أمر الله تعالى بالإمساك عنها مرحلياً وتبعاً للضرورات الموضوعية.

علماً بأنّ الإباحة هي الأصل في الأحكام الشرعيّة على حين أنّ الإمساك والحرمان هو الأصل في الصيام في كل دين من الأديان السماوية. فالذي يصوم ترى أعينه لذائذ الأطعمة وأنواع الشراب، وتصل إلى أنفه مختلف الروائح التي تفوح من هذه الأطعمة، ومع ذلك يمسك عن تناولها حذراً وخشية من غضب ربّه عليه إن هو خالف مافرضه عليه من هذا الصيّام. فإذا ثابر هذا الصائم على هذه الحال شهراً كاملاً، يكتب عند ربّه تقيّاً، وتتحقّق الحكمة من الصيام التي توقعها الصائم منه، ويفوز بمحبة ربّه وعطائه الرّوحي على اعتبار أنه تعالى قال: **﴿بلى من أوفى بعهده وأتّقى، فإنّ الله يحبّ المُتقّين.﴾**.

و لم يقتصر الإيتاء بكاف التشبيه في آية الصيّام على الحكمة التي ذكرناها وحسب. بل أتى جلّ شأنه بها مظهراً من مظاهر رأفته ورحمته بالمؤمنين السالكين درب عرفانه. أفلا يُلاحظ المرء كيف أنّ من يموت له عزيز أو يُصاب بمُصاب، يلتفّ أصدقاؤه وأحباؤه من حوله يخففون عنه وقع مُصابه قائلين : هذه هي سنة هذا الكون فهذه الأمور تمرّ على رأس كلّ مخلوق؟ وقد أتى جلّ شأنه بكاف التشبيه هنا على هذا النّسق من التّعاطف مع الصائمين الممسكين عن تناول الطعام والشراب قائلاً **﴿كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقّون.﴾**.

وزبدة الكلام هو أنّ لفظ التقوى وأن اشتُق من اتّقى، فأصله من وقى بمعنى صان وحفظ من غضب الله تعالى، ولفظ وقى هذا قلب العرب واوه تاءً وأدغموها من كثرة الاستعمال، وجعلوه اتّقى، وجعلوا الاسم منه التقوى. فلمّا لم يجدوا للفظ التّقوى مثالاً في لسانهم، راحوا يقولون تقى وفعل الأمر منه قوا. وقد سلك القرآن الكريم مسلكهم وأقرّهم عليه. فقد ورد في سورة التحريم (٦): **﴿ياأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها النّاس والحجارة، عليها ملائكة غلاظ شداد لايعصون الله ماأمرهم ويفعلون مايؤمرون.﴾**.

المهمّ أن كلمة التقوى تعني الحذر من غضب الله والخشية من مخالفة أوامره عزوجلّ. والمؤمن السالك درب عرفان ربه أولى الناس أن يكون تقيّاً.

ذلك أن أوامر ا لله ومنهيّاته تدور فوائدها لصالح هـذا المؤمـن السـالك وفي إطـار مصلحته.

ألا إنّ ا لله تعال لايُطالب أصلاً إلاّ بهذه التّقوى من هـذا العبـد المطيـع. فهذا ماأشار ا لله تعالى إليه حين قال: ﴿**بلـى مـن أوفـى بعهـده واتّقـى فـإنّ ا لله يحب المتقين.**﴾.

فهو جلّ شأنه أتى في هذه الآية بفاء الاستئناف تنبيهاً لذهن هذا المؤمـن الصائم القائم بفروض دينه، والمنتهى عن منهيّاته، وهو حـذر مـن مخالفـة أحكـام ربه ويخشى مخالفة أوامره، أنه يُكتب بذلك عند ربّه تقياً وا لله يحـبّ المتقـين. أي أنّه يفوز من جرّاء حذوره وخشيته بمحبة ربّه وقربه ورضاه.

وهذه حقيقة نبّة ا لله تعالى أذهان المؤمنين السالكين إليها من خلال قوله في الآية (٣٧) من سورة الحج: ﴿**لن ينال ا لله لحومها ولادماؤهـا، ولكـن ينالُـه التّقـوى منكـم، كذلـك سـخّرها لكـم لتكـبّروا ا لله علـى مـاهداكم وبشّـر المحسنين.**﴾.

فتقوى ا لله في كل شيء نُقْدم عليه أو نتجنّبـه، هـو الـزاد المطلـوب مـن هذا المؤمن السالك أن يتزوّد به في هذه الحياة الدنيا. فهذا الحـذر وهـذه الخشية، تُساعد على تسرُّب محبّة ربه عزوجل إلى فؤاده شـيئاً فشيئاً، ويعـود محبّاً حقيقيـاً لربّه ويجذب بالتـالي محبّـة ربـه إليـه ويصبـح مـن محبوبيـه. لهـذا ورد أمـر ا لله إلى المؤمنين السالكين في الآية (١٩٧) من سورة البقـرة: ﴿**الحـجّ أشـهر معلومـات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولافُسوق ولاجدال في الحـج، ومـاتفعلوا مـن خيرٍ يعلَمْه ا لله، وتزودّوا فإنّ خير الزّاد التقوى، واتّقون ياأولي الألباب.**﴾ أي أنّ مَن أراد الحج في أشهر الحـج فليـؤده بكـل حـذر وخشيةٍ مـن ربـه في الحـجّ، فلاينبغي له خلال أيام الحج ملامسة زوجته ولاارتكاب أي معصية كانت، ومـن واجبه تجنب الخصومة في الحج. وأن يُقْدِم خـلال الحـج علـى فعـل الخـير متزوّداً خلال ذلك كلّه بزاد التّقوى أي بزاد الحذر والخشية مـن إغضـاب ربّـه عزوجـلّ فإن خير الزاد التقوى لمن كان سالكاً من المؤمنين درب عرفان ربّه وطالبـاً الفـوز بمحبّته. لذلك أنهى تعالى هذه الآية بقوله حاثّاً على التّزود بزاد التقـوى أي حاثّـاً الحذر من غضب ا لله وخشيته، والسّعي للفوز بمحبة ا لله وقربه ورضوانه.

وهذا الأمر الإلهي يفسّر قول ربنا عزوجلّ في الآية (٢٦) من سورة الأعراف :

﴿يابني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يُواري سوآتكم وريشاً، ولباس التقوى، ذلك خيرٌ، ذلك من آيات ا لله لعلّهم يذكّرون.﴾. ولايقصد بالإنزال هنا، النّزول من أعلى إلى أسفل، بل أريد به ماأريد من قوله تعالى **﴿وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد﴾** أي تبيان أهميّته.

فهو تعالى استعار لفظ أنزلنا تنبيهاً لأذهاننا إلى أنّ ماتنبته الأرض حدث بتخطيطٍ سابق من ربّكم، و لم ينبت نباتٌ من نفسه وقد أنبتنا ماأنبتناه ليساعد على دوام حياتكم. فهذا النّبات هو بمثابة لباسٍ يُواري سواءتكم. إلى جانب ماتتلّقونه عن طريق مرسلينا من مواعظ وتعاليم، فالسّوأة في اللّغة هي العورة والفاحشة والخلّة القبيحة. أي أن هذا الغذاء المادي وهذا الغذاء الروحي يستر نقائصكم ويصونكم عن فعل الفواحش وعن مصاحبة الخلّة القبيحة. وإن اجتماع هذين الغذائيين هو بمثابة الريش الذي تتزيّن به الطيور وتحلّق بواسطته في أجواز الفضاء. فإن تدثّرتم بلباس التقوى عند الأخذ بهذين النوعين من الأغذية **﴿ذلك خير﴾** وقد استبدل هذا هنا باسم الإشارة ذلك تعظيماً للباس التّقوى ورفعاً لمكانته في نظر ا لله عزوجلّ. وأضاف قائلاً: **﴿ذلك من آيات ا لله لعلّهم يذّكرون.﴾** أي أن هذين الغذائين ولباس التقوى تشكّل مجتمعةً دلائل وجود ا لله الخالق وتؤكّد على النتائج المتوقعة من الصيّام وغيره. **﴿لعلّهم يذكرون﴾** أي ليتوقّع هؤلاء المؤمنون السالكون درب عرفان ربّهم ظهور النتائج المتوخّاة من أكل الطيبات وعمل الصالحات والحذر من غضب ا لله وخشيته في كل أمر. فهذه التقوى إن اتّصفوا بها تصبح إحدى ذرائعهم التي وفّرتها لهم ربّهم لجذب محبته وقربه والفوز برضوانه وجنته. اللهم اجعلنا كذلك ياسميع الدّعاء، اللهم آمين.

١٠. محاولة التخلّق بالخُلق المحمدي العظيم

سبق لي أن ذكرت أنّ الإباحة هي الأصل في الأحكام الشرعية، على حين أنّ الحرمان والإمساك هو الأصل في شعيرة صوم شهر رمضان المبارك. فشهر رمضان هو شهر الإمساك عن مختلف أنواع الطعام والشّراب منذ الفجر

وحتى أذان المغرب. ومن هنا تأتت أهميّة الصيام وعظمة أجره. لذلك أنهى ا لله جلّ شأنه الآية التي فرض بها الصيّام بقوله ﴿**لعلكم تتّقون**﴾.

والذي يتدبّر الآية (٢٢٢) من سورة البقرة، والتي ورد فيها قوله تعالى: ﴿**ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض، ولاتقربوهنّ حتى يطهرن، فإذا تطّهرن فأتوهن من حيث أمركم ا لله، إنّ ا لله يحبّ التّوابين ويحب المتطّهرين.**﴾ فالذي يتدبّر هذه الآية الكريمة يلاحظ اشتمالها على الحرمان والإمساك المنصوص عنه فيها، إنّما من نوعٍ يغاير مااشتملت عليه فريضة الصّوم من نوع إمساكٍ وحرمان.

فالمعلوم من كتاب ا لله القرآن أنّ الإباحة هي الأصل في موضوع مباشرة الزوجين لعلاقتهما الزوجيّة، على حين ورد الحرمان والإمساك عن هذه العلاقة الجنسية أثناء مدّة الحيض.

ثم إنّ ا لله تعالى لم يُنه هذه الآية بقوله ﴿**لعلكم تتّقون**﴾ على شاكلة مافعله في آخر آية الصّوم. بل أنهاها بقوله تعالى: ﴿**إنّ ا لله يحبّ التّوابين ويحبّ المتطهريّن.**﴾ إشارةً إلى حكمة هذا النّوع من الإمساك المطلوب والمتعلّق بألفاظ ﴿**قل هو أذى**﴾ هذه الألفاظ التي نبّهت إلى حقائق علمية كشف عنها الطبّ بما يتعلق بأخطار مباشرة النساء أيّام محيضها. وهذا الأذى المحتمل سيكون ظاهراً وباطناً أيضاً.

إنّ الإمساك المطلوب عن الطعام والشراب نهاراً لاتتجاوز مدته شهر رمضان. بينما يتكرّر هذا الإمساك المطلوب أيّام الحيض كلّ شهر وعلى مدى العام. فهو تعالى نبّه المؤمنين الذين يلتزمون بأمر ربّهم لدفع هذا الأذى الظاهر والباطن عن أنفسهم، أنّه سيثمر في أنفسهم روح التوبة والأوبة إليه، ويفيد في تحقيق تجانسٍ بين تكوينهم الباطني وبين صفة ربّهم القدّوس، ويجذب بالتالي محبّة ربهم إليهم ويفوزون بذلك بقربه ورضوانه.

فمن خلال قوله تعالى إذن: ﴿**إنّ ا لله يحبّ التّوابين ويحبّ المتطّهرين.**﴾ تتراءى لعين متدبّر القرآن الكريم ملامح الذريعة التاسعة التي تجذب محبّة ا لله تعالى على درب عِرفانه. ولكسب قربه ورضوانه. فكلمة ﴿**المتطهرين**﴾ من طهر ضد نجس، واطّهر معناه تنزّه عن الأدناس وكفّ عن الإثم وأصبح طاهراً معصوماً عن المعاصي والمخالفات ظاهراً وباطناً . (محيط المحيط)

فهذه الآية من سورة البقرة تحثّ المؤمن السّالك درب عرفان ربّه ليكون طاهراً معصوماً عن معصية أوامر ربّه عزوجل، وليلتزم بأوامر ربّه ظاهراً وباطناً. فإن هو سلك هذا المسلك، يُجانس بذلك صفة ربّه القُدّوس، ويجذب إليه بهذه الوسيلة محبّة ربّه ويفوز بقربه ورضوانه. من هنا ندرك المقصد الذي قصده محمد رسول الله (ﷺ) من خلال حديثه الشريف: (تخلّقوا بأخلاق الله) أي اتّصفوا بصفاته. فلهذا الحديث أساسٌ فيما نصّت عليه ألفاظ آية سورة البقرة التي أوردناها. وعلى ضوء ذلك نفهم دلالة ماأجابت به أمّ المؤمنين عائشة (رضي) بقولها حين سئلت عن خُلُق رسول الله (ﷺ) :

قالت: "كان خُلُقه القرآن". وعليه فقد كانت سيرة محمد بن عبد الله النّبي الأمّي أنموذجاً يُحتذى به من قبل المؤمنين السالكين درب عرفان ربّهم بما يتعلّق بعملية محاولة التّجانس مع أسماء الله وصفاته، وليتحوّل خُلُقهم ليكون خلق القرآن الكريم ويفوزون بذلك بنظير ماخاطب به ربّهم رسوله الكريم قائلاً: **﴿وإنّك لعلى خُلُق عظيم.﴾**.

فالمؤمن السّالك إذا تطّهر من الأدناس وكفّ عن الإثم وعصم نفسه وقواه الباطنه من أن تدفعه إلى معصية ربّه ومخالفة أوامره ظاهراً وباطناً، لابدّ أن يحدث في قواه الباطنة تحول نوعّي باتّجاه التخلّق بالخُلُق العظيم الذي هو مظهر صفة الله القدّوس. من هنا توجّب علينا تدبّر ألفاظ **﴿وإنّك لعلى خلق عظيم.﴾** والنظر في ارتباطها بسياق الآيات من سورة نون.والتي استهلها جل شأنه بقوله: **﴿ن . والقلم ومايسطرون. ماأنت بنعمة ربّك بمجنون. وإنّك لعلى خُلُق عظيم. فستبصر ويبصرون. بأيّكم المفتون.﴾** فآية **﴿وانك لعلى خلق عظيم﴾** وردت في معرض دفاع الله تعالى عن كمال عقل رسوله الكريم (ﷺ) الذي أرسله ربّه رحمةً للعالمين، وفي معرض نفي الجنون عنه، فما معنى هذه الآية الكريمة؟

سبق لي أن بيّنت أنّ الخُلُق في اللغة العربية يُطلق على تكوين الإنسان الباطني أي على مايحمله من قوى وميول وعواطف وشهوات. الأمر الذي توسّعت في شرحه في (نظرية جذور الأخلاق) وكلمة (عظيم) اشتُقّت من عظم الشيء فهو عظيم خلاف صَغُر أو حَقُر. والعظمة تستعمل في الأجسام كما

تستعمل في غير الأجسام. وقد يطلق لفظ العظيم على كلّ أمر استعظمه عقلنا خيراً كان أو شرّاً (محيط المحيط).

وبهذا المعنى ورد لفظ عظيم في عشرات الآيات القرآنية. مثال ذلك قوله تعالى: ﴿إنّ الشرك لظُلْم عظيم.﴾ وقوله: ﴿وا لله ذو الفضل العظيم.﴾ وأمثاله: ﴿ولهم عذاب عظيم﴾. و﴿ فلكم أجر عظيم﴾ و﴿ ذلك الفوز العظيم ﴾. و﴿ جاؤوا بسحرٍ عظيم ﴾. و﴿ ذلك الخزي العظيم ﴾. وما إلى ذلك من أقوال أنهيت بها مُختلف آيات كتاب ا لله العزيز.

واستناداً إلى معنى عظيم، فإنّ ا لله عزوجلّ حين قال مخاطباً رسوله محمداً (ﷺ) : ﴿وإنك لعلى خُلُق عظيم.﴾ خاطب عقول أعدائه الذين كانوا يصفونه بالصّادق الأمين من قبل الرِّساله منبّهاً إيّاهم إلى التّناقض الذي وقعوا فيه مع أنفسهم حين اتّهموه بالجنون، وقال إنّ الذي يراقب صفات هذا الرسول المتطهرة من الدّنس، والمتجانسة مع قوى الخير التي تمثلّها الذات الإلهيه، يستعظم عقله هذه الظاهرة الدالة على التركّيب الباطني الذي تولّد عن صفات هذا الرسول الكريم بشكلٍ طبيعي لاتكلُّف فيه. وهذه الظاهرة، ظاهرة الاتصاف بصفات الخير والتّطهر من صفات الشّر لاتحدث لرجلٍ مجنونٍ فاقدٍ عقله. بل هي ظاهرة عقل متزنٍ يقيناً.

فكل إنسانٍ ركُبّت قواه الباطنة من قِوى متضادة : شجاعه يقابلها جبن. وحبٌّ يقابله كُره وقوة ايثار تقابلها قوة أنانيه. وهل يُسمّى الإنسان الذي يسعى بل سعى لتنمية قواه الخيّرة وتزكيتها، وتدسية قوى الشرّ في نفسه، وتخلّق بذلك بأخلاق ربّه وصفاته العظيمة الخيّرة، وأحدث مع صفات ربّه تجانُساً ظاهراً، هل يصّح وصُم هذا الإنسان بالجنون؟

من دلالة هذه الآية الكريمة نُدرك أنّ التطهُّر من معصية ا لله تعالى ومن مخالفة أوامره التي نصّ عليها كتابه العزيز. إنّما هي عمليةٌ ضرورية جداً لكل مؤمن سالكٍ درب عرفان ربه عزوجل، ليحدث عن طريق ذلك تجانُساً بين قواه الباطنة وبين ما لله عزوجلّ من أسماءٍ حسنى، ليجذب عن طريق عملية التّحويل هذه محبّة ربه إليه ويفوز بالتالي بقربه ورضوانه.

هذا وإن عمليّة التحويل هذه ومحاولة الاتّصاف بصفات ا لله وأسمائه الحسنى، التي أمر بها رسول ا لله (ﷺ) ونصّ عليها كتاب ا لله العزيز، قد

جاءت من صلب قوانين الطبيعة من حولنا. هذه القوانين التي سنّها الخالق البارىء لتسيير دفّة هذا الكون العظيم.

ليلاحظ المرء كيف أنّ مواطني الوطن الواحد الذين تجمعهم اللغة والجنسية والمُواطنة، إذا تلاقوا في الغربة بعيداً عن أوطانهم، عن غير سابق معرفة، يتجمّعون لاشعورياً، ويتحابّون مُتناسين مابين عائلاتهم أو قبائلهم في الوطن الأمّ من عداوات أو خصومات؟

وإذا راقب المرء مختلف أنواع الحيوانات، سيلاحظ أنّ الغِربان شكّلوا وبصورة طبيعية مجتمعاً يخصُّهم لايُخالطهم فيه طيرٌ من نوع آخر. وللبطّ مجتمعهم، وللخيول مجتمعهم، وحتى الحمير أمسى لهم مجتمعهم أيضاً.

وليقُم هذا المراقب باطلاق سراح غرابٍ أمسك به، فلايتجه هذا الغُراب إلاّ إلى حيث اجتمعت الغربان، وإذا أطلق سراح فرسٍ عنده، فلاينضمّ هذا الفرس إلاّ إلى مجتمع الخيل. من هذا كان علينا أن ندركَ وجود قانون طبيعي يهيمن على جميع الأحياء في هذا الكون الفسيح، وهو أنّ التّجانس في الصفات أساس تكوين المجتمعات. فالماء إذا سُكب على الأرض لايُخالط قطع الحديد المتناثرة، بل ينضمّ إلى بُرك الماء إن وجدت من حوله.

وعلى أساسٍ من هذا القانون الطبيعي الذي سنّه الخالق جل وعلا وردت أوامر الله عزوّجلّ التي تحثّ المؤمن السالك على التطهُّر من معصية ربّه ومخالفة أوامره. فالله تعالى هو قُدوّس طاهر وهو مصدر الخير كلّه، فلايحبّ إلاّ التّوابين من عباده ولايحب إلاّ المتطهّرين، الذين يسعون ليل نهار للتخلّق بأخلاق ربهم وأسمائه الحسنى، والذين يبّدلون قواهم الباطنة باتّجاه إحداث هذا التجانس مع أسماء الله العظيمة متأسّين بأسوة محمد بن عبد الله (ﷺ) الذي شهد له ربه أنه أصبح أسوة حسنة في تلك العملية وخاطبه بقوله تعالى: ﴿**وإنك لعلى خلق عظيم.**﴾.

لذلك لايستغرب قارىء القرآن الكريم أن يقول ربنا عزوجل في معرض توصية الزوجين بالإمساك عن معاشرة بعضهما البعض الآخر أيام المحيض، الذي هو أذى، أن يقول تعالى: ﴿**إنّ الله يحبّ التّوابين ويحبّ المُتطهّرين.**﴾.

وليعد هذا المتدبّر إلى سورة الفاتحة التي هي أم الكتاب وخلاصته، ليستدلّ منها عن كيفيّة القيام بعملية التخلُّق بأخلاق الله وصفاته. ذلك أن هذه

العملية تشكل جزءً من طلب الهداية إلى الصراط المستقيم التي يطلبها هـذا المؤمـن في كل ركعة من ركعات صلواته.

أفلا نلاحظ أننّا عندما نقف نحمد ا لله في سورة الفاتحة قائلين: **﴿الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين.﴾** أفلا نلاحظ أنّ لفظ الجلالة (ا لله) سبق ذكر هذه الصفات. وأنّ لفظ **﴿إياك نعبد﴾** ورد بعد هذه الصفات الإلهية مباشرة؟

فالمؤمن المتدبّر لايأخذ هذه الظاهرة على أنّها حدثت عبثاً ومصادفة. بل لابدّ أن يكون من ورائها سرٌّ مكنون وحكمة عظيمة بالغة الأهمية، ذلك لأن سورة الفاتحة وترتيب آياتها وألفاظها قد صدرت عن إله حكيمٍ عزيز. وأنا أفهم من هذا التقديم والتأخير لهذين اللفظين "ا لله وإياك"، الإشارة إلى سموّ مقام الألوهية في مقابل مقام العبودية من جهة وتوجيه لهذا المؤمن السالك درب عرفان ربّه عزوجلّ، والطالب هدايته سبيل عملية التخلّق بأخلاقه تعالى وصفاته، سبيل كيفيّة التدرُّج في هذه العملية على طريق احداث التجانس مع ربه عزوجلّ من جهة ثانية أي من أين يبدأ وماهي درجات هذا السُّلم، كيلا يضلّ الصراط المستقيم.

أقول : إنّ الحكمة من هذا التقديم والتأخير، توجيه هذا العبد ليبدأ بالاتصاف بهذه الصفات من حيث انتهت ترتيباً، أي أن يبدأ بالتخلّق بخلق ا لله مالك يومي الدين والشريعة، ويتقدم درجة ثانية ليتخلق بخلق رحيمية ا لله ومن ثم درجة ثالثة فيتخلّق بخلق رحمانية ربه عزوجلّ. والمقصود من ذلك أن يتطّور على هذا الدّرب تطّوراً طبيعيّاً تتأصل جذوره في نفسه خطوة خطوة، فلايسير على هذا الدرب فوضوياً لايجني من خطواته الثمار المرجوة بشكل علمي.

ذلك أنّ عمليّة الخلق اقتضت أن يرعى هذا الخالق ماخلق ويطوّره حالاً بعد حال باتجاه الكمال والتمام. لذلك توجّه الخالق إلى هذا المؤمن فهيّأ له محيطاً ملائماً لنشأته وازدهاره روحياً. ثم تجلّى عليه بصفة رحمانيّة فوضع بين يديه من التعاليم مايساعده في أمر عروجه الروحي. ثم تجلّى عليه بصفة رحيميّته بعد أن استفاد هذا المؤمن ممّا آتاه ا لله من تعاليم ومواعظ استفادة حقيقية فحصد أفضل نتائج هذه التعاليم، لتكون له العاقبة الحسنة دنيا وآخرة. ثم يتجلّى ربّه عليه أخيراً بصفته مالك يوم الشريعة فيؤيده وينصره على أعداء ا لله وأعدائه في جميع

الميادين. وبصفته مالك يوم القيامة، فينعم عليه بثمار جنته التي أعدّها أصلا للمتقين، والمتطهّرين.

فترتيب تجلّي هذه الصّفات هي بمثابة تجلٍ هابطٍ من مقام الألوهية الأعلى ضمن عمليّة الخلق والتطوير هذه. لذلك تقدّم اسم الجلالة (ا لله) في ﴿الحمد لله﴾ على هذه الصفات. ومادام قد تأخر لفظ (إيّاك) الذي يفيد مخاطبة ا لله ذاته فالحكمة منه أن يحث هذا المؤمن على التدرّج في الاتصاف بهذه الصفات الأبعة المُجملة والتي تحوي كل صفة منها عَدداً من صفات ا لله لأيُستهان به الأمر الذي لامجال للخوض فيه هنا.الحكمة أن يحث ا لله هذا العبد المؤمن أن يتدرّج في عملية تخلقه بأخلاق ربه وصفاته بأسلوب صاعد من آخر هذه الصفات وإلى أولّها على درب مسيرة عرفانه وطلب قرب ا لله ورضوانه.

وسؤال يطرح نفسه هنا وهو كيف بالامكان الاتصاف والتجانس مع آخر صفة وهي صفة المالكية؟ أقول مالم يحط هذا المؤمن السالك علماً بمظهر تجلي مالكية ا لله عزوجلّ، يعسر عليه إيجاد الجواب على السؤال المذكور.

ألا إننا سبق أن بيّنا فيما سبق أنّ ا لله تعالى يتجلّى في عالمنا كملكٍ سنّ قوانين لتسيير أمور مملكته، ويجري ويعاقب ضمن معطيات هذه القوانين الطبيعية المسنونة فلايتجلّى ا لله تعالى كمالك يفعل مايشاء إلا حين يُنزل ا لله شريعة ليكتب لها الثبات والبقاء، فيتجلّى حينئذٍ بأقدار روحيّة خاصة، فصّلتُ الكلام فيها في كتاب (القضاء والقدر حقيقة كونيه ثابته). والصّفة العّامة التي تتجلّى حين تجلّي صفة المالكيّة هذه، هي صفة عدالته المقرونه بالحلم والعفو والتسامح والغفران للمسيئين من عباده.

ونفس صفة مالكية يوم الدّين ستتجلّى متصّفة أيضاً بصفة العداله هذه المقرونة بالحلم والعفو والتسامح والغفران مع الذين لم ينصاعوا لتعاليمه في حياتهم الدنيا وماتوا وهم كُفّار.

وعليه فلابد أن يكون هذا المؤمن السالك قد أدرك حين يسير على طريق التجانس مع صفة ربّه المالك ليوم الشريعة ويوم الدين، أن يسعى طاقة جهده ليكون عادلاً في جميع تصرُّفاته مع المؤمنين وغير المؤمنين آخذاً بالحلم والانصاف والتسامح والغفران في مواجهة الذي يُحاول الاعتداء عليه وعلى حقوقه ويدفع بالتي هي أحسن السّيئة.ولاينزل إلى مصاف هؤلاء الظالمين. فعليه

أن ينبُذ العنف سلوكياً ويبرز كخـادمٍ أمين لشـريعة ا لله تعـالى ويتفـانى في نشـر كلمة ا لله بين الناس مضحيّاً بكل نفيسٍ يملكُه تقرباً من ربّه وهـو يطلـب عرفانـه وقربه ورضوانه. كذلك يحاول الانصباغ بصبغة ا لله المالك ليوم الشـريعة والدّيـن حتى يشار إليه في ذلك الأمـر بالبنـان وحتـى يشـهد الخـاص والعـام علـى عدالـه سلوكيته مع سواه وعلى حلمه وانصافه وتسامحه وغفرانه.

ويتقدّم خطوةً أخرى على درب عِرفان ربّه ليتخلّق بصورة بارزةٍ بصفـة الرحيميّة للتجانس معها. فإن تساءل هذا المؤمن : وكيـف بالامكـان الاتصـاف بصفة ا لله الرحيم؟ فأمامه الآيات الكريمـة مـن كتـاب ربـه العزيـز الـتي تفيـده في الإجابة على تساؤله المذكور. فا لله تعالى يتّصف في حالـة تجلّيـه بصفـة رحيميّتـه بصفة الرأفة والرحمة والدّفاع عن فئة المؤمنين، وعليه فليتصف هذا المؤمن السالك وليتجانس مع هذه التجليات بأن يؤثر إخوانه المؤمنـين علـى نفسـه ويـرأف بهـم ويرحمهم ويدافع عنهم إلى أن يصبح متميّزاً في ذلك بحيث يشار إليه بالبنان.

ومن ثم يتقـدّم خطـوة ثالثـة علـى درب عرفـان ربّـه عزوجـلّ، ليتخلّـق بصورة بارزة بصفة الرحمانية ويتجانس معها. فإن تسـاءل هـذا المؤمـن : وكيـف يتحلّى بصفة الرحمانية؟ فأمامه آيات كتـاب ا لله العزيـز ترشـده في الإجابـة علـى تساؤله المذكور. ذلك أن صفة رحمانية ا لله تتجلّى بعطاء لايقتصر علـى فئـة دون فئة من عباده ومخلوقاتـه. بـل يمدّ بعطائـه كـلاً مـن هـؤلاء وهـؤلاء، ويسـتجيب للمضطر إذا دعاه ويكشف السّوء. وعليه فليتصف هذا المؤمن السالك وليتجانس مع هذه التجليات بأن يستوي عنده في عطائه وإحسانه جميع الناس بلاتفريق مـن جانبه بينهم: لافي اللّـون ولافي العـرق ولافي اللغـة ولافي الدّيـن. وينقلـب بذلـك خيراً كله لبني جنسه وللإنسـانية جمعـاء يحسـن إليهـم دون طلـب أجـر منهـم أو جزاء، وبحيث يعود يُشار إليه حـين يتصـف ويتجـانس مـع صفـة الرحمانيـة هـذه بالبنان ويصبح في ذلك كنارٍ على رأس علمٍ تضيئي ماحولها بكل وضوح وجلاء.

فإذا ماقطع هذا المؤمن هذه الاشواط الثلاثة بالترتيب المشـار إليـه يتقـدّم خطوة رابعة على درب عرفان ربّه عزوجل لينصبغ بصبغة ربوبيـة ربّـه ويتجـانس معها. فإن تساءل هذا المؤمن أن كيف بامكانه الاتصـاف والتجـانس مـع ربوبيّـة رب العالمين؟ فلابدّ وأنه يعلم دلالة لفظ (الربّ) الذي يعـني الـذي يُطّـور الشـيء حالاً بعد حال حتى يصل به مرحلة التمام. فا لله الرّب بعد أن خلق الخلق هداهم

إلى سبيله وسعى إلى تطويرهم روحياً ليصلوا إلى مرحلة يتعرفون فيها عليه عزّ وجل ويفوزون بمحبته وقربه ورضوانه. ويعود مِشعل تجلي ربوبية الله هذه مشعلاً بين يديه يهتدي بهديه ويتجانس معه وينصبغ بصبغته. فيسعى جاهداً تحت قيادة رسل الله وخلفائهم لتطوير المجتمع الإنساني نحو الأفضل وعلى هدى تعاليم هذا الدّين الحنيف التي بين يديه. فيحمل راية الإسلام ينشرها على جميع أصقاع المعمورة بسلاح البينّة والحجة والبرهان والأسوة العملية الحسنة والله من وراء القصد. فهذه معالم ماأشارت إليه سورة الفاتحة وقدمته من أسرار.

فالألوهية تتجلّى بتجلياتٍ نازلة، والعبودية تتجانس معها بتجانس صاعد، ووفقاً لهذه الصفات التي تضمنتها سورة الفاتحة . وهذا السّر المكنون لايدركه إلاّ المؤمنون السالكون درب عرفان ربهم، هؤلاء المتقون اللاهفون لجذب محبة ربهم إليهم والفوز بقربه ورضوانه. وإنّ توبة المؤمن المتكررة وتطُهرّه من المعاصي والأدناس هو المقصود من قوله تعالى: ﴿**إنّ الله يحبّ التّوابين ويحب المتطهرين**﴾.

ثمّ إنّ الأمر الذي الذي يساعد هذا المؤمن على درب محاولة التّعرف إلى ربّه وليتجانس مع أسمائه الحسنى وليكون مُستحقّاً لقب الخلق العظيم. هو أن من واجبه تدبّر كلّ صفة من أسماء الله تعالى تدبُّراً حقيقياً على ضوء معطيات آيات القرآن العظيم. فليتناول صفة الله الخلاّق على سبيل المثال. فالله الخلاّق هو الذي يخلق خلقاً بعد آخر وباتقان مدهش يدهش عقول المتفكّرين.

هذا ولايكون التخلّق بصفة الخلاّق والتجانس معها، إلا بهذه الوسيلة المتوفرة بين يديه. وهي وسيلة الزواج الشرعي وإنجاب الأولاد والانكباب على العناية بهم وتربيتهم التربية الصالحة ليعودوا مظهراً لمدى أبعاد ماتحمله ربوبيته لهم من إمكانياتٍ وقدرات ومعلومات.

وربّ الأسرة هذا لاينقصه لتحقيق هذا التجانس مع رب العالمين إلاّ العاطفة التي تدعم بذله وإحسانه وعناءه. ولم يبخل رب العالمين على هذا العبد بهذه العاطفة، بل يتحسّس كل والد ووالدة أن عاطفة الأبوة والأمومة مغروسة في فطرته تجاه أبنائه. وهي ظلّ العاطفة المطلقة التي تحملها ربوبية ربّ العالمين.

فإذا حاول هذا المؤمن السالك التخلق والتجانس مع صفة الله الخلاّق، فليتزّوج زواجاً شرعياً يكمل به دينه، ولينكّب على الانفاق على ماينجبه من

أولاد وتربيتهم تربية صالحة فيطورّهم طوراً بعد طور إلى أن يصبحوا أخيراً لبناتٍ اجتماعية صالحة. وليعاملهم بأسلوب التّرغيب والتّرهيب الذي تُعـامل بـه ربوبيـة ا لله مخلوقه الإنسان. وليكـون سـلوكه مـع ماينجبـه مـن أولاد باطنـه فيـه الرحمـة وظاهره العذاب. وبذلك يجذب محبة ربّه إليه ويفوز بالفراسـة الايمانيـة علـى هـذا الطريق، وحينئذٍ يكشـف ربّـه عليـه أسـرار ربوبيّتـه عـن طريـق الالقـاء والتعليـم اللّدني.

ثم إنّه لولا هذه العاطفة المغروسة في فطرة كل مخلوق، أنّى كان يحقّ لله محاسبة هذين الوالدين إن قصّرا في واجبات تربيـة أولادهـم . وكـم هـي عظيمـة عاطفة الأمومة ومدهشة، فلن يجد الباحث أمّا تكره ابنها بسبب بشاعته. بل ترى كُلّ أُمٍّ وليدها أجمل الأطفال.

وهيّـا ليتوجّـه أي بـاحثٍ إلى آيّـة والـدة بالسـؤال : لم تُحبّـين طفلـك؟ فسيلاحظ أنّ هذه الأم لاتجيبه علـى سـؤاله، بـل تبتسـم وتقـول للسـائل : وهـل فكّرت قبل أن تطرح هذا السؤال الذي لايُعد سؤالاً؟

ودونكم هذه الأم التي أنجبت طفلاً فـاحم اللّـون وغـير متناسـق أعضـاء الوجه وذو شفتان سميكتـان ولـه أنـفٌ أفطـس، فهـل تقصّـر هـذه الأم بحـق هـذا الوليد، وتطرحه بعيداً عنها.

بل تتحمل وتتجشّم كل عناء لتحـافظ عليـه . فـإذا توجّـع في منتصـف الليل تَضُمُّه إلى صدرها وتطوف به أرجّاء الغرفة وتقول دون شعور منها : ياليتني كنت فداك. وهل أنّ عاطفة الأمومة هذه إلا الدليل البيّن على ماتحمله ربوبية ا لله من عاطفة جيَّاشة هي أساس تحمُّل مايَبدُرُ عن الناشزين و الصبر عليهم وإمهـالهم لهم والتسامح معهم والشفقة عليهم، والاستمرار في تطويرهـم طـوراً بعـد طـور. فمن لم ينصلح في دنياه، ففي عالم البرزخ، وإلا ففي عالم مابعد البعـث والنشـور وهو آخر طور لإصلاح هؤلاء الناشزين من عباد ا لله،وليصبحوا أخيراً مسـتحقين جنة ا لله ويكونون من المُتخلّقين بأسماء ا لله الخالق؟ فمن هـذا كلّـه نـدرك أهميـة هذه الذريعة التاسعة لجذب محبـة ا لله تعـالى والفـوز بقربـه ورضوانـه علـى درب عرفانه.

١١. الاتّصاف بصفتي العدل والإنصاف خاصّة

استقينا من آي الذكر الحكيم حتى الآن ذرائع تسعاً نبّهنا إليها ربّنا في كتابه العزيز إن نحن عملنا عليها تُساعدنا على جذب محبّة ربّنا نحونا على درب عرفانه. وأتناول بالذكر الذريعة العاشرة التي تعدّ في مقابل تلك الذرائع الأساس والأرضية التي تقوم عليها تلك الذرائع جميعها. وبدون توفّر هذه الذريعة العاشرة والأخيرة تفقد جميع الذرائع الماضية مصداقيتها وثمارها. هذه الذريعة العاشرة التي إن أخذ المؤمن السالك بها بشكلٍ جدّي وصارم لابد أن يلاحظ في نفسه أنّه يقطع مراحل العرفان الإلهي من الرّغبة إلى الأنس فالودّ، ومن ثم يجذب محبة ربّه إليه ويفوز بقربه وعرفانه ورضوانه. حتى يبلغ هذا المؤمن السالك مرحلةً لايعود بعدها يجد سُلْوانَهُ إلاّ فيما فتحه الله تعالى عليه من تجلّيات، وتأخذ حينئذٍ عظمة ربه وجلاله بجميع جوارحه ولايعود للشيطان عليه من سبيل ولاسلطان. ولاأطرح هذه الحقيقة بشكل نظريّ غير تجريبيّ. بل هو حقيقة تكشّفت لنا نظرياً وتجريبيّاً وعلى هدى آي الذكر الحكيم.

والمؤسف أنّ هذه الذريعة العاشرة باتت مفقودة في زماننا على الصعيد الإسلامي بل وعلى الصّعيد العالميّ. لذلك نُلاحظ أنّ الفوضى والإضطراب يَعُمّان عالم اليوم بشكل لم يسبق له مثيل. والسّبب الوجيه في ذلك كلّه جهل المسلمين بتعاليم دينهم، وجهلهم بحقيقة هذا المسيح الدّجال الذي يصول ويجول ويعيث فساداً في الأرض، ويلبس الحقّ بالباطل والمسلمون يغطّون في سُباتٍ عميق.

هذه الذريعة العاشرة تتمثّل في مبدأ العدالة والإنصاف الذي ينبغي أن ينصبغ بصبغتها سلوك الأفراد وسلوك الجماعات وسلوك الحاكمين. وكيف بإمكان المؤمن أن يجذب محبّة ربّه إليه إن كان لايُراعي مبدأ العدل والإنصاف في سلوكه مع سواه من المؤمنين وغير المؤمنين؟ ذلك أنّ الله عزوجل نبّه في أكثر من موضع من كتابه العزيز أنه يحب المقسطين ولايحبّ الظالمين. فهذه سورة الرّحمن قد لفت فيها أذهان المفكرين إلى ظاهرتين في هذا الكون؟ وقال: ﴿**والسّماء رفعها ووضع الميزان**﴾ فهو تعالى نبّه إلى ظاهرة السّمو اللانهائي وظاهرة الميزان.

وربط بين هاتين الظاهرتين وقال: ﴿**ألاّ تطغوا في الميزان**﴾ فنهى عن الطّغيان في الميزان. والطغيان من طغى أي جاوز الحدّ. والميزان يعني العدل

والمقدار (محيط المحيط). أي أنّه جلّ شأنه نهى مخلوقه عن تجاوز حدوده وليصبغ سلوكه اليومي بصبغة العدل والإنصاف إن كان يسعى للسمّو والرّقي الروحيّ وجذب محبة ربه إليه والفوز بقربه ورضاه. ولذلك أضاف تعالى آمراً عباده : ﴿**وأقيموا الوزن بالقسط ولاتخسروا الميزان.**﴾ أي زنوا كل تصرّفٍ من تصرُّفاتكم بالقسط والعدل والإنصاف. ﴿**ولاتخسروا الميزان**﴾ وتخسروا من خَسَر الميزان أي نقّصه (محيط المحيط) أي لاتتصرفوا بما يخالف العدل والإنصاف وتنقصوا بذلك من أهمية العدل والقسط والإنصاف.

والمعلوم هو أن الإنسان ينحاز عن جادة العدل والإنصاف لدوافع عديدة : فهو لايعدل أحياناً بداعي مصلحةٍ ذاتية، وهو يجنح عن ميزان العدالة أحياناً تحيُّزاً لأقربائه أو أصدقائه أو أعزائه. وقد يحيد عن سبيل العدل وبدافع عداوته لأحدٍ من الناس . أي أنّ مُحاباة الأصدقاء، وبغض الأعداء يدفع الإنسان ليحيد عن جادّة العدل والإنصاف في أقواله وتصرُّفاته. أمّا إذا كان هذا الإنسان مؤمناً بوجود الله الذي رفع السّماء ووضع الميزان، وهو يطلب ودّ هذا الإله ومحبته وقربه ورضاه، ويحمل لهذه الذات الإلهيّة مالها من عظمة في فؤاده ومخيّلته، فلاتؤثّر فيه مصلحته الذاتية، ولايتحيّز لأقربائه وأصدقائه وأعزّائه، ولايعميه معاداة عدوّه إيّاه، ويلتزم جادة العدل والإنصاف والقسط في جميع أقواله وتصرُّفاته اليومية سواء كان حاكماً أو كان محكوماً ومن عامّة النّاس. فهذا المقسط والعادل والمنصف في سلوكه اليومي، هو المؤمن الذي يستفيد من جميع الذرائع السّابقة التي ذكرناها ويفوز بمحبّة ربه وقربه ورضوانه، ويشمله حينئذ قول الله عزوجلّ ﴿**إنّ الله يحب المقسطين**﴾. الحجرات (٩) والمائدة (٤٢).

وإننا إذا تساءلنا عن دلالة لفظ العدل. فقد أورد صاحب (محيط المحيط) أن العدل يعني أمراً يتوسّط بين طرفي الإفراط والتفريط، ويمثّل الاستقامة أيضاً. تقول عَدَل القاضي: عدلاً وعدالةً أي أنصف. والعدالة مصدر، والعادل اسم فاعل جمعه عُدول.

أما لفظ القسط والإنصاف فيمثّلان العدل والاستقامة، وعلى ضوء معنى العدل والقسط والانصاف أقول : إنّ المؤمن الذي يصلّي ويصوم ويزكّي ويحجّ ويعمل على جميع الذرائع التي سبق لنا أن شرحناها، وهي الذرائع التي اشترطها القرآن الكريم لجذب محبّة الله ورضوانه. إنّ هذه الذرائع جميعها لاتجدي

صاحبها نفعاً إن هو لم يلتزم في سلوكه اليومي جانب العدل في أقواله وتصرُّفاته. فالعدل هو الاستقامة كما نبّه إلى ذلك اللغويّون، والعدل هو الأمر الوسط بين طرفي الإفراط والتفريط لذلك يشكّل العدل والإنصاف الأرضية التي تنمو في تربتها جميع الذرائع المذكورة فتثمر ويقوم عليها هرم بناء العرفان الإلهي.

أفلا يُلاحظ المصلّون صلاة الجمعة كيف أنّ الخطيب لايفتأ يردّد في الخطبة الثانية من خطبته الآية (٩٠) من سورة النّحل وهي قوله تعالى: ﴿**إنّ الله يأمر بالعدل والإحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكّم تذكّرون.**﴾؟ وأوَلَمْ يتساءل السّامع أنْ ماحكمة تقديم الأمر بالعدل على الأمر بالإحسان وايتاء ذي القُربى؟ إن حكمة هذا التّقديم والتأخير تتجلّى فيما أُوضّحه في هذه الذريعة العاشرة وهي أنّ العدل في السّلوك هو الأساس وهو الأرضية لقبول الإحسان وايتاء ذي القربى والانتهاء عن الفحشاء والمنكر والبغي. فالمؤمن السّالك الذي يتجنّب العدل في تصرُّفاته ويجنح نحو الإفراط والتفريط فيها، لايُسمّى مستقيماً ،وتكون عباداته مهتّزة من أساسها .وكيف بإمكان هذا أن تُقبل أدعيته وتوكّله وتقواه إذا كان كلّ ذلك لايقوم على هذا الأساس من العدل والانصاف في تصرُّفاته مع بني جنسه؟ فهو إن لم يكن عادلاً يكون ظالماً لسواه من عباد الله وكيف يتقبّل الله عبادة هذا الظالم وكيف بالإمكان النّظر إليه بمحبّة وتقريب؟ إنه لايتّصف بصفة الاستقامة لذلك لاتؤتيه جميع الذرائع أُكُلَها وثمارها المرجّوة منها. فلابدّ للمؤمن السالك درب عرفان ربّه أن يكون عادلاً ومنصفاً في تصرُّفاته مع بني جنسه حتى يستفيد من ذرائع جذب محبة الله عزوجلّ، وهذه هي حكمة تقديم العدل على الاحسان وغيره في الآية (٩٠) من سورة النحل. خصوصاً وأنّ الله تعالى قد أتى بهذه الآية الكريمة بصدد التّدليل على عظمة ماأنزل على محمد رسول الله (ﷺ) من كتاب.

فالله تعالى قال قبل هذه الآية: ﴿**ويوم نبعث في كلّ أمّةٍ شهيداً عليهم من أنفسهم، وجئنا بك شهيداً على هؤلاء، ونزّلنا عليك الكتاب تبياناً لكلّ شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين.**﴾ فقول الله تعالى هنا ﴿**ونزّلنا عليك الكتاب تبياناً لكلّ شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين**﴾ يُشكّل ادّعاءً ضخماً هو بحاجة للتدليل عليه. ونعلم أنّ من أصول تفسير هذا القرآن العظيم أنّ

ا لله تعالى لايأتي بادّعاء إلاّ ويقدّم هناك الدّليل القاطع على صحّته. وقد أتى جلّ شأنه بهذا الدليل عندما قال: ﴿**إنّ ا لله يأمر بالعدل والإحسان وايتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلّكم تذكّرون.**﴾ أي أنّ كون هذا الكتاب تبيانٌ لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين، يتمثّل في هذه التعاليم التي جاء ا لله تعالى يأمر بالتقيّد بها في هذا الكتاب. وخلاصة هذه التعاليم أنّها تحضُّ على الاستقامة، وقد اختصر هذه الحقيقة بقوله ﴿**إن ا لله يأمر بالعدل**﴾.

كما تتلخّصُ تعاليم هذا الكتاب في الحضّ على الإحسان. والإحسان يشمل الصّفح عن المسيء ومساعدة الفقراء والمساكين والانفاق على مايتطلّبه الوطن من مال، وعلى مايُرّقي العلوم وتدوينها وتعليمها كما يشمل على جميع مايفيد في ترقية الإنسان جسماً وروحاً، فجميع هذه المعاني تدخل في دلالات كلمة الإحسان. فا لله يأمر في كتابه العزيز ﴿**بالإحسان.**﴾.

كما تتلخّص تعاليم هذا الكتاب المُنزل في حضّها على ايتاء ذي القربى. ويُقصد بإيتاء ذي القربى هنا معنى الاحسان إلى ذوي القُربى، بسبب أنّ كلمة الاحسان اشتملت على المعنى المذكور وهذه قرينة تدل على أنّ المراد من ذي القربى هنا أوسع وأشمل دلالة من المعنى المذكور فالبشر جميعهم ذوي قربى من حيث كونهم من بني نوع الإنسان جسماً وتكويناً باطنيّاً.

لذلك فالمقصود من قوله إن ا لله يأمر بايتاء ذي القربى هو أنّ تعاليم هذا الكتاب مبّرأة من سِماتِ النّعرات القومية والعنصرية واللّونية وماشابه ذلك، وتتصف هذه التّعاليم بسِمَةِ كونها تعاليم إنسانيّة لاتفرّقُ بين لون ولون ولابين لسان ولسان ولابين دينٍ ودين من الأديان. أي أنّه تعالى لخّص تعاليم الإسلام في هذه الأوامر الثلاثة الايجابية، وفي الأوامر الثلاثة السلبية وهي ﴿**وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي**﴾ وتشكل بمجموعها الدليل على أن هذا الكتاب المنزل على محمد رسول ا لله (ﷺ) فيه تبيانٌ لكلّ شيء وهُدى ورحمة وبشرى للمسلمين.

وهو جل شأنه حين أنهى هذه الآية الكريمة بقوله: ﴿**يعظكم لعلّكم تذكّرون**﴾ أتى بفعل تذكّرون المشتق من كلمة الذّكر التي تعني حفظ الشيء والتفوّه به كما تعني الصّيت والثناء والشرف والصلاة لله تعالى والدعاء كما ورد

ذلك في معجم (محيط المحيط) وكأنه تعالى قد قال: إن المسلم الذي يحفظ هذه التعاليم المُنزلة في هذا الكتاب العظيم، ويقوم بالتبشير بها والدعوة إليها، يرتفع ذكره بين الناس، ويُثني الناس عليه، ويحظى بشرف عرفان ربّه ويفوز بمحبّته، فهذه هي دلالات قوله تعالى هنا ﴿**لعلكم تذكّرون**﴾. فهو جلّ شأنه يبشّر المسلمين بتوقّع هذه الثمار جميعها إن هو عمل على هذه التعاليم أيضاً.

فإن تساءل امرؤ أنّه مادامت آية ﴿**إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي**﴾ قد أوتي بها كدليلٍ يثبت عن طريقه إدّعاء الآية التي قبلها، فأين هي الآيات التي أمرت بالعدل والانصاف وأكّدت عليه؟

ولهذا السّائل أن يعود إلى الآية الثامنة من سورة المائدة حيث قال الله تعالى فيها مؤكّداً على ذلك من خلال خطابه الموجّه إلى الذين آمنوا به وبرسوله وبكتابه العزيز: ﴿**ياأيها الذين آمنوا كونوا قوّامين لله، شهداء بالقسط، ولايجرمنكّم شنآن قوم ألاّ تعدلوا، اعدلوا، هو أقرب للتقوى، واتّقوا الله إنّ الله خبير بما تعملون.**﴾ فالله جل شأنه يحثّ المؤمنين السالكين درب عرفانه في هذه الآية الكريمة ألاّ تتملكّهم الغفلة، بل أن يظلّوا يقظين يشهدون على ماتعلّموا بالقسط. وألاّ تحملنّهم عداوة حاقدٍ عليهم على مجانفة العدل. بل أمرهم أن يعدلوا مع مثل هذا العدّو الحاقد المبغض، فالعدل هو أقرب لتقوى الله وخشيته إن كان الفوز بمحبة الله وقربه هو مايسعون إليه، وأنهى هذه الوصيّة بقوله تعالى: ﴿**واتّقوا الله إنّ الله خبير بماتعلمون.**﴾ مؤكّداً ضرورة بقائهم يقظين مع ربّهم يرهبون جانبه مُتيقّنين أنّه جل شأنه خبير بما يعملون.

وحكمة هذا التأكيد على العدل والإنصاف هو كما بيّنت سابقاً لكون عدل المؤمن في جميع تصرُّفاته اليومية يشكل أرضيّة جميع الذرائع المؤدية إلى جذب محبّة الله عزوجلّ.

ثم إنّ على هذا السّائل أن يراجع الآية (٤٢) من نفس سورة المائدة ليلاحظ كيف أنّ الله عزوجلّ أكّد على رسوله الكريم ألاّ يجانف العدالة فيما إذا حكّمه المنافقون في أمرٍ من الأمور بالرغم من إدراكه حقيقة نفاقهم. حيث قال تعالى موصياً بحقّ هؤلاء: ﴿**سمّاعون للكذب، أكّالون للسُّحت، فإن جاؤوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم، وإن تُعرض عنهم فلن يضّروك شيئاً، وإن**

حكمت فاحكم بينهم بالقسط، إنّ ا لله يحبّ المقسطين.﴾. فمن خلال قوله تعالى **﴿إنّ ا لله يحبُّ المقسطين﴾** لفت نظر رسوله والمؤمنين أن يجعلوا همّهم جذب محبّة ربهم إليهم غير مبالين بأيّ دافع آخر يدفعهم لمجانفة جانب العدل.

وإنّ على هذا السّائل أن يُراجع الآية (٥٨) من سورة النّساء لينظر كيف أن ا لله تعالى وعظ الذين تنتخبهم شعوبهم ليحكموها ويسيّروا شؤون دولتهم ألاّ يخدعهم كرسيُّ الحكم وألاّ يغترّوا بما حصلوا عليه من الزّعامة. بل إنّ من واجبهم أن يحكموا بين الذين انتخبوهم بالعدل والإنصاف. فهو جلّ شأنه قال هناك: **﴿إن ا لله يأمركم أن تؤدوّا الأمانات إلى أهلها، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل، إنّ ا لله نِعِمّا يعظكم به، إنّ ا لله كان سميعاً بصيراً.﴾**.

فالخطاب وجّهه ا لله تعالى أوّلا إلى الناخبين وقال يعظ هؤلاء: **﴿إن ا لله يأمركم أن تؤدّوا الأمانات إلى أهلها﴾** أي يأمركم بانتخاب من هو أهلٌ لهذا المنصب الذي ترشّحونه له. لاأن ترتَشُوا من هؤلاء المُرشّحين، ولا أن تنتخبوا من كانت لكم به علاقة مصلحة.

ثم توجه جل شأنه يُخاطب الذين انتخبهم الشعب وقال يعظهم: **﴿وإذا حكمتم بين النّاس أن تحكموا بالعدل.﴾** أي أنّ ا لله تعالى يأمر الذين انتخبهم شعبهم وتربعوا على كراسي الحكم أن يتناسوا كلّ اعتبار غير اعتبار العدل والإنصاف فيما يؤدّونه . فلاتتسلّط عليهم منافعهم الذاتيه ولامصالح أقربائهم وأصدقائهم وتدفعهم إلى مُجانفة العدل والإنصاف فيما يحكمون. ويزيد جلّ شأنه على عظته هذه قائلاً: **﴿إنّ ا لله نِعِمّا يعظكُم به﴾** أي أنّ موعظة ربّكم هذه تستحق منكم الانصياع والشكر والثناء. ذلك أنّها استندت إلى منطقٍ تاريخي تعلمونه وهو أنّ الدكتاتوريات لاتدوم وأنّ العدل أساس المُلك.

وقد أنهى جل شأنه هذه الآية بقوله تعالى: **﴿إنّ ا لله كان سميعاً بصيراً.﴾** أي اعلموا أنّ صرخات المظلومين وآهاتهم يسمعها ربّكم الذي يعظكم أن تعدلوا بين النّاس، وا لله يُبصر أيضاً ماتتصرّفون به من تصرُّفات. وا لله مع المظلومين ضدّ الظالمين الذين لايحكمون بالعدل والإنصاف وهم على كراسي الحكم. فهذا هو ماأثبتته تجارب السّنون الماضية والأيّام الغابرة.

ولهذا السّائل أن يُراجع الآية (٧٦) مـن سـورة النّحـل الـتي ضـرب ا لله تعالى فيها مثال الفريقين: الفريق الظالم والفريق العادل المنصف من النـاس، فهـو تعالى قال هناك: **﴿وضرب ا لله مثلاً رجُلين : أحدهما أبكم لايقدر على شيء، وهو كلٌّ على مولاه، أينما يوجّهْـهُ لايأتِ بخير، هـل يسـتوي هـو ومـن يـأمر بالعدل، وهو على صراطٍ مستقيم.﴾**؟

فقد شبّه ا لله عزوجلّ النّاس والأشخاص الـذي يطغـون فـلا يعدلـون في أحكـامهم وتصرُّفـاتهم شـبّههم بـالرجل الأبكـم الـذي لاينطـق بـالحق وبـالرجل الضعيف الذي يعجز عن إحقاق الحقّ . وأضاف يقول إن مثل هذا الرجل الـذي وهبناه ملكة العقل وهديناه السّبيل ومع ذلك يميل عن صراط العدل ويطغـى فهـو إنسان عبء على مولاه أي أن ا لله تعالى لايبالي بمثل هذا الإنسان ويعتبر بقاءه في هذه الدنيا وعدمه سيّان لأنه لايكون مصدر خير أينما وجّهه ربّه، بل يـأت بشـر على شر. وفي مقابل ذلك شبّه ا لله عزوجل الحاكم العادل المنصـف بـين النـاس، والذي لايطغـى في تصرُّفاتـه ويعـدل مـع الـذي يتعـامل معهـم، ويستعمل عقلـه استعمالاً صحيحاً، ويستجيب لوعظ ربّه ونصحه، أقـول شـبهَّهُ بالإنسـان الـذي يسير على صراط مستقيم من جراء عدله وقسطه مع بني نوعه وانصافه في تعاملـه معهم. ولايستوي هذا العادل وذاك الظام بشكل من الأشكال.

ولهذا السّائل أن يراجع الآية التاسعة مـن سـورة الحجـرا لُيلاحـظ هنـاك كيف أن ا لله تعالى يأمر بالعدل مهما تطورت الأحوال وتبدّلت الظروف. فلو أنّ طائفتين من المسلمين اقتتلتا يوصي ا لله جـل شـانه معالجـة ذلـك ويقـول: **﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما، فإن بغت إحداهما على الأخـرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر ا لله، فإن فاءت فـأصلحوا بينهمـا بـالعدل وأقسطوا إنّ ا لله يحـبّ المقسـطين.﴾**. وبذلـك يكـون قـد وضـع ا لله تعـالى مـن خلال قوله هذا قوانين لنظام عالمي، إن عمل الناس عليها وأخذوا بها يعـمّ بينهـم الأمن والسّلام. فهو تعالى يأمر بالتدّخل بين المتقاتلين دون تحيّز إلى جانب واحـدٍ منهم، وبغاية الاصلاح بينهم، فـإن تبيّـن أنّ هـاتين الطـائفتين لاتعطـي بـالاً لهـذا التدخل ومحاولة الإصلاح، وأنهم لايلتزمون بالأعراف والقوانين، وبغت إحداهما على الأخرى اعتزازاً بقوّتها وكـثرة عددهـا وعُدَدِهـا مثـلاً. فـا لله تعـالى يسـمح للفريـق المحـايد الـذي يمثـل هـذا القـانون الـدّولي أن يتدخّـل بـالقوّة للفصـل بـين

الطائفتين المتقاتلتين، فيقاتل الطّائفة الباغية لتعود عن بغيها ولتفيء إلى أمر ا لله أي إلى ماسنّه وشرعّه ا لله ربّهم من قوانين. فإن توقفت هذه الطائفة الباغية عن بغيها وتراجعت وتوقّفت عن القتال، فلم يأمر ا لله تعالى بإنزال العقوبات بها وحرمان أفرادها وشعبها من قوتهم، كما تفعل أمة المسيح الدّجال في عصرنا. بل أمر ا لله تعالى أن تُعالج نُقاط الخلاف بين الطائفتين ويسعى المتدّخلون إلى الاصلاح بينهما ﴿**بالعدل**﴾ وبالقسط والإنصاف.

ويؤكّد جل شأنه ضرورة حلّ هذا النزاع بالعدل والانصاف وليس بالقهر وإنزال العقوبات، ويقول: ﴿**إنّ ا لله يحبّ المقسطين.**﴾. أي لاينبغي للنظام العالميّ أن يكون تابعاً لهوى من يقومون عليه. بل ينبغي تحديد هدفٍ سامٍ عام وهو السّعي من وراء ذلك للفوز بمحبّة ا لله الذي علمّهم هذا النظام وأمرهم بالعدل والقسط والإنصاف. فأين هذا التعليم من هذا النظام العالمي الجديد الذي أسّسه هذا المسيح الدّجال؟ إنّ التعليم القرآني ماهو وليد هذا القرن من الزمان، بل مضى عليه أربعة عشر قرناً من الزّمان، يوم لم تكن البشرية قد فكّرت بإقامة نظامٍ عالّمي، على حين أنّ النظام الجديد تؤسسه أمّةٌ تزعُمُ أنها تمثّل قِمّةَ الحضارة والتقدّم العلمي. فتعاليم الإسلام شتّان ما بين عدالتها ومابين عدالة هؤلاء "المتحضّرين".

من هذا كلّه ندرك أنّ القرآن الكريم حضّ المؤمن السّالك على العدل والقسط والإنصاف في أقواله وتصرّفاته مع بني جنسه، ليشكّل عدلُهُ وإنصافُه أرضيّة تقدّمه على درب عرفانه لربّه عزوجلّ، وأن يكون هادفاً جذب محبّة ربّه أيضاًمن وراء عدله وانصافه وسلوكه هذا، وليس لمجرد أن يكون عادلاً. فيضع في حُسبانه أنّه إنسانٌ مخلوقٌ، ويلتزم بأوامر خالقه أيضاً. هذا الخالق الذي لم يخلقه ربّه عبثاً، بل ليعّرفه على نفسه وعلى مايتّصف به من علمٍ وقُدراتٍ لاتحدُّها حدود. وأنّ هذا الخالق هو ربّه الذي أعطاه كل شيء تستلزمه حياته وبقاؤه في حياته الدنيا، وأنه هو ربّه يطوّره من هذه الحياة إلى حياة برزخية، ومن ورائها إلى حياة جنّةٍ وخلود يسعد فيها بلقاء ربّه ومشاهدة أنواره وتلقي لألاء رأفته ورحمته ممّا لاعين رأت ولاأذنٌ سمعت ولاخطر على قلب بشر. فمن هذا تتأتّى أهميّة هذه الذريعة العاشرة كأرضيّةٍ لجميع ماذكرناه من ذرائعَ حتى الآن.

❀❀❀

الفصل الثالث
أولاً ـ المحبة ومضمونها

قد تبيّن لنا حتى الآن أنّ تعاليم القرآن الكريم حثّت المؤمن المبايع على التّعرف إلى خالقه والتدرُّج على درب عرفان ربّه من مقام الرغبة فالأنس فالودّ، ومن ثم يسعى لطلب محبّةِ ربّه حتى تتلاقى المحبتان: محبته ومحبّة ربّه إيّاه، وينال بذلك حياة الخلود مع خالقه.

هذا وإنّ أهميّة هذا الموضوع تدفع بنا لإلقاء الضوء على مضمون المحبّة موضوعياً. هذه المحبّة المغروسة أصلاً في جبلة الإنسان بصورة فطريّة وتشكّل أساس لقاء العبد بربّه.

فماهي المحبّة؟ لابدّ أن يذكر القارىء أنّني أجبت على هذا السؤال من الوجهة اللغوية، حيث تبيَّنَ من معاجم اللغّويين أنّ المحبّة تمثّل حركه تداخُلُ مودَّة طرفٍ بمودة طرفٍ آخر محبّ. فالمحبّة عبارة عن انسيابٍ عاطفي بين طرفين أحبّ أحدهما الآخر. وهذا الانسياب العاطفي يشكّل رابطةً بين هذين الطرفين المُتحابّين.ثُمّ إنّ هذه المحبة تقوى وتضعف حسب نوعيّتها. من هذا ندرك أن عاطفة المحبة تشكّل كياناً ينمو ويثمر. فالمحبّة كالبزرة المغروسة في تربةٍ صالحةٍ، تتفاعل وتنمو على شكل نبتةٍ تزدهر على حسب ماتملك من قوى ومقوّمات.

فالمقصد الأسمى من التعاليم الاسلامية يتحدّد في إطار تنمية عاطفة هذا المؤمن نحو ربّه عزّ وجلّ لتلتقي مع عاطفة ومحبّة ربّه إيّاه . فيحدث بالتالي بين هاتين المحبتّين إنسيابٌ وعلاقة تداخل أشارت إليها الدلاّلة اللّغوية. هذا وإنّ ماذكرناه حتى الآن من ذرائع هدانا إليها كتاب الله العزيز تساعدنا على جذب محبة الله نحونا، كذلك تمثّل هذه الذرائع الوجه الذي تبيّناه وجرّبناه وأوتينا من ثمراته المرجوة منه، علماً بأنّ التجربة تُعد في نظر علماء عصرنا ذريعةً حقيقيّةً لتحصيل علم من العلوم.

أضف إلى ذلك أنّ هذه المحبة التي فطرت عليها جبلّة الإنسان ذات أساس مادّي تمثّلها قوّة الجذب التي يحملها أصغر جسيمٍ ذرّي من جسمه. ويبدو

ذلك أكثر وضوحاً في النّبات كـدّوار الشـمس مثـلاً. وعنـد الحيـوان وهـي هـذه الغريزة الجنسية لديه. وتبدو أكثر نموّاً عند الإنسان وتتمثّل في عاطفة المحبّة الكامنة في جبلّة هذا الإنسان كمون النّار في الرّمـاد، ولاتحتـاج إلاّ إلى مـن يـذبّ الرمـاد عنها ويُزْكيهـا. ولنلاحـظ كيـف أن عاطفـة المحبـة هـذه تحركّهـا المنـاظر الخلاّبـه والأزهار الجميلة والنّسيم العليل والهدوء والسكينه، وماتحمله أنثى البشـر والذّكـر من مفاتن تجذب الواحد منهما إلى الآخر كجذب المغناطيس لبرادة الحديد؟

ونتيجةً لذلك ظهر الكُتّاب والشّعراء وقصـص الحـبّ والغـرام، فيكتـب الكتّاب في مواضيع الحب والمحبّة. ويتغنّى الشعراء بما يحسّونه في هذه المجالات التي ذكرناها.

وتبرز هنا وهناك قصص حُبٍّ تأخذ بجوارح المحبوب ومحبوبته. وليسـت قصّة قيسٍ وليلى ببعيدةٍ عن مسامع كلّ إنسان. حتى وقد قسّم الكُتّاب والشعراء المحبّة إلى محبتيّن: محبّةٌ جسديةٌ شهوانية ومحبّةٌ عذريّةٌ تسـمو عـن العلاقـة الجسـدية وتُحلّق في سماء الروح.

والحقيقة هي أن فطرة الإنسان وتكوينه الباطن يتألّف من مزيجٍ من قوىً متضادّة، ومن ميول مختلفة، ومن شهواتٍ جسـديّة، وقـد نزلـت تعـاليم الإسـلام تنمّي قوّة المحبة وعاطفتها الكامنة في الفطرة البشرية لتتلاقى وعاطفة ومحبّة الخـالق لتثمر حياة الخلود.

وهذا هو السّبب في أن القرآن الكريم أضاف إلى الاسم الحقيقي للخالق وهو لفظ الجلالة (الله)، أضاف أسماء وصفية من أبرزها (الإله) المشتق مـن الولـه أي من المحبّة وراحت الآيات الكريمة تنبّهنا المرّة تلو المرّة إلى أنه لاإله إلاّ الله الحيّ القيوم الذي لاتأخذه سِنة ولانوم. وهـذه الآي تدفـع العـاقل إلى محاولـة الإحاطـة بمعالم الفطرة البشرية ليُدرك أن المحبّة وعاطفتها تكوّن جزءً أساسيّاً من فطرة هـذا الإنسان، وهي وراء هذا التشتّت الحادث في تصرُّفات هذا الإنسـان الـذي تجذبـه المناظر الخلابة والأزهار الجميلة والنسيم العليل والهدوء والسـكينه، ومفـاتن المـرأة والرجل. فيتيه الإنسان وسط هذه الأمور الجذّابة ويحبّها ويهواها.

ويتناسى الإنسان من جرّاء ذلك وجود ربّه الرحمن الرحيم الـذي ينبغـي له أن يعطيه منزلة الألوهيّة والمحبّة، وبشكلٍ يفوق محبّته لأيّ شيء آخر سواه. فإن أحبّ الإنسان أيّ شيء، فليحبّ، فهذا شـيءٌ طبيعـيّ،لكـنّ الواجـب علـى هـذا

المحبّ أن يحيط علماً بمحبوبه الحقيقي، فلايحب شيئاً إلا في ظلال مشيئةِ إلهه وتبعاً لإرادته عزوجلّ. وإلى هـذه الحقيقـة أشـار الله تعـالى في الآيـة (٢٤) مـن سـورة التوبة قوله: ﴿**قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشـيرتكم وأموالٌ اقترفتموها وتجارةٌ تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحبّ إليكم من الله ورسوله وجهادٍ في سـبيله فتربّصوا حتّى يـأتي الله بـأمره، والله لايهـدي القوم الفاسـقين.**﴾ فـأطلق تعـالى علـى كـلّ محبّـةٍ تفـوق محبّـة العبـد لربّـه كلمـة "الفسق" أي الخروج والتمرّد على مشيئة الله وإرادته.

فالمحبّة إذن شيء عاطفي روحيّ، غير مادي. هـذا وإن ماأوتيـه الإنسـان من فكـر وحـواسّ إن هـي إلا وسـائل، إن استعملت استعمالاً صحيحاً ووفقاً لتعاليم القرآن الكريم تعود أداة طيّعةً لتنمية عاطفة المحبّة لتتلاقـى ومحبّـة وعاطفـة خالق هذه العاطفة وتتفاعل معها لتكتسب حياة الخلـود الـتي هـي لله جـل شـأنه الذي يجسّم المحبّة والعاطفة المطلقة. فالحواس وسائل وأدوات مادّية تفنى مـع فنـاء هذا الجسد بعد موته. أمّا عاطفة المحبّة التي تلاقت مع محبة خالقها، فـلا تفنـى بـل تخلد خلود هذا الخالق الذي تلاقت معه.

إنّ حواس هذا الإنسـان مُرتبطـة بفكـره. تنـام إذا استسـلم للنـوم، فـإن تسلّلت أفعى ولامست جسد هذا النائم يستيقظ، ولاينتبه إلى خطر هـذه الأفعـى إلاّ بعد ثوانٍ من يقظته. ففكره مُحتاج إلى تلك الثواني المعدودات لتقديـر الخطـر الذي يتهدّدُ صاحبه. فهي ثواني فكر وتأمّل. وهذا دليل من واقع الإنسـان يثبـت أنّ حواس الإنسان مادّية وترتبط بالفكر أيضاً.

علـى حـين أنّ عاطفـة الإنسـان الـتي تكمـن في جبلّتـه الباطنـة ليسـت كحواس جسده. بل لها حقيقة تتصّف بالدّوام. ويستمر عملها في يقظة الإنسـان وفي حالة نومه أيضاً. ودون أي انقطاع. والمثال على ذلك هذه الأمّ النائمـة وإلى جانبها رضيعها. فإن احتـاج إلى الرضاعـة مـن ثـدي أمّـه وأبـدى هـذه الحاجـة. يُلاحظ أنّ هذه الأمّ تضمّ رضيعها إلى ثديها وهي نائمة غير واعيـةٍ إلى ماتفعلـه. بل وتلاطف رضيعها أيضاً وهي نائمة وتربّـت علـى صـدره دون وعـي منهـا أو يقظه. تفعل ماتفعله بدافع ماتحمله لهذا الرضيع من عاطفة جيّاشةٍ في صدرها. فإنْ أقدم إنسانٌ ما، وبخِفّةٍ ظاهرة، على سـرقة هـذا الرّضيـع النـائم إلى جـانب أمّـه، لاتشعر هذه الأمّ بما حدث لرضيعها، لماذا؟ الجواب هـو أنّ سـرقة الجسـد مرتبـط

بـالفكر والحـواس. وليـس بالعاطفـة. فـالجوع حالـةٌ باطنـةٌ مرتبطـةٌ بعاطفـة الأمّ، ولايرتبط الجسد بهذه العاطفة إلا عن طريق الفكر والحـواس، الأمـر الـذي يثبـت منه دوام فعاليّة العاطفة في حالتي النوم واليقظة يقيناً.

وبإمكاننا تقديم مثال آخـر يثبـت منـه دوام عمـل العاطفـة وعـدم دوام الحالة الفكرية. وهو أنّ الملاحظ عن الإنسان أنه إذا ماراحت ذُبابةٌ تزعجـه وهـو يقظ غير نائم يسارع إلى ذبّ هذه الذبابة عنه وإلى طردها بل وإلى محاولة قتلهـا. على حين أنـه إذا جـاءت ذبابـة ووقفـت علـى جسـد هـذا الإنسـان وهـو نـائم، لايَرعش، ولايحاول طردها عنه إلاّ إذا وقفت علـى منـاطق حسّاسـة مـن جسـده وتسبّبت له بحركات غير واعية وغير إراديّة. فما هو سبب هذا الفارق في سـلوك هذا الإنسان المتجلّي في حالتي نومه ويقظته؟ الجواب هو أنّ خطـر الذّبابـة متعلـق بفكر هذا الإنسان وليس بعاطفته.

وأقدّم مثالاً ثالثاً تثبت منه حقيقة دوام عمل عاطفـة الإنسـان ودون أيّ انقطاع في حالتي نومه ويقظته. فلو نام ثلاثة أشـخاص والـد ووالـدة وابـنٌ لهمـا. وتسلّل مجرمٌ ليعتدي على أحد هؤلاء دون إحداث أيّة ضجّـة كـانت. وقـام هـذا المجرم بفعلته بعد أن كمّ فَـمَ المُعتـدى عليـه. واستيقظ الوالـد بعـد فـوات الأوان. نلاحظ أنّ هذا الوالد يقدم على معاتبة هذا المُعتدى عليـه مـن أنّـه لم يُحـدث أيّ جلبةٍ أو حركةٍ أو صوتٍ يوقظه لمساعدته ضدّ هذا المجرم.

فلماذا لايستيقظ هذا الوالد في الوقـت المناسـب لمسـاعدة المعتـدى عليـه سواء أكان هذا زوجته أو ولده؟ السبب في ذلك هو أنّ مـاجرى لايمـسّ عاطفـة الوالد وهو نائم ويتعلّق بفكره وحده.

وهذه العاطفة الفطرية عند الإنسان والتي تعمل في يقظته وفي نومه، هـي المُستهدفة بالتطوير من الذرائع العشرة التي أتيت على ذكرها لجـذب محبّـة الخـالق عزوجلّ. أي أنّ هذه الذرائع تفيد في إيجاد الجّو والحالة المناسبة لتنمية عاطفة هـذا المؤمن السّالك درب عرفان ربّه، لتصبح مـع مـرور الزّمـن عاطفـة جياشـةً بحـبّ خالقها من خلال وعيها لتكوينها الفطري، ومن خلال عمليّتي ذكرها ربّهـا عـن طريق عبادته، وتفكرها في إحساناته، وعن طريق التوبة والاستغفار والدّعـاء بـين يديه وعن طريق تقوى الله وخشيته والتخلّق بصفاته وعن طريـق الالـتزام بخدمـة مخلوقاته والعدل والانصاف معهم خلال تصرُّفاته . فإذا تحقّق لعاطفـة المحبّـة هـذه

أن تنمو وتزدهر وتثمر جذب محبّة ا لله عزوجلّ نحوها. يُوهَبُ صاحبُها حواسّاً روحيّة غير حواسه الجسدية وموازيةً لها، وعن طريق هذه الحواس تبدأ محبّة هذا المؤمن تتفاعل مع المحبّة الإلهية ويعود هذا المؤمن يرى مالا يراه سواه ويسمع مالا يسمع سواه، ويتلّقى مالا يتلقّى سواه من النّاس.لاأقول هذا من منطلق نظري، بل عن تجربةٍ شخصية وعرفان. ذلك أنّ الطّاعات أمورٌ فلسفية وفكرية، فلاتثمر ماذكرته إلاّ إذا استوفت الإيمان عن علمٍ وبيعةٍ لرسول ا لله ولخلفائه. وهناك يكون الإثمار والعطاء. ويؤكّد ذلك قول ا للّه عزوجلّ **﴿إنّ الذين يُبايعونك إنما يبايعون ا لله يد ا لله فوق أيديهم.﴾** أي أنّ الطّاعات المجّردة لاتثمر بغير هذه الوسيلة وبغيرهذه البيعة.

من هذا نكون قد أدركنا أنّ الطّاعات المجرّدة كيفيّات عقليّة نابعة عن فلسفة مُعيّنة، ومتعلّقة بحالة يقظة الإنسان. أمّا العاطفة والمحبّة فلا تعرفان الفتور ولا الانقطاع لا ليلاً ولانهاراً.

فالمؤمن السالك درب عرفان ربّه الذي استوفى شرط الإيمان والبيعة وأخذ بالذرائع العشرة المذكورة ليجذب محبّة ربّه إليه، لا بدّ أن تتفاعل عاطفته ومحبته مع عاطفة ربّه ومحبّته، ويتقّرب بذلك إلى خالقه ويفوز بقربه ورضاه. وإلاّ فإنّ طاعاته المجرّده لاتغنيه إلا نصباً وعناءً. وهو حال من لم يتّخذ الإسلام ديناً، و لم يستجب لصوت مرسليه عزّ وجلّ.

إنّ هذا الإنسان العابد على أساسٍ عقلانّي مُجرّدٍ قد يصل مرحلةً يتشكك فيها بوجود خالقه الغائب عن عينيه. ذلك أنّ أوّل وحي قرآني نبّه الإنسان إلى ضرورة الاستجابة للذي أرسله ا للّه عزوجلّ ليحقّق هذا اللّقاء وهذه العلاقة مابين العبد وخالقه وبصريح العبارة أيضاً. فهو ماانزل في غار حِراء من وحي سماوي وهو قوله تعالى: **﴿إقرأ باسم ربّك الذي خلق. خلق الإنسان من عَلَق.﴾** فماهي دلالة العلق على حسب ماأورده اللغويون : دلالة العلق على التعلّق بالمحبوب ودلالته على مخاصمته. فالعلق مصدر. فإذا قلت : نظر فلان أو فلانة نظرة من ذي علق أي نظرةً من ذي حبّ. وإذا قلت علق فلان بفلانةٍ أي هويها وأحبّها. والعلق يحمل معنى الخصومة أيضاً والجدل بخصومه. وبهذا المعنى ورد قول ا للّه تعالى في سورة الكهف: **﴿وكان الإنسان أكثر شيءٍ جدلاً.﴾**.

وعليه فا لله عزوجلّ إذ أمر رسوله محمداً (ﷺ) في هـذه الآيـة الكريمـة أن يحمل رسالة ربّه وليُبلّغها إلى مخلوقه الإنسان. فقد لفت تعالى نظر هذا الرسول الكريم من أوّل الطريق وقـال: ﴿**خلـق الإنسـان مـن علـق.**﴾ أي أن ا لله تعـالى غرس في جبلّةٍ هذا الإنسان عاطفة المحبّة منذ أن صوّره هذا وإنّ تعاليم هذا الدّيـن القويم تهدف إلى تنمية هذه المحبّة في فؤاد هذا الإنسان لتعود جيّاشة بحبّ خالقها لتهواه وتستميت في طلب محبّته عزّ وجلّ.

هذا علماً بأنّ كلمة ﴿**من علق**﴾ أُغفل فيه ذكر الجهـة المقصـود التعلّـق بها. هذا الإغفال ليفيد سعةً في دلالة العلق وفي وجهات تصريفها. أي أودع ا لله جل شأنه عاطفة العلق هـذه لتكـون أساسـاً لعلاقـة الأبنـاء بوالديهـم، والتلاميـذ بأسـاتذتهم ومعلّميهـم، والمؤمنـين بـإخوانهم مـن المؤمنين، وصـاحب المـال بمالـه وتجارته، هذا كلّه وليتعلّق هذا الإنسـان بخالقـه ولُيحبّـه حُبّـاً يفـوق محبّتـه لجميـع ماذُكر.

وزبدة القول : إن تعاليم الإسلام نزلـت تهـدف إلى تنميـة عاطفـة محبّـة الإنسان التي تكمن بين أضلعه وفي جبلّته. تنميتها باتّجـاه محبّـة هـذا الإلـه الخـالق لتتلاقى مع محبة ربّها وعاطفته.

وحين أقول : إنّ ا لله محبّ وعاطفيّ، لاأقول ذلك تصوُّراً بل من منطلق أن فاقد الشّيء لايعطيه.

فا لله جل شأنه يحمل في ذاته عاطفة مُطلقةً. وهـو الـذي جبـل الإنسـان على صورته وغرس في جبلّته شيئاً من عاطفته. لذلك نُلاحـظ أن ا لله تعـالى قـال في مستهلّ سورة البقـرة وهـي السـورة الأولى منـه، قـال : ﴿**الم. ذلـك الكتـاب لاريب فيه هدى للمتقيّن.**﴾. ففي ألفاظ ﴿**هدى للمتقيّن**﴾ تكمن دلالة ﴿ **مـن علق**﴾ أي أنّ تعاليم هـذا الكتـاب ستثمر محبـة الإنسـان لخالقـه. وليصبـح لقـاء المحبّتين ﴿**هدىً**﴾ لهذا المؤمن السالك درب عرفـان ربّـه فيهتـدي إلى وجـود ربّـه بأسلوب التّعامل معه، ويفوز هذا المتّقي نتيجةً لذلـك بقربـه مـن خالقـه فيحصـل على رضاه ويحقّق بذلك الغاية من خلق ا لله إيّاه. وكثيرةٌ هي الآيـات الـتي تفسّـر قوله عزوجلّ ﴿**هدى للمتقين**﴾. وقد سبق لي أن القيـت الضـوء على الهدايـات الأربعة فيما سبق من البيان.

ويكفي أن ينتبه القارىء عند قوله تعالى ﴿**هدى للمتقين**﴾، إلى أنّ التّقوى ليست هي المقصودة في حدّ ذاتها. بل هي وسيله تحصيل هداية ا لله فيأخذ ا لله بيد هذا المتقي يهديه درب التّعرف إليه ليفوز بمحبّته وقربه ورضوانه.

وقد لفتت آيات سورة الفاتحة أنظارنا إلى مسار توحيد ا لله عزوجلّ. فأخبرت أنّه ﴿**ربّ العالمين الرحمن الرحيم. مالك يوم الدّين**﴾ فلماذا أمرنا ربّنا عزوجلّ أن نكرّر تلاوة ذلك في كل ركعة من رُكعات صلواتنا بين يديه، ومبتدئين بالثناء عليه وبحمده ومعترفين أنّه تعالى يستحقّ منّا جميع أنواع الحمد وأنّ الحمد كله يعود إليه؟

إنّ الجواب المختصر هو أنّه جلّ شأنه فعل ذلك لتوجيه أنظارنا إلى مايخلب أفئدتنا ويحرّك فينا عاطفة محبته. هذه العاطفة التي تتأثر بمعالم الجلال والجمال. حتى إذا اكتمل وعيُنا لِما يحمله ربّنا من صفات الحسن والإحسان والجلال والجمال، انجذبنا إليه بصورة فطريّة وسألناه محبّته وعاطفته نحونا. وهذا هو ماتفعله فينا تعاليم القرآن الكريم، فإذا ماجاشت محبّتنا لربّنا عزوجلّ تتلاقى ومحبّة هذا الرّب الخالق، ويتحقّق لنا عرفانٌ ولقاء.

وعلينا ألاّ ننسى هنا أنّ عين الإنسان ترى الجمال الظاهر من الأشياء الماديّة المحدودة المرئيّة. أي أنّ رؤية جمال الأشياء في عالم المادة تسبق روية إحساناتها على الإنسان على حين أن هذه المعادلة يتبّدل طرفاها في عالم الروح غير المرئي وغير المحدود. فيلاحظ الإنسان السّالك إحسان ا لله تعالى عليه أولاً ومن ثم تتراءى لهذا السّالك معالم جماله عزوجلْ فنحن نلاحظ إحسان ربّنا إلينا أولاً وقبل أن نتبيّن معالم جماله. فالذات الإلهية لاتُرى للطافتها، ولاترى أعيننا إلا إحسانات هذه الذات المقدسة. وذلك وفق قول ربّنا في سورة الانعام: ﴿**لاتدركه الأبصار، وهو يُدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير.**﴾.

كذلك علينا ألاّ ننسى أنّ عاطفتا ومحبّتنا لاتجيش ولاتفور إلاّ إذا حركّها مايجذبها. والاحسان والجمال يُعتبران مُحركّان أساسيان لهذه العاطفة ولهذه المحبة الكامنة في فطرتنا. لذلك نبهنّا الخالق عزوجلّ إلى صفتيه ﴿**الرحمن الرحيم**﴾ ولنتدبّر دلالة هاتين الصفتين الجذّابتين. ولنتلمس معالمهما في هذا الكون المحيط بنا. فإذا تلمسّنا إحسانات ربّنا المنبثّة في كل مكان، وتحسّسنا معالم رحيميّته النابعة من جماله خصوصاً وأنّه تعالى قال في كتابه العزيز: ﴿**وا لله بالمؤمنين**

رؤوف رحيم﴾. إذا قُمنا بهذه الخطوة الثانية تجيش محبّتنا نحو خالقنا، ونصل إلى حد الوَلَهِ بهذا المعبود الذي لانعود نعرف لنا محبوباً وإلهً سواه في هذا الكون المتواجدين فيه. ذلك أن إحسان الله وجماله حرّك فينا عاطفة محبّتنا لذاته جلاّ وعلا ودون حدود.

ولاشك أن المناظر الخلاّبة، والأصوات الجميلة والنسيم العليل والتّنزهه في ضوء القمر. إن جميع هذه الأمور محركات لعواطفنا ومحبّتنا، بل وإنّ علاقات الزوجين الجنسيّة تؤجّج هذه العاطفة والمحبة الكامنة في أفئدة هؤلاء الأزواج، أمّا الله الخالق الذي لاتراه أعيننا، فلا يُحرّك عاطفتَنا ومَحَبّتَنا نحوه إلاّ مُحرّكان بارزان هما، حُسْنُ الله وإحسانه. وإنّ جميع تعاليم الإسلام قد نزلت لتدفع هذا المؤمن المبايع ليتعرّف ربّه ويجذب محبّته ويفوز بقربه ورضاه. لهذا يُلاحظ الذي يراجع مابلغنا من أدعية رسول الله (ﷺ) دُعاءً يكشف هذه الحقيقة بكلّ جلاء. فرسول الله (ﷺ) كان يدعو : (اللّهم ارزقني حُبّك وحبّ من أحبّك وحبّ مايقرّبني إليك، واجعل حُبّك أحبّ إليّ من الماء البارد.).

وقد نبّهنا هذا الدّعاء إلى حقيقتين لاينبغي للمؤمن إغفالهما. الحقيقة الأولى أنّ طلب محبة الله هي مدار التعاليم الإسلامية. والحقيقة الثانية هي أهمية سعي المؤمن لتحصيل محبّة الله والتّلاقي معه والفوز بقربه ورضاه.

هذا وإنّ محمداً (ﷺ) عندما أنهى هذا الدعاء بقوله (أحبّ إليّ من الماء البارد). فقد أشار من خلال لفظ (الماء) إلى ماتضّمنه قول ربّه عزوجل: ﴿وجعلنا من الماء كلّ شيء حيّ.﴾ أي أن السّعي إلى الفوز بمحبة الله، وتلاقي محبة العبد بمحبّة الله الخالق هو أساس الحياة الروحيّة ومدارها، على شاكلة مايحتل الماء المادّي من دور أساسي في وجود كلّ شيء حيّ. فكل شيء متعطّش بالفطرة إلى الماء البارد الذي يروي العطشان. فالماء المادي جُعل لاحياء كلّ شيء مادي. وماء المحبة الإلهية قد جعله الله لإحياء فطرة السّالكين درب عرفان خالقهم عزّوجل.

إنّ عيوننا التي تحملها أجسادنا الماديّة تساعدنا على رؤية جمال الأشياء المادية. كذلك فآذاننا تساعدنا على سماع الأصوات والأنغام المطربة. فكيف بإمكاننا رؤية جمال هذا الخالق الذي لاتستطيع أعيننا رؤيته ولاتستطيع آذاننا

سماع كلامه اللّذيذ؟ وقد حلّ ربّنا هذا الإشكال بأن بعث رُسُلَهُ وأنبياءه ومجدّديه لنبايعهم ونعمل على مايأتونا به من تعاليم سماوية. فيخلق الله لنا كياناً روحياً غير كيان أجسادنا، ونؤتى بالتالي حواساً باطنة غير حواس أجسادنا. فإذا مااكتمل خلق ونموّ معالم تلك الحواس الباطنة، نتمكن حينذاك من رؤية جمال الله وأنواره، ونتمكّن من سماع كلامه اللذيذ أيضاً. ويعود تحسُّسنا لوجود ربّنا يبلغ عين اليقين.

ألا إن ذريعتيّ الذكر والفكر تخلّص أنفسنا من حالة سبوتها وغفلتها، وتنقلها إلى عالم اليقظة لندرك وجود خالقنا ونسعى للحضور بين يديه. فإن نحن أخذنا بجميع الذرائع العشرة التي ذكرناها وانتهينا عن منهياتها، تجيش عاطفتنا ومحبّتنا لربّنا عزّوجلّ وتنجذب عاطفة ربّنا إلينا ومحبّته. ومن تلاقي هاتين المحبّتين تُكتب لنا حياة الخلود.

أفلم نقرأ قول ربّنا عزوجل من سورة الفتح: ﴿**إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً لتؤمنوا بالله ورسوله، وتعزرّوه وتوقّروه وتسبّحوه بكرةً وأصيلاً.**﴾ فقوله أرسلناك شاهداً دون تعيين مايشهد عليه ، ورد كذلك لتصريف كلمة شاهداً بجميع الاتجاهات. أي شاهداً على وجود ربّك أمام عباده، ومعايناً لجماله وقدراته وشاهداً على من استجاب لك وآمن.

ثم إنّ كلمة مبشراً تحتمل أيضاً التّصريف إلى جميع هذه الاتجاهات. أي مبشّراً كلّ من يؤمن ويستجيب يصبح من محبوبينا ويعاين جمالنا ويطّلع على مالنا من قُدُرات. إلى جانب أنه سيصبح شاهداً ومبشراً على سواه من المؤمنين.

كذلك كلمة(ونذيراً) تحتمل التّصريف إلى جميع هذه الاتّجاهات. أي تكون نذيراً ومُحذّراً كلّ إنسان ينكر وجودنا، ولايسعى للتعرّف الينا.

وأتى الله جل شأنه بعد ذلك بلام التعليل ليعلّل فعله هذا وقال: ﴿**لتُعزّروه وتُوقّروه وتُسبّحوه بُكرةً وأصيلاً.**﴾ أي أن الغاية من ذلك كله : لتتعرّفوا على ربّكم فتُعظّمونه وتفخّمونه وتنصرونه وتوقّرونه من خلال عبادتكم إيّاه وسلوككم مع عباده، وأن تسبّحوه فتنزّهوه عمّا ينسب إليه المشركون والكافرون.

والمهمّ أنّ هذه الآية الكريمة نبّهت أذهاننا إلى ضرورة التّعرف إلى جمال خالقنا وذلك بالعمل على أحكام كتابه العزيز لنعود بنتيجة ذلك أصحاب كيان

روحيّ وحواس روحيّه نعاين عن طريقها ماعاينه محمد بن عبد ا لله الصادق الأمين عليه الصّلاة والتسليم.

ثانياً ـ معالم حُسن الله واحسانه

والسؤال الآن : أين كشف ا لله الخالق عن معالم حُسنه وإحسانه في كتابه العزيز؟ وقبل الإجابة على هذا السؤال ينبغي لنا ألاّ ننس أنّ جمال ا لله أخفى من جلاله وإحسانه وعلى عكس الأشياء المادية يبدو جمالها قبل تَذّوق إحسانها على اعتبار أنّها أشياء مادية مجسّمة ومحدودة. فا لله يدرك الأبصار ولاتدركه الأبصار وهو اللطيف الخبير.

من هذه المعادلة انطلق ا لله عزوجل يكشف وينبّه إلى إحساناته، في أوّل سورةٍ من سور كتابه العزيز. حتى إذا ماآمن المرء بوجود ا لله وأيقن بإحساناته هذه، أمكن أن يُمعن نظره فيما كشفه ا لله تعالى عليه من أسمائه الحسنى، ومن خلال قوانين تعامل ا لله مع عباده ويكتشف بالتالي وجه جمال ربّه الأخّاذ بمجامع القلوب.

١ـ وجه الإحسان الإلهي :

أفلم يلاحظ قارىء القرآن الكريم كيف أنّ ا لله تعالى ماأن انتهى من مقدّمة مضمون سورة البقرة التي اشتملت على إحدى وعشرين آية كريمة حتى توجّه بخطابه جل شأنه إلى الناس كافة وقال: ﴿**ياأيها الناس اعبدوا ربّكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلّكم تتّقون. الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسّماء بناءً، وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم، فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون.**﴾؟ فهو تعالى دعا الناس قاطبة لعبادته مقدّماً الدّليل على استحقاقه ذلك من خلال معالم احساناته عليهم وعلى الذين من قبلهم، وموضّحاً المقصد من هذه العبادة وأنّه مقصد سام في صالح الناس أنفسهم وأنه يستند في ذلك إلى أساس علمّي.

فلم يقل ا لله تعالى "ياأيها الناس اعبدوني" أو "اعبدوا ا لله" ، بل قال ﴿**اعبدوا ربّكم**﴾ وبالنّظر لدلالة هذين اللّفظين يكون قد قال: "ياأيّها الناس جنّاً وإنساً ذكوراً واناثاً، وبمختلف ألوانكم وألسنتكم وقوميّاتكم استجيبوا لصوتي

هذا الذي تسمعونه من خلال كتابي هـذا وأطيعوني واخضعوا لي وتذلّلوا بين يدي واخدموا دين الإسلام والتزموا ماأنزلته من تعاليم وشرّعته فيـه مـن تشريع ووحّدوني، فأنا خالقكم وربّكم وربّ آبائكم وأجدادكـم مـن قبلكـم أشرفت على تربيتكم وتطويركم جميعاً إلى أن أوصلتكم إلى مـاأنتم عليه. وأنتـم معتبرين بمصائر النّاس الذين لم يستجيبوا لصوتي السّماوي.

فبهذه الألفاظ المعدودات، وبهذا الأسلوب البلاغـي المُدهـش حـرّك ا لله عزّ وجلّ عاطفة النّاس ولعب بأوتار أفئدتهم، فذكرّهم أنّه تعالى هو الذي خلقهم والذين من قبلهم، وأنّه تعالى هو الذي ربّـاهم وطوّرهـم والذيـن مـن قبلهـم. أي ذكّرهم إلى أنّه هو المحسن الأعظم الذي كان له فضل وجودهم وفضل تطويرهـم وفضل المحافظة على وجودهم من قبل ومـن بعـد. ذكّرهـم كيـف أنّـه هـو الـذي أخرج أجدادهم من سـكنى المغـاور والكهـوف وأنّـه هـو الـذي علّمهـم سُكنى السّهول وهذّبهم وحضّرهم، ولولا تدخّل ربوبيّته في أمرهم لظلّوا يعيشون حتـى اليوم عيشة الأنعام ولايعرفون شريعةً إلاّ شريعة الغاب.

ونبّه جل شأنه الإنسان في الوقت نفسه إلى المقصـد الأسمـى مـن دعوتـه الناس إلى عبادته، فنّبه إلى أنّه لايخالطها أنانيّة شخصيّة ولاحاجـة يبتغيهـا منهـم، وكل مايرمي إليه طلبه هذا فهو في صالحهم، لذلك أضاف : **﴿لعلّكم تتّقـون﴾**. مذكّراً بالغاية من انـزال هـذا الكتـاب وهـو أن يجعلـه **﴿هُـدىً للمتّقـين﴾**. وقـد حذف هنا مفعول "تتّقون" تمكيناً منه للقارىء أن يُصرّف الفعل إلى جميع دلالاتـه وبجميـع الاتجاهـات. أي إن أنتـم عبـدتم ا لله ربّكـم يهديكـم درب التعـرّف إليـه ودرب الفوز بمحبته وقربه ورضاه. وإن أنتـم عبـدتم ا لله تتجنبـون بتعاليمـه هـذه مواقع الإضرار بأنفسـكم وأجسـادكم . وإن أنتـم عبـدتم ا لله ربّكـم يقيكـم ا لله شرور أعمالكم ويكتب لكم حياة الخلود.

وهو جلّ شأنه ووفقاً للأصول التي صـاغ كتابـه العزيـز علـى أساسـها، والتي منها أنه لايأتي بادّعاء إلاّ ويُقرنه بدليلٍ من نوعه يؤيده ويثبته. فقد راح هنا يُدلي بدليل علميّ يثبت منهُ كون ا لله موجودٌ وأنـه هـو الخـالق والـرّب والمحسـن الأعظم. فقال: **﴿الـذي جعـل لكـم الأرض فراشاً والسـمّاء بنـاءً وأنـزل مـن السّماء ماءً فأخرج به من الثمّـرات رزقـاً لكـم، فـلا تجعلـوا لله أنـداداً وأنتـم تعلمون﴾**. فأسّس جل شأنه دليله العلميّ هذا على أركـان متعـدّدة، يسـتحيل أن

تجتمع وبهذه الغائيّة دون تصوّر سابق من جانبه تعالى وتخطيطٍ وحُسبان. فالركن الأول لهذا الدليل قوله ﴿**الذي جعل لكم الأرض فراشاً**﴾ أي لاحظوا كيف أن كوكب الأرض ممّهد للعيش على سطحه وبما يلائم الناس خاصّة ومذلّل لخدمتكم وقد مكّنكم من استخدامه كفراش تفترشونه، وقد خلق فيه ما يساعدكم على التنقّل في أرجائه.

والرّكن الثاني لهذا الدليل عبّر عنه تعالى بقوله: ﴿**والسّماء بناءً**﴾ أي لاحظوا كيف أنّ الذي جعل لكم الأرض فراشاً، لم يتركها دون سقفٍ يحميكم وأنتم على فراشها. بل جعل فوقكم سقفاً يحفظ ويصون كلّ مايتعلّق بأعمالكم وإطالة أعماركم، فلولا هذا السّقف البناء أنّى كان لزراعتكم وصناعتكم وتجارتكم وسعيكم في هذه الأرض وسياحتكم فيها أن تحفظ من المؤثرات الخارجية. فللسّماء البناء دخلٌ كبيرٌ في حفظ ذلك كلّه ودوامه. خصوصاً وأنّ هذا السّقف احتوى على الهواء والضّوء المنبّث من الشمس والنجوم، وعلى مايفيد في تأمين اتّصالاتكم السّلكية واللاّسلكية، وعلى طبقة الأوزون التي تحميكم من أضرار الأشعة فوق البنفسجية القادمة من هذه الشّمس.

والركن الثالث لهذا الدّليل أفاده تعالى بقوله: ﴿**وأنزل من السّماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم**﴾ أي لولا أن أبدع خالقكم هذا النظام الجوّي من تبخير للمياه وإنزالها على شكل أمطار فمن أين كنتم ستحصلون على هذا الرزق وهذه الثمرات؟ فماء السّماء ومايرافقه من عواصف ورياح وفيضانات هو وراء ماتنبته لكم الأرض من أشجارٍ مثمرةٍ ونباتات.

ولو أمعن المفكّر نظره في عظمة هذا الدّليل العلمي الذي صيغ على أرقى مايُقدّمه علماء عصرنا من حُجج وبراهين. لاكتفى به وحده تدليلاً على وجود الله الخالق الرّب، وعلى صدق هذا الوحي القرآني ولَلَهج لسانه وقلبه بحمد الله تعالى على احساناته، ولاندفع يستجيب لهذا النّداء الإلهي فيطيع ربّه ويخضع له ويتذلّل بين يديه ويخدم دينه ويلتزم بشرائعه ويكون من الموحّدين، ويصبح من المتّقين، ويهتدي بهدي الله ويتعرف إليه ويفوز بمحبّته وقربه ورضاه.

فقد صيغت هاتان الآيتان بلسان عربيٍ هو في مُنتهى البلاغة صياغة وفي منتهى عظمة الدلالة مضموناً. وقد احتوت على دعوةٍ لعباد الله مع بيان المقصد الأسمى منها، وقدّمت الدليل العلميّ القاطع الذي يؤيّدها، وبأسلوبٍ تَلاعَبَ

بأوتارِ الأفئدة والعقول، و لم يقف الأمر عند هذا الحدّ، بل أُنهيت هاتان الآيتان بدعوةَ أخرى تقوم كنتيجة طبيعية للدعوة الأولى وللتسّليم بها بشكلٍ علميّ أيضاً. فقد أضاف تعالى يقول: ﴿فلاتجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون.﴾ حيث أتى جل شأنه بفاء الاستئناف ليقدّم هذه الدعوة الثانية الموجهة إلى الناس قائلاً أيّها النّاس وهل بإمكان أحدٍ سوى هذا الخالق نفسه أن يُحيط علماً بجميع هذه العناصر التي ذكرناها من أرض فراشٍ وسماء بناء وسماء وماء ومايتتج عن ذلك من ثمراتٍ وماتحتوى عليه من أنواع الغذاء وأنواع الدّواء وأنواع الأمور الضارّة أيضاً، هل بإمكان ندٌ لهذا الإله الخالق أن يضارعه في مضمار إحاطته بعلم ذلك كلّه ويكون هذا النّد مخلوقاً أيضاً؟ ﴿فلا تجعلوا لله أنداداً﴾ أي أنّ من الحماقة بمكان أن تفكّروا بوجود أندادٍ لهذا الخالق خصوصاً ﴿وأنتم تعلمون﴾ ولنلاحظ كيف أنه تعالى حذف مفعول تعلمون ليمكّن القارىء من تصريف الفعل بمختلف الاتجاهات.

أي خصوصاً وأنتم تعلمون أنّ دعوة ا لله إياكم لعبادته وتوحيده ليست هي دعوة حديثة، بل هي دعوة وجهّها ا لله الخالق الرّب للذّين من قبلكم أيضاً. كذلك أنتم تعلمون أنّ الناس انقسموا نتيجةً لذلك إلى فريقٍ مؤمن يفكّر باسلوب تفكير روحيّ ، وإلى فريق كافرٍ يفكر باسلوب تفكيرٍ ماديّ محض . كذلك أنتم تعلمون أن المنطق العلميّ يقولُ إنّ اجتماع عناصرَ عديدة يستحيل أن تجتمع بعاملِ الصُّدفة والضرورة، وهاأننا لفتنا أنظاركم إلى هذه العناصر الضّخمة المحتَوَيات والتيّ تُشكّل بموازينكم العلميّة دليلاً علميّاً على صدق مادعوناكم إليه، فعودوا عن اتخاذ الأنداد لله وعودوا إلى عبادة ا لله الواحد القهّار. وهكذا يكون ا لله تعالى قد أتى من خلال هاتين الآيتين الكريمتين بإعجاز صياغةٍ وإعجاز مضمونٍ يستحيل أن يقدر أي إنسان مهما طال باعه في لغة الضادّ أن يضاهي هذه الصياغة وهذا المضمون.

والذي يؤكّد ماذهبت إليه من بيان دار حول صياغة ومضمون هاتين الآيتين الكريمتين هو أنّ ا لله جل شأنه قال بعدهما وبتحدٍّ صارخٍ: ﴿وإن كنتم في ريبٍ ممّا نزّلنا على عبدنا، فأتوا بسورة من مثله، وادعوا شهداءكم من دون ا لله إن كنتم صادقين فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا، فاتّقوا النّار التي وقودها النّاس والحجارة، أُعِدّت للكافرين.﴾. أي أيّها الناس الذين دعوناكم إلى عبادة

ربّكم لاتتسرّعوا بتكذيب دعوتنا التي وجهّناها إليكم، فدليلنا العلمي الذي قدّمناه لإثبات مقولتنا هو دليل من العظمة بمكان، لايجوز للعاقل المتّزن أن يرفضه دون مبالاة وبأسلوبٍ غير علميّ، فإن ارتبتم في حقيقة مادعوناكم إليه وماقدّمناه لكم من خلال هذا الإنشاء البياني الذي تضمنته هاتان الآيتان من سورة البقرة، فأتوا بسورةٍ وإنشاء بيانيٍّ من مثلِهِ أي بقوّة حُجّته العلميّة ومضمونه تثبتون فيها أنّ مااتّخذتموه من أندادٍ لله الخالق هو الأمر الحقّ وأنّ هؤلاء الأنداد يحيطون علماً بجميع مافي هذه السماء والأرض من أشياء وقادرون على هدايتكم وحفظكم من كل سوء، إن كنتم صادقين في تكذيبكم لدعوتنا، وتكذيبكم لدليلنا العلميّ وصادقين فيما تعبدونه من دون الله عزوجلّ.

ولم يكتف الله جلّ شأنه ببيان وجه إحسانه والتدّليل عليه، ودعوة المُكذّبين لذلك كلّه ليقارعوا الحُجّة بالحُجّة والبرهان بالبرهان، بل راح يُرّهِبُ المكذّبين بما سيؤولون إليه بسبب هذا التكذيب وقال: ﴿**فإن لم تفعلوا، ولن تفعلوا، فاتّقوا النّار التي وقودها الناس والحجارة أُعدّت للكافرين.**﴾.

ولنلاحظ تلكُمُ اللّفظين اللّذين تضمّنهما هذا النصّ القرآني: فاللّفظ الأول هو كلمة (الوقود) وهو ماتوقد به النّار. أي لانار بدون وقود. أي لاوجود لنار الجحيم إن توقّف النّاس عن الكفر بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر. أي أن النّاس الكافرين هم وقودٌ ناري، من جرّاء مايقومون به من عداواتٍ ضدّ رسل الله وأتباعهم، فلهذه الأعمال آثارها النارية في كيانهم الباطني، وبما تنطوي عليه نفوس الكافرين من نار الحقد يأكل أكبادهم ويتجلّى يوم القيامة ناراً تخرج من صدورهم، وإلاّ فليس لجهنّم من وجود أصلاً بدون وجود مكذّبين وكافرين.

واللفظ الثاني المستعمل في هذه الآية الكريمة هو لفظ (الحجارة) فقد كنّى الله تعالى به عن زعماء هؤلاء الكافرين وعمّا اتّخذوه من آلهةٍ أصنامٍ وأرباب.

ثم إن قوله تعالى في هذه الآية ﴿**ولن تفعلوا**﴾ قُصد به التّحدي الكامل لهؤلاء المكذّبين أي لن يكون باستطاعتكم مواجهة هذا الحوار العلميّ بمثله ولاهذا الإنشاء البياني المعجز بمثله. وهذه حقيقة أثبتتها أربعة عشر قرناً مضت لم يبرز فيها إلى الميدان من جانب المكذّبين الكافرين من تصدّى إلى ماتحدّاه الله جلّ شأنه به من هذا النوع من التّحدي الذي ذكرناه.

وبما أنّه ماكان هذا الكلام ليكتمل دون ذكر ماأعدّه ا لله جل شأنه للذين يستجيبون لدعوته فيؤمنون به ويعبدونه وبكامل مااشتمل عليه لفظ العبادة من دلالات أتينا على ذكرها، فقد أخذ جل شأنه يَذْكُرُ ويعدّد ماأعدّه لهؤلاء المؤمنين العاملين وقال: ﴿**وبشّر الذين آمنوا وعملوا الصّالحات أنّ لهم جنّاتٍ تجري من تحتها الأنهار، كُلّما رُزقوا منها من ثمرةٍ رزقاً، قالوا هذا الذي رُزقنا من قبل، وأُتوا به متشابهاً، ولهم فيه أزواجٌ مُطهّرةٌ، وهم فيها خالدون.**﴾. ولايتّسع المقام هنا لشرح مضمون هذه الآية الكريمة. واكتفى بالتنبيه إلى ماتضّمنته من نقاط: فقد نبّهت أولاً إلى أن للأعمال الصالحة ثمارها الروحية. ونبّهت ثانياً إلى أن ماهية هذه الثمار تختلف عن ماهية الثمار الدنيويّة ونبّهت ثالثاً إلى أنّ ظاهرة زوجيّة كل شيء ستستمر في الحياة الآخرة، فسيكون هناك ذكر وأنثى يجتمعان، أمّا كيف وماهي الأسس فأمر مخفي لايعلمه إلا ا لله عزوجلّ. ونبّهت رابعاً إلىأنّ هذه الأزواج مطّهرة. ونهبّت خامساً وأخيراً إلى أن اختلاف ماهية الأشياء في الآخرة أكسبتها حياة الخلود.

وخلاصة ماذكرناه هو أنّ ا لله عزوجلّ كشف في هذه الآيات من سورة البقرة عن وجه جلاله وإحسانه، تفسيراً منه جلّ شأنه لصفة (الرّحمن) التي أوردتها سورة الفاتحة. فالذي يتدبّر كتاب ا لله العزيز سيلاحظ أمثلة لاتحصى من هذا النوع من التذكير وموافقاً للتّسلسل الموضوعي. وأنا اكتفي بهذا المثال وانتقل منه لبيان مايشرح صفة (الرّحيم) التي تعني الوجه الجمالي لهذا الخالق العظيم.

٢ً- وجه الجمال الإلهي :

أقول : إنّ ا لله عزوجلّ لم يبخل على عباده ببيان وجه جماله الأخّاذ. بل ترك لنا أن نستشعر جماله من طريقين اثنين : من خلال أسمائه الحسنى ودلالاتها وتجلّياتها، ومن خلال أقواله عزوجلّ ضمن آيات كتابه العزيز.

فإذا استعرضنا أسماء ا لله الحسنى، نلاحظ أن ا لله تعالى قال من جهة أنّ رحمته وسعت كلّ شيء. وأتى بمثال على سعة رحمته وجمالها وهو صفته "الستّار". من ستر الشيء غطّاه (محيط المحيط) ومعلوم أن الإنسان يعمد إلى سترِ أيّ شيء كان إمّا لنفاسة قيمته أو لدناءته وحقارته أو صيانةً لهذا الشيء من

الفساد. والمهمّ أنّ صفة السّتارية هي صفةٌ حميدةٌ وشيمةٌ فاضلةٌ وتكشف عن جمال وجه صاحبها. والله تعالى لم يصف نفسه أنّه ساتر بل ستّار على صيغة المبالغة والاستغراق، بمعنى أنّه يستحيل أن يضارعه أحد في صفة ستّاريته هذه.

والآن لندقّق هذه الأشياء المادية التي احتوى عليها كوننا المادي من جماد إلى نبات إلى حيوان وإنسان. ولنمعن نظرنا في النواميس الكونيّة التي استند إليها خلق الله لهذه الأشياء جميعها. فسيتراءى لنا جمال صفة الله السّتار المتجليّة من خلال خلق جميع هذه الأشياء. أي أنّه لولا أن كان الله الخالق ستّاراً فما كان لصفة السّتارية أن تبدو فعاليتها عند خلق الله تعالى لهذه الأشياء ذلك أنّ فاقد الشيء لايعطيه.

نتناول وجودنا نحن البشر. فقد ميّزنا الخالق على سوانا من مخلوقاته بجوهرة العقل. فإن نحن دقّقنا نظرنا في تقنيّة إيجاد هذا العقل البشري لاحظنا تجلي هذه الصّفة الجميلة وهي صفة الله السّتار قد لعبت دوراً مهمّاً في تقنيّة هذا العقل . فالعقل أوجده تعالى أصلاً كأداة فكر ومحاكمة.

فالخالق قد خلق هذا الإنسان إذا جلس يفكّر في أمر من الأمور ،خَلَقَه لأيرى مايدور في خلده من أفكار خيّرة ومن أفكار شريّره. فإذا وُجد زوج وزوجته على سبيل المثال ومرّ من أمام أعينهما منظر رجل أو امرأة أو شيئاً له جاذبيّته. فكلّ طرف من هذين الزوجين يتأثّر بما رآه تأثّراً يختلف عن تأثّر الطرف الآخر. وقد يكون الذي جال في رأس كلٍّ منهما صور أفكار حسنة ، أوصور أفكار سيّئة . وقد يتمنّى أحدهما على سبيل المثال أن يخون زوجته ليحصل على ماشاهده ورآه. فلو اطّلع كل طرفٍ على مايجول في رأس الطرف الآخر لانتهى الأمر بهما إلى فصم عُرى محبّتهما وعلاقتهما الزوّجية ولربّما انتهى الأمر بهما أيضاً إلى الاقتتال والطّلاق. وعلى هذه الشاكلة تقاس أمور كلّ إنسان يجتمع بإنسان آخر. فلولا أن تدخّلت صفة الله السّتار التي تمثّل هذا الوجه الجميل الذي يتجلّى به ربّنا السّتار . أقول لولا أن كان لهذه الصفة الالهية الجميلة دخلٌ في تقنيّة تركيبة عقل الإنسان، فلوعاد كل إنسان يرى ويشاهد مايجول في رأس الآخرين من أفكارٍ خيّرةٍ وأفكار شريرة، لكان انتهى الأمر بالمجتمعات الإنسانيه إلى الاختلال والاقتتال، ولكان انتهى بالعلاقات الأسروية إلى الاختلال أيضاً، لكنّ الذي حدث هو أنّ الله الخالق المبدع المصّور الذي أبدع لهذا الإنسان عقله،

أبدعه وبدافعٍ من كونه ستّاراً لايتسرّع في تعرية من يعصيه مـن أوّل مرّة يعصيه فيها، أبدع له عقله وصاغه على صورة لايُرى معها مايدور في خلده من أنواع الصّور والأفكار لأعين إنسان آخر يجلس في مقابله وينظر إليه، فما أجمل خالقنا السّتار الذي صاغ عقولنا لتعمل على هذه الصورة من الخفاء، وبحيث تخفي جميع أنواع الأفكار التي تدور في خَلَدِنا، وجميع ماتمرّ خلاله من صورٍ جيّده أو غير جيّدة

ونتناول جانباً آخر من تقنيّة خالقيّة الله السّتار. فقد لاحظ الأطباء وجود أجهزة مناعة، وأجهزة إنذار، في جسمِ الإنسان وبتقنيّة مدهشة جداً بعد تشريحهم لجسم الإنسان ودراستهم إيّاه دراسةً علميةً تجريبيّة، فالكريّات البيضاء المتواجدة في دم الإنسان، كان من مُهمّاتها، التصدّي لهجمات الجراثيم التي تدخل جهاز الإنسان الهضمي لدى تناوله أطعمته وأشربته بأسلوبٍ غير علميّ. فالتفّريط يحدُثُ من قبل الإنسان نفسه. ولولا وجود جهاز المناعة المذكور، لانتهى الأمر إلى هلاك هذا الإنسان البدائيّ الذي تغذّى بطريق غير علميّ. فالله الخالق، ورفقاً بهذا الإنسان، وستراً منه لظواهر ضعف هذا الإنسان وصيانةً له من محاذير تناول وجبات غذائه بأسلوب وطريقة غير علميّين، فقد اقتضت هذه الصفة الجميلة "السّتار" التي يتحلّى بها هذا الخالق المبدع ليبدع داخل جسم الإنسان جهاز المناعة المذكور ليسترُ منه جلّ شأنه ماسيبدر عن مخلوقه الإنسان من ضعفٍ وتفريطٍ بحقّ جسده. فصاغ جسم هذا الإنسان على صورة يدافع الجسم بنفسه عن نفسه، ويقي صاحبه شرور عدم اعتداله في تناول طعامه وشرابه اليومي وعدم تصرّفه تصرّفاً علمياً. وهل يشكّ المدقّق الباحث، وهو يصل إلى علمه وجود أجهزة المناعة هذه، هل يشكّ بعدئذٍ ولو للحظةٍ واحدة في موضوع اتّصاف الذات الإلهية بصفة السّتارية الأخّاذة بمجامع القلوب وبتدخّل صفة السّتاريّة هذه لحظة عمليّة الخلق وعلى الشاكلة التي ذكرناها؟ فلايشكّ المدقّق العاقل يقيناً في ذلك لاعتقاده أنّ فاقد الشيء لايعطيه، فهذه ظاهرة جمال تجلّي رحمة الله ومظهر ستّاريته التي تشكّل أحد وجوه هذه الرحمة الإلهية التي وسعت كل شيء بذلاً وعطاءً. علماً بأنّه قد ثبت علميّاً أنّ تسعاً وتسعين في المائه من الأمراض التي تنتاب جسم الإنسان تنتابه نتيجة لإهماله وعدم التزامه بالنهج العلميّ عند تناوله طعامه وشرابه، ثمّ إنّ جميع هذه الأمراض، تعالجها أجهزة

الدّفاع التي جُهِّز بها جسم الإنسان نفسه وبصورةٍ تلقائيّةٍ وخفيّة عن أنظار صاحب هذا الجسم وفي داخله، وبشكلٍ يأخذ بألباب علماء التشريح أيّاً كانوا. فما أجمل خالقنا السّتار الذي يستر ضعفنا الذي يتأتى عنّا حين تناولنا لوجبات طعامنا وشرابنا. وماأرحمه بنا إذ خلقنا على هذه الحال.

وقد تبيّن للعلماء الدارسين المُحققيّن أنّ صفة ستارية الله الجميلة هذه قد تجلت أيضاً فيما جهّز الله الخالق أعضاء جسم الإنسان من أجهزة إنذارٍ، تنذر صاحبها كلما أحدق خطر بهذه الأعضاء.

فالأسنان والقلب ومختلف أعضاء الأحشاء مُجهّزة بأجهزة إنذار تنذر صاحبها عند وقوع أيّ خللٍ في هذه الأحشاء والأعضاء، ليبادر إلى علاج هذا الخلل الطارىء ويتداركه بالدواء الناجع. والخلل في هذه الأعضاء والاحشاء يتأتّى أصلاً عن إهمال الإنسان نفسه وليس لنقصٍ في تقنيّة خلق الله تعالى لهذه الأشياء. والإنسان يستحقّ العقاب عن إهماله هذا، ولكن رحمة الله تعالى به وصفة ستّاريّته اقتضت تسليح جسم الإنسان بأجهزة الانذار المذكورة ستراً لظاهرة ضعف هذا الإنسان، على شاكلة ماتفعله الأم الحنون تلفّ رضيعها بما يصون كيانه من خطر العوامل الخارجة عنه، وهو لايدري بما تقوم به هذه الأمّ ولا بما تفعله.

وهل بإمكان أحدٍ يقوم بمراقبة امرأةٍ فقيرةٍ لاتملك ثمن قماشٍ جميل تحفظ به رضيعها، هل بإمكان هذا المراقب إن شاهد هذه الأمّ تلفّ هذا الرضيع بجلد ثورٍ مثلاً أو بكيسٍ من الخيش، أن يهزأ بها؟ أم أنه سيتأثر بجمال فعلها وبعذرها ويقول ماأرحم هذه الأمّ التي سترت وليدها بهذه الأشياء؟ فإنّ نحن نظرنا إلى أجهزة الإنذار التي سلّح الله الخالق بها أجسامنا منذ نعومة أظفارنا بهذا المنظار وبهذه المعايير، يتجلّى لأعيننا جمال ربّنا الأخّاذ الذي يسلب الافئدة والعقول بسمّوه وعظمته. ولأيقنا بصورة لارجعة معها أنّ ربّنا وخالقنا وإلهنا ومعبودنا جميل، وجماله أخّاذ أيضاً إلى جانب كونه هو المحسن الأعظم وهو ربّ العالمين الرحمن الرحيم.

ولنلاحظ أيضاً أنّ أجهزة الإنذار والمناعة التي تكلّمنا عنها لاتفتر تعمل ليل نهار وبلا انقطاع، ولم تُصمّم على صورة تضطرّها إلى طلب الراحة من مشقّة العناء. أي أنّ أجهزة المناعة والإنذار هذه أبدعها الله الذي لاتأخذه سِنةٌ

ولانوم. وهل يقبل عقلنا ومنطقنا أن يُبدع الخالق هذه الأجهزة المستمّرة العطاء، لو لم يكن خالقنا ربّاً رحيماً لاتأخذه سِنةٌ ولانوم. فكم هي عظيمة حكمة القائل إنّ فاقد الشيء لايُعطيه؟

على هذه الشاكلة أكون قد قدّمت أنموذجاً من أسماء الله الحسنى وبما يكشف عن جمال الله الذي يملك هذه الأسماء ويتّصف بها، ولانجد له ندّاً يماثله فيما اتّصف به أيضاً من صفات. وانتقل خطوة ثانية لأكشف عن جمال خالقنا من خلال أقواله في كتابه العزيز. فكلام المرء يكشف عن حقيقة مايحمله من صفات.

دونكم عاطفة الوالدين لأبنائهما. فمن ذا الذي يجهل مايتحمله الوالدان من أخطاء أبنائهم ومن نتائجها ومّما يرّتكبونه من ذنوبٍ أمام أعينهم ومع ذلك يغضّ هذان الوالدان الطرف عن أبنائهم وكأنّهم لم يشاهدوا شيئاً ؟

فما الذي يحملهم على تحمّل كلّ هذا العناء إلا العاطفة والمحبّة الّتي تجيش في صدور هؤلاء الآباء تجاه هؤلاء الأبناء؟ ومع ذلك نلاحظ أنّ الوالدين إذا لاحظا عقوقاً من أحد أبنائهما، قد يطردونه من دارهما.

والآن استمعوا إلى مايقوله ربّنا عزوجلّ بحقّ المذنبين من عباده فستستنتجون منه أنّ عاطفة ومحبة الله لعبادة أعظم من عاطفة الوالدين على أبنائهما بكثير، وأنّها عاطفة مطلقة لاتحدّها حدود، فهو تعالى قال في الآية (٥٣) من سورة الزّمر: ﴿**قل ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله، إن الله يغفر الذنوب جميعاً، إنّه الغفور الرحيم.**﴾ أي اعلموا ياعبادي أنّ محبتي لكم ورحمتي بكم لاتحدّها حدود لأنّ من أسمائي الحسنى أنّني أنا الغفور الرحيم. الغفور الذي يستر والرحيم الذي يرأف ويحب. فما أجمل هذا الوجه الجمالي الصّفاتي الغفور الرحيم، وأين منه رأفه ومحبة الآباء لأبنائهم؟

كذلك دقّقوا في تصرُّفات الوالدين. فقد يعمدان إلى حرمان ابنهما العاق من إرثه، ويقاطعانه اقتصادياً، ويحرمانه من عطاءاتهما.

والآن دقّقوا فيما يقوله ربّنا عزوجلّ بحقّ من يعقّه ويكفر به ويكذب بآياته، فستستنتجون من هذا أنّ عاطفة ومحبّة الله لعباده تحول بين الله وبين أن يعمد إلى حرمان الكافرين العاقّين من عطاءاته الماديّة، فهو يعطي البارّ والعاقّ ولايفرّق حين عطائه الماديّ بين مؤمن وكافر، فالله عزوجلّ قال في الآية (١٩)

من سورة الإسراء: ﴿**ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن، فأولئك كان سعيهم مشكوراً. كُلاًّ نُمِدُّ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربّك، وماكان عطاء ربّك محظوراً.**﴾ أي وماكان عطاء ربّك محظوراً على غير المؤمنين. فهو جل شأنه يعطي ويرزق المؤمن والكافر ويمدُّه بعطائه المادي. وإن كان يُبدي شكره لعبده المؤمن الذي يبتغي عطاء الآخرة ويسعى لنيل ذاك العطاء، ومن مظاهر شكره لهذا المؤمن أنّه يعطيه في الآخرة ويعدّ له مالا يُعدّ لذاك الكافر من شكر وعطاء. فما أجمل هذا الوجه السّلوكي وماأعظم هذه الرأفه وتلك العاطفة التي يحملها الله الخالق الرّب لعباده. وأين منه رأفة ومحبّة الآباء لأبنائهم؟

هذا، وإنّ الذي يدقّق فيما قاله الله تعالى في سورة الحديد يتبيّن له أنّ العذاب الذي يتوعّد به الكافرين من عباده، وإن كان ظاهره من قبله العذاب لكن باطنه فيه الرّحمه والرأفة والمحبة فهو تعالى قال في الآية (١٣) من سورة الحديد: ﴿**يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم، قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً** ـ أي عودوا إلى الحياة الدنيا إن استطعتم فالتمسوا من أعمالكم نوراً، فنورنا هذا ثمرة أعمالنا الصالحة هناك ـ **فضُرب بينهم بسور له بابٌ باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب، يُنادونهم ألم نكن معكُم؟ قالوا بلى ولكنكّم فتنتم أنفسكم وتربّصتم وارتبتم وغرّتكم الأمانّي حتى جاء أمر الله، وغرّكم بالله الغرور، فاليوم لايؤخذ منكم فديةٌ ولامن الذين كفروا، مأواكم النّار، هي مولاكم، وبئس المصير.**﴾.

ألا إنّ الله عزّوجلّ نبّه أذهان عباده هنا إلى أنّ عذاب جهنّم ماهو من قبيل العذاب المادي المعروف في هذه الدنيا، بل هو مجرّد آثار أفكارهم وأعمالهم التي فكروا بها وعملوها في دنياهم. فللكفر بالله وللحقد على رسل الله ولمشاققة هؤلاء ومعاداتهم آثارها النارية التي تتمثّل لهم في الآخرة على شكل عذاب ناري. أي لاتظنوا أيّها الكافرون والعاقون ربّكم أنّ عاطفته نحوكم ومحبته لكم تنقطع يوم القيامة، فها أن الجدار الذي يُضرب بينكم وبين الذين آمنوا في الآخرة، وإن كان ظاهره من قبله العذاب إلا أنه باب باطنه فيه الرحمة، أي فيه الرأفة بكم والمحبة.

المبحث الثالث

طريق الاتّصال باللّه عزوجل

الباب الأوّل

الفصل الأول
١ـ تقديم للمبحث :

دار الكلام في باب العرفان الإلهي حول مفهومه اللّغوي وعن الألفاظ القرآنيّة المعبّرة عن مراحله التي تنتهي بالفوز بمحبّة الله وقربه ورضاه. كما دار الكلام هناك حول الأصول التي تقوم عليها المحبّة الإلهية، ثمّ شرحت تعاليم القرآن الكريم المتعلّقة بكلّ مرحلةٍ من مراحل العرفان الإلهي. وتوسّعت بعدها فاستعرضت ذرائع تحصيل محبة الله تعالى، وحذّرت من المحظورات على الدّرب المذكور. ومن ثمّ تكلّمت عن مضمون المحبّة كعاطفة فطرية، وعمّا لفت القرآن الكريم أنظارنا إليه من معالم حُسنه وإحسانه لتحريك عواطفنا نحوه عزوجلّ، كل ذلك وفق معطيات كتاب الله العزيز. والآن انتقل إلى الكلام في المبحث الثالث لهذا الكتاب، عن طريقة الاتّصال بالله عزّ وجلّ، وما إليه من أمور.

وأجد من المناسب هنا التّنبيه والتذكير بأن فلسفة التعاليم الإسلامية تدور أصلاً حول الفطرة البشرية التي فطر الله تعالى الناس عليها. فهذه التعاليم تساعد الإنسان على مايُزكّي به نفسه، وعلى مايجنّبه عمليّة تدثيتها. وهو الأمر الذي تضمّنه قول ربّنا في كتابه العزيز: ﴿**ونفسٍ وماسوّاها فألهمها فجورها وتقواها. قد أفلح من زكّاها وقد خاب مَنْ دسّاها.**﴾. بمعنى أن المسلم يجد في كتاب الله العزيز مايُعين هذا المسلم على مصارعة ميوله وشهواته وقواه الباطنة وعلى مايجذب بواسطته عاطفة ربّه ومحبّته إليه فيسعى بالتالي إلى تطويرها بما ينسجم ويوافق أسماء ربّه وصفاته. هذه الأسماء الحسنى التي يتّخذها معيار تطوير ومثلاً أعلى يُحتذي به.يُقدم علىذلك ليصبح لائقاً لجذب أنوار هذه الأسماء الحسنى في نفسه وليتلقّى تجلياتها. هذه التجليّات الذي تُنَمّي قواه الباطنة وتعدّلها، وذلك تأسّياً برسول الله (ﷺ) الذي استّحق نتيجةً لهذه العملية هذه التي حققها في نفسه أن يخاطبه ربّه عزوجل بقوله: ﴿**وإنّك لعلى خُلُقٍ عظيم.**﴾ سورة نون.

هذا وقد شبّه إمام زماننا ماتفعله تجلّيات الأسماء الحسنى في فطرة الإنسان وقواه الباطنه، شبّه النفس بالحديدة التي توضع في كور الحدّاد، فإنّ هذه الحديدة تأخذ درجة حرارتها بالارتفاع وتحمّر شيئاً فشيئاً، لتعود هذه الحديدة تشعّ ناراً وهّاجة وهج النّار التي وضعت فيها، وتظهر بالتالي من هذه الحديدة نفس خواص النّار التي وضعت فيها. فالتجلّيات الإلهية لها في جبلّة الإنسان مايشبه هذا التأثير.فتحدث تغييراً في تفكير المُتجلّى عليه وتبدّل نفسيّته وسلوكه اليومي، حتى يعود هذا الإنسان، ذكراً كان أو أنثى إنساناً مباركاً وغير عادي.

ثانياً ـ المحدود لايرى غيرَ المحدود والعكس صحيح

عندما أقول إنّ الشيء المحدود يستحيل عليه رؤية غير المحدود. إنّما أُبسّطُ حقيقةً يتلّمسُها كل واحدٍ منّا في هذه الحياة الدنيا. فالذي يختبىء في غارٍ ما، يستحيل عليه رؤية الجبل الذي هو في باطنه. حتى إذا خرج هذا الإنسان من هذا الغار، وابتعد عنه عدّة أمتار يأخذ هذا الإنسان يرى جزءً من هذا الجبل . وكلّما ابتعد عنه تراءى له الجبل أكثر فأكثر. إلى أن يبتعد عن الجبل مسافة ليست بالقليلة، فيعود يشاهد حينذاك جزء كبيراً من وجه الجبل المقابل له، لكنّه لايراه بأكمله إلاّ إذا نظر إليه من مسافة بعيدة جدّاً ومن مختلف الاتجاهات. فهذا هو حال هذا الإنسان المحدود الكيان مع كلّ شيء محدودٍ مثلُه. أما حاله مع الشيء غير المحدود فيستحيل عليه أن يراه.

ومثالاً آخر هذه الشّمس المتوهّجة في كبد السّماء. فقد ثبت علمياً أنّ حجمها يفوق حجم الأرض بمرّات عدّة. إذ يبلغ قطرها مايزيد عن مليوني كيلو متر ونيّف. وتبعد عن كوكبنا الأرضي مايزيد عن مائة وخمسين ألف كيلو متر. فالشّمس بالرّغم من حجمها الهائل تبدو لأعيننا في أجواز الفضاء بحجم كُرة المضرب، فإذا تضاعف بُعدها عنّا، فقد يأتي وقت لايعود باستطاعتنا رؤيتها، إلا بمساعدة منظارٍ مُقرّب، وهذا كله يحدث لأنّ إنساناً محدوداً يراقب شيئاً محدوداً مثله. أمّا الكيانُ غير المحدود، فتستحيل رؤيته من قريب ولامن بعيد.

وقد أنبأنا القرآن الكريم أنّ الله تعالى ليس كمثله شيء. أي أنّه ليس بمادة من جهة، وهوغير محدودٍ من جهة ثانية، ولايماثله شيء لاوصفاً ولاذاتاً من

جهة ثالثة. ولذلك اكتفى كتاب الله العزيز بانبائنا بهذه المعلومة عن ذات الله عزوجلّ. و لم يتعرّض للكلام عن تلك الذات الإلهية المقدسة بعد هذه المعلومة من قريبٍ ولامن بعيد. وراح هذا الكتاب العظيم يُنبئ عن أسماء هذه الذات الإلهية وأوصافها. حاثّاً إيّانا على استلهامنا منها مُثلنا العُليا ومفاهيم الخير والشّر. كما حثّنا على التفكّر فيما خلق الله تعالى من مخلوقات بأسلوبٍ علمي لإدراك تجليات هذه الأسماء الحُسنى وفق تقنيّة خلقه تعالى لكلّ شيء من هذه المخلوقات. وقدّم لنا هذا الكتاب العزيز تعاليم تؤهّلنا لتلقّي تجليات هذه الأسماء الحسنى في أنفسنا، ليمكننا ذلك من الإتّصال بخالقنا عزوجلّ، وعن طريق تضرّعنا بين يديه بهذه الأسماء الحسنى التي صرّح بها القرآن الكريم.

وهناك حقيقة وهي أنّ الأشياء البعيدة عنّا بُعداً لايُقاس إلاّ بالثواني الضوئية. لاتعود أعيننا ترى منه إلاّ ماتتركه هذه الأشياء من آثار، أمّا ذات هذه الأشياء، فلايعود بالإمكان رؤيتها بالعين المجرّدة بل من خلال آثارها وبأسلوبٍ علمي وبُحسبان أيضاً.

نعود إلى مثال الشّمس، فالذي ينظر إلى هذا القُرص المتوهج في كبد السّماء يظنّ أنّه يمثّل الشمس نفسها. والحقيقة التي كشف عنها العلم في عصرنا، هو أنّ ماتراه أعيننا ليس هو الشمس ذاتها، بل ماتركته هذه الشمس من وهجٍ ونور قبل ثماني دقائق. فالشمس الحقيقية تكون قد ابتعدت عن أعيننا بمسافة توازي هذه الدقائق الثمانية التي يستغرقها وصول نور وأشعّة الشمس إلينا وبسبب دوران كوكبنا الأرضي وبالنظر إلى المسافة التي يحتاج ضوء الشمس أن يقطعها ليصل إلى حيث نقف ننتظر وصوله، إذن نحن نرى تجلّيات الشّمس، ولانرى ذات الشمس نفسها، كذلك فما نظنه أنّها الشمّس تغرب وراء الأفق آخر النهار، ماهو بالشمس الحقيقية، بل هو وهجها ونورها المتجلّي كقرص نورٍ مشتعلٍ يغرب وراء الأفق.

بل قولوا : إنّه لم يشاهد إنسانٌ مايعيش على سطح كوكبنا الأرضي، ومنذ وجود الأرض هذه الشمّس الحقيقية. فالناس جميعهم يغلّف عقولَهمُ القاصرة وحواسَّهُمُ المحدودة العطاء حاجزٌ وغشاوةٌ يمنعانهم عن إدراك هذه الحقيقة، لولا أن كشفت عنها الحسابات والوسائل العلميّة المعاصرة.

وبناءً عليه يستحيل رؤية ذات الله عزوجلّ، لكون الذات الإلهية غير محدودة من جهه، ولبُعدها عنّا بما لايقْدِرُ أحدٌ إثباته بطريقٍ علميّ. فالعلم بالذّات الإلهيّة الخالقة شأن غيبيّ، ليس باستطاعة عقلنا الإحاطة به إلا بمساعدة عاملٍ مساعدٍ هو وحي الله تعالى نفسه ليكشف لنا عن حقيقة ذلك. والذي استفدناه من الوحي القرآني أنّه أنبأنا بقوله تعالى: ﴿**تعرج الملائكة إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة.**﴾، ولم يوضّح هل أنّها سنوات تعادل سنواتنا، أمْ أنّها سنوات ضوئية بحساب الفلكيين. ويكفينا الاستنتاج من مُعطيات هذه الآية القرآنية مدى بعد الذات الإلهية الهائل عن كوكبنا الأرضي، وانطلاقاً من مصداقيّة ماينبئا به القرآن الكريم.

من هذا ندرك استحالة امكانية رؤيتنا لذات الله عزّوجلّ ولو بالمنطق العلمّي، فإن شئنا رؤيتها، فلاسبيل أمامنا إلاّ سبيل رؤية تجلّيات هذه الذات الإلهيّة المقدّسة، وبوسيلة تطويرمانحمله من قوىً باطنة وإحداث تجانسٍ مع أسماء الله الحسنى تأسّياً بصاحب الخُلُق العظيم محمد سيد المرسلين أجمعين (ﷺ).

وحينذاك لن نرى تجليات الأسماء الحسنى بأم أعيننا هذه، بل سنتلّقاها ونراها بأعين كياننا الرّوحي وبمختلف حواسه التي أوتيناها كثمرة لإيماننا بالله وبكتبه وبرسله وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره من الله تعالى، وكثمرةٍ لمبايعتنا هذا الرسول الكريم خاتم النبيين ، وكثمرةٍ لعبادتنا ربّنا الذي أنزل على قلب محمد ﷺ تعاليم مانقوم به من أعمال صالحات، وبموازين روحيّة كشف عنها الغطاء كتاب الله العزيز. وهي موازين من ماهيةٍ تختلف عن ماهية الموازين المادية، كما تختلف عنها بقوانينها الناظمة لها أيضاً. وهذا هو السرّ الكامن وراء تركيز القرآن الكريم على موضوع أسماء الله تعالى الحسنى وإهماله الكلام عن ذاته عزّوجلّ.

ثالثاً ـ إمكانيّة الإتصال بالله تعالي :

فمن هذا المُنطلق وعلى ضوء هذا الفهم أقول: إنّ موضوع الإتّصال بالله الخالق ممكنٌ ولكن عن طريق تجليّات أسمائه الحسنى، وبوسيلة مااستفدناه من علومٍ وذرائع تضمّنها باب العِرفان الإلهي، هذا وإنّ كل إنسانٍ يزعم خلاف ذلك، هو مطالب بالدّليل البيّن وبالأسوة العملية التجريبيّة. وإنّ على هذا

الإنسان ألاّ ينسى ماتحدّى به هذا القرآن الكريم من خلال قولـه تعـالى : ﴿**ومـن يبتغ غير الإسلام دينـاً، فلـن يُقبـل منـه وهـو في الآخـرة مـن الخاسـرين.**﴾ آل عمران ٨٥ ـ

ذلك أنّ ماأنزله ا لله تعالى من تعاليم تضمّنها كتابه العزيز الفرقـان، هـي التي نزلت لتساعد المؤمن المبايع السّالك على التعرّف إلى هذا الإله الخـالق. أقـول لتساعده ولتأخذ بأياديه لتقرّبه من ربّه روحيّـاً، وليس جسـديّاً، فالجسـد هـو في حقيقته مجرّد أداة ماديّة، ولتمكنّه من الفوز بمحبّـة ا لله تعـالى وبلقائـه عـن طريـق تجليّات أسمائه الحسنى، وإنّ كُلّ من يفهم من آي الذكـر الحكيـم غـير ماذكرتـه، يتناقض بشكلٍ تلقائي مع نواميس الكون، ومع معطيات العلم ومـع أصـول فهـم القرآن المجيد، ومع حقيقة الأسوة الحسنة التي قدّمها لنا محمد بن عبد ا لله الصادق الأمين (ﷺ).

لذلك وضعت أوّل عنوان لأوّل فصل من باب موضوع الاتصـال بـا لله تعالى عنوان : (المحدود لايرى غير المحدود، والعكس صحيح.). بمعنى أنّ ذات ا لله تعالى غير المحـدودة قـادرة علـى رؤيـة كـل ذرّة مـن عالمنـا المحـدود بقدراتهـا الخاصّة وبما تحمله من قوى ذاتيه وامكانياتٍ غـير محدودة ولإحاطتهـا بعلـم كـل شيء. وهذا الأمر نبهنّا إليـه قـول ربّنـا عزوجـل: ﴿**يـدرك الأبصـار، ولاتدركـه الأبصار، وهو اللطيف الخبير.**﴾ صدق ا لله العظيم. فنحن يسـتحيل علينـا رؤيـة الذات الإلهية الخالقة لكوننا محدودين، ولكون تلك الذّات المقدّسة لطيفة وخبـيرة وغير محدودة.

أمّا إن نحن استوفينا ماتضمّنه القرآن الكريم من شـروطٍ وتعـاليم فكريـةٍ وعملية، يعود بإمكاننا بعد مانؤتاه من كيان روحيّ باطن له حواسه وإمكانياتـه، أن نشرع نتلقّي تجلّيات وتمثّلات أسماء ا لله الحسنى وأنوارهـا وبركاتهـا، ويكـون هذا التلقّي نابعاً في حقيقة أمره، من ذات صاحب هذه الأسماء الحسنى بالأصالـه. ويكون حالنا شبيه بحالنا مع هذه الشمس المتلألئـة في كبـد السّـماء، مـع الفـارق الكبير، نستفيد من نورها وضيائها ووهجها وحرارتها وغذائها في وقت لاتكـون ذات الشمس بمرآى من أعيننا الجسديّة، بل بمرآى من وسائلنا العلميّة.

أفـلا نلاحـظ كيـف نعجزعلـى الصّعيـد العملـيّ عـن أن نحيــط برؤيـة الأجسام الضخمـة؟ ونُسلّي أنفسـنا بتخيّـل وجودهـا ورؤيـة أبعادهـا وبضوابـط

علميّة؟ فما بالُنا تجاه ذات الله المقدّسة التي لاتحدُّها حدود بمقاييسنا العلمية المادية. هذه الذّات التي تنآى عن أن تأتي ضمن نطاق عمل رؤية أعيننا ووسائلنا العلميّة؟ ليتساءل أحدنا : هل بإمكانه رؤية جسمٍ ملاصقٍ لعينيه؟ أو رؤية جسمٍ في منتهى البعد عنه؟

ألا إنّ شاشات أعيننا ترى الشمس كقرصٍ ملتهبٍ يسبح في الفضاء، وقد ثبت علميّاً أنّ مانراه ليس هو نفس الشّمس، بل ماتركته هذه الشمس وراءها من نورٍ ووهجٍ وضياء. أمّا ذات الشّمس فهي لم يرها أحد من البشر حتى السّاعة منذ وجود هذا البشر على سطح كوكبنا الأرضي، فهذا مثال مُصغّر من واقع كوننا المادي، إن وَعَيْناه، ووضعناه في حُسباننا، عند توجهنا إلى فهم موضوع الاتّصال با لله خالقنا، يُلهمنا هذا المثال ويساعدنا كثيراً لنتفهّم ماسأقدمه من معلومات.

هذا ولاينبغي لأحدٍ أن يعترض على هذه المعلومة التي قدّمناها ويقول: مافائدة الإكتفاء برؤية تجليّات أسماء الله الحسنى، إن كان الإسلام لايدلُّنا على رؤية ذات الله نفسه؟ فلاينبغي لأحدٍ الاعتراض على ذلك الأمر، لأنّه يكون باعتراضه هذا متمرداً على واقعه المادّي.

وهل لهذا المعترض أن يرفض رؤية نور الشمس ويرفض الاستفادة من وهجها وضيائها، لمجرّد أنّه لايستطيع رؤية ذات الشمس بعينيه هاتين؟ فلاأظنّ أنّ أحداً يفعل ذلك. فواقعنا المادي يفرض علينا الاستفادة من نور الشمس ومن اشعاعاتها، وإن استحالت علينا رؤية الشّمس ذاتها.

فالعبرة، كما هو معلوم، بالنتائج، وليست العبرة بالمُقدّمات. هذا ومادُمنا من حيث النتيجة نستفيد من نور الشمس ووهجها، فنحن نستفيد اذن من الشّمس ذاتها وبأسلوب يفرضه علينا واقع عظمة حجمها وواقع بُعدها الشّاهق عنّا. وهاأنّ وسائلنا العلمية اكتشفت أنّ ذات الشمس تظلّ سابقة مانراه في كبد السّماء بثمان دقائق، لكون الشمس مادّة ومحدودة الحجم أيضاً. أمّا الذّات الإلهية المقدسة فتنآى عن وسائلنا العلميّة هذه. هذا وإنّ المؤمن المبايع المعتقد بمصداقية التعاليم المُنزلة في كتاب الله والذي يعمل على هذه التعاليم، يتلقّى تجليّات الأسماء الحسنى التي تتحلّى بها الذّات الالهيّة المقدّسة، ويكون بتلقيّه هذا قد حقّق الإتّصال بذات الله المقدسة بمعنى من المعاني يقيناً. على اعتبار أنّ

تجليّات الأسماء الحُسنى تكون صادرة عن هذه الذّات الخالقة نفسها. فهذه حقيقةٌ لاخصومة فيها ولاجدال.



الفصل الثاني
تجلّيات أسماء الله الحسنى
١ً ـ المفهوم اللّغوي للتمثّل والتجلّي :

ومادمنا قد سلّمنا أنّ رؤية نور الشمس ووهج أشعتها هو بمثابة رؤية ذات الشمس نفسها. ومادمنا قد سلّمنا أيضاً باستحالة رؤية الذّات الإلهية المقدّسة، وأنّ طريق الاتّصال بهذه الذات ينحصرُ في رؤية وتلقّي تمثّلاتها وتجلّياتها. فقد اقتضى منّا هذا التّسليم التقدّم خطوة أخرى على هذا الطريق، ومحاولة فهم كلمتي التمثّل والتجلّي عن طريق تحقيق لغوي نقوم به من خلال ماقدمه لنا أصحاب المعاجم من دلالات لهذين اللّفظَين المذكورين، وليكون فهمنا لدلالاتهما فهما موضوعياً أيضاً.

فما تعلّق بلفظ التجلّي فقد أفادنا معجم (محيط المحيط) أنّه مصدر من تجلّى. وتجلّى تجليّاً أي تكشّف وظهر. فالله تعالى يُجلّي السّاعة أي يظهرها. وفُلان يُجلّي عن نفسه أي يُعبّر عما في ضميره. وتجلّى الله تعالى لفلان أي استَعْلَنَ وظَهَر له. والجلّي نقيض الخفي وهو الأمر الواضح.

والجليّة مؤنّث الجلّي والخبر اليقين. يُقال تكلّمّ عن جليّةٍ أي عن خبرٍ يقين. وجلّى عن فلان الأمر كشفه عنه. وجليّة الأمر حقيقته. يُقال أطلعني على جليّة أمرٍ أي على حقيقته (محيط المحيط).

وماتعلّق بلفظ التمثّل، فقد أفادنا معجم(محيط المحيط) أيضاً أنّه من مثّل فلاناً بفلان شبّهه، واسم الفاعل منه الماثل. ومثّل لفلان الشيء والمقدار والقصاص. جمعه أمثلةٌ ومُثُلٌ ومِثْل. وليس كمثله شيء أي ليس كذاته ووصفه شيء. ومن معاني المثل الحُجّة والبرهان. يُقال أقام له مثلاً أي أقام حجّة وبرهاناً، وبسط له مثلاً أي حدّثه حديثاً، وتماثل الشيئان : تشابها. والتمثيل عند أهل البيان يُطلق على المجاز المركّب وعلى التّشبيه.

والآن إن نحن تدبّرنا القرآن الكريم نلاحظ أنّه أتى على استعمال لفظيّ التمثّل والتجلّي بالمعاني التي أوردها صاحب معجم (محيط المحيط) وغيره. ففي

سورة اللّيل قال تعالى: ﴿والنّهار إذا تجلّى﴾. أي أُقدّمُ النّهار شهادةً إذا تكشّف وظهر. وفي سورة الشمس قال تعالى: ﴿والنّهار إذا جلاّها.﴾ أي إذا كشف النهار الشّمس وأظهرها. وفي الآية ١٨٧ من سورة الأعراف قال تعالى بحقّ السّاعة ﴿قل علمها عند ربّي لايجلّيها لوقتها إلاّ هو.﴾ أي لايكشف الساعة لوقتها ويظهرها إلا الله عزوجلّ. وفي الآية ١٤٣ من سورة الأعراف أيضاً، قال تعالى: ﴿فلمّا تجلّى ربّه للجبل جعله دكّاً، وخرّ موسى صَعِقاً.﴾. ويُستفاد من هذه الآية الكريمة أنّ الله عزّوجلّ إذا شاء أن يكشف عن نفسه ووجوده، يكشف ذلك ويُظهره من خلال تجلّيات أسمائه الحسنى ومن خلال مايتجلّى به من صفات . فمن خلال التجلّيات المذكورة وعن طريق مشاهدة آثارها وفعّاليّاتها يَثْبُتُ لصاحب العقل السّليم وجود الذات الإلهية المقدسة التي تجلّت بهذه التجلّيات لناظريه، فموسى عليه السّلام رآى ربّه وأيقن بوجوده من خلال ماتجلّى به ربّه على الجبل. وإلاّ فلو كان يصّح رؤية ذات الله تعالى، فما كانت هناك من ضرورة لتلك التجلّيات.

ثم إن القرآن الكريم أتى على استعمال لفظ التمثّل في الآية (١٧) من سورة مريم حيث قال فيها : ﴿فأرسلنا إليها روحنا فتمثّل لها بشراً سوّياً.﴾ أي تشبّه المَلَكُ لمريم وهو يحمل رسالة ربّه وبشارته على شكل بشرٍ سويّ المنظر والقامة.

ولابُدّ أن يكون القارىء قد أدرك أنّ لفظي التمثّل والتجلّي ماهما بغريبين عن ألفاظ القرآن الكريم. بل هما من الألفاظ المستعملة في آياته الكريمة، حتى وقد أوردهما القرآن الكريم بصدد إثبات وجوده وللتّدليل على موضوع إمكانيّة الإتّصال به جلّ شأنه، وعليه فلا ينبغي لقارىء هذا الكتاب أن يظنّ أنني من المتصوّفين، أو أني أنقل ممّا أورده المتصوّفون في مؤلّفاتهم، فأنا استعملت هذين اللّفظين بدلالاتهما وبمفهومهما العربيّ المبين.

٢ً - مضمون تجلّيات الأسماء الحسنى:

إنّ لفظ التجلّي الذي درسناه لغوياً، يشكّل في حقيقة أمره إطاراً لفظياً معبّراً عن وسيلة الإتّصال بالله عزوجلّ، فذات الله لاتُرى، على حسب

ماوضّحناه سابقاً، بل تُرى تجلّياتها، على شاكلة الشمس لأيُرى منها إلاّ وهجها ونورها، فالله تعالى يتجلّى عن طريق أسمائه الحسنى. ويتحقّق اتّصال العبد المؤمن به عزّوجلّ عن طريق هذه التجلّيات التي يَثْبُتُ منها وجود الله تعالى وكونه الحيّ القيوم الذي لاتأخذه سِنةٌ ولانوم.

هذه الحقيقة التي ذكرتها دلّتنا عليها مانتلوه في كل ركعة من ركعات صلواتنا وهو ﴿**الحمد لله ربّ العالمين الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين.**﴾. إنّ كلمتي ﴿**الحمد لله**﴾ تعنيان أنّ جميع أنواع الحمد والثناء تستحقها ذات الله على وجه الأصالة. فلماذا هذا الاستحقاق؟ هذا بسبب أنّ الله هو (ربّ العالمين) حيث تبدوا تجلّيات ربوبيّته في كل ذرة من ذرات عالمنا المادي، أي أنّ الله عزوجل هو على اتّصال دائمٍ بمخلوقاته عن طريق تجلّيات أسمائه الحسنى على هذه المخلوقات.

هذا وقد سبق لي أن شرحت ظواهر هذه التجلّيات الإلهيّة من خلال تكوين الجسم البشريّ، حيث يبدو هذا الجسم مُسلّحاً بأجهزة مناعة وأجهزة إنذار ومضخّة قلبيّة تضخّ شلاّلاً من الدم لتجري في عروق أجسامنا لتغذية أعضاء هذه الأجسام وتعمل ليل نهار في حالة وعينا وفي حالة غيبوبتنا. كما يبدو هذا الجسم ذو جهازٍ هضمي وجهاز تنفّسي وحواسّ تساعده على الاتّصال بالعالَم الخارج عنه.

ثم تلاحظ هناك ظاهرة التّوازن الطبيعيّ بين المخلوقات والنّباتات وسواها من الأشياء وعلى صورة مدهشة للغاية، بحيث لايحتمل هذا التوازن الطبيعي أن يحدث فيه أيّ خللٍ ما، وإلا تعرّض وجودنا للأخطار والويلات، أضف إلى ذلك كلّه أنّ الله تعالى تجلّى على العناصر المادية بخواصها المعروفة ففوّض إلى خواصّها صلاحيّة الإفادة والإضرار، وألزم الإنسان باستعمالها بأسلوبٍ علميٍّ وشرعيٍّ أيضاً .

فهذه كلّها ظواهر اتصال الله بمخلوقاته عن طريق أسمائه الحسنى. وهناك ظاهرة متعلّقة بتربية وتطوير هذا الكائن البشريّ أيضاً، وتمثل هذه الظاهرة بعثات أنبياء الله ورسله، أفلم يبعث الله جل شأنه آدم ونوحاً وابراهيم وموسى وعيسى ومحمداً خاتم النبيين وسواهم من أنبياء الله ورسله؟ وأوَلَمْ يُنزل عليهم شرائع وتعاليم لتطوير البشر من حالٍ إلى حال؟ وهل انتصر رسل الله وأتباعهم

على أعداء الله وأعدائهم من الكُفّار والمشركين إلاّ عن طريق اتّصال هؤلاء الرّسل بربّهم وتأييد الله إيّاهم بوسيلة تجلّي أسمائه الحسنى حفاظاً عليهم ودحراً لأعدائهم.

فنحن كمسلمين نؤمن بوجود الله خالقنا، ونؤمن باستحالة رؤية ذاته عزوجلّ وبامكانية الإتصّال به بوسيلة تجلّيات أسمائه الحُسنى، هذا مانفهمه من تلاوتنا ﴿الحمد لله ربّ العالمين﴾.

أما الإنسان الكافر بوجود الله وبأنبيائه وبرسله وبكتبه، فهو محرومٌ من نعمة هذا الإيمان ومن نعمة هذه التجلّيات الإلهيّة وتأييداتها، وهو في عَمَىً عن رؤية وإدراك معالم اتّصال الله تعالى بمخلوقاته وعن ظواهر تجليّاته ضمن تكوين تلك المخلوقات. وإلى هذا الأمر أشارت الآية (١٠٥) من سورة يوسف: **﴿وكأيّن من آيةٍ في السموات والأرض يمروّن عليها وهم عنها معرضون ومايؤمن أكثرهم با لله إلاّ وهم مشركون.﴾.**

ألا إنّ مضمون لفظ التجلّي الإلهي يشتمل على هذه الحقائق المذكورة جميعها. ذلك أنّ الله عزّوجلّ هوعلى اتّصال دائم بمخلوقاته، ويتجلّى هذا الإتّصال ويظهر عن طريق تجليّات أسمائه الحسنى التي لايفتر عملها ولو لِلَحظةٍ من اللّحظات، فظواهر تجلّي أسماء الله الحسنى تبدو داخل أجسام الأشياء وخارجها، كما تبدو من خلال تجارب المؤمنين العاملين.

فالتجلّي الإلهي والاتّصال با لله تعالى بواسطة هذا التّجلي يشكّل حقيقةً كونيّةً ثابتةً من خلال هذين الطريقين المذكورين : تقنيّة خلق كل شيء، في هذا الوجود وثمار الإيمان والأعمال الصّالحات بوجهها التجريبيّ الموضوعي.

فمضمون التجلّي الإلهي بالمعاني المذكورة تُوصلنا إلى وجود طريقين لاثالث لهما للاتّصال بـا لله الخالق عزوجل : الطريق الأول طريق التعامل مع القوانين الطبيعية وخواص الأشياء تعاملاً عِلْمياً. ونكون حينذاك نتعامل مع ظواهر تجليّات الله نفسه، والطريق الآخر هو طريق عبادة الله والانصياع لأوامره وماأنزله من تعاليم في كتابه العزيز وبالدّعاء من هذا الخالق وبالتذلّل بين يديه مستمطرين تجلّي أسماءه الحسنى علينا. فبالدّعاء المستجاب يتمّ الاتصال بـا لله عزوجلّ. إنّ الطريق الأوّل نصّ عليه قوله تعالى في الآية (١٥) من سورة الرعد: **﴿و لله يسجد مَن في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدوّ**

والآصال.﴾ والآية (٤٩) من سورة النّحل: ﴿و لله يسجد مافي السموات ومافي الأرض من دابّة والملائكةُ وهم لايستكبرون يخافون ربّهم من فوقهم ويفعلون مايؤمرون.﴾ والسّجود يعني الطاعة والخضوع.

والطريق الثاني نصّ عليه قوله تعالى في سورة غافر الآية (٦٠): ﴿وقال ربّكم ادعوني أستجب لكم إنّ الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنّم داخرين.﴾.

فنحن نتعامل مع كل شيء موجود ومع النواميس الكونيّة الناظمة له على اعتبار أنهم جميعهم يجلّون تجليات أسماء الله خالقنا ويخضعون طوعاً وكرهاً لمشيئته. ونحن نعبد الله ونطيعه وندعوه ونتذلّل بين يديه لنستمطر تجلّيات أسماء ربّنا مباشرةً وليتحقّق لنا بذلك الاتّصال بربّنا عزّ وجلّ بهذين الطريقين. فهذا هو منهجنا الحياتي وأسلوب تفكيرنا الرّوحي.

أما الذين يكفرون بوجود ربّهم ويقنطون من امكانية الاتصال به عزوجلّ ويفكّرون بأسلوبٍ ماديّ محض ويسلكون منهجاً حياتياً مادياً محضاً. يَصِفُ حالَهم هذا قول الله تعالى في الآية (١٤) من سورة الرعد: ﴿له دعوة الحقّ، والذين يدعون من دونه لايستجيبون لهم بشيء إلاّ كباسطِ كفّيه إلى الماء ليبلُغ فاه وماهو ببالغه، ومادُعاء الكافرين إلاّ في ضلال.﴾.

هذا علماً بأنّ الله تعالى فتح لعباده المؤمنين باب الدعاء والتذلّل بين يديه، على اعتبار أنّ الله هو في حقيقته غنيٌّ عن العالمين. ولذلك قال: ﴿مايعبأ بكم ربيّ لولا دعاؤكم..﴾.

وصفوة القول هو أننا لانعتقد بامكانية رؤية ذات الله عزوجلّ هذا في وقت نعتقد فيه بإمكانيّة الإتّصال بهذه الذات الإلهيّة المقدّسة عن طريق تجلّيات الأسماء الحسنى. فهذا هو مضمون لفظ التجلّي الذي نورده في كتبنا وتعابيرنا وخلال حواراتنا.

٣ـ مضمون تمثّلات هذه التجلّيات:

نتناول لفظ التمثّل الذي أجرينا عليه دراسةً لغوية. إنّ لفظ التمثّل هذا يُشَكّل اطاراً لفظياً يحتوى مضموناً هاماً جدّاً، ففي حين دلّ لفظ التجلّي على

كيفيّة كلام ا لله تعالى مع عباده، أتى لفظ التمثّل ليدلّنا على كيفيّة انتقال هذا التّجلي إلى هؤلاء العباد. أي على كيفيّة تكلّم ذات ا لله اللاّمحدود مع الإنسان المحدود.

فإذا تذكّرنا أنّ من معاني لفظ تمثّل هو التصوّر. وأنّ معنى مثّل لفلان الشيءَ يعني صوّره. نستنبط أنّ التصوّر والتمثّل يفيدان ظهور شيء بمظهر جديد. أي أنّ لفظ التمثّل يشتمل مضمونه على نقل كلام ا لله تعالى إلى عباده على صورة تمثّلٍ وتصوير، وهي حقيقةٌ وضحّتها لنا الآية من سورة مريم: ﴿**فأرسلنا إليها روحنا، فتمثّلَ لها بشراً سويّاً.**﴾ مريم ١٧ ـ أي أن ملاك ا لله الذي حمل إلى مريم بشارة ربّها عزوجلّ، تصوّرُ لها هذا الملاك وتمثّله على هيئة إنسان مُكتمِلِ الهيئة والقوام ولكن ليس بماهيته الأصلية، من هذا نكون قد أدركنا كيف أنّ مضمون لفظ التمثّل قد وضّح لنا الكيفية التي ينتقل بواسطتها كلام الذات الإلهيّة اللاّمحدوده، إلى كيان الإنسان المادّي المحدود، هذا الكيان المركّب من جسدٍ وروحٍ. ولاينبغي أن نظنّ من الآية المذكورة أنّ مريم قد رأت ملاك ا لله المتمثل بشراً سويّاً، بأمّ عينيها الجسمانيتين، بل بحواس كيانها الباطني. أفلا نتذكّر كيف أنّ جبريل كان يتمثل لعيني محمد رسول ا لله (ﷺ) الروحيّتين وليس لعينيه الجسمانيتين؟ فلو أنّ عيونه الجسمانيّة هما اللتان كانتا ترَيا وتشاهد جبريل عليه السّلام لكان جميع من يحضر في مجلسه (ﷺ) من أصحابه قد رأوا جبريل على شاكلة مارآه رسول ا لله (ﷺ) نفسه. والحقيقة هي أنّ تجلّي أسماء ا لله الحسنى وتجلّي ملائكة ا لله وتمثلاّتهم تتوافق شدّة وضعفاً، سمّواً وتدنّياً على حسب مستوى المُتجلّى عليه والمُتمثّل له وعلى قدرسمّوم مقامه الرّوحي.

هذه الحقيقة الروحيّة التي ذكرتُها تتطلّب منّي الشرح والتوضيح بمثال مادي مع وجود فارق بين الأمرين. وأضرب لهذا القارىء مثالاً ماديّاً، فلنتصور عظيماً ـ مُتربّعاً على عرشه المُنشأ على مكان مرتفع من الأرض، فالإنسان الذي يمرّ من أمامه لايقدر على مصافحته لانخفاض المكان الذي يقف عليه. فماذا يحدث حينئذ ؟ إنّ أبسط مايحدث هو أن ينحني هذا العظيم ليدنو من هذا الشخص مادّاً يده نحو الذي يرفع يده لمصافحته وهنا تتلاقى اليَدان ويتصافحا.

فهذا مثال ماديّ مع الفارق يعطينا فكرة تقريبيّة عمّا يحدث حين يكلّم الكيان الإلهي اللاّمحدود، الكيان البشريّ المحدود.

فكلام ا لله تعالى يتجلّى ويتمثّل لهذا العبد الذي يريد ربّه أن يُكلّمه وذلك عن طريق تجلّي أسمائه الحسنى المُختصّة بذلك الكلام ومضمونه. وهذا التمثّل والتّصور يأتي على قدر مرتبة هذا العبد الرّوحية، ولايراه هذا العبد بأمّ عيني جسمه، بل بعيني كيانه الرّوحي، وبذلك يتحقّق كلام الذات غير المحدودة، مع المحدود.

أي أنّ تجليّات أسماء ا لله الحسنى النّاقلة كلام الذات الالهية المقدّسة غير المحدودة إلى الإنسان المحدود، تتعاظم وتتضاءل ضمن أشكال تمثّلاتها بما يوافق منزلة المُتجلّى عليه ومقامه الرّوحي، فبقدر مايسمو مقام هذا الشيء بقدر مايكون تمثّل تجلّي ربّه عليه أرفع وأعظم.

ولنَعدْ إلى الأمثلة ممّا احتوت عليه الكتب السّماوية المأخوذ بها في عصرنا الحاضر. فلقد ورد فيما نقله إلينا متّى من رواياتٍ وصلت إليه ونسّقها على شكل إنجيلٍ مقدسٍ عند المسيحيين. ورد في الاصحاح $\frac{3}{16}$ منه مايلي : (فلّما اعتمد يسّوع صعد للوقت من الماء. وإذا السّموات قد انفتحت له، فرآى روح ا لله نازلاً مثل حمامة وآتياً عليه، وصوتٌ من السّموات قائلاً : هذا هو ابني الحبيب الذي به سُررت.). ونحن لنضرب صفحاً عمّا احتواه هذا النّص وعن مدى صحته وعدم صحّته. ونكتفي بتأمل وتدبّر جُمله (فرآى روح ا لله نازلاً مثل حمامة وآتياً عليه..). فبهذه الألفاظ، ومن خلال قوله (نازلاً مثل حمامة) نستشّف المقام الرّوحي الذي كان المسيح يحتلّه عند ربّه في أوائل سِنِي دعوته. فلم يتجلى روح ا لله أي ملاكه أعظم من حجم حمامة.

فإذا قارنّا ذلك بما رآه موسى ضمن كشفٍ روحيّ تجلّى ربّه به على شكل نارٍ مضيئةٍ، ومن ثمّ تجلّى على الجبل فجعله دكّاً، وقيل له اخلع نعليك إنّك بالوادِ المقدّس طوى. وهذه حقيقة أوردها سفر الخروج من التّوراة المعاصرة في الإصحاح $\frac{3}{6-2}$ كمايلي : (وجاء (موسى) إلى جبل ا لله حوريب، وظهر له ملاك الرّب بلهيبِ نارٍ من وَسَط عُلّيقة. فنظر وإذا العُلّيقةُ تتوقّد بالنّار، والعُلّيقة لم تكن تحترق. فقال مُوسى أميل الآن لأنظرُ هذا المنظر العظيم. لماذا لاتحترق

العُلّيقة؟ فلّما رأى الرّب أنّه مال لينظُر ناداه ا لله من وسط العُلّيقه، وقال : موسى موسى، فقال : هاأنذا. فقال لاتقترب إلى هُهنا. إخلع حذاءك من رجليك، لأن الموضع الذي أنت واقفٌ عليه أرضٌ مقدّسة. ثم قال : أنا إله أبيك ابراهيم وإله اسحق وإله يعقوب. فغطّى موسى وجهه لأنّه خاف أن ينظُر إلى ا لله..) فإن نحن ضربنا صفحاً عن مناقشة هذا النّص وعن مدى صحّتـه أوعدمها ،نستشفّ من مضمونه مقام موسى الروحيّ ومرتبته من خلال فقرة: (وظهر له مَلاَك الربّ بلهيبِ نارٍ من وَسَط عُلّيّقة..) فملاك ا لله لم يتمثّل "بشراً سوّياً"، و لم يحمل هذا الملاك وحيّاً لفظيّاً إلى موسى عليه السلام. لكنّنا إذا قارنّاه بتجلى ملاك ا لله على المسيح الناصري بحجم حمامة، نستشف عُلّو مرتبة موسى على مرتبة المسيح الروحيّة بدرجات.

فإن نحن عُدنا إلى تاريخ الرّساله الاسلامية، وإلى ماحدث في اليوم الأوّل من ذاك التاريخ، لاحظنا أنّ روح ا لله أي ملاكـه تجلّى لأعين محمد على هيئة بشرٍ سويّ من جهة، ويحمل له وحياً لفظياً أيضاً من جهة ثانية فكان هـذا وحي أوّلُ آيات سورة إقرأ كما هو معلوم وموثّق وغير مُختلفٍ فيه. فأين هذا التجلّي من تجلّي ملاك ا لله في نارٍ في علّيقه، ومن تجلي ملاك ا لله على شكل حمامة؟ فمن خلال هذه المقارنة الموضوعية ندرك صحّة ماذهبت إليه من أنّ تجليات أسماء ا لله الحسنى الناقلة كلام ذات ا لله غير المحدودة إلى الإنسان المحدود تتعاظم تمثُلاتها وتتضاءل بما يتوافق مع منزلة المُتجلّى عليه ومقامه الرّوحي.

أفلم نتلو قول ربّنا عزوجلّ في سورة النجم: ﴿**ثـم دنـى فتدلّـى، فكـان قاب قوسين أو أدنى. فأوحى إلى عبده ماأوحى.**﴾. فهذه الكلمات تُفهم على ضوء مُعطيات مِثالي المادّي الـذي ضربتـه للقارىء وليساعده ذلك على إدراك حقيقة أنّ تجلّي أسماء ا لله وتمثّلاته تتوافق والمستوى الروحي للمُتجلّى عليه والمُتمثّل له شدّة وضعفاً، وتَدَنّياً وسُمُواً، فقد أوردت هذه الآية لفظ (تدلّى) نسبةً لتجلّي وتَمَثّلُ الذات الالهيّه المقدّسة. أي أنّ المقام المحمدي كان دون مستوى هذه الذات المتربّعة على عرشها، ثم إنّ الآية: ﴿**فكان قاب قوسين أو أدنـى. فـأوحى إلى عبده ماأوحى.**﴾. تعبّر عن المقام الرّوحي الذي بلغه محمد رسول ا لله (ﷺ) خلال سلوكه وعروجه الرّوحي. وهو مقام روحيّ تسامى عن مقامات جميع

الأنبياء والمرسلين الذين خَلوا من قبله ولذلك استحقّ لقب ﴿خاتم النبيّين﴾ بمعنى أعظمهم شأناً ومقاماً . إضافةً إلى كونه آخرهم على شاكله قول الشاعر :

فُجع القريض بخاتم الشّعراء وغدير روضته حبيب الطّائي

بمعنى أن الشاعر القريض يعطي الشاعر حبيب الطائي الدرجة الأولى الأسمى من بين الشعراء. وبهذا المعنى قالوا : فلان خاتمة المحققين، وخاتمة المحدثين وخاتمة المجدّدين.

والخلاصة هي أنّ لتجلّيات كلام الله تعالى وتمثُّلاته مدارج روحيّه لانهائية، لأنّها تصدر عن ذات الله المُقَدّسة التي لاتحدّها حدودٌ بمفهومنا المادي. ويتجلّى ويتمثّل هذا الكلام للإنسان وفق مرتبته الرّوحية وبذلك فلاتحدث هذه التجليّات والتمثلات على مستوى واحد.

وأنا سبق لي أن قلت إنّ أعين الإنسان الجسديّة عاجزة عن رؤية تجلّيات كلام الله وتمثّلاته فالإنسان لايراها إلاّ بأعينه وحواسه الباطنية، فهذا القول بحاجة لى التوضيح والإثبات. ودليلنا على ذلك أنّ كلّ إنسان يتلّمس هذه الحقيقة يومياً، خصوصاً عندما يستلقي ليأخذ نصيبه من الراحة ويهيمن عليه سُباتُ نومٍ عميق. أفلا يلاحظ هذا الإنسان كيف أن عينيه الجسمانيّتين اللّتين كانتا في حالة يقظة لاتعودان تريان شيئاً بسبب انطباق جفونها على بعضها فلا تعود تنعكس صور الأشياء على شاشتيهما. وفي لحظات هذا السّبات العميق يدبّ نشاطٌ وحركةٌ غير عاديّتين في كيان هذا الإنسان النائم، وينقلب يرى أشياء وأشياء ويأكل ويسافر ويقوم بأفعال شبيهه بما يقوم به هذا الإنسان قبل أن ينام. فمادامت أعينه مُغمضة الجُفونُ، فبأيّةِ العيون يرى هذا الإنسان النائم مايراه؟ فلولا أن كان لكيانه الباطني حواسّاً مثل حواسّ جسمه، لاستحالت على هذا الإنسان رؤية مايراه خلال نومه. فهذا واقع لامَهْرب للمفكّر منه، بالرغم من جميع التّفسيرات التي قدّمها علماء النّفس وسواهم ممّن خاضوا هذا المجال، وسآتي فيما بعد على خلاصة ماذهب هؤلاء إليه. والمهم في الأمر هو أن النائم يرى دون وساطة عينيه الجسمانيّتين.

٤ـ فروق مابين الرؤيتين : اليقظة والنوم :

فإن نحن وازنّا مابين الرؤيتين : رؤية اليقظة ورؤية المنام، تتجلّى لنا فروقٌ جوهريّةٌ بينهما وإن تماثلتا وتشابهتا. فالفرق الأول هو انعدام الزمان

والمكان في المنام. والفرق الثاني هو أن القوانين الناظمة للرؤى المناميّة تختلف عـن القوانين الناظمة لرؤى اليقظة. والفرق الثالث يبدو من خلالي بثٌ يحدث من عدّة جهات يستقبله كيان هذا النائم وكأنّـه جهـاز استقبال تلفزيونـي، فهـو يستقبل مؤثّراتٍ فكريّة، ويستقبل مؤثرات فيزيولوجية عضوية ويستقبل ويضخّـم مـايصل إلى سمعه من أصواتٍ وموسيقى، ويستقبل ويضخّم مانام عليه من مؤثـرات قـوى كحقد أو حسد أو بُخل أو هوى وعشق وماإليه.

والآن فباعتبار الفرق الأول بإمكّاننا القول إن كيان هذا النائم الداخليّ، يدخل عالم اللاّمحدود الذي ينعدم فيه الزّمان والمكان. هذا الزمان والمكـان الـذي لايتبقّى منه إلاّ أسماؤه أي أنّ هذا العالَم اللامحدود الذي انخرط فيه كيان الإنسـان النائم تأتي أشياؤه متشابهة مع أشياء حالة يقظته، إنّمـا بالأسمـاء وليـس بالماهيـة. وأترك الكلام عمّا نستنتجه من الفروق الأخرى لمناسـبتها. وأكتفـي هنـا بـالقول لولا أن كان للكيـان النّفسيّ للإنسـان حـواسّ روحيّـه شـبيهة بـالحواس المادية، لاستحال على هذا النائم أن يرى جميع مايراه. فهذه حقيقة تشكّل دليـلاً يتلّمسـه كل إنسان ويركن إلى صدقه من خلال تجربته اليوميّه المذكورة.

ولنعلم أنّ الله تعالى الذي هـو ربّ العـالمين، ومـن مُنطلـق دلالـة كلمـة الرّب الذي يعني أنّ الله تعالى يطوّر هذا الإنسان المخلوق طوراً بعد طور، فيُرَقّيـه باتّجاه التّمام. فلنعلم أنه تعالى أنزل التّعاليم التي تضّمنها كتابه العزيز ليؤتينا كياناً روحيّاً جديداً وبحواسّ جديدة باطنة تمكّننا من استقبال تجلّيـات وتمثّـلات الكـلام الذي يخاطبنا به ربّنا عزّ وجلّ . فيؤتى المؤمن عيونـاً روحيـةً غـير عيونـه، وآذانـاً روحيةً غير آذانه وحواسٌ روحية غير حواسّ جسده، أي أنّ هـذا الإنسـان الـذي آمن وبايع وسلك درب عرفان ربه وسعى للفوز بمحبّة ربّه وبقرّبه وبلقائه ويؤتـى كياناً روحياً تنمو حواسّه شيئاً فشيئاً، ليصبـح هـذا الكيـان الروحـي الجديـد هـو أساس حياته القادمة الخالدة اللاّمحدودة والتي ينعدم فيها المكان والزمان، ولايبقـى منهما ومن أشياء هذا العالم المادي إلا الأسماء والأشكال فقط وبماهيّةٍ تختلف عن ماهيّة الحياة الدنيا المادّية.

فإشارة إلى هذه الحقيقة ورد قول ربّنا عزوجلّ في الآية (٢٥) من سورة البقرة: ﴿**وبشّر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أنّ لهم جنّاتٍ تجـري مـن تحتهـا**

الأنهار، كُلّما رُزِقوا منها من ثمرةٍ رزقاً قالوا هذا الذي رُزقنا من قبل، وأُتوا به متشابهاً، ولهم فيها أزواجٌ مُطهّرةٌ، وهم فيها خالدون.﴾.

ففي قوله تعالى ﴿**وأُتوا به مُتَشابهاً**﴾ كان فيه الإشارة إلى الحقيقة التي ذكرناها، ولفظ التشابه يعني اختلاف الماهيّتين، ماهيّة أشياء الدنيا المادّية وماهيّة أشياء حياة الخلود. ولايربط بين هذه وتلك إلا الأسماء والأشكال، لذلك لاينبغي للقارىء أن يعجب لِعالَمٍ مايراه في منامه، فهو عالمٌ نموذجيٌ عن عالم الخلود واللاّمحدود، يعظُنا خالقنا به يوميّاً، ويشوّقنا عن طريقه إلى معرفة ماأعدّت لنا رحمة الله من نعماء. أو لم نقرأ قول ربنا عزوجلّ: ﴿**هو الذي يتوفّى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها، فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجلٍ مُسمى.**﴾؟

وعلى هذه الصّورة نكون قد أحطنا علماً بمضمون التمثّل، وبمفهوم اللاّمحدود، إلى جانب ماعلمناه من قبل فيما يتعلق بمضمون التجلّي، هذه الألفاظ الثلاثة المُتصّلة بكلام الله مع عباده والمرتبطة به ارتباطاً موضوعياً وعضوياً.

والذي نستنتجه من دلالات هذه الألفاظ، وبشهادة الآية من سورة مريم وهي قوله تعالى ﴿**فأرسلنا إليها روحنا فتمثّل لها بشراً سويّاً.**﴾. أقول إن الأمر الذي نستنتجه من ذلك كلّه هو أنّ التجلّي يسبق التمثل. فالتّجلي بداية والتمثّل نهاية. ويَحدثان في عَالَمٍ لامحلّ فيه للزمان والمكان.



الفصل الثالث
الله الخالق كان ولايزال يتكلّم مع البشر :

وسبق لي أن أثبتّ في القسم الأوّل من هذا الكتاب أنّ عقيدة وجود الخالق وتوحيده سبقت وجود عقائد الشّرك، وبذلك أثبتّ بُطلان النظريّات المضادّة المعاصرة. وجئت الآن لأثبت بالدليل القرآني والعلمّي والتاريخيّ صحّة ماذهبت إليه، وهوأنّ ا لله جل شأنه مايزال يتصّل بعباده ويكلّمهم منذ خلقهم وأوجدهم على سطح كوكبنا الأرضي وإلى الآن.

فليمعن قارىء القرآن الكريم في صياغة قول ا لله عزوجل: **﴿ماكان لبشرٍ أن يُكلّمه ا لله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يُرسل رسولاً فيوحي بإذنه مايشاء.﴾** شورى ٥١ - فهل تساءل في نفسه في يوم من الأيّام عن حكمة إيراده تعالى لكلمة بشر في هذه الآية بدل كلمة إنسان؟

١- مفهوم إنس وبشر لغوياً :

تعال معي أيّها القارىء إلى ماأورده صاحب معجم(المقاييس) من دلالاتٍ للفظيّ إنس وبشر. فقد كتب يقول : بشر أحرف بأصل واحد وتدلّ على ظهور الشيء مع حُسنٍ وجمال. وسُمّي البشر بشراً لظهورهم. والبشارة الجمال، والبشير الحَسَن الوجه. وتباشير الصّبح أوائله وكذلك أوائل كلّ شيء. والمبشرّات الرياح التي تبشّر بالغيث.

أمّا كلمة إنس فهي أحرف بأصلٍ واحد أيضاً . وهو كلّ شيء خالف طريقة التّوحش. وعليه فإنّ كلمة "بشر" تشير إلى التاريخ الذي ظهر فيه الإنسان على سطح كوكبنا الأرضي. وإنّ كلمة إنس تشير إلى انتقال هذا المخلوق من حالة التوحّش إلى حالة الأنسنه والتحضّر. وهذه المعاني تعني بألفاظ أخرى أنّ صياغة الآية المذكوره، قُصِدَ بها التّدليل على أنّ ا لله الخالق كان يشرف على هذا المخلوق الذي خلقه ليطوّره بتجليّات ربوبيته. فكان ا لله الخالق

يكلّمه أيضاً ويتّصل به مُذ كان هذا الإنسان يعيش حالةً من التوّحش. فهذه معلومات أفادتنا بها صيغة هذه الآية الكريمة على ماهي عليه في كتابه العزيز. أي أنّها نبّهت أذهان الباحثين والمفكرين إلى أنّه كان من أسماء الله الحسنى" المتكلّم" لذلك فقد كان طبيعيّاً جدّاً أن يُكلّم مخلوقه الإنسان في زمنٍ كان البشر فيه بأشدّ الحاجة إلى هدايه ربّه الذي خلقه من أجل تحقيق مقصدٍ عظيم.

٢ـ البشر القديم "جنّ" بمصطلح القرآن الكريم:

والحق أنّه ثبت علمياً أنّ البشر كانوا يعيشون حالة توحّش قبل تحضّرهم، فكانوا يأوون إلى الكهوف والمغاور يختفون فيها عن أعين الحيوانات المفترسة ويحمون أنفسهم من تقلّبات العوامل الطبيعيّة ويقتاتون بما يحصلون عليه من صيدهم للحيوان أو الطير الذي يقدرون على اصطياده بوسائلهم البدائية جدّاً. فكانت حالتهم هذه حالة توحّش غريزية شابهوا بها حالة أنواع الطير والحيوان من حولهم الذين يحيون شريعة الغاب يأكل قويُّهم ضعيفهم بوسيلة صيده إيّاه بعد الإنقضاض عليه. ثم إنّ القرآن الكريم استعمل للبشر في فترة تاريخهم المذكور إسم "الجنّ". اشتقاقاً من جُنّ بمعنى استتر في الكهوف والمغاور على حسب ماثبت تاريخيّاً. فقد أتى جلّ شأنه بهذا المعنى في الآيتين (٢٦ - ٢٧) من سورة الحجر، حيث قال هناك: ﴿**ولقد خلقنا الإنسان من صلصالٍ من حمإٍ مسنون. والجانّ خلقناه من قبل من نار السّموم.**﴾ فلم يكن المقصود هنا التّمييز بين مخلوقين اثنين، بل بين دورين مرّ بهما إنساننا المعاصر. فالمقصود من الجانّ في هذه الآية الكريمة البشر في حالة توحُّشه "من قبل" أن يتحضّر عن طريق بعثة آدم عليه السّلام. وليس المراد من ألفاظ (نار السّموم) معانيها الحقيقية بل المجازية بقرينه حالة التوحّش. أي أن طبائع البشر في تلك الحُقبة من الزّمان كانت طبائع نارية تلتهب لأتفه الأسباب، فهي طبائع حارّه شبيهة برياح السّموم النافذة في المسام، فهي تقتل أصحابها وتحول دونهم ودون تحضّرهم ولذلك تأخر بعث الأنبياء والمرسلين فيهم في تلك الحُقبة من تاريخهم السّابق لبعثة آدم عليه السّلام.

وسيجد القارىء في كتابي الذي هو تحت الطباعة وعنوانه (الجنّ حقيقة أم خيال) سيجد تفصيل كلّ شيء يتعلق بشرح هاتين الآيتين وماقبلهما ومابعدهما شرحاً مستفيضاً إن شاء الله العزيز.

أفلاحظت أيّها القارىء أهميّة وعظمة وإعجاز مادلّتنا عليه صياغة قول ربّنا عزوجلّ : **﴿ماكان لبشر أن يكلّمه ا لله إلاّ وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه مايشاء.﴾**؟ فقد كان من مفترضاً أن يُقال: "كان ا لله يكلّم البشر وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه مايشاء". لكنّ الواقع أن ا لله عزوجلّ المُعجز في كلامه أعرض عن الصّياغة البّسيطة هذه. وصاغ الآية المذكورة مُفعمةً بالمعاني والدّلالات. فهو تعالى شاء أن ينبّه أولاً إلى الفترتين التاريخيّتين اللتين قطعهما هذا المخلوق. وأن يُقلّل من شأنه يوم كان بشراً متوحّشاً ثانياً. وشاء ثالثاً التّنبيه إلى أنه كان يتصل بهذا المخلوق ويكلّمه وهو على حاله تلك لتطويره منها إلى حال أفضل. وشاء رابعاً التّنبيه إلى أنّ اتّصال ا لله تعالى بهذا المخلوق بعد أنسنته وتحضيره وتمدينه هو حقيقة من باب أولى. وشاء خامساً التّنبيه إلى أن إتصال ا لله تعالى ومكالمته لاتنحصر في أشخاص الذين يصطفيهم من أنبيائه ورسله والذين يُنزل عليهم شرائعه وتعاليمه، بل بالنّاس كافّة من أي لون أو لسان أو قومية انتسبوا إليها، ذلك أنّ ا لله تعالى هو ربّ الناس أجمعين.

هذا وقد عمد جل شأنه إلى أسلوبه المعجز والمتميّز لتضمين هذه الآية الكريمة جميع هذه المعاني الواسعة فأتى بحرف (ما) الموصولة الحرفية التي لاتعمل إن أدخلها على الجُملة الفعليّة. خصوصاً وأنها هنا مصدرية غير زمانيّة، فأدخلها على فعل (كان) فقلّل جلّ شأنه بذلك من شأن الإنسان يوم كان بشراً يعيش حالة توحّشه، فقال (ماكان لبشر). ثم إنه عزوجلّ أتى بالحرف المصدريّ (أنْ) فأدخله على فعل يكلّم المضارع لينصبه، ويظلّ هذا المضارع في موضع رفع فقال "أن يكلّمه" وأحدث بذلك انسجاماً بلاغياً موسيقياً مابين هاتين الصّيغتين لتمسيا: **﴿ماكان لبشر أن يكلمه ا لله﴾**. ومن ثمّ أتى جل شأنه بحرف الاستثناء (إلاّ) لِيحَصُر أخيراً طرق كلامه مع عباده فقال **﴿إلاّ وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه مايشاء.﴾**.

فا لله تعالى وبهذا الأسلوب في صياغة هذه الآية من كتابه العزيز أمكنه أن يُضمّنها جميع المعاني الخمسة التي ذكرتها آنفاً ، وبأسلوبٍ معجزٍ يعجز عن أن يخطر ببال إنس أو جانّ.

فإن تساءل القارىء بعد أن كشفت له عن واسع دلالة هذه الآية الكريمة المذكورة، أقول : لئن تساءل في نفسه : وهل كان الله جل شأنه يتصّل بالبشر ويكلّمهم بهذه الطرق الثلاث التي تضمّنتها هذه الآية الكريمة ثمّ ماهو دليلُنا على ذلك؟

٣ً- أدلّتُنا على أن الله تعالى كان يكلّم البشر قبل آدم وبعده:

فأُجيب على هذا وأقول : لقد كان منطقيّاً جداً أن يُكلّم الله تعالى مخلوقه هذا والذي كان لايزال متوحّشاً ووفق جبلّته وحالته البدائية أي من وراء حجاب ثم إنّ تكلّم الله تعالى مع البشر خلال أدوار تاريخه الحجرية من وراء حجاب كانت ضروريّةً أيضاً. فقد كان كلّ واحدٍ من البشر يومئذٍ يستلقي وينام ويروح في سُباتٍ عميق، على شاكله مايحدث لكلّ إنسان في عصرنا. فإذا لخصّنا ماوضّحته قبل هذا من أنّ كلام الله مع عباده يتحقّق بتوسّط تجليّات وتمثّلات أسمائه الحسنى. هذه التجليات والتمثّلات التي تعجز أعيننا هذه عن مشاهدتها، لكننا نراها ونستقبلها بحواس كياننا الباطنيّ، هذا الكيان الذي هو أشبه بمحطة استقبال تلفزيونية مع الفارق، فإن نحن سلّمنا بهذه الحقيقة وبواقع أنّ البشر كانوا ينامون ويرون في منامهم مايوافق بيئتهم وحالة توحشّهم، فقد كان طريق مخاطبتهم في حالة نومهم أي من وراء حجاب كان هو الطّريق الأنسب لاتّصال خالقهم بهم ، والكلام معهم من وراء حجاب. هذا وإنّ الذي يُعيد النّظر في تاريخ الشّعوب من هذه الزّاوية ومن هذا المنظار ستتراءى له صحّة ماذهبت إليه. فالرؤى الرحمانية كانت دوماً مَشْغَلَةَ أذهان النّاس زمن توحشّهم حتىوبعد تحضُّرهم وإلى هذه الأيام.

ليعد القارىء الكريم إلى سورة يوسف الآيات (٤٣ ـ) : ﴿**وقال المَلِكُ إنّي أرى سبع بقراتٍ ياكُلّهن سبعٌ عِجاف، وسبعَ سُنبلاتٍ خُضرٍ وأُخَرَ يابسات، ياأيّها الملأُ أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبُرون. قالوا أضغاث أحلامٍ ومانحن بتأويل الأحلام بعالمين.**﴾. فقد نبّهت هذه الآيات الكريمة من جُملةٍ مانبّهت إليه، هو أنّ النّاس أيّام الفراعنة كانوا يرون مايرونه في حالة

نومهم، وكانوا يقسّمون مايرونه إلى قسمين : قسم يُسمّونه أضغاث أحلام، من ضَغَثَ الحديث خلطه، وأضغث الحالِمُ الرؤيا جاء بها مُلتبسة. فأضغاث أحلام ماالتبس من الأحلام ممّا لايصحّ تأويلها لاختلاطها. والقسم الثاني من الرؤى كان بالإمكان تأويلها فهي رؤىً صادقةً ورحمانيّةومظهر تجلّي وتمثّل كلام ا لله مع رائيها (محيط المحيط).

فالملك حين قال : ﴿ياأيّها الملأ افتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبُرُون.﴾ فقد كان يخاطب مستشاريه وعلماء مجلسه. فالملأ يعني التشاور، ويطلق على الذين يُلتمس عندهم جودة الرأي والمعروف (محيط المحيط) فالملك عرض مارآه في منامه على مستشارية يستفيتهم في أمر تأويل مارآه. فلو كان النّاس بما فيهم المَلِك ينظرون إلى مايرونه خلال نومهم على أنّه مجرّد أضغاث أحلام وحسب لايصحّ تأويل شيء منه لالتباسه واختلاطه. فلو كان الأمر كذلك يومذاك، فما كان للملك أن يستفتي مستشاريه.

وكيف صدّق هذا الملك ماأوّله له يوسف عليه السّلام الذي : ﴿قال تزرعون سبع سنين دأباً، فما حصدتم فذروه في سُنبله إلاّ قليلاً ممّا تأكلون، ثم يأتي من بعد ذلك سبعٌ شدادٌ يأكلُن ماقدّمتم لهُنّ إلا قليلاً ممّا تُحصنون. ثم يأتي من بعد ذلك عامٌ فيه يُغاث الناس وفيه يعصرون.﴾. فكيف قبل المِلكُ هذا التّأويل الذي أوّله له يوسف وأيقن أنّه نبأ وكلامٌ إلهيٌّ معه؟ فهذه حادثةٌ تاريخيةٌ أخبرنا بها كتاب ا لله العزيز، ولتحمل لنا حقيقة ممّا ذكرناه آنفاً، ولاينكرها إلاّ من كان يجهل تاريخ مصر، وتاريخ هذه الرؤيا، وماحدث بسببها في مصر من أحداثٍ هامة.

ألا إنّ أوّل علمٍ عرفه البشر وتعلّموه من واقع ماكانوا يرونه في منامهم هو علم الرؤيا. هذا العلمُ الذي أصبح مشغلةً أذهانهم في كلّ زمانٍ ومكان. ذلك أن حالة النّوم، كانت تشكّل وسيلة تكلّم ا لله مع هذا النائم من وراء حجاب. فلو تقصيّنا تلك الحقيقة من خلال ماعثر عليه الباحثون من الآثار واللّقى والمخطوطات لجمعنا مجلّدات حول هذه الحقيقة ومجلدات.

ولاأقصد من كلماتي هذه أنّ البشر ماقبل التاريخ كانوا ينقشون على كهوفهم ماكانوا يرونه في منامهم. بل الذي أقصده، هو أنّ البشر وبعد بعثة آدم عليه السّلام قد استمرّ اتّصال خالقهم بهم بهذه الوسيلة من الإتّصال وهو الأمر

الذي وضع جلّ شأنه أساسه وقاعدته في جبلّتهم الباطنيّة وبشكل مدهشٍ وملفتٍ للأنظار. فقد صاغ الله الإنسان محتاجاً إلى النوم والرّاحة وإلاّ فسينتهي الأمر بـه إلى المرض والموت يقيناً. وهذا أمر أثبتته الأبحاث العلميّة وبات أمراً مفروغاً منـه. فإذا استسلم هذا الإنسان إلى النوم واستغرق فيـه، ينطلـق كيانـه البـاطنيّ في عـالم ينعدم فيه الزّمان والمكان ويعود هذا الكيـان البـاطن كشاشـة استقبال تلفزيونيّـة يلتقط ماتبثّه أعماله اليومية من آثار في أعماقه من جهة كما يلتقط ماتبثّه عضويّـة جسمه من تأثيراتٍ من جهة ثانية وماكان يدور في خلـدِهِ نهـاراً مـن محاكمـاتٍ وتصوّراتٍ من جهة ثالثة ومايحدثُهُ الضجيج حول هذا النائم مـن بـثٍ للأصـوات من جهة رابعة . فإلى جانب استقبال شاشة كيانه البـاطنيّ لجميـع ماتبثّـه محطّـات البثّ المذكورة، فإن هذه الشاشة الباطنة كانت تسـتقبل ماتبثّـه تجليّـات وتمثّـلات أسماء الله الحسنى من تجليات وتمثّلات موجّهة إليه ومعبّرةٍ عمّا يريده خـالق هـذا البشر منه ومايشاء مكالمته به من كلام من وراء حجاب.

هذا وهل يظنّ قارىء القرآن الكريم حينما يمرّ علـى تلـك الآيـات الـتي نقلت لنا أخبار مُختلف الرؤى التي رآها ابراهيم ويوسف وحزقيال وملـك مصـر وغيرهـم، هل يظنّ هذا القارىء أنّ الله عزوجلّ يسرد لنا هذه الرؤى عبثـاً ودون حكمةٍ يُريدها وهو الخبير الحكيم؟ بل كان يقصد منها تنبيهنا إلى أن كلامـه مـع عباده بطريق الرؤى هو كلام من وراء حجاب. وقد ذكر لنـا أبـرز هـذه الـرؤى المؤثرة في تاريخ هذا الإنسان، ومأأحدثه الله عزّ وجلّ عن هذا الطريـق في تـاريخ هذا الإنسان من انقلاباتٍ ردّدتها الألسن في كلّ مكان.

وبإمكان كلّ باحثٍ أن يتقصّى هذه الحقيقة على حسب ماذكرتـه مـن خلال ماتضمّنته جميع الكتب السّماويّة المعاصرة ليتحقّق من صدق ماذهبت إليـه. فأنا أتناول التوراة المعاصرة على علاّتها، وأترك مأأوردته عن تاريخ موسـى وعـن اتّصالـه بربّـه. فنحـن نؤمـن بقـول ربّنـا في كتابـه العزيـز : ﴿**وكلّـم الله موسـى تكليماً.**﴾ أي كلّمه بجميع طرق كلامه المقرّره مع عباده الصالحين فقد كلّـم الله موسى وحياً ومن ورء حجاب وأرسل إليه رسولاً من ملائكته ينقـل إليـه ماشـاء أن يكلّمه به. فهذا هو مأفهمه أنا من ﴿**وكلّم الله موسى تكليماً.**﴾ فقد حملت لنا هذه الألفاظ هذه الحقيقة التي ذكرتها وهو أنّ موسى كان قد بلغ مرحلـةً مـن

النّضوج العقلي أهلّته لتلقّي كلام ربـه بهـذه الطـرق الثـلاث المنصـوص عليهـا في الآية (٥١) من سورة الشّورى.

لذلك أعود بالقارىء إلى التّاريخ الذي سبق بعثة موسى عليه السلام وهوماتضمنته التّوراة المعاصرة عنه من نصوص متعلقة بكلام الله مع أبرز عباده الصالحين ومن وراء حجاب.

فقد ورد في سفر التكوين $\frac{32}{24}$ ورد حرفيّاً : (وأتى الله إلى لابان الأراميّ في حُلمْ اللّيل وقال له احترز من أن تكلّم يعقوب بخير أو شرّ). ويروي سفر التكوين المذكور أنّ لابان المذكور اجتمع بعد هذه الرّؤيا بيعقوب عليه السلام وقال له: (ولكنّ إله أبيكم كلّمني البارحه قائلاً : احترز من أن تكلّم يعقوب بخير أو شرّ). وهذا النصّ التوراتي إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على أنّ الناس زمن النّبي يعقوب كانوا يُعطون مايرونه في منامهم أهميةً بالغةً ويعتقدون أنّ الله الخالق يتصّل بمن يشاء أن يكلّمه بهذا الطريق وهو طريق ماوراء حجاب.

وهذه التوراة المعاصرة تقصّ علينا في سفر التكوين $\frac{37}{9}$ مارآه يوسف عليه السلام في منامه، فقد أوردت حرفياً : (فقال ــ يوسف ــ إني قد حُلمت حُلماً أيضاً وإذا الشّمس والقمر وأحَدَ عشر كوكباً ساجدة لي. وقصَّهُ على أبيه وإخوته. فانتهره أبوه وقال ماهذا الحُلْم الذي حَلُمْتَ. هل نأتي أنا وأمّك وإخوتك لنسجد لك إلى الأرض. فحسده إخوته، وأمّا أبوه فحفظ الأمر).

فبغضّ النّظر عن الاختلاف الواقع مابين هذه الرواية التّوراتيّه ومابين الرواية القرآنيّة، فيكفينا أن نستنتج من هذا النصّ التّوراتي أن ماكان يراه الإنسان النائم في منامه من رؤى صادقة كان يُعدُّ في نظر أهل ذاك الزّمان من قبيل كلام الله مع صاحب الرؤيا ومن وراء حجاب . إضافةً إلى أنّ أصحاب تلك الرؤى كانوا موقنين أنّ هذا النوع من الرؤى الصّادقة يشتمل أيضاً على كلام الله المُوجّه إلى الرّائي بطريق التّجلي والتمثّل ، وأنّ هذا التمثّل يحتاج إلى تأويله أيضاً.

وفي سفر التكوين الأصحاح $\frac{40}{1}$ أوردت التوراة المعاصرة مارآه ملك مصر ومأأوّله له يوسف عليه السّلام حيث ورد فيها: (وحدث بعد هذه الأمور أنّ ساقي ملك مصر والخبّاز أذنبا إلى سيّدهما ملك مصر.. فوضعهما في حبس ببيت رئيس الشّرط في بيت السّجن المكان الذي كان يوسف محبوساً فيه..

وحَلِما كلاهما حُلْما في ليلةٍ واحدة.. فقال لهما يوسف أليست لله التّعابير. قُصّا عليّ.) وبقية القصّة معروفه توراتياً وقرآنياً. والمهم أننا نستنبط من هـذا النّـص أنّ يوسف حينما قال للمَسْجونين اللذيـن معـه (أليسـت لله التّعابـير؟) أخـذ منهمـا إقراراً بأنّهما يعتقدان بأنّ الله يكلم الإنسان من وراء حجاب عن طريق مايراه في منامه. وهذا الأمر أقرّ به ملك مصر لذلك لاحظناه قد أخذ بتأويل يوسف لما رآه في منامه شخصيّاً، وقد أثبتت الأيام مصداقيّة مأأوّلـه يوسـف لرؤيـا ملـك مصـر. وهذا الأمر وهذا النصّ التّوراتي يثبت منه صدق ماذهبت إليـه مـن أنّ كـلام الله تعالى ينتقل إلى من يريد الله تعالى الاتصال به ومكالمته من وراء حجـاب بطريـق تجلّي أسماء الله الحسنى المختصّه وتمثّلاتها في منام من شاء الله عزوجلّ مكالمته.

وأورد لنا سفر التكويـن في الإصحـاح $\frac{46}{1}$: (فكلّـم الله إسـرائيل (أي يعقوب) في رؤى اللّيل وقال: يعقوب يعقوب! فقال : هاأنذا. فقال أنـا الله إلـه أبيك لاتخف من النّزول إلى مصر..).

ومن خلال هذا النصّ نستنتج أيضاً أنّ الله عزوجـلّ ظـلّ يكلّـم أنبيـاءه ورسله الكرام من وراء حجاب وبطريق منامهم إلى أن اكتمل نضج عقول عبـاده واستحقوا من الله تعالى أن يكلمهم بجميع الطرق الثلاثة المنصوص عليها في الآيـة (٥١) من سورة الشورى، وهذا الأمـر إن تقصّينـاه مـن خـلال معطيـات تـاريخ جميع الأمم فسنصل إلى هذه النتيجة التي توصّلنا إليها آنفاً وبصورة يقينيّـةٍ. أيضـاً وبامكاننا أن نجمع بذلك مجلّدات تشتمل على هذه الحقيقة ومجلّدات.

٤ـ الأدلّة القرآنيّة التي تؤكّد مكالمة الله مع البشر قبل آدم :

ولسائل أن يسأل : من آيّة الآيات القرآنية استدلّلت علـى أنّ الله تعـالى كان يكلّم هذا الإنسان يوم كان بشـراً وفي حالـة توحّـش، وخـلال فـترة مـاقبل التاريخ وأنّه كان يكلّمه من وراء حجاب؟

وجواباً على هذا السؤال أقول : إنّ الذي يتدبّر الآيـات القرآنيّـة التاليـة سيوقن بما تيقّنته أنا شخصياً من مدلولاتها ويُقـرّ بالتـالي أنّ الله الخـالق لم يقطـع صلته بمخلوقه البشر بعد خلقـه إيّـاه، بـل ظـلّ يرعـاه ويطـوره بكلامـه مـن وراء

حجاب. فقد استهلّ الله عزوجل سورة الدّهر بقوله تعالى: **﴿هل أتى على الإنسان حين من الدّهر لم يكن شيئاً مذكوراً. إنّا خلقْنا الإنسان من نطفةٍ أمشاجٍ نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً.﴾**.

وقال تعالى في سورة الأعراف : **﴿ولقد خلقناكم ثم صوّرناكم ثم قُلنا للملائكة اسجدوا لآدم.﴾** وقال تعالى في سورة الحجر : **﴿وإذ قال ربّك للملائكة إنّي خالقٌ بشراً من صلصالٍ من حمإٍ مسنون فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين. فسجدَ الملائكة كلّهم أجمعون. إلاّ إبليس أبى أن يكون مع الساجدين.﴾**.

إن الله عزّوجلّ قد أنبأنا في الآيات من سورة الدّهر عن الدّورين اللّذين مرّر هذا الإنسان خلالهما فربّاه وطوّره إلى أن بلغ مرحلته المعاصرة. كذلك نبّه الباحثين في الوقت نفسه إلى أنّ هذا البشر لم تكن له طوال دوره الأول الحجريّ حضارةٌ ولاتهذيب، فهو في تلك الحُقبة من الزمان **﴿لم يكن شيئاً مذكوراً﴾**. كما نبّه جلّ شأنه الباحثين إلى أنّ هذا الإنسان المتوحّش كان ربّه قد طوّره بعد أن أكمل له قواه العقلية وذاكرته فجعله " سميعاً بصيراً ". أي طوّر ملكاته العقلية فمكّنه بالتالي من التزوّد بإمكانيات روحيّةٍ فوق إمكانيّاته المحدودة .

كما أنبأنا تعالى في الوقت نفسه بأنّ الذي يعجب لبقاء هذا البشر في دوره الأول هذه المدّة الطويلة من الزّمان. سيزول عجبه إن هو انتبه إلى الفارق العظيم مابين نطفة الإنسان ونطفة الحيوان. فالله عزّ وجل خلق هذا الإنسان من نطفةٍ أمشاج أي من نطفةٍ ذات قوى متقابلةٍ ومتضادّةٍ (وهو الأمر الذي وضحته في نظرية جذور الأخلاق.). وأنّ هذه النّطفة الأمشاج كانت الغاية منها، أن تؤهّل هذا الإنسان إذا ماتفتّحت عند نشوئه ونموّه ليدخل عن طريقها حياته الدّنيا حرّ الإرادة والقرار والمصير. وليبتليه خالقه عن طريق ذلك ليكرم أو يهان بعد مماته.

ثم إنّ الآية من سورة الأعراف التي قال تعالى فيها **﴿ولقد خلقناكم ثمّ صوّرناكم..﴾** قد وضّح تعالى لنا من خلال فصله بين كلمتي خلقناكم وصوّرناكم بالحرف (ثمّ) وهو الحرف الذي يستعمل للتّرتيب. وضّح بكلّ جلاء أنّ البشر كان محتاجاً أصلاً إلى هذه المدة الطويلة التي استغرقها دور وجوده ماقبل

التاريخ. فقد كان الخالق عزّ وجلّ يُخْضِع البشرلعمليّة (تصويره) ليس تصويراً جسمانياً بل حواسيّاً على اعتبار أن التّصوير الجسماني يسبق الخَلْق ترتيباً.

وهذه قرينة تنقل معنى ﴿ثم صورّناكم﴾ من معناها المتبادر للذهن إلى معنى النّوع والصّفة (محيط المحيط). فالبشر كانوا شابهوا ماحولهم من الأنعام في بداية خلق الله إيّاهم. ومن ثمّ أخذ خالقهم يعلّمهم مايمتازون به عن الأنعام صفة ونوعاً سواء على صعيد أسلوب حياتهم ووسائلها وسواء على صعيد استخدامهم لعقولهم وسواء على صعيد نظرتهم إلى أنفسهم أيضاً.(راجع مؤلّف خلق الإنسان)

أما في الآيات من سورة الحجر فقد نبّه الله تعالى أذهاننا إلى أنّه صاغ جبلّتنا الباطنة فيها الإستعداد لتلبية صوته السّماوي، وذلك من خلال قوله تعالى: ﴿بشراً من صلصال من حمأٍ مسنون﴾. فالصّلصال اشتُقّ من صلّ الشيء يصل صليلاً أي صوّت. والحمأ المسنون الطّين الأسود المُنتن (محيط المحيط) فهو تعالى نبّه إلى هذه الحقيقة الفطريّةِ في مَعْرِضِ كلامه عن بعثة آدم عليه السلام.

فإن نحن قُمنا باستعراض ماتضمّنته هذه الآيات جميعها من معلومات وهي أنّ إنسان ماقبل التاريخ لم يكن شيئاً مذكوراً لبعده عن التهذيب والحضارة، وأنّ الله علّمه وعلى طول تلك الحُقبة من الزّمان مايميّزه عن الكائنات الحيّة من حوله صفةً ونوعاً ، وأنّه جل شأنه كان يقوم بعمليّة تسويةٍ لهذا المخلوق بوسيلة مايعلّمه إيّاه في حالة نومه ليحوّله من بشر إلى إنسان وهو ماأشار به تعالى من خلال قوله مخاطباً ملائكته ﴿فإذا سويّته﴾ وليؤهّله من خلال تسويته لمرحلة النّفخ فيه من روح الله أي لإنزال تعاليمه عليه وليجعله إنساناً روحانيّاً (محيط المحيط) ليتعرّف إلى خالقه وليفوز بقربه ورضاه وليستحّق الحياة الخالدة.

ألا إنّ هذه المعلومات التي أفادتنا بها هذه الآيات الكريمة لاتبدو في ظاهرها ذات شأن كبير. لكنّنا إذا كُنّا مُلميّن بأصول تفسير القرآن الكريم تتبدّل نظرتنا إلى هذه المعلومات بصورةٍ جذريةٍ. ونُدرك أنّها تشكّل بين أيدي الباحثين مناراتٍ تهديهم على طريق بحثهم عن تاريخ إنسان ماقبل التاريخ.أي تفسّر لهم أطوار العصور الحجريّة القديمه .

فمن أصول تفسير كتاب الله العزيز أن تفسّروا آياته من منطلق أنّه كلام الله عزوجلّ، وتُفسّر هذه الآيات بما لايُخالف صُنع الله وإبداعه وذلك

بالتوفيق بين دلالاتها و بما يتّفق ومايكشف عنه العلم، إذ لايُعقل أن يتضارب كلام الصّانع مع ماصنعه هذا الصّانع وأبدعه. وانطلاقاً من هذا الأصل، فمن واجب المتدبّر لآيات القرآن الكريم وقد أحاط علماً بما زودّتنا به الآيات التي أوردناها من منارات هدى تهدينا على طريق محاولة الإحاطة بتاريخ الإنسان لما يعود لفترة ماقبل التاريخ يوم كان بشراً أقرب إلى حالة التوحّش منه إلى حالة إنسان مُهذّبٍ ومتمدّن. فمن واجب هذا المتدبّر أن يعود إلى ماتكْشف عنه الحفريات من آثار البشر القديم، ولتهديه إلى النتائج الصّحيحة.

هذه المنارات من المعلومات التي زوّدتنا بها هذه الآيات القرآنية، لاأن نضرب عن هذه المنارات صفحاً، ويذهب ذهننا باتّجاه وضع نظرياتٍ تعتمد التخيّل والفرضيّة والاحتمال. فإن أخذ متدبّر آيات هذا الكتاب العزيز بهذا الأصل التفسيريّ، يكون كمن وضع النّقاط على الأحرف ووافق دلالات هذا الفرقان.

هذا على اعتبار أن مازوّدتنا به هذه الآيات من نقاطٍ رئيسيةٍ على طريق بحث تاريخ البشر قديماً، تُلزمنا الاعتقاد بأنّ ربّ العالمين ماخلق أجدادنا الأوائل وتركهم لشأنهم، بل لابدّ أن اظلّتهم تجليّات وتمثُّلات ربوبيّته عن طريق المنام ومن وراء حجاب، فهو جل شأنه الذي مهّد هذا السبيل ليكون وسيلةً للاتصّال بهم وهم على حالة التوحّش تلك، فلابدّ أن يكون الله ربّهم قد علّمهم آنذاك كلّ مايحتاجونه إبقاءً على وجودهم ولتسوية عقولهم وتصويرهم فلم يخلقهم عبثاً حتى يتركهم لشأنهم تتناهبهم الأمراض والآفات وتقضي عليهم وتبطل المقصد من وجودهم على سطح هذا الكوكب الأرضي. فقد ثبت على سبيل المثال أن دلّت التحرّيات على أن البشر تعلموا ايقاد النار منذ أكثر من (٦٠٠٠٠٠) عام تقريباً، وراح أصحاب العقول المادّية يضعون النّظريات حول تحقّق الحدس المذكور في مثل ذاك الزمان الغابر السّحيق، على حين أنّ الذي يحيط علماً بما وضّحته ومابينته له من خلال معطيات هذه الآيات القرآنية ينتهي به الأمر إلى الاعتقاد أنّ الله الخالق الربّ هو الذي علّم بشر ذاك الزمان ايقاد النّار ليشوي مايصطاده فلايأكله نيئاً على شاكلة مايفعله الحيوان من حوله، وأنّ هذا التعليم قد تحقق بطريق مايراه بشر ذاك الزمان حين ينام أي من وراء حجاب، وعلى هذه الشاكلة تُقاس بقية الأمور.

ولاينبغي أن يستغرب الباحث من طول المدّة التي قضاها البشر في حالةٍ من التّوحش، فالإنسان من طبيعة تكوينه وأسلوب تفكيره أنّه لايتغيّر بسرعة، بل يتغيّر ويتحوّل وفقاً لقوانين التطوّر، فهو عدّو ماجهل من جهة، وهو لايقتنع بفائدة شيء إلاّ بعد القيام بتجربته والإقتناع بصحّته.

فإن اقنعته تجاربه يسارع إلى الأخذ بهذا الجديد ويعمل عليه. أي أنّه يحتاج إلى فترة عدّة عقودٍ من الزمان ليأخذ بشيء جديد، وذلك على حسب ماأثبتته تجارب العلماء والباحثين.

فقد ثبت من منطق تاريخ هذا الإنسان أنّ تقليده لِما نشأ عليه تشكّل أحد سماته، وليس من السهولة بمكان أن تطوّر هذا الإنسان وتجري تغييراً فيما نشأ عليه. أفلم يخبرنا كتاب الله العزيز أنّه كلما كان يبعث الله تعالى رسولاً، كيف كانوا يقولون :﴿ **إنّا وجدنا آباءنا على أمّة وإنا على آثارهم مُقتدون.**﴾ الزخرف ٢٣ ـ فهذا حال الإنسان من بعد بعثة آدم عليه السّلام. فبالأحرى أن يكون حالهم في زمن توحشّهم أسوأ من ذلك بكثير. أما وصلت إلينا أشعار إحدى زوجات معاوية رضي الله عنه وقد تزوّجها من أهل البدو. فبالرغم من حياة الترف التي لَمَسَتْها عنده فقد ألبسها أفضل الثياب في رفقته معها لاحظها تقف في شرفة قصره وتنشد وتقول :

لبيتٍ تجري الرّياح فيه   أحبّ إليّ من قصرٍ منيف
ولبس عباءةٍ وتقرّ عيني أحبّ   إليّ من لُبس الشفوف

إلى آخر الأبيات. فهذا هو سرّ احتياج البشر قبل بعثة آدم عليه السّلام إلى هذه المدّة البالغة في القدّم. ذلك أنّ الله عزوجلّ نبّه وقال ﴿**من نطفةٍ أمشاجٍ نبتليه**﴾ أي نمتحن إرادته واستعماله لعقله فقد أنشأنا الإنسان حُرّ الإرادة لتمريره من هذه التجارب وهذه الامتحانات. وإلاّ فقد كان بإمكان الله الخالق عزوجلّ أن يطوّر هذا الإنسان خلال أيّام معدودات، وأن يجعل الناس أمة واحدة أيضاً. فالخالق لم يترك هذا المخلوق دون معُونَةٍ منه وهداية، بل كان يعلّمه من وراء حجاب.

❁❁❁

الباب الثاني
آدم النّبي الأوّل

الفصل الأول
أخطاءُ وإشكالاتُ المفسرين :

فإلى هنا نكون قد أحطنا علماً بموضوع اتّصال الله ببشر ماقبل التاريخ ومكالمته خالقه إيّاه من وراء حجاب. لذلك نتقدّم خطوه أخرى على هذا الطريق لنتبيّن معالم النّقلة النوعية التي أحدثها ربّنا عزوجل عن طريق اصطفائه آدم، وبعد أن سوّاه وأعدّه لحمل رسالته إلى لكنّي أرى من الضروري هنا حلّ بعض الاشكالات التي وقع فيها المفسرون في موضوع آدم.

١ـ ظنّهم أنّ آدم هو أول مخلوق :

فقد ذهب ذهن بعضهم، وبتأثير ماسمعوه من المعتقدين بالتّوراة من اليهود، ذهب ذهنهم إلى أنّ آدم كان أوّل مخلوق خلقه الله عزوجلّ. على حين لو أنّهم تدبّروا الآيات القرآنية جيداً بعيداً عن الإسرائيليات، لتبيّن لهم أن القرآن الكريم يسفّه ماورد في سفر التكوين من التوراة المعاصرة. ويُعلن في الوقت نفسه أنّ آدم لم يكن أول البشر بل أوّل نبيّ اصطفاه ربّه على شاكلة مااصطفى نوحاً وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين. هذه الحقيقة قد أوردها ربّنا عزوجلّ في الآية (٣٣) من سورة آل عمران : ﴿**إنّ الله اصطفى آدم ونوحاً وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين.**﴾.

فهو جلّ شأنه استعمل في هذه الآية الكريمة كلمة (اصطفى) التي تعني على حسب ماأورده صاحب معجم (محيط المحيط) وغيره من المعاجم تعنى اختار من خلقه. أي أن الله تعالى كان قد خلق الإنسان، ومن ثمّ اختار آدم من صفوة هؤلاء الخلق. وذلك على شاكلة اصطفائه نوحاً وآل إبراهيم وآل عمران، وقد فضّل هؤلاء الذين اختارهم واصطفاهم على العالمين من حولهم ، وليس على النّاس أجمعين . وهذه المعاني تؤكّد وجود بشرٍ قبل آدم عليه السّلام.

كذلك نبّهنا ربّنا جلّ شأنه في الآية (١١) من سورة الأعراف بقوله: **﴿ولقد خلقناكم ثمّ صورّناكم ثمّ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم، فسجدوا إلاّ إبليس لم يكن من السّاجدين.﴾** فنلاحظ كيف أنّ الله عزوجلّ راح يُنَبّه ذهن القارىء إلى ترتيب مافعله ربّه، وذلك بوسيلة الحرف (ثمّ) الذي استعمله تعالى في هذه الآية الكريمة ليفيد العطف والترتيب أيضاً (محيط المحيط) فنبّه جل شأنه بذلك إلى أنّ عمليّة اصطفائه آدم لم تحدث كبداية، بل حدثت كنهاية سبقها عمليّة الخلق ثم عمليّة التصوير للهيئة والصّفه. أي سبق زمنٌ طويل على عمليّةِ اصطفاء الله تعالى آدم فهو تعالى طوّرالبشر خلال تلك المدة وميّزه عما حوله من الأنعام.

فهاتان الآيتان صريحتا الدّلالة على أنّ آدم لم يكن أوّل الخلق بل كان أوّل نبيّ اصطفاه ربّه عزّ وجل من بين خلقه. وهذه الدّلالة تسفّه ماأورده سفر التكوين من التوراة المعاصرة. في وقتٍ وتتّفق في الوقت نفسه مع ماكشف عنه علم المستحاثات وغيره من العلوم .

٢- ظنّهم أنّ جنّة آدم سماويّة :

وأشكل على بعض المفسرين موضوع جنّة آدم أكانت في السّماء أو كانت على الأرض. فلو أنّ هؤلاء قارنوا مابين أوصاف الجنّة الأرضيّة ومابين أوصاف الجنّة التي وُعد بها المتقّون فلما كانوا قد وقعوا في الإشكال المذكور. ذلك أنّ الله تعالى وصف الجنّة السّماوية الموعودة تارةً بقوله **﴿لهم فيها مايشاؤون﴾** الفرقان (١٦) وتاره **بقوله ﴿وماهم منها بمُخرَجين﴾** الحجر (٤٨). على حين يتبيّن أن الجنّة التي أسكنها الله تعالى آدم عليه السلام كان فيها ممنوعات ، فهو تعالى خاطب آدم وقال **﴿ولاتقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾** البقرة (٣٥)، وقال **﴿اهبطوا منها جميعاً﴾** البقرة (٣٨) وكلمة اهبطوا هذه لاتعني لغةً وبالضّرورة النّزول من فوق إلى تحت، بل تعني الأمر بالانتقال من مكان إلى مكان. وبهذا المعنى ورد قول ربّنا آمراً بني اسرائيل: **﴿... اهبطوا مصراً فإنّ لكم ماسألتم...﴾** البقرة (٦١).

وهناك فروق أخرى بين أوصاف الجنتّين لامجال لتعدادها جميعها في هذا المقام. وبإمكان القارىء تقصيّها في السّور هنا وهناك. فلو أنّ الله تعالى كان قد

أسكن آدم الجنّة الموعودة لاستحال أن ينهاه عن أحد أشيائها أو يطرده منها. بل كان آدم أوّل نبيّ، وكانت جنّته أرضيّه وسُمّيت كذلك لشدّة خصبها وكثرة مياهها. هذا ماتفيده آي الذّكر الحكيم.

واختلف المفسّرون حول حقيقة إبليس أكان من الملائكة واستثني بحرف (إلا) من السّجود، بسبب قوله تعالى في الآية (٣٤) من سورة البقرة ﴿**وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاّ ابليس أبى واستكبر وكان من الكافرين.**﴾ أم أن إبليس كان من مخلوق آخر غير الإنس ويُسمّى (جنّ) بحسب قوله تعالى في الآية (٥٠) من سورة الكهف : ﴿**وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاّ إبليس كان من الجنّ ففسق عن أمر ربّه، أفتتخذونه وذريّته أولياء من دوني وهم لكم عدوٌّ بئس للظالمين بدلاً.**﴾.

أقول إنّ مرد هذا الإشكال يعود إلى سببين اثنين : السّبب الأوّل هو عدم انتباه هؤلاء الناس إلى أن لفظ (الجنّ) الوارد في آياتٍ عديدة من كتاب الله العزيز، وإن استعمله جل شأنه في موضع من المواضع بمعنى مخلوق آخر غير الإنسان، إلاّ أنه لم يستعمله كذلك في مواضع أخرى، بل استعمله بمعاني مختلفة وعلى حسب مايقتضيه السّياق والسّياق. وقد استعمل الله جل شأنه لفظ الجنّ في هذه الآية من سورة الكهف بمعنى البشر الذي كان يتخفّى في الكهوف تحسُّباً من هجمات الوحوش الكاسرة عليه وهو نائم. وهو أمر أتيت على ذكره فيما سبق.

والسبب الثاني أن هؤلاء اعتبروا حرف (إلاّ) الوارد في الآيات المتعلّقة بسجود الملائكة حرف استثناء على حين لو أنّهم أمعنوا نظرهم جيّداً وتدبّروا الصّيغة التي صاغ الله تعالى بها هذه الآيات لأدركوا أنّ حرف (إلاّ) استعمل في هذه الآيات الكريمة بمعنى (غير)، ولم يُستعمل للاستثناء.

فالمعلوم أنّ من أصول تفسير القرآن الكريم أنّ آياته يفسّر بعضها بعضاً، ولايجوز تفسير آية دون الرّجوع إلى مايتعلق بموضوعها من آياتٍ موزعة على السّور هنا وهناك.. وبالنظر إلى هذا الأصل في التّفسير نعود إلى ماذكره الله تعالى في سورة الحجر. فقد قال هناك: ﴿**فسجد الملائكة كلّهم أجمعون. إلا إبليس أبى أن يكون مع السّاجدين.**﴾.

والآن إن نحن تدبّرنا ماورد قبل حرف (إلا). نلاحظ أنّ كلمتي ﴿فسجد الملائكة﴾ كافيتان أصلاً للدّلالة على سجود جميع الملائكة لقوله تعالى في موضع آخر بحقّ الملائكة ﴿ويفعلون مايؤمرون﴾.

فالسؤال الذي ينبغي أن يُجاب عليه إجابةً مقنعةً هو : لماذا أتبع ا لله جل شأنه قوله هذا بكلمتي توكيد وقال ﴿كلّهم أجمعون﴾. فما كان هناك من ضرورة في هذا المقام للتوكيد. فالملائكة ﴿لايعصون ا لله ماأمرهم ويفعلون مايؤمرون.﴾. وهذا الأمر يُعدُّ قرينة في حدّ ذاته أنّ حرف (إلاّ) قد استعمل في الآية المذكورة من سورة الحجر بمعنى يغاير معنى الاستثناء يقيناً.

ففي المعاجم اللغويّة ورد أنّ (كلّ) هي اسم موضوع لاستغراق أفراد المعرّف والمنكر حتى واجزاءهما وتستعمل (كلّ) للمبالغة والتكثير أيضاً. ولاتُستعمل إلا مُضافة لفظاً أو تقديراً، وترد باعتبار ماقبلها : فقد تكون نعتاً لنكرة أو معرفة لتدلّ على كمال هذه النكّرة أو المعرفة، وحينئذ تُضاف إلى إسم ظاهر يماثلها لفظاً أو معنى (محيط المحيط). فإن نحن تدبّرنا الآية من سورة الحجر نصل إلى أنّ كلمة (كلّهم) قد استوفت جميع هذه الأمور. فقد استُغْرِقَ بها ذكر الملائكة كمعرفة، وأضيفت لفظاً، ونُعت بها الملائكة أيضاً، ودلّت علَى كمالهم وأضيفت إلى اسم ظاهر يماثلها معنى، فأيّة حاجةٍ بعد هذا التوكيد ليورد ا لله تعالى توكيداً آخر وهو (أجمعون)؟ فكلمة أجمعون سدّ باب الاستثناء من جميع جهاته.

نعود إلى المعاجم، لنلاحظ أنّ حرف (إلاّ) يستعمل بأكثر من معنى، فهو يستعمل بمعنى (غير) فتقول (عندي رجل إلاّ زيد). كما تقول : عندي رجالٌ إلاّ رجالك أي أن جمع المنكر أو شبهه يوصف بحرف إلاّ أو لايوصف، وتكون دلالته بمعنى (غير) (محيط المحيط).

ومادام توكيد سجود ملائكة ا لله قد أكّده ربّنا عزّوجلّ بكلمتين هما (كُلّهم أجمعون) وانسدّ بذلك باب الاستثناء. فهذا الأمر يقضي أن نأخذ حرف (إلاّ) في الآية من سورة الحجر بمعنى غير أي غير إبليس. وتكون صفة الغيريّة قد اتضّحت لأذهاننا بهذا الأسلوب، فلا نعود نعتبر إبليس فرداً من ملائكة ا لله عزّوجلّ.

أمّا كون إبليس من الجنّ أي من مخلوق آخر غير الإنسان، فأمرٌ كنت أتيت على شرحه. فلفظ (الجنّ) استعمل في الآية المذكورة بمعنى أنّ إبليس كان من سكّان الكهوف. وبهذا لايعود أمام قارىء هذه الآيات القرآنية أي إشكال كان أو التباس. ويكون حرف (مع) من قوله تعالى ﴿**الاّ ابليس أبى أن يكون مع الساجدين.**﴾ يكون حرف (مع) المذكور هنا قد استعمل بمعنى (من) ومثل هذا الاستعمال شائع في كتاب الله العزيز. فإن جلس أحدنا يدعو قائلاً ﴿**وتوفّنا مع الأبرار**﴾ فلا يقصد أن يتوفّاه الله حين يموت الأبرار بل يقصد بدعائه هذا أن يتوفّاه الله من الأبرار.

٣ـ تأثّرهم بقصّة آدم التوراتية :

ومن عجائب إعجاز القرآن الكريم، وهو الذي ورد في إحدى آياته قول الله تعالى : ﴿**إنّه لقرآن كريم. في كتابٍ مكنون. لايمسّه إلاّ المطهّرون.**﴾ وقوله تعالى أيضاً: ﴿**ولايحيطون بشيء من علمه إلاّ بماشاء.**﴾. أقول : إنّ من ظواهر هذا الإعجاز القرآني أن تاه المفسّرون والعلماء خلال محاولاتهم فهم قصّة آدم القرآنية، فذهبوا مذاهب شتّى، متأثّرين فيها بما نقله إليهم أهل الكتاب من معلومات تتعلّق بقصّة آدم من سفر التكوين التّوراتي. وذلك خلال الأربعة عشر قرنا الماضية. فلم ينتبه أحدٌ منهم إلى الفروق الجذرية الواقعة مابين الرّوايتين التّوراتية والقرآنية. (راجع مؤلف خلق الإنسان)

فالعجيب أنّهم ظنّوا أنّ القرآن الكريم يؤيّد ماذهبَتْ إليه التوراة من أنّ آدم كان أوّل مخلوق خلقه الله عزوجلّ على سطح كوكبنا الأرضي ـ على حين أنّ النّصوص القرآنيةً ماأفادت ذلك في أيّ موضعٍ من كتاب الله العزيز. بل دلّت هذه النصوص القرآنية على أنّ آدم عليه السلام اصطفاهُ الله ربّه كأول نبيّ وليس كأول مخلوق.فقد خلق الله تعالى البشر الذي عاش ماقبل بعثة آدم حالة توحّشٍ تتنافى والمقصد من وجوده. وقد بعث الله آدم لِيُحدِثَ عن طريقه في حياة البشر نقلةً نوعيةً فيربيّه ويهذّبه نفسيّاً وأخلاقياً، ويعدّه بالتالي ليحقّق المقصد من وجوده وهو التّعرف إلى خالقه وليفوز بمحبته وقربه ووصاله، خصوصاً وأنّ الله عزوجلّ كان يتّصل بالبشر من وراء حجاب لإكمال إنضاج عقله ليصبح مستعدّاً بذلك لإدراك الفرق مابين مفاهيم العصيان والطّاعه والنظام والقانون.

فلم يفطن مفسروا الأمة وعلماؤها إلى هذه الحقيقة الناصعة المنصوص عليها في كتاب الله العزيز لوقوعهم تحت تأثير الأفكار التوراتية. فكم وكم تلوا قول ربّنا جل شأنه: ﴿**إنّ الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين.**﴾. ومرّوا على كلمة (اصطفى) مرور الكرام فلم توحي إليهم خطأ ماذهبوا إليه. خصوصاً وأنّهم كانوا ينظرون إلى الآيات التي تضمنّت قصّة آدم بظواهر دلالاتها المتبادرة إلى أذهانهم، فلم يتدبّروها حتى تدبّرها، ووقعوا تبعاً لذلك في أعظم إشكال واجهوه. هذا إلى أن كشفت التحريّات في عصرنا على أنّ وجود البشر هو قديّمٌ وقديمٌ جدّاً على سطح كوكبنا الأرضي، وتضاربت بذلك أفهامهم تلك مع ماكشف عنه العلم الحديث.

إنّ أسلافنا ظلّوا حتى اليوم يتصوّرون أنّ الله تعالى شاء أن يخلق آدم كأوّل إنسان فخلقه ومن ثمّ جمع من حوله : الملائكة والجنّ، وأمرهم بالسّجود لآدم. فأطاعَ الملائكة أمر ربّهم إلاّ إبليس الذي كان من الجنّ فعصاه و لم يسجد لآدم، فأبى وكان من الكافرين، وأنّ الله لعن إبليس وأمهله إلى يوم الدّين. ليُضلّ من يستطيع إضلاله، الأمر الذي دفع المفكّرين والباحثين الذين يُصغونَ إلى هذه القصّة وبهذه المعاني، أن يعتبروها مأخذاً على الدّين.



الفصل الثاني
قصّة آدم القرآنية وردت بلسان الحال لابلسـان القال :

أقول إنّ ظاهرة هذه الإشكالات ، إن دلّت على شيء، فإنّما تدلّ علـى إعجاز الصيّاغة القرآنية هـذه التي لايـدرك عظمتهـا إلا الـذي يتدبّـر آيات هـذا القرآن العظيم. وليثبـت بالتـالي صـدق قـول ا لله تعـالى ﴿**إنـه لقـرآن كريـم. في كتاب مكنون. لايمسّه إلا المطهرون**﴾ وصدق قوله تعـالى: ﴿**لايحيطـون بشـيءٍ من علمه إلاّ بما شاء.**﴾. فقد آن أن يكشف ا لله عزوجل عـن خفايـا ماتضّمنتـهُ الآيات التي تضمنت قصّة آدم، هذه القصّة التي وردت في سبع مواضع من كتاب ا لله العزيز. أقول : لقد آن لهذا المكنون أن يظهر من كِنّه، ليثبُـتَ للعلمـاء الذيـن كشفوا عن تاريخ البشر، أنّ هذا الكتـاب تكلّـم وأبـان الحقـائق العلميّـة في هـذا المجال في ثوبٍ أدبّي هو في غاية الإعجاز والتحدّي أيضاً.

فقد أطلعَ ا لله عزوجل إمام زماننا على خفايا ماتضمنته آيات قصّـة آدم المذكورة وبما يوافق وماكشـف عنـه العلـم الحديـث. وثبـت بالتـالي إعجـاز هـذا القرآن الذي أنزله ا لله تعالى ليوافق كل زمان ومكان.

فا لله عزوجـلّ نبّـه إلى أنّ قصّـة آدمَ القرآنيـة قـد صيغـت بلسـان الحـال وليس بلسان القال. وأنّ الفهم السّابق المتأثر بالعطاء التّوراتي هو أبعد شيء عمّـا تضمنته هذه الايات. وكل مايحتاجـه المتدبّـر لهـذه الآيـات الكريمـة هـو أن يلتزم بأصول تفسير هذا الكتاب العزيز.

فآدم عليه السّلام ماكان أول مخلوق، بل كان من الجنّ أي مـن سـكان الكهوف على شاكله ماكان عليه إبليس الذيٍ كان من الجنّ ففسق عن أمر ربّـه. هذه الحقيقة تضّمنها قول ا لله عزوجلّ ﴿**إني خالق بشـراً فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين**﴾ فلم يقل تعالى هنا ﴿**إنّي خالق إنسـاناً**﴾ بـل قال ﴿ **بَشَرَاً**﴾. وقد سبق أن وضّحت الفرق مابين لفظيّ بشر وإنسان. ولايُغرّنـا لفظ (خالق) الوارد في هـذه الآيـة. فـالخلق في اللّغـة مـن معانيـه التقدّيـر أي إنّـي

قدّرت اصطفاء أحد البشر. ولذلك قال تعالى في موضع آخر: ﴿**إنّ الله اصطفى آدم..**﴾ فما أعظم هذا الإعجاز في الصيّاغة والتعبير.

والملاحظ أنّ الله تعالى قال ﴿**فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي**﴾. وهل يحتاج إلى التسّوية مخلوق خلقه الله تعالى بيديه؟ فهل كانت عملية الخلق هذه عملية نحتٍ على شاكلة مايقوم به النّحاتون حيث يقومون بعمليةٍ أخيرةٍ لِما نَحَتُوه وهي عمليّة تسوية أخيرة؟ إنّ دلالة كلمة البشر تجيب على ذلك. فالبشر هو الإنسان الذي كان يعيش حالة توحُّش. ويحتاج إلى تسوية دماغه وطبيعته وسلوكه ليصبح بالتالي إنساناً. وهذه التّسوية بأبعادها اكتملت بعد النّفخ في هذا البشر من روح الله وذلك عن طريق ماأنزله على آدم من تعاليم سماويّة هذّبته وحوّلته من بشرٍ متوحّشٍ إلى إنسان مهذّبٍ متمدّن نتيجة هذا النّفخ التّعليمي.

ثم إنّ كلمة (آدم) تعني اللّون الحنطيّ. وهي اسمٌ وصفيٌّ لهذا البشر الذي اصطفاه ربّه وأخرجه من كهفه وحمّله رسالته، ليعيش في السّهل تلفحه أشعّة الشّمس ويصبح بالتالي آدمي اللّون.

كذلك فإنّ كلمة (إبليس) تعني البشر الذي قنط من رحمة ربّه التي تلقّاها آدم عليه السّلام. فلم يتقبّل هذا البشر ماحملته إليه رسالة آدم من تعاليم، فكفر به وبما جاء به وكان من الكافرين.

١ـ قصّةُ الإيمان الأوّل والكفر الأوّل:

فإن نحن انطلقنا ممّا فتحه الله تعالى على إمام زماننا، فانطلقنا نفهم قصّة آدم القرآنية على أنّها صيغت بلسان الحال وتبعاً لأصول تفسير القرآن أي محاولة التوفيق بين دلالات هذه الآيات وبين ماكشف عنه العلم الحديث. نتخلّص بالتالي ممّا تركه سفر التكوين من آثار صرفت أسلافنا عن دلالاتها. وتتجلّى لنا قصّة آدم وهي مُشكّلةً الدّليل القاطعَ على عظمة كتاب الله العزيز.

ألا إنّ قصّة آدم القرآنية هي قصّة أوّل إيمان وأول كفر حدث في تاريخ البشر وهيهات أن يتفق ذلك مع ماأوردته التوراة المعاصرة من أباطيل. فقصّة آدم القرآنية ترسّخ في أذهاننا أن الله الذي خلق البشر، ظلّ على اتصّال بهذا المخلوق من وراء حجاب. فكان يعلّمه عن طريق مايُريه إيّاه من منامه ليصطاد ويقطف الثمار ويوقد النار وينحت الأدوات اللازمة، ويرشده إلى مايفيده من الأعشاب

من حوله ليستشفي بها إن هو حلّ به المرض. وعلمه أن يدفن موتاه وماإلى ذلك من أمورٍ بدائية ساعدت على تنمية قواه العقلية التي تختزن هذه المعلومات، إلى أن حان الوقت ليصطفي ا لله من بين هؤلاء البشر من ينقلهم نقلة تهذيبٍ نوعيةٍ فاصطفى ا لله تعالى من بينهم هذا البشر الذي أطلق عليه اسماً وصفياً يلائم ماسيحقّقه ربّه على يديه وهو آدم كا ورد في كتاب ا لله العزيز.

٢ً- المقاصد الموضوعية لقصّة آدم :

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا : وهل كانت لله عزوجلّ مقاصد عظيمة من وراء صياغته قصّة آدم بلسان الحال وبهذا الأسلوب المجازي؟

وجوابي الذي استنبطته من دلالات آيات هذه القصّة هو أنّه تعالى كان يرمي بذلك إلى تحقيق خمس مقاصد موضوعيّة عظيمه، بالغة الأهميّة. فما كان ا لله تعالى ليجليّها لنا إلاّ بعد أن يكشف العلم عمّا يساعد على فهم هذه المقاصد وماتخفي من ورائها من حقائق. ليثبت بذلك صحّة إدعائه تعالى بحق كتابه العزيز **﴿إنه لقرآن كريم. في كتاب مكنون﴾** وصحّة تحديه **﴿لايحيطون بشيء من علمه إلا بماشاء.﴾**.

وأوجز للقارىء هذه المقاصد وأقول :

المقصد الأول : تنبيه أذهاننا إلى أنّ الخالق الرّب كان على اتّصال دائمٍ بمخلوقه لتطويره طوراً بعد طور. وهو جلّ شأنه نبّه من خلال ماتضمنته قصة آدم إلى مايحدث في مملكة ا لله السماوية من أحداث عندما تقتضي مشيئته بعث نبّيٍ لِيُحدث عن طريق التعاليم التي يعلّمه إيّاها مباشرة ويزودّه بها ليُحدث بها نقلةً نوعيّة في مسيرة هذا المخلوق الحياتية.

والمقصد الثاني : من وراء ذلك ليعظَ ا لله تعالى بهذه القصّة إلى مايتولّد عن بعثة أيّ نبيٍ كان في الأرض من أحداث. حيث ينقسم الناس إلى مؤمنٍ بهذا النّبي وإلىمناصرٍ لدعوته. وإلى كافرٍ بهذا النّبي وإلىمكذّب بدعوته. مع بيانٌ عاقبة كلّ فريق من هؤلاء وهؤلاء.

والمقصد الثالث : الذي رمت هذه القصّة إلى تحقيقه هو تنبيه الأذهان إلى أنّ ا لله عزوجل الذي يتجلّى في هذه الحياة الدنيا بصفته الملك الذي سنّ لتسيير مملكته الدنيوية قوانين طبيعية ثابتة. يعود يتجلّى عند إرادته بعث أي نبّيٍ

كان بصفته المالك يفعل مايشاء فعله ليثبت من خلال ذلك أنّه هو الخالق الرّب الفعال لما يريد.

والمقصد الرابع : الذي أراد الله تفهيمنا إيّاه من خلال ماتضمّنته قصّة آدم المُصاغة بلسان الحال ، أن يُعلّمنا أنّه تعالى خلقنا في عالمنا المادي الحاضر أحراراً ليمتحننا، خلقنا أحرار الإرادة وأحرار التفكير وأحرار العمل والتّصرف. فهذا مايقتضيه وجودنا في هذا الطّور الأوّليّ على طريق حياة الخلود.

والمقصد الخامس من صياغة قصّة أدم بهذا الأسلوب كان تلقين هذا الإنسان درساً عظيماً لاينبغي له أن يغرب عن باله، ليساعده على التّمييز به بين مفاهيم التهذيب ومفاهيم المدينة والحضارة. فيدرك بالتالي أنّ لاقيمة لحضارة لاتستند إلى تهذيب. وأنّ عمليّة تهذيب الإنسان يعجز عن أدائها إلاّ الخالق الرّب الذي خلق هذا الإنسان والذي يَعْلَمُ ماتوَسوس به نفسه ويعلم سرّه وجهره وماتخفي الصدّور.

ولاينبغي للقارىء أن يظنّ بأني اختلقت هذه المقاصد الخمسة الكبرى من مخيلّتي. بل ليعلم أني استنبطتها من بين ثنايا ماتضمنته الآيات الكريمة التي روت لنا قصة آدم عليه السلام.

ومّما حمله إلينا أسلوب صياغتها البلاغي المعجز الذي تحدّى الله عزوجلّ به أعاظم أدباء وشعراء الجنّ والإنس وعلى مدى الدهر أيضاً. ويكفي القارىء دليلاً قاطعاً على عظمة صياغة هذه القصّة أنّها وردت على صورة لم ينكشف ماتضمنته من حقائق إلاّ بعد أن كشفت الآثار عن حقائق تاريخ البشر نفسه.

هذا وإني سأوضح للقارىء معالم هذه المقاصد الخمس الكبرى من خلال ماتضمنته صياغة الآيات التي حملتها إلينا قصّة آدم وماأحدثته بعثته من نقلةٍ نوعيّةٍ في حياة سكان الكهوف، الذين كان خالقهم يكلّمهم من وراء حجاب. علماً بأنّ قصّة آدم وبعثته تعود إلى مابين ثمانية إلى عشرة آلافٍ من الأعوام. وهذه المعلومة استقيتها من مصدرين معتمدين علمياً : المصدر الأول هو التواريخ التي ذكرتها التوراة المعاصرة، وهي تحتمل الزيادة والنقصان، والمصدر الثاني هو دليل علمّي. فقد دلّت آثار البشر القديم على أن تاريخه المعروف لدى المؤرخين يعود إلى ماقبل (٨٣٠٠) عام.

من هذا نُدرك أنّ بعثة آدم التي أسّست تاريخ الإنسان المعاصر لابدّ وأنّ تاريخها يعود لزمن يتراوح مابين المدّتين اللتّين أفادتنا بهما التوراة وهذه الآثار.

٣ً- قصّة آدم من الزاوية الموضوعيّة

والآن تعالى معي أيّها القارىء لنتدبّر قصّة آدم من المنطلقات التي ذكرناها. من مُنطلق أنّ آدم كان أول نبي اصطفاه الله تعالى من بين سكان الكهوف ليُحدث عن طريق ماأنزل عليهربّه عزّ وجلّ من تعاليم هذه النقلة النوعيّة في حياة البشر. ومن مُنطلق أنّ قصّة آدم قد صيغت بأسلوبٍ مجازي وبلسان الحال وليس بلسان القال. ولنقسّم مضامين آيات قصة آدم إلى مجموعات. مجموعةٌ مايتعلّق بإبليس وأقوله بلسان حالة. ومجموعة مايتعلّق بآدم عليه السّلام. ومجموعة مايتعلّق بملائكة الله عزوجلّ. ومجموعة مايتعلّق با لله جلّ شأنه الذي صاغ قصة آدم هذه الصياغة البلاغية المعجزة أيضاً.

٤ً- أقوال إبليس بلسان حاله :

نتناول إبليس وماصدر عنه من أقوال بلسان حاله ومجازياً. فقد نقلت لنا الآية (١١) من سورة الأعراف أنه قال: ﴿**قال أنا خيرٌ منه خلقتني من نار وخلقته من طين.**﴾. ونقلت لنا سورة الحجر الآية (٣٣) قول إبليس : ﴿ **قال لَمْ أكن لأسجد لبشرٍ خلقته من صلصال من حمإٍ مسنون.**﴾.

وسورة الاسراء نقلت لنا في الآية (٦١) من آياتها قولاً ثالثاً لإبليس وهو : ﴿ **قال أأسجد لمن خَلَقْتَ طيناً** ﴾ والآية (٥٠) من سورة الكهف معلومة عبّر تعالى عنها بقوله عزوجلّ: ﴿**إلاّ إبليس كان من الجنّ ففسق عن أمر ربّه، أفتتخذونه وذريّته أولياء من دوني وهم لكم عدّو، بئس للظالمين بدلاً.**﴾.
أما سورة (ﷺ) فقد أوردت في الآية (٧٤) من آياتها قولاً رابعاً لإبليس: ﴿**قال أنا خيرٌ منه خلقتني من نار وخلقته من طين.**﴾.

فلو أنّ قصّة آدم قد رواها لنا كتاب الله العزيز بلسان كل طرف من أطراف القصّة، فهل يستسيغ عقل المرء أن يقول الله عزّ وجلّ بحق آدم تارة أنّه خلقه من طين، وتارةً أخرى أنّه خلقته من صلصالٍ من حمإٍ مسنون؟ وفي مجلس

واحد؟ أفلم يطالع القارىء فرق دلالة الطين عن دلالة الصلصال؟ إلاّ أن تكون لهاتين الجملتين لكل واحدة منهما دلالته المتعلّقة بسياق الكلام، وأنّهما وردتا بأسلوبٍ مجازيّ وبلسان حال إبليس وليس بألفاظه؟

ثم أفلم يلاحظ القارىء كيف أنّ إبليس الذي قال في سورة الأعراف ﴿**خلقتني من نار.**﴾ فلم لم يكررهما في مقام آخر بألفاظٍ مغايرة ؟

فإن نحن انطلقنا للإجابة على هذه التساؤلات من المنطلق الذي انطلق من أسلافنا فلن نعثر على إجابات صحيحة وشافية على هذه الإعتراضات. أمّا إذا انطلقنا من المنطلقات التي ذكرناها، وهو أنّ هذه الأقوال أوردها القرآن الكريم بلسان الحال وليس بلسان القال فإنّها تتضّح لأعيننا حقائق دلّنا عليها القرآن الكريم قبل أربعة عشر قرناً من الزّمان، وجاءت التحريّات العلمية تؤكد ماتضمّنه كلام الله علاّم الغيوب.

فإبليس عندما قال بلسان حاله ﴿**خلقتني من نار**﴾ كان القصد من ذلك التّنبيه إلى طبيعة التوحّش الناريّه التي كان يحياها سكان الكهوف ماقبل التاريخ أي زمن بعثة آدم عليه السّلام. فقد كان الواحد من البشر ناريّ الطبيعة بسبب توحُّشه وخُلوّه من التهذيب والتحضّر ويتصرّف بردود الفعل. ولم تكن تصطبغ تصرّفاته بعقلانية أو تهذيب. فجملة ﴿**خلقتني من نار**﴾ وردت ليس على سبيل الحقيقة من أنّ إبليس كان مخلوقاً نارياً كما يتبادر لذهن السّامع لأوّل وهلة. بل وردت جُملة (خلقتني من نار) بمعنى مجازي. بدليل أن الله تعالى قال بحق آدم ﴿**إنّي خالق بشراً**﴾ أي إنّي خالق إنساناً أقرب إلى حالة التوحّش منه إلى حالة التهذيب والإنسانية وهو بحاجةٍ إلى تسوية طبعه وسلوكه.

وقد قال تعالى من جهة أخرى ﴿**إنّ الله اصطفى آدم**﴾ فالخلق هنا بمعنى التقدير والاصطفاء ذلك أنّ القرآن يفسّر بعضه بعضاً. أي أن الله تعالى اصطفى بشراً من بين سكان الكهف الذي كان قاطنوه ذوو طبيعة نارية أبعد ماتكون عن التّهذيب والعقلانية. وكان القصد من اصطفاء الله هذا البشر، آدم، لتسوية طبعه عن طريق توجّه تجليّات وتمثلات أسماء الله الحسنى إليه من وراء حجاب. فإذا جاء آدم على قدر يريد الله تحقيقه، على شاكله ماخاطب به موسى وقال ﴿**الآن جئت على قدرٍ ياموسى**﴾، إذا بلغ آدم مرحلة التّسوية هذه

ينفخ فيه من روحه أي من تعاليمه الرّوحيـة والأخلاقية، ليكـون طليعـه تهذيـب البشر من حوله، ليتمايزوا بذلك عن الأنعام من حولهم أيضاً.

فجملة ﴿خلقتني من نار﴾ تحمل حقيقـة أثبـت صحّتهـا ماكشـف عنـه علم المستحاثات بما يتعلّق بالبشر ماقبل التّاريخ. فلفظ ﴿من نـار﴾ استـعمل هنـا بدلالتـه المجازيـة، وليـس بدلالتـه الحقيقيـة، فللنّـار خاصيّـة التّمـرد والإتـلاف، ولاتستعمل بمعنى البناء والإعمـار. وقـد كـان القصـد مـن بعثـة آدم بعـد تسـوية طبيعته، أن يصبح أسـوَةً عمليّـة للبنـاء والإعمـار، بعـد أن كـانت طبيعتـه شـأنها التمـرّد والإتـلاف. أي أنّ الله عزوجـلّ أراد أن يفجّـر طاقـات البشـر العقليّـة والعضليّة بهذا الإتجاه الذي ينقله نقلةً نوعيّة فيهذّبه ويُؤنسنه أي ينقله من بشرٍ إلى إنسان. فهذا هو المقصد الإلهـي الـذي استنبطته مـن قـول إبليـس وبلسـان حالـه ﴿خلقتني من نار﴾.

فلقد ثبت علمياً أن عقل الإنسان ويداه تحمل مـن الطّاقـات مايستحيل تفجير هذه الطّاقات في زمنٍ واحد. بل لابد من تمريـر عقـل الإنسـان ويـداه مـن خلال أدوار كثيرة تتطلّب ملايين السّنوات. فالإنسان بالرّغم من بلوغه في زماننـا هذا المستوى من الرّقي العلمّي فقد ثبت علميّاً أنّه لايستعمل من طاقاته العقلية إلاّ اليسير. هذا وإنّ قصة آدم، وبلسان حال إبليس ﴿خلقتـني مـن نـار﴾ نبّهـت إلى هذه الحقيقة التي كشف عنها العلم وتشـير في الوقـت نفسـه إلى أنّ الله عزوجـلّ هو الذي بعث آدم لينقل البشر عن طريق ماأنزل عليه من تعاليم نقلـةً نوعيـةً مـن حالته النّارية إلى حالةٍ طينيّة. فالبشر قبل آدم احتاج إلى ملايين السّنوات ليكتمـل نمّو طاقاته العقلية والعضلية. فلمّ بلـغ حالـة النّضـج المطلوبـة بعـث الله تعـالى آدم واصطفاه من بين البشر ليقوم بإحداث طور جديد فيحياة هذا البشر .

فهذا هو أحد المقـاصد الكـبرى الخمسـة المرجـوة مـن صياغـة قصّـة أدم بلسان الحال وبأسلوبٍ مجازي. والله عـلاّم الغيـوب شـاء بذلـك أن ينبّـه أذهـان علماء القرن العشرين إلى الجواب الشّافي على سؤالهم الـذي مـافتئوا يطرحونـه في مؤلّفاتهم. وهو : كيف تمّ انتقال البشر من حالة التوّحش إلى سنّ الرّشـد؟ ذلـك أنّ علماء أوربـة المعـاصرين طرحـوا هـذا السـؤال وحـاولوا الإجابـة عليـه ضمـن عشرات مؤلّفاتهم. فهـم قـد وضعـوا نظريّـات ونظريّـات للإجابـة علـى السـؤال المذكور. لكن أيّاً من هؤلاء العلماء لم يستطع أن يجزم بجوابٍ تركن إليه العقـول

وتطمئن إليه الأفئدة. لماذا؟ السّبب في ذلك أنّهم يفكّرون في هذا المجال الغيبيّ بأسلوب بتفكيرٍ مادّي محض. حاذفين من معادلاتهم وجود الخالق، وموضوع اتّصاله بمخلوقه البشر في مختلف أدوار حياته ومن منطلق أنّه الخالق وربّ العالمين.

على حين أنّ قصّة آدم القرآنيّة المصاغة مجازياً وبلسان الحال قد أجابتهم إجابة قاطعة الدّلالة على هذا السؤال الذي طالما شغل أذهان هؤلاء العلماء.

فإبليس في هذه القصّة يرمز إلى الإنسان غير المهذّب بتهذيبٍ سماويّ. وإذا أعمل هذا الإنسان فكره، فهو يفكّر بأسلوبٍ مادّي محضٍ لايخالطه أيّ عُنصر روحّي مُستقى من تعليمٍ سماوي. أما شخصيّة آدم عليه السّلام في هذه القصة فترمز إلى الإنسان المهذّب بتهذيبٍ سماويّ. هذا الإنسان الذي إذا أعمل فكره، فهو يفكّر بأسلوبٍ روحانيّ يُخالطه مااستقاه هذا الإنسان من تعاليم الدّين السّماوي. أي أنّه يُفكّر على أساس مُعتقداته الإيمانية ومُنطلقاتها النظريّة.

فالمسلم على سبيل المثال، إن فكّر في أمر تكوين أي شي من الأشياء، يدقّق نظره في تكوينه هذا الشيء من منطلق إيمانه بوجود خالق هذا الشيء، وأنّه لابدّ أن يكون الله تعالى قد خلق هذا الشيء لمقصدٍ معلوم، ومثل هذا المسلم بإمكاننا أن ندعي أنه يفكر بتفكيرٍ روحاني، وأنه مهذّب بتهذيبٍ سماوي.

أي أنّ الذي يفكّر مادّياً ينظر إلى الأشياء بظواهرها. على عكس الذي يفكّر تفكيراً روحانياً لايقع في هذا المطبّ المُوحل. ويكون منطلق تفكيره أعمق من ذاك الإنسان بكثير. هذا وقد حذّرنا الله عزوجل في سورة الكهف الآية (٥٠) من أصحاب التفكير المادي، وهم إبليس وذريّته، ومن تولاّهم من البشر، وذلك من خلال قوله تعالى: **﴿وإذ قُلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاّ إبليس، كان من الجنّ، ففسق عن أمر ربّه، أفتتخّذونه وذريّته أولياء من دوني، وهم لكم عدّو، بئس للظالمين بدلاً.﴾**. فالله عزوجلّ نبّه أولاً إلى أنّ إبليس كان من الجنّ أي كان من سكان الكهوف وكان في حالةٍ غريزيّةٍ أقرب إلى التّوحش. ونبّه ثانياً إلى أن إبليس فسق عن أمر ربّه واستحقّ بذلك لعنته، بسبب تجاهله وجود ربّه وتجاهل المقصد من وجود نفسه فلم يتهذّب بالتهذيب الذي بُعث الله آدم ليهذبه به وينقله طوراً نحو أنسنته. ثالثاً ــ وحذّر الله تعالى الذين آمنوا بآدم ومن سار على خطاهم من بعدهم من بني آدم ، أي حذّر الله تعالى أبناء آدم الروحانيين تجنّب الخّط المادي الذي اختطّه إبليس وذريّته كأسلوب

لتفكيرهم، فلاينبغي لهم أنّ يتخذونهم أولياء مـن دون ا لله عزوجـلّ، بـل إنّ مـن واجبهم أن يكون جُل همّهم أن يتولاّهم ا لله تعالى بعنايتـه. كمـا نبـه ا لله تعـالى أذهان نبي آدم إلى العداوة الفكريّة المستأصلة مابينهم وبين ذريّه إبليس وذريّته غير المهذّبين بتهذيبٍ سماوي، فهم لهم عدّو.

وقد نبّه جل شأنه من جهة خامسة إلى أنّ المؤمن الذي يسـتبدل توحيـد ا لله تعالى بالشرك به والجحود بوجوده ويسير على خُطى ابليس وذريته، أنّ الذي يفعل ذلك يظلم نفسه وبئس للظالمين بدلاً.

إنّ هـذا الصّراع الفكـري المتـأتي عـن هذيـن الأسـلوبين المختلفـين في التفكير المادي منهما والرّوحاني والذي أشارت إليه قصّة آدم، يعني بألفاظٍ أخرى أنّه لولا اتّصال ا لله بمخلوقاته البشـر وتدخّلـه في شـؤونه منـذ ابتـداء تـاريخ هـذا البشر، لظلّ الناس أمّة واحدةً لايلوون على شيء. وهو الأمر الـذي أشـارت إليـه الآيات (٢١٢ ـ ٢١٣) من سورة البقـرة الـتي قـال تعـالى فيهـا : ﴿**زُيّـن للذيـن كفروا الحياةُ الدّنيا، ويسخرون مـن الذيـن آمنـوا، والذيـن اتّقـوا فوقهـم يـوم القيامة، وا لله يرزق من يشاء بغير حساب، كان الناس أمّة واحدة، فبعـث ا لله النبييّن مُبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب بالحقّ، ليُحكم بين الناس فيمـا اختلفوا فيه، ومااختلف فيه إلاّ الذين أوتوه من بعـد ماجـاءَتْهُمُ البيّنـات بغيـاً بينهم، فهدى ا لله الذين آمنوا لِما اختلفوا فيه من الحقّ بإذنه، وا لله يهدي من يشاء إلى صراطٍ مستقيم.**﴾.

وهذا الصّراع الفكري الذي نشأ عن بعثة آدم كأوّل نبّـي أشـارت إليـه الألفاظ التي نطق بها إبليس بلسان حاله، ففي سورة الإسراء قال: ﴿**قال أرأيـت هـذا الـذي كرّمـت علـيّ، لئـن أخرتـنِ إلى يـوم القيامـة لأحتنكّـن ذريّتــه إلاّ قليلا.**﴾. فألفاظه ﴿**هذا الـذي كرّمـت علـيّ**﴾ أي هـذا الـذي عظّمتـه ونزّهتـه (محيط المحيط) ولفظ (كرّمت) هذا كرره تعالى في نفس سورة الإسراء بعده بعـدّه آيات وقـال: ﴿**ولقـد كرّمنـا بـني آدم..**﴾ أي عظّمنـاهم عمّـا وقـع فيـه ابليـس وذريته، فلم يقل تعالى هنا (ولق كرّمنا البشـر) أو الإنسـان بـل كرّمنـا بـني آدم. وحكمة ذلك واضحة الدّلالة.

أقول إنّ بروز هذين النّمطين من التّفكير ومالحق ذلـك مـن صـراع بـين ذرية آدم وذريّه إبليس مرجعه إلى أنّ آدم وذريّته هذّبهم ا لله تعالى بما أنزله عليهم

من تعاليم كرّمتهم على الذين رفضوا هذا التّهذيب السماوي الصّبغة فعظّمتهم ونزّهتهم عمّا وقع فيه إبليس مرجعه إلى أنّ آدم وذريّته هذّبهم ا لله تعالى بما أنزله عليهم من تعاليم كرّمتهم على الذين رفضوا هذا التّهذيب السماوي الصّبغة فعظمتهم ونزّهتهم عمّا وقع فيه إبليس وذريّته من سقطاتٍ في مُستنقع الشرك والجحود بوجود ا لله عزوجلّ.

٥ـ الفرق مابين مفهومي الحضارة والتهذيب موضوعيّاً:

وأرى من المناسب في هذا المقام أن أعمد إلى إعطاء القارىء مايساعده على التّمييز بين مفهوم التهذيب، وبين مفهوم الحضارة والمدينة. وليتمكّن من إدراك معالم النقلة النوعية التي أحدثتها بعثة آدم في حياة البشر في نهاية الفترة التي كان البشر خلالها يقطنون الكهوف والمغاور ويتخذون مابين أغصان الأشجار الضخمة مأوىً لهم من هجمات الوحوش الكاسرة آنذاك.

فإن أحبّ القارىء تمكينه من هذا التفريق مابين مُهذّب ومتحضّر. فما عليه إلاّ أن يتأمل مايجري من حوله في عصرنا هذا، وماتنقله إليه وسائل الإعلام من أمور. أفلا تصل إلى مسامعه اصطلاحات عديدة فيقولون أوربا شعوبها متحضّرة، أما شعوب آسيا وافريقيا فشعوبها متخلّفه؟ وتسعى للحّاق بركب حضارة الغرب. وأنت تسمع من جهة ثانية أنّ أكثر أنظمة دول الغرب قد تبنّت العلمانية منهجاً وتركت أمر الدين للإنسان بصفته الشخصية. أي أنّ أوربه وأمريكا لاترتبط حضارتهما بالمسيح ابن مريم إلاّ بالإسم، وإن تعاليم المسيح منهم بُراء لذلك أطلقت أحاديث محمد رسول ا لله (ﷺ) عليهم اسم المسيح الدّجال. فهم يدعُون في كنائسهم بالدّعاء الذي علّمهم إياه المسيح: (أبانا الذي في السماوات آتنا كفافنا..). فلما ترقب مايسعون إليه تُلاحظ أنهم يجعلون همّهم تكديس الأموال وأن يصبحوا يملكون ملايين الملايين من الدولارات.

فما هي دعائم هذه الحضارة المعاصره؟ تقوم حضارة الغرب على العمل ووحداته ومقاييسه، وعلى ماينتج عن ذلك من كشوفٍ وايجاداتٍ ومخترعات ووسائلَ تسهّل على النّاس أعمالهم وهم يتقدّمون على طريق تفكيرٍ مادّيٍ محض،

ودعم نظامٍ رأسمالي. فحضارة الغرب إذن جلّ همّها الانتاج ومقداره ووفرته. ومايلحق به من تطوير أدوات النقل من سيّارات إلى قطارات إلى مراكب بخارية وطائرات..

كما اعتمدت حضارة الغرب هذه نظاماً مالياً يساعد على تداول أموال الأفراد فيما بينهم داخل البلد الذي يقطنونه وخارجه. إلى جانب أنّ حضارة الغرب هذه قد سنّت دساتير تحمي أنظمتها وقوانين تنظّم وحدة العمل ووسائل الإنتاج وأُطُره وأدواته، وحرفه وصناعاته، دون الرجوع في ذلك كلّه إلى تعاليم سماويّ محدّد. وركّزت هذه القوانين على حماية مؤسّسات البحث العلمية لترقية العلوم الطبيعيّة في حقلِ المادّيات، وليس من مُنطلق تفكير روحاني. وقد أنشأت حضارة الغرب جيوشاً سلّحتها بأبشع الأسلحة الفتّاكة، وأنظمة أمنٍ لاتتقيّد بمعايير أخلاقية سماوية كل ذلك لتأمين حالة الاستقرار في نطاق حدودها، ولتزيد في رفاهيّة شعوبها، حاذفة من معادلاتها الحضارية أيّ تهذيب سماوي. لذلك لايُلاحظ المتجوّل في ربوع الدّول الغربية أيّة دلائل تشير إلى أن الشعوب الغربية قد أدركت المقصد من وجودها على سطح هذا الكوكب الأرضي. فحياة حضارة الغرب مجرّد لعبٍ ولهو وتفاخرٍ وزينةٍ وتفكير بأسلوبٍ مادّي محض. ألا إنّ مثل هذه الحضارة لاعلاقة لها بمفهومِ التّهذيب الذي أوردناه. فالغربُ متحضّر لكنه غير مهذّب بتعاليم أنزلها رب العالمين. خصوصاً وأنّ كلمة حضارة هي مصدر تعني الإقامة في المدن وليس في البادية. بعكس البدويّ يعيش في البادية حياة ترحال. (محيط المحيط). فالإنسان المتحضّر من حيث دلالته اللّغويّة هو الإنسان المستقرّ في المدن والرّيف، والمتقدّم على البدويّ في مجالات مسكنه ومأكله ومشربه ووحدة عمله ووسائل إنتاجه وتنقّله ونظامه المالي والسياسي وسواه من الأنظمة. وبهذه المعايير يُقاس تحضُّرُ شعب من الشعوب أو تخلّفه في مجالات الصناعة والزراعة والعلوم والمنتجات الاستهلاكية. وهذا كلّه لايدخل أصلاً في مفهوم التّهذيب الذي أوردناه.

فالتهذيب لُغةً مشتقٌ من هذّب الشجر قطعه ونقّاه وأصلح أغصانه (محيط المحيط). فالتهذيب هو عمليّة تشذيبٍ وتسويةٍ للقوى النفسيّة التي تحملها الفطرة البشرية. هذه الفطرة التي فطر الله الناس عليها بغضّ النظّر عن ألوانهم وجنسياتهم ولغاتهم وقوميّاتهم. علماً بأنّ ماهيّة هذه الفطرة البشرية من

ماهيةٍ لانعلمها إلا بآثارها. كالمغناطيس لايعرف إلا بالأثر الذي يتركه على برادة الحديد من حوله. وهذه الحقيقة تؤكّد لنا أنّ مهمة اصلاح نفس الإنسان وتطويره يستحيل أن يؤدي حقّها إلا الله خالق هذه الفطرة البشرية. فإن أهملنا مازودّنا الله الخالق به من تعاليم على هذا الصعيد، ورُحنا نفكّر بتفكيرٍ ماديّ محض وبمعزلٍ عن هذه التعاليم السماوية. فلا نبلغ مرتبة التّهذيب النفسيّ الذي يقوم به وحيُ السّماء.

فمفهوم التّهذيب الذي ذكرناه، هو عملية إصلاحٍ للنّفس البشرية وتفجيرٍ لطاقات الإنسان العقلية والعضلية عن طريق هذه التعاليم السماوية التي اختُتمتْ بهذا الكتاب السّماوي الذي وُصف بأنّه قرآن وفرقان. وبالتعاليم الأولى التي أُنزلت من قِبَلِ الله عزوجلّ على آدم عليه السّلام. أيّ أنّ الحضارة بغير تهذيبٍ هي بمثابة جسدٍ بلاروح. وهل يغني جسدٌ أُوتي بسطةً وجمالاً، إذا فارق روحه؟ فهذا هو حال الحضارة الغربية المعاصرة جسد بلا روح، تبهر بما أنتجته الأبصار، لكنّ ذلك كلّه مجرّداً عن روح التهذيب بتعاليم أنزلها البارىء عزوجلّ. لذلك راح العالم يئنّ من وطأة ماأنتجته حضارة الغرب. فلا عدالة ولاكيل بمكيالٍ واحد ولااحترام لمشاعر الآخرين.

امّا التّهذيب والحال هذه فهو مجموعة الأفكار والتصّورات والأخلاقيات والروحانيات التي أتى بها دينٌ سماوّي. وبإمكان حامل هذا التهذّيب أن يُؤسّس على قاعدته الفكرية حضارةً تُصبح مضرب الأمثال.

ألا إنّ الإنسان البدويّ الذي يعيش متنقّلاً من مكان إلى مكان في البادية. هذا البدوي الذي ينتقل حذاءً صنعته يداه من جلود ماشيته. والذي يرتدي رداءً خشِناً غير مراعٍ فيه ماتأتي به أزياء المناطق المتحضّرة. إنّ هذا الإنسان الذي سُميه بدويّاً نسبةً إلى حياة البداوة الصحراوية. فلو استجاب هذا البدوّي للتعاليم والأفكار التي يزودّها به كتاب الله الفرقان، وسعى سعيه لعرفان ربّه وللفوز بمحبته وقربه ورضوانه واتّصف بمكارم الأخلاق.

فهذا البدويّ في مفهومنا مهذّب لكنّه غير متحضّر. أي أنه روح ينقصه جسد. والذي طالع تاريخ بعثة محمد (ﷺ) لابدّ أن يكون قد أدرك أنّ محمّداً عليه الصلاة والسلام هذّب أمّته الأميّة بتهذيب تعاليم ماأنزله الله تعالى عليه من

وحيٍ سماوي. فشكّل بذلك قوّة لم تصمد في وجهها حضارتا فارس وروما العظمتين. ذلك أنّ الرّوح أقوى من الجسد ولاقيمة لجسدٍ بدون روح. ويكون الانتصار والغلبة دوماً لديناميكية الحركة التطويرية التي يقوم بها التعليم السماوي على مدى الدّهر.

فالمهمة الأساسية لبعثة الأنبياء والمرسلين ومّما يُنَزَّلُ الله تعالى عليهم من تعاليم سماوية، هو قيامهم بتهذيب النفس البشرية وتزكيتها وتفجير طاقاتها العقلية والعضلية بما يتناسب والطّور الذي بلغه الإنسان في زمن من تاريخه الطويل. فإن انطلقنا ننظر إلى ماجاء به آدم وماقصدته قصّة المجازية من مقاصد عظيمة، وإلى النقلة النّوعية التي شاء الخالق إحداثها في حياة البشر الأقرب إلى التوحش والذي كان يقطن المغاور والكهوف. إن نحن نظرنا بهذا المنظار إلى قصّة آدم يعود بإمكاننا إدراك أبعاد النقلة النوعية التي أحدثتها بعثة خاتم النبيين في حياة العرب الأميين.

فبعثة محمدٍ (ﷺ) وإنزال تعاليم القرآن الكريم حوّلت أنظار الإنسانية ودفعتها دفعاً لتبيّن أنموذج الإنسان الكامل التّهذيب، والذي أضحى رحمةً للعالمين، والذي فجّر طاقات أُمّتنا العربية العقلية منها والعضلية في صدر الإسلام وعلى صورة أدهشت الباحثين والمفكرين والمؤرخين.

لذلك لاينبغي لقارىء قصّة آدم القرآنية أن يدهش لسماع إبليس يقول بلسان حاله : ﴿**خلقتني من نار**﴾ وقوله بحقّ آدم ﴿**هذا الذي كرّمت عليّ**﴾. فقد صيغت هذه الأقوال بدلالاتها المجازية وبلسان الحال، وليس بلسان القال، هذه الصيّاغة لتُعطي المفكّر الباحث درساً بالغ الأهمية تختفي وراءه أحد المقاصد العظيمة الخمسة المرجوّة من قصّة آدم عليه السّلام المُصاغه مجازياً وبلسان الحال. ويتلخّص هذا الدّرس في أنّ تفجير طاقات الإنسان العقلية والعضليّة مهمّةٌ مرتبطةٌ ارتباطاً عُضوياً بالتهّذيب الذي تأتي به التعاليم السّماوية. هذا وإنّ كلّ خطوةٍ على هذا الدّرب الذي تأتي به التعاليم السّماوية. هذا وإنّ كلّ خطوة على هذا الدّرب لم تستند إلى دعامة هذا التهذيب، تنقلب في نهاية المطاف وبالاً وبلاءً على أصحابها، فهذا ماأيّده منطق تاريخ الحضارات السّالفة كما هو ثابت في كتب التاريخ، فالتفكير المادّي المحض يفيد في تفجير طاقات عقليّةٍ وعضليةٍ، ويساعد على تأسيس حضارة، لكنّ شيئاً من ذلك لن يدوم بل لابدّ أن يؤول

الأمر أخيراً إلى الدّمار والزّوال لتصادم تلك العمليّة مع القانون القدريّ. فهذه هي خلاصة موضوع المقصد الأول العظيم من قصّة آدم عليه السلام.

٦ـ المقصد الثاني الكبير لقصّة آدم :

أمّا المقصد الثاني الكبر الذي ابتغاه ا لله جل شأنه من وراء صياغته قصّة آدم عليه السّلام هذه الصيّاغة المجازية وبلسان الحال. فهو تنبيه عقل الإنسان إلى أنّ ا لله الذي خلقه، لم يخلقه مُسيّراً، بل خلقه حُرّ والإرادة والتفكير والتّصرف والسّلوك. وهذا المقصد الكبير الثاني دلّنا عليه أقوال إبليس بلسان حاله في ثلاث سور هي الحجر والأعراف وسورة (ﷺ). فإبليس ورد قوله في هذه السّور: ﴿قال ربّ فأنظرني إلى يوم يُبعثون.﴾. وكان جواب ا لله تعالى في سورة الأعراف : ﴿قال إنّك من المُنظرين﴾ وفي سورتي الحجر و (ﷺ) : ﴿قال فإنّك من المُنظرين. إلى يوم الوقت المعلوم.﴾. والذي فهمه أسلافنا من العلماء والمفسرين لهذه الأقوال هو أنّ ابليس استمهل ربّه، فأمهله إلى يوم الدّين. والحقيقة تختلف عمّا تبادر لأذهان ألئك العلماء والمفسرين.

فإبليس طالب بفسُحة تأمّل وتجربة على أساس تفكير مادّي محض. وا لله عزوجلّ نبّه ذهنه إلى أنه جلّ شأنه لايُكره أحداً في الدّين. فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر. وحذّره في الوقت نفسه من عاقبة اللّعنة التي تحلّ بالذي يختط خط تفكير ماديّ بمعزل عن تهذيب تعاليم الدّين.

إنّ لفظ أنظرني اشتق من نظر بمعنى أبصر وتأمّل بعينيه. وعليه فمعنى (أنظرني) أي افسح لي مجال التبصّر والتأمّل الشّخصي، وبأسلوبي المادي لاتّخذ قراري المُستقل عن قرار آدم الذي قبل أن تَحُدَّ تعاليمُك من حريّته، فَأَنْظُرُ بالتّالي وأوازن بين مايحققه آدم ومآأحققه أنا شخصياً في مضمار التّقدم وتفجير طاقاتي العقلية والعضلية. وأفلا نلاحظ أنّ مفعول (أنظرني) هو كيان إبليس الحّي؟ فلو قلت : أنظرني دَيْنَك. فالدَّين مادة، والمقصود حينئذٍ يكون طلب الإمهال مدّة من الزّمان. أمّا وقد كان مفعول (أنظرني) هو إبليس نفسه وهو كائن حيّ، فلايكون المراد في أنظرني إلا طلب السّماح بالتّبصر والتأمل بأسلوب تفكير مادّي وليس بأسلوب تفكير روحاني، ومن منطلق قول ابليس من قبل : ﴿خلقتني من نار﴾ أي خلقتني من طبيعة حُرّة لاترضخ للقيود.

ثم إنّ جواب ا لله تعالى يؤيّد هذا المعنى الذي ذهبت إليه. فا لله تعالى قال: ﴿**إنّك من المُنظرين**﴾ و لم يقل "أمهلتك". فمن هم (المُنظرين)؟ ولماذا عرّف ا لله تعالى لفظ (المنظرين) بالألف واللاّم؟ فهذا سؤال وجيه لابدّ من الإجابة عليه.

ففي نظري أنّ صيغة ﴿**من المُنظرين**﴾ قُصد بها النّاس كافّة. أي أنّه تعالى آيّد قول إبليس من أنّ الإنسان خُلق حُرّ الإرادة والتفكير والسّلوك. فالبشر جميعهم من المُنظرين، أي مفسومح لهم مجال التبصّر والتأمل إتخاذ القرار الشّخصي فهذه الصّيغ المتمثّلة في طلب إبليس وفي جواب ا لله عليه هي صيغٌ مجازيّةٌ وبلسان الحال، وتقرّر حقيقةً أساسيّةً وهي أنّ الإنسان خلقه ا لله ربّه عزوجلّ حرّاً غير مُسيَّر في نطاق تفكيره وسلوكه، وليس خارج هذا النّطاق، فهذا هو المقصد الثاني المُتبقى تلقين أذهاننا درسه العظيم. وهو يفسّر قوله تعالى في سورة الدهر ﴿**أنا خلقنا الإنسان من نطفه أشاج نبتليه**﴾ أي خلقناه حرّاً نمتحنه ليتأمل ويتبصر ويتخذ القرار.

بهذه المعاني يستقيم تسلسل آيات قصّة آدم الموضوعية، وليس بالمعاني التي ذَهَبَتْ إليها أفكار المفسرين القدماء. وأيّ داع يدفع إبليس ليطلب من ربّه أن يمهله إلى يوم الدّين؟ فسياق طلب إبليس لم يشتمل على تهديدٍ إيّاه بعذابٍ محدّد الأبعاد. بل إنّ كلّ ماقاله جل شأنه بلسان الحال والقرار في سورة الأعراف : ﴿**فاخرج إنّك من الصّاغرين.**﴾ وفي سورة (ﷺ) : ﴿**قال فاخرج منها فإنّك رجيم. وإنّ عليك لعنتي إلى يوم الدين.**﴾. فهو تعالى استعمل في هاتين الآيتين لفظين متقاربي المعاني والدلالات. فكلمة ﴿**من الصاغرين**﴾ أي من المُهانين الرّاضين بالذل. فهي اشتقت من صَغُر أي هان ورضي بالذلّ. ثم إن كلمة ﴿**عليك لعنتي**﴾ أي تُحرم من الخير وتُخزْى وتُسبّ وتحتقر. فاللعنة اشتُقت من لعنة أي حرمه من الخير وأخزاه وسبّه واحتقره (محيط المحيط). هذا وإنّ مُؤدّى هذين اللفظين واحد على حسب مالاحظناه. ولاتحمل هذه المعاني أيّ تهديدٍ بضربٍ أو احراق بنار. وإلى جانب ذلك فا لله تعالى قال ﴿**عليك لعنتي إلى يوم الدين**﴾ أي لأاهدّدك بأيّ عذابٍ مادي إلى يوم الدين.

ومادام الأمر كذلك فلم يكن هناك أي داعٍ موضوعيٍ يدعو إبليس ليتمهل من ربّه إنزال عذابه عليه. وهذه الحقيقة تشكّل في حدّ ذاتها قرينة تؤيد ماذهبت إليه من معنى، وتردّ ماذهب إليه ذهن المفسرين القدماء.

والصَّغارُ واللّعنة بالمعاني التي أوردها صاحب محيط المحيط أعلاه. تنطبق على عاقبة كل من يسير على خطى إبليس وينتهج لنفسه خطّ التفكير بأسلوبٍ مادّي محض. بعيداً عن مخالطته بأيّ عنصرٍ روحّيٍ تضمنته تعاليم أي دين سماوي. وهذه الحقيقة أيّدتها أحداث التاريخ. فقدَ ذلّ وهان وخزي واحُتقر وحُرم من الخير كلّ من انتهج في تاريخ الإنسانية هذا النّهجَ من التّفكير المادّي فرداً كان أو جماعة من الجماعات. فأين فرعون والمصير الذي آل إليه؟ وأين أبو جهل ومصيره المشؤوم؟

فلو كان إبليس قد طلب من ربّه تأجيل لعنته إيّاه. لكان لايحقّ لإحدٍ من المؤمنين شتم إبليس وذريته أو سبّه واحتقاره والدعاء عليه بحرمانه من الخير. على حين أنّ المعاني التي ذهبت إليها، تُبقي لَحَاق الصَّغار واللّعنة بإبليس وذريّته.

وهكذا يتّضح لأعيننا هذا المقصد الثاني العظيم الذي قصده الله جلّ شأنه من خلال صياغته جل شأنه أقوال إبليس والتعقيب عليها بصياغة مجازيةٍ وبلسان الحال، وهو التّذكير بأنّ الله عزوجلّ خلق الإنسان حُرّاً مُخيّراً على التفكير بأسلوبٍ روحاني إن كان يبتغي أن يُؤْتى في الآخرة كتابه بيمينه، ونهاه وحذّره من التفكير بأسلوبٍ مادّي محض وإلاّ فسيعود صاغراً تحلّ عليه لعنة خالقه، ويوم القيامة يؤتى كتابُه بشماله أيضاً ويحيا هنا أعمى تتناوشه نيران النّدامة والعذاب.

٧ـ المقصد الثالث لقصّة آدم :

والمقصد الثالث العظيم الذي ابتغاه الله جلّ شأنه من وراء صياغته قصّة آدم بأسلوبٍ مجازيّ وبلسان الحال، هو تنبيه عقول المؤمنين وتحذيرهم أينما كانوا وفي أيّ زمان تواجدوا، من خطر اقتفاء خطى إبليس وذريته وأسلوبه الحياتي ونهج تفكيره المادّي. فإن فعلوا ذلك يصدّقون ظنّه بصورةٍ عملية ويخسرون قرب ربّهم ورضوانه.

فالمعلوم أنّه كلّما بعث الله رسولاً ليطّور عن طريقه عباده وينقلهم إلى طور جديد. ينقسم الناس أيّام بعثة هذا الرّسول إلى فريق مؤمن وفريق كافر. والذي يتدبّر كتاب الله العزيز يُلاحظ أن الله تعالى اصطلح للفريق المؤمن خطاب (يابني آدم). والمقصود بهذا الخطاب كلّ مؤمن يتتبّع خطوات آدم ومساره الروحاني. فيلبّي الصّوت السّماوي الذي يرفعه كلّ نبيّ مُرسل من عند الله عزوجلّ، وبطبيعة طينيّة بعيدةٍ عن الفسوق والعصيان. كما أنّ هذا المتدبّر لكتاب الله تعالى يُلاحظ أنه جل شأنه قد اصطلح للفريق الكافر الذي يسير على خُطى إبليس ويقيظ ممّا نزل من السّماء من تعاليم رحمة، اصطلح له خطاب (ذريّة إبليس). هذا الفريق الذي حذّرنا جل شأنه منهم في الآية (٥٠) من سورة الكهف إذ قال : **﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاّ إبليس كان من الجنّ ففسق ن أمر ربّه، أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدوٌّ، بئس للظّالمين بدلاً.﴾**.

ولابدّ للعاقل وقد قرأ هذا التّحذير الوارد في سورة الكهف، من أن يتساءل عن أهميّته، فيتساءل في الوقت نفسه عن معالم مسار إبليس وذريته أيضاً.

هذا وإنّ الذي يتدبر تهديدات إبليس وتوعّداته المُعبَّر عنها بلسان حاله وبأسلوبٍ مجازي في قصّة آدم هذه . لأبُدّ أن يدرك من خلال تلك التهديدات والتوعّدات أهميّة هذا التحذير الإلهي . فيتبيّن بالتالي معالم المسار الإبليسي الذي سيختاره كلّ إنسان يكفُرُ مهمّة داعي السماء قانطاً من رحمة ربّه عزّ وجلّ .

لذلك أجدني مضطراً لاستعراض ما أوردته قصّة آدم من تهديدات وتوعُّدات وردت في مختلف المقامات من سور القرآن الكريم. ومذكّراً القارىء في الوقت نفسه بالكلمة التي تفوّه بها إبليس بلسان حالة وهي **﴿أنظري إلى يوم يُبعثون..﴾** فكلمة أنظرني هذه قُصد بها طلب إمهاله للتأمّل ويتبّصّر بحّريةٍ تامّين وبأسلوب تفكيرٍ مادّي محض ، مجرّداً عن كلّ تعليم روحي .

فقد أوردت سورة البقرة القول : **﴿فأزلّهما الشيطان عنها، فأخرجهما ممّا كانا فيه.﴾**. فصوّر تعالى بذلك مايفعله الفريق الكافر زمن بعثة كلّ مُرسلٍ من عند الله تعالى.

وهذا الإجمال أوردته سورة (ص) بألفاظٍ أخرى مختلفة حيث نقلت قول إبليس وبلسان حاله: ﴿**قال فبعزّتك لأغوينّهم أجمعين. إلاّ عبادك منهم المُخلصين.**﴾. أي أنّ ابليس قد هدّد أن ينقلب نفسه إلى شيطانٍ يزلّ أقدام كلّ مؤمن يستجيب لأيّ صوتٍ سماوي.

وقد راحت الآيات من سورة الأعراف تُلفت نظر المؤمن وتنبّه ذهنه إلى الشّعار الذي سيرفعه إبليس وذريّته حين ينقلبون إلى شياطين يعادون الفريق المؤمن كل حين. فشعار هؤلاء سيكون "الغاية تبرّر الوسيلة والواسطة" أي أنّهم لن يتورعوا عن اللّجوء لأيّة وسيلة تمكّنهم من زلزلة أقدام المؤمنين عن صراط الله المستقيم. هذه الحقيقة جاء التعبير عنها بلسان حال إبليس متوعّداً في سورة الأعراف: ﴿**قال فبما أغويتني لأقعُدنّ لهم صراط المستقيم. ثم لآتينّهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن إيمانهم وعن شمائلهم، ولاتجد أكثرهم شاكرين.**﴾.

أما في سورة (طه) فقد نبّهت بما نقلته بلسان حال إبليس من تهديدات وتوعُّدات، أنّ إبليس وذريّته سيعمدون إلى الطروحات الفكرية الفلسفيه يُوسوسون بها في صدور المؤمنين، موهمين أيّاهم أنّ طرحهم الفكري أهمّ ممّا تطرحه تعاليم الدّين المستندة إلى أساسٍ روحاني. وهذه الحقيقة أوردتها الآيات من سورة (طه) وبلسان حال إبليس ومُنقلباً إلى صفة شيطان : ﴿**فوسوس إليه الشيطان قال ياآدم هل أدلُّك على شجرة الخُلد ومُلكٍ لايبلى. فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطَفِقا يخصفان عليهما من ورق الجنّة، وعصى آدم ربّه فغوى. ثم اجتباه ربّه فتاب عليه وهدى. قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعضٍ عدوّ.**﴾.

وراحت قصّة آدم المجازية فوضّحت للمؤمنين أمراً هاماً في سورة الحجر. وهو أنّ كُلّ حضارة مادّيةٍ يُقيمها إبليس وذريّته من بعده وعلى أساسٍ من فكرٍ مادي خالٍ من التهذيب السّماي. ستكون أشياء تلك الحضارات جذّابةً في ظواهرها، تزيّن لّلمؤمنين فوقيّتها وضرورة الأخذ بها متناسين مايكمن وراء ذلك من سمومٍ قتالة مهلكةٍ لهؤلاء المؤمنين. وهذا الأمر الهام الذي أوردته الآيات من سورة الحجر بلسان حال إبليس : ﴿**قال ربّ بما أغويتني لأزيّنن لهم في الأرض ولأغوينّهم أجمعين. إلاّ عبادك منهم المخلصين.**﴾.

أمّا قصّة آدم المجازية الواردة في سورة الإسراء. فقد نبّهت إلى ضرورة عدم الاستهانة بتهديدات إبليس وتوعُّداته. فذريّته ستبلغ حدّاً مُرعباً من الرّقي المادّي يلفت إليها الأنظار : عدداً وعُدَداً، بحيث تعود تشارك ذريّة آدم في الأموال والأولاد. وقد نبّهت الآيات من سورة الإسراء إلى أنّ هذا كلّه سيكون من عمل ذريّة إبليس مُنقلبةً إلى شياطين مغرورة ومُستكبرة ولاتفي بالوعود. وهذه الحقيقة وردت بلسان حال إبليس في سورة الإسراء قوله: ﴿**قال أرأيتك هذا الذي كرّمت عليّ، لئن أخرّتن إلى يوم القيامة لأحتنكنّ ذريّته إلاّ قليلاً. قال إذهب فمن تبعك منهم فإنّ جهنّم جزاؤكم موفوراً. واستفزز من استطعت منهم بصوتك واجلب عليهم بخيلك ورَجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعَدْهم، ومايعدهم الشيطان إلاّ غُروراً.**﴾.

فهذا هو ماأجْمَلَتْه هذه السّور القرآنية وماتضّمنته من حقائق احتوتها قصّة آدم المجازية وبلسان حال إبليس. وسأعمد الآن إلى تفصيل ماأورَدتْهُ مُجملاً، ومن خلال ماأوردته سُور البقرة و (ص) والأعراف وطه والحجر والإسراء. من أقوال. وسيرى القارىء كيف أنّ أقوال إبليس هذه نبّهت إلى المقصد الثالث العظيم من إيراد قصّة آدم بلسان المجاز. وهو تحذير المؤمنين في كل زمانٍ ومكانٍ إلى أنّ ذريّة إبليس سيكونوا دوماً المتسّببين بالشّرور في أنحاء المعمورة، وسيكونون على الدّوام سبباً رئيساً يُضلّل الناس المؤمنين ويبعدهم عن توحيد ربّهم وعن صراطه المستقيم.

أتناول ماأوردته سورة البقرة حيث قال تعالى : ﴿**فأزلّهما الشيطان عنها فأخرجها ممّا كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعضٍ عدّو ولكم في الأرض مُستقرٌ ومتاعٌ إلى حين.**﴾. ولفظ الشيطان هنا اسم وصفي ثانٍ لإبليس. فالذي يُبلس أي يقنط من رحمة ربّه ويكفر، إذا أقدم على مقاومة الشيء الذي كفر به وقنط من خيره، يستّحق وصفه بالشيطان من شاط أي احترق. إشارةً إلى أنّ الذي يعادي رُسُل الله تعالى يكون مصيره إلى النّار في نهاية المطاف.

ولنلاحظ أنّ الله عزوجلّ أجمل ماأقدم عليه إبليس وماسعى إليه وهو حرف آدم عن صراط ربّه، وذلك من خلال لفظ (فأزلّهما). فمعنى أزلّه أماله عن خطّه الذي يسير عليه.

فلم يقل جل شأنه دفعهما إلى معصية أمـر ربهمـا. لأنّ فعـل (فأزلّهمـا) يحمل دلالات أوسع من ذلك بكثير. وكأنه جـلّ شـأنه نبّـه أذهـان المؤمنـين عـن طريق ماأجمله إلى أنّ الفريق الكافر والذي يفكّر بتفكير ماديّ بحت يسـعى دومـاً لإمالة المؤمنين الذين يفكرون بتفكيرٍ روحاني، إمالتهمَ عن صراط ربّهم المستقيم. وبهذا الإجمال يكون الله عزوجلّ قدّ نبّه إلى المقصد الثـالث العظيـم الـذي صـاغ قصّة آدم من أجل لفت أنظار المؤمنين إليه.

ولقد سبق هذا الإجمال المتعلّق بالغاية القصوى التي يسعى إبليس وذريّتـه إلى تحقيقها. سبقه إجمال آخر. فقد ورد قبـل ذلـك قولـه تعـالى: ﴿**وقُلنـا يـاآدم اسكن أنـت وزوجـك الجنّـة وكُـلا منهـا رغـداً حيـث شـئتما، ولاتقربـا هـذه الشّجره فتكونا من الظالمين.**﴾.

فقد نبّهت ألفاظ هذه الآية الكريمة إلى أنّ الأصل هو إباحـة تنـاول كـلّ شيءٍ من أشياء هذه الكرة الأرضية. وأنّ نسبة المُحرّمات منها نسبة ضئيلـة تكـاد لاتُذكر أي نسبة شجرة واحدة إلى مافي هذه الجنّة من أشجار. ولم يكن المقصـد من هذا التحريم إلاّ فائدة الإنسان نفسه. وأنّ إبليس سيركّز علـى إمالـة المؤمنـين لتناول هذه المُحرّمات وعدم التزامهم بما نُهوا عنه. وأنا حين قلت إنّ المقصد مـن تحريم هذه المنهيات هو فائدة الإنسان نفسه، فقد استنبطت ذلك من قوله تعـالى: ﴿**فتكونا من الظالمين**﴾ أي الظّالمين لأنفسكم من جرّاء هذه المخالفات.

وقد فتح الله عزوجلّ باب التّوبة لكل مؤمن يستزلّه الشـيطان فَيُخطـيء غير مُتعمّدٍ الخطأ والعصيان. هذا الأمر صرّح به جلّ شأنه بقوله تعـالى: ﴿**فتلّقـى آدم من ربّه كلماتٍ، فتاب عليه، إنّه هو التّواب الرّحيم.**﴾.

والمهـمّ هـو أنّ سـورة البقـرة أتـت علـى ذكـر قصّـة آدم عليـه السـلام بأسلوب مجازي وبلسان الحال فـأجملت مواضيـع القصّـة، ولم تدخـل في تفـاصيل مايتعلّق بكل طرَفٍ من أطرافها. ونبّهت في الوقت نفسه إلى أنّ بعثـة آدم كـانت أساس الصّراع الدائر مابين المؤمنـين أصحـاب التفكـير الروحـاني ومـابين الأبالـة الكافرين برسالات السّماء وأصحاب التفكير المادّي، وأنّه من واجب كلّ مؤمـن أن يحذر مايأتي به أعداء الدّين. فهؤلاء أي إبليس وذريّتـه يسـعون دومـاً لإبطـال مفعول كلّ محاولـة يحاولهـا ربّ العـالمين لتطويـر عبـاده الذيـن خلقهـم، ولنقلهـم نقلاتٍ نوعية باتّجاه السّمو والكمال.

والمعلوم أن سورة البقرة هي أوّل سورة من سور القرآن الكريم، وقد استلزم تسلسل آياتها الموضوعي هذا الإجمال الذي ذكرناه المتعلّق بقصّة آدم عليه السّلام، كذلك فإنّ سورة (ص) تعبّر آخر سورة اقتضى تسلسل آياتها الموضوعي عرض قصّة آدم وبالإجمال أيضاً، إنّما بألفاظ غير الألفاظ التي أوردتها سورة البقرة.

فقد نقلت سورة (ص)الآية (٨٣) قول إبليس بلسان حاله، وإثر طلبه (انظُرني) أي دعني أتأمّل واتبّصر بتفكيري المادي : **﴿قال فبعزّتك لأغوينّهم أجمعين. إلاّ عبادك منهُمُ المُخلصين.﴾**. وكلمة فبعزّتك هي كلمة تحدّي ضدّ مايخطّطه ا لله الرّب لتطوير عباده. فالفاء فاء الاستئناف والباء باء القسم وعزّتك إشارة إلى اسم ا لله العزيز بمعنى المنيع الذي لايُغالب. وانطلاقاً من أنّ القسم هو عبارة عن تقديم شهادة.

فكلمة فبعزّتك أي أنني وبأسلوب تفكيري المادّي وبعيداً عن تهذيب تعاليم الدّين سأثبت إمكانيّة إغواء هؤلاء المؤمنين الذين يفكّرون بتفكير روحيّ. أي لأتمكّن من إضلال هؤلاء المؤمنين وتخييب ظنّهم بربّهم العزيز وأدفعُ بهم نحو الجهالة والهلاك. إلاّ عبادك منهم المخلصين.

ألا إنّ هذه المعاني التي تحملها جُملة **﴿فبعزتك لأغوينهم أجمعين.﴾** تحمل نفس دلالة ماورد في سورة البقرة **﴿فأزلّهما الشيطان عنها فأخرجهما ممّا كانا فيه﴾**. فسورة البقرة بهذه الألفاظ حذّرت من أنّ إبليس وذريته هم من الأساليب الشيطانية مايمكّن من إزلال وإمالة أقدام المؤمنين عن صراط ا لله المستقيم. أمّا سورة (ص) فقد نبّهت إىل ماوراء هذه الأساليب الشيطانية من حقدٍ دفينٍ على المؤمنين با لله عزوجلّ. هذا الحقد الذي يدفعهم للتفنّن في أساليب إغواء المؤمنين. فالموضوع واحد في سورتي البقرة و (ص) والفارق في زاوية النّظر إلى هذا الموضوع.

إنّ قصّة آدم المجازية الواردة في سورة البقرة، نبّهت إلى أنّ من لم تكن له تجربةٌ سابقة في تعامله من إبليس وذريّته ستزلّ قدماه عن غير قصد. كما حدث مع آدم عليه السلام الذي عصى ربّه وغوى، عن غير قصدٍ منه، لذلك تاب ا لله تعالى عليه، وإنّه تعالى أوصى بعد آية **﴿فازلّهما الشيطان..﴾** وقال: **﴿فإمّا يأتينكّم منّي هُدى فمن تَبع هُداي فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون.﴾**.

أي أن من يتمسّك بما أنزل من تعاليم سماوية حقّ التمسّك فلاخوف عليهم من أحابيل إبليس وذريّته وليس له عليهم من سلطان. فلن تزلّ أقدامهم ويحزنون على مابدر منهم، بحال من الأحوال.

فهذا هو ماتعلّق بقصّة آدم المجازية وماأوردته من أقوال إبليس وتوعّداته في سورتي البقرة و (ص) هذه الأقوال التي تعبّر عن المقصد الثالث العظيم من صياغة الله تعالى لهذه الأقوال بلسان الحال. هذا المقصد الذي ينبّه أذهان المؤمنين إلى الحقد الدّفين الذي تولّد عن بعثة آدم عليه السلام في أفئدة أصحاب الطّبائع الناريّة والذين يأبون الطبيعة الطينيّة التي تلتزم بنظامٍ وقانونٍ سماويّ.

فإن نحن تناولنا ماأوردته سورة الأعراف من هذه الأقوال، نلاحظ أنّها كشفت للقارىء عن الشّعار الذي سيرفعه إبليس وذريّته، وهو شعار الغاية تبرّر الوسيلة والواسطة. أي أنّ هؤلاء الكُفّار لن يتورّعوا عن اللّجوء إلى أدنى وأحقر الأساليب لتحقيق غاياتهم الدنيئة التي يَسْعون إليها، وهي إغواء المؤمنين وإضلالهم وتخييب ظنّهم بربّهم العزيز ودفعهم نحو الجهالة والهلاك.

فقد أوردت سورة الأعراف هذه الحقيقة وبلسان حال إبليس: **﴿فوسوس لهما الشيطان ليُبدي لهما ماوُرِي عنهما من سوآتهما، وقال مانهاكما ربكّما عن هذه الشجرة إلاّ أن تكونا ملكَين، أو تكونا من الخالدين، وقاسمهما أني لكما لمن النّاصحين، فدلاّهُما بغرور..﴾**. فالله عزّوجلّ سمّى إبليس، وهو يحاول الإغواء شيطاناً، على شاكلة مافعله في سورة البقرة. وقال **﴿فوسوس لهما الشّيطان﴾**. والوسوسة تعني التّحديث بحديثٍ لانفع فيه ولاخير (محيط المحيط). كما أنّ الوسوسة تأتي خِفيةً وليس جهاراً. فهي حديث مايخطر للإنسان في صدره. والغاية من هذا الأسلوب في التحديث إصابة الموسوس إليه في عقله، ليندفع يتكلّم بلا ضوابط ونظام، بما دفعته وساوسه إلى ذلك (محيط المحيط).

أي أنّ الله عزوجلّ استعمل هنا في سورة الأعراف لفظ (فوسوس)، إظهاراً منه جلّ شأنه لِخُبث إبليس ودناءة أساليبه التي يعمد إليها لإغواء المؤمنين. أي أنّ الغاية في نظر إبليس تُبرّر الوسيلة التي يعمد إليها لتحقيق أغراضه لإغواء أصحاب التفكير الرّوحاني وإهلاكهم، وإثبات صدق ماعبّر عنه إبليس متحدّياً **﴿فبعزّتك لأغوينهم أجمعين.﴾**.

وهو جلّ شأنه إذ قال: ﴿**ليُبدي لهما ماوري عنهما من سوآتهما**﴾ فقد أتى بكلمة (سوآتهما) وهي جمع سوءه ومعناها الخلّه والصّداقه القبيحة والفاحشة والعورة (محيط المحيط). فالمعنى أنّ غاية الشيطان من أسلوب وسوسته هو أن يدفع بهؤلاء المؤمنين لاتبّاع ميولهم الفاسدة وشهواتهم الجنسية ويكشف بذلك عن ضعفهم وعوراتهم ونقائصهم. فإن شاء القارىء توضيح ماذكرته، فليعمد إلى مُلاحظة ماتأتي به وسائل إعلام شيطان زماننا من أمورِ القصد منها حرف شباب أمّتنا الإسلامية عن صراط الله المستقيم.

وهكذا يكون الله تعالى قد نبّه أذهاننا في سورة الأعراف ومن خلال مانسبه لإبليس من أقوال وأفعال، نبّه أذهاننا إلى أنّ هذا الشيطان رفع شعار الغاية تُبرّر الوسيلة والواسطة لإضلال المؤمنين منذ بداية صراع ابليس مع آدم وإلى نهاية الزّمان. ومن هذا يتضح المقصد العظيم الثالث الذي ابتغى الله جل شأنه تحقيقه من خلال صياغته لقصّه آدم صياغةً مجازيةً وبلسان الحال.

ومايوضّح أكثر فأكثر هذا الشّعار الذي رفعه إبليس وذريّته هو قوله تعالى قبل ذلك عن لسان حال إبليس متوعّداً ومهدّداً. قوله : ﴿**ثم لآتينّهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولاتجد أكثرهم شاكرين.**﴾ أي لن أدع وسيلة أو أسلوباً لإضلال المؤمنين إلاّ وسأسلكه لتخريب وتشويه مابين أيديهم من تعاليم والتشكيك بما خلفهم من آمال ومعتقدات بيوم الحساب. وسأعمد إلى تفتيت وحدتهم فآتيهم عن أيمانهم. وأفتّت اقتصادهم فآتيهم عن شمائلهم، وأنتهى من ذلك كلّه لنسيان شكرك والثناء عليك وحمدك كربٍ للعالمين.

أي سأبذل قصارى جهدي وبشتّى الوسائل الرفيعة والدّنيئه لأبشع في مجتمع المؤمنين الفواحش وبلباس النّاصحين.

وقد نبّه الله جلّ شأنه في سورة (طه) إلى أن من وسائل الوسوسة التي يعمد إليها إبليس وذريّته الوسيلة الفكرية الفلسفية يبثّها ويوسوس بها بوسائل إعلامه تحقيقاً منه لأهدافه الشريرة في إضلال المؤمنين. فعبّر عن هذه الحقيقة في سورة طه بقوله تعالى: ﴿**فوسوس إليه الشيطان، قال ياآدم هل أدلُكَ على شجرة الخُلد ومُلكٍ لايبلى.**﴾. فتعبير ﴿**شجرة الخلد**﴾ هو تعبيرٌ بلاغيٌّ فالشجرة حجازاً قُصد بها الأفكار الفلسفية لاقترانها بكلمة الخلد والتي تعني المدّة

الطويلة دامت أم لم تدم. أي أنّ إبليس يطرح أفكاراً فلسفية يوهم بها أنّها الأفكار التي إن أخذت بها أمّة من الأمم يُكتب لها الرّقي والدّوام. وبهذين اللّفظين عبّر جلّ شأنه عن حقيقةٍ طالما أيّدها الواقع التاريخي. ففي القرن التاسع عشر على سبيل المثال طُرح موضوع الإلحاد بوجود الله تعالى بشكلٍ فلسفي. وليست نظريّة دارون ببيعدةٍ عن أذهان المُتابعين لمجريات ذاك القرن. ثم إنّ الفلسفة المادية الماركسية التي طُرحت ولاقت إقبالاً من جماهير روسيا وماجاورها من شعوب تشكّل أكبر برهان على صحّة دلالة مُصطلح قصّة آدم المجازية (شجرة الخلد). فالماركسيون كانوا يوهمون أتباعهم أنّ تعاليم ماركس تمثّل "شجرة الخلد" التي ستضع أقدامهم على مسار النّهضة والتّقدم إلى أبد الآبدين.

فهذه أمثلة حيّة على صحّة مانبّهت إليه قصّة آدم المجازية من خلال ماأتت به من أقوال بلسان حال إبليس وذلك في سورة (طه) التي ذكرناها. فإبليس وذريّته يسعون منذ بداية صراعهم مع رسالات السّماء التي ابتدأت ببعثه آدم عليه السّلام، كانوا يسعون دوماً لطرح فلسفاتٍ فكريةٍ في مواجهة ماكانت تأتي به هذه الرسالات السمّاوية، فيوسوسون بهذه الأفكار والفلسفات في صدور المؤمنين، وكأنهم يقدّمون لهم "شجرة الخلد" ليميلون بهم عن صراط الله المستقيم. فهذا واقع تاريخي لايكذّبه إلاّ المعاندون.

وإبليس لم يكتف بلسان حاله أن يقول **﴿هل أدلّك على شجرة الخلد﴾** بل أضاف قائلاً : **﴿ومُلكٍ لايبلى﴾** أي أنّ هذه الأفكار الفلسفية تمكّن من إقامة حضارة ومُلكٍ لايبلى أي يدوم فلا يزول.

وأعجب من ذلك هو قوله تعالى بعد ذلك: **﴿فأكلا منها فبدت لهما سوآتُهما وطفقا يخصُفان عليهما من ورق الجنّة وعصى آدم ربّه فغوى.﴾**. أي كما أن استجابة آدم لإبليس وبلسان حالهما قد أدّى إلى عصيانه ربّه وغوايته. واضطرّ بعدها للعودة إلى الأخذ بحريته تعاليم ربّه وإلى التّوبه بكلّ حرّية وهو ماعُبّر عنه بالقول: **﴿فأخذا يخصفان عليهما من ورق الجنّة.﴾**. فإنّ كلّ مؤمن لايضع بحسبانه حقيقة أنّ إبليس وذريته سيطرحون أفكاراً فلسفية على الدوام يوسوسون بها في صدور المؤمنين موهمين أنها أساس التقدّم والحضارة فلابدّ أن ينتهي الأمر بهذا المؤمن الذي لم يتّعظ بمعطيات قصّة آدم المجازيه، إلى الغواية وعصيان ربّه وبالتالي بُعده عن خالقه عزوجلّ.

وقد وضّح جلّ شأنه في سورة الحجر أمراً هاماً، وهو أنّ الحضارات المادّية التي سيقيمها إبليس وذريّته على أفكار فلسفيةٍ مُختلقةً ومزيّفة، ستأتي بأشياء مزيّنة جذابةٍ في ظاهرها، تجذب النفوسَ البشرية إليها بشكلٍ آلي وطبيعي، وعلى صورة تُنسي النّاس أنّ هذه الأشياء من صنع إبليس وذريته وأنّ وراءها ماوراء الأكمة من أسرار .

هذا الأمر الهام الذي أتت به الآيات من سورة الحجر بشأن قصّة آدم المجازية تضّمنه قول ا لله عزوجل: ﴿**قال ربّ بما أغويتني لأزينّن لهم في الأرض ولأغوينّهم أجمعين. إلاّ عبادك منهم المُخلصين.**﴾. فقول إبليس بلسان حاله هنا ﴿**لأزينّن لهم في الأرض**﴾ قُصد به إبداع حضارات تنافسي الحضارات التي تقيمها التعاليم الدينيّة. وتكون أشياء هذه الحضارات مزيّنة أي مزخرفةً جذّابة. هذه الحقيقة التي يلاحظها كلّ مؤمن يتأمّل ماأتت به حضارة أوربة وأمريكة من مختلف الأنواع والأشكال. حتى باتت هذه الأشياء بمثابة جنّةِ المسيح الدّجال أتى بها لإغواء جماعة المؤمنين في كلّ مكان، وهي التي حذرنا من شرورها محمّد سيد المرسلين (ﷺ) حيث ورد في أحاديثه (ﷺ): (من دخل جنّة المسيح الدجال فقد دخل النّار). أفلا نُلاحظ الجاذبيّة التي توسوسها في نفوس أبناء الجيل المسلم ماأبدعته هذه الحضارة العِلمانية المادّية الغربيّة والتي أبعدت هؤلاء عن صراط ا لله، وأمالتهم إلى اتباع الشّهوات في كل مكان؟

وليلاحظ القارىء لكتاب ا لله العزيز أنّ إبليس ظلّ يقول بلسان حاله: ﴿**إلاّ عبادك منهم المخلصين.**﴾ (ص) والحجر ويقول: ﴿**ولاتجدُ أكثرهم شاركين.**﴾ الاعراف. ويقول: ﴿**لأحتنكنّ ذريّته إلاّ قليلاً.**﴾ سورة الإسراء. فكيف يستثنى إبليس فئةً من المؤمنين المُخلصين دوما في أقواله. وهل هو علاّم الغيوب؟ بل هي قرينةٌ دالّةٌ على أنّ أقوال إبليس الواردة في قصّة آدم المجازية إنّما وردت بلسان حال إبليس ومن يسير على خُطاه ومن ذريّته وليس بلسان فمه. وأنّ المقصد الثالث العظيم المقصود من هذه الأقوال الابليسية واستثناءاتها فيها التحذير كلَّ التحذير من ذريّة إبليس وفيها التبّشير من أنّ من يُدرك حقيقة هذه القصة المجازية ودلالاتها وأغراضها ومقاصدها لايضلّ عن صراط ا لله المستقيم في يومٍ من الأيام.

والسّورة السّابعة التي احتوت قصة آدم المجازية هي سورة الإسراء. وقد نبّهت إلى هذا المقصد الثالث العظيم من خلال مااستجدّ فيها من أقوال بلسان حال إبليس. فهو ﴿**قال أرأيتك هذا الذي كرّمت عليّ لئن أخّرتن إلى يوم القيامة لأحتنكّن ذريّته إلاّ قليلاً.**﴾. فتهديد إبليس وتوعّده في سورة الإسراء متعلّق بذريّة آدم، وليس بآدم نفسه. هذا من جهة، ثم إنّ ابليس لم يقل هنا (أنظرني) بل قال: ﴿**لئن أخرّتن إلى يوم القيامة**﴾ فما دلالة "يوم القيامة" في هذا المقام؟ ولماذا لم يقل (إلى يوم يبعثون) بألفاظه هذه الواردة في سورة الأعراف والحجر وسورة (ص)؟

فهل تحمل هاتان الجملتان معنى واحداً؟ أم تحملون معينين مختلفين؟ فإن كان الجواب سلباً، فما هو الدّاعي لهذا الإختلاف ومادلالاته؟ فهذه أسئلة لابدّ من الإجابة عليها إجابات وافية وشافيه. وبما أنّ كلام الله في كتابه العزيز يمتاز بتسلسله الموضوعي. فلابدّ أن يوجّهنا سياق هذه الآية من سورة الإسراء إلى المقصود من ذريّة آدم المشار إليها هنا، وإلى دلالة يوم القيامة أيضاً.

وعليه فلنعُد معاً إلى السّباق عدّة آيات سابقة. فنلاحظ تحذيراً من الله عزوجلّ موجهاً إلى المؤمنين بصورة خاصّة يقول الله تعالى فيه: ﴿**وقل لعبادي التي هي أحسن، إنّ الشّيطان ينزغُ بينهم، إنّ الشيطان كان للإنسان عدوّاً مُبيناً.**﴾. وخطاب "عبادي" مختصٌّ بفئة المؤمنين ففي الزّمر (٥٣) ﴿**قل ياعبادي الذين آمنوا إنّ أرضي واسعة فإيايّ فاعبدون.**﴾. وفي سورة الفجر (٢٩): ﴿**ياأيّتها النّفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضيه. فادخلي في عبادي وادخلي جنّتي.**﴾ وأمثالها من الآيات.

وتتضمّن الآية ﴿**وقل ياعبادي..**﴾ أمرين واضحين الأول منهما ﴿**يقولوا التي هي أحسن**﴾ كمقدمة لابدّ من الأخذ بها. فإن تقاعس المؤمنين عن التقيُّدّ بها، فإنّ النتيجة التي تنتظرهم ﴿**إنّ الشيطان ينزغ بينهم**﴾. وهذان الأمران يستندان إلى حقيقة ﴿**إنّ الشيطان كان للإنسان عدوّاً مبيناً.**﴾.

ولأهمية ماتضمنته هذه الآية الكريمة، يجدر بنا تفهُّم معنى ودلالة ﴿**يقولوا التي هي أحسن**﴾ فما هو المقصود بألفاظ هذا الشطر من الآية المذكورة؟ فهي من الأهمية بمكان.

والحقّ هو أنّ الله عزوجلّ الذي نبّه في السّورة السّابقة لسورة الإسراء أي نبّه في الآيات الأخيرة من سورة النحل إلى مايوضّح ﴿**يقولوا التي هي أحسن**﴾ وبألفاظ صريحة واضحة الدلالات تمهيداً منه جلّ شأنه لينبّه هذا التنبيه المذكور. فهو تعالى أمر المؤمنين هناك بقوله: ﴿**أدع إلى سبيل ربّك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي أحسن، إنّ ربّك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله، وهو أعلم بالمهتدين. وإن عاقبتمُ فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به، ولئن صبرتم لهو خيرٌ للصّابرين. واصبر وماصبرك إلاّ با لله ولاتحزن عليهم ولاتكُ في ضيقٍ ممّا يمكرون. إن ا لله مع الذّين اتقوا والذين هم محسنون**﴾ وقد تضمنت هذه الآيات الكريمة:

أولاً– أن يلتزم الفريق المؤمن بالدّعوة إلى سبيل ا لله.

ثانياً ـ وأن ترتكز هذه الدّعوة المنظمّة على أسسٍ حكيمة وبيّناتٍ حسنة قاطعة الدلالات.

ثالثاً ـ وأن يجري حوار هذا الفريق المؤمن مع أعداء الذين ﴿**بالتي هي أحسن**﴾ أي بأحسن المقالات وأكملها حججاً وبراهين قاطعة.

رابعاً ـ وأن يبتعد الفريق المؤمن عن القيام ومبادرة عدّوهم بأيّ اعتداءٍ من أيّ نوعٍ كان، والصّبر على اعتداءات هؤلاء الأعداء.

خامساً ـ وأن يعتمد الفريق المؤمن وسيلة الصّبر وتحمّل كل عناءٍ كوسيلة استراتيجيّة في دعوتهم إلى سبيل ا لله تعالى وماصبرهم إلا با لله وتأييده .

سادساً ـ وينبّه جل شأنه إلى أن أعداءهم يتصّفون بصفة المكر والدّهاء في وسائل مناهضتهم للإسلام، ولايعتمدون الحجّة والبرهان وسيلة لتحقيق أهدافهم الدنيئة لذلك يُوصي ا لله تعالى المؤمنين بالتزام الدعوة إلى سبيل ا لله على هذه الأسس شرط أن يكونوا أتقياء فلا يقولوا مالا يفعلون وأن يُحسنوا سلوكهم ودلائلهم ووسائلهم، ليجذبوا بذلك محبّة ا لله وتأييده إلى جانبهم وهذا معنى ﴿**إنّ ا لله مع الذّين اتّقوا والذّين هم محسنون**﴾.

على هذه الصّورة نكون قد أدركنا المقصود من قول ربّنا عزوجل: ﴿**وقل لعبادي يقولوا التّي هي أحسن**﴾. ففي هذه الألفاظ الموجزة تذكير للمؤمنين بالوصيّة التي كان ا لله تعالى قد اختتم بها سورة النّحل السابقة للإسراء. تذكير لهم بضرورة الالتزام بالدعوة إلى سبيل ا لله تعالى، وتحذير في الوقت نفسه

من التّنازع على الثّروة والحكم. ومايؤكّد صحّة هذا التذكير وذاك التحذير، هـو إضافته تعالى قوله: ﴿**إنّ الشيطان ينزغ بينهم، إنّ الشّيطان كان للإنسان عدّواً مبيناً**﴾. فهو تعالى أتى بلفظ الشيطان وهو الاسم الوصفي الثاني لإبليس، يطلقـه هنا على أعداء الإسلام، مذكّـراً مـن طـرف خفـي بمـا تضمنـه قصـة آدم المجازيـة وبلسان الحال.

والملاحظ أنّ الله عزوجلّ أتبع تنبيهه وتحذيره هذا، يقول: ﴿**ربكّم أعلـم بكـم، إن يشأ يرحمكم أو إن يشأ يعذّبكم، وما أرسلناك عليهم وكيلا**﴾. وهـذه الآيـة الكريمـة دلّـت علـى أنّ الله عـلاّم الغيـوب، كـان في واسـع علمـه أنّ المسـلمين سيُغفلون العمل على هذا التنبيه والتحذير، ويُصيبهـم مـا أصـاب الأمـم السـابقة، ويفسحون بذلك المجال للشيطان أن ينزغ بينهم. فما معنى "ينزغ بينهـم" الـوارد في الآية السابقة؟ فعل ينزغ من نزغه الشيطان إذا حثّه على المعـاصي، وطعـن فيـه واغتابه وأفسد بـين أفـراده ووسـوس وحـرّك بعضهـم علـى بعـض (محيـط المحيـط وأقرب الموارد). أي كان في علم الله الغيبيّ أنّ المسلمين سيهملون أمـر تنظيـم الدّعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالّتي هي أحسن.

الأمر الذي سيؤول بهم إلى إلهائهم بالمال والسلطة والجاه وتنـازعهم فيمـا بينهـم، وإفساح المجال لعدّوهم الشّيطان أن يغتنـم ضعفهـم هـذا وتخلّفهـم، فيطعـن فيهـم ويذكرهـم بـالقبيح مـن الأقـوال ويفسـد بينهـم بتحريـض بعضهـم علـى بعـض ويوسوس في صدورهم يحثّهم على ارتكاب المعاصي والآثام.

فقد كان هذا المصير كله في علم الله الغيبي لذلك لاحظناه جل شأنه قد أضاف يقول إنّ لكلّ مقدّماتٍ نتائجها، وإن الأمة الاسلامية التي ستهمل الدّعـوة إلى سبيل الله وتتنازع، ستفقد تأييد الله ومحبّته، وتستحقّ بالتّـالي العـذاب. وقـد عبّر جل شأنه عن هذا بقوله تعالى: ﴿**إنْ يشأ يرحمكُم، أو إن يشأ يعذبكّم، ومـا أرسلناك عليهم وكيلا.**﴾ مُسقطاً المسؤولية في الوقت نفسه عن اكتـاف رسـوله الأمين محمّدٌ خاتم النبيّيـن (ص)، هـذا الرّسـول العظيـم الـذي لم يـترك سـبيلاً إلى وعظ أمّته إلاّ سلكه بأحسن مايعظ به الإنسان قومه. والذي كـان خلُقـه القـرآن وأسوةً للمؤمنين.

إلى هنا نكـون قـد أدركنـا مـن خـلال الآيـات الكريمـة الـتي أوردناهـا دلالتها وإنباءها عن زمن تخلّف المسلمين وانحطاطهم واستحقاقهم لعذاب الله.

وإنباءها أيضاً عن أنّ عدّو الإسلام سيقوى ساعده، وينزغ بين صفوف هؤلاء المسلمين.وينشأ بالتّالي سؤال هام وهو كيف سيعالج الله جلّ شأنه هذا الحال الذي سيصير إليه دين نبيّه الحنيف؟

ويُجيب الله جل شأنه على هذا السؤال هنا بأسلوبٍ بلاغي يدهش العقول ومُدعّم بالحجج والبراهين فيقول: **﴿وربّك أعلم بمن في السّموات والأرض، ولقد فضلّنا بعض النبيّن على بعض، وآتينا داوود زبوراً.﴾**. فهو تعالى قال من قبل مخاطباً المسلمين **﴿ربّكم أعلمُ بكم﴾**. والآن راح يقول مخاطباً رسوله الكريم وبعد أن رفع عن أكتافه مسؤليته عمّا سيؤول إليه حال أمّته، يقول بلسان عالم الغيب والشهادة **﴿وربّك أعلم بمن في السّموات والأرض﴾** مشيراً إلى الأموات والأحياء من عباده. ومذكراً بتفاوت مرتبة الذين أرسلهم الله تعالى من النبيّين، وملمّحاً إلى أنّ محمداً هو سيّد المرسلين، وهو الذي أنبأ جميع من سبقه من الأنبياء عن بعثته ومقامه السّامي بينهم. يقول تعالى **﴿وربّك أعلم بمن في السموات والأرض﴾** أي أعلم بهذه الأمور جميعها لأنةّ جلّ شأنه هو المرجع الأول والأخير فيها. فهل يُعقل أن يترك الله أُمّتك وهو ربّك، هذه الأمّة التي شابهت ماحدث في أمّة موسى عليه السلام من قبلك؟ خصوصاً وأنّ هؤلاء الأنبياء قد انبؤوا أيضاً في كتبهم عن مصير أمتّك؟

فذكّر جل شأنه نبيّه الكريم بحال بني اسرائيل قوم موسى بعد بعثة داوود بينهم، وبمصيرهم الذي آلوا إليه وقال **﴿وآتينا داوود زبوراً﴾**. وفي هذه إشارةٌ أخرى أيضاً إلى الدّمار الذي لحق ببغداد على أيدي هولاكوخان إثر تنازع المسلمين فيما بينهم أيضاً لتماثل الحالين والزّمانين. يوم ألهاهم ماحصلوا عليه من المُلك والثروة وتناسوا الإلتزام بتنظيم الدّعوة إلى سبيل الله. فانقسموا إلى شيعٍ وأحزابٍ يطلبون ودّ ورضا زعماءهم، مُتناسين طلب ودّ ربّهم ومحبّته ورضاه أي أنهم كانوا انغمسوا في مستنقع الشرك الخفّي.

لذلك توجّه الله عزوجلّ إلى هؤلاء بخطابه بعد أن طمأن رسوله وبرّأه من مسؤولية عمّا سيحدث لأمّته. توجّه إلى هؤلاء يقول: **﴿قل ادعوا الذّين زعمتم من دونه، فلا يملكون كشف الضُّر عنكم ولاتحويلاً.﴾**. أي أنّ انسياقكم وراء هذه الزّعامات انتهى بعاصمتكم بغداد إلى هذا الدّمار الذي شابه فترة ماحدث بعد داوود عليه السّلام. أي أنكّم سيؤول حالكم من جرّاء إهمال

الدعوة إلى سبيل الله والانسياق وراء هذه الزّعامات سيؤول حالكم إلى (الضُّر) والضُّر لغة يعني الشدّة وسوء الحال، وضدّ النّفع (محيط المحيط) أي سيأخذ الوهن والضعف سبيله إلى أمتّكم. ولن تملك زعاماتكم يومئذٍ إمكانية كشف الضّر عنكم ولاتحويله بشكل من الأشكال. فأنتم تناسيتم الدعوة إلى سبيل الله وتناسيتم أسوة رسولكم الأمين وحال جميع من سبقه من النبييّن، وقال: ﴿**أولئك الذين يدعون، يبتغون إلى ربّهم الوسيلة أيّهم أقرب، ويرجون رحمته، ويخافون عذابه، إنّ عذاب ربّك كان محذوراً**﴾. أي كان أحرى بكم بعد الدّمار الذي لحق ببغداد أن تعودوا إلى تنظيم الدعوة إلى سبيل الله وابتغاء قرب الله ومحبّته راجين رحمته خائفين من عذابه الذي توعّدكم به إن أنتم تقاعستم عن الدعوة إلى سبيل الله تعالى.

وليس أن تسعوا إلى هذه الزّعامات السياسيّة ترجون منها كَشْفَ الضُّر عنكم. فالذي كان عليكم أن تخشوه هو عذاب الله ربكّم. لذلك أنهى الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿**إنّ عذاب ربّك كان محذوراً**﴾.

ومادام الله تعالى قد نبّه إلى الدّمار الذي لحق بهيكل سليمان بعد بعثة داوود عليه السلام. حذّر المسلمين كلّ هذا التحذير. فلابدّ أن يكون قد أشار إلى بعثة مسيحٍ بن مريم آخر كالذي بُعث أيّام بني إسرائيل ومن طرف خفّي. وأشار بذلك إلى ماسيحدث من مماثلة له في آخر أيام انحطاط المسلمين وتخلّفهم.

أي أنّها ستقوم قيامة هؤلاء المسلمين، على شاكلة ماقامت به قيامة بني اسرائيل زمن بعثة المسيح عليه السّلام. وهذه إشارة إلى بعثة المسيح الموعود المجدّد والحكم العدل بين المسلمين في زمن يماثل المدّة التي بُعث فيها المسيح الناصري وإلى بني اسرائيل. فلا اليهود آمنوا بالمسيح الأول، ولا المسلمون المتخلّفون سيؤمنون بالمسيح المثيل، لذلك يستحق العالم أجمع عذاباً شديداً ودماراً شاملاً. هذه الحقيقة هي التي استدعت من الله عزوجلّ أن يضيف قائلاً: ﴿**وإنْ من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة، أو معذّبوها عذاباً شديداً، كان ذلك في الكتاب مسطوراً**﴾.

هذا وإنّ قوله تعالى بحقّ العذاب الشامل المُنتظر ﴿**كان ذلك في الكتاب مسطوراً**﴾. وَرد هنا مجملاً، بسبب أنّ الله تعالى قد خصص السورة التي تلي سورة الإسراء وهي سورة الكهف لتفصيل هذا الكلام المُجمل، فيما بعد.

والمعلوم من كتاب الله العزيز أنّ الله تعالى دأب على إنذار الناس الذّين قرّر سبحانه إنزال عذابه الشديد بهم وتخويفهم بإراءة الآيات السماوية، لعلّهم يرجعون عن تكذيبهم ومعاصيهم. فهذه سُنّة إلهيّة في هذا المجال. فالسؤال هو: مادام الله عزوجلّ قد قال هنا منبئاً عن عذاب شامل: **﴿وإن من قريةٍ إلاّ نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذّبوها عذاباً شديداً﴾**. فهل سينزل هذا العذاب الشامل بعد التخويف وإراءة الآيات السّماوية حسب السُّنة الالهية المذكورة أم أن الله عزوجلّ قد بدّل سُنّته بعد ظهور الإسلام؟ فهذا سؤال وجيهٌ لابدّ من الإجابة عنه في هذا المقام.

والحقيقة هي أنّ ربّنا عزوجلّ لم يغفل الإجابة عن هذا السّؤال هنا وضمن التّسلسل الموضوعي لهذه الآيات الكريمة. فأجاب وقال: **﴿ومامنعنا أن نُرسل بالآيات إلاّ أن كذّب بها الأوّلون، وآتينا ثمود النّاقة مُبصرةً، فظلموا بها، ومانرسل بالآيات إلاّ تخويفاً﴾**. و لم يتدبّر المفسّرون هذه الإجابة حقّ التدبّر، وذهبوا إلى أنّها تفيد تبديل سُنّة الله عزوجلّ وانقطاع إظهار الآيات السّماوية. مع وجود قول ربّنا في مقام آخر **﴿ولن تجد لسُنّة الله تبديلاً﴾**. هذا وقد اختلق هؤلاء المفسرون رواياتٍ من عند أنفسهم لتأييد رأيهم الباطل، ممّا لاحاجة لإيراد ذلك كلّه في هذا المقام.

ألا إنه عزوجلّ مادام قد أنهى هذه الآية الكريمة ببيان المقصد الأسمى من إرسال الآيات السّماوية وحدّده بقوله **﴿إلاّ تخويفاً﴾** من خاف بمعنى علم ففزع فحذر فاتّقى وضدّ أمن (محيط المحيط) فهو تعالى يقرّر إذن أنّ هناك فريق من الناس يفيدهم رؤية الآيات السّماوية في مجال علم الحق والفزع منه والحذر من عذاب الله واتّقائه. ويعود هذا الفريق من الناس بالتّالي عن عنادهم وتكذيبهم لما نزل من السّماء من وحي إلهي. ويكون الله عزوجلّ قد قرر بذلك عدم تبديل سُنّته القديمة، وهذه قرينةٌ تدفع متدبّر هذه الآية الكريمة ليفهم منها عكس مافهمه هؤلاء المفسرون.

والذي أشكل على هؤلاء ورود حرف (إلاّ) هنا، فلم يفطنوا إلى أن الله عزوجلّ، قد أنهى هذه الآية بما لاحظناه ليوفّر قرينة تؤكّد أنّه تعالى استعمل (إلاّ) هنا زائدة لاعمل لها. فهذا أحد أشكال استعمالات (إلاّ) على حسب ماوضّح ذلك النحويّون. فأنت تقول: لايزال الدّهر إلاّ مُتقلّباً. أي لايزال الدهر مُتقلباً.

فعلى هذه الشاكلة أورد ا لله تعالى حرف إلاّ في هذه المقام. ويكون معنى الآية أنّه مامن فريق من الأوّلين لم يكذّب رسل ا لله تعالى بالرغم من رؤيته للآيات السّماوية منذ زمن بعثة آدم ونوح وسواهما من أنبياء ا لله الكرام. فهل تبدّلت سُنّة ا لله هذه بسبب هذا التكذيب المتواتر؟ فلو كانت هذه السُنّة الإلهية قد تبدّلت زمن آدم أو زمن نوح وسواهما فكيف آتينا ثمود النّاقة مُبصرة أي آتينا آية سماوية؟ وثمود هذه قبيلة عربيّة معروفة من قوم محمد (ص) ومن أهل الكتاب أيضاً؟ فا لله عزوجلّ لم يبدّل سُنّته هذه بعد إنزال وحي هذا الكتاب العزيز.

فلّما انتهى جل شأنه من إجابته على السؤال المطروح، راح يؤكّد جوابه ويقول: ﴿**وإذ قلنا لك إنّ ربّك أحاط بالنّاس، وماجعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنةً للنّاس، والشّجرة الملعونة في القرآن، ونُخوفّهم، فما يزيدهم إلاّ طغياناً كبيراً**﴾. أي وها أننا نؤكّد دوام سُنّتنا في إراءة الآيات السّماوية ونخوّف بها. فها أن رؤيا الإسراء التي أريناك والتي جعلناها فتنةً وامتحاناً وتخويفاً لهؤلاء الذّين قرّرنا إنزال عذابنا الشديد الشامل بهم قد أكدّت أننا لم نسدّ باب إراءة الآيات السّماوية. فمعنى ﴿**إنّ ربّك أحاط بالناس**﴾ أي قرّر إهلاكهم أو تعذيبهم بعذاب شامل. أي أنّ رؤيا الإسراء تحمل نبوءة ﴿**وإن من قريةٍ إلاّ نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذّبوها عذاباً شديداً**﴾.. بذلك أن محمداً (ص) قد صلّى بجميع الأنبياء في رؤيا الإسراء. وتأويل ذلك أنّ عذاب ا لله سيشمل جميع أتباع هؤلاء الأنبياء فيخاف من يتبّقى منهم بعد ذلك ويتقبّلون الإسلام ديناً، ويتبعون ماجاء به (ﷺ).

ولم يقدّم ا لله جلّ شأنه هذا الدليل وحسب بل أتبعه بدليل آخر تضمّنه قوله تعالى: ﴿**والشّجرة الملعونة في القرآن**﴾ وقصد به شجرة نسل بنو إسرائيل الذّين ورد تهديد ا لله تعالى إيّاهم في الآيات الأوائل سورة الاسراء أيضاً. فاليهود لُعنوا في مواضع كثيرة من سورة المائدة. فقد ورد هناك: ﴿**لُعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داوود وعيسى بن مريم**﴾. كما ورد: ﴿**فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم**﴾ كذلك ورد بحقّهم: ﴿**من لعنه ا لله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير**﴾ فأتباع حزب ليكود قرود مقلّدون، وأتباع حزب العمل خنازير أنجاس. هذا وإنّ استعمال لفظ شجرة كناية عن النّسب والنّسل هو أمرٌ شائع الاستعمال في جميع بلاد العرب.

ولنلاحظ أنّ الله عزوجل ما إن انتهى من تقديم هذين المثالين على أنّهما يشكّلان آياتٍ سماويّةٍ مرعبة، أتبع ذلك بقوله تعالى ﴿**ونخوّفهم**﴾ أي أنّ المقصد من إيراد ذكر هاتين الآيتين السماويتين في بداية سورة الإسراء هو تخويف جميع أعداء الإسلام بما تضمنتاهما من نبوءات متعلّقةٍ بمصير اليهود والنصارى وسواهم من أتباع باقي الديانات السّماوية.

ولنلاحظ أيضاً أنّ الله عزوجلّ أضاف على كلمة ﴿**ونخوّفهم**﴾ نبوءة ثالثة وقال بحقّ هؤلاء جميعهم: ﴿**فما يزيدهم إلاّ طغياناً كبيراً**﴾ فقد أتى بفاء الاستئناف لينبّه إلى مضمون هذه الآية السّماوية الثالثة وهي أنّ هذا التّخويف الوارد في سورة الإسراء وفي الآية التي قررت عاقبة ومصير اليهود لن يفيدهم في مجال تقبّل دين محمد (ﷺ) بل مايزيدهم هذا التخويف إلاّ طغياناً أي ثباتاً على عقائدهم وتجاوزاً للحدود والأعراف والقوانين، ولايكون طغيانهم هذا عادياً بل كبيراً يطال جميع الصُّعد والأزمنة، وكأنه جل شأنه يصوّر وبهذه الألفاظ المعدودات مكائد اليهود التي اشتمل عليها تاريخهم الطّويل. فلم تحدث فتنةٌ في مكان ما من العالم إلاّ ويكون لليهود فيها يدٌ ومكيدةٌ وتجاوزٌ للحدود. وستؤلّفُ هذه المكائد في المستقبل آيةً ودليلاً على صدق هذا الذي أنبأ به القرآن المجيد عن مكائد وطغيان اليهود الكبير فتوضع بحقّها عشرات المجلّدات.

وهكذا يكون التسلسل الموضوعي لهذه الآيات من سورة الإسراء: من ضرورة تنظيم الدعوة إلى سبيل الله، إلى التّحذير من الشّيطان ومكائده، وإلى الإنباء عن دمارٍ شاملٍ سيحلّ بالعالم إلى توجيه أنظارنا نحو هذه الآيات السّماويّة المخوفّة والمفزعة. أقول: إن جميع هذه الأمور اقتضت في هذا المقام التّذكير بقصّة آدم المجازية وبما تضمّنته من أقوال على لسان إبليس وبلسان حاله لتؤكّد على المقصد الثالث الكبير من هذه القصّة وهو التّحذير من الفريق الكافر الذي يفكّر بتفكيرٍ مادّي في مواجهة ذرّية آدم الذين يفكرون بتفكيرٍ روحاني. والتّحذير من ذرّية إبليس المتمثلة باليهود والنصارى خاصّةً والمتواجدين أيّام انحطاط المسلمين المتخلّفين المهملين الدعوة إلى سبيل الله عزوجلّ بشكل منظّم والمنقسمين على أنفسهم إلى مذاهب وأحزاب والمتواكلين على زعمائهم السّياسيين لإعادة مجد الإسلام ورفع الضُّر عن العالم الاسلامي. مُتناسين أنّ زمانهم يماثل زمن بعثة

المسيح الناصري، وأنه يقتضي ظهور المسيح الموعود. خصوصاً وأنّ تدمير بغداد على أيدي هولاكوخان يُماثل ماحدث لليهود بعد بعثة داوود عليه السلام.

فهذا كلّه يكشف عن تسلسلٍ موضوعيٍّ بالغ السّبك بلاغياً ضمن هذه الآيات جميعها وبين المقصد الثالث العظيم لقصة آدم المجازية، ويفسّر لنا بكامل الوضوح سرّ طلب إبليس في سورة الإسراء ﴿لئن أخّرتن إلى يوم القيامة﴾ فهو طلبٌ بلسان حاله وفيه الدلالة على ماسيقوم به زمن تخلّف المسلمين وقيام قيامتهم وهو الزمان الذي نُعاصره يقيناً. فقد أهمل المسلمون اليوم الدعوة إلى سبيل الله ونزغ الشيطان بينهم . لذلك راح هذا الشيطان يستغيبهم ويطعن في أخلاقهم ويذكُرُهم بالقبيح من القول ، ويُغري بعضهم على البعض الآخر ، وأتى هذا الشيطان باليهود الذين يمثّلون هذه الشجرة الملعونة في القرآن أتى بهم إلى فلسطين بوعدٍ من بلفور . وها أنّ اليهود والنصارى ماتزيدهم نبوءات القرآن الكريم بحقّهم إلا طغياناً كبيراً. كما يكشف هذا التسلسل الموضوعي عن سرّ قول إبليس في سورة الإسراء أيضاً: ﴿لأحتنكنّ ذرّيّته إلاّ قليلاً﴾. فالمقصود من ذرّية آدم هنا هم أتباع محمد رسول الله (ﷺ). والمراد من ﴿إلا قليلا﴾ هنا الإشارة إلى ماورد في سورة الواقعة (١٤) ﴿ثلّة من الأوليّن، وقليل من الآخرين﴾. فليعد القارئ إلى ماكتبته في فصل سورة الواقعة من كتاب ﴿فن الاختزال﴾. فقد كتبت هناك أقول: "استهلّ الله جل شأنه هذه السّورة بقوله تعالى: ﴿إذا وقعت الواقعة. ليس لوقعتها كاذبة. خافضةٌ رافعةٌ﴾. والواقعة في اللّغة تفيد المصادمة والحرب والنّازلة الشديدة.(محيط المحيط) وقد ربط تعالى بهذا الاستهلال مابين سورتي (الرحمن والواقعة) وكأنّه قال: إنّ ماأنبأت عنه سورة الرّحمن من عذابٍ ودمارٍ سيحلّ بمعسكري الأمم الغربية هو واقعٌ لامحالة، ولامحيد عنه. وسيُسفر عن اختلال موازين القوى في العالم، فتزول قوى وتبرز قوىً جديدة إلى مسرح الأحداث.. وانطلق الله عزوجلّ يعطي فكرة في سورة الواقعة ـ وبليغة الدّلالة عمّا ستسفر عنه هذه الحرب الضروس التي أنبأ تعالى عنها. فقال: ﴿إذا رُجّت الأرض رجّاً. وبُسّت الجبال بسّاً. فكانت هباءً مُنبثّاً﴾.. وقد أنبأ جلّ شأنه في سورة الواقعة أيضاً ـ بعد ذلك عمّا ستسفر عنه هذه الواقعة وقال: ﴿وكنتُم أزواجاً ثلاثة: فأصحاب الميمنة ماأصحاب الميمنة. وأصحاب المشأمة ماأصحاب المشأمة.. والسّابقون السّابقون. أولئك المقربّون. في جنّات النعيم.

ثُلّةٌ من الأولّين. وقليلٌ من الآخرين.﴾.. ولّما كانت هذه الأنباء الغيبيّة تحيطُها هالةٌ من الاعجاز الغيبيّ، و لم تكن لتدُرَكَ من دون مُعطيات. فقد عمد تعالى إلى القَسَم في سورة الواقعة - وقال: ﴿**فلا أقسم بمواقع النجوم. وإنّه لقسمٌ لو تعلمون عظيم. إنّه لقرآن كريم. في كتاب مكنون لايمسُّه إلاّ المطَهرّون. تنزيلٌ من ربّ العالمين. أفبهذا الحديث أنتم مُدهنون؟﴾**.

وهذه الحقائق جميعها تفسّر لنا ما أجاب به الله عزوجلّ وبلسان حال إبليس، فهو قال: ﴿**قال إذهب فمن تَبِعَكَ منهم فإنّ جهنّم جزاؤكم جزاءً موفوراً﴾**. أي أنّ مايخوّف الله تعالى به اليهود والنصارى ذريّة إبليس من هذا العذاب الشامل الذي أحاط بالنّاس سيحمل منظراً جهنميّاً لهؤلاء وللّذين اتّبعوهم وتولّوهم من مسلمي عصرنا، وسيكون هذا العذاب الأرضي لهؤلاء جميعهم ﴿**جزاءً موفوراً﴾**. أي موفّراً مؤجّلاً لإنزاله بساحتهم.

و لم يكتف الله عزوجلّ بهذه الإجابة بلسان الحال والتي تحمل هذه النّبوءات المخفيّة. بل أضاف معلومةً غيبيّةً عظيمة أخرى وقال: ﴿**واستفزز من استطعت منهم بصوتك، واجلب عليهم بخيلك ورَجلِك، وشاركهم في الأموال والأولاد وعِدهم، ومايعدُهُم الشيطان إلاّ غروراً﴾**. منوّها بذلك إلى أنّ أعداء الإسلام الذين يمثلون الاسم الوصفي الثاني لإبليس وهو اسم الشيطان، سيبلغون زمن تخلّف ذرّية آدم أي زمن تخلّف وانحطاط وانقسام أمة محمد رسول الله (ﷺ)، سيبلغون شأواً بعيداً في القوّة والمَنَعَة ويعودون يفوقون المسلمين عدداً وعُدداً، ويعودون يهدّدون الإسلام في عُقْرِ داره بما سيكون لهم من صوتٍ مسموعٍ في العالم (بصوتك) وبما سيكون لهم من جيوشٍ جرّارة ومجهّزة بأسلحة فتّاكة (واجلب عليهم بخيلك ورَجلِك). وبما سيكون لهم من هيمنةٍ اقتصاديّة على مصادر ثروات المسلمين كالنّفطَ مثلاً (وشاركهم في الأموال والأولاد)، وبما سَتَعِدُ هؤلاء المتخلّفين من وعودٍ مُغريةٍ إن هم استسلموا لمخطّطات مؤتمراتهم على الصّعيد الاقتصادي (وَعِدْهُم). ويُنهي الله تعالى هذه الأنباء التي تحققت جميعها في زماننا هذا، بقوله تعالى: ﴿**وما يعدهم الشيّطان إلاّ غروراً﴾**. أي أنّ وعود هؤلاء الذين يمثّلون ذرّية الشّيطان الذي تكلّمَتْ عنه قصّة آدم المجازية وبلسان الحال لن تكون إلاّ من قبيل الكذب والخداع والتّضليل وذّر الرّماد في الأعين، وإلاّ فهم يهدفون من وراء تلك الوعود إلى تأمين استنزاف ثروات

المسلمين لصالحهم أنفسهم وليس لصالح المسلمين، لكنهم يمثّلون المسيح الدّجال الذي أنبأ رسول الله (ﷺ) عن ظهوره في آخر الزمان، أي زمان قيام قيامة المسلمين وهم أمة محمد خاتم النبيين (ﷺ).

ولنلاحظ كيف أنّ قول إبليس وبلسان حاله الذي استثنى ﴿**إلاّ قليلاً**﴾ هذا القليل من المؤمنين الذين استعمَلَتْ لهم سورة الواقعة تعبير ﴿**ثلّة من الأولين، وقليل من الآخرين**﴾.

عقّب عليه جلّ شأنه قائلاً وبلسان حاله أيضاً، قال: ﴿**إنّ عبادي ليس لك عليهم سُلطان، وكفى بربّك وكيلاً.**﴾. فهو جلّ شأنه عاد فكرّر هنا كلمة (عبادي) التي أوردها من قبل في آية ﴿**قل لعبادي..**﴾. هذه الكلمة المُشتقّة من عبد الله أي أطاعه وخضع له وذلّ بين يديه وخدم دينه والتزم بأوامر شريعته ووحّده فلم يتخذ له شريكاً في ملكه.

وعليه فمعنى ﴿ **إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربّك وكيلا** ﴾ المقصود به الإشارة إلى جماعة هذا المجدّد المسيح الموعود المبعوث في زمن قيامة هؤلاء المسلمين. هذا المبعوث الذي سيعيد للإسلام حياته الرّوحية، فيشكّل عباداً لله جُلُّ همهم إطاعة ربّهم والخضوع له والتذلّل بين يديه وخدمة دينه والتزام أحكام الشريعة الإسلامية الواردة في هذا القرآن العظيم، وتوحيد هذا الإله الذي عبده آدم ونوح وآل ابراهيم وآل عمران والذي بعث الله تعالى محمّداً حنيفاً يعيد الناس إلى عبادة هذا الإله الذي لاإله سواه. أقول: إن هذا المجدّد بعثه الله تعالى ليعيد عن طريق جماعته الوجه الحقيقي للتّوحيد الخالص من شوائب الشرك الجلّي والخفي.

فالله عزوجلّ قرّر من خلال ماضمّنه قصّة آدم المجازية الواردة ألفاظها في سورة الإسراء تحقيق المقصد الثالث العظيم الذي ابتغاه جل شأنه منها هنا، وهو الإعلان أنّ أعظم المعارك التي ستخوضها ذريّة آدم، وذريّة الشيطان فيما بينهما ستكون زمن انحطاط المسلمين وتخلّفهم وظهور المسيح الدّجال كذلك زمن ظهور هذا المسيح الموعود الذي يكسر صليب المسيح الدّجال ويقتل خنزيره، وسيحلّ عذاب الله الشامل يومئذٍ بذرّية الشيطان ويحيط الله بهم بعذابه الشامل، ويصير الأمر يومئذٍ لله الواحد القهّار.

فما أخوف هـذه النّبـواءت، ومـا أعظـم هـذه البشـارات المرتبطـة بهـذا المقصد الثالث العظيم المُرتجى من صياغة قصّة آدم بأسلوبٍ مجازيّ وبلسان الحـال أيضاً.

٨ـ المقصد الرابع لقصة آدم :

أما المقصد الرابع العظيم الذي ابتغى ا لله عزوجلّ تحقيقه من خلال صياغته لقصّـة آدم صياغةً مجازيّة وبلسان الحال، فقـد كـان للتّنبيـه إلى وجـود نظـامين كونيـين، لكلٍ نظام منهما قوانينه الخاصّة به. نظام قوانين طبيعية لتسيير هـذا العـالم المـادّي ونَظْمِ مسيرته، وفق الخواص المُفوضّة إلى عناصره المادّية، من قبل الخـالق عزوجـلّ تفويضـاً محـدّد الفعاليّـة والدّائـرة. ونظـام قوانـين قدريّـة روحيّـة تختــصّ بالعــالم الروحاني ونَظْمِ مسيرته، وفق المشيئة الإلهية المباشرة. وهذا النظـام القـدريّ تعـود إليه قصّة آدم وبعثـات جميـع الأنبيـاء والمرسـلين والجماعـات المؤمنـة الصّادقـة في إيمانها، وأداته التنفيذيّة الرّوحية أيضاً وهم ملائكة ا لله وجنـوده الذيـن لايعلمهـم إلاّ ا لله عزوجلّ وحده.

هذا وإن قصّة آدم المجازية نبّهت إلى أن إبليس الذي تمرّد على رسالة آدم وكفر بها، كان سبب ضلالته نظرته السطحية إلى هذا الكون المادي . وظنّه هـو وذُرّيته أنّ هذا الكون لاينظمه إلاّ قوانين نظام واحد طبيعي، فهـذا مـا أثمـر عنـه تفكير هذا الفريق بتفكيرٍ مادّي محض.

على حين أنّ الفريق الذي آمن بآدم و لم يكفر برسالته، انطلق انطلاقةً أعمـق مـن هذه النّظرة السّطحية بكثـير، انطلـق مـن وجـود الـهٍ خـالقٍ لهـذا الكـون ويُسـيّره بقوانين نظامٍ قدرّي روحي يهيمن ويسيطر على القوانين الطّبيعية ونظامها الكونّي المفوضّ إلى خواص المادة والمحدّد الدائرة والفعاليّة. وأنّ هذه الانطلاقة الأعمق التي انطلقهـا الفريـق الـذي آمـن بـآدم مكنتّـه مـن الاسـتظلال بهـذا النظـام القــدري الروحيّ، وعاد يفكّر في كل أموره بتفكيرٍ روحاني.

هـذه الحقـائق استنبطتها مـن أقـوال ا لله عزوجـل الـواردة في قصّـة آدم بلسان حاله، والمتناثرة هنا وهناك في هذه المواضع السّبع التي تعرّضت لإيراد قصّة آدم بألفاظٍ مختلفة وفق مااقتضاه تسلسل السّور الموضوعي.

فهذه سورة البقرة أوردت قصّة آدم المجازية بألفاظ مُجملة، فأشارت إلى الفريقين المؤمن والكافر، وإلى عاقبة كلّ منهما، إشعاراً منه جل شأنه لفكر الباحث المتدبّر إلى وجود هذين النظاميين الكونيين والنّاظمين لنتائج أعمال كل فريق من هذين الفريقين. حيث أوردت قصّة آدم في سورة البقرة قول الله عزوجلّ: **﴿فإمّا يأتينكم منّي هُدى فمن تبع هُداي فلا خوفٌ عليهم ولاهم يحزنون. والذين كفروا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون.﴾**. فهو جلّ شأنه عبّر هنا عن حال الفريق المؤمن قائلاً **﴿فلا خوفٌ عليهم ولاهم يحزنون﴾**. والمعلوم أنّ خوف الإنسان يتأتّى عن الأمور الآتية المُستقبليّة، فهي التي تحمل له المفاجآت السّارة وغير السّارة. أما حُزن الإنسان فلا يكون إلاّ على مافات. وهذه الجملة **﴿فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون﴾** والواردة بلسان حال الله عزوجلّ، تنطبق على الفريق المؤمن والذي يفكّر بتفكير روحاني ويخضع لسلطان قانونٍ قدريٍّ مسنونٍ لصالحه. ولاينطبق على الفريق الكافر الذي لايخضع لسلطان هذا القانون.

فالذي يعيش حياته بعيداً عن الاعتقاد بوجود خالقه، والذي لايلتزم بشرائع هذا الخالق وتعاليمه ويفكّر تفكيراً مادياً محضاً يحرم نفسه من هذه الميّزات التي اختصت بالمؤمنين.

وكأنّ الله عزوجلّ يقول هنا بألفاظٍ أخرى إنّ إبليس وذريّته إذا نظروا إلى الماء على سبيل المثال يلاحظون كونه سائلاً وبالتّجربة يتعرّفون على خواصه، فلا يرون ضمن هذه الدائرة أيّةَ يدٍ خارجةٍ عن هذين الأمرين المذكورين ــ فلا يفكرون بتفكير أعمق ولاينطلقون من أنّ هذا الماء مخلوق وأن خالقه قد فوّض إليه خواصّه وأنّ الله الخالق قادرٌ على سلب الماء خواصّه في أيّ وقت أو مكان يشاء. هذا الأمر الذي يؤمن به الفريق المؤمن الذي يُفكّر بتفكيرٍ روحاني ويؤمن بوجود نظامين كونيين. وكأن الله عزّوجلّ قال بألفاظٍ أخرى هنا أيضاً أنّ لهذا الاختلاف في المُنطلق العقائديّ نتائجه أيضاً وعواقبه. وهذه النتائج والعواقب التي يحصدها الفريق المؤمن أنّه يحيا حياة اطمئنان وسعادة **﴿فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾**. أمّا الفريق الكافر فيحصد نتائج وعواقب مُنطلقه هذا أيضاً فلا يَسْعَدُ ولايجد الطُّمأنينه في حياته الدنيا، بل يظلّ يخشى ما سيفاجئه به مستقبله وتراه دوماً يحزن على مافات. فهو في حقيقة أمره يحيا حياة خلودٍ في نارٍ مُستعرةٍ في

صدره. فهذا إجمال ماأتى به قول ربّنا عزّوجلّ في قصّة آدم المجازية في سورة البقرة. فالألفاظ المُصاغة هنا أتت لتعطي القارئ نظرةً شاملةً عن الفريقين المؤمن والكافر: فالمؤمن يحيا في حياته الدنيا حياة اطمئنان بربّه وسعادةٍ كاملةٍ . والكافر يحيا حياته الدّنيا لايعرف فيها ضمناً لاسعادةً ولا اطمئنان.

فإن نحن انتقلنا إلى سورة الحجر التي أوردت قصّة آدم المجازية هذه . نلاحظه جلّ شأنه أنّه حذف جملة ﴿**فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون**﴾. وقال هناك : ﴿**إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطانٌ إلاّ من اتّبعك من الغاوين. وإن جهنّم لموعدهم أجمعين**﴾. كذلك فإنه قال في سورة الإسراء: ﴿**إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربّك وكيلا**﴾. فإن انطلق القارئ مُنطلقي من أنّ قصّة آدم مجازيّةٌ وبلسان الحال. وراح يتدبّر هذه الأقوال الثلاثة، فلا يجد بينها من فارقٍ موضوعيٍ إلاّ فارق الإجمال والتفّصيل واختلاف الألفاظ. إلى جانب أنّها تكملُ بعضها بعضاً ضمن إطارٍ موضوعي عام.

فإذا دقّقنا فيما أوردناه من سورتي الحجر والإسراء نلاحظ ورود ألفاظٍ ثلاثةٍ جديدة فيها هي (عبادي ووكيلا وليس لك عليهم سلطان). فهيّا نتدبّر دلالات هذه الألفاظ لغوياً وعطاءاتها موضوعيّاً.

إنّ كلمة (عبادي) اشتقت من عبد الله أي آمن به وخضع له وأطاع وذلّ بين يديه والتزم دينه وخدم هذا الدّين وتبرأ من جميع أنواع الشرك وعاد من موحّديه. أي أن موضوع كلام الله هنا يدور حول زمرة المؤمنين الذين استحقّوا من جانب ربّهم تسميتهم بعباده والذين استوفوا فكرياً وسلوكياً جميع دلالات هذا اللّفظ. فكلمة عبادي لاتعني المؤمنين المصلّين أو الصائمين أو المؤدّين لأحد أو لمجموع مانُسميه عبادات. بل إن مدلول كلمة عبادي أوسع دلالة من ذلك بكثير. فلا يُسمّى عبدٌ لله تعالى إلاّ المؤمن الذي زاد على أداء هذه العبادات المنصوص عليها في كتاب الله تعالى عدّة أمورٍ أخرى أهمّها التزام جانب طائفة المؤمنين وأداء الواجبات المترتّبة على هذا الإلتزام والتذّلل والخضوع والدعاء بين يدي الإله الذي آمن به، واجتناب كلِّ خطوةٍ وسلوكٍ يُستشمّ منه رائحة الشرك بالله عزوجل، فكلّ مؤمن اتّصف بهذه الصفات لايعود للشيطان عليه من سبيل وبالتالي فلا خوفٌ على أمثاله من المؤمنين ولاهم يحزنون.

والكلمة الجديدة الثانية التي احتوتها الآية من سورة الإسراء هي كلمة (وكيلا). هذه الكلمة التي صيغت على وزن فعيل بمعنى فاعل، وحفيظ موكول إليه أمر الحفاظ على من احتسبه ليتّخذه وكيله بصورة عملية واحتسبه في كلّ مايعرض له من أحوال. أي أنّ الجدّة في موضوع كلمة (وكيلا) أن تضيف إلى دلالات كلمة عبادي معنى وهو أنّ هذا المؤمن الذي استوفى دلالات كلمة العبودية، لاينطلق في ذلك بعقل تقليديٍّ بل بيقينٍ قلبيٍ راسخ أن معبوده يملك القدرة غير المحدودة على حماية عبده من مكائد الشيطان والمحافظة عليه بشكل مُلفتٍ للأنظار. أي أنّ المعنى الذي يضيفه لفظ "وكيلاً" على دلالة ﴿**فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾ هو أنّ هذا النوع من المؤمنين احتسبوا ربّهم وتوكّلوا عليه في كلّ مايُقدمون عليه، وتكون نتيجة ذلك أنّ الله تعالى أضحى يدافع عن هؤلاء المؤمنين ويجنّبهم كلّ مايؤذيهم ويحول دون تطوّرهم وارتقائهم الرّوحاني. أي أنّهم بلغوا مرحلة النفس المطمئنة بربّها والرّاضية بكل شيء تتعرض له وتواجهه في طريقها. ولاتشكُّ للحظةٍ واحدةٍ أنّها بمنآى عن ربّها الذي يرعاها بحفظه ورعايته.

والكلمة الثالثة الجديدة التي احتوتها الآية من سورة الحجر هي كلمة (سلطان) إذ ورد هناك: ﴿**إن عبادي ليس لك عليهم سلطانٌ إلاّ من اتّبعك من الغاوين**﴾.

وكلمة سلطان تعني الحُجّة كما تعني التسلّط والشدّة والقدرة والملك. أي أنّ الجدّة التي أضافتها هذه الكلمة على دلالة ﴿**فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾ هو أنّ الذي يستوفي دلالات كلمة العبودية فكراً وسلوكاً، وبفؤادٍ راسخ اليقين بقدُرات ربّه الذي احتسبه وتوكّل عليه.

إنّ هذا العبد الصالح يثبّته الله عزوجلّ في المواقف الحرجة بالقول الثابت أي بالحُجّة والبرهان القاطعين. أي يهبه الله ربّه العزّة على صعيد الفكر والحوار، على شاكلة ماوهبه السّعادة والاطمئنان القلبيين. وبذلك ينجو في المواقف الحرجة والشدّائد النازلة من جميع أنواع التسلّط وأحابيل إبليس وذريته التي إياه يكيدون.

فإن نحن استعرضنا جميع هذه الدلالات التي أفادتها بها هذه الألفاظ الثلاثة نخلص منها إلى القول: إن الفريق المؤمن العابد ماعاد للقوانين الطبيعيّة المجرّدة العائدة لهذا النّظام الكونيّ المادّيّ ، ماعاد لهذه القوانين وحدها السّلطان

عليه على شاكلة مالها على إبليس وذرّيته من أصحاب التفكير المادي. بل تدلّ هذه الدلالات مجتمعةً على أن هذا الفريق المؤمن العابد عاد يخضع في الوقت نفسه لقوانين النظام الكونيّ الثاني، وهي القوانين القدريّة الروحية التي تمثّل إرادة ومشيئة الله المباشرة والتي أوجدت لصالح هؤلاء العابدين .إرادة ومشيئة الله تعالى الّتي فوّضت إلى العناصر المادية خواصّها والقادرة على تحويلها وجهتها بما يكون في صالح هؤلاء المؤمنين.

ولايَغرّن القارئ أنّ الفريقين المؤمن والكافر عُرضةً للتأثُّر على حدٍ سواء بالمتغيّرات الجويّة وبتأثيرات الكواكب والنجوم وبالأمراض والأعاصير والزلازل وغيرها من المؤثّرات. فالتأثّر بهذه العوامل الطبيعية هو أمرٌ طبيعيٌّ ولاعلاقة له بمدلول ﴿**إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان**﴾. ذلك أن هذه الألفاظ لاعلاقة لها بالمؤثرات الطبيعية، بل بالعاقبة ومكائد إبليس وذريّته، فلا ينبغي أن يخلط المرء بين هذا وذاك.

ثم إنّ هذه الظاهرة لاتنتقص من قيمة العاقبة الحسنة التي تبشّر بها هذه الألفاظ ﴿**إن عبادي ليس لك عليهم سلطان**﴾. ذلك أنّ هناك فرق واضح مابين مفهوم التأثّر بالعوامل الطبيعية ومابين مفهوم السيطرة والسلطان. وهل هناك حاكم في هذه الكرة الأرضية لايتأثر بالأمراض وأمثالها من هذه المؤثرات الطبيعية؟ ومع ذلك فلا ينتقص هذا الواقع من شأن أيّ حاكمٍ وسيادته ولايعيبه أحدٌ في ذلك. ويظلّ حاكماً لرعيّته. على اعتبار أنّ الجميع بشرٌ ويستوون على صعيد تلقّي هذه المؤثّرات.فا لله تعالى وبهذه الألفاظ ﴿**إن عبادي ليس لك عليهم سلطان**﴾ يتكلّم عن عاقبة العباد المؤمنين وليس عن علاقتهم بهذه المؤثّرات الطبيعيّة.

والمهمّ في الأمر هو أنّ الفريق المؤمن الذي يفكّر بتفكيرٍ روحانيٍّ، ومُدركاً أنّ تأثره بالعوامل الطبيعية من حوله هو شيء طبيعي بالنسبة له ويستوي فيه والفريق الكافر الذي يفكّر بتفكيرٍ مادّيٍ ، يدفعه فهمه وإدراكه هذا للتصرّف في سلوكه اليوميّ على أسسٍ ومنهجٍ علميّ. منطلقاً من أن الخالق الذي خلق العناصر المادية قد فوّض إليها خواصها ومؤثراتها، ومن واجبه التعامل معها بأسلوبٍ علمي.

لكنّ هذا العبد المؤمن نفسه إذا واجهه فريقاً كافراً و يُهدّده بكثرة عَدَدِهِ وعُدده وأحابيل مكائده. لايخشى مواجهة هذا الفريق وإن كان هو أقل منه عُـدّة وعتاداً. ليقينه بخضوعه لنظامٍ كونـيٍ قـدريٍ علـى هـذا الصّعيـد. مُدركـاً حكمـة ماقصّه عليه كتاب ا لله العزيز بشأن ابراهيم عليه السلام الذي حكـم عليـه قومـه بالإعدام حرقاً. فلم يخش ابراهيم ماقررّه قومـه لتقريـر مصيره. وبالتـالي قـال ا لله تعالى : ﴿**يانار كوني برداً وسلاماً على ابراهيم.**﴾ فا لله جل شأنه قال هذا من منطلق كونه يتجلّى كمالِكٍ لهذا الكون لحماية رسله وجماعات المؤمنين. أما دون ذلك فلا يتجلّى إلا كملِكٍ في نطاق هذه القوانين الطبيعيّة الكونيّة المسنونه.

وهذه الحقيقة وجهتنا إليها سـورة الفاتحـة مـن خـلال جـواز قـراءة آيـة ﴿**مالك يوم الدين**﴾، قراءتها ﴿**مَلِكِ يوم الدّين**﴾. وقد كان من جُملـة مقـاصد جواز هاتين القراءتين، تنبيه أذهاننا إلى ماتضمّنته قصّة آدم المجازية بحقّ عاقبة كُـلٍّ من هذين الفريقين: الفريق المؤمن الذي يمثل ذريّة آدم، والفريق الكافر الذي يمثّـل ذريّة إبليس. فا لله إذ يبعث رسولاً لتطوير البشر، يتجلّى وقتئذٍ كمالِكٍ ليتصـرّف في هذا الكون المادي كما يشاء، ولينصر رسوله والمؤمنين، ويظلّ في الوقت نفسه يتجلّى كملك ليتصرّف في هذا الكون المـادي ضمـن القوانـين الطبيعيـة المسنونة بالنسبة لأعداء رسوله والذين آمنوا معه. وبذلك يحقّق للفريق المؤمن ماوعدهم به في كتابه العزيز.

فبهذا الفهم لأقوال ا لله عز وجلّ الـواردة في قصّـة آدم المجازيـة وبلسـان حاله جل شأنه، يتجلّى لنا المقصد الرابع العظيم الذي ابتغى ربّنا تحقيقه من وراء هذا الأسلوب في صياغة قصّة آدم عليه السّلام. فهو جل شأنه قصد توعيتنا بـأمر وجود هذين النظامين الكونيّين، وأنّه لايـدرك وجودهمـا إلاّ العبـد المؤمـن الـذي يفكر بتفكيرٍ روحيٍ.

أي أنّ هذه الأقوال الإلهية الواردة بلسان الحال تنبّه ذهـن المؤمـن المتدبّـر إلى أن هذا الكون المادي لايسير من نفسه، وإن بَـدا كذلـك ظاهريـاً. بـل تحكـم مسيرة هذا العالم المادي حكومةٌ سماويّةٌ تفعل ماتشاء وقادرةٌ على ماتشاء ولايخفى عنها شيءٌ في الأرض ولافي السّماء. وهـذه الحكومـة السّماوية هـي الـتي تتّخـذ القرارات النافذة وتقرر عاقبة المؤمنين مـن ذرّيـة آدم وعاقبـة الكـافرين مـن ذريّـة

إبليس . وإشارةً إلى هذه الحقيقة وردت هذه الأقوال التي أوردناها وشرحناها واستنبطنا منها هذه الحقيقة وهذه الدّلالات.

٩ً - المقصد الخامس لقصّة آدم :

ثم إنّ الجملات الواردة في قصّة آدم المجازية وبلسان حال ا لله عزوجلّ والموجّهة إلى ملائكته، تعبّر عن المقصد الخامس العظيم الذي ابتغى جل شأنه تفهمينا إياه من وراء صياغتها بهذا الأسلوب المجازي.

أي أنّ ألفاظ مخاطبة ا لله لملائكته كان المقصود به تنبيه أذهان المؤمنين إلى مايحدث في هذه المملكة السّماوية كلّما قرر ا لله الربّ إرسال رسول لينقُل البشر نقلة نوعيةً تطورّهم من حال إلى حال.

فهذه سورة البقرة التي أجمل ا لله عزوجلّ فيها قصّة آدم المجازية، استهلّها بقوله عزوجلّ: **﴿وإذ قال ربّك للملائكة إنّي جاعلٌ في الأرض خليفة﴾**. أي أنّ أوّل مايحدث في هذا المملكة السّماوية هو إبداء صاحب هذه المملكة السماويّة مشيئته على جنوده التنفيذيين من ملائكته.

وهو تعالى نبّه أذهاننا من خلال قوله تعالى (إنّي جاعل) إلى أنّ القضيّة هي قضيّة اصطفاء أحد البشر، وجعله ينوب عنه في تحقيق مشيئته بينهم. ذلك أنّ ا لله عزوجلّ فسّر هذين اللفظين في مقام آخر من كتابه العزيز حيث قال هناك: **﴿ياداوود إنّا جعلناك خليفةً في الأرض فاحكم بين الناس بالعدل﴾**. أي أنه ليس المقصود من هذه الألفاظ ابداء الإرادة القاضية بإيجاد مخلوق جديد. بل دلالتها علي الإصطفاء من بين أفراد المخلوق الموجود أصلاً خليفةً للّه من بينهم. ليحكم وينفّذ إرادة ربّه بالعدل بين النّاس. ذلك أنّ الخلافة تعني الأمارة والنيابة عن الغير بين الناس الموجودين لسبب من الأسباب (محيط المحيط).

أمّا في سورة (ص) فقد استهلّ جل شأنه إبداء هذه المشيئه بقوله: **﴿إذ قال ربّك للملائكة إنّي خالقٌ بشراً من طين﴾**. فبين هذين الاستهلالين المُجملين تغيير في انتقاء الألفاظ ودلالتهما وإن كانت واحدة الدّلالة منهما تختلف عن الأخرى من حيث زاوية النّظر المنظور بها لإبداء هذه المشيئة الإلهية.

فجملة سورة البقرة انطلقت من بيان الغاية وهي الاستنابة برسول عادل. بينما انطلقت جملة سورة (ص) من زاوية توضيح الوسيلة، وهي اصطفاء الشخصيّة

المطاوعة مطاوعة الطين لأيدي النّحاتين، وهو تشبيهٌ مجازيّ. أمّا المضمون في كلتا الآيتين فواحد وهو التعبير عن مشيئة الاصطفاء.

وهذا الاستهلال وُجّه الخطاب فيه إلى الملائكة في كلتا الآيتين. لتنبيه الأذهان إلى أنّ الملائكة هم الجنود التنفيذيّون المكلّفون بتنفيذ مشيئة الله والمخلوقين على هذه الحال، أي يفعلون مايؤمرون.

ثم إنّ هذه الإستهلال افتُتح بجملة ﴿**وإذ قال ربّك**﴾ واستعمل فيها صفة ﴿**ربّك**﴾ فلِمَ لم يأت جلّ شأنه عوضاً عن صفة الربوبيّة هنا بصفة أخرى؟ الجواب إنّ انتخاب هذه الصّفة تحمل ملاءمةً تامّةً مع التّسلسل الموضوعيّ. فالله عزّوجلّ أراد تنبيه أذهاننا إلى أنّ قصّة آدم المجازية ترتبط ارتباطاً وثيقاً وموضوعياً بصلة الله بمخلوقه البشر، وبالنقّلات النوعيّة التي يحدثها هذا الخالق في مسار تطوير هذا المخلوق، ومن مُنطلق أنه تعالى هو ربّ العالمين.

وهو جلّ شأنه من خلال لفظي و "إذ قال" نبّه أذهاننا أيضاً إلى أنّ حكومة الله السماوية تختلف عن الحكومات الأرضية اختلافاً جذرياً. فالقوّة التنفيذية في الحكومة السّماوية مخلوقة على صورةٍ تنتظر صدور إشارة الخالق مُعبّراً عن مشيئته وإرادته فمعنى وإذ قال أي وإذ عبّر بلسان حاله عن مشيئته وارادته لملائكته، ولاحاجة هناك للرّجوع إلى دساتير ومجالس برلمانية وتشريعاتٍ واتّخاذ قرارات وانزال عقوبات بالمخالفين. فملائكة الله عزوجلّ (يفعلون مايؤمرون) طواعيةً على أساس أنّ خالقهم قد خلقهم على هذه الشاكلة لأنه المالك وفعّال لما يريد، وليس الله تعالى وهو في حكومته السماوية بمَلِكٍ يتقيّد بدساتير ومجالس تشريعٍ ولاتّخاذ قرارات، كما هو الحال في الحكومات الأرضية. الأمر الذّي يجلّي البون الواسع الكائن مابين حكومة السّماء وحكومات الأرض.

فهو جلّ شأنه حين يشاء إحداث نقلةٍ نوعيةٍ في حياة هذا المخلوق البشر، يتجلّى في العالم المادّي بصفته المالِك وليس بصفته الملك. لذلك يفلح في الوصول إلى تحقيق مايريده، ويفشل إبليس وذريّته فيما يعدّونه خلاف مشيئته تعالى وفيما يخطّطون له ويسعون إليه. فهذا هو ما أراد الله عزوجلّ تفهيمنا إيّاه، بلسان الحال ومن خلال هذا السّبك البلاغي الواسع الدّلالات.

وبلسان الحال نفسه صاغ ربّنا عزوجلّ ماشاء أن يُطلعنا عليه من حال ملائكته وإمكانيّاتهم الفكريّة والغيبيّة وقال: ﴿**قالوا أتجعل فيها مَن يفسد فيها ويسفك**

الدّماء ونحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك، قال إنّي أعلم مالا تعلمون﴾. وليشير جلّ شأنه بهذه الألفاظ المسبوكة سبكاً بلاغياً إلى أنّ القوة التنفيذيّة السّماوية، تدرك مُهمّتها إدراكاً لايفسح المجال لوقوع أيّ خطأٍ كان تنفيذاً لمشيئة الله عزوجلّ. ولاتشبه في ذلك القُوّات التنفيذية الأرضية التي لاتتحلى بتلك اللّياقة المدهشة. ويصدر عنها بالتالي أخطاء قد تسيء أحياناً للحاكم الذي أصدر تلك التعليمات.

فقول الملائكة صيغ بلسان حالهم ليعبّر لنا أن الملائكة فهموا من لفظ "خليفة" أنّ الله عزوجل سيصطفي بشراً فيطوّره ويُوسِد إليه مهمّة إحداث النقلة النوعية التي شاء أن يحدثها في مسار البشر وحياتهم.

وأنّ الرّسالة التي سيُحمّلها الله تعالى هذا البشر الذي اصطفاه خليفةً له اقتضت طرح أفكارٍ وتشريعٍ ومن ثمّ وتجميع طائفةٍ من المؤمنين الملتزمين كما اقتضت ظهور طائفةً مخالفين مكذّبين وبدء صراع أيديولوجي وحضاري وبالتالي حدوث إفساد في الأرض وسفك دماء. فهذه المعلومات جميعها أمكن للملائكة إدراكها بداعي ماكانت تحمله من مؤهّلات تؤهّلها لفهم مرامي وأبعاد مشيئة الله خالقها والذي خلقها وأودعها جميع هذه المؤهّلات. ولتكون قوةً تنفيذيّةً تسبّح بحمد الله ربّها وتقدسّه فلا تتمرد عليه بشكل من الأشكال.

لكنَّ الملائكة أبدت عجزها عن إدراك ماوراء ذلك من علم فالمعنى أننا أدركنا مشيئتك وماستؤدي إليه ولانعلم شيئاً ممّا وراء ذلك. فما كانت الملائكة تعلم علم الغيب الذي يؤهلها لتنظير البُعد الكبير الذي كان يرمي إليه الله جل شأنه من تطوير البشر الذين كانوا يحيون حياة أشبه ماتكون بحياة الأنعام من حولهم، وإشارة إلى هذه الحقيقة وإلى بيان محدوديّة علم الغيب لديهم راح جل شأنه يوضّح ذلك بلسان حاله: **﴿قال إني أعلم مالا تعلمون﴾**.

وبما أنه كان من مهمّة ملائكة الله أن ينفذّوا مشيئة ربّهم كلّما شاء الله عزوجلّ إحداث نقلةٍ نوعيةٍ جديدةٍ في حياة البشر لتطويرهم باتّجاه تحقيق المقصد من خلقهم. وكان هذا الخليفة الأوّل هو آدم عليه السّلام. فقد شاء ربّنا تنبيه أذهاننا إلى أن علم المخطط السّماوي الغيبيّ الذي كانت تقتضيه ربوبيته عزوجل لتحقيق ذلك المقصد من خلق البشر، كان جاهزاً بكامل عناصره، بالرّغم من كون الله قد خلق هذا البشر حرّ الفكر والإرادة والتصرّف. وأنّه جلّ

شأنه أطلع خليفته آدم وهو النبي الأول ضمن سلسلة هؤلاء الأنبياء الذين سيبعثهم الله جلّ شأنه خلفاء له ليُحققوا مايقتضيه هذا المقصد الأسمى من خلق الله لهؤلاء البشر من نقلاتٍ نوعيّات. ولذلك لاحظناه جلّ شأنه يضيف قائلاً: **﴿وعلّم آدم الأسماء كُلّها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين﴾**. أي ها أنني أطلعت هذا الخليفة آدم على أبرز أسماء هؤلاء الأنبياء الذين سأبعثهم من بعده ليُكملوا مُهمّته كخليفة لربّه عزوجلّ. فهيّا أنبؤني بأسماء هؤلاء الأنبياء في وقتٍ ستكلّفون أنتم أيضاً بمهمّة مساعدتهم على تحقيق مهمّاتهم إن كنتم صادقين فيما ستنبؤني به. وراح جل شأنه يزيدنا علماً بمؤهّلات واستعدادات قوة مملكته السّماوية التنفيذيّة، ويقول وبلسان حالهم أيضاً: **﴿قالوا سبحانك لاعلم لنا إلاّ ماعلّمتنا، إنّك أنت العليم الحكيم﴾**. ونبّهنا من خلال قول ملائكته وبلسان حالهم إلى حقيقة أنهم لايعلمون الغيب إلاّ ماعلمهم الله تعالى إيّاه. وأنا قلت آنفاً (أبرز أسماء هؤلاء الأنبياء) من منطلق أنه تعالى استعمل صيغة (الأسماء كلها) و لم يقل جميعها فالكل يحتمل الاستثناء.

وبما أنّ قصّة آدم المجازية وردت مجملة في سورة البقرة، فقد اقتضى ذلك أن ينبّهنا أيضاً إلى أنّ آدم سينبئ عن أسماء هؤلاء الأنبياء الذين سيبعثهم الله تعالى من بعده، وبالتالي ستتطلّع الملائكة على أسماء هؤلاء الأنبياء والمرسلين. لذلك أضاف يقول وبلسان الحال أيضاً:

﴿قال ياآدم أنبئهم بأسمائهم، أي أنبئهم بأسماء أبرز الأنبياء الذين سأصطفيهم من بعدك ـ فلّما أنباهم بأسمائهم قال الم أقل لكم إنّي أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ماتُبدون وماكنتم تكتمون؟﴾. فلمّح جلّ شأنه من خلال قوله هذا وبلسان حاله إلى أنّه لم يخلق الملائكة فقط كقوةٍ تنفيذية سماوية تقوم بتنفيذ مشيئته عزوجل، بل إنه خلق أيضاً هذه السماوات والأرض وماتحمله من أسرارٍ غائبةٍ عن أذهان الملائكة والبشر، وكُلّها مسخّرةٌ وبما تحمله من أسرارٍ ومؤثّراتٍ، لتأييد هذه السلسلة التي سيبعث رجالاتها خلفاء له كأنبياء ومرسلينَ لتحقيق ما اقتضته ربوبيّته تعالى لتطوير البشر إلى مرتبه المقصد من خلقه ايّاهم في هذه الحياة الدنيا وذلك كمرحلة أولى من ضمن المراحل القادمة من بعد موتهم جميعاً لإمرارهم بمرحلة متوسّطة برزخية قبل بعثهم للمرة الثالثة على درب حياة

الخلود. وهكذا تتضّح لأعيننا ملامـح التّسلسـل الموضوعـي لقصّـة آدم ودلالاتهـا بأسلوبٍ مجازيّ وبلسان الحال.

فإن نحن عُدنا إلى ما استهلّ الله تعـالى بـه قصّـة آدم المجازيـة الـواردة في سورة الأعراف، نلاحظ اختلافاً بيّناً بين هذا الاستهلال وبـين اسـتهلالي سـورتي البقـرة و(ص) الاجمـاليين. ففـي الأعـراف قـال تعـالى: ﴿**ولقـد خلقنـاكم ثـم صوّرناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم..**﴾ فدخل جل شأنه في بيان تفاصيل ما أجمله منبّهاً الأذهان إلى أنّ قوله تعالى في سورة البقرة ﴿**إنّي جاعل في الأرض خليفة**﴾ لايعني بحال من الأحوال أنّه تعالى يتكلّم عن بداية خلق البشر. بل يتكلّم عن أوّل نبّي يريد لله تعالى اصطفاءه لينوب عنه في موضوع إحـداث عمليّـة أوّل نقلةٍ نوعيّة في حياة البشر المخلوقين من قبـل آدم ومنـذ ملايـين السـنوات والذيـن كانوا يحيون حياةً أشبه بحياة العجماوات.

هذه المعلومة أضافها جلّ شأنه مـن خـلال جملـة ﴿**ولقـد خلقنـاكم ثـم صورناكم**﴾ وبصيغة الجمع، والكلام فيها موضوعه البشر كافّة. وقد نبّه الله جلّ شأنه من خلال هذه الألفاظ أيضاً أذهان الباحثين إلى أمرين بارزين: الأول منهما الردّ على أصحاب النظريات الزاعمة أنّ قفزةً نوعيةً حدثت لأحـد أنـواع القـرود الذي تطوّر من جرائها إلى بشر. هـذا مايُستفاد مـن قولـه ﴿**ولقـد خلقنـاكم**﴾. والأمر الآخر هو أنّ هذا المخلوق البشر والذي تميّز عن بقيّة المخلوقـات. بجوهـرة العقل احتاج لتنميّة عقله ووعيه إلى ملايين السنوات حتى تمكّـن هـذا البشـر مـن وعـي النظـام والقـانون والخطأ والصّواب. فهـذا مايُسـتفاد مـن قولـه ﴿**ثـم صوّرناكم**﴾ فالحرف (ثم) يفيد الترتيب. وتأخير صورناكم عن خلقناكم يشـكّل قرينة لغوية تنقل معنى التّصوير هنا من معناه الحقيقي المتبادر إلى ذهن القـارئ إلى معناه المجازي، ذلك أنّ إعطاء الشكل والصورة يسبق عمليّة الخلق أصلاً ولايكون بعده.

وكأنه جل شأنه بهذا الاستهلال من سورة الأعراف قال بألفاظٍ أخرى: لايظنّن ظانٌّ أنّ آدم كان أول بشر خلقناه بل أوّل نبيّ اصطفيناه، من بـين هـؤلاء البشر الذين مرّ على خلقهم ملايين الأعوام تشـملهم ربوبيّـة خـالقهم وتصوّرهـم أي تُكمل عقولهم وأفهامهم ووسائل معيشتهم.

وننتقل إلى ماستهلّ الله تعالى به قصّة آدم المجازيّة في سورة الحجر. فهو تعالى شرع هناك يقول: ﴿**ولقد علِمنا المستقدّمين منكم ولقد علِمنا المستأخرين. وإنّ ربّك هو يحشرهم إنه حكيم عليم**﴾. أي أنه جلّ شأنه أضاف هنا معلومةً جديدةً ، تتمثّل في تقسيمه تاريخ خلق هؤلاء البشر إلى قسمين: المستقدّمين والمستأخرين. مُعتبراً جعل آدم خليفة له الحدّ الزّمني الفاصل بين المتقدمين من البشر والمتأخرين عنه. والله تعالى بهذا التّقسيم وافق آراء مؤرخي تاريخ البشر كلّ الموافقة.

فالعلماء من هؤلاء اعتبروا أنّ البشر ترك آثاره التاريخية منذ مايعود إلى ماقبل عشرة آلاف عام تقريباً. أما قبل هذه المدّة فلم يترك هذا البشر آثاراً تاريخية تدل على أنه كان يحيا حياةً حضارية. وقد سبق لي أن وضّحت أنّ تاريخ بعثة آدم قد تحقق خلال هذه المدّة المذكورة على وجه التقريب.

ومن ثمّ راح جلّ شأنه يقسّم الطّبائع إلى قسمين أيضاً ـ طبائع البشر ماقبل آدم أنّها كانت طبائع نارية. وطبائع آدم هذا الإنسان الأول وذريّته كانت طبائع صلصالية أي تستجيب لصوت ربّها المُتمثّل ببعثة آدم ومايأتي به من تعاليم. أي أنّ لفظي من نار ومن صلصال، لايقصد بهما مايتبادر لذهن القارئ من دلالاتهما الحقيقية، بل يقصد تعالى معانيهما المجازية.

فهو تعالى راح يقول بعد التّقسيم الأوّل الذي ذكرناه: ﴿**ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون**﴾. فالمقصود بالإنسان هنا آدم خليفة الله في الأرض، لتعريفه جلّ شأنه لفظ إنسان هنا بالألف واللاّم المشيرين إلى معهود ذهني هو آدم عليه السلام. فطبيعة آدم كانت صلصاليّة كالفخّار المشويّ إذا قرع المرء بإصبعه عليه يسمع صدور صدىً عنه. فشبّه الله تعالى بذلك الطبيعة الآدمية بهذا التّشبيه على اعتبار أنّه استجاب لصوت ربّه وردّد صداه.

والمقصود بالجانّ هنا البشر المتقدّمين في وجودهم على زمن بعثة آدم. فطبيعة أولئك المتقدّمين الذين كانوا يعيشون في الكهوف، كانت طبيعةً نارية أي طبيعة ردود أفعال، لاتتّصف بالعقلانية ولا بالإتزان. وهذا معنى ماعبّر عنه جلّ شأنه بقوله: ﴿**والجانّ خلقناه من قبل من نار السّموم**﴾.

والله جلّ شانه أضاف يقول إضافةً إلى ماذكرناه: ﴿**وإذ قال ربك للملائكة إنّي خالقٌ بشراً من صلصالٍ من حمأ مسنون. فإذا سوّيته ونفخت فيه**

من روحي فقعوا له ساجدين﴾. فأضاف من خلال قوله هذا معلومةً جديدة. وهي أنّ آدم قد خضع لتوجّه ربوبية الله نحوه منذ نعومة أظفاره، فراح يصطنعه لنفسه ويسوّي طباعه، قبل أن يؤتيه الرّسالة. وهذه المعلومة تُفيد أنّ عمليّة التربية والتّسوية والتطوير هذه يحظى كلَّ نبيٍّ بنعمتها إذا ما أراد الله عزّوجلّ أن يصطفيه لتكليفه بحمل رسالة سماوية، وهذه المعلومة تفسّر ماخاطب الله تعالى به موسى وقال في سورة طه (٤٠/٤٢): **﴿إذ تمشي أختُك فتقول هل أدلّكم على من يكفلُهُ، فرجعناك إلى أمّك كي تقرّ عينُها ولاتحزن، وقتلتَ نفساً فنجيّناك من الغمّ وفتنّاك فُتوناً، فلبثت سنين في أهل مَدْين ثم جئت على قدرٍ ياموسى. واصطنعتك لنفسي، إذهب أنت وأخوك بآياتي ولاتنيا في ذكري﴾**. والذي يُراجع سيرة محمد خاتم النبيّين من زاوية نظر هذه المعلومة التي وضّحَتْها قصّة آدم المجازية هنا في سورة الحجر ستأخذه الدّهشة من كثرة مايلاحظه من واقعاتٍ تؤيّد ماذكرناه.

فإن نحن عُدنا إلى مااستهلّ الله تعالى به قصّة آدم المجازية التي أوردها في سورة (طه). نلاحظه جلّ شأنه قد قال هناك: **﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً. وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى﴾**. وقد أضاف جلّ شأنه في هذا الموضع ومن خلال هذا الاستهلال معلومة جديدة أيضاً، وهي أن لاتحسبوا أنّ الإنسان الذي يصطفيه الله تعالى لرسالته، يعود بعد بعثته شخصاً معصوماً عن الخطأ كلاّ فكل إنسان خطّاء. لكن هناك فرق بين الذي يُخطئ متعمّداً الخطأ والمعصية، وبين الذي يَخْطئ غير مُتعمّدٍ ما أخطأ به، فالخطأ المتعمّد إثم، على حين أن الخطأ غير المتعمّد ذنبٌ لايرقى إلى مرتبة الإثم. وها أنّ قصّة آدم المجازية قد نبّهت إلى هذه الملعومة سلفاً. **﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً﴾**. وقد أكدّ جلّ شأنه صحّة معلومته هذه، مشيراً إلى أنّ هذه الحقيقة هي التي استدعت من الله الخالق فتح باب الاستغفار والتّوبة لجميع الناس بما فيهم الأنبياء أنفسهم. وإشارة إلى ذلك أضاف بعد ذلك قوله: **﴿ثم اجتباه ربّه فتاب عليه وهدى﴾**.

فإن نحن استعرضنا ما أورده جل شأنه في سورة الكهف من قصّة آدم المجازية، حيث قال هناك: **﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاّ ابليس كان من الجنّ ففسق عن أمر ربّه افتتّخذونه وذريته أولياء من دوني**

وهم لكم عدوٌّ بئس للظالمين بدلاً﴾. وقد كنت أوردتُ تفسير هذه الآية الكريمة ضمن تفسير سورة الكهف، وربطت بينها وبين التسلسل الموضوعي للسورة هناك.

أقول: لقد تضمّن هذا الاستهلال هنا معلومة تحذير شديدٍ من خطر الانسياق وراء ماتأتي به ذريّة ابليس من حضاراتٍ وإنجازاتٍ علميّة، وتتناسى استعمال هذه الأشياء بأسلوب تفكيرٍ روحاني.

أي أنّ الله عزوجلّ ينبئ هنا عن أنّ ذريّة إبليس التي تفكر بأسلوب تفكيرٍ مادي، لابدّ أن يتحقّق على أيديهم قيام حضارات، وإنجازات علميّة. وهم بسببِ تفكيرهم المادّي لن يسخّروا هذه الإنجازات لصالح البشرية، بل لصالحهم أنفسهم، ولبسط هيمنتهم على غيرهم من شعوب الأرض. وهذا الأمر يتنافى والغاية من تسخير كلّ شيء لصالح الإنسانية جميعها وضمن حدودٍ وقوانينَ نصّ عليها هذا الكتاب السمّاوي العزيز. أي أنّ سورة الكهف أوردت تحذيراً سماوياً لصالح المؤمنين أنفسهم الذين يمثّلون ذريّة آدم في مواجهة ذريّة إبليس.

وسورة الإسراء، على حسب ما وضّحته من قبل وعلى ضوء تسلسل الآيات الموضوعي، راح الله عزوجلّ يصوّر ماأورده فيها من قصّة آدم المجازيّة النّتائج الوخيمة التي ستحلّ بالمسلمين زمن ظهور المسيح الدّجال، نتيجة عدم تدبُّرهم قصّة آدم تدبّراً موضوعياً، ولتجاهلهم جميع التحذيرات التي حذّرت منها قصّة آدم المجازية من الأخطاء المتوقّعة على أيدي ذريّة إبليس.أي أنّ المسلمين لم يفطنوا إلى أنّ قصّة آدم وردت بأسلوبٍ مجازي وبلسان الحال، وبالتالي لم يفطن هؤلاء المسلمون إلى المقاصد الخمسة الكبرى المُضمرة في هذه القصّة أيضاً. لذلك يؤول حال هؤلاء المسلمين إلى الإنحطاط والتخلّف بصورةٍ طبيعية.

وعلى هذه الصّورة يكون القارئ قد أدرك دلالات قصّة آدم المجازية ومقاصدها الكبرى وهي القصّة المسبوكة بأسلوب بلاغي معجز يدهش عقول المتدبّرين، هذه القصّة القرآنية التي وُزّعت معلوماتها ومقاصدها ودلالاتها هنا وهناك في سبع سورٍ من كتاب الله العزيز. ووفق ماكان يقتضيه التسلسل الموضوعي لكلّ سورةٍ من هذه السّور السّبع.

فالمفسّرون القدماء الذين تأثروا بآراء أهل الكتاب وبمانقلوه إليهم من معلومات حول قصّة آدم ـ هؤلاء المفسّرون الذين لم يتدبّروا النّصوص القرآنية

بمعزلٍ عن التأثير المذكور - خبطوا في أمر شرح الآيات التي تكلّمت عن آدم خبط ناقةٍ عشواء، وشوّهوا بذلك الوجه البلاغي لهذه الآيات، وتركوا الباب مفتوحاً على مصراعيه لتهجّمات أعداء الإسلام على مضمون هذه الآيات. حتى عادوا ينسبون إلى كتاب الله العزيز اشتماله على الأساطير الخرافية.

١٠ - قصّة آدم مجازية وبلسان الحال في التوراة والقرآن:

وقد يسأل امرؤ هنا: مامعنى أن ترد قصّة آدم في هذه التوراة المعاصرة بدلالاتها الحقيقية، وترد نفس هذه القصّة في كتاب الله العزيز بدلالاتها المجازية وبلسان الحال، ولتتسبّب بالتّالي بجميع هذه الويلات؟

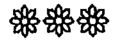
وجوابي المجمل هو أنّ قصّة آدم وردت بمجازيّة في التّوراة وليس في القرآن الكريم وحده، ولم ترد هنا مجازيّة وهناك بدلالات الألفاظ الحقيقية. لكنّ رجال الدّين والمفسرون هنا وهناك وقعوا في خطأ واحد، وتسبّبوا بنفس النتائج الوخيمة التي أسفرت عن خطئهم جميعهم. فإن عاد القارئ وتدبّر ماأوردته التوارة المعاصرة من هذا المنطلق وبهذا المنظار، سيتوصّل يقيناً إلى صحّة ماذهبت أنا إليه. علماً بأنّ هذه التوراة لم تكتُب في حياة موسى نفسه، بل كتبت بعده بعدّة قرون وعلى السّماع وبدون توثيق.

وهو أمرٌ سبق لي أن أثبتّه في فصل مصداقيّة القرآن الكريم من هذا الكتاب. هذا وإنّي سأثبت طرحي هذا من أنّ قصة آدم الواردة في التوارة المعاصرة مجازيّة أيضاً وذلك في الكتاب الذي سأصدره بعنوان (خلق الإنسان) إن شاء الله العزيز.

والذي أريد لفت النظر إليه في هذا المقام هو أن أقوال الأنبياء ماقبل الإسلام كانت ترد بأساليب التّشبيه والمجاز وضرب الأمثلة بصورة عامة. والقليل من أقوالهم تلك كانت ترد بدلالاتها الحقيقية. وحكمة ذلك أنّ عقل الإنسان ماكان من النّضوج إلى درجةٍ تساعده على إدراك كلّ مايأتي به نبيّ عصره. خصوصاً وأنّ المعطيات العلميّة كانت غير متوفّرة أيضاً في أزمنة ماقبل نزول القرآن الكريم.

أمّا النّصوص القرآنية فقد أوردها الله عزوجلّ بدلالاتها الحقيقية إلاّ القليل النادر منها، بعكس ماكان يجري قبل بعثة محمد خاتم النبيين (ص). وهذا النّادر القليل كانت تعمل وراءه نفس الحكمة التي ذكرناها أيضاً. ولا مجال هنا لضرب الأمثلة والشّرح والتبيّان.

ونعود إلى أصل بحثنا وهو الكلام عن اتّصال الله بمخلوقه البشر منذ أن خلق الله تعالى هذا المخلوق على سطح كوكبنا الأرضي. وقد ثبت لدينا حتى الآن أنّه جلّ شأنه كان يكلّم البشر من وراء حجاب طوال ملايين السنوات، ليساعد عقل هذا المخلوق على التطوّر والنضّوج فلّما بلغ هذا العقل المستوى اللائق لإدراك مفاهيم الذنب والنظام والقانون، اصطفى الله تعالى من بين هؤلاء البشر (الجانّ) الذين كانوا يقطنون الكهوف، أكملهم عقلاً واتزّاناً، وهو آدم عليه السلام، واختصّه برسالته ليحدث نقلةً نوعيّةً في حياة هؤلاء البشر، وذلك منذ مايقارب سبعة إلى عشرة آلاف عام، وابتدأ بذلك تاريخ الإنسان بعد أن نقله آدم من حياة التوحّش إلى حياة التهذيب والتحضُّر. وانقسم الناس بذلك إلى فريقين: فريقٌ مؤمن يفكّر بأسلوب تفكيرٍ روحاني، وفريقٌ كافر يفكّر بأسلوب تفكيرٍ مادّي محض لايحسب لوجود خالقه ولا للحياة القادمة بعد الموت أيّ حسابٍ.



الباب الثالث

الفصل الأول
صلة الله بالبشر بعد آدم

والسؤال الآن: ماهي معالم اتّصال ا لله تعالى بهذا الإنسان منذ بعثة آدم وحتى يومنا هذا؟ وماهي معالم ماحققّته ذريّة إبليس أيضاً خلال المدّة نفسها؟

١ً - شعار رسالة آدم الحوار لا العنف :

وقبل الإجابة على طرفي معادلة هذا السّؤال. أرى من المناسب لفت نظر القارئ إلى أنّ آدم عليه السّلام، لم يعمد إلى العنف وسفك الدّماء من أجل نشر رسالته. أي أنّ الرسالة السّماوية تلك رفعت شعار السّلام والحوار بالحجّة والإقناع. و لم يحدث أن بعث ا لله عزوجلّ بعد آدم نبيّاً رفع شعاراً مغايراً للشّعار الذي رفعه آدم. إلاّ أن يضطّر النّبي لمقاتلة الذين يقاتلونه وبإذن من ا لله علاّم الغيوب والقادر على نُصرة رسله وتأييدهم من وراء حجاب ولاتقع مسؤولية الردّ على العدوان ومقاتلة المعتدين في تلك الحال على أكتاف النّبي والذين اتّبعوه. بل تقع مسؤولية ذلك على المعتدين. فهذا هو المسار الذي التزم بمبادئه وشعاراته آدم وذريّته. هذا على حين أن إبليس وذريّته لم يرفعوا هذا الشعار في يوم من الأيام.

٢ً - حركات انقلابية مادية كبرى

والآن إن نحن استعرضنا الانجازات التي تحققّت في الجانب الذي راح يفكّر دوماً بتفكير مادّي من ذريّة ابليس، تتجلّى لأعين المحقّق معالم خمس حركات انقلابيّة كبرى وهامة تركت أظلالها هنا وهناك. وكانت حاملةً فلسفاتٍ خاصّة بها، وتحقّق على أيادي أصحابها إنجازاتٌ علميّةٌ أيضاً. فالحركة الآرية ظهرت في شبه القارة الهندية، وكانت دوما تشكّل لولب أحداث تلك المنطقة من العالم. كذلك ظهرت حركة رومانيّة من شبه الجزيرة الايطالية، وكانت ولاتزال تشكّل لولب أحداث الدّول الأوربية وحتى يومنا هذا. كذلك

ظهرت الحركة الفارسية التي ظهـرت في فـارس، وشكّلت لولـب أحـداث آسـيا والصيّن.

والحركة الرابعة ظهرت في أرض بابل من العراق، فكـان منشؤها بـلاد مابين دجلة والفرات، وكانت تشكّل لولب أحداث غربي آسيا وشمـالي أفريقيـا، أمّـا الحركـة الانقلابيـة الخامسـة فكـانت مـانُطلق عليـه في أيّامنـا هـذه مصطلـح الحضارة الأوربية ـ هذه الحركة التي اتّسمت بسمة التأثير العالمي. فهذه حركـات انقلابية كُبرى برزت معالمها عَبْر تاريخ البشرية من بعد بعثة آدم عليه السّلام.

هذا وإن جميع ماحدث خارج أُطر هذه الحركـات فقـد كـانت أظـلالاً لهذه الحركات وثماراً. وإن تكن هذه الحركات قد بادت واندثرت وزال أعلامهـا ورموزها ومؤسّسوها من الوجود.

ثم إن البـاحث المتعمّـق في تـاريخ البشـر يُلاحـظ أنّ هـذه الحركـات لم تظهر إلى المسرح، إلاّ بسبب ماكانت تحمله من أفكارٍ جديدةٍ وفلسفات.

٣ً - الحضارة الآرّية وطروحاتها :

فالحضارة الآرية طرحت فلسفةً طبقيّة، وهو أنّ البشر لايشـكّلون طبقـةً واحدةً تتساوى في صفاتها ومقوّماتها. بـل يشـكّلون طبقـات منهـا العليـا ومنهـا الدنيا ومنها الغنيّة ومنها الفقيرة ومنها القوية ومنها الضّعيفة، ومنها الذّكية ومنهـا الغبيّة. وأنّ روح الإنسان الميّت تعود إلى الحياة وتتقمّص مولوداً آخر ومـن طبقـة أخرى غير طبقتها، وعقيدة التّقمص هذه أثمرتها الفلسـفة الطبقيّـة المطروحـة مـن قبل الذين أسّسوا الحضارة الآرية. ولاتزال شبه القارة الهندية تُعـاني مـن مسـاوئ هذا الطرح الفلسفيّ الآري حتى يومنا هذا.

٤ً - الحضارة الرومانية وطروحاتها :

ثم إن الحضارة الرومانية ارتكزت إلى فلسفة القانون وحقوق الإنسـان. وأنّ الإنسان يملك بالفطرة حقوقاً إنسانيةً ثابتة. الأمر الذي يقتضي سـنّ القوانـين لحماية هذه الحقوق الثابتة للإنسان.

هذا وإنّ الباحث الذي يتفّحـص الحضـارة الغربيـة المعـاصرة تـتراءى لـه معالم استنادها في سنّ قوانينهـا وتشـريعاتها، إلى القوانـين الرومانيـة القديمـة هـذه وبصورةٍ بارزةٍ أيضاً.

٥ً - الحضارة الفارسية وطروحاتها :

والحضارة الفارسيّة تميّزت بفلسفتين بارزتين على صعيدي السّياسة والأخلاق، فقد انطلق مؤسّسوها من وجود ظاهرتي الخير والشر في هذا العالم. فزعموا وجود إلهين هما إله الخير وإله الشرّ. وشكّلت فلسفتهم تلك ركيزةً أخلاقيةً لحضارتهم القديمة. وقد أثمرت فلسفتهم المذكورة عن نظامٍ سياسيٍّ متميّز، وهو نظام الشاهنشاهية أي ملك الملوك، الذي يمثل إله الخير، هذا وإنّ نظام الشاهنشاهية المذكور يترأس عدّة حكومات مستقلّة. يستعين بالخاضعة لسلطانه من الحكومات على المتمرّدة على هذا النّظام، وقد قضت الثورة الخمينيّة على نظام الشاهنشاهية المذكور.

٦ً - الحضارة البابلية وطروحاتها :

والحضارة البابلية اهتّم أصحابها بعلمي الهندسة والفلك. وكانت فلسفتهم في هذه الانطلاقة هو أنّ الشمس والقمر والنجوم تسير بنظامٍ طبيعي أساسه علما الهندسة والفلك. الأمر الذي كان يعني في نظر مؤسّسي الحضارة البابليّة أنّ علمي الهندسة والفلك لابدّ أن يشكلاً مفتاح تقدم أمّتهم وفلاحها ولتأسيس حضارةٍ تتباهى بها بين جيرانها من الأقوام المحيطة بها. كما أنّ تطوير هذين العلمين سيساعدهم على اكتناه أسرار الفضاء أيضاً.

٧ً - الحضارة الغربية المعاصرة وطروحاتها :

ونأت أخيراً إلى الحضارة الغربيّة المعاصرة، فنلاحظ استنادها إلى فلسفتين بارزتين الأولى منهما ضرورة التفكير بأسلوب تفكيرٍ مادّي علمانيّ، أي الالتزام بأسلوب البحث العلميّ المنطلق من قواعد ثلاث هي الملاحظة والتجربة والاستنتاج. وقد أسفرت هذه الفلسفة المادية عن فلسفةٍ لاحقةٍ وهي فلسفة القوميّة. أي لايتأتّى نجاح الفلسفة المادية هذه إلاّ تحت شعار القوميّة.

ولاشكّ أنّ الذي يفكّر بتفكيرٍ مادّي محض وبهذا الأسلوب العلمي، ولايحسب للموت والآخرة حسابها، لابدّ أن تغلب على هذا الإنسان روح الأنانية الضيّقة، ومن هنا تولّدت فلسفة القوميّات عند الغربيّين. ثم إنّ هذا الإنسان المادّي الأناني، سيميل بشكل طبيعي إلى الأخذ بأسباب التّنعم والرفاهيّة، والبذخ والترف بلا حدود، ولابدّ للذي يسافر إلى بلاد الغرب أن يرى ويشاهد

ما آلت إليه تلك المجتمعات الغربية التي تمثل هذه الحضارة الغربيّة المعاصرة، فلن يطعن في أمرٍ واحدٍ ذكرته هنا للقارئ فيما يتعلّق بحضارة الغرب هذه. وبالإضافة إلى هذا وذاك فسيلاحظ هذا المسافر تأثر تلك الشعوب بالحضارة الرومانية القديمة أيضاً.

فهذه حركات انقلابية كبرى تأتّت على أيدي ذريّة إبليس وشكّلت على ممرّ الأيّام غذاءً فكرياً وعلمياً استمر عطاؤه وبصور وأشكال مختلفة لكنّها جميعها ترجع إلى هذه الجذور الخمسة الكبرى بالرغم من أنها تأسست على العُنف بمختلف أشكاله وليس على الإقناع والحوار، ورافقها سفك دماء وتوسّع في الأرض بالقوة. فالسؤال الذي يواجه الباحث هنا: أن كيف تحققت لها هذه النجاحات والاستمرارية؟ بالرغم من كونها من عمل ذريّة إبليس، وبعيدة عن التفكير الروحاني؟

٨ً - سرّ نجاح هذه الانقلابات الكبرى:

الجواب يعثر عليه الباحث المتفحّص، أنّ هذه الحركات جميعها انتحلت صفة الرّسالة تقليداً لصفة الرّسالات السّماوية، فقد حاول أصحابها خِداع الناس زاعمين أنّهم يحملون رسالةً فلسفيةً نابعةً من واقع الحياة وقوانينها الطبيعية، وليست الفلسفة المادية الماركسية ببعيدة عن أذهان الناس وذاكرتهم أيضاً. فالذي ينتحل صفة رسالة ويدعّم رسالته الفلسفية المزعومة هذه بالعنف وسفك الدّماء بعيداً عن الحوار والإقناع بالحُجّة والبرهان، فبإمكانه تضليل الشعوب ولكن إلى حين. وقد حذّرت قصّة آدم المجازية من الأخطار الناجمة عن الانقسام الأوّل الحادث زمن آدم كلّ التّحذير. وهذه القصّة الآدميه وتحذيراتها تناقلها جميع الأنبياء وحذرّوا بها أقوامهم. وها أنّ التوراة شاهدة على هذه الحقيقة ومع ذلك يميل اليهود إلى الفكر المادّي.

كذلك فبالرغم من أنّ القرآن الكريم نبّه عقولنا إلى هذه الحقائق التي تضمّنتها قصّة آدم المجازية، والذي أنزله ربّنا عزوجلّ منذ أربعة عشر قرناً من الزمان، فمع ذلك يميل أكثر مُسلمي عصرنا إلى تجاهل هذا التحذير الإلهي، ويُهرول أكثرهم وراء المسيح الدّجال صاحب الفكر المادّي العلمانيّ. ويصدق عليهم قول ربّنا عزوجلّ: ﴿**ياحسرة على العباد ما يأتيهم من رسولٍ إلاّ كانوا**

به يستهزئون﴾. أي يستهزئون بما يحمله إليهم قول ربّهم عزّ وجلّ من حوارٍ مقنعٍ وتحذيرات من ذريّه إبليس وتوعّداته. فالعداوة التي ابتدأها إبليس القانط من رحمة ربّه، توارثها أبناؤه وذريّته جيلاً بعد جيل. فتشكلت من جرّاء ذلك سلسلتان في سجل تاريخ هذا البشر من بعد بعثة آدم: سلسلة ذرية آدم الروحانية وسلسلة ذريّة ابليس التي تفكّر بتفكيرٍ مادّي بعيداً عن كل شيء روحانيّ .

وها أنّي بصدد استعراضٍ ماأحدثه آدم ورسالته في حياة البشر من انقلابٍ حقيقي، وما أحدثته رسالات الأنبياء الذين بعثهم الله تعالى من بعده أيضاً من انقلابات حقيقية، ومن ثم فأوازن للقارئ مابين هذه الانقلابات ذات السّمة الرّوحية وبين هذه الانقلابات الخمس الكبرى المادّية، إن شاء الله العزيز، فقد أحدثت الرسالات السماوية ستّة انقلابات عظمى في تاريخ البشر، وأثمرت عن هذا الفكر التوحيديّ العظيم الذي تضمّنته آيات هذا القرآن العظيم بين دفّتيه. هذا في مقابل الانقلابات الخمسة المادية التي أتينا على ذكرها. تلك الانقلابات الدّموية، وصاحبة الرّسالات المزعومة والتي لاتزال البشرية تئنّ تحت وطأة زيفها وبُطلانها.



الفصل الثاني
الانقلاب العظيم الذي أحدثته بعثة آدم

نتناول بالذكر أول انقلاب حقيقي أحدثته بعثة آدم في حياة البشر الذين ظلوا يختبئون في الكهوف أكثر من أربعة ملايين عام ونيّف ، على حسب مادلت على ذلك آثاره التي عُثِرَ عليها حتى الآن.

١ - الفطرة البشرية واحدة :

وقبل الدّخول في تفاصيل ذلك أنبّه وأقول: لم تكن فطرة البشر القديم تختلف عن فطرتنا المعاصرة، فالنطقة كانت ولاتزال "نطفة أمشاج" ومغايرة لنطفة جميع الحيوان، فهذه حقيقة تُبطل ضمنيًا الزّعم الدارويني من أنّ الإنسان حصيلة طفرةٍ نوعيةٍ. وهذا مفتاحٌ علميّ أضعه بين أيدي الباحثين. ثم إنّ هذه الفطرة البشرية مؤلّفه من مزيج قوىً باطنيّة أخلاقية متضادّة كقوتي الحبّ والبغض والشجاعة والجبن والكرم والبخل والتّضحية وحبّ الذات، إلى جانب ميول خيّرةٍ وميول فاسدة وإلى جانب شهواتٍ جنسيةٍ جسدية، ولولا التعاليم السّماوية لَما كان قد وُجدَ تمايزٌ مابين خيرٍ وشرّ. فالذين لا ينصبغون بصبغة الله، ومن أحسن منها صبغَة؟ لابدّ أن يحيا حياةً غير سعيدةٍ، لأنّها تصير إلى حياة حرصٍ على المال، وحرصٍ على الأولاد، وحرصٍ على الجاه وحرصٍ على حسد الأغيار. وهذا الحرص كلّه ينقلب إلى عداوات تُنغّص سعادة المرء وتحرفه عن المقصد من خلقه.

فهذا هو ماحدث للبشر الذين لم يستجيبوا لآدم ولتعاليمه ولصوته السّماوي. فقد أكل الحسد أكبادهم للفارق الكبير الذي تمايز به آدم والذين اتّبعوه عن أولئك الذين فضّلوا البقاء في كهوفهم.

وهذا الحسد والحقد الدّفين تجلّى من خلال ألفاظ: ﴿**فوسوس إليه الشيطان**﴾ فوسوس معناه: حدّثه بما لانفع فيه ولاخير (محيط المحيط). فآدم كان يبتغي هداية جميع البشر في منطقته. وهؤلاء جماعة إبليس الذين ناصبوا آدم العداء ماكانوا يملكون يومئذٍ إلاّ انتحال لباس المنافقين، والوسوسة بما لانفع فيه ولاخير. لذلك لم يتسنّ لإبليس أن يُحدث زمن آدم أكثر ممّا أحدثه. فبماذا وسوس هذا الشيطان إلى آدم من أمورٍ لانفع فيها ولاخير؟ لم يتطرّق القرآن الكريم إلى ذكر ذلك.

مكتفياً بالقول: ﴿**قال ياآدم هل أدلّك على شجرة الخُلد ومُلكٍ لايبلى**﴾. وهذا كلامٌ مجازيٌّ عامّ متعلّق بالأمور المنهيّات وليس بالأمور المُباحات. والقصد منه التنبيه إلى أنّ ذريّة إبليس سيكون جُلّ همّهم أن يشيعوا الفاحشة بين المؤمنين ليشككوهم بتعاليم ربّهم وليحرموهم بالتالي من أسلوب التفكير الروحاني ومن تأييد الله الذي أمرهم أن يفكّروا بهذا الأسلوب من التفكير، وكأن هذه الألفاظ من هذه القصّة المجازية تصّور حال غير المؤمنين تصويراً شنيعاً . فتعظ بأنّ ذرية إبليس مخربّون ليس إلاّ. فلا يكفي أن يؤت الإنسان حُرّية التفكير والعمل، بل لابدّ له من واعظٍ وهادٍ يهديه سبيل استعمال ما أوتيه في فطرته من قوى كيلا تتصارعه قواه وميوله وشهواته ويتنّزل بالتالي إلى أسفل سافلين.

أفلم ينتبه القارئ إلى هذه الحقيقة التي تضمّنها قول ربّنا عزوجلّ: ﴿**ونفسٍ وماسوّاها فألهمها فجورها وتقواها. قد أفلح من زكّاها. وقد خاب من دسّاها. كذّبت ثمود بطغواها. إذ انبعث أشقاها**﴾. (الشمس ٧ ــ ١٢). فكلّ من يكذّب هذه الحقيقة وطغواها، تنبعث من باطنه الشقاوة ويبتعد عن السعادة كلّ البعد ولايعود إلاّ مخرّبا في هذه المرحلة من حياته الدنيا.

٢ً- نقله نوعية أحدثها آدم :

والآن أحاول إبراز معالم هذه النّقلة النوعيّة وذاك الانقلاب الكبير الذي أحدثته بعثة آدم عليه السّلام في حياة "الجنّ" أي في حياة البشر سُكّان الكهوف، والذين كان قد مضى عليهم في حالة التوحّش تلك مايزيد عن الأربعة ملايين ونصف من الأعوام .

هذا الأمر ورد في سورة البقرة بصورة مُجملة من خلال قوله تعالى: ﴿**وإذ قال ربّك للملائكة إنّي جاعلٌ في الأرض خليفة. قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدّماء**﴾.

وورد هذا الأمر مفصّلاً وذلك في سورة طه ومن خلال قوله عزوجل: ﴿**فقلنا ياآدم إنّ هذا عدوٌّ لك ولزوجك فلا يخرجنكّما من الجنّة فتشقى، إنّ لك ألاّ تجوع فيها ولاتعرى. وأنّك لاتظمأ فيها ولاتضحى. فوسوس إليه الشيطان قال ياآدم هل أدلّك على شجرة الخلد ومُلكٍ لايبلى. فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنّة، وعصى آدم ربّه فغوى. ثم اجتباه ربّه فتاب عليه وهدى**﴾.

فا لله جل شأنه إذ أجمل في سورة البقرة ماأنجزته بعثة آدم عليه السلام، وهو تنبيه أذهاننا من خلال قوله تعالى ﴿**إني جاعل في الأرض خليفة**﴾ تنبيهنا إلى أنّ البشر سكّان الكهوف كانوا قد نضجت عقولهم وتمايزوا في أسلوب معاشهم عمّا حولهم من الأنعام في أواخر طور عصورهم الحجريّة وعادوا بأشدّ الحاجة إلى من ينقلهم نقلةً نوعيةً ويُحدث في حياتهم انقلاباً شاملاً واقتضت صفة الربوبيّة التي يتّصف بها خالقهم أن يرعاهم ويراعي ضرورات واقعهم الذي وصلوا إليه، فقرر ا لله تعالى جعل خليفةٍ له من بينهم في الأرض يُسوّي له عقله ويقوّم له سلوكه ويُعدّه ليُصبح هذا الخليفة أسوة لهؤلاء البشر يحتذون به ويمنحهم بذلك الحركة والتّغيير ويحضّرهم.

وا لله جلّ شأنه قصد بمانقله عن الملائكة وبلسان حالهم: ﴿**قالوا أتجعل فيها من يُفسد فيها ويسفك الدّماء..**﴾ قصد تنبيهنا إلى أن هذا الخليفة سيقيم نظاماً تحميه تعاليم وقوانين، تقتضي بالتالي سفك دماء وإنزال عقوباتٍ

بالمخالفين. أو قولوا إن هذه الجملات من سورة البقرة كانت تشير إلى ظهور آدم كنبيّ مُشرّع وصاحب فكر إنقلابي.

وقد راح الله عزوجلّ في سورة طه يفصّل لنا ماقام به آدم من نقلةٍ نوعيةٍ وانقلابٍ كبير في حياة هؤلاء البشر من سُكّان الكهوف. وهنا يتوجّب عليّ أن ألخّص للقارئ ما استشفّه علماء الآثار وغيرهم من علماء الطبيعة من المعلومات المتعلّقة بحالة البشر قبيل زماننا مايقارب العشرة آلاف عام أي حالهم الذي بلغوه بعد بقائهم في كهوفهم مايزيد عن أربعة ملايين ونصف من الأعوام . وعلى اعتبار أنّ تاريخ البشر يعود إلى عشرة آلاف عام على وجه التقريب. وقصدي من تلخيص ذلك هو تمكين القارئ من معرفة وإدراك معالم اللّحمة الكائنة مابين واقع هؤلاء البشر المذكورين وبين ماأتى به آدم لتحضيرهم.

ألا إنّ الذي يطالع جميع ما ألّفه العلماء حول البشر وأحوالهم في عصورهم الحجريّة القديمة يتبيّن له من خلال تلك المؤلفات أنّ تاريخ وجود البشر على سطح كوكبنا الأرضي يعود إلى أكثر من أربعة ملايين ونصف من الأعوام على وجه التّقريب . وظلّ البشر خلال هذه المدة الطويلة يحيون حياةً بدائية وبأدواتٍ بدائيةٍ وعلى حالة واحدة يتغذّون بالصيّد الذي يصطادونه وبالثمار التي يجنونها من الأشجار البريّة. ويصنعون من أغصان الأشجار عُصيّاً يتّكؤون عليها ويستعملونها كهراواة وحربات. ويستغلّون العظام والحصى لنفس الغاية أيضاً وأنهم تعلموا ايقاد النّار منذ سبعمائة ألف عام تقريباً .

كما راحوا يلتقطون الأحجار الصّوانيه التي تنجلي عنها السّيول، فيتخذّونها قذائف مقلاع وسكاكين وماشابه ذلك، ثم تمكّنوا من صنع الثاقبات والفؤوس والمقادح والسكّاكين بأنواعها المختلفة.

وإنّ البشر سكان الكهوف أخذت تنمو مواهبهم الفنيّة منذ مائتي ألف عام فراحوا يرسمون وينحتون على جدران كهوفهم مايكشف عن هذه المواهب الفنيّة البدائيّة. كما تعلّموا منذ مايقارب مائة وخمسين ألف عام دفن موتاهم في حفريات يحفرونها لهذه الغاية. وقد دلّت آثار البشر على أنّ البشر الذي يعود تاريخهم إلى فترة دفن الأموات كانوا يُشبهون الإنسان المعاصر كلّ الشبه في شكله الخارجي. وأنّ البشر قد بلغ قبل ماينوف عن عشرة آلاف عام حدّاً متميّزاً من حيث وعيه وأدواته وأطعمته ودفن موتاه ومعالم فنونه، وأصوات تفاهم أفراده

فيما بينهم أيضاً. أو قولوا بألفاظٍ أخرى أنّ البشر قبل عشرة آلاف عام كانوا يطالبون بلسان حالهم أن يظهر الذي ينقلهم من حالهم تلك إلى حال أفضل من حالهم وليحدث في حياتهم انقلاباً كبيراً متميّزاً.

ولكن كيف ومن سيقوم بهذه النقلة النوعية وهذا الانقلاب الكبير؟ فقد جاءت الآيات من سورتي البقرة وطه تكشف عن ذلك وبأسلوبٍ بلاغيّ معجز ويتفّق مع معطيات التاريخ.

وبما يثبت أنّ الله الرّب الخالق هو الذي كان يطوّر هذا البشر من حال إلى حال طوال تلك الفترة الماضية ووسيلته كانت التكلّم مع بعضهم من وراء حجاب. وها أن هذا الخالق الرّب قد بعث آدم عند حاجة البشر إليه يوم راح لسان حال البشر يطالب الخالق ببعثه لإحداث هذا الانقلاب الكبير. والذي لولاه لظلّ البشر في كهوفهم إلى هذا الزمان. فنحن مدينون لما أحدثه آدم في حياة البشر من تغييرٍ وتبديل ، ودليلنا على ذلك أنّ العلماء الذين يفكرون تفكيراً مادياً ولايعودون إلى مُعطيات الآيات القرآنية قد وضعوا حتى الآن نظرياتٍ ونظريات، وجميع هذه النظريّات يُخمنّون فيها ماحدث لبشر الكهوف تخميناً ولايدرون شيئاً عمّن أخرج البشر من كهوفهم وطوّرهم وعلّمهم وحضّرهم؟ و لم يستطيعوا الحسم والجزم في هذا الأمر حتى هذه الأيام.

ففي سورة البقرة حيث ورد: ﴿**وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدّماء..**﴾ دلّتنا هذه الألفاظ على أنّ الله عزوجلّ اتّخذ آدم خليفة له من جهة، وحضّر على يديه من آمن معه من سكان الكهوف أي أوجد الله تعالى من أجل تطوير سكّان الكهوف قيادةً وقانون. أي أنّه تعالى أوجد عن طريق بعثة آدم نظاماً سياسياً وتعاليم حضّارية، وبكلمة موجزة فإنّ مهمّة آدم انحصرت في أمرين اثنين: الأول منهما تبديل القيادة السياسيّة وقد كانت هذه القيادة تعتمد من قبل آدم على شريعة الغاب السّائدة في الكهوف والتي استُبدلت بقيادة آدم الرّوحية. وتمثّل الأمر الثاني في تأسيس مجتمع تعاونيٍ تابع لهذه القيادة الروحية، وتنظُمه تعاليم وقوانين حضاريّة ويُعمل عليها خارج الكهوف أيضاً. وقد لخّص الله جلّ شأنه ذلك كلّه من خلال قوله تعالى في سورة البقرة وبالاجمال أيضاً: ﴿**وقلنا ياآدم**

اسكن أنت وزوجك الجنّة وكُلا منها رغداً حيث شئتما ولاتقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾.

أي أننا أمرنا بإجراء انقلابٍ حقيقيٍ في حياة البشر سكّان الكهوف، وهو أن يُغادرها آدم والذين آمنوا معه ليقطن خارج كهفه وفي منطقةٍ خصبةٍ رغيدة العطاء أي في جنّة من الأرض دللناه عليها، لتعريفه تعالى كلمة جنّة بالألف واللام العهدية. وقلت ﴿**والذين آمنوا معه**﴾ ذلك أنّ لفظ الزوج لايعني الزوجة فقط بل ويعني الجماعة والأتباع أيضاً (أقرب الموارد). ففي قوله تعالى ﴿**اسكن أنت وزوجك الجنة**﴾ دلالةٌ على الخروج من الكهف ودلالةٌ على تنظيم أسرة وبدء نظام زواج، فالمعنيان يصحّان في هذا المقام، وهو جل شأنه عندما أجمل أمره هنا وقال: ﴿**وكُلا منها رغداً حيث شئتما**﴾ فقد نبّه إلى أنّه تعالى جعل إباحة استعمال كل مافي الجنّة هو الأصل في تشريع هذه التعاونية.

أمّا التّحريم فعّبر عنه بصورة مجملة وبلسان المجاز ﴿**ولاتقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين**﴾. فهو استعمل لفظ (الشجرة) مُعرّفه بالألف واللاّم ولم يوضح أيّة شجرة هذه الممنوعة فهذا تعبيرٌ مجازيٌّ شُبّهٌ فيه الأمر المُحرّم بالشجرة المحرّم عليهم الدّنو منها. فلم يقل جل شأنه [ولا تأكلا من هذه الشّجرة]. فلو فعل لبطل معنى المجاز. فهو تعالى قال (ولا تقربا) وهو أمر نهي عن الدّنو منها يُفسّر ذلك قوله تعالى في مقام آخر: ﴿**تلك حدود الله فلا تقربوها**﴾. ثم إن قوله تعالى: ﴿**فتكونا من الظالمين**﴾. الظّلم في اللغة يعني وضع الشيء في غير موضعه (محيط المحيط) أي إذا أقدمتم على مانهيتكم عنه وعصيتم أمري، ووضعتم الأمور في غير مواضعها، تعودون في نظر ربّكم مُتمرّدين على أوامره القاضية بإطاعة هذه القيادة وذاك النظام الذي شرّعته لكم. وعلى هذه الصورة تتجلّى معالم هذا الانقلاب الكبير الذي تحقق على يدي آدم عليه السّلام وبصورة مجملة وغير مفصّلة.

وقد زوّدنا ربّنا عزوجلّ في سورة طه ببعض التفصيلات بما يتعلّق بتعاونيّة آدم هذه حيث قال هناك مخاطباً آدم: ﴿**إنّ لك ألاّ تجوع فيها ولاتعرى، وأنّك لاتظمأ فيها ولاتضحى**﴾. فصاغ تلك المعلومات صياغةً بلاغيةً مُعجزة حقّاً، ليفيد من خلال دلالات هذه الألفاظ دلالاتٍ تملأ عدّة صفحات.

فلنُمعن نظرنا في قوله تعالى ﴿**إنّ لك ألاّ**﴾. فالحرف (إن) يستعمل للتّوكيد، وقد قرنه تعالى بلا النّاهية وأفاد النّهي عمّا يريد لفت نظر آدم إليه من خلال ذلك مُؤكداً على آدم ضرورة الالتزام بتفاصيله.

وأتى بأداة النّهي مُقترنة بأن فقال (ألاّ). وأنْ هذا حرف توكيد آخر أتى به بين الكاف من (لك) ومخفوضها، وهواستعمال نادر على حسب ماوضح صاحب (محيط المحيط)، فأبطل عمل (أنْ) بهذا الأسلوب وتركه للتوكيد فقط، وبذلك يكون جلّ شأنه قد أتى بتأكيدين على آدم إشعاراً منه تعالى إيّاه بأهميّة ماراح يأمره بالقيام به من أوامر ربانيّة مرتبطة بأمر تنظيم هذه التّعاونية.

وبعد أن عمد جل شأنه إلى هذه الصيّاغة النادرة الاستعمال، أضاف قوله : (ألاّتجوع فيها) فأضحى النّهي مركّزاً على موضوع الجوع ومايلحق به من تأمين الحاجات الغذائية في هذه التّعاونية. فالجنّة تحتوي على أنواع الثمار والحبوب والمياه كمرحلة أولى، لكن هذا لايكفي، بل أكّد تعالى على آدم تأكيدين على ضرورة تأسيس نظامٍ تغذية تعاونيّ يساعد هذه الجماعة المؤمنة على مواجهة الأخطار الطارئة.

وأضاف جلّ شأنه أمراً آخر وقال: ﴿**ولاتعرى**﴾ فركّز ثانيةً على موضوع الكساء ومايلحق به من تأمين وتنظيم إيجاد لوازم الكساء، وشمل التأكيدان السّالفي الذكر موضوع الكساء أيضاً، لعطف (لاتعرى) على (تجوع) بواو العطف الفاصلة بينهما. وكأنه جل شأنه ألزم آدم بتنظيم أمر تدبير لباسٍ يستر عورات كل فرد انضمّ إلى تعاونيته.

ثم أضاف جل شأنه يقول: ﴿**وأنّك لاتظمأ فيها**﴾ فحذف (ألاّ) النّاهية وأبقى على حرف التوكيد (أنّ) مضيفاً إليها كاف الخطاب وقائلاً ﴿ **وأنّك لاتظمأ فيها**﴾ فأتى بلا النّافية وليس النّاهية، بدليل رفع الفعل تظمأ الظّاهر على آخره. أي أنّ هذه الجنّة التي أمرتك بإقامة هذا النظام التّعاوني فيها، تجري من تحتها الأنهار ومياهها غزيرة، ولاتحتاج منكم إلاّ إلى تنظيم موضوع السّقاية بأسلوبٍ تعاوني.

وأضاف جلّ شأنه أمراً رابعاً وقال: ﴿**ولاتضحى**﴾ فأتى بلا النافية أيضاً بدليل الحركة المقدرة على الياء المقصورة في فعل تضحى، أي إنّني إذ أمرتك أن تنشئ مسكناً لك ولزوجك فقد كنت أقصد به أن تبدأ بتأسيس نظام الأسرة

وعقد زواج كلّ فتىً مؤمن على فتاةٍ مؤمنـةٍ يلتحقـون بـك وينضمّـون إلى نظـام تعاونيتّك المذكورة ، فلا تعود تضحى أنت ومن معك. وكلمة تضحى من ضحا الرّجل إذا برز للشمس وأصابته الشمس بلظى حرّها بعد أن كان في ستر (محيط المحيط). بمعنى ياآدم أنت وجميع من معك فقد كان الكهف يستركم من لظى حرّ الشمس، وها أني إذ أمرتكم بإنشاء مساكن لكم تأوون إليها، فستسـتركم هـذه المساكن في هذه الجنّة التعاونية من لظى حرّ الشمس أيضاً، فلا تعودون تشـعرون بفرقٍ جوهري بين ماكنتم فيه بالأمس وبين ماصرتم إليه في هذه الجنّة .

وبإمكاننا تلخيص ماأفادته سورتا البقرة وطه بالنقاط التالية فيمـا يتعلـق بتعاونيه آدم عليه السلام:

أولاً - أن يقيم قيـادةً سياسـيّةً تشـريعيّة في منطقـة سمّاهـا "جنّـة لكونهـا خصبةً ورغيدة الثّمار والمياه والأشجار.

ثانياً - وأن ينشئ آدم والذين آمنوا معه مساكن لهم في هذه الجنّة.

ثالثاً - وأن يبدؤوا نظاماً أُسروياً قائماً على عقدٍ مـابين كـلّ فتـى وفتـاة مؤمنين.

رابعاً - وأنّ كلّ مافي الجنّة فحلالٌ غير محرّم على آدم ومن معـه بصـورة عامة.

خامساً - وأنّ المنهـي عنـه قليـل نـادر، ودون ذكـر لهـذا المنهـي عنـه في الآيات القرآنية.

سادساً - وأمر الله تعـالى آدم بتنظيـم أمـر تـأمين إطعـام جماعتـه المؤمنـه بشكل تعاونيّ.

سابعاً - وأمره أيضاً بتنظيم أمر تأمين كساء كل فرد من جماعتـه المؤمنـة وبشكل تعاونيّ

ثامناً - كما أمـره بتنظيـم أمـر الشـرب والسـقاية لهـم جميعهـم وبشـكل تعاونيٍّ أيضاً.

تاسعاً ـــ وأمـره بتنظيـم تـأمين مسـكن لكـلّ أسـرة مـن جماعتـه المؤمنـة وبشكل يتعاونون جميعاً على إنشائه.

عاشراً - والأمر الخطير الذي حذّر الله عزوجلّ آدم، منه قدّمه جلّ شأنه على جميع هذه الأوامر في سوره (طه) قائلاً: **﴿فقلنـا يـاآدم إنّ هـذا عـدوٌ لـك**

ولزوجك فلا يخرجنّكما من الجنّة فتشقى﴾.وهو تحذير متعلّق بالنادّر المنهيّ عنه.

فليتصوّر القارئ مدى عظمة هذه الصّياغة القرآنية المعجزة التي صاغ الله جل شأنه بها هذه التّعاليم العشرة التي تأسّست عليها تعاونية آدم عليه السلام. فالتحذير من عداوة إبليس لآدم ولجماعته تقدّم ذكره على بقية التعاليم التّسعة وبأسلوبٍ بلاغيٍ مدهش. كما أن هذه التعاليم استهلت بتوكيدين وليس بتوكيدٍ واحد اشعاراً من جانبه تعالى إلى بدائية الامكانيات العقليّة التي كان يحملها آدم وسواه من سكان الكهوف يومئذ، ودليل ذلك أنّه بدر عن آدم النّسيان لبعض ماأكده الله تعالى عليه، ولم يجد الله لآدم عزماً على مخالفة ربّه بسبب تكوين عقله البدائي.

ثم إنّ هذا القارئ، لو يستعرض جميع الآيات المتضمنه قصّة آدم هذه وفي جميع مواضعها السبعة، فلن يعثر في أيٍ منها على لفظ الجلالة (الله). بل يعثر على صفة الرّب وحسب. فلم يحدث ذلك الأمر صدفة أو اعتباطاً. بل كانت الحكمة من ذلك تنبيه عقولنا إلى أنّ الله عزوجلّ راح يكشف عن وجوده بوسيلة ماتحلّى به من صفات في الرّسالات السماوية الأولى واختصّ بكشف هذا الاسم الجلالي (الله) وبكامل دلالاته اختصّ به محمداً ورسالته على اعتبار أنّها أكمل الرّسالات السّماوية.

ثم إن هذا القارئ، لو يستعرض هذه النّصوص من زاوية الدّين ومايقتضيه من عبادات، فلن يعثر في أيٍ منها على ذكرٍ لصلاةٍ أو صومٍ أو زكاةٍ أو حجٍ . فهي وردت خاليةً من اشتمالها على أيّ نوعٍ من أنواع الذكر الإلهي أو مانسميه عبادات. وهذا أمرٌ يؤكّد للقارئ أنّ البشر من سُكّان الكهوف لم يكونوا زمن بعثة آدم عليه السلام قد ارتقوا إلى مستوى عقليٍ يساعدهم على التّعرف إلى أمور ماوراء هذه الطبيعة، وبالتّالي فلم يبلغوا حدّ إمكانيه تعرفهم على خالقهم وفوزهم بمحبّته وهم نيام. فإذا شاء الله تعالى مكالمة أحدهم وتعليمه أمراً جديداً، فقد كانت تتجلّى أسماؤه الحسنى بهذه المعلومة وتتمثّل لهذا البشر النائم وفق منهاجٍ ، سأتعرّض لبيان ماتعلّمته منه فيما بعد إن شاء الله العزيز.

ويستفاد من قصة آدم المجازية موعظة عامة وهو ضرورة مخاطبتنا كُلّ إنسان على حسب مستواه العقلي، وهو ماأشار إليه محمد رسول الله (ﷺ)

بقوله: أمرت أن أخاطب الناس على قدر عقولهم، فها أنّ ا لله تعالى لم يخاطب البشر الذين عاصروا آدم بما خاطب به محمداً (ﷺ)، ولاأنزل وفرض على آدم مافرضه على خاتم النبيين (ﷺ)، وبالرغم من ذلك فإنّ التعاليم التي زود ا لله تعالى بها آدم عليه السلام قد أحدثت أعظم انقلابٍ حقيقي في تاريخ البشر الذين كان قد مضى على وجودهم على سطح كوكبنا الأرضي ماينوف عن أربعة ملايين ونصف من الأعوام .

وأنا عندما قلت من قبل إنّ ا لله تعالى ماخاطب البشر الذين عاصروا آدم بما يشبه التعاليم التي أنزلها على محمد (ﷺ)، فإشارةً إلى أنّ آدم أسّس تعاونية مُنظمّة و لم يُلزم أعضاءها من المؤمنين بشيءٍ من العبادات، فلانقلاب الكبير الذي أحدثه ينحصر في هذا التغيير في حياة البشر سكان الكهوف. فهو استبدلهم حياة كهفهم الرّتيبة، بحياة السّهل التعاونية والتي افتتح بها حياة التّحضر والسّعي والإبداع.

وأنا عندما طرحت معنى لقوله تعالى: **﴿وعلّم آدم الأسماء كلّها﴾** وهو أنّ ا لله تعالى علّم آدم أسماء أبرز الأنبياء الذين سيبعثهم ا لله تعالى من بعده لإكمال مهمته ولتحضير البشر وتهذيبه في المستقبل.

فلابدّ أن يتساءل أحدنا: وبأيّة لُغةٍ علّم ا لله تعالى آدم هذه الأسماء؟ أقول في الجواب: إنّ ا لله عزوجلّ أجاب على تساؤلنا هذا في سورة الرحمن، على اعتبار أنّ كُلَّ موضوع يأتي مُتناثراً في ثنايا مختلف السّور القرآنية وبما يفيد تسلسل موضوعها العام، والذي يريد التوسّع في الإجابة المذكورة فليراجع (فنّ الاختزال في القرآن الكريم) صفحة ٢١٢. فقد سبق لي أن كتبت هناك:

(والمُنطلق الفكري النظريّ الأوّل الذي طرحه تعالى، طرحه بقوله: **﴿الرحمن، علّم القرآن. خلق الإنسان. علّمه البيان﴾** فأعلن من خلاله أنّ الإنسان مخلوق وأنّ خالقه هو الذي علّمه البيان في أوائل سِني وعيه، وهاهو يعلّمه القرآن أواخر مراحل نضجه العقلي، وبلغة البيان ذاتها التي علّمه إيّاها من قبل، ليُثبت لمخلوقه أنّه جلّ شأنه هو المليك الرحمن المقتدر الذي أعطاه كلّ هذا العطاء﴾. ورحت بعد ذلك فشرحت الدّليل الفلسفي الذي قدّمه ا لله عزوجلّ، تأكيداً لصدق الحقيقة التي ذكرناها.

فالمهمّ هو أنّ موضوع تعلُّم آدم اللّغة العربية قد ورد ضمن قوله تعالى: ﴿**وعلّم آدم الأسماء كلّها**﴾ من باب الاستنباط، وليس انطلاقاً من التّسلسل الموضوعي لهذه الآيات من سورة البقرة، ولايتّسع شرح ذلك في هذا المقام.

والذي أريد لفت النظر إليه هنا هو أنّ الله عزوجلّ حين يقول تارة ﴿**ومانرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين**﴾ وتارة ﴿**رسلاً مبشّرين ومنذرين**﴾ حاذفاً مفعول لفظي مُبشّرين ومنذرين، فهو تعالى يسلك هذا الأسلوب في التّعبير ليفتح باب تصريف هذين اللفظين بمختلف الإتجاهات، وليفيد بذلك سعةً في دلالاتهما. فمن هذه الدلالات المقصوده أنّ المقصد من بعث الله للأنبياء والمرسلين أن يُنبّهوا أذهان الناس إلى أنّ خالقهم حيٌّ قيّوم، ويبشّر الذين يسلكون درب التّعرف عليه أنّهم بالغوا هذا المقصد يقيناً وملاقوه. وليلقي خالقنا حُجّته على الناس فلا يعود لأحدهم على الله حُجّة من بعد الرّسل من أنه لم يُعلّم أحداً ولاأعلمه بوجود خالقه في يومٍ من الأيام.

على أساسٍ من هذا الفهم نعود ندرك أنّ بعثة آدم وتعاونيّته قد كانت الخطوة الأولى على طريق إلقاء حُجّه الله على الناس من جهة، ولتحضيرهم بتوجّهٍ من ربوبيّة هذا الخالق نحوهم على مدى الأيام. ألا إنّ قيام تعاونية آدم وإحداث هذه النقلة الكبرى في تاريخ بشر الكهوف، إن دلّت على شيء فقد أشعرت هذا البشر على الأقل بوجود خالقهم وربّهم. أمّا أين يتواجد هذا الرّب الخالق، وكيف، وماهي أسماؤه الحسنى. فهي التساؤلات التي لم تأت بها بعثة آدم عليه السلام لسببين رئيسيين: الأول أن عقل بشر تلك الفترة من الزّمان ماكان يملك امكانيات بحث هذه الأمور. والسّبب الآخر هو مهمّة آدم نفسه فقد انحصرت في إحداث هذه النقلة النوعية وهذا الانقلاب الكبير فقط في حياة سكان الكهوف. حتى وأنّ ذاكرة آدم نفسه كانت مازالت بدائية ودليلنا هو قول ربّنا عزوجل بحقّ آدم: ﴿**فنسي آدم ولم نجد له عزماً**﴾. يعني أنّ ضعف ذاكرته كانت عُذره فيما بدر عنه من خطأٍ غير متعمّد. ولاينبغي للقارئ استغراب هذا الأمر. بل لاتزال هناك بعض القبائل المتخلّفة في بقاعٍ من أفريقيا يشكون ضعف ذاكرتهم. وهذا الأمر احتوته مؤلفات كثيرٍ من الباحثين.

٣- أول مُشاعةٍ تعاونية

لاحظنا أنّ آدم كان مُنظّماً، وليس نبيّاً مُشرّعاً بالمفهوم المُتعارف عليه. فكل ماقام به آدم هو قيامه بتأسيس أوّل مُشاعةٍ تعاونيّةٍ خارج الكهوف في منطقتنا، ولأوّل مرّة في تاريخها، و لم تتجاوز مُقوّمات هذه التعاونية إيجاد قيادةٍ سياسيةٍ لها تشرف على التعاون على بناء مساكن لأفرادها، لتعليمهم الزراعة والرّي ولتنظيم أمر معاشهم وشربهم ولباسهم وبشكلٍ تعاونيّ. و لم يطالب آدم هؤلاء المؤمنين لابصلاةٍ ولابصيامٍ ولابسواها من العبادات.

والمعلوم هو أنّ لكّل خطوة نتائجها، وقد أسفرت خطوة تأسيس هذه التعاونيه عن شعور بشر يومئذٍ أنّ كلّ شيءٍ على سطح هذه الأرض هو مُسخّرٌ من أجل الإنسان ، ومباحٌ له استغلاله والاستفادة منه. وقد سبق أن وضّحت أنّ الآثار التي تركها سُكّان الكهوف وضّحت للباحثين أنّ أدوات البشر قبل عشرة آلاف عام والتي كانوا يستعملونها كانت قد تعدّدت من أجل طبخهم وصيدهم ووسائل تدفئتهم حتى وأن معالم الفنّ قد بدت آثارها على جدران الكهوف، حتى أنّ فنّ نحت رؤوسٍ مشابهةٍ لرؤوس بعض الحيوانات قد نما، وترك بعض فنانيهم مانحتوه أيضاً، فالبشر يومئذٍ أمسوا مؤهّلين عمليّاً لاستغلال خيرات هذا الكوكب الأرضي، وكانت تعاونية آدم قد فتحت لهم هذا الباب على مصراعيه. وزالت بذلك معالم آثار الحياة الرّتيبة الواحدة التي كان يسير عليها البشر داخل الكهف طوال عصوره الحجرية القديمة وبدأت تظهر معالم نشاطٍ غير عادي وعلى مختلف صُعُد الحياة. خصوصاً وأن انقسام هؤلاء إلى فريقين: فريق آمن وفريق كفر برسالة آدم، فقد أوجد هذا الانقسام روح المنافسة بين أفراد الفريقين.



الفصل الثالث
نتائج تولّدت عن هذه المشاعة :

١- منافسة بين الذّريتين: و الآية (٢٠) من سورة الحديد وضّحت معالم تلك المنافسة المذكورة من خلال قوله تعالى : ﴿**اعلموا أنّما الحياة الدّنيا لعبٌ ولهوٌ وزينةٌ وتفاخرٌ بينكم في الأموال والأولاد، كمثل غيثٍ أعجب الكفّار نباته، ثم يهيج فتراه مُصفّراً، ثم يكون حُطاماً، وفي الآخرة عذابٌ شديد ومغفرةٌ من ا لله ورضوان، وما الحياة الدّنيا إلاّ متاعُ الغرور**﴾. فالمنافسة حدثت على مرّ السّنين بين البشر يومئذٍ في مجالات اللعب واللّهو واستغلال خيرات الأرض واستعمارها وفي بناء المساكن والتفاخر بالأموال والأولاد، وعلى حين امتازت ذُرّية آدم بالتضحية ببعض حُرّياتها الشخصية في سبيل الإبقاء على كيانهم الرّوحي الجماعي. فقد اندفع أصحاب الطبائع النارية من ذُرّية إبليس وبدافعٍ من تفكيرهم المادّي المحض، اندفعوا وراء جمع الأموال كما تزعّم الاذكياء الأقلّ منهم ذكاءً ولياقات ومُستغلّين إيّاهم في حقل التفاخر بالأموال والأولاد و بمميّزاتٍ طبقيّةٍ انتهت بهم ليزعموا لهؤلاء الأتباع أنّهم من سلالة الآلهة، وليسوا كبقية النّاس وإن تشابهوا مع غيرهم من الناس في مظهرهم الخارجي، ومُستغلّين لياقاتهم النادرة وذكاءهم الخارق وعِلْمَهم المتميّز وحكمة تدبيرهم للأمور. لينافسوا ذرّية الفريق المؤمن، ظنّا منهم أنّ آدم كان يحمل مايحملونه من امتيازات وقدرات، وأنّ ما زعمه من أنه كان رسول خالقهم كان من قبيل دهائه وذكائه ولاحقيقة وراءه. فراح يترسّخ في ذرّية هذه الطبقة من الاذكياء جيلاً بعد جيل، أنهم يختلفون عمّن سواهم من البشر، وأوهموا سواهم أنهم من سلالة الألوهة وليس من سلالة بقية الناس.

٢- التماثيل كأوّل ظواهر الشرك الجليّ: وقد تولّد عن ذلك في منطقتنا أوّل ظواهر الشرك با لله عزوجلّ. وبدأ فنانوا تلك الحُقب من الزّمان تنحت تماثيل لأولئك الأذكياء الزعماء من أصحاب اللّياقات والوجاهات،

فابتدؤوا بذلك حقل فنّ نحتٍ لم يعتاده الفنانون في حياة الكهوف. وانقلبت هذه التماثيل على مرّ السّنين إلى أصنامٍ يسجد أمامها عامة النّاس وبذلك ظهر الشرك الجلّي بأجلى أشكاله على أيدي ذرّية ابليس في هذه المنطقة من العالم التي لم يكن سُكّانها بالكثرة التي كانت عليه في أواسط آسيا. حيث قامت هناك الحضارة الآرية التي سبق أن تعرضنا لذكرها والتي قامت على فلسفةٍ طبقيّةٍ، وعلى عبادة الأوثان. أي على عبادة تماثيل هذا النفرالذّكي من الناس أصحاب اللياقات الخارقة والذّكاء المُفرط والذين ظنّوا وأوهموا أنهم من سلالة الآلهة. فإن نظر المُحقّق من منظاري هذا الذي وضعته بين يديه بإمكانه أن يدرك بالتالي أنّ تماثيل أفينوس وعشتار وسواها من التماثيل التي يزعم الباحثون أنّها تُمثّل الآلهة، فما هي في حقيقتها إلاّ تماثيل لأولئك النّفر الاذكياء الذين ذكرناهم والذين برزوا على المسرح السياسي في مختلف الأزمنة والأمكنة مُتميّزين عمّن سواهم من النّاس وكأنّهم من سلالة الآلهة.

هذا الطرح الذي طرحته اقتبست معلومته من مصدرين رئيسيين: المصدر الأول هو مانبهتنا اليه الآي من الذّكر الحكيم في مختلف مواضعه وبأسلوبٍ بلاغيٍ رائعٍ متميّزٍ ومعجزٍ أيضاً. والمصدر الآخر هو ماانتهى إليه الباحثون الطبيعيّون وماتضمنته مؤلفاتهم من أبحاث.

٣- **أدلة قرآنية مؤيدة :** ذلك أنّ القرآن الكريم لفت أذهاننا إلى هذه المعلومة في الآية (٢٦) من سورة نوح، وفي الآية (١٦٣) من سورة النّساء، فليراجع القارئ مانقله ربّنا عزوجل على لسان نوح حيث أورد هناك : **﴿قال نوحٌ ربِّ إنّهم عَصَوني واتّبعوا من لم يزده ماله وولده إلاّ خساراً. ومكروا مكراً كُبّاراً، وقالوا لاتذرُنّ ودّاً ولاسُواعاً ولايغوث ويعوق ونسراً. وقد أضلّوا كثيراً ولاتزد الظالمين إلاّ ضلالاً﴾**. وكأنّ نوحاً قد قال هنا وبألفاظ أخرى تحمل دلالات ماصرّحت به وأشرت إليه .

أي أنّه قال ياإلهي، يامن أشرفْتَ على تربيتي وإعدادي منذ نعومة أظفارى لتكلّفني برسالة إحداث انقلابٍ عظيمٍ في هذا المجتمع الغائص في مُستنقع الشرك با لله، إنّ قومي هؤلاء (اتّبعوا) بمعنى أسلموا قيادتهم من حيث واقعهم الذي يعيشونه أسلموها إلى الأثرياء منهم (الضالين) السّائرين على طريق الهلاك هؤلاء الذّين لم يزدهم مالهم وولدهم إلاّ خساراً،أسلموها إلى هؤلاء الماكرين

الذين خدعوهم وأوهموهم أنّهم مـن سلالة الآلهـة وأرباباً مـن دون ا لله تعـالى، فصرفوهم بذلك عن تحقيق المقصد من وجودهم في هذا العـالم الدنيـوي فمكـروا بذلك مكراً كُبّاراً. فقد أكّد هؤلاء الماكرون على أتباعهم ألاّ يدعوا هذه التماثيل التي تُمثّل أبرز شخصيّات السّلف من الماكرين وعلى أنها آلهة من دونـك يـاربّي، على حين أنّها تماثيل صنعتها أيدي بعض النّحاتين ولتمثّـل أبـرز قيـاديّيهم هـؤلاء الذين اشتهروا بأسماء: وُدّاً وسُواعاً ويغوث ويعوق ونسراً.

فنوح عليه السّلام ناجى ربّه شاكياً هـذا النّفـر مـن ذريـةٍ إبليـس الذيـن كفروا به من قومه الحائدين عن الطريق الذي اختطّه آدم عليه السلام فعدلوا عـن الصراط المستقيم إلى الشرك با لله وعبادة الأصنام التي نحتتها أيديهم لهذا النّفر مـن أصحاب اللّياقات النادرة والذكاء الخارق والعلم المادي المتميّز والحكمـة والتدبـير في تصريف أمور رعيّتهم. هذا النّفر الذي أوهم العامّة في ذاك الزّمان الغابر ومنـذ ألوف السنوات ومن قبل بعثة نـوح أنّهـم منحـدرون مـن سُـلالة الآلهـة، و أنهـم يتّصفون بصفة أصحاب رسالاتٍ في مواجهة ماقدّمته رسالة آدم عليه السّلام مـن انجازات عظيمة لاتزال البشرية تمتّن لها عملياً.

وعليه فإن جُمُلات هذه الآيات الكريمة من سورة نوح والتي آتينـا علـى ذكرها حملت إلينا حقائق تاريخية بارزة تُعين الباحث على فهم تاريخ البشر مابين زمن بعثة آدم وبعثة نوحٍ عليهما السّلام ، فالأمر الأهم ضمن هـذه الحقـائق الـتي شرحتها الآية المذكورة كان لتوجيه أنظار الباحثين إلى الأصل الـذي نشـأت عنه عبادة الأصنام المنحوتة علـى شـكل رجـالٍ أو نسـاءٍ اشـتهروا بـين قومهـم بهـذه الصّفـات المتميّزة الـتي ذكرناهـا، أي أنّ ظّـاهرة الشّـرك بـا لله تعالى كـانت قـد استأصلت زمن نوحٍ عليه السّلام في نفوس العامة في زمنه ، الأمـر الـذي صدّهـم عن أن يستجيبوا لرسالة نوح عليه السلام، هذا الذي رفـع شـكواه بسـبب ذلـك إلى خالقه الذي اصطفاه رسولاً لاستئصال جذور الشـرك هـذه بصـورةٍ جذريـة. فهذه الآيات الكريمة نظّرت للباحث المـرض الحقيقـيّ الـذي استشـرى داؤه زمـن بعثة نوحٍ عليـه السـلام. وقـد علِمْنـا أنّ المهمّـة الأساسية لبعثـات جميـع الأنبيـاء والمرسـلين تـدور حـول كونهـم ﴿**مُبشّـرين ومنذريـن**﴾ مُبشّـرين بوجـود الإلــه الحقيقي، فهم أعلام انقلاباتٍ روحيـةٍ ، ومنذريـن المنحرفـين والضّـالين عـن هـذا الصراط بالعقاب الذي ينتظرهم في الدنيا ويوم الدّيـن. فصحيـح أنّ ا لله عزوجـلّ

خلق الإنسان حُرّ التفكير والإرادة ولتقرير مصير نفسه بنفسه، لكن هذه الحرية إذا اصطدمت بهذا الخط العام، المتمثّل في ضرورة القاء حجّة ا الله على عباده من أنه موجود وأنّه فعّال لما يريد، فهناك وعلى تلك الصخرة القويّة من التقدير العام المذكور تتحطّم تلك الحُريّات ويَلقى أصحابها أشدّ العقوبات، ذلك أنّ المُلك لله تعالى وحده وهو الذي يقرّر مسار هذا الإنسان، وليس الإنسان نفسه. وهذه الحقيقة بمجملها والتي تضمّنتها هذه الآيات من سورة نوح على أنّ نوحاً كان قد كُلّف بالقيام بانقلابٍ روحاني كبير. فقد بعثه ربّه لمحاربة ذاك الشرك الجلّي الذي استأصلت جذوره في صدور العامة من قومه وبمكرٍ من زعمائهم المُضلّين. أي أنّ مُهمة نوح المذكورة كانت قد انحصرت في عمليّة تهذيب النّفس البشريّة التي عاصرته، وليس لإنشاء حضارةٍ مادّيةٍ تنافس حضارة هؤلاء الماكرين من ذرية ابليس.

ولنتناول الآية (١٦٣) من سورة النساء والتي سبق لي أن قلت إنّها يُستشفّ منها المهمة الأساسية التي كُلّف بها نوح عليه السلام. فقد قال تعالى في سورة النساء: **﴿إنّا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوحٍ والنبيين من بعده، وأوحينا إلى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داوود زبوراً. ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل، ورسلاً لم نقصصهم عليك، وكلّم ا الله موسى تكليماً، رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على ا الله حُجّةٌ بعد الرسل، وكان ا الله عزيزاً حكيماً. لكن يشهد بما أنزل إليك، أنزله بعلمه، والملائكة يشهدون، وكفى با الله شهيداً، إنّ الذين كفروا وصدّوا عن سبيل ا الله قد ضلّوا ضلالاً بعيداً﴾**.

وأوّل مانتساءله كمتدّبرين لهذه الآيات هو: لماذا لم يبتدئ ا الله عزوجلّ الآية بذكر آدم، وابتدأ بذكر نوحٍ المبعوث من بعده بمدّة ليست بالقليلة؟ أقول يُستنبط الجواب على تساؤلنا هذا من خلال حرف التّشبيه ودلالته. فلابدّ في موضوع التّشبيه من توفُّر عناصر ثلاثة المُشبّه والمُشبّه به وموضوع التشبيه نفسه. فلو قال تعالى **﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى آدم ونوح﴾**.. فلا يصّح التشبيه هنا لعدم تشابه موضوع الشبه بين رسالة آدم ورسالة محمد خاتم النبيين (ﷺ). فآدم كان منظّماً و لم يأت بشرع على شاكلة مـاأتى به سيد المرسلين. وأمّا نوح فيصح له كاف التشبيه على اعتبار أنّه كان أول نبي مشرّع وقد استند

تشريعه إلى توحيد الله تعالى ومحاربة الشرك الجلّي الذي كان قد استشرى مرضه بين قومه عليه السّلام. لذلك فقد كان حال قوم نوح يستدعي من الخالق بعث نبي مشرّع وليُحدث انقلاباً روحانياً عظيماً، وسط هذا القوم الذي ضلّ عن صراط ربّه وتاه في أوحاك مستنقع الشّرك الجلّي.

ثم إنّ الحقيقة الثانية التي دلّتنا عليها هذه الآيات هو أنّ عذاب الطّوفان الذي حلّ بقوم نوح ساعد على دوام شرعه الذي بعثه الله تعالى به قُرابة ألف إلا خمسين عاماً. وأنّ الله عزوجلّ قد بعث أنبياء خدّاماً لشرع نوح ضمن المُدّة المذكورة، إنّما أعرض جل شأنه عن ذكر أسمائهم لكونهم مجدّدين تابعين. هذه المعلومة دلتنا عليها الألفاظ (كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده. هؤلاء الأنبياء الذين بعثهم الله تعالى مابين بعثة نوح وبعثة ابراهيم عليه السلام). لذلك نلاحظه تعالى أتى بالواو العاطفة بعد ذلك وأضاف يقول: ﴿**وأوحينا إلى ابراهيم واسماعيل..**﴾. وقد وضّح جلّ شأنه موضوع قوله ﴿**والنبيين من بعده**﴾ أي الذين أرسلهم بعده نوح وقال: ﴿**ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل**﴾ اشارة إلى ابراهيم ومن ورد ذكر اسمه بعده مباشرةً ، وأضاف: ﴿**ورسلاً لم نقصصهم عليك**﴾ إشارة إلى هؤلاء الرّسل الذين مابين نوح وابراهيم عليهما السّلام. وبهذا الأسلوب البلاغي المعجز يكون جلّ شأنه قد فسّر لنا قوله تعالى الوارد في الآية (١٤) من سورة العنكبوت: ﴿**ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنةً إلاّ خمسين عاماً، فأخذهم الطّوفان وهم ظالمون**﴾. فلم يأخذ الطوفان قومَ نوحٍ حين وفاته بل في حياته . وهو قد عاش بعد الطوفان أيضاً ليكمل رسالة ربّه ويهذّب ويعلّم الذين نجوا معه من عذاب الله الشديد، فإذا تناولنا هذه الآيات الكريمة مجتمعة، تصير قرائن بين أيدي المتدبّرين لكتاب الله العزيز، تنبّه إلى أنّ المراد من ﴿**فلبث فيهم ألف سنة إلاّ خمسين عاماً..**﴾ أي لبث شرع نوحٍ وليس نوحاً نفسه، وقد أخطأ هنا المفسرون القدماء فلم يفطنوا إلى ماذكرناه، وظنّوا أن نوحاً عاش ألفاً إلا خمسين عاماً، وكأنّ نوحاً قد كان تركيب جسده يختلف عن تركيب أجسادنا. فخطؤهم المذكور أساء كثيراً إلى القرآن الكريم من حيث مخالفته المعطيات العلمية والواقع المنظور بهذا التّفسير .

والحقيقة الثالثة التي نبّهت إليها هذه الآيات الكريمة تضمّنها قوله تعالى: ﴿**وكلّم الله موسى تكليماً**﴾. فما الداعي لهذا الاختصاص وإلىاعطاء اللّه تعالى

هذه الميّزة لموسى في هذا المقام إلاّ أن يكون القصد من ذلك أنّ الله تعالى كلّم موسى بجميع طرق كلامه مع عباده، وليس كالذين سبقوه من العباد فقد كان يوحي إليهم بوحي الإشارة وبوحيٍ من وراء حجاب؟ وعلى ضوء هذه الحقيقة ندرك قيمة الوصايا العشر التي اختصّ الله تعالى بها موسى، فهي وحي كلامٍ مباشر لذلك أمر الله تعالى موسى أن يدّون هذه الوصايا على ألواح. وظلّت هذه الوصايا العشر أساس كل ماأتى به أنبياء بنو اسرائيل من بعده.

والحقيقة الرّابعة التي نبّهت إليها هذه الآيات الكريمة من سورة النساء إبرازها لصفتي الله ﴿العزيز الحكيم﴾ أي أنّ الإله الذي يتّصف بهاتين الصّفتين يستحيل عليه إهمال أمر عباده، فلا يبشّرهم بوجوده ولاينذرهم بعذابه. ولهذا السبب نفسه ورد قوله تعالى هنا: **﴿رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للنّاس على الله حُجّة بعد الرسل، وكان الله عزيزاً حكيماً﴾**. وكأنه جل شأنه قد نبّه أذهاننا من خلال قوله هذا إلى أنّ الله تعالى أرسل جميع هؤلاء الرّسل الذي أورد أسماءهم وأولئك الذين أهمل ذكر أسمائهم، قد بعثهم الله تعالى جميعهم بقصد إثبات وجوده، وتبشير عباده إلى أنّ باب معرفته وقربه ورضوانه مفتوح على مصراعيه، لذلك فلا يحق لأحدٍ من الناس الاحتجاج يوم القيامة على خالقه ويقول: مابعث الله أيّ رسول في حياتنا الدّنيا، ولا أطلعنا على وجوده لذلك فلايحق لله محاسبة أحدٍ على أعماله وشركه با لله عزوجل.

والحقيقة الخامسة التي أفادتنا بها هذه الآيات من سورة النساء التأكيد لنا على أنّ الله عزوجلّ لم يُنزل أي كتاب قبل هذا القرآن الكريم الذي هو بين أيدينا،مشابهاً له بلفظه ومضمونه، بل كان ينزل الكتب السّماوية السابقة وحياً مباشراً ومُتضمّناً العلوم المختصّة بأزمنة إنزال تلك الكتب على اعتبار أنّ تعاليمها كانت مرحليّة ومختصّة بأقوامٍ وأزمنةٍ محدودة.ومشافهةً لذلك ماكان يأمر بتدوين ما يتلقاه النّبي من وحيها على حين أنّ هذا القرآن الكريم إن هو إلاّ كلام الله نفسه الذي أوحاه إلى عبده محمد رسول الله (ﷺ)، وقد اشتمل هذا القرآن على علم الله الذي لاتقف دونه حدود، فهو كتاب بحرمن العلوم زخّار، ولاينفذ إلى يوم الدين. هذه الحقيقة الخامسة تضمّنها قوله تعالى **﴿لكن الله يشهد بما أنزل إليك، أنزله بعلمه، والملائكة يشهدون، وكفى با لله شهيداً﴾**.

والحقيقة السادسة الواضحة التي أشارت إليها هذه الآيات الكريمة تضّمنها قول الله عزّوجلّ: ﴿**إن الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله قد ضلّوا ضلالاً بعيداً**﴾. وقد أشار تعالى بلفظ (كفروا) هنا إلى أهل الكتاب يهوداً كانوا أو نصارى، فهذا مايحدّده التّسلسل الموضوعي لهذه الآيات الكريمة، أي أنّ الذين كفروا من هؤلاء بهذه الحقائق التي تضّمنتها هذه الآيات الكريمة ﴿**قد ضلّوا**﴾، مؤكّداً جل شأنه ذلك بالحرف (قد) أي أنّ هؤلاء إن رفضوا هذه الحقائق وتنكرّوا لها ﴿**قد ضلّوا**﴾ أي يكونون قد عدلوا وجاروا عن الطريق المستقيم متعمّدين. وأي ضلال هذا؟ ﴿**قد ضلوا ضلالا بعيداً**﴾ أي بعيدة آثاره المستقبلية. وهذه إشارة خفيّة إلى ماتحدّثت عنه سورة الكهف والى إنذارها هؤلاء بما أنذرته.

وزبدة الكلام هو أن هذه الآيات من سورتي نوحٍ والنّساء نبهّت الباحثين إلى أنّ هذا النّفر من أصحاب اللّياقات النادرة والذكاء الخارق والعلم المادّي المتميّز وقد شكلّوا ذرّية إبليس الذي وسوس إلى آدم وأزلّه ، وقد حاول هذا النّفر منافسة فريق المؤمنين من ذريّة آدم، وأقبلوا على متاع الدنيا يُطوّرونه، وأنشؤوا حضارةً شكّلوا فيها طبقةً ممتازةً عن العامة وعلى أنها من سلالةٍ غير سلالتهم ولها صفة الألوهة: في المدارك والامكانيات والذكاء وعلى أنّهم من سلالة الآلهة، فاشتهرت بذلك تماثيل :[ودّاً وسُواعاً ويغوث ويعوق ونسراً]، كآلهةٍ تمثّل الإله في نظر الذين هم من سلالته، وظهر بذلك الشّرك بالله تعالى جليّاً وعلى أبسط أشكاله، ومن ثم بدأت عبادة الأصنام.

وقد صوّرت لنا الآية (٢٣) من سورة المؤمنون أعداء نوح عليه السّلام، فحصرتهم في هذا النّفر من ذرّية إبليس حيث ورد فيها قوله تعالى: ﴿**ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه، فقال ياقوم اعبدوا الله، مالكم من إلهٍ غيرُه أفلا تتقّون**﴾ فالطلب الذي طلبه نوح من قومه هو أن يدعوا عبادة هذه الأصنام، فيخشون الله وحده. وأضاف تعالى يقول: ﴿**فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلاّ بشرٌ مثلكم يريد أن يتفضّل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة، ماسمعنا بهذا في آبائنا الأولين. إنْ هو إلاّ رجلٌ به جنّة فتربّصوا به حتّى حين**﴾. وكلمة الملأ الواردة هنا تعني الطبقة العليّة من أشراف القوم التي تُبهر العامة بجودة رأيها وبهيبتها وأُبّهتها. فالملأ ذوو شارةٍ محددةٍ على حسب ماأورده صاحب

معجم (محيط المحيط). وهذا النّفر إذ قالوا لأتباعهم ﴿**ماهذا إلاّ بشرٌ مثلكم يريد أن يتفضّل عليكم**﴾ فقد أشاروا بقولهم هذا إلى أن نوحاً هو كبقية العامّة من الأتباع، لاينحدر من سلالة الآلهة على شاكلة هؤلاء النّفر الذين هم من سلالة الآلهة ، وأنَّ نوحاً يدّعي مايدّعيه لأنّه ﴿**يريد أن يتفضّل عليكم**﴾. وا لله الذي انحدرنا منه إن شاء إرسال رسول ﴿**لأنزل ملائكة، ماسمعنا بهذا في آبائنا الأوّلين، إنّ هو إلاّ رجلٌ به جنّة ـ وليس هو برسول ـ أي بعقله لوثه جنون عظمة ـ فتربّصوا به حتّى حين**﴾. أي دعوا أمر نوح للأيّام تكشف لوثة عقله. وبهذه الأساليب الماكرة ضلّلوا الجماهير الرّعية، وأبعدوها عن التّوحيد الذي بعث ا لله تعالى به نوحاً عليه السلام.

٤ـ دليلٌ من قول مؤرّخ :ولايظنّن القارئ أن مااستشفّيته من هذه الآيات فيما يتعلق بالأوثان وهذا النّفر من ذرّيه إبليس يتنافى وتاريخ البشر في منطقتنا. بل إنّ الذي يطالع كتب تاريخ مختلف الأمم وفي مختلف أرجاء المعمورة، سيتبيّن له أنّ جميع الأقوام حدث في تاريخهم القديم ماحدث في منطقتنا من بعد آدم وقُبَيل بعثة نوح.

وعلى سبيل المثال فإنّ مؤلف كتاب (الإنسان الأول) جول كارلس والمترجم إلى العربية والمطبوع في بيروت عام ١٩٨٨م، قد كتب هذا المؤلّف على صفحة ١٤٦ يقول: (يبدو أنّ مُشكلة نوع الإنسان لم تكن لتخطر بالبال كثيراً زمن الإغريق والرّومان، فقد ظنّ الإغريق أنّ لسلالتهم أصلٌ خاصٌ فيه شيء من الألوهة. وأن هذا الأصل يختلف كل الاختلاف على أيّ حال، عن أصل البربر الذين قال أرسطو عنهم بأنّ حرباً يقومون بها لمنع الإغريق من استعبادهم ستكون حرباً غير مُحقّه. فوسط كلّ هذه التشكيكات كانت التوراة تؤكد أنّ جميع اليهود يتحدّرون من ابراهيم، وأنّ كل الناس يتحدّرون من آدم).

فهذه أقوال رجلٍ غربيٍ مجاورٍ لبلاد الإغريق والرومان، وتستند شهادته إلى حقائق تلّمسها، ولامصلحة له في ابتداع مثل هذا الافتراء. وقد سبق لي أن وضّحت أنّ هذا النّفر قد لعب نفس الدور في آسيا وأبدع فلسفة الطبقات . هذه الفلسفة التي تمخّض عنها حضارة الآريّين. فالبشر الأذكياء من أعداء الأنبياء في ذاك الزمن الغابر، والذين سلكوا مسلك إبليس، ضلّلوا شعوبهم مثل هذا التضليل الذي قام به قوم نوح عليه السّلام.

فإن نحن عُدنا إلى الآية (٧١) من سورة يونس حيث ورد: ﴿**واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه ياقوم إن كان كُبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات ا لله، فعلى ا لله توكّلت فاجمعوا أمركم وشركاءكم، ثم لايكن أمركم عليكم غُمّة، ثم اقضوا إليّ ولاتنظرون، فإن توليّتم فما سألتكم من أجر، إن أجري إلاّ على ا لله، وأُمرت أن أكون من المسلمين**﴾، يتضّح لأعيننا أنّ ماحدث من طوفان في زمن نوح، دلّل تدليلاً جليّاً على وجود ا لله الذي أرسل نوحاً مُشرّعاً،ليُعالج ظاهرة الشّرك الجليّ التي كانت استشرت في زمنه . هذا وان ذاك الانقلاب الحقيقي الذي أحدثته بعثة نوح عليه السلام في تاريخ البشر، ماتزال أصداؤه تدوي في كل مكان من هذه الأرض. ذلك أن نوحاً عليه السّلام ابتدأ ا لله تعالى ببعثته حضارةً وتهذيباً أسمى ممّا تحقّق على أيدي آدم ، لاحتواء رسالة نوح على تشريعٍ وقانونٍ ونظامٍ يُلبوّن احتياج عقل أهل ذاك الزمان، الأمر الذي يجزم بأنّ ا لله الخالق هو رب العالمين.

ا لله الذي تتجلّى ربوبيّته في الوقت المناسب وبالتعليم المناسب وبالأسلوب المناسب، وتبدو حينئذٍ ظاهرة اتّصال هذا الإله وتكلّمه مع عباده بجلال مابعده من جلال، من ذلك ندرك أنّ الانقلاب الثاني العظيم الذي حدث على أيدي نوح قد شكّل الحلقة الثانية من سلسلة الانقلابات الروحية التي تُحدثها الأديان في كل مكان.

فقد ظهر في كلّ بُقعة من الأرض مثيل آدم ومثيل نوح كحلقتين أوليتّين على درب الإصلاح الروحاني، كما أنّ ظاهرة نحتِ تماثيل لزعماء سادة الفريق الكافر برسالة آدم عليه السلام هؤلاء الذين أوهموا شعوبهم أنّهم من سلالة الآلهة. إنّ هذه الظاهرة أودت بالناس البدائيين على مرّ الأيام إلى السّجود لهذه التماثيل التي حملت أسماء أولئك السّادة الزعماء الأذكياء. فظهر بذلك شرك جليّ با لله تعالى استدعى منه تعالى أن يبعث نوحاً، ينبّه هؤلاء البشر إلى حقيقة أمر هذه التماثيل ويشدّهم إلى عبادة خالقهم عزوجلّ.

٥ـ بوادر الشّرك الخفيّ : إنّ هذا النّوع من الزّعماء السادة،الأذكياء لم يتعّظوا بطوفان نوح خصوصاً منهم الذين تزعّموا أقواماً أخرى غير قوم نوح كعادٍ وثمود وغيرهم. فقد راح هذا النّفر من الزعماء يدّعمون مراكزهم في أعين أتباعهم بأسلوبٍ فلسفي، فصوّروا لهم أنّ الذي يعبد هذه التماثيل لايعبدها

لنفسها، بل يعبدها كوسيلةٍ تقرّبه من خالقه الحقيقي الذي لايرونه، أي تقرّبهم زُلفى من الله عزوجل. فخدعوا هؤلاء الأتباع البسطاء التّفكير ورسّخوا بذلك أقدام هيمنتهم على تلك الجماهير التي لم يمض على هجرها كهوفها وحياة توحشّها ألوف السّنوات. هذه المدّة التي لاتكفي لإنضاج عقل الفرد من هؤلاء البشر، ليتصرّف بإرادته وحرّيته وليقرّر مصيره بنفسه، فطبقة أصحاب اللياقات والذكاء النادر من زعماء تلك الفترة من الزّمان استغلّوا ضعف عقول أتباعهم يومذاك وجاؤوهم بهذه الفلسفة المبتدعة التي أسلفت ذكرها ، وانقلب الناس يعبدون هذه التماثيل التي تنحتها أيدي فنّانيهم على أنّها تُقرّبهم زُلفى من ربهم عزّوجلّ وتفشّت بذلك ظاهرة الشرك الخفي إلى جانب ظاهرة الشرك الجلّي. والمعلوم تاريخيّاً أنّ ظاهرتي الشرك هذه امتدت أظلالها إلى زمن بعثة محمد خاتم النبيين (ﷺ).

إنّ تعاليم نوح عليه السّلام ماعادت تكفي لقمع ظاهرة الشرك الخفيّ المذكوره ، فقد كانت تعاليم رسالة نوح تدور حول ضرورة تجنّب المؤمن السجود للأصنام مع إلمامٍ بسيطٍ بمبادئ التّوحيد، وبما يتناسب مع نوعيّة الشرك التي ظهرت إلى زمن نوح، أمّا وقد ظهر شركٌ خفيٌ مُدعّم بفلسفةٍ أيضاً، فقد اقتضى ذلك الأمر بعث نبيٍ كابراهيم عليه السّلام وبفهمٍ توحيديٍ أسمى وبأدلّةٍ أعظم لتفنيد دقائق هذا الشرك الفلسفيّ الذي انتشر من بعد الطّوفان وتبلور في زمن بعثة ابراهيم عليه السلام، ولاأقصد أنّ توحيد نوح يُغاير توحيد ابراهيم، بل أقصد الاختصاص الذي اختصّ به ابراهيم. واضرب على ذلك مثلاً فإنّ ربّة المنزل تعرف استعمال الإبرة. إنّما السيّدة التي برعت في استعمال هذه الإبرة يُقال لها خيّاطة أيضاً. فهذه تخيط وهذه تخيط ولكن الأخرى أفلح في مجال هذه الخياطة.

وعليه فإنّ بعثة ابراهيم عليه السّلام رافقها التّسلح بالأدلة التي تفنّد الشرك الخفيّ المتمثّل في الفلسفة التي روّجتها ذرّية إبليس من أولئك النّفر من الزّعماء السياسيّين الذين تزعموا أقوامهم من بعد طوفان نوح. وإلى هذه الحقيقة أشار قول الله تعالى في الآية (١٢٣) من سورة الأنعام: **﴿كذلك زُيّن للكافرين ماكانوا يعملون. وكذلك جعلنا في كلّ قريةٍ أكابر مجرميها ليمكروا فيها، ومايمكرون إلاّ بأنفسهم ومايشعرون﴾**. فقد ذُكر هؤلاء النّفر من السياسيّين من

خلال لفظي (أكابر مُجرميها) وأتى تعالى بلام العاقبة وقال ﴿**ليمكروا فيها**﴾ أي ليخدعوا أتباعهم حفاظاً على مكانتهم بينهم.

وراح جلّ شأنه فصّور حال هؤلاء العامّة البسطاء المخدوعين بقوله في الآية (٦٧) من سورة الأحزاب وقال: ﴿**إن ا لله لعن الكافرين وأعدّ لهم سعيراً، خالدين فيها أبداً لايجدون ولياً ولانصيراً. يوم تُقلّب وجوههم في النّار يقولون ياليتنا أطعنا ا لله وأطعنا الرسولا. وقالوا ربّنا إنّا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلّونا السبيلا. ربّنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهمْ لعناً كبيراً. ياأيّها الذين آمنوا اتّقوا ا لله وقولوا قولاً سديداً. يُصلح لكم أعمالكمْ ويغفرْ لكم ذنوبكم، ومن يُطع ا لله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً.**﴾. فنحن بغضّ النّظر عن أنّ هذه الآيات الكريمة متعلّقة أصلاً بأهل الكتاب وبمصيرهم القادم المحتوم. فقد حملت لنا هذه الآيات قول هذه الجماهير قديماً وحديثاً وهو: ﴿**وقالوا ربّنا إنّا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلّونا السّبيلا**﴾. بمعنى أنّ هذه الجماهير لاتتفحّص كلّ كلمةٍ ينطق بها حُكّامهم وزعماؤهم بعقلٍ نيّر، بل إنّ هؤلاء النّاس يسيرون على دين ملوكهم دون تروٍ ولاتمحيص. بسبب تخلّف عقولهم بصورة عامة من جهة، وبسبب مكر سادتهم هؤلاء وأساليب خداعهم التي يخدعونهم بها من جهةٍ أخرى.

ثم إنّ ا لله عزوجلّ لخصّ فلسفة الشرك الخفي التي أتيت على ذكرها في الآيات الأوائل من سورة الزّمر وقال: ﴿**ألا لله الدّين الخالص**﴾. أي الخالص من شوائب الشّرك الخفيّ وأضاف يقول ﴿**والذين اتّخذوا من دونه أولياء مانعبدهم إلاّ ليقربونا إلى ا لله زلفى**﴾ أي أنّ هؤلاء المشركين الذين اعرضوا عن ولاية ربّهم لهم، واتّخذوا من دونه أولياء فهؤلاء السادة أولياؤهم لقّنوهم فلسفة الشّرك الخفي الذي ابتلوا به، فلقّنوهم عبادة هذه الأصنام على أنّها وسيلةً تقرّبهم من ا لله زُلفى.

وأضاف تعالى يقول: ﴿**إنّ ا لله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون، إنّ ا لله لايهدي من هو كاذبٌ كفّار**﴾. أي لن يكتب ا لله تعالى الهداية للذي هو كاذبٌ في فلسفته هذه ومخادعٌ ماكرٌ كفّارٌ بنعمة ربّه عزّوجلّ.

من هذه الآيات ندرك أنّ الشّرك الجلّي الذي عاصر زمن بعثة نوح عليه السلام، دُعّم بفلسفةٍ قلبته إلى شرك خفّيٍ اقتضت من ا لله تعالى إرسال ابراهيم

عليه السّلام لتفنيد هـذا النـوع الجديـد مـن الشّرك، ولتحرير عقيـدة التوحيـد منهاولتدعيمها بالحجج والبراهين.

على اعتبار أنّ العقل البشري قد بلـغ زمـن ابراهيـم مرحلـةً مـن النّضـج تؤهله لتقبُّل وفَهْم هذا التّوحيد الخالص من جميـع شـوائب الشـرك والـذي بُعث لإظهاره ابراهيـم عليه السـلام، ولكيـلا يبقـى للنّاس حجّـة علـى ا لله بعـد بعثـة ابراهيم. فالوثنيّة الفلسفيّة التي تفشّت بعد الطوّفان في مختلف الأقوام كعـاد وثمود وغيرهم. هذه الوثنيّة التي غاير طابَعُها طابَعَ الوثنيّة التي عـاصرت زمـن نـوح، إنّ ظاهرة الوثنيّة الفلسفيّة هذه، اقتضت كما ذكرت إرسال ابراهيم بديـن توحيـديّ في موازاة تلك الظاهرة وبتعاليم توحيديّة تُناسب المرحلة التي كـان يمـرّ بهـا عقـل هذا الإنسان رقيّاً ونضوجاً. هذا وإنّ جميع الأنبياء من بعد إبراهيم كانوا يحملـون نفس التّوحيد الابراهيمي إنّما برياضاتٍ روحيّةٍ وأدلّةٍ أكثر رُقيّاً ممّا أتى به ابراهيم إلى أن أنزل ا لله عزوجل هذا القرآن العظيـم بـأكمل تعـاليم التوحيـد والعبـادات والأدلّة والحجج والبراهين.وعليه أصبح بإمكاننا أن نُدرك سرّ تسمية إبراهيم" أبـو الأنبياء "على حين يُسمّى آدم بإسم" أبو البشر".

فإن تدبّر القارئ آي الذكر الحكيم من زاوية النظر التي قدّمتها، يلاحـظ امتيازاً امتاز به ابراهيم و لم ينل شرف امتيازه هذا آدم ولانـوحٌ مـن قبلـه. وهـذا الامتياز تضمّنه الآية (١٢٠) من سورة النحلّ التي ورد فيها: ﴿**إنّ ابراهيـم كـان أمّةً، قانتاً لله حنيفاً، وماكان من المشركين**﴾. فلماذا وردت فقرة ﴿**وماكان من المشركين**﴾التي اختصّ بها ابراهيم حـين يـرد ذكـره في كتـاب ا لله العزيـز، علـى حين لم يختصّ بها أحدٌ من الأنبياء الذين بعثهم ا لله تعالى مـن قبلـه كـآدم ونـوح عليه السّلام؟ الجـواب المختصـر هـو أنّ الشّرك الخفـي ماكـان منتشـراً زمـن آدم ونوح. بل انتشر هذا النوع من الشّرك الخّفي الفلسفيّ زمن ابراهيم، وقد برأ ا لله تعالى ابراهيم من هذا الشّرك الخفيّ الذي ابتلـي بـه قومـه فمـا كـان ابراهيـم مـن هؤلاء بل كان موحّداً ظاهراً وباطناً.

ولنتدبّر ألفاظ هذه الآية التي أوردناها مـن سـورة النّحـل، فقولـه تعـالى ﴿**إنّ ابراهيم كان أُمّة**﴾ فلفظ أمّة يعني الإمام والرجـل الـذي لانظـير لـه ومعلّـم الخير والجامع للخير (تاج العروس) ثم إن كلمة (قانتـاً لله) بمعنـى مُطيعـاً. فقنـت أي أطاع وذلّ ودعا وقـام في الصّلاة وأمسـك عـن الكـلام وداوم علـى الطاعـة

والصلاة (اقرب الموارد)، ثم إنّ كلمة (حنيفاً) من الحنيف أي الصحيح الميل إلى الاسلام الثابت عليه والمائل من دين إلى دين، وجمعه حُنفاء (أقرب الموارد)، ومادام ا لله عزوجلّ قد وصف ابراهيم بهذه الصّفات التي تحمل كُلّ هذه الدّلالات، فلا يُعقل أن يكون من المشركين. فما معنى أن يُضاف على هذه الصّفات فقرة ﴿وماكان من المشركين﴾ إلاّ أن يكون لهذه الإضافة دلالتها الخاصة على نفي الشرك الخفّي أيضاً، هذا الشرك الفلسفي الذي روّجه الماكرون من سادة القوم من ذرية إبليس؟ وكأنّ ا لله عزوجل قال في هذه الآية الكريمة، وبألفاظ أخرى: هاأنّ ابراهيم كان من أصحاب اللّياقات فكان أمّة أي إماماً ومُعلماً الخير وقانتا لله وحنيفاً ومع ذلك لم يزعم لنفسه أيّة صفةٍ من صفات القداسة والامتياز على أحدٍ من البشر من بني قومه، وهذا هو السّبب في أنّ ا لله تعالى خاطب محمّداً (ﷺ) بعد هذه الآية بثلاث آيات قائلاً: ﴿ثم أوحينا إليك أن اتّبع ملّة إبراهيم حنيفاً وماكان من المشركين﴾ ومازاد ا لله تعالىفقرة :[وما كان من المشركين] هنا عبثاً،بل شاء تنبيه أمّة محمد (ﷺ) وبصورة خاصة الى ضرورة تجنُّبها الشرك الخفي والى ضرورة توكّلها على ا لله عزّوجلّ في جميع أحوالها كيلا تفقد هذه الأمّة إيمانها وهداها الذي هداها ا لله تعالى إليه.

ولاينبغي لِلّذي يتلو هذه الآية الكريمة أن يذهب من خلال تلاوته فقرة ﴿أن اتّبع ملّة ابراهيم﴾ أن يذهب مذهب بعض المستشرقين الذين استنبطوا من هذه الفقرة أنّ محمداً (ﷺ) كان نبيّاً تابعاً لجدّه ابراهيم في تعاليم دينه. بل إنَّ المقصود من هذه الألفاظ هو حثّ محمد رسول ا لله على طلب الكمال الذي سعى إليه ابراهيم. أي أن يأخذ بالإطار العام والأسس العامة لدعوة ابراهيم وليس بما جاء به دينه من تعاليم تفصيليّة، ذلك أنّ تعاليم الاسلام هي أكمل هذه التّعاليم.

٦_ **خلاصة حول ظهور الشرك وتطورّه** : ألا إنّ ظواهر الشرك بدأت بعد آدم بأبسط أشكالها، ومن ثم انقلبت إلى عبادة التّماثيل التي ولّدها أبرز الزعماء السياسيّين قُبيل زمن بعثة نوح عليه السلام. ولاشك أنّ قمع تلك الظاهرة يومذاك ماكانت تتطلّب عقلاً ناضجاً وعناءً كبيراً. أمّا حين ظهر الشرك الخفيّ الفلسفيّ الذي نوّهت عنه والذي عاصر بعثة ابراهيم فقد احتاج إلى عقلٍ أنضج وحججٍ وبراهين أدقّ وأقوى لقمعه واقتلاعه من أذهان البشر. لذلك جاءت بعثة

ابراهيم لتحقق هذا الانقلاب الرّوحي الكبير المذكور في حياة إنسان ذاك الزّمان ، وبذلك أضحى ابراهيم عليه السلام عَلماً من أعـلام التّوحيـد الالهـي وأبـاً لجميـع الأنبياء الموحّدين الذين بعثهم الله تعالى من بعده.



الفصل الرابع

أدرك الإنسان مكانته على أيدي ابراهيم :

و لم يتحقق موضوع فلسفة توحيد الذات الالهية على أيدي ابراهيم عليه السلام وحسب. بل إنّ ا لله عزوجلّ حقّق على يديه أمراً آخر وبنفس الأهمية، وهو أن أعطى البشر مكانته السامية بين مختلف المخلوقات، وقد وضّحت لنا تلك الحقيقة الآيات (١٠٢-١١١) من سورة الصافات، حيث ورد دعاء ابراهيم: **﴿ربّ هب لي من الصالحين. فبشّرناه بغلامٍ حليم. فلّما بلغ معه السّعي ـ أي لّما أصبح هذا الغلام الحليم شاباً قابلاً للسّعي وهو اسماعيل عليه السلام ـ قال يابُنيّ إنّي أرى في المنام أنّي أذبحك فانظر ماذا ترى قال ياأبت افعل ماتؤمر ستجدني إن شاء ا لله من الصابرين. فلما أسلما ـ أي أطاع ابراهيم واسماعيل ماأوحى ربهما إليهما من وراء حجاب ـ وتلّه للجبين. وناديناه أن ياإبراهيم قد صدّقت الرؤيا، إنّا كذلك نجزي المحسنين، إن هذا لهوالبلاء المبين، وفديناه بذبحٍ عظيم، وتركنا عليه في الآخرين سلامٌ على إبراهيم كذلك نجزي المحسنين﴾.**

فأوّل مايُلفت نظرنا في هذه الآيات الكريمة أنّ ا لله تعالى اختتمها بقوله: **﴿وتركنا عليه في الآخرين سلامٌ على ابراهيم..﴾**. وهذه الألفاظ تذكّرنا أو إنّ لفظ «الآخرين» خاصّة يُذكّرنا بما استهلت به سورة الجمعة من آيات: **﴿هو الذي بعث في الأميّن رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكّهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة و إن كانوا من قبل لفي ضلالٍ مبين. وآخرين منهم لّما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم﴾**. فالآخرين المنبأ عنهم في هذه الآيات هم جماعة مثيل المسيح كما سبق لي أن وضّحت ذلك بلأدلة ودلالات الفاظ هذه الآيات في (فن الاختزال في القرآن الكريم) ضمن الصفحات (٢٢٦ - ٢٣١). فإن أحبّ القارئ فليراجعها فيه.

ثم إنّ آية ﴿وتركنا عليه في الآخرين سلامٌ على ابراهيم﴾ ماارتبطت ألفاظها بألفاظ آيات سورة الجمعة لمجرّد الصُّدفة، بل وردت هذه العلاقة مصداقاً لدعاء ابراهيم عليه السلام نفسه في الآيات (٨٤) من سورة الشعراء، فقد قال تعالى هناك: ﴿واتل عليهم نبأ ابراهيم، إذ قال لأبيه وقومه ماتعبدون. قالوا نعبُدُ أصناماً فنظلّ عليها عاكفين. قال هل يسمعونكم إذ تدعون. أو ينفعونكم أو يضرّون، قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون، قال أفرأيتم ماكنتم تعبدون، أنتم وآباؤكم الأقدمون، فإنّهم عدوٌّ لي إلاّ ربّ العالمين. الذي خلقني فهو يهدين. والذي هو يطعمني ويسقين. وإذا مرضت يشفين، والذي يُميتني ثم يحيين، والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدّين، ربّ هب لي حُكماً وألحقني بالصالحين. واجعل لي لسان صدق في الآخرين..﴾. فإبراهيم دعا ربّه في هذه الآيات وقال ﴿واجعل لي لسان صدق في الآخرين﴾. وللتّدليل على استجابة الله تعالى دعاءه المذكور الذي دعاء به إبراهيم، فقد أوردت الآيات من سورة الصّافات قول ربّنا عزوجل: ﴿وتركنا عليه في الآخرين سلامٌ على ابراهيم كذلك نجزي المحسنين﴾. وقد أنبأ الله عزوجلّ أنّ هؤلاء الآخرين هم أصحاب مثيل المسيح وذلك في سورة الجمعة ضمن قوله تعالى: ﴿وآخرين منهم لّما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم﴾. وقد شرحت ذلك في (فن الاختزال) ثم إنّ سورة الواقعة التي أنبأت عن مصير «المسيح الدّجال» وما سيحلّ بمعسكره الغربي، وأنبأت: ﴿وكنتم أزواجاً ثلاثة﴾ وهي نبوءة لخّصت ماأوردته سورة الكهف من قبل عن ذي القرنين وعن تأليفه جماعة مؤمنة للخلاص من يأجوج ومأجوج، وهذا ماقصد بقوله تعالى ﴿وكنتم أزواجاً ثلاثة﴾ أي يأجوج ومأجوج، وجماعة الآخرين التي ألّفها مثيل المسيح. وقد حثّنا ربُّنا في سورة الواقعة أن نكون من ﴿السّابقون السابقون﴾، لنحظى بشرف أن نكون ممّن أنبأت عنهم سورة الواقعة ضمن قوله تعالى ﴿ثلّة من الأولين، وقليل من الآخرين﴾.

أعود إلى الآيات من سورة الصّافات، حيث قال: فأوّل مايلفت نظرنا قوله تعالى: ﴿وتركنا عليه في الآخرين سلامٌ على ابراهيم﴾. فوضّحت أنّ هذا ورد استجابةً لدعاء ابراهيم في الآيات من سورة الشّعراء وهو أن الآخرين هم

أصحاب مثيل المسيح وهم الذي أنْبَأَتْ عنهم سورة الجمعة، وكذلك من قبلها سورة الكهف.

فالسؤال الذي يخطر ببال القارئ هنا، هو: هل أنّ إبراهيم كان يَعْلَمُ الغيب حتّى دعا بهذا الدّعاء؟ الجواب على هذا السؤال جدّ بسيط، دلّنا عليه قول ربّنا عزّوجلّ في قصّة آدم المجازية حيث قال هناك: ﴿**وعلّم آدم الأسماء كُلّها**﴾. وكنت وضّحت أن المقصود بلفظ الأسماء معرفاً، هو أسماء أبرز الأنبياء الذين سيبعثهم الله تعالى كحلقات ليكملوا مابدأته بعثة آدم عليه السلام.

هذا ولّما كانت آخر حلقة من هذه الحلقات، هي بعثة محمد خاتم النبيين (ﷺ)، وقد ثبت لدينا أنّ الله تعالى قدّر أن يبعث مثيل المسيح من أمته (ﷺ)، ليقتل هذا المسيح الدّجال الذي أنبأت عن ظهوره سورة الكهف وأجملت موضوع هلاكه سورة الواقعة، علماً بأنّ هذا يحدث مصداقاً لطلب إبليس نفسه وبلسان حاله أن يمهله ربّه إلى زمن «اليوم المعلوم». فاليوم المعلوم هذا هو اليوم الذي أنبأت عنه سورة الواقعة، وهو يوم هلاك المسيح الدّجال، الذي تنتهي بهلاكه الويلات التي تأتّت على أيدي ذرّيّة إبليس. أقول: فقد كان طبيعياً جداً أن يكون ربّنا جلّ شأنه قد أنبأ ابراهيم عليه السّلام عن هذه الأحداث القادمة من بعده، لذلك لاحظناه قد دعا ربّه عزوجلّ وقال في سورة الشعراء: ﴿**واجعل لي لسان صدق في الآخرين**﴾ خصوصاً وأنّ الله تعالى أنبأ موسى ضمن إسرائه الموسوي عن مصير أمته أيضاً. فإبراهيم ماكان يعلم الغيب، إنّما أظهر ربّه عليه هذه الأمور الغيبيّة المتعلّقة بأمّته، وبالآخرين من أمّة المسلمين أصحاب مثيل المسيح فضلاً ومنّةً منه تعالى على ابراهيم عليه السلام.

ولاينبغي للقارئ أن يستغرب ذلك ويظنّ أنّني أزعم أمراً لادليل عليه. لا فليعلم هذا القارئ أنّ هذا الغيب نفسه اطلّع عليه موسى وهارون والياس ونصّت سورة الصّافات نفسها عليه فهو تعالى قال فيها أيضاً: ﴿**ولقد منّنا على موسى وهارون.. وتركنا عليهما في الآخرين سلامٌ على موسى وهارون إنّا كذلك نجزي المحسنين**﴾ كذلك ذكر تعالى إلياس وقال: ﴿**وإنّ إلياس لمن المرسلين.. وتركنا عليه في الآخرين. سلامٌ على إل ياسين إنّا كذلك نجزي المحسنين**﴾.

والأمر الثاني الذي يُلفت أنظارنا فيما تضمّنته الآيات التي أوردناها من سورة الصّافات، هو قول ربّنا عزوجل بحقّ اسماعيل: ﴿وفديناه بذبح عظيم﴾، مُخالفاً بذلك مايعتقده يهود زماننا وهو أن ا لله تعالى افتدى اسحاق بهذا الذبح وليس اسماعيل، زاعمين أنّ اسحاق هو الإبن البكر لإبراهيم عليه السلام.

يضيفون أنّ ا لله تعالى افتدى اسماعيل بضفدعة وليس بذبحٍ عظيم. فما هو دليلُنا على صدق ما أنزله ربّنا عزّوجلّ في كتابه العزيز من أنّهُ تعالى افتدى اسماعيل وليس اسحاق بذبحٍ عظيم؟

الدّليل يُستفاد من نصوص هذه التوراة المعاصرة المحرّفة نفسها. فالذي يثبت منها أنّ اسماعيل هو الإبن البكر، وهو الذي ذهبت به أمّه هاجر إلى أرض الحجاز التي أطلقت التوراة والمؤرخون القدماء عليها اسم أرض فاران، أي الأرض التي فرّ إليها هاجر وابنها اسماعيل، وأنّ نسل اسماعيل لن يُعدّ من كثرته، ففي الإصحاح السادس عشر من سفر التكوين ورد: (وأمّا ساراي امرأة أبرام فلم تلد له. وكانت لها جارية مصرية اسمها هاجر، فقالت ساراي لأبرام: هو ذا الرّب قد أمسكني عن الولادة، أُدخلْ على جاريتي لعلّي أُرزق منها بَنين . فسمع أبرام لقول ساراي ... فدخل على هاجر فحبلت ولّما رأت أنّها حبلت صغُرت مولاتها في عينيها.. فأذلّتها ساراي، فهربت من وجهها، فوجدها ملاك الرّب على عين الماء في البريّة.. وقال ياهاجر جارية ساراي.. ارجعي إلى مولاتك واخضعي تحت يديها، وقال لها ملاك الرّب: تكثيراً أكثّر نسلك فلا يُعدّ من الكثرة، وقال لها ملاك الرب: هاأنت حُبلى فتلدين ابناً. وتدعين اسمه اسماعيل لأنّ الرّب قد سمع لمذلّتك.. فولدت هاجر لأبرام ابناً ودعا أبرام اسم ابنه الذي ولدته هاجر اسماعيل. كان أبرام ابن ستّ وثمانين سنة لّما ولدت هاجر اسماعيل لأبرام. ولّما كان أبرام ابن تسع وتسعين سنة ظهر الرّب لأبرام وتكلّم ا لله معه قائلاً: أمّا أنا فهو ذا عهدي معك، وتكون أباً لجمهور من الأمم. فلا يُدعى اسمك بَعْدُ أبرام بل يكون اسمك ابراهيم، لأني أجعلك أباً لجمهورٍ من الأمم. وأثمرك كثيراً جدّاً وأجعلك أمماً، وملوكٌ منك يخرجون).

فهذا النّص التوراتي المعاصر يفيد عدّة أمور: يفيد أولاً أنّ اسماعيل هو الابن البكر لابراهيم، ويفيد ثانياً أنّ أبرام سُمّي بعد ولادة اسماعيل عن طريق الوحي باسم ابراهيم. ويفيد ثالثاً أنّ ا لله تعالى بشّر ابراهيم أنه سيكون أباً

لجمهور من الأمم، وليس أباً لبني اسرائيل وحدهم، ويفيد رابعاً أنّ نسل هاجر من اسماعيل على حسب ماقال ملاك الرّب: (تكثيراً أكثر نسلك فلا يُعدّ من الكثرة) فها أنّ عدد نسل اسماعيل اضعاف أضعاف نسل اسحاق وبنوا اسرائيل الذين لايتجاوز عددهم حتى الآن العشرين مليوناً في العالم. أمّا العرب من نسل اسماعيل فيتجاوزون مئة مليون نسمة.

وللقارئ أن يعود إلى الاصحاح الثاني والعشرين من سفر التكوين نفسه ليلاحظ التّناقص الواقع مع هذا النّص السابق، والذي يستشم منه تدخّل يد التعصّب الاسرائيلي وتحريفاته، فقد ورد هناك: (فلمّا أتيا ـ أي ابراهيم وابنه اسحاق ـ إلى الموضع الذي قال له الله، بنى هناك ابراهيم المذبح ورتّب الحطب وربط اسحاق ابنه ووضعه على المذبح فوق الحطب، ثم مدّ ابراهيم يده وأخذ السّكين ليذبح ابنه. فناداه ملاك الرّب من السماء وقال: ابراهيم ابراهيم. فقال: ها أنذا، فقال لاتمدّ يدك إلى الغلام ولاتفعل به شيئاً. لأنّي الآن علمت أنّك خائف الله فلم تمسك ابنك وحيدك عنّي، فرفع ابراهيم عينيه ونظر وإذا كبشٌ وراءه ممسكاً في الغابة القريبة. فذهب ابراهيم وأخذ الكبش وأصعده محرقةً عوضاً عن ابنه ونادى ملاك الرّب ابراهيم ثانية من السّماء وقال.. من أجل أنّك فعلت هذا الأمر و لم تُمسك ابنك وحيدك أباركك مباركةً، وأكثّر نسلك تكثيراً كنجوم السّماء وكالرّمل الذي على شاطئ البحر.. ويتبارك في نسلك جميع أمم الأرض..).

فهذا النّص التوراتي المعاصر يفيد عدّة أمور تناقض الأمور الأربعة المستفادة من النّص التوراتي السابق، فهذا النّص يفيد أولاً أنّ اسحاق هو الابن الوحيد لإبراهيم، ويفيد ثانياً أنّ اسحاق هو الذي افتداه الله بالكبش دون تعيين أكان كبشاً سميناً أو كان صغيراً هزيلاً. ويفيد ثالثاً أن نسل ابراهيم من اسحاق سيكون مباركاً وكثيراً كثرة نجوم السّماء وكثرة الرمل الذي على شاطئ البحر. ويفيد رابعاً أنّ جميع أمم الأرض يتباركون من نسل اسحاق الابن الوحيد لابراهيم.

فالقارئ الذي يُطالع هذين النّصين التوراتيين يلاحظ التناقض بين مُعطياتهما صراحةً وبوضوح تام. فإذا كان هذا القارئ غير يهوديّ وكان محايداً وواقعياً، فإنّ هذا القارئ الذي قرأ النّص القرآني من آيات سورة الصافّات

سيميل لتصديق مضمون النّص التوراتي الأوّل يقيناً. ذلك لأنّ ذاك النّص صرّح أن هاجر وابنها اسماعيل هاجرا إلى أرض فاران وهي أرض الحجاز الأمر الذي أثبتناه من قبل.

وهاأنّ نسل اسماعيل تكاثر أضعاف أضعاف تكاثر نسل اسحاق. ولأنّ النّص الأول يثبت منه أنّ اسماعيل هو الابن البكر لابراهيم. فمن أرض الحجاز بعث الله محمداً رسول الله بتعاليم الاسلام وأمره تعالى في هذا القرآن الذي اشتمل على تلك التعاليم، أمره بقوله تعالى: **﴿ثم أوحينا إليك أن اتّبع ملّة ابراهيم حنيفاً وماكان من المشركين﴾** النحل ١٢٣. وبشرّه أيضاً بقوله تعالى: **﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحقّ ليظهره على الدّين كلّه ولو كره المشركون﴾** الصف٩. أي أنّ جميع الأقوام ستؤمن بهذا الرسول الذي هو من نسل اسماعيل وستتبارك به أيضاً. وهذا أمرٌ يُلاحظ المحقّق أنّه يتحقق الآن على أيدي هذه الثّلة من الآخرين من أصحاب مثيل المسيح عليه السلام وهم خُدام محمد سيد المرسلين (ﷺ)، فأين نسل إسحاق الذين لعنه الله بعد بعثة المسيح الناصري واصطلح له اسم «الشجرة الملعونة» في القرآن الكريم في سورة الإسراء؟ أين نسل اسحاق الذي شتّته الله تعالى تحت كلّ كوكب، وعاد اليوم إلى أرض كنعان بحبلٍ من المسيح الدّجال الذي تزعُمُ شعوبُه أنّهم هم النّاس وحدهم من دون شعوب الأرض؟ هذه العودة التي ستكون القاضية عليهم وفق نبوءات سورة الإسراء؟ فإسماعيل هو الابن البكر. أما اسحاق فولدته أمّه سارة في شيخوختها بعد ولادة اسماعيل، من بطن هاجر. يثبت هذا من الاصحاح الحادي والعشرون من سفر التكوين الذي ورد فيه: (وافتقد الرّب سارة.. فحبلت سارة وولدت لابراهيم إبناً في شيخوخته.. ودعا ابراهيم اسم ابنه المولود له الذي ولدته سارة «اسحاق».. وكان ابراهيم ابن مائة سنة حين وُلد له اسحاق ابنُه وقالت سارة قد صنع إليّ الله ضحكاً، كل من يسمع يضحك لي..)، على حين أنّ عمر ابراهيم حين ولد له اسماعيل كان ابن ست وثمانين سنة كما تبّين من النّص التوراتي الأول. وها أنّ القرآن يؤيّد أنّ سارة ولدت اسحاق وهي عجوز. ففي الآيات (٧٠-٧٤) قال تعالى: **﴿ولقد جاءت رُسُلنا إبراهيم بالبشرى.. وامرأته قائمةٌ فضحكت، فبشرّناها بإسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب، قالت ياويلتا**

أألد وأنا عجوزٌ وهذا بعلي شيخاً، إنّ هذا لشيء عجيب، قالوا أتعجبين من أمر الله رحمةُ الله وبركاته عليكم أهل البيت إنّه حميدٌ مجيد﴾.

أعود لأصل الموضوع وأقول إنّ حادثة اسماعيل عليه السّلام توضّح الشعبة الثانية للانقلاب الروحاني الكبير الذي حققّه الله تعالى على أيدي ابراهيم عليه السّلام، فما هي دلالة ﴿**وفديناه بذبحٍ عظيم**﴾؟ولِمَ لَمْ يَقُل جلّ شأنه (وفديناه بكبشٍ كبير).

وحتى يتبيّن لنا الجواب المُقنع، نعود مع القارئ إلى الآية (١٣٢) من سورة البقرة فقد خاطب تعالى فيها ابراهيم: ﴿**إذ قال له ربّه أسلم، قال أسلمت لربّ العالمين**﴾ فالمقصود بكلمة (أسلم) هنا، ليس كما يتبادر منها للذهن أن آمن وكن مُسلماً، بل يأمر الله تعالى ابراهيم أن يتميّز عن قومه فيُسلّم ويسخّر عقله وعمله وذكاءه وجميع قواه لخدمة رسالة ربّ العالمين أي أن يمثّل التوحيد الكامل العمليّ، فينصاع لأمر ربّه في مأكله ومشربه ويقظته ومنامه، ولقد راح الله تعالى ينظر مدى انصياع ابراهيم لأمر ربّه، فأوحى إليه في منامه ومن وراء حجاب هذه الرؤيا التي عبّر ابراهيم عنها ومخاطباً ابنه اسماعيل: ﴿**قال يابنيّ إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى؟**﴾ وأجابه ابنه اسماعيل: ﴿**قال ياأبت افعل ماتؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين**﴾. فلِمَ لم يستغرب ابراهيم واسماعيل ماتضمّنته هذه الرؤيا؟ جوابه أنّهما لم يستغربان ذلك لأن البشر من حولهم كانوا يقدّمون الضّحايا والقرابين لآلهتهم، ولايفرّقون في ذلك بين تقديمهم إنساناً أو حيواناً ضحيّةً وقرباناً. فيضّحون بالفتى أو الفتاة كما يضحّون ببقرة أو شاة. فلا يُعطون لحياة الإنسان من قيمةٍ تمتاز عن حياة الحيوان، لأنّهم يرون أن الإنسان والحيوان يشتركان في المأكل والمشرب والمسعى والتّناسل.

ولقد نجح ابراهيم في استجابته لربّه الذي كان أمره أن أسلم جميع قواك لربّك، لذلك أضاف تعالى يقول: ﴿**فلّما أسلما وتلّه للجبين، ناديناه أن ياابراهيم قد صدّقت الرؤيا - أي نجحت في الامتحان المقصود بها - إنا كذلك نجزي المحسنين**﴾. أي على هذه الشاكلة نمتحن عبادنا المُحسنين التّصرف والاستجابة لأوامرنا. وأضاف تعالى يقول: ﴿**إنّ هذا لهو البلاء المبين**﴾. أي أنّ مثل هذا الإمتحان البلاء يصلح لتمييز المُحسنين عملاً. وأضاف تعالى ثانيةً وقال:

﴿وفديناه بذبحٍ عظيم﴾. أي استنقذناه بذبحٍ عظيم، و لم يقل بكبشٍ كبير، أي أننا استبدلنا مادرج عليه الناس من تضحية للنّفس البشرية استبدلناه بذبحٍ ذا مغزى عظيم أعطى للنفس البشرية مكانتها بين بقيّة المخلوقات.

إنّ كلمة «عظيم» على حسب ماورد في معجم (محيط المحيط) هي نقيض «حقير». كما أنّ كلمة «كبير» نقيض صغير. والعظيم فوق الكبير، ذلك لأن العظيم لايكون حقيراً، أمّا الكبير فقد يكون حقيراً، كما أنّ الصّغير قد يكون عظيماً. إذ ليس كلٌّ منهما ضدّ الآخر. وقد يُطلق العظيم على الأمر المُستعظم عقلاً كما هو وارد في قوله تعالى ﴿وفديناه بذبحٍ عظيم﴾ أي فديناه واستنقذناه بذبحٍ ذي مغزىً مُستعظمٌ عقلاً لدى المتفكّرين، ويتأتّى استعظام هذا الذّبح من جهة أنّ البشر قد أدرك ولأوّل مرة في تاريخه ومن خلال رؤيا ابراهيم عليه السّلام وتأويلها، أنّ البشر مخلوقٌ مكرّم من دون بقية المخلوقات، وتكريمه هذا امتاز به بمبدأ هذا الذبح العظيم.

فا لله عزّوجلّ أشار من خلال هذه الألفاظ ﴿وفديناه بذبحٍ عظيم﴾ إلى الانقلاب الكبير الذي حقّقه على أيدي رسوله ابراهيم عليه السّلام ، كما نبّه عقول هؤلاء النّاس إلى أنّ ربّهم لم يخلقهم عبثاً، بل خلقهم لتحقيق مقصدٍ عظيم من حياتهم ألا وهو أن يتعرّفوا على خالقهم ويسعوا إلى جذب محبته وليفوزوا بقربه ورضوانه. وعلى هذه الصورة تكون رسالة ابراهيم قد أتت بفلسفةٍ لامثيل لها من قبل بعثته عليه السلام. فساعدت فلسفة هذا الإنسان على تصّور عالم ماوراء الطبيعة، وتصّور عالم الآخرة وحياة مابعد الموت.

وعاد هذا الإنسان يستنكر التّضحية بالنّفس البشريّة، إلاّ في حالة الانصياع للقانون الطبيعيّ الذي سنّه الخالق عزوجلّ وهو تضحية الأدنى في سبيل بقاء الأسمى، لذلك أقرّ هذا الإنسان مبدأ التّضحية بنفسه دفاعاً عن دينه. وعلى اعتبار أنّ الدّين هو الذي طوّر عقل هذا الإنسان وكرّمه وفتح له سبيل معرفة خالقه وللتعرّف عليه والفوز بقربه ورضوانه.

فهذه هي دلالة قول ربّنا: ﴿وفديناه بذبحٍ عظيم﴾، دلالتها على أنّ الانقلاب الكبير الذي حقّقه ا لله تعالى على أيدي رسوله ابراهيم، قد تمّثل في إبطال ابراهيم لهذا التّقليد المُتوارث البالي الذي كان لايُفرّق فيه المرء مابين إنسانٍ وحيوانٍ عند تقديم القرابين. وبذلك ربط تعليم ابراهيم مابين وجود البشر ومابين

فلسفة وجودهم الذي ذكرناه. وهذا الإنقلاب الذي قام به ابراهيم عليه السّلام أثبت بصورةٍ عمليّة أنّ رب العالمين، هو الذي كان يدري بالمرحلة المتقدّمة التي كان قد بلغها عقل البشر يومذاك، وأنّه جلّ شأنه، وبصفته ربّ هذا البشر قد بعث نبيّذه إبراهيم ليُحقّق على يديه هذا الانقلاب الكبير وليحفظ للبشر إنسانيّته القائمة على فلسفةٍ ومعنىً ومقصدٍ أسمى، وليدفعه على طريق رُقي لايقف عند حدود، فأين هذه الدلالات القرآنية لهذه الرؤيا، وأين ماوضحته التّوراة المعاصرة فيما أوردناه.

والمهمّ في الأمر هو أنّ هذا القارئ لابدّ أن يكون قد ميّز بين معالم إطار التّوحيد الذي بُعث به نوح عليه السلام، وبين معالم إطار التّوحيد الذي بُعث به إبراهيم عليه السلام، ذلك أن الابتلاءات التي مرّ بها ابراهيم بنجاح لم يُمرّر الله نوحاً بمثلها، لذلك ظهر هذا الفارق بين الإطارين التوحيديّين، فكلّ ماوضّحه القرآن الكريم بما يتعلق بابتلاءات نوحٍ أنّه أمره بصنع السفينة ، للنّجاة . على حين أن الله تعالى أمر إبراهيم أن يذهب بابنه إسماعيل وزوجته هاجر ليتركهما في وادٍ غير ذي زرع من أرض فاران أي في مكة ، أن يتركهما مُتوكّلاً على عون ربّه الذي أمره بذلك الأمر . فلم ينظر في أمر تأمين طعامٍ وشرابٍ هذين معتقداً أن ربّه قد أخذ على عاتقه مسؤولية ذلك . فلما بلغ إسماعيل سنَّ السعي والنشاط ، ابتلى الله تعالى إبراهيم بهذه الرؤيا ليظهر عمليّاً مدى توكّل إبراهيم على ربّه ومدى انصياعه لأوامره . وكان هذا الامتحان بلاءً مبيناً لنفسيّة إبراهيم وحقيقة توكّله على الله الذي اصطفاه لرسالته . ونتيجةً لهذا الفارق الكبير مابين ماابتُلي به نوحٌ وماابتلي به إبراهيم فقد ظهر هذا الفارق الكبير بين إطاري التّوحيد الذي بُعثا به عليهما السلام ، وظهر علوّ مقام إبراهيم على مقام نوحٍ عليهما السّلام روحانيّاً . ولنأت الآن إلى ماتحقّق على أيدي موسى من انقلابات.

الإنقلاب العظيم الذي أحدثته بعثة موسى عليه السلام :

لقد وضّح لنا كتاب الله العزيز الإنقلاب الكبير الذي حققه على يدي نبيّه موسى عليه السلام . فأضاف بذلك أموراً لم تأت بها بعثات آدم ونوحٍ

وإبراهيم . فقد سبق أن تبيّن لنا أنّ ا لله تعالى قد أسس على يديّ آدم أول نظام تعاونيٍّ خارج الكهوف . وأن نوحاً قد فرّق ا لله تعالى على يديه مابين مفهومي الشرك والتوحيد . وأنّ إبراهيم وضّح ا لله تعالى على يديه مفهوم التوحيد الخالص من شوائب الشرك ، فميّز بواسطته مابين المجتمع الإيماني والمجتمع غير الإيماني دون الدخول في بيان الفروق التفصيليّة مابين حالات الكفر ، وحالة الاستسلام فكريّاً وعمليّاً لله عز وجل وعلى جميع صُعد الحياة .

وأقول بألفاظٍ أخرى : إن الذي يستعرض الخطّ البيانيّ لتطوّر عقل البشر ونموّه ، من بعد إخراج هؤلاء البشر من حياة الكهوف ، لابدّ أن يدرك هذا الباحث أن ماأتت به بعثات آدم ونوحٍ وإبراهيم من انقلابات كبرى في حياة هذا البشر ، إنما كانت حقائقها تتناسب وسير هذا الخط البياني . فقد أتت ماحملته تلك الإنقلابات الروحيّة الفكريّة والفلسفيّة بما كان يتناسب مع مستوى النّضوج العقلي للإنسان . أي أن تعاليم كلّ نبيٍّ من الأنبياء الذين ذكرناهم قد خاطبت أفراد كلّ قومٍ في ذاك الزمان كلاً على قدر ماوصل إليه عقله من نضوج. وثبت من خلال ذلك تدخّل ربوبيّة ا لله في الوقت المناسب والزمن المناسب لإحداث التغيير اللازم أيضاً . من هذا ندرك أنّ تعاليم آدم ونوحاً وإبراهيم قد انطوت على ظاهرة تدرُّجٍ عموديٍّ نحو الأفضل، ويُكمل بعضها بعضها الآخر أيضاً .

فإن نحن تدبّرنا كتاب ا لله العزيز من وجهة النّظر هذه ، يتّضح لأعيننا سرُّ ماتضمّنته الآية (٤٢) من سورة هود : ﴿ **ونادى نوحٌ ابنه ، وكان في معزل يابني اركب معنا ولاتكن مع الكافرين . قال سآوي إلى جبلٍ يعصمني من الماء ، قال لاعاصم اليوم من أمر ا لله إلا مَن رحم ، وحال بينهما الموج فكان من المُغرقين** ﴾ . ذلك أن ألفاظ هذه الآية الكريمة قد كشفت لنا حقيقة أن التّعاليم التي كان قد بُعِثَ بها نوحٌ عليه السلام كانت إجماليّة غير تفصيلية شاملة ، فلم توضح علائق الأفراد بالأفراد بل كانت تعاليم نوح تدور حول بيان الفرق بين الشّرك والتّوحيد بصورةٍ عامّة وحذّرت من السّجود أمام هذه التماثيل التي كان قومه عليها عاكفون . ولهذا وقع نوح فيما وقع فيه من دافع عاطفيٍ فنادى إبنه بهذا الدافع وليس بدافع تعليمٍ إيماني . ولذلك عَذَرَهُ ربّه وناداه قائلاً : ﴿ **قال يانوحٍ إنّه ليس من أهلك ، إنه عملٌ غير صالح ، فلاتسألنّ ماليس لك به علم، إنّي أعظك أن تكون من الجاهلين** ﴾ ذلك أن ا لله تعالى وعظ نوحاً ألا

يقف بين يديه ليدعوه طالباً منه تحقيق أمور خارجةٍ عن دائرة ماأطلعه عليه من علوم ، ووعظه بذلك ألا يكون من الجاهلينَ . فلفظ الجاهل ضد العالم . وجهل ضدّ علم (محيط المحيط) أي حذّره الله تعالى ألا يتجاوز في طلباته وأدعيته حدود ماعلّمه الله إيّاه من علوم . أي انّ نوحاً أراد أن يسأل ربّه شيئاً ، فلاينبغي أن يسأل عن أمر لم يُعط الله نوحاً قوّة فهمه . لذلك قال تعالى لنوح ﴿ **قال يانوح إنّه ليس من أهلك ، إنه عمل غير صالح** ﴾ وهذا القول الرباني ورد مجملاً أيضاً ولم يدخل في التفاصيل ، فلم يوضّح كيف لايكون ابن نوح من أهله ، ولاوضّح كيف أنه كان يمثّل عملاً غير صالح . فهذه الحقيقة التي دلّتنا عليها هذه الآية الكريمة عظيمة جداً ، ولم نكن لندركها لولا التعرض لحادثة ابن نوح المذكورة.

كذلك كانت رسالة ابراهيم تدور تعاليمها حول بيان معالم التّوحيد الخالص من شوائب الشرك بأنواعه، فكانت أحكام مواضيعها عامةً غير مفصّلة كما هو في هذا القرآن الكريم ولهذا السّبب فلم يكن الأنبياء من قبل بعثة موسى عليه السّلام يتحرّجون من تزويج بناتهم لغير المؤمنين أو تزوّج غير المؤمنات. والأدلة على ذلك كثيرة في كتاب الله العزيز، ممّا لاحاجة للتبسّط في شرحه في هذا المقام.

١ـ تعاليم موسى قومية شاملة :

وانطلاقاً من هذا الفهم الذي بيّناه، فقد امتازت تعاليم رسالة موسى على تعاليم الرّسالات السّماوية التي سبقتها، أنّها جاءت بتعاليم تشمل جميع نواحي الحياة : سياسياً ومدنياً واقتصادياً وروحياً.. فأمسى المؤمن بموسى يفرّق بين النّظافة والنجاسة، ويعرف حدود تعامله مع حُكّامه ومع الأفراد أمثاله، وتوضّحت للمؤمن طريقته التي يتعبّد بها ربّه ليرضيه وليحصل على محبّته ورضاه، وهذه الأحكام المفصّلة جعلت من موسى قائداً رمزاً، وحاكماً سياسياً، ونبيّاً مُرسلاً، وفي آن واحد، أي أنّ مشيئة الله تعالى اقتضت أن تقدّم للعقل البشري تجربةً روحيةً على هذه المستويات جميعها. تتناسب مع مستوى النضّوج العقلي في تلك الفترة الزمنية. فالضرورة الزمنيّة ومستوى فهم البشر قد اقتضيا يومذاك الجمع مابين تعاليم آدم ونوحا وابراهيم مُضافاً إليها تفصيلاتٍ متعلقةٍ بمختلف صُعُد الحياة. وهكذا أحدثت تعاليم موسى انقلاباً حقيقياً كبيراً ماسبق أن تحقّق على يدي أيّ نبيّ من قبله، وقد شمل هذا الانقلاب الرّوحي النواحي السياسيّة والمدنية والرّوحية في آن واحد، إنما بما يتناسب مع حال قوم موسى وهم بنو اسرائيل.

ففي حين منحت رسالة ابراهيم عليه السلام جسد البشر مكانةً سامية تفضّل بها الإنسان عن بقيّة الأنعام فقد أتت رسالة موسى فوضّحت علاقة هذا الجسد بالرّوح، ففتحت بذلك باب التدّرج على سُلّم الرّقي الروحاني. وهذه حقيقة وضّحتْها ونبّهت إليها الآية (١٥٤) من سورة الأنعام التي قال تعالى فيها: ﴿**ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذي أحسن، وتفصيلاً لكلّ شيء، وهدىً، ورحمة لعلّهم بلقاء ربّهم يؤمنون**﴾ وقد جاءت صياغة هذه الآية مُعجزةً حقّاً وبحاجةٍ للتدبّر وبشكلٍ موضوعي.

فالخطاب في سباق هذه الآية الكريمة كان موجّهاً أصلاً إلى المشركين خاصة، حيث خوطبوا: ﴿**وإنّ هذا صراطي مستقيماً فاتّبعوه، ولاتتبعوا السُّبل فتَفرق بكم عن سبيله، ذلك وصّاكم به لعلّكم تتقون**﴾. ومن ثمّ برّر جلّ شأنه طلبه هذا الذي طلبه من المشركين وقال: ﴿**أو تقولوا إنّما أُنزل على طائفتين من قبلنا، وإن كُنّا عن دراستهم لغافلين**﴾. وأشار بكلمة الطائفتين إلى اليهود والنّصارى وإهمال قريش دراسة مالدى هاتين الطائفتين من تعاليم سماوية.

فالخطاب في السّياق إذن موجّه إلى المشركين، ويحثّهم على اتباع صراط الله المستقيم الذي أنزله ربّهم لصالحهم، وليكونوا من زمرة المتّقين. وهذا الأمر استدعى منه جلّ شأنه تقديم مثال موسى ومحمد صلوات الله عليهما، كمثال يحتذى في تقوى الله تعالى واتّباع صراطه المستقيم. فقال تعالى فيما يتعلّق بمثال موسى: ﴿**ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذي أحسن**﴾ أي أنّ موسى كان محسناً وتقيّاً ومُتبّعاً صراط ربّه المستقيم، لذلك أنعم الله تعالى عليه بالكتاب المسمّى توراة، (تماماً) أي وفقاً لحالة التّقوى التي كان موسى قد بلغها ، فقد كان موسى مُفْعماً بالعصبيّة لقومه . فأشار جلّ شأنه من خلال كلمة (تماماً) إلى أنّ تعاليم التوراة كانت مُنصبغة بصيغةٍ قوميّةٍ موسى نفسه، فلم تكن عالميّة الصبغة ولاكانت تصلح لكل زمان ومكان. فهذا ماأشارت إليه كلمة تماماً في هذا المقام، خصوصاً وأنّ النّحويين وضّحوا أنّ التّام لايعني الكمال بل يحتاج إلى تكميل، فالكمال يكون أمراً زائداً على التمام، لأنّ التمام يقابل نقصان الأصل ولايقابل الكمال. أمّا الكمال فيقابل نقصان الوصف بعد تمام الأصل، فهذا ماورد في معجم (محيط المحيط)، وهكذا تكون كلمة (تماماً) دالّةً على انحصار تعاليم التوراة في نطاق إصلاح بني اسرائيل من دون سائر الأمم ونفي أن تكون تعاليم التوراة

عالميّة الصّبغة والغاية. أي أنّ تعاليم التوراة هي (تماماً) بما يلائم الوضع القومي لقوم موسى - وهي تعاليم ناقصة الوصف وبحاجة إلى التكميل لتصبح ذات صفةٍ عالميّة. وهذا هو سرّ أنّ التوراة تخاطب قوم موسى وحدهم من دون سائر الأقوام المجاورة، على حين أنّ تعاليم القرآن الكريم الذي أنزله الله جلّ شأنه على محمّد خاتم النبيّين خاطب الناس كافةً يهوداً ونصارى وقريشاً وسواهم من الأقوام لقوله تعالى: ﴿**قل ياأيها الناس إنّي رسول الله إليكم جميعاً**﴾.

والله تعالى إذ أضاف بعد كلمة (تماماً) قوله: ﴿**على الذّي أحسن، وتفصيلا لكل شيءٍ**﴾، فقد أشار بقوله هذا إلى أنّ تعاليم موسى وردت قوميّة وعلى قدر إحسان موسى وتقواه. وهذه التعاليم ورد فيها ﴿**تفصيلاً لكل شيء**﴾ أي لكلّ شيءٍ أنزله الله تعالى من قبل موسى على آدم ونوح وإبراهيم عليهم السّلام.

فقد نزلت تعاليم التوراة تفصّل ماكان مُجملاً في تعاليم أولئك الأنبياء السّابقين. بمعنى أنّ التوراة تجاوزت مرحلة الإجمال في التّعاليم. ففصلت تعاليم التوراة أمور العبادات وأمور أساليب الحكم ومايتعلق بالمرأة وشؤونها وبالاقتصاد وضوابطه، وبما يتعلق بصلة الأفراد بعضهم ببعضهم الآخر، وبصلتهم بحكّامهم. إنّما ظلّ النقص يعتري تعاليم التوراة هذه على اعتبار أنها تعاليم قوميّة هي بحاجةٍ إلى التّكميل لتصبح تعاليم شاملة وعالمية.

والله تعالى إذ أضاف على ذلك كلمة (وهدىً) فبمعنى أنّ هذه التعاليم "التمام" التي أنزلناها على موسى والتي لم يسبق لنا أن أنزلناها على نبيّ من قبله، فقد أضحت هذه التعاليم (هدى) لموسى نفسه يهتدي بهداها، وليهدي بها قومه أيضاً.

وأضاف جلّ شأنه على ذلك كله قوله: ﴿**ورحمةً لعلّهم بلقاء ربّهم يؤمنون**﴾. أي أضحت تعاليم التوراة رحمةً من الله تعالى أنزلها على قوم موسى لعلّهم يستفيدون من هذه التعاليم ويعملون عليها ولعلّهم يعملون وهم يؤمنون أنّها وسيلة لقائهم مع ربّهم وتقريبهم منه جلّ وعلا. هذا وإن استضعاف فرعون لبني اسرائيل هو الذي جذب رحمة الله نحوهم،على الوجه الذي وضّحناه إذ لابد لكلّ مقدّمةٍ نتائجها، فهذا هو مُجمل قول ربّنا عزّوجلّ : ﴿**ثم آتينا موسى**

الكتاب تماماً على الذي أحسن، وتفصيلاً لكلّ شيء، وهدى، ورحمة لعلّهم بلقاء ربّهم يؤمنون﴾.

ولّما كان القرآن الكريم يفسّر بعضه بعضاً، فقد فسّر الله تعالى هذه الآية في الآية (١٤٥) من سورة الأعراف حيث قال: ﴿وكتبنا له في الألواح من كلّ شيء موعظةً وتفصيلاً لكلّ شيء﴾. بمعنى أنّ وصايانا العشر التي كتبناها لموسى في الألواح قد وردت متضمّنةً موعظة من كلّ شيء تطلّبت بيانه حالة قومه عليه السّلام سواء منها السياسيّة أو المدنية أو الروحية لذلك عاد موسى من جرّاء ماأنزلناه عليه من تعاليم قائداً وحاكماً ونبيّاً. أو قولوا بألفاظ أخرى أنّ تعاليم التوراة كانت أوّل تعاليم سماوية مُنزلة لبّت احتياجات عقل البشر في مرحلة نضجه يومذاك وبشكلٍ تفصيلي، لأنّه عاد يومذاك مؤهّلاً لإدراك قيمة مواعظ تلك التعاليم ومؤهلاً للعمل عليها أيضاً.

ولنعدُ إلى آية سورة الأنعام، فبعد أن ذكّر الله تعالى المشركين بنعمة تعاليم موسى الموافقة لتقواه، راح يذكّرهم بأنّ النّقص الذي اشتملت عليه تعاليم التوراة، بسبب أنّها تعاليم قوميّة قد تداركه الله عزوجلّ عن طريق هذا النبي العربي الأمّي الذي اصطفاه الله تعالى من بينهم وهذه التعاليم التي احتواها هذا الكتاب الذي أنزله الله تعالى عليه، فأنزل تعاليمه عالميّة الصّبغة وتصلح لكل زمان ومكان. فهذا ماعبّر عنه تعالى بقوله: ﴿وهذا كتابٌ أنزلناه مباركٌ فاتّبعوه، واتّقوا لعلّكم تُرحمون﴾ أي لعلكم تُرحمون به كما رحمنا بني اسرائيل بتعاليم التوراة التي أنزلناها على موسى عليه السلام.

وليلاحظ القارئ كيف أنّ الله تعالى وصف هذا الكتاب القرآن أنّه (مبارك)، بمعنى أنّ تعاليمه تتّصف بالبركة والقداسة فهي شاملة وتتّصف بصفة دوام العطاء في كل زمان ومكان، فهذا هو معنى مبارك كما ورد في (محيط المحيط).

والله تعالى إذ قال ﴿فاتّبعوه﴾ فقد أمر المشركين بهذا الأمر لتنقلب تعاليم هذا الكتاب رحمةً لهم من جرّاء إيمانهم به وعملهم على تعاليمه. وأضاف قائلاً: ﴿واتّقوا لعلّكم تُرحمون﴾. مشترطاً على المشركين اتّباع تعاليم القرآن الكريم بتقوى الله، وليس بمجرّد التقليد ﴿لعلّكم ترحمون﴾. أي أنّ العمل على هذه التعاليم عملاً حاوياً من روح تقوى الله وخشيته ومن روح الاندفاع للتّقرب من

الله تعالى وطلب قربه ورضوانه، إنّ هذا النّوع من العمل الخاوي من تقوى الله وخشيته، هو بمثابة جسدٍ بلا روح فلا تنجذب رحمة الله إلى هذا الإنسان.

وراح تعالى يبرّر طلبه وأمره هذا الذي وجّهه إلى المشركين وقال: ﴿**أو تقولوا إنّما أُنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا، وإنْ كُنّا عن دراسهم لغافلين، أو تقولوا لو أنّا أُنزل علينا الكتاب لكُنّا أهدى منهم، فقد جاءكم بيّنة من ربّكم وهدى ورحمة، فمن أظلم ممّن كذّب بآيات الله وصَدَفَ عنها، سنجزي الذين يصدفون عن آياتنا سوءَ العذاب بما كانوا يصدفون**﴾.

فإذا شئنا تلخيص ماذكرته وبيّنته حتى الآن، أقول: إنّ الله عزوجلّ راح في هذه الآيات يصوّر لنا اطار الانقلاب الكبير الروحي الذي أحدثته بعثة موسى عليه السلام. من حيث أنّ التعاليم التي أنزلها ربّه عليه قد احتوت من جهة على الأسس العامة لما أنزله الله تعالى من تعاليم على آدم ونوح وإبراهيم من قبله، وأنّ تعاليم التوراة أكملت تلك الأطر والأسس وفصّلتها من جهة أخرى فربطت بذلك مابين الدّين والدّنيا، ووضّحت التعاليم الرّوحية المتعلقة بعبادة الله ومعرفته، ووضّحت قواعد ومبادئ تعامل الإنسان الفرد مع أخيه الإنسان فرداً كان أو جماعة أو حاكماً، وبتعاليم تشمل جميع صُعُد الحياة. لذلك لم يعد الدّين زمن بعثة موسى مقتصراً على تعاليم روحية وحسب، بل ومشتملاً على تعاليم مادّية ربطت مابين الدين والدنيا، وبفلسفة حياةٍ كاملةٍ ومنظّمة، إنما على مستوى إصلاح قومٍ معين وليس على مستوى عالميّ.

٢ـ بعثة موسى وضّحت ماكان مجملاً من قبله:

فهذه هي أوّل شعبة هذا الانقلاب الكبير الذي أحدثته بعثة موسى في منطقتنا، أمّا الشعبة الثانية الهامّة التي يتألف منها هذا الانقلاب الروحي اشتملت عليها الآية (١٤٣) من سورة الأعراف، والتي ورد فيها قوله تعالى: ﴿**ولمّا جاء موسى لميقاتنا وكلّمه ربّه، قال ربّ أرني أنظر إليك، قال لن تراني، ولكن انظر إلى الجبل فإن استقرّ مكانه فسوف تراني، فلمّا تجلّى ربّه للجبل جعله دكّاً، وخرّ موسى صعقاً، فلما أفاق قال سبحانك تُبت إليك وأنا أوّل المؤمنين**﴾.

ولابدّ لي قبل الافاضة في تبيان الحقائق التي تضمنتها هذه الآية الكريمة من أن أُلفت نظر القارئ مرّة تلو مرّة وهو أنّ صياغة آي الذكر الحكيم تكون دوماً بليغة ومعجزة وتكمن وراءها حكم إلهية بالغة، يستحيل على القارئ إدراكها والإحاطة بدلالاتها مالم يتدبّر النّصوص القرآنية بقلبٍ خاشع وبأصول تفسير القرآن، وبتوافق هذا التدبّر مع مشيئة الله الذي أنزل هذا الكتاب العزيز المعجز، وذلك لقوله تعالى: ﴿**لايحيطون بشيءٍ من علمه إلا بما شاء**﴾.

ولنأت الآن إلى هذه الآية من سورة الأعراف فهي مُصاغة صياغة إعجازية ومُفعمة بالمعاني والحقائق والدلالات، وقد أخبرت عن أحداثٍ حدثت لموسى على جبل الطّور، بدليلِ مابعدها وهو قوله تعالى: ﴿**وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء، فخذها بقوّة، وأمر قومك يأخذوا بأحسنها سأوريكم دار الفاسقين**﴾.

فإن نحن تدبّرنا طلب موسى من ربّه: ﴿**قال ربّ أرني أنظر إليك**﴾، فالأمر الذي نستنبطه من طلب موسى المذكور هو أنه اطلّع على أسماء الله المتعلّقة بزمانه، وشاهد تجلّياتها، ولم يبق أمامه إلاّ أن يَرَ الذات الإلهية التي تحمل تلك الأسماء، لذلك راح يسأل ربّه أن يدعه ينظر إليه.

على حين أنّ الله عزوجلّ لم يورد لنا مثل هذا الطلب الذي طلبه موسى على لسان أيّ نبي بعثه من قبله. أي أنّ الله تعالى كان يكلّم من سبق موسى من أنبياء من وراء حجاب كشفاً أو في حالة نوم أحد أولئك الأنبياء. وليست قصّة رؤيا ابراهيم وهو يذبح ابنه اسماعيل ببعيدة عن أذهاننا، بالرغم من أنّها كان لها هذا الشأن الكبير من خلال دلالتها على الإنقلاب الروحي الكبير الذي أحدثه الله تعالى في حياة البشر عن طريق بعثة ابراهيم عليه السلام، فلماذا لم يورد الله تعالى مثل هذا الطّلب الذي طلبه موسى من ربّه على لسان أيٍّ من الأنبياء من قبله؟ الجواب المنطقي هو أنّ مااطّلع موسى عليه من أسماء الله الحسنى، لم يسبق أن اطّلع على مثل ذاك الكمّ من أسماء الله الحسنى أيّ نبيّ قبله.

فلماذا أَطْلَع الله تعالى موسى على أسمائه الحسنى بهذا الكمّ؟ أطلعه بسبب أنّ تعاليم رسالته جاءت تُفَصّل أمور الدين والدنيا، ولم تَرِد مُجملةً كما كانت تنزل على من سبقه من أنبياء الله الكرام.

ذلك أنّ شريعة موسى نزلت تحمل فلسفة كاملةً للحياة الدنيا، واشتملت على تعاليم تنظم الأمور الروحية والمادية في آن واحد الأمر الذي استدعى من الله جلّ شأنه إطلاع موسى على أسمائه كلّها، والمتعلقة بهذه التعاليم. حتى راح موسى بعد ذلك يطلب من ربّه: **﴿قال ربّ أرني أنظر إليك﴾**.

هذا وقد نبّه الله تعالى موسى إلى استحالة إمكانية رؤية ذاته عزوجلّ في هذا الطّور من الحياة الدّنيا، الذي لاتمكّن قوى الإنسان هذا الإنسان إلاّ مشاهدة تجلّيات ماتتّصف به الذات الإلهية من صفاتٍ وأسماء، وعلى حسب المؤهّلات والضرورات الزمانيّة والمكانيّة أيضاً.

ألا إنّ فهمنا وإدراكنا لهذه الحقيقة استنبطناه من هذه الآية من سورة الأعراف، التي نبّهتنا في الوقت نفسه إلى حقيقة أنّ عقل البشر زمن بعثة موسى، كان قد بلغ مرحلة متقدّمة من التّطور والنّضوج، وتأهّل بذلك للإطلاع على ماتحمله الذات الإلهية الخالقة من أسماء تتصّف بها، ليس بصورة إجمالية ولكن بصورةٍ تفصيليّة، الأمر الذي لم يكن متوفّراً في الأزمنة التي سبقت بعثة موسى عليه السّلام، فهذا هو سرّ أنّ مفهوم أحدّية الله الخالق تلقّاه آدم ونوح وإبراهيم بصورة مُجملة، على حين ورد هذا المفهوم التوحيديّ الخالص على موسى بصورة تفصيليّة.

فهذه الحقيقة بإمكان القارئ أن يُلّم بها بأسلوبٍ وطريق آخر، فيستنبطه من أقوال قوم موسى أنفسهم، ففي الآية (٥٥) من سورة البقرة، أورد لنا ربّنا عزوجلّ قوله: **﴿وإذ قُلتم ياموسى لن نؤمن لك حتّى نرى الله جهرةً فأخذتكم الصّاعقة وأنتم تنظرون﴾**.

فلِم طلب بنو اسرائيل من نبيّهم موسى هذا الطّلب الذي تضمّنته هذه الآية الكريمة؟ طلبوا من موسى هذا الطّلب على اعتبار أنّه أدهشهم إدعاؤه أنّه رأى ربّه في جلوة النار. فهم لم يسبق لأحدٍ منهم أن سمع أنّ مثل هذا الأمر حدث لجدّهم ابراهيم عليه السلام. فقد كان هذا الطرح الذي طرحه موسى أمامهم جديداً عليهم كلّ الجدّة، فاستنكروه على عادة الإنسان الذي يستنكر كل مايجدّ عليه من أمر ويستغربه، وكان لطلب بنو اسرائيل المذكور معناه ودلالته فكأنهم قالوا لموسى بألفاظٍ أخرى: وهل كان جدُّنا إبراهيم أقلّ منك

مكانةً وقرباً من ا لله عزوجلّ؟ فلم يؤثر عن جدّنا إبراهيم أن أدّعى أنّه رأى جلوة ربّه عزوجلّ.

وعليه ندرك أنّ بعثة موسى عليه السّلام كانت قد أحدثت انقلاباً روحيّاً كبيراً أيضاً على صعيد علم أسماء ا لله الحسنى، فقلب بذلك التّوحيد الإجمالي إلى توحيد تفصيليّ وعلى قدر مابلغه عقل البشر في تلك الفترة الزمنية من تطوّر ونضوج. الأمر الذي ساعد من بعثهم ا لله تعالى من أنبياء بعد موسى على أن يظلّوا تابعين لشريعة موسى ومجدّدين يهتدون بهدي مااحتوته التوراة من علوم على صعيد أسماء ا لله الحسنى.

٣ـ الجديد في مضمار الاتصال بالله تعالى :

وقد طرأت زمن بعثة موسى عليه السلام ضرورةٌ زمنيّةٌ وتشريعيّة اقتضتا من ا لله عزوجلّ أن يُحدث قفزةً نوعية على صعيد مكالمته مع عباده، وكان موسى أوّل مظهر لهذه القفزة النوعية فقد علمنا حتى الآن كيف أنّ ا لله تعالى كان يكلّم عباده من أفراد البشر من وراء حجاب. وظلّ الأمر كذلك بصورة عامة منذ أن بعث ا لله تعالى آدم وأتبعه بنوح وابراهيم. أي كانت ظاهرة اتّصاله جلّ شأنه مع هؤلاء الأنبياء والصالحين من أتباعهم من وراء حجاب وفي منامهم، وفي الكشوف الرّوحية التي كانوا يتّلقونها. وسبق أنْ بيّنت أن تجليات أسماء ا لله الحسنى تتجلّى وتتمثل في رؤى وكشوف الصالحين من عباد ا لله تعالى من وراء حجاب أي في حالة النّوم التي هي عبارة عن استرخاء يحصل للحواس الجسديّة لكلّ إنسان. ولاشك أنّ الرؤى الصادقة مرات ودرجات وتأتي على مستوى صفاء نفس هذا الإنسان الذي يتلقّاها.

هذا الأسلوب السّابق على مستوى مكالمة ا لله لعباده، كانت تقتضيه عوامل عدّة، منها تخلّفُ عقل البشر في ذاك الزّمان ، ومن تلك العوامل أنّ التعاليم السماوية التي كانت تنزل على رسل ا لله وأنبيائه كانت تعاليم تتصّف بالإجمال والعموميّة في الأمور الرّوحية والمعاشيّة .

وبعد أن كان عقل البشر قد تطوّر ونضج واتّسع أُفُقه نتيجةً للانقلابات الرّوحية الكبيرة التي أحدثتها بعثات الأنبياء التي حدثت قبل موسى عليه السلام. وهذه حقيقة استقيناها من آي الذكر الحكيم وخلال أبحاثنا الماضية. فقد عاد

البشر بإمكانهم تصوّر حقيقة أنّ كلّ فرد منهم مؤلّف كيانه من جسدٍ وروح. وتصوّر حقيقة وجود عالم الآخرة والكلام في أمور فلسفة ماوراء الطبيعة، وبعد أن شكّل هذا النضوج في نظر ربوبيّة الله تعالى، ضرورةً زمنية استدعت إنزال تعاليم سماويّة لاتقف عند حدود الإجمال، بل تتجاوزه إلى التفصيل في أمور معاش الناس. فقد اصطفى الله تعالى موسى وأنزل عليه كتاباً فيه تفصيل كلّ شيء من أمور الدنيا والدّين ـ وتماماً على حسب مابلغه إنسان زمنه وماقتضته أحوال قومه بنو اسرائيل. وقد اقتضت تلك الضرورة الزّمنية والتشريعية أن يعمد الله تعالى إلى مكالمة موسى، ليس فقط كالسابق من وراء حجاب. بل ومشافهةً وعن طريق ملاكٍ من ملائكته، أي أن يعمد جل شأنه إلى مكالمة موسى بجميع طرق كلامه مع البشر، كوسائل لإبلاغه تفصيلات كل شيء تضمّنته تعاليم رسالته، وهذه القفزة النّوعية أشار الله تعالى إلى حقيقتها ضمن ألفاظ ﴿**وكلّم الله موسى تكليماً**﴾ أي كلّمه مشافهةً : بالإشارة السريعة ومن وراء حجاب وبارسال ملك من ملائكته . فليس في قوله تعالى ﴿**وكلّم الله موسى تكليماً**﴾ أيّ امتياز لشخص موسى بالذات على غيره من أنبياء الله الكرام، بل وردت هذه الألفاظ تنبيهاً لأذهاننا إلى القفزة النوعية التي سبق أن تكلّمنا عنها واقتضتها الضرورتان الزمنية والتشريعيّة المذكورتين.

ولاينبغي للقارئ أن يظنّ أنّ تكلّم الله تعالى مع موسى بصورة شفهيّة ، كان يمثّل أرفع درجات مكالمة الله مع البشر، كلاّ فالكلام مشافهةً لايحمل هذه الدّرجة من السّمو وإلاّ لكان الله عزوجلّ قد أمر موسى يومذاك بتدوين ماكان يكلّمه به مشافهةً. فلم يُؤْمَر موسى إلاّ بتدوين الوصايا العشر، هذه الكلمات التي تحتاج هي أيضاً للشرح والتوضيح ووفق كل زمان ومكان.

فما هو الدّاعي الذي دعا ربّنا عزوجلّ ألاّ يأمر بتدوين كلامه مع موسى مع أنه كان كلاماً تشريعياً؟ على حين أنّه جل شأنه قد أمر محمّداً بتدوين ماأوحى إليه من وحي القرآن الكريم؟ تأتي الإجابة على هذا السؤال بسبب الفارق بين تشريعي التوراة والقرآن، فتلك كانت شريعة عارضةً تختصّ بزمان وقوم معين هم بنو اسرائيل، أما شريعة القرآن فهي شاملة وكاملة التعاليم وتصلح لكلّ زمان ومكان، هذا الأمر الذي نبّهت إليه كلمة (تماماً) الواردة في الآية (١٥٤) من سورة الأنعام، وقد شرحتها في حينها، ولاداعي للتكرار هنا.

ثم إنّ السّبب الثاني هو من أجل أن تعاليم التوراة وردت بألفاظ موسى نفسه وعلى حسب ماتلقّاها مشافهةً من ربّه عزوجلّ. على حين أن تعاليم القرآن الكريم دُوّنت بذات ألفاظ الكلام الإلهي الذي كلّم الله به محمداً رسول الله ﷺ وبنفس حركاته وسكناته وتوقيفاته، ووفقاً لما كان جبريل يُمليه على رسول الله ﷺ من كلام ربّه عزوجلّ ، وليس بكلام محمّد رسول الله ﷺ .

كذلك بإمكان القارئ إدراك أنّ كلام الله تعالى مع موسى مُشافهةً ، ماكان يمثّل أرفع درجات تكلّم الله مع البشر، من المثال المتعارف عليه بين جميع الأمم، وهو أنّ أيّ ملك أو رئيس دولة إذا بعث برسالة إلى ملكٍ أو رئيس مثله، فإنّه يبعث برسالة شفهية يحملها مندوبه وبألفاظه، فإذا كان للرسّالة شأنها التوثيقي وأهميّتها، فيبعث بها مُدوّنةً بألفاظه الملكية وبرفقه مندوبه، وتكون الرسالة المكتوبة دوماً أرفع مستوى من الرسالة الشفهيّة.

كذلك بإمكان القارئ إدراك هذا الأمر ممّا تعارف عليه الناس فيما بينهم، فكلّ إنسان يُطلع سواه على مايريد إطلاعه عليه مشافهةً ووجهاً لوجه، أمّا إذا أراد إنسان تحفيظ إنساناً آخر مايريد إطلاعه عليه يستكتبه إيّاه وبألفاظٍ جليّةٍ واضحة ليكُتب لهذا الأمر الثّبات والدّوام.

وهكذا فإنّ قوله تعالى ﴿**وكلّم الله موسى تكليماً**﴾ أي مشافهةً، لايعطي موسى ميّزةٍ خاصّة يمتاز بها على سواه من الأنبياء، بل كان القصد من ذلك أنّ طرق كلام الله مع البشر لم تعد مقتصرةً على طريق من وراء حجاب وحده ، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فالدّلالة الثانية لهذه الجملة هو أنّ الشريعة الموسوية كانت ذات صبغة قومية ومرحلية، و لم ترق إلى حدّ أن ينزلها ربّنا عزوجل بألفاظه على موسى عليه السلام.

لذلك اقتصرت المشافهة مابين الله ونبيّه موسى بهذا التشريع التّوراتي المفصّل على حاسّة السّمع لدى موسى، وليس أكثر من ذلك. وهذه الحقيقة نبّهت إليها الآية المعلومة من سورة البقرة، وهي قوله تعالى: ﴿**مانسخ من آيةٍ أو نُنسها، نأت بخيرٍ منها أو بمثلها ألم تعلم أنّ الله على كلّ شيء قدير**﴾. ذلك أن الكلام الشفهيّ قابل للنّسخ والنّسيان، على حين أنّ الكلام المدوّن غالباً مايكتب له الدوام. خصوصاً إذا تعهّد قائله ومدوّنه بالمحافظة عليه.

وعليه فتشريع موسى نزل بطريق مكالمة الله إيّاه مشافهة، لاحتوائه على تفصيل كلّ شيء يتعلق بالأمور الروحية والمدنية والسياسية. لاشتمال تشريع موسى على أمور الدنيا والدّين. وماكان الوحي من وراء حجاب كافياً لأداء هذا النوع من التشريع المفصّل. وبالتالي فقد أحدثت مكالمة الله تعالى مع نبيّه موسى مشافهةً قفزةً نوعيةً على طريق تكلّم الله مع البشر، بسبب أنّ عقل هذا البشر الذي أخرجه آدم من كهفه، قد نضج وعاد لائقاً لتلقّي مكالمة ربّه مشافهة خصوصاً وأنّ توسع أمور معاشه قد تنوّعت إلى حدٍ اقتضى من خالقه أن يشرّع له أمور معاشه، وبتشريعٍ مُنصبغٍ بتوحيد الله عزوجل.

الانقلاب الخامس الروحي الكبير الذي أحدثته بعثه المسيح الناصري:

إنّ الانقلابات الروحية الكبيرة التي ذكرتها حتى الآن رسمت للقارئ خطّاً بيانياً وضّح ظواهر تدخّل صفة ربوبية الله تعالى في حياة البشر لتطوير عقله وتهذيبه وتمدينه مذ أن أخرجه من الكهف على أيدي آدم عليه السلام. وهذا الخطّ البيانيّ يمثّل حالة التدرج فيما يتعلّق بتعاليم الأنبياء الذين بعثهم الله تعالى منذ بعثة آدم وحتّى بعثة موسى، تلك التعاليم التي كانت تدور حول توحيد الله عزوجلّ، إلى جانب التحذير من الشرك بالله تعالى بصورة مجملة وليس بصورة تفصيليّة، أي أنّ تعاليم الأنبياء قبل موسى كانت تقتصر على الجانب الروحي لحياة البشر، ولاتتدخّل في أمور معاشهم اليومي.

وبعد أن طوّر الله الخالق الرّب عقل البشر وأنضجه وأعلمه بوجوده وضرورة عبادته وحذّره من الشّرك به، عمد جل شأنه بعد ذلك إلى تقويم سلوكه اليومي بما يتّفق وهذا التوحيد الخالص الذي علّمه إيّاه فبعث الله تعالى موسى عليهِ السلام كما رأينا، وبتعاليم ربط بواسطتها مابين الدّين والدنيا وتفصيلاً لكلّ شيء، لكنّ الأمر الذي ماكان ينبغي أن يغيب عن ذهن البشر من بعد بعثته هو أنّ التّعليم الرّوحي الذي كان قد اكتمل على أيدي ابراهيم الذي لُقّب لهذا السبب بأبو الأنبياء، ويمثّل التّوحيد الخالص من شوائب الشّرك بالله ماكان ينبغي أن يتناساه البشر بعد موت موسى عليه السّلام ، وتعود تفصيلاته

من قبيل القشور، والمؤسف هو أنّ هذا هو ماحدث لقوم موسى الذين اختصّهم الله تعالى بشرعه المذكور.

وأوضّح للقارئ ماأجملته فأقول: إنّ المؤمن الذي يدين بالتوحيد الإبراهيمي الحنيف الخالص من جميع شوائب الشرك، يقول بلسان حاله «إنّ صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين وبذلك أُمرت وأنا أوّل المسلمين». يقول هذا ملتزماً بمضمونه قولاً وعملاً، كفردٍ منعزلٍ عمّن حوله من الأفراد، فإذا أخذ هذا المؤمن الموحّد يخالط سواه من الأفراد ويتعامل معهم على جميع صُعُد الحياة، يشعر أنّه أمسى بحاجةٍ إلى خطٍ فكريٍ يساعده على ذلك وإلى خطٍّ تشريعي. فهذا المؤمن الموحّد يعود بحاجةٍ إلى التعامل بتفكير روحي ومنضبطاً بتعاليم ربّه عزوجل. هذا وإنّ الشريعة التفصيليّة التي تلقّاها موسى من ربّه قد وفّرت لكلّ إسرائيلي في زمانه عنصر التفكير الروحاني والعنصر التشريعي السلوكي، وبما كان يتناسب زمانياً وتشريعياً مع تطور عقل البشر ومقتضياته السلوكية القومية.

١ً- زوال روح الطهارة ودماران يحلّان باليهود:

فلما انتقل موسى إلى بارئه الأعلى، وناب عنه من ناب، راحت حقيقة وجوهر ماأنزل الله تعالى على موسى من توحيد وطهارة تغيب عن أذهان قومه وبالتّدريج، فحقّ عليهم ماوصفهم به القرآن الكريم في الآية (٨٧) من سورة البقرة: ﴿.. **أفكلّما جاءكم رسول بما لاتهوى أنفسكم استكبرتم، ففريقاً كذّبتم، وفريقاً تقتلون؟**﴾، وعاد بنو إسرائيل مُتناسين تعاليم التوحيد الخالص الذي بُعث به ابراهيم عليه السلام عاد أكثرهم يفكّر بتفكير ماديّ محض، الأمر الذي ترك آثاره البليغة على سلوكهم اليومي، فشابهوا حينئذ غير المؤمنين ممّن حولهم من الأقوام، وماعادوا ينتسبون إلى موسى وشريعته زمن بعثة المسيح الناصري إلاّ بالإسم فقط، فكانوا بذلك من الوجهتين الفكريّة والعمليّة أبعد مايكون عن التعاليم الموسويّة التي تضمّنتها ماسُميّ بالتوراة.

وعليه فلابدّ أن يكون القارئ قد أدرك أنّ التوحيد الخالص من جميع شوائب الشرك هو لبُّ لباب ماأنزله الله تعالى من تعاليم سماوية. أما ماعدا هذا اللّب وهذا الجوهر وهذه الحقيقة، فهو من قبيل الأُطُر والقشور التي تساعد على

تغليف هذا الجوهر وتحافظ عليه. وهذه حقيقة طبيعيّة يُدركها الإنسان بأسلوب الملاحظة العلّمي. فالإنسان نفسه صاغه خالقه من جسدٍ وروح، والثمار لها قشورها التي تحفظ لبابها، فما الدّين بخارج إطار هذا القانون الطبيعي، هذا وإن جميع أوامر الدّين من أحكامٍ وعباداتٍ وغيرها، فهي بجرّد أُطُر وقشور صيغت لتحفظ للمؤمن إيمانه بربّه وتوحيده توحيداً خالصاً من جميع أنواع الشرك با لله الذي لاإله إلا هو.

وبما أنّ التجربة الاسرائيلية لم تكن التجربة الأخيرة لتطوير عقل البشر وتهذيبه وتمدينه، ولّما كان في علم ا لله الغيبيّ أنّ بني اسرائيل سيشطّون عن سبيل موسى وشريعته هذا الشطّط، فلذلك كان قد أنذرهم جلّ شأنه على لسان موسى وتوعّدهم، وبشّرهم ببعثة المسيح ابن مريم ليردّهم إلى جوهر دينهم التوحيديّ. وقد نبّهتنا آيات سورة الإسراء إلى هذا الأمر الذي كان ا لله تعالى قد توعّد به بنو اسرائيل، حيث ورد قوله تعالى: ﴿**وقضينا إلى بني اسرائيل في الكتاب** ـ أي أعلمنا وبلّغنا بني اسرائيل في الكتاب الذي أنزلناه على موسى ـ **لتفسدُنّ في الأرض مرّتين** ـ وليس مرّة واحدة، وقد وضّحت سورة المائدة فترتي هاتين المرتين بقوله تعالى: ﴿**لُعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داوود وعيسى بن مريم**﴾ أي مرّة بعد داوود ومرة بعد عيسى الناصري ـ ولتعلُنّ عُلُوّاً كبيراً﴾ أي سيتملّككم التكبّر والتجبّر والغرور خلال تلك الفترتين الزمنيتين وبشكل واضح لالُبس فيه فلا تعودون موحّدين ا لله تعالى ولاخاضعين لتعاليمه ولامتذلّلين بين يديه.

وهذه الحقيقة التاريخيّة التي نبّهتنا إليها هذه الآية الكريمة من سورة الإسراء، ماهي بجرّد إدعاء لاأصل له في التوراة، بل تؤيّده نصوص التوراة المعاصرة المُحرّفة وبشكلٍ مُدهش. فقد ورد في سفر التّثنية الاصحاح الثامن والعشرون هذا الإنذار والوعيد الذي نبّهت إليه سورة الإسراء بالألفاظ التالية: (وإذا سمعت لصوت الرّب إلهك، حافظاً جميع وصاياه التي آنا آمرك بها اليوم، وعاملاً بها، يجعلُك الربّ إلهك فوق جميع أمم الأرض وتحلّ عليك هذه البركات كُلّها وتدركُك، لأنّك سمعت لصوت الرّب إلهك.. وإن لم تسمع لصوت الرّب إلهك، حافظاً وصاياه وفرائضه التي أنا آمرك بها اليوم، ولم تعمل بها، تأتي عليك هذه اللّعنات كُلّها وتدركُك: فتكون ملعوناً في المدينة وملعوناً في البريّة.. يجعلك

الرّب تنهزم أمام أعدائك تخرج عليهم من طريقٍ واحدةٍ وتهرب من أمامهم من سبع طرق. وتكون قلقاً في جميع ممالك الأرض ٢٥-٢٦.

يذهب الربّ بك وبملكك الذي تقيمه عليك إلى أمّةٍ لم تعرفها أنت ولا آباؤك ٣٦ ويجلب الرّب عليك أمّةً من بعيدٍ من أقاصي الأرض كالعُقاب المحلّق، أمّة لاتفهم لُغتها، أمة صُلبةَ الوجوه، لاتهاب وجه شيخ ولاترأف الفتى ٤٩ـ٥١ حتّى تُهلكك وتحاصرك في مُدنك كُلّها حتى تسقط أسوارك الشامخة الحصينة التي أنت تعتمد عليها في أرضك كلها في كلّ أرضك التي يُعطيك الرّب إلهك إيّاها ٥٣ لأنّك لم تسمع لصوت الرّب إلهك، يكون، أنّ الرّب كان يُسرُّ إذا أحسن إليكم وكثّركم، أنّه يُسرُّ أيضاً إذا أهلككم وأبادكم فتقتلعُون من على الأرض التي أنت داخلٌ إليها لترثها، ويشتّتك الرّب في الشعوب كلّها من أقاصي الأرض إلى أقاصيها ٦٣-٦٤ هذه هي كلمات العهد الذي أمر الرّب موسى بأن يقطعه مع بني اسرائيل في أرض موآب، عَدا العهد الذي قطعه معهم في حوريب الاصحاح ٢٩ فتقول الأمم كُلّها: لماذا صنع الرّب كهذا بهذه الأرض وماشدّة هذا الغضب العظيم؟ فيُقال: لأنّهم تركوا عهد الرّب إله آبائهم، الذي قطعه معهم حين أخرجهم من أرض مصر ٢٤-٢٥).

وهكذا يدرك القارئ أنّ الآية من سورة الإسراء **﴿وقضينا إلى بني اسرائيل في الكتاب لتفسدُنّ في الأرض مرّتين ولتعلُنّ عُلُوّاً كبيراً﴾** وردت بمعناها في التوراة،وليس بألفاظها بل إنّ النصّ التوراتي الذي أوردت للقارئ بعض فقراته، يثبت منه أنّ الله تعالى كان أنذر بني اسرائيل وتوعّدهم على لسان موسى قبل استيلائهم على أرض كنعان، وبصورة واضحة الألفاظ ومفصّلة كلّ التفصيل، ويكون الله تعالى بذلك قد أثبت من جهة أنّه علاّم الغيوب، ويكون قد ألقى حجته في الوقت نفسه على بني اسرائيل.

فبنوا اسرائيل أفسدوا في الأرض بعد النّبي داوود، فأرسل الله تعالى ملك بابل نبوخذ نصر فاستولى على فلسطين وهدم هيكل سليمان وسبى أسباط اليهود إلى بابل، وقد أوردت التوراة هذه الحقيقة مفصّلةً في سفر الملوك الأصحاح (٢٥) وفي سفر نحميا النبي الاصحاح ١٣/١٧ ممّا لاحاجة بنا لإيراده في هذا المقام، وهو الأمر الذي أشارت إليه الآية من سورة الإسراء: **﴿فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأسٍ شديد، فجاسوا خلال الدّيار**

وكان وعداً مفعولاً﴾. فمعنى جاسوا خلال الدّيار أي حوالي حدودها ومابين بيوتها(اقرب). ومعنى **﴿وكان وعداً مفعولاً﴾** أي وعيداً وإنذاراً كُنّا قد توعّدنا وأنذرنا بني اسرائيل به من قبل على لسان نبيّهم موسى عليه السّلام.

وقد بعث الله تعالى المسيح الناصري من بين الاسباط الاسرائيلية التي أعادهم إلى فلسطين بعد الدّمار المذكور والسّبي الرّهيب، أعادهم مصداق ماأوردته سورة الإسراء أيضاً من خلال قوله تعالى: **﴿ثمّ رددنا لكم الكرّة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً. إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم** وقف**، وإن أسأتمّ فلها، فإذا جاء وعد الآخرة ليسوؤوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أوّل مرّة وليتبّروا ماعلوا تتبيراً﴾**. وقد تحقّق وعد الآخرة، أي وعيد المرّة الثانية الأخيرة، بعد بعثة المسيح الناصري بسبعين عاماً على أيدي الرّومان، وفي حياة المسيح نفسه الذي كان قد عاش مائة وعشرون عاماً، ولاحاجة بنا للخوض في تفاصيل جميع هذه الأمور في هذا المقام.

والذي يهمّنا التعرّض له هنا هو أنّ روح تعاليم التوحيد الإلهي الخالص الذي ضرب النبي ابراهيم عليه السلام عليه أعظم مثال عملي عليه، والذي جاءت شريعة موسى تكمل الناحية الدنيوية المعاشية منه، فقد غابت روح ذاك التوحيد وحقائقه زمن بعثة المسيح الناصري، وعاد بنو اسرائيل لايفهمون من شريعة موسى إلاّ ظواهر تعاليمها وقشورها. وإشارةً إلى هذه الحقيقة ورد قول ربّنا عزوجلّ في الآية (٨٧) من سورة البقرة: **﴿ولقد آتينا موسى الكتاب، وقفّينا من بعده بالرّسل، وآتينا عيسى ابن مريم البيّنات، وأيّدناه بروح القدس، أفكلّما جاءكم رسول بما لاتهوى أنفسكم استكبرتم، ففريقاً كذّبتم وفريقاً تقتلون﴾**. فهذه الآية الكريمة تحدّد المهمّة الأساسية لبعثه المسيح الناصري التي هي إعادة روح تعاليم الشريعة الموسوية إلى الوسط اليهوديّ بعد أن غابت روح تلك التعاليم عن أذهان الإسرائيليّين.

٢ً- دلالة وأيّدناه بروح القدس:

والذي يؤسف له هو أنّ مفسّرينا القدماء الذين لم ينطلقوا من مُنطلق فهمي هذا لتاريخ الرسالات السّماوية، والّذين لم يتدبّروا هذه الآية التي أوردناها حقّ تدبّرها، اختلفوا على عادتهم في فهم جُملة **﴿وأيّدناه بروح القدس﴾**،

فمنهم من أوّلها بجبريل ومنهم من أوّلها باسم الله الأعظم، ومنهم من أوّلها بالإنجيل، ومنهم من أوّلها بالروح المقدّسه كما تقول حاتم الجود ورجل صادق. حال أنّ هذه الجملة بعيدة كل البعد من حيث دلالتها عمّا أولها به المفسرون القدماء؛ بعيدةً من حيث دلالتها اللّغوية، وبعيدةً من حيث ارتباطها الموضوعي.

لذلك أتناول جملة ﴿وأيّدناه بروح القدس﴾ بادئ ذي بدء، وأناقشها على ضوء دلالات ألفاظها لغوياً، مُستعيناً في ذلك بمعاجم اللغويّين، وأوّل ماأتناوله ففعل (وأيّدناه)، هذا الفعل الذي أتى من آد الشيءُ إذا قوي هذا الشيء وصلُب واشتد. فمعنى (وأيدناه) أي وقوّيناه وشددناه.

ونأت إلى كلمتي (بروح القدس)، فالباء استعملت هنا للاستعانة، أمّا كلمة (روح) فقد قال أبو البقاء في الكليّات وعلى حسب ماأورده صاحب معجم محيط المحيط، قال إنّ كلمة روح لها عدّة معاني. فهي تستعمل بمعنى نفس الإنسان، وتستعمل بمعنى استجلاب المنافع واستدفاع المضار، وتستعمل لِما به حياة البدن، وتستعمل بمعنى الأمر الإلهي كما: وروح منه، وتستعمل بمعنى الوحي نحو: تنزّل الملائكة والروح. وسُمّي القرآن الكريم نفسه روحاً نحو: وأوحينا إليك روحاً من أمرنا. وتستعمل الرّوح بمعنى الرّحمة نحو: وأيّدهم بروح منه. وقد يكنّى بالرّوح عن جبريل نحو: فأرسلنا إليها روحنا - ثم إنّ كلمة الروح هي خلاف كلمة الجسد، كذلك فإنّ الرّوح من كل شيء تعني باطنه وحقيقته، أمّا كلمة القُدس فلا تعني إلاّ الطهارة ومُشتقّة من القداسة.

وعلى أساس من هذه الدلالات لألفاظ ﴿وأيّدنا بروح القدس﴾، وانطلاقاً من موضوعيّة مُهمّة بعثة المسيح الناصري التي كانت تنحصر في محاولة توضيح جوهر وحقيقة التعاليم الموسويّة النابعة من عقيدة توحيد الذات الإلهية توحيداً خالصاً، هذه الأمور التي غابت عن أفهام الاسرائيليين قبيل بعثة المسيح الناصري، يعود معنى جملة ﴿وأيّدناه بروح القدس﴾ أي قوّينا دلائل صدق المسيح الناصري بما كشفناه عليه من حقائق وجوهر الطّهارة التي نزلت بها تعاليم موسى ولنغرسها في أفئدة المؤمنين بالله عزوجلّ، تلك الحقائق والطهارة التي فقدها بنو اسرائيل والذين باتوا لايفهمون من تعاليم موسى إلاّ ظواهرها وقشورها.

فهذه هي دلالة قوله الله تعالى: ﴿وأيّدناه بروح القدس﴾. وتأكيداً للمعنى الذي ذهبت إليه، فلنعد إلى الآية (١١٠) من سورة المائدة، فهي فسّرت جملة ﴿وأيّدناه بروح القدس﴾ بنفس هذا التفسير الذي بيّنته، ومعلوم أنّ القرآن يفسّر بعضه بعضاً.

قال الله تعالى في الآية (١١٠) من سورة المائدة: ﴿**إذ قال الله ياعيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيّدتك بروح القدس**﴾. فقد أتى جلّ شأنه هنا بحرف (إذ) كإسم للزمان الماضي مرّتين ﴿**إذ قال**﴾ و ﴿**إذ أيّدتك**﴾، ومذكّراً عيسى ابن مريم بما أنعمه الله تعالى عليه وعلى والدته، فحصر هذه النعمة التي أنعمها الله عليهما بجملة ﴿**إذ أيّدتك بروح القدس**﴾ ولنلاحظ وجود إشارة (قف) على آخر كلمة القدس، هذه الإشارة التي يراد بها إعلام قارئ كتاب الله العزيز بانتهاء مضمون ماأراد الله تعالى إطلاعنا عليه. هذا وإنّ وجود إشارة الوقف هذه تُلزمنا أن ننظر إلى مايرد بعدها على أنّه تفسير لما قبلها. وقد أضاف تعالى يوضّح للقارئ دلالة ﴿**إذ أيّدتك بروح القدس**﴾ فقال: ﴿**تكلّم النّاس في المهد وكهلاً**﴾ وهذا كلامٌ مُجملٌ أيضاً ويعني أنّ تقويتنا إياك بروح القدس ساعدتك على أن تصبح واعظاً لامثيل لوعظه في شبابك أي في سنّ المهد. وكهلاً أي في سنّ الشيخوخة، أي قبل حادثة الصّلب وبعدها، وعلى اعتبار مانبّه إليه الحديث الشريف الذي أورده البخاري من أنّ عيسى عاش مائة وعشرون عاماً.

والمهمّ هو أنّ ﴿**تكلّم الناس في المهد وكهلاً**﴾ على حين أنّها جملةٌ أجملت تفسير ﴿**إذ أيّدتك بروح القدس**﴾، فهي قد حدّدت دلالة (روح القدس) أنّ مضمونه هو ماكان يكلّم عيسى ابن مريم به النّاس من تعاليم ويعظهم بها في المهد وكهلاً. ونفت بذلك جميع المعاني التي تأوّلها المفسرون ونسبوها لهذين اللفظين.وعليه فمعنى (تكلّم النّاس) أي تعظهم بحقائق وجوهر التّعاليم الموسويّة.

ومن ثم راح تعالى يزيدنا شرحاً، وأتى بظروف الزمان (إذ) للمرّة الثالثة وأضاف يقول: ﴿**وإذ علّمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل**﴾ أي أنه لولا أن علّمتك روح وجوهر وحقائق كتاب موسى ولولا أن أظهرت عليك حكمة وفلسفة كل تعليم من تعاليم الكتاب المذكور، ولولا أن كشفت عليك

أنّ حكمة وفلسفة تلك التعاليم كان الغرض منها تطهير النفس البشرية وصبغها بصبغة التوحيد الخالص من شوائب الشرك بأنواعه، فما كان باستطاعتك أن تزعم أنّك تعظ بحقيقة التوراة، ولا أن تزعم أنّك أتيت بالانجيل أي بالبشارة التي بشّرت بها التوراة، فهو تعالى عندما عطف كلمتي التوراة والإنجيل هنا على الكتاب والحكمة، فقد أصبح الكتاب والحكمة قرينة في حدّ ذاتها تنفي أن يكون المراد من لفظ التوراة هنا هو الكتاب نفسه بل وللتّنبيه بهذا الأسلوب البلاغيّ إلى ماتضّمنه كتاب موسى من بشارةٍ متعلّقة ببعثة المسيح الناصري . فالانجيل معناه البشارة هنا، ولايُقصد بالانجيل في هذا الموقع سوى ماذكرت، خصوصاً وأنّ عيسى ابن مريم كان مصدّقاً لما بين يديه من التّوراة.

٣ـ دلالة تُخلق من الطين كهيئة الطير :

ولنلاحظ منطقية تسلسل أفكار هذه الآية الكريمة من سورة المائدة، فقد تدرّج عرض مضمونها بشكلٍ يتصّف بمنتهى المنطقية ، فقد تدرّج من الإجمال إلى التفصيل وعلى مراحل، فلمّا أتمّ الله تعالى عرض وشرح الناحية النظريّة من الموضوع، انتقل إلى عرض وشروح الناحية التطبيقيّة العمليّة، أي انتقل ليعطينا فكرة عمّا أثمرته تلك النعمة التي أنعمها الله تعالى على عيسى ووالدته، لذلك أضاف تعالى يقول: **﴿وإذ تَخلُقُ من الطّين كهيئة الطيّر بإذني، فتنفخُ فيها فتكون طيراً بإذني﴾**، فلنلاحظ أولاً أنه تعالى أورد في هذه الفقرات كلمة (بإذني) مرّتين، فللإشارة إلى أن مايتحقق على أيدي المسيح لايتحقق على أيدي رجال الدين اليهودي الذين عاصروه، لكونهم منتحلين صفة الممثلين للدّين ولايمثلون الله ولايعظون بإذنه على حين أنّ المسيح الناصري هو الذي كانت له صلته بربّه ويمثّل تعاليم موسى عليه السلام ويعظ الناس بإذن الله عزوجلّ.

والملاحظة الثانية تتجلى من خلال إيراده تعالى كلمتي تخلق والطّين. وقد وردتا في سورة الأعراف على لسان ابليس **﴿خلقتني من نار وخلقته من طين﴾**، وقد استعملتا هناك بدلالتهما المجازيّة، وهي دلالة الطّين على النّفس البشرية ذات الطبيعة الطينيّة التي تستجيب طواعيّةً للوعظ والإرشاد الروحاني.

والملاحظة الثالثة تتجلى في كاف التشبيه الواردة في (كهيئة الطير)، فللتنبيه إلى أنّ ربّنا عزوجلّ يعمد في كلامه هذا إلى الكناية والتشبيه وبأسلوب بلاغي، فلم يورد جل شأنه ألفاظ هذه الفقرات بمعانيها الحقيقية.

فإن نظر القارئ بمنظار هذه الملاحظات الثلاث يُدرك من فوره أنّ الله عزوجل ينبّه أذهاننا من خلال هذه الفقرات وبصورةٍ غير مباشرة إلى الغاية القصوى التي نزلت تعاليم موسى لتحقيقها، ألا وهي مساعدة النّفوس ذات الطبيعة الطّينين لتتطوّر روحانياً، ولتصبح طيوراً محلّقة في سماء الروحانية، فكراً وعملاً وثماراً، وقد نبّه الله جل شأنه أذهاننا أنّه بعث المسيح بهذه الحقيقة ولذلك تطوّر حواريّوه الذين آمنوا بالله تعالى على يديه روحانياً، بينما لم يتحقق هذا الأمر على أيدي كهنة اليهود. وبذلك تعود هذه الظاهرة دليلاً عملياً تطبيقيّاً يثبت منه صدق المسيح الناصري.

٤ً- دلالة تبرئ الأكمه والأبرص بإذني :

ولفت جل شأنه أذهاننا إلى ظاهرةٍ تطبيقيّةٍ ثانية عبّر عنها بقوله تعالى: ﴿**وتبرئ الأكمه والأبرص بإذني**﴾. فالأكمه هو من اعترت عينيه ظلمة فأمسى أعمى وأعشى (محيط المحيط). ولم يُقصد بالأكمه والأبرص هنا، العمى الذي يحصل للعين المادية، ولا البرص أي بياض بشرة الجسد المادي، بل استعمل اللّفظان هنا بدلالتهما المجازية أيضاً، وعلى شاكلة قوله تعالى في كتابه العزيز: ﴿**من كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضلّ سبيلاً**﴾. فالعمى كُنّي به هنا عن ضلالة سبيل الله عزوجلّ. ثم إنّ الأبرص فكنايةً عمّن تناسى صلته القومية مع بني جنسه وشذّ عن تعاليم موسى، فلم يعد يبدو اسرائيلياً أي فقد هوّيته الموسويّة فالله عزوجلّ إذ يقول:

﴿**وتُبرئ الأكمه والأبرص**﴾ يوضّح لنا ظاهرةً عمليّة كانت تتحقق على أيدي المسيح، وهو أنّ من كان يستجيب له ويؤمن بالله تعالى على يديه، يشفى ممّا اعترى بصيرته من ظلمة كانت قد أحدثتها سيئات أعماله، ويشفى على يدي المسيح أيضاً ممّا ظهر منه على المستوى السّلوكي من برص أي من وهنٍ وفقدان لهويته القومية، وليس العكس، فلو أنّ المسيح كان كاذباً في دعواه، فما كان لهذه الظاهرة العمليّة أن تبدو بنتيجة وعظه لقومه .

٥ـ دلالة تخرج الموتى بإذني :

وقد لفت الله جل شأنه أذهاننا إلى ظاهرة تطبيقيّةٍ ثالثة ظهرت على أيدي المسيح، فقال: ﴿وإذ تُخرج الموتى بإذني﴾. والمراد من الموتى موتى النفوس ومجازاً، وكأنه تعالى يعيد إلى أذهاننا حقيقة أنّ جميع الأنبياء إنما يبعثهم الله تعالى لإحياء النفوس الموتى، فمُهمّتهم جميعهم كانت مهمةً روحانيّة وليست مادية.

وهذا شبيه بقوله تعالى بحق محمد سيد المرسلين ﷺ: ﴿ياأيها الذين آمنوا استجيبوا للرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾ وكأنه جلّ شأنه لفت الأنظار إلى أنّه كان المقصد من تعاليم موسى هو إصلاح النفوس وتطهيرها، لذلك يعتبر إصلاح الأمور المعاشية التي تضمّنتها تعاليم ﴿وتفصيلاً لكل شيء﴾ من قبيل تحصيل حاصل.

٦ـ دلالة كففت بني إسرائيل عنك :

ولقد لفت الله تعالى أذهاننا إلى ظاهرة عمليّةٍ تطبيقيّةٍ رابعة تجلّت لأعين الباحثين، وعبّر تعالى عنها بقوله تعالى: ﴿وإذ كففت بني اسرائيل عنك﴾. فكلمة كففت عنك من كفّه عنه أي دفعة وصرفه ومنعه، فالله تعالى يشير من خلال هذه الألفاظ إلى النتيجة التي آلت إليها حادثة محاولة قتل المسيح على الصليب، فالله عزوجلّ كفّ عن المسيح مادبّره بنو اسرائيل للقضاء عليه، فدفع عنه ضُرّهم، وصرفهم، ومنعه حيال مؤامرتهم الشنيعة تلك، فمن أراد التوسّع في فهم هذه الظاهرة الرابعة فليراجع مؤلّفي (هل مات المسيح على الصليب؟)، فقد يجد فيه مايشفي غليله.

وخلاصة القول هو أنّ قول الله عزوجلّ بحق المسيح الناصري ﴿وأيّدناه بروح القدس﴾ لايعني هذا الكلام امتيازاً له على سائر أنبياء الله الكرام، بل كان المقصود منه هو التنبيه إلى المهمّة الأساسية لبعثة المسيح ألا وهي إعادة الوجه الحقيقي لتعاليم موسى عليه السلام، ذاك الوجه الروحاني الذي كان يمثل التوحيد الإبراهيمي الخالص من جميع شوائب الشرك، فهو التعليم الذي جلاّه الله تعالى على أيدي أبو الأنبياء ابراهيم عليه السلام، فالضرورة الزمنيّة اقتضت من ربّنا بعث المسيح وتأييده بروح الطهارة تلك وبفلسفتها وعلى اعتبار أن بني اسرائيل زمن بعثة المسيح الناصري كانت قد غابت عن أذهانهم حقائق تعاليم موسى

تلك، نظرياً وعملياً. فعاد رجال كهنوتهم لايفهمون من تعاليم كتاب موسى إلاّ ظواهرها وقشورها. وعادوا مُنتحلين صفة الممثّلين لله تعالى وأنهم يعظون بإذنه، فكذّبهم الله جلّ وشأنه وسفّه علومهم، موضّحاً أن الذي يفهم حقائق علوم التوراة وتبدو على أيديه ثمارها الروحيّة أيضاً، فهو المسيح ابن مريم وحده الذي كان مؤيّداً من الله تعالى ويعظ ويشفي روحانياً بإذن الله عزوجلّ أيضاً.

٧ً- كانت ضرورة زمنية لإحياء شريعة موسى:

ثم إنّ شريعة موسى التي كانت حُرّفت وشوّهت وغاب بريق وجهها زمن بعثة المسيح الناصري، أضحت يومذاك ضرورة زمنيّة وموضوعيّة في نظر الله عزوجلّ، الله الذي بعث المسيح الناصري يومذاك لإحياء مااندثر من تعاليم موسى، ولاعطائها وجهها الحقيقي، ولإلقاء حُجّة الله تعالى على بني اسرائيل الذين كانوا قد أفسدوا للمرّة الثانية، ولإنذارهم بالعذاب وباستبدالهم بأمّة أخرى غيرهم تعمل ثمار ماأنزل الله تعالى من تعاليم على من بعث من رسلٍ وأنبياء.

هذا وإن ظاهرة بعث المسيح الناصري، ماكانت تخالف منطق تاريخ الإصلاح الديني، بل هي ظاهرة تكرّرت من قبله كلّما شاء الله عزوجلّ تجديد شريعةٍ سماويّةٍ حرّفها أهلها وغاب عن الأنظار لمعانها وحقيقتها . وإلى نفس هذه الحقيقة أشار المسيح الناصري نفسه في انجيل متى ١٧/٥: (ماجئت لأنقض الناموس بل لأكمل). ذلك أنّ مهمة المسيح الناصري اقتصرت على تطهير باطن الإنسان المؤمن، وتأهيله لإقامة حكومة الله تعالى السماوية على فؤاده، وليصبح مهبطاً لتجلّيات كلام الله معه. وماكان من مهمة المسيح الناصري إصلاح معيشة الناس لذلك ورد عنه قوله: (اعط مالقيصر لقيصر وما لله لله).

ألا إن إنّ مهمّة تعاليم أيّة رسالة سماوية، ومغزاها ومقصدها الحقيقي، منذ آدم وإلى يومنا هذا، هو الأخذ بأيدي هذا الإنسان لتعريفه على ربّه، وليفوز بمحبة ربه ويحقّق لقاءه معه ويكسب رضاه، أمّا ماهو خارج هذا المضمون، فتعاليم أُطُرٍ وذرائع وقشور لتحفظ هذا الجوهر والحقيقة وتُديم بقاءه. لذلك ماأن تفقد تعاليمَ هذه الأطر والذرائع والقشور مابضمنها من جوهرٍ وحقيقة. يستدعي ذلك من الله تعالى بعث من يجدّد تلك التعاليم ويعيد إليها حياتها ولمعانها.

ولكـي أسـاعد القـارئ علـى إدراك دلالـة قولـه تعـالى: ﴿**وأيّدنـاه بـروح القدس**﴾، أقتبس لهذا القارئ نماذج ممّا كان المسيح الناصري يعظ بـه قومـه قبـل حادثة صلبة التي تعرّض لها في حياته بينهم.

فقد كان المسيح النّاصريّ لايكتفي ببيعة اسرائيلي علـى يديـه، بـل يؤكـد على هذا المبايع ضرورة الأخذ بتقوى ا لله في سلوكه اليومي، وعلى صورة تنافس وتسمو على تقوى الكَتَبة والفرّيسيّين من كهنة اليهـود، فالمسيح يخـاطب أتباعـه ويقول على حسب مأورده انجيل متى ٢٠/٥ (فإني أقول لكم إن لم يزد برّكُم على الكتبة والفرّيسيّين لن تدخلوا ملكوت السموات). ويضيف بعدها في ٤٨/٥ ويقول: (فكونوا أنتم كاملين كما أنّ أباكم الذي في السّموات هـو كـامل). ثـم إنّ المسيح الناصري كان يحذّر حوارييـه مـن الإنفـاق والتصـدّق مـراءاةً وتغطيـة، فكان يعظهم أن ينفقـوا سرّاً، وبغايـة جـذب محبّـة ربهـم ويقـول في انجيـل متـى ٦/١٩ـ٤: (احترزوا من أن تصنعوا صدقتكـم قُـدّام النـاس لكـي ينظروكـم، وإلاّ فليس لكم أجرٌ عند أبيكم الذي في السموات.. فأبوك الذي يرى في الخفاء، هـو بمازيك علانية.. ويضيف ناصحـاً ١٦/١٩ (لاتكـنزوا لكـم كنـوزاً علـى الأرض حيث يفسِدُ السّوس والصدأ، وحيث ينقّب السّارقون ويسرقون، بل اكنزوا لكـم كنـوزاً في السّـماء حيـث لايُفسـدُ سـوسٌ ولاصـدأٌ، وحيـث لاينقّـب سـارقون ولايسرقون). ثم إنّ المسيح النّاصري كان يحذّر من الدجّالين المُدّعين بأمور كذباً وبُهتاناً، فيحثّ حوارييه على التحقّق من دجلهـم وإدعـاءاتهم مـن خـلال الثمـار الروحية والبركات التي تتأتّى على أيديهم، مُلفتاً أنظارهم إلى قانون طبيعـي وهـو أنّ الأشـجار تعـرف بأثمارهـا ويقـول في انجيـل متـى ٧/١٥ـ١٩: (احـترزوا مـن الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بثياب الحُملان ولكنّهم مـن داخـل ذئـابٌ خاطفـة، من ثمارهم تعرفونهم، هل تجنون من الشّوك عنباً أو من الحسك تيناً، هكـذا كـلّ شجرة جيّدةٍ تصنع أثماراً جيّدة.. كل شجرة لاتصنع ثمـراً جيّـداً تُقطـع وتُلقـى في النّار. فإذاً من ثمارهم تعرفونهم).

ولنُصغ إلى وصايا المسيح الناصري المُوجّهة إلى حوارييه والتي نقلهـا إنجيـل متى ١٠/٥ـ١٠ بألفاظ كاتبه الذي ماكان يدرك حقيقة تلك الوصايا، وقد جـاء القرآن الكريم يوضّح ماكانت تحمله مـن حقـائق ودلالات، فكـاتب انجيـل متّـى يـروي: (هـؤلاء الاثنـا عشـر أرسـلهم يسـوع وأوصـاهم قـائلاً: إلى طريـق أمـم

لاتمضوا، وإلى مدينةٍ للسّامريين لاتدخلوا، بل اذهبوا بالحرّي إلى خراف بيت إسرائيل الضّالة، وبينما أنتم ذاهبون اكرزوا قائلين: إنّه قد اقترب ملكوت السموات، اشفوا مرضى، طَهّروا بُرصاً، أخرجوا شياطين، مجّاناً أخذتم مجّاناً اعطوا مجّاناً، لاتقتنوا ذهباً ولافضّة ولانُحاساً في مناطقكم، ولامِزوَداً للطّريق ولاثوبين ولاأحذية ولاعصا، لأن الفاعل مستحقٌّ طعامه). وهكذا يُلاحظ القارئ أنّ كاتب انجيل متى لايدري دلالة شفاء المرضى ولا دلالة تطهير الأبرص ولا دلالة إحياء الموتى ولا دلالة إخراج شياطين، بل يفهم هذه الأمور على ظواهر دلالاتها المادية وكأن المسيح الناصري في نظره كان طبيباً شرعيّاً حاذقاً وليس مُعلّماً روحيّاً.

والذي نستخلصه ممّا أوردناه من مواعظ المسيح النّاصري أنّ شريعة موسى كانت في زمنه قد حرّفها أهلها وشوهوا تعاليمها، وأفقدوا تعاليمها حقيقتها وجوهرها، لذلك كانت مواعظ المسيح الناصري تركّز على ضرورة فهم حقيقة وجوهر تعاليم موسى والعمل عليها من ذاك المنظار، وليس على ظواهرها وقشورها التي أوصلها إليه كهنة بنو إسرائيل. فكيف أمكن المسيح أن يعظ بهذا الوعظ، وكيف أمكن له إعادة إثمار تعاليم التوراة؟ أمكنه ذلك لتأييد وتقويه الله تعالى بيّناته ودلائله بتعليمه روح تلك التعاليم.

والذي يهمّنا من ذلك كله هو أن نعلم أنّ شريعة موسى التي كانت قد جمعت ولأول مرّةٍ في تاريخ البشر تفصيل كلّ شيء يتعلق بالدنيا والدين، ومؤسّسة ذلك كلّه على أساسٍ من التوحيد الابراهيمي الحنيف الخالص من جميع شوائب الشرك بالله عزوجلّ، وبما يُلائم وأحوال بني إسرائيل. أقول إنّ شريعة موسى تلك أفقدها تُجّار الدّين ومنتحلوا صفة الممثّلين لتلك الشريعة، أفقدوها لمعانيها وأفرغوها من حقيقتها وجوهرها. لذلك اقتضى ذلك تجديد تلك الشريعة وبعثَ حقائقها وإعادة لمعانها، فاصطفى الله عزوجلّ لتصحيح ذلك كلّه المسيح الناصري، وأحدث بواسطته انقلاباً روحياً كبيراً في تاريخ البشر، مقوّياً إياه ومؤيده بروح القدس أي بروح حقائق الطهارة التي نزلت شريعة موسى لتمثرها، وفتح الله تعالى بذلك لبني اسرائيل وللمرّة الأخيرة باب معرفته وقربه ورضوانه، فأضلّ تجّار الدين من كهنة اليهود شعبهم ، وانتحلوا صفة ممثلي الدّين لدى أتباعهم، وصدّوهم بذلك عن الإصغاء للصوت السماويّ الذي مثّلته بعثة المسيح

الناصري، فاستحقوا بذلك عذاب الله الذي أنزله بهم ربّهم بعد سبعين عاماً على أيدي الرومان، ونجّى الله تعالى المسيح مما كاده له هؤلاء وكف أيديهم عنه، وأمره بالهجرة لتبشير بقية السّبي من أسباط اليهود.

ثم إنّ المسيح الناصري الذي أدرك واقع قومه السّيء، والذي كان مُطّلعاً على ماتضّمنته النبوءات التوراتيّه عن مصير قومه بنو إسرائيل، قد بشّره الله تعالى بأحمد أي بمحمّد رسول الله المسمى بصيغة التفصيل أحمد أي أكمل الناس حمداً لله الذي سيكون أكمل توحيداً لله تعالى من جميع من سبقه من أنبياء الله ورسله، وأنقل هنا بعض ماأوردته الأناجيل المعاصرة من معالم تلك البشارة التي بشّر بها المسيح ابن مريم قومه بحقّ النبي الذي سيبعثه الله تعالى من بعده من أبناء عمومة قومه ووفق نبوءة سفر التثنية الاصحاح ١٨/١٨ الذي سبق أن أوردناها.

فها أنّ إنجيل متى ٢٣/٣٨-٣٩ ينقل لنا قول المسيح الناصري مُحذّراً قومه ومبشراً بمن سيأتي بعده، فهو يقول: (ياأورشليم ياأورشليم ياقاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها: كم مرّة أردت أن أجمع أولادك، كما تَجْمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها، و لم تريدوا. هو ذا بيتكم يُترك لكم خراباً، لأني أقول لكم: إنّكم لاترونني من الآن حتى تقولوا مباركٌ الآتي باسم الرّب..). وهل يُلاحظ القارئ توافق قول المسيح الناصري: (ياأورشليم ياقاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين) مع ماورد في الآية (٨٧) من سورة البقرة التي ورد فيها قوله تعالى: ﴿.. **أفكلّما جاءكم رسول بما لاتهوى أنفسكم، استكبرتم، ففريقاً كذّبتم، وفريقاً تقتلون**﴾؟ وأفلا يلاحظ القارئ مايُنذر به المسيح قومه في هذا النّص ويقول: (هو ذا بيتكم يُترك لكم خراباً). هذا الخراب الذي ألحقه بهم الرومان بعد سبعين عاماً من بعثة المسيح، وهو الخراب الثاني الذي أوردته سورة الإسراء؟

ثم أفلا يلاحظ القارئ كيف أن المسيح الناصري ينبئ في هذا النّص المذكور عن بعثة النّبي الآتي (باسم الرب) هذا النّبي الذي سيبعثه الله مباركاً ومهبطاً لتجليات الله عزوجلّ. أي أنّ هذا الآتي سيمثّل ذروة الارتقاء الروحاني. وهل يُلاحظ القارئ كيف أنّ كلمات هذا النّص الانجيلي، انطبقت عمليّاً على بعثة محمد بن عبد الله ﷺ؟

وأنقل للقارئ نصّاً آخر ينسبه إنجيل يوحنا إلى المسيح الناصري في ٢٦/١٤ وهو قوله: (وأمّا المُعزّي، الرّوح القدس، الذي سيرسله الآب بإسمي، فهو يعلّمكم كلّ شيء، ويذكّركم بكلّ ماقلته لكم) فها أن المسيح يبشّر ببعثة (المعزّي) الذي سيأتي بتعليم كامل فيعلّم كلّ شيء، ولايكون المسيح نفسه بل نبياً آخر غيره لقوله (ويذكّركم بكلّ ماقلته لكم). فلو كان المعزي المسيح نفسه، فكيف يقول عنه" ويُذكّركم بكلّ ماقلته لكم؟" ثم إن «المعزي» هو النبي الذي يبعث العزاء في نفوس الناس، فيلوم اليهود ويصدّق المسيح، ويمثل (روح القدس) أي يمثل بأسوته العمليه وبتعاليم شريعته روح الطّهارة وروح التوحيد الذي أتى به ابراهيم الخليل عليه السلام.

وليلاحظ القارئ كيف أن كاتب انجيل يوحنا نقل لنا في ١٦/٧ـ١٤ أقوال المسيح التي يُطَمّئن فيها حوارييه، ويبشّر بالمعزّي من بعده ويقول: (لكني أقول لكم إنّه خيرٌ لكم أن أنطلق، لأنّه إن لم انطلق، لايأتيكم المعزّي، ولكن إن ذهبت أرسله لكم، ومتى جاء ذاك، يبكّت العالم على خطيّته وعلى برٍّ وعلى دينونه: أما على خطيّه فلأنهم لايؤمنون بي، وأمّا على بر فلأنّي ذاهبٌ إلى أبي ولاترونني أيضاً.. وأما على دينونة فلأن رئيس هذا العالَم قد دين. إنّ لي أموراً كثيرةً لأقول لكم، ولكن لاتستطيعون أن تحتملوا الآن، وأمّا متى جاء ذاك روح الحقّ، فهو يرشدكم إلى جميع الحقّ، لأنّه لايتكلّم من نفسه، بل كلّ مايسمع يتكلّم به، ويخبركم بأمورٍ آتية. ذاك يمجّدني).

أفلم يلاحظ القارئ كيف اطلق المسيح على الآتي باسم الرّب في هذا النّص للمرة الثانية صفقة «المعزّي» الذي كان ينبئ عنه المسيح أنّه لن يكون يهودياً بل من قوميّةٍ أخرى غير بني اسرائيل؟ ثم هل بعث الله تعالى بعد موت المسيح مَنْ بجّده، وبرّأه من الموت الصليبي، ونزّه عن دعوى الألوهه، ودفع عنه اعتراضات اليهود إلاّ محمد بن عبد الله رسول الله وخاتم النبيين ﷺ؟ وأفلم يلاحظ القارئ كيف أن القرآن الكريم الذي أنزله ربّنا على قلب محمد ﷺ أنزله مفعماً بالأنباء الغيبيّة وفق قول المسيح (ويخبركم بأمور آتية)؟ وهكذا فلا تنطبق أقوال المسيح الناصري المذكور إلا على محمد رسول الله ﷺ فهو "المعزي" وهو الذي مجّد المسيح وأبقى ذكراه على مدى الأيّام .

من هذا كلّه نكون قد أحطنا بمعالم الإنقلاب الروحي الكبير الذي أحدثـه ا لله تعـالى علـى أيـدي المسـيح ابـن مريـم والـذي تحـدّد في عمليّـة إعـادة الوجـه التوحيديّ الإبراهيميّ الذي احتوته تعاليم شريعه موسى عليه السّلام. فلـولا بعثه المسيح النّاصري لكانت انقطعت السّلسلة مابين ابراهيم ومابين محمد ﷺ ومابعثه ا لله تعالى به من تعاليم، ولكان استحال على الباحث الذي يتنـاول حـال اليهـود الفكري والعملي أن يعثر على اللّحمة الـتي تربـط مـابين توحيـد ابراهيـم الحنيـف وتوحيد سيّد المرسلين. ولعاد هؤلاء الباحثون يوقنون بوجـود حلقـةٍ مُفرغـةٍ بـين التّوحيدين. وهكذا أثبت ا لله تعالى أنّه علاّم الغيوب وأنّه رب العالمين.

الانقلاب السادس الروحي الكبير الذي أحدثتـه بعثة محمد ﷺ :

لابدّ أن اتّضح لأعين القـارئ ممّـا ذكرنـاه حتـى الآن أنّ ا لله تعـالى الـذي كان قد بعث آدم ليخرج البشر من كهوفهم، هذا الإله الـرّب الـذي راح يبعـث رسلاً وأنبياء بتعاليم على قدر عقل البشر ولتطوير تلك العقول وللمسـاعدة علـى تهذيب البشر وتمدينهم. هذا الإلـه الـذي وصـل بالبشـر إلى مرحلـه ربـط الدّيـن بالدنيا عن طريق شريعة موسى، ووضّح جوهر تلك التعـاليم علـى أيـدي المسـيح ابن مريم، فبيّن أنّها قامت على أساس من توحيد ا لله وطلب رضوانه، فلابدّ لهـذا القارئ أن يكون قد أدرك أنّ بناء الدّين الشامخ لم تعـد تنقصـه إلاّ لبنـةٌ واحـدة، ولقد شكلت بعثة محمد وقرآنه هذه اللّبنة التي أكملت بناء هذا الديـن التوحيـديّ العظيم. وأحدث ا لله عزوجـل ببعثـة محمـد ﷺ بالتـالي أعظـم انقـلابٍ روحـيٍ في تاريخ البشر الطويل.

١- القرآن كلام الله تعالـى :

وبدافـع أهميـة هـذا الانقـلاب الروحـي الكبـير الأخـير، يتسـاءل القـارئ بالبداهة عن معالمه وموضعه من الرسالات السماويّة التي سبقت حدوثه. وأجيـب أنا بالإيجاز على هذا التساؤل وأقول:

أتناول هذا الموضوع من جانب كلام الله مع عباده، وما استجدّ على هذا الصعيد ببعثة محمد خاتم النبيين ﷺ. فلم يحدث في تاريخ البشر أن أنزل الله تعالى كتاباً بألفاظه نفسها، إلاّ كلمات الوصايا العشر التي أنزلها على موسى من قبل. فكتاب الله العزيز الذي أنزله على قلب محمد ﷺ، أنزله الله تعالى لفظاً وحركاتٍ وتوقيفات، ووعد بالمحافظة عليه و لم يُنزل الله عزوجلّ كتابه هذا لإنجاز مهمة واحدة، بل لإنجاز مهمّات عديدة. لذلك اصطلح له عدّة تسميات: فوصفه بإسم «القرآن» وبناء منه جل شأنه على أنّ هذا الكتاب سيُستنسخ ويُطبَع بأعدادٍ هائلة، ويتداوله الناس ويتلونه صباح مساء في مجالسهم محفوظاً ومُكّرماً، ووصفه جلّ شأنه بإسم «الفرقان» من مُنطلق أنّ ما احتوى عليه كتابه العزيز من علوم، سيفرق بها الحق عن الباطل فيكون مُهيمناً بذلك على جميع مابين أيدي الناس من تعاليم ينسبونها إلى الله عزوجل. ووصف الله تعالى كتابه العزيز هذا باسم «الحكيم» من منطلق أنه تعالى لم يورد فيه حكماً إلاّ وأتبعه بفلسفته العلميّة التي أُسس ذاك الحكم على أساس منها.. ووصف الله جل شأنه كتابه هذا باسم «الذكر» من مُنطلق أنّ في العمل على تعاليمه رفعة هذا المؤمن وسرّ تقدُّمه ورقيّه الروحي. وهذه الأوصاف تميّز بها الكتاب الذي أنزله الله تعالى على قلب محمد خاتم النبيين ﷺ.

فهذه الخطوة التي حدثت عن طريق إنزال هذا الكتاب السماوي الأخير تجاوزت جميع طرق كلام الله مع عباده التي لاحظنا معالمها فيما مضى من بيان. تجاوزت مكالمة الله مع البشر من وراء حجاب، كما تجاوزت مستوى الكلام المشافهة الذي حدث ببعثة موسى عليه السلام. تجاوزت كلّ هذه الطرق، إلى مرحلة جديدة أسمى من جميع تلك الطّرق، وقد تمثلت في وحي القرآن المُدّون والموعود بالمحافظة عليه إلى يوم الدّين.

ويَثْبُتُ ادّعاؤنا هذا من طريقين: الأوّل عمليّ وهو وجود هذا الكتاب بالرغم من مضي أربعة عشر قرنا على إنزاله ، وقد سبق لي أن أثبت في المبحث الأول من مؤلّفي هذا مصداقيه القرآن المجيد ـ والطريق الثاني الذي يُثبت صدق إدعائنا الذّي ذكرناه، هو مانبّهت إليه آيات الوحي القرآني من أن موسى طلب من ربه في سورة الأعراف ﴿**رب أرني أنظر إليك**﴾. فلم يستجب ربه لطلبه، على حين صرحت سورة النّجم بحقّ سيد المرسلين ﷺ بقوله تعالى: ﴿**ثم دنا**

فتدلّى، فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ماأوحى، ماكذب الفؤاد ما رآى﴾. هذا وإنّ جُملة ﴿**ثم دنى فتدلّى. فكان قاب قوسين أو أدنى**﴾. تُنبّه إلى سمّو مقام محمد على مقام موسى عند الله عزوجلّ، وقد قابل هذا التمايز ماأنزل الله تعالى على محمّد ﷺ من وحي القرآن في مقابل ماأوحى إلى موسى من وصايا عشر. والذي نستخلصه من ذلك كلّه هو أنّ الانقلاب الروحي العظيم الذي تحقق على أيدي محمد رسول الله ﷺ، على صعيد كلام الله مع عباده فاق جميع ماسبقه من انقلاباتٍ روحيّةٍ تحقّقت على أيدي المرسلين من قبله.

٢ـ التشريع الكامل:

وأتناول الإجابة على التساؤل الذي ذكرناه على صعيد الأحكام والتشريع، وماستجدّ على هذا الصّعيد بإنزال ماتضمّنه كتاب الله القرآن المُنزل على محمد ﷺ فأقول: أفلم يُلاحظ القارئ كيف أنّ هذا القرآن قد نسخ جميع ماسبقه من كتبٍ سماويّة، وكيف أنّه تضمّن أحكاماً وتشريعاً كاملاً ويصلح لكل زمان ومكان؟ فهل نسخ القرآن الكريم التوراة والإنجيل وغيرها عبثاً ودون حكمه؟ أفلم يلاحظ القارئ كيف أن تعاليم تلك الكتب كانت قومية الصّبغة ولاتصلح أحكامها وتشريعها لإقامة مجتمعٍ ونظام عالمي؟ ثم إنّ كمال رقي الإنسان روحياً يرتبط ارتباطاً عضوياً بكمال الأحكام والتعليم الذي يعمل عليه. وعليه فلم تكن أحكام وتعاليم الكتب السابقة تفي بهذه الضرورة الموضوعية، على قدر ماجاءت مدرسة أحكام وتشريع وتعاليم القرآن لتفي بهذه الضرورة الموضوعية ولتخرّج مدرسة القرآن الكريم رجالاً على مستوى النبيّين والصّديقين والشهداء والصالحين. ألا إن كتاب الله العزيز لفت أنظارنا إلى هذه الحقيقة التي ذكرناها في الآية (١٥٤) من سورة الأنعام فيما يتعلّق بأحكام وشريعة موسى فقال: ﴿**ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذي أحسن، وتفصيلاً لكلّ شيء، وهدى، ورحمة لعلهم بلقاء ربّهم يؤمنون**﴾. أي أن التّرجي بالحصول على لقاء الله عزوجلّ ارتبط عضوياً بأحكام وتعاليم الكتاب الذي أنزله الله تعالى على موسى، على اعتبار أنها أحكامٌ وتعاليم ذات صبغةٍ قومية فلا تفي بترقية الإنسان الذي يعمل عليها ترقيةً روحيةً كاملة تؤهّله للتشرُّف بلقاء ربّه عزّ وجلّ وجذب محبّته وقربه ورضوانه.

هذا وقد لفت الله تعالى أنظارنا في الوقت نفسه إلى كمال أحكام وتعاليم القرآن التي توصل الإنسان إلى لقاء ربّه حاذفاً هذا التّرجي. حيث أنه جل شأنه قال في الآية (١١١) من سورة يوسف بحقّ مدرسة أحكام وتعاليم القرآن الكريم: **﴿لقد كان في قَصَصِهم عبرةٌ لأولي الألباب، ماكان حديثاً يُفترى، ولكن تصديق الذي بين يديه، وتفصيل كلّ شيء، وهدى، ورحمة لقوم يؤمنون﴾**. فهو جل شأنه على حين أنهى الآية الأولى المتعلقة بالشريعة الموسوية بقوله: **﴿هدى ورحمة لعلهم بلقاء ربّهم يؤمنون﴾**. فإنه جل شأنه أنهى الآية الثانية المتعلّقة بالشريعة المحمدية بقوله: **﴿هدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾**. وبذلك ربط عزوجلّ التعليل والتّرجي بمدرسة موسى، وحذف هذا التعليل والترجي فيما يتعلق بمدرسة القرآن الكريم. كذلك حذف كلمة (تماماً) من الآية المتعلقة بمدرسة القرآن الكريم على اعتبال كمال ماتضّمنتهُ من أحكام وتشريع. فأعظم بهذا الأسلوب البلاغي المعبّر، وبهذه الدّقة في التعابير والّتي لايلحظها إلا المتدبّرون.

أما هذا الكمال الذي اتّصفت به أحكام وتشريع كتاب الله القرآن، فقد صرّح به الله عزوجلّ في الآية الثالثة من سورة المائدة، وضمن ماراح يفرضه على المسلم من أحكام. فهو تعالى قال ضمن تلك الآية **﴿.. اليوم يئس الذين كفروا من دينكم، فلا تخشوهم واخشون، اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام ديناً، فمن اضطُرّ في مَخْمصةٍ غير مُتجانفٍ لإثم، فإنّ الله غفور رحيم﴾**. فهو تعالى صرّح هنا أن اكتمال بناء الدّين الشاهق الذي تتبنّونه وتؤمنون بأحكامه وتعاليمه، ألقى اكتمال هذا البناء الديني اليأس والقنوط في قلوب الذين كذّبوه وكفروا به، لموازنتهم مابين تشريعه وأحكامه ومابين مالديهم من أحكام وتشريع. وبذلك سدّ في وجوه الذين كفروا بشريعة الإسلام باب التّفاخر والتّباهي بما في كتبهم من أحكام وتشريع. فلمّا انتهى تعالى من التّنبيه إلى ذلك، راح يخاطب الذين آمنوا بشرع الإسلام وينبّه إلى أنّ واجبهم بعد اكتمال بناء الدّين بهذا التشريع أن يضعوا خوف الله وخشيته نصب أعينهم في كلّ أمر من أمور حياتهم اليومية، فهنا يكمن سرّ قوّتهم ومظهر تعلّقهم بربّهم عزوجلّ، لذلك فلا ينبغي أن تبدر عنهم الخشية والخوف من هؤلاء المكذبين الكفّار، وإلاّ فقد ثبت ضعف إيمانهم بربّهم وقدراته عزوجلّ، بربّهم الذي أكمل

لهم بناء هذا الدّين الذي راحوا يدينون بشرعه وتعاليمه. بربّهم الذي أتمّ بذلك نعمته عليهم ورضي لهم الإسلام ديناً.

ألا إنّ ألفاظ ﴿**أكملت لكم دينكم**﴾ تشير صراحة إلى كمال التشريع الإسلامي، وإلى أنه تعالى وضع هذا التشريع موضع التنفيذ لإكتمال تعاليمه، ثم إنّ ألفاظ ﴿**وأتممت عليكم نعمتي**﴾ تُشير إلى أنّ الثمار الروحية لهذا التشريع اكتملت أيضاً مادياً وروحياً، أي أنّ مدرسة القرآن أضحت تدرّس هنا التشريع الكامل التعاليم نظرياً كما راحت تُدرِّسْه تطبيقيّاً ليجني الدارس من ثماره الروحية أعظم الثمار.

وهكذا تكون هذه الآية من سورة المائدة قد نبّهت إلى حقيقة اكتمال بناء الدين وإلى كمال ماأنزل الله تعالى في هذا الكتاب العزيز، وليُحدث محمد رسول الله ﷺ، وهو المبعوث إلى النّاس كافة، ليحدث انقلاباً روحياً عظيماً هو أعظم انقلاب روحي في تاريخ البشر قاطبة وعبر تاريخه الطويل.

وأتناول هذا الموضوع من جانب ثالث وهو جانب معالم التّوحيد الذي بُعث به محمد رسول الله ﷺ، فإن تدبّر القارئ آي الذكر الحكيم يُلاحظ أن الله تعالى وصف هذين النبيين ابراهيم ومحمداً عليهما السلام بوصف واحد. لذلك أورد ربّنا عزوجل قوله في سورة النّحل الآية (١٢٣) يساوي بين وصف إبراهيم ووصف محمد سيد المرسلين وقال: ﴿**إنّ ابراهيم كان أمّةً قانتا لله حنيفاً، ولم يك من المشركين، شاكراً لأنعُمِهِ اجتباه وهداه إلى صراطٍ مستقيم، وآتيناه في الدنيا حسنة، وإنّه في الآخرة لمن الصّالحين، ثمّ وأحينا إليك أن أتّبع ملّة إبراهيم حنيفاً، وماكان من المشركين**﴾. فهو جلّ شأنه خاطب قوم محمداً فيما أنهى به الآية الأخيرة من أنّكم تعلمون أنّ محمداً لم يكن مشركاً قبل أن يؤت هذا الكتاب العظيم فما كان محمد من المشركين، بل كان موحّداً على شاكلة جدّه ابراهيم.

وأكّد الله عزوجلّ اشتراك ابراهيم ومحمد في توحيدهما، في الآية (١٠٥) من سورة يوسف أيضاً حيث قال فيها: ﴿**قل هذه سبيلي ادعو إلى الله** وقف، **على بصيرةٍ أنا ومن اتّبعني، وسبحان الله وماأنا من المشركين**﴾.

لكنّ هذا القارئ إذا تدبّر آي الذكر الحكيم من منظار مابين محمد وابراهيم من فرقٍ في مقامهما الروحي، فلابد له من أن يلاحظ علوّ مقام محمد

على مقام ابراهيم من خلال ماأنهى ا لله تعالى به الآيات الكريمة في موضعين من كتاب ا لله العزيز، فعلى حين نلاحظ قول ربنا في الآية (١٣١) من سورة البقرة: **﴿ومن يرغب عن ملّة ابراهيم إلاّ من سَفِهَ نفسه، ولقد اصطفيناه في الدنيا، وإنّه في الآخرة لمن الصالحين: إذ قال له ربّه أسلم، قال أسلمت لله ربّ العالمين﴾**. فهو تعالى أنهى هذه الآية بجملة أسلمت لله ربّ العالمين. ولا نلاحظ وصفاً آخر لابراهيم في موضع آخر من كتاب ا لله العزيز يزيد على وصفه أن أسلم لله رب العالمين.

فعلى حين نلاحظ ذلك، تواجهنا الآية (١٦١) من سورة الأنعام بقوله تعالى: **﴿قل إنّني هداني ربّي إلى صراطٍ مستقيم، ديناً قيّماً، ملّة ابراهيم حنيفاً، وماكان من المشركين. قل إنّ صلاتي ونُسكي ومحياي ومماتي لله ربّ العالمين، لاشريك له، وبذلك أُمرت، وأنا أوّل المسلمين﴾**. فهو جلّ شأنه قد وصف رسوليه هنا ابراهيم ومحمداً بوصف واحدٍ من جهة. وميّز محمداً في الفقرة الأخيرة من هذه الآية، من جهة ثانية على ابراهيم لقوله: **﴿وأنا أوّل المسلمين﴾**. فابراهيم أسلم نفسه لربّ العالمين، أمّا محمد خاتم النبيين ﷺ فقد كان أوّل من أسلم نفسه من نفسه لله ربّ العالمين. ليس أولهم زماناً، إذ المعلوم أنّ ابراهيم هو السّابق زماناً، وهذه قرينة لغويةٌ تصرف لفظ (أوّل) هنا من الزّمانية إلى الدّلالة على أولويّة مقام محمد ﷺ، وسمّوه. فمحمد بن عبد ا لله يأتي في ذروة هرم التوحيد، لذلك فهو أوّل المسلمين وكأنّ ا لله عزوجلّ ينقل لنا عن لسان محمد ﷺ قوله بألفاظٍ أخرى منبّهاً إلى الفارق بين مقامه ومقام ابراهيم جدّه من حيث التّطبيق، وليس من حيث النظريّة والاعتقاد، قوله: **﴿وأنا أوّل المسلمين﴾** بمعنى أنّ المقام الروحي الذي حصل عليه محمد ﷺ من حيث فُرص إثبات توحيده لربّه، أعلى وأرفع من المقام الروحي الذي حصل عليه جدّه ابراهيم عليه السلام، لذلك يُعدّ محمد ﷺ في نظر ربّه (أول المسلمين) فالسّبق الزماني لابراهيم ولاشكّ، لكنّ الأولوية في المقام الرّوحي فلمحمّد سيد المرسلين ﷺ. وهكذا تكون بعثة محمد رسول ا لله ﷺ قد أحدثت انقلاباً روحياً عظيماً أيضاً على الصعيد التطبيقيّ للتوحيد الذي بُعث به ابراهيم عليه السلام. ذلك أنّه لم يتحقق من إنجازات على أيدي ابراهيم تماثل ماتحقّق من إنجازات تحققّت على أيدي خاتم النبيّين. اللهم صلّ وسلّم وبارك على محمد وعلى آل محمد إنك حميد مجيد.

من هذا كلّه ندرك أن الله تعالى قد أحدث انقلاباتٍ روحيةٍ عظيمة جدّاً على صعيد كلامه مع عباده وعلى صعيد التشريع وعلى صعيد الأمور الروحيّة من خلال بعثة محمد ﷺ. فأكملت هذه الانقلابات ما اعترى من قبل أمور كلام الله والتشريع والحياة الروحيّة في الرسالات السماوية السابقة من نقص، كان سببه الضرورات القوميّة والمرحليّة الزمنيّة. وهكذا أكملت بعثة محمد ﷺ ومعه هذا القرآن بناء الدّين فعاد الدّين بالتالي مُحكماً وشامخاً وجذّاباً يأخذ بمجامع أفئدة الباحثين والمحققّين. وبذلك رسخت قواعد الدّين في عالمنا الدنيوي في أفئدة بني آدم الذي كان قد أخرج أجدادهم من حياة الكهوف إلى حياة السّهول والتحضّر. وهذا كله جلّى لأعين الباحثين والمحققين مظاهر تجليّات ربوبية الله ربّ العالمين وتدخّلها في حياة البشر، مُذ خلق تعالى هذا البشر وإلى زمن بعثة محمد ﷺ وإنزال هذا القرآن العظيم.

٣ـ العبادات هادفة :

على هذه الصورة، فلا بدّ أن يكون قد أدرك هذا القارئ موضع الرسالة الإسلامية ومكانتها بين الرسالات السّماوية جميعها دون أيّ استثناء. وذلك من خلال ماوضّحتُه لهذا القارئ في الصفحات الماضية بما يتعلق بجميع صُعُد الدّين: تشريعاً، ووحياً، وحياةً روحية.

لكنّي أستشعر مع ذلك تشوّق هذا القارئ ليطّلع بشيء من التّفصيل على معالم ماأحدثته تعاليم القرآن الكريم من تغيير جذريٍ إمتازت به عمّا سبقتها من تعاليم. لذلك أتناول كلّ أمرٍ من تلك الأمور، فأقول: هذا مجال العبادات، وطقوسها وأشكالها، فقد أحدثت تعاليم الإسلام في مجال العبادات إصلاحاً وتطويراً بما يتناسب ومرحلة النّضوج العقليّ الذي بلغه عقل البشر وإدراكه.

فقد كانت الأقوام في الماضي أقرب إلى حياة البداوة منها إلى حياة التحضّر والتمدّن. فكانت طقوس العبادات وأشكالها تتناسب وحالة الأقوام في أزمنتها تلك. وللقارئ أن يطالع على سبيل المثال سِفْر اللاّويين من التّوراة المعاصرة، فسيلاحظ من خلال مطالعته للسِفْر المذكور أنّ التعاليم التي جاء بها موسى عليه السّلام، كانت أوجدت طبقة كهنةٍ كما أوصت بتحديد أمكنةٍ للعبادة لاتجوز العبادة خارجها، وأوسد أمر الإشراف عليها وإقامة الشعائر الدينيّة

فيها إلى طبقة الكهنة المذكورة، ولتتوسّط طبقة الكُهّان هذه مابين ا لله تعالى ومابين الذين يعبدونه من عامة بني إسرائيل، ووفق طقوس نصّ عليها سفر اللاّويين المذكور.

والآن إن تدبّر هذا القارئ ماتضمنته تعاليم القرآن الكريم، فسيلاحظ أنّ القرآن الكريم نصّ صراحةً على إلغاء نظام الرّهبنة والكهانة تلك، وألغى بذلك كلّ وساطةٍ مابين ا لله عزوجلّ وبين الذين يعبدونه، وأمر بإقامة شعائر الدّين دون توسّط أحدٍ من طبقة رجال الدين. فخففت تعاليم القرآن الكريم عن كاهل المؤمنين ما اشترطته الرسالات السّماوية السابقة من أثقالٍ وقيود. وعادت الأرض كلها مسجداً وطهوراً.

ثم إنّ هذا التبديل والإصلاح الذي أحدثته تعاليم القرآن الكريم على صعيد العبادات أذهل طبقة الرّهبان من أهل الكتاب. حيث راح الرّاهب يتساءل في صدر بعثة الرسول الكريم ﷺ: وهل يصحّ للؤمن أن يتعبّد دون توسّط راهبٍ يرعى مكاناً مخصّصاً للعبادة؟ وأين بقي المذبح والقرابين وإشعال البّخور؟

ثم إنّ القرآن الكريم لم تلغ تعاليمه نظام الرهبنة وتوابعه وحسب، بل واشترطت إقامة العبادة وفق نظام جماعي. الأمر الذي اقتضى من المسلمين تشييد مساجد، لتفي بالحاجة التي يقتضيها نظام العبادة المذكور، ولإقامة الصلوات جامعةً في هذه المساجد بسهولةٍ ويُسرٍ تامّين.

وقد أوجبت تعاليم القرآن الكريم إقامة خمس صلوات يوميه بصورة جماعية. مُركّزة في ذلك على ضرورة خشوع المصلّى في صلواته. وربط القرآن الكريم موضوع فلاح هذا المؤمن وفوزه بمحبّة ربّه وقربه، بحالة الخشوع المطلوبة منه في صلاته. مُعرضاً عن التّفصيل في شكل الصلاة ذاتها، وتاركاً أمر ذلك إلى الأسوة العملية لرسوله الكريم ﷺ بشكل مقصود والحكمة منه إشعار المؤمن بأهميّة الخشوع وبأهمية مضمون الصلاة ذاته، وأنّ حركات الصلاة المطلوبة هي مجرد أُطر وقشور و لم تكن هي المقصّود بعينها في أصل تعاليم الدّين الإسلامي. علماً بأنّ الحركات والتلاوة المطلوبة إنما في الصّلاة، قد أسّسها ربّنا عزوجلّ على أسسٍ علميّةٍ وفلسفية أيضاً لتساعد هذا المصلّي على استحضار حالة الخشوع بين يدي ربّه عزّوجل.

هذا وقد حدّدت تعاليم القرآن الكريم المقصد من العبادة، فأطرّته في نطاق محاولته التّعرف إلى خالق هذا العابد وجذب محبته والفوز بقربه ورضوانه، منوّهة أنّ شكل العبادة لم يكن هو المقصود من عبادة ا لله عزوجلّ، فا لله الخالق لاينظر إلى شكل عابده وصورته، بل ينظر إلى ما انطوى عليه فؤاده، لذلك عاد بإمكاننا القول جازمين: إنّ الصلاة الإسلامية وبقية أشكال العبادات الإسلامية قد فتحت للعابد باب تعرّفه إلى ربه بصورة يقينيّة، وهو أمرٌ فصّلتُ الكلام عنه في المبحث الثاني من هذا الكتاب، كما فَتَحَتْ تعاليم القرآن الكريم بذلك لهذا العابد باب التّرقي الروحاني على مختلف درجات سُلّمة وحثّهُ دعاءُ الفاتحة أن يسعى ليكون مع النّبيين والصّديقين والشهداء والصالحين، واعداً إياه بقوله تعالى: **﴿ومن يطع ا لله والرسول فأولئك مع الذين أنعم ا لله عليهم من النّبيين والصّديقين والشهداء والصالحين وحَسُن أولئك رفيقاً﴾**.

ولّما كان موضوع محاولة التّعرف على هذا الخالق، يقتضي تعرّف المؤمن العابد على ماتتّصف به ذات خالقه من صفات، وماتحمله من أسماء حُسنى فلابدّ أن لاحظ هذا المؤمن كيف أنّ هذا الكتاب الحكيم قد اشتمل على جميع أسماء ا لله الحسنى المطلوب معرفتها، موضّحاً مابين هذه الأسماء من روابط وعلاقات، كماوضّح كيفيّة عمل كلّ صفةٍ من هذه الصفات. وأغنت تعاليم القرآن الكريم بذلك المؤمن السالك درب عرفان ربّه، أغنته عن مراجعة ماتضمّنته الكتب السماوية السّابقة المنسوخة، من معلومات تختصّ بهذا المجال.

وقد أعطى القرآن الكريم نظريّةً متكاملة فيما يتعلّق بهذا الكون من حولنا وأشبع تساؤلات الإنسان عن المقصد من وجوده، من أين أتى وإلى أين المصير، وقدّم القرآن الكريم لهذا الإنسان الأدلّة العلميّة التي تثبت طروحاته، فأضحى لدى هذا الإنسان فكرةٌ واضحة عن مرحلة حياته الدنيا، وفكرة مُجملةً عن حياة مابعد الموت، ووضّح القرآن الكريم لهذا الإنسان أنّ لأعماله الدنيوية ثمارها الروحيّة نوراً أو ناراً، ودعّم له هذه الحقيقة من خلال ماأنبأه عن تفصيلات ماسيلاقيه يوم البعث والنّشور، وبأسلوبٍ مجازي رائع السّبك والدّلالة، وبتدعيم من حقائق علميّة يواجهها في حياته الدنيا هذه، وهذه الحقائق وهذه المعلومات التي قدّمها القرآن الكريم على هذا الصعيد، لايجد الباحث أيّ أصلٍ لها في الكتب المُنزلة المنسوخة، وعليه يُعد القرآن الكريم أوّل كتابٍ سماويٍ يتطرّق لهذه

الأبحاث وبأسلوبٍ علمي. وبذلك تكون تعاليم القرآن الكريم قد أحدثت انقلاباً جذرياً على صعيد العبادات والأمور الروحيّة.

وبنفس روح التّصحيح والأسلوب العلمي وبما يناسب مرحلة النضوج العقلي التي بلغها البشر قبل أربعة عشر قرناً من الزمان، وبما يناسب كل زمان زمكان وبروح الشمولية، أحدثت تعاليم القرآن الكريم انقلاباً جذرياً في بُنيه الأحكام الشرعية والتشريع، ممّا لانجد له أصلٌ في سفري التكوين والتّثنية من التّوراة المعاصرة. فتعاليم هذين السّفرين الشرعية اتّصفت بشدةٍ تتناسب وحال قوم موسى الذين كانوا أقرب إلى البداوة منهم إلى روح التحضّر والتمدّن والتهذيب. خصوصاً وأنّ روح العبوديّة كانت قد سَرَت في دم كلّ إسرائيلي نتيجة لاستعبادهم من قبل ملك مصر آنذاك. وهذه حقيقة تساعد القارئ على إدراك سرّ نسخ القرآن الكريم لتعاليم التّوراة والإنجيل خاصة.

وقد أتت أحكام الشريعة الإسلامية التي شرّعها القرآن الكريم تمتاز بكمالها وبشموليتها وبمرونة أحكامها. فشملت جميع مجالات الحياة: أخلاقاً واقتصاداً وتعليماً وثقافةً سياسيّة. فقدّمت لجميع هذه المجالات الحياتيّة حلولاً شافيةً ووافيةً وصالحةً للعمل عليها في كلّ زمان ومكان ـ وهكذا أغنى التشريع الذي أتى به القرآن الكريم الحياة الإنسانية في جميع جوانبها بما لاقته من هذا التشريع الإسلامي من رعايةٍ كاملة وحلولٍ واقعية ملائمة ومؤسّسة على أسسٍ علمية.

ولابدّ من التنويه هنا إلى أنّ تأسيس أحكام التشريع الإسلامي الذي تضمّنه القرآن الكريم، على أسسٍ وأصولٍ علميّةٍ فلسفية، ساعدت على إنهاء الصّراع الذي كان دائراً مابين العِلم والدّين قبل إنزال هذا الكتاب السّماوي العظيم. فقد نبّهت آي هذا الذّكر الحكيم أذهان البشر إلى أن القرآن الكريم إنّما هو كلام الله تعالى الذي خلق هذا العالم المادي من حولنا. وأنّه بذلك يستحيل وجود خلافٍ أو تضادّ مابين قول الله تعالى وصُنعه. وهذه حقيقة تعني بألفاظٍ أخرى أن لاتضاد مابين العلم والدّين. فإن فهم أيّ إنسان أي حكمٍ تشريعيٍ بما يُغاير هذا المُنطلق، فمردّ ذلك يعود إلى ضعف إدراكه نفسه. وهكذا قفز التشريع الإسلامي قفزةً نوعيةً، من حيث أنّه نقل الدّين من مجال المُغيّبات إلى مجال العلم القائم على الملاحظة والتجربة والإستنتاج، لذلك يتوجّب على كلّ امرئٍ باحثٍ

في أمور التشريع الإسلامي إجراء مطابقة مابين قول الله وفعله، ليتمكّن بتلك العمليّة من الوصول إلى حقيقة الأمر الذي تناوله بالبحث والتدقيق. وعلى هذا الباحث أن يضع نصب عينيه أنّه إذا لم يوفّق إلى المطابقة مابين قول الله وفعله، فمعنى ذلك أنه لايزال فهمه بعيداً عن إدراك الحقيقة التي أتى بها التشريع الإسلامي. وبهذا المُنطلق الذي انطلقت منه أحكام التشريع الإسلامي، تكون قد قطعت على أعداء الدّين الإسلامي خطّ رجعتهم، وتكون في الوقت نفسه قد سلّحت المؤمنين بسلاحٍ بتّار لايقدر أن يُفِلّه أيّ سلاحٍ آخر يقوم في مواجهته.

ثم إنّ الذي يدقّق في أسفار التّوراة المعاصرة، يجدها خالية من التّعاريف الشرعية لكلّ مايمتّ للدّين بصلةٍ من الصّلات، فإذا شاء الباحث تعريف كلمة (نبيّ) على سبيل المثال، أي إذا استقصى تعريف كلمة (نبي) وعلامات ظهور نبيّ، ومعايير صدق نبي وحدود عمل نبيّ وتعريف صلة هذا النبيّ بربّه، وتعريف حدود صلة هذا النّبي ببني نوعه المرسل إليهم. إذا تقصّى هذا الباحث جميع تعاريف هذه الأمور في التّوراة المعاصرة، فلا يعثر على تعريف أيٍّ منها على الإطلاق.

على حين أنّ أنه إذا تقصّى هذا الباحث تعريف لفظ نبي أو سواه مما يمتّ لأمور الدّين في آي الذكر الحكيم، يصل لامحالة إلى هذه التعاريف مع شيء من التدبّر والتّمحيص. وبذلك يكون الإسلام وبهذه المصطلحات الشرعيّة التي وضعها، قد امتاز على جميع ماسبقه من أديان، ويكون قد أتى بأمرٍ جديدٍ كل الجدّة على صعيد الدّين. وساعد بذلك على استحضار كلّ أمرٍ عرّفه، على شاكلة مايستحضر الباحث أي أمرٍ متعلّق بالعلوم الماديّة. وبهذه المزّية يكون القرآن الكريم قد حفظ تعاليمه من الضّياع، وصان من جهة أخرى أذهان المؤمنين من التّشويش، وهاتان فضيلتان تحلّى بهما التعليم القرآني، ولايعرف قدرهما إلاّ أفاضل الباحثين والعلماء.

ثم إنّ المدقق الباحث يلاحظ أنّ هذا الكتاب العزيز مانصّ على أيّ حكمٍ تشريعي، إلاّ وقَرَنه ببيان الحكمة منه وبما وراءهُ من فوائد مرجوةٍ منه. وهذه مزيّة لم يتّصف بها أي كتابٍ سماوي سابق لنزول القرآن الكريم. وهذه مزيّة منحت تعاليم هذا الكتاب السّماوي استقلاليّته، وأغنت الإسلام عن بعث نَبيٍّ جديد

يُكمل تعاليمه. هذا إلى جانب اتّصاف أحكام الشـريعة الإسـلامية بصفـة المرونـة والاعتدال الأمر الذي يُكسبها القُـدرة علـى مواجهـة المتغيّرات والتّطـورات الـتي تؤول إليها قوى هذا الإنسان وطاقاته العقليّة على مـرّ الزّمـان. فبهـذه المعلومـات المُجملة أكون قد أعطيت القـارئ فكـرةً موجـزةً عـن معـالم الانقـلاب الروحـيّ الكبير الذي أحدثته بعثة محمد رسول ا لله ﷺ، على صعيد التّشريع الذي زوّده بـه هذا الكتاب السّماوي .

٤ـ معالم الشموليّة والعالمية :

كذلك لاينبغي أن يغرب عن ذهن القـارئ صفـة الشـموليّة والعالميّـة الـتي اتّصفت بها تعاليم القرآن المجيد. فالإسلام وبواسـطة هـذه التعـاليم الـتي تضّمنهـا كتابه السّماوي، يكون قد وضع أساساً لوحده عالمية: تشريعيّة وروحيّة، ليتسابق أصحاب مختلف القوميات، وعلى قـدر نضوجهـم العقلـي، ليتسـابقوا في السّـعي على درب التّعرف إلى ربّهم الذي خلقهم وأنعم عليهم بهذا الإنعـام، فيتسـابقون طلباً لمحبة ربّهم وقربه ورضوانه، فلا تستعلي ضمن هذا السباق قوميّةٌ على قوميّة، ولا لونٌ على لون، ولا لسـانٌ علـى لسـان. فبهـذه الوحـدة التّشـريعية والروحيّـة يتأنسنون بما يهذّبهم به الإسلام ويمدّنهـم بتعاليمـه. ذلـك أنَّ مـن مقـاصد تعـاليم الإسلام أنسنة البشر وتهذيبهم وتمدينهم بأكمل التعـاليم وأعظمهـا تأثـيراً نفسـيّاً. ويوم يتحقّق هــذا المقصـد العظيـم، يكـون الإسـلام قـد أكمـل مـابدأه آدم عليـه السلام، وماطوّره نوح وابراهيم وموسى وغيرهم مـن أنبيـاء ا لله ورسـله الكـرام، وتتجلّى بالتالي ظاهرة ربوبيّة ا لله لهذا البشر كالشمس في رابعة النهار.

فهذا ما أنبأت به الآيات (٢٧ ـ ٣٠) من سورة سبأ الـتي قـال ا لله تعـالى فيها: ﴿**قل أروني الذّين ألحقتم به شركاء، كلاّ، بـل هـو ا لله العزيـز الحكيـم، وماأرسـلناك إلاّ كافّـة للنّـاس بشـيراً ونذيـراً، ولكـنّ أكـثر النـاس لايعلمـون. ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين. قل لكـم ميعـادٌ يـوم لاتسـتأخرون عنه ساعةً ولاتستقدمون**﴾. فهذه الأنباء التي تضمنتهـا هـذه الآيـات مـن سـورة سبأ، لاينبغي للقارئ أن يمرّ عليها مرور الكرام، بل عليه أن يتدّبرها حـقّ التدبّـر، وأن يعطيهـا حقّهـا مـن التّبصـر في أسـلوب صياغتهـا ومنزلتهــا مــن التّسلســل الموضوعي للسّورة التي تضّمنتها.

فقد أنبأت آيات سورة سبأ هذه عن المستقبل المُشرِّف الذي ينتظر البشر بعد أن يؤمنوا بالاسلام ويعملوا على تعاليمه. وقد تضمّنت هذه الآيات الإشارة إلى الأخطبوط المسيح الدّجال الذي يعربد في أيّامنا هذه منذرةً ومتوعّدةً إيّاه، وواعدةً البشر بتحقيق وحدةٍ عالميةٍ شاملة في الأمور التّشريعية والروحيّة كنتيجةٍ حتميةٍ لبعثة محمد الأمين ﷺ الذي بعثه الله تعالى للناس كافة بشيراً ونذيراً. وليكمل عن طريق بعثته مابدأه الله تعالى ببعثه آدم عليه السلام وماطوّره على أيدي نوح وابراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من رسل الله الكرام. فالله عزوجلّ أنبأ في هذه الآيات عن اليوم الذي سترفرف فيه راية الإسلام على جميع أنحاء كوكبنا الأرضي. ثم إنّ عظمة ماتضمّنته هذه الآيات من نبوءات استدعت من الله عزوجلّ أن يتبع قوله: ﴿**وماأرسلناك إلاّ كافّة للناس بشيراً ونذيراً**﴾. أن يُتبعه بقوله تعالى: ﴿**ولكن أكثر الناس لايعلمون**﴾.

ولاينبغي للقارئ أن ينسى حالة الحيرة والدهشة التي تملّكت قوم محمد ﷺ يوم سمعوا هذه الآيات الكريمة تتداولها ألسنة المؤمنين، فلم تستوعب عقول مفكّري قريشٍ وسواهم من العرب إمكانية حدوث مثل هذا الانقلاب العالميّ الشامل، في عالمٍ كان العرب لاوزن لهم فيه ولاشأنٌ يذكر.

فبعثة محمّد ﷺ ومراميها حيّرت معاصريه، على شاكلة ماحيّرت بعثة آدم معاصريه من البشر أيضاً، فما كان يخطر للبشر الذين كانوا يقطنون الكهوف، أن ينقلب أمر نظامهم المعاشيّ من حال إلى حال، وماكانوا يتخيّلون أن يأتي من يتدخّل في شؤون مَسْلكهم اليوميّ ويحدّ من حرّياتهم لصالحهم جميعاً.

على هذه الشّاكلة تحيّر قوم محمد ﷺ وأذهلهم ماأنبأت عنه هذه الآيات الكريم ونسبوا بذلك إلى شخصه حالة جنون. ذلك لأنّهم تصوّروا استحالة قبول الايرانيين والرومان والهنود والصينيين والأوربيين وسواهم من سكان الأرض تعاليم هذا الدّين الذي تلقّاه محمد بن عبد الله ﷺ.

هذا وإنّ هذا الإدّعاء النّظري الذي تنبّأت به هذه الآيات من سورة سبأ، توالت الأحداث لِتُثْبته بصورةٍ عمليّة. فها أنّ الإسلام قد رفرفت راياته على كثير من بقاع الأرض، وها أنّ صفة عالميّة نظامه التّشريعي والرّوحي قد عمّت الأقطار التي تقبّل أهلها هذا الدين القويم، وها أنّ روح المساواة والإخاء قد برزت في تلك المجتمعات التي تقبّل أهلها الإسلام ديناً. وهكذا تحقّق حتى أيّامنا

هذه ماكان يستحيل تصوّره في أذهان قريش ومَنْ حولهم من قبائل العرب. فتحقق الأمر النظريّ على الصّعيد التّطبيقي، وثبتت بذلك مرحلياً صحّة ماأنبأت عنه الآيات من سورة سبأ المذكورة، هذا وإنّ الزّمان المقبل كفيل بتحقيق مايتعلق بمصير هذا المسيح الدّجال يقيناً، وعش رجباً ترى عجباً.

٥ً. انقلاب عملي :

ألا لو تقصّى القارئ تاريخ الأمم التي تقبّلت الإسلام ديناً، للاحظ أنّ تعاليم الإسلام النظريّة قد أحدثت على صعيد واقع هذه الأمم انقلاباً جذرياً شمل جميع صُعُد الحياة لدى أفراد تلك الأمم. فالإسلام قلب فكر وعلم وفلسفة وعواطف وأخلاق وتهذيب واقتصاد وثقافة تلك الأقوام من حال إلى حال، وهل كان لمثل هذ التأثير والانقلاب الجذريّ ليحدث على الصّعيد العمليّ لولا أن كانت تعاليم الإسلام تتّصف بصفة المرونة والشموليّة والعالميّة، هذه الصفات التي لفتت هذه الآيات من سورة سبأ أذهان القُرّاء والباحثين إليها؟

٦ً. عملية تلخيص واستنتاجات :

وألخّص للقارئ أخيراً ماذكرته وأحدثته بعثة محمد خاتم النبيين ﷺ في حياة البشر ولتطوير عقولهم، وما أكملته من تعاليم الرّسالات السماوية التي ابتدأها ربّ العالمين بآدم وتعاونيّته، ألخصه في الأمور التالية:

أولاً ـ ألغى الإسلام الرهبانية، وألغى بذلك الوساطة مابين الإنسان وخالقه.

ثانياً ـ نزلت تعاليم الإسلام عالمية الصّفة وشاملة وتمتاز بالمرونة والاعتدال، وتصلح لكلّ زمان ومكان.

ثالثاً ـ وامتازت تعاليم الإسلام بدعم أحكامها بأدلّتها وفلسفتها إلى جانب بيان فوائدها.

رابعاً ـ وحرّرت تعاليم الإسلام العبادة من ارتباطها بمكان عبادةٍ محدّد، وربطت العبادة بنظام الجماعة.

خامساً ـ وقد تضمّن القرآن الكريم جميع تعاليم الإسلام. على اعتباره كلام الله المقدس بألفاظه وحركاته وتوقيفاته.
سادساً ـ وقد زوّد هذا القرآن الكريم المؤمن بالله تعالى بما تحمله ذات الله تعالى من أسماء حسنى، شارحاً إيّاها وموضّحاً مابين أسماء الله من روابط وعلاقات.
سابعاً ـ ثم إنّ القرآن الكريم هو أوّل كتابٍ سماويٍّ تكلّم عن حياة مابعد الموت وحياة المعاد ببحثٍ مفصّل وبأسلوبٍ علميٍّ وفلسفي.
ثامناً ـ وامتاز القرآن الكريم بوضوح اصطلاحاته الشرعية للمواضيع التي تناولها بالبحث، وحَفِظَ بذلك علومه من الضيّاع.
تاسعاً ـ وتناولت تعاليم القرآن الكريم جميع نواحي الحياة المدنية منها والسياسيّة والاقتصادية والثقافية والروحيّة.
عاشراً ـ ثم إنّ تعاليم القرآن الكريم وفّقت مابين العلم والدّين، من حيث تأسيسها أحكامها على أسسٍ علميّة.
إحدى عشر ـ وقد وضعت تعاليم هذا الكتاب العزيز حجر الأساس لتكوين وحدةٍ عالميةٍ تشريعيّةٍ وروحيّة لاتفرّق مابين قوميّةٍ وقومية، ولابين لون ولون، ولابين لسان ولسان.
اثنا عشر ـ كما قدّمت تعاليم هذا الكتاب العزيز مبادئ لتكوين هيئة أممٍ تساعد على تثبيت دعائم الأمن والسلام في العالم. وبهذا التلخيص أكون قد وضّحت لأعين القارئ معالم هذا الانقلاب الرّوحي الكبير الذي تحقق ببعثه محمد سيد المرسلين ﷺ. اللهم صل عليه وسلم وبارك إنك حميد مجيد.

استنتاجات

والآن وقد فرغنا من استعراض الانقلابات الكبرى الروحيّة التي حدثت في الجانب الذي يفكّر بتفكير روحانيّ على المنهج الذي ابتدأه الله عزوجلّ بآدم عليه السلام، وذلك في مقابل الحركات الانقلابيّة الكبرى الماديّة التي سبق لنا أن استعرضناها، تلك التي حدثت في جانب ذُرّيّة الذي عادى آدم وقنط من رحمة ربّه عزوجلّ والذي دأب على التّفكير بتفكيرٍ مادّي محض وبما يخالف المنهج

الآدمي. فنحن إذ فرغنا من استعراض ذلك كلّه، نحاول، وبصورةٍ تلقائيةٍ استخلاص النتائج من خلال مقارنتنا بين هذين النّوعين الانقلابيّين، فأقول:

أولاً - وأول مايتراءى لأعيننا هو أنّ الانقلابات المادية الكبرى المذكورة، لاتتواصل فيما بينها، ولاتترابط، على حين أن الانقلابات الروحيّة الكبرى مُترابطة ويُكْمِل بعضها بعضها الآخر، وانتهت إلى تشكيل هذا البناء الكامل الشّامخ المتمثّل في الدّين الإسلامي الحنيف.

ذلك أننا لاحظنا كيف أن الحركة الآرية في شبه القارة الهندية كانت قد طرحت فلسفةً طبقيّة لاتزال تعاني تلك المنطقة من ويلاتها، ولاحظنا كيف أن الحركة الفارسية كانت قد تميّزت بفلسفتي السّياسة والأخلاق. ولاحظنا كيف أنّ الحركة البابلية كانت قد اهتمت بعلمي الهندسة والفلك. ولاحظنا كيف أنّ الحركة الرومانية كان محورها فلسفتا القانون وحقوق الإنسان. ولاحظنا كيف أنّ الحضارة الغربية المعاصرة تميّزت بفلسفة القوميّة وفلسفة الرّفاه غير المحدود.

هذا على حين أننا نلاحظ انعدام ظاهرة التشتّت تلك من بين ماذكرناه من انقلاباتٍ روحيّةٍ كبرى، وأنّ الوحدة في المنطلق والهدف والفلسفة يحلّ محلّ ظاهرة التشتّت تلك. وتبدو تلك الانقلابات الروحيّة صادرةً عن جهةٍ واحدة مُخَطِّطةٍ وقادرةٍ وهادفة. فهل يستسيغ عقل الباحث أن يحدث ذلك كلّه عبثاً وصُدفة ؟.

ثانياً - والأمر الثاني الذي نُلاحظه من خلال تاريخ هذه الانقلابات جميعها. هو أنّه في الوقت الذي كانت جميع الانقلابات المادّية الكبرى قد اختار مؤسّسوها سبيل العنف والإرهاب وسفك الدّماء لتحقيق أهدافهم وفلسفاتهم، فإننا نلاحظ أنّ مؤسسي هذه الانقلابات الروحيّة الكبرى كانوا قد اختاروا دوماً سبيل الدّعوة بالحُجّة والبرهان لتحقيق مابُعثوا لتحقيقه من أهدافٍ وفلسفة.

فلانذهب بعيداً، فهاهي حضارة الغرب قد قامت على الثّورات وسفك الدماء في مختلف أرجاء القارة الأوربية ــ وليست الثّورة الافرنسية، ولا الثورة الالمانية، ولا الثورة الايطالية التي حدثت ومهّدت لقيام هذه الحضارة ببعيدة عن أذهان الباحثين؟

ثالثاً - والأمر الثالث الذي نستخلصه من خلال موازنتنا مابين هذين النّوعين من الانقلابات الكبرى التي أتينا على ذكرها سابقاً، هو أنّ أصحاب

ومؤسسي كل حركةٍ انقلابيّة من تلك الحركات الانقلابيّة الكبرى المادّية، كانوا يحاولون مُنافسة وتسفيه ماكان قد تحقق على أيدي أصحاب ومؤسّسي ماسبقهم من حركات، مع الإدّعاء بفوقيّة مأأتوا به، أي أن حالهم ذاك بالإمكان أن يوصف بما وصفهم به كلام الله عزّوجلّ من أنه كلّما جاءت أمّة لعنت أختَها.

على حين أنّ هذه الظاهرة البشعة تغيب حين يستعرض الباحث حال أصحاب ومؤسّسي الحركات الروحيّة الكبرى، ولاتغيب هذه الظاهرة وحسب، بل تحلّ محلّها ظاهرة اعتراف أصحاب ومؤسّسي كلّ حركةٍ روحيّه حدّثت بما أتى به أصحاب ومؤسسوا الحركة الروحيّة التي تسبقهم زماناً.

ويكفي الباحث أن يراجع آيات سورة الصّافات التي تنبّه أذهاننا إلى هذه الظاهرة، ففي سورة الصّافات هذه تتوالى قصص الذين أحدثوا انقلابات روحية في أزمنتهم، ويعترف بهم هذا الكتاب القرآن العظيم، ويورد على مسامعنا أقوال الله الذي أرسل أولئك الرسل جميعهم، أقواله جلّ شأنه: **﴿وتركنا عليه في الآخرين سلاّم على نوحٍ في العالمين﴾ ﴿وتركنا عليه في الآخرين سلامٌ على ابراهيم﴾ ﴿وتركنا عليه في الآخرين سلامٌ على موسى وهارون﴾ ﴿وتركنا عليه في الآخرين سلامٌ على إلياسين﴾**. ويقول تعالى أخيراً **﴿وسلام على المُرسلين، والحمد لله رب العالمين﴾** وبمعنى أنّ ظاهرة الترابط هذه وظاهرة اعتراف جميع أصحاب وموسّسوا هذه الانقلابات الكبرى الروحيّة بعضهم ببعضهم الآخر، يُستدل منه على تدخّل تجليّاتٍ ربوبية الله الأحد طوال تاريخ البشر الطويل على تدخلها في شؤون هذا البشر المخلوق، وعلى تدخلها لتطوير عقله ووضع أقدامه على صراط الله المستقيم، ليتعرّف إلى خالقه وليطلب ودّه ومحبّته وقربه ورضوانه، وَيَثْبُتُ بالتّالي أنّ الحمد كلّه يرجع في ذلك كله إلى الله ربّ العالمين، فهذه هي دلالة هاتين الفقرتين الأخيرتين من سورة الصّافات **﴿وسلامٌ على المرسلين، والحمد لله ربّ العالمين﴾**.

إنّ ما استخلصناه من خلال استعراضنا لهذين النّوعين من الانقلابات الكبرى التي حدثت في تاريخ البشر، منذ مايقارب الثمانية آلاف عام وحتى يومنا هذا، أقول إنّ هذه الاستنتاجات التي أضحت بين أيدي قارئ هذا الكتاب، وهذا المبحث الثالث منه خاصة، إن دلّت هذه الأمور على شيء، فهي تؤيّد ماذهبتُ إليه في هذا المبحث الثالث من أن البشر مخلوق منذ ملايين السنوات،

وأنّ خالق البشر، ظلّ يكلّمهم من وراء حجاب في حالات نومهم، وقد هداهم إلى استعمال النّار ودفن موتاهم وأسلوب ونوعيّة غذائهم، إلى أن بعث الله تعالى لهؤلاء البشر آدم قبل ماينوف عن عشرة آلاف عام فأخرج هؤلاء البشر من كهوفهم وأسس معهم أوّل تعاونيّةٍ ومُشاعةٍ في الأرض ووفق مستواهم العقلي، وراح يبعث الله برسله تترى يطوّر عقول هؤلاء البشر ويعرّفهم على وجوده ويطلعهم على المقصد من حياتهم إلى أن اكتمل بناء هذا الدّين على أيدي آخر من أرسله الله تعالى سيّداً وخاتماً، ومعه هذا القرآن وبتعاليم تساعد البشر على استمرار التّطور في كلّ زمانٍ ومكان.



الفصل الخامس
الله جلّ جلاله يُحدثُ في عصرنا انقلاباً سابعاً روحياً كبيراً

إنّ القارئ الذي تابع كل مانظّرته له فيما يتعلّق بالانقلابات المادّية والروحيّة الكبرى التي حدثت منذ بعثة آدم، والتي انتهت ببعثة محمد خاتم النبيين ﷺ، لابد أن يكون قد ابتهج لتلك المعلومات، لكنّ بهجته تلك تأخذ في التّراجع، وسروره ذاك يأخذ في الذّبول ماإن تُعاوِدْهُ الصّورة القاتمة التي يعرفها عن حال المسلمين المعاصرين، ويتوق إلى معرفة ماتضمّنه كتاب الله العزيز من علاج لهذا الواقع المؤلم، وليمنح ذلك هذا القارئ بصيص نور يبشّره بمستقبل الإسلام خاصة والعالم بصورة عامة، ويتوق في نفسه لرؤية معالم انقلابٍ روحي سابعٍ يغيّر مجرى الأحداث ويُجلّي بالتالي وجه تدخّل صفة ربوبية الله عزوجلّ.

فالسؤال الهام هنا: هل كان أنبأ القرآن الكريم عمّا آل إليه حال المسلمين من تخلّف وانحطاط،وهل أنّ آي الذكر الحكيم قد تضمّنت معالم طريق الخلاص وبشّرت بانقلاب سابعٍ روحيّ كبير ؟

وأجيب على هذا السؤال مطمئناً هذا القارئ، ولن أتجاوز في جوابي دلالات آي الذكر الحكيم. لكني أجد ضرورياً تذكير هذا القارئ بقول ربّنا عزوجلّ: ﴿**وإنه لقرآن الكريم، في كتابٍ مكنون، لايمسّه إلاّ المطهّرون**﴾ وقوله تعالى: ﴿**ولايحيطون بشيء من علمه إلاّ بما شاء**﴾. وقوله تعالى: ﴿**إنّ علينا جمعه وقرآنه، فإذا قرأناه فاتبّع قرآنه، ثم إنّ علينا بيانه**﴾. ذلك أنّ الله عزوجل ربط بيان ماتضمّنته آيات القرآن المجيد من علوم ونبوءات غيبيّة بالمستقبل، وأنّه لايُجلّيها لوقتها إلاّ هو جل شأنه وبأساليب تجلّيّاته الربّانية.

وبهذه المناسبة أرى من المناسب أن أُطمئن هذا القارئ أيضاً، أنّ ماسأطلعه عليه من حقائق قرآنية ومعلومات خبّأها ربّنا عزوجلّ في ثنايا آيات كتابه العزيز، تلك الحقائق والمعلومات المكنونة وبما يتعلّق بهذا السؤال العريض

الذي طرحناه، قد كشفها ربّنا عزوجلّ على هذا العبد الضعيف العاجز، بفضل منه ومِنّة، حينما جلست أتناول هذا العنوان بالإجابة عليه، وبصورة موضوعية مُنسّقة والحمد لله رب العالمين ذلك أنّ جميع من سبقني من الكُتّاب الذين تناولوا السؤال المذكور، كانت الأحاديث الشريفة هي مرجعهم في كتاباتهم، على حين أنّ مرجعي الأساسي هو آي هذا القرآن الحكيم.

أولاً ـ الإجابة القرآنية موزعة على حلقات :

فكلٌّ منّا يعلم أنّ لكلّ كاتب أسلوبه المميّز في عرض مايريد الكتابة عنه، وهل يستسيغ عقلنا ألا يكون لله عزوجلّ أسلوبه الخاص الممّيز فيما أنزله في كتابه العزيز الذي تحدّى به الإنس والجانّ؟

أجل لقد كشف الله تعالى عليّ أنّه قد أجاب على السؤال الذي طرحناه، بأسلوبٍ رائع مُميّز ومعجز. وبدءً من سورة هود خاصة، لذلك استعرض للقارئ معالم الحلقة الأولى للإجابة القرآنية المذكورة، هذه الحلقة الأولى التي تضمّنتها الآيات الأوائل من سورة هود التي افتتحت بالأحرف المقطّعة (الر) والمختزلة من جملة (أنا الله أرى) والرؤية هنا مُستقبليّة كما سنرى، ولذلك ورد عن رسول الله ﷺ عندما تلقّى آيات سورة هود، ورد عنه قوله عليه الصلاة والسّلام: (شيبتّني سورة هود) وهذه محاورة تستعمل عند استعظام أمرٍ من الأمور.

١ً ـ حلقة سورة هود :

أفلم يلاحظ القارئ كيف أنّ الله تعالى تحدّى الذين كفروا أن يأتوا بعشر سورٍ من مثل سور القرآن وخاصة من مثل سورة هود، وذلك في الآية الثالثة عشرة حيث قال: **﴿أم يقولون افتراه، قل فأتوا بعشر سورٍ مثله مُفتريات، وادعو من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾**. وأردف تعالى بعد تحدّيه المذكور يقول: **﴿فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنّما أُنزل بعلم الله، وأنْ لاإله إلا هو، فهل أنتم مسلمون؟﴾**. فحكمة ومناسبة هذا التّحدي هنا، لاتنبع علاقته بالإعجاز البلاغي الذي تتصّف به آيات سورة هود وحسب، بل وتنبع من عظمة ماتضمّنته هذه السّورة من أنباء غيبيّة يثبت منها أنّ الله يرى ماستتطّور

إليه مُجريات الأحداث في المستقبل البعيد، وهو جلّ شأنه راح يخاطب النّاس الذين سيتواجدون يوم تتحقّق تلك النبوءات، خاطبهم في هذا المقام خاصة وقال: ﴿**فهل أنتم مسلمون؟**﴾. والذي يؤكّد ذلك، أن راح جلّ شأنه يقول بعد ذلك: ﴿**من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوفّ إليهم أعمالهم فيها وهم لايُبخسون. أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلاّ النّار. وحَبِطَ ماصنعوا فيها وباطلٌ ماكانوا يعملون**﴾. فهذا الكلام متعلّق بالنّاس المكذّبين يوم تتحقق نبوءات سورة هود خاصّة منها مايتعلّق بالذين يريدون زينة الحياة الدنيا، فباطلٌ مايصنعون وليس لهم في الآخرة أي في الزمن الذي اصطلح القرآن له لفظ الآخرة في مقامات عديدة، ليس لهم يومئذٍ إلاّ النّار التي لاتبقي ولاتذر ممّا يصنعون.

وقد راح جلّ شأنه يحدّد المستقبل المشار إليه، ويعطي القارئ إحدى علاماته الكبرى، وبأسلوبٍ بلاغيٍّ معجزٍ لايُدرك مضمونه إلاّ من شاء الله جلّ شأنه أن يكشف له عن حقيقته المكنونة، بدليل أنّ أحداً من المفسرين القدماء، لم يستطع ذهنه الإحاطة بهذه الحقيقة إلى أن تحققت النبوءه والعلامة الكبرى المقصودة هذه والتي سبق أن قلت إنّ الله تعالى قد كشفها على شخصي الضعيف بصورة موضوعية.

هذه العلامة الكبرى، نبّه إليها ربّنا عزوجلّ من خلال دليلٍ قاطع الدّلالة أتى تعالى به بعد آية التحدي المذكورة وتوابعها، ودليله تعالى مُكوَّنٌ من عناصر ثلاث ماإن اجتمعت في شخص أيّ مُدّعٍ للنبّوة، يستحيل إلاّ أن تُعدّ دليلاً قاطعاً على صدق نبوّته. وهذه العناصر الثلاث منها مايتعلق بالماضي ومنها مايتعلّق بحاضر زمن المدّعي، ومنها مايتعلّق بالمستقبل. وقد جمع الله جلّ شأنه هذه العناصر الثلاث ضمن قوله تعالى بعد الآيات التي ذكرناها وقال: ﴿**أفمن كان على بيّنةٍ من ربّه، ويتلوه شاهدٌ منه، ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة أولئك يؤمنون به، ومن يكفر به من الأحزاب فالنّار موعده، فلاتك في مريةٍ منه، إنّه الحقّ من ربّك، ولكّن أكثر الناس لايؤمنون**﴾. وهو جل شأنه قدّم دليله القاطع الدلالة هذا بأسلوب الاستفهام ﴿**أفمن كان..**﴾، وحذف جواب هذا الاستفهام لضرورة بلاغية، وتقديره: كمن هو كاذب لاتتوفّر فيه هذه العناصر الثلاث المذكورة والمتعلقة بأزمنة ثلاثة ؟

فالعنصر الأول من هذا الدليل استوفاه قوله تعالى ﴿**أفمن كان على بيّنةٍ من ربّه**﴾. والمتعلّق بزمن نزول القرآن الكريم. والعنصر الثاني من هذا الدليل استوفاه قوله تعالى: ﴿**ويتلوه شاهدٌ منه**﴾ والمتعلّق بالزّمان المستقبل. والعنصر الثالث من هذا الدليل استوفاه قوله تعالى ﴿**ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة**﴾ والمتعلّق بالزمن الماضي، أي كأنّ الله عزّوجلّ راح يقول بألفاظٍ أخرى، ومخاطباً المقصودين بقوله من قبل ﴿**فهل أنتم مسلمون؟**﴾، أولئك الذين سيأتون في المستقبل، الذّين يريدون الحياة الدنيا وزينتها، الذين ليس لهم في الزمن «الآخرة» إلاّ النّار - إشارةً إلى الذين قالوا اتّخذ لله ولداً، ومن لفّ لفّهم، أولئك الذين كان يراهم الله تعالى من خلال علمه الغيبي الدّال عليه أحرف المقطعات ﴿**آلر**﴾. أي أنّه تعالى يقدّم لهؤلاء الذّين سيزعمون أنّ محمداً ﷺ هو الذي افترى هذا القرآن العظيم واختلقه من عند نفسه، يقدّم لهم هذا الدليل القاطع والمؤلف من هذه العناصر الثلاث والتي يثبت من خلالها صدق رسوله الأمين ويقول: يامن اتّخذتم لله ولداً أنتم ومن وراءكم من اليهود هاأنّ كتاب موسى الذي تؤمنون به يحمل من النبوءات الدّالة على صدق هذا الرسول الأمين مايشكّل لكم إماماً، يقودكم ويرشدكم إلى صدق رسولنا هذا، وبذلك يشكّل كتاب موسى ودلالات نبوءاته رحمةً لهدايتكم أيضاً إن أنتم اتّخذتم تلك النبوءات إماماً لتبيّن صدق هذا الرسول الأمين. فهذا هو مايتعلق بعنصر الزّمن الماضي. ويخاطبهم جل شأنه بشأن العنصر الثاني المتعلّق بزمن بعثة محمد رسول الله ﷺ، فيذكّرهم أنّه كان على بيّنةٍ من ربّه، فهذا ماأثبتته أحداث تلك الفترة من الزمان. والبيّنة هي الحجّة والبرهان، فقد أثبتت وقائع حياة رسولنا الكريم أنّه ماتنبّأ بشيء إلاّ وتحققت نبوءته وعصمه الله تعالى من كيد الكائدين من مكذّبي زمانه ونصره على أعدائه نصراً مؤزراً. كما يخاطب الله تعالى الذين اتخذوا لله ولداً وهيمنوا على العالم زمن تخلّف المسلمين وانحطاطهم، ومن مُنطلق (الر) أي رؤيته المستقبليّة ويقول ﴿**ويتلوه شاهد منه**﴾ أي سأبعث في زمن عروجكم ﴿**شاهداً منه**﴾ يأتي من بعد هذا الرسول الكريم، يشهد على صدق رسولنا وصدق كتابنا، ويكون هذا الشاهد (منه) أي من أمّة محمد ﷺ، وليس من قوم آخر سواها، فهذا هو مايتعلق بعنصر الزمن المستقبل.

وليلاحظ القارئ كيف أنّ الله عزوجلّ ماإن انتهى من تقديم هذا الدليل القاطع المؤلّف من هذه العناصر الثلاث،إلاّ وراح يقول جازماً ﴿**أولئك يؤمنون به**﴾ أي أنّ الباحثين عن الحقيقة يقنعهم هذا الدليل القاطع فيؤمنون بمحمدٍ ودينه، وأضاف يقول : ﴿**ومن يكفر به من الأحزاب، فالنّار موعده**﴾ إشارةً إلى قوله تعالى قبل ذلك: ﴿**أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلاّ النّار، وحَبط ماصنعوا فيها وباطل ماكانوا يعملون**﴾.

وليلاحظ القارئ أنّ الله جلّ شأنه ماإن انتهى من تقديم هذا الدّليل، وهذا الإنذار بالنار، إلاّ وعاد يوجّه خطابه إلى محمد رسوله الأمين، مُطَمْئِناً إيّاه من أنه سيبعث بهذا الشاهد من أمته يوم طغيان هؤلاء وهيمنتهم على العالم وأضاف ناهياً إيّاه ومطمئناً: ﴿**فلاتك في مريةٍ منه، إنّه الحق من ربّك، ولكن أكثر الناس لايؤمنون**﴾.

فلماذا هذا النّهي وهذا التطمين في هذا الموضع بالذات وماهي مناسبته؟ إلاّ أن ينحصر ذلك في العنصر المستقبليّ المُعبّر عنه بقوله تعالى: ﴿**ويتلوه شاهدٌ منه**﴾؟ فا لله جل شأنه إذ قدّم دليلاً قاطعاً على صدق رسوله وصدق كتابه لهؤلاء الذين تحدّاهم من قبل أن يأتوا بعشر سور من مثل سورة هود، يوم تُكتب لهم الهيمنة على العالم، ويتّهمون محمداً أنّه كان قد افترى هذا القرآن، فا لله جل شأنه نفسه راح ينبئ أنّ هؤلاء المكذبين سيعجزون عن قبول هذا التحدّي، فيستغلّون هيمنتهم وسلطانهم ليّوجهوا إلى رسوله وكتابه العزيز مثل هذا الإتهام فيقولون "افتراه" . فيبعث الله هذا الشاهد من أمته، ليشهد على صدق رسوله وصدق كتابه العزيز ويؤيده وينصره لِيُكمل ومن خلال بعثه هذه العناصر الثلاث التي تؤلّف هذا الدليل القاطع على صحّة الإسلام وصدقه. فهذا هو سرّ هذا النّهي والطمأنة المعبّر عنها في هذا المقام : ﴿**فلاتك في مريةٍ منه، إنّه الحقّ من ربّك**﴾، وقد أنهى الله تعالى قوله هذا بجملة ﴿**ولكنّ أكثر الناس لايؤمنون**﴾. وهي جملة مُفعمة ألفاظها أيضاً بالحقائق والدلالات.

فحرف

(لكنّ) على حسب ماأورده (محيط المحيط) المشهور أنّه للإستدراك، ينسب لما بعده حُكماً مخالفاً لما قبله أي لابدّ أن يتقدّم (لكنّ) كلام مناقض لما بعدها. وبما أنّه تعالى أثبت صدق الإسلام وأتى بحرف لكنّ للاستدراك فأتى

بكلامٍ مناقض وهو أنّ أكثر الناس لايؤمنون بهذا التّحدي وهـذا الدّليـل القـاطع الذي قدّمناه.

وهو تعالى إذ استعمل صيغـة (أكـثر النـاس) فإشـارةً خفيّـة إلى أنّ هـؤلاء المكذبين الذين سيُهَيْمِنون على العالم سيزعمون أنهـم المتمدّنـون وحدهـم، وكـلّ ماعداهم من البشر لايستحق أن نُسمّيه إنساناً، هذا المعنى دلّ عليه تعريف كلمة الناس بالألف واللاّم. وليصبح معناه أنّ أكثريّة هؤلاء المكذّبين مـن أدعـاء المدنيّـة والتحضّر لن يؤمنوا بهذا الدين، ولن يكونـوا بالتـالي مسـلمين. وبهـذا الأسـلوب البلاغي المعجز ربط الله جل شأنه بين مضمون هذا الدليل، وبين ماأنهى به تحدّيه بعشر سور من قبل وقال: فهل أنتم مسلمون؟

ألا إنّ هذه الحقائق التي تضمنتها هذه الآيات من سورة هـود خاصـة، ألا إن هذه الحقائق الغيبيّة تُجلّي إعجاز آيات سورة هود صياغـة ومضمونـاً. وهـذه الحقائق الغيبيّة هي التي دفعت محمداً رسول الله ﷺ ليقول مقولته الشهيرة (شيبتّني سورة هود)، وبهذا الفهم الذي كشفه الله عزوجلّ على شخصي الضّعيف يعـود التّرابط والتّسلسل الموضوعي لهـذه الآيـات الكريمـة واضحـاً وضـوح الشـمس في رابعة النهار.

والذي يهمُّنا من جميع ماذكرناه هو أنّ الله عزوجـلّ أتـى في سـورة هـود بأوّل حلقة من حلقات إجابته على السؤال الهام المتعلّق بحال المسـلمين المعـاصرين والعالم من حولنـا، مـن أنّ الانقـلاب الروحـي السّـابع الكبـير مرتبـطٌ ببعثـة هـذا «الشّاهد» الذي تكلّمَتْ عنه سورة هـود والـذي سيكون مـن أمّـة محمـد خـاتم النبيين ﷺ. وليثبت الله تعالى ببعثه هذا الشّاهد وبما يكلّفه به الله تعالى مـن مهـام صِدْقَ قول ربّنا عزوجلّ بحق محمّد وبحق رسالته: ﴿**وماأرسلناك إلاّ كافة للنـاس بشيراً ونذيراً ولكنّ أكثر الناس لايعلمون**﴾. هـذا وإنّ هـذا الشـاهد هـو نفـس الشخص الذي أوردت جميع كتب الحديث أنباءً عن ظهوره في آخر الزمان.

ألا لقد اختلف المفسّرون القدماء في أمر هذا الشاهد اختلافاً كبيراً. ذلـك لأن حكمة الله تعالى اقتضت أن تظـلّ حقيقتـه خافيـةً إلى حـين بعثتـه وظهـوره. خصوصاً وأنّهم لم يلتزموا بأصول تفسير القـرآن الكريـم. ولايظنّـن ظـانٌّ أنّ الله تعالى لم يُطْلِع محمداً ﷺ على شخصية هذا الشاهد بل أطلعه يقيناً خصوصـاً وأننـا لاحظنا أنّه قد حذّره ربّه وطمأنه عنه أيضاً في هذه الآيات من سورة هود، ولهـذا

السّبب نفسه يُلاحظ دارس الأحاديث، أنّ علامات هذا الشاهد وعلامات متغيّرات زمانه تملأ كتب الأحاديث.

وهكذا أكون قد وضعت بين أيدي القارئ مفتاحَ خَلاصِ أمّتنا وخَلاصِ العالم من حولنا من خلال مااستنبطته من هذه الآيات الأوائل من سورة هود الّتي أنبأت بصورةٍ غير مباشرة عن المستقبل التي سيحتاج المسلمون والعالم فيه إلى ظهور شاهدٍ من محمد ﷺ نفسه يشهد على صدق نبوّته وعلى صدق ماجاء به من كتاب .

وسيتساءل هذا القارئ بصورةٍ تلقائيّةٍ بعد قراءة ماذكرته له، فيعجب ويتساءل في نفسه: وهل أنّ بعثة هذا الشاهد لاتتصادم ومفهوم خاتم النبيّين؟

وأجيبه وأقول: لنُمعن نظرنا في كلمة «شاهد»، فدلالاتها ترشد إلى الإجابة الصحيحة، ففي محيط المحيط تقول: أَشْهَدُ أي أعلم وأبيّن، وشاهَدَه عاينه، وشهد الجمعة: أدركها، والشاهد في المحكمة هو المُخبر بحقّ للغير عن آخر عن يقين في مجلس الحكم. والمؤذّن يؤذّن مقدِّماً نَفْسَهُ شاهداً على وجود الله وعلى وحدانيّته وعلى صدق رسوله الكريم. وهذه الدلالات جميعها تزوّدنا بحقائق: الأول منها أن الشاهد لايُطلب أصلاً إلاّ في حالة الحاجة إليه. والثاني منها هو ضرورة توفّر عنصرين لدى الشاهد: العلم والقدرة على توضيحه. ثالثاً: ومن الضروري جداً أن يكون هذا الشاهد مُعايناً للحقيقة التي جاء يشهد على صحّتها. رابعاً ـ وأن تكون شهادته تتضمّن إخبار حقٍّ ويقينيٍ في نظر المحكمة.

ألا إنّ هذه الأمور الأربعة تعني بألفاظ أخرى أنّه سيأتي زمان على أمّة محمد خاتم النبيّين لايبقى فيه من الإسلام إلاّ إسمه، ومن القرآن إلاّ رسمه، مساجدهم عامرة ولكنّها خرابٌ من الهدى، وعلماؤهم ليسوا على مستوى علماء. وهذا زمان نُعاصره، لذلك يسمع المُصلّون في المساجد مناشدة خطباء المساجد لهؤلاء المصلّين أن يرجعوا إلى دينهم، وعاد دين الإسلام بالتّالي بحاجةٍ إلى هذا الشاهد الذي أشارت إلى بعثته سورة هود، ثم إنّ هذا الشاهد سيكون (منه) (شاهد منه) أي من أمّة محمد خاتم النبيّين، ومن فيض نبوّته، وليس هو بنبيٍ مستقلٍ عن نبوّته، وتأتي أهميّة بعثه هذا الشاهد أنّ ذِكْرَهُ والإنباء عنه اقترن بتحدّي الله تعالى مكذّبي الإسلام أن يأتوا بعشر سورٍ من مثل سورة هود، فهذا التّحدي مهّد الله تعالى به للإعلان عن بعثة هذا الشاهد في المستقبل. وقلت: في

المستقبل، بسبب أنّ الله تعالى افتتح سورة هود بأحرف المقطعات (آلر) بمعنى أنني أنا الله أرى غيب المستقبل ولايخفي منه عليّ شيء من الأشياء.

ألا فلينتبه هذا القارئ إلى أنّ موضوع هذا الشّاهد، هو مقدّمة لموضوع واسع يشمل أحداث المتغيّرات التي نواجهها في عصرنا بالذات، هذه الأيام التي تعطي المراقب لمجرياتها صورةً قائمةً عن مستقبل الاسلام والعالم أيضاً، هذا الصورة التي دعتني لأحبّر هذه الكلمات، ولأرسم لقارئ كتابي هذا طريق الخلاص الذي نبّهنا إليه عزّوجلّ في كتابه العزيز.

ومن المعلوم أنّ الكاتب بعد أن يأتي بمقدّمة كتابه يعمد بعد ذلك إلى تفصيل ماتضمّنته مقدّمته، وهذا الأسلوب نفسه اختار سلوكه رب العالمين الذي أنزل هذا القرآن الفرقان، فهو جلّ شأنه أتى في سورة هود بما أتى به، وأنبأ بصورة مُجملة أن طريق خلاص المسلمين والعالم سيتحقّق على أيدي (شاهدٍ منه) أي على أيدي شاهد يبعثه الله تعالى من فيض محمد ﷺ نفسه، وراح جلّ شأنه يفصّل ماتضمنته مُقدّمة هذا الموضوع في سورة الكهف. موضّحاً في آيات مُقدّمتها أنّه تعالى كان قد بعث محمداً ﷺ مُحمّلاً بإنذارين وليس بإنذار واحد، وبتبشيرين وليس بتبشير واحد، فهو كان مُكلّفاً بإنذار وتبشير معاصريه، كما كان مُكلّفاً لإنذار وتبشير ﴿**الذي قالوا اتّخذ الله ولداً.**﴾ الذّين سيُعاصرون تخلّف أمة محمد وانحطاطها في المستقبل الذي أشارت إليه الأحرف (آلر) في سورة هود.

٢ً. حلقة سورة الكهف:

فقد هال محمداً ﷺ ماسيؤول إليه حال أمته وقال (شيبّتني سورة هود) لذلك خاطبه تعالى هناك مُحذّراً ومُطَمْئناً: ﴿**فلاتك في مرية منه، إنه الحقّ من ربك، ولكن أكثر الناس لايؤمنون**﴾. وهال محمّداً أن يؤول أكثر الذين اتّخذوا لله ولداً إلى النّار والهلاك، فلا يؤمن أكثرهم بالإسلام على أيدي هذا الشاهد الذي سيبعثه الله تعالى زمن هيمنة هؤلاء على العالم. لذلك يُلاحظ القارئ كيف

أنّ الله تعالى راح يواسي رسوله الكريم في سورة الكهف ويقول: ﴿**لعلّك باخعٌ نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً**﴾. فأيّ حديثٍ هذا المشار إليه هنا، إلاّ مايُحدّث به الله تعالى رسوله الكريم بخصوص ماسيفصّله ضمن سورة الكهف؟

وكلّ من طالع تفسير سورة الكهف الذي أضحى متداولاً به بين أيدي الناس سيُلاحظ كيف أنّ الله عزوجلّ استعرض للقارئ الأدوار التاريخية الثلاثة التي مرّ بها الذّين اتخذوا لله ولداً، والتي انتهت بدورهم المعاصر الذي «يصنعون» فيه عجائب سلبت عقول النّاس وأفئدتهم. مُتناسين المقصد من حياتهم والمقصد من جعل ماعلى الأرض زينةً لها ليبلوا الله تعالى بها أيّ النّاس يُحسن عملاً. فقد صنع هؤلاء العجائب، وتناسوا المقصد الذي من أجله خُلقت زينة الأرض والمقصد من حياتهم، كما تناسوا هذا التحدّي الإلهي وهو أن يأتوا بعشر سور من مثل سورة هود وماتحمله من علم وأنباء ، خصوصاً إنباءها عن بعثة هذا الشاهد الذي ستسفر عنه فيوض مُحمّد ﷺ الروحيّة. وثابروا على توجيه إتّهامهم محمّداً أنّه افترى هذا الكتاب العزيز على الله عزّ وجلّ . لذلك أضحوا في نظر الله تعالى لم يُحسنوا صُنعاً. فأنذرهم جلّ شأنه في مقدمة سورة الكهف وقال: ﴿**وأنّا لجاعلون ماعليها صعيداً جُرُزاً**﴾. أي قاعاً صفصفاً لاترى فيه عوجاً.

وإنّي أناشد هذا السّائل، وكل قارئ، أن يُطالع ماأتت به أظلال دلالات سورة الكهف هذه من معلومات وليستفت قلبه حول مدى مصداقيّتها ـــ فسيلاحظ هذا القارئ يقيناً أن هذه السورة لم تنبئ عن حال الذين اتّخذوا لله ولداً المعاصر، بل وأنبأت عن حال تخلُّف المسلمين المعاصر أيضاً، كما أنبأت أنّ طريق الخلاص مُنعقدٌ على أيدي «الشّاهد» المُنبأ عنه في سورة هود. هذا الشاهد الذي وُصف هنا في سورة الكهف باسم «ذو القرنين». فالشّاهد الذي يعني لغوياً المهدي والحَكَم العَدْل. هو نفسه ذو القرنين بمعنى أنه سيصبح مُجدّداً لقرنين زمنيّين من تاريخ أمة محمّد ﷺ، وليس كبقيّة المجددين الذين سبقوه. هذا وإن الآيات من سورة الكهف قد حدّدت مهمة هذا الشاهد ذو القرنين، وهو أن يؤسّس جماعةً من طالبي الحقيقة، الذين يبتغون الخلاص من شرور ماصنعه الذين اتخذوا لله ولداً، جماعةً مؤمنين يرجون التعرّف إلى ربّهم ليفوزوا بمحبّته وقربه ورضوانه. ويقيم ذو القرنين بذلك سدّاً بين جماعة المؤمنين، وبين هؤلاء المفسدين

الذين استعمل الله تعالى لهم اسم يأجوج ومأجوج، هذا الاسم المشتقّ من أجّج النار أشعلها، وأجّج الفتنة أثارها، فهذه هي صفات المعاصرين من الذين اتّخذوا لله ولداً. يقيم ذو القرنين هذا السّد، ويُقيم بذلك جدار الإسلام الذي يريد أن ينقضّ.

وعلى هذه الصورة يكون ربّنا عزّوجل الذي أتى في سورة هود بمقدّمة موضوع جوابنا على السؤال المطروح في مستهل هذا البحث، تلك المقدمة التي لخّصت الجواب من خلال إنبائها عن (شاهد منه). يكون تعالى قد فصّل وشرح لنا في سورة الكهف كل مايحدّد شخصيّة هذا الشاهد وزمن بعثه وماسيتحقق على يديه وسمّاه «ذو القرنين» أيضاً. ويكون جلّ شأنه قد وضع بذلك بين أيدي القارئ السائل مفتاح دراية جميع ماوصله من أحاديث تتعلّق بهذا الشاهد ذو القرنين. انطلاقاً من أنّ القرآن الكريم هو المرجع الأساس لكل مسلم، لذلك كان من واجب هذا المسلم معرفة الأصل الذي استندت إليه أحاديث رسول الله ﷺ ضمن كتاب الله العزيز.

وأقول، والأسف يتملكّني، هو أن علماء ومفسّري أمّتنا لم ينتهجوا المنهج الذي بيّنته، فذهبوا من خلال ماوصلهم من أحاديث مذاهب شتّى، واتّخذوا هذا القرآن مهجوراً في أمر هذا الشخص الذي أنبأت عنه أحاديث رسول الله ﷺ. فظنّوا أنّه المسيح النّاصري، قد أصعده الله تعالى إلى السماء، وأنّه سينزل هو نفسه زمن تخلّف المسلمين وهيمنة الأمم عليهم، ليقوم بما أنبأت عنه الأحاديث من مهام.

٣ـ حلقة سورة الزخرف:

ولّما كان فهم المسلمين المشار إليه ساذجٌ ويخالف صريح القرآن الكريم، وكان من الضروريّ أن يبحثه الله تعالى ضمن جوابه على السؤال المطروح، فلم يأت جلّ شأنه على بحث هذا الأمر في سورة الكهف بل راح جلّ شأنه في سورة الزخرف يوضّح ماالتبس أمره على علماء المسلمين ومفسّريهم، ونبّه أذهاننا فيها إلى أنّ هذا الشاهد ذو القرنين سيكون مثيلاً ونظيراً للمسيح بن مريم في مُهمّته وبُعده الزمانيّ عن زمن موسى عليه السلام، ولن يكون هذا الشّاهد ذو القرنين هو المسيح بن مريم نفسه.

هذا الأمر أورده ا لله جلّ شأنه في الآية (٥٧) من سورة الزخرف التي قال تعالى فيها: ﴿**ولمّا ضُرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدُّون**﴾. فالمثل في اللّغة يستعمل للشّبه والنّظير ويجمع على أمثال (محيط المحيط) أي أنّ ماتضمنته سورة الزخرف من معلومات تشكّل حلقة ثالثة من موضوع ماأجاب به ربّنا جلّ شأنه على السؤال المطروح في بداية بحثنا هذا، بحث طريق الخلاص من حال تخلّف المسلمين المعاصر وهيمنة الذين اتّخذوا لله ولداً عليهم وعلى بقيّة أمم العالم .

وبما أنني تعرّضت لبيان هذه الحلقة الثالثة في (فنّ الاختزال)، لذلك اقتبس للقارئ ممّا كتبته هناك بعض الشّذرات لِتعطيه فكرة واضحة عن ذلك وعن علاقته بالتسلسل الموضوعي لآيات سورة الزخرف: قلت على الصفحات (١٧١ ـ ١٧٤): (يلاحظ القارئ أنه تعالى أوصى رسوله الكريم في الآية (٤٣) بقوله تعالى: ﴿**فاستمسك بالذي أوحي إليك، إنّك على صراطٍ مستقيم، وإنه لذكر لك ولقومك، وسوف تُسألون**﴾. فلماذا أتى بسوف في هذا المقام؟ وهي تستعمل للمستقبل البعيد، ولم يقُل ستُسألون؟ حكمة ذلك أنّه تعالى يحمّل الأمة الإسلامية مسؤولية حمل دعوة الإسلام إلى العالم قاطبة، فإن قصّرت هذه الأمّة في هذه المسؤولية، وقعد افرادها عن الدعوة إلى الإسلام والتّبشير به، لايكونون قد أدّوا هذه المسؤولية، فيعتبرون في نظر ربّهم مُقصّرين ومُدانين، لأن الهدف من دين الإسلام قد حدّده قوله تعالى: ﴿**هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحقّ لِيُظهره على الدّين كُلّه ولو كره المشركون**﴾. ففي هذا التحذير ﴿**وسوف تسألون**﴾ نبوءةٌ غيبيّةٌ عن مستقبل الأمة الإسلامية من أنّها ستُشابه في المستقبل، من سبقها من أمم الأرض، الذين عادوا يقولون مالا يفعلون. فلمّا انتهى ا لله عزوجلّ بعد عدّة آيات ذكّر فيها الأمّة الإسلامية بزمن موسى وفرعون، انتقل ليقول في الآية (٥٧): ﴿**ولمّا ضُرب ابن مريم مثلاً، إذا قومك منه يصدّون**﴾. فالمثل في اللغة يستعمل للشّبه والنظير كما يستعمل للحّجة ويصدّون أي يضجّون ويميلون عن هذا النظير ويُعرضون.. فا لله تعالى يُنذر المسلمين في هذه الآية الكريمة أنّهم إذا تقاعسوا في المستقبل عن التبشير بالإسلام ونشره على العالم، ينذرهم ببعث نظيرٍ للمسيح بن مريم وشبيهٍ لإحياء شريعة الإسلام على شاكلة مابعث به ابن مريمٍ لإحياء شريعة موسى من قبل، فإن عَلِمْنا أنّ بعثة ابن مريم قد تمت بعد موسى بثلاثة عشر قرناً من الزمان، فهي نفس المدّة التي انقضت على

زمن بعثة محمد ﷺ أيّ أنّ الله تعالى ينبئ هنا عن بعثة نظير وشبيه لابن مريم وذلك بعد ثلاثة عشر قرناً من بعثة محمد رسول الله ﷺ، وتكون مهمّته على شاكلة مُهمّة ابن مريم وكان القصد منها محاولة إحياء شريعة محمد ﷺ. وهي المدّة المُنبأ عنها في سورة السجدة أيضاً.. فالآية المذكورة تنبئ إذن عمّن تحدّثت عنه أحاديث رسول الله ﷺ الوارد فيها نزول المسيح في آخر الزمان والوارد في الحديث (وإمامكم منكم) بمعنى أنّ الذي سينزل، والنزول هنا للتشريف كما تقول نزل رئيس الدولة في دار الضيافة، فالذي سينزل هو مثيل المسيح ابن مريم ونظيره، وهو أحد أفراد أمة محمد رسول الله ﷺ.. فإن تذكّرنا تنديد الله تعالى بالمنافقين في سورة الأحزاب من قبل، فقد اقتضى التسلسل الموضوعي أن يبعث الله عزوجلّ مثيل ابن مريم لإصلاح حال المسلمين، الّذين تفشّى النّفاق بينهم، ولقيادة مسيرة الدعوة إلى الإسلام من جديد.. وليلاحظ هذا القارئ كيف أنّ الله تعالى قال بعد ذلك وفي الآية (٦١) **﴿وإنّه لَعِلْمٌ للسّاعة فلا تَمْتَرُنّ بها، واتّبعون هذا صراط مستقيم﴾**. فضمير (وإنّه) يعود على القرآن الذي يُعْلمنا في هذه الآيات عن ساعة زوال الذين اتخذوا لله ولداً، والذين هيمنوا على العالم إثر تخلّف المسلمين وانحطاطهم، وهاهو ذا جلّ شأنه يتوجّه بعد ذلك للكلام عن هؤلاء الذين اتخذوا لله ولداً ويقول: **﴿أم أبرموا أمراً فإنّا مُبرمون. أم يحسبون أنّا لانسمع سرّهم ونجواهم، بلى ورسُلنا لديهم يكتبون. قل إن كان للرّحمن ولدٌ فأنا أوّل العابدين. سبحان ربّ السموات والأرض ربّ العرش عمّا يصفون. فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتّى يُلاقوا يومهم الذي يوعدون﴾** ٧٩ـ٨٣ وهذه الآيات الكريمة واضحة الدّلالة على أنّ الله عزوجلّ سبق أن خصّص ساعةً لزوال هؤلاء الغربيين المشركين وأنّه جلّ شأنه يسمع نجواهم ومـاأبرموه، ويعلم سرّهم ومايبرمون.

فبهذا الذي أتت به سورة الزخرف، يكون جلّ شأنه قد وضّح للعلماء والمفسّرين ماالتبس عليهم أمره بشأن هذا الشاهد ذو القرنين، فوضّح تعالى لهؤلاء أنّ هذا المثيل ماهو المسيحَ ابن مريم نفسه، بل سيكون نظيراً له وشبيهاً من حيث مُهمّته ومن حيث بُعْدِ بعثته الزمنيّة عن موسى عليه السّلام، فهذا النّص القرآني يشكل أصل الحديث القائل (كيف أنتم إذا نزل فيكم المسيح ابن مريم وإمامكم منكم). فالنّزول هنا استعمل للتكريم. ثم إنّ استحقاق هذا الشاهد ذو القرنين

لإسم ابن مريم، فَلِكَوْنه مثيلاً له ونظيراً كذلك ألفاظ (وإمامكم منكم) وفي رواية (وأمّكم منكم) قد صرّح ﷺ من خلالها بأن هذا الشاهد ذو القرنين مثيل ابن مريم سيكون أحد أفراد أمّة محمد خاتم النبيين ﷺ نفسه .

ويكون الله جل شأنه قد وضّح الحلقة الثالثة المختصّة بموضوع هذا الانقلاب الروحي السّابع الكبير الذي يقف العالم على عَتَبته. هذه الحلقة التي تضمّنها قول الله تعالى في سورة الزخرف: ﴿**ولّما ضُرب ابن مريم مثلاً إذا قومُك منه يَصُدّون**﴾. فليمعن القارئ نظره في حرف (لّما) الذي افتتحت به هذه الآية الكريمة. ففيه الإنباء والدّلالة على أنّ ظهور مثيل ابن مريم أمرٌ متوقّعٌ ومفروغٌ منه. ذلك أنّ اللغويين قالوا إنّ منفيّ حرف لم غير متوقّع ثبوته على عكس منفيّ حرف (لّما) فهو متوقّع ثبوته. على شاكلة القول (لّما يذوقوا عذاب النار) أي أنّ ذوقهم للنّار مُتوقّعٌ وإن لم يذوقوه إلى الآن (محيط المحيط) فمضمون الآية التي نحن بصددها ورد في سياق الكلام عن امكانيّة تخلّف المسلمين وتقصيرهم في أداء المسؤولية المُلقاة على عاتقهم وهي ضرورة استمرارهم بمهمّة التبشير بالإسلام ولنشره على العالم كلّه. فمن خلال الإيتاء بحرف (لّما) نبّه ربّنا أذهاننا بأسلوبٍ بلاغي مُعجز إلى أن هذا التّقصير من جانب المسلمين مُتوقّع في المستقبل، لذلك فمتوقّع أيضاً احتياج هؤلاء إلى بعثة نظيرٍ لابن مريم وشبيهٍ به من بينهم وليعيد بذلك إلى الإسلام حيويّته.

٤ً . حلقة سورة الصّف :

والذي يتدبّر تسلسل مضامين السّور القرآنية تدبّراً حقيقياً، ومن زاوية نظر الكلام عن حلقات هذا الانقلاب الروحي السّابع الكبير المقبل. ستواجهه سورة الصّف التي تتناول حال المسلمين يوم يتخلّون عن مسؤولية الدعوة إلى الإسلام، ويُصابون بالتخلّف والانحطاط من جرّاء ذلك، ويفقدون بالتالي تأييد ربّهم عزّ وجلّ ونُصرته، بل ويعود الله تعالى ينظر إليهم نظرة مقتٍ شديد لإساءتهم إلى الله ورسوله عمليّاً. ويحتاج الإسلام يومئذٍ إلى بعثة مثيل ابن مريم ونظيره، حيث يُطالب الله أولئك بنصرة هذا الشاهد النظير لابن مريم وتأييده والانضمام تحت جناحيه، لكنّ مسلمي عصر التخلّف المذكورين سيكون موقفهم خلاف ماتطالبهم به سورة الصّف، فيكذّبون مثيل ابن مريم الذي يأتيهم بالبيّنات

على شاكلة ماأتى به المسيح ابن مريم فيما مضى في أُمّة موسى بالبيّنات، ويتهمونه بالافتراء على الله. ضاربين عرض الحائط كونه لايدعوهم إلاّ إلى الإسلام .

وقبل تناولي آيات سورة الصّف لإثبات صحّة مازعمته من مضمونها، أجد لزاماً عليّ أولاً العودة بالقارئ إلى التّسلسل الموضوعي للسّور الذي أشرت إليه. فقد قال تعالى في سورة الأحزاب من قبل **﴿ماكان محمّد أبا أحدٍ من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكلّ شيء عليماً﴾**. فحرف (لكن) يفيد مابعده نقيض ماقبله على حسب ماأورده اللغويّون. أي أنّ الله عزوجلّ نفى عن رسوله الكريم أُبوّته الجسدية، وأثبت في الوقت نفسه نقيض ذلك أي أثبت أبوته الروحيّة لأمّته. لذلك قال بعد ذلك بحقّ زوجات رسوله الكريم **﴿وزوجاته أمّهاتكم﴾** أي أمّهاتكم الرّوحيات. وقد اشترط الله جلّ شأنه على المؤمنين ألاّ يؤذوا محمداً وزوجاته، فإن فعلوا هذا يحرمُون أنفسهم من جرّاء ذلك من هذه الأبّوة الرّوحيّة التي هي لرسوله الكريم، فهذا ماأنهى الله تعالى به سورة الأحزاب حيث قال هناك: **﴿ياأيّها الذين آمنوا لاتكونوا كالذّين آذوا موسى فبّرأه الله ممّا قالوا وكان عند الله وجيهاً، ياأيّها الذين آمنوا اتّقوا الله وقولوا قولاً سديداً. يُصلح لكم أعمالكم ويغفرْ لكم ذنوبكم، ومن يُطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً، إنّا عرضنا الأمانة ـ أي أمانة الدعوة إلى الإسلام بهذا القرآن ـ على السموات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان ـ أي حملها هذا البشر الذي هذّبناه بتعاليم هذا القرآن ـ إنّه كان ظلوماً جهولاً. ليُعذّب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات، ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات، وكان الله غفوراً رحيماً﴾**. فقد حذّر الله تعالى المسلمين في هذه الآيات الأخيرة من سورة الأحزاب من مغبّة إهمالهم لمسؤوليتهم المتعلقة بحمل الأمانة المتعلّقة بنشر تعاليم القرآن الكريم على العالم كلّه. كما حذّرهم من ترك تقوى الله والقول السّديد، وحذّرهم من معصية الله ورسوله، كيلا يؤذوا رسوله محمداً خاتم النبيين، وكيلا يُعدّوا في نظر ربّهم منافقين ويستحقّون بالتالي عذاب الله تعالى ويفقدون محبّته وتأييده ونصرته.

ماأنزل ا لله تعالى على محمّد ﷺ من وحي القرآن في مقابل ماأوحى إلى موسى من وصايا عشر. والذي نستخلصه من ذلك كلّه هو أنّ الانقلاب الروحي العظيم الذي تحقق على أيدي محمد رسول ا لله ﷺ، على صعيد كلام ا لله مع عباده فاق جميع ماسبقه من انقلاباتٍ روحيّةٍ تحقّقت على أيدي المرسلين من قبله.

وأتناول الإجابة على التساؤل الذي ذكرناه على صعيد الأحكام والتشريع، وماالستجدّ على هذا الصّعيد بإنزال ماتضمّنه كتاب ا لله القرآن المُنزل على محمد ﷺ فأقول: أفلم يُلاحظ القارئ كيف أنّ هذا القرآن قد نسخ جميع ماسبقه من كتبٍ سماويّة، وكيف أنّه تضمّن أحكاماً وتشريعاً كاملاً ويصلح لكل زمان ومكان؟ فهل نسخ القرآن الكريم التوراة والإنجيل وغيرها عبثاً ودون حكمه؟ أفلم يلاحظ القارئ كيف أن تعاليم تلك الكتب كانت قومية الصّبغة ولاتصلح أحكامها وتشريعها لإقامة مجتمعٍ ونظام عالمي؟ ثم إنّ كمال رقي الإنسان روحياً يرتبط ارتباطاً عضوياً بكمال الأحكام والتعليم الذي يعمل عليه. وعليه فلم تكن أحكام وتعاليم الكتب السابقة تفي بهذه الضرورة الموضوعية، على قدر ماجاءت مدرسة أحكام وتشريع وتعاليم القرآن لتفي بهذه الضرورة الموضوعية ولتخرّج مدرسة القرآن الكريم رجالاً على مستوى النبيّين والصّديقين والشهداء والصالحين. ألا إن كتاب ا لله العزيز لفت أنظارنا إلى هذه الحقيقة التي ذكرناها في الآية (١٥٤) من سورة الأنعام فيما يتعلّق بأحكام وشريعة موسى فقال: ﴿**ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذي أحسن، وتفصيلاً لكلّ شيء، وهدى، ورحمة لعلهم بلقاء ربّهم يؤمنون**﴾. أي أن التّرجي بالحصول على لقاء ا لله عزوجلّ ارتبط عضوياً بأحكام وتعاليم الكتاب الذي أنزله ا لله تعالى على موسى، على اعتبار أنها أحكامٌ وتعاليم ذات صبغةٍ قومية فلا تفي بترقية الإنسان الذي يعمل عليها ترقيةً روحيةً كاملة تؤهّله للتشرُّف بلقاء ربّه عزّ وجلّ وجذب محبّته وقربه ورضوانه .

هذا وقد لفت ا لله تعالى أنظارنا في الوقت نفسه إلى كمال أحكام وتعاليم القرآن التي توصل الإنسان إلى لقاء ربّه حاذفاً هذا التّرجي. حيث أنه جل شأنه قال في الآية (١١١) من سورة يوسف بحقّ مدرسة أحكام وتعاليم القرآن الكريم: ﴿**لقد كان في قَصَصِهم عبرةٌ لأولي الألباب، ماكان حديثاً يُفترى، ولكن تصديق الذي بين يديه، وتفصيل كلّ شيء، وهدى، ورحمة لقوم**

يؤمنون﴾. فهو جل شأنه على حين أنهى الآية الأولى المتعلقة بالشريعة الموسوية بقوله: **﴿هدى ورحمة لعلهم بلقاء ربّهم يؤمنون﴾**. فإنه جل شأنه أنهى الآية الثانية المتعلّقة بالشريعة المحمدية بقوله: **﴿هدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾**. وبذلك ربط عزوجلّ التعليل والتّرجي بمدرسة موسى، وحذف هذا التعليل والترجي فيما يتعلق بمدرسة القرآن الكريم. كذلك حذف كلمة (تماماً) من الآية المتعلقة بمدرسة القرآن الكريم على اعتبال كمال ماتضّمنتهُ من أحكامٍ وتشريع. فأعظم بهذا الأسلوب البلاغي المعبّر، وبهذه الدّقة في التعابير والّتي لايلحظها إلا المتدبّرون.

أما هذا الكمال الذي اتّصفت به أحكام وتشريع كتاب ا لله القرآن، فقد صرّح به ا لله عزوجلّ في الآية الثالثة من سورة المائدة، وضمن ماراح يفرضه على المسلم من أحكام. فهو تعالى قال ضمن تلك الآية ﴿.. **اليوم يئس الذين كفروا من دينكم، فلا تخشوهم واخشون، اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام ديناً، فمن اضطُرّ في مَخْمصةٍ غير مُتجانفٍ لإثمٍ، فإنّ ا لله غفور رحيم﴾**. فهو تعالى صرّح هنا أن اكتمال بناء الدّين الشاهق الذيّ تتبنّونه وتؤمنون بأحكامه وتعاليمه، ألقى اكتمال هذا البناء الديني اليأس والقنوط في قلوب الذين كذّبوه وكفروا به، لموازنتهم مابين تشريعه وأحكامه ومابين مالديهم من أحكام وتشريع. وبذلك سدّ في وجوه الذين كفروا بشريعة الإسلام باب التّفاخر والتّباهي بما في كتبهم من أحكامٍ وتشريع. فلمّا انتهى تعالى من التّنبيه إلى ذلك، راح يخاطب الذين آمنوا بشرع الإسلام وينبّه إلى أنّ واجبهم بعد اكتمال بناء الدّين بهذا التشريع أن يضعوا خوف ا لله وخشيته نصب أعينهم في كلّ أمرٍ من أمور حياتهم اليومية، فهنا يكمن سرّ قوّتهم ومظهر تعلّقهم بربّهم عزوجلّ، لذلك فلا ينبغي أن تبدر عنهم الخشية والخوف من هؤلاء المكذبين الكفّار، وإلاّ فقد ثبت ضعف إيمانهم بربّهم وقدراته عزوجلّ، بربّهم الذي أكمل لهم بناء هذا الدّين الذي راحوا يدينون بشرعه وتعاليمه. بربّهم الذي أتمّ بذلك نعمته عليهم ورضي لهم الإسلام ديناً.

ألا إنّ ألفاظ **﴿أكملت لكم دينكم﴾** تشير صراحة إلى كمال التشريع الإسلامي، وإلى أنه تعالى وضع هذا التشريع موضع التنفيذ لإكتمال تعاليمه، ثم إنّ ألفاظ **﴿وأتممت عليكم نعمتي﴾** تُشير إلى أنّ الثمار الروحية لهذا التشريع

اكتملت أيضاً مادياً وروحياً، أي أنّ مدرسة القرآن أضحت تدرّس هنا التشريع الكامل التعاليم نظرياً كما راحت تُدرِّسْه تطبيقيّاً ليجني الدارس من ثماره الروحية أعظم الثمار.

وهكذا تكون هذه الآية من سورة المائدة قد نبّهت إلى حقيقة اكتمال بناء الدين وإلى كمال ماأنزل الله تعالى في هذا الكتاب العزيز، وليُحدث محمد رسول الله ﷺ، وهو المبعوث إلى النّاس كافة، ليحدث انقلاباً روحياً عظيماً هو أعظم انقلاب روحي في تاريخ البشر قاطبة وعبر تاريخه الطويل.

وأتناول هذا الموضوع من جانب ثالث وهو جانب معالم التّوحيد الذي بُعث به محمد رسول الله ﷺ، فإن تدبّر القارئ آي الذكر الحكيم يُلاحظ أن الله تعالى وصف هذين النبيين ابراهيم ومحمداً عليهما السلام بوصف واحد. لذلك أورد ربّنا عزوجل قوله في سورة النّحل الآية (١٢٣) يساوي بين وصف إبراهيم ووصف محمد سيد المرسلين وقال: **﴿إنّ ابراهيم كان أمّةً قانتا لله حنيفاً، ولم يك من المشركين، شاكراً لأنعُمِهِ اجتباه وهداه إلى صراطٍ مستقيم، وآتيناه في الدنيا حسنة، وإنّه في الآخرة لمن الصّالحين، ثمّ وأحينا إليك أن اتّبع ملّة إبراهيم حنيفاً، وماكان من المشركين﴾**. فهو جلّ شأنه خاطب قوم محمداً فيما أنهى به الآية الأخيرة من أنّكم تعلمون أنّ محمداً لم يكن مشركاً قبل أن يؤت هذا الكتاب العظيم فما كان محمد من المشركين، بل كان موحّداً على شاكلة جدّه ابراهيم.

وأكّد الله عزوجلّ اشتراك ابراهيم ومحمد في توحيدهما، في الآية (١٠٥) من سورة يوسف أيضاً حيث قال فيها: **﴿قل هذه سبيلي ادعو إلى الله** وقف**، على بصيرةٍ أنا ومن اتّبعني، وسبحان الله وماأنا من المشركين﴾**.

لكنّ هذا القارئ إذا تدبّر آي الذكر الحكيم من منظار مابين محمد وابراهيم من فرقٍ في مقامهما الروحي، فلابد له من أن يلاحظ علوّ مقام محمد على مقام ابراهيم من خلال ماأنهى الله تعالى به الآيات الكريمة في موضعين من كتاب الله العزيز، فعلى حين نلاحظ قول ربنا في الآية (١٣١) من سورة البقرة: **﴿ومن يرغب عن ملّة ابراهيم إلاّ من سَفِهَ نفسه، ولقد اصطفيناه في الدنيا، وإنّه في الآخرة لمن الصالحين: إذ قال له ربّه أسلم، قال أسلمت لله ربّ العالمين﴾**. فهو تعالى أنهى هذه الآية بجملة أسلمت لله ربّ العالمين. ولا نلاحظ

وصفاً آخر لابراهيم في موضع آخر من كتـاب ا لله العزيـز يزيـد علـى وصفـه أن أسلم لله رب العالمين.

فعلى حين نلاحظ ذلك، تواجهنا الآية (١٦١) مـن سـورة الأنعـام بقولـه تعالى: ﴿**قل إننـي هداني ربّي إلى صراطٍ مستقيم، ديناً قيّماً، ملّة ابراهيم حنيفاً، وماكان من المشركين. قل إنّ صلاتي ونُسكي ومحياي ومماتي لله ربّ العالمين، لاشريك له، وبذلك أُمرت، وأنا أوّل المسلمين**﴾. فهو جـلّ شأنه قـد وصف رسوليه هنا ابراهيم ومحمداً بوصف واحدٍ من جهة. وميّز محمداً في الفقـرة الأخيرة من هذه الآية، من جهة ثانية على ابراهيم لقوله: ﴿**وأنا أوّل المسلمين**﴾. فابراهيم أسلم نفسه لربّ العالمين، أمّا محمد خـاتم النبيين ﷺ فقـد كـان أوّل مـن أسلم نفسه من نفسه لله ربّ العالمين. ليس أولهم زماناً، إذ المعلوم أنّ ابراهيم هـو السّابق زماناً، وهذه قرينة لغويةٌ تصرف لفظ (أوّل) هنـا مـن الزّمانيـة إلى الدّلالـة على أولويّـة مقـام محمـد ﷺ، وسمّـوه. فمحمـد بـن عبـد ا لله يـأتي في ذروة هـرم التوحيد، لذلك فهو أوّل المسلمين وكأنّ ا لله عزوجلّ ينقل لنا عن لسان محمد ﷺ قوله بألفاظٍ أخرى منبّهاً إلى الفارق بين مقامه ومقـام ابراهيـم جـدّه مـن حيـث التّطبيق، وليس من حيث النظريّة والاعتقاد، قوله: ﴿**وأنا أوّل المسـلمين**﴾ بمعنـى أنّ المقام الروحي الذي حصل عليه محمد ﷺ من حيث فُرص إثبات توحيده لربّـه، أعلى وأرفع من المقام الروحي الذي حصل عليه جدّه ابراهيم عليه السلام، لذلـك يُعدّ محمد ﷺ في نظر ربّه (أول المسلمين) فالسّبق الزماني لابراهيم ولاشكّ، لكـنّ الأولوية في المقام الرّوحي فلمحمّد سيد المرسـلين ﷺ. وهكـذا تكـون بعثـة محمـد رسول ا لله ﷺ قد أحدثـت انقلابـاً روحيـاً عظيمـاً أيضـاً علـى الصعيـد التطبيقـيّ للتوحيد الذي بُعث به ابراهيم عليه السلام. ذلك أنّه لم يتحقق من إنجازات علـى أيدي ابراهيم تماثل ماتحقّق من إنجازات تحققّت علـى أيـدي خـاتم النبيّـن. اللهـم صلّ وسلّم وبارك على محمد وعلى آل محمد إنك حميد مجيد.

الأقل أهميّة من المقصد الذي ذكرناه، هو محاولة تنبيه أذهان المسلمين المعاصرين الذين اعتقدوا برفع المسيح ابن مريم إلى السّماء بجسده العنصري وبنزوله آخر الزمان. تنبيه عقول هؤلاء إلى أن ابن مريم نفسه قد مات، وها أنّه قد بشّر برسول يأتي من بعده إسمه أحمد ومثيل المسيح ابن مريم. فلو كان المسيح حيّاً في السّماء وسينزل آخر الزّمان، فلا معنى لتبشيره بأحمد، بل كان ينبغي له أن يبشّر ببعثة رسولٍ من بعده اسمه محمد. والمقصد الثالث من وراء إيراد هذا التبشير بأحمد هنا، هو تنبيه عقول المسلمين المعاصرين إلى أن عودة عيسى ابن مريم إلى الأرض بعد محمّد خاتم النبيين، يتناقض ودلالة ألفاظ خاتم النبييّن. فلا نبيّ يأتي من بعد محمّد من خارج أمّته. فإن حدث وأتى ينقضٍ بمجيئه ختم نبوّة سيد المرسلين. حتى ولو كانت نبوّة هذا المبعوث سابقة زمنياً بعثة محمد خاتم النبيين. فلا نبيّ يأتي من خارج أمّة محمدٍ من بعده ولو كانت نبوّته سابقة لبعثته الثانية. هذه هي دلالة خاتم النبيّن.

هذا وقد سبق لي أن وضّحت عند الكلام عن قوله تعالى ﴿**وشاهدٍ منه**﴾ أنّ هذا الشاهد سيمثّل فيض محمد الرّوحاني ومن أمّته، فهو منه، وليس من أمّةٍ أُخرى غير أمّة محمد خاتم النبيين ﷺ.

فهذه هي الحقائق الكامنة وراء التّبشير بإسم أحمد على لسان مريم في هذا المقام. ذلك أنّ المخاطبين هنا هم مسلموا عصر التخلّف والانحطاط، وليس اليهود أو المسيحيّن. ودليلنا على ذلك ماأورده الله جلّ شأنه بعد ذلك من أقوال. فهو تعالى قال بعد ذلك: ﴿**فلمّا جاءهم بالبيّنات قالوا هذا سحرٌ مبين**﴾.

ومن المعلوم أنّ القاعدة العربية تقول: إنّ الضمير لايعود إلى شيء غائبٍ عن النّص. وهذه الآيات التي ذكرناها تخلو من ذكر المسيحيين، والمخاطب فيها، هم مسلموا عصر التخلّف والانحطاط. لذلك فإنّ ضمير ﴿**فلمّا جاءهم**﴾ يعود على هؤلاء المسلمين المعاصرين. والذي جاءهم هو أحمد مثيل ابن مريم ونظيره الذي جاءهم ببيّنات القرآن الكريم التي غابت عن أذهان هؤلاء المسلمين المعاصرين.

وليَعُدْ هذا القارئ بذاكرته إلى الآية من سورة الزخرف قوله تعالى: ﴿**ولّما ضُرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدّون**﴾. أي أنّ حال المسلمين من

قومك، إذا بعث الله تعالى فيهم مثيل ابن مريم، لايؤمن أكثرهم به، بل يضجّون منه ويكذّبونه ويميلون عنه ويُعرضون (محيط المحيط). وهاأنّه جلّ شأنه يثبت مقولته الغيبيّة هذه من خلال قوله تعالى: ﴿**فلمّا جاءهم بالبيّنات قالوا هذا سحرٌ مبين**﴾. وهو جلّ شأنه استهلّ هاتين الآيتين أيضاً بحرف (لمّا) الذي يفيد مابعده نقيض ماقبله. كذلك أتى بفعل جاء وفعل قالوا بصيغة الماضي وليس بصيغة المضارع ليفيدا الجزم بعد بعثة هذا الشاهد المثيل لابن مريم والموعود بظهوره، وبعد أن تتضّح دلالات الآيات الواردة في سورة الصّف. فصياغة أفعال الآية وردت بصيغة الماضي لتساعد أيضاً كلّ مؤمن بهذا المثيل ويقف مدافعاً عن صدق بعثة هذا المثيل لابن مريم.

ولْيُلاحظ القارئ أنّ الله عزوجلّ لم يكتف بإثبات مقولته الغيبيّة بدليلٍ واحدٍ على حسب ماوضّحناه. بل قدّم بعد ذلك دليلاً آخر أقوى من الأوّل، ومُصاغاً بأسلوب بلاغيّ معجز أيضاً، فقد راح تعالى يقول: ﴿**ومن أظلم ممّن افترى على الله الكذب، وهو يُدعى إلى الإسلام، والله لايهدي القوم الظالمين**﴾. فقوله تعالى (ومن أظلم) المقصود به هؤلاء المسلمين المعاصرين الذّين كذّبوا مثيل ابن مريم وقالوا هذا سحرٌ مبين. يقول تعالى وهل يُتصوّر أن يأتي غيرهم بظلم أعظم من ظلمهم هذا الذي يرتكبونه؟ فهم يتّهمون الله ربّهم بالكذب والجنوح عن الحقيقة من خلال تكذيبهم لهذا الشاهد مثيل ابن مريم، فهم يكذّبون ماأنبأ الله به عن ظهوره وعن علامات ظهوره. ويضيف جل شأنه يقول ﴿**وهو يُدعى إلى الإسلام**﴾ أي أنّ مايزيد في بشاعة ظلم هؤلاء المسلمين هو أنّهم يكذّبون هذا الشاهد المثيل الذي يدعوهم إلى العودة إلى تعاليم دينهم الإسلام وقد أتى لهم ببيّنات دينهم الإسلام. فقد كان من واجبهم مناقشة مايدعوهم إليه، لاأن يتّهمونه بالسّحر أي بالخداع والتّمويه وإخراج الأشياء في أحسن معارضها لِيُفتَنَ بها الناس (محيط المحيط)، والمعنى أفلا يخجل هذا الظالم أن يُدعى من قِبَلِ هذا الشاهد النظير لابن مريم إلى الإسلام ويتغافل عن دعوته تلك ؟ وهو جلّ شأنه عندما أنهى الآية بقوله: ﴿**والله لايهدي القوم الظالمين**﴾. جزم بحقيقة ظلم المسلمين المعاصرين الكبير، كما جزم بإبقائهم على ظُلمهم وزيغانهم عن الصراط المستقيم.

وقد راح جلّ شأنه يبدي مقته لهؤلاء الذين آذوا رسوله محمداً ﷺ، وافتروا على ربّهم كذباً، وقال بلهجة الإله العزيز الفعّال لِما يريد: ﴿**يُريدون أن يُطفئوا نور الله بأفواههم، والله مُتِمُّ نوره، ولو كَره الكافرون، هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق لِيُظهره على الدّين كلّه ولو كره المشركون**﴾. أي أنّ تكذيب مسلمي عصر التخلّف والانحطاط هذا المبعوث الشاهد مثيل ابن مريم، يُعدُّ في جوهره محاولةً لإطفاء نور الله الذي راح ينوّر به العالم لهداية عباده الضّالين. ثم إنّ محاولتهم هذه تأتي (بأفواههم) وليس بأداة أقوى من ذلك. أي أنّهم يعتمدون على نشر الإتهامات والأكاذيب والتخويف من هذا المبعوث، ولايقابلونه بسلاح الحجّة والبرهان والحوار المنطقيّ. فسلاحهم هذا لاوزن له ولاشأن ولاقوة له على مغالبة نور الله. لذلك نَدَعُهُم لشأنهم ولمحاولتهم تلك، لكن ليعلموا أنّ الله العزيز الذي لايُغالب والفعّال لِما يريد ﴿**مُتِمُّ نوره**﴾ أي لايتراجع عن خطوته التي خطاها لهداية العالم ﴿**ولو كره الكافرون**﴾ أي ولو كره هؤلاء الذين يكذّبون هذا الشاهد المثيل لابن مريم، والذين يكذّبون كلامي ونبوءاتي، هذه المعاني جميعها محتملة هنا، بسبب أنّ الله تعالى عرّف كلمة (الكافرون) بالألف واللاّم.

وراح جلّ شأنه يبرّر عمليّة ﴿**متمُّ نوره**﴾ أي يبرّر مثابرته على تأييد مثيل ابن مريم، موضّحاً المقصد الأسمى من بعثه إياه، وقال: ﴿**هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحقّ ليظهره على الدّين كلّه ولو كره المشركون**﴾. أي أنّ تخاذل مسلمي عصر التخلّف والانحطاط عن أداء مهمتهم التي حدّدتها لهم آيات سورة الأحزاب وهو ضرورة الاستمرار في القيام بالتبشير بالإسلام ونشره على العالم كله.

فقد استدعى هذا التّخاذل الذي أبدوه، أن يبعث الله تعالى مثيل ابن مريم، خصوصاً وأنّ حال هؤلاء قد شابه حال أمّة موسى من قبلهم. أن يبعثه ليكمل مسيرة الدعوة الإسلامية، فقد كان من مهمّة صاحب دعوة الإسلام وهو محمد ﷺ أن يظهر دين الإسلام على جميع الأديان، لاأن يظل أتباعه أقل من هؤلاء المشركين الذين اتّخذوا لله ولداً وهيمنوا على العالم الإسلامي، هذا المعنى دلّ عليه تعريف كلمة (المشركون) بالألف واللام العهدتين، ولمناسبة التّسلسل الموضوعي لهذه الآيات الكريمة. فلم يكن المقصود هنا مشركي قريش.

وبعدما فرغ ا لله جلّ شأنه من تقديم هـذه الحقـائق الـتي أتـت بهـا آيـات سورة الصّف، وبسبكٍ بلاغيّ معجز وأخّاذ، راح تعالى يخاطب هـؤلاء المسـلمين الذين ينسبون أنفسهم إلى رسوله الأمـين محمـد خـاتم النبيـين ﷺ. راح يخـاطبهم بأسلوب النّاصح الأمين ويقول: ﴿**ياأيّهـا الذيـن آمنـوا هـل أدُلكّم علـى تجـارةٍ تنجيكـم مـن عـذابٍ أليـم. تؤمنـون بـا لله ورسـوله وتجـاهدون في سـبيل ا لله بأموالكم وأنفسكم، ذلكم خيرٌ لكم إن كنتـم تعلمـون ـ يغفـر لكـم ذنوبكـم ويُدخلكم جنّاتٍ تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبةً في جنّات عـدن، ذلـك الفوز العظيم. وأُخرى تُحبّونها، نصرٌ من ا لله وفتحٌ قريبٌ وبشّر المؤمنين**﴾.

فا لله عزوجلّ غمز جانب هـؤلاء المسـلمين المعـاصرين مُشـعراً إيّـاهم أنّـه لاحظ غلبة الرّوح المادّية على تفكيرهم وسلوكهم اليومي وهـم مـن جـرّاء ذلـك ينتظرهم عذابٌ من ا لله أليم، فنصحهم أن يفكـروا تفكـيراً روحانيـاً وأن يقدّمـوا مصلحة الدين على جشعهم المادّي الدنيـويّ وعـبّر عـن ذلـك كلـه بقولـه تعـالى ﴿**هل أدلّكم على تجارةٍ تنجيكم من عـذاب أليـم**﴾. كذلـك نصحهـم بتجديـد إيمانهم با لله ورسوله والمجاهدة لنشر الإسلام على العالم تحـت رايـة هـذا الشـاهد المثيل لابن مريم. وأنهى هذا الجانب الثـاني مـن نصحيتـه تعـالى لهـؤلاء المسـلمين المعاصرين بقوله: ﴿**ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون**﴾ وحذف مفعول تعلمـون توسيعاً لدلالة هذا اللّفظ ولتصريفه إلى مختلف الاتّجاهات .والتقدير هذا إن كنتم تعلمون قيمة نصيحة ربّكم هذه، وإن كنتم تعلمون ماتضمنته التّوراة والإنجيل من نبوءات تتعلّق ببعثة محمّد ﷺ وبعثـة مثيـل ابـن مريـم، وإن كنتـم تعلمـون معايـير صدق المصلحين السماويّين. ومن ثم لاحظ أيهـا القـارئ كيـف بشّـر ا لله تعـالى الذين سيأخذون بنصيحة ربّهم هـذه وقـال: ﴿**يغفـر لكـم ذنوبكـم، ويدخلكـم جنّاتٍ تجري من تحتهـا الأنهـار، ومسـاكن طيبّـةً في جنّـات عـدنٍ ذلـك الفـوز العظيم**﴾. فأشار تعالى بهذه الألفاظ عدّة إشـارات: أشـار إلى أنّـه واسـع المغفـرة فهو سيغفر لمن يستجيب لنصح ربّه ذنوبه التي بـدرت عنـه قبـل تجديـد بيعتـه لله ولرسوله، وأشار إلى أنّ هذا المستجيب والملتزم سيفوز بقرب ربّه ومحبّتـه وتحسُنُ بذلك عاقبته، وأشار إلى أنّ هذا المستجيب سيفوز بوعود سورة الكهف، ويـرث مساكن الذين اتّخـذوا لله ولـداً بعـد أن تـأتي سـاعة دمـارهم. وهـذا بمجموعـه يشكّل فوزاً عظيماً.

وأضاف جلّ شأنه يبشّر المسلم المتخلّف المعاصر إن هو استجاب لنصيحة ربّه هذه، من أنه جل شأنه قد بعث بمثيل ابن مريم لينصر دينِ محمدٍ ﷺ وليحقّق الفتح على بقيّة الأديان، وقد عبّر عن ذلك وقال: ﴿**وأُخرى تحبّونها نصرٌ من الله، وفتح قريبٌ، وبشّر المؤمنين**﴾. وأثبت الله عزوجلّ من خلال ماتضمّنته نصيحتهُ هذه وبشاراته، أثبت أنه يعمد إلى هذا النّصح والتبشير كلّ من ينسب نفسه إلى رسوله الأمين محمد خاتم النبيين ﷺ، كما يمقت كلّ من يؤذي هذا الرّسول الأمين ولو زعم هذا المؤذي إيمانه بالله ورسوله، ذلك أنّ الله تعالى لأيُولي الأقوال الأهميّة التي يوليها للأفعال.

وقد أنهى جلّ شأنه سورة الصّف بآيةٍ صريحة الدّلالات، ولاتحتمل التأويلات، وتكشف عن صدق جميع مافهمناه من آيات سورة الصّف من دلالات أتينا على ذكرها آنفاً. ومن واجب القارئ أن يُصغي إلى هذه الآية الأخيرة إصغاء المتدبّر اللاّهف لكشف دلالاتها. ذلك أنّ الله عزّ وجلّ راح يخاطب مسلمي عصر التخلّف والإنحطاط الذين باتوا يقولون مالا يفعلون. راح يخاطبهم للمرّة الثالثة والأخيرة، حاثّاً إيّاهم على الإنضمام إلى جماعة مثيل ابن مريم بألفاظٍ صريحةٍ وواضحة وراح يقول: ﴿**ياأيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله، كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله، قال الحواريّون نحن أنصار الله، فآمنت طائفةٌ من بني اسرائيل وكفرت طائفة، فأيّدنا الذين آمنوا على عدّوهم فأصبحوا ظاهرين**﴾ أي ياأيها الذين آمنوا بي وبرسولي ناصروا مثيل ابن مريم هذا، على شاكلة مافعل بعض أفراد قوم موسى الذين استجابوا لصوت المسيح الناصري. تلك الأحداث التي أدّت إلى إنقسام بنو اسرائيل إلى طائفتين طائفة مؤمنة، وطائفة مكذّبة بالمسيح الناصري، وكانت النتيجة أن أيّد الله تعالى الذي استجابوا لنُصح ربّهم وآمنوا بصدق المسيح الناصري وأعرضوا عن تكذيبه، أن أيّدهم الله على الطائفة المعادية لهم، وتقلّبت الظروف والأحوال والأسباب فكتب الله للذين آمنوا بالمسيح الناصري ونصروه الغلبة على اليهود الذين أصرّوا على تكذيبه فأصبحوا ظاهرين عليهم عدداً وعُدّة وعتاداً وأموالاً وأولاداً. فهذا هو مصير الذين يناصرون مثيل ابن مريم المذكور، فستكون لهم الغلبة أخيراً لامحالة بإذن الله تعالى.

على هذه الشاكلة تكون سورة (الصفّ) قـد شكّلت الحلقة الرابعة من موضوع الانقلاب الروحيّ السابع الكبير الذي يهيّئ الله عزوجلّ أسباب تحقيقه، للإكمال نشر الإسلام على العالم ولتثبيت الأمن والسلام في ربوع هذا الكوكب الأرضي.

وإنّ القارئ الذي تابع هذه الحلقات الأربع المتعلّقة بموضوع بعثة (شاهدٍ منه)، هذا الذي سُمّيّ في سورة الكهف باسم ذو القرنين، كما سُمّي في سورة الزخرف باسم مثيل ابن مريم، لابدّ أن لاحظ هذا القارئ كيف أنّ الحلقة الرابعة قد صوّرت وبأسلوب معجزٍ ماسيؤول إليه حال مسلمي آخر الزمان وذلك في سورة الصّف. هؤلاء المسلمون الذين تناسوا قدرات ربّهم عزوجل، فتناسوا ماأحدثه من انقلاباتٍ روحيّة على أيدي الذين اصطفاهم من أنبيائه ومرسليه.

٥- حلقة سورة الجمعة

فإن تدبّر هذا القارئ سورة الجمعة يتضح له أنّها أنبأت عن بعثه هذا الشاهد المثيل وعن الجماعة المؤمنة التي ستتشكّل على يديه، فإن راجع هذا القارئ ماأورده محمد رسول الله ﷺ من قول في تفسير ذلك يتطابق قوله ﷺ مع سأبيّنه لهذا القارئ من دلالات آيات سورة الجمعة بإذن الله تعالى.

ليتبيّن عن طريق ذلك معالم الحلقة الخامسة من موضوع هذا الانقلاب الرّوحي السابع الكبير الذي لازلنا في بداياته، والذي ستثبت منه بعد اكتماله ما لله الخالق من قُدُراتٍ وعلم غيبي لاتقف دونهما حدود. ذلك أنّ سورتي الصف والجمعة هي جزء لايتجزّأ من السّور السّبع عشرة التابعة لمضمون سورة (ق) على حسب مابينّاه في (فنّ الاختزال القرآني) وقد جلّى الله عزوجلّ في هذه السّور التابعة لسورة (ق) قُدُراته وعِلْمه الغيّبي بشكلٍ لايدركه إلا المتدبّرون لآيات هذا القرآن العظيم.

أفلم يتذكّر القارئ كيف استهلّ الله تعالى سورة الصّف بفعل سبّح بصيغة الماضي إشارةً إلى ماأحدثه من انقلاباتٍ روحيّةٍ كبرى قبل بعثة محمد ﷺ. فليلاحظ هذا القارئ كيف أنّه تعالى استهلّ سورة الجمعة بالتّسبيح أي التّنزيه أيضاً. لكنّه استبدل صيغة الماضي سبّح بصيغة المضارع يسبّح، ليشير إلى ماسيحدثه من انقلاباتٍ روحيّه كبرى في المستقبل. ليشير إلى الانقلاب السادس

الذي تحقّق على أيدي رسوله محمد ﷺ وليشير بالتالي إلى الانقلاب السّابع الذي نقف نحن والعالم على أعتابه.

فهو جلّ شأنه راح يقول بألفاظٍ مجلجلة: ﴿**يسبّح لله مافي السموات ومافي الأرض الملك القدّوس العزيز الحكيم**﴾. بهذه الألفاظ التي أنزلها في المدينة المنوّرة ليباهي أعداء الإسلام في حينيه أن أمعنوا نظركم في ثمار تجلّيات ربكّم الملك القدوس العزيز الحكيم. هذه التجليّات التي تحققّت وتتحقّق على أيدي هذا الرسول الأمّي الذي اصطفاه الله من بينكم فالله ﴿**هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكّيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين**﴾. أي لاحظوا كيف يتلو هذا الرسول آيات الله الملك على صحابته، وكيف يزكّيهم ويطهّر نفوسهم بتعالم هذا الملك القدوس الطاهر. وكيف يعلّمهم الكتاب أي الأحكام والقوانين التي سنّها هذا الملك العزيز الذي لايغالب، والغالبُ على أمره، وكيف يعلّمهم رسولنا الأميّ هذا الحكمة أي يعلّمهم كيف يُتقنون أمور دولتهم، وكيف يجمعون بين معتقدهم ومسلكهم اليومي، وكيف يزودّهم بالحجج القاطعة والبراهين الساطعة، فهذه هي دلالات الحكيم، فمن أين له أن يعلّمهم الحكمة لولا أنّه كان مهبط تجليّات صفة الله الحكيم؟

ومن خلال صيغة المضارع (يسبّح لله) الدّالة على المستقبل أيضاً، راح جلّ شأنه ينبئ عن مستقبل أمّة محمد ﷺ يوم يتخلّف أفرادها، ويعودون يقولون مالا يفعلون، ويهملون مسؤوليتهم في نشر الدعوة الإسلامية على العالم. راح جل شأنه ينبئ عن أنّه في ذاك الزّمن سيبعث مثيلاً لابن مريم شاهداً من أمة محمد ﷺ لكنه من قوميّةٍ غير عربيّة، ليشكّل طائفةً مؤمنةً جديدة تسير على نهج الطّائفة التي ألّفها محمد رسول الله ﷺ، وتحمل مسؤولية الدعوة الإسلامية على أكتافها لإكمال مسيرة الإسلام ولإظهاره على الدين كلّه وبفضلٍ من الله وتأييده، فهو جلّ شأنه أضاف قائلاً: ﴿**وآخرين منهم لّما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم. ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم**﴾. فليلاحظ القارئ كيف أنّ الله عزوجلّ قد أنبأ عمّا ذكرناه بهذه الألفاظ المعدودات.

إنه جل شأنه حذف فعل (وسيبعث). فقد كان ضرورياً أن يقول (هو الذي بعث في الأميين.. وسيبعث في آخرين)، حذف فعل سيبعث لتدلّ عليه

جملة (لّما يلحقوا بهم). فالتقدير «وهو الذي سيبعث في آخرين رجلاً منهم يحمل نفس مبادئ الأوّلين من الأمّيين».

ثم إنه جل شأنه أتى بحرف (لّما) من (لّما يلحقوا بهم). وقد علمنا سابقاً أنّ مابعد حرف لّما يكون مغايراً دوماً لِما قبلها، والحكمة من ايتائه بحرف (لّما) هنا، هو تنبيه أذهاننا إلى أنّ الآخرين المذكورين سيكونون غير الصّحابة الأوّلين ويكون هذا المبعوث من بينهم غير عربيّ أيضاً.

ثم إنه جلّ شأنه أتى بعد حرف (لّما) بفعل (يلحقوا) من لحق به أدركه ولصق به (محيط المحيط) تنبيهاً لأذهاننا إلى أنّ جماعة هذا المبعوث هي التي قُدّر لها أن تلحق بركب مسيرة الإسلام التي ابتدأها صحابة محمّدٍ رسول الله ﷺ، وليس هؤلاء المسلمون المتخلّفون الذين يقولون مالا يفعلون. وأكّدت هذه الحقيقة الجار والمجرور (بهم) من (يلحقوا بهم) التي تعود إلى صحابة الرسول الأعظم صلوت الله وسلامه عليه.

وليلاحظ القارئ أنّ الله تعالى لم يُنه نبأه المتعلّق ببعثه الشاهد مثيل ابن مريم والذي سيحقق الله تعالى على يديه الانقلاب السابع الرّوحي الكبير، لم ينهه بالصفات الأربع: الملك القدوس العزيز الحكيم. بل أنهى الآية هذه بصفتين فقط من هذه الصفات هما (العزيز الحكيم). تأكيداً من جانبه عز وجلّ على أنّ هذا المبعوث لن يأتي بتعاليم جديدة بل يتقيّد بتعاليم القرآن المجيد المنزل من قبل الله الملك، كما أنه سيزكيّ طائفته بنفس التعاليم القرآنية المتعلّقة بتزكية النفس المؤمنة وتطهيرها. فلن يأتي على صعيدي صفتي (الملك القدّوس) بشيء جديد. لكنّ الجديد يتمثّل في تجلّي صفتي (العزيز الحكيم) عليه. هاتان الصفتان اللّتان غاب بريقهما من وسط المسلمين المتخلّفين الّلذين فقدوا تأييد ونصرة ربّهم العزيز الذي لايُغالب، وفقدوا الحكمة بخصوص إكمال مسيرة دعوة الإسلام.

إنّ المعاني التي أفادنا بها قول الله جل شأنه ﴿**وآخرين منهم لّما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم**﴾ تؤيّدها الروايات المنقولة عن رسول الله ﷺ، والتي وصلتنا بطريق كتب الحديث والتفسير. فقد أورد ابن كثير الحديث والتفسير. فقد أورد ابن كثير تحت تفسير هذه الآية الكريمة ص٣٦٣ الجزء الرابع دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه في القطر المصري الشقيق: (قال الإمام أبو عبد الله البخاري رحمه الله تعالى، حدّثنا عبد العزيز بن عبد الله،

حدّثنا سليمان بن بلال عن ثور عن أبي الغيث عن أبي هريرة ﷺ، قال: كُنّا جُلوساً عند النبي ﷺ فأُنزلت عليه سورة الجمعة ﴿**وآخرين منهم لّما يلحقوا بهم**﴾. قالوا من هم يارسول الله؟ فلم يراجعهم حتى سُئل ثلاثاً. وفينا سلمان الفارسي، فوضع رسول الله ﷺ يده على سلمان الفارسي ثم قال «لو كان الإيمان عند الثّريا، لنا له رجال - أو رجلٌ - من هؤلاء». ورواه مسلم والترمذي والنسائي وابن أبي حاتم وابن جرير من طرق عن ثور بن يزيد الديلي عن سالم أبي الغيث عن أبي هريرة به).

وقد أضاف جلّ شأنه بعد ذلك يقول: ﴿**ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم**﴾. وهو تعالى أتى هنا بحرف الإشارة للبعيد (ذلك)، عوضاً عن (هذا) وهو للقريب، تعظيماً منه تعالى لهذا الفضل الإلهي الذي سيتفضّل به على الشاهد الدي سيبعثه في «الآخرين». هذا الشاهد الذي ستتشكّل على يديه هذه الطائفة من المؤمنين على نسق ونهج الطائفة الأولى من صحابة محمد سيّد المرسلين ﷺ. وبألفاظ هذه الآية الكريمة يكون الله جلّ شأنه قد أتى على الحلقة الخامسة من موضوع الحديث عن هذا الانقلاب الرّوحي الكبير السّابع الذي نقف والعالم على أعتابه يقيناً.

وقد كان في علم الله الغيبيّ أنّ مُسلمي عصر التخلّف والانحطاط، لن يفهموا من سورة الجمعة مافهمناه، وأنّهم سيكذّبون هذا الشاهد الذي سيبعثه الله (في آخرين منهم). فلا يغيّرون حالهم في شيء ويظلّ حالهم ﴿**يقولون مالا يفعلون**﴾. لذلك راح جل شأنه بعد هذا الإنباء العظيم يذكّرهم بحال قوم موسى أولئك الذين بعث الله تعالى فيهم عيسى ابن مريم بالبيّنات لإحيائهم، فلم يستجيبوا لصوت الله تعالى وكذّبوه، وبقوا على حالتهم التّعيسة المتخلّفة تلك، فقد كان في علم الله الغيبي ذلك كلّه فذكّر هؤلاء المسلمين المتخلفين بأولئك وقال: ﴿**مثل الذين حُمّلوا التّوراة ثمّ لم يحملوها، كمثل الحمار يحمل أسفاراً، بئس مَثَلُ القوم الذين كذّبوا بآيات الله، والله لايهدي القوم الظالمين**﴾. أي وهل يستفيد الحمار من الكتب التي توضع على ظهره؟ فقد كان هذا هو حال قوم موسى يوم بعث الله تعالى فيهم عيسى ابن مريم، لم يرجعوا إلى مافي التّوراة من نبوءات تنبئ عن حالهم وعن علامات ظهور عيسى ابن مريم من بينهم، وها أنّ حال مسلمي آخر الزّمان قد شابه حال المذكورين، وكذّبوا هذا الشاهد المثيل

لابن مريم والذي بعثه الله تعالى من بينهم، ضاربين عرض الحائط بجميع ماأنبأ عنه القرآن المجيد عنه، وعن جميع علامات ظهوره، ولم يؤازروه في دفاعه عن الإسلام مُتناسين أنهم يقولون مالا يفعلون وقد باتوا من جراء ذلك في نظر ربّهم من الظّالمين المحرومين من نعمة هداية الله تعالى **﴿والله لايهدي القوم الظالمين﴾**.

وليلاحظ القارئ هنا هذه النتيجة العمليّة التي يستخلصها ربّنا عزوجلّ من واقع هؤلاء المسلمين المتخلّفين. فهو جلّ شأنه نبّه إلى أن الذي يقلّد شيئاً عملياً، يعود محسوباً على هذا الشيء، ومادام هؤلاء المسلمون قد شابهوا اليهود عمليّاً من خلال الحال الذي آلوا إليه، فقد هادوا في نظر ربّهم عزوجلّ، وإن لم يصرّحوا بهذا الأمر بألسنتهم، وحدث هذا مصداق ماأنبأ به محمد رسول الله ﷺ نفسه أمته بقوله: (لتتبعُنّ سُنن مَنْ قَبْلكم شبراً بشبرٍ وذراعاً بذراعٍ، حتى لو دخلوا حُجْرَ ضبٍ لدخلتموه).

فمن هذا المنطلق راح جل شأنه يقول: **﴿قل ياأيها الذين هادوا﴾** فالكلام موجّه هنا إلى المسلمين الذين لايرجعون إلى ماتضمّنه القرآن الكريم من نبوءات وتعاليم، كحال اليهود الذين شبّههم الله تعالى بالحمار يحمل أسفاراً. وليس الكلام موجّهاً هنا إلى قوم موسى. فهذا مايقتضيه التسلسل الموضوعي.

قال تعالى: **﴿قل ياأيها الذين هادوا إن زعمتم أنّكم أولياء لله من دون النّاس فتمنّوا الموت إن كنتم صادقين﴾**. أي ياأيها المسلمون الذين ساروا على نهج اليهود إن زعمتم أنّ الله عزوجلّ لايزال يتولاّكم بنصرته وتأييده وينظر إليكم على أنكّم تمثّلون هذا الدّين الحنيف من دون سائر الناس **﴿فتمنّوا الموت إن كنتم صادقين﴾** فيما تزعمون. فما معنى **﴿فتمنّوا الموت﴾**؟ هذه محاورة كلامية تدخل في معنى المباهلة التي شرحها القرآن الكريم من خلال قوله تعالى في الآية (٦١) من سورة آل عمران: **﴿فمن حاجّك فيه من بعد ماجاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم، ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾**. فالقرآن يفسّر بعضه بعضاً. ثم إن كلمة (فتمّنوا)، بينها وبين فترّجوا فرق في المعنى. أي أن التمنّي هو غير الترّجي، ولايقصد بالتمّني هنا الترّجي. ذلك أن التّمني مصدر تمنّى. ويُطلق عند أهل العربية على طلب حصول الشيء على سبيل المحبّة، وعلى الكلام الدّال على هذا الطلب، وهو بهذا المعنى من أقسام الإنشاء، لذلك أورد تعالى هنا **﴿فتمنّوا**

الموت إن كنتم صادقين﴾. بأسلوب المحاورة، أي إن كنتم أيّها المسلمون الذين تقولون مالا تفعلون تحبّون إثبات أنكم أولياء لله من دون الناس وأنكم أنتم الذين تمثّلون الإسلام في عصركم، وأنّ هذا الذي يزعم أنّه الشاهد المنبأ عنه في كتاب الله تعالى هو كاذب في دعواه فادخلوا معه في مباهلة بين يدي الله عزوجلّ فتمنوا الموت إن كنتم صادقون فيما تزعمونه من جانبكم. ويجزم الله جلّ شأنه في أمر هؤلاء المكذّبين، فيضيف قائلاً: **﴿ولايتمنّونه أبداً بما قدّمت أيديهم، والله عليم بالظالمين﴾**. فبهذا الأسلوب البلاغي ذو السّبك المعجز أفادتنا آياته الكريمة التي أوردناها من سورة الجمعة بهذه الحقائق وتلك الدّلالات.

فلمّا يصل جلّ شأنه إلى هذا الحدّ من البيان، يأمر: **﴿قل إنّ الموت الذي تفرّون منه فإنّه ملاقيكم، ثم تُردّون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكّم بما كنتم تعملون﴾**. أي إن كنتم تحجمون عن مباهلة هذا الشاهد المثيل لابن مريم، فلن ينجيكم هذا من الموت الذي ينتظركم، فتُردّون بعده إلى الله العالم بأحوالكم وعالم الغيب الذي هو خاف عنكم، حيث يُبدي هناك إعلانكم وإسراركم وينبئكم بذلك بما كنتم تعملون.

ألا إن من عجائب إعجاز القرآن الكريم أنّه صيغ على صورةٍ تصلح لكل زمان ومكان. ففعل (قل) الوارد في هذه الآيات الكريمة يرجع بالأصالة إلى محمد رسول الله ﷺ. وفي الوقت نفسه يرجع إلى مثيل ابن مريم كشاهد ظلّ لمحمّد ﷺ والذي ينوب عنه أيّام بعثته، فهو منه وليس بخارج عنه، وتأكيداً من الله الذي أنزل هذه السورة، فقد أضاف جلّ شأنه خطاباً موجّهاً أيضاً إلى الطّائفتين التّابعتين لهاتين الشخصيتّين: طائفة صحابة محمد رسول الله، وطائفه مثيل ابن مريم، وقال: **﴿ياأيها الذين آمنوا ـ والخطاب مشترك هنا بين طائفتي المؤمنين بمحمّد وبالشّاهد الذي هو منه، قال ـ إذا نودي للصّلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله، وذروا البيع، ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون، فإذا قُضيت الصّلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلّكم تفلحون﴾**. فما هي مناسبة الإتياء بهذا الحكم الشرعي هنا إلاّ أن يكون مرتبطاً موضوعيّاً بسياقه وسباقه وللغاية التي ذكرتها، ومُنسجماً بذلك مع التّسلسل الموضوعي لسورة الجمعة؟ فهذه إحدى ظواهر إعجاز القرآن الكريم أنّ القارئ في كل زمان ومكان لايشعر شعور غربة وهو يتلو آيات هذا الكتاب

العظيم المُعجز العزيز. فآيات سورة الجمعة عالجت أحوال وظروف سنوات البعثة الأولى وذلك بترتيب نزولها، كما تعالج أحوال وظروف سنوات هذه البعثة الثانية للإسلام. فما أعظم هذا السّبك البلاغي المعجز للإنس والجان.

قد يقول قائل هنا: الملاحظ أنّ هؤلاء المسلمين المتخلّفين الذين يرفضون مثيل ابن مريم المذكور، يلبّون نداء الجمعة ويسعون إلى ذكر الله في المساجد ويذرون البيع. فما الفرق بينهم وبين أفراد الطائفة التي لبّت صوت هذا الشاهد المثيل لابن مريم من حيث الشكّل والجوهر؟ والجواب الموجز أنّ الفرق بين الفريقين هو ماكان من فرق بين أتباع موسى وأتباع عيسى الذي كان منه أيضاً.

أما الجواب الحقيقي فهو أنّ الذي أضحى ممقوتاً في نظر ربّه، ورافضاً تلبية صوته، فهو وإن أدّى صلاة الجمعة من حيث الشكل على حسب ماهو مطلوب منه، فإنّ صلاته من حيث جوهرها لاتثمر في نفسه روحياً ماهو مطلوب منها إثماره. فإلى هذه الحقيقة ورد قول محمد رسول الله ﷺ: (كم من مصلٍ ليس له من صلاته إلاّ النّصب).

وتأكيداً لهذه الحقيقة التي ذكرناها، فقد أنهى جلّ شأنه سورة الجمعة واصفاً الحالة النفسية والعمليّة للفريق المكذّب، وقال: ﴿**وإذا رأوا تجارةً أو لهواً انفضّوا إليها وتركوك قائماً، قل ماعند الله خيرٌ من اللّهو ومن التّجارة، والله خير الرازقين**﴾. فلنتدبّر معاً أيّها القارئ ألفاظ هذه الآية الكريمة التي فهم المفسرون منها أنّها صورت حال منافقي البعثة الأولى للإسلام. فهل تعني هذه الآية الكريمة ماذهبت إليه روايات المفسرين من أنّ المنافقين كانوا إذا سمعوا بطبول تجارة، كانوا يتركون صلاة الجمعة ويتركون محمداً قائماً لوحده؟

فإن نحن عُدنا إلىمعاجم اللّغويين، فقد قالوا: إنّ الرؤية تكون بالعين كما تكون بالقلب. وسماع طبول التجارة لايكون برؤية العين والقلب إنّما يكون عن طريق حاسّة الأذن. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن كلمة تركوك قائماً، فقد وردت محذوفاً فعلها، فلم يقل جل شأنه وتركوك قائماً تصلّي، ولاقائماً تخطب ولاقائماً بأمرٍ آخر من الأمور، ولابدّ في هذه الحالة أن نقدّر فعل (تركوك) على أساسٍ من معطيات التّسلسل الموضوعّي للسّورة، الدّائر حول (وآخرين منهم) المصرّح بهم في مُستهل سورة الجمعة، فالتسلسل الموضوعي

للسورة يدور حول بعثة مثيل ابن مريم في آخر الزمان يوم يعود المسلمون يقولون مالا يفعلون.

ثم إنّه جلّ شأنه وقد أتى بكلمة قائماً، ومحذوفاً فعله لايخلو ذلك من حكمةٍ بالغة. تقول: قام بأمر: أي تولاّه. ومن منطلق أن مُهمّة مثيل ابن مريم هي القيام بتجديد أمر الدّعوة إلى الإسلام فهو القائم بهذا الأمر. وبهذا المعنى ورد قول حكيم بن حزام على حسب ماورد في محيط المحيط وغيره: بايعت رسول الله ﷺ أن لاأخر إلاّ قائماً ـ أي لاأموت إلاّ ثابتاً على الإسلام. فهذه الدّلالة إلى جانب قرائن التسلسل الموضوعي لسورة الجمعة، ومرتبطةً بسورة الصّف التي قبلها، كلّ ذلك يرجّح معنى الرؤية هنا رؤية الفؤاد. خصوصاً وأنّه جل شأنه قد أتى بحرف إذا وقال (وإذا رأوا..). هذا الحرف الدّال على ماهو مُقبلٌ من الزمان. فلم يأت بحرف (إذ) الدّال على الزمن الماضي. ليصوّر عن طريقه أحداثاً أو حادثه بدرت عن فئة منافقي صدر البعثة الأولى للإسلام.

فإذا تدبّرنا أيها القارئ ألفاظ هذه الآية الأخيرة من آيات سورة الجمعة، وعلى ضوء دلالاتها التي بينّها اللّغويون في معاجمهم، فلا أظنّ إلاّ وأنك تتفق معي أنّ موضوع هذه الآية لايصوّر حادثةً بعينها، لكنه يُصوّر الحالة القلبّية لمسلمي آخر الزمان، والمشغولة دوماً بالبحث عن اللّهو والتّجاره، والتي لاتكون مشغلتها مناصرة هذا الشاهد القائم بمسؤولية الدعوة الإسلامية، ولاذكر الله ومحاولة التّعرف إليه والفوز بمحبّته وقُربه ورضوانه، وإن كانوا من حيث ظاهرهم مسلمين.

إنّ ألفاظ هذه الآية الكريمة صوّرت بدقّةٍ متناهيةٍ كيف عاد مسلموا عصرنا يسيرون على نهج الذين كذبوا عيسى ابن مريم، فما عاد لهم من هـمٍ إلاّ تجارة المال، والبحث عن اللّهو اشباعاً لميولهم وشهواتهم التي سيطرت عليهم ـ لذلك نلاحظه جلّ شأنه قد أنهى هذه الآية الأخيرة بقوله: ﴿**قل ماعند الله خيرٌ من اللّهو ومن التّجارة، والله خير الرازقين**﴾. فالخطاب موجه هنا إلى هذا القائم بمسؤوليّة الدّعوة إلى الإسلام يقيناً. هذا الذي ورد بحقّه: (وتركوك قائماً).

فلا تعني هذه الآية والحال هذه ماذهب إليه ذهن المفسّرين منها، فالرؤية المقصودة هنا قلبيّة، هنا وإلاّ لكان تعالى قد قال (وإذا سمعوا) وليس (وإذا رأوا). ثم إنّ موضوع السورة يدور حول بعثة مثيل ابن مريم في (وآخرين منهم)، وهو

المشار إليه أنّه يكون يومئذٍ قائماً أي قائماً بمسؤولية الدعـوة إلى الإسـلام ويكـون المسلمون في الوقت نفسه تاركين الدعوة إلى الإسلام فلا يناصرونه ولايؤازرونـه. فهذه هي حكمة حذف فعل قائماً في هذا المقام.

كذلك فإنّ الله عزوجلّ قال في مستهلّ هـذه الآيـة الكريمـة: (وإذا رأوا) و لم يقل (وإذ رأوا) بصيغة الماضي والحكمة من ذلك هو الإخبار والإنباء عن هذه الحالة القلبيّة الماديّة التي سيكون عليها مسلموا عصر التخلّف والإنحطاط.

على هذه الصّورة فلا بدّ أن تكون قد اتّضحت معالم الحلقة الخامسـة مـن موضوع هذا الانقلاب الروحي السّابع الكبير الذي نبهت إليه سورة الجمعة، التي وصفت حال التخلّف والانحطاط الـذي يـؤول إليهـا حـال المسـلمين زمـن البـدء بإحداث هذا الانقلاب الروحي السابع الكبير على أيدي (شاهدٍ منه) ومثيلٍ لابن مريم، هذا الذي ستتشكّل على أيديه جماعة (الآخريـن) علـى نسـق الأولـين مـن صحابة الله الكرام.

فالله عزّوجلّ يعطي القارئ الذي يعاصر هذه الأحـداث الـتي تنبـئ عنهـا سورتا الصّف والجمعة، يعطيه فكرةً تقريبيةً عمّا لربّه من قُـدراتٍ لاتقـف دونهـا حدود، خصوصاً وأنّ سورتي الصّف والجمعة هاتين هما جزء لايتجزّأ من السّور السبع عشرة التابعة لمضمون سورة (ق) علـى حسـب مـاوضحت ذلـك في (فـنّ الاختزال)، فهذه السّور شكلّت فصولاً تكمل دلالات الحرف (ق) المختـزل مـن اسم الله القادر والقدير.

٦- حلقة سُورة المنافقون والتغابن والطلاق:

ومن واجب هذا القارئ أن يتساءل عن حكمـة ورود سـورة (المنـافقون) مباشرة بعد سورتي الصف والجمعة، كذلك عن حكمة أن يُتبع الله تعالى سـورة المنافقون بسورتي التّغابن والطلاق.

والحقيقة هي أنّ من الصفات البارزة للمنافقين أنّهم يقولون مالا يفعلـون. ومادام هذا هو الحال الذي سيؤول إليه حال مسلمي عصر التخلّـف والانحطـاط. فقد استدعى ذلك من الله جل شأنه وشفقةً منه على أُمّـة رسـوله الكريـم محمّـد خاتم النبيين أن يأتي جل شأنه بهذه السّور الثلاث: المنافقون والتغـابن والطـلاق، ينذر فيها هؤلاء المسلمين الذين عادوا يقولون مالا يفعلون، ينذرهـم ويتوعّدهـم،

ويضرب لهم الأمثال من مصائر الأمم التي سبقتهم، لعلهم يتّعظون بهـا ويعـودون إلى حمل مسـؤولية الدعـوة إلى سـبيل الله بكـلّ أمانـةٍ وإخـلاصٍ وليدفعهـم علـى تقديم دينهم على دنياهم.

بل وأتى جلّ شأنه بعد هذه السور الثلاث بسورة التحريم، فخاطب فيهـا مسلمي عصر التخلف والانحطاط بصورة خاصة هؤلاء الذين زعموا إيمانهم با لله وبرسوله، فقال بألفاظٍ مُفعمةٍ بالنّصح والانذار معـاً: **﴿ياأيّهـا الذيـن آمنـوا قـوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجـارة، عليهـا ملائكـةٌ غـلاظٌ شـدادٌ لايعصون الله ماأمرهم، ويفعلـون مـايؤمرون﴾**. وبمـا أنّـه كـان في علـم الله أنّ أكثرية هؤلاء لاهيةً قلوبهم باللّهو والتجـارة، ولـن يتّعظـوا بجميـع مـانصحهم بـه وماأنذرهم به، فقد أضاف بعد ذلـك يضيـف وبألفـاظٍ لم تتكـرّر في كتـاب الله العزيز، قال: **﴿ياأيها الذين كفروا ـ والخطاب موجه إلى هؤلاء المسلمين الذيـن كفروا بنعمة هذا الدين الحنيف الذي وصـل أراضيهـم ونشـؤوا عليـه قـال ـ لاتعتذروا اليوم إنما تُجزون ماكنتم تعلمون﴾**. أي أنكم كفرتم بفضـل الإسـلام ونعمته، وتقاعستم عن أداء مسؤولية العمـل علـى تعاليمـه وإظهـاره علـى الدّيـن كله، هذا بالرغم من جميع هذا التحذير الذي حذّرناكم به، وأمسيتم تقولون مالا تفعلون، فأيّة قيمة لإيمانكم بي وبرسولي بالنّسبة واللّسان؟

ومن ثم أتى الله جلّ شـأنه بسـورة المُلـك وهـي السـورة السـابعة عشـرة والتابعة لمضمون سورة (ق). أقول أتى الله جل شـأنه بهـذه السـورة هنـا تنبيهـاً لأذهان مسلمي عصر التخلف والانحطـاط إلى عظمـة الله وقدراتـه الـتي لاتحدّهـا تحدود، وعلى أنه جل شأنه هو مالك هـذا الكـون مـن حولنـا، وأنّـه قـادرٌ علـى تحقيق جميع ماأنبأ به وشاء تحقيقه، إشارة إلى إرادة تحقيق هذا الانقـلاب الرّوحـي السابع الكبير على أيدي هذا الشاهد مثيل ابن مريم، ولم يكتف جلّ شـأنه بهـذا الإدّعاء المذكور بل دعّـم مقولتـه تلـك بدليلـين عظيمـين قـاطعي الدلالـة: الأوّل منهما دليلٌ كونيٌّ احتواه قوله تعالى: **﴿الذي خلق سبع سموات طباقاً مـاترى في خَلْق الرحمن من تفاوت، فارجع البصر هل ترى من فطـور. ثـم ارجـع البصـر كرّتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهـو حسـير﴾**. وتفصيـل وشـرح معـالم هـذا الدليل الكوني احتواه مؤلّف (فن الاختزال في القرآن الكريم).

وأتبع الله جلّ شأنه هذا الدّليل الكونّي بدليل آخر متعلّق بالنّظام الرّوحي الكونيّ المشابه للنّظام المادّي الكوني عبّر عنه تعالى بقوله: ﴿**ولقد زيّنا السّماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين، وأعتدنا لهم عذاب السّعير. وللّذين كفروا بربّهم عذابُ جهنّم وبئس المصير**﴾. ولامجال لشرح هذا الدليل الثاني أيضاً في هذا المقام. والمهم هو أنّ الله عزوجلّ قدّم هذين الدليلين إثباتاً منه جل شأنه ملكيّته لهذا الكون، وتدليلاً على أنه تعالى قادرٌ على تحقيق هذا الانقلاب الرّوحي السابع الذي نقف ويقف العالم على عَتَبَاته. وبذلك أكمل الله عزوجلّ تقديم الحلقة السّادسة من موضوع هذا الانقلاب المذكور. هذه الحلقة التي أنبأ فيها عن تشكّل ثلّةٍ من المؤمنين في عصر انحطاط وتخلّف المسلمين، تماثل وتُضارع ثلّة الأوّلين من صحابة الرسّول الكريم، كما أنبأ فيها عن موقف هؤلاء المتخلّفين من هذا الشاهد مثيل ابن مريم وجماعته المُنبأ عنها. وأعلن جلّ شأنه وبألفاظٍ صريحةٍ أنّ مسلمي تلك الفترة الزمنيّة سيشابه حالهم حال قوم موسى الذين كذبوا عيسى ابن مريم الذي لم يأتهم بدين جديد بل ببيّنات ما احتوته تعاليم موسى نفسها. كما حذّر تعالى هؤلاء من نار العذاب الذي سينزله بالذين اتخذوا لله ولداً، ولابدّ أن تمسّهم تلك النّار إنْ هم لم يناصروا هذا الشاهد المثيل لابن مريم ولم يقوا بذلك أنفسهم وأهليهم من لظى تلك النّار التي ستنزل بساحة المكذّبين، والتي سيكون وقودُها ﴿**النّاس والحجارة**﴾ فالنّاس إشارةً إلى أمم المسيح الدّجال الذين يحسبون أنفسهم أنّهم وحدهم النّاس المتحضرون. والحجارة إشارةً إلى زعمائهم الذيُن عادوا كالأصنام تعبدهم الجماهير.

٧- حلقاتٌ أخرى أنبأت وقرّرت مصير أعداء الإسلام:

وآخذ الآن بيد هذا القارئ الذي تابع هذه الحلقات الستة التي أبرزتها لعينيه والتي بحثت موضوع هذا الانقلاب الرّوحيّ السابع الكبير المُقبل، هذا الانقلاب الرّوحي الذي يحدثه الله عزوجلّ على أيدي شاهدٍ من أمة محمد ﷺ، ومثيلٍ لابن مريم، إحياءً للدّين الإسلامي، ولاظهاره على الدّين كله بسلاح الحُجّة والبرهان وإثباتاً منه عزّوجلّ أنّه هو الحيّ القيّوم، آخذ بيد هذا القارئ وأدلّة على المقامات التي تشكّل الحلقة السابعة والأخيرة من هذا الموضوع،

والمتعلّقة بمصير هذه الأمم الغربية التي سبق أن أنبأت سورة الكهف عن نهضتهـا، منذرةً أهلها الذين لم يعودوا عن شركهم عن اتّخاذهم المسيح ابن مريم ربّاً وولداً لله المليك المقتدر الرحمن وذلك من خلال قوله تعالى: ﴿**وإنّا لجاعلون ماعليها صعيداً جرزاً**﴾. علماً بأنّ الله العزيز الحكيم قد وزّع حلقات هذا البحث، وحسب أسلوبه المتميّز المُعجز، في طرحه للمواضيع التي بحثها في كتاب العزيز، وزّعها على سور وبما يتناسب والتّسلسل الموضوعي لمضامين هذه السّور القرآنية فوزّع الحلقة السابعة هذه ابتداءً من سورة الكهف فالرحمن فالمعارج فسورة القيامة.

فالجزء الذي تضمنته سورة الكهف، بإمكان القارئ الرجوع إليه في (ظلال دلالات سورة الكهف). لذلك أتناول ماتضمنته سورة الرّحمن بشأن ذلك. حيث نبّه الله عزوجلّ ذهن القارئ ضمن آياتها إلى أنّه سيفرُغ بعد إنزاله هذا القرآن الكريم بثلاث عشر قرناً من الزّمان، يوم بعثة مثيل ابن مريم ذو القرنين، سيفرُغ لمعالجة أمر هؤلاء الذين اتخذوا لله ولداً، الذين ضلّوا وكذّبوا رسوله محمداً ﷺ واستهزؤوا ببيّنات هذا الكتاب السّماوي الذي أنزله الله تعالى على قلبه. وليثبت الله بذلك عظمة قُدراته وعظمة علمه الغيبي. ذلك أنّ سورة الرّحمن تتبع موضوعيّاً سورة (ق)، وجاء ترتيب تلاوتها بعد سورة القمر التي أنهاها الله جلّ شأنه بقوله تعالى: ﴿**إنّ المُتّقين في جنّاتٍ ونَهَر، في مقعد صدق عند مليكٍ مقتدر**﴾. ولينبّه تعالى ذهن القارئ إلى أنّ من الأسماء البارزة لهذا الإلهٰ المليك المقتدر، إسم «الرّحمن» الدّال على عطاءاته التي لاتنضب وعلى رحمته الشاملة. وكانت الحكمة من ذلك أيضاً أن يتساءل القارئ: وماعلاقة صيغة الرّحمن هذه بالإنذار الذي أنذرت به سورة الكهف هؤلاء الذين اتخذوا لله ولداً. هؤلاء الذين هيمنوا اليوم على العالم وعلى العالم الإسلاميّ خاصّة بعد أن تقاعس مسلموا عصرنا عن حمل مسؤوليّتهم المتعلّقة بالدّعوة إلى الإسلام لإظهاره على الدين كلّه، وعادوا يقولون مالا يفعلون على حسب ماوضّحته الآيات من سورتي الجمعة والصّف.

وقد انطلق هذا المليك المقتدر في سورة الرّحمن يجيب على هذا التساؤل مبتدئاً من الكلام عن مُصطلح جغرافي اصطلحته هذه الأمم الغربية في عصرنا بالذّات، وراح يتداوله الناس في كلّ مكان من سكان كوكبنا الأرضي، وهو

تقسيم هذا الكوكب إلى مشرقين ومغربين: أدنى وأقصى فنبّه جل شأنه أذهان هؤلاء إلى أنّ هذا المليك المقتدر، الرّحمن، هو ﴿**ربّ المشرقين وربّ سكان المغربين**﴾ ولو أنّكم حاولتم وتحاولون يامن اتّخذتم لله ولداً أن تفرضوا مشيئتكم على أهل هذين المشرقين وهذين المغربين.

وإثباتاً من طرف هذا المليك المُقتدر الرّحمن لحقيقة ادّعائه المذكور، راح فقدّم دليلين عظيمين يثبتان صحّة هذا الإدعاء، وعلى شكل نبوءتين عظيمتين، فأنبأ أولاً عن أن هؤلاء الذين اصطلحوا للأرض اصطلاح المشرقين والمغربين، سيعمدون إلى حفر تُرع تَصلُ مابين البحار لتيسير نقل بضائعهم وترويج تجارتهم، وللّتقليل من نفقاتهم، مشيراً إلى ترعتي بناما والسّويس وقال: ﴿**مَرَجَ البحرين يلتقيان. بينهما برزخٌ لايبغيان، فبأي آلاء ربّكما تكذّبان**﴾.

وأنبأ ثانياً عن أنّ هؤلاء الذين اصطلحوا للأرض اصطلاح المشرقين والمغربين سيخترعون الآلة البخارية وينشؤون أساطيل بحرية تسير على البحار، فترى من بعيد من عظمة حجومها وكأنها المنشآت كالأعلام. وقال ﴿**وله الجَوَارِ المنشآت في البحر كالأعلام. فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان**﴾. وهو جلّ شأنه وقد أتى هنا بالجار والمجرور (وَلَهُ) لتفيد اللاّم الملك، أي أنّهم انشؤوا هذه الأساطيل البخارية الضخمة للسيطرة على البحار ولتأمين مصالحهم الإستعمارية، على حين أنّه جلّ شأنه هو الذي ألهمهم صناعتها ولتحقيق إرادته وهو لتسهيل إيصال دعوته إلى أطراف الأرض. والمهم هو أنّه جلّ شأنه عرض موضوع ظهور هذه الأساطيل البخارية زمن هيمنة الذين اتخذوا لله ولداً على العالم، فأنبأ عن ظهورها لتشكل هذه النبوءة دليلاً ثانياً على أنه الإله الحقيقي المليك المقتدر الرّحمن الفعّال لما يريد.

وقد راح جلّ شأنه في الآية (٣١) من سورة الرّحمن هذه، وبعد إثباته لهؤلاء كونه المليك المقتدر. الرحمن، أقول راح يتكلّم عن هؤلاء الغربيّين الذين فتحوا تُرعتي السويس وبناما وانشؤوا هذه الأساطيل البخاريّة واستغلّوا تخلّف المسلمين ونفاقهم ليزدادوا استهانةً بالإسلام وتكذيباً لكتابه العزيز، راح يخاطبهم ويقول قبل أن يبلغوا مابلغوه بثلاثة عشر قرناً من الزمان: ﴿**سنفرغ لكم أيّها الثّقلان**﴾ واستهلّ قوله هذا بحرف السّين الذي أدخله على فعل نفرغ من فرغَ له إذا توجّه إليه وقصده. ادخل حرف السين عليه ليفيد أمراً واقعاً لامحالة، ولو تأخّر

إلى حين، على حسب قول الزمخشري ـ أي أنه جلّ شأنه نبّه من خلال قوله هذا إلى أنه سيعمد يومئذٍ إلى حسم قضيّة هؤلاء الضالين المكذّبين، مخاطباً إياهم بأيّه الثّقلان، إشارة منه تعالى إلى أنّ هذه الأمم المسيحية ستنقسم يومئذٍ إلى معسكرين وإلى مركزي ثِقَلٍ في العالم. وأضاف تعالى بعد هذا التّنبيه يقول: ﴿فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان﴾ هذه الآية التي راح يكررها في كل مرّة بدلالةٍ موضوعيةٍ جديدةٍ تتناسب مع مقامها، وهو جل شأنه أتى بهذه الآية هنا ليقول لهؤلاء: إنّ ماأسبغناه عليكم من نعمةٍ تجلّت في هذه النّهضة العلميّة التي نهضتوها، لانرى أنّكم قدّرتم نعمتنا هذه، فلم تنجذبوا إلى معرفة هذا الإله المليك المقتدر الرّحمن. وثابرتم بالتالي على تكذيبكم هذا الدّين القويم والاستهتار ببيّنات هذا القرآن الظيم، لذلك سنفرغ لكم أيّها الثّقلان لننزل بكم العقاب الشديد الذي تضمّنه إنذارنا في سورة الكهف ﴿وإنا لجاعلون ماعليها صعيداً جرزاً﴾.

ولابدّ أن يتساءل القارئ هنا فيطالب بعلامةٍ مُميّزةٍ يتحدّد له من خلالها توقيت نزول العذاب الموعود بهؤلاء، ولو على وجه التّقريب. ويتحوّل الله جلّ شأنه للإجابة على هذا التّساؤل بأسلوبٍ بلاغي معجز. وعلى شكل خطاب يخاطب به أهل هذين الثّقلين، ويقول: ﴿يامعشر الجنّ والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا، لاتنفذون إلاّ بسلطان﴾. أي ياأهل هذين المعسكرين الذين شكلتم مَركزَيْ هذين الثقلين في الأرض، شعوباً كانوا أو زعماء: لاريب أنّكم ستبلغون يومئذ حدّاً كبيراً من التّقدم العلميّ إلى درجةٍ تتمكّنون معه من صُنع مركباتٍ فضائية تمتطونها عبر الفضاء، وتتجاوزون أقطار جاذبيّة الأرض وغيرها، ميّممين اكتشاف مجاهل السّماء من فوقكم لعلكم تبسطون هناك هيمنتكم على شاكلة مابسطتموه من هيمنةٍ على أهل المشرقين وأهل المغربين. فاعلموا أيّها الثقلان أنّ رقيكّم العلميّ المذكور، لايخرج عن نطاق علمنا الغيبيّ. ﴿فانفذوا لاتنفذون إلاّ بسلطان﴾ أي حاولوا ذلك لِتُثبتوا من خلاله تفوّقكم وقدرتكم، وهذا ماأتى به الإسلام. لكن اعلموا أنّ ماتبلُغُونَه من تقدّم لن يصل إلى حدّ تشكيل هذا الدّليل الذي تريدونه، ولو أنّكم قطعتم مثل هذا الشوط من النّفاذ من أقطار جاذبية الأرض وسواها. وهنا قطع جل شأنه كلامه بعد أن أتى بفاء الاستئناف وقال: ﴿فبأيّ آلاء ربكّما تكذّبان﴾ أي ها أننا أنبأناكم بما سيتحقق على أيديكم يومئذ نعمةً من طرفنا. فلا نراكم قد قدّرتم

نعمتنا هذه، بل ثابرتم على ضلالتكم وتكذيبكم بنعَمِ ا لله المليك المقتدر الرّحمن، فبأيّ هذه النّعماء تكذّبان؟

وبعدما خاطبهم جل شأنه بخطابه المذكور، مذكّراً إيّاهم بكفرانهم لنعمائه، أرعد كلام ربّنا وأنبأ نبأ ترتجف لوقعه الأوصال، وقال: ﴿**يُرسل عليكما شُواظٌ من نارٍ ونحاسٌ فلا تنتصران**﴾، فأبهم مصدر الشّواظ المؤلف من نار ونحاس وذلك من خلال إيتائه فعل «يُرسل» مبنيّاً للمجهول. هذه النّار والنّحاس الذي سيشكّل قوام عذاب هذين الثّقلين وعنصره الأساسي. وأتى بهذا الإبهام ليزيد في حيرة وخوف أهل هذين الثقلين. ومن ثمّ أنهى قوله تعالى جازماً وحاسماً موضوع محاولة هؤلاء الذين اتّخذوا لله ولداً وشكّلوا مَرْكَزَي ثِقَل في العالم لاكتشاف مجاهل الفضاء ولبسط هيمنتهم عليه أيضاً، أنهى قوله بلفظين بالِغَي الدّلالة وقال ﴿**فلا تنتصران**﴾ أي سينزل بكم العذاب فيرسل عليكما شواظٌ من نار ونحاس قبل أن تفلحوا مخططّاتكم هذه، فلا تنتصران. وأضاف من جديد يقول: ﴿**فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان**﴾ أي وهل ينبئكم بمثل هذا النّبأ الخطير إلا ا لله المليك المقتدر الرحمن؟ فبأيّة هذه النعماء تكذّبان ياأهل هذين الثقلين؟ وكأنه جلّ شأنه لفت أذهان هؤلاء إلى ماتوصّل إليه علماؤهم من أنّ عظمة هذا الكون لابدّ أن تكون دالّة على موجد هذا الكون، وأنه يشكّل العقل المطلق المتوراي وراء عظمة هذا الكون.

وهنا أتى جل شأنه بفاء الاستئناف من جديد وقال: ﴿**فإذا انشقّت السّماء فكانت وردةً كالدّهان فبأي آلاء ربّكما تكذّبان**﴾. فكنّى بلفظ السّماء في هذا المقام عن حال الدّين الذي بعث به محمداً ﷺ، وحال بيّنات هذا القرآن المُنزل عليه. وأتى بحرف إذا وهو ظرف لما يُستقبل من الزّمان، ولقد فهمنا من لفظ السّماء هنا الدّلالة به على الدّين لقرينة قوله تعالى ﴿**فإذا انشقّت السّماء**﴾ والسماء فضاء لاينشق، خصوصاً وأنّ الانشقاق فيه الدّلالة على شقّ عصا الطّاعة، أي إذا أتى الزّمان الذي تشقّ البشرية فيه عصا طاعة هذا المليك المقتدر الرّحمن، بسبب مادبّرتموه من مؤامرات ضدّ الإسلام ومازوّرتموه من عقيدة ضلال فاتّخذتم لله ولداً من دون حجّة وبرهان، حتى عاد هذا الدّين وتعاليم كتابه العزيز كالوردة الباهت لونها، كالدّهان الباهت اللّون المائل للإصفرار.

وأضاف جل شأنه يستأنف كلامه ويكرّر ألفاظ: **﴿فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان﴾** أي وأيّة جريمة هي أعظم من جريمتكم هذه أنّكم ماقدّرتم نعماء هذا المليك المقتدر الرّحمن، حتى بلغ حال دين الله تعالى هذا الحال المأساويّ.

وهنا راح تعالى ينوّه بضرورة إنزال عذابه بهذين الثقلّين، فعذابهما أضحى أمراً مفروغاً منه، فأعمال السّوء التي قام بها هؤلاء، وهذه النتائج التي أسفرت عنها، استدعت إنزال الله تعالى عذابه بهؤلاء الضّالين المكذبين الأشرار وبما لايحتاج إلى مبرّر يبرّره. فهذا ماأراد الله جل شأنه التّعبير عنه بقوله بعد ذلك: **﴿فيومئذٍ لايُسأل عن ذنبه إنسٌ ولاجان﴾**. أي لاحاجة يومئذ لإجراء أيّة محاسبة لهؤلاء، فقد تبيّنت مساوئ أعمالهم على الصّعيد العمليّ، لذلك أضاف جل شأنه يقول: **﴿فبأي آلاء ربكّما تكذّبان﴾** أي وهل يحتاج ذلك كله إلى البرهنة عليه، فبأيّ دليلٍ من هذه الدلائل التي ينبئكم بها هذا المليك المقتدر الرّحمن، تكذّبان؟

وأضاف جلّ شأنه يقول: **﴿يُعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنّواصي والأقدام﴾**. أي أنّ هؤلاء زرق العيون المنبأ عنهم في سورة الكهف والمنبأ عن جرائمهم الشّنيعة تَسْهُلُ معرفتهم، وقوله تعالى: **﴿فيؤخذ بالنّواصي والأقدام﴾** وهذه محاورةٌ كلاميةٌ يكنّى بها عن الشلّل والعجز التام. فالإنسان الذي يؤخذ بناصيته وأقدامه، لاتعود له القدرة على مقاومة مهاجميه، وينبئ تعالى بألفاظ هذه المحاورة عن النّهاية البشعة المحزنة التي سيؤول إليها هؤلاء المجرمون. وأضاف نفس ألفاظ تلك الآية التي راح يكررها بدلالات مختلفة وقال: **﴿فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان﴾**، أي إن تحققت نبوءتنا هذه فيكم، وانتهيتم إلى هذه النهاية البشعة المحزنة، فهل يعود لمن يتبقّى منكم من مبرّر ليكذّب بهذه الآلاء التي جلاّها ربّكم المليك المقتدر الرّحمن؟

وهنا أطلق جلّ شأنه على هذه النهاية التي سيؤول إليها هؤلاء المجرمون، اسم جهنّم وقال: **﴿هذه جهنّم التي يكذّب بها المجرمون، يطوفون بينها وبين حميم آن﴾**. أي أنّه ونتيجة لأخذ الملائكة هؤلاء بالنّواصي والأقدام، سيشكّل مصيرهم هذا ونهايتهم تلك نهايةً جهنميّه لهم لاتقوم لهم من بعدها نهضة أو قيامة، فيطوفون بين هذه النهاية الجهنميّة، وبين حميم آن وهو الماء المغليّ إلى درجة كبيرة جدّاً، كنايةً عن المشكلات الاقتصاديّة التي سترافق هذه النهاية الجهنميّة. وهي المشكلات التي سيقدّر أسبابها هذا المليك المقتدر، الرّحمن، من

قبل إنزاله هذا العذاب بساحتهم. وهو تعالى إذ قال **﴿هـذه جهنّم الـتي يكـذّب بها المجرمون﴾**، فقد قال مضيفاً قوله: **﴿فبأي آلاء ربكّما تكذّبـان﴾**. أي وهـل بإمكانكم أيها الثقلان تكذيب آلاء ربكما هذه التي تجلّت لكـم في إطـار النهايـة الجهنميّة، وهذه المشكلات الاقتصادية التي أوقعكم بها هذا المليك المقتـدر؟ فهـذا هو ماأورده ا لله جلّ شأنه في سورة الرحمن بما يتعلّق بـإنذار سـورة الكهـف بحـقّ الذين اتخذوا لله ولداً. ولاحظوا كيف أنّ ا لله عزوجلّ قد خصّص لتحقيقه الزمن الذي يبعث فيه (شاهدٍ منه) ومثيلٍ لابن مريم وليحدث على يديه هـذا الانقـلاب الرّوحي السابع الكبير.

٨- حلقة سورة الواقعة خاصّة:

وفـرز ا لله جـل شـأنه سـورة أخـرى تـأتي بعـد سـورة الرّحمـن مباشـرة، وتنطوي تحت مضمون سورة (ق) الدّالة على ا لله القديـر علـى تحقيـق كـل أمـر يشاؤه، وهي سورة الواقعـة، خصّصهـا للكـلام علـى نوعيّـة هـذا العـذاب الـذي أنذرت به سورة الكهف هؤلاء الذيـن اتّخـذوا لله ولـداً والذيـن ضلّـوا وكذّبـوا محمداً رسول ا لله وسَخِروا من بيّنات ماجاء بـه القـرآن الكريـم الـذي أنزلـه ا لله تعالى على قلبه.

فاسـتهلّ ا لله عزّوجـلّ سـورة الواقعـة هـذه بقولـه تعـالى: **﴿إذا وقعـت الواقعة، ليس لوقعتها كاذبة، خافضةٌ رافعة﴾**. بمعنى أنّ ا لله المليك المقتدر، هـذا الرّحمن الذي سيفرغ لمعالجة أمر هذين الثّقلين إثر نهضتهم الثالثـة وبعـد هيمنتهـم على العالم من حولهم، وسعيهم للهيمنة على مافي السّـماء أيضـاً، إنّـه جـلّ شـأنه سيسبّب أسباب وقوع حرب ضروسٍ بينهم، تنتهي بتدمير جميع ماأوجدوه، ذلك أنّ كلمة الواقعة تعني الحرب الضروس الشّديدة (محيط المحيط).

فهو جلّ شأنه أتى بحرف (إذا) الدّال على هذا الزمان المُقبل الذي سـيفرغ ا لله تعـالى فيـه لمعالجـة أمـر هـؤلاء الذيـن اتّخـذوا لله ولـداً وقـال **﴿إذا وقعـت الواقعة﴾** فأتى بكلمة الواقعة مُعرّفـة بـالألف والـلاّم إشـارة إلى العـذاب المعهـود ذهنيـاً والمُنـذر بـه في سـورة الكهـف. أي إذا حـلّ زمـن حـدوث تلـك الحـرب الضّروس المقدّرة أسبابها لإهلاك أهل هذين الثقلين. **﴿ليس لوقعها كاذبة﴾**، أي أنّها حرب ضروسٌ يستحيل منع وقوعها وتكذيبه من أيّ طرفٍ كـان، هـذا وإنّ

الموازين في عالم يومئذٍ ستختلّ، بسبب أنّ الله المليك المقتدر. الرّحمن، قدّرَ لتلك الحرب أن تُخلّ بقوى الثقل المعهودة، وتكون الحرب المذكورة ﴿**خافضةٌ رافعة**﴾ خافضة لمعسكري هذين الثّقلين، ورافعة للطّائفة التي ستتشكّل على أيدي مثيل ابن مريم في الزّمن المذكور.

ومن ثم أتى جل شأنه بحرف (إذا) الدّال على الزمن الآتي الذي تكلّمت عنه سورة الرّحمن، وراح يصف تعالى للقارئ ماستسفر عنه الواقعة أي تلك الحرب الضروس التي ستحدث يومئذٍ، وقال: ﴿**إذا رُجّتِ الأرض رجّاً. وبُسّتِ الجبال بسّاً. فكانت هباءً مُنبّثاً. وكنتم أزواجاً ثلاثة**﴾. أي أنّ هذه الكرة الأرضية التي يبدو ارتجاجها مستحيلاً سترتج ارتجاجاً شديداً لهول أسلحة الدّمار التي ستستعمل في الحرب المشار إليها والتي جعل الله تعالى الغاية من تقدير وقوعها هو إهلاك هذين الثقلين المجرمين المُعربدين في الأرض والذين يكذّبون رسالة رسولي الأمين وبيّنات كتابي العزيز. علماً بأنّ كلمة (رُجّت) من رجّ الشيء ـ يرجّه رجّاً حركّه وهزّه ويأتي هذا الفعل لازماً ومتعديّاً، (محيط المحيط) فهذه هي دلالة ﴿**إذا رُجّت الأرض رجّاً**﴾. يقول تعالى، لن يحدث هذا وحسب، بل ﴿**وبُسّتِ الجبال بسّاً فكانت هباءً منبّثاً**﴾. أي أن وقع أسلحة الدّمار الفتّاكة التي ستعمل في الحرب الضروس المُنبأ عنها، إذا ماأصاب الجبال فستتفتّت ترابها وحجارتها، من بسّ أي فتّت. ﴿**فكانت هباءً ومنبّثاً**﴾ أي يتناثر تراب الجبال وحجارتها، فتثور وتهيج وتصبح هباءً أي ذرّات مفتتّة منتشرة في كل مكان (محيط المحيط).

وهو جلّ شأنه وقد سبق وقال ﴿**خافضة رافعة**﴾ فقد جاء يوضّح هذه النتيجة ويقول: ﴿**وكنتم أزواجاً ثلاثة**﴾ أي أنّ الثّقلان المهيمنان على العالم يومئذ. هؤلاء اللّذان كانا قبل وقوع هذه الحرب الضروس يشكّلان مركزي ثقل في العالم من دون بقيّة شعوب الأرض. سيفقدان هذه المزيّة بعد وقوعها ويظهر إلى الوجود مركز ثقل جديد يمثّل الدّين الإسلامي، هذا الذي سيتشكّل على أيدي شاهدٍ منه ومثيلٍ لابن مريم.

وراح تعالى يصنّف هذه الأزواج الثلاثة فيقول: ﴿**فأصحاب الميمنة ـ إشارةً إلى المعسكر الدّيني المذكور ـ ماأصحاب الميمنه**﴾. تفخيماً وتعظيماً لوزن هذا المعسكر الدّيني الإسلامي. وأضاف: ﴿**وأصحاب المشأمة ـ إشارةً إلى**

معسكر الثّقلين المدّمرين فهو تعالى يطلق عليهم اسم أصحاب المشأمة أي أنّهم نقيض أصحاب الميمنة ـ ماأصحاب المشأمة﴾. وهـذا التكـرار فيـه إظهـار غلبـة الشؤوم عليهم. **﴿والسّابقون السابقون. أولئـك المقرّبـون﴾** أي أنّ السّـابقين في الإلتحاق بمثيل ابن مريم والمضحّين بأموالهم وأنفسهم معه في سبيل إحياء الإسلام وإظهاره على الدّين كلّه ـ **﴿أولئك المقرّبون﴾** ولنُلاحظ أنّ الله عزوجلّ لم يبـين الجهة المقرّبون إليها، لتمكين القارئ من تصريف ذلك إلى جهة الخالق وإلى جهـة المخلوق في وقتٍ واحد. بمعنى أن هؤلاء السّابقون في الإيمان وخدمة هـذا الدّيـن الحنيف سيفوزون بمقام القرب والمحبّة عنـد ربّهـم، كمـا سيفوزون بمقـام القـرب والمحبّة عند مثيل ابن مريم وخلفائه، كما سيفوزون بمقام الاحترام والمحبّة من جميع خلق الله تعالى. فأولئك السّـابقون في الإيمـان وخدمـة هـذا الدّيـن سيكونون في **﴿جنات النّعيم﴾** أي في نَعماء جنتيّه من جميع الجهات.

وأضاف جلّ شأنه يخبر عن السّابقين ويقول: **﴿ثُلّـةٌ مـن الأولـين، وقليـلٌ مـن الآخريـن﴾**. أي أنّ عـدد المقرّبـين مـن الآخريـن ــ إشـارةً إلى قولـه تعــالى: **﴿وآخرين منهم لمّا يلحقوا بهم﴾**. يكون بالموازنة مع ثُلّة أي عـدد المقرّبـين مـن الأولين ـ وهم صحابة رسول الله ﷺ ـ يكـون أقـل، وإن جـاز إطـلاق لفـظ ثلّـة عليهم. وتأكيداً لهذا المعنى الذي ذكرتـه فقـد راح جـل شـأنه يقـول بحـقّ هذيـن الفريقين من السّابقين المقرّبين، وذلك في الآية (٣٩): **﴿ثُلّـة مـن الأوّلـين. وثُلّـه من الآخرين﴾**.

ومن ثم عاد جلّ شأنه يخبر عـن كتلـة أصحـاب المشـأمة فجـاء بعلامـات تؤكّد أنّه تعالى يريد بهـذه التّسـمية الإشـارة إلى هـؤلاء الذيـن اتخـذوا لله ولـداً، والمُنْذَرين في سورة الكهف وسورة الرّحمن بهـذا المصـير المشـؤوم وقـال في الآيـة (٤٥) يصفهـم: **﴿إنّهم كانوا قبل ذلك ـ أي قبل وقوع هذه الحرب الضـروس والدّمار المُروع ـ كانوا مُترفين ـ وكانوا يُصرّون على الحِنث العظيم﴾**.

والحنث العظيم معناه الشرك بالله تعالى. أي أنّهم غرّهم مابلغوه من ترفٍ عمّ جميع نواحي حياتهم، فلم يعودوا يُعيرون أُذُناً صاغيـةً لبيّنـات كتابنـا العزيـز، وأصرّوا على شركهم وعلى اتّخاذهم المسيح ابن مريـم ولـداً لله دون أن يقدّمـوا على شركهم هذا أي دليلٍ أو برهان.

وقد أنهى جلّ شأنه سورة الواقعة مؤكّداً الأمر الآنف ذكره وقال: ﴿**وأمّا إن كان من المكذّبين الضّالين. فنُزُلٌ من حميم. وتصلية جحيم. إنّ هذا لهو حقّ اليقين. فسبّح باسم ربّك العظيم**﴾. فأكّد تعالى على أنّ هذه الحرب الضروس واقعة لامحالة كعذاب يُنزلهُ ربّ العالمين بهؤلاء الضّالين عن الصراط المستقيم، والمكذّبين محمّداً رسول الله والقرآن العظيم . حاثّاً جلّ شأنه كلّ من يُعاصر تلك الواقعة ونتائجها أن يعود إلى توحيد ربّه وتنزيهه. وهذه هي دلالة قوله تعالى: ﴿**فسبح باسم ربك العظيم**﴾ أي نزّه أيّها الإنسان الذي ستشهد تحقُّق هذه الأنباء كلّها نزّه ربّك المليك المقتدر ـ الرّحمن الفعّال لما يريد.

وقد توجّه الله جلّ شأنه بعد سورة الحاقّة يتكلّم عن حال أمّة محمد ﷺ هؤلاء الذي سيصيرون إليه زمن نهضة هذين الثقلين وهيمنتهم على العالم. وقد لخّصنا ذلك فيما مضى، إلى أن عاود جلّ شأنه في سورة المعارج الكلام عن هذين الثّقلين الذين أصروا على الحِنْث العظيم بالمليك المقتدر الرّحمن. فاستهلّ هذه السورة بقوله تعالى: ﴿**سأل سائلٌ بعذابٍ واقعٍ. للكافرين ليس له دافع. من الله ذي المعارج**﴾. والسؤال هنا بمعنى الاستخبار، لِتعديةِ لفظ العذاب بالباء والمعنى أن الذي قرأ سورة الواقعة سيحاول تقصّي أخبار هذا العذاب الواقع لامحالة في المستقبل. ليهلك الله تعالى به الكافرين بدعوة الإسلام ــ هذا العذاب الذي أنبأ عنه الله ذي المعارج. أي المليك المقتدر. الرّحمن. صاحب السّمو والعظمة الذي إن أرادت الملائكة المثول بين يديه، تعرج إليه ﴿**في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة** ﴾و بمقاييس هؤلاء الكافرين أنفسهم.

وأضاف تعالى في الآية الثامنة يضيف إلى ماأنبأ عنه من حال ماسيحدث يوم وقوع ذلك العذاب بهؤلاء الكافرين في المستقبل وهو الواقعة أي الحرب الضروس المقبلة. أضاف قوله: ﴿**يوم تكون السّماء كالمهل. وتكون الجبال كالعهن، ولايسأل حميمٌ حميماً. يبصّرونهم يودّ المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذٍ ببنيه، وصاحبته وأخيه. وفصيلته التي تُؤويه، ومَن في الأرض جميعاً، ثُمّ ينجيه، كلاّ إنّها لظى ـ نزّاعة للشوى. تدعو من أدبر وتولّى. وجمع فأوعى**﴾. وألفاظ هذه الآيات واضحة الدلالات ــ وبإمكان القارئ مراجعتها في (فن الاختزال القرآني).

ومن ثم عمد الله المليك المقتدر. الرّحمن. ذو المعارج إلى الكلام عن مصير هؤلاء الذين اتّخذوا لله ولداً وأصـرّوا على الحنث العظيم، وبأسلوبٍ ساحر، وذلك في الآيات (٣٦ - ٤٤) وقال: ﴿**فمال الذين كفروا مُهطعين** - أي مادّين أعناقهم يُديمون النظر خائفين في حالة ذُلٍ وخضوع بعد بلوغهم هذه النّهاية المأساوية - **عن اليمين وعن الشّمال عزين** - أي جماعات متفرّقةٍ هنا وهناك - **أيطمع كلّ امرئ منهم أن يَدْخُلَ جنّة نعيم، كلاّ إنّا خلقناهم ممّا يعلمون، فلا أقسم بربّ المشارق والمغارب إنّا لقادرون. على أن نُبدّل خيراً منهم ومانحن بمسبوقين. فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يُلاقوا يومهم الذي يوعدون. يوم يخرجون من الأجداث سراعاً كأنّهم إلى نُصُبٍ يوفضون - خاشعةً أبصارهم ترهقهم ذِلّة، ذلك اليومُ الذي كانوا يوعدون**﴾. أي هذا هو اليوم الرهيب الذي سبق أن أنذَرْتُهم به سورة الكهف وسورتا الرّحمن والواقعة.

وبعد أنْ ذكّر الله تعالى هؤلاء الذين اتّخذوا لله ولداً بمصير قوم نوح، وذلك في سورة نوح. وبالوفد الذي قدم إلى مكّة وحقّق في صحّة دعوى هذا الرسول الأمين وآمن ورجع إلى قومه يدعوهم إلى طريق الهدى. وذلك في سورة الجنّ. تنبيهاً لأذهان هؤلاء الضّالين المكذّبين وتذكيراً بالنبوءات الواردة في التّوراة والإنجيل والدّالة على هذا الرسول الكريم. وبعد أن فرغ جل شأنه من توجيه رسوله الأمين ﷺ نحو مهمّته الآنيّة، وذلك في سورتي المزّمل والمدّثر، راح جلّ شأنه فخصّص سورة القيامة، تعبيراً عن هذه النهاية البشعة التي سيؤول هؤلاء الذين أصرّوا على الحنث العظيم.

فأتى في الآية السّابعة بعلامةٍ مُميّزة تحدث زمن بعثة شاهدٍ منه المثيل لابن مريم الذي ستتحقّق هذه الأنباء السالفة بعد بعثته، ويتحقق هذا الانقلاب الرّوحي السابع الكبير على يديه، وقال، جلّ من قائل: ﴿**فإذا بَرِقَ البصر. وخسف القمر. وجُمع الشّمس والقمر، يقول الإنسان يومئذٍ أين المفرّ. كلاّ لاوَزَر. إلى ربّك يومئذٍ المستقر. يُنبّأ الإنسان يومئذٍ بما قدّم وأخّر. بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره**﴾. والمعنى إذا برق بصر الناس الذين سيعاصرون أمم هذا المسيح الدّجال مُتحيّرين ودهشين من روعة مايشاهدونه من علوم واختراعات ووسائل رفاهية جذّابة تحقّقت على أيدي هؤلاء، تجذبهم نحوهم.

ويضيف الله المليك المقتدر. الرّحمن، ذي المعارج مُنبئاً عن ظهور علامةٍ سماويةٍ تُعاصر زمن بعثة مثيل ابن مريم الذي يكون من مهمته قتل حالة هؤلاء الخنزيرية وكسر صليبهم أي إبطال دينهم بالحجة والبرهان، يضيف تعالى مُنبئاً عن ظهور هذه العلامة السماويّة التي أوردها كتاب حديث الدار قطني بألفاظ: (إنّ لمهدينا آيتين لم تكونا لبشرٍ منذ خَلَقَ الله السموات والأرض، ينخسف القمر لأوّل ليلةٍ من رمضان وتنكسفُ الشمس في النّصف منه). أنبأ تعالى عن هذه العلامة التي حدثت عام (١٣١١هـ الموافق لعام ١٨٩٤م) وذلك شرقي الكرة الأرضية في أوربة وأفريقية، كما تكرّر ظهور هذه العلامة السماوية بعد عام، أي عام ١٨٩٥م غربي الكرة الأرضية في أمريكة - وفقاً لِما سجّلته مؤسّسات الرّصد الفلكيّة في عدّة أقطارٍ من العالم. وهذه هي دلالة: **﴿وخَسف القمر، وجُمع الشمس والقمر﴾**. **﴿يقول الإنسان يومئذٍ أين المفرّ﴾**. أي يضجّ الناس بعد زمن ظهور هذه العلامة السماويّة الدالّة على بعثة المهدي المنتظر. يضجّون من شرور وغطرسة هذين الثّقلين، ولايجدون لأنفسهم مهرباً ممّا يُعانونه من ظلمهم ومكائدهم، وهنا ينبّه الله المليك المقتدر. الرّحمن، ذو المعارج أذهان النّاس الذين وصفهم بالوصف المذكور. ويقول: **﴿كلاّ لاوَزَر. إلى ربّك يومئذٍ المستقر. ينبّأ الإنسان يومئذٍ بما قدّم وأخّر﴾**. وكلاّ أداة زجرٍ وتوبيخ يوجّهها جلّ شأنه إلى الذين سيسلّمون بسيادة الذين اتّخذوا لله ولداً على العالم، ويقول **﴿لاوزر﴾** أي خسئتم، فلابدّ أن ينزل عذاب الله بهؤلاء، فلا يستطيع أن يحول بينهم وبين مصيرهم المقدّر لهم أيّ حائل، وستؤول أحوال يومئذٍ إلى صالح دين الله المليك المقتدر ووفقاً لمشيئه عزّوجل . وهذه هي دلالة قوله تعالى: **﴿إلى ربّك يومئذٍ المستقرّ﴾**. أي سيتحقق نتيجةً لجميع التّطورات القادمة يومئذ إظهار الدّين الإسلامي على الدّين كلّه ولو كره المشركون.

وهذا هو مادفع هذا المليك المقتدر الرّحمن ذو المعارج أن يُنهي سورة القيامة هذه بقوله تعالى: **﴿أيحسب الإنسان أن يُترك سُدىً. ألم يكُ نُطفةً من مَنّيٍ يُمنى. ثم كان علقةً فخلق فسوّى. فجعل منه الزّوجين الذكر والأنثى، أليس ذلك بقادرٍ على أن يُحيي المَوْتى﴾**. أي يُحيي موتى النّفوس، هذا الموت الرّوحاني الذي تسبّب به هذان الثقلان؟.

فكم هي عظيمة أنباء سورة القيامة هذه التي أشعرت القارئ أنّ موضوع هؤلاء الضّالين المكذّبين محسومٌ منذ زمن نزول سورة الكهف. فسبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم اللهم صلِّ على محمدٍ وعلى آل محمدٍ وسلّم وبارك إنّك حميد مجيد.

فإلى هنا يكون القارئ قد ألّم من جهة بالانقلابات الكبرى التي تحققت على أيدي الفريق الذي أبلس من رحمة ربّه، وكذّب بما أنزل الله تعالى على آدم والأنبياء الذين بعثهم الله من بعده، هذا الفريق الذي اصطلح له القرآن الكريم تسمية إبليس والشيطان وذريّة الشيطان، كما يكون هذا القارئ قد ألّم من جهة أخرى بالانقلابات الرّوحية الكبرى التي أحدثها ربّ العالمين، لتطوير عقل هذا البشر الذي أخرجه آدم من كهفه لتهذيبه وتحضيره، هذا البشر الذي آمن بآدم وماأنزله ربّه عليه وعلى الأنبياء الذين بعثهم الله من بعده، والذين اصطلح القرآن لهم تسمية مؤمنين ومسلمين وذريّة آدم أيضاً. كما يكون هذا القارئ ألّم من جهة ثالثة بالانقلاب الرّوحي الكبير الذي يحدثه ربّ العالمين منذ بَعَثَ "شاهداً منه" مثيل ابن مريم، هذا الانقلاب الذي نقف نحن والعالم على أعتابه.



الفصل السادس
اتّصال الله بالبشر ومنهاجه :

وهذه الإنقلابات جميعها يثبت منها صدق ماستهلّ الله تعالى به دُعاء الفاتحة وهو: ﴿الحمد لله رب العالمين. الرّحمن الرّحيم مالك يوم الدين﴾. ذلك أنّ جميع أنواع الحمد لايستحقّها على وجه الأصالة إلاّ هذه الذات العظيمة التي تحمل هذه الأسماء الحسنى، والمربّية لجميع ماأوجدته من عوالم ومخلوقات، هذه الذّات التي كانت تكلّم البشر وستظلّ تكلّمه بطرق ثلاث وحياً، ومن وراء حجاب، أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه مايشاء، هذا وإنّ كل إنسان يتنكّر لهذه الحقيقة، حقيقة استمرار نزول كلام الله بهذه الطّرق الثلاث، يكون كالذي يُنكر وجودَ الشمس وهي ساطعةً بأشعّتها الذّهبية في رابعة النهار، ولابدّ لمن يطالع المبحث الثاني من هذا الكتاب والمسمّى دربُ العِرفان الإلهي، لابدّ له أن يجرّب العمل على ماتضمّنه من تعاليم قرآنية تؤهلّه لمعرفة ربّه وخالقه والفوز بمحبّته ورضاه وقربه والاتّصال به وتلقّي بشارات كلامه المبارك الذي يثبّت فؤاده على الإيمان، ويدفعه قُدُماً على درب العِرفان، ويأوي إلى حصن ربّه الحصين.

أي أننا أثبتنا حتى الآن أنّ كلام الله تعالى رافق وجود البشر على كوكبنا الأرضي، ولولا ذلك لظلّ البشر مخلوقاً يشبه بقيّة العجماوات، فالله عزوجلّ ميّز هذا المخلوق البشر عن غيره بنعمة العقل، فتوّج تعالى بالعقل النّفس البشرية التي أوجدها الخالق من نطفةٍ أمشاج، ليهب خالقنا هذا الإنسان إمكانية وعيه لما يدور من حوله، ووعيه لما يتلّقاه من كلام ربّه، ووعيه لحقيقة حياته الدّنيا فماهي إلاّ الطّور الأوّل على طريق تطوّرٍ طويلٍ لانهاية له. يؤهّله في النهاية ليشكّل شريحةً من شرائح المملكة السماوية التي تملكها هذه الذات الإلهية الخلاّقة، ويكسب بذلك حياة الخلود.

ألا وإني سبق لي أن تكلّمت عن الكيفيّة التي يُكلّم الله البشر بواسطتها من وراء حجاب وأثبت ذلك بأدلّة من كتاب الله العزيز. فوضّحت في حينه أن هذا النّوع من المكالمة الإلهية يتمّ وفق منهجٍ مُعيّن، أجلّت الكلام عليه إلى حين.

وها أنّها قد حانت ساعة الكلام عن المنهج المذكور. لكنّـي أرى مـن الضـروريّ قبل ذلك تلخيص ماأتيت على بيانه وبأسلوبٍ علميّ مدلّل عليه فيما يتعلق بكيان هذا البشر الذي يكلّمه الله تعالى من وراء حجـاب، مُسـاعدةً منّي لهـذا القـارئ على إدراك حقيقة مايراه الإنسـان في منامـه، ومايتلقـاه مـن كـلام ربّـه مـن وراء حجاب.

١- ممّ يتألف كيان الإنسان ؟

فلقد أثبت حتى الآن أنّ الإنسـان قـد رُكّـب مـن نفـسٍ وجسـدٍ وعقـل. فالنّفس، وبوسيلة هذا العقل. تتبادل التأثير مع هذا الجسد المجهّز بالحواس الخمس، ووفق قوانين مسنونة. لتحظى بالوعي والإدراك لِما حولها. وتستفيد مـن جـرّاء ذلك من تلقّى هذا البثّ الخارج عنها، فتتعامل معه وفق مابلغته من وعي وإدراك وبمعزلٍ عن دوافع غرائزها وميولها وشهواتها.

وبما أنّ هذا الجسد المادّي ومايملكه مـن حـواسّ كـان محـدود الإستطاعة. فقد سنّ الله خالقه من أجل تجديد نشاطه نظام اللّيل والنهار، فجعـل نهـار هـذا الإنسان معاشاً وليله سُباتاً. والذي يحـدث خـلال فـترة السُّبات هـذه أن تتحـرّر النفس البشرية إلى حدٍ ما من إسار جسدها، فتنطلق في عالمٍ برزخـيٍ تحصـد فيـه يومياً ثمار مابلغته من وعـي وإدراك، وثمـار آثـار ماتركـه سـعيها الدّائـب اليومـي وماأقدمت عليه من أعمال وما انتهت عنه من نواهي، وما التزمت به من تعـاليم، أي أنّ هذه النفس البشرية تعود تواجه بثّاً مـن نـوع جديـد غير البـثّ الخـارجي الذي كانت تتلّقاه في حالة يقظة جسدها ونشـاطه وحيويّتـه. وهـذا البـثّ الـذي تتلقاه النفس في حالة خمول جسدها وراحته، يتمثّل في هـذه المشـاهد الـتي يراهـا النائم والتي تأتي على شاكلة مايراه الإنسان في يقظته إنما مع اختلافٍ في القوانـين النّاظمة لكلا الحالتين.

ويتوقّف الباحث هنا لحظات يتساءل: وكيف ترى هذه النّفس بحـواسٍ في اليقظة وبغير حواس في حالة النّوم؟

أقول في الإجابة على هذا السؤال: أنّه سؤال قـد حيّر البـاحثين، وعلمـاء النّفس منهم خاصّة، فذهبوا في ذلك مذاهب شتّى، نحن بغنىً عن سردها في هـذا المقام، فليس المقام مقام الكـلام عـن عـالم المنام، هـذا العـالم الـذي أورد القـرآن

الكريم بحقّه قول ربّنا عزوجلّ: ﴿هو الذي يتوفّى الأنفس حين موتها، والتي لم تمتُ في منامها، فيمسك التي قضى عليها الموت، ويُرسل الأخرى إلى أجلٍ مُسمّى﴾. فلعلّ الله عزوجلّ يوفّقني يوماً ما لأكتب كتاباً عن حقيقة عالم المنام.

وأضيف على هذا الذي ذكرته هو ماتوصّل إليه علمي في مضمار الإجابة على السؤال المطروح، أنّ سرّ ذلك يعود إلى ملكة العقل نفسه، فهذا هو ماأثبته العلم في القرن العشرين. وهو الأمر الذي يتفق مع الطّرح القرآني. فما لم يتوصّل إليه العلماء من حقائق طرحها القرآن الكريم حول هذا الموضوع، فلقصر المادّة وقوانينها ووسائلها عن بحث تلك الحقائق القرآنية التي طرحها تعالى، قبل أربعة عشر قرناً من الزّمان، ذلك أنّ كتاب الله العزيز قسّم مايراه النائم إلى قسمين متميّزين: أضغاث أحلام، وكلام الله من وراء حجاب، وأضغاث الأحلام مصدرها مايبثّه مااختزنه العقل من معلومات إلى جانب ماتبثّه أعضاء الجسم من إحساسات، وإلى جانب مايرنّ في أذن النائم من أصوات. أمّا القسم الثاني، وهو كلام الله من وراء حجاب، فيشكّل في حدّ ذاته محطّة بثٍّ خارجيّةٍ تتجلّى من خلالها أسماء الله الحسنى على هذا النائم بتمثّلاتٍ ووفق المنهج الذي سنتكلّم عنه إنشاء الله العزيز. وأنّى للأبحاث العلميّة أن تطال هذه التّجلّيات الإلهية وتمثّلاتها، إلاّ عن طريق آثارها التي تظهر على أيدي المؤمنين السالكين درب العرفان الإلهي؟

٣ـ حقيقة العقل ومحطة بثّ أضغاث الأحلام:

فيتساءل القارئ: وكيف يكون العقل مصدر مايراه النّائم من أضغاث أحلام؟ وكي يحيط هذا السائل علماً بالإجابة الصّحيحة العلميّة ـ ألخّص من أجله ماتوصل إليه العلم بشأن حقيقة العقل.

ففي حين ذهب علماء القرن التاسع عشر إلى أنّ الدّماغ يفنى بعد الموت ويفنى معه بالتالي عقل الإنسان، فقد خلَصت أبحاث العالم شرنغتون مؤسس علم فسيولوجيا الأعصاب الحديثة في القرن العشرين إلى أنّ العقل يستعصي على الكيمياء والفيزياء في مجال أنشطته وآليات علمه، ووافقه على ذلك السير جون إكلس العالم المتخصّص في مبحث الأعصاب. فهذان العالمان وأمثالهما ذهبا إلى

أنّ البصر يُعطينا ولاشكّ وفي كلّ لحظةٍ صورةً ثلاثيّة الأبعاد لعالم خارجيّ، ويأتي دور العقل فيُعطي لهذه الصّور التي يتلقّاها بطريق البصر سمات ألوانها ولمعانها وبطريقةٍ مجهولة عن المعلومات المنقولة بالرّموز التي ترسلها شبكيّة العين إلى الدّماغ. وأنّ عمليّة الترجمة المزدوجة التي يقوم بها الإدراك الحسيّ تشكّل أعجوبةً تبعث على الذّهول، ولقد راح هؤلاء العلماء يضربون أمثلةً عمليّةً من واقع الإنسان نضرب عنه صفحاً في هذا المقام، أي أنّهم حاولوا إثبات أنّ المادّة وحدها لاتستطيع تفسير الإدراك الحسيّ الذي يقوم به عقل الإنسان. فجميع العمليّات التي يقوم بها العقل للإبصار والشمّ والذّوق والسّمع واللّمس لاتملك التّجارب الماديّة تفسيراً لها وإجاباتٍ صحيحةٍ لها، وبألفاظ أخرى فقد سلّم علماء القرن العشرين بوجود جوهر العقل واستقلاليّته.

كذلك توصّلوا إلى أنّ إدراك الإنسان للأشياء لايتحقّق بواحدةٍ من الحواس الخمس بل بتضافر أكثر من حاسّةٍ واحدة وفي وقت واحد، إلى جانب هذا الإحساس الداخليّ الذي يوفّره العقل الذي يخزّن المعلومات ويملك قدرات تذكّر وهذه المعلومات وتخيّل أشيائها أيضاً، وتساعده على ذلك ماتحمله النّفس البشريّة من قوى متضادّة كالحبّ والغضب والفرح والخوف والأمل والرغبة والحزن، وعلى اعتبار أنّ هذه القوى النّفسية لاتندرج تحت عمليّات الإدراك السمعي والشمّي والذّوقي والإبصاري واللّمسي، وبكلمة مختصرة فالقوة العقلية تُمكّن الإنسان من إدراك ماهيّة الأشياء، وفهم عللِها وحكمها. هذه الأمور التي تعجز عن أدائها الحواس الخمس، كذلك تمكّنه من الربط مابين المكان والزّمان الرُّباعي الأبعاد وفقاً لنظريّة آينشتاين النّسبيّة. كذلك يخلق العقل إرادة شخص صاحبه والتي قد تغلب أحياناً على عاطفته. ومن هنا ندرك سبب إطلاق العالم ويلدر بنفليد المتخصّص بجراحة الأعصاب عُنوان (لُغز العقل) على مؤلّفه المشهور الصادر عام ١٩٧٥م، والذي أثبت فيه أن العقل لايعمل عملاً آلياً ماديّاً. بل يُراقب بعُزلةٍ تامّةٍ عن ذلك كلّه. فالإدراك لايتوقّف على النّشاط العصبي.

٤. العقل يقع خارج الدماغ وليس داخله :

كذلك لامقرّ ولامركز للعقل والإرادة في دماغ الإنسان، أي أنّ العقل البشري وإرادة الإنسان لايملكان أعضاء مادية ضمن جسم الإنسان صاحب هذا

العقل وهذه الإرادة، لذلك فبإمكان العقل والإرادة التحكّم بالأفعال التي يقوم بها جسد الإنسان، وبإمكانه توجيه أنشطة الدّماغ، فالعقل، لا الدّماغ، هو الذي يراقب ويوجّه ذلك كلّه وفي آن معاً. فالعقل إذن جوهرٌ متميّزٌ ومختلفٌ عن الجسم، وقد أعلن أخيراً العالم الفيزّيائي بنفليد «أنّ ملكتي العقل والإرادة خالدتان ولاتفنيان بعد فناء جسد الإنسان التّرابي».

ألا إنّ هذه النتائج والحقائق التي توصّل إليها علماء القرن العشرين، تتوافق مع ماطرحه القرآن الكريم من طروحات متعلّقة بعقل الإنسان وإرادته، لذلك قلت آنفاً أنّ فهم موضوع العقل يساعد على فهم حقائق مايراه الإنسان في منامه من أضغاث أحلام. فمن سَلِمَتْ محاكمات عقله، ومُختزنات علومه، وسلوكه اليومي، يسلم من رؤية أضغاث الأحلام، ويعود مستعدّاً وعلى حسب صلاحيّته، لتلقّي بثّ تجليّات أسماء الله الحسنى وتمثّلاتها خالصةً في السّاعات التي يخلد فيها إلى النّوم والراحة بعد أن يبلُغَ حسُّ جسده مبلغه من الجهد والإعياء.

وهناك سؤال يفرض على الباحث نَفْسَهُ: وهو هل يُخطئ العقل في عمليّات وعيه وإدراكه؟ وماأثر ذلك على تصرّفاته في يقظته وفي منامه؟

والجواب يلخّص بكلمة نعم، وفي إمكانية خطئه، إمكانية التأثير على تصرّفاته في يقظته وفي منامه.

٥ً- العقل يخطئ في اليقظة وفي حالة النوم :

فالنّفس البشرية تتحرك إقداماً وإحجاماً، برفقة جسدها في حالة اليقظة بتوجيهٍ من عقلها وإرادتها وأحياناً بدافعٍ من ميولها وغرائزها وشهواتها. وإنّ هذه النّفس البشرية ماإن يطرأ على جسدها هذا الموت الظاهري، وتستقلّ نوعاً ما، تظلّ تتحرك بتوجيه من عقلها وإرادتها وبدوافع ميولها وغرائزها وشهواتها، بسبب عدم انفصالها انفصالاً كليّاً عن جسدها.

ومادام عقلها مُعرّضاً للخطأ في حالة يقظتها، ويترك ذلك أثره على تصرّفاتها، فالأولى أن تزداد الأخطاء التي يقع فيها هذا العقل في حالة نوم صاحبه لاختلال مصادر البثّ الخارج عنه في تلك اللّحظات. فالحواس خاملة، والنّائم تكون مصادر البثّ لديه من داخله ومن خارجه، ووفق مااختزنه عقله من معلوماتٍ وذكريات لذلك تتحرّك هذه النّفس النّائمة وفق معطيات هذا البثّ

الجديد النّاقص المعطيات فيتراءى لهذا النائم مايراه من أضغاث أحلام وفق اصلاح القرآن الكريم.

وأضرب للقارئ أمثلةً تفسّر مايقع فيه العقل من أخطـاء في حـالتي اليقظـة والنوم. فلو أدخل هذا القارئ في حالة يقظته التامّة عصا مستقيمة في بُركـة مـاء. ينكسر منظر هذه العصا داخل الماء ولاتعود تُرى مُستقيمة في عينيـه. فهـذا خطأ يقع إدراك الإنسان فيه في حاله يقظته، ويصحّح العقل ماأخطأ في وعيه عن طريق التجربة والملاحظة والاستنتاج العلميّين. فهذا مثال يمثّل خطأ إدراك عقل الإنسـان في حالة يقظة صاحبه.

أمّا إذا كان صاحب هذا العقـل نائمـاً، وحـدث أن طـنّ في أذنـه صـوت حشرة أو قرع باب أو أيّ صوتٍ من نوع آخـر، فـلا يملـك هـذا العقـل لتفسـير ذلك إلاّ مُعطيـات مـا ادّخـره مـن معلومـات في ذاكرتـه، ومايملكـه مـن قـدراتٍ تساعده على محاكمة ماسمعه من أصوات، ووفق عالم برزخـيّ ينعـدم فيـه الزّمـان والمكان وتنعدم فيه الحاجة إلى العوامل المساعدة الـتي تسـاعد الحـواس علـى أداء وظائفها في حالة يقظتها. إلى جـانب مابلغتـه إرادة هـذا الإنسـان مـن استقلاليةٍ وقدرةٍ على تصريف أموره. فهذه العوامل جميعها تلعب أدواراً رئيسة في موضوع الأخطاء التي يقع فيها عقل هذا الإنسان النّائم وإرادته، ويُلقي هـذا كلـه بالتـالي بآثاره على ماتراه هذه النفس البشرية أثناء الفترات التي يستلقي فيـه جسـدها إلى الخمول والنوم بسباتٍ عميق. وهذا هو سرّ تسمية القرآن الكريم لما تـراه النّفـس البشرية بدوافع هـذا النّـوع مـن البـثّ الـذي ذكرنـاه تسـميتها أضغـاث أحـلام، فأضغاث جمع ضغث، من ضغث الحديث: خلطه (محيط المحيط).

٦ـ تأويل الرؤى يحتاج صاحبه إلي لياقات :

فالذي يهمّنا من جميع ماذكرنـاه هـو أن نعلـم بـأنّ قـوى النّفـس البشـرية يلازمهـا جهـاز العقـل في حـالتي يقظتهـا ومنامهـا، ويشـكّل معهـا كيانـاً واحـداً لاينفصـم بحـال مـن الأحـوال، ولاتسـتطيع العيـن المادّيـة إدراك هـذا الكيـان، إلاّ بآثاره. كالمغناطيس لايُدرى بوجوده إلاّ من خلال جَذْبه لـبرادة الحديـد. ويشبه حال هذا الكيان النّفسي حال الشاشة التلفزيونيّة مع الفارق بينهما فيستقبل هـذا الكيان النّفسي البثّ الخارج عنه، والذي يأتيه من طرف ميوله وغرائزه وشـهواته

أيضاً. ويقوم جهاز العقل بتحليل مايرد إليه ويحاول إدراكه، وتتدخّل الإرادة للإستفادة من كلّ ذلك وللعمل عليه على قدر استطاعتها. فهذا هو تشخيصي لحال هذه النّفس البشريّة والتي يأتيها أحياناً بثّ من نوعٍ مغايرٍ لجميع أنواع البثّ التي ذكرناها، ألا وهو ماتبثّه تجلّيات أسماء الله الحسنى، التي يراها النائم على شكل تمثّلات مغايرة للقوانين العقليّة والإراديّة وماتشكّله من أضغاث أحلام يراها هذا النائم في منامه. أقول يُرى تمثّلات هذا البثّ الرحماني أحياناً صافيةً، وأحياناً ممزوجةً بأضغاث الأحلام، وبشكلٍ يتناسب طرداً مع الشّفافية الرّوحية لهذه النفس البشرية وصفائها ممّا يشوبها من أدران معصيتها لمشيئة خالقها عزوجلّ. ويحدث ذلك كلّه وفق نهجٍ معلوم اختطّه البارئ جلّ شأنه حين يشاء مكالمة عبدٍ من عباده من وراء حجاب، وهكذا يكون القارئ قد أصبحت رؤيته الموضوعية لموضوع الأحلام التي تعرض له في نومه، رؤية علميّةً الجوانب، ومن صميم دلالات آيات كتاب الله العزيز، لكنّ ذلك لايكفي هذا القارئ ولايساعده على تأويل وتفسير مايراه في منامه. بل لابدّ له من أن يُحيط علماً بالمنهج الإلهي وتوابعه هذا الذي ترتبط به هذه التمثّلات أي هذه النظائر والتشابيه التي تشكّل كلام الله مع من يراها من وراء حجاب. ذلك أنّ كلمة التمثّلات والمثلُ جمع مثل ومعناه الشبه والنظير، ويجمع على أمثال أيضاً (محيط المحيط) . فمن جرّاء إحاطة المؤمن علماً بهذا المنهج الإلهي وتوابعه الذي ترتبط به تمثّلات مايكلّمه الله ربّه به في منامه، يحيط هذا المؤمن علماً بدلالات مايراه من نظائر وتشابيه. ومن هذا يتضّح للقارئ الواجب المُلقى على عاتق كلّ مؤمن، وهو أن يسعى جاهداً لفهم هذا المنهج الإلهي ومايتبعه من أمور، فالموضوع يتطلّب من كل مؤمنٍ يصبح عالماً بتأويل ما يتمثّل له في منامه، يتطلّب منه التحلّي بلياقات روحيّةٍ وعلومٍ واستعدادات مُحاكميّة ومهارات.

وهذه اللّياقات لاتتوفّر لكل إنسان مؤمن لذلك قال تعالى: ﴿**واسأل من كان به خبيراً**﴾. خصوصاً وأنّ الرؤيا الصّالحة لاتأتي دوماً بنبأٍ مُستقبلي. بل قد تمثّل حالةً مضت تفيد رضي الله تعالى عن فاعلها، أو قد تمثّل حالة ستحدث في المستقبل، أو تمثّل حالة يهمُّ صاحبها على أن يُقدم عليها، ويحثّه الله ربّه ويبشره بنجاحه إن هو أقدم عليها.

فإن تحلّى هذا المؤمن بتلك اللّياقات الرّوحية وتلك العلوم والاستعدادات من المحاكمات والمهارات، يعود بإمكانه التّفريق بين مايبثّه عقله وإرادته من أضغاث أحلام في نومه، ومابين ماتثبّه بجليّات أسماء ربّ العالمين، حيث أنّ الفارق بين هذا وذاك يكون كبيراً من حيث ماهيّته ومن حيث القوانين الناظمة لكلّ نوع من هذين النّوعين المذكورين من الأحلام.

فأضغاث الأحلام التي يبثّها عقل الإنسان وإرادته لاشعورياً تظلّ تنظمها القوانين التي تنظم المشاهد المادّية المترائية في حالات اليقظة. أمّا تجليّات وتمثلات أسماء الله الحسنى، فلا تتبع تلك القوانين. بل لها قوانينها الناظمة لها، والتي تخالف تلك القوانين المادّية.

وقد يعجب القارئ ممّا ذكرته له آنفاً، ويرجو توضيح ذلك بمثال علميّ. لذلك أعمد هنا لتقديم هذا المثال، فأقول: إنّ من المُتعارف عليه في بيئتنا أن تختصّ المرأة وحدها بوضع عقد زينةٍ حول رقبتها، تُحلّي به ماظهر من جيدها. فإن شاهد امرؤ نفسه أنّه يضع عقد لؤلؤ على سبيل المثال حول رقبته. وهو الأمر الذي لايحدث في أضغاث الأحلام.

بل في الرؤى التي هي من قبيل كلام الله مع عباده من وراء حجاب. توجّب على الإنسان الذي يتصدّى لتأويل ذلك أن يستفسر من هذا الرّجل عن حاله، ذلك أنّ الله عزوجلّ يكلّم كل عبدٍ من عباده على قدر عقله وحاله. فإن تبيّن أنّ الذي رآى هذه الرؤيا هو طالب علمٍ دينيٍ وبصدد حفظ آيات كتاب الله جميعها عن ظهر قلب. فإنّ تأويل هذا التمثّل النّظير يحمل بشارةً لهذا الطّالب أنّ ربّه يبشّره أنّه سيوفقه إلى حفظ كتابه العزيز، فيجعله عقد زينةٍ يُحلّي به جيده على شاكله ماتُحلّي المرأة به جيدها من عقد.

أو تبيّن لهذا العالم صاحب اللياقات المذكورة أنّ صاحب هذه الرؤيا يسعى ليكون فقيهاً في الدّين. فإنّ مارآه يحمل له بشارةً من ربّه يبشّره فيها أنّه سيجعله في نهاية المطاف فقيهاً في دينه. ويجعل علم فقه دينه هذا عقداً يحلّي به جيده على شاكله ماتُحلّي به المرأة جيدها من عقد.

أو كان بين صاحب هذه الرؤيا وبين قومه أو فريق من الناس عهد وعقد يجد أنّ من العسير عليه الوفاء به ويدعو ربه أن يوفّقه لوفائه، فإنّ هذه الرؤيا تحمل لرائيها المذكور جواب دعائه، وهو أنّ ربّه سيوفّقه في نهاية المطاف للوفاء

بعهده المذكور، معتزاً بذاك الوفاء على شاكلة ماتعتز المرأة بعقدها الذي تُحلّي به جيدها، هذا وعلى هذه الشاكلة تُدرك دلالات البشارات السّماوية التي تحمل تجليّات وتمثّلات أسماء الله الحسنى من وراء حجاب، فشتّان مابين رؤى أضغاث الأحلام التي لاتختلف القوانين النّاظمة لها عن القوانين المادية المعروفة في شيء يُذكر، ومابين الرؤى الصّادقة التي تُنظمها قوانين تختلف عن تلك القوانين كُلّ الاختلاف.

والآن وبعد أن وضّحت جميع ماسبق توضيحه أتوجّه بالكلام عن النّهج الإلهي وتوابعه، هذا النّهج الذي اختطّه البارئ تعالى نهجاً متميّزاً، يمتاز به كلام الله تعالى من وراء حجاب عن جميع مايراه النائم في منامه من أضغاث أحلام بثّها عقل الرّائي وإرادته وبصورةٍ لا شعورية، عمّا يراه متشابهاً مع مايراه هذا الرّائي في يقظته.

٧ـ منهج الكلام الربّاني من وراء حجاب:

فإن أمعن هذا القارئ فيما قدّمته له من مثالٍ آنفٍ ذكره، يتحسّس لامحالة بوجود منهجيّةٍ وراء هذا المثال تنظم قوانين تمثّلاته. وأنّ هذه المنهجية هي التي تساعد العالم المفسّر على إمكانية تأويل ماتضمّنه المثال من أحوال. فلولا وجود هذه المنهجيّة لعاد مايقوم به هذا العالم لايعدو كونه هذاراً أو خبط عشواء.

والحقّ الذي لامراء فيه هو أنّ كلام الله تعالى من وراء حجابٍ، يستند إلى نهجٍ محدّدةٍ عناصره، وإلى أسلوبٍ منطقيٍّ سليم، وهل يمثّل أحدنا مثالاً لإنسانٍ يقف في مقابله من خارج علمه وكلامه؟ وهذه المنطقيّة في عمليّة تقديم النّظير والشّبه من جانب تجلّيات أسماء الله الحسنى يتّسم بها هذا النّهج الرباني. ولولا ذلك لتاه العالم والجاهل في وقتٍ واحدٍ في خضّم مايراه النّاس في حالات نومهم، من كلام ربّاني مُوجّه إليهم خاصة.

ولنعلم أنّ كتاب الله العزيز يشكّل مرجعنا الأول والأخير لفهم عناصر هذه المنهجية لذلك يُطالب كلّ عالم يسعى إلى تأويل تمثّلات تجلّيات أسماء الله الحسنى، أن يرجع إلى هذا الكتاب العزيز، وأن يكون في الوقت نفسه محيطاً علماً بعلوم هذا القرآن الكريم وبدلالات آياته، وبما تضمّنه من حِكم وأمثال تناثرت بين سطور آيات هذا الكتاب هنا وهناك. كذلك يشترط على هذا العالم أن يتبين

أوّلاً حال صاحب الرؤيا المطلوب منه تأويلها والتي جاء صاحبها يستفتيه في أمرها.

هذا على اعتبار أنّ الله ربّنا يكلّم كلّ عبدٍ من عباده على قد مؤهّلاته العقلية، وهذا هو سرّ مضمون الحديث الشريف القائل: (أُمرت أن أكلّم الناس على قدر عقولهم). ومن باب الإتّصاف بهذه الصّفة الربّانية التي ذكرتها آنفاً.

وكيلا يلتبس أمر فهم هذه اللياقة التي تتطلبها هذه المنهجيّة، أعمد إلى توضيح ذلك بأمثلةٍ تزيل كلّ لُبسٍ يكتنفه.

فليفترض هذا القارئ أنّ إنساناً ماتمثّل له هذا القرآن في منامه فلينظر هذا العالم وليتبيّن أوّلاً حالة ماتمثّل، وحال الذي تمثّل له، فإن تبيّن له أنّ بين صاحب الرؤيا، وبين خصمٍ له دعوى دائرة حول خلافٍ بينهما، على سبيل المثال فلابدّ وأن يكون هذا الإنسان قد شاهد نفسه يقرأ القرآن عن ظهر قلبٍ ومن دون وساطة مصحفٍ بين يديه. وبذلك يبدو هذا التمثّل الذي شاهده في منامه حينئذٍ مرتبطاً ارتباطاً موضوعيّاً بحال صاحب هذه الرؤيا. ويكون هذا التمثّل يحمل لصاحب هذه الرؤيا بشارة من ربّه يزفّها إليه، وهو أنّه على حقٍ في ادّعائه وأنّ خصمه على باطل، وأنّ هذا المُبشّر سيفوز في دعواه.

أمّا إذا لاحظ القارئ أنّ صاحب الرؤيا شاهد نفسه يتلو آيات قرآنيّة مخصوصةٍ بعينها وأنّه حفظ تلك الآيات بعد يقظته . فلينظر القارئ وليتدبّر مضمونها، فإن لاحظ أنّها تحمل دلالاتٍ مبشّرة، فإنّها تحمل لصاحبها بشارةً يصيبها في أمرٍ من شؤون دنياه، وإن لاحظ أنّها تحمل وعيداً بعذابٍ وانذاراً، فإنّها تحمل لصاحبها وعيداً وإنذاراً بعذاب ينزله الله تعالى به من جرّاء معصيةٍ ارتكبها أو إثمٍ صدر عنه - وقس على ذلك بقيّة الحالات ـ وهذا يعني أنّ تمثّل هذا القرآن الكريم للإنسان في أيّة حالةٍ كانت، لابدّ وأن تكون لها دلالتها وتفسيرها ومنهجيّتها.

فعقل الإنسان وإرادته لادخل لهما في العالم البرزخي المذكور،لذلك فإنّ الذي يكون عدوّاً لله وللإسلام قد يرى أنّه يكتب آياتٍ قرآنيةٍ على الأرض، ويكون تأويل رؤياه هذه أنّه في نظر ربّه زنديق. أو قد يرى نفسه أنّه يكتب الآيات القرآنية على خزفٍ أو صدف أو كساء. فدلالة ذلك أنّ ربّه يُفهم هذا

العدّو أنّه يجهل دلالات هذه الآيات البيّنـات، فـلا يفهـم منهـا إلاّ ماتُوسـوس بـه نفسه.

فلو سعى القارئ إلى إحصـاء مـايراه النـاس علـى صعيـد تمثّلات تجلّيـات الأسماء الحسنى في حالات النّوم، لتوصّل من خلالها إلى تصديق ماذكرته له. لكن الأمر المؤسف هو أنّ الناس لايقومون حتى اليوم بمثـل هـذه الإحصـاءات. لذلـك لانلاحظهم ينطلقون ممّا انطلقت منه.

ثُمّ إنّ كلّ من طالع كتب الحديث الشريف لابدّ أن لاحـظ قـول رسـول ا لله ﷺ أنّ الشـيطان لايقـدر أن يتمثّـل في شـخصيّة رسـول ا لله ﷺ، فمـن رآى رسول ا لله ﷺ في منامه فقد رآه حقّاً، ولو كان ذلك وفق حالة الرّائي فلماذا نبّـه رسول ا لله ﷺ أذهاننا إلى هذه الحقيقة؟ نبّهها بسبب ما لشخصه من قداسـةٍ عنـد ربّه، فلا يقدر عقل الإنسان وإرادته تمثّل ذلك من جانبهما.

هذا، ولقد ألقى ا لله عزوجلّ في روعي وأنا قائمٌ أصلّي بين يديه أنّ لكتابه العزيز نفس القداسة عنده جـل شـأنه، وإلى هـذا الأمـر وردت الإشـارة في قولـه تعالى من سورة الحجر: **﴿إنّا نحن نزلنا الذكّر وإنا له لحـافظون﴾**. لذلـك يعجـز عقل الإنسان وإرادته أيضاً على أن يتمثّل هذا القرآن في منامه على حسب هواه. فإن تمثّل هذا القرآن لعدو في منامـه، فلابـدّ أن تكـون لتلـك الرؤيـا دلالتهـا الـتي يفقهها العالمون بتأويل الأحاديث، فليأخذ القارئ عنّي هذه المعلومة الـتي كشـفها ا لله تعالى علّي، وليتقصّاها على بساط الواقع.

وليس هذا وحسـب، بـل إنّ ا لله جـل شـأنه، إعـزازاً جانبـه لهـذا القـرآن الكريم، لاتتمثّل تجليّات أسمائه الحسنى إلا بما يوافق دلالات هذا الكتـاب العظيـم أيضاً. فلنفـرض أنّ إنسـاناً رأى نفسـه ممسـكاً بإنسـان، ويـنزل بـه ضربـاً مُبرحـاً ويقضي عليه، فليعد إلى قول ا لله عزوجلّ في كتابـه العَزيـز القـائل: **﴿وإذ قتلـت نفساً فنجيّناك من الهمّ﴾**. فبدلالة هذه الآية يُؤوّل مارآه. أي أنّه مهمـوم لسـببٍ من الأسباب، وربّه يبشّره أنه سيُنجيه من همّه المذكور.

وعليه فإنّ في هذه الظاهرة، ظاهرة منهجيّة متعلّقـةٍ بمكالمـة ا لله تعـالى مـع عباده من وراء حجاب، علماً بأنّ ا لله عزوجلّ يخاطب كل إنسـان علـى حسـب مايحمله هذا الإنسان من عقلٍ وعلـمٍ وقـدرات، فالرؤيـا الواحـدة يُراهـا اثنـان أو ثلاثـة، وتكـون لتمثّلاتهـا دلالات تختلـف بـاختلاف الواحـد منهـم عـن الآخـر،

ولايدرك هذه الفروق إلاّ عالمٌ علّمه ا لله تعالى تأويل تمثّلات ماتتجلّى به أسماؤه الحسنى به من تجليّات، وقد تكون إرادة ربّنا عزوجلّ حينئذٍ أن يُفهّم صاحب الرؤيا ماقصده ربّه مما أراه في منامه، فيلقي في روعه تأويل ماأراه إيّاه في منامه أيضاً.

والظاهرة الثانية لهذه المنهجيّة المتعلّقة بموضوع مكالمة ا لله تعالى مع عباده من وراء حجاب، هو تمثّل تجليات أسمائه الحسنى أحياناً بما يوافق دلالات أحاديث رسوله الكريم ﷺ تكريماً منه لرسوله الكريم، فعلى سبيل المثال ورد عن رسول ا لله ﷺ قوله بحقّ المرأة (إنّ النّساء خلقن من ضلع). فقد يحدث بين رجل وإمرأته خلاف يشتدّ إلى درجة كبيرة، ويتوجّه هذا الزّوج بالدعاء ليصلح له زوجته، فيجيبه ربّه لطلبه، وتتمثّل هذه الإجابة التي تتجلّى بها أسماء ا لله الحسنى، تتمثّل لهذا الرجل فيرى نفسه وقد أمسك بضلعٍ من أضلاع زوجته بيديه وراح يقوّمه، فإذا استيقظ هذا الرّجل يدهش ممّا رآه في منامه ــ لكنه إذا عاد إلى هذا الحديث الشريف الذي ذكرناه، وإلى دلالته، يستنبط منه أنّ ربّه يقول له إنّ سعيك شبيه بعمليّة تقويم ضلعٍ معوجٍ فهل يستقيم هذا الضّلع إن أنت حاولت تقويمه أو أنّ هذه العملية ستنتهي بكسر هذا الضّلع المعوّج؟ وكأنّ ا لله عزوجلّ يقول له بألفاظٍ أخرى إمّاإمساكٌ بمعروف أوتسريحٌ بإحسان، وعليه فإنّ هذا النّوع من الرؤى الصّادقة تبدو في ظاهرها مخالفة للقوانين الطبيعية من جهة وتابعة لقوانين أخرى تختصّ بها من جهةٍ أخرى، وتأتي تمثّلاتها نابعةً من دلالات أحاديث رسول ا لله ﷺ المتداولة على ألسنة المؤمنين، ويشكّل هذا النّوع من الرؤى العنصر الثاني لهذا النهج الرّباني المتعلّق بمكالمة ا لله عباده من وراء حجاب.

والأصل الثالث لهذا النّهج، هو أن تأتي تمثّلات تجليّات أسماء ا لله الحسنى بما يُوافق مااشتهر بين النّاس من أقوال الأنبياء السابقين وحِكمهم وأمثالهم، إعزازاً منه جلّ شأنه لهؤلاء الأنبياء الذين كان قد بعثهم لإصلاح عباده الضّالين. فعالم تأويل الأحاديث إذا عُرضت عليه رؤيا لها صلتها بأقوال هؤلاء الأنبياء السابقين وحكمهم وأمثالهم، وكان مُلمّاً بها، يساعده ذلك على تأويل ماطلب صاحب الرؤيا منه تأويله.

والأصل الرابع لهذا النّهج الرباني المتعلق بمكالمة ا لله تعالى عباده من وراء حجاب، هو أن تأتي تمثّلات تجليّات أسماء ا لله الحسنى بما يُوافق ما اشتهر بين

الناس من أشعار الأدباء، وبما تحمله هذه الأشعار من حِكمٍ وأمثال. من مُنطلق أنّه جلّ شأنه هو ربّ العالمين، وأنّه يخاطب عباده على قدر عقولهم وعلمهم وقدراتهم، فعالم تأويل الأحاديث يكون له أيضاً إلمامه بتلك الأشعار وأمثالها وحكمها. ويساعده ذلك على تأويل ماطلب صاحب الرؤيا منه تأويله.

والأصل الخامس لهذه المنهجيّة ينبع من دلالات الأسماء والألفاظ اللغوية، لما يراه النّائم في منامه فالرؤيا التي رآها النائم تفسّر حينئذ وفق دلالة اسم الشخص أو المكان أو الشيء الذي تمثّل له في منامه، ويكون اسم هذا الشخص أو المكان مستودعاً لِما تحمله الرؤيا من دلالات. وعالم تأويل الأحاديث يؤتى القدرة على التّمييز المذكور، فيؤّول التمثلات بدلالات تلك الأسماء والأمكنة هذا إذا كانت الرؤيا صادقة، وعلامة صدقها أن تخالف قوانينها القوانين الطبيعيّة وأتت جواباً على دعاء الدّاعي بين يدي الله عزوجلّ.

والأصل السادس لهذه المنّهجية المتعلّقة بكلام الله تعالى مع عباده من وراء حجاب، ينبع من توافق خواص مايراه النّائم مع خواص الأشياء من فواكه وخضار وحبوب، فالذّي تتمثّل له تجليات أسماء الله الحسنى بما يماثل فاكهةً أو خضاراً أو حبوباً،من حيث الشكل فلينظر عالم تأويل الأحاديث فيما تحمله هذه الأشياء من خواصّ وفوائد ومضار، وليراعي حال الذي رآى شيئاً من هذه الأشياء أيضاً، وليتأكّد من مخالفة القوانين الناظمة لهذه الرؤيا مع القوانين الطبيعية التي تنظم أضغاث الأحلام، فإن أخذ بعين اعتباره هذه الاحتياطات جميعها، ساعده ذلك على تأويل ماطُلب منه تأويله.

هذه هي أبرز عناصر هذا النّهج الرّباني الذي انتهجه ربّنا عزوجلّ عند مخاطبته عبداً من عباده من وراء حجاب. وهناك عناصر أخرى غضضت الطّرف عن ذكرها خشية الإطناب. كذلك أعرضت عن ضرب الأمثلة لهذا السبب نفسه. خصوصاً وأنّ مكتبات أمّتنا تضمّ بين الألوف المؤلفة ممّا احتوته من كتب، أقول تضمّ مؤلّفات كتبها أشهر الأئمة المطّهرون، ممّا فتحه الله عزوجلّ عليهم من علوم تأويل ماتتمثّل به تجلّيات أسمائه الحسنى وفق المنهج الذي أتينا على أبرز أصوله. فمن هذه المؤلفات كتاب تعطير الأنام في تعبير المنام لمؤلّفه الإمام الرّباني عبد الغني النابلسي رحمه الله تعالى، وكتاب مُنتخب الكلام في تفسير الأحلام لمؤلّفه الإمام الرّباني محمد بن سيرين رحمه الله تعالى، فمؤلّفات هذين الإمامين

تمثّل خزائنَ معرفةٍ لم تأت عن اجتهادٍ شخصي بل عن فتوحاتٍ علميّة فتحها ا لله تعالى عليهما. ولاأقول أنّ مؤلفات هؤلاء الأبرار تُعدُّ مرجعاً نهائياً، بل هي مراجع أوليّة، على اعتبار أنّ لكلّ زمانٍ مُعطياته، وأنّ ا لله عزوجل هو في كلّ يوم في شأن.

وأنصح بهذه المناسبة صاحب الرؤيا ألاّ يتعجّل في تأويل مارآه، وألاّ يتعجّل أيضاً في أمر الاكتفاء برجوعه إلى المؤلفات التي ذكرناها، بل ليدعو ربّه أن يُلهمه تأويل ماأراه إيّاه في منامه، وليقصّ رؤياه على صاحب خبرةٍ في تأويل هذه الأحاديث. أو ليكتب مارآه في منامه ولينتظر ماذا تأتي به الأيّام تصديقاً وتفسيراً للذي رآه.

ألا إنّ مكالمة ا لله للبشر من وراء حجاب يشكّل عالَماً مستقلاً له منهجيّته ومقوّماته، وهو عالَمٌ له من السّعة مايجعله يستعصي فهمه أحياناً على كبار الأئمّة المختصّين بتأويل هذا الكلام الرّباني التي تتجلّى به أسماء ا لله الحسنى وتتمثّل تجلياته في حالات نوم النائمين، والسّبيل حينئذٍ أن ينتظر صاحب الرؤيا إلى أن يرى تأويل مارآه على بساط الواقع بمشيئة ا لله عزوجلّ.

ولاينبغي للقارئ أن يظنّ أنني انفردت بالادعاء بوجود هذه المنهجيّة وأصولها التي ذكرتها آنفاً، فما جئت أنا بأمر جديدٍ في هذا الحقل، بل إنّ جميع الأئمّة الربّانيين الذين ألّفوا كتباً في تأويل الأحلام، أحاطوا علماً بوجود هذا النهج الرّباني، وذهبوا في ذلك مذهبي، والذي يطالع مؤلّفاتهم يتحقق لامحالة من صدق مازعمت، أمّا الأمر الجديد من جانبي فهو طرح ذلك بأسلوبٍ علمي وموضوعي، وهذا فضلٌ من ربيّ اختصّني به لأمر هو يعلمه، وإلاّ فلست ممّن يزعم أنّي أفوق أولئك الأبرار علماً ومعرفة بتأويل الأحاديث.

٨ـ من الخطأ الفاحش الزّعم بانقطاع نزول الوحي الالهيّ:

على هذه الشاكلة، لابدّ أن يكون القارئ قد أحاط علماً ممّا ذكرناه، وممّا تضمّنته مؤلّفات هؤلاء الأئمة الربّانيين الذين أتيت على ذكر أسمائهم، أنه لايجوز للمؤمن المسلم بما أتى به محمد الأمين ﷺ أن يذهب مذهب من قال بانقطاع نزول الوحي الإلهي بعد نزول القرآن المجيد. ذلك أنّ ا لله عزوجلّ صرّح في كتابه

العزيز وقال : ﴿وماكان لبشر أن يكلّمه ا لله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه مايشاء إنّه عليٌّ حكيم﴾.سورة الشورى(٥١)

فليلاحظ القارئ كيف أنّ ا لله عزوجل قد أنهى هذه الآية الكريمة بجملة ﴿إنّه عليّ حكيم﴾. فالذي وضّحته مراراً وتكراراً هو أنّ هذه النهايات التي يختم ا لله تعالى بها آيات كتابه العزيز والتي يمتاز بها هذا الكتاب عن غيره من الكتب إنما هي أسلوبٌ بلاغيٌّ لتوجيه أنظار القُرّاء إلى الأصول التي صيغت على أساس منها مضامين وعلوم القرآن الكريم. وهو جلّ شأنه نبّه ذهن القارئ في قوله (إنّه عليّ حكيم) إلى الأصل الذي يميّز كلام ا لله تعالى مع البشر المخلوق، وهو أنه جل شأنه يكلّم البشر من مُنطلق وعلى أساس أنه تعالى ﴿عليٌّ حكيم﴾. فما هي دلالة ﴿إنّه عليٌّ حكيم﴾؟

حرف إنّ جيء به هنا للتأكيد، وعليٌّ معناه الرّفيع والشريف وشديد القوى، والأعلى صيغة تفضيلٍ من كلمة عليّ، أما حكيمٌ فمعناه صاحب الحكمة المُتقن للأمور، الجامع بين القول والعمل وصاحب الحجّة القطعيّة (محيط المحيط). والمعنى أن كيف لايكلّم ا لله تعالى البشر وله مثل هذه الرّفعة والقوى واتقان الأمور وجمعه بين العلم والعمل، وامتلاكه للحجّة القاطعة. فالذات التي تتصّف بهذه الصّفات، يستحيل عليها أن تخلق البشر الأقرب إلى التوحّش، فتدعهم يهيمون على وجوههم، وتتقطّع بهم السّبل. إنّ اتصاف ذات ا لله تعالى بكونه عليٌّ حكيم يستلزم منه جلّ شأنه أن يكلّم هؤلاء البشر ويهديهم الصراط المستقيم وبالطّرق الثلاث المذكورة التي تتلاءم مع عقل كلّ فردٍ منهم وعلمه وقدراته، واستناداً إلى هذا الأصل والأساس يستحيل على ا لله العليّ الحكيم أن ينقطع عن التكلم مع البشر وبهذه الطرق الثلاث: وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه مايشاء.

والملاحظ أنّ ا لله عزوجلّ راح فدعّم هذا الأصل وهذا المعنى الذي ذهبنا إليه وأضاف يقول: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا، ماكنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان، ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نّشاء من عبادنا، وإنّك لتهدي إلى صراطٍ مستقيم. صراط ا لله الذي له مافي السموات ومافي الأرض، ألا إلى ا لله تصير الأمور﴾. والملاحظ أيضاً أنّه جلّ شأنه راح فأنهى هذه الآية الأخيرة بقوله: ﴿ألا إلى ا لله تصير الأمور﴾. فحرف (ألا) للتنبيه.

أي انتبه أيّها القارئ، ولاتتسرّع في حكمك ورأيك، ولاتقل بإنقطاع الوحي وتوقّف الله عن التكلّم مع عباده بالطرق الثلاث المذكورة أعلاه، فإن وقعت في هذا الخطأ وذهبت هذا المذهب، تعود كالذي يُنكر صيرورة جميع الأمور إلى الله عزوجل. فبداية كلّ شيء ونهايته ففي قبضة هذا الخالق العليّ الحكيم، وليس في قبضة أحدٍ سواه، فالله العليّ الحكيم هو ربّ العالمين وإليه يعود الحمد كلّه بالأصالة وهو الحيّ القيّوم.

هذا وإنّ مؤلّفات هؤلاء الأئمة الربّانيين الذين ذكرناهم هي شواهد ايجابيّة تؤكد صحّة الاعتقاد بعدم انقطاع الله جلّ شأنه عن التكلّم مع عباده من بعد إنزاله هذا الكتاب الموعود بحفظه إلى يوم الدّين، فأصحاب هذه المؤلّفات ألقوا الضوء على النّهج الرّباني وأسلوبه المتعلّق بمكالمته البشر من وراء حجاب، مُعرضين عن الكلام حول الطريقين الآخرين وهو طريق مكالمة الله البشر وحياً وطريق مكالمته عن طريق إرسال رسول أي ملكٍ من ملائكته عزوجلّ.

ذلك لأنّ الكلام عن طريقي الكلام الالهي المذكورين مُحتاجٌ في حدّ ذاته إلى كتاب يُغاير المضامين، التي بحثتهامؤلّفات هؤلاء الأئمة والمتعلّقة بمكالمة الله البشر من وراء حجاب.

وألخّص الآن للقارئ جميع ماذكرته بما يتعلّق بموضوع تكلّم الله تعالى مع البشر من وراء حجاب، فأقول: إذا شاء الله تعالى أن يكلّم أيّ فرد من البشر، تتجلّى حينئذٍ أسماؤه الحسنى المختصّة بموضوع الكلام المذكور، فتتمثّل تلك الكلمات المُتجلّى بها، بتمثّلات وفق منهجيّة متعدّدة العناصر. وتشكّل هذه التمثّلات بشارات الرؤى الصّادقة التي يراها المُتقون، أو إنذارات الرؤى المُنذرة التي يراها المذنبون العُصاة.

فالرؤى الصّادقة تختلف في ماهيّتها وفي القوانين النّاظمة لها عن ماهيّه وقوانين رؤى أضغاث الأحلام ـ ولايعني قولي هذا، أنّ جميع رؤى أضغاث الأحلام لاتحمل في طيّاتها أنباءً مستقبليّة، بل تخالطها في بعض الأحيان نبوءةٌ لأسبابٍ منها أن بإمكان عقل الإنسان وإرادته التنبؤ بأمرٍ مُقبلٍ على شاكلة مايقوم به الرّاصدون الجوّيون. ومؤهّلات العقل هذه هي التيّ أطلق علماء النّفس عليها اصطلاح الحاسّة السّادسة، لكن تبقى هذه المؤهلات عاجزة أن تأتي بما تأتي به الرؤى الصّادقة من نبوءاتٍ وبشاراتٍ وإنذارات.

٩ـ الفروق الجوهريّة مابين الرّؤى الصادقة ومابين أضغاث الأحلام:

إن قولي هذا يستدعي مني تبيان الفروق الجوهرية مابين هذين القسمين من الرؤى، وتبيان هذه الفروق بأسلوبٍ علمّي أيضاً أستند فيه إلى الملاحظة والتجربة والاستنتاج.

والحقيقة هو أننا ومن خلال إحصائياتنا استخلصنا وجود ثلاثة فروق جوهريّة تمتاز بها الرؤى الصّادقة عن رؤى أضغاث أحلام. فبغضّ النّظر عمّن قامَ بهذه الاحصائيات والنتائج المستخلصة منها دفعاً للإطالة، فقد تبيّن أن الفرق الأوّل بين هذين القسمين من الرؤى، هو أنّ ماتأتي به أضغاث الأحلام، تكون له جذورٌ مادّية من واقع الإنسان الذي يراها. على حين أنّ ماتأتي به الرّؤى الصادقة لايكون لها مثل هذه الجذور المادّية. بل تأتي بما يعجز العقل والدّوافع المادّية عن صياغته والتدخّل فيه. وأما الفرق الثاني بينهما فهو أن رؤى أضغاث الأحلام يغلب عليها أنّها لاتحمل أكثر من عنصرِ مستقبليّ. كأن تحمل خبر قدوم إنسانٍ بعينه على سبيل المثال. على حين أنّ الرؤى الصّادقة كثيراً ماتحمل أكثر من نبوءةٍ مستقبليّة فهي تموت متعدّدة العناصر وبشكلٍ مُلفتٍ للأنظار. كأن تخبر عن قدوم شخصٍ يلبس كذا ويحمل كذا وبرفقته فلانٌ وفلان.

والفرق الثالث الكائن مابين هذين القسمين من الرؤى، هو أنّ الصّادقة قد يرى مضمونها أكثر من شخصٍ واحد. على حين لايحدث هذا في رؤى أضغاث الأحلام.

فهذه هي خلاصة مايتعلق بموضوع مكالمة الله تعالى مع عباده، بأسلوب تمثّلات تجلّيات أسمائه الحسنى فيما يراه النائم من وراء حجاب. وأرى من الضروري الكلام عن أمرٍ سبق لي أن بحثته في مبحث درب العرفان الإلهي. وهو أنّ من سار على درب عرفان ربّه بإخلاص واندفاعٍ ذاتي، ووفقاً لتعاليم هذا القرآن العظيم، يجعل الله عزوجلّ له حواساً روحيّة في مُقابل كلّ حاسّة من حواسّه الخمس، ويعود هذا السّالك مؤهّلاً لتلقّي تمثّلات تجلّيات أسماء ربّه الحسنى في حالة يقظته أيضاً وهو مااصطلح له الربّانيون اسم «الكشف الروحاني». وهذا موضوع يجهله من لم يسر على التعاليم القرآنية الموصلة بصاحبها إلى مرحلة عرفان ربّه عزوجلّ.

ويأتي الكشف الرّوحي مشابهاً لما يراه النّائم في منامه، ووفقاً للنهج الربّاني وأصوله التي تنظم ذلك. فيرى هذا الإنسان المكاشف من المناظر الكشفيّة والتّمثلات مالا يقدر أن يراه أحد من الجالسين حوله. وتحمل تلك المناظر والتمثّلات لهذا المكاشف بشاراتٍ أو تحذيرات، تشكّل في مضمونها كلام ربّه المُوجّه إليه من وراء حجاب.

ولايظنّن ظانٌّ أنّ ماذكرته هو مجرد إدّعاء. بل إنّني قد استقيت هذه الحقيقة من طريقين: من تجربتي الشخصيّة، ومن دلالات ماتضمنته آيات القرآن الكريم. ذلك أن هذا القرآن قد قصّ علينا عدّة مكاشفات روحيّه رآها بعض أنبياء الله ورسله الكرام، وحملت تلك المكاشفات بشاراتٍ وتحذيراتٍ أيضاً، على شاكلة ماتحمله الرؤى الصّادقة من بشاراتٍ وتحذيرات.

أفلم يستهلّ ربنا عزوجلّ سورة الإسراء بقوله تعالى: ﴿**سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنُريه من آياتنا، إنّه هو السّميع الصبير**﴾؟ ففعل أسرى معناه: سار به ليلاً وليس نهاراً، وقد أتى جل شأنه بكلمة ليلاً بعده بدلالته الرّوحية تنبيهاً من الله عزوجلّ لأذهاننا إلى أنّ هذا الإسراء شبيه بما يحدث للنائم في منامه، أي أنّ الإسراء هو عبارة عن كشفٍ روحيّ، وليس هو بأمرٍ حادثٍ مادّياً بهذا الجسم العنصري، وشبيه بهذا الكشف، إسراء موسى في حالة الكشف، وهو ماتطرّقت إلى ذكره سورة الكهف المتداول تفسيرها الآن، وبإمكان كلّ قارئ مراجعة ماورد فيها بهذا الخصوص.

وقد يسألني المؤمن الذي لم يبلغ بعد مرتبة المكاشفة الرّوحية أن كيف يحدث هذا الكشف الرّوحي الذي تتحدّثون عنه؟ وأجيب هذا السائل من خلال تجربتي الشخصيّة وأقول: أفلم تُلاحظ أنّ المُستسلم للنوم تتعطّل حواسّه الخمس عن عملها إلى حدٍ بعيد، ولاتُرى تمثّلات تجليّات أسماء الله الحُسنى إلا بعد حدوث ذلك كلّه؟ فالمؤمن الذي أوتي حواساً روحيّةً في مقابل حواسّه الجسمانية يشعر في حالة يقظته أحياناً أنّ قوّةً خفيّةً هيمنت على جسده وعطّلت قِواه، وهو في كامل وعيه وإدراكه، وتتراءى له تمثّلات شبيهةٌ بتمثّلات منامه يراها بحواسّه الرّوحية بما لايتجاوز ثواني معدودات. وتحمل له هذه التمثّلات تجليّات أسماء ربّه الحسنى بما يشاء ربّه أن يطلعه عليه من أمورٍ مستقبليّة وبشارات، ثم تزول عنه هذه الحالة الطارئة وهو في أحسن حالٍ حيويةٍ ونشاطاً.

هذا وإنّ هذه المكاشفات تترك أثرها البالغ في نفس المؤمن المكاشف، فتدفعه إلى الزّهد في طلب الدّنيا، وإلى التّفاني في طلب محبّة ربّه وقربه، وإلى التفاني في خدمة دينه ليلاً ونهاراً، وبصورةٍ لايعود يكلّ ولايسأم من هذه المواظبة والدّأب على خدمه الإسلام من طاعةٍ لله وخضوعٍ وتذلّلٍ بين يديه، والتزامٍ لشرائع دينه، وتوحيد ربّه توحيداً لايشوبه شائبة شرك، أي أنّ تعدّد المكاشفات الرّوحية يُرسّخ في فؤاد هذا المكاشف وفي سلوكه العبودية الحقيقيّة لله عزوجلّ. فيا سعد من يحظى بهذه المرتبة، فهذا هو المؤمن الذي يتأهّل لتمثيل تعاليم القرآن المجيد بصورةٍ عمليّة، وهذا هو الذي يحظى بأبّوة محمّدٍ خاتم النبيين الروحيّة، وهذا هو المؤمن الذي يعود يشرب من المعين السّرمدي.

والخلاصة هو أنّ الرؤى الصّادقة المبشرّة، والكشوف الرّوحية تدخل في باب تكلّم ا لله تعالى مع عباده وفق منطوق الآية (٥١)من سورة الشورى. وهذه الرؤى المبشّرة والكشوف الرّوحية تُصنّف تحت صنف كلام ا لله مع عباده من وراء حجاب. وتُعتبر في الوقت نفسه دليلاً حسيّاً يثبت منه عدم انقطاع نزول وحي ا لله وكلامه، من بعد زمن انزال ا لله تعالى آيات هذا القرآن العظيم .

وكيف بإمكان المؤمن العاقل أن يتصور ولو للحظةٍ واحدةٍ انقطاع الوحي بعد انتهاء إنزال القرآن الكريم، وهو يتلو الآية (٦٠) من سورة غافر التي يأمره ربّه فيها قائلاً ﴿**ادعوني استجب لكم**﴾؟ فكلمة ادعوني جاءت من دعا ا لله إذا رغب إليه وابتهل إليه بالسّؤال، ورغب فيما عنده من الخير، أمّا كلمة (استجب) فقد جاءت من استجاب وليس من أجاب، والاستجابة أخصّ من الإجابة على حسب رأى النّحاة. فمعنى استجاب ا لله لفلان: قبل دعاءه من جهة، وردّ له الجواب من جهة ثانية، وقضى حاجته من جهة ثالثة. (محيط المحيط)

والمهمّ في الأمر هو أن المؤمن العاقل لايتصوّر ولو للحظةٍ واحدةٍ الزّعم بانقطاع نزول وحي ا لله وكلامه بعد نزول القرآن الكريم بعد أن يتلو قول ربّه تعالى ﴿**ادعوني استجب لكم**﴾. فهذه الألفاظ تؤكّد سماع ا لله تعالى كلّ دعاء وابتهالٍ يبتهل به بين يدي ربّه عزوجلّ، كما يؤكّد وعد ربّه بقبول هذا الابتهال، وإجابة سؤال السائل وقضاء حاجته، أي أنّ هذه الألفاظ تعني أنّه ونتيجة هذا الدّعاء يحدث تناغم بين العبد الدّاعي وبين ربّه عزّ وجلّ، وهذا الأمر يدحض زعم من يقول بانقطاع نزول الوحي بعد نزول القرآن المجيد، فهذا

التناغم يتضمّن سؤالاً من طرف المؤمن، واستجابةً من طرف ا لله عزوجلّ، ينتهي بإجابة سؤال الدّاعي وقضاء حاجته.

وهل بإمكان المؤمن العاقل أن يتصوّر حدوث توقّف ا لله تعالى عن التكلّم مع البشر بعد نزول القرآن الكريم، في وقتٍ يجد نفسه فيه يتلو ضمن آيات القرآن الكريم نماذج عمّا حدث في الماضي من تضرّعات من جانب عباد ا لله الصالحين، واستجابة ا لله تعالى لتلك التضرّعات، وقضاء ماطلبوه من حاجات؟

وعليه فإنّ هذه الألفاظ من الآية المذكورة من سورة غافر تؤكّد لقارئ القرآن الكريم عدم انقطاع مكالمة ا لله البشر بالطرق الثلاث المنصوص عليها في سورة الشّورى. خصوصاً وأنّ ألفاظ (**ادعوني استجب لكم**) قد وردت بصيغة فعل الأمر «ادعوني». هذا الأمر الذي يضع موضوع الدّعاء في مرتبة فرض العبادة، كبقيّة فروض العبادات المنصوص عليها في الدّين الإسلامي. وبدليل من الآية نفسها، ذلك أنّ كامل نصّ ألفاظ الآية المذكورة هو: ﴿**وقال ربّكم ادعوني استجيب لكم، إنّ الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنّم داخرين**﴾. فالأمر بالابتهال إلى ا لله تعالى ورد كواجب عبادةٍ بدليل مابعده وهو قوله تعالى: ﴿**إنّ الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنّم داخرين**﴾. أي صاغرين. فجملة ﴿**يستكبرون عن عبادتي**﴾ فسّرت الأمر بالدّعاء، أي أنّ الدعاء واجب على العبد وجوب عبادة، فالذي يستكبر عن القيام بالدّعاء والابتهال بين يدي ربّه عز وجلّ ، وليقضي له حاجته، يُعتبر مستكبراً ومستعلياً في نظر ا لله عزوجل، فيعد من جملة الذين يفكّرون تفكيراً مادّياً بعيداً عن نهج التّفكير الرّوحاني. وبهذا الاستكبار يحرم هذا الإنسان نفسه من ثمار إيمانه با لله تعالى ، وبالتّالي يدخل جهنّم صاغراً مُهاناً، لاعتقاده بصورةٍ عمليّةٍ انقطاع نزول الوحي، وانقطاع ا لله عن التكلّم مع عباده، مُتجاهلاً أنّ مصير كلّ شيءٍ صائر إلى ا لله عزوجلّ.

ومادامت ضرورة الدّعاء المأمورين بها في هذه الآية الكريمة وردت من باب العبادة، فلا يعني هذا بالضرورة استجابة ا لله جل شأنه كلّ دُعاء يدعو به العبد المؤمن. ذلك لأنّ هذا الأمر غير منصوص عليه في هذه الآية الكريمة، فلم يقل تعالى: «ادعوني أجيب جميع دعواتكم» بل قال ﴿**ادعوني استجب لكم**﴾ وهذا كلامٌ عامٌ غير مُخصّص. فواجب الاستعانة با لله تعالى في أمورنا اليوميّة،

هو عمليّة فرض عبادة. أمّا إجابة كلّ مطلبٍ نطلبه فهذا أمر يعود إلى مشيئة ا لله عزوجلّ.

ولاينبغي للقارئ أن يستغرب ماأقوله، فها أنّ القرآن الكريم يفسّر بعضه بعضاً، وإليه الآية (١٥٦) من سورة البقرة التي يقول ا لله عزوجلّ فيها: ﴿**ولنبلونّكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشّر الصابرين. الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنّا لله وإنّا إليه راجعون. أولئك عليهم صلواتٌ من ربّهم ورحمة وأولئك هم المهتدون**﴾. فها أنّ ا لله تعالى قد وصف ضمن هذه الآيات الكريمة المؤمنين المُتحَنين بشيء من الخوف والجوع ونقصٍ من الأموال والأنفس والثّمرات، وصفهم أنّهم يتقبّلون هذه الابتلاءات بالرضى والتّسليم بقضاء ربّهم، ولم ينههم عن فعل ذلك، ولاحثّهم على الدّعاء بين يديه ليرفع عنهم هذه الابتلاءات، هذا يحدث لاعتقاد هؤلاء أنّ ربّهم هو الذي وعد أن يدافع عنهم وأن يرزقهم ويهبهم الأولاد والذريّة ويبارك مزروعاتهم. فإن ابتلاهم ربّهم بشيء ممّا نصّت عليه هذه الآية الكريمة يتقبّلون حدوث ذلك من باب امتحان ا لله إيمانهم وليس من باب إيذائهم، لذلك يقولون إنّا لله وإنّا إليه راجعون، فلا يَدْعُونَ ربّهم ليرفع الغمّة عنهم ولايلجّون في ذلك، بل يتأدّبون أمام ربّهم بأدب العارف با لله عزوجلّ.

فمن هذا لابدّ أن يتعّظ المؤمن بمضمون هذه الآية الكريمة مدركاً أن دلالة «ادعوني استجب لكم» لاتتجاوز كونها أمراً واجب التقيّد به ومن باب (مايعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم ..).

وإلى القارئ مثالاً آخر يدعّم وجهة نظري التي ذكرتها آنفاً، وفي هذا المثال ينهى ا لله تعالى فيه عبده عن الدّعاء، فقد أوردت الآيات (٤٦) من سورة هود قول ربّنا عزوجلّ: ﴿**ونادى نوحٌ ربّه فقال ربّ إنّ ابني من أهلي، وإنّ وعدك الحقّ وأنت أحكم الحاكمين. قال: يانوح إنّه ليس من أهلك، إنّه عملٌ غير صالح، فلا تسألنِ ماليس لك به علم، إنّي أعظك أن تكون من الجاهلين**﴾. فها أنّ نوحاً عمل على فريضة العبادة ودعا ربّه لينقذ له ابنه، وقد زجره ربّه ونهاه عن مثل هذا الدّعاء، لنستنبط من ذلك أنّ هناك من الأمور مالا يجوز فيها الدّعاء، فالأمور التي تتجاوز حدود علمنا وفهمنا، لايحقّ لنا المطالبة بها بالدّعاء بين يديّ ربّنا عزوجلّ. بل إنّ من واجبنا حينئذٍ أن نتوجّه بدعاءٍ مأثورٍ

عن محمد رسول الله ﷺ فندعو: (اللّهم إن كنت تعلـم أنّ هـذا الأمـر خـيرٌ لي في ديني ومعاشي وعاقبته أمري، فأقدره لي ويسّـره لي ثـم بـارك لي فيـه، وإن كنـت تعلم أنّ ها الأمر شرٌّ لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، فاصرفـه عنّـي واقـدر لي الخير حيث كان ثمّ أرضني به). فما أَبْلَغَهُ وأكمله من دعاء .

وأنصح المؤمن في هذه الأمور أن يستفتي قلبه قبل أن يقدم علـى أيّ دُعـاء من أيّ نوعٍ كان، فهذه نصيحة إمام الزّمان، ومعتقداً أنّ الله عزّوجلّ يصحّح لـهُ ماأخطأ به على شاكلة ماصحّح لنوحٍ عليه السّلام اجتهاده.

إنّ وجود المثالين الآنفي الذّكر ينبّه عقولنا إلى أن الدّعـاء كفـرض عبـادة، لاينبغي لنا الأخذ به عند كل أمر من أمور حياتنا ـ فـالذي مـنّ الله تعـالى عليـه بواسطة نقلٍ خاصة،على سبيل المثال لايدعو طالباً واسطة نقلٍ ، بل يمتطـي ناقلتـه وهو يذكر ربّه ويقول: ﴿**الحمد لله الذي سخّر لنا هـذا وماكنّا لـه مُقرنـين**﴾. وعليه فإنّ من واجب المؤمن أن يتبصّر في الأمر قبل اتّخاذ القـرار بالدعـاء، ذلـك لأن الله تعالى لم يَعِدْ عبده بالاستجابة لجميع أدعيته من جهة، بل ونهاه من جهةٍ أخرى عن الدّعاء للأمور التي لايصل إليها فهمه وإدراكه.

هذا والذي يتدبّر الآية (٤٠) مـن سـورة الأنعـام يتضّـح لـه جليّـاً أنّ الله عزوجلّ ربط موضوع استجابته تعالى لدعاء عبده، بمشيئة ذاته جـل شـأنه وليـس بمشيئة عبده، ذلك أنّ الله تعالى يقـول في هـذه الآيـة مـن سـورة الأنعـام: ﴿**قـل أرأيتكم إن أتـاكم عـذاب الله أو أتتكـم السّـاعة، أغـير الله تدعـون إن كنتـم صـادقين؟ بـل إيّـاه تدعـون، فيكشـف مـاتدعون إليـه إن شـاء، وتنسـون ماتشركون**﴾. وهو جلّ شأنه ربط استجابة الدّاعي هنـا بمشيئته عزوجـلّ وليـس بشيءٍ آخر. فهو تعالى لم يَعِد عبده بالاستجابة لطلبه في هـذه الحالـة بـالضّرورة. بل وعد بالاستجابة وفق مشيئة ربّه عزوجلّ تنبيهاً للأذهان إلى أنّ القرار في كـل شيء في هذا الكون يعود إلى مشيئة الله تعالى وإرادته ووفق تقديره، فـالله تعـالى قادر على تسيير الأمور بحيث تصير جميع الأمور وعواقبها وفـق مـاقدّره وقضـاه، هذا وإن بدت هذه الأمور في ظاهرها لها استقلاليّتها ولها أن تقرّر مصائرها.

والذي يهمُّنا هنا من جميع ماذكرناه هو أنّ الدّعـاء كعبـادة يشـكّل دليـلاً حسيّاً حيّاً يؤكّد عدم انقطاع الله تعالى عن مكالمـة عبـاده مـن بعـد زمـن إنزالـه

تعالى لهذا الكتاب العزيز ، وهذه المكالمة تتمّ أيضاً بالطّرق الثلاث المنصوص عليها في الآية (٥١) من سورة شورى.

وهذه الأدلّة التي قدّمتها لأثبت من خلالها عدم انقطاع نزول الوحي بعد نزول القرآن المجيد هي أدلّةٌ نظريّةٌ لاتكتمل مُعطياتها إلاّ إذا ثبت ذلك على صعيد الواقع العمليّ. فإن عاد القارئ إلى تاريخ هذه الأمة الإسلامية تصادفه عشرات بل مئات الكتب المخطوطة الموروثة تحدّثه عن صلّة أصحابها با لله عزوجلّ ومكالمته تعالى إيّاهم بهذه الطرق الثلاث، ممّا لاحاجة بي هنا لتعداد أسماء هذه المؤلّفات وأسماء أصحابها، بل يكفيني الاستدلال بوجود هؤلاء الأبرار الصالحين للتّدليل بصورةٍ عمليّةٍ وتطبيقيّةٍ على مصداقيّة الطرح النظريّ.

وليُحاكم القارئ عقله انطلاقاً من أنّ الأمر السّلبي لاقيمة له في مواجهة الأمر الإيجابي، فوجود فئة «الزّاعمين تكلّم ا لله تعالى معهم هو أمرٌ ايجابيّ»، على حين أنّ القول بانقطاع ا لله تعالى عن التكلّم مع عباده بعد نزول القرآن الكريم هو أمرٌ سلبيّ، ولايتساوى هذا الأمر وذاك في ميزان عقل العاقل، بل إنّ الظاهرة الايجابيّة مُقدّمة على الظاهرة السّلبيّة منطقيّاً، وهي تُعيد الكرة إلى الطرف السّالب مطالبةً بالدّليل، وليس العكس من ذلك، فإن كنت أرى فلا يحقّ لأعمى البصيرة تكذيب ماأرى، وقد طرح القرآن الكريم هذه الحقيقة بقوله تعالى: ﴿**هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظّلمات والنّور**﴾.

الا إنّني ألمحت فيما مضى إلى وجود قانونين مسنونين لتسيير دفّة هذا الكون، الأوّل قانونٌ طبيعيّ والثاني قانونٌ روحّي أو شرعيّ. فقوانين القضاء والقدر التي وضّحتها في مؤلّف «القضاء والقدر حقيقة كونية ثابتة» هي التي يكون لها القرار في مصائر الأمور.

١٠ ـ الدّعاء وحقيقته :

ولقد أودع ا لله جلّ شأنه خواصاً روحيّةً في الأمور الرّوحيّة العباديّة، كذلك أودع جلّ شأنه خواصاً مادّية في الأشياء المادّيّة المتداولة كالماء والنار وغير المتداولة. وماالتعبّد بالدّعاء إلاّ من هذا القبيل. فالدّعاء أودع ا لله تعالى فيه خواصاً ذات تأثير تفوق خواص جميع العبادات الأخرى. فللدّعاء خواصه المؤثّرة، على شاكلة ما للأدوية وغيرها من خواص. وهل يستسيغ عقلنا أن يأمرنا ا لله

تعالى باللّجوء إلى التعبّد بالدّعاء في وقتٍ لايكون فيه لهذا الدعاء من خواصّ مؤثرة على شاكلة مايكون للأدوية من خواص مؤثّره؟ فللدّعاء خواصّه وللدّواء خواصه، لكن لخواص الأشياء حدوداً تقف عندها، وأزمنة تنقضي وتبطل فعاليتها بعد مرورها، لذلك تلزم الحكومات في مختلف الدّول مصانع الأدوية بتسجيل تاريخ الصنع وتاريخ إنتهاء مفعول الدواء فيكتبون هذا الدّواء ينفع من تاريخ كذا إلى تاريخ كذا، وهذا الأمر نفسه يحدث بالنسبة إلى الأدعية ومواقيت التعبّد بها أو عدمه.

فلماذا يقرّر أصحاب المصانع تحديد مدّة فعالية الدّواء؟ يحدّدونها من منطلق قانون تقدير ذلك، كذلك فإنّ الأدعية تتبع قوانين التقدير أي قوانين القضاء والقدر. هذه القوانين التي تعمل بمشيئة الله عزوجل مالك الملك وصاحب القرار الأخير والأعلى. فالمؤمن الذي لايدرك هذه الحقيقة، يعسر عليه فهم حقيقة الدّعاء، فما هي حقيقة الدّعاء؟ نتساءل عن حقيقة الدّعاء لتمكّننا معرفتنا لحقيقته من فهم موضوع استجابة الدّعاء.

الدّعاء في حقيقته هو عبارة عن مناجاةٍ تقوم مابين المؤمن الدّاعي ومابين خالقه، فالعبد المؤمن، ينطلق بدافع من إيمانه ويقينه بوجود الله خالقه الرّحمن الذي لاتقف دون عطاءاته ورحمته حدود، فهذا الاعتقاد وهذا اليقين برحمانيّة الله يجذب هذا العبد المؤمن ليسأل هذا الرحمن عطاءه وقضاء حاجته، ويشعر العبد وهو يدعو بحالة القرب من خالقه الرّحمن. فإن اندفع هذا الدّاعي يدعو بحرارةٍ وحرقةٍ وتضرّع، يبلغ مرتبة قربٍ روحيةٍ من خالقه تتولّد عنها خواصّ عجيبة، أي أنّ حالة الدّاعي المنطلقة من كامل اليقين بعطاء الرّحمن وكامل الأمل بعطائه، وكامل الوفاء والهمّة، إن مثل هذه الحالة ترفع عن عينيّ هذا الدّاعي ستائر الغفلة، وتكسبه صحوةً كاملةً يتفانى معها بين يدي ربّه عزوجلّ، ويعود بالتالي يشعر أنه على أعتاب هذا الإله الأحد الذي لاشريك له، فتسجد نفس هذا الداعي حينئذٍ على أعتاب قدس الأقداس، وهذه الحالة تجذب تلطّف الله وعنايته نحو هذا المؤمن الساجد الذي يدعو لقضاء حاجة، فتتوجّه ذات الله الأعلى لقضاء حاجته، وبالتّالي يتولّد عن هذا التوجّه الرّحماني تخلّق أسبابٍ ضرورية تستلزمها قضاء الحاجة المذكورة، وكثيراً ماتتجلّى أسماء الله الحسنى وتتمثّل لهذا الداعي مُنبئةً إيّاه ومُبشّرةً بقرار ربّه جلّ شأنه من وراء حجاب في المنام أو كشفاً إن قطع

أشواط معرفة ربّه الضرورية، أو تأتيه هذه البشارة وحياً أي بطريق الإشارة السّريعة التي لايعلم سرّها إلاّ المجرّبون.

فلنفرض أنّ مؤمناً دعا بدعاء الاستسقاء طلباً للغيث. فإن حصلت له هذه الحالة التي ذكرتها، تتولّد من جانب عالم الغيب والشهادة الله الرحمن المقتدر أسبابٌ طبيعيّةٌ لتتسببّ بنزول هذا الغيث المطلوب، ويشاهد الناس عملياً مالدعاء الاستسقاء من خواصّ تتجلّى على الصّعيد العمليّ، وهذا هو السّبب في أنّ أرباب الكشف الرّوحي قد ثبت لديهم من خلال تجاربهم الشخصية، وجود هذه العناصر المتوفرة في أدعيتهم، وجود خواص خلق وتكوين في هذا العالم السّفليّ بإذن الله الواحد الأحد جلّ جلاله، والذي يراجع مؤلفات هؤلاء المكاشفين يجدها طافحة بعشرات الأمثلة التي تتكلّم عن استجابة الدّعوات.

وأنصح القارئ ألاّ يذهب بعيداً في هذا الموضوع، بل إنّ من واجبه أن يتذكّر ماجرى من انقلاب مُعجز في شبه جزيرة العرب على أيدي محمّد النّبي الأميّ ﷺ، فإنّ للّيالي الطّويلة التي كان يتعبّد فيها هذا الرسول الكريم ساعاتٍ طوال يدعو فيها لأمّته، قد أحدثت خواصُّ تلك الأدعية تلك المعجزة التي وحّدت أبناءَ شِبْهِ جزيرة العرب بما يضاهي معجزة القرآن العظيم.

هذا وإنّ تجربتي الشخصيّة وضّحت لي ماذكرته آنفاً من حقائق مايحتوي عليه الدعاء من خواصّ عجيبة تفوق خواصّ أي شيء من الأشياء المادّية من حولنا، ولايعني هذا أنّ جميع الأدعية تحقّق أهدافها، بل منها مالا يُثمر الثمر المرجو منها، على شاكلة الأدوية منها النّافع المؤثر، ومنها مالا يحقّق أهدافه، وهل سدّت الأدوية باب الموت في زمنٍ من الأزمان؟

فالمهمّ أن يُدرك القارئ أنّ التقدير الإلهي يحيط بكلّ أمر من الأمور. لكنّ هذا التقدير لايستحلّ حُرمة العلوم، ولايبطل قانون الأخذ بالأسباب، بل إنّ كل مايحدث هو حالة تيسير أو حالة تعسير. فما كان مقدّراً تتيسّر أسبابه، وماكان غير مقدر تتعسّر أسبابهُ بشكلٍ ملحوظ. فإن بدت حالة التيسير، يُلاحظ المرء أنّ الدّواء يترك أثره الشّافي السّريعَ على المريض، ونفس هذه الحالة تبدو في حالات الأدعية أيضاً، حيث يُلاحظ الدّاعي تجمّع أسباب قبوليّة الدّعاء، يحدث هذا في حالة موافقة هذا الدّعاء لمشيئة الله الأحد الفعّال لما يريد. أي أنّ سلسلة الأسباب المادّية والرّوحية مرتبطة بمشيئة الله عزوجل، لذلك كان من الواجب الحذر وعدم انكار وجود هذين القانونين المادّي والرّوحي.

وسبق لي أن نبّهت سابقاً إلى أنّ تكلّم الله مع البشر من وراء حجاب هو الطّريق الأقدم والأمثل لملاءمته لمستوى عقل هذا لإنسان، وقد ساعد ذلك البشر في بداية زمانٍ وجودهم على تلقّي كلام ربّهم من وراء حجاب، كما ساعدهم ذلك على تلقّي نور الهداية التي كانت تقتضيها مراحل تطوّرهم عبر الزّمان إلى أن بعث الله تعالى آدم عليه السّلام، فنقل البشر من حياة الكهوف إلى حياة السّهول وعلّمهم بدايات الحياة الاجتماعيّة والاقتصاديّة والسيّاسيّة.

وقد جعل الله عزوجلّ لكلامه من وراء حجاب علاماتٍ يتميّز بها عن أضغاث الأحلام التي يأتي بثّها من جهاتٍ عديدة، ويتمثّلها عقل الإنسان وإراداته في حالة النّوم أيضاً، أي أنّ للرّؤى الصّادقة من التأثير الواضح على صاحب الرؤيا، مالا يكون لرؤى أضغاث الأحلام، وهذه هي حكمة ماقصّه القرآن الكريم علينا ممّا رآه ملك مصر في منامه، فالملك تأثّر برؤياه إلى درجة دفعته ليسأل تأويلها من جميع أركان دولته، ففي سورة يوسف: ﴿**وقال الملك إنّي أرى سبع بقراتٍ سِمانٍ يأكُلهنّ سبعٌ عجاف، وسبعَ سنبلاتٍ خُضرٍ وأُخر يابسات، ياأيّها الملأ أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تَعْبُرون. قالوا أضغاث أحلام، ومانحن بتأويل الأحلام بعالمين**﴾. فلولا شدّة تأثير هذه الرؤيا الصّادقة على ملك مصر والتي تمثّل كلام الله تعالى إليه من وراء حجاب، فما كان ليندفع هذا الإندفاع ويطلب من أركان حكومته الطّلب المذكور، وإلى جانب ذلك فقد عجز جميع أركان هذا الملك عن تأويل هذا التمثّل الذي تمثّلته تجليّات أسماء الله الحسنى من وراء حجاب.

ولم يؤت تأويل كلام الله يومئذٍ إلاّ يوسف عليه السّلام، الذي أوّله وقال: ﴿**قال تزرعون سبع سنين دأباً، فما حصدتم فذروه في سُنبله إلاّ قليلاً ممّا تأكلون، ثم يأتي بعد ذلك سبعٌ شدادٌ يأكُلن ماقدّمتم لهُنّ إلاّ قليلاً ممّا تُحصنون، ثم يأتي من بعد ذلك عامٌ فيه يُغاثُ النّاس وفيه يعصرون**﴾. وقد تطوّرت الأمور وفق ماأوّله يوسف عليه السّلام.

فكلام الله تعالى من وراء حجاب غير مرتبط بالنّبوّة ومقامها، وإلاّ فكيف حدث لملك مصر أن رآى مثل هذه الرؤيا الصادقة العظيمة؟ فكلام الله يرد من طرف تجليّات أسمائه الحسنى إلى البشر بصورة عامة، على اعتبار أنّه جلّ شأنه هو ربّ النّاس قاطبة، وليس ربّ المؤمنين وحدهم، فلو كان الذين يزعمون انقطاع

نزول وحي الله تعالى من بعد إنزال هذا القرآن، لو كانوا مُحيطين علماً بالحقيقة التي ذكرتها، لردعتهم هذه الحقيقة عن زعمهم المذكور الذي قطعوا به أنفسهم عن خالقهم، فماتوا روحانيّاً، وجفّت بالتالي عقولُهُم، وابتُلوا بعمى البصيرة، وأساؤوا سُمعة هذا الدّين الذي ينبض بالحياة.

فالله عزوجلّ لم يقلْ في الآية (٥١)من سورة الشورى «وماكان لنبيّ» بل قال «وماكان لبشرٍ أن يكلّمه الله».. وتبعاً لذلك فالله تعالى يكلّم البشر قبل إنزال القرآن الكريم، وبعد إنزاله هذا الكتاب العزيز، هذا ماتقتضيه صفة الربوبيّة العامّة والخاصة، فالله ربّ العالمين، بمعنى أنّ ربوبيّته تشمل جميع العوالم والجنّ والإنس، والله ربّ العالمين بمعنى أنّ ربوبيّته تشمل كل إنسان بشر في هذا الوجود، سواء أكان هذا الإنسان مسلماً أو كان غير مسلم، فالجميع عباد الله عزوجلّ، وتتجلّى هذه الربوبيّة على المؤمن بالبشارات على حين تتجلّى فتنذر غير المؤمنين.

وأنا إذ أقول بعدم انقطاع الله تعالى عن التكلّم مع عباده بعد نزول هذا القرآن العظيم، أقدّم تجاربي الشّخصية وتجارب أصدقائي الرّوحانيين دليلاً عمليّاً وحسّياً كدليلٍ ايجابي يثبت منه مُدّعاي، أمّا الذين يزعمون انقطاع الوحي فلا يملكون مانملكُ من تجارب حسّية ومشاهدات، فهل يستوي الأعمى والبصير؟ كلاّ لايستويان فنحن نمثل طرفاً موجباً، وهؤلاء يمثلون طرفاً سالباً في هذا الأمر الدّيني.

ألا إنّ حياة الإسلام مرتبطةٌ موضوعياً بهذه الحياة الرّوحية، على شاكلة الأرض فإن حياتها مرتبطةٌ بماء السّماء. فهذا ماءٌ روحانيٌّ سماويٌّ وذاك ماءٌ مادّيٌّ سماويٌّ. وهو مرتبطٌ أولاً وأخيراً، بأعمال المؤمنين، وإصلاح الأرض وتهيئتها لتلقّي ماء الحياة .



أسماء الله الحسنى

الملك ﷻ
القُدّوس ﷻ
السلام ﷻ
المؤمن ﷻ
المُهيمن ﷻ
العزيز ﷻ
الجبّار ﷻ
المُتكبّر ﷻ
الخالق ﷻ
البارئ ﷻ
المُصوّر ﷻ
الغفّار ﷻ
القهّار ﷻ
الوهّاب ﷻ
الرزّاق ﷻ
الفتّاح ﷻ
العليم ﷻ
القابض ﷻ
الباسط ﷻ
الخافض ﷻ
الرّافع ﷻ
المُعز ﷻ
المُذلّ ﷻ
السميع ﷻ
البصير ﷻ
الحَكَمْ ﷻ
العَدْل ﷻ
صادق الوعد ﷻ
اللّطيف ﷻ
الخبير ﷻ
الحليم ﷻ
العظيم ﷻ
الغفور ﷻ
الشكور ﷻ
العليّ ﷻ
الكبير ﷻ
الحفيظ ﷻ
المُقيت ﷻ
الحسيب ﷻ
الجليل ﷻ
الكريم ﷻ
الرقيب ﷻ
المُجيب ﷻ
الواسع ﷻ
الحكيم ﷻ
الودود ﷻ
المجيد ﷻ
الباعث ﷻ
الشهيد ﷻ
الحقّ ﷻ
الوكيل ﷻ
القويّ ﷻ
المتين ﷻ
الوليّ ﷻ
الحميد ﷻ
المُحصي ﷻ
المُبدئ ﷻ
المُعيد ﷻ
المُحيي ﷻ
المُميت ﷻ
الحيّ ﷻ
القيّوم ﷻ
الواجد ﷻ
الماجد ﷻ
القادر ﷻ
المُقتدر ﷻ
المُقدّم ﷻ
المُؤخّر ﷻ
الأول ﷻ
الآخر ﷻ
الظّاهر ﷻ
الباطن ﷻ
الوالي ﷻ
المُتعالي ﷻ
البرّ ﷻ
التّواب ﷻ
المُنعم ﷻ
المُنتقم ﷻ
العفوّ ﷻ
الرّؤوف ﷻ
مالك الملك ﷻ
ذي الجلال والإكرام ﷻ
المُقسط ﷻ
الجامع ﷻ
الغنيّ ﷻ
المُغني ﷻ
المانع ﷻ
الضّار ﷻ
النافع ﷻ
النور ﷻ
الهادي ﷻ
البديع ﷻ
الباقي ﷻ
الوارث ﷻ
الرّشيد ﷻ
الصّبور ﷻ
ذو العرش ﷻ
ذو الوقار ﷻ
المتكلّم ﷻ
الشّافي ﷻ
الكافي ﷻ
الفاطر ﷻ
الأحد ﷻ
الصّمد ﷻ

الصّفات الرئيسيّة الجامعة في سورة الفاتحة
وهي خلاصة أسماء الله الحسنى المختصّة بالمخلوقات

ربّ العالمين ﷻ : معناه الخالق ويُنشئ المخلوق ويُطوّره ويُرقّيه من أدنى حالة إلى أعلاها .

الرّحمن ﷻ : معناه أنّه تعالى مصدر كلّ عطاء ، فهو الذي خلق كلّ شيء من لدنه ، وهو الذي أعان كل شيء على التطوّر من لدنه ، ورزقهم ورحمهم من لدنه.

الرحيم ﷻ: معناه أنّه تعالى قد كتب على نفسه أن يهب حياة الخلود كلّ مالكٍ للعقل والإرادة ينتهج التقوى مسلكاً بعيداً عن الرّذيلة والشّر بإرادة وتصميم .

مالك يوم الدّين ﷻ : معناه أنّه تعالى ينتهي إليه كلّ شيء ، ويعود الحكم الأخير له ، ويشفع بين يديه مَن أذن له الرّحمن.

الفهـــرس

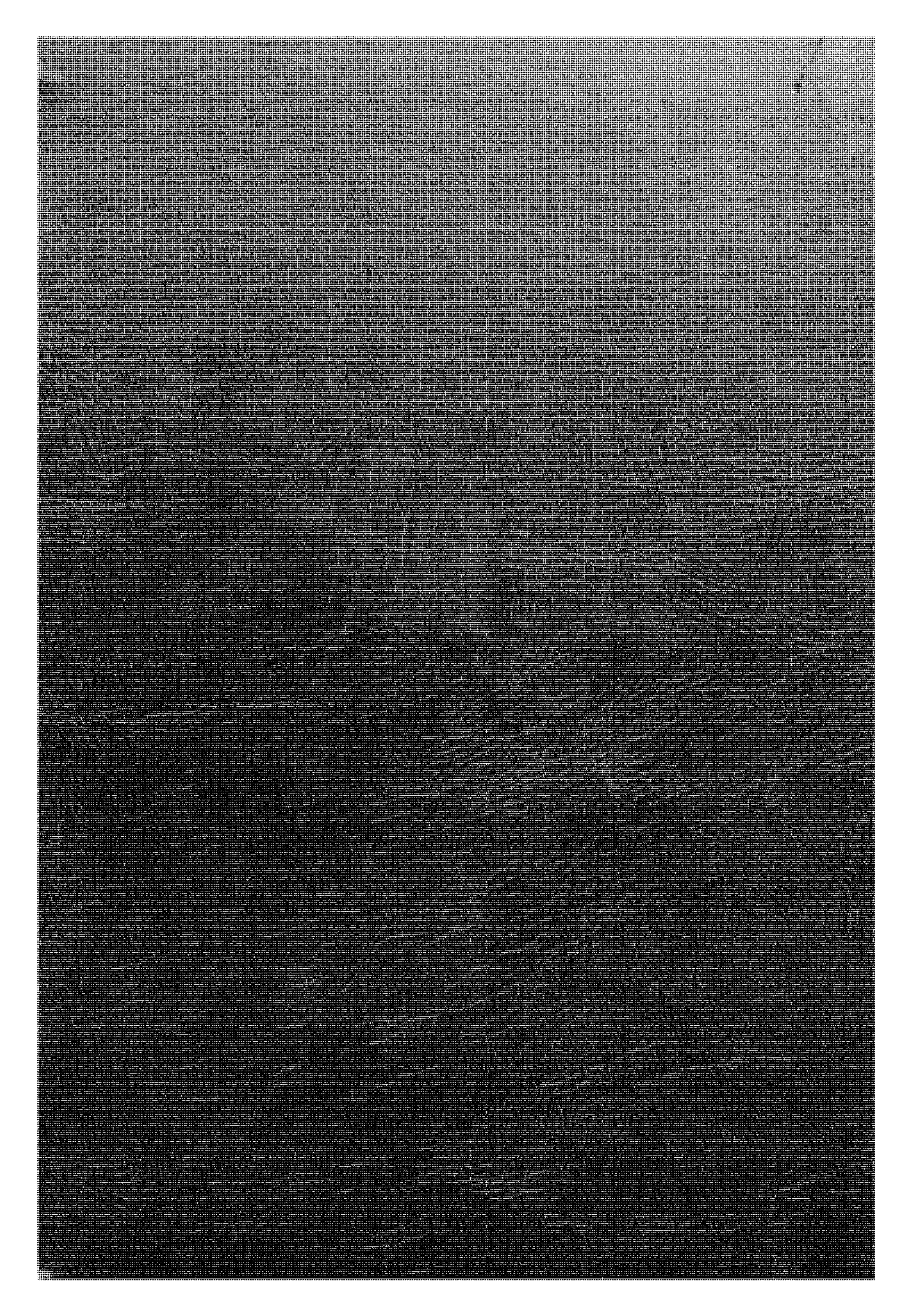
المبحث الثاني

الباب الثالث

الفصل الأول

الباب الرابع

الباب الأول



بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

من المعلوم تاريخيّاً أنّه كـان لكتـاب ا لله نـزولان وأنّ دعـوة الإسلام قد مرّرها ا لله عزّ وجلّ بدورين ، قبل أن يُكمل مُحمّد بن عبد ا لله ﷺ تبليغها للنّـاس . فقـد قـدّر تعـالى أن يـرى النّاسُ وجـه الإسلام وهو في دوره المكّي تابعاً لحكومـةِ قريش الجاهلّيـة . كمـا قدّر تعالى أن يرى العالم هذا الوجـه الإسـلاميّ ، وفي أيـدي أتباعـه زمام الحكم ، وله السّيادة ، وهـو في دوره في المدينـة المنـوّرة بعـد الهجرة إليها إثر تقبُّل أهلُهـا الإسـلام دينـاً . ولايُعقـل أن يُقـدّر ا لله الحكيم الخبير كلّ ذلك دون حكمةٍ بالغةٍ وهو علاّم الغيوب .

ولطالما فكّـرت في هـذا الأمـر مليـاً . وقـد لفـت نظـري أنّ الدّور المكّي أثبت خلاله كلُّ مَنْ آمن ثباتاً علـى العقيـدة ، وتقديمـاً لكلّ تضحيةٍ مطلوبـةٍ منـه ، فلـم تحـدث ظـاهرةُ ارتـدادٍ ولاظـاهرةُ نفاق. على حين أنّه قد ظهرت في الدّور المدنيّ طبقـةٌ مـن المنـافقين وهي في لباس إسلامي .

كما لفـت نظـري أيضـاً أنّ ماأنزلـه ا لله العزيـز مـن سـور في مكّـة المكرّمة كانت مضامينها لاتتناول ماأنزله تعالى في المدينة المنوَّرة مـن مضامين . ولاشكّ أنّ مثل هذا التّصـرف لايخلـو أيضـاً مـن حكمـةٍ تُلفت نظر المُتدبّرين .

والنّتيجة التي استقيتها من ذلك كلّه ، والتي توصّلت إليها ، هو أنّ الله عزّ وجلّ قد أراد إعطاء درسٍ عظيمٍ للّذين يرفعون شعاراً في زماننا من أنّ الإسلامَ دينٌ ودولةٌ ويسعون لاستعادة مجد الإسلام وهو أن يتذكّروا هذين الدّورين المكّي والمدنيّ ، وملامحهما التي ذكرناها ، ليُدركوا من خلال ذلك أنّ الدّين الإسلامي الحنيف يشكّل في حقيقة أمره كياناً له استقلاليّته . وأنّه مخلوق ومُصاغ من جسدٍ وروح . فالإسلام كدينٍ يُمثّله الدّور المكّي والإسلام كدولةٍ يمثّله الدّور المدنيّ . بمعنى أنّ التّعاليم التي كان الله تعالى قد أنزلها في مكّة هي بمثابة الرّوح لكيان الإسلام . وأنّ التّعاليم التي أُنزلت في المدينة هي بمثابة الجسد لكيان الإسلام . وإنّه لشيءٌ بديهيٌّ أنْ لاقيمة لجسدٍ بدون روح . فلو وعى هؤلاء الّذين يرفعون الشّعار المذكور ويسعون لاستعادة مجد الإسلام هذا الدّرس العظيم وتلك الحقيقة ، لاحتذوا حذو مافعله ربّهم عزّ وجلّ ، ولكانوا سعوا لإحياء تعاليم هذه الرّوح ووفق مشيئة ربّهم ، وليس وفق ماشاؤوه.

وبناءً عليه كان لزاماً عليّ أن أؤلف "سفراً" أي كتاباً كبيراً يُعين المسلمَ البعيد عن العقل التّقليدي على تبيُّن ملامح تلك الرّوح الإسلاميّة التي نفخها محمد خاتم النّبيّين ﷺ في أصحابه في مكّة المكرّمة ، حتى إذا عاد بإمكانهم حمل مِشعل الإسلام وتقلُّد زمام الأمور إذا ما سعى الحُكم إليهم بتقدير من ربِّ العالمين .

وأقدمت على هذه الخطوة المباركة ، من بعد أن تبيَّن لي خُلوُّ مكتباتنا من كتابٍ مماثلٍ ينظر مؤلّفه بنفس المنظار الذي عاد طوع بناني . والحقُّ أنني وجدّت تأييداً كبيراً من جانب ربّي على هذا الطّريق السّويّ.

وبهذه المناسبة أقول : إنني وقد سبق لي أن تصدّيت للقـراءة المعاصرة التي طلع بها الدكتور محمد شحرور علـى قُرّائـه قبـل عـدّة سنوات . وكـان ينبغـي أن يقـترن ردّي في ذاك الوقـت بمثـل هـذا الكتاب ومن بـاب أنّ تلـك القـراءة المعـاصرة قـد خلـت مـن هـذه الرّوح . لكنّ الّذي حدث أنّي كنت ملتزماً بنهـجٍ واضـح المعـالم ، سرتُ عليه إلى آخر هذا الرّد . وانتهيت منه وأنا على مضضٍ وتحفّزٍ لكتابة هذا "السّفر" الغنيّ بالمعلومات ، والـذي كـان مـن المستحيل إنجازه في وقتٍ قصير ، فاكتفيت وقتئذٍ بإبراز معالم ماقام به المذكور من عمليّات تمزيقٍ وتقزيمٍ لكتاب الله ، وإسقاطٍ لأفكار الماركسـيّة على آياته عن قصدٍ وعن غير قصد . الأمر الذي أغضب الله تعـالى الذي كان أنزل هذا الذّكر ووعد بالمحافظة عليه .

ألا لاينبغي لأحدٍ أن يغرب عن ذهنه ،بعـد الـذي ذكرتـه ، أنّ الله عزّ وجلّ كان غرضه الأساسيّ من إنزال كتابه العزيز ، هـو لتعريف عباده على نفسه ،ليتبيّـوا وجـه ربّهـم الـذي لاإلـه إلا هـو، فيتبيّـوا وجـه جمالـه ووجـه جلالـه وحُسـنه وإحسـانه، لينجـذب الطّالبون إليه فيطلبوا محبّته وقُربه ورضوانه ،ولتتوطّـد اللّحمـة مـابين العبد وربّه ويصبح من عابديه الحقيقيّين . وليبوء الفاسق بشرّ أعماله ويستحقّ العقاب.

لذلـك أدعـو إلهنـا المحبـوب أن يتقبّـل مـاأقوم بـه ، وليحقّـق مابشّرني به على طريق هذا المسعى ، وإنّه ذو الفضل العظيم . وأنـا في السّبعين من عُمـري ،ولاحـول ولاقـوّة لي إلا بمـا أيّدنـي بـه مـن لدنه.

وليعلم القارئ العزيز أنّي التزمت خلال تـأليفي هـذا السِفر المبارك بمنهجٍ ماحُدْتُ عنه يتحدّد في الأمور التالية :

أولاً : قررت ألا أستقي معلومات هذا الكتاب إلا من ضمن النصّوص القرآنيّة نفسها ،وليس من القيل والقال.

ثانياً : وأن ألتزم بأصول تفسير القرآن الكريم ، ووفق معطيات مفرداته وتراكيبه وذلك بالرّجوع إلى مابلغنا من معاجم اللّغويّين العرب .

ثالثاً : وأن أقلّل من الاستشهاد والاستدلال بالأقوال من خارج هذا القرآن العظيم، إلا بمايفيد توثيق مصداقيّته .

رابعاً : وأن أتجنّب العقليّة التقليديّة مااستطعت ، ولأكتب بأسلوبٍ علميٍ معاصر.

وانطلاقاً من هذا المنهج المذكور ،فقد رُحت ، وأنا أبرز معالم روح التّعاليم الإسلاميّة الحنيفيّة ، فقسّمت المواضيع إلى ثلاثة بحوث. ففي المبحث الأوّل ألقيت الضّوء على مصداقيّة وجود ذات الله عزّوجل ومصداقيّة كتابه العزيز . وفي المبحث الثّاني تكلّمت عن أهمّ مايساعد المسلم ليتعرّف إلى ربّه عزّوجلّ ، وليساعده على الفوز بمحبّته وقُربه ورضوانه . وفي المبحث الثالث ألقيت الضّوء على تاريخ اتّصال الله تعالى بمخلوقاته. هذا الاتصال الذي حدّده القرآن العظيم ، والذي لن ينقطع في يومٍ من الأيّام .

علماً بأنّي قسّمت المبحث الأوّل إلى أربعة أبواب . وقد تضمّن **الباب الأوّل** فصولاً ثلاثةً اشتملت على ماللعقل والفكر من منزلةٍ في كتاب الله العزيز ، وعلى أنّ الوحي قديمٌ ، وقد ناقشت ماوضعوا بصدده من نظريات . كما وضّحت مافي التّوراة والإنجيل المُعاصرين من تحريفات ، الأمر الذي يُسقطهما من الميزان ، فلايُعدّان مرجعاً موثوقاً.

وقد تضمّن **الباب الثاني** أربعة فصول دارت مضامينها حول إثبات مصداقيّة القرآن الكريم كمرجعٍ موثوق للمحقّقين.

أمّا **الباب الثّالث** فقد تضمّن خمسة فصول دارت مضامينها جميعها حول وجود الله عزّوجلّ ، وعلى أدلّة وجوده ، وعلى المنهج القرآنيّ في هذا الخصوص . علماً بأنّي استقيت الأدلة من القرآن الكريم نفسه ، مُتجاوزاً في ذلك الأسلوب التقليديّ المعروف.

وأمّا **الباب الرّابع** فقد اشتمل على فصلين اثنين . فبحثت في الفصل الأوّل فيهما موضوع الشّرك الخفيّ خاصّة ، ومايمتّ إلى هذا الشرك الخفيّ من أمور .

وعلى هذه الشاكلة فقد قسّمت المبحث الثاني إلى أربعة أبواب . **فالباب الأول** منها اشتمل على فصلين . وقد تضمّن الفصل الثاني قوانين المحبة الإلهّية ، ومقاماتها المختلفة.

وأما **الباب الثاني** من تلك الأبواب فقد اشتمل على ثلاثة فصول . وقد بحثت في الفصل الأوّل منها الآثار الرّوحيّة التي تتأتّى عن العبادات . وبحثت في الفصل الثاني منها كيفيّة تحصيل المحبّة الإلهّية وكسبها. وبحثت في الفصل الثالث مراحل السير الرّوحاني التي يقطعها السالك على طريق التّعرّف إلى ربّه عزّوجلّ والوسائل العائدة إليها.

وأما **الباب الثالث** من تلك الأبواب فقد اشتمل على فصلين اثنين بحثتُ في الفصل الأوّل منهما موضوع الذكر الإلهي الذي يتطلبه السّير الرّوحاني : تعريفه، فلسفته ،وأشكاله وكيفيّته.

وبحثتُ في الفصل الثاني منهما البركات والثّمار الرّوحيّة التي تنجم عن الذّكر الإلهيّ بالدّعاء.

وأمّا **الباب الرابع** من تلك الأبواب فقد اشتمل على ثلاثة فصول . وقد عدّدت في الفصل الأوّل من هذه الفصول تلك الصّفات الذميمة التي تحول دون العبد ودون فوزه بمحبّة ربّه عزّوجلّ . كذلك عدّدت في الفصل الثاني من هذه الفصول تلك الصّفات الحسنة التي إذا ماتحلّى بها العبد السّالك درب عرفان ربّه ، تجذب محبّة ربّه عزّوجلّ إليه ، ويفوز بالتالي بمحبّة خالقه وقربه ورضوانه. وقد خصّصت الفصل الثالث من هذه الفصول للكلام عن حُسن الله وإحسانه وجماله وجلاله.

وأخيراً فقد خصّصت المبحث الثالث للكلام عن موضوع الإتّصال با لله تعالى. وقسّمته إلى ثلاثة أبواب :

فالباب **الأوّل** من هذه الأبواب اشتمل على ثلاثة فصول . وقد بحثت في الفصل الأوّل من هذه الفصول إمكانيّة الاتّصال با لله جلّ شأنه . وبحثت في الفصل الثاني من هذه الفصول أسماء الذّات الإلهيّة الحُسنى ،ومضامينها ، وتجلّياتها. وبحثت في الفصل الثالث من هذه الفصول علاقة البشر بهذا الخالق العظيم قبل آدم عليه السّلام وبعده.

وأما **الباب الثاني** من تلك الأبواب فقد اشتمل على فصلين اثنين . بحثت في الفصل الأول منهما ماواجه المفسّرين من إشكالات بمايتعلّق بموضوع آدم عليه السّلام ،وبخصوص جنّته التي أسكنه ربّه عزّوجلّ فيها ، وكونه أوّل رسول بعثه الله تعالى لنقل البشر نقلةً نوعيّة. وبحثت في الفصل الثاني منهما حقيقة قصّة آدم

عليه السلام الوارد ذكرها في القرآن الكريم ، والمقاصد الهامّة المرجوّة من ذكرها.

وأمّا **الباب الثالث** من تلك الأبواب فقد اشتمل على ستّة فصول . تناولت في التلخيص في الفصل الأوّل من هذه الفصول ، تلك الحركات المادّية التي أعقبت بعثة آدم عليه السّلام . واستعرضت في الفصل الثاني من هذه الفصول حقيقة النقلة النوعيّة التي أسفرت عن بعثة آدم عليه السّلام في حياة الجنس البشري.وألقيت الضوء في الفصل الثالث على كيفيّة بروز روح الشّرك با لله تعالى من بعد بعثة آدم عليه السّلام ، ومراحل تطوّر الشّرك إلى نوعين : شركٌ جليٌ وشركٌ خفيٌ . وتناولت في الفصل الرابع من هذه الفصول الكلام عمّا أحدثه ا لله عزّوجلّ في الأرضِ من انقلاباتٍ روحيّةٍ أعقبت بعثة آدم عليه السّلام لمعالجة أنواع الشّرك التي ذكرناها ،ولترسيخ جذور توحيد الذّات الإلهيّة في نفوس البشر ، وأعلامها ورموزها. وتكلّمت في الفصل الخامس من هذه الفصول عمّا يُحدثه ا لله تعالى في وقتنا الحاضر من انقلابٍ روحيّ. وأما الفصل السادس والأخير من هذه الفصول فقد خصّصته للكلام عن موضوع إمكانيّة اتّصال البشر على الدّوام بخالقهم، ومنهجيّته، وطرقه ، ودوامه ، وعلاقته بحقيقة الدّعاء بين يديّ ا لله عزّوجلّ .

وأتوجّه بعد هذا الذي شرحته لأقول لقارئ هذا "السّفر" الغنيّ بالمعلومات ، أن يُطالع مضامينه بإمعان وتدبُّرٍ لينظر ويتحسّس ماعلق في نفسه من أثرٍ محسوس يتحسّسهُ في نفسه . فإن تراءت لأعينه من خلاله معالمُ الرّوح الدّينيّة التي اشتمل عليها الإسلام الحنيف، والتي سبق أن ذكرت وقلت أنّ ماعدا هذه الرّوح الدّينيّة من تعاليم سياسيّة واقتصاديّة وغيرها إنما أُنزلت من لَدُنِّ ا لله تعالى

لتشكّل جَسَدَ هذا الدّين الحنيف . فإن تراءى لهذا القارئ مصداقيّة ماذكرت ، فليُطالع بعده "القراءة المعاصرة" التي تباهى بها الدكتور محمد شحرور ، ولينظر كيف أنّه من خلالها قد أفرغ الإسلام من هذه الرّوح الدينيّة ، ليُسخّره لصالح ماأسقطه من آراء ماركسيّة على آيات هذا الكتاب المقدّس والمبارك والمتّصف بالنّماء والدّوام.

وبكلمة مختصرة أخيرة أقول : إنّ المسلم المثقّف ، إذا ابتعد عن فهم روح هذه التعاليم التي تناولتها في هذا الكتاب الكبير ، فكراً وسلوكاً ، يكون كالذي يُفرِغُ إسلامه من روحه التي كان قد نفخها محمد خاتم النبيين ﷺ في أصحابه في مكّة المكرّمة . عن تلك الرّوح التي منحتهم ديناميكيّة سادوا من جرّائها على كلّ من واجههم ، وفي كلّ مكان وزمان .

ولا يظنّن ظانٌّ أنّي أدفع بالقارئ ليصبح متصوّفاً ، وليبتعد عن مجال خدمة أمّته ووطنه. كلا ، بل أدفعه ليتسلّح بهذه الرّوح الدينيّة الإسلاميّة التي لولاها مااستطاع محمد عليه السلام توحيد أفئدة أمّته بالرّغم من تفرّقها وتشرذمها في زمانه ، والتي لولاها ماكان باستطاعة أصحابه رضوان الله عليهم من إنجاز ماأنجزوه من بعده.

فالإنسان المسلم إذا كان مهتمّاً أن ينقل أمّته إلى مصّاف الدّول المتقدّمة علميّاً وتقنيّاً ، وفي وقت لايكون فيه متقمّصاً هذه الرّوح الدينيّة الإسلاميّة كما وضّحتها فكراً وعملاً ، ويدأب على التفكير بأسلوب التّفكير المادّيّ ، بعيداً عنها ، وهو يضعُ جُبّة الإسلام على كتفيه ، فإنّي لعلى يقين تامٌ أنّه لن يُفلح فيما هو ساعٍ إليه ، وسيكون مصيره إلى الخيبة والفشل الذّريع . من منطلق أنّه لايصلُح آخر هذه الأمّة إلا بما صَلُحَ به أوّلها.

ولا ينبغي لأحدٍ أن ينسى أو يتناسى أنّ الله الذي كان ومايزال يسمع ويرى مايجري على هذه الأرض ، يسمع ويرى في أيامنا هذه مايكيده الظّالمون للقضاء على دينه الحنيف . وكان قد أنبأ قبل أربعة عشر قرناً عن ذلك كلّه في أكثر من سورةٍ من سور كتابه العزيز وكنت قد كشفت الغطاء عن تلك الأنباء الرّهيبة في مؤلفي "فن الاختزال في القرآن الكريم" وغيره من المؤلّفات ، من أنّه سيهلك هؤلاء الظّالمين . وهاأنّي وضّحت لهذا القارئ البعيد عن العقل التقليديّ في هذا "السفر" الذي هو بين يديه معالم الانقلاب الرّوحي الذي ابتدأه الله عزّ وجلّ في عصرنا الحاضر . وهو الانقلاب الرّوحي الذي ستمتدّ آثاره المستقبليّة ألوف السنوات إنشاء الله العزيز . وهل يتناسى هذا القارئ المسلم وعد ربّه الذي بشّر فيه وقال : ﴿ **والعاقبةُ للمتّقين** ﴾ ؟ فعش رجباً ترى عجباً .

وأخيراً أحمد الله الذي له الأسماء الحُسنى والذي لا شريك له في مُلكه ، أنّه أعانني على كتابة هذه المقدّمة التي قدّمت بها لهذا السّفر الغنيّ بالمعلومات التي تُبرز روح تعاليم هذا الدّين الحنيف إلى الوجود ، وعلى الانتهاء من كتابتها ليلة ذكرى مولد محمد بن عبد الله نبيّ الإسلام وخاتم النبيّين . اللهم صلِّ على هذا الرّسول الصادق الأمين كلّما طلعت على هذا الكون من حولنا شمسٌ وكلما غربت ، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين .

١٢ ربيع الأوّل ١٤١٩هـ الموافق ٦ تموز ١٩٩٨

سليم الجابي